

جوهرة خط العرب

في عصور العرب في الزاهرة

الجزء الأول

العصر الحجري
عصر صدر الإسلام

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم على ما أوليتني من نعمك السابقة ، وآلائك الضافية ، وأصلى وأسلم على رسولك المجتبي ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فلا مراء أن خطب العرب في عصور ازدهار اللغة مرآة يتجلى فيها ما جباهم الله من ذلاقة اللسان ، وعذوبة البيان ، ومعرض يتمثل فيه نتاج قرائحهم ، وثمرات ألبابهم ، في كثير من مناحي القول ، وإنما لتعدّ - بعد القرآن الكريم والحديث الشريف - مثالا ساميا للبلاغة العربية ، ونموذجا قويمًا يحتذيه المتأدب في تقويم قلمه المعوج ، وشحن لسانه الكليل ، وهي فوق ذلك ممين فيأض يستقى منه مؤرخ الأدب العربي ما يعين له من آراء ، ومادة غزيرة يستنبط منها ما يقفه عليه البحث من فكر .

وقد نظرت فوجدت تلك الخطب مبعثرة منشورة في كتب الأدب والتاريخ ، لا يؤلف بينها نظام ، ولا يضم أشتاتها كتاب ، فإذا ما شئت أن تتعرف صورة الخطابة في عصر

من المصور ، أو ترجم نخطيب من خطباء العربية ، ألفت الطريق أمامك وعرة شائكة ، وأنفتت وقتنا مديداً في التنقيب عن خطبه في بطون الأسفار ، بله ما يعترضك من مشاق في تحرير ألفاظها ، وتحقيق عباراتها ، لما نالها من عبث النساخ والطباع ، من التصحيف والتحريف الذي ينبهم معه معناها ، ويستغلق به تفهمها .

كل أولئك حدّا بي أن أعبد السبيل لشدة الأدب العربي إلى ذلك التراث النفيس ، الذي يتوقون إلى الارتواء من مناهله العذبة ، فلا يكادون يسيغونها ، ويصبون إلى اجتناء ثماره الشهية ، فتحول دونها الأشواك ، وفيهم من درس اللغات الإفرنجية ، وتزود من أفكار الغربيين وآرائهم بقسط وفير ، ولكنه تعوزه جزالة اللفظ ، ورصانة الأسلوب .

استخرت الله ، فجمعت كل ما أثر عن العرب في عصور العربية الزاهرة ، من خطب ووصايا من مظانها - على قدر ما هداني إليه اطلاعي - وضمنت إليها ما دار في مجالس الملوك والخلفاء والرؤساء ، من حوار ومجاوبة ، أو جدال ومناظرة ، مما يدخل في باب الخطب ، وينتظم في سلكها ، وأودعتها ذلك السفر كي يكون لها ديوانا جامعا ، ومرجعا عاما ، يسهل مراجعتها فيه ، وسميته : جهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة .

وبوّته أربعة أبواب في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : ويحوى الباب الأول في خطب الجاهلية ، والباب الثاني في خطب صدر الإسلام .

الجزء الثاني : ويحوى الباب الثالث : في خطب العصر الأموي .

الجزء الثالث : ويحوى الباب الرابع : في خطب العصر العباسي الأول ، وذيل الجهرة ، في خطب متفرقة .

وإذ كان الشريف الرضى رحمه الله قد أفرد خطب الإمام على كرم الله وجهه بمؤلف خاص ، وهو : « نهج البلاغة » والإمام أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ، قد جمع في مؤلفه : « بلاغات النساء » طائفة قيِّمة من كلام بليغات النساء ، وطرائف أقوالهن . رأيت أن نقل ما ورد في هذين السفرين الجليلين بحذاء غيره ، ليس على الحقيقة إلا ضمهما إلى كتابي ، وتضخيمه بهما ، ولذلك اجتزأت بإيراد جملة صالحة مما جاء فيهما ، مما استدعاه المقام .

ولم أقصر على إيراد الخطبة بإحدى الروايات الواردة فيها ، بل عُنيت بالتوفيق بين الروايات المختلفة ، وإتمام بعضها من بعض ، لما في ذلك من زيادة الفائدة للقارئ ، فإذا ما رأيت الخطبة مروية بصورتين يتبين فيهما الاختلاف ، أوردت الصورتين جميعاً .

وقد ضبطت ألفاظها ضبطاً وافياً ، وعقبت كل خطبة بذكر مصادرها التي نقلتها عنها ، كما ذيلتها بشرح يفسر غريب ألفاظها ، ويحلّ مستغلق كلماتها ، وأوردت فيه كل ما تمس إليه الحاجة في فهمها ، من نُبذ تاريخية توضح المقامات التي أقيت فيها ، إلى ما هنالك .

ولست أستطيع أن أصور للقارئ مقدار ما عانيت من المتاعب في ردّ كثير من الألفاظ إلى أصولها الصحيحة ، بعد تقليبها على كل وجه ممكن ، حتى تخلص من شوائب التشويه الشائن ، الفاشي في كتب الأدب والتاريخ .

وإني أقدم كتابي هذا إلى أبناء العربية الشريفة ، وفاء بما لها في عنقي من حق واجب ، وصنيعة مشكورة ، وافه أسأل أن يجعله خالصاً لوجه الكريم ، وأن ينفع به النفع المرجو منه ، وأن يمدني بروح منه ؛ ويظلني بظلال الصحة

والعافية ، حتى أصدر ما اعتزمت إصداره بعد تمام هذا الكتاب إن شاء الله ،
وهو كتاب : « جبهة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة »

كي تكمل حلقة النثر العربي في تلك العصور ، إنه المستعان ، عليه توكلت
وإليه أنيب .

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في { ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ هـ
يوليو سنة ١٩٣٣ هـ



فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى لأبي عليّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى لأبي الفرج الأصبهانى : « الرابع - السابع - الثامن - الحادى عشر - الرابع عشر - الخامس عشر
- صبح الأعشى لأبي العباس القلقشندى : الجزء الأول - الثانى
- نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى : « الثالث - الخامس - السابع
- عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل لأبي العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- العقد الفريد لابن عبد ربه : « « - الثانى - الثالث
- زهر الآداب لأبي إسحق الحضرى : « «
- البيان والتبيين للجاحظ : « « - الثانى - الثالث
- نهج البلاغة للشريف الرضى : « «
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول - الثانى
- مجمع الأمثال لأبي الفضل الميدانى : « « - «
- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري : « « - «
- خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى : « «

- تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر : الجزء الثاني - الثالث - الرابع - الخامس -
ابن جرير الطبري : السادس
تاريخ الكامل لابن الأثير : الجزء الأول - الثاني - الثالث
مروج الذهب للمسعودي : » » - الثاني
الإمامة والسياسة لابن قتيبة : » »
المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء : » »
معجم البلدان لياقوت الحموي : » الثامن
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام : » الأول - الثاني
السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبي : » »
إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني :
بلاغات النساء لابن أبي طاهر طيفور :
شرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون :
لابن نباتة المصري :
أبناء نجباء الأبناء لابن ظفر المسكي :
المحاسن والأضداد للجاحظ :
الشعر والشعراء لابن قتيبة :
شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون :
بلوغ الأرب للسيد محمود شكري : الجزء الأول - الثالث
الألوسي :
مفتاح الأفكار للشيخ أحمد مفتاح :

الباب الأول

الخطب والوصايا

في

العصر الجاهلي

الخطب

إصلاح مرثد الخير

بين سُبَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَبَيْنَ مَيْمَنِ بْنِ مَثُوبٍ

كان مرثد الخليل بن ينكف قتيلا ، وكان حدبًا على عشيرته ، محبًا لصلاحهم ، وكان سُبَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ (١) وميمم بن مَثُوبِ بْنِ ذِي رُعَيْنِ تنازعا الشرف ، حتى تشاحنا ، وخيف أن يقع بين حبيهما شر ، فبتفاني جذماهما (٢) ، فبعث إليهما مرثد ، فأحضرهما ليصلح بينهما ، فقال لهما :

(١) أخو علس ، وعلس هو ذو جدن .

(٢) الجذم : الأصل وكذا الجذر .

١ - مقال مرشد الخير

إِنَّ التَّخْبِطَ (١) وَأَمْتِطَاءَ الْمَجَاجِ (٢) ، وَأُسْتِحْقَابَ (٣) اللِّجَاجِ ، سَيَقْفُكُمَا
عَلَى شَفَا هُوَّةٍ ، فِي تَوَرُّدِهَا (٤) بَوَارِ الْأَصِيلَةِ (٥) ، وَانْقِطَاعِ الْوَسِيلَةِ ، فَتَلَاوِيَا أَمْرَكُمَا
قَبْلَ أَنْتِكَاثِ (٦) الْعَهْدِ ، وَانْحِلَالِ الْعَقْدِ ، وَتَشْتِثِ الْأَلْفَةَ ، وَتَبَايُنِ الشَّهْمَةِ (٧) ،
وَأَنْتُمَا فِي فُسْحَةِ رَافِهِهِ (٨) ، وَقَدَمِ وَاطِدَةٍ (٩) ، وَالْمَوَدَّةِ مُثْرِيَةٍ (١٠) ، وَالْبُقْيَا
مُعْرِضَةٍ (١١) ، فَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنْبَاءَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعَرَبِ : يَمْنُ عَصَى
النَّصِيحِ ، وَخَالَفَ الرَّشِيدَ ، وَأَضْفَى إِلَى التَّقَاطُعِ ، وَرَأَيْتُمْ مَا آَلَتْ إِلَيْهِ عَوَاقِبُ
سُوءِ سَعْيِهِمْ ، وَكَيْفَ كَانَ صَيُورُ (١٢) أُمُورِهِمْ ، فَتَلَاوَفُوا الْقَرْحَةَ (١٣) قَبْلَ
تَفَاقُمِ النَّاسِ (١٤) ، وَأَسْتَفْحَالَ (١٥) الدَّاءُ ، وَإِعْوَازِ الدَّوَاءِ ، فَإِنَّهُ إِذَا سَفِكَتِ
الدَّمَاءُ ، أَسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ ، وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ ، تَقَضَّبَتِ (١٦) عُرَى
الْإِبْقَاءِ ، وَشَمِلَ (١٧) الْبَلَاءُ .

- (١) التخبيط : ركوب الرجل رأسه في الشر خاصة ، أو السير على غير هدى . (٢) ركب فلان هجاج (غير مصروف) ، ووهاج مبنيا على الكسر : أى ركب رأسه . (٣) الاستحقاب : استعمال من الحقيبة أو من الحقاب ، فأما الحقيبة ، فأي يحمل الرجل فيه متاعه من خرج أو غيره ، والحقاب : يريم تشد به المرأة وسطها (واليريم خيط فيه لونان) ، وهذا مثل : إما أن يكون أراد أنه احتزم بالهجاج أو جملة في وعائه . (٤) التورود : الإشراف على المساء وغيره ، دخله أو لم يدخله . (٥) الأصل . (٦) انتقاض : (والأنكاث جمع نكث ، وهو مانقض من الحبال ليعاد ثانية) . (٧) القرابة . (٨) ناعمة من الرفاهية . (٩) ثابتة . (١٠) متصلة . (١١) ممكنة قد أمكنت من عرضها ، أى من جنبها وناحيتها ، يقال قد أعرض لك الظى فارمه ، أى أمكنتك من عرضه . (١٢) عاقبة . (١٣) الجرح . (١٤) السعى والمثاى : الإفساد والجراح والقتل ونحوه . (١٥) اشتداده ، وهو أن يصير مثل الفحل . (١٦) تقطعت . (١٧) من باب فرح ونصر .

٢ - مقال سبيع بن الحرث

فَقَالَ سَبِيعُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنَّ عَدَاوَةَ بَنِي الْعَلَاتِ ^(١) لَا تُبْرِئُهَا الْأَسَاءَةُ ^(٢) ، وَلَا تَشْفِيهَا
الرُّقَاةُ ، وَلَا تَسْتَقِيلُ ^(٣) بِهَا الْكُفَاةُ ، وَالْحَسَدُ الْكَامِنُ ، هُوَ الدَّاءُ الْبَاطِنُ ، وَقَدْ
عَلِمَ بَنُو آيِنَانَا هَوْلَاءُ ، أَنَا لَهُمْ رِدَاءُ ^(٤) إِذَا رَهَبُوا ، وَغَيْثٌ إِذَا أَجْدَبُوا ، وَعَصْدٌ
إِذَا حَارَبُوا ، وَمَفْرَعٌ إِذَا نُكِبُوا ، وَأَنَا وَإِيَّاهُمْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :
إِذَا مَا عَلَوْا قَالُوا أَبُوْنَا وَأُمَّنَا وَلَيْسَ لَهُمْ عَالِيْنَ أُمَّ وَلَا أَبُ

٣ - مقال ميثم بن مشوب

فَقَالَ مَيْثَمُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنَّ مَنْ نَفَسَ عَلَى ابْنِ أَبِيهِ الرَّعَامَةَ ، وَجَدَّ بِهِ ^(٥) فِي الْمَقَامَةِ ^(٦) ،
وَاسْتَكْتَرَ لَهُ قَلِيلَ الْكِرَامَةِ ، كَانَ قَرِيفًا ^(٧) بِالْمَلَامَةِ ، وَمَوْئِبًا عَلَى تَرْكِ الْأَسْتِقَامَةِ ،
وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْتَدُ لَهُمْ بِيَدٍ إِلَّا وَقَدْ نَاهَهُمْ مِنَّا كِفَاؤُهَا ، وَلَا نَذْكُرُ لَهُمْ حَسَنَةً
إِلَّا وَقَدْ تَطَلَّعَ مِنَّا إِلَيْهِمْ جَزَاؤُهَا ، وَلَا يَتَفَقَّأُ لَهُمْ عَلَيْنَا ظِلُّ نِعْمَةٍ إِلَّا وَقَدْ قُوبِلُوا
بِشَرِّهَا ^(٨) ، وَنَحْنُ بَنُو فَخْلِ مُقَرَّمٍ ^(٩) ، لَمْ نَقْعُدْ بِنَا الْأُمَهَاتُ وَلَا بِهِمْ ،
وَلَمْ نَنْزِعْنَا أَعْرَانُ الشُّوءِ وَلَا إِيَّاهُمْ ، فَعَلَامَ مَطَّ ^(١٠) الْخُلْدُودِ ، وَخَزَرُ الْعَيْونِ ^(١١)

(١) العلة: الضرة ، وبنو العلات بنو أمهات شتى من رجل واحد ، (والأخفاف : من أهمهم واحدة
والآباء شتى) . (٢) جمع آس ، وهو الطيب . (٣) تمض بها وتحملها . (٤) عون .
(٥) عابه . (٦) المجلس . (٧) خليقا . (٨) مثلها . (٩) القرم : السيد ، وأقرمه :
جملة قرما . (١٠) مد . (١١) الخزر أن ينظر الرجل إلى أحد عرضيه . يقال إنه ليشتاخزلى :
إذا نظر إليه بمؤخر عينه ولم يستقبله بنظره .

وَالْجَنيفُ^(١) وَالْتَصَعْرُ ، وَالْبَأُو وَالْتَكْبُرُ ؟ أَلِكَثْرَةِ عَدَدٍ ، أَمْ لِفِضْلِ جَلَدٍ ، أَمْ لِطَوْلِ
مُعْتَقَدٍ^(٢) ؟ وَإِنَّا وَإِيَّاهُمْ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

لَا هِ ابْنُ عَمِّكَ ، لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ عَنِّي ، وَلَا أَنْتَ دِيَانِي فَتَخْزُونِي^(٣)
وَمَقَاطِعُ الْأُمُورِ ثَلَاثَةٌ : حَرْبٌ مُبِيرَةٌ^(٤) ، أَوْ سَلْمٌ قَرِيرَةٌ ، أَوْ مُدَاجَاةٌ
وَعَفِيرَةٌ^(٥) .

ع - مقال مرثد الخير

فَقَالَ الْمَلِكُ :

لَا تُنْشِطُوا^(٦) عُقْلَ الشَّوَارِدِ ، وَلَا تُلْقِحُوا الْعُونَ الْقَوَاعِدَ^(٧) ، وَلَا تُؤَثِّرُوا^(٨)
نِيرَانَ الْأَحْقَادِ ، فَفِيهَا الْمُتَلَفَةُ الْمُسْتَأْصِلَةُ ، وَالْجَائِحَةُ^(٩) وَالْأَلِيلَةُ^(١٠) ، وَعَفُوا بِالْحَلْمِ ،
أَبْلَادَ^(١١) الْكَلْمِ ، وَأَنْيَبُوا إِلَى السَّبِيلِ الْأَرْشَدِ ، وَالْمَنْهَجِ الْأَقْصَدِ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ
تُقْبِلُ بِزَبْرِجٍ^(١٢) الْفُرُورِ ، وَتُدْبِرُ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ ، ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ :

أَلَا هَلْ أَتَى الْأَقْوَامَ بَذَلِي نَصِيحَةً حَبَوْتُ بِهَا مَنِي سُدَيْعًا وَمِيمًا
وَقَلْتُ أَعْلَمَا أَنَّ التَّدَابُرَ غَادَرْتُ عَوَاقِبُهُ لِلذَّلِّ وَالْقَلِّ جُرْهُمَا
فَلَا تَقْدَحَا زَنْدَ الْعُقُوقِ وَأَبْقِيَا عَلَى الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ^(١٣) أَنْ تَهْدَمَا
وَلَا تَجْنِيَا حَرْبًا تَجْرُهُ عَلَيْكُمَا عَوَاقِبُهَا يَوْمًا مِنَ الشَّرِّ أَشْأَمَا

(١) التكبر ، وكذا البأو . (٢) اعتقد ضيعة ومالا : اقتناها . (٣) لاه : أراد الله ، فحذف اللام الخافضة اكتفاء بالتي تليها ، والديان القائم بالأمر ، وتخزوني : تسوسني . (٤) مهلكة . (٥) مسارة وغفران . (٦) نشط العقدة : عقدها ، وأنشطها حلها ، والعقل ككتب جمع عقال ، وهو الحيل . (٧) هو مثل ، وأصله في الإبل ، يقال : لقحت الناقة إذا حملت ، وألقحها الفحل ، ثم ضرب ذلك مثلا للحرب إذا ابتدأت ، والعون جمع عون ، وهي الثيب . يقال للحرب عون إذا كان قد قوتل فيها مرة بعد مرة . (٨) تذكروا . (٩) الاستئصال . (١٠) الكتل . (١١) الأبلاد : الآثار ، جمع بلد (كالندوب جمع نذب) . (١٢) السحاب الذي تشفره الريح والزينة . (١٣) الثابتة .

فإنَّ جُنَاةَ الحَرْبِ لِلْحَيِّنِ عُرْضَةٌ تُفَوِّقُهُمْ مِنْهَا الذُّعَافَ الْمُقَشَّاءَ (١)
حَدَارٍ ، فَلَا تَسْتَنْبِئُوهَا ، فَإِنَّهَا تَغَادِرُ ذَا الْأَنْفِ الْأَشْمَّ مُكَشَّاءَ (٢)
فَقَالَا : لَا ، أَيُّهَا الْمَلِكُ . بَلْ نَقْبِلُ نَصْحَكَ ، وَنُطِيعُ أَمْرَكَ ، وَنُطْفِئُ النَّارَةَ (٣) ،
وَنَحُلُّ الضَّغَائِنَ ، وَنُثَوِّبُ إِلَى السَّلَامِ . (الأمالي ١ : ٩٢)

هـ - طريف بن العاصي والحريث بن ذبيان يتفاخران

عند بعض مقاول حمير

أَجْتَمَعَ طَرِيفُ بِنِ الْعَاصِي أَلْدَوْسِيُّ ، وَالْحَرِيثُ بِنِ ذُبْيَانَ - وَهُوَ أَحَدُ الْمَعْمَرِينَ -
عِنْدَ بَعْضِ مَقَاوِلِ (٤) حَمِيرٍ ، فَتَفَاخَرَا . فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْحَرِيثِ : يَا حَارِثُ ! أَلَا تَخْبِرُنِي بِالسَّبَبِ
الَّذِي أَخْرَجَكَ عَنْ قَوْمِكَ حَتَّى لِحِقَمِ بِنْتِ عُمَانَ ؟ فَقَالَ : أَخْبَرْتُ أَيُّهَا الْمَلِكُ . خَرَجَ
هَجِينَانُ (٥) مِنْ بَرِّ عِيَانَ غَمًّا لهُمَا ، فَتَشَاوَلَا (٦) بِسَيْفَيْهِمَا ، فَأَصَابَ صَاحِبُهُمْ عَقِبَ صَاحِبِنَا ،
فَعَاثَ (٧) فِيهِ السَّيْفُ ، فَزُفِرَ (٨) ، فَمَاتَ ، فَسَأَلُونَا أَخْذَ دِيَةِ صَاحِبِنَا دِيَةَ الْهَجِينِ ، وَهِيَ
نِصْفُ دِيَةِ الصَّرِيحِ (٩) ، فَأَبَى قَوْمِي ، وَكَانَ لَنَا رَبَابًا (١٠) عَلَيْهِمْ ، فَأَبَيْنَا إِلَّا دِيَةَ الصَّرِيحِ ،
وَأَبَوْنَا إِلَّا دِيَةَ الْهَجِينِ ، فَكَانَ أَسْمُ هَجِينِنَا ذُهَيْنَ بِنِ زَبْرَاءَ ، وَأَسْمُ صَاحِبِهِمْ عَنَقَشَ بِنِ
مُهَيَّرَةَ ، وَهِيَ سُودَاءُ أَيْضًا (١١) ، فَتَفَاقَمَ الْأَمْرَ بَيْنَ الْحَيِّينَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهَا :

(١) تفوقهم : تسقيهم الفوق بالضم (وهو ما بين الحلبتين) والذعاف : الدم ، أو سم ساعة (وسم ذعاف)
والمقشم : المخلوط . (٢) هو مثل : أي لا تخرجوا نبيتها ، وهو ما يخرج من البئر إذا حفرت : يريد
لا تثيروا الحرب ، ومكشما : مقطوعا . (٣) المداوة والشحناء . (٤) جمع مقول ، والمقول والقليل
هو الذي دون الملك الأعظم . (٥) الهجين : عربي ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه (والمقرف :
الذي أمه عربية ، وأبوه ليس بعربي) . (٦) تضاربا . (٧) أفسد . (٨) نزع الرجل إذا
سال دمه حتى يضعف . (٩) الصريح : الخالص النسب . (١٠) زيادة . (١١) كذا في الأصل ،
ولم يتقدم الحكم على شيء بالسواد ، فلعل الأصل : « ذهين بن زبراء وهي سوداء » .

حُلُومَكُمُ يَا قَوْمَ لَا تَمْرِبُنَّهَا^(١) وَلَا تَقْطَعُوا أَرْحَامَكُم بِالْتَدَابُرِ
وَأَدُّوا إِلَى الْأَقْوَامِ عَقْلَ ابْنِ عَمِّهِمْ وَلَا تَرْهَقُوا سُبَّةَ فِي الْعَشَائِرِ^(٢)
فَإِنَّ ابْنَ زَبْرَاءَ الَّذِي قَادَ لَمْ يَكُنْ بَدُونَ خُلَيْفٍ أَوْ أُسَيْدِ بْنِ جَابِرٍ^(٣)
فَإِنَّ لَمْ تَعَاطُوا الْحَقَّ فَالسَيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَالسَيْفُ أَجُورُ جَابِرٍ
فَتَظْفَرُوا^(٤) عَلَيْنَا حَسِداً ، فَاجْمَعِ ذُووُ الْحِجْجِي مَنْ أُنْ نَلْحَقُ بِأَمْنِ بَطْنِ مِنَ الْأَزْدِ ،
فَلَمَقْنَا بِالنَّمْرِ بْنِ عَثْمَانَ ، فَوَاللَّهِ مَا فَتَّ^(٥) فِي أَعْضَادِنَا ، فَأَبْنَا عَنْهُمْ ، وَلَقَدْ أَثَارْنَا^(٦)
صَاحِبَنَا وَهُمْ رَاغِمُونَ .

فوثب طريف بن العاصي من مجلسه ، فجلس بإزاء الحرث ، ثم قال :
تَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ كَالْيَوْمِ قَوْلَا أَمْعَدَ مِنْ صَوَابٍ ، وَلَا أَقْرَبَ مِنْ خَطَلٍ^(٧) ، وَلَا أَجْلَبَ
لَقَدَّعٍ^(٨) مِنْ قَوْلِ هَذَا ؛ وَاللَّهِ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا قَتَلُوا بِهِجِينِهِمْ بَدَجًا^(٩) ، وَلَا رَقُوا بِهِ دَرَجًا ،
وَلَا أَنْطُوا^(١٠) بِهِ عَقْلًا ، وَلَا اجْتَفَتْهُوا^(١١) بِهِ خَشَلًا^(١٢) ، وَلَقَدْ أَخْرَجَهُمُ الْخُوفُ عَنْ أَصْلِهِمْ ،
وَأَجْلَامَ عَنْ مَحَلِّهِمْ ، حَتَّى اسْتَلَانُوا خَشُونَةَ الْإِزْرَاجِ ، وَجَثُّوا إِلَى أَضِيقِ الْوِلَاجِ^(١٣) :
فَلَا وَذُلًا .

فقال الحرث : أَسْمِعْ يَا طَرِيفُ ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا إِخْلَاكَ كَأَفَا غَرْبٍ^(١٤) لِسَانِكَ ،
وَلَا مُنْهِنِيهَا^(١٥) شِرَّةَ نَزْوَانِكَ ، حَتَّى اسْطَوَ بِكَ سَطْوَةٌ تَسْكُفُ طِمَاحَكَ ، وَتَرْدُ

(١) لا تبتدئها - وأعرب : بعد وأبعد . (٢) العقل : الدية ، يقال : عقلت فلانا إذا غرمت دية ، وعقلت عن فلان إذا غرمت عنه دية جنائيه . وأرهقته عمرا : كلفته ذلك . (٣) فاد يفود : مات (وفاد يفيد : يبختر) . (٤) تظاهروا . (٥) أوهن وأضعف . (٦) أثارت : أدركت منه ثأري (وأصله اثتار) . (٧) خطأ . (٨) الكلام القبيح ، أفذع له إذا أسمه كلاما قبيحا . (٩) البذج : الحروف ، فارسي مرعب . (١٠) لغة في أعطوا . (١١) صرعوا . (١٢) الخشل : شجر المقل (الدوم) وهذه أمثال كلها ، يريد أنهم لم يتألموا ثأره . (١٣) الولاغ الباب ، وجمعه الولاغ ، وهي أيضا النواحي والأزقة . (١٤) غرب الشيء : حده . (١٥) نهته عن الأمر فنهته : كفه وزجره فكف ، والشرة : الحدة ، والنزوان : الوثوب .

جَاحِك ، وَتَكْمَيْتِ تَبْرُكُكَ^(١) ، وَتَقَمَّعَ تَسْرُعَكَ .

فقال طريف : مهلا يا حارث ، لا تَعْرِضْ لِطُحْمَةِ^(٢) اسْتِنَانِي ، وَذَرَبِ^(٣) سِنَانِي ، وَغَرَّبِ شَبَابِي ، وَمَيْسَمِ^(٤) سِبَابِي ، فَتَكُونُ كَالْأُظْلِ^(٥) الْمَوْطُوءِ ، وَالْعَجَبِ الْمَوْجُوءِ^(٦) .
فقال الحارث : إياي تخاطب بمثل هذا القول ؟ فوالله لو وطئتكَ لَأَسَخْتِكَ^(٧) ، وَلَوْ وَهَصْتِكَ^(٨) لَأَوْهَطْتِكَ^(٩) ، وَلَوْ نَفَحْتِكَ^(١٠) لَأَفَدْتِكَ .

فقال طريف متمثلاً :

وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ لَكَالْتَبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَابًا
أَمَّا وَالْأَنْصَابُ الْمَحْجُوبَةُ ، وَالْأَنْصَابِ^(١١) الْمَنْصُوبَةُ ، لَنْ لَمْ تَرَبَّعْ كَلِي ظَلْمَكَ^(١٢) ،
وَتَقَفَ عِنْدَ قَدْرِكَ ، لَأَدَعَنَّ حَزَنَكَ سَهْلًا ، وَغَمْرَكَ ضَحْلًا^(١٣) ، وَصَفَاكَ^(١٤) وَحَلَا .
فقال الحارث : أَمَا وَاللَّهِ لَوْرُمْتَ ذَلِكَ لَمُرُّغْتَ بِالْحَضِيضِ^(١٥) ، وَأَغْصِصْتَ
بِالْجَرِيضِ^(١٦) ، وَضَاقَتْ عَلَيْكَ الرَّحَابُ ، وَتَقَطَّعَتْ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَلَأَلْفَيْتَ لَقِي^(١٧)

(١) التمرع إلى الشر . (٢) طحمة السيل دفعته ، واستن الفرس قص وعدا المرحة ونشاطه شوطا أو شوطين ، والاستنان : النشاط ، استن الفرس : جرى في نشاطه على سنه في جهة واحدة .
(٣) الذرب : الحدة ، وكذا الغرب . (٤) المكرواة . (٥) الأظل : أسفل خف البعير .
(٦) العجب : أصل الذنب والموجوء : المدقوق (من وجأ التيس : دق عروق خصيه بين حجرين ولم يخرجهما شيئا بالخصاء) . (٧) أساخه : جملة يسبخ (أو يسوخ في الأرض) أي يغوص . (٨) كسرتك .
(٩) صرعتك صرعة لا تقوم منها . (١٠) نفحه بسيفه : تناوله . (١١) الأنصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله تعالى ، وقيل الأنصاب حجارة نصبت وعبدت من دون الله جمع نصب ، وقيل النصب جمع نصاب . (١٢) ربع يربع : كف ، وظلع ظلما غمز في مشيه ، وارباع على ظلمك أي إنك ضعيف فانه عما لا تطيقه وكف . (١٣) العمر : الماء الكثير ، والضحل : الماء القليل (وكذا الضحضاح) . (١٤) الصفا : جمع صفاة وهي الحجر الصلد الضخم أو الصفا بمعنى الصفو .
(١٥) أسفل الجليل . (١٦) الجريض . النصة من الجرض ، وهو الرقيق يغص به يقال جرض بريقه يجرض ابتلهه بالجهد على هم وحزن ، وفي المثل : حال الجريض دون القريض ، يضررب للأمر يقدر عليه أخيرا حين لا ينفع . قاله جوشن الكلابي حين منعه أبوه من الشعر فرض حزنا حتى أشرف على الهلاك ، فرق له وقال انطق بما أحببت : فقال ذلك . (١٧) اللقي : الملقى المطروح .

تَهَادَاهِ الرُّوَامِسَ^(١) . بِالسَّهْبِ الطَّامِسِ^(٢) .

فقال طريف : دون ما ناجتكَ به نفسك مُقَارَعَةً أَبْطَال ، وَحِيَاضُ أَهْوَال ،
وَحَفْزَةٌ^(٣) إِعْجَال ، يُمْنَعُ مَعَهُ تَطَامُنُ الْإِمْهَال .

فقال الملك : إِيهَا^(٤) عَنكَا ! فَا رَأَيْتِ كَأَيُّومِ مَقَالِ رَجُلَيْنِ لَمْ يَقْصِبَا^(٥) ، وَلَمْ
يَثْلِبَا^(٦) ، وَلَمْ يَلْصُوَا^(٧) ، وَلَمْ يَقْفُوَا^(٨) .
(الأمالي ١ : ٧٣)

(١) الروامس : الرياح التي ترمس أي تدفن . (٢) المستوى من الأرض ، والطامس : الدارس
(كالطامس) (٣) الحفز : الدفع . (٤) إيها : كلمة زجر بمعنى حسبك (وإياه : أمر . كلمة
استزادة واستنطاق) . (٥) لم يشتا . قصبه يقصبه إذا وقع فيه وأصله القطع . (٦) ثلبه : عابه .
(٧) لصاه : قذفه . (٨) قفاه : قذفه بأمر عظيم .

وفود العرب

يعزون سلامة ذا فائش بابن له مات

نشأ لسلامة ذى فائش ابن كَأ كل أبناء المَقاول ، وكان مسروراً به يرشحه لموضعه ، فركب ذات يوم فرساً صعباً ، فكبا به فوقه^(١) ، فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً ، وامتنع من الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه ، فلامه نصحاؤه في إفراط جزعه ، فخرج إلى الناس فقام خطبائهم يؤسونه^(٢) ، وكان في القوم الملبب ابن عوف ، وجعاده بن أفلح ، فقام الملبب فقال :

٦ - خطبة الملبب بن عوف

أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لثدنت ، ومُتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان في القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تحطأتك جَلَل^(٣) ، ما لم تُدِن الأجل ، وتفض الأمل ، وإن حادثنا ألم بك ، فاستبد^(٤) بأفلك ، وصفح عن أكثرك ، لمن أجل النعم عليك ، وقد تنأهت إليك أنبأه من رزى فصبر ، وأصيب فاغتر ، إذ كان شوى^(٥) فيما يرتقب ويحذر ، فاستشعر اليأس عما فات ، إذ كان ارتجاعه ممتنعاً ، ومرامه مستصعباً ، فلشى ما ضربت الأسي ، وفرع أولو الأبواب إلى حسن العزاء .

(١) وقص عتقه : كسرهما . (٢) أساء تأسية : عزاه ، وأصله : أن يقول له لك أسوة بفلان وفلان . (٣) الجلل : العظيم والحقير وهو هنا بالمعنى الثاني . (٤) البدة بالضم : النصيب ، واستبد به : جعله نصيبه . (٥) الشوى : الهين اليسير ورذال المال .

٧ - خطبة جماعة بن أفلح

وقام جماعة فقال : « أيها الملك ، لا تُشِمِرْ قلبك الجزع على ما فات ، فيَغْفَلَ دهنك عن الاستعداد لما يأتي ، وَناضِلْ عوارِضَ الحزن بالأُنْفَة عن مضاهاة^(١) أفعال أهلِ وَهي^(٢) القُقولِ ، فَإِنَّ العزاءَ لُحزَماءَ الرِّجالِ ، وَالجزعَ لِرَبَّاتِ الحِجَالِ^(٣) ، ولو كانَ الجزعُ يَرُدُّ فائِتنا ، أو يُبْئِي تالِفاً ، لكانَ فعلاً دَنِيتاً ، فكيف وهو مجانبٌ لأخلاق ذوى الألباب ، فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت^(٤) فيه الأردلون ، وصن قدرك عما يركبهُ المحسوسون ، وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام ، ضِلَّةٌ كأحلام النيام » .

(الأمالي ٢ : ١٠١)

٨ - تساؤل عامر بن الظرب وحممة بن رافع

عند أحد ملوك حمير

اجتمع عامر بن الظرب العدواني، وحممة بن رافع الدومي عند ملك من ملوك حمير، فقال : تساء لا حتى أسمع ما تقولان . قال عامر لحممة : أين تحب أن تكون أيديك ؟ قال : عند ذى الرثية^(٥) العديم ، وذى الخلة^(٦) الكريم ، والمسر الغريم ، والمستضعف المظلم . قال : من أحق الناس بالمت ؟ قال : الفقير المحتال ، والضعيف الصوال ، والعي القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريرى الكاند^(٧) ، والمستמיד^(٨) الحاسد ، والمُلحِف الواجد . قال : فمن أجدر الناس بالصنعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا

(١) مشاكلة . (٢) ضعف . (٣) والحجال جمع حجلة (بفتحتين) ، وهى القبة وموضع يزين

بالثياب والستور للعروس . (٤) التهافت : التتابع . (٥) الرثية : وجع المفاصل واليدين والرجلين

(الروما تزم) . (٦) الخلة الحاجة . (٧) الكاند : الذى يكفر النعمة ، والكنود الكفور : (إن

الإنسان لربه لكنود) . (٨) المستميد والمستمير : المستعطى .

مُنِعَ عَدْرَ ، وَإِذَا مُوْطِلَ صَبَرَ ، وَإِذَا قَدَّمَ الْعَهْدُ ذَكَرَ . قَالَ : مِنْ أَكْرَمِ النَّاسِ عَشْرَةٌ ؟ قَالَ : مِنْ إِنْ قُرْبَ مَنَعَ ، وَإِنْ بَعُدَ مَدَحَ ، وَإِنْ ظَلِمَ صَفَحَ ، وَإِنْ ضَوِّقَ سَمَحَ ، قَالَ : مِنْ أَلَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مِنْ إِذَا سَأَلَ خَضَعَ ، وَإِذَا سُئِلَ مَنَعَ ، وَإِذَا مَلَكَ كَنَعَ^(١) ، ظَاهِرُهُ جَشَعَ^(٢) ، وَبَاطِنُهُ طَبَعَ^(٣) . قَالَ : فَمِنْ أَحْلَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ عَفَا إِذَا قَدَّرَ ، وَأَجْمَلَ إِذَا اتَّصَرَ ، وَلَمْ تُطْعَمِ عِزَّةَ الظَّفَرِ . قَالَ : فَمِنْ أَحْزَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ أَخَذَ رِقَابَ الْأُمُورِ بِيَدَيْهِ ، وَجَمَلَ الْعَوَاقِبَ نَصَبَ عَيْنِيهِ ، وَبَذَّ التَّهَيِّبَ دَبْرَ أُذُنِيهِ^(٤) ، قَالَ : فَمِنْ أَخْرَقَ النَّاسِ ؟ قَالَ : مِنْ رَكِبَ الْخِطَارَ^(٥) ، وَاعْتَسَفَ^(٦) الْعِثَارَ ، وَأَسْرَعَ فِي الْبِيدَارِ ، قَبِلَ الْاِقْتِدَارَ . قَالَ : فَمِنْ أَجْوَدِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ بَذَلَ الْمَجْهُودَ ، وَلَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَعْهُودِ . قَالَ : فَمِنْ أَبْلَغِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ جَلَّى الْمَعْنَى الْمَزِيزَ^(٧) ، بِاللَّفْظِ الْوَجِيْزِ ، وَطَبَّقَ^(٨) الْمَفْصِلَ قَبْلَ التَّحْزِيْزِ . قَالَ : فَمِنْ أَنْعَمِ النَّاسِ عَيْشًا ؟ قَالَ : مَنْ تَحَلَّى بِالْعِفَافِ ، وَرَضِيَ بِالْكَفَافِ ، وَتَجَاوَزَ مَا يَخَافُ إِلَى مَا لَا يَخَافُ . قَالَ : فَمِنْ أَشْقَى النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ حَسَدَ عَلَى النِّعَمِ ، وَتَسَخَّطَ عَلَى الْقِسْمِ ، وَاسْتَشْعَرَ النَّدَمَ ، عَلَى فُوتِ مَا لَمْ يُحْتَمَ . قَالَ : مَنْ أَغْنَى النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ اسْتَشْعَرَ الْيَاسَ ، وَأَبْدَى التَّجَمُّلَ لِلنَّاسِ ، وَاسْتَكْتَفَرَ قَلِيلَ النِّعَمِ ، وَلَمْ يَسْتَخْطَ عَلَى الْقِسْمِ . قَالَ : فَمِنْ أَحْكَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ صَمَتَ فَأَدَّ كَرَّ ، وَنَظَرَ فَاعْتَبَرَ ، وَوَعِظَ فَازْدَجَرَ . قَالَ : مَنْ أَجْهَلَ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ رَأَى الْخُرْقَ مَغْمًا ، وَالتَّجَاوَزَ مَغْرَمًا .

(الأمالي ٢ : ٢٨٠)

٩ - خطبة عامر بن الظرب العدواني وقد خطبت ابنته

خطب صعصعة بن معاوية بن عامر بن الظرب العدواني ابنته عمرة فقال :

- (١) تقبض . تكنع جلده إذا تقبض أي مسك بنجيل . (٢) الجشع : أسوأ الحرص . (٣) الدنس . (٤) جعلت الشيء دبر أذني : إذا لم ألقت إليه . (٥) جمع خطر ، وهو الإشراف على المهلك . (٦) الاعتساف : ركوب الطريق على غير هداية وركوب الأمر على غير معرفة . (٧) الصعب . (٨) التطبيق : أن يصيب السيف المفاصل فيفصلها لا يجاوزها .

« يا مصعنة إنك جئت تشتري منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى ، منعتك ، أو بعثك ،
النكاح خير من الأئمة^(١) ، والحسيب كفاء الحسيب ، والزوج الصالح أبٌ بعد أبٍ ،
وقد أتكتحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفرّ من السر إلى العلانية ، أنصحُ ابنا ، وأودِعُ
ضعيفاً قوياً ، ثم أقبل على قومه فقال :

« يا معشر عدوان : أخرجت من بين أظهركم كرىمتكم ، على غير رغبة عنكم ،
ولكن من خُطَّ له شيء جاءه ، رب زارعٍ لنفسه حاصدٌ سواء ، ولولا قَسَمَ المَحْظُوظ
على قدر الجدود ، ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا^(٢) ،
أثبت المرعى ، ثم قَسَمَهُ أَكْلا^(٣) لكل فَمٍ بَقْلَةٌ ، ومن الماء جَرَعَةٌ ، إنكم تروُن
ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كلُّ ذى قلب واعٍ^(٤) ، ولكل شيء راعٍ ،
ولكل رزق ساعٍ ، إما أكيسٌ وإما أحمقٌ ، وما رأيت شيئاً إلا سمعت حسه ،
ووجدت مسه ، وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، وما رأيت جائباً إلا داعياً ، ولا غانماً
إلا خائباً ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يُمَيِّتُ الناسَ الدَّاءَ ، لأحيام الدَّواءَ ، فهل
لكم فى العلم العليم ؟ قيل ما هو ؟ قد قلت فأصبت ، وأخبرت فصدقت ، فقال : أموراً
شتى ، وشيئاً شياً ، حتى يرجع الميت حياً ، ويعود لاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت الأرض
والسموات ، فتولوا عنه راجعين ، فقال : وَيُلْمُهُا^(٥) نصيحة لو كان من يقبلها .

(مجمع الأمثال ١ : ٢١١ ، البيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والمقد القرين ٣ : ٢٢٣)

١٠ — حديث بعض مقاول حمير مع ابنه

وما دار بينه وبينهما من المساءلة حين كبرت سنه

كان لرجل من مقاول حمير ابنان ، يقال لأحدهما عمرو ، وللآخر ربيعة ، وكانا قد

(١) الأيامى : الذين لأزواج لهم من الرجال والنساء الواحد منهما أيم كجيد ، سواء كان تزوج من
قبل أم لم يتزوج ، وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبيا ، وقد آمت تميم أيما وأيمة وأيوما ، وفى الحديث :
« أنه كان يتعوذ من الأئمة » . (٢) الحيا : المطر . (٣) الأكل : ما يؤكل والرزق . (٤) حافظ .
(٥) يقال للمستجد ويلمه أى ويل لأمه ، كقولهم : لأب لك يريدون لأب لك فركبوه وجملوه كالشيء الواحد .

برعا في الأدب والعلم ، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره ، وأشفى ^(١) على الفناء ، دعاها لِيَبْلُو ^(٢) عقولهما ، ويعرف مبلغ علمهما ، فلما حضرا : قال لعمره - وكان الأكبر - أخبرني عن أحب الرجال إليك ، وأكرمهم عليك . قال : « السيد الجواد ، القليل الأنداد ، الماجد الأجداد ، الراسي الأوتاد ، الرفيع العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحساد ، الباسل الذواد ^(٣) ، الصادر الوراد » قال : ما تقول ياربعة ؟ قال : ما أحسن ما وصف ! وغيره أحب إلى منه ، قال : ومن يكون بعد هذا ؟ قال : « السيد الكريم ، المانع للحريم ، المفضل الحليم ، القمقام ^(٤) الزعيم ، الذي إن هم فعل ، وإن سُئِلَ بذل . »

قال : أخبرني يا عمرو بأبغض الرجال إليك ؟ قال : البرم ^(٥) اللثيم ، المستخذي ^(٦) للخصيم ، المبطان ^(٧) النهيم ، العبي البكيم ، الذي إن سئل منع ، وإن هُدِّد خضع ، وإن طلب جشع ^(٨) . قال : ما تقول ياربعة ؟ قال : غيره أبغض إلى منه . قال : ومن هو ؟ قال : النثوم الكذوب ، الفاحش الغضوب ، الرغيب عند الطعام ، الجبان عند الصدام .

قال : أخبرني يا عمرو : أي النساء أحب إليك ؟ قال : الهر كولة ^(٩) اللقاء ^(١٠) ، المنكورة ^(١١) الجيدةاء ، التي يشفي السقيم كلامها ، ويبري الوصب ^(١٢) إلسامها ، التي إن أحسنت إليها شكرت ، وإن أسأت إليها صبرت ، وإن استعنتها ^(١٣) أعبتت ، الفاترة الطرف ، الطفلة ^(١٤) الكف ، العميمة الرذف . قال : ما تقول ياربعة ؟ قال : نعت فأحسن ! وغيرها أحب إلى منها . قال : ومن هي ؟ قال : « الفتانة العيين ،

(١) أشفى عليه : أشرف . (٢) ليختبر . (٣) من زاد عنه : إذا دفع . (٤) السيد (ويضم) . (٥) البرم : من لا يدخل مع القوم في الميسر . (٦) الخاضع المستكين ، والخصيم : المخاصم . (٧) من همه بطنه ، أو الرغيب لا ينتهي من الأكل . (٨) الجشع : أسوأ الخرص . (٩) المرتجة الأرداف . (١٠) الملتفة الجسم . (١١) المطوية الخلق من النساء والمستديرة الساقين ، والجيدةاء : من الجيد بالتحريك ، وهوطول الرقبة ، وأدقتها مع طول . (١٢) المريض . (١٣) استعنته : طلب إليه العتي (الرضا) وأعته أعطاه العتي . (١٤) الناعمة .

الاسيلة^(١) الخلدن ، الكاعب^(٢) النديين ، الرّداح^(٣) الوركين ، الشاكرة للقليل ، المساعدة للحيل^(٤) ، الرّخيمة^(٥) الكلام ، الجّماء^(٦) العظام ، الكريمة الأخوال والأعمام ، العذبة اللثام^(٧) .

قال : فأى النساء إليك أبغض يا عمرو ؟ قال : القتّاته^(٨) الكذوب ، الظاهرة العيوب ، الطوّافةُ الملبّوب^(٩) ، العابسة القطوب ، السّبابة الوتوب ، التي إن أتممتها زوجها خانتها ، وإن لان لها أهانتها ، وإن أرضاها أعضبتها ، وإن أطاعها عصته ، قال : ماتقول ياربيعة ؟ قال : بئس والله المرأة ذكر ! وغيرها أبغض إلىّ منها . قال : وأيتهنّ التي هي أبغض إليك من هذه ؟ قال : السليطة^(١٠) اللسان ، المؤذبة للجبران ، الناطقة بالبهتان ، التي وجهها عابس ، وزوجها من خيرها آيس ، التي إن عاتبها زوجها وترّته^(١١) ، وإن ناطقها اتهرته . قال ربيعة : وغيرها أبغض إلىّ منها . قال : ومن هي ؟ قال : التي شقى صاحبها ، وخزى خاطبها ، وافتضح أقاربها . قال : ومن صاحبها ؟ قال : مثلها في خصالها كلها ، لا تصلح إلا له ، ولا يصلح إلا لها . قال : فصفه لى . قال : الكفور غير الشكور ، اللثيم الفجور ، العبوس الكالج^(١٢) ، الحرون الجامح ، الرّاضى بالهوان ، المختال المتّان ، الضعيف الجتّان ، الجعد^(١٣) البنان ، القنول غير الفعول ، الملول غير الوصول ، الذي لا يرع^(١٤) عن المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم .

قال : أخبرني يا عمرو : أى الخليل أحب إليك عند الشدائد ، إذا التقى الأقربان للتجالد ؟ قال : الجواد الأنيق ، الحصان العتيق ، الكفّيت^(١٥) العريق ، الشديد الوثيق ، الذي يفوت إذا هرب ، ويَلْحَقُ إذا طلب . قال : نعم الفرس والله نعت ! قال : فما تقول

(١) الأسيل من الحدود : الطويل المسترسل . (٢) كعب الثدى : نهد . (٣) الثقيلة العجيذة الضخمة الوركين . (٤) الزوج . (٥) اللينة الكلام . (٦) التي ليس لعظامها حجم . (٧) المراد موضع اللثام ، فهو على حذف مضاف . (٨) البتامة . (٩) الكثيرة الانتباه ، والهيوب : الريح المثيرة للقبّار . (١٠) الطويلة . (١١) أحفظته وأغضبته . (١٢) كالج : تكشر في عبوس . (١٣) كناية عن البخل . (١٤) ورع : كورث كف . (١٥) السريع .

يا رببعة؟ قال : غيره أحب إلى منه . قال : وما هو؟ قال : الحصان الجواد ، السلس
القياد ، الشهم الفواد ، الصبور إذا سرى ، السابق إذا جرى .

قال : فأى الخليل أبغض إليك يا عمرو؟ قال : الجموح الطمّوح ، النكول^(١)
الأنوح^(٢) ، الصنول^(٣) الضعيف ، المأل العنيف ، الذى إن جاريته سبقته ، وإن طلبته
أدركته . قال : ما تقول يا رببعة؟ قال : غيره أبغض إلى منه . قال : وما هو؟ قال :
البطيء الثقيل ، الحرّون الكليل ، الذى إن ضربته قمص ، وإن دنوت منه شمس^(٤) ،
يدركه الطالب ، ويفوته الهارب ، ويقطع بالصاحب . قال رببعة : وغيره أبغض إلى منه .
قال : وما هو؟ قال : الجموح الخبوط^(٥) ، الرّكّوض الخروط^(٦) ، الشّموس الصّروط^(٧) ،
القطوف^(٨) فى الصعود والمبوط ، الذى لا يسلم الصاحب ، ولا ينجو من الطالب .

قال : أخبرنى يا عمرو أى العيش ألدّ؟ قال : عيش فى كرامة ، ونعيم وسلامة ،
واغتياب^(٩) مدامة . قال : ما تقول يا رببعة؟ قال : نعم العيش والله وصف ! وغيره
أحب إلى منه . قال : وما هو؟ قال : عيش فى أمن ونعيم ، وعزّ وغنى عميم ، فى ظل
نجاح ، وسلامة مساءً وصباح ، وغيره أحب إلى منه . قال : وما هو؟ قال : غنى دائم ،
وعيش سالم ، وظلّ ناعم .

قال : فما أحب السيوف إليك يا عمرو؟ قال : الصّقييل الحسام ، الباتر المجذام^(١٠) ،
المأضى السّطام^(١١) المرهف^(١٢) الصمصام^(١٣) ، الذى إن هزّزته لم يكب^(١٤) ، وإذا
ضربت به لم ينب^(١٥) . قال : ما تقول يا رببعة؟ قال : نعم السيوف نعت ! وغيره أحب

(١) النكول : الذى يتكل عن قرنه . (٢) الكثير الزحير . (٣) كثير الصئيل : وصئيل
الفرس : صهيله . (٤) شمس الفرس ، منع ظهره : فهو شامس وشموس . (٥) الكثير الخبط :
وهو السير على غير هدئ . (٦) الخروط : الدابة الجموح تجتذب راسها من يد ممسكها ثم تمضى .
(٧) الكثير الضراط . (٨) قطفت الدابة : ضاق مشيها فهى قطوف . (٩) اغتياب : شرب
الغبوق ، وهو ما يشرب بالمشى ، والمدامة : الخمر كالدمام . (١٠) من الجذم : وهو القطع . (١١) الحد .
(١٢) رهف السيوف ، وأرهفه : رققه . (١٣) السيوف لا ينثنى كالصمصامة . (١٤) لم يعثر .
(١٥) لم يكلم عن الضريبة .

إلى . قال : وما هو ؟ قال : الحسام القاطع ، ذو الرنق اللامع ، الظمان الجائع ، الذى إن هزته هتكت^(١) ، وإذا ضربت به بتكت^(٢) . قال : فما أبغض السيوف إليك يا عمرو ؟ قال : الفطار^(٣) الكهام^(٤) ، الذى إن ضرب به لم يقطع ، وإن ذُبح به لم ينخع^(٥) . قال : فما تقول يا ربعة ؟ قال : بئس السيف والله ذكر ! وغيره أبغض إلى منه . قال : وما هو ؟ قال : الطبيع^(٦) الددان^(٧) ، المعصد^(٨) المهان .

قال : فأخبرنى يا عمرو : أى الرماح أحب إليك عند المراس ، إذا أعتكر البأس ، وأشتجر الدعاس^(٩) ؟ قال : أحبها إلى المارن^(١٠) المثقف ، المقوم المخطف^(١١) ، الذى إذا هزته لم ينعطف ، وإذا طعنت به لم ينقصف . قال : ما تقول يا ربعة ؟ قال : « نعم الرمح نعت ! وغيره أحب إلى منه . قال : وما هو ؟ قال : الذابل^(١٢) العسال ، المقوم النسال ، الماضى إذا هزته ، النافذ إذا همزته .

قال : فأخبرنى يا عمرو عن أبغض الرماح إليك ؟ قال : الأعصل^(١٣) عند الطعان ، المثلم السنان ، الذى إذا هزته انعطف ، وإذا طعنت به انقصف . قال : ما تقول يا ربعة ؟ قال : بئس الرمح ذكر ! وغيره أبغض إلى منه . قال : وما هو ؟ قال : الضعيف المهز^(١٤) : اليبس الكز^(١٥) ، الذى إذا أكرهته انحطم ، وإذا طعنت به انقصم . قال : انصرفا ، الآن طاب لى الموت . (الأمالي ١ : ١٥٢)

(١) مزق . (٢) قطع . (٣) الذى لا يقطع ، وهو مع ذلك حديث الطبع . (٤) سيف كهام : كليل . (٥) لم يبلغ النخاع . (٦) من الطبع : أى الصدا . (٧) الذى لا يقطع . (٨) القصير الذى يمتن فى قطع الشجر وغيرها . (٩) الطعان : دعه إذا طعنه . (١٠) المارن : ملان من الرمح ، والمثقف : المسوى بالثقاف ، وهو مانسوى به الرماح . (١١) الخطف بضم فسكون : الضمر ، وإخطف الحشى : انطاوؤه ، ومنه فرس مخطف الحشى : أى ضامره ، ورجل مخطف كذلك ، ورمح مخطف أى دقيق . (١٢) قنا ذابل : أى دقيق لاصق بالليط (بكسر اللام ، والليطة : قشر القنائة) ، والعسال : انشديد الاضطراب إذا هزته ومنه العسلان بالتحريك ، وهو عدو فيه اضطراب ، والنسلان قريب منه . (١٣) الملتوى : المعوج (١٤) مهزه كمنعه : دفعه . (١٥) الكزازة : اليبس والانقباض كز فهو كز .

١١ - إحدى ملكات اليمن وخاطبوها

وذكروا أن ملكة كانت بسباً^(١) ، فأتاها قوم يحطّبونها ، فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، وليصدق وليوجز ، لأتقدم إن تقدمت ، أو أدع إن تركت ، على علم ، فتكلم رجل منهم يقال له مُدرك ، فقال : « إن أبي كان في العز الباذخ^(٢) ، والحسب الشامخ ، وأنا شرس الخليفة ، غير رعيدي^(٣) عند الحقيقة » قالت : لا عتاب على الجنادل فأرسلتها مثلاً^(٤) ، ثم تكلم آخر منهم ويقال له ضبيس بن شرس فقال : « أنا في مال أثيث^(٥) ، وخلقي غير خبيث ، وحسب غير عثيث^(٦) ، أخذو النعل بالنعل ، وأجزى القرض^(٧) بالقرض » فقالت : لايسرك غائباً من لايسرك شاهداً ، فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم ، يقال له شماس بن عباس فقال : « أنا شماس ابن عباس ، معروف بالندي والباس ، حسن الخلق في سجيّة ، والعدل في قضيّة ، مالى غير محذور على الأقل والكثير ، وبابى غير محجوب على العسر واليسر ، قالت : الخير متبّع والشر محذور ، فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضبيس ، لن يستقيم معكم معاشرّة لعشير حتى يكون فيكما ابن عريكة^(٨) ، وأما أنت يا شماس ، فقد حلت منى محل الأهرع^(٩) من الكنانة ، والواسطة^(١٠) من القلادة ، لدمانة^(١١) خلقك ، وكرم طباعك ، ثم اسع مجدّ أدع ، فأرسلتها مثلاً ، وتزوجت شماسا .

(مجمع الأمثال ٢ : ١١٨)

- (١) سباً : بلدة باليمن . (٢) العالى . (٣) الرعيدي : الجبان . (٤) قال الميداني : « يضرب في الأمر الذي إذا وقع لامرء له ، قاله أبو عمرو » . (٥) كثير : عظيم . (٦) لم أجد في كتب اللغة وصفاً من مادة عث على فعيل ، وإنما الذي فيها « رجل عث بفتح العين أى ضئيل الجسم » وسياق الفواصل يرجح أن الوصف الذي هنا فعيل ، وأرى أن معناه مشين معيب من عث العفة الصوف إذا أكلته فهو عثيث بمعنى معثوث . (٧) القرض : القطع . (٨) العريكة : الطبيعة ، ورجل لين العريكة : أى سلس الخلق . (٩) الأهرع آخر سهم في الكنانة رديثاً كان أو جيداً أو هو أفضل سهامها لأنه يدخر لشدة أو هو أردوؤها ، والمراد هنا الثاني . (١٠) واسطة المقد : الجوهرة الفاخرة التي تجمل وسطه . (١١) الدمانة : السهولة .

١٢ - رواد مذحج يصفون ما ارتادوا من المراعي

عن أشياخ من بنى الحرث بن كعب قالوا :

« أَجْدَبَتْ بِلَادَ مَذْحِجٍ فَأَرْسَلُوا رُوَادًا ^(١) ، مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلًا ، فَبِعَثَتْ بَنُو زَيْدٍ رَائِدًا ، وَبِعَثَتْ النَّخَعُ رَائِدًا ، وَبِعَثَتْ جُفَيْفٌ رَائِدًا ، فَلَمَّا رَجَعَ الرُّوَادُ قِيلَ لِرَائِدِ بْنِ زَيْدٍ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ أَرْضًا مُوشِمَةً ^(٢) الْبِقَاعِ ، نَاتِحَةً النَّقَاعِ ^(٣) ، مُسْتَحْلَسَةً الْغَيْطَانِ ^(٤) ضَاكِكَةً الْقُرْيَانِ ^(٥) وَاعْدَةَ ^(٦) وَأَحْرَ بَوْفَاءَهَا ، رَاضِيَةً أَرْضَهَا عَنْ سَمَايْهَا . وَقِيلَ لِرَائِدِ جَمْفَى : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ أَرْضًا جَمَعَتْ السَّمَاءَ ^(٧) أَقْطَارَهَا ، فَأَمْرَعَتْ أَصْبَارَهَا ^(٨) ، وَدَيْبَتْ أَوْعَارَهَا ^(٩) ، فَبَطَّنَانَهَا غَمَقَةً ^(١٠) وَظَهْرَانَهَا غَدَقَةً ^(١١) ، وَرِيَاضَهَا مُسْتَوْسِقَةً ^(١٢) ، وَرَقَاقِيهَا رَائِخٌ ^(١٣) ، وَوِاطِنُهَا سَائِخٌ ^(١٤) ، وَمَاشِيهَا ^(١٥) مَسْرُورٌ ، وَمُضْرِمُهَا ^(١٦) مَحْسُورٌ . وَقِيلَ لِلنَّخَعِيِّ مَا وَرَاءَكَ ؟ فَقَالَ : « مَدَاحِي ^(١٧) سَيْلٍ ، وَزُهَاءٌ ^(١٨) لَيْلٍ ،

(١) الرواد : جمع رائد ، وهو المرسل في طلب الكلاء . (٢) أوشمت الأرض : إذا بدا فيها شيء من النبات (وأوشمت السماء : إذا بدا فيها برق) . (٣) النقاع : جمع نقع (كشمس) وهو الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء ، ونايحة : أى راشحة ، من التتح وهو خروج العرق من الجلد . (٤) الغوط ، والغيط ، والفاط ، والفاطط : المظمن الواسع من الأرض وجمعه غوط (بالضم) وأغواط وغيطان ، وغياط ، واستحلس النبات : إذا غطى الأرض أو كاد يغطيها . (٥) القرينان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كفى . (٦) أى تعد تمام نباتها وخيرها ، وأحر : أخلق . (٧) السماء هنا : المطر ، يريد أن المطر جاد بها ، فطال النبات ، فصار المطر كأنه قد جمع أكنافه . (٨) مرع الوادى مثلث الرء مراعاة وأمرع : أعشب وأخصب فهو مربع ومربع ، وأصبارها : نواحيها جمع صبر بالكسر والضم . (٩) ديبت : لينت . (١٠) البطنان : جمع بطن ، وهو الغامض من الأرض أى المظمن منها ، وغمقة : ندية . (١١) الظهران : جمع ظهر ، وهو ما ارتفع يسيرا ، وغدقة : كثيرة البلل والماء . (١٢) منتظمة . (١٣) الرقاق : الأرض اللينة من غير رمل ، ورأخ : مفرط اللين ، يقال : ربخت العجين إذا كثرت مائه ، ورأخ العجين يريخ . (١٤) أى تسوخ رجلاه في الأرض من لينها ، وتسوخ وتسوخ واحد . (١٥) الماشى : صاحب المشاية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته . (١٦) المصرم : الفقير المقل . (١٧) مداحى : جمع مدحى اسم مكان من دحا الأرض يدحوها ويدحها دحوا : أى بسطها . (١٨) الزهاء : الشخص ، وإنما جعل نباتها زهاء ليل لشدة خضرته .

وَعَيْلٌ^(١) يُوَاصِي غَيْلًا ، قد ارتوت أجزاؤها^(٢) ، ودُمَّتْ عَزَاؤها^(٣) ، والتبذت أقواؤها^(٤) ، فرايدها أُنِقَ^(٥) وراعيها سَنِقَ^(٦) فلا قَضَضَ ولا رَمَضَ^(٧) ، عازِبُها^(٨) لا يُفْرَعُ ، ووَارِدُها لا يُنْكَعُ^(٩) ، فاخْتاروا مرَادَ^(١٠) النخعي . (الأماك ١ : ١٨٣)

١٣ — مادار من الحديث بين المنذر بن النعمان الأكبر

وبين عامر بن جوين الطائي

وفد عامر بن جوين الطائي على المنذر بن النعمان الأكبر ، جد النعمان بن المنذر ، وذلك بعد انقضاء ملك كِنْدَةَ ، ورجوع الملك إلى تخم ، وكان عامر قد أجاز امرأ القيس ابن حُجْر ، أيام كان مقيمًا بالجَبَلَيْنِ^(١١) ، وقال كلمته التي يقول فيها :

هُنَالِكَ لَا أُعْطَى مَلِيكًَا ظَلَامَةً وَلَا سُوقَةً حَتَّى يَثُوبَ ابْنُ مَنْدَلَةَ^(١٢)

(١) الفيل : الماء الجارى على وجه الأرض ، ويواصى : يواصل . (٢) الأجزاء : جمع جزر (بضمين) وهى التي لم يصبها المطر ، أو التي قد أكل نباتها ، أو التي لا تنبت . (٣) دمت : لين (وروى دمت كفرح) ودمت : لان ، والعزاز : الأرض الصلبة . (٤) الأقواز جمع قوز (كشمس) : وهو المستدير من الرمل . (٥) أى معجب بالمرعى . (٦) من سنى كفرح أى بشم واتخم ، وراعيها : الذى يراعها . (٧) القَضَضُ : الحصى الصغار ، يريد أن النبات قد غطى الأرض فلا ترى هناك قَضَضًا ، والرمض : أن يحصى الحصى والحجارة من شدة الحر ، يقول : ليس هناك رمض ، لأن النبات قد غطى الأرض . (٨) العازب : الذى يعزب بإبله أى يبعد بها فى المرعى . (٩) أى لا يمنع . (١٠) أى مرعى . (١١) الجبلان : سلمى وأجأ (كجبل) شرقى المدينة ، وهما لطبي ، قال رجل من بنى سلامان جاور فى طيء :

ألفت مساكن الجليلين إني رأيت الغوث يألفها الغريب

(والغوث قبيلة من طيء) . (١٢) قال صاحب اللسان : « ابن مندلة رجل من سادات العرب ، قال عمرو بن جوين فيما زعم السيرافي ، أو امرؤ القيس فيما حكى الفراء :

وآليت لا أعطى مليكا مقادق ولا سوقة حتى يثوب ابن مندله »

وقال الميداني فى شرح المثل « لاغزو إلا التعميب » — ج ٢ : ص ١٣١ — « يقال عقب الرجل :

وهو أن يغزو مرة ثم يثنى من سنته ، وأول من قال ذلك حاجر بن الحارث بن عمرو آكل المرار (أبو امرئ) =

وكان المنذر ضغينا عليه ، فلما دخل عليه قال له : يا عامر ، لَسَاءَ مَثْوَىٰ أُتِيْتَهُ رَبِّكَ
وَتَوَيْكَ^(١) ، حين حاولت إضباةً طَلَّتَهُ^(٢) ومخالفتَهُ إلى عشيره ، أما والله لو كنت
كريمًا لأتويتَهُ مُكْرَمًا مُوقِرًا ، ولجانبتَهُ مُسَلِّمًا ، فقال له : آيَتِ اللَّعْنِ^(٣) لقد عَلِمْتُ

= القيس) وذلك أن الحرث بن مندلة ملك الشام ، وكان من ملوك سليح من ملوك الضجاعم (سليح كجريح
قبيلة باليمن ، والضجاعم كانوا ملوكا بالشام) وهو الذي ذكره مالك بن جوين الطائي في شعره فقال :

هناك لا أعطى رئيسا مقادة ولا ملكا حتى يثوب ابن مندله

وكان قد أغار على أرض نجد ، وهي أرض حجر بن الحارث هذا ، وذلك على عهد بهرام جور ، وكان
بها أهل حجر فوجد القوم خلوفا ، (الخلوف بالضم : الذين ذهبوا من الحى ، ومن حضر منهم أيضا) ووجد
حجرا قد غزا أهل نجران ، فاستاق ابن مندلة مال حجر ، وأخذ امرأته هند الهنود (وهي هند بنت ظالم بن
وهب بن الحرث بن معاوية) ووقع بها فأعجبها ، وكان آكل المرار شيخا كبيرا ، وابن مندلة شابا جميلا ،
فقال له : النجاء النجاء ، فإن وراك طالبا حثيثا ، وجمعا كثيرا ، ورأيا صليبا ، وحزما وكيدا ، فخرج
ابن مندلة مغذا إلى الشام (أى مسرعا) فلما رجع حجر وجد ماله قد استيق ، ووجد هنداً قد أخذت ،
فقال : من أغار عليكم ؟ قالوا ابن مندلة ، قال : مذكم ؟ قالوا : ثمانى ليال ، فقال حجر : لاغزو إلا
التعقيب ، فأرسلها مثلا يعنى غزوه الأول والثانى .

ثم جسد فى طلب ابن مندلة ، حتى دفع إلى واد دون منزل ابن مندلة فكمن فيه ، وبعث سدوس
ابن شيبان ، فقال له . اذهب متتكررا إلى القوم حتى تعلم لنا علمهم ، فانطلق حتى انتهى إلى ابن مندلة ، ثم
رجع إلى حجر فحدثه بحدث امرأته مع ابن مندلة ، فضرب حجر بيده على المرار (والمرار كغراب : شجرة
مرة إذا أكلت منها الإبل تقلصت مشافرها) فأكل منها من الغضب ، فسمته العرب آكل المرار ،
(وقيل : آكل المرار هو أبوه الحارث) ، ثم خرج حتى أغار على ابن مندلة فقتله ثم قتل هنداً وأنشأ يقول :

إن من يأمن النساء بشيء بعد هند لجاهل مغرور

كل أنثى وإن تبينت منها آية الحب ، حبا خيتعور

(والخيتعور : كل شيء لا يدوم على حالة واحدة ، ويضمحل كالمراب ، وكالذى ينزل من الهواء فى شدة
الحر كنجس العنكبوت) .

وذكر أبو الفرج الأصبهاني هذه القصة فى الأغاني (١٥ : ٨٢) ولسكنه روى أن الذى أغار على
حجر هو زياد بن الهبولة قال : « ثم إن زياد بن الهبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم بن حماطة بن سعد
ابن سليح القضاعى أغار عليه وهو ملك فى ربيعة بن نزار ، وكان قد غزا بريعة البحرين فبلغ زيادا غزاته
فأقبل حتى أغار فى مملكة حجر فأخذ مالا كثيرا وسبى امرأة حجر . . . إلى آخر القصة » .

(١) ثوى المسكان وبه : نزل ، وأثواه : أضافه ، والمثوى : المنزل ، والثوى : كنى البيت المهيبا
له ، والضيف وهو المراد هنا . (٢) الطلة العجوز ، وصبا الرجل مال إلى الجهل والفتوة وأصبته المرأة
والمراد حاولت رد عزه السالف إليه . (٣) آييت اللعن : تحية جاهلية أى آييت أن تأتى ماتلن به .

أبناءه أدد^(١) إني لأعزها جاراً ، وأكرمها جوارراً ، وأمنعها داراً ، ولقد أقام وافراً ،
 وزال شاكرراً ، فقال له المنذر : « يا عامر ، وإنك لتخال هُضْبِيَّاتٍ أَجَاذَاتِ الْوِبَارِ^(٢) ،
 وَأَفْنِيَّاتِ سَلْمَى ذَاتِ الْأَغْفَارِ^(٣) ، مَا نَعَاتِكَ مِنَ الْمَجْرِ^(٤) الْجَرَّارِ ، ذِي الْعَدَدِ الْكَثِيرِ^(٥)
 وَالْحَصْنِ وَالْمَهَارِ^(٦) وَالرَّمَاحِ الْجَرَّارِ^(٧) ، وكل ماضى الْفِرَّارِ^(٨) ، بيد كل مسعَرٍ كَرِيمِ
 النَّجَّارِ^(٩) ؟ قال عامر : أبيت اللعن ، إن بين تلك الهُضْبِيَّاتِ وَالرَّعَانَ^(١٠) وَالشَّعَابِ
 وَالْمُصْدَانَ^(١١) لَفَتِيَانَا أَبطالا ، وكهولا أزوالا^(١٢) ، يضر بون القَوَانِسِ^(١٣) ويستنزلون
 الفوارس ، بِالرَّمَاحِ الْمَدَاعِسِ^(١٤) لم يَتَّبِعُوا الرَّعَاءَ^(١٥) ، ولم تُرَشِّحْهُمْ^(١٦) الإماء ، فقال
 الملك : يا عامر لو قد تجاوزت الخليل في تلك الشعاب صهيلا ، كانت الأصوات قَمَقَمَةً^(١٧)
 وصليلا ، وَفَغَرَ الْمَوْتَ^(١٨) ، وأعجز القوتُ ، فتقارشت الرِّمَاحُ^(١٩) وَحَمَى السِّلَاحِ ،
 لَنَسَاقِي قُوَّتِكَ كَأَسَا لَا صَحْوَ بَعْدَهَا ، فقال مهلاً أبيت اللعن ، إن شَرَابَنَا وَبَيْلِ ،

(١) هو ادد بن زيد بن يشجب (بضم الجيم) بن عريب (بفتح العين) بن زيد بن كهلان بن سبأ
 ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وبنو ادد : هم مذحج وطي والأشعر .
 (٢) الوبار : شجرة حامضة شائكة . (٣) الغفر بالتحريك : صغار الكلاب .
 (٤) المجر : الجيش العظيم . (٥) الكثير . (٦) الحصن : جمع حصان ، وهو الفرس الذكر ،
 والمهارة : جمع مهر ، وهو ولد الفرس . (٧) الحرار والأحرار : جمع حر ، وهو خيار كل شيء .
 (٨) الفرار : حد الرمح والسهم والسيف . (٩) يقال هو مسعر حرب : أى موقد نارها كأنه
 آلة لسعر الحرب أى إيقادها ، والنجار : الأصل .
 (١٠) الرعان : جمع رعن (كشمس) وهو أنف يتقدم الجبل ، والجبل الطويل ويجمع أيضا على
 رعون .

(١١) الشعب : بالفتح الجبل ، وبالكسر : الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو ما انفرج
 بين الجبلين ، المصد (كشمس وكتف) والمصاد (كسحاب) الهضبة العالية وجمعه أمصدة ومصدان .
 (١٢) أزوال : جمع زول ، وهو الشجاع . (١٣) القوانس : جمع قونس كجعفر ، والقونس
 والقونوس : أعلى بيضة الحديد . (١٤) المداعس : جمع مدعس ، وهو الرمح الذى لا ينثنى .
 (١٥) الرعاء : بالضم والكسر ، الرعاة : جمع راع . (١٦) الترشيح : التربية .
 (١٧) القمقمة : حكاية صوت السلاح ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت .
 (١٨) فغر الموت فاه : أى فتحه . (١٩) تقارشت الرماح : تداخلت في الحرب .

وَحَدَّثَنَا أَلِيلٌ ^(١) ، وَمَعَجَمَنَا صَلِيبٌ ^(٢) ، وَلِقَاءَنَا مَهَيْبٌ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَامٍ إِنَّهُ لَقَلِيلٌ بَقَاءُهُ
الصَّخْرَةَ الصَّرَاءِ ^(٣) عَلَى وَقَعِ الْمَلَّاطِيسِ ^(٤) ، فَقَالَ : أَيْبِتِ اللَّعْنَ ، إِنَّ صَفَاتَنَا عِبْرُ
الْمَرَادِيسِ ^(٥) ، فَقَالَ : لِأَوْ قِظَنَّ قَوْمَكَ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ . ثُمَّ لَا عُقْبَتَهُمْ بَعْدَهَا رَقْدَةٌ
لَا يَهْبُ رَاقِدَهَا ، وَلَا يَسْتَقِظُ هَاجِدَهَا ^(٦) ، فَقَالَ لَهُ عَامِرٌ : إِنَّ الْبَغْيَ أَبَادَ عَمْرًا ^(٧) ،
وَصَرَخَ حُجْرًا ^(٨) ، وَكَانَا أَعَزَّ مِنْكَ سُلْطَانًا ، وَأَعْظَمَ شَأْنَا ، وَإِنْ لَقِينَا لَمْ تَلْقَ أَنْكَاسًا

(١) حاد ، وألله تأنيلا حده . (٢) عجم العود كنعصر : إذا عضه ليعرف صلابته من خوره ،
والمعجم اسم مكان منه وصليب أى صلب ، وهو كناية عن شدتهم ومنعهم . (٣) صخرة صراء : صماء .
(٤) الملطس : كعبر ، والملطاس : الممول الغليظ لكسر الحجارة . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضخم ،
ويقال ناقة عبر أسفار (بتثليث العين) أى قوية على السفر تشق مامرت به ، تقطع الأسفار عليها ، وكذا
الرجل الجرى على الأسفار الماضى فيها القوى عليها ، والمردس والمرداس : شئ صلب عريض تدك به الأرض ،
وردها دكها به وردس الحجر بالحجر (كنصر وضرب) كسره ، ومعنى العبارة إن صفاتنا تحمل ذلك المراديس
فلا تتحطم تحمها ، كناية عن صلابتهم وشدتهم . (٦) الهجود : النوم .

(٧) هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء ملك الخيرة ، وكان يلقب مضطرب الحجارة نشدة ملكه ، وقوة
سياسته (وهو عمرو بن هند) وأمه هند بنت الحارث بن عمرو عمه امرئ القيس بن حجر بن الحارث ،
وكان سبب قتله أنه قال يوما لجلسائه : هل تعلمون أن أحدا من العرب يأنف أن تحتم أمه أمى ؟ قالوا :
مانعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ؟ فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل ،
وزوجها كلثوم بن عتاب ، وأبها عمرو ، فسكت مضطرب الحجارة على ما فى نفسه وبعث إلى عمرو بن كلثوم
يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمه ، فقدم عمرو بن كلثوم فى فرسان من بنى تغلب ، ومعه أمه ليلى ، فنزل
على شاطئ الفرات ، وبلغ عمرو بن هند قدمه ، فأمر فضربت خيامه بين الخيرة والفرات ، وأرسل إلى
وجوه أهل ملكته ، فصنع لهم طعاما ، ثم دعا الناس إليه فقرب إليهم الطعام على باب السراشق ، وجلس هو
وعمر بن كلثوم وخواص أصحابه فى السراشق ، ولأمه هند قبة فى جانب السراشق ، وليلى أم عمرو
ابن كلثوم معها فى القبة « وقد قال مضطرب الحجارة لأمه إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف
فحى خدمك عنك ؟ فإذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومرها فتناولك الشئ بعد الشئ ، ففعلت هند
ما أمرها به أبها ، فلما استدعى الطرف ، قالت هند ليلى : ناولينى ذلك الطبق . قالت لتقم صاحبة الحاجة إلى
حاجتها ، فألحت عليها ، فقالت ليلى : واذاه يا آل تغلب فسمها وادها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه
والقوم يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشر فى وجهه وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق فى
السراشق وليس هناك سيف غيره فأخذه ، ثم ضرب به رأس مضطرب الحجارة فقتله ، وخرج فتادى يا آل
تغلب فانتهبوا ماله وخيله ، وسبوا النساء ، وساروا فلحقوا بالخيرة (تاريخ الكامل لابن الأثير ١ :
(٨) هو حجر بن الحارث (أبو امرئ القيس) وقد تقدم خبره . (١٩٧) .

ولا أغسّاساً^(١) ، فهبّش وضاءيمك وصنائيمك^(٢) ، وهلمّ إذا بدالك ، فنحن الألى قسطوا^(٣) على الأملاك قبلك ، ثم أتى راحلته فركبها ، وأنشأ يقول :

تعلّم (أبيت اللغن) أن قناتنا تزيد على غمز الثقف تصعباً^(٤)
 أتوعدنا بالحرب ؟ أمك هابل رويدك برقا ، لا أبالك ، خلباً^(٥)
 إذا خطرت دوني جديلةً بالقنا وحامت رجال النوث دوني تحداً^(٦)
 أبيت التي تهوى ، وأعطيتك التي تسوق إليك الموت أخرج أكهباً^(٧)
 فإن شئت أن تزدارنا فأت تعترف رجالا يذبلون الحديد المعقرباً^(٨)
 وإنك لو أبصرتهم في مجاهم رأيت لهم جمعاً كثيفاً وكوكباً^(٩)
 وذرك العيش الرخيّ جلادهم وملاهى بأكناف السدير ومشرّباً^(١٠)
 فأغض على غيظ ولا ترم التي تحكم فيك الزاعيّ المحرّباً^(١١)

(ذيل الأمالى ص ١٧٩)

- (١) الأذكاس : جمع نكس بالكسر وهو الضعيف ، والأغساس : جمع غس بانضم وهو الضعيف أيضا .
 (٢) هبش : جمع ، والوضائع : جمع وضيمة ، أنقال القوم وما يأخذها السلطان من الخراج والعشور .
 والصنائع : جمع صنعة : يقال هو صنعة فلان ، وصنيعه إذا اصطنته وأدبه وخرجه ورباه ، والمعنى : فتجهز للحرب ، واجمع الأموال اللازمة لذلك واحشد رجالك المدربين على القتال . (٣) أى جاروا .
 (٤) الثقف : ماتسوى به الرماح . (٥) هبلته أمه (كفرح) فقدته ، والبرق الخلب : المطمع المخلف .
 (٦) خطر الرجل بسيفه ورمحه : رفعه مرة ووضعته أخرى ، وجديلة والنوث من طي ، وتحبد به تعلق ، وتحبد عليه تمطف . (٧) الخرج كسبب : لوان من بياض وسواد خرج كفرح فهو أخرج ، وظلم أخرج : وهو الذى لون سواده أكثر من بياضه كلون الرماد ، والسكبية : الدهمة (السواد) أو غبرة مشربة سوادا ، كهب كفرح وكرم فهو أكهب وكاهب . (٨) ازداره : زاره (افتعل من الزيارة) واعترف الشيء عرفه ، وأذال ثوبه : إذا أطال ذيله قال كبير :

على ابن أبي العاصى دلاص حصينة اجاد المسدى سردها فأذاها

- والحديد : الدروع ، وشى معقرب : أى معوج معطوف ، يريد أنها دروع مزرودة (الزرد والسرد بالفتح : تداخل حلق الدرع بعضها فى بعض) والمعنى تجد أبطالا قد لبسوا الدروع السابعة المزرودة ، وهناك معنى آخر وهو : يقال أذال فرسه إذا أهانه ؛ والحديد : أى الفرس الحديد السير أى السريع ، والمعقرب الشديد الخلق المجتمعمة . ومار معقرب الخلق أى ملزج مجتمع شديد ، فالمعنى : تجد أبطالا يجهدون فى ميدان القتال أفراسهم كرا وصولا على الأعداء . (٩) السكوبة : الجماعة . (١٠) السدير والخورنق : قصران بناهما النعمان الأكبر بالحيرة . (١١) الرمح الزاعي : هو الذى إذا هز كأن كعوبه يجرى بعضها فى بعض اليه ، والحرب : المحدد .

١٤ - قيس بن رفاعة والحارث بن أبي شمر الغساني

كان قيس بن رِفاعَة يَفدُ سنة إلى الثَّعْمان اللَّخْمِي بالعراق ، وسنة إلى الحارث ابن أبي شَمْرِ الغَسَّانِي بالشَّام^(١) ، فقال له يوماً وهو عنده : يابنَ رِفاعَة ، بلغني أنك تفضل النعمان^(٢) عليّ؟ قال :

« وكيف أفضله عليك أبيتَ اللعن ؟ فوالله لَقَفَاكَ أحسنُ من وجهه ، ولَأَمُتُكَ أشرفُ من أبيه ، ولَأَبوكَ أشرف من جميع قومه ، ولشِمالِكَ أجود من يمينه ، ولحِرِّمانِكَ أنفع من نَدَاه ، ولَقَلِيلِكَ أكثر من كثيره ، ولِإِمَادِكَ^(٣) أغزر من غديره ، ولِكِرْسِيِّكَ أرفع من سريره ، ولجِدولِكَ أغمر من بحوره ، وليوْمُكَ أفضل من شهره ، ولشهرِكَ أمدُّ من حوْلِهِ ، ولحوْلِكَ خير من حُقْبِهِ^(٤) ، ولزَنَدُكَ أورى من زنده ، ولجفدِكَ أعزَّ من جنده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه لمن لحم الكثير النوك^(٥) ، فكيف أفضله عليك^(٦) ؟ » .

(الأمالي : ١ : ٢٦١ ومروج الذهب : ١ : ٢٩٨)

١٥ - قيس بن خفاف البرجمي وحاتم طيء

أنى أبو جَبَيْل قيس بن خَفَّافِ البرُجْمِي حاتم طيء ، فى دماء حملها عن قومه ، فأسلهوه^(٧) فيها ، وعجز عنها ، فقال : والله لآتين من يحملها عنى ، وكان شريفاً شاعراً ، فلما قدم عليه قال : « إنه وقعت بين قومي دماء فتواكلوها ، وإنى حملتها فى مالى وأملى ،

(١) كان المناذرة ملوك الحيرة من لحم ، والغساسنة : ملوك الشام من الأزد . فكلاهما من أصل يمنى ، وكان بينهما أحقاد وأضغان وحروب . (٢) النعمان بن المنذر . (٣) التَّمَاد : الماء القليل لا مادة له . (٤) الحقب بالضم وبضمتين : ثمانون سنة أو أكثر ، والدهر ، والسنة أيضاً . (٥) النوك بالضم والفتح : الحمق . (٦) وذكر المسعودى أن هذا الحديث كان بين حسان بن ثابت الأنصارى ، وبين الحارث بن أبي شمر . (٧) خذلوه .

فَقَدَّمْتُ مَالِي ، وَكُنْتُ أُمْلَى ، فَإِنْ تَحْمَلَهَا فَرُبَّ حَقٍّ قَدْ قَضَيْتَهُ ، وَهَمَّ قَدْ كَفَيْتَهُ ،
وَإِنْ حَالَ دُونَ ذَلِكَ حَائِلٌ لَمْ أَذْمِ يَوْمَكَ ، وَلَمْ أَيْسَ مِنْ غَدِكَ . ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

حَمَلْتُ دِمَاءَ لِلْبِرَاجِمِ بَجَّةً^(١) فُجِئْتُكَ لِمَا أَسْأَلْتَنِي الْبِرَاجِمِ^(١)

وَقَالُوا (سَفَاهَا) لِمَ حَمَلْتَ دِمَاءَنَا فَقُلْتُ لَهُمْ يَكْفِي الْحِمَالَةَ حَاتِمٌ^(٢)

مَتَى آتَاهَا فِيهَا يَقُولُ لِي مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا أَخْطَأْتُكَ الْأَشْأَمُ^(٣)

فِيحْمَلُهَا عَنِّي ، وَإِنْ شِئْتَ زَادَنِي زِيَادَةٌ مَنُ حَنَّتْ إِلَيْهِ الْمَكَارِمُ

يَعِيشُ النَّدَى مَا عَاشَ حَاتِمٌ طَيِّبٌ فَإِنْ مَاتَ قَامَتْ لِلسَّخَاءِ مَاتِمٌ

يُنَادِينُ مَاتَ الْجُودُ مَعَكَ فَلَا نَرِي مَجِيئًا لَهُ مَا حَامَ فِي الْجَوِّ حَاتِمٌ

وَقَالَ رِجَالُهُ أَنَّهُ بَبَّ الْعَامُ مَا لَهُ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنِّي بِذَلِكَ عَالِمٌ^(٤)

وَلَكِنَّهُ يُعْطَى مِنْ أَمْوَالِ طَيِّبٍ إِذَا جَلَّفَ الْمَالَ الْحَقُوقُ الْوَلَوَائِمُ^(٥)

فَيُعْطَى الَّتِي فِيهَا الْغَنَى وَكَأَنَّهُ لِتَصْغِيرِهِ تِلْكَ الْعَطِيَّةَ جَارِمٌ^(٦)

بِذَلِكَ أَوْصَاهُ عَدِيٌّ وَحَشْرَجٌ وَوَعَدُ وَعَبَدَ اللَّهُ تِلْكَ الْقِتَامُ^(٧)

فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ : إِنْ كُنْتُ لِأَحِبُّ أَنْ يَأْتِيَنِي مِثْلَكَ مِنْ قَوْمِكَ ، هَذَا مِرْبَاعِي^(٨) مِنَ
الغارة على بني تميم ، فخذها وافراً ، فَإِنْ وَفَى بِالْحِمَالَةِ ، وَإِلَّا أَكَلْتَهَا لَكَ ، وَهُوَ مِائَتَانِ بَعِيرٍ
سَوِيَّ بَنِيهَا وَفِصَالَهَا ، مَعَ أَيِّ لَا أَحِبُّ أَنْ تُؤَيِّسَ قَوْمَكَ بِأَمْوَالِهِمْ ، فَضَحَكَ أَبُو جُبَيْلٍ
وَقَالَ : لَكُمْ مَا أَخَذْتُمْ مِنَّا ، وَلَنَا مَا أَخَذْنَا مِنْكُمْ ، وَأَيُّ بَعِيرٍ دَفَعْتَهُ إِلَيَّ ، لَيْسَ ذَنْبُهُ
فِي يَدِ صَاحِبِهِ ، فَأَنْتَ مِنْهُ بَرِيءٌ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَزَادَهُ مِائَةَ بَعِيرٍ ، فَأَخَذَهَا وَانصَرَفَ رَاجِعًا
إِلَى قَوْمِهِ . فَقَالَ حَاتِمٌ فِي ذَلِكَ :

(١) البراجم من تميم . (٢) السفاه : السفه . والحماله : الذية يحملها قوم عن قوم .
(٣) الأشأم : ضد الأيمن . (٤) أنهب المال : جملة نها يفار عليه . (٥) أي جرفه وانتقصه .
(٦) جرم الرجل (يفتحتين) : أذنب كأجرم . (٧) جمع ققام : وهو السيد . (٨) المرباع : ربع
الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها .

أَتَانِي الْبُرْجِيُّ أَبُو جُبَيْلٍ لِهَمٍّ فِي حَمَالَتِهِ طَوِيلٍ
فَقَلْتُ لَهُ خُذِ الْمِرْبَاعَ رَهْوًا فَإِنِّي لَسْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ (١)
عَلَى حَالٍ ، وَلَا عَوَّدْتُ نَفْسِي عَلَى عَلَانِهَا عِلَلِ الْبَخِيلِ
فَخَذَهَا إِنهَا مَائِنَا بِعِيرِ سَوَى النَّابِ الرَّذِيَّةِ وَالْفَصِيلِ (٢)
فَلَا مَنْ عَلَيْكَ بِهَا ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَنَّانَ يُزْرِي بِالْجَزِيلِ
فَأَبَ الْبُرْجِيِّ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ أَعْبَاءِ الْحَمَالَةِ مِنْ فَتِيلِ
يَجْرُ الذَّلِيلُ يَنْفُضُ مَذْرُوبَهُ خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ حَمْلِ ثَقِيلِ (٣)

(ذيل الأمال ، ٢٢ ، والأغانى ٧ : ١٤٥)

١٦ - مقال قبيصة بن نعيم لامرئ القيس بن حجر

قدم على امرئ القيس بن حجر الكندي بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بني أسد وفيهم قبيصة بن نعيم يسألونه العفو عن دم أبيه (٤) ، فخرج عليهم في قباء وخف وعمامة سوداء - وكانت العرب لا تنعم بالسواد إلا في الترات - فلما نظروا إليه قاموا له ، وبدر إليه قبيصة فقال :

« إنك في المحلِّ والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحمده أيامه ، وتتنقل به أحواله ، بحيث لا تمعج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ، وشرف أعراقك (٥) ، وكرم أصلك في العرب ، تحمده (٦) يحتمل ما حمل عليه

(١) يقال : آتيك به رهوا أى آتيك به عفوا سهلا لا احتباس فيه . (٢) الناقة المسنة ، والرذية : مؤث الرذى ، وهو الضعيف من كل شيء ومن أثقله المرض . (٣) المذروان . أطراف الألية بلا واحد أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيته ، ويقال جاء ينفض مذرويه . أى باغيا مهتدا .

(٤) وكانت بنو أسد (وهم من المضرية) خاضعة للملوك كندة ، وآخر ملك عليهم هو حجر أبو امرئ القيس ، وقد ثاروا عليه وقتلوه لأنه كان قد عسف في حكمه لهم ، واشتط عليهم في الإتاوة التي يؤدونها إليه . (٥) الأعراق : جمع عرق وهو أصل كل شيء . (٦) المحمده : الأصل .

من إقالة العثرة ، ورجوع عن المفوّة ، ولا تتجاوز المهم إلى غايةٍ إلا رجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصّبح ، ما يطول رغباتها ، ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل ، الذي عمّت رزيقته نزاراً واليمن ، ولم تُخصّصْ بذلك كندة دوننا ، للشرف البارِع كان الحُجْر ، التاجُ والعمّة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يُفدى هالك بالأنفَس الباقية بعده لما بخلت كرامنا بها على مثله ، ولكنه مَضَى به سبيلٌ لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يَلْحَقُ أقصاه أدناه .

فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث :
إمّا أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها في بناء المكرّمات صوتاً ، فقدناه إليك بِنِسْمَةٍ^(١) ، تذهب مع شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِيَأْتِي قَصْرَتِهِ^(٢) ، فنقول : رجل امْتِجَنَ بهالكِ عزيز ، فلم يَسْتَلَّ سَخِيمَتَهُ^(٣) إلا تمكينه من الانتقام . أو فداء بما يروح^(٤) على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت به القُضْبُ^(٥) إلى أجفانها ، لم يرددها تسليط الإحن^(٦) على البرآء . وإما أن وادَعْتَنَا إلى أن تضع الحوامل ، فتُسْدِلُ الأُزْرَ ، وتُعْقِدُ الحُمْرُ فوق الرايات .

فبكي امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

(١) النسم : سير عريض تشد به الرحال ، والقطة منه نسمة . (٢) القصرة : أصل العنق .
(٣) السخيمة : الحقد . (٤) يرجع ، وأراح الإبل : ردها إلى المراح بالضم أى المأوى ، والنعم الإبل والشاء ، أو خاص بالإبل ، وهو المراد هنا . (٥) السيوف . (٦) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد .

١٧ — رد امرئ القيس عليه

« لقد علمت العرب أنه لا كُفءٌ لحِجْرٍ في دمٍ ، وأنى لن أعتاضَ به جَمَلًا ولا ناقةً ، فأكتسب به سُبَّةَ الأبد ، وفَتَّ العَضُدِ (١) ، وأما النَّظْرَةُ (٢) فقد أوجبها الأجنَّةُ في بَطُونِ أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سببًا ، وستعرفون طلائع كِنْدَةَ من بعد ذلك ، تحمل في القلوب حنقًا ، وفوق الأسننة علقًا (٣) » :

إذا جالت الحرب في مَأزِقٍ تُصافِحُ فيه المنايا النفوسا
أتقيمون أم تنصرفون ؟

قالوا : « بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذية ، وحرِب وِبالِيَّة » ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لعلك أن تستوخِمَ الوِزْدَ إن غَدَتِ كُتَّائِبُنَا في مَأزِقِ الحربِ مُنْمَطِرٍ (٤)
فقال امرؤ القيس : « لا والله ، ولكن أستعذِبُه ، فرُوَيْدًا ، ينفرج لك دُجَاهَا
عن فُرسان كِنْدَةَ وكتائبِ حَمِيرٍ ، واقْد كان ذِكرُ غيرِ هذا بي أولى ، إذ كنت نازلا
برَبِي (٥) ، ولكنك قلتَ فأوجبت » فقال قبيصة : « ما يَتَوَقَّع فوق قدر المعاتبة
والإعتاب (٦) » فقال امرؤ القيس : « هو ذاك » .

(صبح الأعشى ٢ : ٢١٦ والأغانى ٨ : ٧٢ والمثل السائر ١٠١)

(١) فته : كسره ، وهو كناية عن الضعف والوهن . (٢) الإمهال . (٣) أى دما .

(٤) تستوخمه : أى تجده وخيما . (٥) الربع : المنزل . (٦) أعتبه : أرضاه .

١٨ - خطبة هاني بن قبيصة الشيباني

قال هاني بن قبيصة الشيباني يحرّضُ قَوْمَهُ يَوْمَ ذِي قَارِ (١) :
« يَا مَعْشَرَ بَكْرٍ ، هَالِكٌ مَمْدُورٌ ، خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ قَرُورٍ ، إِنَّ الْحَذَرَ لَا يُنْجِي
مِنَ الْقَدْرِ ، وَإِنَّ الصَّبْرَ مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ ، الْمَنِيَّةُ وَالْأَدْنِيَّةُ ، اسْتِقْبَالُ الْمَوْتِ خَيْرٌ
مِنِ اسْتِدْبَارِهِ ، الطَّمَعُ فِي ثَغْرِ (٢) النَّحُورِ ، أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ وَالظُّهُورِ ،
يَا آلَ بَكْرٍ ، قَاتِلُوا فَمَا لِلنَّيَا مِنْ بَدٍّ » .
(الأمالي ١ : ٩٢)

١٩ - خطبة عمرو بن كلثوم

« أما بعد : فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تزكية نفسه ، ولا يعبر عنه
في تزكية أصحابه أصدق من اعتمادهم بإمام برغبته ، وإثمانه إياهم على حرْمَتِهِ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٦٩)

٢٠ - أكرم بن صيفي يعزى عمرو بن هند عن أخيه

وعزى أكرم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال له :
« إِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الدَّارِ سَقَرٌ لَا يَحْلُونَ عَقْدَ الرَّحَالِ إِلَّا فِي غَيْرِهَا ، وَقَدْ أَتَاكَ
مَا لَيْسَ بِمَرْدُودٍ عَنْكَ ، وَازْتَحَلَّ عَنْكَ مَا لَيْسَ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ ، وَأَقَامَ مَعَكَ مَنْ سَيِّظَعُنُ
عَنْكَ وَيَدْعُكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَيَّامٌ ، فَأَمْسِ عِظَةً وَشَاهِدْ عَدْلًا ، فَجَعَلَكَ بِنَفْسِهِ ،

(١) كان من أعظم أيام العرب وأبلغها في توهين أمر الأعاجم ، وهو يوم لبني شيبان ، وكان

أبريز أغزاهم جيشا ، فظفر بنو شيبان ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم .

(٢) جمع ثغرة بالضم : وهي نقرة النحر بين الترقوتين (والثغرة بالفتح : كل عورة منفتحة) .

وأبقى لك وعليك حكمته؛ واليوم غنيمة، وصديق أتك ولم تأته، طالت عليك غيبته،
وستسرع عنك رحلته؛ وغد لاتدرى من أهله، وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر
للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها،
واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر
فعله .

(المقد الفريد ٢ : ٣٥ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٤)

٣١ - خطبة قس بن ساعدة الإيادي

خطب قس بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ، فقال :

« أيها الناس : اسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو
آت آت ، ليل داج^(١) ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر^(٢) ، وبحار
تزخر^(٣) ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة^(٤) ، وأنهار مجرأة . إن في السماء لخبرا ،
وإن في الأرض لخبرا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا
فناموا ؟ يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه : إن لله دينًا هو أرضى له ، وأفضل من
دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرًا . ويروى أن قسا أنشأ بعد ذلك
يقول :

في الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر

(١) مظلم . (٢) تضيء وتتلاذأ . (٣) تمتلئ وترتفع . (٤) مدحوة : أى مبسوطه ،

ولأنما قال مدحاة لمرعاة السجع .

ورأيت قومي نحوها تمضي الأَكْبَرُ والأصغر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقين غابر^(١)
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

(صبح الأعشى ١ : ٢١٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ، البيان والتبيين ١ : ١٦٨ ،
الأغاني ١٤ : ٤٠ ، المقدم الفريد ٢ : ١٥٦ ، ومجمع الأمثال للميداني ١ : ٧٤)

٢٢ - قس بن ساعدة عند قيصر

وكان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوماً : ما أفضل
العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ،
قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال : فما أفضل المال ؟ قال :
ما قضى به الحقوق . (الأمالي ٢ : ٩٣)

٢٣ - خطبة المأمون الحارثي

قعد المأمون الحارثي في نادى قومه ، فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم أفكر طويلاً ،
ثم قال : « أرعوني أسماكم ، وأضعوا إلى قلوبكم ، يَبْلُغُ الوعظ منكم حيث أريد ،
طَمَحَ^(٢) بالأهواء الأشرُّ ، وَرَانَ^(٣) على القلوب الكدر ، وطَخَطَخَ^(٤) الجَهْلُ النظر ،
إن فيما ترى لَمُعْتَبَرًا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وَشَمَسَ تَطَلَّعٌ وَتَغَرَّبُ
ونجوم تسرى فتعزَّبُ ، وقر تَطْلَعُهُ النحور ، وَتَمَحَّقُهُ أَدْبَارُ الشهور ، وعاجز مُثْرٍ ،
وَحَوْلٌ مُكْدٍ^(٥) ، وَشَابٌ مُحْتَضِرٌ ، وَيَفَنَ^(٦) قد غَبَرَ ، وَرَاحِلُونَ لا يَثُوبُونَ ، وموقوفون

(١) مقيم . (٢) ارتفع وعلا وذهب . (٣) غلب . (٤) أظلم . (٥) رجل حول :
شديد الاحتيال ، وأكدى : لم ينجح ، وأصله من أكدى إذا حفر فصادف الكدية (بضم الكاف) وهي
الصفة العظيمة الشديدة . (٦) الذى يموت حدثاً ، وهو مأخوذ من الحضرة كأنه حصد أخضر ،
واليفن : الشيخ الكبير .

لَا يُفَرِّطُونَ^(١) ، وَمَطَرٌ يَرْسَلُ بِقَدَرٍ ، فَيُحْيِي الْبَشَرَ ، وَيُبْرِقُ الشَّجَرَ ، وَيُطْلِعُ النَّمْرَ ،
وَيَنْبِتُ الزَّهَرَ ، وَمَاءٌ يَتَفَجَّرُ ، مِنَ الصَّخْرِ الْأَيَّرِ^(٢) ، فَيَصْدَعُ الْمَدْرَ ، عَنْ أَفْنَانِ الْأَخْضَرِ ،
فَيُحْيِي الْأَنَامَ ، وَيُسْبِغُ السَّوَامَ ، وَيُنْمِي الْأَنْعَامَ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ
عَلَى الْمُدْبِرِ الْمُقَدَّرِ ، الْبَارِي الْمَصُورِ . بِأَيِّهَا الْعَقُولُ النَّافِرَةُ ، وَالْقُلُوبُ النَّائِرَةُ^(٣) ،
أَنِّي تُؤَفِّكُونَ ، وَعَنْ أَيِّ سَبِيلٍ تَعْمَهُونَ ، وَفِي أَيِّ حَيْرَةٍ تَهَيِّمُونَ ، وَإِلَى أَيِّ غَايَةٍ
تُوفِضُونَ^(٤) ، لَوْ كُشِفَتِ الْأَعْظِيَّةُ عَنِ الْقُلُوبِ ، وَتَجَلَّتِ الْغِشَاوَةُ عَنِ الْعَيْونِ ، لَعَرَّحَ
الشَّكَّ عَنِ الْيَقِينِ ، وَأَفَاقَ مِنْ نَشْوَةِ الْجَهَالَةِ مَنْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .

(الأمال ١ : ٢٧٦)

٢٤ - بين مهلهل بن ربيعة ومرة بن ذهل بن شيبان

لَمَا قَتَلَ جَسَّاسٌ^(٥) بِنَ مَرَّةَ بِنَ ذُهْلَ الشَّيْبَانِيَّ كَلْبِيَّ^(٦) بِنَ رِبِيعَةَ التَّغْلَبِيَّ ،
تَشْمَرًا أَخُوهُ مُهْلَهْلًا^(٧) ، وَاسْتَعَدَّ لِحَرْبِ بَكْرٍ ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ قَوْمَهُ ، فَأَرْسَلَ رِجَالًا مِنْهُمْ

(١) يَقْلَمُونَ . (٢) الصَّلْبُ . (٣) النَّائِرَةُ النَّافِرَةُ ، نَارَتْ نَوْرًا بَفَتْحِ النَّوْنِ ، وَنَوَارًا
بِفَتْحِهَا وَكسرها : نَفَرَتْ . (٤) تَسْرَعُونَ .

(٥) وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْبَسُوسَ بِنْتَ مَنَقَدِ التَّمِيمِيَّةِ خَالَةَ جَسَّاسٍ كَانَ لَهَا جَارٌ مِنْ جَرَمٍ يُقَالُ لَهُ سَعْدُ بِنِ
شَمِيسٍ ، وَكَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ يُقَالُ لَهَا سَرَابٌ ، وَكَانَ كَلْبِيٌّ قَدْحِي أَرْضًا مِنْ أَرْضِ الْعَالِيَةِ ، فِي أَنْفِ الرَّبِيعِ ،
فَلَمْ يَكُنْ يَرَعَاهُ أَحَدٌ إِلَّا إِبِلَ جَسَّاسٍ لِمَصَاهِرَةِ بَيْنَهُمَا - وَكَانَتْ جَلِيلَةَ بِنْتَ مَرَّةَ أُخْتِ جَسَّاسٍ تَحْتَ كَلْبِيٍّ -
فَخَرَجَتْ سَرَابٌ فِي إِبِلِ جَسَّاسٍ تَرَعَى فِي حِمَى كَلْبِيٍّ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا كَلْبِيٌّ فَأَنكَرَهَا فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ فَأَصَابَ
ضَرْعَهَا ، فَوَلَّتْ حَتَّى بَرَكْتَ بِفَنَاءِ صَاحِبِهَا وَضَرْعِهَا يَشْخَبُ دَمًا وَلَبِنًا ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا صَرَخَ بِالذَّلِّ ،
فَخَرَجَتْ الْبَسُوسُ فَضْرَبَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا ، وَنَادَتْ وَادَّاهَ وَسَمِعَهَا جَسَّاسٌ فَسَكَبَهَا ، وَقَالَ لَهَا : لِيَقْتُلَنَّ غَدًا
فَحَلَّ أَعْظَمَ مِنْ نَاقَةِ جَارِكَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَوَقَّعُ عَرَّةَ كَلْبِيٍّ حَتَّى أَمَكَّنَتْهُ مِنْهُ الْفُرْصَةُ فَقَتَلَهُ ، وَنَشِبَتْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
الْحَرْبُ (حَرْبُ الْبَسُوسِ) بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلَبِ ابْنِي وَائِلِ أَرْبَعِينَ سَنَةً « وَبَنُو شَيْبَانَ بَطْنٌ مِنْ بَكْرٍ » .

(٦) اسْمُهُ وَائِلُ بِنِ رِبِيعَةَ بِنِ حَارِثِ بِنِ زَهْرِيٍّ بِنِ جِشْمِ بِنِ بَكْرِ بِنِ حَبِيبِ بِنِ عَمْرٍو بِنِ غَمِّ بِنِ تَغْلَبِ بِنِ وَائِلِ ،
وَإِنَّمَا لُقِّبَ كَلْبِيًّا لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا سَارَ أَخَذَهُ مَعَهُ جِرْوُ كَلْبٍ ، فَإِذَا مَرَّ بِرُوضَةٍ أَوْ مَوْضِعٍ يَعْجِبُهُ ، ضَرَبَهُ ثُمَّ أَلْقَاهُ
فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَهُوَ يَصِيحُ وَيَعْوَى ، فَلَا يَسْمَعُ عَوَاذَهُ أَحَدٌ إِلَّا تَجَنَّبَهُ وَلَمْ يَقْرَبِهِ ، وَكَانَ يُقَالُ كَلْبِيٌّ وَائِلٌ ثُمَّ
اِخْتَصَرُوا فَقَالُوا كَلْبِيٌّ فَتَغْلَبُ عَلَيْهِ . (٧) اسْمُهُ عَدِيُّ بِنِ رِبِيعَةَ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ الْمُهْلَهْلُ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَلْهَلَ
الشَّمْرَ : أَيَّ أَرْقَهُ .

إلى بنى شيبان ، فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان « أبا جساس » وهو في نادي قومه ، فقالوا له :

« إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناب^(١) من الإبل ، ففقطعتم الرّحِم ، وانتهكتم الحرمه ، وإنا كرهنا العجالة عليكم دون الإعذار إليكم ، ونحن نعرض عليكم خيلاً أربعا ، لكم فيها مخرج ، ولنا فيها مقنع ، فقال مرة : وما هي ؟ قالوا : تحيي لنا كليبًا ، أو تدفع إلينا جساسًا قاتله فنقتله به ، أو همامًا^(٢) فإنه كفء له ، أو تمكنتنا من نفسك ، فإن فيك وفاء من دمه ، فقال : « أمّا إحيائي كليبًا ، فهذا ما لا يكون ، وأمّا جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل ، ثم ركب فرسه ، فلا أدري أي البلاد احتوى عليه ، وأمّا همام فإنه أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، كلهم فرسان قومهم ، فإن يسلموه لي ، فأدفعه إليكم يقتل بجريرة^(٣) غيره . وأمّا أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غدًا ، فأكون أول قتيل بينها ؟ فما أتعجل الموت ، ولكن لكم عندي خصلتان : أما إحداهما فهو لاء بنى الباقون ، فعلقوا في عنق أبيهم شتم نسعة ، فانطلقوا به إلى رحالكم ، فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سود الحدق ، حمر الوبر ، أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل ، فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ، تبذل لنا ولدك ، وتسومنا اللبن من دم كليب ؟ » ونشبت الحرب بينهم .

(المقد الفريد ٣ : ٧٨ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٩٠ ، والأغانى ٤ : ١٤١)

٢٥ — منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين

لمّا أُنَّ أبو براء : عامر بن مالك بن جعفر بن ملاعب الأسيّة ، تنازع في الرياسة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ابن جعفر .

(٢) هو همام بن مرة أخو جساس ، وكان نديما لهلهل .

(١) الناقة المسنة .

(٣) الجريرة : الجريمة .

فقال علقمة : كانت لجدِّي الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا استرجعتها ، فأنا أولى بها منك ، فشرى^(١) الشرَّ بينهما ، وسارا إلى المنافرة . فقال علقمة : إن شئت نافرتك ، فقال عامر قد شئت . والله إني لأكرمك منك حبسًا^(٢) ، وأثبت منك نسبًا ، وأطول منك قصبًا^(٣) .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلاً ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أحبُّ إلى نساءك أن أصبحَ فيهنَّ منك ، أنا أنحرُّ منك للقاح^(٤) ، وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في السنة الشَّيخ^(٥) .

فقال علقمة : أنا خير منك أنراً ، وأخذتُ منك بصراً ، وأعزُّ منك نفراً ، وأشرفُ منك ذِكراً . فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد ، وبصري ناقصٌ ، وبصرُك صحيحٌ ، ولكني أنافرك ، إني أسمى منك سُمَّه^(٦) ، وأطولُ منك قِمةً ، وأحسنُ منك لَمَّةً^(٧) ، وأجعدُ منك جُمَّه^(٨) ، وأسرعُ منك رَحْمَةً ، وأبعدُ منك هِمَّةً . فقال علقمة : أنتَ رجلٌ جسيمٌ ، وأنا رجلٌ قَضيعٌ^(٩) ، وأنتَ جميلٌ ، وأنا قبيحٌ ، ولكني أنافرك بأبائي وأعمامي . فقال عامر . آباؤك أعمامي ، ولم أكن لأنافرك بهم ، لكني أنافرك ، أنا خيرٌ منك عَقِيًّا ، وأطعم منك جدًّا . فقال علقمة : قد علمت أن لك عَقِيًّا ، وقد أطعمت طيِّبًا ، ولكني أنافرك ، إني خيرٌ منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أمُّ عامر - وكانت تسمع كلامهما - فقالت : يا عامر نافرهُ ، أيكما أولى بالخيرات . قال عامر : إني والله لأرُكبُ منك في الحِماة ، وأقتلُ منك للكِماة^(١٠) ،

(١) استطار . (٢) الحسب : ما تعده من مفاخر آباءك ، أو الشرف الثابت في الآباء ، أو الكرم ، أو الشرف في الفعل أو الفعالم الصالح . (٣) القصب : عظام اليدين والرجلين ونحوهما ، كناية عن طول قامته . (٤) الابل : واحدها لقوح . (٥) الشياخ : القحط . (٦) السمة : القرابة ، ويروي أنا أنثر منك أمة ، أي أكثر قوما . (٧) اللمة : الشعر المجازز شحمة الأذن .

(٨) مجتمع شعر الرأس . (٩) نحيف من القصف ، وهو النحافة . (١٠) جمع كمي ، وهو

وَخَيْرٌ مِنْكَ لِمَوْتِي وَالْمَوْلَاةِ : فَقَالَ لَهُ عُلْقَمَةُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَبَرٌّ ، وَإِنَّكَ لِفَاجِرٌ ، وَإِنِّي لَوْلُودٌ ، وَإِنَّكَ لِعَاقِرٌ ^(١) ، وَإِنِّي لَعَفٌّ ، وَإِنَّكَ لِعَاهِرٌ ، وَإِنِّي لَوَفِيٌّ ، وَإِنَّكَ لِعَادِرٌ ، فَفِيمَ تُفَاخِرُنِي يَا عَامِرُ؟ فَقَالَ عَامِرٌ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْزَلُ مِنْكَ لِلْقَفْرَةِ ^(٢) ، وَأُنْحَرُ مِنْكَ لِلْبَكْرَةِ ^(٣) ، وَأَطْعَمُ مِنْكَ لِلْهَبْرَةِ ^(٤) ، وَأَطْعَنُ مِنْكَ لِلثُّغْرَةِ . فَقَالَ عُلْقَمَةُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَكَلِيلُ الْبَصْرِ ، نَكِدُ النَّظَرَ ، وَثَابُّ عَلَى جَارَاتِكَ بِالسَّحَرِ .

فَقَالَ بَنُو خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ - وَكَانُوا يَدُأُ مَعَ بَنِي الْأَحْوَصِ عَلَى بَنِي مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ - لَنْ نُطِيقَ عَامِرًا ، وَلَسْكَنَ قَلُّهُ أَنْفَرُكَ بِنَجْرِنَا وَأَقْرَبْنَا إِلَى الْخَلِيْرَاتِ . فَقَالَ لَهُ عُلْقَمَةُ هَذَا الْقَوْلُ ، فَقَالَ عَامِرٌ : عَيْرٌ ^(٥) وَتَيْسٌ ، وَتَيْسٌ وَعَنْزٌ . فَذَهَبَتْ مِثْلًا . نَعَمْ ، عَلَى مِائَةِ مِِنَ الْإِبِلِ إِلَى مِائَةِ مِِنَ الْإِبِلِ يُعْطَاهَا الْحَكَمَ ، أَيُّنَا نَفَرَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ أَخْرَجَهَا ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَوَضَعُوا بِهَا رَهْنًا مِنْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى يَدِي رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ خُزَيْمَةُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْوَحِيدِ ، فَسُمِيَ « الضَّمِينِ » .

وَخَرَجَ عُلْقَمَةُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي خَالِدِ ، وَخَرَجَ عَامِرٌ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي مَالِكِ ، وَجَعَلَا مُنَافِرَتَهُمَا إِلَى أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ ، فَلَمْ يَقْلُ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، وَكَرِهَ ذَلِكَ لِحَالِهِمَا وَحَالِ عَشِيرَتِهِمَا ، وَقَالَ : أَنْتَا كَرَكِبْتِي الْبَعِيرَ الْأَدْرَمَ ^(٦) ، قَالَ : فَأَيُّنَا الْيَمِينُ؟ قَالَ كِلَا كَمَا يَمِينُ ، وَأَبِي أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا . فَانْطَلَقَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامِ فَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا - وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ تَحْكُمُ إِلَى قُرَيْشٍ - فَأَتِيَا عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ ،

(١) رجل عاقِر: لم يولد له ولد . (٢) القفرة: النقرة . الخلاء من الأرض . (٣) البكرة : الفتية من الإبل . (٤) الهبرة : قطعة مجتمعة من اللحم . هبرة قطعه قطعًا كبارًا ، وهبر له من اللحم هبرة قطع قطعة . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ، وهو أقوى من التيس ، أى مثل وإياك كالعير والتيس ، أو على الأقل كالتيس والعنز ، إذ التيس أقوى على النطح من العنز ، وفى المثل : « كان عزا فاستتيس » أى صار تيسًا . يضرب للذليل الضعيف يصير عزيزًا قويا .

(٦) درم العظم : وراه اللحم حتى لم يبق له حجم ، وامرأة درماة لاتستبين كعوبها ومرافقها ، وكل ماغطاء الشحم واللحم وخفى حجمه فقد درم .

فَأَبَى أَنْ يَقُولَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، فَأَتِيَا غَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ ، فَرَدَّهُمَا إِلَى حَرَمَلَةَ ابْنِ الْأَشْعَرِ الْمُرِّيِّ ، فَرَدَّهُمَا إِلَى هَرَمِ بْنِ قُطَيْبَةَ بْنِ سَنَانَ الْفَزَارِيِّ ، فَاذْطَلَقَا حَتَّى نَزَلَا بِهِ ، وَقَدْ سَاقَا الْإِبِلَ مَعَهُمَا حَتَّى أَشْتَتَ وَأُرْبَعَتَ ، لَا يَأْتِيَانِ أَحَدًا إِلَّا هَابَ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ هَرَمٌ : لِعَمْرِي لِأَحْكَمَنَّ بَيْنَكُمَا نَمَّ لَا فُضِّلَنَّ ، فَأَعْطَيَْانِي مَوْثِقًا أَطْمئنُّ إِلَيْهِ أَنْ تَرْضِيَا بِمَا أَقُولُ ، وَتُسَلِّمَا لِمَا قَضَيْتُ بَيْنَكُمَا ، وَأَمْرُهُمَا بِالْإِنْصِرَافِ ، وَوَعْدُهُمَا ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ قَابِلٍ ، فَاذْصَرَفَا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ خَرَجَا إِلَيْهِ ، وَأَقَامَ الْقَوْمَ عِنْدَهُ أَيَّامًا .

فَأَرْسَلَ هَرَمٌ إِلَى عَامِرٍ فَأَتَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِهِ عِلْقَمَةَ ، فَقَالَ يَا عَامِرُ : قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ رَأْيًا ، وَأَنْ فِيكَ خَيْرًا . وَمَا حَبَسْتُكَ هَذِهِ الْأَيَّامَ إِلَّا لِتَنْصَرِفَ عَن صَاحِبِكَ ، أَتَنَافَرُ رَجُلًا لَا تَفْخَرُ أَنْتَ وَقَوْمُكَ إِلَّا بِأَبَائِهِ ! فَمَا الَّذِي أَنْتَ بِهِ خَيْرٌ مِنْهُ ؟ فَقَالَ عَامِرُ : نَشَدْتُكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ أَنْ لَا تَفْضَلَ عَلَيَّ عِلْقَمَةَ ، فَوَاللَّهِ لَنْ فَعَلْتُ لَا أَفْلِحُ بَعْدَهَا أَبَدًا . هَذِهِ نَاصِيَتِي فَاجْزُئْهَا وَاحْتَكِمْ فِي مَالِي ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بَدَ فَاعْلَمْ ، فَسَوِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، قَالَ : انْصَرَفَ فَسَوْفَ أَرَى رَأْيِي . فَخَرَجَ عَامِرٌ وَهُوَ لَا يَشْكُ أَنْهُ يَنْفَرُهُ ^(١) عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عِلْقَمَةَ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِهِ عَامِرٌ ، فَأَتَاهُ ، وَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِعَامِرٍ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ عِلْقَمَةَ بِمَا رَدَّ بِهِ عَامِرٌ ، وَانْصَرَفَ وَهُوَ لَا يَشْكُ أَنْهُ سَيَفْضَلُ عَلَيْهِ عَامِرًا . ثُمَّ إِنْ هَرَمًا أَرْسَلَ إِلَى بَنِيهِ وَبَنِي أَبِيهِ : إِنِّي قَائِلٌ غَدًا بَيْنَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ مَقَالَةً ، فَإِذَا فَعَلْتُ فَلْيَطْرُدْ بَعْضُكُمْ عَشْرَ جَزَائِرَ ، فَلْيَنْتَحِرْهَا عَن عِلْقَمَةَ ، وَيَطْرُدْ بَعْضُكُمْ عَشْرَ جَزَائِرَ ، يَنْحَرُهَا عَن عَامِرٍ ، وَفَرِّقُوا بَيْنَ النَّاسِ لَا تَكُونْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ ، وَأَصْبِحْ هَرَمٌ مَجْلِسُ مَجْلِسِهِ ، وَأَقْبَلِ النَّاسَ ، وَأَقْبَلِ عِلْقَمَةَ وَعَامِرَ حَتَّى جَلَسَا ، فَقَامَ هَرَمٌ فَقَالَ : يَا بَنِي جَعْفَرٍ ، قَدْ تَحَا كَتَمًا عِنْدِي ، وَأَنْتُمَا كَرَكِبْتِي

(١) أَنْفَرَهُ عَلَيْهِ وَنَفَرَهُ عَلَيْهِ : قَضَى لَهُ عَلَيْهِ بِالْغَلْبَةِ .

البعير الأدرم : تقعان إلى الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه ،
وكلا كما سيد كريم ، وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر ، فنحروها حيث أمرهم
هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل ، وهما ابنا عم
فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

(الأغاني ١٥ : ٥١ ، وصبح الأعشى ١ : ٣٨٢ ، وشرح العيون ١٠٦ ، والعمدة ١ : ٢٨)

أشرف العرب بين يدي كسرى

قال كسرى^(١) للنعمان بن المنذر يوماً : هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال نعم ، قال فبأي شيء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكال الرابع ، فالبیت من قبيلته فيه ، ويُنسب إليه ، قال فاطلب ذلك ، فطلبه فلم يصبه إلا في آل حذيفة بن بدر ، وآل حاجب بن زُرارة ، وآل ذى الجدين ، وآل الأشعث ابن قيس بن كندة ، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائهم ، وأقدم لهم الحكام والعدول ، وقال : ليتكلم كل منكم بماثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم ، وكان أسن القوم ، فقال :

٢٦ - مقالة حذيفة بن بدر الفزاري

« قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم ، والأعزّ الأعظم ، ومأثرة^(٢) للصنيع الأكرم ، فقال من حوله : ولم ذلك يا أخا فزارة ؟ فقال : أسنا الدعائم التي لا ترام ، والعزّ الذي لا يُضام ، قيل صدقت ، ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارَةُ بَيْتِ الْعِزِّ ، وَالْعِزُّ فِيهِمْ فَزَارَةُ قَيْسٍ ، حَسْبُ قَيْسٍ نِضَالُهُمَا
لَهَا الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ وَالْحَسْبُ الَّذِي بَنَاهُ لِقَيْسٍ فِي الْقَدِيمِ رَجَالُهَا

(١) هو كسرى أنوشروان ، حكم من سنة ٥٣١ إلى ٥٧٨ ميلادية .

(٢) المأثر بالفتح والضم : المكرمة المتوارثة .

فهيئات قد أعيأ القُرُون التي مضت مَآزِرُ قيسٍ مَجْدُهَا وَقَعَالِهَا
وهل أَحَدٌ إِنْ هَزَّ يَوْمًا بِكَلِمَةٍ إِلَى الشَّمْسِ فِي مَجْرَى النُّجُومِ يَنَالُهَا
فَإِنْ يَصْلُحُوا يَصْلُحْ لِدَاكَ جَمِيعُهَا وَإِنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدْ مِنَ النَّاسِ حَالُهَا

٢٧ - مقال الأشعث الكندي

ثم قام الأشعث الكندي - وإنما أذن له أن يقوم قبل ربعة وتيم لقرابته من
النعمان بن المنذر - فقال: قد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر، وَزَحْفَهَا الْأَكْبَرُ،
وَإِنَّا لَغِيَاثُ الْكُرُبَاتِ، وَمَعْدِنُ الْمَكْرُمَاتِ، قَالُوا: وَلِمَ يَا أَخَا كِنْدَةَ؟ قَالَ: لِأَنَا
ورثنا ملك كندة، فاستظللنا بأفيانهِ^(١) وَتَقَلَّدْنَا مِنْ كِبِهِ الْأَعْظَمِ، وَتَوَسَّطْنَا بِمُجْبُوحِهِ
الْأَكْرَمِ، ثم قام شاعرهم فقال:

إِذَا قَسَتْ أَيْبَاتُ الرِّجَالِ بَيْتِنَا وَجَدْتَنَا فَضْلًا طَلَى مِنْ يَفَاخِرِ
فَمَنْ قَالَ كَلًّا أَوْ أَنَا نَا حِطَّةً يُنَافِرُنَا فِيهَا فَنَحْنُ نَخَاطِرِ
تَعَالَوْا قَفُوا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَيْتَنَا لَهُ الْفَضْلُ فِيمَا أَوْرَثْتَهُ الْأَكَابِرِ

٢٨ - مقال بسطام الشيباني

ثم قام بسطام الشيباني، فقال: قد علمت العرب أنا بُنَاءُ بَيْتِهَا الَّذِي لَا يَزُولُ،
وَمَغْرَسُ عِزِّهَا الَّذِي لَا يَحْوُلُ، قَالُوا وَلِمَ يَا أَخَا شَيْبَانَ؟ قَالَ: لِأَنَا أَدْرَكُهُمُ النَّارُ،
وَأَضْرَبُهُمُ اللَّسَالِكُ الْجَبَّارُ، وَأَقْوَمُهُمُ لِلْحَكْمِ، وَأَلْدُهُمُ لِلْخَضَمِ، ثم قام شاعرهم،
فقال:

(١) جمع فوه: وهو ما كان شمسا فينسخه الظل.

لَعَمْرِي بِسْطَامَ أَحَقُّ بِفَضْلِهَا وَأَوَّلَ بَيْتِ الْعِزِّ عِزَّ الْقَبَائِلِ
 فَسَائِلُ - أَيْبِتَ اللَّعْنُ - عَنْ عِزِّ قَوْمِهَا إِذَا جَدَّ يَوْمَ الْفَخْرِ كُلُّ مَنْ قَالِ (١)
 أَلَسْنَا أَعَزَّ النَّاسِ قَوْمًا وَنُصْرَةً وَأَضْرَبَهُمُ لِلْكَبْشِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ (٢)
 وَقَائِعُ غُرَّتْ كُلُّهَا رَبْعِيَّةً تَذِلُّ لَهَا عِزًّا رِقَابُ الْمَحَافِلِ
 إِذَا ذُكِرَتْ لَمْ يَنْكُرِ النَّاسُ فَضْلَهَا وَعَادَّ بِهَا مِنْ شَرِّهَا كُلُّ وَائِلِ (٣)
 وَإِنَّا مُلُوكُ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الزَّلَازِلِ

٢٩ - مقال حاجب بن زرارة

ثم قام حاجب بن زرارة التيمي ، فقال : قد علمت معدًا أنا فرع (٤) دِعَامَتِيهَا ،
 وَقَادَةُ زَحْفِيهَا ، قالوا : ولم ذلك يا أخا بني تميم ؟ قال : لِأَنَا أَكْثَرُ النَّاسِ عَدِيدًا ،
 وَأَنْجَمُهُمْ طُرًّا وَلِيدًا ، وَأَنَا أَعْظَمُهُمْ لِلْجَزِيلِ ، وَأَحْمَلُهُمْ لِلنَّقِيلِ ، ثم قام شاعرهم ،
 فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ أَبْنَاءَ خِنْدِفَ أَنَّنَا لَنَا الْعِزُّ قَدِيمًا فِي الْخَطُوبِ الْإِوَائِلِ (٥)
 وَأَنَا كِرَامُ أَهْلِ مَجْدٍ وَثَرْوَةٍ وَعِزِّي قَدِيمٌ لَيْسَ بِالْمُتَضَائِلِ
 فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ وَابْنِ سَيِّدٍ أَغْرَّ نَجِيبِ ذِي فَعَالٍ وَنَائِلِ (٦)
 فَسَائِلُ (أَيْبِتَ اللَّعْنُ) عَنَا فَإِنَّا دَعَائِمُ هَذَا النَّاسِ عِنْدَ الْجَلَائِلِ (٧)

(١) أبيت اللعن : تحية في الجاهلية ، أى أبيت أن تأتى أمرا تلعن عليه . والمناقلة في المنطق : أن تحدث
 آخر ويحدثك . (٢) الكبش : سيد القوم وقائدهم . (٣) لاجئ ، من وأل إليه ينال وألا .
 (٤) فرع كل شيء : أعلاه . (٥) خندف : هى أم مدركة ، وطابحة وقعة أبناء الياس بن مضر بن
 نزار بن معد بن عدنان . (٦) الفعال : اسم الفعل الحسن ، والكرم . (٧) أى الأمور الجلائل
 جمع جليلة .

٣٠ — مقال قيس بن عاصم السعدي

ثم قام قيس بن عاصم السعدي ، فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرمات
دعائهم ، وأثبتهم في النائبات مقادير ، قالوا : ولم ذلك يا أخا بني سعد ؟ قال : لأننا
أدركهم للثار ، وأمنعهم للجار ، وأنا لا ننكل^(١) إذا حملنا ، ولا نرام إذا حللنا ،
ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيسٌ وحنديفُ أننا وجُلُّ تميمٍ والجميعُ الذي ترى^(٢)
بأننا عمادٌ في الأمور وأننا لنا الشرف الضخم المرَّكبُ في الندى
وأننا ليوثُ النَّاسِ في كلِّ مَازِقٍ إذا جُرَّ بالببيض الجاجمُ والطلأ^(٣)
فإن ذا ليومِ الفخرِ يعدلُ عاصمًا وقيسًا إذا مرَّت أوف إلى العلا
فهيها قد أعيا الجميعُ فعألهمُ وقاموا بيومِ الفخرِ مسعاةً من سعى
فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حياءهم ، وأعظم
صلاتهم ، وكرهم ما بهم .
(صبح الأعشى ١ : ٣٧٧ والأغانى ١٧ : ١٠٥)

(١) لا ننكص ولا نجبن . (٢) قيس بن عيلان بن مضر . (٣) الطلا : جمع طلية ،

وهي العنق .

وفود العرب على كسرى

قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، فقال كسرى - وأخذته عزّة الملك - يا نعمان ، لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حالة من يقدّم على من وفود الأمم ، فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألقمتها ، وعظم سلطانتها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ، ويردّ سفيتها ، ويقيم جاهلها ، ورأيت الهند نحو من ذلك في حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ، وكذلك الصين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها ، وفروسيها وهمتها في آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها مداككاً يجمعها ، والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الرّيف^(١) والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضمّ قواصمهم ، وتدبر أمرهم ، ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخيزر في أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوّة ، ومع أن مما يدلّ على مهانتها وذلها ، وصغر همتها تحيّتهم^(٢) التي هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من النفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولطوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفّر به ناعمهم لحوم الابل ، التي يعافها كثير من السباع ، لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدّها مكرمة ،

(١) الرّيف : أرض فيها زرع وخصب ، والسمة في المأكّل والمشرب . (٢) حل المسكان وبه

يجل بالكسر والضم .

وإن اطعم أكلة عداها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التتوخيّة التي أسس جدّي اجتماعها ، وشدّ مملكتها ، ومنعها من عدوّها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً^(١) ، وقرى وحصونا ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس - يعني اليمن - ثم لا أراكم تستكبنون على ما بكم من الذلّة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس ، قال النعمان : أصلح الله الملك . حقّ^(٢) لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها ، إلا أن عندي جواباً في كلّ ما نطق به الملك ، في غير ردّ عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمتي من غضبه نظقت به ، قال كسرى : قل فأنت آمن .

٣١ - خطبة النعمان بن المنذر

قال النعمان : أما أمتك أيها الملك ، فليست تُنَارِعُ في الفضل ، لموضعها الذي هي به : من عقولها وأحلامها ، وبَسَطَةِ محلها ، وَبُجْبُوْحَةِ عزّها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الامم التي ذكرت ، فأى أمة تقرّنها بالعرب إلا فضلتها . قال كسرى بماذا ؟ قال النعمان : بِعِزِّهَا ، وَمَنْعَتِهَا ، وحسن وجوها ، وبأسها ، وسخائها ، وحكمة ألسنتها ، وشدّة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها .

فأما عزّها ومنعتها ، فإنها لم تنزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، وبهأدهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها من الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوها وألوانها ، فقد يُعرَفُ فضلهم في ذلك كلّى غيرهم : من الهند المنحرفة ، والصين المنحرفة ، والترک المشوهة ، والروم المقشّرة .

(٢) حق لك أن تفعل كذا وحققت أن تفعله بمعنى .

(١) الدروع .

وَأَمَّا أَنْسَابُهَا وَأَحْسَابُهَا ، فَلَيْسَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَقَدْ جَهَلَتْ آبَاءُهَا وَأَصُولُهَا وَكَثِيرًا مِنْ أَوْلِيَّهَا ، حَتَّى إِنْ أَحَدَهُمْ لِيُسْأَلَ عَنِ وِرَاءِ أَبِيهِ ذُنْيَاً ^(١) ، فَلَا يَنْسُبُهُ وَلَا يَعْرِفُهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا يَسْمَى آبَاءَهُ أَبَا فَا بَا ، حَاطُوا بِذَلِكَ أَحْسَابَهُمْ ، وَحَفِظُوا بِهِ أَنْسَابَهُمْ ، فَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ ، وَلَا يَنْتَسِبُ إِلَى غَيْرِ نَسَبِهِ ، وَلَا يَدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ .

وَأَمَّا سَخَاؤُهَا ، فَإِنَّ أَدْنَاهُمْ رَجُلًا ، الَّذِي تَكُونُ عِنْدَهُ الْبَكْرَةُ وَالنَّابُ ^(٢) ، عَلَيْهَا بِلَاغُهُ ^(٣) فِي مَحْوَلِهِ ^(٤) وَشَبَعِهِ وَرَبِيٍّ ، فَيَطْرُقُهُ الطَّارِقُ ، الَّذِي يَكْتَفِي بِالْفِلِذَةِ ^(٥) ، وَيَجْتَزِي بِالشَّرْبَةِ ، فَيَعْفِرُهَا لَهُ ، وَيَرْضَى أَنْ يَخْرُجَ عَنْ دُنْيَاهُ كُلِّهَا فِيمَا يَكْسِبُهُ حَسَنَ الْأَحْدُوثةِ وَطَيْبَ الذِّكْرِ .

وَأَمَّا حِكْمَةُ أَسْنَتِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ وَرَوْنِقِ كَلَامِهِمْ ، وَحَسَنَةَ وَوزنه وَقَوَافِيهِ ، مَعَ مَعْرِفَتِهِمُ الْأَشْيَاءَ ، وَضَرْبِهِمُ لِلْأَمْثَالِ ، وَإِبْلَاغِهِمْ فِي الصِّفَاتِ ، مَا لَيْسَ لشيءٍ مِنَ الْأَسْنَةِ الْأَجْناسِ ثُمَّ خِيَلَهُمْ أَفْضَلُ الْخَيْلِ ، وَنَسَاؤُهُمْ أَعْفَى النِّسَاءِ ، وَلِبَاسُهُمْ أَفْضَلُ اللَّبَاسِ ، وَمَعَادِنُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَحِجَارَةُ جِبَالِهِمُ الْجَزْعُ ^(٦) ، وَمَطَايِمُهَا الَّتِي لَا يَبْلُغُ عَلَى مِثْلِهَا سَفَرٌ ، وَلَا يَقْطَعُ بِمِثْلِهَا بَلَدٌ قَفْرٌ .

وَأَمَّا دِينُهَا وَشَرِيعَتُهَا ، فَإِنَّهُمْ مَتَمْسِكُونَ بِهِ ، حَتَّى يَبْلُغَ أَحَدُهُمْ مِنْ نَسَبِهِ بَدِينَهُ أَنْ لَحْمَ أَشْهَرًا حَرَمًا ، وَبِلَدًا مُحَرَّمًا ، وَبَيْتًا مَحْجُوجًا ، يَنْسُكُونَ فِيهِ مَنْاسِكَهُمْ ، وَيَذْبَحُونَ فِيهِ ذَبَائِحَهُمْ ، فَيَلْتَقِي الرَّجُلُ قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَخْذِ ثَارِهِ ، وَإِدْرَاكِ رَغْمِهِ ^(٧) مِنْهُ ، فَيَحْجِزُهُ كَرَمِهِ ، وَيَمْتَنِعُهُ دِينَهُ عَنْ تَنَاوُلِهِ بِأَذَى .

(١) هو ابن عمي دنيا بضم الدال وكسرهما مع التنوين ، وبكسرهما بلا تنوين : أى لحماً .

(٢) الناقة المستنة . (٣) البلاغ : الكفاية . (٤) الحمول والأحمال جمع حمل .

(٥) القطة من الشيء . (٦) الجزع ويكسر : الخرز الخيافي الصيفي فيه سواد وبياض ، تشبه

به العيون . (٧) الذل .

وأما وفاءها ، فإن أحدهم يَلْحَظُ اللحظة ، وَيُؤَمِّئُ الإيماءة ، فهي وَلَتْ^(١) وعقدة ، لا يَحْلُمُهَا إلا خروج نَفْسِهِ ، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بِدَيْنِهِ ، فَلَا يَفْلِقُ^(٢) رَهْنَهُ ، ولا يُخْفَرُ^(٣) ذمته ، وإن أحدهم ليلبغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره ، فيصاب ، فلا يرضى حتى يُفْنِيَ تلك القبيلة التي أصابته ، أو تَفْنِيَ قبيلته ، لما أُخْفِرَ من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِثُ ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك يَتِدُونُ أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار ، وَغَيْرَةَ من الأزواج .

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل - على ما وصفت منها - فما تركوا ما دونها إلا احتقارًا لها ، فَعَمَدُوا إلى أجلبها وأفضلها ، فكانت سرا كبتهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما ، وأطيبها لحومًا ، وَأَرْقَاهَا ألبانًا ، وأقلها غائلة^(٤) ، وأحلاها مَضْنَةً ، وإنه لا شيء من اللُحْمَانِ يُعَالِجُ ما يُعَالِجُ به لحمها إلا أستبان فضلها عليه .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضًا ، وتركهم الانقيادَ لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأم إذا أُنِسَتْ من نفسها ضعفًا ، وتخوفت نُهْوَضَ عدوها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون في الملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يُعْرِفُ فَضْلَهُمْ عَلَى سائر غيرهم ، فَيُلْقُونَ إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين ، مع أنفهم من أداء الخراج وَالْوَطْئِ^(٥) بِالْعَسْفِ .

(١) عهد . (٢) غلق الرهن : استحققه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط .

(٣) خفر به وأخفره : نقض عهده وغدره . (٤) شرا . (٥) الوطئ : الضرب الشديد بالرجل .

وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جدَّ الملك إليها الذي ^(١) أتاه ، عند غلبة الحبش له ، كلَّ ملكٍ متَّسِقٍ ، وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً ، ولولا ما وتَّربَّ به من يليه من العرب ، لمال إلى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ، ويفضُّب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار .

فمجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ، ثم كساد من كِسْوَتِهِ ، وَصَرَّحَهُ إلى موضعه من الحيرة .

فلما قدم النعمان الحيرة ، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى ، من تنقص العرب ، وتهجين ^(٢) أمرهم ، بعث إلى أكَثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ ، وَحَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ التَّمِيمِيِّينَ ، وإلى الحرث بن عُبَّاد ، وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن عُلَّاثَةَ ، وعامر بن الطَّفَيْلِ العَامِرِيِّينَ ، وإلى عمرو بن الشَّرِيدِ الشَّلَمِيِّ ، وعمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدِيَّ ، والحرث بن ظالم المُرِّيَّ ، فلما قدموا عليه في الخوارج ، قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم ، وَقُرُوبَ جِوَارِ الْعَرَبِ مِنْهَا ، وقد سمعت من كسرى مقالات ، تخوفت أن يكون لها غَوْرٌ ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خوفاً ، كبعض طَمَاطِطِيَّتِهِ ^(٣) ، في تأديتهم الخراج إليه ^(٤) ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ، فاقنص عليهم مقالات كسرى ، وماردَّ عليه ، فقالوا : أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن مارددت ! وأبلغ ما حججته به ! فرنا بأمرك ، وادعنا إلى ماشئت . قال : إنما أنا رجل منك ، وإنما ملكت وَعَزَّزْتُ بِمَكَانِكُمْ ، وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شيء أحبَّ إليَّ مما سَدَّدَ اللهُ به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزَّكم ، والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط ، وتنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نطق كلَّ رجلٍ منكم

(١) هو سيف بن ذي يزن . (٢) تقييح واسمَّجان ، والمهجنة من الكلام : ما يعيبه .

(٣) رجل طمطم وطمطى « بكسر الطاءين » وطمطامى « بضمهما » : في لسانه عجمة . (٤) كان

الفرس يعمون عرب الحيرة من دفع الأتاوة مقابل أن يقوموا بحمايتهم من كل غارة من نواحيهم .

بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ماظنّ ، أو حدّثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يفضيه ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثير الأعوان ، مُتَرَفٌ ، مُعْجَبٌ بنفسه ، ولا تنخزلوا^(١) له انخزال الخاضع الذليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضلُ منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكرم ابن صيفي ، ثمّ تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها ، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم ، على بميل كلّ رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون ذلك منكم ، فيجد في آدابكم مطعناً ، فإنه ملك مترف ، وقادر مُسَكِّطٌ ، ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلال الملوك ، كل رجل منهم حلة وعمامة عمامة ، وخبثته بياقوته ، وأمر لكلّ رجل منهم بنجبية مهزّية^(٢) وفرس نجبية ، وكتب معهم كتاباً :

« أما بعد : فإن الملك أتى إليّ من أمر العرب ما قد علم ، وأجبتُهُ بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتكجججُ في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بما كتبت ، وحمّت ما يليها بفضل قوتها ، تبلغها في شيء من الأمور ، التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوّة والتدبير والمكيدة ، وقد أوفدت إليها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، وليغيض عن جفاء إن ظهر من منطقتهم ، وليكرمني يا كرامهم ، وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائريهم . »

فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه ، وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ، فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرّازبته^(٣) ووجوه أهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسي ، عن يمينه

(١) الانخزال : مشية في تناقل . (٢) النجبية : البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ،

والمهزية : نسبة إلى مهرة بن حيدان ، حتى تنسب إليه الإبل النجبية . (٣) جمع مرزبان ، بفتح الميم وضم الزاي ؛ هو الرئيس من الفرس .

وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء^(١) والراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، وأقام
الترجمان^(٢) ليؤدّي إليه كلامهم ، ثم أذن لهم في الكلام .

٣٢ - خطبة أكرم بن صيفي

فقام أكرم بن صيفي فقال :

« إنَّ أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخير
الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهوأة ، والشر
لحاجة^(٣) ، والحزم مرّ كَبُّ صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى ، والعجز
مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظنّ ورطة ، وسوء الظنّ عصمة ، إصلاح
فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالأغاص بالماء ، شرّ
البلاد بلاد لا أمير بها ، شرّ الملوك من خافه البريء ، المرء يعجز^(٤) لا المحالة^(٥) ، أفضل
الأولاد البرّة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحقّ الجنود بالنصر من حسنت
سريره ، يكفيك من الزاد ما بلفك المحلّ ، حسبك من شرّ سماعه ، الصمت حكم^(٦)
وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدّد نَفَرَ ، ومن تراخى تألّف » .

فتعجب كسرى من أكرم ، ثم قال : وَيَحْكُ^(٧) يا أكرم بما أحكمك وأوثق
كلامك ! لولا وضعت كلامك في غير موضعه . قال أكرم : الصدق ينيء عنك
لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لسكني .

قال أكرم : رَبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْلِ .

(١) التتابع والتوالي ، مصدر وانى . (٢) ترجمان : بفتح التاء وضم الجيم وبضمهما

وبفتحهما . (٣) أى أصله اللجاجة ، وهى تماحك الخصمين وتماديهما . (٤) من بابي ضرب

وسمع . (٥) المحالة : الحيلة . (٦) الحكم : الحكمة (وأتيناها الحكم صيباً) . (٧) ويح : كلمة

رحمة ، (ورويل : كلمة عذاب) ، وقيل هما بمعنى واحد .

٣٣ — خطبة حاجب بن زرارة

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي فقال :

« وَرَى ^(١) زَنْدَكَ ، وَعَلَتْ يَدُكَ ، وَهَيْبَ سُلْطَانِكَ ، إِنَّ الْعَرَبَ أُمَّةٌ قَدْ غَلَطَتْ
أَكْبَادَهَا ، وَاسْتَحْصَدَتْ ^(٢) مِرْيَتَهَا ، وَمُنِعَتْ دِرْسَتَهَا ^(٣) ، وَهِيَ لَكَ وَامِقَةٌ مَا تَأَلَّفَتْهَا ،
مُسْتَرْسَلَةٌ مَا لَا يَنْتَهَا ، سَامِعَةٌ مَا سَاخَتْهَا ، وَهِيَ الْعَلْقَمُ مَرَارَةٌ ، وَالصَّابُ ^(٤) غَضَاضَةٌ ^(٥) ،
وَالْعَسَلُ حَلَاوَةٌ ، وَالْمَاءُ الزَّلَالُ ^(٦) سَلَاسَةٌ ^(٧) ، نَحْنُ وَفُودُهَا إِلَيْكَ ، وَالسِّنْتَهَا لَدَيْكَ ،
ذَمْتُنَا مَحْفُوظَةٌ ، وَأَحْسَابُنَا مَمْنُوعَةٌ ، وَعَشَائِرُنَا فِينَا سَامِعَةٌ مَطِيْعَةٌ ، إِنْ نَوَّبْتَ لَكَ حَامِدِينَ خَيْرًا
فَلَكَ بِذَلِكَ عَمُومٌ مَحْمَدَتْنَا ، وَإِنْ نَدَّمْ لَمْ نُحْصَ بِالذَّمِّ دُونَهَا » .

قال كسرى : يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها ، قال حاجب :
بل زئير الأسد بصولتها ، قال كسرى : وذلك .

٣٤ — خطبة الحارث بن عباد

ثم قام الحارث بن عباد البكري ، فقال :

دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها ، من طال رشأوه ^(٨) ،
كثُرَ مَتْنُحُهُ ^(٩) ، ومن ذهب ماله ، قلَّ مَنْنُحُهُ . تناقل الأقاويل يُمرِّفُ اللب ، وهذا

(١) ورى الزند بفتح الراء وكسرهما وريا ورية فهو وار وورى : خرجت ناره . وأوريته ووريته
واستوريته ، والزند : العود الذى يقدح به النار جمعه زناد وأزند وأزناد . (٢) استحصد الحبل :
استحكم ، والمره : طاقة الحبل ، والقوة : العقل . كناية عن قوتهم . (٣) الدرة : اللبن كالدر .
(٤) عصارة : شجر مر . (٥) هى احتمال المكروه . والدلة والمنقصة . (٦) ماء زلال :
مريق المر فى الخلق بارد عذب صاف سهل سلس . (٧) سهولة . السلس : السهل اللبن المنقاد .
(٨) الرشاء : الحبل . (٩) المتح : نزع الماء من البئر .

مقام سَيُوجِفُ^(١) بما ينطق به الرَّكْبُ ، وتعرف به كُنْهَ حَالِنَا الْعَجَمِ والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعاونك المعينون ، خيولنا جَمَّةٌ ، وجيوشنا فِخْمَةٌ ، إن استنجدتنا فغير رُبُضٍ^(٢) ، وإن استطرقتنا^(٣) فغير جُهْضٍ^(٤) ، وإن طلبتنا فغير غُمُضٍ^(٥) ، لا ننشئ لِدَعْرٍ ، ولا نَنَنْكَرُ لَدَهْرٍ ، رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار .

قال كسرى : أنفس عزيزة وأمة ضعيفة ، قال الحرث : أيها الملك وأنى يكون لضعيف عزّة أو لصغير مِرّة ! قال كسرى : لو قصرَ عمرُكَ ، لم تَسْتَوِلِ عَلَى لسانك نَفْسُكَ . قال الحرث : أيها الملك إنَّ الفارس إذا حمل نفسه عَلَى السكتيبة مُعَرِّراً بنفسه عَلَى الموت ، فهي مَنِيَّةٌ استقبلها ، وَجِنَانٌ استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُماً^(٦) ، وأحبسها وهي تَصَرَّفُ بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وَسَعَرَتْ لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جَعَلَتْ مَقَادَهَا رُحْمِي ، وَبَرَقَهَا سِيفِي ، وَرَعَدَهَا زَيْبِرِي ، ولم أَفْصُرْ عَنْ خَوْصِ خَضَخَاضِهَا^(٧) ، حتى أَنفَمَسَ فِي غَمْرَاتِ بُلْجِهَا ، وَأَكُونُ فُلُكَا لِقِرْسَانِي إِلَى بُجْبُوحَةٍ كَبِشَهَا^(٨) ، فَأَسْتَمِطِرُهَا دَمًا ، وَأَتْرُكُ حَمَاتَهَا جَزَرَ^(٩) السَّبَاعِ وَكَلَّ نَسْرٍ

(١) وجف الفرس والبعير عدا ، وأوجفته : أعديته ، يقال : أوجف فأجحف (فا أو جفتم عليه من خيل ولا ركاب) أى ما عملتم .

(٢) يقال : رجل ربض عن الحاجات لا يبهض فيها ، وهو هنا جمع ربوض بالفتح من ربض الشاة كبركت الناقة : أى لا نتقاعس عن نصرتك ولا نحجم . (٣) استطرقة فحلا : طلبه منه ليضرب في إبله ، هذا هو الأصل ، والمراد استعنت بنا . (٤) أجهضت الناقة والمرأة ولدها : أسقطته ناقص الخلق ، والسقط : جهيض ، وجمعه جهض ، أى أن فعلنا إذا ضرب النياق (نكحها) ثم تأت بجهض بل تنتج ، والمراد أنه إن استنجد بهم أتمر ذلك الاستنجد ولم يجب . (٥) من الغمض ، وهو النوم ، يقال ما غمضت ، ولا أغمضت ؛ ولا اغتمضت ، فالوصف من الأول غامض ، وللمبالغة غموض ، والجمع غمض أى فلا تنام عن نصرتك . (٦) القدم : المضى أمام أمام ، وهو يمشى القدم : إذا مضى في الحرب . والقدم : المقدم الشجاع . وفي الحديث « طوي لعبيد مغبر قدم في سبيل الله » . (٧) الخضخاض : نفض أسود رقيق تهناً به الإبل الجرب (ولعله خضاخضها) بضم الخاء ، والخضاخض : المسكان الكثير الماء . (٨) سيد القوم وقائدهم . (٩) أى قطما .

قَسَمَ^(١) . ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أ كذلك هو ؟ قالوا : فماله أنطق
من لسانه .

قال كسرى : ما رأيت كالיום وفُداً أحشد ، ولا شهوداً أوفد .

٣٥ - خطبة عمرو بن الشريد

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى ، فقال :

« أيها الملك ، نعيم بالك ، ودام في السرور حالك ، إن عاقبة الكلام متدبرة ،
وأشكال الأمور معتبرة ، وفي كثير ثقل ، وفي قليل بلغة ، وفي الملوك سورة^(٢) العز ،
وهذا منطوق له مابعد ، شرف فيه من شرف ، وحمل فيه من حمل ، لم تأت لضيحك ،
ولم نعد لسخطك ، ولم نتعرض لرفدك^(٣) ، إن في أموالنا منتقداً^(٤) ، وعلى عزتنا
ممتمداً ، إن أزرينا^(٥) نارا أئقنا ، وإن أود^(٦) دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنا مع
هذا لجوارك حافظون ، ولئن رامك كافحون ، حتى يُحمد الصدر^(٧) ويستطاب
الخبر » .

قال كسرى : ما يقوم قصد منطقتك بإفراطك ، ولا مدحك بذمك ، قال عمرو :
كفى بقليل قصدى هاديا ، وبأيسر إفراطى مُجبرا ، ولم يُلم من غربت نفسه عما يعلم ،
ورضى من القصد بما بلغ . قال كسرى : ما كل ما يعرف المرء ينطق به .
اجلس .

(١) مسن . (٢) سورة المجد : أثره وعلامته ، وسورة السلطان : سلوته (والسورة المنزلة)

بالضم . (٣) الرفد : العطاء . (٤) انتقد الدراهم قبضها . (٥) أو قدنا . (٦) اعرج .

(٧) الرجوع .

٣٦ - خطبة خالد بن جعفر الكلابي

ثمَّ قام خالد بن جعفر الكلابي فقال :

« أحضر الله الملك إسعاداً ، وأرشده إرشاداً ، إنَّ لكلَّ مَنْطِقٍ فُرْصَةٌ ، ولكلِّ حاجةٍ غَصَّةٌ ، وَعَيْءُ المنطقِ أَشدُّ مِنْ عَيْءِ الشُّكُوتِ ، وَعِثَارُ القَوْلِ أَنْكَأُ^(١) مِنْ عِثَارِ الوَعْثِ^(٢) . وما فُرْصَةُ المنطقِ عندنا إِلَّا بما نَهَوَى ، وَغَصَّةُ المنطقِ بما لَأَنهَوَى غَيْرُ مستساغةٍ^(٣) ، وتركى ما أعلم مِنْ نَفْسِي ، وَوَيْعَلُمُ مِنْ سَمِعِي أَنِّي له مُطِيقٌ ، أَحِبُّ إِلَيَّ مِنْ تَكَلَّفِي ما أَتَخَوَّفُ وَيَتَخَوَّفُ مِنِّي ، وقد أَوْفَدَنَا إِلَيْكَ مَلِكَنَا النِّعَمَانَ ، وهو لك مِنْ خَيْرِ الأَعْوَانِ ، وَنِعْمَ حَامِلُ المَعْرُوفِ والإِحْسَانِ ، أَنفَسْنَا بِالطَّاعَةِ لَكَ باخعةً^(٤) ، وراقبنا بالنصيحة خاضعةً ، وأيديناك بالوفاء رهينةً . »

قال له كسرى : نطقت بعقل ، وسَمَوْتَ بفضل ، وعلوت بِذُئْبِلِ .

٣٧ - خطبة علقمة بن علاثة العامري

ثمَّ قام علقمة بن علاثة العامري فقال :

« نَهَجَّتْ^(٥) لك سبيل الرِّشَادِ ، وَخَضَعَتْ لك رِقَابَ العِبَادِ ، إنَّ للأقَابِيلِ مَنَاهِجَ ، وللآراءِ مَوَالِجَ^(٦) وللعويصِ مَخَارِجَ ، وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ ، وَأَفْضَلُ الطَّلِبِ أَنْجَحُهُ ، إنا وإنْ كانتِ الحُبَّةُ أَحْضَرْتَنَا ، وَالوَفَاةُ قَرَّبَتْنا ، فليس مِنْ حَضْرِكَ مِنَّا بِأَفْضَلِ مِمَّنْ قَرَّبَ عَنَّا ، بل لَوْ قِستَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، وَعَلِمْتَ مِنْهُمْ ما عَلِمْنَا ، لَوَجَدْتَ له في آبائِهِ

(١) نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح ، وأنكأ : أى أشد نكاية وقهراً . (٦) الوعث :

المكان السهل الدهس تنبيب فيه الأقدام والطريق العسر . (٣) أساغ الفصة ابتلعها ، وساغ الشراب :

سهل مدخله في الخلق . (٤) خاضعة ومقررة ، بنح بالحق أقر به وخضع له . (٥) وضعت .

(٦) مداخل ، جمع مولج . كجلس ، وليج يلج ولو جا ولجة .

دُنْيَا ، أُنْدَادًا وَأَكْفَاءَ ، كُلَّهُمْ إِلَى الْفَضْلِ مَنْسُوبٌ ، وَبِالشَّرْفِ وَالشُّوْءِ دُ (١) مُوصُوفٌ ،
وَبِالرَّأْيِ الْفَاضِلِ وَالْأَدَبِ النَّافِذِ (٢) مَعْرُوفٌ ، يَحْمِي حِمَاهُ ، وَيُرْوِي نَدَامَاهُ (٣) ، وَيَبْدُودُ
أَعْدَاءَهُ ، لَا تَحْمُدُ (٤) نَارَهُ ، وَلَا يَحْتَرِزُ مِنْهُ جَارَهُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : مَنْ يَبْلُ الْعَرَبُ يَعْرِفُ
فَضْلَهُمْ ، فَاصْطَنَعَ (٥) الْعَرَبُ ، فَإِنَّهَا الْجِبَالُ الرَّوَاسِي عِزًّا ، وَبِالْبَحْرِ الزَّوَاخِرِ طُمُيًّا (٦) ،
وَالنَّجُومِ الزَّوَاهِرِ شَرَفًا ، وَالْحَصَى عِدْدًا ، فَإِنْ تَعْرِفْ لَهُمْ فَضْلَهُمْ يُعْرِثُوكَ ، وَإِنْ
تَسْتَصْرِخَهُمْ (٧) لَا يَخْذُلُوكَ .

قال كسرى : وخشى أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه - حسبك
أبلغت وأحسنت .

٣٨ - خطبة قيس بن مسعود الشيباني

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني ، فقال :

« أَطَابَ اللَّهُ بِكَ الْمُرَاشِدَ ! وَجَنَّبَكَ الْمَصَائِبَ ! وَوَقَّاكَ مَكْرُوهَ الشَّصَائِبِ (٨) !
مَا أَحَقَّنَا - إِذْ أَتَيْتْنَاكَ - بِإِسْمَاعِكَ مَا لَا يُحْنِقُ صَدْرَكَ ، وَلَا يَزْرَعُ لَنَا حِقْدًا فِي قَلْبِكَ !
لَمْ نَقْدَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ لِمُسَامَاةٍ ، وَلَمْ نَنْتَسِبْ لِمُعَادَاةٍ ، وَلَكِنْ نَتَعَلَّمُ أَنْتَ وَرَعِيَّتُكَ وَمَنْ حَضَرَكَ مِنْ
وَفُودِ الْأُمَمِ ، أَنَا فِي الْمَنْطِقِ غَيْرِ مُحْجِمِينَ ، وَفِي النَّاسِ غَيْرِ مُقْصَرِينَ ، إِنْ جُورِينَا فَعَبِيرٌ
مُسَبُوقِينَ ، وَإِنْ سُوْمِينَا فَعَبِيرٌ مَغْلُوبِينَ » .

(١) السوود بفتح الدال والسوؤد بضمها والسود والسيادة . (٢) الظاهر أثره .

(٣) ندأى . جمع ندمان ، وهو التذم ، وجمع التذم ندماء ، ونادمه : جالسه على الشراب (ندمان
بمعنى منادم مصروف ، لأن مؤنثه ندمانة ، أما ندمان بمعنى نادم فلا يصرف لأن مؤنثه ندى :

كل فعلان فهو أنثاه فعلى غير وصف التذم بالندمان)

(٤) خد : كنصر وسمع . (٥) اختر واصطف . (٦) طمى الماء يطمى طميا علا ، والنبت

طال والبحر امتلا ، وهته علت . (٧) تستجد بهم . (٨) جمع شخصية ، وهى الشدة .

قال كسرى : غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يمرضُ به في تركه الوفاء بضمانه السواد^(١)) قال قيس : أيها الملك ما كنتُ في ذلك إلا كَوَافٍ غَدِرَ به ، أو كخافر أخفِرَ بدمته . قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ، ولا لذليل خفارة ، قال قيس : أيها الملك : ما أنا فيما أخفِرَ من ذمتي أحقُّ بِالرَّامِي العَار منك فيما قتل من رَعِيَتِكَ ، وأنتَهِكَ من حرمتك ، قال كسرى : ذلك لأن من ائتمن الخيانة^(٢) ، واستنجد الأئمة ، ناله من الخطأ ما نالني ، وليس كل الناس سواء ، كيف رأيت حاجب بن زرارة ، لم يُحْكِم قواه ، فَيُبرِم ، وَيَمهدُ فيوُفي ، وَيَعِدُ فيُنجز ، قال وَمَا أَحَقُّهُ بذلك ، وَمَا رأيتَه إِلَّا لي ، قال كسرى : القوم بزل^(٣) فأفضلها أشدُّها .

٣٩ خطبة عامر بن الطفيل العامري

ثمَّ قام عامر بن الطفيل العامري فقال :

« كثير فنون المنطق ، وَلَبَسُ القول أعمى من حِنْدِس^(٤) الظلماء ، وَإِنما الفخر في الفعال ، وَالعجز في النجدة ، وَالسُّودد مطاوعة القدرة^(٥) ، وَمَا أَعلمك بقدرنا ، وَأَبصرك بفضلنا ، وبِالْحَرَمِي^(٦) إِنْ أدالت^(٧) الأيام ، وَتَأبَّت الأَحلام أَنْ تَحْدِثَ لنا أُمورا لها أَعلام^(٨) . قال كسرى : وَمَا تلك الأَعلام ، قال مُجْتَمِع^(٩) الأَحياء من ربيعة ومُضَر ، على أمر يذكُر قال كسرى : وَمَا الأمر الذي يذكُر ؟ قال : مَالِي علم بأكثر مما خَبَرَنِي به مخبر ، قال كسرى : متى تكاهنت يا بن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، وَلَكِنِّي بِالرَّمَحِ

(١) أي سواد العراق . (٢) الخيانة والخونة : جمع خائن . (٣) البازل : الجمل في السنة التاسعة ، والرجل الكامل في تجربته جمع بزل وبزل . (٤) الليل المظلم والظلمة . (٥) أي أن يأتي المرء ما يقدر عليه ، فإن ذلك يبلغه السوود . (٦) خليق وجدير . (٧) نصرتنا . (٨) أي مشهورة . (٩) اجتماع .

طاعن ، قال كسرى : فإن اتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال :
ما هَيْبَتِي فِي قَفَايَ بِدُونِ هَيْبَتِي فِي وَجْهِ ، وَمَا أَذْهَبَ عَيْنِي عَيْثُ^(١) ، وَلَكِنْ
مَطَاوَعَةُ الْعَيْثِ .

٤٠ - خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدي

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، فقال :

« إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ : قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ، فَبِلَاغِ الْمَنْطِقِ الصَّوَابِ ، وَمِلَاكِ النَّجْمَةِ^(٢)
الارْتِيَادِ ، وَعَقْوُ الرَأْيِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِكْرَاهِ الْفِكْرَةِ ، وَتَوْقِيفِ الْخُبْرَةِ خَيْرٌ مِنْ أَعْتِسَافِ
الْخَيْرَةِ ، فَاجْتَنِبْ^(٣) طَاعَتَنَا بِلَفْظِكَ ، وَاجْتَنِبْ بَادِرْتَنَا بِجَهْلِكَ ، وَأَلِنْ لَنَا كَنْفَكَ يَسَلْسُ
لَكَ قِيَادَنَا ، فَإِنَّا أَنَاسٌ لَمْ يُوقَسْ^(٤) صَفَاتِنَا قِرَاعُ مَنَا قِيرِ^(٥) مِنْ أَرَادَ لَنَا قَضَا^(٦) ، وَلَكِنْ
مَتَمَعْنَا حَمَانًا مِنْ كُلِّ مَنْ رَامَ لَنَا هَضْمًا »

٤١ - خطبة الحارث بن ظالم المري

ثم قام الحارث بن ظالم المري ، فقال :

« إِنْ مِنْ آفَةِ الْمَنْطِقِ الْكُذْبِ ، وَمِنْ لُؤْمِ الْأَخْلَاقِ الْمَلَقِ ، وَمِنْ خَطَلِ الرَأْيِ خِيفَةُ
الْمَلِكِ الْمُسَلَّطِ ، فَإِنْ أَعْلَمْنَاكَ أَنْ مَوَاجِهْتَنَا لَكَ عَنِ الْإِتْتِلَافِ ، وَأَنْقِيَادَنَا لَكَ عَنِ تَصَافِي ،
فَمَا أَنْتَ لِقَبُولِ ذَلِكَ مَنَا بِخَلِيقِ ، وَلَا لِلْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ بِحَقِيقِ ، وَلَكِنْ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ ،
وَالْحُكْمُ وَثَقُ الْعُقُودِ ، وَالْأَمْرُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَعْتَدِلٌ ، مَا لَمْ يَأْتِ مِنْ قِبَلِكَ
مِيلٌ أَوْ زَلٌّ . »

(١) الإفساد . (٢) النجمة : طلب الكلاذ في موضعه . (٣) اجتنب . (٤) الوقس :

انتشار الجرب في البدن ، والتوقيس : الإجراب ، أي لم يحدش صفاتنا ويؤثر فيها . (٥) جمع منقار ،

وهو حديدة كالقأس ينقر بها . (٦) أصله الأكل بأطراف الأسنان .

قال كسرى : من أنت ؟ قال الحرث بن ظالم ، قال إن في أسماء آبائك لدليلاً على
خلة وفائك ، وأن تكون أولى بالقدر ، وأقرب من الوزر . قال الحرث : إن في الحقِّ
مَغْضَبَةٌ . والسَّرْوُ التَّغافلُ ^(١) ، وإن يستوجب أحدُ الحلم لإمع القدرة ، فلتُشبههُ أفعالك
مجالسك ، قال كسرى : هذا فتى القوم

ثم قال كسرى : قد فهمت مانظقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم ، ولولا أني
أعلم أن الأدب لم يُثَقَّفْ أودَّكم ، ولم يُحكَمْ أمركم ، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم ،
فتنتظون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخمة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب
على طباعكم ، لم أجز لكم كبراً مما تكلمتم به ، وإني لأكره أن أُحبَّه وفودى ،
أو أُحنق صدورهم ، والذي أحب من إصلاح مُدَبَّرِكُمْ ، وتآلف شواذكم ، والإعذار إلى
الله فيما بيني وبينكم ، وقد قبلت ما كان في منطقتكم من صواب ، وصفححت عما كان فيه
من خلل ، فانصرفوا إلى ملسكم ، فأحسنوا موازرتة ، والتزموا طاعته ، واردعوا سفهاءكم
وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أديهم ، فإن في ذلك صلاح العامة . (العقد الفريد ١: ١٠١)

٤٢ - مخالس بن مزاحم وقاصر بن سلمة عند النعمان بن المنذر

كان مَخَالِسُ بن مَزَاحِمِ السَّكَلَبِيِّ ، وقَاصِرُ بن سَلَمَةَ الجَذَامِيُّ يساب النعمان بن المنذر ، وكان بينهما عداوة ، فأتى قاصر إلى ابن فَرَثَتَيْ وهو عمرو بن هند أخو النعمان ابن المنذر ، وقال : إن مخالساً هجاك ، وأنشده في ذلك أبياتاً ، فلما سمع عمرو ذلك أتى النعمان ، فشكا مخالساً وأنشده الأبيات ، فأرسل النعمان إلى مخالس ، فلما دخل عليه قال : « لا أَمَّ لك ! أهجو اسراً هو ميثماً خيرٌ منك حياً ، وهو سقيماً خيرٌ منك صحيحاً . وهو غائباً خيرٌ منك شاهداً ؟ فبِحُرْمَةِ ماء المِزْنِ ^(١) ، وَحَقِّ أَبِي قابوس ^(٢) ، لئن لاح لي أن ذلك كان منك ، لأنزِرَ عَنَّا غَلَصَمَتَكَ من قفاك ، وَلَا طَعِمَتَكَ لحمك » .

قال مخالس : « أبيت اللعن ! كلا ، والذي رفع ذِرْوَتَكَ بأعمادِها ، وأمات حُسَادَكَ بأكادِها ، ما بُلِّغْتَ غيرَ أقاريل الوُشَاةِ ، وَنَمَائِمِ العُصَاةِ ، وما هجوتُ أحداً ، ولا أهجو اسراً ذكرتُ أبداً ، وإني أعوذ بجدِّكَ الكريم ، وعِزِّ بيتك القديم ، أن ينالني منك عقاب ، أو يفاجئني منك عذاب ، قبل الفحص والبيان ، عن أساطير أهل البُهتان » .
فدعا النعمان قاصراً فسأله ، فقال قاصر : « أبيت اللعن ! وحقك لقد هجاه وما أروانيها سواه » فقال مخالس : « لا يأخذنَّ أيها الملك منك قولُ اسرئِ آفِكِ ^(٣) ، ولا تُورِدُنِي سبيل المِهالك . واستدليل على كذبه بقوله : إني أرويته مع ما تعرف من عداوته » ، فعرف النعمان صدقه فأخرجهما .

فلما خرجا ، قال مخالس لقاصر : « شَقِيَّ جَدُّكَ ، وَسَقُلَ خَدُّكَ ، وَبَطَلَ كَيْدُكَ ، ولاح للقوم جُرْمُكَ ، وطاش عني سَهْمُكَ ، ولأنت أضيقُ حِجْرًا من نَقَّازِ ^(٤) ، وأقل قُوًى من الحامل على الكِرَّازِ ^(٥) » فأرسلها مثلاً .
(جمع الأمثال ١ : ١٤٠)

(١) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، جمع مزنة . (٢) يعني نفسه وأبو قابوس كنيته .
(٣) كذاب . (٤) الحجر : العقل ، والنقاز : كرمان ، وشداد : طائر أو صفار العصفير ومن قول حسان بن ثابت :

لابأس بالقوم من طول ومن قصر
جسم البغال وأحلام المصافير

(٥) الكراز : السكبش يحمل خرج الراعى ، أى أقل قوى من الراعى يحمل زاده على السكبش ، وهو مثل يضرب لمن يرمى بالوؤم .

٤٣ - ضمرة بن ضمرة عند النعمان بن المنذر

قيل إن رجلاً من بني تميم يقال له ضمرة بن ضمرة ، كان يُغِير على مَسَالِحِ^(١) النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ ، حتى إذا عِيلَ صَبَرَ النُّعْمَانُ ، كتب إليه أنْ أَدْخُلَ فِي طَاعَتِي ، ولكِ مائة من الإبل ، فقبلها وأتاه ، فلما نظر إليه أزدراه - وكان ضمرة دَمِيماً - فقال : تسمع بِالْمُعَيْدِيِّ لَأَنْ تَرَاهُ^(٢) . فقال ضمرة : مَهَلًا أَيُّهَا الْمَلِكُ . إن الرجال لا يكأون بالصَّيْعَانَ^(٣) . وإنما المرءُ بِأَصْفَرِيهِ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ . إن قَاتَلَ قَاتَلَ بِجَنَانٍ . وإن نطق نطق ببيان . قال : صدقت لله دَرَكٌ ، هل لك علم بالأُمُورِ وَالْوُلُوجِ فِيهَا ؟ قال : والله إني لأُبرِمُ منها الْمَسْئُولَ^(٤) . وَأَنْقُضُ منها الْمَقْتُولَ . وَأُحْيِيهَا حتى تَحُولَ ، ثم أنظر إلى ما يثول . وليس للأُمُورِ بصاحبٍ . مَنْ لا يَنْظُرُ فِي الْعَوَاقِبِ . قال : صدقت ، لله درك ! فأخبرني : ما العجز الظاهر ، والفقر الحاضر ، والداء العيَاءُ^(٥) ، والسوءة السوءاء ؟ قال ضمرة :

« أَمَا الْعِجْزُ الظَّاهِرُ . فَالشَّابُّ القَلِيلُ الحَيْلَةُ . الزُّومُ لِلْحَلِيلَةِ . الذي يحوم حولها . ويسمع قولها . فَإِنْ غَضِبْتَ تَرَضَّاهَا . وَإِنْ رَضِيتْ تَفَدَّاهَا . وأما الفقر الحاضر فالمرء لا تشبع نفسه . وإن كان من ذهبٍ خِلْسُهُ^(٦) . وأما الداء العيَاءُ : فجار السوء ، إن كان فوقك قَهْرَكَ ، وإن كان دونك هَمَزَكَ^(٧) . وإن أعطيته كفرَكَ ، وإن منعتَه شتمَكَ ، فَإِنْ كان ذلك جارك ، فأخْلِ له دارَكَ ، وَعَجَّلْ منه فِرَارَكَ ، وإلا فَأَقِمْ بَدَلَ

(١) مسالِح جمع مسلحة بالفتح وهى الثغر . (٢) وفى رواية « تسمع بالمعدي خير من أن تراه » وهو مثل يضرب لمن خبره خير من مرآه ، والمعدي تصغير المعدي نسبة إلى معد وهو حى ، خفت الدال استثقالا للتشديد مع ياء التصغير ، وقيل منسوب إلى معيد وهو اسم قبيلة . (٣) الصيغان جمع صاع وهو مكيال يكال به ، ومعياره الذى لا يختلف أربع حفنات بكفى الرجل الذى ليس بمظيم الكفمين ولا صغيرهما . وحرر بعض المحققين أن الصاع بالمصرى قد حان وثلاث . (٤) سحل الثوب: لم يبرم غزله . (٥) داء عيَاء : لا يبرأ منه . (٦) الخلس كسائه يجعل على ظهر البعير تحت رحله . (٧) الممز : الغمز .

وصَفَّارٌ ، وكن ككلبِ هَرَّارٍ^(١) ، وأما السوءة السوءاء : فالحليلة الصَّخَّابة^(٢) ، الخفيفة الوثابة ، السليطة^(٣) السَّبابَةُ ، التي تَعَجَّبَ من غير عَجَبٍ ، وتغضب من غير غضب ، الظاهر عيبها ، والخوف غيبها ، فزوجها لا يصلح له حال ، ولا ينعم له بال ، إن كان غنياً لا ينفعه غناه ، وإن كان فقيراً أبدت له قِلاَه^(٤) ، فأراح الله منها بعلها ، ولا متع الله بها أهلها .

فأعجب النعمان حُسنُ كلامه ، وحضور جوابه ، فأحسن جائزته . واحتبسه قبلة .

(جمهرة الأمثال ١ : ١٨٦)

٤٤ — لبيد بن ربيعة يصف بقلة

وقد على الثعمان بن المنذر عامرُ بن مالك مُلاعِبُ الأسنَّةِ في رهطٍ من بني جعفر ابن كلاب ، فيهم لبيد بن ربيعة ، فطن فيهم الربيعُ بن زياد العنسي ، وذكر معايبهم — وكان نديماً للنعمان ، وكانت بنو جعفر لهم أعداء — فلم يزل بالنعمان حتى صدّه عنهم ، فدخلوا عليه يوماً ، فأوا منه جفاء — وقد كان يكرمهم ويقر بهم — فخرجوا غضاباً ، ولبيد متخلفٌ في رحلهم ، يحفظ متاعهم ، وَيَقْدُو بِإِبْهَمِ كُلِّ صَبَاحٍ يَرَاهَا — وكان أحدثهم سنّاً — فأتاهم ذات ليلة وهم يتذاكرون أمر الربيع ، فسألهم عنه فكتموه ، فقال : والله لا حَفِظْتُ لَكُمْ مَتَاعاً ، ولا سَرَّحْتُ لَكُمْ بَعيراً ، أو تخبروني فيم أنتم ؟ وكانت أم لبيد يتيمة في حجر الربيع ، فقالوا : خالك قد غلبنا على الملك ، وصدّ عنا وجهه ، فقال لبيد : هل تقدرين على أن تجمعوا بيني وبينه ، فأزجره عنكم بقول مُمَضِّ مؤلم ، لا يلتفت إليه النعمان بعده أبداً ؟ قالوا : وهل عندك شيء ؟ قال : نعم . قالوا : فإننا نبلوك .

(١) هرير الكلب : صوته ، وهو دون النباح . (٢) أى كثيرة اللغظ والجلبة من الصخب

بالتحريك . (٣) الطويلة اللسان من السلاطة كفصاحة . (٤) القتل : البغض والكرهية .

قال : وما ذلك ؟ قالوا : تَشَمُّ هذه البَقْلَةُ - وَقَدْ آمَهُمْ بَقْلَةٌ دَقِيقَةُ القَضْبَانِ ، قَلِيلَةُ الأورَاقِ ، لاصِقَةٌ بالأَرْضِ ، تدعى التَّرْبَةَ - فقال :

« هذه للتَّرْبَةِ التي لا تُذَكِّي^(١) نَارًا ، ولا تُؤْهِلُ^(٢) دَارًا ، ولا تُسَرُّ جارًا ، عُوْدُها ضَنْبِيلٌ ، وَفَرْعُها كَلِيلٌ^(٣) ، وخيرها قليل ، أقبح البقول مَرْعَى ، وأقصرها فَرَعًا ، وأشدّها قَلَمًا ، فَتَعَسَّأَ لها وَجَدْعًا^(٤) ، بلدها شاسع^(٥) ، وَنَبْتُها خاشع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها قانع^(٦) ، فآلقوا بي أخا بني عَبْسٍ ، أَرُدَّهُ عنكم بِتَعَسٍ^(٧) وَنُكْسٍ ، وأتركه من أمره في لَبْسٍ . »

فلما أصبحوا غَدَوْا به معهم إلى النعمان ، فذكروا حاجتهم ، فاعترض الربيع ، فرجز به لبيد رَجَزًا مَالِبًا معه النعمان أن تقرز منه ، وأمره بالانصراف إلى أهله

(مجمع الأمثال ٢ : ٣٣ وجمهرة الأمثال ٢ : ١١٦ ، الأغاني ١٤ : ٩١ ،

أبناء نجيلاء الأبناء ص ١٧١ ، وأمال السيد المرقي ١ : ١٣٥)

٤٥ - كلمات هند بنت الحُسن الإيادية

أتى رجل هندَ بنت الحُسنِ الإيادية يستشيرها في امرأة يتزوجها . فقالت : « انظر رمكاء^(٨) جَسِيمَةً ، أو بيضاء وَسِيمَةً ، في بيتِ جِدِّ ، أو بيتِ حَدِّ ، أو بيتِ عَزِّ » قال : حاتركت من النساء شيئًا ، قالت : « بلى ، شرَّ النساء تركتُ : السُوَيْدَاءُ المِمرَاضُ^(٩) ، والأَحْمِيرَاءُ المِحياضُ^(١٠) الكَثيرة المِظاظِ^(١١) . »

وقيل لها : أي النساء أسوأ ؟ قالت : « التي تقعُدُ بالفِئَاءِ ، وتملأُ الإِناءَ ، وتمذُقُ^(١٢) »

(١) تذكي : تشمل . (٢) أي ولا تؤدم أهل دار من الإهالة (ككتابة) وهي كل ما يؤتمد

به ، ويقال ثريدة مأهولة : أي فيها إهالة . (٣) ضعيف . (٤) قطعاً . (٥) بعيد .

(٦) أي سائل . (٧) التمس : الهلاك .

(٨) الرمكاء : السمراء ، والرمكة كحمر لون الرماد . (٩) الممرض : المسقام .

(١٠) الكثرية الحيض . (١١) المظاظ : المنازعة والمشاركة . (١٢) تمزج .

مافى السقاء» قيل: فأى النساء أفضل؟ قالت: «التى إذا مشت أغبرت»^(١)، وإذا نطقت صرصرت^(٢)، متوركة جارية^(٣)، فى بطنها جارية^(٤)، يتبعها جارية^(٥).

قيل: فأى الغلمان أفضل؟ قالت: «الأسوق الأعنق»^(٦)، الذى إن شبَّ كأنه أحق» قيل: فأى الغلمان أفضل^(٦)؟ قالت: «الأويقص»^(٧) القصير العصد، العظيم الحافية^(٨)، الأغيب الغشاء، الذى يطبع أمه، ويعصى عمه.

(الأمالي ٢ . ٢٦٠)

وقيل لها: أى الرجال أحب إليك؟ قالت: السهل النجيب، السمح الحسيب، النذب^(٩) الأريب، السيد المهيب، قيل لها: فهل بقى أحد من الرجال أفضل من هذا؟ قالت: نعم الأهيف الهفاهف^(١٠)، الأنف العياف، المفيد المتلاف، الذى يُخيف ولا يخاف، قيل لها: فأى الرجال أبغض إليك؟ قالت: الأوره^(١١) النثوم، الوكل النثوم، الضعيف الحيزوم، اللثيم الملووم. قيل لها: فهل بقى أحد شر من هذا؟ قالت: نعم، الأحق النزاع، الضائع المضاع، الذى لا يهاب ولا يطاع، قالوا: فأى النساء أحب إليك؟ قالت: البيضاء العطرة، كأنها ليلة قمرة^(١٢) قيل: فأى النساء

(١) أثارى الثبار فى مشيتها . (٢) أحدثت صوتها . (٣) أى حاملة لها على وركها .

(٤) أى هى مثنات . (٥) الأسوق : الطويل الساق ، والأعنق : الطويل العنق .

(٦) أفضل من نسل : كسكرم وعلم وعنى فسالة وفسولة فهو نسل ؛ أى رذل لا مروءة له .

(٧) الأويقص : تصغير أوقص ، وهو الذى يذنو رأسه من صدره .

(٨) ماتحوى من الأمعاء أى استدار .

(٩) النذب : الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب ، والأريب : العاقل . (١٠) الأهيف وصف

من الهيف بالتحريك ، وهو رقة الخاصرة ، والقميمص الهفاهف ، أى الرقيق الشفاف . (١١) الأوره :

الأحقق من وره كفرح . (١٢) ليلة قررة وقرءة ومقمره : فيها القمر .

أبغض اليك؟ قالت: العنْفِصُ^(١) القصيرة، التي إن اسندتْظَمَّتْهَا سَكَتَتْ، وإن سَكَتَتْ
عنها نَطَقَتْ». (ذيل الأمال ص ١٢٠)

وقال لها أبوها يوماً: أى المال خير؟ قالت: «النَّخْلُ، الراسخاتُ في الوَحْلِ،
الطعمِاتُ في المَحَلِّ^(٢)» قال: وأى شيء؟ قالت: «الضَّانُّ: قرية لا وباءَ بها. تُنْتَجِبُهَا
رِخَالًا^(٣)، وتَحْلِبُهَا عَلَالًا^(٤)، وتُجَزُّ لها جُفَالًا^(٥)، ولا أرى مثلاً مالا» قال: فالإبل
مالك تُؤَخَّرُ رَيْنُهَا؟ قالت: «هى أذكار الرجال، وإِرْقَاءُ الدماءِ، ومُهْوَرُ النساءِ» قال:
فأى الرجال خير؟ قالت:

خير الرِّجَالِ المُرَهَّقُونَ كما خيرُ تِلَاعِ البلادِ أَوْطُوها^(٦)

قال: أيهم؟ قالت: «الذى يُسْأَلُ ولا يَسْأَلُ، ويُضَيَّفُ ولا يُضَافُ، ويُضْلِحُ ولا
يُضْلَحُ». قال: فأى الرجال شر؟ قالت: «النُّصَيْطُ النُّطَيْطُ^(٧) الذى معه سُوَيْطُ^(٨)،
الذى يقول أذركونى من عبدِ بنى فلان؛ فإنى قاتلُه أو هو قاتلى». قال: فأى النساءِ
خير؟ قالت: «التي فى بطنها غلامٌ، تحمل على وركها غلامًا، يمشى وراءها غلامٌ»
قال: فأى الجمال خير؟ قالت: «السَّبْحَلُ الرَّبَّجَلُ^(٩)، الراحلة الفحل». قال:

(١) العنْفِصُ: المرأة البديهة القليلة الحياء، والقليلة الجسم الكثيرة الحركة.

(٢) المحل: الشدة والجذب وانقطاع المطر. (٣) الرخال جمع رخل كحمل وكثف، وهو الأثني

من أولاد الضأن. (٤) يقال عاللت الناقة، وهو أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره، والاسم علال
ككتاب. (٥) الجفال: الكثير من الصوف.

(٦) المرهق: من يقشاه الناس والأضياف. (٧) النطيط: الذى لالحية له، والنطيط:

ذلهذريان (بكسر الهاء والراء) وهو الكثير الكلام يأتي بالخطأ والصواب عن غير معرفة.

(٨) تصغير سوط. (٩) السبحل والربجل: البعير الضخم الكثير اللحم.

أرأيتك الجذع^(١) ، قالت : لا يضرب ، ولا يدع ، قال : أرأيتك الثني^(٢) قالت :
يضرب ، وضرباهُ وفي^(٣) ، قال : أرأيتك السدس^(٤) ، قالت : ذاك العرس^(٥) .
(نيل الأمل ص ١٠٨)

وقيل لها : أئى الخليل أحب إليك ؟ قالت : « ذوالليعة الصنيع^(٦) ، السليط
التليع^(٧) ، الأيد الضليع^(٨) الملهب^(٩) السريع » فقيل لها : أى الفيوث أحب إليك ؟
قالت : « ذوالهيذب المنبثق^(١٠) ، الأضخم المؤتلق^(١١) الصخب المنبثق^(١٢) » وقيل
لها : ما مائة من المعز ؟ قالت : مؤيل يشف الفقر من ورائه ، مال الضعيف ، وحرقة
العاجز « قيل : فما مائة من الضان ؟ قالت « قرية لاجى بها » قيل : فما مائة من الإبل ؟
قالت : « بنج^(١٣) ، جمال ومال ، ومئى الرجال » . قيل : فما مائة من الخليل ؟ قالت :

-
- (١) أرأيتك : كلمة تقولها العرب بمعنى أخبرنى ، الجذع : البعير إذا كان فى السنة الخامسة .
(٢) البعير إذا كان فى السادسة وألقى ثنيته . (٣) قال أبو على : الصواب أنى أى بطل .
(٤) السدس : البعير إذا كان فى الثامنة . (٥) العرس : الأسد .
(٦) ماع الفرس يبيع : جرى ، وصنعة الفرس : حسن القيام عليه ، صنعت فرسى صنعا وصنعة
(بفتح الصاد فهما) والصنيع ذلك الفرس . (٧) السليط : الشديد ، والحديد من كل شئ ، والتليع :
الطويل المتق من التلع بفتحيتين وهو طول العنق . (٨) الأيد ككيس : القوى ، من آد يثيد أيذا أى
قوى واشتد ، والضليع وصف من ضلع كفصح ضلاعة ، وهى القوة وشدة الأضلاع .
(٩) هو الذى يجهد فى عدوه حتى يثير الغبار ، من أهب . (١٠) الهيدب : السحاب المتدلى ،
والمنبثق : المنبج بالمطر . (١١) الضخم : كشمس وسبب وأحمد وغراب : العظيم من كل شئ ، وائتلق
البرق وتألقت : لمع . (١٢) الصخب : وصف من الصخب كسبب وهو شدة الصوت ، والمنبثق : المنفجر
(١٣) بنج كقده : أى عظم الأمر وقبحه ، تقال وحدها وتكرر ، بنج الأول منون مكسور ، والثانى
مسكن ، ويقال فى الإفراء : بنج ساكنة الخاء ؛ وبنج مكسورة ، وبنج منونة مضمومة ، ويقال
بنج بنج مسكين ، وبنج بنج منونين مكسورين ، وبنج بنج مكسورين مشددين منونين كلمة تقال عند الرضا
والإعجاب بالشئ .

« طَفَنِي مِنْ كَانَتْ لَهُ وَلَا يُوْجَدُ » قِيلَ : فَمَا مَاءَةٌ مِنَ الْحُمْرِ ؟ قَالَتْ : عَازِبَةٌ ^(١) اللَّيْلِ ،
وَخِزْيُ الْمَجْلِسِ ، لَا لَبَنَ فَيُحَلَّبُ ، وَلَا صَوْفَ فَيَجْرَزُ ، إِنْ رُبِطَ عَيْرُهَا ^(٢) أَدْنَى ،
وَإِنْ تَرِكَ وَلَّى ، وَقِيلَ لَهَا : مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ فِي عَيْنِكَ ؟ قَالَتْ « مَنْ كَانَتْ لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ » .
(سرح العيون ص ١٨٤)

وقالت : « أَخْبِثُ الذَّنَابُ ذَنْبُ الْقَضَا ^(٣) ، وَأَخْبِثُ الْأَفَاعِي أْفْعَى الْجَدَبِ ،
وَأَسْرَعُ الظُّبَاءِ ظُبَاءُ الْحُلْبِ ^(٤) ، وَأَشَدُّ الرِّجَالِ الْأَعْيَفَ ^(٥) ، وَأَجْمَلُ النِّسَاءِ الْفَضْمَةُ
الْأَسِيلَةُ ^(٦) ، وَأَقْبَحُ النِّسَاءِ الْجَهْمَةُ الْقَفْرَةُ ^(٧) ، وَآكَلُ الدَّوَابِّ الرَّغُوْثُ ^(٨) ، وَأَطْيَبُ
اللَّحْمِ عُوْذُهُ ^(٩) ، وَأَغْلَظُ لِلْوِطْأِيِّ الْحَصَى عَلَى الصَّقَا ، وَشَرُّ الْمَالِ مَا لَا يَزُكِّي ^(١٠)
وَلَا يُدْكِي ^(١١) ، وَخَيْرُ الْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ ^(١٢) ، أَوْ مَهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ^(١٣) » .
(مجمع الأمثال ١ : ١٧٤)

(١) يقال جمل عازب : أى لا يروح على الحى من العزوب : وهو الغيبة والذهاب ، وقولها : خزي
المجلس ، أى بما تحدثه من النهيق المزعج والإدلاء . (٢) العير : الحمار (وغلب على الوحشى) ،
وأدلى : أى أخرج قضيبه ليبول أو يضرب .
(٣) القضا : شجر له جمر يبقى طويلا . (٤) الحلب : نبت ، قال حمزة : « العرب تسمى
ضروباً من البهائم بضروب من المراعى تنسبها إليها ، فيقولون : ظبى الحلب ، وتيس الربلة (والربل محرمة
نبات شديد الخضرة) ، وشيطان الحماطة (والحماطة كسحابة : شجر شبيه بالتين ، أحب شجر إلى
الحيات) . . الخ وذلك كله على قدر طباع الأمكنة والأغذية العاملة في طباع الحيوان . (٥) من المعجب
بالتحريك وهو ذهاب السمن . (٦) الطويلة المسترسلة . (٧) الجهمه : مؤنث الجهم وهو الوجه
الغليظ المجتمع السمج ، والقفرة : القليلة القفر بالتحريك : أى الشعر . (٨) الرغوْث : كل مرضعة
كالمرغْث . (٩) ما عاذا بالعظم من اللحم . (١٠) زكى كرضى نما وزاد كزكا يزكو . (١١) ذكى
تذكية : سمن وبدن (بضم الدال) . (١٢) السكة : السطر من النخل ، والمأبورة : المصلحة ، من
أبرت النخل آبره إذا لقتحه وأصلحته . (١٣) مأبورة : أى كثيرة الولد ، من أمرها الله أى كثرتها ،
وكان ينبغي أن يقال مؤمرة ، ولكنه أتبع مأبورة - اقرأ فى كتاب بلاغات النساء ص ٥٧ فصلا طويلا
فى كلام هند بنت الحس وأختها جمعة .

٤٦ - خطبة كعب بن لؤى

وخطب كعب بن لؤى (وهو الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم) فقال :
« اسمعوا وعُوا ، وَتَعَلَّمُوا تَعْلَمُوا ، وَتَفَهَّمُوا تَفَهَّمُوا ، لَيْلِ سَاجٍ ^(١) ، وَنَهَارِ صَاجٍ ^(٢) ،
وَالْأَرْضِ مِهَادٍ ، وَالْجِبَالِ أَوْتَادٍ ، وَالْأُولُونَ كَالْآخِرِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ إِلَى بَلَاءٍ ، فَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ ،
وَأَصْلِحُوا أحوَالَكُمْ . فَهَلْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَلِكٍ رَجَعَ ، أَوْ مَيِّتًا نُشِرَ ، الدَّارَ أَمَامَكُمْ ، وَالظَّنَّ
خِلَافَ مَا تَقُولُونَ ، زَيْنُوا حَرَمَكُمْ وَعَظُمُوهُ ، وَتَمَسَّكُوا بِهِ وَلَا تَفَارِقُوهُ ، فَمَسَّكُوا لِيْهِ نَبَأٌ عَظِيمٌ
وَيُخْرِجُ مِنْهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ ، ثُمَّ قَالَ :

نَهَارٌ وَلَيْلٌ وَأَخْتِلَافٌ حَوَادِثِ سَوَاءٍ عَلَيْنَا حُلُوهَا وَمَرِيرُهَا
يَثُوبَانِ بِالْأَحْدَاثِ حَتَّى تَأْوَبَا وَبِالنِّعَمِ الضَّائِفِ عَلَيْنَا سُتُورُهَا ^(٣)
صُرُوفٌ وَأَنْبَاءٌ تَقْلَبُ أَهْلَهَا لَهَا عُقْدٌ مَا يَسْتَحِيلُ مَرِيرُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقًا خَبِيرُهَا

ثُمَّ قَالَ :

يَا لَيْتَنِي شَاهِدٌ فَخَوَّاءُ دَعْوَتِهِ حِينَ الْعَشِيرَةِ تُبْنِي الْحَقَّ خِذْلَانَا ^(٤)

(صبح الأعشى ١ : ١١٢)

(١) الساجي : الساكن والدائم . (٢) لعله ساج من ضج القوم صاحوا واجلبوا .

(٣) التأوب الرجوع . (٤) فحوى الكلام وفحواؤه معناه و مذهبه .

٤٧ - خطبة هاشم بن عبد مناف

يحث قريشاً على إكرام زوار بيت الله الحرام

كَانَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ يَقُومُ أَوَّلَ نَهَارِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ فَيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ مِنْ تَلْقَاءِ بَابِهَا ، فَيَخْطُبُ قُرَيْشًا ، فَيَقُولُ :

« يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَنْتُمْ سَادَةُ الْعَرَبِ ، أَحْسَنُهَا وَجُوهًا ، وَأَعْظَمُهَا أَحْلَامًا ، وَأَوْسَطُهَا ^(١) أَنْسَابًا ، وَأَقْرَبُهَا أَرْحَامًا . يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَنْتُمْ جِيرَانُ بَيْتِ اللَّهِ ، أَكْرَمُكُمْ بَوْلَايَتِهِ ، وَخَصْمُكُمْ بِجَوَارِهِ ، دُونَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، وَحَفِظَ مِنْكُمْ أَحْسَنَ مَا حَفِظَ جَارٌ مِنْ جَارِهِ ، فَأَكْرَمُوا ضَيْفَهُ ، وَزُورُوا بَيْتَهُ ، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكُمْ شُعْنًا ^(٢) غَيْرًا مِنْ كُلِّ بَلَدٍ ، فَوَرَبِّ هَذِهِ الْبَيْتِ ^(٣) ، لَوْ كَانَ لِي مَالٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ لَكَفَيْتُكُمْوه ، أَلَا وَإِنِّي مُخْرَجٌ مِنْ طَيْبٍ مَالِي وَحِلَالِهِ ، مَا لَمْ يُقْطَعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُؤْخَذْ بِظَلْمٍ ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ حَرَامٌ ، فَوَاضِعُهُ ، فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلْ ، وَأَسْأَلُكُمْ بِحُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يُخْرِجَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ مَالِهِ ، لِكِرَامَةِ زُورِارِ بَيْتِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِمْ إِلَّا طَيْبًا ، لَمْ يُؤْخَذْ ظَلَمًا ، وَلَمْ يُقْطَعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يَنْتَقِصْ » .

(شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ . ٤٥٨)

(١) خيرهم : الوسط من كل شيء أصله (قال أوسطهم . . . وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

(٢) جمع أشعث : وهو ملبد الشعر مغبره . (٣) الكعبة : والبنية بكسر الباء وضها وسكون

٤٨ — خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش وخزاعة

تنافرت قريش وخزاعة^(١) إلى هاشم بن عبد مناف ، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة ، فقال في خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة^(٢) وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل في كل حلف^(٣) يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا مادعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم ؛ يا بني قصي : أنتم كفصني شجرة أيهما كسيرا أوحش صاحبه ، والسيف لا يصابن إلا بعمده ، وراى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكاه^(٤) اللجاج أخرجه إلى البغي .

أيها الناس : الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفة ، والأيام دول ، والدهر غير^(٥) ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديك ، وحاموا الخليط يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ؛ وعليكم

(١) خزاعة : حى من الأزدي ، سما بذلك لأنهم تخزعوا عن قومهم (أى تخلفوا عنهم وانقطعوا) إقبالهم من اليمن . وذلك أنه لما تفرقت الأزدي من اليمن في البلاد نزل بنو مازن على ماء بين زيد وزمغ ؛ وأقبل بنو عمرو بن عامر فاتخزعوا عن قومهم فزلوا مكة .

(٢) النضر : الجد الثاني عشر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقصي الجد الرابع . (٣) الحلف : في العهد بين القوم والصدقة ، والصديق يحلف أصحابه أن لا يندربه ، وقوله « لكل في كل » أى لكل في صاحبه صديق يجب عليه نصرته .

(٤) أمحكاه . (٥) أى ذو غير ، وغير الدهر : أحداثه المغيرة ، جمع غيرة بالكسر ، أو مفرد وجمعه أغيار .

بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ،
وإن نهنته^(١) الجاهل أهون من جريرته^(٢) ، ورأس العشيرة يحمل أنقالها ، ومقام الخليم
عظة لمن انتفع به .

فقال قريش : « رضينا بك أبا نضلة » وهي كنيته .

(بلوغ الأرب ١ : ٣٢٢)

٤٩ - خطبة عبد المطلب بن هاشم

يهي سيف بن ذى يزن باسترداد ملكه من الحبشة

لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة ، أنته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنته
وتمدحه ، ومنهم وفد قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فاستأذنه فى الكلام فأذن
له ، فقال :

« إن الله تعالى - أيها الملك - أحلك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخاً^(٣) شامخاً ،
وأنتك منبتاً طابت أرومته^(٤) ، وعزت جرثومتها^(٥) ، وثبت أصله ، وبسق^(٦)
فرعه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها
الذى به تئصب ، وملكها الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليه العباد ، ومقلها^(٧) الذى
إليه يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدم خير خلف ، ولن يهلك من أنت

(١) نهنته عن الأمر : كفه وزجره . (٢) فى الأصل « جريرته » ، وفى كتب اللغة : « حزرة

المال ؛ وحزيرته : خياره » ولا معنى لها هنا ، وأرى أنها مصحفة عن « جريرته » .

(٣) عاليها ، من بذخ وبذخا كفرح . (٤) أرومة : باضم والفتح أى أصل . (٥) أصله أيضاً .

(٦) علا و طال . (٧) الملجأ .

خَلْفَهُ ، وَلَنْ يَخْمَلَ مَنْ أَنْتَ سَلَفُهُ ، نَحْنُ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَهْلَ حَرَمِ اللَّهِ وَذِمَّتِهِ ، وَسَدَنَةِ بَيْتِهِ ، أَشْخَصْنَا إِلَيْكَ الَّذِي أَبْهَجَكَ بِكُشْفِ الْكُورِ الَّذِي فَدَحْنَا^(١) ، فَنَحْنُ وَفَدَا الْهَمْنَةُ ، لَا وَفَدَا الْمَرْزُوتَةُ^(٢) .

(العقد الفريد ١ : ١٠٧ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١١) .

٥٠ - خطبة أبي طالب

في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة

خطب أبو طالب حين زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيتاً محبوباً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يُوازَن به فتى من قريش إلا رَجَحَ عليه : برّاً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونُبلاً^(٣) ، وإن كان في المال قُلٌّ^(٤) ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية^(٥) مُستزجَمة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ ، ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » .

(صبح الأعشى ١) ٢١٣ ، وإعجاز القرآن ١٢٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ٤ ؛ والسيرة الحلبية ١ : ١٣٣)

(١) أتقلنا . (٢) رزأه ماله : كجعل وعلم أصاب منه شيئاً رزأه ، كارتزأه ماله ، ورزأه

رزأه ومرزئة أصاب منه خيراً : أى لسنا وافرين للعطاء .

(٣) ذكاء ونجابة . (٤) قلة . (٥) ما يستعار ، مشددة وقد تخفف .

خطب الكهان

٥١ - الكاهن الخزاعي ينفر هاشم بن عبد مناف

على أمية بن عبد شمس

وَلِيَ هَاشِمٌ بَعْدَ أَبِيهِ عَبْدِ مَنْفَافٍ ، مَا كَانَ إِلَيْهِ مِنَ السَّقَايَةِ وَالرَّفَادَةِ^(١) ، فَحَسَدَهُ أُمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنْفَافٍ عَلَى رِيَاسَتِهِ وَإِطْعَامِهِ ، وَكَانَ ذَا مَالٍ ، فَتَكَافَفَ أَنْ يَصْنَعَ صَنِيعَ هَاشِمٍ ، فَمَجَّزَ عَنْهُ ، فَشَمَّتْ بِهِ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَمَضَبَ وَنَالَ مِنْ هَاشِمٍ ، وَدَعَا إِلَى الْمَنَافَرَةِ ، فَكَّرَهُ هَاشِمٌ ذَلِكَ لِسِنَّتِهِ وَقَدْرِهِ ، فَلَمْ تَدْعُهُ قُرَيْشٌ حَتَّى نَافَرَهُ عَلَى خَمْسِينَ نَاقَةً ، سُودَ الْحَدَقِ يَنْحَرُهَا بَيْطُنَ مَكَّةَ ، وَالْجِلَاءَ عَنْ مَكَّةَ عَشْرَ سَنِينَ ، فَرَضَى بِذَلِكَ أُمِيَّةُ ، وَجَعَلَا بَيْنَهُمَا الْكَاهِنَ الْخَزَاعِيَّ - وَهُوَ جَدُّ عَمْرُو بْنِ الْحَقِّقِ ، وَمَنْزِلُهُ بِعُسْفَانَ^(٢) ، وَكَانَ مَعَ أُمِيَّةَ هَمِيمَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْمِيِّ الْفِهْرِيِّ ، وَكَانَتْ ابْنَتَهُ عِنْدَ أُمِيَّةَ ، فَقَالَ الْكَاهِنُ :

« وَالْقَمَرِ الْبَاهِرِ ، وَالْكُوكَبِ الزَّاهِرِ ، وَالْقَامِ الْمَاطِرِ ، وَمَا بِالْجَوْ مِنْ طَائِرٍ ، وَمَا اهْتَدَى بِعَلَمٍ^(٣) مَسَافِرٍ ، مِنْ مُنْجِدٍ وَغَاثِرٍ^(٤) ، لَقَدْ سَبَقَ هَاشِمٌ أُمِيَّةَ إِلَى الْمَآثِرِ ، أَوْلَى مِنْهُ وَآخِرِ ، وَأَبُو هَمِيمَةَ بِذَلِكَ خَابِرٌ . »

(١) السقاية : هي إسقاء الحجيج الماء العذب ، والرفادة : خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من أموالها ، فتدفعه إليه ، فيصنع به طعاما للحجاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

(٢) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة . (٣) العلم : مانصب في الطريق يهتدى به .

(٤) أنجد : أنى نجدا ، وغار وأغار : أنى غورا .

فقضى لهاشم بالغلبة ، وأخذهاشم الإبل ، فنجرها وأطمعها ، وغاب أمية عن مكة بالشأم عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، والسيرة الحلبية ١ : ٤ ، وتاريخ الطبري ٢ : ١٨٠)

٥٢ — عوف بن ربيعة الأسدي يتكهن بمقتل حجر بن الحارث

كان حجر بن الحارث (أبو امرئ القيس) ملك بني أسد ، وكان له عليهم إناوة^(١) كل سنة لما يحتاج إليه ، فبقي كذلك دهرًا ، ثم بعث إليهم من يجني ذلك منهم ، وحجر يومئذ بهامة ، فطردوا رسله وضر بهم ، فبلغ ذلك حجرًا ، فسار إليهم ، فأخذ سرواتهم^(٢) وخيارهم ، وجعل يقتلهم بالعصا (فسموا عبيد العصا) وأباح الأموال وصيرهم إلى تهامة ، وحبس جماعة من أشرافهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر ، فقال شعرا يستعطفه فيه ، ومنه قوله :

أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

فوق لهم وعفا عنهم ، ورددهم إلى بلادهم ، فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كأنهم وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي ، فقال لهم : يا عبادي ، قالوا : لبيك ربنا ، فقال : « من الملك الصلِّب^(٣) ، الغلابُ غير المغلَّب^(٤) ، في الإبل كأنها الربرب^(٥) ، لا يقلتُ رأسه الصَّحْبُ ، هذا دمُه يَنْتَعِبُ^(٦) ، وهو غداً أول من يُستَلَبُ » قالوا : ومن هو ؟ ربنا . قال : « لولا تجيِّش^(٧) نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حجرٌ ضاحية^(٨) » .

(١) خراج . (٢) سروات جمع سراة بالفتح : وهي اسم جمع سري كفتى من سرو سروا وهو المروءة في شرف . (٣) حجر صلب : شديد صلب ، والصلب أيضا : الشديد من الإبل ، والرجل الطويل ، وفي الشعر والشعراء والأغاني « الأصهب » ومن معانيه الأسد . (٤) المغلَّب : المغلوب مرارا (وهو أيضا المحكوم له بالغلبة . ضد) . (٥) الربرب : القطيع من بقر الوحوش . (٦) ينتعبر . (٧) جاشت النفس وتجيشت : ارتفعت من حزن أو فزع . (٨) علانية ، يقال فعله ضاحية : أي علانية .

فركبوا كل صعب وذلول ، حتى بلغوا عسكر حجر ، فهجموا عليه في قبه فقتلوه .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٨٣ ، والشعر والشعراء ، ص ٣١ ، والأغانى ٨ : ٦٣)

٥٣ - كاهن بنى الحارث بن كعب يحذرهم غزو بنى تميم

كان بنو تميم قد أغاروا على لطيمة^(١) لكسرى ، فيها مسك وعنبر وجوهر كثير ، فأوقع كسرى بهم ، وقتل المقاتلة ، وبقيت أموالهم وذراتهم في مساكنهم لا مانع لها وبلغ ذلك بنى الحارث بن كعب من مذحج ، فمضى بعضهم إلى بعض ، وقالوا اغتصموا بنى تميم ، فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من زيد وحزم بن ريان في عسكر عظيم ، وساروا يريدون بنى تميم ، فحذرهم كاهن كان مع الحارث واسمه سلمة بن المغفل ، وقال :

« إنكم تسيرون أعقاباً^(٢) ، وتغزون أحباباً^(٣) ، سعداً ورباباً ، وتردون مياهاً جباباً^(٤) ، فتلقون عليها ضرباً ، وتكون غنيمتكم تراباً^(٥) ، فأطيعوا أمرى ولا تغزوا تيمياً » ولكمهم خالفوه وقاتلوا بنى تميم ، فهزموا هزيمة نكراء .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ٢٢٧ ، والأغانى ١٥ : ٧٠)

(١) اللطيمة : العير تحمل الطيب وبز التجار .

(٢) أى يسير بعضكم عقب بعض ، فريقاً في إثر فريق . وقد ذكر ابن الأثير أنهم كانوا نحو ثمانية آلاف ، ولا يعلم فى الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيش كسرى بلى قار ومن يوم جيلة . وروى أبو الفرج الأصبهاني أنه اجتمع من مذحج ولها اثنا عشر ألفاً . (٣) هذه الفاصلة والفاصلتان قبلها ، وردت فى الأصل محرفة هكذا : « إنكم تسيرون أعياناً ، وتغزون أحيانا ؛ سعدا وريانا » .

(٤) الجباب والأجباب جمع جب : وهو البئر الكثيرة الماء البعيدة القمر . (٥) أورد صاحب الأغانى من هذه الفقر الست ، الفقرة الأولى والرابعة والسادسة ، وعزاها إلى المأمور الحارثى وهو كاهن أيضاً

٥٤ - أحد كهان اليمن يفصل في أمر هند بنت عتبة

كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتيان قريش ، وكان قد تزوج هند بنت عتبة ، وكان له بيت للضيافة يفضاه الناس فيه بلا إذن ، فقال ^(١) يوماً في ذلك البيت ، وهند معه ، ثم خرج عنها وتركها نائمة ؛ فجاء بعض من كان يفشى البيت ، فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنها ، فاستقبله الفاكه بن المغيرة ، فدخل على هند وأنها ، وقال : من هذا الخارج من عندك ؟ قالت : والله ما انتهت حتى أنبهتني ، وما رأيت أحداً قط ، قال : الحق بأبيك ، وخاض الناس في أمرهم ، فقال لها أبوها : يا بنية العار ^(٢) وإن كان كذباً ، بُدئني شأنك ، فإن كان الرجل صادقاً دَسَسْتُ عليه من يقتله ، فيقطعُ عنك العار ، وإن كان كاذباً حا كمنه إلى بعض كهان اليمن ، قالت : والله يا أبتِ إنه لكاذب ، فخرج عتبة فقال : إنك رميت ابنتي بشيء عظيم ، فإما أن تُبين ما قلت ، وإلا فحاجبني إلى بعض كهان اليمن ، قال : ذلك لك ، فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ، ونسوة من بني مخزوم ، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف ، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند ، وكسف بالها ، فقال لها أبوها : أي بنية ، ألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا ؟ قالت : يا أبتِ والله ما ذلك لمكروه قبلي ، ولكنكم تأتون بشراً محطياً ويصيب ، ولعله أن يسمني بِسْمَةِ تَبَقِي على السنة العرب ، فقال لها أبوها : صدقت ، ولكني سأخبرُوكِ ، فصقر بفرسه ، فلما أدلى عمدًا إلى حبة بُرٍ ، فأدخلها في إحليله ، ثم أوكى ^(٣) عليها وسار ، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة : إنا أتيناك في أمر ، وقد حبأنا لك خبيثَةً ، فها هي ؟ قال : بُرّة في

(١) قال فيلا وقائلة وقيلولة ومقيلا : نام في القائلة وهي نصف النهار . (٢) أخی اتق العار .

(٣) الوكاه ككتاب : جبل يشد به رأس القربة ، ووكاها وأوكاها وأوكى عليها شد فيها بالوكاه .

كَمْرَةَ^(١) ، قال : أريد أبينَ من هذا ، قال : « حَبَّةُ بُرِّ » ، في إحلليل مُهر » قال : صدقت ، فانظر في أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ، ويقول : قومي لشأنك ، حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال : « انهضى غير رِقحاء^(٢) ولا زانية ، وَتَسْتَلِدِينَ مَلِكًا يَسْمَى معاوية » .

فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها ، فنثرت يده من يدها ، وقالت : إليك عنى ، والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان ، فولدت له معاوية .

(العقد الفريد ٣ : ٢٢٤ ، وصبح الأعشى ١ : ٣٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ١١١)

٥٥ - خمسة نفر من طيِّ يمتحنون سواد بن قارب الدوسي

خرج خمسة نفر من طيِّ من ذوى الحِجَابِ والرأى ، منهم بُرْجُ بن مُسَهْرٍ ، وهو أحد المُعَمَّرِينَ . وَأَنْبَيْفُ بن حارثة بن لَأَمٍ ، وعبد الله بن سعد بن الحَشْرَجِ أبو حاتم طيِّ ، وعارف الشاعر ، ومُرَّة بن عَبْدِ رُضَى ، يريدون سَوَادَ بن قَارِبِ الدَّوْسِيِّ ، لِيَتَحَنَّنُوا عَلَيْهِ ، فلما قَرُبُوا مِنَ السَّرَاةِ ، قالوا : لِيَخْتَبَأُ كُلُّ رَجُلٍ مَنَاخِيئًا ، وَلَا يُخْبِرَ بِهِ صَاحِبَهُ ، لِيَسْأَلَهُ عَنْهُ ، فَإِنْ أَصَابَ عَرَفْنَا عِلْمَهُ ، وَإِنْ أَخْطَأَ ارْتَحَلْنَا عَنْهُ ، فَخَبَأَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ خَبِيئًا ، ثُمَّ صَارُوا إِلَيْهِ ، فَأَهْدُوا لَهُ إِبِلًا وَطُرُقًا مِنْ طُرْفِ الْحَيْرَةِ ، فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ قَبَةَ ، وَتَحَمَّرَ لَهُمْ ، فَلَمَّا مَضَتْ ثَلَاثُ دَعَا بِهِمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ .

فَقَالُوا : « جَادَكَ السَّحَابُ ، وَأَمْرَعُ لَكَ الْجَنَابُ^(٣) »

(١) الكمره : رأس الذكر . (٢) الرقحاء : البنى التي تكتسب بالفجور ، من الرقاعة كفضاحة

وهي الكسب والتجارة ، هذا ماورد في ابن أبي الحديد ، وفي غيره « رسحاء » والرسحاء : القبيحة ، والرسحاء أيضا : القليلة لحم العجز والفخذين والأول أنسب . (٣) أمرع : أخصب ، والجناب :

وَضَفَّتْ عَلَيْكَ النَّعْمَ الرَّغَابُ^(١) ، نَحْنُ أَوْلُو الْأَكَالِ^(٢) ، وَالْحَدَائِقُ وَالْأَغْيَالِ^(٣) ،
وَالنَّعْمَ الْجُفَالِ^(٤) ، وَنَحْنُ أَصْهَارُ الْأَمْلاكِ ، وَفُرْسَانُ الْعِرَاكِ - يُورِّي عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ
بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ - .

فَقَالَ سَوَادٌ : « وَالسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، وَالنَّعْمَرِ وَالْبَرُضِ^(٥) ، وَالْقَرَضِ وَالْفَرَضِ^(٦) ،
إِنَّكُمْ لِأَهْلِ الْهَضَابِ الشَّمِّ ، وَالنَّخِيلِ الْعَمِّ^(٧) ، وَالصُّخُورِ الصَّمِّ ، مِنْ أَجَا الْعَيْطَاءِ ،
وَسَلَمَى ذَاتِ الرَّقَبَةِ السُّطْمَاءِ^(٨) » .

فَالُوا : إِنَّا كَذَلِكَ ، وَقَدْ خَبَأَ لَكَ كُلُّ رَجُلٍ مَنَا خَبِيئًا ، لِتُخْبِرْنَا بِاسْمِهِ وَخَبِيئِهِ ،
فَقَالَ لَبْرَجٌ : « أَقْسَمُ بِالضِّيَاءِ وَالْحَلَكِ^(٩) ، وَالنَّجُومِ وَالْقَلَكِ ، وَالشَّرُوقِ وَالذَّلَكِ^(١٠) ،
لَقَدْ خَبَأَتْ بُرْتُنُ فَرَخِ^(١١) ، فِي إِعْلِيَطِ مَرِّخِ^(١٢) ، تَحْتَ آسِرَةِ الشَّرِّخِ^(١٣) » قَالَ :
مَا أَخْطَأْتَ شَيْئًا ، فَمَنْ أَنَا ؟ قَالَ : أَنْتَ بُرْجُ بْنُ مُسْهِرٍ ، عَصْرَةَ الْمُعِيرِ^(١٤) ، وَتِمَالُ
الْمُحَجَّرِ^(١٥) .

- (١) الضافي : السابغ الكثير ، ويقال : خير فلان ضاف على قومه : أى سابغ عليهم ، والرغاب :
الواسعة الكثيرة جمع رغبة . (٢) الآكال : جمع أكل (كقفل وعنق) الرزق والحظ من الدنيا .
(٣) الأغيال جمع غيل كشمس : وهو الماء الجارى على وجه الأرض . (٤) الجفال :
الكثيرة . (٥) النعمر : الماء الكثير ، ويقال : رجل غمر الخلق إذا كان واسع الخلق سخيا ، والبرض :
الماء القليل ، ويقال فلان يبرض حقه . أى يأخذه قليلا قليلا .
(٦) القرض : ماتمطيه لتقصاه ، والفرض : ما فرضته على نفسك فوهبته أوجدت به لغير ثواب .
(٧) الشم : الطوال ، وكذا العم . (٨) أجأ وسلمى : جبلا طيبا ، والعيطاء : الطويلة ؛ وكذا
السطماء . (٩) الحلك : شدة السواد . (١٠) دلكت الشمس دلوكا : غربت أو اصفرت ؛ والدلك
وقت الدلوك . (١١) البرثن : ظفر كل مالا يصيد من السباع والطيور مثل الحمام والضب والفأرة فإذا كان
بما يصيد ؛ قيل لظفره مخلب . (١٢) المرخ : شجر تقدح منه النار ؛ والإعليط : وعاء ثمر المرخ ،
والعرب تشبه به آذان الخيل . (١٣) الآسرة والإسار : القد الذى يشد به خشب الرجل ، وشرخا الرجل
جانبايه . (١٤) المعير : الذى ذهب ماله ، والمعصرة : الملجأ والمنجاة .
(١٥) التمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه ؛ والحجر : الملجأ (بصفة اسم المفعول) المضيق عليه .

ثم قام أنيف بن حارثة ، فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال : « والسحاب والتراب ، والأصباب والأحداب ^(١) والنعم الكتاب ^(٢) ، لقد خبأت قدامة فسيط ^(٣) ، وقذة مريط ^(٤) ، في مدرّة من مديّ مطيط ^(٥) » قال : ما أخطأت شيئا ، فمن أنا ؟ قال : أنت أنيف ، قارى الضيف ، ومعمل السيف ، وخالط الشتاء بالصيف .

ثم قام عبد الله بن سعد . فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد : « أقسم بالسّوام العازب ^(٦) ، والوقير الكارب ^(٧) : والمجدّ الراكب ، والمشيح الحارب ^(٨) ، لقد خبأت نفاثة فنن ^(٩) ، في قطيع قد مرّ ^(١٠) ، أو أديم قد جرن . قال : ما أخطأت حرفاً فمن أنا ؟ قال : أنت ابن سعد النّوال ، عطاؤك سجال ^(١١) ، وشركك عّضال ، وعمدك جّوال ، وبيتك لا يئال .

ثم قام عارف ، فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد : « أقسم بنفنف اللوح ^(١٢)

(١) الأصباب : جمع صيب كسبب : وهو ما نخفض من الأرض ؛ والأحداب : جمع حدب كسبب أيضا : وهو ماعلا . (٢) النعم : الكثير . (٣) القدامة : ما قطمته بفيك ؛ والقطم بأطراف الأستان ، والفسيط : قلامة الظفر . (٤) القذة : الريشة ؛ والمريط من السهام : الذي قد تمرط ريشه أي نتف (٥) المدرّة : قطعة طين يابسة ؛ والمدى : جدول صغير يسيل فيه ، ما هريق من ماء البئر ؛ والمطيطة : الماء الخائر في أسفل الحوض .

(٦) السوام : المال الراعى من الإبل ؛ والعازب : البعيد . (٧) الوقير : القطيع من الغنم ، والكارب : القريب . (٨) المشيح : الجاد ؛ في لغة هذيل ؛ وفي غيرها الحاذر ؛ والحارب : السالب حربه حربا كطلبه طلبا : سلبه ماله . (٩) النفاثة : ما تنفته من فيك ؛ والفنن : واحد أفنان الأشجار وهي أغصانها . (١٠) القطيع : ما يقطع من الشجر ؛ ومرن وجرن : لان .

(١١) أي متداول بين الناس ، لكل فريق منه نصيب . (١٢) النفنف واللوح واحد ، وهما الهواء وإنما أضاف لما اختلف اللفظان ، فكأنه أضاف الشيء إلى غيره .

والماء السفوح^(١) ، والفضاء المندوح^(٢) ، لقد خبأت زممةً ظلًّا أعفر^(٣) ، في زعنفة^(٤) أديمٍ أحمر ، تحت حلسٍ نضوٍ أدبر^(٥) « قال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : أنت عارف ذو اللسان العضب ، والقلب الذئب^(٦) ، واللصاه الغرب^(٧) ، مناع السرب^(٨) ومبيح النهب » .

ثم قام مرّة بن عبد رضى ، فقال : ما خبيثى وما اسمى ؟ فقال سواد : « أقسم بالأرض والسماء ، والبروج والأنواء^(٩) ، والظلمة والضياء ، لقد خبأت دمة^(١٠) ، في رمة^(١١) ، تحت مشيط لمة^(١٢) » . قال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : « أنت مرّة ، السريع الكرّة ، البطيء الفرّة ، الشديد المرّة^(١٣) » .

قالوا : فأخبرنا بما رأينا في طريقنا إليك ، فقال : « والناظر من حيث لا يرى ، والسامع قبل أن يتأجى ، والعالم بما لا يدركى ، لقد عنّت لكم عقابٌ عجزاه^(١٤) ، في شغائيب^(١٥) دوحة جرداء ، تحمل جدلاً^(١٦) ، قماريم^(١٧) إماماً يداً وإماماً رجلاً » ، فقالوا . كذلك ، ثم مه ؟ قال : « سنح آكم قبل طلوع الشرق^(١٨) ، سيد أمق^(١٩) » ،

(١) المصبوب . (٢) الواسع . (٣) الظلا : ولد الظبى ساعة يولد ، والصغير من كل بىء ، والأعفر من الظباء ما يعلو بياضه حمرة ، والزممة : الشعرات المتدلّيات في رجل الأرنب . (٤) زعانف الأديم : أطرافه مثل اليدين والرجلين ، وما لا خير فيه جمع زعنفة بكم الزاى والنون ، ومنه قيل لردال الناس الزعانف .

(٥) الحلس للبعير كالبردعة للحافر ، والنضو : المهزول من الإبل وغيرها ، والأدبر : الذى أصابه الدبر (بالتحريك) وهو قرحة الدابة . (٦) الذكى . (٧) الحد . (٨) السرب بالفتح : الماشية كلها ، وبالكسر القطيع من الظباء والنساء وغيرها . (٩) الأنواء : جمع نوء (كسهم) النجم : مال الغروب . (١٠) الدمة : القملة . (١١) الرمة : العظام البالية .

(١٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والمشيط : المشوط .

(١٣) المرّة : القوة . (١٤) العجزاء : التى ابيض ذنبها ، (وفي غير هذا الموضع : التى كبرت عجيزتها) . (١٥) الشغائيب جمع شغوب كمصفور وهو الغصن الناعم الرطب ، والدوحة : الشجرة العظيمة . (١٦) الجدل : العضو وجمعه جدول . (١٧) تجادلتم . (١٨) الشرق : الشمس ، والعرب تقول لا أقفل ذلك ما طلع شرق ، وشرقت الشمس : طلعت ، وأشرقت : أضاءت . (١٩) السيد : الذئب والأمق : الطويل .

على ماء طَرَقَ^(١) « قالوا : ثم ماذا ؟ قال : « ثم تيس أفرق^(٢) ، سَدَدَ في أْبْرَق^(٣) ، فرماه الغلام الأزرق ، فأصاب بين الوايلة^(٤) والمِرْفَقِ^(٥) . قالوا : صدقت ، وأنت أعلم من تحمل الأرض ، ثم ارتحلوا عنه .

(الأمالي ٢ : ٢٩٢)

٥٦ - حديث مصاد بن مذعور القيني

كَانَ مَصَادُ بْنُ مَذْعُورِ الْقَيْنِيِّ رَئِيسًا ، قَدْ أَخَذَ مِرْبَاعًا^(٥) قَوْمِهِ دَهْرًا ، وَكَانَ ذَا مَالٍ ، فَفَنَدَ ذَوْدًا^(٦) . مِنْ أَذْوَادِهِ لَهُ ، فَخَرَجَ فِي بَغَائِمِهَا^(٧) ، قَالَ : فَإِنِّي لِنِي طَلَبُهَا ، إِذْ هَبَطْتُ وَادِيًا شَجِيرًا^(٨) كَثِيفَ الظَّلَالِ ، وَقَدْ تَفَسَّخْتُ أَيْنًا^(٩) ، فَأَنْتَحْتُ رَاحِلَتِي فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ، وَحَطَطْتُ رَحْلِي ، وَرَسَعْتُ^(١٠) بِمَيْرِي ، وَاضْطَجَعْتُ فِي بُرْدِي ، فَإِذَا أَرْبَعُ جَوَارٍ ، كَأَنَّهَا اللَّالِي ، يَرَعَيْنِ بَهْمًا لَهْنًا ، فَلَمَّا خَالَطْتُ عَيْنِي السَّنَّةُ ، أَقْبَلَنَ حَتَّى جَلَسَنَ قَرِيبًا مِنِّي ، وَفِي كَفِّ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ حَصِيَّاتٌ تُقَلِّبُنَ ، فَخَطَّتْ إِحْدَاهُنَّ ثُمَّ طَرَقَتْ^(١١) ، فَقَالَتْ : « قَلْنِ يَا بَنَاتِ عَرَافٍ ، فِي صَاحِبِ الْجَمَلِ النَّيَافِ^(١٢) ، وَالْبُرْدِ الْكُثَافِ^(١٣) ، وَالْجِرْمِ^(١٤) الْخُفَافِ^(١٥) » ، ثُمَّ طَرَقَتْ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَتْ :

(١) الطروق : الماء الذي بولت فيه الإبل ، يقال : ماء طروق ومطروق .

(٢) الأفرق من الشاء : البعيد ما بين خصييه . (٣) سند في الجبل : سعد ، والأبرق والبرقاء والبرقة كفرصة : غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل ، وجبل أبرق : إذا كان فيه لوانان .

(٤) الوايلة : رأس العضد الذي يلي المنكب . (٥) المرباع : ربع النخلة ، وكان يختص به الرئيس في الجاهلية . (٦) زد : شرد ، والذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة ، أو خمسة عشر ، أو عشرون ، أو ثلاثون . (٧) طلبها . (٨) كثير الشجر . (٩) تمبا وكلالا .

(١٠) شدت رسفه . (١١) الطروق : ضرب الكاهن بالخصي .

(١٢) جمال نياف ككتاب وشداد : طويل في ارتفاع . (١٣) الكثيف . (١٤) الجسد .

(١٥) الخفيف .

« مُضِلُّ أذْوَادٍ عَلَاكِدٍ ^(١) ، كُومٌ صَالَاخِدٍ ^(٢) ، مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ مَمَّقَاخِدٍ ^(٣) ، وَأَرْبَعٌ جَدَائِدٍ ^(٤) ، شُشْفٌ صَمَارِدٍ ^(٥) » ، ثم طرقت الثالثة فقالت : « رَعَيْنُ الْفَرَعِ ^(٦) » ، ثم هَبَطْنَ الْكَرَعِ ^(٧) ، بَيْنَ الْعَقِدَاتِ وَالْجَرَعِ ^(٨) . فقالت الرابعة : « لِيَهْبِطَ الْغَائِطُ الْأَفْيِيحُ ^(٩) ، ثُمَّ لِيُظْهَرَ فِي الْمَلَأِ الصَّحْصَحِ ^(١٠) ، بَيْنَ سَدِيرٍ وَأَمْلَحٍ ^(١١) ، فَهِنَاكَ الذَّوْدُ رِتَاعٌ بِمُنْعَرَجِ الْأَجْرَعِ » قال : فقمتم إلى جملي فشددت عليه رحله وركبت ، ووالله ما سألتهم مَنْ هُنَّ وَلَا يَمَنَّ هُنَّ ؟ فلما أدبرت ، قالت إحداهن : « أَبْرَحُ ^(١٢) » فَنِيَّ إِنْ جَدَّ فِي طَلْبِ ، فَمَا هِ غَيْرُهُنَّ نَشَبُ ^(١٣) ، وَسَيُثَوَّبُ عَنْ كَثَبٍ ^(١٤) ، فَفَرَّعْ قَلْبِي وَاللَّهِ قَوْلَهَا ، فَقُلْتُ : وَكَيْفَ هَذَا ، وَقَدْ خَلَّفْتُ بِيَوَادِيَّ عَرَجًا عُكَامِسًا ^(١٥) ؟ فَرَكِبْتُ السَّمْتَ ^(١٦) الَّذِي وُصِفَ لِي ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْمَوَاضِعِ ، فإِذَا ذَوْدِي رَوَاتِعٌ ، فَضَرَبْتُ أَعْبَازَهُنَّ ،

-
- (١) أضل دابته : فقدوا ، والملاكد : الصلاب الشداد جمع ملكد كجمفر وزبرج وقتفد .
- (٢) بدير أكوم ، وناقاة كوماه : عظيمة السنام والجمع كوم ، والصلاخد : العظام الشداد ، واحدها صلاخد بالضم .
- (٣) المقاحد جمع مقحاد ، وهي الغليظة السنام (والقعدة كوقبة : السنام أو أصله) .
- (٤) الجدائد جمع جدود كصبور : وهي التي انقطع لبنها .
- (٥) شسف جمع شاسف : وهو اليايس ضمرا وهزالا ، والصمارد جمع صمرد كزبرج : القليلة اللبن .
- (٦) الفرع جمع فرعة وهي أعلى الجبل .
- (٧) الكرع : ماء السماء ينزل فيستتقع ، وصمى كرها لأن الماشية تكرر فيه .
- (٨) العقيدات جمع عقدة : وهي ماتمقد من الرمل ، والجزع جمع جرعة بالسكون ويحرك : الرملة الطيبة المنبت لاهوثة فيها ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الدعص لاينبت ، أو الكتيب جانب منه رمل وجانب حجارة كالأجرع والجرعاه .
- (٩) الغائط : المطنن من الأرض ، والأففيح : الواسع .
- (١٠) الملا : الفضاء ، والصحصح والصحصاح والصحصحان : ما استوى من الأرض .
- (١١) سدير وأملح : موضعان .
- (١٢) أشد .
- (١٣) المال الأصيل من الناطق والصامت .
- (١٤) يثوب : يرجع ، والكثب : القرب .
- (١٥) العرج : نحو خمسةة من الإبل ، والمكاسم والفكابس : الكثير .
- (١٦) الطريق .

حتى أشرفت على الوادى الذى فيه إبلى ، فإذا ارتعاه تدعو بالويل ، فقلت ما شأنكم ؟
قالوا : أغارت بهزاه على إبلك ، فأسحفتها^(١) ، فأمسيت والله مالى مال غير الذود ،
فرمى الله فى نواصيهن بالرغس^(٢) ، وإنى اليوم لآ كثر بنى القمين مالا .

(الأمالي ١ : ١٤٣)

٥٧ - حديث خنافر بن التوأم الحميرى مع رثيه شصار

كان خنافر بن التوأم الحميرى كاهنا ، وكان قد أوتى بسطة فى الجسم ، وسعة
فى المال ، وكان عاتيا ، فلما وقدت وفود اليمين على النبي صلى الله عليه وسلم وظهر الإسلام أغار
على إبل لمراد فآ كتسحها ، وخرج بأهله وماله ، ولحق بالشجر ، فحالف جودان بن يحيى
الفرضىمى ، وكان سيدا منيعا ، ونزل بواد من أودية الشجر مخصبا كثير الشجر من الأيك
والعرين^(٣) قال خنافر : وكان رثى^(٤) فى الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى ، فلما شاع الإسلام فقدته
مدة طويلة ، وساءنى ذلك ، فبينما أنا ليلة بذلك الوادى نائما ، إذ هوى هوى العقاب ،
فقال : خنافر ؟ فقدت : شصار ؟ فقال : أسمع أقل ، قلت : قل أسمع ، فقال : « عه
تغمم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذى أمد إلى غاية ، قلت : أجل ، فقال : كل دوة إلى
أجل ، ثم يتاح لها حول^(٥) ، أنتسخت النحل ، ورجعت إلى حقائقها المثل ، إنك
سجير^(٦) موصول ، والنضح لك مبدول ، وإنى آنست^(٧) بأرض الشام نفرا من
آل العذام^(٨) ، حكاما على الحكام ، يذبون^(٩) ذارونقي من الكلام ، ليس

(١) استأصلتها . (٢) الرغس : البركة والنماء .

(٣) الأيك : الشجر الملتف الكثير ، والغريضة تثبت السدر والأزرك ، أو الجاعة من كل الشجر ،

والعرين : جماعة الشجر . (٤) الرثى : ما يترامى للإنسان من الجن فيحب .

(٥) الحول : التحول . (٦) السجير : الصديق ، والشجير : الغريب ، وقيل يقال السجير

والشجير للصديق . (٧) أبصرت . (٨) العذام : قبيلة من الجن ، كذا قيل .

(٩) ذبرت الكتاب : قرأته (وذبرته أيضا : كتبته كزبرته) .

بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكاف « فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلمت^(١) » ، قلت :
 بم تهينمون^(٢) ، وإلام تعزون^(٣) ؟ قالوا : « خطاب كبار^(٤) » ، جاء من عند الملك
 الجبار ، فاسمع يا بصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار^(٥)
 النار » ، قلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : « فرفان بين الكفر والإيمان ، رسول من
 مصر ، من أهل المدر ، ابتعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دثر ، فيه
 مواظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر^(٦) ، ألفت بالأي الكبر^(٧) » قلت : ومن هذا المبعوث
 من مصر ؟ قال : « أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر^(٨) » ، وإن خالفت
 أصليت سقر ، فآمنت يا خافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل
 مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لآعن تلاق^(٩) » ، قلت : من أين أبني هذا الدين ؟ قال :
 من ذات الأحرين^(١٠) والنفر اليمانيين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضع^(١١) ، قال :
 « الحق بيثرب ذات النخل ، والحررة ذات النعل^(١٢) » ، فهناك أهل الطول والفضل ،
 والمواساة والتبذل ، ثم آانس^(١٣) عني ، فبت مذعوراً أراعي الصباح ، فلما برق لي
 النور ، امتطيت راحتي ، وآذنت^(١٤) أعبدي ، واحتملت بأهلي ، حتى وردت
 الجوف ، فرددت الإبل على أربابها ، بجولها وسقائها^(١٥) ، وأقبلت أريد صنعاء ،
 فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته على الإسلام ،
 وعلمني سوراً من القرآن ، فمن الله على بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة .

(الأمال : ١ : ١٣٣)

- (١) منعت . (٢) الهيمنة : الصوت الخفي . (٣) تتسبون . (٤) كبير .
 (٥) الأوار : حر النار . (٦) الشبر بالسكون : الخير وحرك للسجع . (٧) الحررة
 (بالفتح) أرض ذات حجارة نخرة سود وتجمع على حررات وحرار وحرين وأحرين . (٨) النعل:
 المكان الغليظ من الحررة . (٩) أفلت . (١٠) أعلمت . (١١) الحول جمع حائل وهي الأنثى
 من أولاد الإبل ، والسقاب جمع سقب كشمس وهو الذكر .

٥٨ شافع بن كليب الصدفي يتكهن بظهور النبي صلى الله عليه وسلم

قَدِمَ هَلَى تَبِعِ الْآخِرِ مَلِكِ الْيَمَنِ ، قَبْلَ خُرُوجِهِ لِقِتَالِ الْمَدِينَةِ^(١) ، شَافِعُ بْنُ كَلَيْبِ
الْصَدْفِيِّ^(٢) ، وَكَانَ كَاهِنًا ، فَقَالَ لَهُ تَبِعْ : هَلْ تَجِدُ لِقَوْمِ مَلِكِ يَوْزَى مَلِكِي ؟ قَالَ : لَا ،
إِلَّا مُلْكَ غَسَّانَ ، قَالَ : فَهَلْ تَجِدُ مَلِكًا يَزِيدَ عَلَيْهِ ؟ قَالَ :

« أَجِدُهُ لِبَارٍ مَبْرُورٍ ، وَرَائِدٍ^(٣) بِالْقَهْوَرِ^(٤) ، وَوَصْفٍ فِي الزَّبُورِ ، فَضُلَّتْ

(١) قال ابن إسحق : « كان تبع الآخر حين أقبل من المشرق بعد أن ملك البلاد جعل طريقه على المدينة ، وكان حين مر بها في بدايته لم يهج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابنا له ، فقتل غيلة ، فقدمها وهو جمع على تخريبها واستئصال أهلها ، فجمع له الأنصار حين سمعوا ذلك وخرجوا لقتاله ، فترجم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لكرام ، فبينما هو على ذلك إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان في العلم ، فقالا له : قد سمعنا ماتريد أن تفعل ، وإنك إن أبيت إلا ذلك ؛ حيل بينك وبينه ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، فقال : ولم ذلك ؟ قالا : إنها مهاجر (بفتح الجيم) نبي يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره ، فأنهى عما كان يريد ، وأعجبه ما سمع منهما ، واتبعهما على دينهما ، وكان هو وقومه أصحاب أوثان ، وخرج متوجها إلى اليمن فدعا قومه إلى اليهودية فأبوا عليه ، ثم أطبقوا على دينه ، فن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن (سيرة ابن هشام ١ : ١١ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٤٦) .

(٢) الصدفي نسبة إلى صدف ككتف : بطن من كندة . (٣) الرائد في الأصل : المرسل في طلب الكلاء من الرود وهو اطلب ، يعنى به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد كان رائدا لأمته يرتاد لها الخبير قال عليه الصلاة والسلام في أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه : « إن الرائد لا يكذب أهله » .
(٤) جاء في معجم البلدان : « القهر (كشمس) أسافل الحجاز مائل نجدا من قبل الطائف .
وأشدد لخداش بن زهير :

دعوا جانبي ، إني سأزل جانباً
سك واسما بين اليمامة والقهر

وأقول : هذا الوصف ينطبق على مكة فهي واقعة جنوبي الحجاز . . . الخ . فالمعنى : « أجد ملكا يزيد على ملكك لرائد يظهر بتلك البقاع » أما كلمة القهور فلم أجدها في معجم ، ولعل الكاهن جمع « القهر » على قهور ، لإقامة الغاصلة ، أو هو على حد قول امرئ القيس :

يزل الغلام الخف عن سهواته
كما زلت الصفواء بالمتنزل

أُمَّتِهِ فِي الشُّفُورِ^(١) ، يَفْرَجُ الظُّلَمَ بالنور ، أَحَدُ النَّبِيِّ ، طَوَّبَ لَأُمَّتِهِ حِينَ يَجِي ، أَحَدُ
بَنِي لُؤَيٍّ ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي قُصَيٍّ .

فَنظَرَ تَبِعَ فِي الزُّبُورِ ، فَإِذَا هُوَ يَجِدُ صِفَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٦٤)

٥٩ - سَطِيحُ الذَّنْبِيِّ^(٢) يَعْبُرُ رُؤْيَا رَيْبَعَةَ بِنَ نَصْرِ اللَّخْمِيِّ

وَرَأَى رَيْبَعَةَ بِنَ نَصْرِ اللَّخْمِيِّ مَلِكِ الْبَيْنِ - وَقَدْ مَلَكَ بَعْدَ تَبَعِ الْآخِرِ - رُؤْيَا هَالَتْهُ ،
فَلَمْ يَدْعُ كَاهِنًا ، وَلَا سَاحِرًا ، وَلَا عَائِنًا ، وَلَا مَنْجَمًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ إِلَّا جَمَعَهُ إِلَيْهِ ،
فَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي وَقَطَعْتُ^(٣) بِهَا ، فَأَخْبِرُونِي بِهَا وَتَأْوِيلَهَا ، قَالُوا لَهُ :
أَقْصُصْهَا عَلَيْنَا نَخْبِرُكَ بِتَأْوِيلِهَا ، قَالَ : إِنِّي إِنْ أَخْبَرْتُمْ بِهَا لَمْ أَطْمَئِنِّ إِلَى خَبْرِكُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا
فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَأْوِيلَهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا قَبْلَ أَنْ أَخْبِرَهُ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ : فَإِنْ كَانَ
الْمَلِكُ يَرِيدُ هَذَا ، فَلْيَبْعَثْ إِلَى سَطِيحِ وَشِقِّ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْهُمَا فِيهَا ، يُخْبِرَانِهِ
بِمَا سَأَلَ عَنْهُ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمَا ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ سَطِيحٌ قَبْلَ شِقِّ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا

(١) السفر (كحمل) الكتاب الكبير ، أو جزء من أجزاء التوراة ، وفي كتب اللغة أنها تجمع على

أسفار ، ولعله جمعها على سفور للمحافظة على السجع أيضا .

(٢) اسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن غسان ، وكان يقال له الذئبي

نسبة إلى ذئب بن عدى ، وكان من المعمرين قيل عاش ثلثمائة سنة وقيل سبعمائة ، وزعموا أنه لم يكن له رأس
ولا عتق ، وأن وجهه كان في صدره ، وأنه كان جسدا ملقيا لاجوارح له ، وكان لا يقدر على الجلوس إلا
إذا غضب ، فإنه ينتفخ فيجلس ، وكان له سرير من الجريد والحوص ، إذا أريد نقله إلى مكان يطوى من
رجليه إلى جمجمته كما يطوى الثوب فيوضع على ذلك السرير ، وإذا أريد استخباره ليخبر عن المغيبات يحرك
كما يحرك سقاء اللبن فينتفخ ويمتلئ ويعلوه النفس فيسأل فيخبر عما يسأل عنه ، (كذا) وأن كاهنة بنى سعد
ابن هذيم وكانت بأعلى الشام لما حضرته الوفاة طلبت سطيحا وشقا (وسياق ذكره) وتفلت في فهما ،
وذكرت أن سطيحا يخلفها في كهانتها ، ثم ماتت في يومها ذلك .

(٣) فظع بالأمر كفرح فظاعة : إذا هاله وغلبه .

هالتي وَقَطَعْتُ بِهَا ، فَأَخْبَرَنِي بِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ أَصَدَّبْتَهَا أَصَبْتَ تَأْوِيلَهَا . قَالَ : أَفَعَلَ
 « رَأَيْتَ حُمَّةً ^(١) ، خَرَجْتَ مِنْ ظُلْمَةٍ ^(٢) ، فَوَقَمْتَ بِأَرْضِ تَهْمَةٍ ^(٣) ، فَأَكَلْتَ مِنْهَا كُلَّ
 ذَاتِ جُجُمَةٍ ^(٤) » ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا أَخْطَأْتَ مِنْهَا شَيْئًا يَا سَطِيحُ ، فَمَا عِنْدَكَ فِي تَأْوِيلِهَا ؟
 فَقَالَ : « أَحْلِفْ بِنَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ ^(٥) مِنْ حَشَشٍ ، لِيَهْبِطَنَّ أَرْضَكُمْ الْحَبَشُ ، فَلَيْمَلِكُنَّ
 مَا بَيْنَ أَبَيْنَ ^(٦) إِلَى جُرَشٍ ^(٧) » فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : وَأَيُّكَ يَا سَطِيحُ . إِنْ هَذَا لَنَا لِنَاظِ
 مُوجِعٍ ، فَتِي هُوَ كَأَنَّ ، أَمَى زَمَانِي هَذَا أَمْ بَعْدَهُ ؟ قَالَ : « لَا ، بَلْ بَعْدَهُ بِحِينَ ، أَكْثَرَ
 مِنْ سِتِينَ أَوْ سَبْعِينَ ، يَمْضِينَ مِنَ السِّنِينَ » قَالَ : أَفِيدُومُ ذَلِكَ مِنْ مَلِكِهِمْ أَمْ يَنْقَطِعُ ؟
 قَالَ : « لَا ، بَلْ يَنْقَطِعُ لِيَضْعُ سَبْعِينَ مِنَ السِّنِينَ ، ثُمَّ يُقْتَلُونَ بِهَا أَجْمَعِينَ ، وَيُخْرَجُونَ
 مِنْهَا هَارِبِينَ » قَالَ : وَمَنْ يَلِي ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ ؟ قَالَ : « يَلِيهِ إِرَامٌ ^(٨)
 ذِي يَزَنَ ، يُخْرَجُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدَنَ ، فَلَا يَتْرَكَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْيَمِينِ » قَالَ : أَفِيدُومُ ذَلِكَ مِنْ
 سُلْطَانِهِ أَمْ يَنْقَطِعُ ؟ قَالَ : « بَلْ يَنْقَطِعُ » قَالَ : وَمَنْ يَقْطَعُهُ ؟ قَالَ « نَبِي زَكِيَّ ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ
 مِنْ قَبْلِ الْعَلِيِّ » قَالَ : وَعَمَّنْ هَذَا النَّبِيُّ ؟ قَالَ : « رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ ، بَنُ مَالِكِ
 ابْنِ النَّضْرِ ، يَكُونُ الْمَلِكُ فِي قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ » قَالَ : وَهَلْ لِلدَّهْرِ مِنْ آخِرٍ ؟ قَالَ :

(١) الخمة وتجمع على حمم : اللفحة والرماد وكل ما احترق من النار ، وتطلق الخمة على الجمر مجازاً
 باعتبار ما يثول إليه وهو المراد هنا . (٢) الظلمة : الظلام ، وسررى في تعبير الرؤيا أنها إشارة إلى
 الأحباش السود . (٣) التهمة بالتحريك : الأرض المتصوية إلى البحر ، كالتهم محركة أيضاً كأنهما
 مصدران من تهامة ، لأن التهام متصوبة إلى البحر ويقال أيضاً : أرض تهمة كفرحة أى شديدة الحر ، من
 التهم بالتحريك وهو شدة الحر وفي ابن الأثير « بهمة » بالياء يقال : أرض بهمة كفرحة أى كثيرة البهيمى ،
 والبهيمى بالضم اسم نبت ، والضبط الأول عندي أرجح . (٤) أى كل نفس . (٥) الحرة : أرض
 ذات حجارة سود نخرة ، (٦) مخلاف باليمن منه مدينة عدن . (٧) مخلاف باليمن من جهة مكة .

(٨) الإرام كمنب وكتف : العلم (بالتحريك) أو خاص بعماد ، والعلم سيد القوم ، أى يتولاه سيد بني

« نعم . يومٌ يُجْمَعُ فيه الأولون والآخرون ، يَسْعَدُ فيه المحسنون ، ويشقى فيه السيئون » .
قال : أحقُّ ما تُخبرنا ياسطيح ؟ قال : « نعم ، والشَّقِيقِ ، وَالنَّسَقِ ^(١) ، وَالْفَلَقِ ^(٢) »
إذا انشَقَّ ، إن ما أنباتك به لَحَقَّ » .

٦٠ شق أنمار ^(٣) يعبر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا

ثم قدم عليه شقٌّ ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفغان أم مختلفان ، قال : « نعم ، رأيت حُمَّةً ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين رَوْضَةٍ وأَكْمَةٍ فأكلت منها كلَّ ذات نَسَمَةٍ » . فلما سمع الملك ذلك قال : ما أخطأت ياشقٍ منها شيئا ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : « أَحْلِفُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ من إنسان ، لَيَنْزِلَنَّ أَرْضَكُمْ السُّودَانُ ، فَلْيَعْلِبَنَّ عَلَى كُلِّ طِفْلَةٍ ^(٤) الْبَنَانُ . وَلَيَمْلِكَنَّ مَا بَيْنَ أُبَيْنَ إِلَى نَجْوَانَ ^(٥) »
فقال له الملك : وأبيك ياشقٍ ، إن هذا لنا لغائظٌ مَوْجِعٌ ، فتى هو كائن : أرى زمانى أم بعده ؟ قال : « لا ، بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذوشان ، وَيُذِيقُهُمْ أَشَدَّ الْهَوَانِ » قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال : « غلام ليس بدنيٍّ ولا مُدَنَّ ^(٦) ، يخرج عليهم من بيت ذى يَزَنَ ^(٧) » قال أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : « بل ينقطع برسول

(١) الشفق : الحمرة في الأفق من الغروب إلى قريب العتمة ، والغسق : ظلمة أول الليل .

(٢) الفلق : الصبح أو ما انفلق من عموده . (٣) هوشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن أقرل

ابن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار ، وزعموا أنه كان شق إنسان (أى نصفه) له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . (٤) مؤنث طفل : وهو الرخص الناعم من شيء . (٥) مخلاف شمال اليمن .

(٦) الدف : مسهل عن دفاء ، والمدف : المقصر عما ينبغى له أن يفعله ، وفى ابن الأثير « مزن »

بالزاي والمزن : المهتم ، من أزننته بكذا أى أهتمته به .

(٧) وخبر ذلك أن زرعة بن كعب الملقب بذي نواس أحد ملوك التبابعة باليمن (وكان قد تهود وتعصب

للإهودية وحمل عليها قبائل اليمن) اضطهد نصارى نجران لأن يهوديا بنجران عدا أهلها على ابني له فقتلوهما ظلما ، فتوسل إلى ذى نواس باليهودية ، واستنصره عليهم ، فحمى له ولدينه وغزاهم ، ويقال إن رجلا من =

مُرْسَل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم
الْقَصَل . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : « يوم تُجْزَى فيه الولاية ، يدعى فيه من السماء
بِدَعَوَات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، وَيُجْمَعُ فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه
لمن اتقى الفوز والخيرات » قال : أحقُّ ما تقول ؟ قال : « إى وربِّ السماء والأرض ،
وما بينهما من رَفَعٍ وخفض ، إن ما أنبأتك به لحقٌّ ما فيه أَمْضٍ ^(١) » .

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قال ، فجهز بنيهِ وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ،
وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له سابور فأسكنهم الحيرة . فن بقية ولده
النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وهو النعمان بن المنذر بن النذر بن عمرو بن
امرى القيس بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر .

(تاريخ الطبري : ٩٩ وسيرة ابن هشام ١ : ٨ ، والكامل لابن الأثيرا : ١٤٦)

٦١ - وفود عبد المسيح بن بقبيلة على سطيح

عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

« لما كان ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ارتجَّ إيوان كسرى ، فسقطت
منه أربع عشرة شُرْفَة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فإ كان أوشك أن كتب إليه

= أهل نجران أفلت من القتل ، وسار إلى قيصر الروم يستنجده على ذى نواس ، فبعث قيصر إلى نجاشي الحبشة
بأمره بنصرة النصارى ، فجهز جيشا إلى اليمن ، فركبوا البحر إليها ، ولقيهم ذو نواس فيمن معه فدارت
الدائرة عليه ، وملسكت الحبشة اليمن ، ولما طال البلاء من الحبشة على أهلها خرج سيف بن ذى يزن الحميرى
وقدم على قيصر يومسنيان يستنجده على الحبشة فأبى ، وقال : الحبشة على دين النصارى ؛ فرجع إلى كسرى
أنوشروان واستعان ، فأمدته بجيش من كانوا في سجنونه ؛ فقاتلوا الأحباش وهزمهم ؛ واسترد سيف
عرش آباهه على فريضة يؤديها كل عام للفرس حتى قتل ؛ فأرسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله إلى أن
كان آخرهم باذان فأسلم ؛ وصارت اليمن إلى الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) أى شك أو باطل .

صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة^(١) غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة^(٢) انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران سخدت تلك الليلة ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر ، فقال الموبدان^(٣) : أيها الملك إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي ، قال له : وما رأيت ؟ قال : رأيت إبلا صعباً ، تعود خيلاً عرباً ، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا ، قال : رأيت عظيماً فاعظيما في تأويلها ؟ قال : ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلاً من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحذثان ، فبعث إليه عبد المسيح بن بقليلة الفسّاني . فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر ، فقال له : أيها الملك ، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن جهّزني إلى خال لي بالشام يقال له سطيح . قال : جهّزه ، فلما قدم إلى سطيح وجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه ، وكله فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرَيْفُ الْيَمَنِ يَا فَاصِلَ الْخُطَّةِ أُعْيِيَتْ مَنْ وَمَنْ^(٤)
أَتَاكَ شَيْخٌ الْحَيُّ مِنْ آلِ سَنَنْ أَيْبُضُ فَضْفَاضِ الرَّدَاءِ وَالْبَدَنِ^(٥)
رَسُولٌ قَبِيلِ الْعُجْمِ يَهْوِي لِلْوَتَنِ لَا يَرَهُبُ الرَّعْدَ وَلَا رَبِّبَ الزَّمَنِ^(٦)

(١) هكذا في العقد الفريد ، وفي السيرة الحلبية « وورد عليه كتاب من صاحب إيليا (بالشام) يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة » وفي معجم البلدان : « ساوة مدينة حسنة بين الرى وهمدان في وسط ، بينها وبين كل واحد من همدان والرى ثلاثون فرسخاً ، وفي حديث سطيح في أعلام النبوة : « وخمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة . . . الخ » ومنه يستفاد أنها في فارس .

(٢) موضع بين الكوفة والشام . (٣) الموبدان والموبذ : فقيه الفرس وحاكم المجوس .

(٤) الغطريف : السيد الشريف . (٥) الفضفاض : الواسع .

(٦) القليل : الملك ؛ أو هو دون الملك الأعلى .

فرفع إليه رأسه وقال : « عبد المسيح ، على جبل مُشِيح^(١) ، إلى سَطِيح ، وقد أوفى على الضَّرِيح^(٢) ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخرود النيران ، ورؤيا الموبدَّان ، رأى إبلا صِعَابًا ، تقود خَيْلًا عِرَابًا ، قد اقتحمت في الواد ، وانتشرت في البلاد . يا عبد المسيح : إذا كثرت التَّلَاوة^(٣) ، وظهر صاحب الهِراوة^(٤) ، وقاض وادي السامرة ، وَغَاضَتْ بِحِيْرَة ساوة ، وخذت نار فارس ، فليست بابل للفرس مُقَامًا ، ولا انشام لسطيح شامًا ، يملك منهم ملوك وملكات^(٥) ، عدد سقوط الشُّرُفَات ، وكل ما هو آت آت » ثم قال :

إِنْ كَانَ مُلْكُ بَنِي سَاسَانَ أَفْرَطَهُمْ فَإِنْ ذَا الدَّهْرِ أَطْوَارًا دَهَارِيرُ^(٦)
 مِنْهُمْ بَنُو الصَّرْحِ بِهَرَامٍ وَإِخْوَتُهُ وَالْهَرْمُزَانَ وَسَابُورَ وَسَابُورَ
 فَرَبِمَا أَصْبَحُوا يَوْمًا بِمَنْزِلَةٍ تَهَابُ صَوْنَهُمُ الْأَسْدُ الْمَهَاصِيرُ^(٧)
 حَبُتُوا الْمَطِيَّ وَجَدُّوا فِي رِحَالِهِمْ فَمَا يَقُومُ لَهُمْ سَرَجٌ وَلَا كُورُ^(٨)
 وَالنَّاسُ أَوْلَادَ عِلَّاتٍ فَمَنْ عَلَمُوا أَنْ قَدْ أَقْلَ فَمُحْقُورٌ وَمَهْجُورُ^(٩)
 وَالخَيْرَ وَالشَّرَّ مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ فَالْخَيْرِ مُتَّبِعٌ وَالشَّرِّ مُحْذُورُ

(١) جاد سريع . (٢) أى القبر ؛ والمراد الموت . (٣) أى تلاوة القرآن .

(٤) الهراوة : العصا الضخمة ؛ وصاحبها هو النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمسك العصا كثيرا عند مشيه . (٥) قول صاحب السيرة الحلبية : « لم أقف على أنه ملك منهم من النساء إلا واحدة وهي بوران ؛ ملكت سنة ثم هلكت » .

(٦) أفرطهم : تركهم وزال عنهم ؛ قال تعالى : « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ، وَأَسْمَهُمْ

مُفْرَطُونَ »

أى متروكون فيها ؛ ودهر دهارير : أى شديد (كليلة ليلاء ويوم أيوم).

(٧) المهاصير جمع مهصار أو مهصير وهو الأسد من المحصر وهو الكسر والجذب والإمالة .

(٨) الكور : الرجل بأداته . (٩) أولاد اللعات : أولاد أمهات شقي من رجل واحد .

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح فغمه ذلك ، ثم تعزى ، فقال : إلى أن يملك
منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان ، فهلكوا كلهم في أربعين سنة ، وكان آخر من هلك
منهم في أول خلافة عثمان رضى الله عنه .

(تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٢ والمقد الفريد ١ : ١٠٨ ، والسيرة الحلبية ١ : ٧٠ ، والمختصر فى أخبار البشر

لأبى الفداء ١ : ١١٠) .

٦٢ - شق وسطيح ينبئان بأصل ثقيف

عن ابن الكلابى قال : « كان قسي^(١) - وهو ثقيف^(٢) - مقبلا باليمن ، فضاقت عليه
موضعه ونبأ^(٣) به ، فأتى الطائف ، وهو يومئذ منازل فهم وعدوان بنى عمرو بن قيس
ابن عيلان ، فاتمى إلى الظرب المدوانى ، فوجده نائما تحت شجرة فأيقظه ، وقال :
من أنت ؟ قال : أنا الظرب ، قال : على ألية^(٤) إن لم أقتلك ، أو تحلف لى لنزوجتتى
ابنتك ، ففعل ، وانصرف الظرب وقسي^(٥) معه ، فلقية ابنه عامر بن الظرب ، فقال : من
هذا معك يا أبت ؟ فقص قصته ، قال عامر : لله أبوه ! لقد ثقف^(٦) أمره ، فسمى يومئذ

(١) هو أبو القبيلة المشهورة ، وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة

ابن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ؛ وقد اختلف النسابون فى نسب ثقيف ، فقال قوم : إنهم من
هوازن ، وهو القول الذى يزعمه الثقفيون ؛ وعليه جمهور الناس ، ويزعم آخرون أن ثقيفا من إياد بن نزار
ابن معد بن عدنان ؛ وأن النخع أخوه لأبيه وأمه ؛ ثم افترقا؛ فصارا أحدهما فى عداد هوازن والآخر فى عداد مذحج ؛
وقال قوم آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من العرب القديمة التى بادت وانقرضت . قال الحجاج على المنبر :

يزعمون أنا من بقايا ثمود فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أُبْقِى » وقال مرة أخرى : ولئن كنا

من بقايا ثمود لما نجامع صالح إلا خيارهم - اقرأ كلمة عن نسب ثقيف فى شرح ابن أبى الحديد م ٢

ص ٣٩٢ ؛ والمقد الفريد ٣ : ٨ ، والأغانى ٤ : ٧٤ ؛ ومروج الذهب ٢ : ٦٨ ؛ وتاريخ الطبرى

٧ : ٢٣٣ . (٢) نبأ به منزله . لم يوافق . (٣) الألية : البين . (٤) ثقف ككرم وفرح :

صار حاذقا خفيفا فطنا . وثقف الشيء كفرح : ظفر به .

ثقيفاً ، وعُيِّرَ الظرب بتزويجه قسيّاً ، وقيل زوجتَ عبدًا ، فسار إلى الكاهن يسألهم ، فأنتهى إلى شقّ بن مُصعبِ البَجَلِيّ ، وكان أقربهمُ منه . فلما انتهى إليه قال : إنا قد جنناك في أمر فما هو ؟ قال : « جئتم في قسيّ ، وقسيّ عبدُ إياد ، أبق^(١) ليلة الواد ، في وجّ^(٢) ذاتِ الأنداد ، فوالى سعدًا لِيُقَاد ، ثم لوى بغير معاد » يعنى سعد بن قيس ابن عيلان بن مضر ، ثم توجه إلى سطيح الذئبي حتى من غَسَّان ، ويقال إنهم حتى من قُضاعة نَزُول في غَسَّان . فقالوا : إنا جنناك في أمر فما هو ؟ قال : « جئتم في قسيّ ، وقسيّ من ولد نمود القديم ، ولدته أمه بصحراء تَرِيم^(٣) ، فالتقطه إياد وهو عديم ، فاستعبده وهو مُلِيم^(٤) » . فرجع الظرب وهو لا يدرى ما يصنع في أمره . وقد وُكِّدَ عليه في الحَلْفِ والتزويج ، وكانوا على كفرهم يُوفون بالقول ، فلهذا يقول من قال إن ثقيفاً من نمود ، لأن إياداً من نمود .

(الأغاني ٤ : ٧٥)

٦٣ - تنافر عبد المطلب بن هاشم والثقيفين إلى عزي سلمة الكاهن

كان لعبد المطلب بن هاشم مال بالطائف يقال له : ذو المَرَم^(٥) ، فغلبه عليه خنْدِف ابن الحارث الثَّقَفِيُّ ، فنافروهم عبد المطلب إلى عَزِي سلمة الكاهن - أو إلى نُفَيْل ابن عبد العزّي جد عمر بن الخطاب^(٦) - فخرج عبد المطلب مع ابنه الحارث ، وليس له يومئذ غيره ، وخرج الثقيفون مع صاحبهم ، وحربُ بن أمية معهم على عبد المطلب ، فنفد ماء عبد المطلب ، فطلب إليهم أن يسقوه ، فأبوا ، فبلغ العطش منه كل مَبْلَغ ، وأشرف

(١) هرب . (٢) وج : اسم واد بالطائف . (٣) رام يريم ربما : تباعد .

(٤) الأمام فهو ملِيم : أتى ما يلام عليه .

(٥) ضبطه في القاموس المحيط بفتح فسكون ؛ والصحيح أنه بالتحريك كما يدل على ذلك الأسجاع

الآتية . (٦) وعبارة معجم ياقوت : « فنافروهم عبد المطلب إلى الكاهن القضاعي وهو سلمة بن أبي حية فخرجوا إليه إلى الشام » .

على الهلاك ، فبينما عبد المطلب يُشير بعيره ليركب ، إذ فَجَّرَ اللهُ له عينا من تحت جِرانه ، فحَدَّ اللهُ وعلم أن ذلك منه ، فَشَرِبَ وشرب أصحابه رِيَّهم وتزودوا منه حاجتهم ، وَفَدَّ ماءَ الثَّقَفِيِّينَ ، فطلبوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم فَأَنعم عليهم ، فقال له ابنةُ الحارثِ الْأُمَحْنِيَّةُ على سيفي حتى يخرج من ظهري ، فقال عبد المطلب : لأَسْقِيَنهم فلا تفعل ذلك بنفسك فسقام ، ثم انطلقوا ، حتى أتوا السكاهن ، وقد خَبَثُوا له رأسَ جَرَادَة ، في خُرْزَة مَزَادَة ^(١) ، وجعلوه في فِلَادَة كلب لهم يقال له سَوَّار ، فلما أتوا السكاهن إذا هم ببقرتين تسوقان بينهما بَخْرَجًا ^(٢) كاتماها تزعم أنه ولدها ، وَلَدَتَا في ليلة واحدة ، فأكل النَّمِيرُ أحدَ البَخْرَجِيْنِ . فهما ترأمان ^(٣) الباقي ، فلما وقفنا بين يديه . قَالَ السكاهن : هل تدررون ما تريد هاتان البقرتان ؟ قَالُوا : لا . قَالَ السكاهن : « ذهب به ذوجسدِ أَرْبَد ^(٤) ، وَشِدْقِ مُرْمَع ^(٥) ، وَنَابِ مُعَلِق ^(٦) ، ما للصغرى في ولد الكبرى حقٌّ » ففَضِيَ به للكبرى ، ثم قَالَ : ما حاجتكم ؟ قَالُوا : قد خَبَأْنَا لك خَبِيئًا ، فَأَبْنَيْتْنَا عَنْهُ ، ثم نَحْبِرُكَ بِحَاجَتِنَا ، قَالَ : « خَبَأْتُمْ لِي شَيْئًا طَارَ فَسَطَعَ ، فَتَصَوَّبَ فَوْقَ ، في الأَرْضِ مِنْهُ بُقَعٌ ، قَالُوا : لَادَهُ ، أَمَى بَيْتِنَه . قَالَ : « هُوَ شَيْءٌ طَارَ ، فَاسْتَطَارَ ، ذُو ذَنْبٍ جَرَّارٌ ، وَسَاقٌ كَأَلْمِنْشَارٍ ، وَرَأْسٌ كَأَلْمِسْمَارِ » قَالُوا : لَادَهُ ، قَالَ : « إِنْ لَادَهُ فَلَادَهُ ^(٧) ، هُوَ

(١) المزادة : الراوية ، والحُرْزَة : السير يخرز به . (٢) البخرج : ولد البقرة .

(٣) رُئِمَتْ ولدها : عطف عليه ولزمته . (٤) من الريدة (كصفرة) : لون إلى الغبرة .

(٥) رمع كنع رممانا (بالتحريك) وترمع : تحرك واضطرب ، وقوله رمع : اسم فاعل من رمع

المضعف ، يشير إلى أنه مفترس كاسر . (٦) من أعلق الصائد إذا علق الصيد في جبالته أي نشب .

(٧) روى ابن الأعرابي إلامه فلامه ساكن الهاء . ويروى إلامه فلامه مكسور الهاء منونة ، قال

ياقوت في معجمه : « يقول إن لم يكن قولي بياناً فلا بيان » وقال الزمخشري في المستصفي : « إن لاده فلامه بفتح الدال ويكسر ، وهي كلمة فارسية معناها الضرب قد استعملتها العرب في كلامها . وأصله أن الموتور كان يلقى واره فلا يتعرض له فيقال له ذلك ، والمعنى إنك إن لم تضربه الآن فلا تضربه أبداً ، والتقدير إن لا يكون ده فلا يكون ده : أي إن لا يوجد ضرب الساعة ، فلا يوجد ضرب أبداً ، ثم اتسعوا فيه فضربوه مثلاً في كل شيء لا يقدم عليه الرجل ، وقد حان حينه ووجب إحداثه من قضاء دين قد حل أو حاجة طلبت ، أو ما أشبه ذلك من الأمور التي لا يسوغ تأخيرها » . وقال المنذرى : « قالوا معناه إلا هذه فلا هذه ، يعني أنه الأصل لإلامه فلامه بالدال المعجمة ، فعربت بالدال غير المعجمة كما قالوا يهوداً ثم عرب فقبل يهوداً » .

رأس جَرَادَة ، في خُرَز مَزَادَة ، في عُتُق سَوَارِ ذِي الْقِلَادَة ، قالوا : صدقت ، فأخبرنا فيم اختصمنا إليك ؟ قال : « أَحْكُمُ بِالضِيَاءِ وَالظُّلْمِ ، وَبِالْبَيْتِ وَالْحَرَمِ ، أَنْ الْمَالِ ذَا الْحَرَمِ ، لِلْقُرَشِيِّ ذِي الْكُرَمِ » ففضى بينهم ، ورجعوا إلى منازلهم على حكمه .

(جمع الأمثال ١ : ٣٠ ومجمع البلدان ٨ : ٤٦٠)

وروى الجاحظ لعزى سلمة أنه قال :

« وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَالْعُقَابِ وَالصَّقَعَاءِ ^(١) ، وَاقِعَةَ بَيْقَعَاءِ ^(٢) ، لَقَدْ نَفَرَ الْمُجِدُّ بَنِي الْعُشْرَاءِ ^(٣) ، لِلْمَجْدِ وَالسَّنَاءِ ^(٤) . »

(البيان والتبيين ١ : ١٥٩)

٦٤ — منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ^(٥)

تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة ، فأبى أن ينفرَ بينهما ، فجلا بينهما نفيل بن عبد العززي بن رياح ، فقال لحرب :

(١) الصقعة بالضم : بياض في وسط رهوس الطير وغيرها ، وهو أصقع ، وهي صقعاء (والصقعاء أيضا الشمس) . (٢) البقعاء : اسم ماء . (٣) العشراء : قوم من فزارة ، ونفره عليه : قضى له عليه بالغلبة . (٤) السناء : الرقعة .

(٥) وسبب ذلك أن عبد المطلب كان له جار يهودي يقال له أذينة ، يتجر وله مال كثير ، فعاظ ذلك حرب بن أمية ، وكان زديم عبد المطلب ، فأغرى به فتيانا من قريش ليقتلوه ، ويأخذوا ماله ، فقتله عامر ابن عبد مناف بن عبد الدار ؛ وصخر بن عمرو بن كعب التيمي ، جد أبي بكر رضي الله عنه ، فلم يعرف عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفهما ، وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية ، فأقى حربا ولامه وطلبهما منه فأخفاهما ؛ فتغالظا في القول ؛ حتى تنافرا إلى النجاشي فلم يدخل بينهما ، فجلا بينهما نفيل ابن عبد العززي جد عمر بن الخطاب فنفر عبد المطلب عليه ؛ فترك عبد المطلب منادمة حرب ، ونادم عبد الله ابن جلعان التيمي ، وأخذ من حرب مائة ناقة ؛ فدفعها إلى ابن عم اليهودي ، وارتمج ماله إلا شيئا هلك ، ففرمه من ماله .

« يا أبا عمرو: أنتافر رجلا هو أطول منك قامّة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة^(١) ، وأقل منك ملامّة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل صفدا^(٢) ، وأطول منك مذودا^(٣) ، وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت في العرب ، جلد المريرة^(٤) ، جليل العشيرة ، ولكنك نافرت مُنفرا .

فغضب حرب وقال : إن من انتكاس^(٥) الزمان أن جعلت حكما .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، وتاريخ الطبرى ٢ : ١٨١)

٦٥ - ما أمر به عبد المطلب بن هاشم في منامه من حفر زمزم

ولّى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرّفاة بعد عمه المطلب ، وشرف في قومه ، وعظم شأنه ، ثم إنه حفر زمزم ، وهى بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، التى أسقاه الله منها ، وكانت جرّوم قد دفنتها^(٦) ، وكان سبب حفره إياها أنه قال :

« بينا أنا نائم بالحجر إذ أتانى آت فقال : احفر طيبة ، قلت : وما طيبة ؟ فذهب وتركنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى ، فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر برة ، قلت : وما برة ؟ فذهب وتركنى ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى ،

(١) الوسامة : الحسن والجمال . (٢) الصفد : العطاء . (٣) المذود : اللسان .

(٤) المريرة : الحبل الشديد الفتل ، والعزيمة . (٥) أى انقلاب الزمان من انتكس أى وقع

على رأسه ، وفى الطبرى : انتكاث بالثاء من انتكاث الحبل وهو انتقاضه .

(٦) وذلك أن جرهم لما استخفت بأمر البيت الحرام ؛ وارتكبوا الأمور العظام ، قام فيهم رئيسهم مضاض بن عمرو خطيبا ووعظهم فلم يراعوا ، فلما رأى ذلك منهم عمد إلى غزالين من ذهب كانا فى الكعبة وما وجد فيها من الأموال أى السيوف والدروع التى كانت تهدى إليها ، ودفنها فى بئر زمزم ، وكانت قد نصب ماؤها فحفرها مضاض بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها ذلك وطم البئر ، وما زالت مطبومة إلى زمن عبد المطلب .

فمنعت فيه ، فجاءني فقال : احفر المذنونة . قلت : وما المذنونة ؟ ^(١) فذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فمنعت فيه ، فجاءني فقال : احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لا تندم ، فقلت : وما زمزم ؟ قال : « ترأث من أبيك الأعظم ، لا تُنزف أبداً ولا تُدَمَّ ^(٢) ، تسقى الحجاج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم ^(٣) ، يندر فيها ناذر لمنعم ، تكون ميراثاً وعقد محكم ، ليس كبعض ما قد تعلم ، وهي بين الفرث والدم ^(٤) ، عند نقرة الغراب الأعصم ^(٥) ، عند قرية النمل » .

فلما بين له شأنها ، ودله على موضعها ، وعرف أنه قد صدق . غدا بمقوله ومعه ابنه الحارث ليس له ولد غيره ، فحفر بين أساف ونائلة ، في الموضع الذي تنحر فيه قريش لأصنامها ، وقد رأى الغراب ينقر هناك ، فلما بدا له الطوى ^(٦) كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٥ ، والسيرة الحلبية ١ : ٣١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٩٠)

(١) طيبة ، وبرة ، والمذنونة : أسماء لزمزم . (٢) نزفت البئر : نزحت كنزفت بالضم ، وبئر ذمة بالفتح وذميم وذميمة : قليلة الماء لأنها تدم . (٣) جفل النعام : أسرع وذهب في الأرض ، ولم يقسم : لم يفرق . (٤) أي في محلهما ، والفرث : السرجين في الكرش ، وذلك بين إساف ونائلة ، (وإساف ككتاب وسحاب : صنم وضعه عمرو بن لحي على الصفا ، ونائلة على المروة تجاه الكعبة) ، وكانت قريش تذبح عندهما ذبائحها التي تتقرب بها . (٥) الأعصم : قيل أحمر المنتقار والرجلين ، وقيل أبيض البطن ، وقيل أبيض الجناحين ، وقيل أبيض إحدى الرجلين . (٦) الطوى : البئر .

خطب الكواهن

٦٦ - الشعماء الكاهنة تصنف سبعة إخوة

كانت عثمة بنت مطرود البَجَلِيَّة ذات عقل ورأى مُسْتَمَع في قومها ، وكانت لها أخت يقال لها خَوْد ، وكانت ذات جمال وَمَيْسَم^(١) وعقل ، فخطب سبعة إخوة غلثة من بطن الأزْد خودا إلى أيها ، فأتوه وعليهم الحلل اليمانية ، وتحتم النجائب الفرّه^(٢) ، فقالوا : نحن بنو مالك بن غفيلة ذى النَحْيَيْنِ ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غاديين في الحلل والهيئة ، ومعهم ربيبة^(٣) لهم يقال لها الشعماء : كاهنة ، فمرّوا بويصيدها^(٤) يتعرضون لها ، وكلهم وسيم جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فرحب بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتا ، ونحن كما ترى شباب ، وكلنا يمتنع الجانب ، ويمتنع الراغب ، فقال أبوها : كلّم خيار ، فأقيموا نرى رأينا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما ترين ، فقد أتاك هؤلاء القوم ؟ فقالت : « أنكحني على قدرى ، ولا تشطط في مهري ، فإن تحطنتي أحلامهم ، لا تحطنتي أجسامهم ، لعلى أصيب ولدا ، وأكثر عددا » فخرج أبوها ، فقال : أخبروني عن أفضلكم .

قالت ربيبتهم الشعماء الكاهنة : « أسمع أخبرك عنهم : هم إخوة ، وكلهم أسوة^(٥) .

(١) الميسم والوسامة : أثر الحسن . (٢) النجائب جمع نجيب : وهو البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والفره : (كقفل وركع وكتب) جمع فاره ، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الخفيف . (٣) الربيبة : الحاضنة . (٤) الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة . (٥) الأسوة : القدوة .

أما الكبير فالِكُ ، جَرِيءُ فَاتِكِ ، يُتَعَبُ السَّنَابِكُ^(١) ، ويستصغر المهالك . وأما الذى يَلِيهِ فَالْفَعْرُ ، بجرِّ غَمْرٍ^(٢) ، يَقْصُرُ دُونَهُ الْفَعْرُ ، نَهْدٌ^(٣) صَقْرٌ . وأما الذى يليه فَعَلْقَمَةٌ ، صَلِيبُ الْمَعْجَمَةِ^(٤) ، مَنِيْعُ الْمَشْتَمَةِ^(٥) ، قليلُ الْجَمْعَةِ^(٦) . وأما الذى يليه فَعَاصِمٌ ، سَيِّدُ نَاعِمٍ^(٧) ، جَلْدٌ صَارِمٌ ، أَبِيُّ حَازِمٍ ، جَيْشُهُ غَانِمٌ ، وَجَارُهُ سَالِمٌ . وأما الذى يليه فَثَوَابٌ ، سَرِيْعُ الْجَوَابِ ، عَتِيْدُ الصَّوَابِ^(٨) ، كَرِيْمُ النَّصَابِ^(٩) ، كَلَيْثُ الْغَابِ . وأما الذى يليه فُدْرِكٌ ، بَدُوْلٌ لِمَا يَمْلِكُ ، عَزُوْبٌ^(١٠) عما يترك ، يُفْنَى وَيُهْلِكُ . وأما الذى يليه فَجَنْدَلٌ ، لِقَرْنِهِ مُجْدَلٌ^(١١) ، مُهْلٌ^(١٢) لما يَحْمَلُ ، يُعْطَى وَيَبْذُلُ ، وعن عدوه لَا يَنْكُلُ^(١٣) .

فشاورت أختها فيهم ، فقالت أختها عثمة : « تَرَى الْفَتِيَّانَ كَالنَّخْلِ ، وَمَا يُدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ؟ »^(١٤) اسمعى منى كلمة ، إن شرَّ الغريبة يُعْلَنُ ، وخيرها يُدْفَنُ ، انكحى فى قومك ولا تفرُّرك الأجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى أبيها : انكحنى مدرِّكًا ، فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعائتها ، وحملها مدرِّك ، فلم تلبث عنده إلا قليلا ، حتى صَبَّحَهُمْ فَوَارِسٌ من بنى مالك بن كِنَانَةَ ، فاقتتلوا ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته وبنى عامر انكشفوا ، فَسَبَّوْهُا فِيمَنْ سَبَّوْا ، فبينما هى تسير بكت ، فقالوا : ما يبُئِكَ ، أَعْلَى فِرَاقِ زَوْجِكَ ؟ قالت : قَبَّحَهُ اللهُ ، قالوا : لقد كان جميلا ! قالت : قَبَّحَ اللهُ جَمَالًا

(١) السنايك جمع سنيك كقنفذ . وهو طرف الحافر ، أى أنه يجهد الخيل فى حومة الوغى .

(٢) الغمر : معظم البحر ، والسكرم : الواسع الخلق .

(٣) النهْد : الأسد ، والسكرم . (٤) من عجم المود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٥) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه فى حرز من أن يشتم ويسب عرضه ، لحسن فعله وكرم خلقه

(٦) الجمجمة : إخفاء الشيء فى الصدر .

(٧) نعم كسمع ونصر وهو ناعم : أى ذو تنعم وترفة . (٨) العتيد : الحاضر المهيأ .

(٩) الصاب : الأصل . (١٠) بعيد . (١١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة)

وهى الأرض . (١٢) حامل . (١٣) نكل عنه كضرب ونصر وعلم : نكص وجبن .

(١٤) الدخلى : ما يبطن فى الشيء ، وهو مثل يضرب للرجل له منظر ولا يخبر له .

لا نَفَعَ مَعَهُ ، إِنَّمَا أَبْكَى عَلَى عَصِيَانِي أُخْتِي ، وَقَوْلُهَا : « تَرَى الْفَتِيَانَ كَالنَّخْلِ ، وَمَا يَدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ » وَأَخْبَرْتَهُمْ كَيْفَ خَطَبُوهَا ، فَقَالَ لَهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ يُكْنَى أَبُو نَوَاسٍ شَابٌ أَسْوَدٌ أَفْوَهٌ^(١) مَضْطَرِبُ الْخَلْقِ : أَتَرَضَيْنَ بِي ، عَلَى أَنْ أَمْنَعَكَ مِنْ ذُنَابِ الْعَرَبِ ؟ فَقَالَتْ لِأَصْحَابِهِ : أَمْ كَذَلِكَ هُوَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، إِنَّهُ مَعَ مَا تَرَيْنَ لَيْمَنَعَ الْحَلِيلَةَ^(٢) ، وَتَتَّقِيهِ الْقَبِيلَةَ ، قَالَتْ : هَذَا أَجْمَلُ جَمَالٍ ، وَأَكْمَلُ كَمَالٍ ، قَدْ رَضِيتُ بِهِ ، فَزَوْجُوهَا مِنْهُ .

(مجمع الأمثال للسيداني ١ : ٩١)

٦٧ - طريفة الخير تسكهن بسيل العرم وخراب سد مارب

قال عبد الملك بن عبد الله بن بَدْرُونَ في شرح قصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون ، التي قالها في رثاء دولة بني الأفطس بالأندلس :

كَانَ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْيَمَنِ فِي أَوَّلِ تَمْزِيقِهِمْ ، عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ مُزَيَّقِيَاءَ^(٣) ، وَكَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ ، أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ كَاهِنَةٌ ، يُقَالُ لَهَا « طَرِيفَةُ الْخَيْرِ » ، وَكَانَتْ رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّ سَحَابَةَ غَشِيَتْ أَرْضَهُمْ فَأَرَعَدَتْ وَأَبْرَقَتْ ، ثُمَّ صَعَقَتْ ، فَأَحْرَقَتْ كُلَّ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ ، فَفَزِعَتْ طَرِيفَةُ لِذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا ، وَأَنْتِ الْمَلِكُ عَمْرًا ، وَهِيَ تَقُولُ : « مَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ ، أَزَالَ عَنِّي النَّوْمَ ، رَأَيْتُ غَيْمًا رَعَدَ وَبَرَقَ^(٤) طَوِيلًا ، ثُمَّ صَعَقَ ، فَمَا وَقَعَتْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَحْتَرَقَ » ، فَلَمَّا رَأَى مَا دَاخَلَهَا مِنَ الْفَزَعِ سَكَنَهَا ، ثُمَّ إِنَّ عَمْرًا دَخَلَ حَدِيقَةَ لَهُ ، وَمَعَهُ جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِيهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ طَرِيفَةَ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ وَخَرَجَ مَعَهَا وَصِيفٌ^(٥) ، لَهَا اسْمُهُ سِنَانٌ ، فَلَمَّا بَرَزَتْ مِنْ بَيْتِهَا عَرَضَ لَهَا ثَلَاثُ مُنَاجِدٍ مُتَّصِبَاتٍ عَلَى

(١) الأفوه : وصف من الفوه بالتحريك ، وهو سعة الفم . (٢) الزوجة .

(٣) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقهما بالعشى ، يكره العمود فيهما ، ويأنف

أن يلبسهما غيره . (٤) رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وأنكر الأصمعي

الرباعي فيهما . (٥) الوصيف : الخادم والخدمة .

أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن - وهي دواب تشبه اليرابيع^(١) - قعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرني ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التي فيها عمرو ، وثبت من الماء سُلْحَفَاءَ . فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها ، فتَحْثُوُ التراب على بطنها من جَنَبَاتِهِ ، وتَقْدِفُ بالبول قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين اتصف النهار في ساعةٍ شديدة الحرِّ ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها عمرو استعجيا منها ، وأمر الجاريتين بالتنحّي ، ثم قال لها يا طريفة : فكهنت وقالت : « والثور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودنَّ الماء كما كان في الزمان السَّالِكِ » . قال عمرو : ومن خبرك بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجيد ، بسنين شدايد ، يَقْطَعُ فيها الولد الوالد » قال : ما تقولين ؟ قالت . « أقول قول النَّدْمَانِ لهفًا ، لقد رأيت سُلْحَفَاءَ^(٢) ، تَجْرُفُ التراب جَرْفًا ، وتَقْدِفُ بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ » قال عمرو : وما ترين ؟ قالت : « داهية دَهِيَاءَ ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة » قال : وما هو؟ وَبَلِّكِ ! قالت : « أجلٌ ، إن فيه الوَيْلَ ، وما لك فيه من قَيْلٍ^(٣) ، وإن الويل فيما يجيء به السيل » فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : « هو خَطْبُ جليل ، وحزن طويل ، وَخَلْفٌ قليل » قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت « اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جُرْدًا يُكْثِرُ بيديه في السدِّ الحَفْرَ ، ويقلِّبُ برجليه من أجلِّ الصخر ، فاعلم أن عَمَرَ الْعَمْرِ^(٤)

(١) اليربوع : دويبة نحو القفارة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ؛ ورجلاه أطول من يديه عكس الزرافة .

(٢) يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيضا سلحفا ساكة اللام مفتوحة الحاء .

(٣) قال قتيلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

(٤) العمر : الماء الكثير .

وَأَنْ قَدْ وَقَعَ الْأَمْرَ . قال : وما هذا الذي تذكرين ؟ قالت : « وَعَدُّ مِنَ اللَّهِ نَزْلَ ،
وَبَاطِلَ بَطْلٍ ، وَنَكَالَ بِنَا نَكَلٍ ، فَيَغْيِرُكَ يَا عَمْرُؤُ فَلَيَكُنِ الثَّكَلُ ^(١) ، فَاَنْطَلِقْ عَمْرُؤُ فَإِذَا
الْجُرْذُ يَقْلَبُ بِرِجْلَيْهِ صَخْرَةَ مَا يَقْلِبُهَا خَمْسُونَ رَجُلًا ، (كَذَا) فَرَجِعْ إِلَى طَرِيفَةِ فَأَخْبِرْهَا
الْخَبِيرَ وَهُوَ يَقُولُ :

أَبْصَرْتُ أَمْرًا عَادَنِي مِنْهُ أَلَمٌ وَهَاجَ لِي مِنْ هَوْلِهِ بَرْحٌ السَّقَمِ ^(٢)
مِنْ جُرْذٍ كَفَحَلٍ خِنْزِيرِ الْأَجَمِ أَوْ كَبِشٍ صِرْمٍ مِنْ أَفَارِيقِ الْقَمِ ^(٣)
يَسْحَبُ صَخْرًا مِنْ جَلَامِيدِ الْعَرَمِ لَهُ مَخَالِبُ وَأَنْيَابُ قُضْمٍ ^(٤)
مَا فَاتَهُ سَحْلًا مِنَ الصَّخْرِ قُضْمٍ ^(٥)

فَقَالَتْ طَرِيفَةُ : وَإِنْ مِنْ عِلَامَاتٍ مَا ذَكَرْتَ لَكَ أَنْ تَجْلِسَ فِتْأَمَسُ بِرِجَالِهَا فَتَوْضِعُ
بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَإِنَّ الرِّيحَ تَمْلُؤُهَا مِنْ تَرَابِ الْبَطْحَاءِ ^(٦) ، مِنْ سَهْلَةٍ ^(٧) الْوَادِي وَرَمَلِهِ ، وَقَدْ
عَلِمْتُ أَنَّ الْجِنَانَ مُظَلَّلَةٌ لَا يَدْخُلُهَا شَمْسٌ وَلَا رِيحٌ ، فَأَمَسَ عَمْرُؤُ بِرِجَالِهَا فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلَمْ يَمُكِّثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ تَرَابِ الْبَطْحَاءِ ، فَأَخْبَرَ عَمْرُؤُ طَرِيفَةَ بِذَلِكَ وَقَالَ لَهَا :
مَتَى يَكُونُ هُلُوكُ السَّدِّ ؟ قَالَتْ لَهُ : فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَبْعِ سِنِينَ . قَالَ : فَفِي أَيِّهَا يَكُونُ ؟
قَالَتْ : « لَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَوْ عَلِمَهُ أَحَدٌ لَعَلَّمْتُهُ ، وَلَا تَأْتِي عَلَيَّ لَيْلَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ
سَبْعِ السِّنِينَ إِلَّا ظَنَنْتُ الْمَلَائِكَةَ فِي غَدَاهَا ، أَوْ فِي مَسَائِهَا ، ثُمَّ رَأَى عَمْرُؤُ فِي نَوْمِهِ سَيْلَ الْعَرَمِ ،
وَقِيلَ لَهُ : آيَةٌ ذَلِكَ أَنَّ تَرَى الْحِصْبَاءَ فِي سَعْفِ النَّخْلِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا ، فَوَجَدَ الْحِصْبَاءَ فِيهَا قَدْ

(١) الثكل كسبب وقفل : الموت والهلاك .

(٢) البرح : الشدة . (٣) الأجم جمع أجمة : وهي الشجر الكثير الملتف ، والصرم : الجماعة
والفرقة تجمع على فرق ، وجمع الجمع أفراق ، وجمع جمع الجمع أفاريق ، والجلاميد جمع جلمود كصنفور :
الصخر . (٤) العرم : السد يعترض به الوادي (ومن معانيه أيضا المطر الشديد ، والجرذ ، وواد
جاء السيل من قبله) . (٥) سحله كنعج : قشره ونحته ، وقضمه : كسره .

(٦) البطحاء والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . (٧) السهلة بالكسر : تراب كالرمل

يحيى به المساء ، وأرض سهلة كفرحة : كثيرتها .

ظهرت ، فلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فسكنم ذلك وأخفاء ، وأجمع
على بيع كل شيء له بأرض مأرب^(١) وأن يخرج منها هو وولده^(٢) ، فخرج ثم أرسل
الله تعالى على السد^(٣) السيل فهدمه . (شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ٩٨)

* * *

(١) مأرب : مدينة باليمن ، وكانت في الزمان الأول قاعدة التبابعة ، وهي مدينة بليقيس ، بينها
وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ باسم بانها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .
(٢) وقد خشى أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأني عليه ،
وأن يفعل ذلك به في الملاء من الناس ، وإذا لطمه ، يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاما وبعث إلى أهل
مأرب أن عمرا صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره
بما أمر ؛ فجعل يأمره بأمر فيتأني عليه وينهاه فلا ينتهي ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه فلطمه ابنه ؛
وكان اسمه ملكا ، فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو بهيجه صبي ويضرب وجهه ، وحلف لبقته ، فلم
يزالوا بعدرو يرغبون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقيم بموضع صنع في فيه هذا : ولأبيمن أموال حتى
لا يرث منها بعدى شيئا ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتصموا غضب عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى
فابتاع الناس منه كل أمواله التي بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس
من الأزدي فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر للناس ذلك فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما اجتمعت
إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما خرج عمرو من اليمن خرج لخروجه منها بشر كثير ،
فنزّلوا أرض عك فحاربهم عك . فارتحلوا عنها ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ، وتفرقوا
على البلاد ، فذهب من صار إلى الشام ، وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر ، ومنهم من صار إلى يثرب ،
وهم ابنا قبيلة الأوس والخزرج ، وأبوها حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت أزد الشراة إلى
أرض الشراة ؛ وأزد عمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو ببسير من أرض
اليمن طيبي^١ فنزلت جبلي طيبي^٢ أجأ وسلمي ، ونزلت ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر تهامة ، وسما
خزاعة لانخزاعهم من إخوانهم وتمزقوا في البلاد كل بزق .

(٣) كان السد فيما يذكر قد بناه لقمان الأكبر بن عاد ، وكان رصفه لحجارة السد بالرصاص والحديد
ويقال إن الذي بناه كان من ملوك حبر ، وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من الشحر وأودية اليمن ، فردموا
ردما بين جبلين وحبسوا الماء ، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الباب
الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث ، فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا رسولهم أرسل الله عليهم سيل العرم

وقال أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني :

وسارت القبائل من أهل مأرب حين خافوا سيل العرم ، وعليهم مزْيقياء ، ومعهم

طريفة الكاهنة ، فقالت لهم :

« لَا تَوُثُّوا مَكَّةَ حَتَّى أَقُولَ ، وَمَا عَلَّمَنِي مَا أَقُولُ إِلَّا الْحَكِيمُ الْمُحْكَمُ ، رَبُّ

جَمِيعِ الْأُمَمِ ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ » قالوا لها : ما شأنك يا طريفة ؟ قالت : خذوا البعير

الشَّدَقَمَ ^(١) ، فخضبوه بالدم ، تكن لكم أرض جرهم ^(٢) ، جيران بيته المحرم .

(الأغاني ١٣ : ١٠٥)

* * *

وروى الميداني في مجمع الأمثال قال :

« أَلْقَتْ طَرِيفَةُ الْكَاهِنَةِ إِلَى عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ الَّذِي يَقَالُ لَهُ مَزْيِقِيَاءُ بِنِ مَاءِ السَّمَاءِ ،

وَكَانَتْ قَدْ رَأَتْ فِي كِهَانَتِهَا ^(٣) أَنَّ سَدَّ مَأْرِبٍ سَيَخْرَبُ ، وَأَنَّهُ سَيَأْتِي سَيْلُ الْعَرَمِ ، فَيُخْرَبُ

الْجَنَّتَيْنِ ^(٤) ، فَبَاعَ عَمْرِو بْنُ عَامِرٍ أَمْوَالَهُ ، وَسَارَ هُوَ وَقَوْمُهُ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَكَّةَ ، فَأَقَامُوا بِمَكَّةَ

وَمَا حَوْلَهَا ، فَأَصَابَتْهُمُ الْحُمَى ، وَكَانُوا يَبْلُدُونَ فِيهِ مَا الْحُمَى ، فَدَعَا طَرِيفَةُ فَشَكَوْا

إِلَيْهَا الَّذِي أَصَابَهُمْ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : قَدْ أَصَابَنِي الَّذِي تَشْكُونَ ، وَهُوَ مُفْرَقٌ بَيْنَنَا . قَالُوا :

فَمَا تَأْمُرِينَ ؟ قَالَتْ :

(١) الواسع الشدق . (٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو أن افسحوا لنا في بلادكم

حتى نقيم قدر مانستريح ونرسل روادا إلى الشام وإلى الشرق ، فحيثما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، فأبت ذلك جرحهم إباء شديدا ، وقالوا : لا والله مانحج أن ينزلوا فيضيقوا علينا مراتبنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانهمزت جرحهم فلم يفلت منهم إلا الشريد .

(٣) كهن كهانة بالفتح فهو كاهن ، وحرفته الكهانة بالكسر .

(٤) قال تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَيِّدٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ،

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » .

« من كان منكم ذا همٍّ بعيد ، وجعل شديد ، ومزاد^(١) جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد^(٢) ، فكانت أزدُ عُمان ، ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقسر^(٣) ، وصبرٍ على أزَمات الدهر ، فعليه بالأراك^(٤) من بطن مر^(٥) ، فكانت خُزاعة ، ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوَحْل ، المُطعمات في الحَلِّ^(٦) ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوسُ والخزرج ، ثم قالت : من كان منكم يريد الخمرَ الخمير ، والملُّك والتأمير ، ويلبسُ الدِّيابج والحريير ، فليلحق ببُصرى وغوير ، (وها من أرض الشام) ، فكان الذين سكنوها من آل جفنة من غسان ، ثم قالت : من كان منكم يد الثياب الرقاق ، والحليل العتاق ، وكنوز الأرزاق ، والدمَّ المهراق ، فليلحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل مُحرق^(٧) .
(مجمع الأمثال : ١ : ١٨٦)

٦٨ - حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام من قضاة

كان ثلاثة أبطن من قضاة مجتورين^(٨) بين الشجرِ وحضر موت : بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عددًا ، وأشجعهم لقاءً ، وكانت لبني رثام عجوز تسمى خويلةً ، وكانت لها أمةٌ من مولدات العرب تسمى زبراءً ، وكان يدخلُ على خويلةَ أربعون رجلاً ، كلُّهم لها محرّمٌ ، بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيمًا ، وكان بنو ناعب ، وبنو داهن متظاهرين على بني رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عرس لهم ، وهم سبعون رجلاً ، كلهم شجاع بيثرب^(٩) ، فطعموا وأقبلوا على شراهم ، وكانت

(١) المزداد والمزيد جمع مزادة : وهي الراوية . (٢) المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد في رثاء يزيد بن يزيد : أما هدت لمصره نزار ؟ بلى ، وقتقوض المجد المشيد .
(٣) قسره على الأمر : قهره . (٤) الأراك : القطة من الأرض ، وموضع بدرفات ، وجبل بهذيل . (٥) مر بن أد بن طابخة . (٦) الحل : الشدة والجذب . (٧) هو عمرو بن هند ، لأنه حرق مائة من بني تميم . (٨) متجاورين . (٩) البيثرب : الشجاع ، من يؤس ككرم بأسا .

زبراء كاهنةً ، فقالت لحويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ، فأقبلت حويلة تتوَكَّأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا إجلالاً لها . فقالت : « يَا ثَمَرَ الأَكْبَادِ ، وَأَنْدَادَ^(١) الأولاد ، وشجراً^(٢) الحُسَادِ ، هذه زبراء ، تخبركم عن أنبياء ، قبل انْحِسَارِ الظُّلَمَاءِ ، بالمؤيِّدِ^(٣) الشَّمَمَاءِ ، فاسمعوا ما تقول . » قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

« واللَّوْحِ^(٤) الخَافِيِّ ، والليلِ الغَاسِقِ^(٥) ، والصَّبَاحِ الشَّارِقِ ، والنَّجْمِ الطَّارِقِ^(٦) ، والمُزْنِ الوَادِقِ^(٧) ، إن شجر الوادى لَيَأْدُو خَتَلًا^(٨) ، ويَحْرُقُ أنيَابًا عُصَلًا^(٩) ، وإن صَخْرَ الطَّوْدِ لَيُنْذِرُ نُكْلًا^(١٠) ، لا تجدون عنه مَعْلًا^(١١) . »

فوافقت قومًا أشاري^(١٢) سُكَارَى ، فقالوا : « رِيحٌ حَجُوجٌ^(١٣) ، بَعِيدَةٌ ما بين الفُرُوجِ ، أتت زبراءَ بِالْأَبْلَقِ النَّتُوجِ^(١٤) . »

فقالت زبراء : « مَهَلًا يَا بَنِي الأَعَزَّةِ ، واللهِ إني لأشْمُ ذَفَرَ^(١٥) الرجالِ تحت الحديدِ »

(١) أنداد : جمع ند بالكسر ، وهو المثل والنظير . (٢) الشجا : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه . (٣) المؤيد : الداهية والأمر العظيم . (٤) اللوح بالنضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السماء والأرض . (٥) غسق الليل كجلس : اشتدت ظلمته . (٦) الطارق : في الأصل ، كل من أتى ليلاً ، ثم استعمل في النجوم لطلوعها ليلاً . (٧) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والوادق من ودق المطر كوعد : قطر . (٨) أدوت له آدو أدوا إذا ختلته وخدعته (ودأيت له ، ودألت له أيضا) والختل : الخداع . (٩) حرق أنيابه : إذا حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يفضبه الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » والأرم كسكر : الأضراس ، والعصل : المعوجة جمع أعصل . (١٠) الطود : الجبل ، والكل : اللفظ . (١١) المعل : المنجى . (١٢) الأشر محرقة : المرح . (١٣) الحجوج : السريعة المر .

(١٤) الأبلق : وصف من البلق محرقة ، وهو ارتفاع البياض في قوائم الفرس إلى الفخذين ، والأبلق لا يكون نتوجا ، والعرب تضرب هذا مثلا للشيء الذي لا ينال ، تقول « طلب الأبلق العقوق ، فلما فاته أراد بيض الأنوق » والعقوق كصبور : الحامل ، والأنوق كصبور أيضا : الذكر من الرخم ولا بيض له ، هذا قول بعض اللغويين . فالمنى أنه طلب مالا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضا مالا يكون ولا يوجد ، وعامتهم يقولون : الأنوق الرخة وهي تبيض في مكان لا يوصل فيه إلى بيضها إلا بعد عناه . فالمنى أنه طلب مالا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله . (١٥) الذفر : حدة الريح ، يكون في التبن والطيب (والذفر لا يكون إلا في التبن) .

فقال لها فتى منهم يقال له هُدَيْلُ بن مُنْقِذٍ : « يَا خَدَاقِ ^(١) ، والله ما تَشْمِينِ
إِلَّا ذَفَرَ إِبْطِيكَ » فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون
رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فَرَقَدُوا فِي مَشْرَبِهِمْ ، وَطَرَقْتَهُمْ بَنُو دَاهِنٍ وَبَنُو نَاعِبٍ ، فَفَقَطَلُوهُمْ
أَجْمَعِينَ ، وَأَقْبَلَتْ خُوَيْلَةَ مَعَ الصَّبَاحِ ، فَوَقَفَتْ عَلَى مِصَارِعِهِمْ ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى خِناصِرِهِمْ ،
فَقَطَعْتَهَا وَانْتَضَمَتْ مِنْهَا قِلَادَةٌ ، وَأَلْقَتْهَا فِي عُنُقِهَا ، وَخَرَجَتْ حَتَّى لَحِقَتْ بِمِرْضَاوِي بْنِ سَمَوَةَ
الْمَهْرِيِّ ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِهَا فَأَنَاخَتْ بِفَنَائِهِ ، فَاسْتَعَدَّتْهُ عَلَى بَنِي دَاهِنٍ وَبَنِي نَاعِبٍ ، فَخَرَجَ
فِي مَنَسِيرٍ ^(٢) مِنْ قَوْمِهِ ، فَطَرَقَهُمْ فَأَوْجَعَ فِيهِمْ .
(الأمالي : ١ : ١٢٦)

٦٩ - كاهنة ذى الخلصة تكهن بما فى بطن رقية بنت جشم

زعموا أن رُقِيَّةَ بنت جُشَمِ بن معاوية ولدت مُمَيِّزًا وَهَلَالًا وَسَوَاءً ، ثُمَّ اعْتَاطَتْ ^(٣)
فَأَنْتَ كَاهِنَةٌ بِذِي الْخَلِصَةِ ^(٤) ، فَأَرَتْهَا بَطْنُهَا ، وَقَالَتْ : إِنْى قَدْ وُلِدْتَ ثُمَّ أَعْتَطْتُ ،
فَنظَرْتُ إِلَيْهَا وَمَسَّتْ بَطْنُهَا ، وَقَالَتْ :

« رَبِّ قَبَائِلَ فِرْقِي ، وَجَجَالِسَ حَلْقِي ، وَظُنُنٌ ^(٥) حَزُونٌ ^(٦) ، فِي بَطْنِكَ زُقٌّ ^(٧) . »

(١) خدّاق : كناية عما يخرج من الانسان ، يقال : خذق ومزق وزرق .

(٢) المنسر من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى الخمسين ، أو إلى الستين

أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(٣) اعتاطت للمرأة : لم تحمل سنين من غير عقر . (٤) ذو الخلصة محرّكة وبضمّتين : بيت كان

يدعى للكعبة البمانية لظنهم ، كان فيه صنم اسمه الخلصة . (٥) الظنن والظمائز جمع ظنينة : وهى الهودج

سواء كان فيه امرأة أم لا ، والمرأة مادامت فى الهودج ، ويقال ، الظنينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها

ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظمونة (أى يظمن بها زوجها ، فهى فعيلة بمعنى

مفعولة) . (٦) الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة والحزيق والحزيقة والحزاقة (بالفتح) الجماعة ،

والجمع حزائق وحزيق وحزق (بضمّتين) . (٧) أى وضع واصل الزق : رمى الطائر بذرقه ، والمنى :

رب جنين تششب منه قبائل متفرقة ، ويتناسل منه ذكران يتحلّقون فى المجالس والأندية وجهايات من النسوة

قد أودع بطنك .

فلما مَحَضَتْ^(١) بربيعة بن عامر^(٢) ، قالت : إني أعرف ضَرْطِي بهلال ، « أي هو غلام ، كما أن هلالا كان غلاماً » .
(مجمع الأمثال ١ : ٣٢١)

٧٠ - رأى سلمى الهمدانية في حرّيم المرادى

أغار رجل من « مُرَادٍ » يقال له « حَرِيمٌ » على إبل عمرو بن بَرّاقَة الهمدانيّ وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو سلمى الهمدانية ، وكانت بنت سيّدهم ، وعن رأيها كانوا يصدّرون ، فأخبرها أن حرّيماً المرادى أغار على إبله وخيله ، فقالت : « والخفوة والوميض^(٣) ، والشفق كالإحريض^(٤) ، والقلة والحضيض^(٥) ، إن حرّيماً لمنيع الحيز^(٦) ، سيّد مزيز^(٧) ذو معقل حرّيز ، غير أني أرى الحمة^(٨) ستظفر منه بعثرة ، بطيئة الجبرة ، فأغز ولا تُنكع^(٩) » فأغار عمرو ، فاستاق كل شيء له ، فأتى حرّيم بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورّجع حرّيم .

(الأمالي ٢ : ١٢٣)

(١) محضت كسبح ومنع وعنى : أخذها الطلق .

(٢) هو ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة

ابن قيس بن عيلان بن مضر ومن نسله بنو كلاب بن ربيعة بن عامر وبنو جعفر بن كلاب بن ربيعة .

(٣) الخفوة : اللعنان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفوة . (٤) الاحريض : العصفور .

(٥) القلة : أعلى الرأس والجبل وكل شيء ، والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٦) الناحية . (٧) مزيز : فاضل ، من قولهم هذا أمز من هذا أي أفضل منه .

(٨) الحمة : القدر (محرّكة) ، وقيل هي واحد الحمام (بالكسر) .

(٩) نكعه عن الأمر (كنع) رده ودفعه .

٧١ - تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية

روى أن العجفاء بنت علقمة السعدية ، وثلاث نسوة من قومها ، خرجن فاتمذن بروضة يتحدثن فيها ، قواقين بها ليلاً في قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة معشبة خضبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة ، ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحاً ولا أنضر ، ثم أفضن في الحديث ، فقلن : أيء النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخرود^(١) الودود الودود . قالت الأخرى : خيرهن ذات العناء^(٢) ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفع غير المنوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظ^(٣) الرضى ، غير الحظ^(٤) البطى . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخى ، الوفى الرضى ، الذى لا يغير^(٥) الحرّة ، ولا يتخذ الضرة . قالت الرابعة : وأيكن ، إن فى أبى لنفتكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والقابح^(٦) عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبى يكرم الجار ، ويعظم الخطار^(٧) ، وينحر العشار^(٨) ، بعد الحوار^(٩) ، ويحمل الأمور الكبار ، ويأنف من الصغار ، فقالت

(١) الخرود والخريد والخريدة : الحية الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة .

(٢) الكفاية والمنفعة . (٣) الحظى : ذو الحظوة والمكانة عند روجه ، والحظية كذلك .

(٤) رجل حظال ككتف وشداد وصبور : مقتر يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى مجمع الأمثال

« غير الحظال ، ولا التبال » والتبال بالتشديد من التبل (يفتح فسكون) وهو الحقد .

(٥) أغار امرأته : تزوج عليها . (٦) الفوز والظفر .

(٧) الخطار جمع خطر كسبب وهو السبق يتراهن عليه . (٨) العشار جمع عشراء كنفساء وهى

من التوق التى مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية . (٩) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه

أو إلى أن يفصل عن أمه .

الثانية : إن أبي عظيم الخطر ، منيع الوزر^(١) ، عزيز النفر ، يُحمد منه الورد والصدّر ،
فقلت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رذوم^(٢) الجفان ، كثير
الأعوان ، يُروى السنان ، عند الطعان ، قالت الرابعة : إن أبي كريم النزال ، مُنيف
المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحى ، فقلن لها : اسمى ما قلنا ، واحكى بيننا واعدلى ،
ثم أعدن عليها قولهن ، فقلت لهن : « كل واحدة منكن ماردة^(٣) ، بأبيها واجدة^(٤) ،
على الإحسان جاهدة ، لصواحبها حاسدة ، ولكن اسمعن قولى : خيرُ النساء المبقية
على بعلها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مُطلقة ، فهى تُؤثرُ حظَّ زوجها
على حظِّ نَفسها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجوادُ البطل ، القليل الفشل ،
إذا سأله الرجل ، ألفاه قليل المَلل ، كثير النفل^(٥) ، ثم قالت : كل واحدة منكن
بأبيها مُعجبة .

(مجمع الأمثال ٢ : ٥٤ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٣٣)

٧٢ - عفيراء الكاهنة تعبر رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزاة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء
العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسمهم عطاء ،
واشتمد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرته
وهالته فى حال منامه ، فلما اتبه أنسبها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتياؤه فى نفسه
بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر
الكهَّان فجعل يخلو بكاهن كاهن ، ثم يقول له : أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه ،

(١) الوزر : للملجأ . (٢) الرذوم : القصة المثلثة تنسب جواربها .

(٣) أى قد بلغت الغاية . (٤) وجد به (بالكسر) أجه . (٥) النفل : الهبة .

فيجيبه الكاهن بأن لا علمَ عندي ، حتى لم يدع كاهنًا عَلِمَهُ إلا كان إليه منه ذلك ، فتضاعف قلقُهُ ، وطال أرقُهُ ، وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيتَ اللَّعنَ أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ، أطف وأظرف من أتباع الكهَّان ، فأمر بحشر الكواهن إليه ، وسألهم كما سأل الكهَّان ، فلم يجد عند واحدةٍ منهن علمًا بما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سَلَ عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، فأوغل في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفعت له أبيات من ذرًا^(١) جبل ، وكان قد لَفَحَهُ الهَجِير ، فعدَّل إلى الأبيات ، وقصد بيتًا منها كان منفردًا عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : أنزل بِالرَّحْبِ والسَّعة ، والأمنِ والدَّعة ، وَالجَفْنَةَ المدَّعة^(٢) ، وَالْمَلِيَةَ المتَّرعة^(٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وَخَفَّتْ عليه الأرواح^(٤) ، نام فلم يستيقظ حتى تَصَرَّمَ الهَجِير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قوَّامًا ولا جمالا ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهمَّام ! هل لك في الطعام ؟ » فاشتدَّ إشفاقه وخاف على نفسه لَمَّا رأى أنها عرفته ، وتَصامَّ عن كلمتها ، فقالت له : « لا حَذَرَ ، فِدَاكَ البَشَر ، فجدُّك الأكبر ، وحظُّنا بك الأوفر » . ثم قرَّبت إليه ثريدًا وقديدًا وحَيْسًا^(٥) ، وقامت تذبُّبُ عنه ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبنًا صَرِيقًا وَضَرِيبيًا^(٦) ، فشرب ما شاء ، وجعل يتأملها مُقْبِلَةً ومُدْبِرَةً ، فلأت عينيه حسنًا ، وقلبه هوَّى ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عُفَيْراء ، فقال لها : يا عفیراء ، من الذي دَعَوْتَهُ بالملك الهمَّام ؟ قالت : « مرَّئِدُ العَظيم الشَّان ، حاشِرُ الكواهن والكهَّان ، لِمُعْضِلَةِ بَعْدِ عنها الجان » ، فقال يا عفیراء :

(١) أى فى كنفه وسره . (٢) الجفنة : القصعة ، والمددعة : التى ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك . (٣) العلبة : قدح ضخم من جلود الإبل أو من خشب يحلب فيها ، والمترعة : المملوءة . (٤) الأرواح ، والرياح جمع ريح . (٥) القديد : اللحم المقدد ، أو ما قطع منه طولاً ، والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديداً ثم يندر منه نواه (والأقط شيء يتخذ من المخيض الغنمى) . (٦) الصريف : اللبن ساعة حلب ، والضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح فى إناء .

أتعلمين تلك العضلة؟ قالت: «أجل أيها الملك، إنها رؤيا تمام، ليست بأضغاث^(١) أحلام». قال الملك: أصبت يا عفراء، فما تلك الرؤيا؟ قالت: «رأيت أعاصير^(٢) زوابع بعضها لبعض تابع، فيها هَبّ لامع، ولها دُخان ساطع، يَقْفُوها نهر مُتدَا فِع، وسمعت فيما أنت سامع، دُعاء ذى جرس^(٣) صَادِعٍ: هَلُمَّوا إلى المِشَارِعِ^(٤)، فَرَوَى جَارِع^(٥)، وَغَرِقَ كَارِع^(٦)» فقال الملك: أجب، هذه رؤياي، فما تأويلها يا عفراء؟ قالت: «الأعاصير الزوابع، ملوكُ تَبَا بَعِ^(٧)، والنهر علم واسع، والداعي نبي شافع، والجارع وَلِيٌّ تَابِع، والكارعُ عدوٌّ منازع». فقال الملك: يا عفراء، أَسِمْ هذا النبي أم حرب؟ فقالت: «أَقِسِمُ بَرافِعِ السَّمَاءِ، وَمُنْزِلِ المَاءِ مِنَ العَمَاءِ^(٨)، إنه لِمُطِلُّ الدَّمَاءِ^(٩)، وَمُنْطَقِ العَقَائِلِ نُطْقِ الإِمَاءِ^(١٠)». فقال الملك: إلام يدعو يا عفراء؟ قالت: «إلى صلاة وصيام، وَصِلَةِ أَرْحَامٍ، وَكسْرِ أَصْنَامٍ، وَتَعْطِيلِ أَزْلَامِ^(١١)»، واجتنب آثام» فقال الملك:

(١) أضغاث أحلام: رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها. (٢) الأعاصير جمع إعصار وهو الريح التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء، أو التي فيها العصار بالكسر وهو الغبار الشديد.

(٣) الجرس: الصوت. (٤) المِشَارِع جمع مشرعة وهي مورد الشاربة. (٥) جارع: فاعل من جرع الماء كسمع ومنع إذا بلعه. (٦) كارع فاعل من كرع في الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا باناء. (٧) التبايع جمع تبع كسكر: ملوك الهين.

(٨) العماء: السحاب الكثيف. (٩) انظر قوله عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع «وإن دماء الجاهلية موضوعة». (١٠) العَقَائِل: كرائم النساء جمع عقيلة، والنطق جمع نطق ككتاب والنطاق والمنطقة: ما تشد به المرأة وسطها للمهنة، ونطقها تنظيقا: ألبسها النطاق فتنطقت وانتطقت ومنطق النساء أي يسيبن فيشددن للنطق على أوساطهن للخدمة كالإماء. (١١) الأزلام جمع زلم كسبب قداح كان العرب يستقسمون بها في الجاهلية (أي يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا من تجارة أو سفر أجالوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر وهو السهم قبل أن يراش) وكانت عند أصنامهم، أحدها مكتوب عليه: أمرني ربي، والثاني: نهاني ربي، والثالث: غفل، فإن خرج الأول مضوا في الأمر، أو الثاني أحجموا عنه، أو الثالث أجالوها ثانية حتى يخرج أحد الأولين.

يا عفراء ، إذا ذبحَ قومهُ فمن أعضادهُ^(١) ؟ قالت : أعضادهُ غَطاريفُ^(٢) يَمَانون ،
طأَّتهم به ميمون ، يُغزيمهم فيغزُون ، وَيُدْمَثُ^(٣) بهم الحزُون ، وإلى نصره يَغزُونُ .
فأطرق الملكُ يُؤامر^(٤) نفسه في خِطبتها ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك ! إن تابى
غَيور ، ولأمرى صَبُور ، وناكى مَثْبُور ، وَالكَكْفُ بِي ثُبُور^(٥) » . فنهض الملك
وجال في صَهْوَةٍ^(٦) جَوَّاده ، وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقةٍ كَوْماء^(٧) .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٦)

(١) الأعضاد : الأنصار جمع عضد ، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا قطعوه وتركوا نصرته .
(٢) الغطاريف جمع غطريف وهو السيد الشريف . (٣) يسهل ، والحزون جمع حزن كشمس
وهو ما غلظ من الأرض . (٤) يشاور . (٥) الثبور : الهلاك . (٦) الصهوة : مقعد الفارس
من ظهر فرسه . (٧) الكوماء : الناقة العظيمة السنم .

الوصايا

٧٣ - وصية أوس بن حارثة لابنه مالك

عاش الأوس بن حارثة دهرًا ، وليس له ولد إلا مالك ؛ وكان لأخيه الخزرج خمسة : عمرو ، وعوف ، وجشَم ، والحِث ، وكعب . فلما حضره الموت ، قال له قومه : قد كنا نأسرك بالتزويج في شبابك ، فلم تزوّج حتى حضر الموت ، فقال الأوس : « لم يهلك هالك ، ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فلعن الذي استخرج العذق^(١) من الجرّيمة^(٢) ، والنار من الوثيمة^(٣) ، أن يجعل لمالك نسلا ، ورجلا بُسلا^(٤) ، يا مالك ، المنية ولا الدنيا ، والعتاب قبل العقاب ، والتجملد لا التبدل ، وأعلم أن القبر خير من الفقر ، وشرّ شاربٍ المشتف^(٥) ، وأفبح طاعمٍ المُتقف^(٦) ، ودهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم ، الدفاع عن الحرّيم ، ومَن قَلَّ ذَلَّ ، ومَن أَمِر^(٧) فَلَّ ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان ، فيوم

(١) العذق : النخلة يحملها والعذق (بكسر العين) القنو منها . (٢) النواة .

(٣) الوثيمة : الحجارة ، وثمه : كسره ودقه . ووثم الفرس الأرض : ربحها بخوافره . ومن أيمان العرب لا والذي أخرج العذق من الجرّيمة . والنار من الوثيمة ، وقولهم : لا والذي شقهن خمسا من واحدة يعنون الأصابع ، وقولهم : لا والذي أخرج قاتبة من قوب يعنون فرخا من بيضة . لا والذي وجهي زمم بيته (بالتحريك) أى قصده وحذاه . (٤) شجعانا : جمع باسل .

(٥) المشتقى ، اشتف ما في الإناء شربه كله . واشتف إذا شرب الشقافة (بالضم) ، وهى البقية

تبقى في الإناء . (٦) الآخذ بمجلة ، ومنه سمي القفاف وهو من يسرق الدراهم بين أصابعه .

(٧) أمر كفرح أمرا وأمرة : كثرتم فهو أمر وأمره الله وأمره كتنصره كثرة : (وإذا أردنا أن

هلك قرية أمرنا مترفيها) . أى كثرتنا .

لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سَيَنْحَسِرُ^(١)،
فإنما تَعَزُّ^(٢) من ترى ويعزك من لا ترى، ولو كان الموت يُشْتَرَى، لسلم منه أهل الدنيا،
ولسكن الناس فيه مستوون، الشريف الأبلج، واللَّيِّمُ المَعْلُوجُ^(٣)، وَالْمَوْتُ الْمُفِيتُ،
خير من أن يقال لك هَبَيْتَ^(٤)، وكيف بالسلامة، لمن ليست له إقامة، وشرٌّ من المصيبة
سوء الخلف، وكل مجموع إلى تلف، حَيَّاكَ إلهك.

(الأمال : ١ : ١٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد : ١٥٤)

٧٤ - وصية ذى الإصبع العدو أنى لا بنه أسيد

لما أَحْتَضِرُ^(٥) ذو الإصبع دعا ابنه أسيداً ، فقال له : يا بني إن أباك قد فنى وهو
حتى ، وعاش حتى سَمَّ العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بَلَّغْتَ في قومك ما بلغته ،
فاحفظ عني . أَلِنْ جَانِبَكَ لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وَأَبْسُطْ لهم وجهك
يطيعوك ، وَلَا تَسْتَأْثِرْ عليهم بشيء يسوؤوك ، وَأَكْرِمْ صفارهم كما تكرم كبارهم ،
يُكْرِمُكَ كبارهم ، وَيَكْبُرْ على مودتك صفارهم ، واسمح بمالك ، وَأَحْمِرْ حَرِيمَكَ ،
وَأَعَزِّزْ جارك ، وَأَعِنْ مَنْ أَسْتَعَانَ بك ، وَأَكْرِمْ ضيفك ، وَأَسْرِعْ النهضة في الصريخ^(٦) ،
فإن لك أَجْلاً لَا يَمْدُوكَ ، وَصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتمُّ سُوءُ دُوكَ .

(الأغاني ٣ : ٦)

(١) ينكشف . (٢) تغلب . عزه يعزه كتنصره عزا ، وعزيز كضرب عزا وعزة صار عزيزا .
(٣) المنتهى في الدناءة والأؤم . (٤) الأحمق الضعيف . (٥) حضره الموت .
(٦) أى في وقت الصريخ وهو نداء المستغيث .

٧٥ - وصية عمرو بن كلثوم لبنيه

أوصى عمرو بن كلثوم التَّغَلْبِيَّ ، فقال : يَا بَنِيَّ إِنِّي قَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْعَمْرِ مَا لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مِنْ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، وَلَا بَدَمٍ مِنْ أَسْرِمَقْتِيلٍ ، وَأَنْ يَنْزِلَ بِي مَا نَزَلَ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ ، فَاحْفَظُوا عَنِّي مَا أُوصِيكُمْ بِهِ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا عَيَّرْتُ رَجُلًا قَطُّ أَمْرًا إِلَّا عَيَّرَ بِي مِثْلَهُ ، إِنْ حَقًّا فَحَقًّا ، وَإِنْ بَاطِلًا فَبَاطِلًا ، وَمَنْ سَبَّ سَبًّا ، فَكَفُّوا عَنِ الشَّتْمِ فَإِنَّهُ أَسْلَمَ لِأَعْرَاضِكُمْ ، وَصَلَوْا أَرْحَامَكُمْ ، تَعَمَّرُوا دَارَكُمْ ، وَأَكْرَمُوا جَارَكُمْ يَحْسُنْ ثَنَائُكُمْ ، وَزَوَّجُوا بَنَاتِ الْعَمِّ بَنِي الْعَمِّ ، فَإِنْ تَعَدَّيْتُمْ بِهِنَ إِلَى الْغُرَبَاءِ ، فَلَا تَأْتُوا بِهِنَ إِلَّا كِفَاءً ، وَأَبْعَدُوا بِيُوتِ النِّسَاءِ مِنْ بِيُوتِ الرِّجَالِ ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ ، لَوْ أَعَفَّ لِلذِّكْرِ ، وَمَتَى كَانَتْ الْمَعَايِنَةُ وَاللِقَاءُ ، فِي ذَلِكَ دَاءٍ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَغَارُ لغيرِهِ ، كَمَا يَغَارُ لِنَفْسِهِ ، وَقُلَّ مَنْ أَنْهَكَ حَرَمَةَ لغيرِهِ إِلَّا أَنْتَهَيْكَتَ حَرَمَتَهُ ، وَأَمْنَعُوا الْقَرِيبَ مِنْ ظَلَمِ الْغَرِيبِ ، فَإِنَّكَ تَذَلُّ عَلَى قَرِيبِكَ ، وَلَا يَجَلُّ بِكَ ذَلُّ غَرِيبِكَ ، وَإِذَا تَنَازَعْتُمْ فِي الدَّمَاءِ فَلَا يَكُنْ حَقُّكُمْ لِلِقَاءِ ، فَرُبَّ رَجُلٍ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ ، وَوَدَّ خَيْرٌ مِنْ خَلْفِ ، وَإِذَا حُدِّثْتُمْ فَعَوُوا ، وَإِذَا حَدَّثْتُمْ فَأَوْجَزُوا ، فَإِنْ مَعَ الْإِكْثَارِ يَكُونُ الْإِهْذَارُ ^(١) ، وَمَوْتَ عَاجِلٍ خَيْرٌ مِنْ ضَنْئِ آجَلٍ ، وَمَا بَكَيتَ مِنْ زَمَانٍ إِلَّا دَهَانِي بَعْدَهُ زَمَانٌ ، وَرَبَّمَا شَجَانِي مَنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُهُ عَنَانِي ، وَمَا عَجِبْتُ مِنْ أَحْدُوثةٍ إِلَّا رَأَيْتُ بَعْدَهَا أُعْجُوبَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَشْجَعَ الْقَوْمِ الْعَطُوفُ ، وَخَيْرُ الْمَوْتِ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا رُويَةَ لَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَلَا فِيمَنْ إِذَا عُوْتِبَ لَمْ يُعْتَبِ ^(٢) ، وَمَنْ النَّاسُ مِنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ ، وَلَا يَخَافُ شَرَّهُ ، فَبِكُوْهُ ^(٣) خَيْرٌ مِنْ دَرِّهِ ، وَعَقُوقُهُ خَيْرٌ مِنْ بَرِّهِ ، وَلَا تُبْرِّحُوا فِي حَبْكُمُ ، فَإِنَّهُ مِنْ بَرِّحٍ فِي حَبٍّ ، آلَ

(١) أهدر : هذى . (٢) لم يرض . (٣) بكأت الناقة بكثا قل لبنها .

ذلك إلى قبيح بفض ، وكم قد زارني إنسان وزرته ، فانقلب الدهر بنا فَبَرْتَهُ^(١) ، واعلموا أن الحكيم سليم ، وأن السيف كلیم ، إني لم أمت ولكن هَرِمْتُ ، ودخلتني ذلة فسكت ، وضعف قلبي فَأَهْتَرْتُ^(٢) ، سلمكم ربكم وحياكم .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٥ والأغانى ٩ : ١٧٨)

٧٦ - وصية الحرث بن كعب لبنيه

وأوصى الحرث بن كعب بنيه فقال :

« يَا بَنِيَّ قَدِ أَتَى عَلَى مِائَةِ وَسْتُونَ سَنَةً ، مَا صَاحَتْ يَمِينِي يَمِينِ غَادِرٍ ، وَلَا قَعِيتُ لِنَفْسِي مِخْلَةً^(٣) فَاجِرٍ ، وَلَا صَبَوْتُ بِابْنَةِ عَمٍّ وَلَا كَنَّةً^(٤) ، وَلَا بُحْتُ لِصَدِيقٍ بِسَرٍّ ، وَلَا طَرَحْتُ عَنْ مُومَسَةٍ قِنَاعًا ، وَلَا بَقِيَ عَلَى دِينِ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ - وَرَوَى : عَلَى دِينِ شَعِيبٍ - مِنَ الْعَرَبِ غَيْرِي وَغَيْرِ تَمِيمِ بْنِ مَرَّةٍ ، وَأَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ ، فَمُوتُوا عَلَى شَرِيعَتِي ، وَاحْفَظُوا وَصِيَّتِي ، وَإِلَهُكُمْ فَاتَّقُوا ، يَكْفِيكُمْ مَا أَهَمَّكُمْ ، وَيُصَلِّحُ لَكُمْ حَالَكُمْ ، وَإِبَائَكُمْ وَمَعْصِيَتَهُ ، فَيُحِلِّ بِكُمْ الدَّمَارَ ، وَيُبُوحِشُ مِنْكُمْ الدِّيَارَ . كُونُوا جَمِيعًا وَلَا تَفْرَقُوا ، فَتَكُونُوا شَيْعًا ، وَبُرُؤًا قَبْلَ^(٥) أَنْ تُبْرَأُوا ، فَمُوتَ فِي عَزٍّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي ذُلٍّ وَعَجْزٍ ، وَكُلُّ مَا هُوَ كَأَنَّ كَأَنَّ ، وَكُلُّ جَمْعٍ إِلَى تَبَايُنٍ ، وَالدهرُ ضَرْبَانُ ، ضَرْبٌ بِلَاءٍ ، وَضَرْبٌ رِخَاءٍ ، وَالْيَوْمُ يَوْمَانُ ، يَوْمٌ حَبْرَةٌ ، وَيَوْمٌ عَبْرَةٌ ، وَالنَّاسُ رَجُلَانُ ، رَجُلٌ لَكَ ، وَرَجُلٌ عَلَيْكَ ، زَوْجُوا النِّسَاءَ الْأَكْفَاءَ ، وَإِلَّا فَاتَّظَرُوا بِهِنَ الْقَضَاءِ ، وَلِيَكُنْ أَطِيبَ طَيِّبِينَ

(١) باره : جر به . (٢) اهتر بالضم : ذهب العقل من كبر أو مرض أو حزن وقد اهتر فهو مهتر

بفتح التاء شاذ ، وقيل اهتر بالبناء للمجهول .

(٣) الخلة : الصداقة المختصة لا لخلل فيها تكون في عفاف وفي دعارة (والخلة أيضا الصديق لذكر

والأنثى والواحد والجميع) . (٤) الكنة : امرأة الابن أو الأخ جمعه كذائن .

(٥) بزه : سلبه ، وفي المثل : من عزز ، أي من غلب سلب .

الماء ، وإياكم وَالْوَزْهَاءُ^(١) ، فإنها أدوا الداء ، وإن ولدها إلى أفن^(٢) يكون ، لا راحة لقاطع القرابة ، وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم ، وآفة العدو اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة ، ببق السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخول فيها ، وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطعة الرحم تورث الهم ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يُعقِبُ النكد ، ويخرب البلد ، وَيَحَقِّقُ العدد ، والإسراف في النصيحة ، هو النصيحة ، والحقد يمنع الرِّفْد ، ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الرِّعَة^(٣) ، يقطع أسباب المنفعة ، والضمان تدعو إلى التباين ، يا بَنِي ، إني قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وَعَبَّرْتُ ، وَكَأَنِّي بِهِمْ قَدْ أَحَقَّتْ ، ثم قال :

أكلت شبابي فأفنيته وأبليت بعد دهورٍ دهورا
ثلاثة أهلين صاحبهم فبادوا وأصبحت شيخاً كبيراً
قليلَ الطعام ، عسير القيام قد ترك الدهر خَطْوِي قصيراً
أبيت أراعي نجوم السماء أقلبُ أمرى بطوناً ظهوراً

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٤)

٧٧ - وصية عامر بن الطرب العدواني لقومه

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الطَّرْبِ الْعَدَوَانِي سَيِّدَ قَوْمِهِ ، فَلَمَّا كَبُرَ وَخَشِيَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ أَنْ يَمُوتَ ، اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا : إِنَّكَ سَيِّدُنَا وَقَاتِلُنَا وَشَرِيفُنَا ، فَاجْعَلْ لَنَا شَرِيفًا وَسَيِّدًا وَقَاتِلًا بَعْدَكَ ، فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ عَدَوَانٍ : كَلَفْتُمُونِي بَغِيًّا ، إِنْ كُنْتُمْ شَرَفْتُمُونِي فَإِنِّي أُرِيْتُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي ، فَأَنَّى لَكُمْ مِثْلِي ؟ أَفَهُمُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ ، إِنَّهُ مِنْ جَمْعِ بَيْنِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ لَمْ

(١) الحمقاء : من وره كفرح : حمق فهو أورده .

(٢) ضعف الرأي والعقل . (٣) الرعة : الطريقة .

يجمعانه ، وكان الباطلُ أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفِر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفِر من الحق .

يا معشر عدوان : لا تَسْمَتُوا بِالذِّلَّةِ ، ولا تفرحوا بالعزَّةِ ، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى ، ومن يَرَّ يوماً يُرَّ به ^(١) ، وأعدُّوا لكل امرئٍ جوابه ، إن مع السفاهة الندامة ، والعقوبة نكال وفيها ذمامة ^(٢) ، ولليد العُلْيَا ^(٣) العاقبة ، والقوَدُ ^(٤) راحة ، لا لك ولا عليك ، وإذا شئت وجدت مثلك ، إن عليك كما أن لك ، وللكنزة الرعبُ ، وللصبر الغلبةُ ، ومن طلب شيئاً وجدته ، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه .

(مجمع الأمثال ٢ : ١٨٣)

٧٨ — وصية دويد بن زيد لبنيه

لما حضرت دُوَيْدَ ^(٥) بن زيد الوفاةُ قال لبنيه :

« أوصيكم بالناس شرًّا ، لا ترهِّموا لهم عبْرَةً ، ولا تُقِيلوهم عبْرَةً ^(٦) ، قَصِّروا الأَعِنَّةَ ، وطوِّلوا الأسننةَ ، واطعنوا شَرًّا ^(٧) ، واضربوا هَبْرًا ^(٨) ، وإذا أردتم المحاجزةَ ،

(١) أى من رأى يوماً على عدوه رأى مثله على نفسه .

(٢) الذمامة بالفتح ويكسر ، والذمة : العهد ، والكفالة : والحق ، والخرمة . (٣) اليد العليا

المعطية ؛ والسفلى : السائلة ، وفى الحديث : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ؛ وهو حث على الصدقة .

(٤) القود : القصاص . (٥) هو دويد بن زيد بن نهد الحميرى ، وكان من المعمرين . قيل عاش

أربعمائة وستا وخمسين سنة ، (قالوا : ولا يمد العرب معمرا إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعدا) .

(٦) أقال الله عشرته : رفعه من سقوطه . (٧) الطعن فى الجوانب يمينا وشمالا .

(٨) هبر اللحم : قطعه قطعا كبيرا ، والهبرة (بالفتح) القطعة المجتمعة منه وضرب هبر وهبير هابر :

أى يقطع اللحم .

قبل المناجزة ، والمرء يعجز لا الحالة ، بالجد لا بالكد ، التجلد ولا التبذل ، والمنية
ولا الدنية ، ولا تأسوا على فائت وإن عزَّ قده ، ولا تحنوا إلى ظاعن وإن أَلَفَ قُربه ،
ولا تطعموا فتطبَعُوا^(١) ، ولا تهِنُوا فَتَحْرَعُوا^(٢) . ولا يكوننَّ لكم المثل السوء « إن
الموصينَ بنو سهوان^(٣) » إذا مُتَّ فَأَرْجَبُوا^(٤) خَطَّ مَضْجَعِي ، ولا تَصْنُوا عَلَى
بِرْحَبِ^(٥) الأَرْضِ ، وما ذلكِ مُمُودًا إِلَى رَوْحَا^(٦) ، ولكن حاجة نفس خامرَها
الإشفاقُ .

قال أبو بكر بن دُرَيْدٍ في حديث آخر إنه قال :

اليومَ يُبْنَى لِلدُّوَيْدِ بَيْتُهُ يَأْرُبُ نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ
وربِ قِرْنٍ بَطْلٍ أُرْدَبْتُهُ وَرُبَّ غَيْلٍ حَسَنِ لَوَيْتُهُ^(٧)
وَمِعْصَمٍ خَضِبٍ ثَنَيْتُهُ لو كَانَ لِلدَّهْرِ بَلِيٌّ أَبْلَيْتُهُ^(٨)
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتُهُ

(أمال السيد المرتضى ١ : ١٧١)

(١) الطبع محرّكة : اللدس . (٢) الوهن الضعف ، والخراعة : (كناية) اللين والرخاوة
خرع : ككرم ، وخرع كفرح ضعف وانكسر ، فهو خرع ، وخرع .
(٣) قال الميداني في مجمع الأمثال « ١ : ٦ » : « هذا مثل تحبب في تفسيره كثير من الناس ، قال
بعضهم : إنما يحتاج إلى الوصية من يسهو ويغفل ، فأما أنت فغير محتاج إليها لأنك لا تسهو ، وقال بعضهم
يريد بقوله بنو سهوان جميع الناس لأن كلهم يسهو ، والأصوب في معناه أن يقال : إن الذين يوصون
بالشيء يستولى عليهم السهو حتى كأنه موكل بهم ؛ يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به ، والسهوان ،
السهو ، ويجوز أن يكون صفة أي بنو رجل سهوان ، وهو آدم عليه السلام حين عهد إليه فسها ونسى ، يقال
رجل سهوان وساه ، أي إن الذين يوصون لا بد أن يسهوا لأنهم بنو آدم عليه السلام .
(٤) أرحبه : وسعه .

(٥) الرحب : بالضم مصدر ؛ وبالفتح وصف . (٦) أي راحة ، أو هو بالضم أي وما ذلك
بمراجعة إلى روعي . (٧) الغيل : الساعد الريان الممتلئ . (٨) المعصم : موضع السوار أو اليد ،
وهو المراد هنا .

٧٩ - وصية زهير بن جناب الكلبي

وأوصى زهير بن جناب الكلبي^(١) بنيه فقال :

« يَا بَنِيَّ : قَدْ كَبُرَتْ سِنِّي ، وَبَلَغَتْ حَرَسًا^(٢) مِنْ دَهْرِي ، فَأَحْكَمْتَنِي التَّجَارِبَ ، وَالْأُمُورَ تَجْرِبَةً وَاخْتِبَارًا ، فَاحْفَظُوا عَنِّي مَا أَقُولُ وَعُودِهِ ، إِيَّاكُمْ وَأَلْخُورَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ ، وَالتَّوَاكُلَ عِنْدَ النُّوَائِبِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ لِلنِّعَمِ ، وَشِمَاتَةٌ لِلْعُدُوِّ ، وَسُوءُ ظَنِّ بِالرَّبِّ ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا بِالْأَحْدَاثِ مَغْتَرِّينَ ، وَلَهَا آمَنِينَ ، وَمِنْهَا سَاخِرِينَ ، فَإِنَّهُ مَا سَخِرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا ابْتُلُوا ، وَلَكِنْ تَوَقَّعُوهَا ، فَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ^(٣) تَمَآوَرُهُ الرِّثَامَةُ ، فَتَقْصُرْ دُونَهُ ، وَمَجَاوِزْ لِمَوْضِعِهِ ، وَوَاقِعْ عَنِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ لَا بَدَأَ لَهُ مَصِيبُهُ » .

(أمالك السيد المرتضى ١ : ١٧٣)

٨٠ - وصية النعمان بن ثواب العبدي لبنيه

كَانَ لِلنَّمْعَانِ بْنِ ثَوَابِ الْعَبْدِيِّ بَنُونَ ثَلَاثَةٌ : سَعْدٌ وَسَعِيدٌ وَسَاعِدَةٌ ، وَكَانَ أَبُوهُمْ ذَا شَرَفٍ وَحِكْمَةٍ ، وَكَانَ يُوصِي بَنِيَهُ ، وَيُحْمَلُهُمْ عَلَى أَدْبِهِ ، أَمَا ابْنُهُ سَعْدٌ فَكَانَ شَجَاعًا بَطْلًا مِنْ شَيَاطِينِ الْعَرَبِ ، لَا يُقَامُ لِسَبِيلِهِ ، وَلَمْ تَنْفُتْهُ طَلِبَتُهُ قَطُّ ، وَلَمْ يَفِرَّ عَنْ قَوْمٍ ؛ وَأَمَا سَعِيدٌ فَكَانَ يُشْبِهُ أَبَاهُ فِي شَرَفِهِ وَسُودَدِهِ ؛ وَأَمَا سَاعِدَةٌ فَكَانَ صَاحِبَ شَرَابٍ وَنَدَائِيٍّ وَإِخْوَانٍ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّيْخُ حَالَ بَنِيهِ دَعَا سَعْدًا ، وَكَانَ صَاحِبَ حَرْبٍ ، فَقَالَ :

(١) هو زهير بن جناب بن هبل الكلبي ، قيل عاش مائتين وعشرين سنة ، وقيل مائتين وخسين ،

وقيل أربع مائة وخسين ، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه .

(٢) الحرس من الدهر : الطويل ، وحرس : كسح عاش زمانا طويلا .

(٣) الغرض : الهدف ، وتماوره (تتاوره) أى تتداوله .

« يَا بُنَيَّ إِنْ الصَّارِمَ يَنْبُؤُ ، وَالْجَوَادَ يَكْبُؤُ ، وَالْأَثَرَ يَعْفُو ^(١) ، فَإِذَا شَهِدْتَ حَرْبًا ، فَرَأَيْتَ نَارَهَا تَسْتَعِيرُ ، وَبَطْلَهَا يَنْخَطِرُ ، وَبِحَرْهَا يَزْخَرُ ، وَضَعِيفَهَا يُنْصَرُ ، وَجَبَانَهَا يَجْسُرُ ، فَأَقِيلِ الْمَكْتُ وَالْإِنْتِظَارَ ، فَإِنَّ الْفِرَارَ غَيْرُ عَارٍ ، إِذَا لَمْ تَكُنْ تَطَالِبُ ثَارَ ، فَإِنَّمَا يُنْصَرُونَ م ^(٢) ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ صَيْدَ رِمَاحِهَا ، وَنَطِيحَ نِطَاحِهَا . »

وقال لابنه سعيد ، وكان جوادا : « يَا بُنَيَّ لَا يَبِيخُلُ الْجَوَادُ ، فَاذِلِ الطَّارِفَ وَالتَّلَادَ ^(٣) ، وَأَقِيلِ التَّلَاحَ ^(٤) ، تُذَكِّرُ عِنْدَ السَّمَاحِ ، وَأَبْلِي ^(٥) إِخْوَانِكَ ، فَإِنَّ وَفِيهِمْ قَلِيلٌ ، وَاصْنَعِ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ مَحْتَمِلِهِ . »

وقال لابنه ساعدة ، وكان صاحب شراب : « يَا بُنَيَّ إِنْ كَثُرَ الشَّرَابُ ، تَفْسَدَ الْقَلْبُ ، وَتَقَلَّلَ الْكَسْبُ وَتُجِدَّ اللَّعِبُ ^(٦) ، فَأَبْصِرْ نَدِيمَكَ ، وَاحْمِ حَرِيمَكَ ، وَأَسْنِ غَرِيمَكَ ^(٧) وَاعْلَمْ أَنَّ الظَّمَا الْقَامِحَ ^(٨) ، خَيْرٌ مِنَ الرَّيِّ الْفَاضِحِ ، وَعَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فَإِنَّ فِيهِ بِلَاغًا . »

(مجمع الأمثال ١ : ٤٨)

٨١ — وصية قيس بن زهير لبني النمر بن قاسط

جارور قيس بن زهير العبسي ^(٩) بعد يوم الهبأة النمر بن قاسط ، وتزوج منهم ، وأقام فيهم حتى ولد له ، فلما أراد الرحيل عنهم قال :

(١) عفا الأثر : درس واحي . (٢) أي طلاب النار . (٣) الطارف والطاريف : المال المستحدث ، والثالذ ، والتلذ ، والتلاد ، والمتلذ : المال القديم الأصلي الذي ولد عندك . (٤) التلاحي : التنازع ، ولاحاه ملاحاة ولحاه نازعه . (٥) اختبر . (٦) أي تجعله جدا ؛ والجد (بالكسر) ضد الهزل . (٧) الغريم : المدين (وهو الدائن أيضا) . (٨) ممناه العطش الشاق خير من رى يفضح صاحبه ، وقح البعير قوحا : رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب فهو قامح ، وقح البعير : اشتد عطشه حتى فتر شديدا .

(٩) هو صاحب حرب داحس والغبراء ، وكان من قصته أنه تراهن هو وحذيفة بن بدر سيد بني ذبيان على فرسيهما داحس (فرس قيس) والغبراء (فرس حذيفة) — وقيل إنهما تراهنا على داحس والغبراء فرسى قيس ، والخطار والحنفاء فرسى حذيفة — وتواضعا الرهان على مائة بعير ، ثم قادوها إلى رأس =

« يا معشرَ النَّمِرِ : إنَّ لَكُمْ عَلَيَّ حَقًّا ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُوصِيَكُمْ ، فَأَمْرُكُمْ بِخِصَالٍ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ خِصَالٍ ، عَلَيْكُمْ بِالْأَنَاقَةِ ، فَإِنَّ بِهَا تُدْرِكُ الْحَاجَةَ ، وَتُنَالُ الْفُرْصَةَ ، وَتَسْوَدُّ مِنْ لَا تُعْمَلُونَ بِتَسْوِيدِهِ ، وَتَلِيكُمْ بِالْوَفَاءِ ، فَإِنَّ بِهِ يَمِيشُ النَّاسُ ، وَيُعْطَاةٌ مِنْ تَرِيدُونَ إِعْطَاةً قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ ، وَمَنْعٌ مِنْ تَرِيدُونَ مَنْعَهُ قَبْلَ الْإِلْحَاحِ ، وَإِجَارَةٌ الْجَارِ عَلَى الدَّهْرِ ، وَتَنْفِيسٌ الْمَنَازِلِ عَنْ بِيُوتِ الْيَتَامَى ، وَخُلُطُ الضَّيْفِ بِالْعِيَالِ .

وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْغَدْرِ ، فَإِنَّهُ عَارُ الدَّهْرِ ، وَعَنِ الرَّهَانِ ، فَإِنَّ بِهِ تُكَلِّتُ مَا لَكَ أَخِي وَعَنِ الْبَغْيِ ، فَإِنَّهُ قَتْلُ زُهَيْرًا أَبِي ^(١) ، وَعَنِ الْإِعْطَاءِ فِي الْفَضُولِ ، فَتَمَجِّزُوا عَنِ الْحَقُوقِ ، وَعَنِ السَّرْفِ فِي الدَّمَاءِ ، فَإِنَّ يَوْمَ الْهَبَاءِ ^(٢) أَلْزَمَنِي الْعَارَ ، وَمَنْعَ الْحُرْمِ إِلَّا مِنَ الْأَكْفَاءِ ،

= الميدان ، وفي طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأكن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتياذا على طريق الفرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية ، فأرسلوها فأحضرا ، فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية ، وثبوا في وجهه فردوه عنها ؛ وعلم قيس بذلك ؛ وبعث حذيفة بن بدر ابنه مالكا إلى قيس يطلب منه حق السبق ؛ فقال قيس كلا لأمطلنك به ، فتناول ابن حذيفة من عرض قيس وشتمه وأغظ له ؛ وكان إلى جنب قيس رمح قطعته به فدق صلبه ، واجتمع الحيان وأدوا ذبقة المقتول ، وأخذها حذيفة دفعا للشر ، ثم إن قومه ندموه فعاد الشر بينهم ، وقامت الفتن بين الحيين ، وهذا حذيفة على مالك بن زهير أخى قيس فقتله ؛ وكان الربيع بن زياد عمهما معتمرا في الحرب ، فلما سمع بمقتل ابن أخيه مالك شق ذلك عليه وقاتل بني ذبيان ، ثم توالى أيام الحروب بينهم ، وكان أعظمها يوم الهباءة حتى أصلح بينهم الحرث بن عوف وهرم بن سنان المريان ؛ وحللا ديات القتل ثلاثة آلاف بعير .

(١) وسبب مقتل زهير بن جذيمة العنسي أبي قيس ، أن هوازن بن منصور كانت تؤقي الإتاوة زهير ابن جذيمة — ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد — فأنت مجوز من هوازن إلى زهير بسمن في نحي (النحي كحمل الزق ، أو ما كان للسمن خاصة) فاعتذرت إليه ؛ وشكت السنين اللواتي تتابعن على الناس « فذاقه فلم يرض طعمه ، فدعها أي دفعها بقوس في يده فسقطت فبدت عورتها ، فغضب من ذلك هوازن وحقدته إلى ما كان في صدرها من الغيظ ، وكانت يومئذ قد كثرت بنو عامر بن صعصعة فثاروا إليه فقاتلوه حتى قتلوه .

(٢) وكان حذيفة بن بدر وأخوه نزلام مع أصحابهما في جفر الهباءة ، فاتبعهم قيس ومن معه حتى أدركهم فيه ، وقد أرسلوا خيولهم وزعوا سلاحهم (وكان حذيفة قد أخذ غلامين من بني عبس ، فقتلتهما وهما يسفيشان يا أبتاه حتى ماتا) فشد قيس والربيع ومن معهما عليهم ، وهم ينادون لبيك لبيك ، يعني أنهم =

فَإِنْ لَمْ تَصِيبُوا لَهُنَّ الْأَكْفَاءَ . فَإِنْ خَيْرٍ مَنَا كَهَنَ الْقُبُورِ ، (أَوْ خَيْرٍ مَنَا زَاهَا) ، وَاعْلَمُوا أَنِّي كُنْتُ ظَالِمًا مَظْلُومًا ، ظَالِمِي بَنُو بَدْرٍ بِقَتْلِهِمْ مَا لَسْتُ كَأَخِي ، وَظَالِمِهِمْ بِأَنْ قَتَلْتُ مِنْ لَا ذَنْبَ لَهُ .

(المقدم الفريد ٣ : ٢٢٤ ، وآمال السيد المرتضى ١ : ١٤٩ ، وشرح العيون ص ٩٠)

٨٢ — وصية حصن بن حذيفة لبنيه

وَأوصى حِصْنُ بْنُ حُدَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ بْنِ بَدْرِ فَقَالَ :

« اسْمَعُوا مِنِّي مَا أَوْصِيكُمْ بِهِ : لَا يَتَكَلَّمُ آخِرُكُمْ عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، فَإِنَّمَا يُدْرِكُ الْآخِرُ مَا أَدْرَكَهُ الْأَوَّلُ ، وَأَنْتُمْ كَحُوا الْكُفَّءَ الْغَرِيبَ ، فَإِنَّهُ عِزٌّ حَادِثٌ ، وَإِذَا حَضَرَكُمْ أَمْرَانِ ، فَخُذُوا بِخَيْرِهِمَا صَدْرًا^(١) ، فَإِنْ كُلُّ مَوْرِدٍ مَعْرُوفٌ ، وَاصْحَبُوا قَوْمَكُمْ بِأَجَلِ أَخْلَاقِكُمْ ، وَلَا تُخَافُوا فِيمَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْخِلَافَ يُزْرِي بِالرَّئِيسِ الْمَطَّاعِ ، وَإِذَا حَدِثْتُمْ فَارْبَعُوا^(٢) ، ثُمَّ قُولُوا الصِّدْقَ ، فَإِنَّهُ لَأَخَيْرُ فِي السُّكُذْبِ ، وَصُونُوا الْخَيْلَ فَإِنَّهَا حُصُونُ الرِّجَالِ ، وَأَطِيلُوا الرِّمَاحَ فَإِنَّهَا قُرُونُ الْخَيْلِ ، وَأَعِزُّوا السُّكْبِيرَ بِالسُّكْبِيرِ ، فَإِنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ أَغْلِبُ النَّاسَ ، وَلَا تَغْزُوا إِلَّا بِالْعَيْوُنِ^(٣) ، وَلَا تَسْرَحُوا حَتَّى تَأْتُمُوا الصَّبَاحَ^(٤) ، وَأَعْطُوا عَلَى حَسَبِ الْمَالِ ، وَأَعْجِلُوا الضَّيْفَ بِالْقَرَى^(٥) ، فَإِنْ خَيْرَهُ أَعْجَلَهُ ، وَاتَّقُوا فَضِيحَاتِ الْبَغْيِ ، وَقَلْبَاتِ الْمَزَاحِ ، وَلَا تُجِيرُوا عَلَى الْمُلُوكِ ، فَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ أَطْوَلُ مِنْ أَيْدِيكُمْ . »

(آمال السيد المرتضى ٢ : ١٦٨)

= يجيبون نداء الضيعة لما قتلوا ينادون بأبائهم ، فنادوهم الله والرحم ، فلم يقبلوا منهم ، وقتلوا حذيفة وحملوا أخاه ، ومثلوا بحذيفة فقطعوا مذاكيره وجعلوها في فيه وجعلوا لسانه في استه ، وأسرف قيس في السكاية والقتل ، وكانت فزارة تسمى هذه الوقعة البوار ، ولكن قيساً ندم بعد ذلك ورثى حل بن بدر ، وهو أول من رثى مقتوله .

(١) الصدر : الرجوع . (٢) ريع : كنع انتظر وتحبس ، وريع الحبل : قتله من أربع طاقات .

والمعنى إذا حدثت فتأنوا وتمهلوا ، أو فأحكروا القول . (٣) العيون : جمع عين ، وهي خيار كل

شيء . (٤) الصباح الغارة : أي ولا تسرحوا مقاتلتكم حتى تأمنوا الغارة .

(٥) قرى الضيف يقريه قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا ما قرى به الضيف .

٨٣ - وصية لأكرم بن صيفي

كتب النعمان بن خزيمة الباروقي إلى أكرم بن صيفي: «مثل لنا مثلاً نأخذبه»^(١)

فقال :

« قد حَلَبْتُ الدَهْرَ أَشْطَرَهُ ^(٢) فَعَرَفْتُ حُلُوهَ وَمُرَّه . عَيْنَ عَرَفَتْ فَذَرَفَتْ ^(٣) ،
إِنَّ أُمَّامِي مَالًا أَسَاجِي ^(٤) . رَبُّ سَامِعٍ يَخْبِرُ لَمْ يَسْمَعْ بِمُدْرِي . كُلُّ زَمَانٍ لِمَنْ فِيهِ .
فِي كُلِّ يَوْمٍ مَا يُكْرَهُ . كُلُّ ذِي نُصْرَةٍ سَيُخَذَلُ . تَبَارَكُوا فَإِنَّ الْبِرَّ يَنْبِي ^(٥) عَلَيْهِ الْعَدَدُ
وَكُفُّوا أَسْنَتَكُمْ فَإِنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْهِ . إِنْ قَوْلَ الْحَقِّ لَمْ يَدْعُ لِي صَدِيقًا .
الْصَّدَقُ مِنْجَاةٌ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجُزَعِ التَّبَقُّ . وَلَا يَنْفَعُ مِمَّا هُوَ وَاقِعُ التَّوَقُّ ، سَتُسَاقُ إِلَى مَا أَنْتَ
لَاقٍ . فِي طَلَبِ الْمَالِ يَكُونُ الْعَنَاءُ . الْإِنْتِصَادُ فِي السَّعْيِ أَبْقَى لِلْجَمَامِ ^(٦) مِنْ لَمْ يَأْسَ ^(٧)
عَلَى مَا فَانَهُ وَدَعَّ بَدَنُهُ ، وَمَنْ قَنَعَ بِمَا هُوَ فِيهِ قَرَّتْ عَيْنُهُ . التَّقَدُّمُ قَبْلَ التَّنَدُّمِ ^(٨) .
أَصْبَحُ عِنْدَ رَأْسِ الْأَمْرِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَصْبِحَ عِنْدَ ذَنْبِهِ . لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ .
وَيْلٌ لِعَالَمٍ أَمْرٌ مِنْ جَاهِلِهِ . يَتَشَابَهُ الْأَمْرُ إِذَا أُقْبِلَ ، فَإِذَا أُدْبِرَ عَرَفَهُ الْكَيْسُ وَالْأَحْقُ .
الْوَحْشَةُ ذَهَابُ الْأَعْلَامِ ^(٩) . الْبَطْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ حُحُقُ . وَالْعَجْزُ عِنْدَ الْبَلَاءِ أَفْنٌ ^(١٠) . لَا تَنْفَضَبُوا

- (١) هكذا روى أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال : وذكر الميداني أن أكرم وصى بها بنيه حين جمعهم ، والرواية الأولى أطول بكثير من الثانية ، وقد جمعت بين الروایتين . (٢) للناقة شطران : قدامان وآخران ، فكل خلفين من أخلافها شطر (والخلف بالكسر لها كالضرع للبقرة) وأشطره بدل من الدهر ؛ والمعنى أنه اختبر شطرى الدهر خيره وشره فعرف ما فيه ، وهو مثل يضرب فيمن جرب الدهر . (٣) ذرفت عينه كضرب : سال دمهها ، وذرفت العين دمهها أسالته ؛ وهو مثل يضرب لمن رأى الأمر فعرف حقيقته . (٤) ساماه : باراه في السمو . (٥) يزيد ، وفي مجمع الأمثال « يبق » . (٦) أى أبقي للقوة ، من جم الفرس جماما (بالفتح) ترك الضراب فتجمع ماؤه ، وجم المساء يجم بضم الجيم وكسرهما جموما كثر واجتمع ، والبئر تراجع ماؤها ؛ والجمام بالفتح أيضا : الراحة . (٧) يحزن . (٨) أى ففكر في التقدم قبل أن تندم . (٩) الأعلام جمع علم : وهو سيد القوم . (١٠) الأفن : ضعف الرأى والعقل ، وفى الأصل أمن وهو تحريف .

من اليسير ، وربما جنى الكثير . لا يُجيبوا فيما لم تُسألوا عنه . ولا تضحكوا مما لا يُضحك منه . حيلةٌ من لا حيلةَ له الصبر . كونوا جميعاً فإن الجمع غالب ، تثبتوا . ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين الرّكين . رب عجلةٍ تهب ريثاً . ادّرِعوا الليل واتخذوه جملًا . فإن الليل أخفى للويل . ولا جماعة لمن اختلف . تناهوا في الديار ولا تباغضوا . فإنه من يجتمع يتتققع^(١) عمدته . أزموا النساء المهابة^(٢) نعم لهو الغرّة^(٣) المغزل . إن تعيش ترَ ما لم تره . قد أقرّ صاميت . المكثار كحاطب^(٤) ليل . من أكثر أسقط^(٥) . لا تجعلوا سيرا إلى أمة . لا تفرّقوا في القبائل ، فإن الغريب بكل مكانٍ مظلوم ، عاقِدوا الثروة^(٦) . وإياكم والشائظ^(٧) فإن مع القلة الذلّة : لو سُئِلتِ العارِية قالت أُنبي لأهلي ذلاً . الرسول مُبلّغ غيرُ مَلوم . من فسدت بطانته عُصّ بالماء . أساء سمعاً فأساء جابة^(٨) . الدالُّ على الخير كفاعله . إن المسألة من أضعف المسكنة . قد تجوع الحرة

(١) تتققع : اضطرب وتحرك . وفي الأصل عنده بدل عمدته وهو تحريف ، وهذا مثل . معناه لا بد من الافتراق بعد الاجتماع ، أو معناه إذا اجتمع القوم وتقاربوا وقع بينهم الشر ففرقوا ، أو من غبط بكثرة العدد واتساق الأمر فهو بمرض الزوال والانتشار . (٢) أى أن هبتم ويوقرنكم ، وفي الأصل « المهانة » وهو تصحيف .

(٣) الشريفة . (٤) الحاطب : الذى يجمع الحطب ؛ وهو حاطب ليل : أى مخلط في كلامه .

(٥) أسقط كلمة ؛ وأسقط في كلمة أى أخطأ .

(٦) عاقِدوا : حالفوا ، والثروة : كثرة العدد من الناس . (٧) يقال هم وشيظة في قومهم أى حشوفهم . (٨) جابة بمعنى إجابة ، اسم وضع موضع المصدر ، ومثلها الطاعة والطاقة والغارة والعاره . قال المفضل : أول من قال ذلك سهيل بن عمرو ، وكان تزوج صفية بنت أبي جهل بن أبي هشام ، فولدت له أنس بن سهيل ، فخرج معه ذات يوم ؛ فوقف بحزورة مكة (والحزورة كقسورة : الرابية الصغيرة) فأقبل الأخنس بن شريق التقفى ، فقال : من هذا ؟ قال سهيل : ابني ؛ قال الأخنس : حياك الله يافقي ! قال : لا ، والله ما أمى في البيت ، انطلقت إلى أم حنظلة تطحن دقيقا ، فقال أبوه : أساء سمعا فأساء جابة فأرسلها مثلاً .

ولا تأكل بثدييها^(١) . لم يجزُ سالكُ القصدِ ، ولم يعمَ قاصدُ الحق . من شدّد نَفْرَ ،
ومن تراخى تألّف . الشرف التغافل . أوفى القول أوجزه . أصوب الأمور ترك الفضول .
التغريير مفتاح البؤس . التواني والعجز ينتجان الهلكة . لكل شيء ضراوة^(٢) .
أحوج الناس إلى الغنى من لا يصلح له إلا الغنى ، وهم الملوك . حُبُّ المدح رأسُ الضياع .
رضاً الناس غاية لا تُبْلَغ . لا تَكْرَهْ سُخْطَ مَنْ رِضاهِ الْجَوْزُ معالجة العقاف مَشَقَّة
فتعوذ بالصبر . أقصر لسانك على الخير وأخر الغضب ، فإن القدرة من ورائك ، من قدر
أزمع ، أمرُ أعمال المقتدرين الانتقام ، جازٍ بالحسنة ولا تسكافي بالسيئة ، أغنى الناس
عن الحقد من عَظُم عن الجزاة . مَنْ حَسَدَ مَنْ دونه قلَّ عُدْرَه ، من جعل لِحُسْن الظن
نصيلاً رَوَّح عن قلبه ، عيُّ الصمت أحمد من عي المنطق ، الناس رجالان محترس ومحترس
منه كثير النصيح يهجم على كثير الظننة^(٣) ، من ألح في المسألة أبرم^(٤) ، خير السخاء

(١) أى لا تعيش بسبب ثديها وبما يعلن عليها من أجرة الإرضاع ، يضرب في صيانة
الرجل نفسه عن خسيس المكاسب ، وذكروا أن أول من قاله الحارث بن سليل الأسدي ، وكان شيخا
كبيرا وكان حليفا لعلقة بن خصفة الطائي ، فزاره فنظر إلى ابنته الزباء ، وكانت من أجمل أهل دهرها
فأعجب بها ، فقال له : أتيتك خاطبا ، وقد ينكح الخاطب ، ويدرك الطالب ، ويمنح الراغب ، فقال له
علقة : أنت كفء كريم يقبل منك الصفو ، ويؤخذ منك العفو ، فأقم نظري في أمرك ؛ ثم انكفأ إلى أمها
فقال إن الحارث بن سليل سيد قومه حسبا ومنصبا وبيتا ، وقد خطب إلينا الزباء ، فلا ينصرفن إلا بحاجته
فقالت امرأته لابنتها : أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاج (أى السيد) ، الواصل المناخ ، أم الفقى
الوضاح ؟ قالت ، لا بل الفقى الوضاح ، قالت : إن الفقى يقبرك ، وإن الشيخ يميرك ، وليس الكهل
الفاضل ، الكثير النائل ، كالحديث السن ، الكثير المن ، قالت : يا أمته ، إن الفتاة تحب الفقى كحب
الرهاء أتيق الكلا ، قالت : أى بنية ، إن الفقى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، قالت إن الشيخ يبي
شبابي ، ويدنس ثيابي ، ويشمت بي أترابي ، فلم تزل أمها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحرث على
مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم ، فابتنى بها ثم رحل بها إلى قومه ، فبينما هو ذات يوم جالس بفناه
قومه وهى إلى جانبه إذ أقبل إليه شباب من بنى أسد يمتلجون ، (أى يتصارعون ويتقاتلون) فتنفست الصعداء
ثم أرخت عينها بالبكاء ، فقال لها : مايبيك ؟ قالت : ماى وللشيوخ ، الناهضين كالفرخ ؛ فقال لها
شكلكم أمك تجوع الحرة ولا تأكل بثديها ، الحق بأهلك فلا حاجة لى فيك .

(٢) يقال : ضرى الكلب بالصيد (كفرح) ضراوة أى تعود ، وكلب ضار ؛ وأضراره صاحبه
موده وأضراره به : أغراه ، وضراره أيضا تضرية . (٣) التهمة . (٤) أبرمه : أضجره وأمله .

ما وافق الحاجة ، الصمت يكسب المحبة ، لن يغلب الكذب شيئاً إلا غلب عليه الصدق ، القلب قد يُتَّهَم وإن صدق اللسان ، الانقباض عن الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وتقريبهم مكسبة لقرين السوء ، فكن من الناس بين القرب والبعد . فإن خير الأمور أوساطها ، فُسُؤْلَةٌ^(١) الوزراء أضر من بغض الأعداء ، خير القُرَّانِ المرأة الصالحة ، وعند الخوف حُسْنُ العمل ، من لم يكن له من نفسه زاجرٌ لم يكن له من غيره واعظ ، وتمكّن منه عدوه على أسوأ عمله ، لن يَهْلِكَ امرؤ حتى يملَّ^(٢) الناس عَتِيدَ فعله ويشتد على قومه ، وَيُجَبِّبُ بما ظهر من مروءته ، ويعتر بقومه ، والأمر يأتيه من فوقه ، ليس للمختال في حسن الثناء نصيب ، لا تَمَاءٌ مع العَدَمِ ، إنه من أتى المكروه إلى أحد بدأ بنفسه . العيُّ أن تتكلم فوق ما تسد به حاجتك ، لا ينبغي لعاقل أن يثق بإخاء من تضطره إلى إخائه حاجةً ، أقلُّ الناس راحةً الحَقُودُ ، من تَعَمَّدَ الذنب لا تجل رحمته دون عقوبته ، فإن الأدب رِفْقٌ ، والرفق يُنِّمُ .

(جهرة الأمثال ١ : ٣٢٠ ، ومجمع الأمثال ٢ : ١٤٥)

٨٤ - وصية أكرم بن صيفي لطبي

وقال أكرم بن صيفي في وصية كتب بها إلى طبي :

« أوصيكم بتقوى الله وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وإياكم وَنِكَاحَ الحَمَاقِ ، فإن نكاحها غَرَرٌ^(٣) ، وَوَلَدَها ضياع . وعليكم بالخيل فأكرموها ، فإنها حصون العرب ، ولا تضعوا رقاب الإبل في غير حقها . فإن فيها ثمن السكريمة^(٤) ، وَرَقُوءِ الدَّمِ^(٥) ، وبألبانها يُتَّخَفُ

(١) فصل فسولة فهو فصل : أي رذل لامروءة له ، والوزراء : جمع وزير وهو النصير والظهير .

(٢) في الأصل « يملك » وأرى صوابه يمل .

(٣) الغرر : الخطر : غرر بنفسه تغريرا : عرضها للهلكة والاسم الغرر . (٤) يريد مهرها .

(٥) رقاً الدم : جف وسكن ، والرقوء كصبور ما يوضع على الدم ليرقته ، والمعنى أنها تعطى في

الديات فتحقن بها الدماء .

الكبير^(١) ، وَيُعْذَى الصغِير ، ولو أن الإبل كَلَّفَت العَلَّحَن لطحنت . ولن يَهْلِكَ امرؤ عرف قدره . والعُدْم^(٢) عُدْمُ العقل ، لا عُدْمُ المال . ولرَجُلٌ خير من ألف رجل . ومن عَتَبَ على الدهر طالت مَمْتَدَّتَه . ومن رضى بالقَسَمِ^(٣) طابت معيشته . وآفة الرأى الهوى . والعادة أَمَلَكُ^(٤) . والحاجة مع المحبة خير من البُغْض مع الغنى . والدنيا دُولٌ ، فما كان لك أتاكَ على ضعفك ؛ وما كان عليك لم تدفعه بقوتك . والحسد داء ليس له دواء . والشماتة تُعَقِّبُ . ومن يرَ يوماً يرَ به . قبل الرِّمَاءُ تَمَلُّهُ الكِنَانُ^(٥) . الندامة مع السفاهة . دِعامَةُ العقلِ الحَلْمُ . خيرُ الأمور مَغْيَبَةُ الصبر . بقاء المودة عَدْلٌ^(٦) التماهد . من يَزُرُ رِجْبًا يزدد حِبًّا . التفرير مفتاح البؤس . من التواني والعجز نُتِجَتِ^(٧) الهَلَكَةُ . لكل شيء ضَرَاوَةٌ . فَضْرٌ لسانك بالخير عِي الصمت أحسن من عي المنطق . الحزم حفظ ما كُفِّتَ وترك ما كُنِيَتَ . كثير النصيح يَهْجُمُ على كثير الظنَّة . من ألحف في المسألة ثَقُلَ . من سأل فوق قدره استحق الحرمان . الرِّقُّ يُمْنٌ ، والخرقُ شُومٌ . خير السخاء ما وافق الحاجة . خير العفو ما كان بعد القدرة .

(مجمع الأمثال ٢ : ٨٧)

٨٥ — وصية أكرم بن صيفى لبيده ورهطه

وصى أكرم بن صيفى بنيه ورهطه ، فقال : « يا بني تميم لا يَفُوتَنَّكُمْ وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي ، إن بين حيزومي^(٨) وصدري لكلاماً لا أحد له مواقع إلاَّ

- (١) التحفة : البر واللطف والطفرة ، وقد أنحفته تحفة .
- (٢) العدم بالضم وبضمين وبالتحريك الفقدان وغلب على فقدان المال . (٣) القسم : القدر
- (٤) وفي رواية : « العادة أملك من الأدب » .
- (٥) الرماء مصدر رآى كالمراماة ، والكِنَانُ جمع كنانة : وهى جعية السهام ، وهو مثل معناه :
- تؤخذ للأمر أهبتة قبل وقوعه ، ومثله قولهم « قبل الرمي يراش السهم » أى يوضع له الريش .
- (٦) العدل : الاستقامة أى بقاء المودة فى استقامة التماهد والحرص على سلامة شروطه .
- (٧) ويروى نتجت الفاقة .
- (٨) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الخزام .

أسماعكم ، ولا مقارًا إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصنعية ، وقلوب واعية ، تحمدوا مقبته .
 الهوى يقضان ، والعقل راقد ، والشهوات مُطْلَقَةٌ ، والحزم معقول^(١) والنفس مهملة ،
 والروية مُقَيِّدَةٌ ، ومن جهة التواني وترك الروية يتكلف الحزم ، ولن يعدم المشاور مُرْشِدًا ،
 والمستبد برأيه موقوف على مداحض^(٢) الزلال ، ومن سمعُ سُمِعَ به ، ومصارع الرجال
 تحت بروق الطمع ، ولواعتبرت مواقع الحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام ، وعلى
 الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد^(٣) أمن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يتعب
 قلبه ، ويشغل فكره ، ويورث^(٤) غيظه ، ولا تجاوز مضرته نفسه .

يا بني نعيم : الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه
 دون ماله أستهدف للذم ، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان ، والكلمة مرهونة مالم
 تنجم من الفم ، فإذا نجمت فهي أسد مُحْرَب^(٥) ، أو نار تلهب ، ورأى الناصح اللبيب
 دليل لا يجوز ، ونفاذ الرأي في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٥ ، وشرح العيون ١٥ وجمهرة الأمثال ٢ : ٢١٢)

٨٦ - نصيحة أكتثم بن صيفي لقومه

ونصح قومه فقال : « أقبلوا الخلاف على أمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من
 الفشل ، والمرء يعجز لا محالة ، يا قوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين^(٦) ورب عجلة
 هب ريشا^(٧) ، وأتزرروا للحرب ، وأدرعوا الليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة
 لمن أختلف » .

(الأغانى ١٥ : ٧٠)

(١) محبوس . (٢) جمع مدحضة : وهى المزاة . (٣) الأرض المستوية . (٤) يوقد .

(٥) التحريب : التحريش والتحديد ، والمحرب والمتحرب الأسد . (٦) الرزين . (٧) بطلنا

٨٧ — أمثال أكرم بن صيفي (وَبَزْرُجْمَهْر) الفارسي^(١)

« العقل بالتجارب . صاحب مناسب^(٢) . الصديق مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ^(٣) . الغريب من لم يكن له حبيب . رب بعيدٍ أقربُ من قريب . القريب من قرُب نفعه . لو تكاشفتم ما تدافتم . خير أهلك من كفالك ، خير سلاحك ما وراك . خير إخوانك من لم تخبره . رب غريبٍ ناصح الجيب^(٤) ، وابنِ أبٍ متهم بالغيب ، أخوك مَنْ صَدَقَكَ ، الأخ مرآة أخيه . إذا عزَّ أخوك فهن^(٥) . مُكْرَه أخاك لا بطل^(٦) . تَبَاعَدُوا في الديار وتقاربوا في الحجة . أيُّ الرِّجال المهذب^(٧) ؟ مَنْ لك بأخيك كله . إنك إن فَرِحْتَ لآقٍ فَرِحَا .

(١) هكذا في العقد الفريد ، وليس من الميسور تمييز أمثال أحدهما من أمثال الآخر إلا في القليل ، على أنه قد ورد بينها أمثال لغير أكرم ، (ولعله تمثل بها) وأخرى له قد وردت في ثنايا كلامه الذي أو رده آنفا ، ولكنني آثرت إيراد المقال برمته كما جاء في العقد ، وبزرجمهر : مركب من بزرج معرب بزرک أي الكبير ، ومهر أي الروح وهو بزرجمهر بن البختكان وزير كسرى أنوشروان ملك الفرس ، وكان سديد الفكر ، حصيف الرأي . (٢) المناسب والنسيب : القريب ، من النسبة (بالكسر والنضم) وهي : القرابة ، وبينهما مناسبة أي مشاكلة ، هذا يناسب ذلك أي يقاربه شيئا .

(٣) في الأصل « من صدق عينيه » وهو محرف ، وأراه من صدق غيبه أو غيبته أي من صدق في مودته ، وحفظ الاخاء ، في الغيبة لافي المخضر فحسب . (٤) جيب القميص طوقه ، وهو ناصح الجيب أي القلب كناية عن أنه خالص الطوية لا غش فيه .

(٥) في الميداني : هذا المثل لحذيل بن هبيرة التغلبي ، وكان أغار على بني ضبة فغتم فأقبل بالغانم . فقال له أصحابه قسمها بيننا ، فقال إني أخاف إن تشاغلتم بالاقتراسم أن يدرككم الطلب فأبوا ، فعندها قال : « إذا عز أخوك فهن » ثم نزل فقسم بينهم الغنائم ، ومعناها ، مياسرتك صديقك ليست بضمير يركبك منه فتدخلك الحماية به ، إنما هو حسن خلق وتفضل ، فإذا عاسرك فياسره .

(٦) قاله أبو حنشل : وذلك أن رجلا من بني فزارة يقال له بهيس أخبر أن ناسا من أشجع في غار يشربون فيه — وكانوا قد قتلوا إخوته الستة — فانطلق بخال له يسمى أبا حنشل ؛ فقال له هل لك في غار فيه طباء لعلنا نصيب منها — ويروى : هل لك في غنيمة باردة — ثم انطلق به حتى أقامه على فم الغار ، ودفعه فيه فقال : ضربا أبا حنشل ، فقال بعضهم : إن أبا حنشل لبطل ، فقال أبو حنشل : مكره أخاك لا بطل ، فأرسلها مثلا . (٧) في الميداني : أول من قاله النابغة الذبياني حيث قال :

ولست بمستبِق أخا لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

أَحْسِنِ يُحْسِنُ إِلَيْكَ . أَرْحَمَ تُرْحَمَ . كَمَا تَدِينُ تُدَانَ (١) . مِنْ بَرٍّ يَوْمًا يُرُّ بِهِ ، وَالدهر
لَا يُعْتَرُّ بِهِ ، عَيْنٌ عَرَفَتْ فَذَرَفَتْ (٢) . فِي كُلِّ خَبْرَةٍ عَيْبَةٌ ، مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الْخَذِيرُ .
لَا يَمْدُو الْمَرْءَ رِزْقَهُ وَإِنْ حَرَّصَ . إِذَا نَزَلَ الْقَدْرُ عَمِيَ الْبَصَرُ ، وَإِذَا نَزَلَ الْحَيْنُ نَزَلَ بَيْنَ
الْأُذُنِ وَالْعَيْنِ (٣) . الْحَمْرُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ . الْغِنَاءُ رُقِيَّةُ الزَّوْنِ (٤) . الْقِنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْقَدُ .
خَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ . مَنْسَأَقٌ إِلَى مَا أَنْتَ لَاقٍ . خِذْ مِنَ الْعَافِيَةِ مَا أُعْطِيَتْ . مَا لِلْإِنْسَانِ
إِلَّا الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ . إِنَّمَا لَكَ مَا أَمْضَيْتَ . لَا تَتَكَلَّفْ مَا كُفِّيتَ . الْقَلَمُ أَحَدُ اللِّسَانِينَ .
قَلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينَ ، رَبَّمَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِأَثْنَيْنِ . لَنْ تَعْدَمَ الْحَسَنَاءُ ذَامًا (٥) . لَمْ يَعْذَمِ
الْغَاوِيُ لَأَثْمًا . لَا تَكُ فِي أَهْلِكَ كَالْجِنَازَةِ (٦) . لَا تَسْحَرْ مِنْ شَيْءٍ فَيَجُوزَ بِكَ . أُخْرُ
الشَّرِّ فَإِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ . صَغِيرُ الشَّرِّ يُوْشِكُ أَنْ يَكْبُرَ . يَبْصُرُ الْقَلْبُ مَا يَعْصَى عَنْهُ الْبَصَرُ .
الْحُرُّ حَرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضَّرُّ . الْعَبْدُ عَبْدٌ وَإِنْ سَاعَدَهُ جَدٌّ (٧) مِنْ عَرَفَ قَدْرَهُ اسْتَبَانَ

(١) الدين بالكسر : الجزاء دانه يدينه ديناً بالفتح ويكسر ، ومعنى المثل كما تجازى تجازى : أى كما
تعمل تجازى ، إن حسناً فحسن ، وإن سيئاً فسيئاً ، وقوله تدين : أراد تعمل فسمى الابتداء جزاء
للمطابقة والموافقة ، وعلى هذا قوله تعالى : « فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » .
ويجوز أن يجرى كلاهما على الجزاء أى كما تجازى أنت الناس غل صنيعهم كذلك تجازى على صنيعك .
(٢) فى الأصل « عين رفت » وهو تشويه ، وصوابه « عين عرفت فذرفت » .
(٣) الحين : الهلاك ، وقوله : نزل بين الأذن والعين أى بسمع ومر أى من نزل به لا يختفيا عنه .
(٤) زفى زفى زنى وزناء .

(٥) الذام : والذيم الغيب ، قال الميذاني : « وأول من تكلم بهذا المثل فيما زعم أهل الأخبار حبس
بنت مالك بن عمرو العدوانية (وحسبى : بضم الحاء ، وتشديد الباء المفتوحة) وكانت من أجمل النساء ،
فسمع بجمالها ملك غسان فخطبها إلى أبيها ، وحكمه فى مهرها ، وسأله تعجيلها ، فلما عزم الأمر ، قالت
أمها لتبايعها : إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هنة ، فإذا أردت ، إدخالها على زوجها ، فطيبها بما فى أصدافها
فلما كان الوقت أعجلهن زوجها ، فأغفلن تطيبها ، فلما أصبح قيل له : كيف وجدت أهلك : طروقتك ،
البارحة ؟ فقال ما رأيت كالكيلة قط لولا رويحة أنسكرتها ، فقالت هى من خلف الستر « لا تعدم الحسنة
ذاماً » فأرسلتها مثلاً .

(٦) الجنازة بالكسر : الميت ، ويفتح ، أو بالكسر الميت ؛ وبالفتح السرير ، أو عكسه ؛ أو
بالكسر السرير مع الميت ، والمراد هنا الميت ، وهذا المثل والمثلان قبله فى الأصل مشوهة مختلطة هكذا :
لن تعدم الحسنة ما لم يعدم الغاوى لا يمالأ بك فى أهلك كالجنازة . (٧) الجد : الحظ .

أمره . من سرّه بنوه ساءته نفسه . من تعظّم على الزمان أهانه . من تعرض للسلطان آذاه ، ومن تطامن له تخطّاه . من خطأ يخطو^(١) . كل مبذول تملول . كل ممنوع مرغوب فيه . كل عزيز تحت القدرة ذليل . لكل مقام مقال . لكل زمان رجال . لكل أجل كتاب . لكل عمل ثواب . لكل نيا مستقر . لكل سرّ مستودع . قيمة كل إنسان ما يُحسِن . اطلب لكل غلّ^(٢) مفتاحاً . أكثر في الباطل يكن حقاً . عند القنط^(٣) يأتي الفرج . عند الصباح يُحمد السرى^(٤) . الصدق مَعجّاة ، والكذب مَهوأة . الاعتراف يهدم الاقتراف . ربّ قول أنفذ من صول . رب ساعة ليس بها طاعة . رب عَجَلَة تُعقب ريثاً^(٥) . بعض الكلام أقطع من الحسام . بعض الجهل أبلغ

(١) يريد : من حاول الخطو وعالجه استطاعه ومرن عليه ، أى أن من أراد أمراً وتحيل له وأخذ في معالجته وممارسته ، تم له ما يبغي ، وهو كتولم : إنما العلم بالتعلم ، « ورفع يخطو في المثل حسن لأن الشرط ماض » . (٢) الغلّ : القفل كالمغلاق . (٣) القنط والقنوط : اليأس .

(٤) السرى : السير ليلاً ، ويروى « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ، وفي الميداني : « أن أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو بالبيامة أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائي : قد ساكتها في الجاهلية ، هي خمس للإبل الواردة (فلاة خمس بكسر الخاء : بعد وردها حتى يكون ورد النعم اليوم الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه) ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشترى مائة شارب (الشارف الناقة المستنة) فمطشها ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم سلك المفازة ، حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل ، وخشى أن يذهب مائى بطون الإبل نحر الإبل ، واستخرج ما فى بطونها من الماء ، فسقى الناس والخيل ومضى ، فلما كان فى الليلة الرابعة . قال رافع : انظروا هل ترون سدرًا عظيماً (السدر بالكسر شجر النبق) فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ، ثم هجموا على الماء فقال خالد رجوا منه « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

(٥) الريث : الإبطاء ويروى تهب ريثاً ، وفي الميداني : « أن أول من قال ذلك مالك بن عوف ابن أبي عمرو بن عوف بن محم شام غيما ، فأراد أن يرحل بامرأته وهى أخت مالك بن عوف ، فقال له مالك : أين تظنن يا أخى ؟ قال : اطلب موقع هذه السحابة . قال : لا تفعل فإنه ربما خيلت ، وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك فأبى ، ومضى فعرض له مروان القرظ بن زباج العبسى ، فأعجله عنها وانطلق بها ، وجعلها بين بناته وإخوته ولم يكشف =

من أَلْهِم . ربيع القلب ما اشتهى . الهوى شديد العمى . الهوى الإله المعبود . الرأى نائم ، والهوى يقظان . غلب عليك من دعا إليك . لا راحة لحسود ولا وفاء . لا سرور كطيب النفس . العمر أقصر من أن يحتمل الهجر . أحق الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . خير العلم ما نفع . خير القول ما أتبع . البطنة^(١) تذهب الفطنة . شر العمى عمى القلب . أوثق الثمرى كلمة التقوى^(٢) . النساء حبايل الشيطان . الشباب شعبة من الجنون . الشقى بن شقّ في بطن أمه . السعيد من وعظ بغيره . لكل امرئ في بدنه شغل . من يعرف البلاء يصبر عليه . المقادير تريك ما لا يحظر ببالك . أفضل الزاد ما تزود للمعاد . الفحل أحمى للشول^(٣) . صاحب الحظوة غداً ، من بلغ المدى . عواقب الصبر محمودة . لا تبلغ الغايات بالأمانى . الصريمة^(٤) على قدر العزيمة . الضيف يثنى أو يذم من تفكر اعتبر . كم شاهد لك لا ينطق . ليس منك من غشك . ما نظر لأمرئ مثل نفسه . ماسد فقرك إلا ملك يمينك . ما على عاقل ضيعة . الغنى في الغربة وطن . المقل في أهله غريب ، أول المعرفة الاختبار : يدك منك وإن كانت شلاءً . أنفك منك وإن كان أجدع^(٥) .

= لها سترًا فقال مالك بن عوف لسانان : ما فعلت أختي ؟ قال : نفتني عنها الرماح ؛ فقال مالك : « رب عجلة تهب ريثا . ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا » ، فأرسلها مثلاً ، يضرب للرجل يشتد حرصه على حاجة ، ويحرق فيها حتى تذهب كلها .

(١) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام . (٢) انظر خطبة عبد الله بن مسعود .

(٣) الشول : جمع شائلة وهي من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ،

وأحمى : أفل من الجماية . (٤) الصريمة : قطع الأمر (والعزيمة) .

(٥) ويروى « منك أنفك وإن كان أجدع » وفي الميداني : « أول من قال ذلك قنفذ بن جمونة المازني

للربيع بن كعب المازني . وذلك أن الربيع دفع فرسا كان قد أبر على الخيل (أى زاد) كرماً وجودة إلى أخيه كيش ليأتى به أهله ؛ وكان كيش أنوك مشهوراً بالحمق ، وكان رجل من بني مالك يقال له قراد ابن جرم قدم على أصحاب الفرس ليصيب منهم غرة فيأخذها ، وكان داهية فسكت فيهم مقيماً لا يمر فون نسبه ولا يظهره هو ، فلما نظر إلى كيش راكباً الفرس ركب ناقته ثم عارضه ، فقال يا كيش : هل لك في عانة لم أر مثلها سمناً ولا عظماً (العانة : القطيع من حمر الوحش) وعير معها من ذهب ؟ فأما الآن (بضمين جمع أتان) فتروح بها إلى أهلك فتملاً قدورهم ، وتفرح صدورهم ، وأما العير فلا افتقار بعده =

من عُرِفَ بالكذب جاز صدقه^(١) . الصحة داعية السقم . الشباب داعية الهرم .
 كثرة الصيَّاح من الفشل . إذا قَدُمَت المصيبة تُرِكَت التعزية . إذا قَدُمَ الإخاء
 سَمَّجَ الثناء . العادة أملك من الأدب . الرفق يُمنِّ وألحوقُ شؤم . المرأة رِيحانة
 وليست بقَهْرمانة^(٢) . الدال على الخير كفاعله . المحاجة قبل المناجزة . قبل الرماية تملأ
 الكناش . لكل ساقطة لا قطة . مَقْتَل الرجل بين فكَّيه . تَرَكَ الحركة غفلة . الصمت
 حُبسة . مَنْ خَيْرَ خَبَرٍ . إِنْ تَسَمَّعَ تَمَطَّرَ^(٣) . كفى بالمرء خِيَانَةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا لِلخَوَانَةِ .
 قَيَّدُوا النِّعَمَ بالشكر . من يزرع المعروف يحصد الشكر . لا تفقر بمودة الأمير إذا غشك
 الوزير . أعظم من المصيبة سوء الخلف منها . من أراد البقاء فليوطن نفسه على المصائب .
 لقاء الأحبة مسلاة لهم . قطيعة الجاهل كصلة العاقل . من رضى على نفسه كثر الساخط
 عليه . قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضاً عارفاً . أدوأ الداء الخلق الدني ، واللسان البدي .
 إذا جملك السلطان أحًا فاجعله ربًا . احذر الأمين ولا تأمن الخائن . عند الغاية يُعرف
 السبِّق . عند الرهان يُحمد المضمار . السؤال وإن قلَّ ، أكثر من النوال وإن جَلَّ . كافي
 المعروف بمثله أو انشُرِه . لا خلة^(٤) مع عيلة . لا سرودة مع ضرر ، ولا صبر مع شكوى .

= قال له كيش : وكيف لنا به ؟ قال : أنا لك به ؛ وليس يدرك إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلا بليل ،
 ولا يراه غيرى ، قال كيش : فدونكه ؛ قال نعم وأمسك أنت راحلق ، فركب قراد الفرس وقال :
 انتظرني في هذا المكان إلى هذه الساعة من غد ؛ قال : نعم ومضى قراد : فلم يزل كيش ينتظره حتى أمسى
 من غده وجاع ، فلما لم ير له أثرا انصرف إلى أهله وقال في نفسه : إن سألتني أخى عن الفرس قلت تحول
 ناقة ، فلما رآه أخوه الربيع عرف أنه خدع عن الفرس ، فقال له : أين الفرس ؟ قال : تحول ناقة ؛ قال
 فما فعل المروج ؟ قال : لم أذكر السرج فاطلب له علة ، فصرعه الربيع ليقتله ؛ فقال له قنفذ بن جعونة :
 ليه عما فاتك ، فإن أنفك منك وإن كان أجدع ؛ فذهبت مثلا .

- (١) في مجمع الأمثال (٢ : ١٧٥) : « من عرف بالصدق جاز كذبه ؛ ومن عرف بالكذب لم
 يجز صدقه » . (٢) القهرمان : هو كالحازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ؛ والقائم بأمر الرجل
 بلغة الفرس . (٣) أى إن تفتح أذنك للأقاويل تمطر وابلا منها .
 (٤) الخلة : الصداقة المختصة لا خلل فيها . والعيلة الفقير .

ليس من العدل ، سرعة العَدْلِ^(١) . عبدٌ غيرك حرٌّ مثلك . لا يَقدَمُ الخِيَارَ ، من استشار .
الوضيع من وضع نفسه . المَهِين من نَزَلَ وحده من أكثر أجهز^(٢) . كفى بالمرء كذباً
أن يحدث بكل ما سمع .
(العقد الفريد ١ : ٢٧٢)

* * *

ومن أمثال أكرم بن صيفي أيضاً :

« في الجريرة تشترك العشيرة^(٣) . إذا قرع الفؤاد ذهب الرقاد . هل يهلكني
فقد ما لا يعود ؟ أعوذ بالله أن يرميني امرؤ بدائه . ربّ كلام ، ليس فيه اكتتام .
حافظ على الصديق ، ولو في الحريق . ليس يبسير ، تقويم العسير . إذا أردت النصيحة ،
فتأهب للظنة . متى تعالج مال غيرك تسأم . غمك خير من سمين غيرك . لا تنطح جماء^(٤)
ذات قرن . قد يُبلِّغ الخضم بالخضم^(٥) . قد صدع الفراق ، بين الرفاق . استبانوا^(٦)
أخاكم ، فإن مع اليوم غداً . الحُرُّ عزوف^(٧) . لا تطمع في كل ما سمع .

(جمهرة الأمثال ٢ : ١٠٣)

٨٨ — نصيحة الجمانة بنت قيس بن زهير لجرها الربيع بن زياد

كان قيس بن زهير العبسي قد اشترى من مكة درعاً حسنةً ، تسمى ذات الفضول ،
وورد بها إلى قومه ، فرآها عمه الربيع بن زياد ، وكان سيد بني عبس ، فأخذها منه

(١) اللوم . (٢) الإهجار : الإفحاش وهو أن يأتي في كلامه بالفحش .

(٣) مثل يضرب في الحث على المواصلة .

(٤) الجماء : الشاة بلاقرن مؤنث الأجم . (٥) الخضم ؛ الأكل بأطراف الأسنان ، والخضم

الأكل بأقصى الأضراس ، ومعنى المثل : قد تدرك الغاية البعيدة بالرفق . (٦) انتظروا .

(٧) من عزفت نفسه عنه : إذا زهدت فيه وانصرفت عنه أي أنف راغب عن الدنيا .

غَضِبَا ، فقالت الجُجَانَةُ بنت قيس لأبيها : دعني أناظِرْ جَدِّي ، فَإِنْ صَلَحَ الْأَمْرُ بَيْنَكُمَا ،
وإِلَّا كُنْتُ مِنْ وِرَاءِ رَأْيِكَ ، فَأَذِنْ لَهَا ، فَأَتَتْ الرَّبِيعَ فقالت :

« إِذَا كَانَ قَيْسٌ أَبِي ، فَإِنَّكَ يَا رَبِيعُ جَدِّي ، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ حَقِّ الْأَبُوَّةِ عَلَيَّ ،
إِلَّا كَالَّذِي يَجِبُ عَلَيْكَ مِنْ حَقِّ الْبُنُوَّةِ لِي ، وَالرَّأْيُ الصَّحِيحُ تَبَعْتَهُ الْعِنَايَةُ ، وَتَجَلَّى عَنِ
مَحْضِهِ النَّصِيحَةُ ، إِنَّكَ قَدْ ظَلَمْتَ قَيْسًا بِأَخْذِ دِرْعِهِ ، وَأَجَدُّ مَكَافَاتِهِ إِيَّاكَ سُوءَ عَزْمِهِ ،
وَالْمُعَارِضُ مُنْتَصِرٌ ، وَالْبَادِي أَظْلَمُ ، وَلَيْسَ قَيْسٌ مِمَّنْ يُخَوِّفُ بِالْوَعِيدِ ، وَلَا يَرُدُّعُهُ
التَّهْدِيدُ ، فَلَا تَرَكْنِي إِلَى مَنَابِدَتِهِ ، فَالْحَزْمُ فِي مُتَارَكْتِهِ ، وَالْحَرْبُ مُتَلَفَّةٌ لِلْعِبَادِ ، ذَهَابَةٌ
بِالطَّارِفِ وَالتَّالِدِ ، وَالسَّلْمُ أَرْخَى لِلْبَالِ ، وَأَبْقَى لِأَنْفُسِ الرِّجَالِ ، وَبِحَقِّ أَقُولُ : لَقَدْ
صَدَعْتُ بِحُكْمِي ، وَمَا يَدْفَعُ قَوْلِي إِلَّا غَيْرُ ذِي فَهْمٍ » ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تقول :

أَبِي لَا يَرَى أَنْ يَتْرَكَ الدَّهْرَ دِرْعَهُ وَجَدِّي يَرَى أَنْ يَأْخُذَ الدَّرْعَ مِنْ أَبِي
فَرَأَى أَبِي رَأْيُ الْبَخِيلِ بِمَالِهِ وَشِيمَةُ جَدِّي شِيمَةُ الْخَائِفِ الْأَبِيِّ

(بلاغات النساء ص ١٢٥)

٨٩ - وصف عصام الكندية أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني

لَمَّا بَلَغَ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو مَلَكَ كِنْدَةَ جَمَالٌ أُمَّ إِيَّاسِ بِنْتِ عَوْفِ بْنِ مُحَمَّدِ الشَّيْبَانِيِّ ،
وَكَأَلَهَا وَقُوَّةَ عَقْلِهَا ، أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ، فَدَعَا امْرَأَةً مِنْ كِنْدَةَ ، يَقَالُ لَهَا عِصَامٌ ، ذَاتَ عَقْلِ
وَلِسَانٍ ، وَأَدَبٍ وَبَيَانٍ ، وَقَالَ لَهَا : إِذْهَبِي حَتَّى تَعْلَمِي لِي عِلْمَ ابْنَةِ عَوْفٍ ، فَضُضْتُ حَتَّى
انْتَهَيْتُ إِلَى أُمَّهَا أُمَامَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ ، فَأَعْلَمَتَهَا مَا قَدِمْتُ لَهُ ، فَأَرْسَلَتْ أُمَامَةَ إِلَى ابْنَتِهَا
وَقَالَتْ : أَيُّ بُنْيَتِي ، هَذِهِ خَالَتُكَ أَنْتِ إِلَيْكَ لِتَنْظُرِي إِلَى بَعْضِ شَأْنِكَ ، فَلَا تَسْتُرِي عَنْهَا
شَيْئًا أَرَادَتْ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، مِنْ وَجْهِ وَخَلْقٍ ، وَنَاطِقِيهَا فِيمَا اسْتَنْطَقْتِكِ فِيهِ ، فَدَخَلَتْ
عِصَامَ عَلَيْهَا ، فَظَنَرَتْ إِلَى مَا لَمْ تَرَ عَيْنَهَا مِثْلَهُ قَطُّ بِهَجَّةٍ وَحَسَنًا وَجَمَالًا ، فِإِذَا هِيَ أَكُلُّ النَّاسِ
عَقْلًا ، وَأَفْصَحُهُمْ لِسَانًا ، فَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهَا وَهِيَ تقول : (تَرَكَ الْخِلْدَاعَ مَنْ كَشَفَ

القِنَاعَ) فذهبت مثلاً ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها : (ما وراءك يا عِصَامُ) ؟ فأرسلها مثلاً ، قالت : (صَرَاحَ الْمَخْضُ عَنْ الزُّبْدِ ^(١)) ، فذهبت مثلاً . قال أخبريني ، قالت : أخبرك صدقاً وحقاً :

« رأيت جَبْهَةً كالمِرَاةِ الصَّقِيلَةِ ، يَزِينُهَا شَعْرٌ حَالِكٌ ، كَأَذْنَابِ الخَيْلِ المَضْفُورَةِ ^(٢) ، إِنْ أُرْسِلَتْ خِلْتَهُ السَّلَاسِلَ ، وَإِنْ مَشَطْتَهُ قَلْتَ عَنَا قَيْدُ كَرِيمٍ جَلَاهَا أَوَابِلُ ^(٣) ، وَحَاجِبِينَ كَأَنَّهُمَا خَطَا بِقَلَمٍ ، أَوْ سَوَدَا بِمِحْمَمٍ ^(٤) قَدْ تَقَوَّسَا عَلَى عَيْنِي الظَّبْيَةِ العَبْهَرَةِ ^(٥) التي لَمْ يَرُعْهَا قَانِصٌ ، وَلَمْ يَذْعِرْهَا قَسُورَةٌ ^(٦) ، بَيْنَهُمَا أَنْفٌ كَحَدِّ السَّيْفِ المَصْقُولِ ^(٧) ، لَمْ يَخْنَسْ بِهَا ^(٨) قِصْرٌ ، وَلَمْ يَمِضْ ^(٩) بِهَا طَوْلٌ ، حَفَّتْ بِهَا وَجْهَتَانِ كَالأَرْجُوانِ ^(١٠) ، فِي بِيَاضٍ مَخْضٍ كَالْجَمَانِ ^(١١) ، شُقَّ فِيهِ فَمٌ كَالخَاتَمِ ، لِذَيْدِ المُبْتَسَمِ ، فِيهِ ثِنَايَا غُرَّتْ ، ذَوَاتُ أَشْرٍ ^(١٢) ، وَأَسْنَانٌ تَبْدُو كَالدُّرِّ ، وَرَيْقٌ كَالخَمْرِ لَهُ نَشْرُ الرِّوْضِ بِالسَّحْرِ ، يَتَقَلَّبُ فِيهِ لِسَانٌ ذُو فَصَاحَةٍ وَبِيَانٍ ، يَجْرُّ كَهَ عَقْلٌ وَافِرٌ ، وَجَوَابٌ حَاضِرٌ ، تَلْتَقِي دُونَهُ شَفَتَانِ حَمْرَاوَانٍ كَالوَرْدِ ، يَجْلِبَانِ رَيْقًا كَالشَّهْدِ ، تَحْتِ ذَلِكَ عَنقٌ كإِبْرِيْقِ الفِضَّةِ ، رُكْبٌ فِي صَدْرٍ كَصَدْرِ تَمَثَالِ دُمِيَّةٍ ^(١٣) ، يَتَصَلُّ بِهَا عَضْدَانِ مَمْتَلِئَانِ لِحْمًا ، مُكْتَنِرَانِ ^(١٤) شَحْمًا ، وَذِرَاعَانِ لَيْسَ فِيهِمَا عَظْمٌ يُحْسُّ ، وَلَا عِرْقٌ يُحْسُّ ، رُكْبَتٌ فِيهِمَا كَفَنَانٌ ، دَقِيقٌ

- (١) مخض اللبن : أخذ زبده ، والتصريح : تبين الأمر ، وهو مثل يضرب للأمر إذا انكشف وتبين . (٢) في الأصل « المتصورة » وهو تحريف وصوابه « المصفورة » .
 (٣) المطر الشديد الضخم القطر . (٤) الحمم : الفحم .
 (٥) العبرة والعبهر : الرقيقة البثرة الناصعة البياض ، والسمينة الممتلئة الجسم .
 (٦) القسورة : الرماة من الصيادين ، الواحد قسور .
 (٧) في مجمع الأمثال « الصنيع » وهو السيف الصقيل المجرب . (٨) خنس عنه كضرب وكرم تأخر « والخنس : محركة تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرتبة ، خنس كفرح فهو أخنس وهي خنساء » . (٩) وفي جمهرة الأمثال « ولم يمض » . (١٠) الأرجوان : صبغ أحمر .
 (١١) الجمان : اللؤلؤ ، أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة . (١٢) أشمر الأسنان : التحزيز الذي فيها . (١٣) الدمية : الصورة المنقشة من الرخام أو عام . (١٤) اكتنز : اجتمع وامتلاء .

قَصَبُهُمَا ، لَيْنٌ عَصَبُهُمَا ، يُعْقَدُ إِنْ شئتَ مِنْهُمَا الْأَنَامِلُ ، وَتُرَكَّبُ الْفُصُوصُ فِي حُنْمِ
 الْمَفَاصِلِ ، وَقَدْ تَرَبَّعَ فِي صَدْرِهَا حُقَّانٌ ، كَانَهُمَا رُمَاتَانِ ، يَخْرِقَانِ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا ، تَحْتَ
 ذَلِكَ بَطْنٌ طَوِيٌّ كَطَيِّ الْقُبَابِيِّ^(١) الْمُدْمَجَّةِ ، كَسِيَّ عَكْنًا^(٢) كَالْقَرَاطِيسِ الْمُدْرَجَةِ^(٣) ،
 تَحِيطُ تِلْكَ الْعَكْنَ بِسُرَّةِ كَمُدْهِنٍ^(٤) الْعَاجِ الْمَجْلُوِّ ، خَلْفَ ذَلِكَ ظَهْرٌ كَالْجَدْوَلِ ،
 يَنْتَهِي إِلَى خَصْرِ ، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ لَأَنْبَتَرَ ، تَحْتَهُ كَفَلٌ^(٥) يُقْعِدُهَا إِذَا نَهَضَتْ ،
 وَيُنْهَضُهَا إِذَا قَعَدَتْ ، كَأَنَّهُ دِعْصٌ^(٦) رَمَلٍ ، لَبَدَهُ سَقُوطُ الطَّلِّ ، يَحْمَلُهُ فِخْدَانٌ لَفَّاءُونَ^(٧) ،
 كَانَهُمَا نَضِيدِ الْجُمَانِ ، تَحْتَهُمَا سَاقَانِ ، خَدَلَتَانِ^(٨) كَالْبَرْدِيِّ ، وَشَيْتًا بِشَعْرٍ أَسْوَدَ ،
 كَأَنَّهُ حَلِيقُ الزَّرْدِ ، يَحْمَلُ ذَلِكَ قَدَمَانِ ، كَحَذْوِ اللِّسَانِ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ مَعَ صَفْرُهَا
 كَيْفَ تَطْلِقَانِ حَمْلَ مَا فَوْقَهُمَا ، فَأَمَّا مَا سَوَى ذَلِكَ فَتَرَكْتَ أَنْ أَصْفَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ
 مَا وَصَفُهُ وَأَصْفَ بِنِظْمٍ أَوْ نَثْرٍ ، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى أَبِيهَا فَخَطَبَهَا ، فَزَوَّجَهُ بِهَا^(٩) .

(العقد الفريد ٣ : ٢٣٥ ، ومجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، وجمهرة الأمثال ٢ : ٢٧)

- (١) القباطي (بضم الأول مع تشديد الآخر) وقباطي (بفتح الأول مع تخفيف الآخر) جمع قبطية (بالضم على غير قياس وقد تكسر) : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر .
 (٢) العكن : جمع عكنة (كفرصة) وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (٣) المطوية .
 (٤) المدهن : قارورة الدهن . (٥) عجز .
 (٦) الدعص : الكثيب من الرمل المجتمع . (٧) اللفاء : الفخذ الضخمة (والضخمة الفخذين) .
 (٨) ساق خدلة : ممتك ضخمة (والخدلة المرأة الغليظة الساق المستديرتها وفي العقد : « خد لجتان »)
 (بفتح الحاء والذال وتشديد اللام) والخدلجة : المرأة الممتكة الذراعين والساقين .

(٩) في مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال ، أن الذي تزوج أم إياس هو الحارث بن عمرو ، والحارث هذا هو جد امرئ القيس ، وذكر صاحب العقد أن الذي تزوجها هو عمرو بن حجر ، وأنها ولدت له الحارث ابن عمرو جد امرئ القيس غير أننا نلاحظ أنه قال في مقدمة هذا الوصف : « ثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها ما وراءك يا عصام ؟ . . . الخ » .

٩٠ - وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس

فله أحمّلت إلى زوجها قالت لها أمها أمامة بنت الحارث :

« أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبيها ، وشدة حاجتهما إليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أى بنية : إنك فارقت الجوّ الذى منه خرجت ، وخلقّت العُشّ الذى فيه درجت ، إلى وكرٍ لم تعرفه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه^(١) عليك رقيباً ومليكاً ، فكونى له أمةً يكن لك عبداً وشيكاً^(٢) . يا بنية : احملى عنى عشر خصال تسكن لك ذُخراً ، وذكراً ، الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والنفق لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشمّ منك إلا أطيّب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيّب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوّ عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع مَلْهَبَةٌ ، وتنعيس النوم مَغْضَبَةٌ ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفضى له سرّاً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سرّه ، لم تأمّنى غدّره ، وإن عصّيت أمره ، أو غرت صدره ، ثم انتقي من

(١) أملكه إياها : زوجه فلعلها ملكها ، مثلث الميم .

(٢) الوشيك ، السريع : أى يكن عبداً سريع الإجابة .

ذلك الفَرَحَ إن كان تَرِحًا ، والا كَتَابَ عِنْدِهِ إن كان فَرِحًا ، فإن اَلْخِصْلَةَ اَلأُولَى من
التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعطائًا ، يكن أشدَّ
ما يكون لك إكرامًا ، وأشدَّ ما تكونين له موافقةً ، يكن أطولَ ما تكونين له
مُرَانَةً ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين ، حتى تُؤثِّرِى رضاه على رضاك ، وهواه
على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله ينجير لك .

(مجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، والمقد الفريد ٣ : ٢٢٣)

الخطبة والوصايا

في

عصر صدر الإسلام

خطب النبي صلى الله عليه وسلم

١ - أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه

حمد الله واثني عليه ثم قال :

« إِنَّ الرَّائِدَ ^(١) لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَاللَّهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ ،
وَلَوْ غَرَزْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَزْتُكُمْ ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
خَاصَّةٌ ، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةٌ ، وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَمَامُونَ ، وَلَتُبْعَمُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ ،
وَلَتُحَاسِنَنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَتُجْزَوُنَّ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا ، وَبِالسُّوءِ سُوءًا ، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا ،
أَوْ لِنَارٍ أَبَدًا » .

(السيرة الحلبية ١ : ٢٧٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٧)

(١) المرسل في طلب الكلاء .

٢ - أول خطبة خطبها بالمدينة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم ، تَعْلَمَنَّ وَاللَّهِ لَيُضَمَّعَنَّ أَحَدُكُمْ ، ثم ليدع عن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدّمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدّامه فلا يرى غير جهنّم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ، ولو بشقّ من تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْفٍ ^(١) ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته . »

(سيرة ابن هشام ١ : ٣٠٠)

٣ - خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة

« الحمد لله أحمدُهُ وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفرُهُ وأعادي من يكفرُهُ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترّة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، وذنوب من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشّد ^(٢) ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضلّ ضلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحةً ، ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وإن

(١) ضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثله ، أو الضعف المثل إلى ما زاد ، ويقال لك ضعفه يريدون مثليه

(٢) كنصر وفرح .

وثلاثة أمثاله لأنه زيادة غير محصورة .

تقوى الله لمن عمل به على وَجَلٍ ومخافة من ربه، عَوْنُ صِدْقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السرِّ والعلانية لا ينوى بذلك إلا وَجْهَ الله، يكن له ذكراً فى عاجل أمره، وَذُخْرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذى صدق قَوْلُهُ، وَأَنْجِزْ وَعْدَهُ لَا خُلْفَ لَذَلِكَ، فإنه يقول عز وجل: « مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ، وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ » فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله، فى السر والعلانية، فإنه من يَتَّقِ الله يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ، وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله يوتى مقته، ويوتى عقوبته، ويوتى سُخْطَهُ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضى الربَّ، ويرفع الدرجة، خذوا بِحِطَّتِكُمْ وَلَا تَقْرُطُوا فى جَنَبِ الله، قد علمكم الله كتابه، وَهَبَّحَ لَكُمْ سَبِيلَهُ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فَأَحْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُمْ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ، وَجَاهِدُوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَأَكْبَرُوا ذَكَرَ اللهُ، وَأَعْمَلُوا مَا بَعْدَ الْيَوْمِ، فإنه من يُصْلِحْ مَا بَيْنَهُ وبين الله يَكْفِهِ اللهُ ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس، ولا يقضون عليه، يملك من الناس ولا يملكون منه، انه أكبر ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ .

(تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٥)

٤ — خطبة له يوم أحد

قام عليه الصلاة والسلام فخطب الناس فقال :

« أيها الناس أوصيكم بما أوصانى الله فى كتابه، من العمل بطاعته، والتناهى عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين، والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا

من عزم له على رشده ، إن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذي أمركم به ، فإنى حريص على رشدكم .. إن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو مما لا يحببه الله ، ولا يعطى عليه النصر .

أيها الناس إنه قُذِفَ في قلبي أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر له ذنبه ، ومن صلى على محمد وملائكته عشرا ، ومن أحسنَ وقع أجره على الله في عاجل دنياه ، أو في آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نَفَثَ الرُّوحَ الأمينَ في رُوعِي أنه إن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجلوا في طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يُقدَّر على ما عنده إلا بطاعته ، قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شُبُهًا من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عَصِمَ ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أو شك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده ، والسلام عليكم .

(شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٣٦٥)

٥ - خطبته بالخيف

وخطب بالتخيف من منى فقال :

« نَصَّرَ^(١) الله عبداً سمع مقاتلي فوعاها ، ثم أذاها إلى من لم يسمعها ، فرب حامل
فقهه لافقه له ، ورب حامل فته إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل^(٢) عليهن قلبُ المؤمن :
إخلاصُ العملِ لله ، والنصيحةُ لِأولى الأمر ، ولزومُ الجماعة ، إنَّ دعوتهم تكون من
ورائه ، ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي
راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرَّق الله أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأتته من الدنيا
إلا ما كُتِبَ له » . (إعجاز القرآن ص ١١٢)

٦ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

ومن خطبه أيضاً أنه خطب بعد العصر فقال :

« ألا إنَّ الدنيا خَصِيرةٌ حُلُوَّةٌ ، ألا وإنَّ الله مستخلفكم فيها فناظرُ كيف تعملون
فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمتنعنَّ رجلاً مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه .
ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السَّعَف فقال : إنه لم يبق
من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى » . (إعجاز القرآن ص ١١٣)

(١) من النصرة والنصارة : وهي الحسن .

(٢) غل صدره يغل كضرب غلا : وهو الحقد والضغن .

٧ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

« إن الحمد لله أحده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زبته الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أصدق الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكروه ، ولا تقسو عليه قلوبكم ، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، اتقوا الله حق تقاته ^(١) ، وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله . » (إعجاز القرآن ص ١١٠)

٨ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس إن لكم معالم ^(٢) فانتهاوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين ، أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باقي لا يدري ما الله فاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبية قبل الكبر ، ومن الحياة قبل المات ، فوالذي نفس محمد بيده : ما بعد الموت من مستمتع ^(٣) ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار .

(تهذيب الكامل ١ : ٥ ، إعجاز القرآن ١١٠ ، البيان والتبيين ١ : ١٦٥ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٣ ،

وغرر الخصائص الواضحة ١٥٠) .

(١) التقاة : التقوى .

(٢) جمع معالم كذهب ؛ وهو الأثر يستدل به على الطريق ؛ والمراد حدود الشريعة المطهرة .

(٣) استمتعته : أعطاه العتبي (وهي الرضا والصفح) وطلب إليه العتبي .

٩ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتِبَ ، وَكَانَ الْحَقُّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا قَدْ وَجَبَ ، وَكَأَنَّ الَّذِي نُشَيِّعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ ، عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نَبُوهُمْ أَجْدَانَهُمْ ، وَنَأْكُلُ مِنْ تُرَاهِمِمْ ، كَأَنَّآ مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ، وَنَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ ^(١) ، طُوبَى ^(٢) لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْنُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ مَالًا ا كَتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَجَالَسَ أَهْلَ الْفَقْرِ وَالْحِكْمَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الذَّلِّ وَالْمَسْكِنَةِ ، طُوبَى لِمَنْ زَكَتْ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَطَابَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَعَزَلَّ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسَّعَتُهُ السَّنَةَ ، وَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعَةُ » .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٣)

١٠ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تَوَبُّوا إِلَى رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَبْلَ أَنْ تُشْفَلُوا ، وَصَلُّوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةٍ ذَكَرَكُمْ لَهُ ، وَكَثْرَةَ الصَّدَقَةِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، تُرْزُقُوا وَتُؤَجَّرُوا وَتُنْصَرُوا . وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ الْجُمُعَةَ ، فِي مَقَامِي هَذَا ، فِي عَامِي هَذَا ، فِي شَهْرِي هَذَا ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، حَيَاتِي وَمِنْ بَعْدِ مَوْتِي ، فَمَنْ تَرَكَهَا وَلَهُ إِمَامٌ ، فَلَا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ ، وَلَا بَارَكَ لَهُ فِي أَمْرِهِ ، أَلَا وَلَا حَجَّ لَهُ ، أَلَا وَلَا صَوْمَ لَهُ ، أَلَا وَلَا صَدَقَةَ لَهُ ، أَلَا وَلَا بِرَّ لَهُ ، أَلَا وَلَا يَوْمٌ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا ، أَلَا وَلَا يَوْمٌ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا ، إِلَّا أَنْ يَقَهَرَهُ سُلْطَانٌ يَخَافُ سَيْفَهُ أَوْ سَوْطَهُ » .

(إعجاز القرآن ص ١١٠)

(١) الجوح : الإهلاك والاستئصال كلاجتياح . (٢) وثبت أطيب ؛ والحسنى ، والخير ، وشجرة

في الجنة أو الجنة .

١١ - خطبته يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلَا كَلُّهُ مَأْتِرَةٌ ^(١) أَوْ دَمٌ أَوْ مَالٌ يُدْعَى ، فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، إِلَّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ ^(٢) ، وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ ، أَلَا وَقَتْلُ الْخَطَا مِثْلُ الْعَمْدِ بِالسُّوْطِ وَالْعَصَا ، فِيهِمَا الْدِيَةُ مُغْلَظَةٌ ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ خَلِيفَةً ^(٣) فِي بَطُونِهَا أَوْلَادُهَا ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَظَّمَهَا ^(٤) بِالْآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ خَلِقَ مِنْ تَرَابٍ ، ثُمَّ تَلَا : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الْآيَةَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ يَا هَلْ مَكَّةَ) مَا تَرُونَ أَنَّى فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا ، أَخُ كَرِيمٍ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ : اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ . »

(تاريخ الطبري ٣ : ١٢٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٢١ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٣) .

١٢ - خطبته في الاستسقاء

روى أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله في عام جَدْبٍ ، فَقَالَ : أَتَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا صَبِيٌّ بَرْتَضِعُ ، وَلَا شَارِفٌ ^(٥) تَجْتَرُّ ثُمَّ أَنْشَدَهُ :
أَتَيْنَاكَ وَالْعَذْرَاءُ بِذِمِّي لِبَأْسِهَا ^(٦) وَقَدْ شُعِلَّتْ أُمَّ الرُّضِيعِ عَنِ الطِّفْلِ
وَأَلْقَى بِكَفِّهِ الْفَتَى لِاسْتِكَانَةِ مِنَ الْجُوعِ حَتَّى مَا يُمِزُّ وَلَا يُجْلِي ^(٧)

(١) المأثرة : المسكرمة . (٢) خدمة الكعبة . (٣) الخلافة : الحمل من النياق .

(٤) تعظم : تكبر . (٥) الشارف من النوق : المسنة الهرمة كالشارفة . (٦) أى يدمى

صدرها لامتهاها نفسها فالخدمة حيث لا يجد ما تمطيه من يخدمها من الجذب وشدة الزمان . (٧) أى ما يضر وما ينفع ، أو ما يأتى بكلمة ولا فعله مرة ولا حلوة .

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامي والعلهز الفسل^(١)
وليس لنا إلا إليك فرارنا وابن فرار الناس إلا إلى الرثسل؟
فقام النبي صلى الله عليه وسلم يجرُّ رداءه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:
« اللهم أسقنا غيثًا مغيثًا ، مريبًا هنيئًا مريبًا^(٢) ، سحًا سجالًا^(٣) ، غدقًا^(٤)
طباقًا^(٥) ، ديمًا دررًا^(٦) ، تحيي به الأرض ، وتنبئ به الزرع ، وتدبر به الضرع ،
واجمله سقيًا نافعًا ، عاجلا غير راث^(٧) .

فوالله ما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يده إلى نحره ، حتى ألقى السماء
أرواقها^(٨) ، وجاء الناس يضحون : الفرق الفرق يا رسول الله ، فقال : اللهم حوالينا
ولا علينا ! وأنجاب^(٩) السحاب عن المدينة ، حتى استدار حولها كالإكليل ، فضحك
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه^(١٠) . (شرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ٢١٦)

١٣ - خطبته في حجة الوداع

« الحمد لله محمده واستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونموذ بالله من شرور أنفسنا ،
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم

(١) العامي : الذي أتى عليه عام ، قال الشاعر : « من أن شجاك طلال عامي » والعلهز : طعام
من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة ، والفسل : الرىء الرذل من كل شيء .
(٢) المربع الحصب ، أي تخصب به الأرض التي ينزل عليها . (٣) أي متداولاً بين البلاد ، يقال
كل منها نصيبه منه ، والسجل بالفتح : النصيب والدلو المماومة العظيمة ، ويقال الحرب سجال : أي نصرتها
بين القوم متداولة سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء . (٤) الغدق : الماء الكثير .
(٥) أي مائتا للأرض مغطياً لها ، يقال غيث طبق : أي عام واسع يطبق الأرض .
(٦) هو جمع درة بالكسر ، يقال للسحاب درة : أي صب وانفلاق ، وقيل الدرر : الدار ، كقوله تعالى :
« دِينًا قِيَامًا » أي قائماً .

(٧) أي غير بطيء . (٨) ألقى السحابة أرواقها : أي مطرها ووبلها .

(٩) انكشف . (١٠) النواحد : أقصى الأضراس .

عباد الله بتقوى الله ، وأحشكم على طاعته ، وأستفتح^(١) بالذى هو خير ، أما بعد : أيها الناس اسمعوا منى أبيض لسكم ، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدا به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب^(٢) ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود^(٣) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وقية مائة بعير ، فمن زاد ، فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه^(٤) قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، أيها الناس : إنما النسي^(٥) زيادة

(١) الاستفتاح : الافتتاح والاستنصار . (٢) وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته بنو هذيل .

(٣) القود : القصاص ، أى من قتل عمدا يقتل . (٤) فى رواية الكامل لابن الأثير : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه يطاع فيما سوى ذلك ؛ وقد رضى بما تحقرون من أعمالكم » . (٥) أى تأخير حرمة شهر إلى آخر ، وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه ، وحرّموا مكانه شهرا آخر فيحلون الحرم ، ويحرمون صفرا ، فإن احتاجوا أحلوه وحرّموا زبيعا الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على الشهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ، وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني ، كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى : إن آلتكم قد أحلت لكم الحرم فأحلوه ، ثم ينادى فى القبائل : إن آلتكم قد حرمت عليكم الحرم . فحرموه — زيادة فى الكفر ، أى كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم . نيواطنوا : أى يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة ، وكانوا ربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراما أيضا ، ولذا نص على العدد المبين فى الكتاب والسنة ؛ وكان وقت حجهم يختلف من أجل ذلك ، وكان فى السنة التاسعة التى حج فيها أبو بكر بالناس فى ذى القعدة ، وفى حجة الوداع فى ذى الحجة ، وهو الذى كان على عهد إبراهيم الخليل ومن قبله من الأنبياء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام « إن الزمان قد استدار . . . الخ » - راجع تفسير الألوسى ج ٣ ص ٣٠٥

في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يَحْلُوْنَهُ عَامًا وَيَجْرُمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ،
وَإِنَ الزَّمَانُ قَدْ أُسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَإِنَ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ
اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ ، يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ،
ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ ، وَوَاحِدٌ فَرْدٌ : ذُو الْقَعْدَةِ ، وَذُو الْحِجَّةِ ، وَالْحَرَمُ ، وَرَجَبٌ ^(١) الَّذِي بَيْنَ
جُمَادَى وَشَعْبَانَ ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟ اللهُمَّ اشْهَدْ !

أيها الناس : إِن لِنَسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَلِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقٌّ ، لَكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا يُؤْتِيَنَّ
فَرَشَكُمْ غَيْرَكُمْ ، وَلَا يَدُخِلَنَّ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ بِيُوتِكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ ، وَلَا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ ، فَإِنِ فَعَلَنَّ
فَإِنَّ اللهَ قَدْ أُذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ ^(٢) وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ
مُبْرَحٍ ، فَإِنِ انْتَهَبْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَإِنَّمَا النَّسَاءُ عِنْدَكُمْ
عَوَانٌ ^(٣) لَا يَمْلِكُنَّ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ ، وَأَسْتَحْلَمَنَّ فَرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةٍ
اللهُ ، فَانْقُوا اللهُ فِي النَّسَاءِ ، وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟ اللهُمَّ اشْهَدْ !

أيها الناس : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، وَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا عَنِ طَيْبِ نَفْسٍ
مِنْهُ ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟ اللهُمَّ اشْهَدْ ! فَلَا تَرَجِعُنَّ بَعْدِي كِفَارًا يُضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ
فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اخَذْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ ، كِتَابُ اللهِ ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟
اللهُ اشْهَدْ !

أيها الناس : إِن رَبِّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِن أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، كُلُّكُمْ لَأَدَمٌ ، وَآدَمٌ مِنْ تَرَابٍ ،
أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟
اللهُ اشْهَدْ ! قَالُوا نَعَمْ . قَالَ : فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ .

(١) قَالُوا فِي ثَلَاثَةِ رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَرَجَبَانَ لِلتَّنْفِيلِ .

(٢) الْعُضْلُ : الْحَبْسُ وَالتَّضْيِيقُ . (٣) جَمْعُ عَائِيَةٍ مِنْ عُنَا ، أَيْ خَضَعُ وَذَلُّ ، وَالْعَمَانِيُّ : الْأَسِيرُ

أيها الناس : إن الله قد قَسَمَ لِكُلِّ وَاْرِثٍ نَصِيْبَهُ مِنَ الْمِيْرَاثِ ، وَلَا يَجُوزُ لِوَاْرِثٍ وَصِيَّةٌ ، وَلَا يَجُوزُ وَصِيَّةٌ فِي أَكْثَرِ مِنَ الثَّلَاثِ ، وَالْوَالِدُ لِلْفِرَاثِلِ وَاللِّعَاْهِرِ الْحَجْرُ^(١) ، مِنْ أَدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ ، أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ^(٢) ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥ ، العقد الفريد ٢ : ١٣ ، إيجاز القرآن ١١١ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤١ ، تاريخ العبري ٣ : ١٦٨ ، الكامل لابن الأثير ٢ : ١٤٦ ، سيرة ابن هشام ٢ : ٣٩٠)

١٤ - خطبته في مرض موته

عن الفضل بن عباس قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه فوجدته مَوْعُوكًا قد عَصَبَ رَأْسُهُ ، فَقَالَ : خذ بيدي يا فَضْلُ ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، ثُمَّ قَالَ نَادِ فِي النَّاسِ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ :

« أما بعد : أيها الناس فإنِّي أُحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَإِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي خَفُوقٌ^(٣) مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا ، فَهَذَا ظَهْرِي فَلَيْسَتْقَدِ^(٤) مِنْهُ وَمَنْ كُنْتُ شَعَمْتُ لَهُ عِرْضًا ، فَهَذَا عِرْضِي فَلَيْسَتْقَدِ مِنْهُ ، وَمَنْ أَخَذْتُ لَهُ مَالًا فَهَذَا مَالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ ، وَلَا يَخْشَ الشَّحْنََاءَ مِنْ قِبَلِي ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِي ، أَلَا وَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ مِنِّي حَقًّا إِنْ كَانَ لَهُ ، أَوْ حَلَّانِي فَلَقِيْتُ رَبِّي وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَرَى أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُغْنٍ عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ مَرَارًا » .

(١) وللعاهر : أي الزاني ، أي لاحق له في النسب ولا حظ له في الولد ، وإنما هو لصاحب القرائن أي لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقبوله الآخر : به التراب ، أي لاشيء له .
(٢) الصرف : التوبة . والمدل : القدية ، وقيل الصرف القيمة . والمدل المثل ، وأصله في القدية يقال : لم يقبلوا منهم صرفًا ولا عدلًا ، أي لم يأخذوا منهم دية ولم يقتلوا بقتيلهم رجلًا واحدًا ، أي طلبوا منهم أكثر من ذلك ، ثم جعل بعد في كل شيء حتى صار مثلًا فيمن لم يؤخذ منه الذي يجب عليه وانزَمَ أكثر منه .
(٣) خفق النجم يخفق خفوقًا : غاب ، والطار طار ، والليل ذهب أكثره . (٤) فليقتص (من القود) وهو القصاص ، أقاد القاتل بالقتيل تخفه به ، واستقاد الحاكم سألَه ان يقيد القاتل بالقتيل .

ثم نزل فصلي الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فماد لمقاتله الأولى ، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال : « أيها الناس ، من كان عنده شيء فليؤدّه ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » ثم صلى على أصحاب أحد وأستغفر لهم ، ثم قال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده ، فبكي أبو بكر ، وقال : فدينك بأنفسنا وآبائنا . »

(تاريخ الطبري ٢ : ١٩١ : والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٤)

١٥ - خطبة أكرم بن صيفي يدعو قومه إلى الإسلام

لما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام بمكة ، ودعا الناس إلى الإسلام بعث أكرم ابن صيفي ابنه حبيشاً ، فاتاه بخبره ، فجمع بني تميم وقام فيهم خطيباً فقال :
« يا بني تميم : لا تخضروني سفيهاً ، فإنه من يسمع يخل^(١) ، إن السفينة يوهن من قوفه ، ويتبب من دونه^(٢) . لا خير فيمن لا عقل له . كبرت سني ودخلتني ذلة ، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقيم . إن ابني شافه هذا الرجل مشافهةً ، وأتاني بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلق الأوثان ، وترك الحليف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك

(١) خال : ظن ، ومضارعه إخال بالكسر وهو الأنصح ، وبنو أسد يقولون أخال بالفتح وهو القياس ، وقوله « من يسمع يخل » مثل ، معناه من يسمع أخبار الناس ومعايهم يقع في نفسه عليهم المنكروه .
(٢) في مجمع الأمثال « ويثبت من دونه » من أثبت : أي أثنى بالجرح ، والمعنى يضمف ويوهن ، ومنه قوله تعالى : « وإذ يمكركم بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك »
ليثبتوك : أي يجرحوك جراحة لاتقوم معها أو يحبسوك ، وفي شرح العيون « ويتبب من دونه » من تبب بالتشديد : أي أهلكه ، ومنه قوله تعالى : « وما زادوهم غير تنبيبه » .

مَا يَسْئَلُ عَنْهُ ، إِنْ أَحَقَّ النَّاسُ بِمَعُونَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمُسَاعَدَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ أَنْتُمْ ، فَإِنْ يَكُنِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا ، فَهَوَ لَكُمْ ^(١) دُونَ النَّاسِ ، وَإِنْ يَكُنْ بِاطْلَاقٍ كُنْتُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْكَفِّ عَنْهُ وَبِالْإِسْتِرْعَاءِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ كَانَ أُسْتَقْفُ نَجْرَانَ يُحَدِّثُ بِصِفَتِهِ ، وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ مُجَاشِعٍ يُحَدِّثُ بِهِ قَبْلَهُ ، وَاسْمَى ابْنَهُ مُحَمَّدًا ، فَكَوْنُوا فِي أَمْرِهِ أَوْلَى ، وَلَا تَكُونُوا آخِرًا ، ائْتُوا طَائِعِينَ قَبْلَ أَنْ تَأْتُوا كَارِهِينَ ، إِنْ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَوْ لَمْ يَكُنْ دِينًا كَانَ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ حَسَنًا ، أَطِيعُونِي وَاتَّبِعُوا أَمْرِي ، أَسْأَلُ لَكُمْ أَشْيَاءَ لَا تُنَزَعُ مِنْكُمْ أَبَدًا ، وَأَصْبَحْتُمْ أَعَزَّ حَيٍّ فِي الْعَرَبِ ، وَأَكْثَرُكُمْ عَدَدًا ، وَأَوْسَمُهُمْ دَارًا ، فَإِنِّي أَرَى أَمْرًا لَا يَجْتَنِبُهُ عَزِيزٌ إِلَّا ذَلَّ ، وَلَا يَلْزَمُهُ ذَلِيلٌ إِلَّا عَزَّ ، إِنْ الْأَوَّلُ لَمْ يَدْعُ لِلْآخِرِ شَيْئًا ، وَهَذَا أَمْرٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ ، مِنْ سَبَقَ إِلَيْهِ غَمْرُ الْمَعَالِي ^(٢) ، وَاقْتَدَى بِهِ التَّالِي وَالْعَزِيمَةُ حَزْمٌ ، وَالِاخْتِلَافُ عَجْزٌ .

فَقَالَ مَالِكٌ ^(٣) : بِنِ نُوْبِرَةَ : قَدْ خَرَفَ شَيْخُكُمْ ، فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِلْبَلَاءِ ، فَقَالَ أَكْثَرُكُمْ : وَيْلَ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ ، وَالْهَلْفِيُّ عَلَى أَمْرٍ لَمْ أَشْهَدْهُ وَلَمْ يَسْعُنِي ^(٤) .
ثُمَّ رَحَلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتَى فِي الطَّرِيقِ ، وَبَعَثَ بِإِسْلَامِهِ مَعَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ كَانَ مَعَهُ ^(٥) .
(مجمع الأمثال ٢ : ٢١٨ ، شرح العيون ص ١٤) .

(١) يريد للعرب .

(٢) من غمره المساء : أى غطاه . (٣) وقد أسلم ثم ارتد بعد موت النبي صل الله عليه وسلم في بعض بني تميم ، وسار إليه خالد بن الوليد فقتله ، وقصته في التاريخ مشهورة .

(٤) وفي شرح العيون : ولم يسبقني . (٥) وذكر عن ابن عباس أن قوله تعالى :

« وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » نزل في أكثر من تبعه من أصحابه .

١٦ - وصية أبي طالب لوجوه قريش عند موته

لما حضرت أبا طالب ^(١) الوفاة ، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال :

« يا معشر قريش : أنتم صفوة الله من خلقه ، وَقَلْبُ الْعَرَبِ ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدمُ الشجاع ، الواسع الباع ، واعدلوا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلکم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم ألب ^(٢) ، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية - يعني الكعبة - فإن فيها مَرَضَةٌ للرب ، وَقَوَامًا للعماش ، وَثِبَاتًا لِلوَطْأَةِ ، صَلُوا أرحامكم فإن في صلة الرِّحِمِ مَنْسَأَةٌ ^(٣) في الأجل ، وزيادة في العدد ، اتركوا البغى والعقوق ، ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجبوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة في الخاص ، وَمَسْكُومَةٌ في العام .

وإني أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين في قريش ، وَالصِّدِّيقُ في العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاءنا بأمرٍ قبَّله الجنان ^(٤) ، وأنكره اللسان ، مخافة السنان ^(٥) ، وَأَيْمُ اللَّهِ كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى صَعَالِيكَ الْعَرَبِ وَأَهْلِ الْأَطْرَافِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ من الناس قد أجابوا دعوته ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ ، فغاض بهم غمرات الموت ، وصارت رؤسها قريش وصناديدها أذنانا ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ^(٦) ، وإذا

(١) توفي في السنة العاشرة من النبوة وهو ابن بضع وثمانين سنة ، وإسلامه مختلف فيه « اقرأ فصلا

طويلا في ذلك في شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٣١١ . »

(٢) أي ذور ألب ، والألب : التدبير على العدو من حيث لا يعلم .

(٣) أي فسحة وامتدادا : من نساء ، أي أخره . (٤) القلب . (٥) البغض والكرهية .

(٦) سادة .

أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أخطأهم عنده ، قد محضته (١) العرب ودادها
وأصفت له بلادها ، وأعطته قيادها ، يامعشر فريش : كونوا له ولاة ، ولجزبه حمة ،
والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشده ، ولا يأخذ بهديه أحد ، إلا سعيده ، ولو كان لنفسي
مدة ، وفي أجلي تأخير ، لكففت عنه الهزاهز (٢) ، ولدافعت عنه الدواهي .

(بلوغ الأرب ١ : ٢٢٧)

(١) محضه الود ، وأحضه : أخلصه .

(٢) الهزاهز والهزهزة : تحريك البلياء والحروب الناس .

خطب الوفود

١٧ - خطبة عطارد بن حاجب بن زرارة

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة عطارد بن حاجب بن زرارة ، في أشراف من بني تميم ، فلما دخل الوفد المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحُجرات : أن اخرج إلينا يا محمد ، فأذى ذلك من صياحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد ، جئناك لنفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال نعم ، قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام إليه عطارد فقال :

« الحمد لله الذى له علينا الفضلُ ، وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكًا ، ووهب لنا أموالًا عظامًا ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عددًا ، وأيسره عُدَّةً ، فمن مثلنا في الناس ، ألسنا بروس الناس وأولى فضلهم ؟ فن يفأخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإننا نعرف بذلك أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس » .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس ، قم فأجب الرجل في خطبته ، فقام ثابت فقال :

١٨ - خطبة ثابت بن قيس بن الشماس

« الحمد لله الذى : السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه عليه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا ، واصطفى

من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسبًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأفضلهم حسيبًا ، فأنزل عليه كتابه ، وأتمننه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فأمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوى رحمته ، أكرم الناس أنسابًا ، وأحسن الناس وجوهًا ، وخير الناس فمالًا ، ثم كان أول الخلق استجابة لله ، حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحنُ ، فنحن أنصار الله . ووزراء رسوله ، نقاتلُ الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منعه ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا ، وكان قتله علينا يسيرًا ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

ثم قالوا يا محمد : ائذن لشاعرنا ، فقال نعم ، فقام الزبير بن بدر ، فأشاد قصيدة في الفخر ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى حسان بن ثابت فردَّ عليه ، فقال الأقرع ابن حابس التميمي . إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحسن جوائزهم .

(تاريخ الطبري ٣ : ١٥٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٩ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٦٣)
وصبح الأعشى ١ : ٣٧٣ .

١٩ - عمرو بن الأهتم والزبير بن بدر

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبير بن بدر^(١) فقال عمرو : « مطاع في أدنبيه^(٢) ، شديد المعارضة^(٣) . مانع لما وراء ظهره » فقال الزبير بن بدر :

(١) هما سيدان من بني نعيم . (٢) أى فى الأذنين منه : أى الأقربين ، وأصله أدنين حذفت نونه لإضافته إلى الضمير . (٣) المعارضة : قوة الكلام وتفتيحه ، والرأى الجيد .

« والله يا رسول الله ، إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي » فقال عمرو :
« أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زَمِرَ المروءة^(١) ، أحق الوالد ،
لئيم الخلال ، حديث الغني » فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار
في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله رضيت ، فقلت أحسن ما علمت ،
وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « **إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا** » .

(البيان والتبيين ١ : ٣١ ، والمعقد الفريد ١ : ١١٧ ، وجمع الأمثال للميداني ١ : ٥)

٢٠ - خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قَدِمَتْ وفودُ العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبي زهير النهدي
فقال : « يا رسول الله أتيناك من غوري^(٢) تهامة بأكوار الميس ، ترمى بنا العيس^(٣)
نستحلب الصبير^(٤) ، ونستجاب الخبير^(٥) ، ونستعصد البرير^(٦) ، ونستخيل الرهأم^(٧) ،
ونستحيل الجهام^(٨) ، من أرض غائلة النطاء^(٩) ، غليظة الوطاء ، نشف المدهن^(١٠) ،

(١) قليل المروءة . (٢) الغور : كل ما انحدر مغربا عن تهامة ، والأكوار : جمع كور بالضم ،
وهو الرجل أو بأداته ، والميس : شجر عظام أي بالأكوار المصنوعة منه . (٣) العيس جمع عيساء :
الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . (٤) الصبير : السحاب الكثيف . (٥) العشب .
(٦) استعصد الثمرة : اجتناها ، والبرير : ثمر الأراك ، وكانوا يأكلونه وقت الجذب لقلّة الزاد .
(٧) الرهأم جمع رهمة بالكسر : وهي المطر الضميف الدائم . ونستخيل : نخال ونظن . وسحابة مخيلة
بضم فكسر : أي تحسبها ماطرة . (٨) الجهام : السحاب قد أراق مائه . (٩) النطاء : البعد ،
أي بعيثة بعد ما مهلكا . (١٠) مستنقع الماء : أو كل موضع حفره سيل ، ونشف الحوض الماء : شربه .

وَيَبِسَ الْجَمِينُ ^(١) ، وَسَقَطَ الْأُمْلُوجُ ^(٢) ، وَمَاتَ الْأُمْلُوجُ ^(٣) ، وَهَلَكَ الْهَلْدِيُّ ^(٤) ،
 وَمَاتَ الْوَدِيُّ ^(٥) ، بَرِئْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَتَنِ وَالْعَثَنِ ^(٦) ، وَمَا يُحْدِثُ الزَّمَنُ ،
 لِنَادِعَةِ السَّلَامِ ، وَشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ ، مَا طَمَعَى ^(٧) الْبَحْرُ ، وَقَامَ تِعَارٌ ^(٨) ، وَلَنَا نَعَمٌ ،
 كَهَمَلٍ ^(٩) ، أَغْفَالٍ ^(١٠) ، مَا تَبَيَضَ ^(١١) بِيَلَالٍ ، وَوَقِيرٌ ^(١٢) كَثِيرُ الرَّسَلِ ، قَلِيلُ الرَّسَلِ ، أَصَابَتْهَا
 سُنِّيَةٌ حَرَاهُ مُؤَزَّلَةٌ ^(١٣) ، لَيْسَ بِهَا عَلَلٌ وَلَا نَهْلٌ .

٢١ - رده صلى الله عليه وسلم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم بارك لهم في حَمْضِهَا ^(١٣) وَنَخْضِهَا وَمَذْقِهَا ، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ ^(١٤)
 بِيَانِ الثَّمَرِ ، وَافْجُرْ لَهُ التَّمَدُّ ^(١٥) ، وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَالِدِ . مِنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسَلِّمًا ،
 وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا ، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ، يَا بَنِي نَهْدٍ ،
 وَدَائِعِ ^(١٦) الشَّرْكِ ، وَوَضَائِعِ الْمُلْكِ ، لَا تَلْطِطِ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تُلْجِدِ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تَتَأَقَّلِ
 عَنِ الصَّلَاةِ »
 (المقد الفريد ١ : ١١٣)

(١) أصل النبات . (٢) ورق كورق السرو لشجر بالبادية . (٣) ملان واخضر من
 القضبان . وعسلجت الشجرة : أخرجه . (٤) ما يهدى إلى مكة لينحر . (٥) الودي الفسيل (النخل
 الصغار) . (٦) الصنم الصغير . (٧) امتلاً وعلا . (٨) جبل بيلاد قيس . (٩) مهملة .
 والأغفال جمع غفل بالضم : وهو ما لاسمه عليه من الدواب . (١٠) بض الماء يبض : سال قليلا
 قليلا ، والبلال : الببلل ، والمراد قلة اللبن . (١١) القطيع من الغنم . (١٢) الرسل : القطيع من
 كل شيء ، والرسل : اللبن ، وسنية : تصغير تعظيم لسنة ، وهي القحط والمجاعة ، وحرء : أى شديدة ،
 ومؤزلة : ذات أزل بسكون الزاي ، وهو الضيق والشدة . (١٣) اللبن الخالص ، وحمض اللبن : أخذ
 زيده : والمذيق : اللبن الممزوج بالماء ، مذقه فامتدق . (١٤) الدثر : المال الكثير . وقيل هو الكثير
 من كل شيء ، وأراد به هنا الحصب والنبات الكثير .

(١٥) الماء القليل لامادة له ، أو ما يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف . (١٦) أى الغنائم
 التي تقم من المشركين وتودع بيت مال المسلمين ، ليقوموا بها على شئونهم ، والوضائع جمع وضيمة : وهى =

٢٢ - خطبة ظبيان بن حداد

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وفد ظَبْيَانِ بْنِ حَدَّادٍ فِي سَرَاةٍ مَذْحِجٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ بَعْدَ السَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَعَ^(١) الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ ، وَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالرَّجْعِ^(٢) ، ثُمَّ قَالَ : نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ سَرَاةٍ مَذْحِجٍ مِنْ يُجَايِرِ^(٣) بْنِ مَالِكٍ ، ثُمَّ قَالَ : فَتَوَقَّلتُ^(٤) بِنَا الْقِلَاصِ مِنْ أَعَالَى الْحَوَافِ وَرِعُوسِ الْمُضَابِ ، يَرْفَعُهَا عُرْرُ^(٥) الرُّبَا ، وَيُخْفِضُهَا بُطْنَانُ الرَّقَاقِ ، وَتَلَحُّقُهَا دِيَاحِي الدُّجَى ، ثُمَّ قَالَ : وَسَرَوَاتِ الطَّائِفِ كَانَتْ لِبَنِي مَهْلَائِيلَ بْنِ قَيْنَانَ ، غَرَسُوا وَدِيَانَهُ ، وَذَلَّلُوا خِشَانَهُ^(٦) وَرَعَوْا قُرْبَانَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ نَوْحًا حِينَ خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ بِمَنْ مَعَهُ ، قَالَ فَكَانَ أَكْثَرَ بَنِيهِ بِنَاتٍ ، وَأَسْرَعَهُمْ نَبَاتًا ، عَادُ وَثُمُودُ ، فَرَمَاهُمُ اللَّهُ بِالذَّمَالِقِ^(٧) ، وَأَهْلَكَهُمْ بِالصَّوَاعِقِ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَكَانَتْ بَنُو هَانِيٍّ مِنْ ثُمُودٍ تَسْكُنُ

= مَا يَأْخُذُهُ السُّلْطَانُ مِنَ الْخِرَاجِ وَالْعَشُورِ . يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : إِنَّ مَوَارِدَ الْمَالِ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ هَذَانِ الرَّكْنَانِ الْغَنَائِمُ وَالزَّكَاةُ ، فَلَا تَعْطَلُوا الزَّكَاةَ ، وَلِذَا عَقِبَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِقَوْلِهِ : لَا تَلْطَطُ فِي الزَّكَاةِ أَيْ لَا تَمْتَعِهَا : لَطَطَتْ حَقَّهُ جَعَلْتَهُ كَأَلْطَطَتْ ، وَلَا تَلْجُدُ فِي الْحَيَاةِ : أَيْ لَا يَجْرِي مِنْكُمْ مِيلٌ عَنِ الْحَقِّ مَا دُمْتُمْ أَحْيَاءَ ، وَلَا تَتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ : أَيْ عَنِ أَدَائِهَا فِي وَقْتِهَا ، وَيُرْوَى : وَلَا يَلْطَطُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا يَلْجُدُ فِي الْحَيَاةِ (بِالْبِنَاءِ الْمَجْهُولِ) وَلَا تَتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ . (١) شَقَّ . (٢) الْمَطَرُ بَعْدَ الْمَطَرِ . (٣) هُوَ مُرَادُ بِنِ مَالِكٍ (وَهُوَ مَذْحِجٌ) ابْنُ أَدَدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ يَشْجَبِ بْنِ عَرِيبِ بْنِ زَيْدِ بْنِ كَهْلَانَ . (٤) تَوَقَّلتُ فِي الْجَبَلِ . صَعَدَ ، وَالْقِلَاصُ جَمْعُ قَلُوصٍ : وَهِيَ النَّاقَةُ الشَّابَّةُ أَوْ الْبَاقِيَةُ عَلَى السَّيْرِ ، وَالْحَوَافِ : بِلَادُ بَعْمَانَ . (٥) فِي الْأَصْلِ : « عَوَارِ » وَلَا مَعْنَى لَهُ هُنَا ، وَأَرَى أَنْ صَوَابُهُ « عَرَرٌ » جَمْعُ عَرَّةٍ كَقَبَّةٍ وَعَرَّةُ السَّنَامِ : الشَّحْمَةُ الْعَلِيَا ، أَيْ ذُرُوتُهُ وَأَعْلَاهُ : أَيْ أَنَّهَا تَسِيرُ فِي أَعَالَى الرُّبَا وَذُرَاهَا ؛ وَرَبْمَا كَانَ الْأَصْلُ « عَرَاعَرٌ » بِفَتْحِ الْعَيْنِ الْأُولَى جَمْعُ عَرَعَرَةٍ بِضَمِّهَا ، وَعَرَعَرَةُ الْجَبَلِ وَالسَّنَامُ وَكُلُّ شَيْءٍ : رَأْسُهُ ، وَبُطْنَانُ جَمْعُ بَاطِنٍ : وَهُوَ الْغَامِضُ مِنَ الْأَرْضِ : أَيْ الْمَطْمُونُ مِنْهَا ، وَالرَّقَاقُ جَمْعُ رَقٍّ بِالْفَتْحِ ، وَهِيَ كُلُّ أَرْضٍ إِلَى جَنْبِ وَادٍ يَنْبَسِطُ الْمَاءُ عَلَيْهَا أَيَّامَ الْمَدِّ ثُمَّ يَنْضَبُ وَدِيَاجِي اللَّيْلِ حَتَّى يَدَسُّهُ كَأَنَّهُ جَمْعُ دِيحَاءَ ، وَاللَّجِي جَمْعُ دَجِيَّةٍ : وَهِيَ الظِّلْمَةُ . (٦) الْحَشْنُ وَالْأَخْشَنُ : الْأَخْرَشُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ جَمَعَهُ خِشَانٌ . (٧) الْأَمْلَسُ : الْمُسْتَدِيرُ مِنَ الْحِجَارَةِ .

الطائف ، وهم الذين خَطُّوا مشاربها ، وَأَتَوْا جَدَاوِلَهَا^(١) ، وَأَحْيَوْا غِرَاسَهَا ، ورفموا عريشها ، ثم قال : وإن حمير ملكوا مَعَاقِلَ الأَرْضِ وَقَرَّارَهَا ، وَكَهُولَ النَّاسِ وَأَغْمَارَهَا^(٢) ورموس الملوك وَعَرَّارَهَا ، فَكَانَ لَهُمُ البِيضَاءُ وَالسُّودَاءُ ، وَقَارِسُ الحِمْرَاءِ ، وَالجَزِيَّةُ الصَّفْرَاءُ^(٣) ، فَبَطَرُوا النِّعَمَ ، وَاسْتَحَقُّوا النَّقْمَ ، فَضَرَبَ اللهُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ قِبَائِلٌ مِنَ الأَزْدِ نَزَلُوا عَلَى عَهْدِ عَمْرُو بْنِ عَامِرٍ ، فَفَتَحُوا فِيهَا الشَّرَائِعَ^(٤) ، وَبَنَوْا فِيهَا المِصَانِعَ^(٥) ، وَاتَّخَذُوا الدِّسَائِمَ^(٦) ، ثُمَّ تَرَامَتِ مَذْحِجٌ بِأَسَدَتِهَا ، وَتَنَزَّتْ^(٧) بِأَعْنَتِهَا ، فَغَلَبَ العَزِيزُ أَذْهَهَا ، وَقَتَلَ الكَثِيرَ أَقْلَهَا ، ثُمَّ قَالَ : وَكَانَ بَنُو عَمْرُو ابْنِ خَالِدِ بْنِ جَدِيمَةَ يَحْبِطُونَ عَصِيدَهَا^(٨) ، وَيَأْكُلُونَ حَصِيدَهَا ، وَيَرشُّحُونَ^(٩) حَصِيدَهَا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن نعيم الدنيا أفل وأصغر عند الله من خمر بعِيضَةٍ ، ولو عدلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خلاق ، ولا لمسلم منها لحاق » .
(المقد الفريد ١ : ١١٠)

٢٣ - خطبة مالك بن نمط

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وقدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم مالك بن نمط أبو ثور فقام بين يديه ثم قال :

- (١) أتى الماء تأتية سهل وأصلح مجراه ، أى سهلوا طرق المياه إليها . (٢) جمع غمر مثلث الغين : وهو الحدث لا تجر به له ، والعرار : الرفعة والسودد . (٣) أى الذهبية . (٤) جمع شريمة ، وهى مورد الشاربة كالشرعة . (٥) المباني من القصور والحصون . (٦) جمع دسيعة ، وهى الجفنة والسكرية . (٧) تنزى : توثب وتمرع . (٨) العصيد : ما قطع من الشجر ؛ أى يضربونه ليستقط ورقة فيتخذوه علفا لإبلهم . (٩) الترشيح : التريبة وحسن القيام على المال ، والحصيد : ما خصد من الشجر ونحى عنه ، وكل ما قطع من عود رطب (فيل بمعنى مفعول) أى يصلحونه ويقومون بأمره .

« يارسول الله ، نَصِيَّةٌ ^(١) من هَمْدَانَ ، من كل حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَنْوَكَ عَلَى قُلُوصٍ نَوَاجٍ ^(٢) ، متصلةٌ بِجِبَالِ الإِسْلَامِ ، لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لِأُمَّمٍ ، مِنْ مِخْلَافٍ ^(٣) خَارِفٍ ^(٤) ، وَيَامٍ ، وَشَاكِرٍ ، أَهْلُ السَّوَادِ وَالقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ الرَّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ^(٥) عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ ، مَا أَقَامَ لَعَلَّعٌ ^(٦) ، وَمَا جَرَى الْيَغْفُورُ بِصُلَعٍ ^(٧) .
(صبيح الأعشى ٢ : ٢٤٤)

٢٤ - سفانة بنت حاتم

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

حَدَّثَ الإِمَامُ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ : لَمَّا أَتَيْنَا بِسَبَايَا طَيْبٍ ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ - وَهِيَ سَفَانَةُ بِنْتُ حَاتِمٍ ^(٨) - فَلَمَّا رَأَيْتَهَا أُعْجِبْتُ بِهَا ، فَقُلْتُ لِأَطْلُبَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَجْمَلَهَا مِنْ فَيْئِي ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ أُنْسِيتُ جَاهِلَهَا ، لَمَّا سَمِعْتُ مِنْ فَصَاحَتِهَا ، فَقَالَتْ :

« يَا مُحَمَّدُ : هَلَاكَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَالِدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُخَلِّيَ عَنِّي ، فَلَا تُشْمِتْ بِي أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ، فَإِنِّي بِنْتُ سَيْدِ قَوْمِي ^(٩) . كَانَ أَبِي يَفُكُّ الْعَانِي ^(١٠) ، وَيَحْمِي الذَّمَّارَ ،

(١) النصية من القوم : الخيار ، وهمدان : من عرب اليمن . (٢) القلوص : جمع قلووص ؛ وهي من الإبل الشابة أو الباقية على السير ، والنواجي : جمع ناجية ، وهي المسرعة في السير . (٣) المخلاف الكورة . (٤) خارف : لقب مالك بن عبد الله أبي قبيلة من همدان ، ويام ، وشاكر ، قبيلتان من همدان باليمن . (٥) الأنصاب : جمع نصب بضمين ، وهو حجر نصب وعبد من دون الله ، وقيل النصب جمع واحدها نصاب ، قيل هي الأصنام وقيل غيرها . (٦) اسم جبل . (٧) اليمفور : ولد البقرة الوحشية ، والصلع : الموضع لاينبت شيئا .

(٨) السفانة في الأصل : اللؤزة . (٩) جواب الشرط محذوف وهذا تمليل له أي فافعل فإني . .

(١٠) العاني : الأسير .

وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيُشْبِعُ الْجَائِعَ ، وَيُفَرِّجُ عَنِ الْمَكْرُوبِ ، وَيَطْعَمُ الطَّامِمَ ، وَيُنْفِثِي
السَّلَامَ ، وَلَمْ يَرُدَّ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطُّ ، أَنَا بِنْتُ حَاتِمِ طَيْئٍ » .

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا جَارِيَةَ هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ ، لَوْ كَانَ أَبُوكَ
إِسْلَامِيًّا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ ، خَلَوْا عَنْهَا ، فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يَجِبُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، وَاللَّهُ يَجِبُ
مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » . (الْأَغَانِي ١٦ : ٩٣)

٢٥ - وصية دريد بن الصمة

قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ لِمَالِكِ بْنِ عَوْفِ النَّصْرِيِّ قَائِدِ هَوَازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ^(١) :

« يَا مَالِكَ ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ رَئِيسَ قَوْمِكَ ، وَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنْ أَيَّامٍ ،
مَالِي أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ ، وَنَهَيْقَ الْحَمِيرِ ، وَبِكَاءَ الصَّغِيرِ ، وَيُعَار ^(٢) الشَّاءَ . قَالَ : سَقَتْ مَعَ
النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ خَلْفَ كُلِّ رَجُلٍ أَهْلَهُ
وَمَالَهُ ، لِيُقَاتِلَ عَنْهُمْ ، فَأَنْقَضَ بِهِ ^(٣) ، ثُمَّ قَالَ رَاعِي ^(٤) ضَانَ اللَّهِ ، وَهَلْ يَرُدُّ الْمَنْهَزِمُ شَيْءًا ؟
إِنَّهَا إِنْ كَانَتْ لَكَ ، لَمْ يَنْفَعَكَ إِلَّا رَجُلٌ بِسَيْفِهِ وَرِجْمِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ ، فَضِحْتَ
فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، وَيَحْكُ ، إِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ بِتَقْدِيمِ الْبَيْضَةِ ^(٥) بِيضَةَ هَوَازِنَ إِلَى نَحْوَرِ الْخَيْلِ
شَيْئًا ، أَرْفَعَهُمْ إِلَى مَمْتَنَعِ بِلَادِهِمْ ، وَعَلِيَاءِ قَوْمِهِمْ ، ثُمَّ أَلْقَى الصَّبَا ^(٦) عَلَى مَتُونِ الْخَيْلِ ، فَإِنَّ
كَانَتْ لَكَ لِحَقِّ بَيْتِكَ مِنْ وَرَاءِكَ ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ ، كُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ أَهْلَكَ وَمَالَكَ .

(١) غزوة حنين كانت بين المسلمين وبين هوازن وثقيف سنة ثمان بعد الفتح انهزم فيها المسلمون أو لا
ثم لموا شعثم وشدوا على عدوهم فهزموهم . (٢) اليعار : صوت الفم أو المعزى أو الشديد من أصوات
الشاء . (٣) يقال أنقض أصابعه : ضرب بها لتصوت ، وأنقض بالدابة : ألصق لسانه بالحنك ثم صوت
في حافتيه . (٤) يضرب به المثل في الحق فيقال : « أحق من راعي ضأن » .
(٥) بيضة القوم : جماعتهم وأصلهم ، وفي الحديث : « ولا تسلط عليهم عدوا من عدوهم فيستبيح
بيضتهم » يريد جماعتهم وأصلهم . (٦) أي ذوى الصبا : أي الشبان .

قال لا والله ما أفعل ، إنك قد كبرت وذَهَلَّ عَقْلُكَ . قال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتني ، ثم أنشأ يقول :

يا ليتني فيها جذعٌ أحبّ فيها وأضع^(١)
أفود وطفاء الزمغ كأنها شاة صدع^(٢)

(سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، المقد الفريد ١ : ٤١)

١٦ - وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه

أوصى عمير بن حبيب بنيه فقال :

« يا بني إياكم ومخالطة السفهاء ، فإن مجالستهم داء ، وإن من يحلم عن السفية يسر بحلمه ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقرّ بقليل ما يأتي به السفية ، يقر بالكثير . وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطن قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله عزّ وجلّ ، إنه من يوقن بالثواب من الله عزّ وجلّ لا يجد مسّ الأذى » .

(الأمال ٢ : ٦٠)

٢٧ - وصية قيس بن عاصم المنقري لبنيه

أوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه فقال :

« يا بني ، خذوا عني ، فلا أحد أصلح لكم مني ، إذا ذفتموني فانصرفوا إلى رجالكم ، فسودّوا أكبركم ، فإن القوم إذا سودّوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سودّوا

(١) الحلب : ضرب من العدو ، ووضعت الناقة وأوضعت : أسرعت في سيرها .

(٢) الوطف ؛ كثرة شعر الحاجبين والعينين ، والزمع جمع زمعة ؛ وهي هنة زائدة وراء الظلف أو

الشعرات المدلاة في مؤخر رجيل الشاة ، والصدع : من الأوعال والإبل الفتى الشاب القوى .

أصغرهم ، أزرى ذلك بهم في أكفأهم ، وإياكم ومعصية الله ، وقطيعة الرحم ، وتمسكوا
بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضع ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه
فإنه منبّهة للكريم ، وجنة لعرض اللئيم ، وإياكم والمسألة ، فإنها أخير^(١) كسب
الرجل ، وإن أحدا لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنياحة ، فإنى سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ينهى عنها ، وادفونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم
بكر بن وائل بمدفنى ، فقد كانت بينى وبينهم مشاحنات فى الجاهلية والإسلام ، وأخاف
أن يدخلوا عليكم بى عاراً ، وخذوا عنى ثلاث خصال : إياكم وكلّ عرق لئيم أن تلبسوه
فإنه إن يسرركم اليوم ، يسؤكم غداً ، واكظّموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم ،
فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبديد وللآباء أبناء

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١١)

(١) آخر بقصر الهمة لاغير : أى أدنى وأرذل ، ومن رواه بالله أخطأ .

خطب يوم السقيفة

لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا :
نؤتي هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام سعدَ بنَ عبادةَ ، وأخرجوا سعداً إليهم
وهو مريض ، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه ، إني لا أقدر لشكواي أن أسمع
القوم كلهم كلامي ، ولكن تكلّم مني قولي فأسميهموه ، فكان يتكلم ويحفظ الرجل
قوله : فيرفع صوته ، فيسمع أصحابه :

٢٨ - خطبة سعد بن عبادة

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ، ليست لقبيلة من
العرب ، إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام لبثَ بضعَ عشرةَ سنةً في قومه يدعوهم إلى عبادة
الرحمن ، وخَلَعَ الأندادِ والأوثانِ ، فما آمنَ به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا
يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يُعزّوا دينه ، ولا أن يدفعوا
عن أنفسهم ضيماً عُمّوا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخصّكم
بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإغزاز له ولدينه ،
والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشدَّ الناس على عدوّه من غيركم ، حتى استقامت العرب
لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيدُ القادة صاغراً داخراً^(١) ، حتى أثنى^(٢)

(١) صاغراً ذليلاً : من دخر كنع وفرح دخورا ودخرا بالتحريك .

(٢) أثنى فلانا : أوهنه ، والمراد أخضع .

الله عزَّ وجلَّ لرسوله بكم الأرضَ ، ودانت بأسيا فكم له العَرَبُ ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قَرِيرُ عَيْنٍ ، أُسْتَبَدُّوا بهذا الأمرِ دون الناس ، فإنه لكم دون الناس .

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّتَ في الرأى ، وَأَصْدَبْتَ في القول ، ولن نَعُدَّو ما رأيتَ نوَليكَ هذا الأمرِ ، وأنى عمرَ الخبرِ ، فأقبل إلى أبي بكرٍ فقال : « أما علمتَ أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمرَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ؟ وَأَحْسَنُهُمْ مَقَالَةً من يقول : مِثْلًا أَمِيرٌ وَمِنْ قُرَيْشٍ أَمِيرٌ » ففضيا مسرعين نحوهم ، فلقيا أبا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ قِمَاشُوا إِلَيْهِمْ ثَلَاثَتَهُمْ ، فجلهوا وهم مجتمعون . فقال عمر : أتيناكم وقد كنت زَوَيْتَ^(١) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دفعت إليهم ذهبيت لأبتدىء المنطق . فقال لي أبو بكر : روَيْدًا حتى أتكلم ، ثم انطق بَعْدُ بما أحببت فنطق . فقال عمر : فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أوزاد عليه .

٢٩ - خطبة أبي بكر رضي الله عنه

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله بعث محمدًا رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمتِهِ ، ليعبدوا الله وَيُوحِّدُوهُ ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعةٌ ، ولهم نافعة ، وإنما هي من حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، وَخَشَبٍ مَنْجُورٍ^(٢) ، ثم قرأ : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَقَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) فَعَظَّمُ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ يَتْرَكُوا دِينَ آبَائِهِمْ . فَخَصَّ اللَّهُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ

(١) زواه يزويه جمعه ، والمراد أعددت . ورواية المقد الفريد (٢ : ٢٠٤) زورت كلاماً في

نفسه ، وزور الشيء حسنه وقومه ، والمراد أيضا هيأت وأعددت . (٢) النجر : نحت الخشب .

قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة أذى قومهم لهم ،
وتكذيبهم إياهم ، وكلُّ الناس مخالفٌ زارٍ^(١) عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ،
وشنف^(٢) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أولٌ من عبد الله في الأرض ، وآمن
بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم
ذلك إلا ظالمٌ ، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم
التظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته وفيكم
حجته أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء ،
وأنتم الوزراء ، لا تفتأون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

« هذه رواية الطبري لتلك الخطبة ، وأوردها غيره بنص آخر ، وها كه : »

٣٠ — نص آخر لخطبة أبي بكر يوم السقيفة

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم
داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمشهم رحماً برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى :
« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ »
فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار . إخواننا في الدين . وشركاؤنا في الفداء^(٣) ، وأنصارنا
على العدو ، آوتيم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ،

(١) زرى عليه زراية : عابه . (٢) شنف له كفرح : أبغضه وتكره فهو شنف .

(٣) الغنيمة والحراج .

لَا تَدِينُ الْعَرَبُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَا تَنْفَسُوا^(١) عَلَى إِخْوَانِكُمْ مَا مَنَحَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .

(المقد الفرید ٢ : ١٣٠ - ٢٠٤ ، عیون الأخبار ٢ : ص ٢٣٣ ، البیان والتبیین ٣ : ١٤٧ والإمامة والسیاسة ١ : ٧)

٣١ - خطبة الحباب بن المنذر

ثمَّ قام الحباب بن المنذر بن الجحوح فقال :

« يا معشر الأنصار : امْلِكُوا عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ ، فَإِنَّ النَّاسَ فِي قَيْئِكُمْ وَفِي ظَلْمِكُمْ ، وَلَنْ يَجْتَرِيَ مُجْتَرِيٌّ عَلَى خِلافِكُمْ ، وَلَنْ يَصُدَّرَ النَّاسَ إِلَّا عَنْ رَأْيِكُمْ ، أَنْتُمْ أَهْلُ الْعِزِّ وَالثَّرْوَةِ ، وَأَوْلُو الْعَدَدِ وَالْمَنْعَةِ وَالتَّجْرِبَةِ ، وَذَوُو الْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَى مَا تَصْنَعُونَ ، وَلَا تَخْتَلَفُوا فَيَفْسُدَ عَلَيْكُمْ رَأْيِكُمْ ، وَيَنْتَقِضَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ ، فَإِنَّ أَبِي هُوَ لَأَوْلَى إِلَّا مَا سَمِعْتُمْ ، فَمَا أَمِيرٌ وَمِنْهُمْ أَمِيرٌ . »

٣٢ - خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

فقال عمر : « هيهات لا يجتمع اثنان في قرن^(٢) ، والله لا ترضى العرب أن يؤمرؤكم^(٣) ونديها من غيركم ، ولا تكن العرب لا تمتنع أن تؤلى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وأولى أمورهم منهم ، ولما بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين ، من ذابنازنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بباطل ، أو متجانف^(٤) للإثم ، أو متورط في هلكة ؟ . »

(١) نفس عليه بخير (كفرح) حسده ، ونفس عليه الشيء نفاسة لم يره أهلا له .

(٢) حبل . (٣) مائل جانح .

٣٣ - خطبة أخرى للحباب بن المنذر

فقام الحباب بن المنذر ، فقال :

« يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتوه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ؛ أنا جدي لها المحكك ، وعذيقها المرجب^(١) ، أما والله لئن شتمت لنعيدنها جذعة^(٢) » .

فقال عمر : إذن يقتلك الله ، قال : بل إياك يقتل ، فقال أبو عبيدة :

يا معشر الأنصار : إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وعبر .

٣٤ - خطبة بشير بن سعد

فقام بشير بن سعد - أبو النعمان بن بشير - فقال :

« يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كُنَّا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والسكدرح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ، فإن الله وليُّ المنَّةِ علينا

(١) الجذيل : تصغير الجذل (بالكسر) ، وهو أصل الشجرة ، وعود ينصب للإبل الجري لتحكك

به وتمرس ، والمحكك الذي تتحكك به ، والعذيق تصغير العذق (بالفتح) ، وهو النخلة. والمرجب : الذي جعل له رجة ، وهي دعلة تبنى حولها من الحجارة ، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقر من الرياح العواصف ، والتصغير هنا يراد به التكبير والتعظيم ، وهو مثل ، والمراد أنه رجل يستشفي برأيه وعقله . (٢) الجذعة : الشابة الفتية ؛ يريد الحروب والغارات .

بذلك ، ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحقُّ به وأولى ، وإيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوه ولا تنازعوه . »

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا ، فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فن ذابغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ ابسط يدك نبايعك ، وقام الناس إليه فبايعوه .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٨)

خطب أبي بكر الصديق ووصاياہ

رضى الله عنه

٣٥ - خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم

دخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، على النبي عليه الصلاة والسلام وهو

مُسَجَّى^(١) بثوب ، فكشف عنه الثوب ، وقال :

« بأبي أنت وأُمِّي ! طِبَّتَ حَيًّا ، وَطِبَّتَ مَيِّتًا ! وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فَمَظُمَتَ عن الصفة ، وَجَلَّتْ عن البكاء ، وَخَصَّصْتَ حتى صرت مَسَلَاةً^(٢) ، وَعَمَمْتَ حتى صرنا فيك سَوَاءً^(٣) ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك^(٤) ، لَجُدْنَا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء ، لَأَنفَدْنَا عليك ماء الشُّنُونِ^(٥) ، فأما ما لا نستطيع نفيهُ عنا ، فكمدُّ وإدنافُ^(٦) ، يَتَخَالَفَانِ وَلَا يَبْرَحَانِ

(١) تسجية الميت : تغطيته . (٢) خص الشيء من باب قدم خصوصا فهو خاص : خلاف عم ،

مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متعديا ولازما) ، والمعنى إنك يا رسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس ؛ إنك مع ما اختصصت به من مناقب النبوة قد نزل بك الموت ، فلهباد فيك أسوة حسنة .

(٣) أى عمت مصيبتك جميع المسلمين فصرنا نحن وقرابتك سواء في الحزن عليك والتفجع لفقدك .

(٤) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخبر » قالت عائشة : فسمته

وقد شخص بصره ؛ وهو يقول : « في الرفيق الأهل » فعلمت أنه خير ، فعلمت أنه لا يختارنا إذن ، وقلت هو الذى كان يحدثنا وهو صحيح . (٥) جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين .

(٦) دنف المريض كفرح ، وأدنف : ثقل ، والشمس : دنت للغروب واصفرت .

اللهم فأبلغه عنا السلام ، اذ كرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلقت من السكينة لم نُقِمَ لِمَا خَلَقْتَ مِنَ الْوَحْشَةِ ، اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا ! ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمّراتهم ، وعظيم سكراتهم ، فخطب خطبة قال فيها :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدّث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ... في كلام طويل ، ثم قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت ، وإنّ الله قد تقدّم إليكم في أمره ، فلا تدعوه جزعاً ، وإنّ الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندهم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ^(١)) ، وَلَا يَشْغَلْكُمْ الشَّيْطَانُ بِمَوْتِ نَبِيِّكُمْ ، وَلَا يَفْتِنَنَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، فَعَاجِلُوهُ بِالَّذِي تُمَجِّزُونَهُ ، وَلَا تَسْتَنْظِرُوهُ فَيَلْحَقَ بِكُمْ . »
(زهر الآداب ١ : ٣٥)

٣٦ - خطبته بعد البيعة

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إن أقوامكم عندي الضّعيف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . »

(العقد الفريد ٢ : ١٣٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ٢٣٤ ، وتهذيب

الكامل ١ : ٦ ، وتاريخ الطبري ٣ : ٢٠٣ ، وابن أبي الحديد م ٢ : ٨ ، وم ٤ : ١٦٧ ، وسيرة

ابن هشام ٢ : ٤٣٠ . »

٣٧ — خطبة أخرى له بعد البيعة

وقال الطبرى : نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : **يُتَمَّ** بعث أسامة : ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره ، وقام فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس : إنما أنا مثلكم ، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعصمه من الآفات ، وإنا أنا متَّبِعٌ ، ولست بمتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني : وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة^(١) ضربة سوط فادونها ، ألا وإن لى شيطاناً^(٢) يعتريني ، فإذا غضبت فاجتنبوني ، لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم^(٣) ، ألا وإنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه ، فإن استطعتم ألا يمضى هذا الأجل إلا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا فى مهل آجالكم من قبل أن تسلكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، فإن قوماً نسوا آجالهم ، وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فأياكم أن تكونوا أمثالهم ، الجدد الجدد ، والوحاح^(٤) الوحاح ، والنجاء^(٥) النجاء ، فإن وراءكم طالباً حثيثاً^(٦) ، أجلاً مرّة سريع ، احذروا الموت واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولا تغبطوا^(٧) الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات »

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢١١ ، وشرح ابن الحديد م ٤ : ص ١٦٧)

(١) الظلمة . (٢) قال ابن أبى الحديد : وأراد بالشيطان الغضب ، ولم يرد أن له شيطاناً من مردة الجن يعتريه إذا غضب ، ولو كان له شيطان من الجن يعتاده وينوبه لكان فى عداد المصروعين من المجانين ؛ وما ادعى أحد على أبى بكر هذا لامن أوليائه ولا من أعدائه . (٣) أبشار جمع بشر ، وهو جمع بشرة : وهى ظاهر الجلد . (٤) العجلة والإسراع ، وحى وتوحى : أسرع ، ووحاه ، عجله . (٥) الإسراع أيضاً . (٦) سريعاً . (٧) غبطه : تمنى مثل حاله من غير أن يريد زوال نعمته عنه .

٣٨ - خطبة أخرى

قال الطبري : وقام ايضاً بحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقرم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ؟ قد تضعض بهم الدهر ، وصاروا رمياً ، قد تركت عليهم القالات^(١) الخبيثات ، وإنما الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ قد بدوا ، ونسي ذكرهم ، وصاروا كلاً شياً ، ألا وإن الله قد أبقى عليهم التيبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا بالأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً من بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وإن أغترنا كنا مثلهم ، أين الوضاه^(٢) الحسنه وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا تراباً ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم ، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجملوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً^(٣) ؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدموا ، فحلوا عليه ، وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت ،

(١) القول : في الخير ، والقال والقيل والقالة : في الشر . (٢) الوضاه جمع وضى : وهو الحسن

والنظيف ، وهو ايضاً وضاه بضم الواو وتشديد الضاد ، وجمعه وضاهون . (٣) الصوت الخفى .

ألا إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره ، واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما وإنه لا خيرَ بخيرِ بعده النارُ ، ولا شرَّ بِشرِّ بعده الجنة .

(تاريخ الطبری ٣ : ٣١١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١٦٧)

٣٩ - خطبة له

ومن خطبه : « حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، فرفع الناس رؤوسهم ، فقال : مالكم يامعشر الناس ؟ إنكم لطمعون عجولون ، إن من الملوك من إذا مَلَكَ زَهْدَهُ اللهُ فيما في يده ، ورغبه فيما في يدي غيره ، وانتقصه شطرَ أجله ، وأثرَبَ قلبه الإشفاق ، فهو يحسُدُ على القليل ، ويتسخط^(١) الكثير ، ويسأم الرخاء ، وتنقطع عنه لذة البهاء ، لا يستعمل العبرة ، ولا يسكنُ إلى النقة ، فهو كالدرهم القسي^(٢) ، والسراب الخداع ، جذل الظاهر ، حزين الباطن ، فإذا وجبت^(٣) نفسه ، ونصّب عمره ، وضحا ظله^(٤) ، حاسبه اللهُ فأشدَّ حسابهُ ، وأقلَّ عفوهُ . ألا إن الفقراء هم الرحومون ، وخير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنكم اليوم على خلافة نبوة ، ومفرق محجة ، وسترون بعدى مُلكاً عضوضاً^(٥) ، وأمة شعاعاً^(٦) ، ودماً مُفاحاً^(٧) ، فإن كانت للباطل نزوة^(٨) ، ولأهل الحق جولة ، ينفولها الأثرُ ، وتموت السنن ، فالزموا المساجد ،

(١) تسخط عطاه: استقله ولم يقع منه موقعا . (٢) الزائف . (٣) مات . ووجبت الشمس :

غابت ؛ والعين غارت . (٤) مات أيضا . (٥) العضوض : ما يعض عليه ، وملك عضوض : فيه

عسف وظلم . (٦) متفرقة . (٧) أفاحه : أراقه . (٨) وثبة .

واستشبروا القرآن ، والزمو الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر ، أى بلاد خَزَّ شَنَّةٌ^(١) إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أديانها .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢١ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٣ ، وزهر الآداب ١ : ٣٩) .

٤٠ — خطبة له

وخطب أيضا فقال :

« الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأستغفره ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهدى الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهد الله فهو المهتدى ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حي لا يموت ، يُعزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بيده الخير ، وهو على كلِّ شئٍ قدير ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ، إلى الناس كافةً ، رحمةً لهم ، وحجة عليهم والناس حينئذ على شرِّ حال فى ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ، ودعوتهم فرية ، فأعزَّ الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألَّفَ بين قلوبكم أيها المؤمنون ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . فأطيعوا الله ورسوله ، فإنه قال عزَّ وجل : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » .

أما بعد أيها الناس : إنى أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كلِّ أمر ، وعلى كلِّ حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير ، مَنْ يَكْذِبْ

(١) خرسنة : بلد بالروم ، والمراد بلاد الروم .

يَفْجُرُ ، ومن يفجرُ يَهْلِكُ ، وإياكم والفخرَ ، وماخزُ من خلق من التراب ، وإلى التراب يعود ؟ هو اليوم حتى ، وغداً ميت ، فاعلموا وعدُّوا أنفسكم في الموتى ، وما أشكلَ عليكم فردوا علمه إلى الله ، وقدموا لأنفسكم خيراً تجدوه مُحَضَّرًا ، فإنه قال عزَّ وجلَّ « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ زَهَّوفٌ بِالْعِبَادِ » . فاتقوا الله عباد الله وراقبوه ، واعتبروا بمن مضى قبلكم ، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها ، إلا ماغفر الله ، إنه غفور رحيم ، فأنفسم أنفسكم ، والمستعان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك ، أفضلَ ما صليتَ على أحد من خلقك ، وزكَّنا بالصلاة عليه ، وألحقنا به ، وأحشرنا في زمرة ، وأوردنا حوضه .
اللهم أعنا على طاعتك ، وانصرنا على عدوك .
(العقد الفريد ٢ : ١٣١)

٤١ - خطبة له

وخطب أيضاً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال :
« أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرَّهبة ، وتجمعوا الإلحافَ بالمسألة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » ثم أعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك موثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي ، وهذا كتابُ الله فيكم لا تنفى عجائبه ، ولا يطنأ نورُه ، فنتقوا بقوله ،

وانتصحو^(١) كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ، وَوَ كل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ماتفعلون^(٢) .

(المقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٢)

٤٢ — خطبة له في الأنصار

ووصل إليه مال من البحرين ، فساوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار ، وقالوا له فضّلنا ، فقال أبو بكر صدقتم ، إن أردتم أن أفضّلكم صار ما عملتموه للدنيا ، وإن صبرتم كان ذلك لله عزّ وجل ، فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى وانصرفوا ، فرقى أبو بكر المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« يا معشر الأنصار : إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلّنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، قلتم : وإن لكم من الفضل ما لا يُحصيه العدد وإن طال به الأمد . فنحن وأنتم كما قال طُفَيْلُ الغَنَوِيُّ :

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزالت
أبوا أن يملّونا ، ولو أن أمنا تلاقى الذي يلقون منا لمات
هم أسكنونا في ظلّال بيوتهم ظلّال بيوت أدفات وأظلت

(زهر الآداب ١ : ٣٩ وصبح الأعمى ١٣ : ١٠٨)

(١) انتصح فلان : قبل النصيحة ، يقال : انتصحنى فإني لك ناصح . (٢) ورد عقب ذلك « ثم اعلّموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في ليل قد غيب عنكم علمه . . . الخ » ما أورده ابن جرير الطبري في الخطبة التي أسلفنا ذكرها ص ١٨١ .

٤٣ — وصيته لأسامة بن زيد

وأوصى أسامة بن زيد وجيشه حين سيره إلى أبي بن سفيان^(١) ، فقال :

« يا أيها الناس : قفوا أوصيكم بمشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغفلوا^(٢) ، ولا تغدروا^(٣) ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقمروا^(٤) مخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لِمَا كَلَلَهُ^(٥) ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدّمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحسوا أوساط رؤسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفئوهم^(٦) بالسيف خفياً ، اندفعوا باسم الله^(٧) . »

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢١٣ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٦٢)

٤٤ — وصيته لعمر بن العاص والوليد بن عقبة

وشيع عمرو بن العاص والوليد بن عقبة مبعثهما على الصدقة ، وأوصى كل واحد منهما

بوصية واحدة :

« اتق الله في السرِّ والعانية ، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث

(١) موضع بقرب مؤتة بمشارق الشام قتل فيه والده زيد بن حارثة . (٢) غل يغفل كنعصر :

خان كأغل ، وغل صدره يغفل كضرب غليلاً وغلاً : حقد . (٣) غدره وغدر به كنعصر وضرب وسمع .

(٤) قمر النخلة : كنعج فانتمرت قطعها من أصلها فسقطت . (٥) المأكلة : ما أكل .

(٦) خفقه : ضربه بشيء عريض . (٧) وأورد العقد الفريد هذه الوصية وذكر أنها وصية من

أبي بكر لنزید بن أبي سفيان — راجع العقد ج ١ ص ٤٠ .

لا يحْتَسِبُ ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجراً ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، إنك في سبيل من سبيل الله ، لا يسمع فيه الإذهان^(١) والتفریط والغفلة عما فيه قوام دينكم ، وعصمة أمركم فلا تن ، ولا تفتّر .

(تاريخ الطبري ٤ : ٢٩)

خطب الفتوح في عهد أبي بكر

٤٥ - وصيته لخالد بن الوليد

ووصى أبو بكر خالد بن الوليد فقال :

« سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً من الحملة ، فإن لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، فإن مالك ما وُجِيَ عنك ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سريرتهم ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه » .

(العقد الفريد ١ : ٤٠)

٤٦ - خطبة خالد بن الوليد

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد بعث المشي بن حارثة على جيش إلى العراق ، فقدم العراق فقاتل وأغار على أهل فارس ونواحي السواد ، ثم بعث أخاه مسعودا إلى أبي بكر يستمده . فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد - وكان باليمامة - أن يسير إلى العراق ، فلما قرأ خالد الكتاب .

قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

(١) الإذهان : المداهمة والنش .

« الحمد لله والله أهله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد : فإن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلينا يحضنا على طاعة ربنا ، وجهاد عدونا وعدو الله ، وبالجهاد في سبيل الله أنجز الله دعوتنا ، وجمع كلمتنا وأمنيتنا ، والحمد لله رب العالمين ، ألا إني خارج ومعسكر وسائر إن شاء الله ومعجل ، فمن أراد ثواب العاجل والآجل فلينكش^(١) » :

٤٧ - خطبة لأبي بكر في ندب الناس لفتح الشام

وخطب يندب الناس لفتح الشام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، وقال :
« ألا إن لكل أمرٍ جوامعَ ، فمن بلغها فهي حسبهُ ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد ، فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله ، كما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُحصَّ به ، هي التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة . (تاريخ الطبري ٤ : ٣٠)

(١) انكش : أسرع .

فتح الشام

حدث أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري صاحب فتوح الشام قال : لما أراد أبو بكر رحمة الله عليه أن يجهز الجنود إلى الشام ، دعا عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه فقال :

٤٨ - خطبة أبي بكر

« إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه ، ولا تبغ جزاءها الأعمال ، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم ، فقد جمع كلمتكم ، وأصلح ذات بينكم ، وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركو بالله ، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره ، فالعرب اليوم بنو أم وأب ، وقد أردت أن أستنفرهم إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ، ويحمل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر . فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين ، هذا رأي الذي رأيت فليشر على أمرؤ بمبلغ رأيه . »

٤٩ - خطبة عمر

فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« الحمد لله الذى يخلص بالخير من يشاء من خلقه ، والله ما استبقنا إلى شئ من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قد والله أردت لقاءك لهذا الرأي

الذي ذكرت ، فاقضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصبت ، أصاب الله بك سبيل الرشاد ، سرّب إليهم الخليل في إثر الخليل ، وابتث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تتبعها الجنود . فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومُعيّر الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعدّ رسوله .
(فتوح الشام ص ١ وتاريخ ابن عساكر ١ : ١٢٦ - ١٢٧)

٥٠ - خطبة عبد الرحمن بن عوف

ثم إن عبد الرحمن بن عوف قام فقال :

« يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ، حدّ حديد ، وركن شديد ، والله ما أرى أن تُقحم الخليل عليهم إقحاما ، ولكن تبعث الخليل ، فتغير في أداني أرضهم ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مرارا أضروا بدموم ، وغنموا من أداني أرضهم ، فقوموا بذلك على قتلهم ، ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن ، وإلى أقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعا . فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوم غيرك » .

ثم جلس وسكت وسكت الناس .

قال لهم أبو بكر ماترون ؟ رحمك الله . فقام عثمان بن عفان رضوان الله عليه . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« رأيي أنك ناصح لأهل هذا الدين ، عليهم شفيق . فإذا رأيت رأيا علمته لهم رشدا وصلاحا وخيرا ، فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ظنين ولا متهم عليهم » .

فقال طلحة - الزبير وسعد وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار :

« صدق عثمان فيما قال ، ما رأيت من رأى فأمض ، فإننا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك » .

فذكروا هذا وشبهه ، وعلى بن أبي طالب رحمة الله عليه في القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر : ما ترى يا أبا الحسن ؟ قال :

« أرى أنك مبارك الأمر ، ميمون النقيبة ، وأنتك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله » .

فقال له أبو بكر : بشرك الله بخير ، فن أين علمت هذا ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يزال هذا الدين ظاهرا على كل من ناواه ، حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين » فقال أبو بكر : سبحان الله ! ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتني شرك الله في الدنيا والآخرة .

٥١ - خطبة أبي بكر

ثم إن أبا بكر رحمة الله عليه ورضوانه قام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكره بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأعزكم بالجهاد ، وفضاكم بهذا الدين على أهل كل دين . فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشأم ، فإني مؤمّر عليكم أمراء وعاهد لهم ألوية ، فأطيعوا ربكم ، ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

فسكت الناس ، فو الله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشده شوكتهم ، فقام عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه فقال : يامعشر المسلمين ما لكم لا تجيبون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دعاكم لتأجيبكم .

٥٢ - خطبة خالد بن سعيد بن العاص

فقام خالد بن سعيد بن العاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وعلى آله ، ثم قال :

« الحمد لله الذى لا إله إلا هو ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فإن الله منجز وعده ، ومُعز دينه ، ومُهلك عدوه » ثم أقبل على أبي بكر فقال : « نحن غير مخالفين لك ، ولا متخالفين عنك ، وأنت الوالى الناصح الشفيق ، ننفِر إذا استدفرتنا ، ونطيعك إذا أمرتنا ، ونجيبك إذا دعوتنا » .

ففرح أبو بكر بمقاتلته ، وقال له : « جزاك الله من أخ وخليل خيراً » فقد أسلمت مرتقباً ، وهاجرت محتسباً ، وهربت بدينك من الكفار ، لكي يطاع الله ورسوله ، وتكون كلمة الله هي العليا ، فتيسر رحمتك الله » .

فتجهز خالد بن سميد بأحسن الجهاز وخرج هو وإخوته وغلمانهم ومن تبعه من أهل بيته ، فكان أول من عسكر ، وأمر أبو بكر ببلاد فنادى في الناس : أن انفروا إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، فنفروا إليه — وكان خالد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره الإمارة واستعفى أبا بكر فأعفاه — (فتوح الشام ص ١) ورأى أبو بكر أن يكتب كتاباً إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد ، ويرغبهم في ثوابه ، وبعث الكتاب مع أنس بن مالك .

قال أنس : أتيت أهل اليمن جناحاً جناحاً و قبيلة قبيلة ، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر وإذا فرغت من قراءته قلت :

« الحمد لله ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن رسول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول المسلمين إليكم ، ألا وإنى قد تركتهم معسكرين ، ليس بمنهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم ، فمجلوا إلى إخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون » .

فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ، ويسمع منى هذا القول يحسن الرد على ، ويقول : نحن سائرون وكأنا قد فعلنا .

٥٣ — خطبة ذى الكلاع

حتى انتهيت إلى ذى الكلاع ، فلما قرأت عليه الكتاب ، وقلت هذا المقال ؛ دعا بفرسه وسلاحه ؛ ونهض في قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك ، وأمر بالمعسكر فسا برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن وسارعوا ، فلما اجتمعوا إليه قام فيهم :

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أيها الناس إن من رحمة الله إياكم ، ونعمته عليكم ، أن بعث فيكم رسولا ، وأنزل عليه كتابا فأحسن عنه البلاغ ، فعلمكم ما يرشدكم ، ونهاكم عما يفسدكم ، حتى علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ورجبكم في الخير فيما لم تكونوا ترغبون ، ثم قد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين ، واكتساب الأجر العظيم ، فابتغوا من أراد النفي معي الساعة » .
فنفروا بعدد من أهل اليمن كثير ، وقدموا على أبي بكر ففرح بمقدمهم .

(فتوح الشام ص ٦)

٥٤ - وصية خالد بن سعيد بن العاص لأبي بكر

ولما أراد خالد بن سعيد بن العاص أن يغدو سائرا إلى الشام ، ابس سلاحه ؛ وأمر إخوته فلبسوا أسلحتهم ، عمرا والحكم وأبان ، وغلمته ومواليه ، ثم أقبل إلى أبي بكر رضى الله عنه بعد صلاة الغداة وصل معه ، فلما انصرفوا قام إليه هو وإخوته ، فجلسوا إليه فحمد الله خالد وأثنى عليه وصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« يا أبا بكر ، إن الله أكرمنا وإياك والمسلمين طرا بهذا الدين ، فأحق من أقام السنة ، وأمات البدعة ، وعدل في السيرة ، الوالى على الرعية ، وكل امرئ من أهل هذا الدين محقوق بالإحسان ، ومعدلة الوالى أعم نفعا ، فاتق الله يا أبا بكر فيمن ولاك الله أمره ، وارحم الأرملة واليتيم ، وأعين الضعيف المظلوم ، ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه آثر عندك في الحق منه إذا سخطت عليه ، ولا تغضب . ما قدرت على ذلك ، فإن الغضب يجر الجور . ولا تحقد على مسلم وأنت تستطيع ، فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدوا ، وإن اطلع على ذلك منك عاداك ، فإذا عادى الوالى الرعية ، وعادت الرعية الوالى ، كان ذلك قمتا أن يكون إلى هلاكهم داعيا ، وكن لنا للمحسن ، واشدد على المريب ، ولا تأخذك في الله لومة لأم » .

م قال : هات يدك ، فإنى لا أدرى : هل نلتقى فى الدنيا بعد هذا اليوم ؟ فإن قضى الله لنا التقاء فنسأل الله عفوه وغفرانه ؛ وإن كانت هى الفرقة التى ليس بعدها التقاء ، فعرفنا الله وإياك وجه النبى صلى الله عليه وسلم فى جنات النعيم » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، ثم بكى وبكى خالد والمسلمون ، وظنوا أنه يريد الشهادة .
(فتوح الشام ص ١٧)

٥٥ - وصية أبى بكر لخالد بن سعيد بن العاص

فلما خرج من المدينة قال له أبو بكر رضى الله عنه :

« إنك قد أوصيتنى برشدى وقد وعيتنى ، وأنا موصيك فاستمع وصيتى وعيها ، إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة فى الإسلام ، وفضيلة عظيمة ، والناس ناظرون إليك ، ومستمعون منك ، وقد خرجت فى هذا الوجه العظيم الأجر ، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه لحسبة ونية صادقة إن شاء الله ، فثبّت العالم ، وعلمّ الجاهل ، وعاتب السفهية المترّف ، وانصح لعامة المسلمين ، واخصص الوالى على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحقّ الله للمسلمين عليك واعمل لله كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى ، واعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مساءلون ومحاسبون ، جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولننقمه من الخائفين ثم أخذ يده فودعه » .

وجّه أبو بكر أربعة جيوش على أحدها عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين ، وعلى الثانى شرحبيل ابن حسنة ووجهه إلى الأردن ، وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان ووجهه إلى البلقاء ، وعلى الرابع أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهه إلى حمص ، وشيخ الأمراء ووصاهم .
(فتوح الشام ص ١٨)

٥٦ - وصية أبى بكر لعمرو بن العاص

ولما أجمع أبو بكر أن يبعث الجيوش إلى الشام كان أول من سار من عماله عمرو

ابن العاص .

وخرج أبو بكر يمشى إلى جنب راحلة عمرو بن العاص وهو يوصيه ويقول :

« يا عمرو اتق الله في سر أمرك وعلانيته ، واستحبه فإنه يراك ويرى عملك ، وقد رأيت تقديمي إياك على من هو أقدم سابقاً منك ، ومن كان أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بما تعمل وجه الله ، وكن والدا لمن معك . ولا تكشفن الناس عن أستارهم ، واكف بعلايتهم ، وكن مجداً في أمرك ، واصدق اللقاء إذا لافيت ولا تجبن ، وتقدم في العلوم ^(١) وعاقب عليه ، وإذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك في وصية له طويلة » .

(تاريخ ابن عساكر ١ : ١٢٩)

٥٧ - وصية أخرى

وأمد أبو بكر أبا عبيدة بجيش عليه عمرو بن العاص ، فلما أراد الشخصوص خرج معه أبو بكر رضى الله عنه يشيحه وقال :

« يا عمرو إنك ذورأى وتجربة بالأمر وتبصرة بالحرب . وقد خرجت مع أشرف قومك ، ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تألمهم نصيحة ، ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود في الحرب ، مبارك في عواقب الأمور » فقال له عمرو : ما أخلقني أن أصدق ظنك وأن أقبل رأيك ، ثم ودعه وانصرف .

(فتوح الشام ص ٤١)

٥٨ - وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان

ودعا يزيد بن أبي سفيان فمقد له وأوصاه فقال :

« يا يزيد ، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته ، والإيثار له ، والخوف منه ، وإذا لقيت

(١) هكذا في الأصل .

العدو فأظفركم الله بهم ، فلا تغلُّ ولا تمثِّل ، ولا تغدر ولا تجبُن ، ولا تقتلوا وليدا ،
ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقعره ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ،
ولا تَعفروا بهيمة إلا لما كَلَّته ، وستمرون بقوم في الصوامع ، يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم
لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط
رءوسهم ، حتى كأن أوساط رءوسهم أفاحيص^(١) القطا ، فاضربوا ما فحسوا من رءوسهم
بالسيوف ، حتى يُنيبوا إلى الإسلام ، أو يؤدروا الجزية عن يدهم صاغرون ، ولينصرن الله
من ينصره ورسله بالغيب « ثم أخذ يده فقال : « إني أستودعك الله وعليك سلام الله
ورحمته » ثم ودَّعه وقال : « إنك أول أمرائي ، وقد وليتك على رجال من المسلمين أشرف
غير أوزاع^(٢) في الناس ، فأحسن صحبتهم ، ولتكن لهم كنفاً واخفض لهم جناحك
وشاورهم في الأمر ، أحسن الله لك الصحابة وعلينا الخلافة » . (فتوح الشام ص ٨)

٥٩ - وصية أخرى ليزيد بن أبي سفيان

ووصى يزيد بن أبي سفيان أيضا حين وجهه لفتح الشام قال :

« إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك^(٣) ، فإن أحسنت رددتك إلى عمك
وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فمليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى
من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا
إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد^(٤) ، فأياك وعمية^(٥) الجاهلية ، فإن الله يبغضها ويبغض
إليها »

(١) جمع أفحوص وهو ما يجثم فيه القطا . (٢) أى ليسوا بأدنياء ولا ضعفاء ولا جفاة .

(٣) خرجته : دربه وعلمه . (٤) هو خالد بن سعيد العاص ، وكان أبو بكر سيره إلى

الشام أولام عزله . (٥) العمية : الكبر والفخر ، وفي الحديث : « إن الله قد وضع عنكم عيبة الجاهلية »
يعنى الكبر .

أهلها ، وإذا قَدِمْتَ عَلَى جَنْدِكَ فَأَحْسِنْ مُحِبَّتَهُمْ وابدأهم بالخير ، وَعَدِمْ إِيَّاهُ ، وإذا
وعظهم فأوجِزْ ، فَإِنَّ كَثِيرَ الْكَلَامِ يُنْسِي بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَأَصْلِحْ نَفْسَكَ يَصْلُحْ لَكَ
النَّاسُ ، وَصَلِّ الصَّلَاةَ لِأَوْقَانِهَا بِإِتْمَامِ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَالتَّخَشُّعِ فِيهَا ، وَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ
رُسُلُ عَدُوِّكَ فَأَكْرِمِهِمْ وَأَقْلِلْ لُبَّيْهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ بِهِ ،
وَلَا تُرِيْبِيْهِمْ ^(١) فَيَرَوْا خَلَاكَ ، وَيَعْلَمُوا عِلْمَكَ ، وَأَنْزِلْهُمْ فِي ثَرْوَةِ عَسْكَرِكَ ، وَامْنَعْ مِنْ
قَبْلِكَ مِنْ مَحَادِثِهِمْ ، وَكُنْ أَنْتَ الْمُتَوَلَّى لِكَلَامِهِمْ ، وَلَا تَجْعَلْ سِرَّكَ لِعَلَانِيَتِكَ ، فَيَخْتَلِطُ
أَمْرُكَ ، وَإِذَا اسْتَشْرْتَ فَاصْذُقِ الْحَدِيثَ تُصَدِّقِ الْمَشُورَةَ ، وَلَا تَخْزُنْ عَنِ الْمُسِيرِ خَبْرَكَ ،
فَتَقُوْتَى مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ ، وَاسْمُرْ بِاللَّيْلِ فِي أَحْبَابِكَ تَأْتِيكَ الْأَخْبَارُ ، وَتَنْكَشِفُ عِنْدَكَ
الْأَسْتَارُ ، وَأَكْثَرُ حَرَسِكَ وَبَدَدْتَهُمْ فِي عَسْكَرِكَ ، وَأَكْثَرُ مَفْجَأَتِهِمْ فِي مَحَارِسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ
مِنْهُمْ بِكَ ، فَمَنْ وَجَدْتَهُ غَفَلَ عَنْ حَرَسِهِ ، فَأَحْسِنْ أَدَبَهُ وَعَاقِبَتَهُ فِي غَيْرِ إِفْرَاطٍ ،
وَعَقَّبْ ^(٢) بَيْنَهُمْ بِاللَّيْلِ ، وَاجْعَلِ النَّوْبَةَ الْأُولَى أَطْوَلَ مِنَ الْأَخِيرَةِ ، فَإِنَّهَا أَيْسَرُهَا لِقَرَبِهَا
مِنَ النَّهَارِ ، وَلَا تَخَفْ مِنْ عَقُوبَةِ الْمُسْتَحَقِّ ، وَلَا تَبْلُجَنَّ فِيهَا ، وَلَا تُسْرِعْ إِلَيْهَا ، وَلَا تَتَّخِذْ
لَهَا مَدْقِعًا ^(٣) ، وَلَا تَفْغُلْ عَنِ أَهْلِ عَسْكَرِكَ فَتُفْسِدَهُ ، وَلَا تَجَسَّسْ عَلَيْهِمْ فَتَفْضَحَهُمْ ،
وَلَا يَكْشِفِ النَّاسُ عَنْ أَسْرَارِهِمْ ، وَاصْطَدَّقِ اللَّقَاءَ ، وَلَا تَجِبَنَّ فَيَجِبَنَّ النَّاسُ ، وَاجْتَنِبِ الْعُلُولَ ^(٤) فَإِنَّهُ
يَقْرَبُ الْفَقْرَ ، وَيُدْفَعُ النَّصْرَ ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ ، فَدَعَمَهُمْ
وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ١٩٦)

(١) من الريث : وهو الإبطاء . (٢) عقبه تعقبيا : جاء بعقبه . (٣) لا تتخذ : من خذا يتخذ

كنصر وخذى يخذى كرضى إذا استرخى ، والمدقع : الملقص بالدقواء أو الهارب أو أشد الهزلى هزالا ؛ أى
ولا تضغف ، ولا تجبن أمام تنفيذ العقوبة وهو مقابل لقوله : ولا تسرع إليها .

(٤) غل غلولا : خان .

٦٠ - دعاء أبي بكر

وكان أبو بكر رحمة الله عليه يدعو في كل يوم غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً في دُبُرِ صلاة الغداة

و بعد العصر يقول :

« اللهم إنك خلقتنا ولم نكُ شيئا ، ثم بعثت إلينا رسولا ، رحمة منك لنا ، وفضلا منك علينا ، فهديتنا وكنا ضلّالا ، وحبّبت إلينا الإيمان وكنا كفارا ، وكثرتنا وكنا قليلا وجمعتنا وكنا أشتاتا ، وقويتنا وكنا ضعافا ، ثم فرضت علينا الجهاد ، وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، اللهم لأصبحنا أن نطلب رضاك ، ونجاهد أعداءك ، من عدل بك ، وعبد معك إلها غيرك ، تعاليت عما يقولون علوا كبيرا ، اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين ، اللهم افتح لهم فتحا يسيرا ، وانصرهم نصرا عزيزا ، واجعل لهم من لدنك سلطانا نصيرا ، اللهم شجّع جُبنهم وثبت أقدامهم ، وزلزل بعدوهم ، وأدخل الرعب قلوبهم ، واستأصل شأفتهم ، واقطع دابرهم ، وأبد خضراءهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وكن لنا وليا ، وبنا حفيا ، وأصلح لنا شأننا كله ونياتنا وقضاءنا وتبعاتنا ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، واغفر لنا والمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم . » (فتوح الشام ص ٩)

٦١ - وصيته لشر حبيب بن حسنة

وجه شر حبيب بن حسنة ، وودعه فقال له : يا شر حبيب ، ألم تسمع وصيتي ليزيد

ابن أبي سفيان ؟ قال : بلى ، قال : فإنني أوصيك بمثلها ، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن

ليزيد : أوصيك بالصلاة في وقتها ، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل وبعبادة
المرضى ، وبحضور الجنائز ، وذكر الله كثيرا على كل حال «
(فتوح الشام ص ١١)

٦٢ - وصيته لأبي عبيدة بن الجراح

ولما أراد أن يبعث أبا عبيدة بن الجراح دعاه فودعه ثم قال له :

« اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له ، ثم يعمل بما أمر به ، إنك تخرج في
أشرف الناس ، وبيوتات العرب ، وصلاح المسلمين ، وفرسان الجاهلية ، كانوا يقاتلون
إذ ذاك على الحمية ، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة ، أحسن صحبة من
صحبتك ، وليكن الناس عندك في الحق سواء ، واستعن بالله وكفى بالله مينا ، وتوكل على
الله وكفى بالله وكيفا ، اخرج من غد إن شاء الله . »
(فتوح الشام ص ١٢)

٦٣ - وصيته لأبي عبيدة بن الجراح أيضا

فلما كان من الغد خرج أبو بكر رضى الله عنه يمشى في رجال من المسلمين ، حتى
أتى أبا عبيدة ، فسار معه حتى بلغ ثنية الوداع ، ثم قال حين أراد أن يفارقه :
« يا أبا عبيدة ، اعمل صالحا . وعش مجاهدا ، وتوف شهيدا ، يعطك الله كتابك
بيمينك ، ولتقر عينك في دنياك وآخرتك ، فوالله إنى لأرجو أن تكون من التوابين
الأوابين المحبتين^(١) الزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة ، إن الله قد صنع بك خيرا
وساقه إليك ، إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين ، فقاتل من
كفر بالله وأشرك به ، وعبد معه غيره . »
(فتوح الشام ص ١٤)

(١) في الأصل « المحبتين » ، وأخبت : خشع وتواضع .

٦٤ - خطبة أنى بكر

وسار أبو عبيدة حتى إذا دنا من الجابية بلغه أن هرقل ملك الروم بأنطاكية ، وأنه قد جمع لهم جموعا كثيرة ، فكتب أبو عبيدة إلى أبي بكر يخبره بذلك ، فقام أبو بكر رضى الله عنه في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن إخوانكم المسلمين معافون مكلثون^(١) ، مدفوع عنهم ، مصنوع لهم ، وقد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم منهم ، وقد اعتصموا محصونهم ، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم ، وقد جاءتني رسالهم يخبروننى بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم ، حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام ، وقد بعثوا إلى يخبروننى أنه قد وجه إليهم هرقل جندا من مكانه ذلك ، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم يشدد الله بكم ظهورهم ، ويكبت بهم عدوهم ، ويلق بهم الرعب في قلوبهم . فانتدبوا رحمكم الله مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . واحتمسوا في ذلك الأجر والخير فإنكم إن نصرتم فهو الفتح والغنيمة . وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة » .
(فتوح الشام ص ٢٧)

٦٥ - وصية أبي بكر لهاشم بن عتبة

ولما سار هاشم بن عتبة ودعه أبو بكر رضى الله عنه وقال له :
« ياهاشم إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدييره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر ، واعلم أنك لا تخطو خطوة ، ولا تنفق نفقة ، ولا يصيبك ظمأ ولا نصب ولا مخمصة^(٢) في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملا صالحا ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

فقال هاشم : إن يرد الله بي خيرا يجعلني كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله ، وأنا أرجو إن أنا لم أقتل أن أقتل ثم أقتل إن شاء الله .

فقال له عمه سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه : « يا ابن أخي لا تطعن طعنة ولا تضر بن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله ، واعلم أنك خارج من الدنيا رشيدا ، وراجع إلى الله قريباً ، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدم صدق قدمته ، أو عمل صالح أسلفته » .

فقال أى عم : لا تخالن^(١) منى غير هذا ، إنى إذأ لمن الخاسرين ، إن جعلت حلى وارتمالى وغدوى ورواحى وسيفى وطعنى برحى وضربنى بسيفى رياء للناس .
ثم خرج فقدم على أبي عبيدة فتباشر بمقدمه المسلمون . (فتوح الشام ص ٢٨)

٦٩ — خطبة خالد بن الوليد يوم اليرموك

ووجه هرقل إلى كل جيش من جيوش المسلمين جيشا يفوقه ، فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالاجتماع ، فأرسلوا إلى أبي بكر في ذلك فأشار عليهم بمثل رأى عمرو .
فاجتمعوا باليرموك وكل واحد من الأمراء أمير على جيشه ، والروم أمامهم ، وبين الفريقين خندق ؛ فكان الروم يقاتلون باختيارهم ، وإن شاءوا احتجزوا بخنادقهم ، فأرسل الأمراء إلى أبي بكر يستمدونه .
فكتب إلى خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مدداً للأمراء ؛ فسار إلى الشام ؛ ورواق المسلمين وهم متضايقون ، إذ وصل باهان بجيش مددا للروم ، فولى خالد قتاله ، وقاتل كل أمير من بإزائه متساندين(٢) ، فرأى خالد أن هذا القتل لا يجدى نفعا مادامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الأمراء وخطبهم .

فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية ، على تساند

(١) فى الأصل « لا تخافن » . (٢) أى تحت رايات شتى لاجتماعهم راية أمير واحد .

واتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من وراءكم^(١) لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتته .

قالوا : فهات فما الرأي؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر^(٢) ، ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم . إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقص منه أن دان لأحد من أسراء الجنود ، ولا يزيد عليه أن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ، ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهبأوا ، وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فلهوا فلنتعاور^(٣) الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ودعوني أتأمر اليوم» فأمره وانتهت الموقعة بهزيمة الروم شرهزيمة (سنة ١٣ هـ) .

(تاريخ الطبري ٤ : ٣٣ والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٠)

٦٧ — خطبة أبي عبيدة في وقعة اليرموك

ولما برز المسلمون إلى الروم في وقعة اليرموك سار أبو عبيدة في المسلمين ثم قال : « يا عباد الله ، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فإن وعد الله حق ، يا معشر المسلمين اصبروا ، فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومدحضة للعار ، فلا تبرحوا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبتدءوهم بقتال ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزمو الصمت إلا من ذكر الله ، حتى أمركم إن شاء الله .

(فتوح الشام ص ١٩٥)

(٣) نعاقب عليها .

(٢) التياسر : التصاهل .

(١) يعنى أبا بكر .

٦٨ - قصص معاذ بن جبل

وخرج معاذ بن جبل يقص على الناس ويقول :

« يا قراء القرآن ، ومستحفظى الكتاب ، وأنصار الهدى ، وأولياء الحق ، إن رحمة الله - والله - لا تُنال ، وجنته لا تدخل بالأمانى ، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل ، ألم تسمعوا لقول الله « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

أنتم إن شاء الله منصورون ، فأطيعوا الله ورسوله ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَضْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم ، وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ ولا ملتجأ من دونه ولا متعزز بغير الله » .

فجعل يمشى فى الصفوف ويحرضهم ويقص عليهم ثم انصرف إلى موقفه .

(فتوح الشام ص ١٩٥)

٦٩ - خطبة عمرو بن العاص

ومر عمرو بن العاص يومئذ على الناس ، فجعل يعظمهم ويقص عليهم ، ويحرضهم

ويقول :

« أيها الناس : غضبوا أبصاركم ، واجشوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، والزموا مراكزكم ومصافكم ، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا فى وجوههم وثوب الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويمت الكذب ويعاقب عليه ،

ويجزى بالإحسان ، لقد بلغنى أن المسلمين سيفتحونها كفرةً كفرةً^(١) ، وقصراً قصراً ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو قد صدقتموهم الشدة لقد اندعروا اندعار أولاد الحجل^(٢) .

(فتوح الشام ص ١٩٦)

٧٠ - خطبة أبي سفيان بن حرب

وكان أبو سفيان بن حرب يسير في الناس يوم اليرموك ، ويقف على أهل كل راية وعلى كل جماعة فيحرض الناس ويحضهم ويعظمهم ويقول :

« إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دار المعجم ، منقطعين عن الأهل^(٣) ، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله ، أصبحتم بإزاء عدو كثير عددهم ، شديد عليكم حنقهم ، وقد ترتبتم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وبلادهم ، فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء ، والصبر في مواطن المكروه ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتقرّبوا بها إلى خالفكم ، ولتكن هي الحصون التي تلجئون إليها ، وبها تمنعون . »

وقاتل أبو سفيان يومئذ قتالاً شديداً ، وأبلى بلاء حسناً . (فتوح الشام ص ١٩٧)

٧١ - وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما عند موته

« إنى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يُقبَلُ نافلةٌ حتى تُؤدَّى الفريضةُ ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بانبايعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ،

(١) القرية . (٢) الحجل : الذكر من الفيج .

(٣) في الأصل « الأبل » وهو تحريف .

وَحُقُّ لِمِيزَانٍ لَا يَوْضَعُ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا ، وَإِنَّمَا خَفْتُ مَوَازِينَ مِنْ خَفْتُ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ وَخَفْتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَحُقُّ لِمِيزَانٍ لَا يَوْضَعُ فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلَ أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا . إِنْ اللَّهُ ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَذَكَرَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ ، وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، فَإِذَا ذَكَرْتُهُمْ قُلْتُ إِنِّي أَخَافُ أَلَّا أَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ النَّارِ فَذَكَرَهُمْ بِأَسْوَأِ أَعْمَالِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرْ حَسَنَاتِهِمْ ، فَإِذَا ذَكَرْتُهُمْ قُلْتُ إِنِّي لِأَرْجُو أَلَّا أَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ آيَةَ الرَّحْمَةِ مَعَ آيَةِ الْعَذَابِ لِيَكُونَ الْعَبْدُ رَاغِبًا رَاهِبًا ، وَلَا يَقْتَنِي عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا يُبَلِّغُنِي بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَإِذَا حَفِظْتُ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ وَهُوَ أَتْيَكُ ، وَإِنْ ضَيَعْتَ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَبْغَضُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ وَلَسْتُ بِمُعْجِزِ اللَّهِ .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٨ ، والمقد الفريد : ٢٩٨)

٧٢ - كلامه لعبد الرحمن بن عوف في علته التي مات فيها

وقال عبد الرحمن بن عوف :

« دخلت يوماً على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، في علته التي مات فيها ، فقلت له : أراك بارئاً يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدَّ عليَّ من وجعي ، إني ولَّيتُ أموركم خيركم في نفسي ، فكلسكم ورمَّ أنفهُ أن يكون له الأمرُ من دونه ، والله لتتخذنَّ نَضَائِدَ^(١) الدَّيْبَاجِ وَسُتُورَ الْحَرِيرِ ، وَلتَأْمَنَنَّ النُّومَ عَلَى الصُّوفِ الْأَذْرِيِّ^(٢) ، كَمَا يَأْمُرُ أَحَدَكُمْ النُّومَ عَلَى حَسَاكِ السَّعْدَانِ^(٣) ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لِأَنْ يُقَدَّمَ أَحَدَكُمْ فَتَضَرَّبَ

(١) جمع نضيدة ؛ وهى الوسادة وما ينضد من المتاع . (٢) نسبة إلى أذربيجان .

(٣) نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه ويغذوها غذاء لا يوجد في غيره ، وفي المثل : مرعى

ولا كالسعدان .

عنقه في غير حدّ خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، يا هادى الطريق جُرْتُ إنما هو والله
الفجر أو البجر^(١) ،

فقلت : خفض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا يهيبك^(٢) إلى
ما بك ، فوالله ما زلتَ صالحاً مصلحاً ، لا تأسى على شيء فاتك من أمر الدنيا ، واقد
تخلت بالأمر وحدك فما رأيت إلاّ خيراً .

(تهذيب الكامل ١ : ٦ ، وإعجاز القرآن ١١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٢٠٨ ، وتاريخ الطبرى ٤ : ٥٢)

٧٣ - خطبة السيدة عائشة في الانتصار لآبها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه
فأرسلت إلى أزفلة^(٣) من الناس ، فلما حضروا أسدلت^(٤) أستارها ، وعلت وسادها ،
ثم قالت :

« أبى وما أبىه ، أبى والله لا تعطوه الأيدى^(٥) ، ذاك طود منيف^(٦) ، وفرع^(٧)
مديد ، هيبات كذبت الظنون ، أنجح^(٨) إذا كديتم ، وسبق إذ ونيتم^(٩) ، سبق
الجواد إذا استولى على الأمد^(١٠) ، فتى قريش ناشتاً ، وكهفها^(١١) كهلاً ، يفك عانيها ،
ويريش^(١٢) مُملقها ، ويرأب شعبها^(١٣) ، ويألم شعبها ، حتى حلّيته^(١٤) قلوبها ، ثم

(١) الشر والأمر العظيم . يقول : إن انتظرت حتى يضى لك الفجر والطريق أبصرت قصدك ؛ وإن
خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المسكروه ؛ وضرب ذلك مثلاً لغمرات الدنيا وتحيورها أهلها .

(٢) هاض العظم : كسره بعد الجبور .

(٣) جماعة . (٤) سدله يسدله : كنصر وضرب وأسدله أرخاه . (٥) تتناوله .

(٦) الطود : الجبل ، والمنيف : المشرف . (٧) فرع كل شيء أعلاه ، ومن القوم شريفهم .

(٨) أنجح : صار ذا نجح . (٩) الكدية : بضم فسكون الأرض الغليظة ، والصفاة العظيمة

الشديدة ، وحفر فأكدى إذا صادفها فلا يمكنه الحفر (وسأله فأكدى وجده مثلها) ؛ وونيم أى فترتم وضعفتم

(١٠) الغاية والمنتهى . (١١) الكهف : الوزر والملجأ ، والكهول من جاوز الثلاثين أو أربعا

وثلاثين إلى إحدى وخسين . (١٢) رائس السهم يريشه ألزق عليه الريش كريشه ؛ والمراد يعينه ويساعده .

(١٣) يصلح . والشعب : الصدع . (١٤) حلّ الشيء : استحلّه .

استشرى^(١) في دين الله ، فما برحت شكيمته^(٢) في ذات الله عز وجل ، حتى اتخذ
بِفِنَائِهِ مسجداً ، يحيى فيه ما أمات المبطون ، وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيد^(٣)
الجوانح ، شجى الشَّيْبِج^(٤) ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها ، يسخرون منه ويستهنئون
به « الله يستهنى بهم ، ويمدُّهم في طغيانهم يعمهون »^(٥) فأكبرت ذلك رجالات
من قريش ، فحنت قسيها ، وفوقت سهامها^(٦) ، وامتلوه^(٧) غرضاً ، فما قواله صفاة^(٨) ،
ولا قصفوا له قناة ، ومر على سيسائه^(٩) ، حتى إذا ضرب الدين بجرانه^(١٠) ، ورست
أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا^(١١) وأشتاتا ، اختار الله لنيبه
ما عنده ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه^(١٢) ، ومدَّ
طنبه^(١٣) ، ونصب حباله ، وأجلب^(١٤) بجيله ورجله ، واضطرب حبل الإسلام ،
ومرج^(١٥) عهده ، وماج أهله ، وبغى الفوائل ، فظنت رجال أن قد أكتبت^(١٦)
أطاعهم ، ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصدیقُ بين أظهرهم ، فقام حاسراً مشمراً ،

(١) غضب ولج .

(٢) الشكيمة الأنفة وفي اللجام الحديدية المعترضة في فم الفرس . وهو شديد الشكيمة أنف أبي لاينقاد .

(٣) الوقيد : الصريع والشديد المرض المشرف . (٤) الشجى : الحزين ، والشبيج : صوت البكاء

تشج الباكي ينشج كجلس غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب . (٥) العمه بفتححتين التردد في الضلال .

(٦) فوق السهم : جعل له فوقاً ، وهو موضع الوتر من السهم . (٧) امتلوه : مثلوه .

(٨) الحجر الصلد : الضخم . (٩) شدته . حمله على سيساء الحق أى على حده ، والسيساء : عظم

الظهر ، والعرب تضربه مثلاً لشدة الأمر . (١٠) جران البعير : مقدم عتقه من مذبحه إلى منحره .

(١١) جمع رسل بفتححتين ، وهو القطيع من كل شيء . (١٢) فمطاطه . (١٣) حبل طويل يشد به

سرادق البيت أو الوتد . (١٤) أجلب : صاح ، والجيل : الخيالة ؛ ومنه « ياخيلى الله اركبى »

والرجل : اسم جمع راجل كالصاحب والركب ، أى صاح بالركاب والمشاة وقرى ورجلك بكسر

الجيم وضمها .

(١٥) المرج : بفتححتين الفساد والقلق والاختلاط والاضطراب (وإنما يسكن مع المهرج) .

(١٦) أكتب : قرب ، والنهز جمع نهزة بضم النون وهى الفرصة .

جَمَعَ حَاشِيَتَيْهِ^(١) ، وَرَفَعَ قُطْرِيَهُ^(٢) ، فَردَّ رَسَنَ^(٣) الإِسْلَامِ عَلَى غَرْبِهِ^(٤) ، وَلمَّ^(٥) شَعَثَهُ بِطَبِهِ ، وَانْتَشَ^(٦) الدِّينَ فَنَعَشَهُ ، فَلَمَّا أَرَّاحَ^(٧) الحَقَّ عَلَى أَهْلِهِ ، وَقَرَّرَ الرُّعُوسَ عَلَى كَوَاهِلِهَا^(٨) ، وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْبِهَا^(٩) ، أَتَتْهُ مُنِيَّتُهُ ، فَسَدَّتْ ثُلْمَتَهُ بِنَظِيرِهِ فِي الرَّحْمَةِ ، وَشَقِيقِهِ فِي السَّيْرِ وَالْمَعْدَلَةِ ، ذَاكَ ابْنَ الخَطَابِ ، فَاللهُ دَرَّ أُمَّ^(١٠) حَمَلَتْ بِهِ ، وَدَرَّتْ عَلَيْهِ ، لَقَدْ أَوْحَدَتْ^(١١) بِهِ ، فَفَتَحَ^(١٢) الكُفْرَةَ ، وَدَيَّخَهَا^(١٣) ، وَشَرَّدَ الشَّرْكَ شَدْرَ مَدْرَ^(١٤) ، وَبَعَجَ^(١٥) الأَرْضَ وَبَجَّهَا^(١٦) ، فَقَاءَتْ أَكْغَلَهَا^(١٧) وَلَفِظَتْ خَبَأَهَا ، تَرَأَمَهُ^(١٨) وَيَصْدِفُ^(١٩) عَنْهَا ، وَتَصَدَّى^(٢٠) لَهُ وَيَأْبَاهَا ، ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فِيئُهَا ، وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحَبَهَا ، فَأَرُونِي مَاذَا تَرْتُونَ ، وَأَيَّ يَوْمِي أَيْ تَنْقِمُونَ ، أَيُّومَ إِقَامَتِهِ إِذْ عَدَلَ فِيكُمْ أَمْ يَوْمَ ظَلَمْتَهُ إِذْ نَظَرَ لَكُمْ^(٢١) ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلِسْكُمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهَا ، فَقَالَتْ : أُنشِدُكُمْ اللهُ هَلْ أَنْكَرْتُمْ مِمَّا قُلْتُمْ شَيْئًا ، قَالُوا : اللهُمَّ لَا

(صبح الأعشى ١ : ٢٤٨ ، والمعقد الفريد ٢ : ٢٠٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٠)

-
- (١) حاشية كل شيء : جانبه وطره . (٢) القطر : الناحية . (٣) الحبل .
(٤) الغرب : حد الشيء . (٥) انتشل ، ونعشه الله كأنه شه ، ونعشه : رفعه .
(٦) أراح على فلان حقه : رده عليه . (٧) السكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق .
(٨) جمع إهاب ، وهو الجلد ، والمراد الأجسام . (٩) الدر : اللبن والنفس والعمل .
(١٠) أوحدت المرأة : ولدت واحدا ، أى جاءت به منفردا لا نظير له . (١١) أذل وقهر .
(١٢) داخ البلاد ودوخها وديخها : قهرها واستولى على أهلها . (١٣) تفرقوا شذر مذر : ذهبوا في كل وجه . (١٤) شقها : كناية عن الفتح . (١٥) قهر أهلها واستخرج ما فيها من الكنوز وأموال الملوك . (١٦) الأكل : ما يؤكل ؛ أى أخرجت خيراتها . (١٧) تمطف عليه ، ويصدف أى يعرض . (١٨) تنعرض . (١٩) أى فيما يصلحكم فولى عليكم عمر .

٧٤- رثاؤها لآيها

لما توفي أبو بكر رضى الله عنه ، وقفت عائشة على قبره فقالت :

« نَصَرَ^(١) الله وجهك يا أبتِ ، وشكر لك صالحَ سعيك ، فلقد كنتَ للدنيا مُدْلِلاً
يُادِبُاركَ عنها ، وللآخرة مُعِزّاً بِإِقْبالكَ عليها ، ولئن كانَ أَجَلُ الحوادثِ بعدَ رسولِ الله
صلى الله عليه وسلم رُزُوكَ ، وأعظمَ المصائبِ بعده فَقُدُكَ ، إن كتابَ الله لِيَعِدُّ بِحَسَنِ الصبرِ
فيك حُسْنَ العَوَضِ منك ، وأنا أَسْتَنْجِزُ موعودَ الله تعالى بالصبرِ فيك ، وأَسْتَقْضِيهِ^(٢)
بالاستغفارِ لك ، أما لئن قاموا بِأَسْرِ الدنيا ، لقد قمتَ بِأَسْرِ الدينِ ، لِمَا وَهَى شَعْبَهُ^(٣) ،
وتفاقمَ صَدْعُهُ^(٤) ، وَرَجَفَتْ^(٥) جوانبه ، فعليك سلامَ الله توديعَ غيرِ قالية^(٦) لحياتك ،
ولا زارية^(٧) على القضاءِ فيك » .

(زهر الآداب ١ : ٤٠ ، العقد الفريد ٢ : ٧ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٧ ، البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

(١) من النصرة والنصارة بفتح النون وهي الحسن .

(٢) أطلب قضاءه . (٣) وهي ضعف ، والشعب الجمع . (٤) الصرع : الشق .

(٥) اضطربت . (٦) مبنضة . (٧) عاتبة ولائمة .

خطب عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

٧٥ - خطبته حين ولى الخلافة

لما استخلف عمر رضى الله عنه صعد المنبر فقال : « إني قائل كلمات فأمنوا عليهن » فكان أول منطق نطق به حين استخلف ، قال :

« إنما مثل العرب مثل جمل أنف^(١) اتبع قائده فليُنظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا فوَرَب الكعبة لأحملهم على الطريق » . (تاريخ الطبري ٤ : ٥٤ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٨)

٧٦ - خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة في عيون الأخبار : لما ولى عمر صعد المنبر فقال :

« ما كان الله ليراني أرى نفسى أهلا لجلس أبى بكر ، ثم نزل عن مجلسه مِرْقاة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « اقرءوا القرآن تُعَرَفُوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله إنه لم يَبْلُغْ حَقَّ ذى حَقِّ أن يطاع فى معصية الله ، ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله

(١) أنف البعير : اشتكى أنفه من البرة فهو أنف وأنف ؛ وفى الحديث : « المؤمن كالجمال الأنف إن

قيد انقاد ؛ وإن استنخ على صخرة استنخ » وذلك للوجع الذى به فهو ذلول منقاد .

بمنزلة والى اليتيم ، إن أستغنيتُ عَفَفْتُ ، وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف ، تَقَرُّمٌ^(١)
البهمة^(٢) الأعرابية ، القضم لا الخضم^(٣) .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٧٧ — خطبة له

وذكر الطبري أنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الناس بالله عزَّ
وجل واليوم الآخر ، ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم
عليكم ، وأشدكم استضلاعاً^(٤) بما ينوب من مهمم أموركم ، ما توليت ذلك منكم ، ولكني
عمرٌ مهممٌ مخزناً انتظاراً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ، ووضعها أين أضعها ،
وبالسير فيكم كيف أسير ، فربِّي المستعان ، فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم
يتداركه الله عزَّ وجل برحمته وعونه وتأيدته . »

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٢٤)

٧٨ — خطبة له

ثم خطب فقال :

« إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَ وَلاَئِي أَمْرِكُمْ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْفَعُ مَا بَحَضَرْتُمْ لَكُمْ ، وَإِنِّي
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعْينِي عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَجْرُسْتِي عِنْدَهُ كَمَا حَرَسَنِي عِنْدَ غَيْرِهِ ، وَأَنْ يُلْهِمَنِي الْعَدْلَ

(١) تقرر الصبي أكل أكلا ضعيفا ، وذلك في أول أكله . (٢) البهمة : أولاد الضأن والمز

والبقر . (٣) القضم : الأكل بأطراف الأسنان والخضم الأكل بأقصى الأضراس .

(٤) الذي في كتب اللغة « اضطلاع » يقال هو مضطلع بهذا الأمر ، أي قوى عليه .

فقسّمكم كالذي أمرني به ، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن
يغيّر الذي وليت من خلافتكم من خلق شيئاً إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل ،
وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغيّر منذ ولي ، أعقل الحق من
نفسى ، وأتقدّم وأبين لكم أمرى ، فأبما رجلٍ كانت له حاجة ، أو ظلمَ مظلمةً ، أو عتب
علينا فى خلق فليؤذنى ، فأبما أنا رجل منكم ، فعليكم بتقوى الله فى سرّكم وعلانيّتكم
وحرّماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضهم بعضاً على أن
تحموا إلى ، فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ،
عزيز على عنّتكم ، وأنتم أناسٌ عامّةٌكم حَصَرَ فى بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه
ولا ضرع ، إلا ما جاء الله به إليه ، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا
مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ، ومُطلّع على ما يحضرتى بنفسى إن شاء الله ، لا أكُلُهُ
إلى أحد ، ولا أستطيع ما يمدّ منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للامة ، ولست أجعل
أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ : ١٢٤)

٧٩ - خطبة أخرى

وقال ابن عبد ربه : وخطب إذ ولى الخلافة : صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ،

ثم قال :

«بأيها الناس ، إني دايع فأمنوا ، اللهم إني غليظ فليّني لأهل طاعتك ، بموافقة

الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك ، وأهل

الدعارة^(١) والنفاق ، من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إني شحيح ، فسخني

(١) الفجور .

في نوائب المعروف ، قَصْدًا من غير سَرَفٍ ولا تَبْذِيرٍ ولا رِيَاءٍ ولا سُمْعَةٍ ، واجعلني أبتغى
بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقني خَفْضَ الْجَنَاحِ ، وَلِينَ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ ،
اللهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ .
اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة
التي لا تسكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبرِّ والتقوى ، وذكّر المقام بين
يديك ، والحياء منك ، وارزقني الخشوعَ فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، وإصلاح
الساعاتِ والحذرَ من الشُّبُهَاتِ ، اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ،
والفهمَ له ، والمعرفةَ بمعانيه ، والنظرَ في عجائبه ، والعملَ بذلك ما بقيت ، إنك على كل
شيء قدير .

(المقد الفريد ٢ : ١٣٣)

٨٠ - خطبة له

وخطب أيضاً ، فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم :
« أيها الناس ، إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون
مالاً تأكلون ، وتأمّلون مالاً تُدرِّكون ، وأنتم مؤجّلون في دار غرور ، كنتم على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي ، فمن أسرَّ شيئاً أخذ بسريرته ، ومن أعلن
شيئاً أخذ بعلايته ، فأظهِرُوا لنا أحسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسراير ، فإنه من أظهر لنا
قبيحاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننّا به حسناً ،
واعلموا أن بعض الشحِّ شُعبَةٌ من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ
فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أيها الناس أطيّبوا متواكم ، وأصلحوا أموركم ، واتقوا الله
ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القبايطي^(١) فإنه إن لم يشف فإنه يصف . أيها الناس : إني لوددتُ

(١) القبايطي (بضم الأول وتشديد الآخر ، أو القبايطي بفتح الأول وتخفيف الآخر) ثياب

كثبان بيض رفاق كانت تعمل في مصر جمع قبطية (بضم القاف نسبة إلى القبط على غير قياس وقد تكسر)
وشف الثوب يشف رق فحكي ماتحته ، وتوله : فإنه يصف أي ماتحته من أجزاء البدن ويحدها لرقته وطراوته

أن أنجو كغافاً لا لى ولا على ، وإنى لأرجو إن مُعِرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ؛ وأن لا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله وإن لم يُعمل إليه نفسه ، ولم يُنصب إليه بدنه ، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ، ولتقليل في رفق خيرٌ من كثير في عنف ، والقتل حتف من الختوف ، يصيب البرّ والفاجر ، والشهيد من احتسب نفسه ، وإذا أراد أحدكم بعيداً فليعمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاً ، فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره .

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ٣ : ص ١٢٥)

٨١ - خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« إن الله سبحانه وبجمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه ، فجعل لكم عامّة خلقه ، ولم يجعلكم لشيء غيره ، وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً ، وحملكم في البرّ والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ، ومن نعم الله عليكم نعم عمّ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصّها وعوامّها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قيس ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أنعمهم شكرها ، وفدّحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مستخلفون في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمتان ، أمة مستعبدة للإسلام وأهله ،

يتجرون لكم ، تستصفون^(١) معايشهم وكذا منحهم ورشح جباههم ، عليهم المثونة ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رعبا ، فليس لهم معقل يلجئون إليه ، ولا مهرب يتقون به ، قد دهمهم جنود الله عز وجل ، ونزلت بساحتهم مع رفاغة^(٢) العيش ، واستفاضة المال ، وتتابع البعوث ، وسد الثغور بإذن الله في العافية الجليلة العامة ، التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام ، والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد ، فما عسى أن يباغ مع هذا شكر الشاكرين ، وذكر الزاكرين ، واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ، ولا يقدر قدرها ، ولا يستطيع أداء حقها ، إلا بعون الله ورحمته ولطفه . فسأل الله الذي لا إله إلا هو ، الذي أبلانا هذا ، أن يرزقنا العمل بطاعته ، والمسارعة إلى مرضياته . فاذكروا عباد الله بلاء الله عندهم ، واستتموا نعمة الله عليكم ، وفي مجالسكم مني وفرادى فإن الله عز وجل قال لموسى : « أَخْرِج قَوْكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ » وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ » فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله ودينه ، وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ، ولكنتم كنتم أشد الناس معيشة ، وأعظم الناس بالله جهالة . فلو كان هذا الذي ابتلاكم به لم يكن معه حظ في دنياكم . غير أنه ثقة لكم في آخرتكم ؛ التي إليها المعاد والمنقلب ، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه ، كنتم أحرى أن تشحوا على نصيبكم منه ، وأن تظهروه على غيره فبئله^(٣) ما أنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا ، وكرامة الآخرة ، أولم نشاء أن يجمع له ذلك منكم . فاذكروا الله الخائل بينكم وبين قلوبكم ، إلا ما عرفتم حق الله

(١) استصنى الشيء : أخذ منه صفوه .

(٢) رفع عيشه ككرم رفاغة : اتسع ، والرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب والسعة .

(٣) بله : اسم فعل بمعنى دع واترك ، فإبعدها منصوب ، ومصدر بمعنى الترك ، فإبعدها مجرور

بالإضافة ، واسم مرادف لكيف فإبعدها مرفوع بالابتداء .

فَعَمِلْتُمْ لَهُ ، وَقَسَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَجَعَلْتُمْ مَعَ السَّرُورِ بِالنِّعَمِ خَوْفًا لَزْوَالِهَا وَلَا تَنْتَقِلَهَا ،
وَوَجَلًا مِنْ تَحْوِيلِهَا ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْلَبَ لِلنِّعْمَةِ مِنْ كِفْرَانِهَا ، وَإِنَّ الشُّكْرَ أَمْنٌ لِلغَيْرِ ،
وِنِعْمًا لِلنِّعْمَةِ ، وَاسْتِجْلَابٌ لِلزِّيَادَةِ ، وَهَذَا اللَّهُ عَلَى مَنْ أَمَرَكُمْ وَنَهَىكُمْ وَاجِبٌ .

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٧ وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٢٥)

٨٢ — خطبة له

وخطب أيضا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ ، فَلْيَأْتِ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ
يُسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ ، فَلْيَأْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْفِقْهِ فَلْيَأْتِ مُعَاذَ
ابْنَ جَبَلٍ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْمَالِ فَلْيَأْتِنِي ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي لَهُ خَازِنًا وَقَاسِمًا ، إِنِّي
بَادَيْتُ بِأَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَعْطَيْتُهُمْ ، ثُمَّ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَنَا وَأَصْحَابِي ، ثُمَّ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
ثُمَّ مِنْ أَسْرَعِ إِلَى الْهِجْرَةِ أَسْرَعَ إِلَيْهِ الْعَطَاءُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ عَنِ الْهِجْرَةِ أَبْطَأَ عَنْهُ الْعَطَاءُ ،
فَلَا يَلُومَنَّ رَجُلًا إِلَّا مُنَاحَ رَاحِلَتِهِ ، إِنِّي قَدْ بَقِيتُ فِيكُمْ بَعْدَ صَاحِبِي ، فَابْتَلَيْتُ بِكُمْ ،
وَابْتَلَيْتُمْ بِي ، وَإِنِّي لَنْ يُحْضِرَنِي مِنْ أُمُورِكُمْ شَيْءٌ فَأَكُلُهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ الْجَزَاءِ وَالْأَمَانَةِ ،
فَلَنْ أَحْسِنُوا لِأَحْسِنَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنْ أَسَاءُوا لِأَنْتَكُنَّ بِهِمْ » . (العقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٣ — خطبة له

وخطب أيضا فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّنَا بِالْإِسْلَامِ ، وَأَكْرَمَنَا بِالْإِيمَانِ ، وَرَحَّمَنَا بِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَهَدَانَا بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَجَمَعَنَا بِهِ مِنَ الشَّتَاتِ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا ، وَنَصَرَنَا عَلَى

عدونا ، وَمَكَّنَ لَنَا فِي الْبِلَادِ ، وَجَعَلْنَا بِهِ إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ ،
وَاسْأَلُوهُ الْمَزِيدَ فِيهَا وَالشُّكْرَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكُمْ الْوَعْدَ ، بِالنَّصْرِ عَلَى مَنْ خَالَفَكُمْ ،
وَإِيَّاكُمْ وَالْعَمَلَ بِالْمَعَاصِي ، وَكُفِّرَ النِّعْمَةَ ، فَقَلَّمَا كَفَرُوا قَوْمٌ بِنِعْمَةٍ ، وَلَمْ يَنْزِعُوا إِلَى التَّوْبَةِ ،
إِلَّا سُلِبُوا عِزَّهُمْ ، وَسُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ . أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ دَعْوَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَجَمَعَ كَلِمَتَهَا ، وَأَظْهَرَ فَلَجَهَا^(١) وَنَصَرَهَا وَشَرَّفَهَا ، فَاحْمَدُوهُ عِبَادَ اللَّهِ عَلَى نِعْمِهِ ، وَاشْكُرُوهُ
عَلَى آيَاتِهِ ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٤ - خطبة له

وخطب عمر الناس فقال :

« والذي بعث محمدا بالحق لو أن جلا هلك ضياعا بشط الفرات ، خشيت أن يسأل
الله عنه آل الخطاب . »

قال أبو زيد « آل الخطاب » يعني نفسه ما يعني غيرها . (تاريخ الطبري ٥ : ١٨)

٨٥ - خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ أَنَّى عَلَيَّ حِينٌ ، وَأَنَا أَحْسَبُ أَنْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ إِنَّمَا يَرِيدُ بِهِ اللَّهُ
وَمَا عِنْدَهُ ، أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ خُبِّلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْوَامًا يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ يَرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ ،
أَلَا فَارِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ ، فَإِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذَ الْوَحْيِ يَنْزِلُ ،
وَإِذَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقَدْ رُفِعَ الْوَحْيُ ، وَذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَإِنَّمَا أَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ لَكُمْ ، أَلَا فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا ، وَأَثْنَيْنَا بِهِ عَلَيْهِ ،

(١) الفلج : الظفر والنقوز .

ومن أظهر لنا شرًا ظننا به شرًا ، وأبغضنا عليه ، أقدعوا^(١) هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طلعة^(٢) وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شرٍّ غاية ، إن هذا الحق ثقيل مرِيء^(٣) ، وإن الباطل خفيف وبِيء^(٤) ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلًا .

وفي رواية صاحب العقد : « ألا وإنى إنما أبعث عمالي ليعلموك دينكم وسنتكم ، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ، ويأخذوا أموالكم ، ألا من رابه شيء من ذلك فليرفعه إلى ، فالذى نفسى بيده لأقصنكم منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيت إن بعثت عاملاً من عمالك ، فأدب رجلاً من رعيتك فضر به ، أتقصه منه؟ قال : نعم والذى نفس عمر بيده لأقصنه منه ، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . »

وفي رواية الطبرى :

وخطب عمر الناس يوم الجمعة فقال :

« اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار ، أنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقيموا فيهم فيهم ، وأن يعدلوا ، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إلى » .

« يأبئها الناس : إنى والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبادكم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموك دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه » .

فوثب عمرو بن العاص فقال :

يا أمير المؤمنين : رأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك اتقصنه منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، وكيف

(١) قده كنهه : كفه . (٢) نفس طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء . (٣) حميد العاقبة .

(٤) وخيم العاقبة .

لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوا حقوقهم فكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٢)

وتاريخ الطبرى ٥ : ١٩)

٨٦ - خطبته عام الرمادة

وخطب عام الرمادة^(١) بالعباس رحمه الله :

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس : استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آباءه وكبار رجاله ، فإنك تقول : (وَقَوْلِكَ الْحَقُّ) « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » فحفظهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك في عمه ، اللهم اغفر لنا إنك كنت غفارا ، اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالّة ، ولا تدع الكسيرة بمضيعة ، اللهم قد ضرع الصغير ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم أئتمهم بغيائك ، قبل أن يفتنوا فيهلكوا ، فإنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

فأبرحوا حتى علّقوا الحذاء ، وقلّصوا المآزر ، وطلق الناس بالعباس يقولون :

(العقد الفريد : ١٣٢)

« هنيئا لك يا ساقى الحرمين » .

(١) في السنة الثامنة عشرة أصابت الناس مجاعة شديدة بالمدينة وما حولها فكانت تسنى إذا ريحت ترابا

كالرماد ؛ فسمى ذلك العام عام الرمادة (الطبرى ٤ : ٢٢٣) .

٨٧ - خطبته وقد بلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر

وبلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر الصديق ، فوثب مُغضبًا حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس : إني سأخبركم عنى وعن أبي بكر ، إنه لما توفي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتدت العرب ، ومنعت شاتها وبعيرها ، فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن قلنا له يا خليفة رسول الله : إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يُمدّه الله بهم ، وقد انقطع ذلك اليوم ، فالزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب ، فقال أبو بكر : أو كلكم رأيه على هذا ؟ فقلنا نعم ، فقال : والله لأن أجزء من السماء فتخطفنى الطير ، أحب إلى من أن يكون رأيي هذا ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وكبره ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل على الناس فقال :

« أيها الناس : من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . أيها الناس : أن أكثر أعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ، ولو كره المشركون ، قوله الحق ، ووعد الصديق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . والله أيها الناس : لو منعوني عِقالاً^(١) لجاهدتهم عليه ، واستعنت عليهم الله وهو خير معين » ثم نزل .

(تهذيب الكامل ١ : ٨)

(١) العقال : زكاة عام من الإبل والغنم ، أو المراد به الجبل مبالغة في الشدد .

خطب الفتوح في عهد عمر

في فتح فارس

كان المُثَنَّى بن حارثة الشَّيبَانِي أمير جيش العراق قدم على أبي بكر بالمدينة يستمده فألفاه مريضاً ، ووصى أبو بكر عمر بالمبادرة إلى إرسال الجيوش معه ، فكان أول ما عمل به عمر ، أن ندَّبَ الناس مع المثني إلى أهل فارس ، قبل صلاة النجر ، من الليلة التي مات فيها أبو بكر - وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم ، وشوكتهم ، وعزهم ، وقهرهم الأمم - وجعل يندبهم ثلاثة أيام فلا ينتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي - والد المختار - وتتابع الناس ، وتكلم المثني بن حارثة فقال :

٨٨ - خطبة المثني بن حارثة الشيباني

« أيها الناس : لا يعظمنَّ عليكم هذا الوجه ، فإننا قد تبَّحَبْنَا^(١) ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقِّي السَّواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأنا من قبلنا عليهم ، ولما إن شاء الله ما بعدها .

٨٩ - خطبة عمر رضي الله عنه

وقام عمر في الناس فقال :
« إن الحجاز ليس لكم بدار إلاَّ على النُّجْمَةِ^(٢) ، ولا يقوى عليه أهله إلاَّ بذلك ،

(١) تبحيح : تمكن في المقام والحلول كيبحيح ، والدار توسطها . (٢) طلب الكلاؤ في موضعه .

أين الطُّرَّاءُ^(١) المهاجرون عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » والله مُظْهِرُ دِينِهِ ، وَمُعِزُّ نَاصِرِهِ ، وَمَوْلَى أَوْلِيَّيَ أَهْلِ مَوَارِيثِ الْأُمَمِ ، أين عباد الله الصالحون ... ؟

فلما اجتمع له البعث أمرَ عليهم أو لهم انتداباً^(٢) وهو أبو عبيد وقال له :

« اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تدبِّرَ ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلاَّ الرجل المكيث^(٣) الذي يعرف الفرصة والكفَّ » .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٠ ، والكمال لابن الأثير ٢ : ٢١١)

٩٠ - وصية عمر لأبي عبيد بن مسعود

وتقدم عمر إلى أبي عبيد بن مسعود فقال :

« إنك تقدم على أرض المسكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلوه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزن لسانك ، ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر - ماضبطه - متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيَّعه كان بمضيئة » .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٦)

٩١ - خطبة له وقد شيع جيش سعد بن أبي وقاص

وشيع جيش سعد بن أبي وقاص ، حين وجهه لحرب العراق ، فقام في الناس خطيباً فقال :

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم الأقوال ، ليُخَيِّبَ بها

(١) جمع طارئ ، من طرأ عليهم كنع أتاها من مكان أو خرج عليهم منه فجأة .

(٢) ندب القوم إلى الأمر : دعاهم وحثهم ، وانتدبوا إليه أسرعوا . (٣) الرزين .

القلوب ، فإنَّ القلوب ميتة في صدورها حتى يُحييها الله ، من علم شيئاً فلينتفع به ، وإنَّ للعدل أماراتٍ وتباشيرَ ، فأما الأمارات : فالحياء ، والسخاء ، والهن ، واللين . وأما التباشير : فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، وَيَسَّرَ لكل باب مفتاحاً . فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تُصانَع في ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيك من الكفاف ، فإن من لم يكنه الكفاف ، لم يُغنّه شيء ، إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد أزمى دفع الدعاء عنه ، فَأَنْهَوْا شَكَاتِكُمْ إِلَيْنَا ، فمن لم يستطع ، فإلى من يبلِّغُنَاها ، نأخذ له الحق غير مُتَمَتِّع .
(تاريخ الطبري ٤ : ٨٥)

٩٢ - وصيته لسعد بن أبي وقاص

وصى سعد بن أبي وقاص حين أمَّره على حرب العراق فقال :

« يَا سَعْدُ سَعَدَ بَنِي وَهَّيْب ، لَا يُغْرِّكَ مِنْ اللَّهِ أَنْ قِيلَ خَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَصَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا طَاعَتُهُ ، فَالْإِنْسَانُ شَرٌّ يَفْهَمُ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ ، يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ ، وَيَدْرِكُونَ مَا عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ ، فَانظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقْنَا فَأَلْزَمَهُ ، فَإِنَّهُ الْأَمْرُ ، هَذِهِ عَظْمِي إِيَّاكَ إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ ، وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ .
(تاريخ الطبري ٤ : ٨٤ ؛ والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٠)

٩٣ - وصيته لسعد بن أبي وقاص أيضا

ولما أراد أن يسرَّحه دعاه فقال :

« إني قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كربه ،

لا يَخْلَصُ مِنْهُ إِلَّا الْحَقُّ ، فَمَوِّدٌ نَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ الْخَيْرَ وَأَسْتَفْتِحُ بِهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَادَةٍ عَقَادًا^(١) ، فَمَتَّادُ الْخَيْرِ الصَّبْرُ ، فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ ، يَجْتَمِعُ لِكَ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَلِمُ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ : فِي طَاعَتِهِ ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَةِ ، وَعَصَاهُ مِنْ عَصَاهِ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْآخِرَةِ ، وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ بِإِنْشَاءِ ، مِنْهَا السَّرَّ ، وَمِنْهَا الْعَلَانِيَةُ . فَأَمَّا الْعَلَانِيَةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَمُّهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، وَأَمَّا السَّرُّ فَيَعْرِفُ بِظَهْرِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ ، فَلَا تَزْهَدُ فِي التَّحَبُّبِ ، فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّبَهُ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغَضَهُ ، فَاعْتَبِرْ مَنَزَلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنَزَلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ مَنْ يَشْرَعُ مَعَكَ فِي أَمْرِكَ .

(تاريخ الطبري ٤ : ٨٥)

٩٤ - وصية أخرى كتبها إلى سعد بن أبي وقاص

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد .

« أما بعد : فإنِّي آمركُ ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كلِّ حال ، فإن تقوى الله أفضلُ المدة على العدو ، وأقوى المكيِّدة في الحرب ، وآمركُ ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتِراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم ، وإِنَّمَا يُنْصَرُّ الْمُسْلِمُونَ بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِمْ اللَّهُ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّةٌ ، لِأَنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ ، وَلَا عُدَّتُنَا كَعُدَّتِهِمْ ، فَإِنَّ اسْتَوَيْنَا فِي الْمَعْصِيَةِ ، كَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا فِي الْقُوَّةِ ، وَإِلَّا نُنْصَرُّ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِنَا لَمْ نَقْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا ، فَاعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِي سِيرِكُمْ حَفَظَةً مِنْ اللَّهِ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ، فَاسْتَحْيُوا مِنْهُمْ وَلَا تَعْمَلُوا بِمَعْصَايِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،

(١) المتاد : المدة .

ولا تقولوا إنَّ عدونا شرٌّ منا ، فلن يُسلِّطَ علينا ، فَرُبَّ قَوْمٍ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ شَرٌّ مِنْهُمْ كَمَا سُلِّطَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ (لَمَّا عَمَلُوا بِمَسَاحِطِ اللَّهِ) كُفَّارُ الْجُوسِ ، فَبَاسُوا خِلَالَ الدِّيارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَوْنَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، كَمَا تَسْأَلُونَهُ النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى ذَلِكَ لَنَا وَلَكُمْ . وَتَرَفَّقَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي مَسِيرِهِمْ ، وَلَا تَجَشَّمَهُمْ مَسِيرًا يُتَعَبَهُمْ ، وَلَا تُتَقَصَّرْ بِهِمْ عَنْ مَنْزِلٍ يَرَفَّقُ بِهِمْ ، حَتَّى يَبْلُغُوا عَدُوَّهُمْ (وَالسَّقَرُ لَمْ يَنْقُصْ قُوَّةَهُمْ) فَإِنَّهُمْ سَاطِرُونَ إِلَى عَدُوِّ مُقِيمٍ ، حَامِيِ الْأَنْفُسِ وَالْكَرَاعِ^(١) ، وَأَقَمَ بَنُ مَعَكِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً ، حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ رَاحَةٌ يُحْيُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ ، وَيَرْمُونَ^(٢) أَسْلِحَتَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ ، وَنَحَّ مَنَازِلَهُمْ عَنْ قُرَى أَهْلِ الصَّلْحِ وَالذِّمَّةِ ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا مَنْ تَتَّقَى بِدِينِهِ ، وَلَا يَزَأُ^(٣) أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا شَيْئًا ، فَإِنَّ لَهُمْ حَرَمَةً وَذِمَّةً ابْتِلِيَتْ بِالْوَفَاءِ بِهَا ، كَمَا ابْتُلُوا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا ، فَمَا صَبَرُوا لَكُمْ فَتَوَلَّوْهُمْ خَيْرًا ، وَلَا تَسْتَنْصِرُوا عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ بِظَلْمِ أَهْلِ الصَّلْحِ ، وَإِذَا وَطِئْتَ أَرْضَ الْعَدُوِّ فَادِّكِ^(٤) الْعِيُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَلَا يَخْفَ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ ، وَليَكُنْ عِنْدَكَ مِنَ الْعَرَبِ ، أَوْ مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ تَطْمَئِنُّ إِلَى نَصْحِهِ وَصَدَقَهُ ، فَإِنَّ الْكَذُوبَ لَا يَنْفَعُكَ خَبْرُهُ ، وَإِنْ صَدَّقَكَ فِي بَعْضِهِ ، وَالغَاشِ عَيْنَ عَلَيْكَ ، وَليْسَ عَيْنًا لَكَ ، وَليَكُنْ مِنْكَ عِنْدَ دَنُوكَ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ أَنْ تُكْثِرَ الطَّلَاحَ ، وَتَبْتِ السَّرَايَا^(٥) بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، فَتَقْطَعِ السَّرَايَا أَمْدَادَهُمْ وَمَرَافِقَهُمْ ، وَتَتَّبِعِ الطَّلَاحَ عَوْرَاتِهِمْ ، وَتَنقُ^(٦) لِلطَّلَاحِ أَهْلَ الرِّأْيِ وَالْبَأْسِ مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَتَحْيِرْ لَهُمْ سَوَابِقَ الْخَيْلِ ، فَإِنَّ لِقَا عَدُوًّا كَانَ أَوَّلَ مَا تَلْقَاهُ الْقُوَّةُ مِنْ رَأْيِكَ ، وَاجْعَلِ أَمْرَ السَّرَايَا إِلَى أَهْلِ الْجِهَادِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْجِلَادِ ، وَلَا تَخْصَّ بِهَا أَحَدًا بَهْوَى ، فَتَضِيعَ مِنْ رَأْيِكَ وَأَمْرِكَ ، أَكْثَرُ مَا حَابَيْتَ بِهِ أَهْلَ

(١) الكراع من كل شيء: طرفه واسم يجمع الخيل .

(٢) رمه يرمه : أصله . (٣) رزأه ماله : أصاب منه شيئًا . (٤) أدكى عليه العيون :

إذا أرسل عليه الطلائع . (٥) جمع سرية ، وهي من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة .

(٦) تنقاه وانتقاه : اختاره .

خاصتك ، ولا تبعثن طليمة ، ولا سريةً ، في وجهٍ تتخوف فيه غلبةً أو ضيعةً ونكابةً ،
فإذا عاينت العدو ، فاضم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك
وقوتك ، ثم لاتعاجلهم المناجزة ، مالم يستكبرهك قتال ، حتى تبصر عورةَ عدوك
ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك ، كصنعه بك ، ثم أذك
أحراسك على عسكريك ، وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتني بأسير ليس له عقد^(١)
إلا ضربت عنقه ، لترهب به عدو الله وعدوك ، والله ولي أمرك ومن معك ، وولى النصر
لكم على عدوكم ، والله المستعان .

(المقد الفريد ١ : ٤٠)

٩٥ - وصيته للمجاهدين

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عند عقد الأوية :

« بسم الله وبالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ،
ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب
المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور^(٢)
ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شن^(٣)
الغارات »

(المقد الفريد ١ : ٤٠)

(١) عهد .

(٢) الغلبة .

(٣) شن الغارة عليهم : صبا من كل وجه .

٩٦ - وصية عمر ليعلى بن أمية

في إجلاء أهل نجران

روى الطبرى قال :

كان أول بعث بعثه عمر بعث أبي عبيد ، ثم بعث يعلى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه بذلك ، ولوصية أبي بكر رحمه الله بذلك في مرضه ، وقال :

« اتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلبهم من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم ، وامسح أرض كل من تجلبى منهم ، ثم خيرهم البلدان ، وأعلمهم أنا نجلبهم بأمر الله ورسوله ألا يُترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضا كأرضهم إقرارا لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بدمتهم ، فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف . »

(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٢)

٩٧ - خطبة لعمر

ولما انتهى إلى عمر قتل أبي عبيد بن مسعود نادى في المهاجرين والأنصار وخرج حتى أتى صرارا فمسك به ، واستشار الناس فكلهم أشار عليه بالسير إلى فارس واستشار ذوى الرأى فأشاروا عليه أن يقيم ويبعث رجلا فقام فى الناس فقال :

« إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين القلوب ، وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره . وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا (وأمرهم شورى بينهم) بين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام

بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم مارأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم .

يأبها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمتُ ومن خلقتُ » .
(تاريخ الطبري ٤ : ٨٣)

٩٨ - خطبة جرير بن عبد الله البجلي

وقال المثنى بن حارثة وهو على قتال فارس : من يتبع الناس إلى السبب ؟ فقام جرير بن عبد الله البجلي في قومه فقال :

« يا معشر بجيلية : إنكم وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء ، وليس لأحد منهم في هذا الخمس غدا من النفل مثل الذي لكم منه ، ولكم ربع خمسة نفلا من أمير المؤمنين ، فلا يكون أحد أسرع إلى هذا العدو ، ولا أشد عليه منكم للذي لكم منه ، ونيةً إلى ما ترجون ، فإنما تنتظرون إحدى الحسينيين : الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة » .
(تاريخ الطبري ٤ : ٧٦)

٩٩ - خطبة سعد بن أبي وقاص يوم أرمات

وخطب سعد بن أبي وقاص يوم أرمات^(١) (سنة ١٤ هـ) فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن الله هو الحق لا شريك له في الملك وليس لقوله خلف » قال الله جل ثناؤه :

(١) هو اليوم الأول من أيام القادسية .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) ،
إن هذا ميراثكم وموعد ر بكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها
وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبونها وتسبونها إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب
الأيام منكم ، وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة
وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ،
ولا يقرب ذلك أحدا إلى أجله ، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ر بكم وتؤبقوا
آخرتكم .

(تاريخ الطبري ٤ : ١١٤)

١٠٠ - خطبة عاصم بن عمرو

وقام عاصم بن عمرو فقال :

« إن هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منها منذ ثلاث سنين ما لا ينالون
منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطنن فلكم أموالهم
ونسأؤهم وأبنائهم وبلادهم ، وإن خرتهم وفشلتم - والله لكم من ذلك جارٌ وحافظ - لم
يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بعأدة هلاك ، الله الله ، اذكروا
الأيام وما منحكم الله فيها ، أو لا ترون أن الأرض وراءكم بسابس^(١) قفار ليس فيها خمر^(٢)
ولا وزر يعقل إليه ويمتنع به ؟ اجملوا همكم الآخرة . »

(تاريخ الطبري ٤ : ١١٤)

١٠١ - خطبة طليحة بن خويلد الأسدي

وحمل أصحاب الفيلة من جيش الفرس على المسلمين ، وكادت بجيلة أن تؤكل ، فرت
عنها خيلها نفارا ، فأرسل سعد إلى بني أسد : ذببوا^(٣) عن بجيلة ، وقام طليحة بن خويلد
الأسدي في قومه حين استصرخهم سعد فقال :

(١) البسيس : القفر . (٢) الحمر : ماوارك من شجر وغيره . (٣) دافعوا عنها .

« يا عشيرته : إن المنوّه باسمه الموثوقُ به ، وإن هذا لو علم أن أحداً أحقُّ بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدئوهم الشّدّة ، وأقدموا عليهم إقدام اللبوث الحربيّة^(١) فإنما تُسميم أسداً لتفعلوا فعله ، شدّوا ولا تصدوا وكروا ولا تفروا ، لله درُّ ربيعة ! أى فرى يفرون ، وأى قرن يُفنون ! هل يوصل إلى مواقفهم ؟ فأغنوا عن مواقفكم أعانكم الله ، شدّوا عليهم باسم الله . »
(تاريخ الطبرى ٤ : ١١٨)

١٠٢ - الخنساء تحرض أولادها على القتال

حضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فقالت لهم :

« يا بنى ، أنتم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنور رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت^(٢) حسبكم ، ولا غيّرت^(٣) نسبكم ، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، وأعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عزّ وجلّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فإذا أصبحتم غداً ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، والله على أعدائه مستنصرين . »

فلما أضاء لهم الصبح باكروا مرا كزهم ، فتقدّموا واحداً بعد واحد ، يُنشدون الأراجيز ، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً ، فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ رحمته . فكان عمر رضى الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائة درهم ، حتى قبض وماتت الخنساء .
(خزانة الأدب : ١ ، ٣٩٥)

(١) حرب : كليب واشتد غضبه فهو حرب . (٢) التهجين : التقييح .

(٣) غيره : لطفه بالقبائل ، أى دنست .

١٠٣ — خطبة عتبة بن غزوان

وفي سنة ١٤ هـ وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره بنزولها بمن معه وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم ، فرفعوا له منبرا وقام يخطب فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الدنيا قد تولت حذاء^(١) مُدْبِرَةً ، وقد آذنت أهلها بِصِرْمٍ^(٢) ، وإنما بقي منها صُبابَةٌ^(٣) كَصُبابَةِ الْإِنَاءِ بِصُطْبِهَا صَاحِبِهَا ، ألا وإنكم مفارقوها لا محالة ، ففارقوها بأحسن ما يحضركم ، ألا وإن من العجب أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحجر الضخم يُلْتَقَى في النار من شفيرها^(٤) ، فَيَهْوِي فيها سبعين خريفاً^(٥) ، ولجهم سبعة أبواب ما بين البابين منها مَسِيرَةٌ خُمِيسَاةٌ سَنَةٍ ، ولتأتين عليها ساعة وهي كظيظ^(٦) بالزحام ، ولقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سابعة ، مائتا طعاماً إلا ورقُ البِشَامِ^(٧) ، حتى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا ، فوجدت أنا وسعد بن مالك تمره ، فشققتها بيني وبينه نصفين ، والتقطت بُدَّةً فشققها بيني وبينه ، فَأَنْزَرْتُ بنصفها ، وَأَنْزَرْتُ بنصفها ، وما منا أحد اليوم إلا وهو أمير على مصر من الأمصار ، وإنه لم يكن نبوة قط إلا تناسختها^(٨) جَبْرِيَّةٌ ، وأنا أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً ، وفي أعين الناس صغيراً ، وستجربون الأمراء من بصدى ، فتعرفون وتنكرون . »

(تاريخ الطبري ٤ : ١٤٩٠ والعقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٧ ،

والكامل لابن الأثير ٢ : ١٨٨)

(١) السريمة الماضية التي لا يتعلق بها شيء . (٢) آذنت : أعلمت ، والصرم : القطع .

(٣) الصبابة : بقية الماء في الإناء . (٤) الشفير : حرف كل شيء .

(٥) سنة : والمراد أنها بعيدة الأقطار شاسعة الأرجاء . (٦) من كظه الطعام : ملاءة حتى لا يطيق النفس ، ورجل كظ وكظيظ ومكظوظ تهبطه الأمور حتى يمجز عنها . (٧) البشام : شجر عطر الرائحة يستاك به .

(٨) في الحديث « لم تكن نبوة إلا تناسخت » أي تحولت من حال إلى حال ، يعني أمر الأمة وتغاير

أحوالها ، والجبرية الجبروت .

١٠٤ - خطبة لسعد بن أبي وقاص

ولما نزل سعد بهر سير - وهي المدينة الدنيا - طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدينة القصوى (على نهر دجلة) فلم يقدر على شيء ووجدهم قد ضموا السفن ، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا ، فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموه أهل الأيام ، وعطلوا نفورهم ، وأفنوا ذاتهم . وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم . »

فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

واقترح دجلة وفتح المدينة القصوى (سنة ١٦ هـ) . (تاريخ الطبري ٤ : ١٧٠)

١٠٥ - خطبة عمر

ولما تجمعت جموع الفرس بنهاوند كتب سعد إلى عمر يخبره بذلك فاجتمع الناس وقام عمر على المنبر خطيبا فأخبرهم الخبر واستشارهم وقال :

« هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإني قد همت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبروني وأوجزوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفسخ^(١) بكم الأمور ، ويلتوى عليكم الرأي ، أفن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه ، حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين فأستنفرهم ثم أكون

(١) فشغه كمنه : علاه حتى غطاه .

لهم رداء حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب ، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم
في بلادهم ليتنازعوها ملكهم » .

فقام عثمان بن عفان ورجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فتكلموا كلاما فقالوا :

« لا نرى ذلك ، ولكن لا يفيعن عنهم رأيك وأثرك ، وقالوا : بإزائهم وجوه
العرب وفرسانهم وأعلامهم ومن قد فضّ جموعهم ، وقتل ملوكهم ، وباشر من حروبهم
ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك فأذن لهم واندب إليهم وادع
لهم » .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٧)

١٠٦ - خطبة لعلی

وقام على بن أبي طالب فقال :

« أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأي ، وفهموا ما كتب به إليك ، وإن هذا الأمر
لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى أظهره ، وجنده الذى أعزّه
وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر
جنده ، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه ، فإن انحلّ تفرق ما فيه
وذهب ، ثم لم يجتمع بمخايفه أبدا ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهى كثير عزيز
بالإسلام ، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة ، فهم أعلام العرب ورؤسائهم ، ومن لم يحفل
بمن هو أجمع وأحدّ وأجدّ من هؤلاء ، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث ، واكتب إلى أهل
البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٧)

فسر عمر بحسن رأيهم وأعجبه ذلك منهم .

١٠٧ - خطبة طلحة بن عبيد الله

وقام طلحة بن عبيد الله وكان من خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشهد ثم قال :
« أما بعد يا أمير المؤمنين فقد أحكمتك الأمور، وعَجَمَتِكَ^(١) البلايا، واحتَنَكَّتِكَ^(٢)
التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا تنبؤ في يديك ولا نكل عليك ، إليك
هذا الأمرُ فرُّنا نُطع ، وادعنا نجب ، واحملنا نركب ، ووقدنا نهد ، وقُدنا نَنقَد ، فإنك
ولّى هذا الأمر ، وقد بلوتَ وجربتَ واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله
لك إلا عن خيار » ثم جلس .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٨)

١٠٨ - خطبة عثمان بن عفان

فعاد عمر فقال : إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا ، فقام عثمان بن عفان
فتشهد وقال :
« أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم ، وتكتب
إلى أهل اليمن فيسيروا من بينهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرَمين إلى المصرين : البصرة
والكوفة ، فتلقى جميع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك .
قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعزّ عزا وأكثر يا أمير المؤمنين ،
إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقيةً ، ولا تمتنع من الدنيا بعزير ، ولا تلوذ منها
بحريز ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه »
ثم جلس .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٨)

(١) عجم العود : عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٢) أحكمتك .

١٠٩ - خطبة علي بن أبي طالب

فعاد عمر فقال : إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا ، فقام علي بن أبي طالب فقال :

« أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شأمهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض ، انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أمم^١ إليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، أقرز هؤلاء في أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق : فلتقم فرقة لهم في حرّمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددا لهم .

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لكليبهم وألبتهم^(١) على نفسك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله أكره^٢ لسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر . »

فقال عمر : أجل والله لئن شخصت من هذه البلدة لتنتقضن^٢ على الأرض من أطرافها وأكنافها ، ولئن نظرت إلى الأعاجم لا يفارقن العرصة^(٢) ، وليمدتهم من لم يدمهم ، وليقولن : هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب : فأشيروا على^٢ برجل أوله ذلك الثغر غدا ، قالوا أنت أفضل رأيا ، وأحسن مقدرة ، قال : أشيروا على^٢ به واجعلوه عراقيا ، قالوا يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق ،

(١) ألب إليه القوم : أتوه من كل جانب . (٢) إلى الساحة .

وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم ، فقال : أما والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن
لأول الأسننة إذا لقيها غدا ، فقل من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : النعمان بن مقرن المزني ،
فقالوا : هو لها ، والنعمان يومئذ بالبصرة ، فولاه . (تاريخ الطبري ٤ : ٢٣٨)

١١٠ — خطبة النعمان بن مقرن

ونشب القتال بين المسلمين والفرس ، وكان النعمان يسير في الناس على بردون
أحوى^(١) قريب من الأرض فيقف على كل راية ويحمد الله ويثني عليه ويقول :

« قد علمت ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم
هواذي^(٢) ما وعدكم وصدوره ، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله منجز وعده ، ومتبع
آخر ذلك أوله ، واذكروا ماضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة ،
فأنتم اليوم عباد الله حقا وأولياؤه ؛ وقد علمت انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة ،
والذي لهم في ظفركم وعزكم ، والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم ، وقد ترون من أنتم بإزائه
من عدوكم ، وما أخطرتكم وما أخطروا لكم ، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرثة^(٣) وما ترون
من هذا السواد ، وأما ما أخطرتكم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولا سوا ما أخطرتكم وما أخطروا ،
فلا يكونن على دنياهم أحى منكم على دينكم ، واتق الله عبد صدق الله وأبلى نفسه فأحسن
البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظرين : إحدى الحسينين ، من بين شهيد حى مرزوق أو ففتح
قريب وظفر يسير ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يكل قرنه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قرنه
وقرن نفسه ، وذلك من الملامة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم
مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمرى فاستعدوا ، فإنى مكبر ثلاثا ، فإذا كبرت التكبير

(١) وصف من الحوة وهى : حرة إلى السواد .

(٢) أوائل جمع هاد .

(٣) الرثة : ضعفاء الناس .

الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتهيأ للنهوض ،
فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معا ، اللهم أعز دينك وانصر عبادك ،
واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك » .

وزلق فرسه في دماء القوم فصرع فاستشهد . (تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٢)

خطب رجال من الفاتحين

بين يدي يزيد جرد ملك الفرس وقواده

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على فتح العراق يأمره أن يبعث إلى يزيد جرد ملك الفرس رجالا من أهل المنظرة^(١) والرأى والجلد يدعونهم ، فاخترهم وأنفذهم إليه بالمدائن ، فلما دخلوا عليه أمر التزجج^(٢) بينه وبينهم فقال : سلمهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ، أمن أجل أنا أجمناكم^(٣) وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فقال لهم النعمان بن مقرن : إن شئتم أحببت عنكم ، ومن شاء آثرته ، فقالوا : بل تكلم ، فتكلم النعمان فقال :

١١١ - خطبة النعمان بن مقرن

« إن الله رحمتنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين : فرقة تقاربه ، وفرقة تباعدُهُ ، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواصُّ ، فكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعاً على وجهين : مُكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه ، من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبداً بمن يليقنا من الأمم ، فنَدَعُوهُمْ إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن

(١) المنظر . (٢) من أجم الماء إذا تركه يجتمع ، أي أرحناكم وانصرفنا عنكم .

الْحَسَنَ ، وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ ، فَإِنَّ أَيْتِمَ فَأَمْرًا مِنَ الشَّرِّ ، هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخِرِ شَرِّهِ مِنْهُ ،
الْجِزَاءُ^(١) ، فَإِنَّ أَيْتِمَ فَالْمُنَاجِزَةَ ، فَإِنَّ أَجْبَتُمْ إِلَى دِينِنَا خَلَقْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَقْنَاكُمْ
عَلَيْهِ ، عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ ، وَتَرْجِعَ عَنْكُمْ وَأَشَانَكُمْ وَبِلَادِكُمْ ، وَإِنْ اتَّقَيْتُمُونَا بِالْجِزَاءِ
قَبِلْنَا وَمَنْعْنَاكُمْ ، وَإِلَّا قَاتَلْنَاكُمْ .

* * *

فقال يزيد جرد : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ
ذاتَ بَيْنٍ مِنْكُمْ ، قد نوكلُ بكم قُرَى الضواحي فيكفونناكم ، لا تغزوكم فارس ،
ولا تطعمون أن تقوموا لهم ، فإن كان غرور لحقكم ، فلا يغرنكم منا ، وإن كان
الجهد دعاكم ، فرضنا لكم قوتاً إلى خضبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا
عليكم ملكاً يرفق بكم ، فقام المغيرة بن زرارة فقال :

١١٢ - خطبة المغيرة بن زرارة

أيها الملك : إن هؤلاء رهوسُ العرب ووجوههم ، وهم أشرف يستحيون من
الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف . ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ،
ويفضخ الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به جمعه لك ، ولا كل ما تكلمت
به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسنُ بمنلهم إلا ذلك ، فخاوبني لأكون الذي
أبلغك ، ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ما ذكرت
من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل
الخنافس ، والجعلان^(٢) والعقارب والحياتِ فترى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هي ظهر
الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا

(١) الجزاء : جمع جزية . (٢) جمع جمل بضم ففتح : وهو الحرياء .

بعضاً ، وَيُفَيِّرَ بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا لَيَدْفِنُ ابنتهُ وهي حيةٌ كراهيةً أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك ، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نَعْرِفُ نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خيراً أرضنا ، وحسبه خيراً أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبيلتنا ، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها ، أصدقنا وأحلنا ، فدعانا إلى أمر ، فلم يجب أحدٌ أول من تَرَبَّبَ كان له ، وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان ، فخذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنتُ إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء ، وإلى بصير كل شيء ، وإن رحمتي أدر كتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل ، لأدلكم على السبيل التي بها أجيحكم بعد الموت من عذابي ، ولأحلكم داري دار السلام ، فشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا ، فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبي فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبي فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قُتِلَ منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناواه ، فاختر إن شئت الجزية عن يدي وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجي نفسك .

فقال بزدرجرد : أتستقبلني بمثل هذا ؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي ، ثم قال : انتوني بوقر^(١) من تراب ، فقال احمولوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

(تاريخ الطبري ٤ : ٩٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٣)

(١) الوقر : الحمل الثقيل أو أعم .

١١٣ — مقال ربيعى بن عامر عند رستم قائد جيش الفرس

وأرسل رستم قائد جيش الفرس ، إلى سعد بن أبي وقاص ، أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا ، فبعث إليه ربيعى بن عامر ، فلما انتهى إليه قال له التَّزْجَانُ (واسمه عبود من أهل الحيرة) ما جاء بكم ؟ قال :

« الله ابتعثنا ، والله جاء بنا ، لنُخْرَجَ من شاء من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نُفْضَى إلى موعود الله ، قال وماموعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى . »

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٠٦ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٧)

١١٤ — خطبة المغيرة بن شعبه في حضرة رستم

وبعث إليه أيضاً المغيرة بن شعبه ، فتكلم بحضرته ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إنَّ الله خالق كل شيء ورازقه ، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له ، وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء ، والتمكن فى البلاد ، وعَظَمَ السلطان فى الدنيا ، فنحن نعرفه ، ولسنا ننكره ، فالله صنعه بكم ، ووضع فىكم وهو له دونكم ، وأما الذى ذكرت فىنا من سوء الحال ، وضيق المعيشة ، واختلاف القلوب ، فنحن نعرفه ، ولسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك ، وصيرنا إليه ، والدنيا دُؤْلٌ ، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء ، حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخاؤها يتوقعون الشدائد ، حتى تنزل بهم ، ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شكر ، كان

شكركم يَقْصُرُ عما أوتيتم ، وأسَلَمَكم ضعف الشكر إلى تغير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر ، كان عظيم ما تتابع علينا ، مستجلباً من الله رحمة يُرَفِّقَ بها عنا ، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه ، أو كنتم تعرفوننا به ، إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً ، ثم ذكر مثل الكلام الأول .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٠٩ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٨)

١١٥ - خطبة المغيرة بن شعبه

لما اجتمعت جيوش المسلمين بنهاوند (سنة ٢١ هـ) وأميرهم النعمان بن مقرن المزني أرسل بُندارَ العليج إليهم أن أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه ، فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبه ، فأدخل إليه وترجم له قوله :

« إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير ، وأطول الناس جوعاً ، وأشقى الناس شقاءً ، وأقذر الناس قدراً ، وأبعده داراً ، وما منهنى أن أمر هؤلاء الأساورة^(١) حولي أن ينتظموك بالنشأب إلا تنجسوا لحيفكم ، فإنكم أرجاس ، فإن تذهبوا نُحِلَّ عنكم ، وإن تابوا نُرِكَم مصارعكم . »

قال : فحمدت الله وأثنت عليه فقلت : « والله ما أخطأت من صفتنا شيئاً ولا من نعمتنا . إن كنا لأبعد الناس داراً ، وأشد الناس جوعاً ، وأشقى الناس شقاءً ، وأبعد الناس من كل خير ، حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، فوالله ما زلنا نعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله بالفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى تغلبكم على ما في أيديكم ، أو نقتل بأرضكم . »

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٤)

(١) الأساورة : جمع أسوار ، والأسوار : بالضم والكسر قائد الفرس .

١١٦ - خطبة عمر

وغزا الأحنف بن قيس خراسان وحارب يزيدجرد سنة ٢٢ هـ ثم أقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاقدوه ودفنوا إليه خزائن يزيدجرد وتراجعوا إلى بلادهم ، وبعث الأحنف بالخبر والغنائم إلى عمر بن الخطاب فجمع الناس وخطبهم فقال في خطبته :

« إن الله تبارك وتعالى ذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وما بعثه به من الهدى ، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) فالحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر جنده ، ألا إن الله قد أهلك ملك الجوسية وفرق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شيئا يضر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون .

ألا وإن المصريين من مسالحها^(١) اليوم كأنتم والمصريين فيما مضى من البعد ، وقد وغلوا في البلاد ، والله بالغ أمره ومنجز وعده ، ومُتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يوف لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تُغَيِّرُوا فيستبدل الله بكم غيره ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُتَوَّى إلا من قبلكم .

(تاريخ الطبري ٤ : ٢٦٧)

١١٧ - خطبة عثمان بن أبي العاص

ولما فتح عثمان بن أبي العاص إصطخر (سنة ٢٣ هـ) وجمع إليه ما آفاه الله على المسلمين خمسة ، وبعث بالخمس إلى عمر ، وقسم أربعة أخماس الغنم في الناس ،

(١) المسالحة : جمع مسلحة ، وهي الثغر .

وعفت الجند عن النهاب ، وأدّوا الأمانة ، واستدقوا^(١) الدنيا ، فجمعهم عثمان ثم قام
فيهم وقال :

« إن هذا الأمر لا يزال مقبلا ، ولا يزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يفتلوا ،
فإذا غلّوا رأوا ما يُنكرون : ولم يسدّ الكثير مسدّ القليل اليوم » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٣)

(١) رأوها دقيقة حقيرة .

في فتح الشام

١١٨ - بين الروم ومعاذ بن جبل

وبعث الروم إلى أبي عبيدة أن « أرسل إلينا رجلا من صلحائكم نسأله عما تريدون ، وما تسألون ، وما تدعون إليه ، ونخبره بذات أنفسنا ، وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم ، فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فاتاهم ، فقالوا للترجمان قل له :

« أخبرونا ما تطلبون ؟ وإلام تدعون إليه ؟ وما أدخلكم بلادنا ؟ وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببيعد ، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملك فارس وهلك ابنه ، وإنما تملكهم اليوم النساء ونحن مديكنا حتى ، وجنودنا عظيمة كثيرة ، وإن اقتحمتم من مدائننا مدينة ، أو من قرانا قرية ، أو من حصوننا حصنا ، أو هزمت لنا عسكريا ، أظنتم أنكم قد ظفرتم بجماعتنا ؟ وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم ؟ أو فرغتم ممن وراءنا منا ، ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض ! وأخبرونا لم تستحلون قتالنا ، وأنتم تؤمنون بنبيينا وكتابنا ؟ » .

فلما قالوا هذا القول وفسره الترجمان لمعاذ سكتوا ، فقال معاذ للترجمان : قد فرغوا ؟ قال له : نعم ، قال : فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذا كر حمد الله الذي لا إله إلا هو ، والصلاة على محمد نبيي صلى الله عليه وسلم ، وأن أول ما أدعوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله وحده ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تصلوا صلاتنا وتستقبلوا قبلتنا ، وأن تستنوا بسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتكسروا الصليب ، وتجتنبوا شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، ثم أنتم منا ونحن منكم ، وأنتم إخواننا في ديننا ، لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن

أبيتم فأذوا الجزية إلينا في كل عام وأنتم صاغرون ، ونكف عنكم ، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين فليس شيء مما خلق الله عز وجل نحن قابله منكم ، فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، فهذا ما نأمركم به وما ندعوكم إليه .

وأما قولكم : « ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم بعيد ، وتركتم أهل فارس ، وقد هلك ملكهم » فإنني أخبركم عن ذلك : ما بدأنا قتالكم لأنكم أقرب إلينا منهم ، وإنكم عندنا جميعاً بالسواء ، وما جاءنا كتابنا بالكف عنهم ، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا صلى الله عليه وسلم فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) وكنتم أقرب إلينا منهم ، فبدأنا بكم لذلك ، وقد أتاهم طائفة منا وهم يقاتلونهم ، وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم فينصر .

وأما قولكم : « إن ملكنا حتى ، وإن جنودنا عظيمة ، وإنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض » وتؤنسونا من الظهور عليكم فإن الأمر في ذلك ليس إليكم ، وإنما الأمور كلها إلى الله ، وكل شيء في قبضته وقدرته ، وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا ، وأميرنا رجل منا ، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم أقرناه علينا ، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا ، وإن هو سرق قطعنا يده ، وإن زنى جلدناه ، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه ، وإن جرحه أفاده^(١) من نفسه ، ولا يحتجب منا . ولا يتكبر علينا ، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاءه الله علينا وهو كرجل منا .

وأما قولكم : « جنودنا كثيرة » فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض ، فإننا لانتق بها ولا نتكل عليها ، ولا نرجو النصر على

(١) أفضه .

عدونا بها ، ولكننا تبرا من الحول والقوة ، وتوكل على الله عز وجل ، وثق بربنا ، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها ، وغلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها ، قال تبارك وتعالى : « كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وأما قولكم « كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابتنا » فأنا أخبركم عن ذلك : نحن نؤمن بنبينا ونشهد أنه عبد من عبيد الله ، وأنه رسول من رسل الله ، وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فَيَكُونُ ، ولا نقول إنه الله ، ولا نقول إنه ثانی اثنین ، ولا ثالث ثلاثة ، ولا إن الله والد ولا إن له صاحبة ولا ولداً ، ولا إن معه آلهة أخرى ، لا إله إلا هو ، تعالى عما يقولون علواً كبيراً ، وأنتم تقولون في عيسى قولاً عظيماً ، فلو أنكم قتلتم في عيسى كما نقول ، وآمنتم بنبوته نبينا صلى الله عليه وسلم كما تجدونه في كتابكم ، وكما نؤمن نحن بنبيناكم ، وأقررتم بما جاء به من عند الله ، ووجدتم الله ، ما قاتلناكم ، بل كنا نسالكم ونواليكم ونقاتل معكم عدوكم .

فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له : ما نرى بيننا وبينك إلا متباعدة ، وقد بقيت خصلة نحن نعرضها عليكم ، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم ، وإن أبيتم فهو شر لكم . نمطكم اللقاء وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وتمحوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ، ونكتب عليكم كتاباً نسمى فيه خياركم وصلاحكم ، ونأخذ عهدكم ومواثيقكم على ألا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس ققاتلهم ، ونحن معكم نعينكم عليهم حتى تقتلهم وتظهروا عليهم .

فقال معاذ : هذا الذي عرضتم علينا وتعطوناه كله في أيدينا ولو أعطيتهمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وصفت لكم ما فعلنا .

فغضبوا عند ذلك وقالوا : نتقرب إليك وتتباعد عنا ؟ اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً ، فقال معاذ : أما الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا ، أولنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون » وانصرف معاذ .

١١٩ - بين أبي عبيدة ورسول الروم

وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة فأخبره بما قالوا ، ثم أرسل الروم رسولا من قبلهم إلى أبي عبيدة فقال له : أنا عرض عليكم أمراً لكم فيه حظ إن قبيلتموه : نحن نعطيكم دينارين دينارين وثوباً ثوباً ، ونعطيك أنت ألف دينار ، ونعطى الأمير الذى فوقك - يعنون عمر - ألفي دينار ، وتنصرفون عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا ، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتاباً يستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلظة ليقومن به وليقين بما عاهد الله عليه .

فحمد الله أبو عبيدة وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« إن الله بعث فينا رسولا نبيا ، وأنزل عليه كتابا حكيا ، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم رحمة منه للعالمين ، وقال لهم : إن الله إله واحد ، عزيز حكيم ، عليّ مجيد ، وهو خالق كل شيء وليس كمثل شيء ، وأمرهم أن يوحدوا الله الذى لا إله إلا هو ، ولا يتخذوا له صاحبة ولا ولداً ، ولا يتخذوا معه آلهة أخرى ، وأن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه ، وأمرنا صلى الله عليه وسلم فقال : إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل ، فمن آمن وصدق فهو أخوكم فى دينكم ، له ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يديهم وهم صاغرون ، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية

فأقتلوهم وقتلوهم فإن قتلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله ، وهو في جنات النعيم ،
وقتل عدوك في النار .

فإن قبلتم ماسمتم مني فهو خير لكم ، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا
وهو خير الحاكمين .

فقال الرومي : قد أبيتم إلا هذا ؟ فقال له أبو عبيدة : نعم ، فقال له الرومي : أما والله
على ذلك ، إنى لآنراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم .
(فتوح الشام ص ١٠٠)

١٢٠ — بين باهان وخالد بن الوليد

وبعث باهان أمير الروم إلى خالد بن الوليد أن القتي ، فأقبل إليه خالد ، فقال باهان :
إن شئت فتكلم ، وإن شئت بدأتك فتكلمت ، فقال له خالد : فتكلم ،
فقال باهان :

« الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء ، ومَلِكنا أفضل الملوك ، وأمتنا خير الأمم ،
فلما بلغ هذا المكان ، قال خالد للترجمان : وقطع على صاحب الروم منطقه ثم قال :
« الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبينا ، وبجميع الأنبياء ، وجعل الأمير الذي وليناه
أمورنا رجلا كبعضنا ، فلو زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنا ، ولسنا نرى أن له على رجل
من المسلمين فضلا ، إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبر » ، والحمد لله الذي جعل أمتنا
تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتقرُّ بالذنب وتستغفر الله منه ، وتعبد الله وحده
لا تشرك به شيئا » قل الآن ما بدا لك .

فاصفر وجه باهان ومكث قليلا ، ثم قال : « الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء
عندنا ، وأغنانا من الفقر ، ونصرنا على الأمم ، وأعزنا فلا نذل ، ومنعنا من الضيم ،
فلا يباح حرماننا ، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا ببطرين ولا مَرَحِين ولا

باغين على الناس ، وقد كانت لنا منكم يا معشر العرب جيران كُنَّا نحسِن جِوارهم ،
وَنُعْظِم قَدْرهم ، وَنُقْضِل عليهم ، وَنَفِي لهم بالعهد ، وَخَيْرَناهم بلادنا ، ينزلون منها حيث
شاءوا ، فينزلون آمنين ، ويرحلون آمنين ، وكنا نرى أن جميع العرب من لا يجاورنا
سيشكر لنا ذلك الذي أتينا إلى إخوانهم ، وما اصطَنَعنا عندهم ، فلم يَرُعنا منكم
إلا وقد فاجأتمونا بالخليل والرجال ، تقاتلوننا على حُصُوننا ، وتريدون أن تغلبونا على
بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عدداً ، وأعظم مَكيدة ،
وأوفى جُنْداً ، ثم رددناهم عنها ، فلم يرجعوا عنَّا إلا وهم بين قتيلٍ وأسير ، وأراد ذلك
منا فارس ، فقد بلغكم كيف صنَع الله عزَّ جلَّ بهم ، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم
بأشد مما لقينا به فارس ، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوى المنعة والعزِّ
والجنود العظيمة ، فكلمهم أظفَرنا الله بهم ، وصنع لنا عليهم ، ولم تكن أمة من الأمم
بأرقَّ عندنا منكم شأنًا ، ولا أصغر أخطارا^(١) إنما جَلَّكم رِعاة الشاء والإبل ،
وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء ، فأنتم تطمعون أن نجلى لكم عن بلادنا ؟ بئس
ما طعمتم فيه منا ، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا - ونحن يتقى كل من حولنا من الأمم
العظيمة الشأن الكثيرة العدد ، مع كثرتنا وشدة شوكتنا - إلا جهْدُ نزل بكم من جدوبة
الأرض وقحط المطر ، وعِنتم في بلادنا وأفسدتم كل الفساد ، وقد ركبتُم مراكبنا ، وليست
كمرأ كِبكم ، وللبسم ثيابنا وليست كثيابكم ، وثياب الروم البيض كأنها صفايح الفضة ،
وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم ، وأصبتم منا وملائم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة
البيضاء والمتاع الفاخر ، وقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا ، فهو في أيديكم ، فنحن نسلمه
لكم فاخرجوا به وانصرفوا عن بلادنا ، فإن أبت أنفسكم إلا أن تمحصوا وتشرَّهوا ،
وأردتم أن تزيدكم من بيوت أموالنا ما يقوى به الضعيف منكم ، ويرى الغائب أن قد

رجع إلى أهله بخير ، فعلنا ، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار ، ونأمر لك بمثلها ،
ونأمر لرؤسائكم بألف دينار ألف دينار ، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار مائة دينار ،
على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلظة ألا تعودوا إلى بلادنا ، ثم سكت .

١٢١ — جواب خالد

فقال خالد رحمه الله : الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، فلما فسر له الترجمان قوله : الحمد لله
الذي لا إله إلا هو رفع يده إلى السماء ، ثم قال لخالد نعم ما قلت ، ثم قال خالد : وأشهد
أن محمداً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فسر له الترجمان قال باهان : الله أعلم ،
ما أدري ، لعله كما تقول ، فأخبر خالد الترجمان . ثم قال خالد رحمه الله :

« أما بعد : فإن كل ما ذكرت به قومك من الغنى والعز ومنع الحریم والظهور
على الأعداء ، والتمكن في البلاد ، فنحن به عارفون ، وكل ما ذكرت من إنعامكم
على جيرانكم منا ، فقد عرفناه ، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم ، وإصلاحكم
كان إليهم وإحسانكم إليهم ، كان ذلك زيادة في ملككم وعزا لكم ، ألا ترون أن
نلتهم أو شطرهم دخلوا معكم في دينكم فهم يقاتلوننا معكم ؟ .

وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والغنم ، فما أقل من رأيت واحداً منايكرهه ، ومالم
يكن يكرهه منا فضل على من يفعله ، وأما قولكم : إنا أهل الصخر والحجر والبؤس
والشقاء ، فخالنا والله كما وصفته ، ما نتقي من ذلك ولا نتبرأ منه ، وكننا على أسوأ
وأشد مما ذكرت ، وسأقص عليك قصتنا ، وأعرض عليك أمرنا ، وأدعوك إلى حظك
إن قبلت ، ألا إنا كنا معشر العرب أمة من هذه الأمم ، أنزلنا الله — وله الحمد —
منزلاً من الأرض . ليست به أنهار جارية ، ولا يكون به من الزرع إلا القليل ، وكل
أرضنا المهامة^(١) والقفار ، فكنا أهل حجر ومدار^(٢) وشاء وبمير ، وعيش شديد ، وبلاء

(١) جمع مهمه : القفر . (٢) المدر : قطع الطين اليابس .

دائم لازم ، نقطع أرحامنا ونقتل خشية الإملاق أولادنا ، وبأكل قويتنا ضعيفنا ، وكثيرنا قليلنا ، ولا تأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة^(١) ، نعبد من دون الله أربابا وأصناما ، ننحتها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ونحن عليها مُكِبُونَ ، فبينما نحن كذلك على شفا^(٢) حفرة من النار ، من مات من مات مشركا ، وصار إلى النار ، ومن بقى منا بقى كافراً مشركا بربه ، قاطعاً لرحمه ، إذ بعث الله فينا رسولا من صميمنا وشرقاتنا وخيارنا وكرماننا وأفضلنا ، دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركون دونه ، وقال لنا لا تتخذوا من دون الله ربكم إلهاً ولا ولياً ولا نصيراً ، ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولداً ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً ، ولا شمساً ولا قرراً ، واكتفوا به رباً وإلهاً من كل شيء دونه ، وكونوا أوليائه ، وإليه فادعوا ، وإليه فارغبوا ، وقال لنا : قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى ، وكل من زعم أن لله ولداً وأنه ثانی اثنين أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويدخلوا في الإسلام ، فإن فعلوا حرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها ، وهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم وأقاموا على دينهم فاعرضوا عليهم الجزية أن يؤدوها عن يديهم وهم صاغرون ، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، وإن أبوا فقاتلوهم فإنه من قتل منكم كان شهيدا حياً عند الله مرزوقاً ، وأدخله الله الجنة ، ومن قتل من عدوكم قتل كافراً ، وصار إلى النار مخلداً فيها أبداً ، ثم قال خالد :

وهذا والله الذي لا إله إلا هو أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم فعملنا وأمرنا به أن ندعو الناس إليه ونحن ندعوكم إلى ما دعانا إليه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما أمرنا به أن ندعو إليه الناس ، فندعوكم إلى الإسلام ، وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإلى أن تقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتقرؤوا بما جاء من عند الله

(١) هي الأشهر الحرم : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . (٢) حرف .

عزَّ وجلَّ ، فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسلام ، لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم
فإننا نفرض عليكم أن تمطوا الجزية عن يدي وأنتم صاغرون ، فإن فعلتم قبلنا منكم وكففتنا
عنكم ، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قومٌ هم أحصر على الموت منكم على
الحياة ، فاخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم إلى الله ، فإنما الأرض لله يورثها من
يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » ثم سكت خالد .

فقال باهان : أمّا أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من أن يترك دينه
ويدخل في دينكم ، وأمّا أن تؤدّي الجزية — فتنفس الصعداء^(١) وثقلت عليه وعظمت
عنده — فقال : سيموت من ترى جميعاً قبل أن يؤدّوا الجزية إلى أحد من الناس ، وهم
يأخذون الجزية ولا يمطونها ، وأمّا قولك : فاخرجوا حتى يحكمكم الله بيننا ، فلمعمرى ما جاءك
هؤلاء القوم وهذه الجوع إلا ليحاكموك إلى الله ، وأمّا قولك : إن الأرض لله يورثها من
يشاء من عباده فصدقت ، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها ،
إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فيها ، فقاتلناهم عليها فأخرجناهم منها ، وقد كانت قبل ذلك
لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كُنّا قاتلناهم عنها ، فبرزوا على اسم الله فإننا
خارجون إليكم » .
(فتوح الشام ص : ١٧٩)

١٢٢ — خطبة عمرو بن العاص

وما نقض أهل الأزدن العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين ، قام عمرو بن العاص ،
وجمع إليه من كان قبله من المسلمين :

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد فقد برئت ذمّة الله من رجل من أهل عهدنا من أهل الأردن قدّم

(١) التنفس الطويل .

على رجل من أهل إيليا ، أو كان عنده لم يأتنا به ، ولم يرفعه إلينا ، ألا ولا يَبْقَيْنَ رجل من أهل عهدنا إلا تَهَيَّأ واستعد ، حتى يسير معي إلى أهل إيليا ، فإني أريد المسير إليهم ، والنزولَ بساحتهم ، ثم لا أزيِّلُهُمْ حتى أقتل مقاتلتهم ، وأسبي ذراريهم ، أو يؤذوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

(فتوح الشام ص ١٤٦)

١٢٣ - خطبة عمر

ولما حصر أبو عبيدة أهل إيليا ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحربه سأله الصلح على أن يكون عمر هو الذي يعطيهم العهد ، ويكتب لهم الأمان ، فأقبل عمر إلى الشام حتى انتهى إلى الجابية فقام في الناس فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد الحميد ، الدافع الغفور الودود ، الذي من أراد أن يهديه من عباده اهتدى ، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا .

أما بعد - فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن خيار أمتي الذين يلونكم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل على الشهادة ولم يُسَدِّشْهد عليها ، وحتى يحلف على اليمين ولم يُسألها ، فمن أراد بَجْبُوْحَةٍ^(١) الجنة فليزِم الجماعة ، ولا يبالي اللهُ شدوْدَ من شد ، ألا لا يخلونَ رجل منكم بامرأةٍ إلا أن يكون لها محرماً فإن ثالثهما الشيطان »

(فتوح الشام ص ٢٢٦)

١٢٤ - خطبة عمر

ولما كان عمر رضى الله عنه بالشام ، قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

(١) وسطها .

« يا أهل الإسلام ، إن الله قد صدقكم الوعد ، ونصركم على الأعداء ، وورثكم البلاد ، ومكن لكم في الأرض ، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر ، وإياكم والعمل بالمعاصي ، فإن العمل بالمعاصي كفرٌ للنعم ، وقاماً كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفرغوا إلى التوبة ، إلا سلبوا عزهم ، وسُلط عليهم عدوهم » ثم نزل .
(فتوح الشام ص ٢٣١)

١٢٥ - خطبة لعمر

وقفل عمر من الشام إلى المدينة في ذى الحجة سنة ١٧ هـ ، وخطب حين أراد القبول فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« ألا إني قد وُلّيت عليكم ، وقضيت الذي عليّ في الذي ولّاني الله من أمركم إن شاء الله ، قَسَطْنَا^(١) بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا ما لديكم ، فنجَدنا لكم الجنود ، وهَيَّأْنَا لكم الفروج^(٢) ، وبوَأْنَاكم ووسّعنا عليكم ما بلغ فيئكم ، وما قاتلتم عليه من شأمكم ، وسمينا لكم أطعاكم ، وأمرنا لكم بإعطائكم أرزاقكم ومماونكم ، فمن عَلِمَ عَلِمَ شَيْءٌ يَنْبَغِي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ، ولا قوّة إلا بالله »
(تاريخ الطبرى ٤ - ٢٠٤)

١٢٦ - خطبة عمر

ولما رجع عمر رضى الله عنه إلى المدينة ، استقبله الناس يهنئون بالنصر والفتح ، فجاء حتى دخلَ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى ركعتين عند المنبر ، ثم صعد المنبر فاجتمع الناس إليه ، فقام :

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ،
إِنَّ اللَّهَ قَدْ اصْطَنَعَ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَحْمَدُوهُ وَيُشْكِرُوهُ ، وَقَدْ أَعَزَّ دَعْوَتَهَا ، وَجَمَعَ كَلِمَتَهَا ،
وَأَظْهَرَ فَجْجَهَا ^(١) ، وَنَصَرَهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَشَرَّفَهَا وَمَكَّنَ لَهَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَوْرَثَهَا
بِلَادَ الْمُشْرِكِينَ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْدِثُوا لِلَّهِ شُكْرًا يَزِيدَكُمْ ، وَاحْمَدُوهُ عَلَى نِعْمَةِ عَلَيْهِمْ
يُدِيمُهَا لَكُمْ ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » ثم نزل . (فتح الشام ص ٢٣٩)

١٢٧ - وصية أبي عبيدة للمسلمين

وقد أصابه طاعون عمواس

وكان طاعون عمواس قد عمَّ أهل الشام (سنة ١٨ هـ) ومات فيه بشرٌ كثير ،
ومات فيه أبو عبيدة رحمه الله .

ولما طعن أبو عبيدة وهو بالأردن ، دعا المسلمين ، فلما دخلوا عليه قال :

« إِنِّي أَوْصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ إِنْ قَبِلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا بَقِيتُمْ ، وَبَعْدَ مَا تَهْلِكُونَ ،
أَفِيئُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ ، وَصُومُوا وَتَصَدَّقُوا ، وَحُجُّوا وَاعْتَمَرُوا ، وَتَوَاصَلُوا وَتَحَابَّوْا
وَاصْدُقُوا أُمَّرَاءَكُمْ وَلَا تَغَشَّوْهُمْ ، وَلَا تُلْهِكُمْ الدُّنْيَا ، فَإِنْ امْرَأٌ لَوْ عُمِرَ أَلْفَ حَوْلٍ مَا كَانَ
لَهُ بَدٌّ مِنْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَضْرَعِي هَذَا الَّذِي تَرَوْنَ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لِلْمَوْتِ عَلَى نَبِيِّ آدَمَ
فَهْمٌ مِيتُونَ ، وَأَكْرَمُهُمْ مِنْهُمْ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ لِيَوْمِ مَعَادِهِ » ثم قال : يَا مَعَاذُ صَلِّ
بِالنَّاسِ ، فَصَلِّ مَعَاذَ النَّاسِ ، وَمَاتَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ . (فتح الشام ص : ٢٤٠)

(١) الفلج : الفوز والظفر .

١٢٨ - خطبة معاذ بن جبل عند موت أبي عبيدة

فقام معاذ بن جبل في الناس فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تَوَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ تَوْبَةً ، فَإِنَّ عَبْدًا أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَائِبًا مِنْ ذَنْبِهِ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ذُنُوبَهُ ، وَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَلْيَقْضِهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مَرَّتَيْنِ بَدِينَهُ ، وَمَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مِصَارِمًا^(١) مَسْلَمًا فَلْيَلِيقْهُ ، وَلْيَصَالِحْهُ إِذَا لَقِيَهِ ، وَلْيَصَالِحْهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ فَجَعْتُمْ بِرَجُلٍ وَاللَّهِ مَا أَزْعَمَ أَنْي رَأَيْتُمْ مِنْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَطُّ أَقْلَ عَمْرًا^(٢) ، وَلَا أَبْرَ صَدْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ مِنَ الْغَائِلَةِ^(٣) ، وَلَا أَنْصَحَ لِلْعَامَةِ ، وَلَا أَشَدَّ عَلَيْهِمْ تَحَنُّنًا وَشَفَقَةً مِنْهُ ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ احْضَرُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَاللَّهِ لَا يَلِي عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ مِثْلُهُ أَبَدًا » .

فاجتمع النَّاسُ ، وَأَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ ، وَتَقَدَّمَ مِعَاذٌ فَصَلَّى عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا أَتَى بِهِ قَبْرَهُ ، دَخَلَ قَبْرَهُ مِعَاذٌ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَالضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ ، فَلَمَّا وَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ وَخَرَجُوا مِنْهُ فَسَفَّوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ ، قَالَ مِعَاذُ :

١٢٩ - رثاء معاذ بن جبل لأبي عبيدة

« رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ، فَوَاللَّهِ لِأَتْنِينَ عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتَ ، وَاللَّهِ لَا أَقُولُ بِاطْلَا ، أَخَافُ أَنْ يَلْحَقَنِي مِنَ اللَّهِ مَقْتٌ ، كُنْتُ وَاللَّهِ — مَا عَلِمْتُ — مِنَ الذَّاكِرِينَ لِلَّهِ كَثِيرًا ، وَمِنَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَمِنْ

(١) مقاطعا . (٢) الغمر : الحقد . (٣) الأمر النكر .

الذين يبیتون لرّبهم سُجَّدًا وقيامًا ، ومن الذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقترُوا ، وكان بين ذلك قَوَامًا ، وكنتَ والله — ما علمتُ — من الخجبتين المتواضعين ، ومن الذين يرحمون اليتيم والمسكين ، ويُبغضون الجفافة والمتكبرين .

ولم يكن أحدٌ من الناس كان أشدَّ جزاعا على فقد أبي عبيدة وعلى موته ولا أطول حُزنًا عليه من معاذ بن جبل .
(فتوح الشام ص : ٢٤٢)

١٣٠ — ابن العاص ومعاذ والطاعون

وصلى معاذ بالناس أياما ، واشتد الطاعون ، وكثر الموت في الناس ، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال : أيها الناس ، إن هذا الطاعون هو الرّجز الذي عذب الله به بنى إسرائيل مع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وأمر الناس بالفرار منه ، فأخبر معاذ بقول عمرو ، فقال : ما أريد إلى ما يقول مالا علم له به ، ثم جاء معاذ حتى صعد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الوباء فقال : ليس كما قال عمرو ولكنه رحمة بكم . ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، اللهم أعط معاذا وآل معاذ منه النصيب الأوفر .

١٣١ — وصية لمعاذ بن جبل

ثم صلى ورجع إلى منزله ، فإذا هو بابنه عبد الرحمن قد طعن ، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات يرحمه الله ، وصلى عليه معاذ ثم دفنه ، فلما رجع معاذ إلى منزله طعن ، فاشتد به وجعه ، وجعل أصحابه يحتلقون إليه ، فإذا أتاه أصحابه أقبل عليهم فقال لهم :

« اَعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي مُهَلَّةٍ وَحَيَاةٍ ، وَفِي بَقِيَّةٍ مِنْ آجَالِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْتَوُوا الْعَمَلَ فَلَا تَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا . وَأَنْفَقُوا مَا عِنْدَكُمْ لِمَا مَدَّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَهْلِكُوا وَتَدْعُوا ذَلِكَ كَلِمَةً مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدَكُمْ ، وَعَاذُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ إِلَّا مَا أَكْتُمُ وَشَرْتُمْ وَلَيْسَتْ وَأَنْفَقْتُمْ وَأَعْطَيْتُمْ فَأَمْضَيْتُمْ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلِلْوَارِثِينَ . » (فتوح الشام ص ٢٤٣)

١٣٢ - وصية لمعاذ بن جبل أيضا

وأتاه رجل في مرضه فقال : يا معاذ علمني شيئا ينفعني الله به قبل أن تُفارقني ، فلا أراك ولا تراني ، ولا أجدُ منك خَلْفًا ، ثم لَعَلِّي أَنْ أحتاجَ إلى سؤالِ الناس عما ينفعني بعدك ، فلا أجدُ فيهم مثلك ، فقال معاذ : كَلَّا إِنَّ صَلْحَاءَ الْمُسْلِمِينَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - كَثِيرٌ ، وَلَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ أَهْلَ هَذَا الدِّينِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« خُذْ عَنِّي مَا أَمْرُكَ ، كُنْ مِنَ الصَّائِمِينَ بِالنَّهَارِ ، وَمِنَ الْمُصَلِّينَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَمِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ، وَمِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كَثِيرًا ، وَلَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ ، وَلَا تَزْنِ ، وَلَا تَتَّقِ وَالِدَيْكَ ، وَلَا تَأْكُلْ مَالَ الْيَتِيمِ ، وَلَا تَفِرَّ مِنَ الزَّخْفِ ، وَلَا تَأْكُلْ الرِّبَا ، وَلَا تَدْعَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ ، وَلَا تُضَيِّعَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَصِلْ رَجِمَكَ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ، وَلَا تَظْلِمِ مُسْلِمًا ، وَحُجِّجْ وَاعْتَمِرْ وَجَاهِدْ ، ثُمَّ أَنَا لَكَ زَعِيمٌ بِالْجَنَّةِ . » (فتوح الشام ص ٢٤٤)

ومات رحمه الله ، وقد استُخلفَ عمرو بن العاص فُصلي عليه عمرو .

فلما دفنه قال :

« رَحِمَكَ اللَّهُ يَا مَعَاذَ ، فَقَدْ كُنْتَ - مَا عَلِمْنَاكَ - مِنْ نَصْحَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ خِيَارِهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ ، ثُمَّ كُنْتَ مُؤَدِّبًا لِلْجَاهِلِ ، شَدِيدًا عَلَى الْفَاجِرِ ، رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَيْمُ اللَّهُ لَا يُسْتَخْلَفُ مِنْ بَعْدِكَ مِثْلَكَ . » (فتوح الشام ص ٢٤٥)

ولما انتهى إلى عمر رضى الله عنه هلاك أبي عبيدة وهلاك معاذ فرق عماله على كور الشام ، فبعث عبد الله ابن قرط على حمص ثم عزله وولى عبادة بن الصامت الأنصارى ، واستعمل على دمشق أبا الدرداء الأنصارى وكتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يسير إلى قيسارية .

١٣٣ - خطبة عبادة بن الصامت

فلما قدم عبادة على أهل حمص قام في الناس خطيبا .

فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، ألا إن الدنيا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَا كَلُّ مِنْهُ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، أَلَا وَإِنَّ
الْآخِرَةَ وَعَدُّ صَادِقٍ يَحْكُمُ فِيهِ مَلِكٌ قَادِرٌ ، أَلَا وَإِنَّكُمْ مَعْرُوضُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، فَمَنْ
يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، أَلَا وَإِنَّ لِلدُّنْيَا بَيْنَيْنِ
وَالْآخِرَةِ بَيْنَيْنِ ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ كُلَّ
أُمَّةٍ يَتَّبِعُهَا بَنُوهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . » (فتوح الشام ص ٢٤٨)

١٣٤ - خطبة شداد بن أوس

ثم قال لشداد بن أوس قم يا شداد فعض الناس وكان شداد مفرها ، قد أعطى لساناً
وحكمةً وفضلاً وبيانا ، فقام شداد فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم
ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس رَاجِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَإِنْ تَرَكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّكُمْ
لَمْ تَرَوْا مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَسْبَابَهُ ، وَلَا مِنَ الشَّرِّ إِلَّا أَسْبَابَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَمَعَ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَدِّ آفِيهِ
فَجَعَلَهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَجَمَعَ الشَّرَّ بِحَدِّ آفِيهِ فَجَعَلَهُ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ وَغَرَّةَ حَزْنَةٍ ،
أَلَا وَإِنَّ النَّارَ سَهْلَةً لَيْتَنَ ، أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْكُرْهِ وَالصَّبْرِ ، أَلَا وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ

بالمهوى والشهوة، ألا فن كشف حجاب الكفره والصبأشقى على الجنة، ومن أشقى على الجنة كان من أهلها، ألا ومن كشف حجاب المهوى والشهوة أشقى على النار، وكان من أهلها، فاعملوا بالحق تنزلوا منازل أهل الحق يوم لا يُقضى إلا بالحق» .

(فتوح الشام ص ٢٤٩)

١٣٥ - خطبة أبي الدرداء

وقام أبو الدرداء فى أهل دمشق خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، يا أهل دمشق اسمعوا مقالة أخ لكم ناصح ، فما بالكم تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأمّلون مالا تُدرّكون ؟ وقد كان من كان قبلكم جمعوا كثيراً ، وبنوا شديداً ، وأمّلوا بعيداً ، وماتوا قريباً ، فأصبحت أعمالهم بُوراً ، ومساكنهم قبوراً ، وأمّلتهم غُروراً ، ألا وإنّ عاداً وثموداً كانوا قد ملّثوا ما بين بصرى وعدن أموالاً وأولاداً ونعماً ، فمن يشتري منى ما تركوا بدرهمين ؟ » .

(فتوح الشام ص ٢٥٠)

١٣٦ - خطبة يزيد بن أبى سفيان

وسار يزيد بن أبى سفيان إلى قيسارية فقام فى جنده فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد : فإنّ كتاب أمير المؤمنين عمر البارک الفاروق أتانى يحثنى على المسير إلى قيسارية ، وأن أدعوم إلى الإسلام ، وأن يدخلوا فيما دخل فيه أهل الكور من

أهل الشام ، فيؤذوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، فإن أبوا نزلت عليهم فلم أزيلهم
حتى أقتل مقاتلتهم وأسبي ذراريهم ، فسيروا ، رحمكم الله ، إليهم فإنى أرجو أن يجمع الله لكم
الغنيمة في الدنيا والآخرة .
(فتوح الشام ص ٢٥١)

١٣٧ - وصية العباس بن عبد المطلب (المتوفى سنة ٣٢ هـ)

لابنه عبد الله

قال عبد الله بن عباس : قال لى أبى :

يا بُنى ، إني أرى أمير المؤمنين - يعنى عمر بن الخطاب - قد اختصك دون من ترى
من المهاجرين والأنصار ، وإني موصيك بحلال أربع : لا يجرّبَنَّ عليك كذباً ،
ولا تفتابنَّ عنده مسلماً ، ولا تُفشِينَّ له سراً ، ولا تطوعنه نصيحة ، قال : فقلت يا أبه .
كلّ واحدة منها خير من ألف ، فقال : كلّ واحدة منها خير من عشرة آلاف .

(تهذيب الكمال ١ : ١٥ والعقد الفريد ١ : ١١)

١٣٨ - وصية عمر للخليفة من بعده

وأوصى عمر الخليفة من بعده ، فقال :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرّف
لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فأقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ،
وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم رذء العدو ، وجبأة الفئء ، لا تحمل فيهم ، إلاّ عن
فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ، أن
تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم : فتردّ على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيراً ، أن

تقاتل من ورأيهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً ، أو عن
يَدِهِمْ صَاحِرُونَ ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقتته ، أن يَطْلَعَ مِنْكَ
عَلَى رِيْبَةٍ ، وأوصيك أن تحشى الله في الناس ، وتحشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل
فِي الرَّعِيَةِ ، والتفرغ لخواججهم وفتورهم ، ولا تُؤَثِّرْ غَنِيْمَهُمْ عَلَى فَقِيْرِهِمْ ، فإن ذلك يَأْذِنُ اللهُ
سَلَامَةً لِقَلْبِكَ ، وَحِطَّ لَوِزْرِكَ ، وخير في عاقبة أمرك ، حتى تُنْفِضَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَنْ
يَعْرِفُ سِرِّيْرَتَكَ ، ويحول بينك وبين قلبك ، وأمرك أن تشد في أمر الله ، وفي حدوده
ومعاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لَا تَأْخُذَكَ فِي أَحَدٍ رَأْفَةً حَتَّى تَنْتَهِكَ مِنْهُ ،
مثل ما انتهك من حرمة الله ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبالى على من وجب الحق ، ثم
لَا تَأْخُذَكَ فِي اللهِ لَوْمَةً لَأْتَمَّ ، وَإِيَّاكَ وَالْأَنْزَرَةَ وَالْحَابَابَةَ فِيمَا وَلَّاكَ اللهُ ، مما آفأه الله على المؤمنين ،
فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل
الدنيا والآخرة ، وأنت إلى الآخرة جدّ قريب فإن اقترفت لدياك عدلاً و عفة عما بسط الله لك ،
اقترفت به إيماناً ورضواناً ، وإن غلبك الهوى ، اقترفت به سخط الله ، وأوصيك ألا تُرَخِّصَ
لِنَفْسِكَ وَلَا لغيرِكَ فِي ظَلَمِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك ، فابتغ بذلك
وَجْهَ اللهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ، واخترت من دلالتك ما كنتُ دالاً عليه نفسي وولدي ، فإن
عملت بالذي وعظمتك ، وانتهيت إلى الذي أمرتك ، أخذت به نصيباً وافراً ، وحظاً وافياً ،
وإن لم تقبل ذلك ، ولم يهْمَكَ ، ولم تُنْزِلْ معاذم الأمور عند الذي يرضى الله به عنك ،
يكن ذلك بك انتقاصاً ، ورأيك فيه مدخولاً ، لأن الأهواء مُشْتَرِكَةٌ ، ورأس كل خطيئة
إبليس ، وهو داع إلى كل هَلَكَةٍ ، وقد أضلّ القرون السالفة قبلك ، فأوردتهم النار ،
ولبئس الثمن أن يكون حظُّ امرئ موالاةَ عدوِّ الله الداعي إلى معاصيه ، ثم اركب الحق
وَخُضْ إِلَيْهِ الْغَمْرَاتِ ، وكن واعظاً لنفسك ، أنشدك الله لما تَرَحَّمْتَ عَلَى جَمَاعَةِ الْمَسْلَمِينَ ،
فَأَجَلَّتْ كَبِيرُهُمْ ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت علمهم ، ولا تضربهم فيدُلُّوا ، ولا تستأثر

عليهم بالفى فتبغضهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلمها فتفقرهم ، ولا تجمرهم (١)
فى البعوث ، فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك
دونهم ، فإى كل قورهم ضعيفهم . هذه وصيتى إىك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ
عليك السلام . (شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ٢٢ وتاريخ الطبرى ٥ : ١٣)

وفى رواية الطبرى :

قال : « وأوصى الخليفة من بعدى بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يحسن
إلى محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بالعرب ، فإنها مادة
الإسلام ، أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فتوضع فى فقرائهم ، وأوصى الخليفة من بعدى
بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، اللهم هل بلغت ؟

تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة .

(١) جمر الجيش : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم .

خطب يوم الشورى

بعد دفن عمر اجتمع أهل الشورى ، وهم : عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ،
وعلى بن أبي طالب ، والزيبر بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله
- وكان طلحة غائباً - فبدأ عبد الرحمن بن عوف بالكلام ، فقال :

١٣٩ - خطبة عبد الرحمن بن عوف

« يا هؤلاء ، إن عندى رأياً ، وإن لكم نظراً ، فاسمعوا تعلموا ، وأجيبوا تفقهوا ،
فإن حبيباً^(١) خير من زاهق^(٢) ، وإن جرعة من شراب^(٣) بارد ، أنفع من عذب
مُوب^(٤) ، أنتم أئمة يهتدى بكم ، وعلماء يُصدّر^(٥) إليكم ، فلا تفلأوا المدى بالاختلاف
بينكم ، ولا تُقدموا السيوف عن أعدائكم ، فتوترُوا^(٦) نأركم ، وتؤلّوا^(٧) أعمالكم ،
لكلّ أجل كتاب ، ولكلّ بيت إمام ، بأمره يقومون ، وبنيه يرعون^(٨) ، قلّدوا
أمركم واحداً منكم ، تمشوا الهوينى ، وتلتحقوا الطلب ، لولا فتنة عمياء ، وضلالة حياء ،
يقول أهلها ما يرون ، وتُحلّهم الجبوت كرى^(٩) ، ما عدت نياتكم معرفتكم ، ولا أعمالكم

(١) الخافي من السهام : ما يزحف إلى الهدف . (٢) السهم الزاهق : ما جاوز الهدف .

(٣) الشراب والشريب والشروب : ما يشرب . (٤) أصله موبى ، مهمل عن موبى .

(٥) يرجع . (٦) قال فى اللسان : « قال الأزهرى : هو من الوتر (الثأر) يقال : وترت فلانا

إذا أصبته بوتر ؛ وأوترته أوجدته ذلك (أى أظفرته به ، أوجدت فلانا مطلوبه أى أظفرته به) قال : والثأر
هاهنا العدو لأنه موضع الثأر ، والمعنى لا توجدوا عدوكم الوتر فى أنفسكم » .

(٧) ألتة حقه يألته وآلته : نقصه . (٨) ورع يرع : كورث يرث من الورع ، وهو التقوى .

(٩) رمل يضل فيه السالك ، والداهية .

نياتكم ، احذروا نصيحة الهوى ، ولسان الفرقة ، فإن الحيلة في المنطق أبلغ من السيوف في السكِّم ، علِّقوا أمركم رَحْبَ الذراع فيما حلَّ ، مأمون الغيب فيما نزل ، رِضًا منكم وكلِّم رِضًا ، ومُقْتَرَعًا^(١) منكم وكلِّم منتهى ، لاتطيعوا مُفسداً ينصِّح^(٢) ، ولا تخالفوا مرشداً ينتصر ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم :
ثم تكلم عثمان بن عفان ، فقال :

١٤٠ — خطبة عثمان بن عفان

« الحمد لله الذي اتخذ محمداً نبياً ، وبعثه رسولا ، صدَّقه وعدَّه ، ووهب له نصره على كلِّ من بعدَ نَسَبًا ، أو قرُب رَحْمًا صلى الله عليه وسلم ، جعلنا الله له تابعين ، وبأمره مُهْتَدِينَ ، فهو لنا نور ، ونحن بأمره نقوم عند تفرُّق الأهواء ، ومجادلة الأعداء ، جعلنا الله بفضله أُمَّة ، وبطاعته أمراء ، لا يَخْرُجُ أمرنا منا ، ولا يَدْخُلُ علينا غيرنا ، إلا مَنْ سَفِهَ الحَقَّ ، ونكَلَّ عن القصد ، وأخر بها يابن عوف أن تُتْرَكَ ، وأجدر بها أن تكون ، إن خولف أمرُك ، وتُركَ دعاؤُك ، فأنا أوَّلُ مجيب لك ، وداع إليك ، وكفيل بما أقول زعيم ، وأستغفر الله لي ولكم » .
ثم تكلم الزبير بن العوام بعده فقال :

١٤١ — خطبة الزبير بن العوام

« أما بعد : فإن داعي الله لا يُجْهَلُ ، ومجيبه لا يُخْذَلُ ، عند تفرُّق الأهواء ، ولَّى الأعناق ، ولن يقصر عما قلت إلا غوى ، ولن يترك ما دعوت إليه إلا شقى ، لولا حدود الله فرضت ، وفرائض الله حدَّت ، تُرَّاح^(٣) على أهلها ، وتحيا لا تموت ، لكان

(١) مختاراً . (٢) تنصح : تشبه بالنصحاء . (٣) أراح حقه عليه : رده عليه .

الموت من الإمارة نجاةً ، والفرارُ من الولاية عِصْمَةً ، ولكن الله علينا إجابة الدعوة ، وإظهار السنة ، لثلاث موتٍ مِيتَةٍ عُمِّيَّةٍ (١) ، ولا نَعْمَى عَمَى الجاهلية ، فأنا مجيبك إلى ما دعوت ، ومعينك على ما أمرت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأستغفر الله لى ولكم .

١٤٢ - خطبة سعد بن أبي وقاص

ثم تكلم سعد بن أبي وقاص فقال :

« الحمد لله بَدِيئًا (٢) كَانَ ، وَآخِرًا يَعُود ، أَحَدُهُ لِمَا نَجَّانِي مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَبَصَّرَنِي مِنَ الْعَوَايَةِ ، فَيَهْدِي اللَّهُ فَازَ مَنْ نَجَا ، وَبِرَحْمَتِهِ أَفْلَحَ مَنْ زَكَا ، وَبِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْارَتِ الطَّرِيقَ ، وَاسْتَقَامَتِ السَّبِيلَ ، وَظَهَرَ كُلُّهُ حَقٌّ ، وَمَاتَ كُلُّ بَاطِلٍ ، إِيَّاكُمْ أَيُّهَا النَّفَرُ وَقَوْلَ الزُّورِ ، وَأُمْنِيَّةَ أَهْلِ الْغُرُورِ ، فَقَدْ سَلَبَتِ الْأُمَانِيُّ قَوْمًا قَبْلَكُمْ ، وَرَثُوا مَا وَرَثْتُمْ ، وَنَالُوا مَا نَلْتُمْ ، فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ عَدُوًّا ، وَلِنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) إِنْ نَسَكِبْتَ (٣) قَرْنِي ، فَأَخَذْتُ سَهْمِي الْفَالَجَ (٤) ، وَأَخَذْتُ لَطْلَحَةَ ابْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ مَا ارْتَضَيْتَ لِنَفْسِي ، فَأَنَا بِهِ كَفِيلٌ ، وَبِمَا أُعْطِيتُ عَنْهُ زَعِيمٌ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ يَا بَنِي عَوْفٍ بِجَهْدِ النَّفْسِ ، وَقَصْدِ النَّصِيحِ ، وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ، وَإِلَيْهِ الرَّجُوعُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِئِلكُمْ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَخَالَفَتِكُمْ . »

(١) العمية : السكر أو الضلال .

(٢) البديء : الأول . (٣) النكب : اللطرح . والقرن : الجمعة . (٤) الفائز الظافر .

١٤٣ - خطبة علي بن أبي طالب

ثم تكلم علي بن أبي طالب فقال :

« الحمد لله الذي بعث محمداً منا نبياً ، وبعثه إلينا رسولا ، فنحن بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وأمان أهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، لنا حق إن نُعطه نأخذه ، وإن نُمنعه نركب أعجاز الإبل ، ولو طال الشرى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً جادلنا عليه حتى نموت ، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق ، وصلة رحم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، اسمعوا كلامي ، وعُوا منطقي ، عسى أن ترَوا هذا الأمر من بعد هذا الجمع ، تُنتَصَى^(١) فيه السيوف ، وتُحان فيه اليهود ، حتى تكونوا جماعة ، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة ، وشيعة لأهل الجهالة ، ثم أنشأ يقول :

فإن تك جاسم^(٢) هلكت فإنى بما فعلت بنو عبد بن ضخم

مُطيع في المواجر كلَّ عيِّ بصيرٍ بالنوى من كل نجم

(تاريخ الطبرى ٥ : ٣٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٣٦)

خطب عثمان بن عفان

رضى الله عنه

١٤٤ - خطبته حين بايعه أهل الشورى

روى الطبرى قال : « لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدم كآبة ، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« إنكم فى دار قلعة^(١) ، وفى بقية أعمار ، فبادرُوا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتُمْ ، صَبَّحْتُمْ أو مُسَّيْتُمْ ، ألا وإن الدنيا طُوِيَتْ على الغرور ، فلا تَعَرَّزْكُمْ الحياة الدنيا ، ولا يَغُرَّنْكُمْ بالله الغرورُ ، اعتبروا بمن مضى ثم جدُّوا ولا تَفْغَلُوا ، فإنه لا يُفْعَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها ، ومَتَعُوا بها طويلا ، ألم تَلْفِظْهُمُ ؟ أَرْمُوا بالدنيا حيث رَمَى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، والذي هو خير ، فقال عز وجل : (وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ، الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) وأقبل الناس يبايعونه . » (تاريخ الطبرى ٥ : ٤٣)

(١) أى انقلاع ، ومنزلنا منزل قلعة « بتسكين اللام وضمها وفتحها » أى ليس بمستوطن ، أو لانهلكه ،

أو لاندري متى نتحول عنه .

١٤٥ - خطبته بعد البيعة

وقال أيضاً : خطب عثمان الناس بعد ما بويع ، فقال :

« أما بعد ، فإنني قد حُلتُ وقد قَبِلْتُ ، ألا وإني متَّبِعٌ ، ولست بمبتدِعٌ ، ألا وإن لكم علىَّ بعد كتاب الله عزَّ وجل ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتَّبَاعٌ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وَسَنَّةٌ أهلِ الخَيْرِ فيما لم تُسْئَلُوا عن مَلَأٌ ، وَالكَفَّ عَنْكُمْ إِلا فيما استوجبتم . ألا وإنَّ الدنيا خَصِرَةٌ قد شُهِيتْ إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تَرَوْا كُنُوزَها إلى الدنيا ، ولا تَتَّبِعُوا بها ، فإنها ليست بثقَّة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها » .

(تاريخ الطبري ٥ : ١٤٩)

١٤٦ - خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة : لما ولي عثمان صعد المنبر ، فجلس على ذروته ، فرماه الناس بأبصارهم ، فقال :

« إن أول مرَّكَبٍ صعب ، وإن مع اليوم أيَّاماً ، وما كنا خطباءً ، وإن نَعِشْ لَكُمْ تَاتِيكُمْ الخُطْبَةُ على وجهها إن شاء الله تعالى » .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٣)

١٤٧ - خطبة لعثمان

وبعث عثمان بدء الفتنة إلى عمال الأمصار فقدموا عليه ، فقال : ويحكم ، ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدِّوقاً عليكم ، وما يُعْصَبُ هذا إلا بي ، ثم قال : أشيروا عليّ ، فأشار عليه كلُّ بما يراه .

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« كل ما أشرت به علي قد سمعت ، ولكل أمر بابٌ يؤتى منه ! إن هذا الأمر الذي يخافُ على هذه الأمة كأن ، وإن بابهُ الذي يُغلق عليه فيكفكف به اللينُ والمؤاتاة والمتابعة إلا في حدود الله تعالى ذكره ، التي لا يستطيع أحدٌ أن يُبأدي بعيب أحدها ، فإن سدّه شيء فرقى ، فذاك والله ليُفتحن ، وليست لأحدٍ على حجة حق ، وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيرا ولا نفسي ، والله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يجرّكها ، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم ، واغفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدهنوا فيها . »

(تاريخ الطبري ٥ : ١٠٠)

١٤٨ - خطبة عثمان

ولما حدثت الأحداث بالمدينة خرج منها رجالٌ إلى الأمصار ، ثم رجعوا جميعا إلى المدينة إلا من كان بالشام ، فأخبروا عثمان بخبرهم ، فقام عثمان في الناس خطيباً فقال :

« يا أهل المدينة ، أنتم أصل الإسلام ، وإنما يفسد الناس بفسادكم ، ويصلحون بصلاحكم ، والله والله لا يبلغني عن أحدٍ منكم حديثٌ أحدثه إلا سيرته ، ألا فلا أعرّفن أحدا عرض دون أولئك بكلام ولا طلب ، فإن من كان قبلكم كانت تُقطع أعضاؤهم دون أن يتكلم أحد منهم بما عليه ولا له . »

« وأيمُّ الله لا أخذنَّ العفو من أخلاقكم ولا بذلنَّه لكم من خُلُقِي ، وقد دنت أمور ، ولا أحب أن تحلّ بنا وبكم ، وأنا على وجَلٍ وحذر ، فاحذروا واعتبروا . »

(تاريخ الطبري ٥ : ١٣٥)

١٤١ - خطبته حين نقم عليه الناس

وخطب عثمان حين نقم عليه الناس ما نقموا فقال :

« أما بعد : فإنَّ لكلِّ شيء آفة ، وإن لكلِّ نعمة عاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة ، عَيَّابون ظَنَّانون ، يُظهرون لكم ما تُحِبُّون ، ويُسرُّون ما تُكرهون ، يقولون لكم وتقولون ، طَعَامٌ ^(١) مثل النعام ، يتبعون أول ناعق ، أحبُّ مواردكم إليهم النازح ^(٢) ، لا يشربون إلا نَقَصًا ^(٣) ، ولا يردُّون إلا عسكرا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور ، وتعدَّرت عليهم المكاسب .

لقد أفررتُم لابن الخطاب بأكثر مما نَقِمْتُم عليَّ ، ولكنه وطَّئكم برجله ، وضربكم بيده ، ووَقَمَكُمْ وقَعَكُمْ ^(٤) وزجركم زجر النعام الخزَّمة ^(٥) ، فدَنَيْتُم له على ما أحببْتُم أو كرهْتُم ، ولَيْتَ لكم وأوطأت لكم كنفِي ، وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم عليَّ .

أما والله إنِّي لأقرب ناصراً ، وأعزَّ نفراً ، وأكثر عدداً ، وأقننُ - إن قلت لهم - أن تجاب دعوتي من عمر .

ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابي ، وأخرجتُم مني خلقاً لم أكن أحسنه ، ومنطقاً لم أنطق به .

(١) أوغاد الناس ، الواحد والجمع فيه سواء ، أو واحده كسحابة . (٢) المورد النازح : الذي نزع ماؤه ، أي غاض وقل أو بعد . (٣) نغص البعير كفريح : لم يتم شربه . (٤) وقم الدابة جلد عنانها ، ووقه قهره وأذله أو رده أقبح للرد وحزنه أشد الحزن وقعه : ضربه بالمقمة وقهره وأذله . (٥) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة ، والظير كلها مخزومة ومخزومة لأن وترات أنوفها مخزومة ؛ وكذا النعام .

فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم ، وعيكم على ولائكم ، فإنى قد كفتُ عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا .

ألاَ فافقدون من حَقِّكم ؟ فوالله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ، ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، فضلَ فضلٍ من مالى ، فالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟

إذن فلم كنت إماما ؟ . (تاريخ الطبرى ٥ : ٩٧ وإعجاز القرآن ص ١١٨ ،

وصبح الأعشى ١ : ٢١٤ والبيان والتبيين ١ : ٢٠٠) .

١٥٠ - خطبته التى نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله ، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه ، ولكنى مَنَنْتَنى نفسى وَكَذَّبْتَنى ، وَضَلَّ عَنِ رَشْدى ، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ زَلَّ فَلْيَتَّبِ ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَلْيَتَّبِ ، وَلَا يَتِمَّادَى فِي الْمَلَكَةِ ، إِنْ مَنْ تَمَّادَى فِي الْجَوْرِ ، كَانَ أَبَعَدَ مِنَ الطَّرِيقِ » فأنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت . وأتوب إليه ، فمثل نزع وتاب ، فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم ، فَلْيُرُونى رأيهم ، فوالله لئن رَدَّنى الحق عبداً لَأَسْتَتِنَنَّ بسنة العبد ، وَلَا ذَلَّ العبد ، وَلَا كُونَنَّ كالمرقوق ، إِنْ مُلِكَ صَبْرٌ ، وَإِنْ عَتِقَ شُكْرٌ ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فلا يَعْجِزَنَّ عنكم خياركم أن يدنوا إلىَّ ، لئن أبت يمينى لتتابعتنى شمالي » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١١١ ، والسكامل لابن الأثير ٣ : ٨٠)

١٥١ - خطبته في الرد على الثوار

وقال يرد على الثوار :

« الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ؛ أما بعد : فإنكم لم تمدلوا في المنطق ، ولم تُنصِفُوا في القضاء ، أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قيصاً قمصنيه الله عز وجل ، وأكرمني به ، وخصني به على غيري ، ولكني أتوب وأنزع ، ولا أعود لشيء عابه المسلمون ، فإني والله الفقير إلى الله ، الخائف منه » .

قالوا : إن هذا لو كان أول حدث أحدثته ثم تبت منه ، ولم تُقِمْ عليه ، لكان علينا أن نقبل منك ، وأن ننصرف عنك . . . إلى آخر ما قالوا .

فقال عثمان : « أما أن أتبرأ من الإمارة ، فإن تصلبوني أحب إلي من أن أتبرأ من أمر الله عز وجل وخلافته ، وأما قولكم تقاتلون من دوني ، فإني لا أمرُ أحداً بقتالكم ، فمن قاتل دوني فإنما قاتل بغير أمري ، ولعمري لو كنت أريد قتالكم ، لقد كنت كتبت إلى الأجناد ، فقادوا الجنود ، وبعثوا الرجال ، أو لحقت ببعض أطراف بمصر أو عراق ، فالثمة الله في أنفسكم ، فأبقوا عليها ، إن لم تبقوا علي ، فإنكم مجتلبون بهذا الأمر إن قتلتموني دماً » فانصرفوا عنه ، وآذنوه بالحرب .

١٥٢ - خطبته وقد اشتد عليه الحصار

ولما اشتد الحصار عليه أرسل إلى عليّ وطلحة والزبير فحضروا ، فأشرف عليهم ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : اجلسوا ، فجلسوا : الحاربُ والمسلمُ ، فقال لهم يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، أَسْتَوْدِعُكُمْ اللَّهَ ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي ، ثُمَّ قَالَ : أُنشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ دَعَوْتُمْ اللَّهَ عِنْدَ مَصَابِ عَمْرٍو أَنْ يَخْتَارَ لَكُمْ ، وَيَجْمَعَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ ؟ أَتَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ ، وَهُنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ حَقِّهِ ؟ أَمْ تَقُولُونَ هَانَ عَلَى اللَّهِ دِينَهُ ، فَلَمْ يَبَالِ مَنْ وُلِيَ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَتَفَرَّقْ أَهْلُهُ يَوْمئِذٍ ؟ أَمْ تَقُولُونَ لَمْ يَكُنْ أَخْذٌ عَنْ مَشُورَةٍ ، إِنَّمَا كَانَ مَكَابِرَةً ، فَوَكَّلَ اللَّهُ الْأُمَّةَ إِذْ عَصَيْتُهُ ، وَلَمْ يَشَاوِرُوا فِي الْإِمَامَةِ ، أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْلَمْ عَاقِبَةَ أَمْرِي ؟ أُنشِدُكُمْ بِاللَّهِ أَتَعْلَمُونَ لِي مِنْ سَابِقَةِ خَيْرٍ ، وَقَدَّمَ خَيْرٍ ، قَدَّمَهُ اللَّهُ لِي يَحِقُّ عَلَيَّ كُلٌّ مِنْ جَاءَ بَعْدِي أَنْ يَعْرِفُوا لِي فَضْلَهَا ؟ فَهَلَّا لَا تَقْتُلُونِي ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ الْإِقْتَالَ ثَلَاثَةً : رَجُلٌ زَنِيَ بَعْدَ إِحْسَانِهِ ، أَوْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بغيرِ حَقٍّ ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قَتَلْتُمُونِي وَضَعْتُمُ السَّيْفَ عَلَى رِقَابِكُمْ ، ثُمَّ لَمْ يَرْفَعْ اللَّهُ عَنْكُمْ الْاِخْتِلَافَ أَبَدًا . »

(تاريخ السكامل لابن الأثير ٣ : ٨٤)

١٥٣ - آخر خطبة خطبها عثمان

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الْآخِرَةَ ، وَلَمْ يُعْطِكُمْهَا لِتَزْكُنُوا إِلَيْهَا ، إِنَّ الدُّنْيَا تَنْفَى وَالْآخِرَةُ تَبْقَى ، فَلَا تُبْطِرَنَّكُمْ الْفَانِيَّةُ ، وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَّةِ ، فَاتَّزُّرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَنْقُطَةٌ ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ ، اتَّقُوا اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ ،

فإن تقواه جنة من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم ،
لا تصيروا أحزاباً ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم
بنعمته إخواناً » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٦ ، ١٤٩)

١٥٤ - خطبة الوليد بن عقبة

قال الطبرى :

لما أصاب الوليد بن عقبة حاجته من أرمينية (سنة ٢٤ هـ) - وكان أهلها قد منعوا
ما صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر - ودخل الموصل فنزل الحديثه ، أتاه كتاب من
عثمان رضى الله عنه :

« أما بعد فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلى يخبرنى أن الروم قد أجلبت على
المسلمين بمجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يمدم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك
كتابى هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، فى ثمانية آلاف
أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف ، من المكان الذى يأتىك فيه رسولى والسلام » .

فقام الوليد فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاء حسناً فرد عليهم
بلادهم التى كفرت ، وفتح بلاداً لم تكن فتحت ، وردم سالمين غانمين مأجورين ،
فالحمد لله رب العالمين .

وقد كتب إلى أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف
إلى الثمانية الآلاف تمدون إخوانكم من أهل الشام ، فإنهم قد جاشت عليهم الروم ،
وفى ذلك الأجر العظيم ، والفضل المبين ، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلى » -

(تاريخ الطبرى ٥ : ٤٦)

فانتدب الناس

١٥٥ - خطبة سعيد بن العاص حين قدم الكوفة واليا عليها

عزل عثمان رضى الله عنه الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط من إمارة الكوفة ، وكان قد اتهم بشرب الخمر وولى مكانه سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ ، فلما قدم الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره ، ولكني لم أجِدُ بداً إذ أمرت أن أُتَمِرَ ، ألا إن الفتنة قد أطلعت خَطْمَهَا^(١) وعينها ، والله لأضربنَّ وجهها حتى أقمها أو تُعَيِّنِي^(٢) ، وإني لرأئد^(٣) نفسي اليوم » ثم نزل (تاريخ الطبرى ٥ : ٦٣)

١٥٦ - خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح إفريقية^(٤)

قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقصَّ عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان ما سمع منه ، فقال له : أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أهيب لك منى لهم ، فقام عثمان فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ، وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام خطيباً - وكان أول من خطب إلى جانب المنبر - فقال :

« الحمد لله الذى أَلَفَ بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البَغْضَةِ ، الذى لا يُجْحَدُ نَمَاؤُهُ ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله ، انتخب محمداً صلى الله

(١) الخطم : جمع خطم ، وهو ماوضع فى أنف البعير ليقناده به ، والمراد ظهورها ونشوبها .

(٢) أى تعجزنى . (٣) الرود : الطلب .

(٤) فتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦ هـ ، وأمهه عثمان بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير .

عليه وسلم ، فاختاره بعلمه ، وَأَتَمَّنَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته ، فَأَمَّنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ^(١) وَوَقَّرُوهُ ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، فاستشهد ^(٢) الله منهم من استشهد على النهاج الواضح ، والبيع الرابع ، وبقي منهم من بقي ، لا تأخذهم في الله لومة لائم .

أيها الناس : رحمكم الله إنا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكننا مع والٍ حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، كان يسير بنا الأبردين ^(٣) ، وَيَخْفِضُ ^(٤) بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جملاً ، يُعَجِّلُ الرحلة من المنزل الجذب ، ويطيّل اللبث في المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حالة نمر فيها من ربنا ، حتى انتهينا إلى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ، وَرُغَاءَ الإبل ، وقمعة السلاح ، فأقنا أياماً ، نُجِمْ كُرَاعِنَا ^(٥) ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغارٍ أو الصلح ، فكانت هذه أبرد ، فأقنا عليهم ثلاث عشرة ليلة تَتَأَنَّمُ ، وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه إذا صَبَرَ واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدونا ، وقاتلناهم أشد القتال ، يومئذ ذلك ، وصَبَرَ فيه الفريقان فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبِتْنَا وَبَاتُوا ، وللمسلمين دَوِيٌّ بِالْقِرَانَ كدوى النحل ، وبات المشركون في خورهم وملاعهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئنا واسعاً ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف ، فَصَقَّ ^(٦) عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد

(١) التمرير : التفضيم والتعظيم والإعانة ، وهو أيضا ضرب دون الحد أو هو أشد الضرب ضد .

(٢) استشهد (مبنيا للمجهول) قتل في سبيل الله .

(٣) الأبردان : الغداة والمشي . (٤) خفض بالمكان : أقام ، والظهائر : جمع ظهيرة .

(٥) الكراع : جماعة الخيل ، وأجم الفرس : ترك ركوبه . (٦) صفق الباب يصفقه وأصفقه

فألقه : أي أغلق عليها باب الخزائن .

قَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ ، وَأَغْنَاهُم النَّفْلَ ، وَأَنَا رَسُولُهُمْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبَشْرَةَ وَإِيَّاكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ
مِنَ الْبِلَادِ ، وَأَذَلَّ مِنَ الشَّرْكِ ، فَأَحْمَدُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ عَلَى آلَاتِهِ ، وَمَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ ،
مِنَ بَأْسِهِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرُمِينَ .

ثم سكت فنهض إليه أبوه الزبير ، فقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ : (ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يَا بُنَيَّ مَا زِلْتَ تَنْطِقُ بِلِسَانِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى صَمَتَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٤٩)

١٥٧ — خطبة عبد الله بن مسعود

(المتوفى سنة ٣٢ هـ)

أصدقُ الحديثُ كتابُ الله ، وأوثقُ العُرَا كلمةُ التقوى . أكرمُ المللِ ملَّةُ إبراهيم ،
وخيرُ السننِ سنةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم . خيرُ الأمور أوسطُها ، وشرُّ الأمور مُحدثَاتُها .
ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . خيرُ الغنى غنى النفس ، وخيرُ ما أُلقي في القلب اليقين .
الجمْرُ جاعُ الآثام . النساءُ حِبَالَةُ الشَّيْطَانِ . الشبابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجَنُونِ . حبُّ الكفايةِ
مفتاحُ المعجزةِ . شرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَأْتِي الْجَمَاعَةَ إِلَّا دُبْرًا ، وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا هَجْرًا^(١) .
أعظمُ الخطايا اللسانُ الكذوبُ ، سبُّ المؤمنِ فسقٌ ، وقتاله كفرٌ ، وأكلُ لحمه معصيةٌ .
من يتألَّ^(٢) على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له . مكتوبٌ في ديوانِ الحسنين : من عفا
عفا الله عنه . الشقيّ من شقى في بطنِ أمه ، والسعيد من وعظ بغيره . الأمورُ بعواقبها .
ملاكُ العملِ خواتيمه . أشرفُ الموتِ الشهادةُ . من يعرفُ البلاءَ يصبرَ عليه . ومن لا يعرفُ
البلاءَ ينكره . (إعجاز القرآن ١٢٢ ، المقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٧)

(١) الهجر ككف : الذي يمشى مثقلًا ضعيفًا : أي لا يعرف الله إلا وقت الشدة .

(٢) تأل : أقم .

١٥٨ - أبو زيد الطائي يصف الأسد

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه يوماً لأبى زُبَيْدَ : حَرَمَلَةَ بن المنذر الطائي - وكان نصرانياً - يا أحمًا تَبِعَ المسيح ، أَسْمِعْنَا بعض قولك ، فقد أُنْبِئْتُ أنك تجيد ، فأنشده قصيدة له في وصف الأسد ، فقال عثمان : تالله تَفْتَأُ تذكر الأسد ما حَيَّيتُ الله وإنى لأحسبك جَبَانًا هَرَّابًا ، قال : كَلَّا ، يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت منه مَنظَرًا ، وشَهِدْتُ منه مَشْهَدًا ، لَا يَبْرُحُ ذِكْرُهُ يُتَجَدَّدُ ويتَرَدَّدُ في قلبى ، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غيرُ معلوم ، فقال له عثمان : وَأنى كَانَ ذلك ؟ قال :

« خرجت في صِيَابَةٍ^(١) أشرف من أبناء قبائل العرب ، ذوى هيئة وشارَةٍ^(٢) حسنة ، ترمى بنا المَهَارَى^(٣) بأكسائها^(٤) ، ونحن نزيد الحارث بن أبى شمر القَسَانِي ملك الشام ، فاخروط^(٥) بنا السير في حَمَارَةٍ الْقَيْظِ ، حتى إذا عَصِبَتِ الأفواه ، وَذَبَلَتِ الشِّفَاهُ ، وشالت^(٦) المياه ، وأذكتِ الْجُوزَاهِ المِعْزَاءَ^(٧) ، وذاب الصَّيْبُ^(٨) ، وَصَرَ الْجُنْدُ^(٩) ، وأضاف العُصْفُورُ الضَّبَّ في وَكْرِهِ ، وجاوره في جُحْرِهِ ، قال قائل : أيها الركب ، غُورُوا^(١٠) بنا في دَوْحِ هذا الوادى ، وإذا وادٍ قد بدا لنا كثير الدَّغَلِ^(١١) ، دَائِمُ الغَلَلِ^(١٢)

(١) الصيابة بالتشديد وتخفيف : الخالص والصميم والخيار من الشيء . (٢) الشارة : الهيئة واللباس والزينة ، والجمال . (٣) مهرة بن حيدان (يفتح الميم والحاء) : حى تنسب إليه الإبل المهرية ، وجمعها مهاري (يفتح الميم والراء) ومهار (منقوصا) ومهاري . (٤) الأكساء : جمع كساء (كقفل وعتق) وكساء كل شيء : مؤخره . (٥) اخروط بهم الطريق : طال وامتد .

(٦) قلت . (٧) أذكت : أشعلت ، والمعزاء من المعز بالتحريك : وهو الصلابة ، مكان أمعز وأرض معزاء ، كناية عن اشتداد الحر . (٨) الصيب : الصخرة الصلبة والموضع الشديد وكل موضع تحمى عليه الشمس حتى ينشوى اللحم عليه . (٩) نوع من الجراد ، وصر : صوت .

(١٠) الغور والغثور : الدخول في الشيء . والدوح : جمع دوحه ، وهى الشجرة العظيمة .

(١١) الدغل : الشجر الكثير الملتف ، واشتباك أثبتت وكثرته . (١٢) الغلل : الماء الذى يجرى

أشجاره مُغِنَّةٌ^(١) ، وأطياره مُرِنَّةٌ^(٢) ، فَحَطَطْنَا رِحَالَنَا بِأَصُولِ دَوْحَاتِ كَنْهَبَاتِ^(٣) ،
فَأَصْبَدْنَا مِنْ فَضَلَاتِ الْمَزَاوِدِ ، وَأَتْبَعْنَاهَا الْمَاءَ الْبَارِدَ ، فَإِنَّا لَنَصِيفُ حَرًّا يَوْمَنَا وَمُمَاطَلْتَهُ ،
إِذْ صَرَ أَقْصَى الْخَلِيلِ أذْنِيهِ^(٤) ، وَفَحَّصَ الْأَرْضَ بِيَدِيهِ ، فَوَاللَّهِ مَا لَبِثَ أَنْ جَالَ ،
ثُمَّ تَحَمَّحَمَ^(٥) فَبَالَ ، ثُمَّ فَعَلَ فَعْلَهُ الْفَرَسُ الَّذِي يَلِيهِ وَاحِدًا فَوَاحِدًا ، فَتَضَعَضَعَتِ الْخَلِيلُ ،
وَتَكْفَكَمَتِ^(٦) الْإِبِلُ ، وَتَقَهَّقَرَتِ الْبِغَالُ ، فَمِنْ نَافِرٍ بِشِكَالِهِ^(٧) ، وَنَاهَضَ بِعِقَالِهِ ،
فَعَلِمْنَا أَنَا قَدْ أُتِينَا ، وَأَنَّهُ السَّبْعُ لِأَشْكَ فِيهِ ، فَفَزَعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى سَيْفِهِ ، فَاسْتَلَّهُ مِنْ
جُرْبَانِهِ^(٨) ، ثُمَّ وَقَفْنَا رَزْدَقًا أَرْسَالًا^(٩) ، وَأَقْبَلَ أَبُو الْخَارِثِ مِنْ أُمَّجَمَتِهِ ، يَتَقَالَعُ^(١٠)
فِي مَشِيَّتِهِ ، كَأَنَّهُ مَجْنُوبٌ أَوْ فِي هِجَارٍ^(١١) ، لِيَصْدُرَهُ نَحِيْطٌ^(١٢) ، وَلِبِلَاعِهِ غَطِيْطٌ^(١٣) ،
وَلِطَرْفِهِ وَمِيْضٌ ، وَلَأَرْسَاغِهِ نَقِيْضٌ^(١٤) كَأَنَّمَا يَنْحَبُطُ هَشِيمًا ، أَوْ يَطَأُ صَرِيْمًا^(١٥) ، وَإِذَا
هَامَةً كَأَلْمَجْنِ^(١٦) وَخَذَّ كَأَلْمَسْنِ ، وَعَيْنَانِ سَجْرَاوَانَ^(١٧) كَأَنَّهُمَا سِرَاجَانِ يَتَقِدَانِ ،

- (١) أغن الذباب : صوت ، ويقال : واد مغن ، وهو الذي صار فيه صوت الذباب ، ولا يكون
الذباب إلا في واد مخصب بعشب ، والنعنة (بالضم) صوت في الخيشوم ؛ والأغن : الذي يتكلم من قبل
خياشيمه غن يغن بالفتح فهو أغن ، ومنه قالوا واد أغن : أي كثير العشب لأنه إذا كان كذلك ألهف الذباب وفي
أصواتها غنة ، وروضة غناه كذلك ، أو تمر فيها الرياح غير صافية الصوت لكثافة عشبها .
- (٢) رنت وأرنت : صاحت . (٣) الكنهبيل : شجر عظام ، والمزاود : جمع مزود كبير ،
وهو وهاء الزاد . (٤) صر الحمار بأذنه وصرها وأصر بها : سواها ونصبها للاستماع .
- (٥) الحمحة والتحمم : صياح الفرس حين يقصر في الصهيل ويستمين بنفسه ، وصوته إذا طلب
الملف . (٦) خافت وفزعت ، كمكمته فتكمع : جبنته وخوفته . (٧) الشكال : الحبل الذي
تشده به قوائم الدابة . (٨) الجريان : غمد السيف . (٩) الرزدق : الصف من الناس والأرسال
جمع رسل كسبب ، وهو القطيع من كل شيء .
- (١٠) من ظلع كنع : إذا غمز في مشيه . (١١) جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو جنيب ومجنوب ومجنب
والهجار : حبل يشد في رسخ رجل البعير ثم يشد إلى حقوه ، وإن كان مرحولا شد إلى الحقب .
- (١٢) النحيط : الزفير ، والناحط : من يسعل شديدا . (١٣) غط البعير غطيطا : هدر ، والنائم
صوت وكذا المذبوح والمخنوق . (١٤) نقيض الأصابع والأضلاع والمفاصل : أصواتها .
- (١٥) ثمر صريم : أي مقطوع . (١٦) المجن : الترس . (١٧) عين سجراه : خالطت
بياضها حمرة .

وَقَصْرَةٌ رِبَلَةٌ^(١) ، وَلِهَزِيمَةٌ رَهْلَةٌ^(٢) ، وَكَتْدٌ مُغْبَطٌ^(٣) وَزَوْزٌ مُفْرَطٌ^(٤) وَسَاعِدٌ
مَجْدُولٌ ، وَعَضُدٌ مَفْتُولٌ ، وَكَفٌّ شَدْنَةُ الْبِرَاثِ^(٥) إِلَى مَخَالِبٍ كَالْمَحَاجِنِ^(٦) ،
فَضْرِبُ بِيَدَيْهِ فَأَرْهَجَ^(٧) ، وَكَثَّرَ^(٨) فَأَفْرَجَ عَنِ أَنْيَابِ كَالْمَاعُولِ ، مَصْقُولَةٌ ، غَيْرُ مَقُولَةٍ ،
وَقَمٌّ أَشْدَقُ^(٩) كَالْفَارِ الْأَخْوَقِ^(١٠) ، ثُمَّ تَمَطَّى فَأَسْرَعَ بِيَدَيْهِ ، وَخَفَزَ^(١١) وَرَكِبَهُ بِرَجْلَيْهِ ،
حَتَّى صَارَ ظِلُّهُ مِثْلِيهِ ، ثُمَّ أَمَقَى^(١٢) فَاقْشَعَرَ^(١٣) ، ثُمَّ مَثَّلَ فَاقْفَهَرَ^(١٤) ، ثُمَّ تَجَهَّمَ فَازْبَارَ^(١٥)
غَلَاوَذُو^(١٥) بَيْنَهُ فِي السَّمَاءِ ، مَا اتَّقِينَاهُ إِلَّا بِأَخٍ لَنَا مِنْ فِرَازَةٍ ، كَانَ ضَخْمَ الْجَزَارَةِ^(١٦) ،
فَوَقَصَ^(١٧) ثُمَّ نَقَضَهُ نَقْضَةً ، فَقَضَقَصَ^(١٨) مَتْنَيْهِ ، فَجَعَلَ يَلْغُ فِي دَمِهِ ، فَذَمَرَتْ^(١٩)
أَحْمَابِي ، فَبَعْدَ لَأَيِّ^(٢٠) مَا اسْتَقْدَمُوا ، فَهَجَّهَجْنَا^(٢١) بِهِ ، فَكَّرَ مَقْشَعِرِ الزُّبْرَةِ^(٢٢) ،

- (١) القصرة : أصل المتق؛ والرباية بالفتح : كثرة اللحم ، وهي ربله ومتربله .
(٢) الهازمان نائمان تحت الأذنين ، والجمع لهازم ، ورهل لحمه : كفح ارتفخ وورم من غير داء .
(٣) الكتد : مجتمع الكتفين ، أو الكاهل ، أو ما بين الكاهل إلى الظهر ، وأغبط النبات : غطي الأرض ، وكثف وتداني ، وأرض مغبطة بفتح الباء ، أي وكاهل مغطى بالشعر .
(٤) من أفرطه : إذا ملأه حتى أسال الماء فهو مفرط . (٥) شتنة : أي غليظة خشنة ، شنت كفه : كفح وكرم ، والبراث : جمع برثن كبرقع ، وهو مخلب الأسد . (٦) المحاجن : جمع محجن كنبز ومكنسة : العصا المعوجة وكل معطوف معوج . (٧) أرهج : أثار الغبار ، والرهج (كشس وسبب) الغبار . (٨) كثر عن أسنانه : أبلى . (٩) من الشدق (كسبب) وهو سعة الشدق . (١٠) من الحقوق (كسبب أيضا) وهو السعة ومنه مفازة خوقاء . (١١) حفزه : دفعه . (١٢) أمقى : جلس على استه مفترشا رجله ناصبا يديه . (١٣) مثل : قام منتصبا ، والمسكفر من الوجوه : الضارب لونه إلى الغبرة مع غلظ ، والمتهمس . (١٤) تجهمه وجهه (كنع وسمع) استقبله بوجه كريبه ، وازبار : تنفش . (١٥) ذو : بمعنى الذي في لغة طيبيء .
* فحسبى من ذو عندهم ما كفانيا *

- (١٦) الجزارة : بالنم اليدان والرجلان والمتق . (١٧) وقص عنقه : كمرها . (١٨) من نقض البناء : أي هسه ، وقضقص : مزق . (١٩) اللمر : الملامة ، والحض والتهدد . (٢٠) اللأى : الإبطاء والاحتباس . (٢١) هججهج بالأسد : صاح . (٢٢) الزبرة (كنفرصة) هي الشعر المجتمع بين كفتي الأسد .

كَأَن بِهِ شَيْهَمًا^(١) حَوْلِيًّا ، فَاخْتَلَجَ^(٢) رَجُلًا أَعْجَرَ ذَا حَوَايَا ، فَفَقَضَهُ نَقْضَةً تَزَايَلَتْ مِنْهَا مَفَاصِلُهُ ، ثُمَّ هَمَّهُمْ قَفَرَةٌ^(٣) ، ثُمَّ زَفَرٌ فَبَزِيرٌ^(٤) ، ثُمَّ زَأْرٌ فَجَجْرٌ جَرٌّ^(٥) ، ثُمَّ لِحْظٌ ، فَوَاللَّهِ تَلَحُّتُ الْبَرْقُ بِتَطَايِيرٍ مِنْ تَحْتِ جَفْوَانِهِ ، عَنْ شِمَالِهِ وَبِئَمِينِهِ ، فَأُرْعِشَتْ الْأَيْدِي ، وَأُصْطَكَّتِ الْأَرْجُلُ ، وَأُطَّتِ^(٦) الْأَضْلَاعُ ، وَارْتَجَّتِ الْأَسْمَاعُ ، وَشَخَّصَتِ^(٧) الْعَيُونُ ، وَتَحَقَّقَتِ الظُّنُونُ ، وَانْحَزَلَتْ^(٨) الْمُتُونُ ، وَلِحِقَتْ الظُّهُورُ بِالْبَطُونِ ، ثُمَّ سَاءَتِ الظُّنُونُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَانٌ : اسْكُتْ قَطَعَ اللَّهُ لِسَانَكَ ! فَقَدْ أَرَعَبْتَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ .

(الأغانى ١١ : ٢٣ والحاسن والأضداد ص ١١٢)

-
- (١) الشيهيم : ما عظم ثوكه من ذكران القنفاذ ، والحولى : ما ألقى عليه حول .
(٢) اختلج : جذب وانترع ، والأعجر : السمين ، عجر : كفرح غلظ وسمن وضخم بطنه ، والحوايا : جمع حاوية ؛ وهى ماتحوى من الأمعاء أى استدار ، والمعنى أنه عظيم البطن . (٣) المهمة : تردد الزئير فى الصدر ، وكل صوت معه بحج ، والقرقرة : هدير البعير . (٤) البربرة : الجلبة والصياح .
(٥) الجرجرة : صوت يردده البعير فى حنجرتة . (٦) الأطيط : صوت الرجل والإبل إذا أنت تهما أو حنينا ، وصوت الظهر ، والجوف من الجوع . (٧) شخص بصره كنع : فتح عينيه وجعل لا يظرف . (٨) الانخزال والتخزل : مشية فى تشاقل . ومتنا الظهر : مكتنفا الصلب عن يمينه وشماله .

خلافة الإمام علي

كرم الله وجهه

١٥٩ - وصية عليّ لقيس بن سعد

ولما قتل عثمان رضی الله عنه وولى على بن أبي طالب الأمر ، دعا قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى وولاه مصر سنة ٥٣٦ هـ .
وقال له :

« سر إلى مصر فقد وليتكمها ، واخرج إلى رحلك ، واجمع إليك ثقاتك ، ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أربع لعدوك ، وأعز لوليك ، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن ، واشتد على المريب ، وارفق بالعامّة والخاصة فإن الرفق يُمنّ » .
(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٧)

١٦٠ - خطبة لقيس بن سعد

ولما دخل قيس مصر قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم
وقال :

« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين
أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقوموا
أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن نحن
لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » .
فقام الناس فبايعوا .
(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٨)

فتنة أصحاب الجمل

ولما قدمت السيدة عائشة رضى الله عنها البصرة ، للطلب بدم عثمان ، خرج إليها من أهلها من أراد أن يكون معها ، واجتمع القوم بالمربد ، وجعلوا يثوبون ، حتى غصَّ بالناس ، فتكلم طلحة ، فأنصتوا له :

١٦١ - خطبة طلحة

حمد الله وأثنى عليه ، وذكر عثمان رضى الله عنه وفضله ، والبلد وما أستحلَّ منه ، وعظم ما أتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدمه وقال :

« إن في ذلك إعزازَ دين الله عزَّ وجلَّ وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم ، فإنه حدٌّ من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أسركم إليكم ، وإن تركتم لم يقيم لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام » .

وتكلم الزبير بمثل ذلك ، ثم تكلمت السيدة عائشة وكانت جهورية الصوت .

١٦٢ - خطبة السيدة عائشة بالمربد

حمدت الله عزَّ وجلَّ ، وأثنت عليه وقالت :

« كَانَ النَّاسُ يَتَجَنَّبُونَ^(١) عَلَى عِمَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيُتْرُونَ^(٢) عَلَى عَمَالِهِ ، وَيَأْتُونَنا بِالْمَدِينَةِ ، فَيَسْتَشِيرُونَنا فِيمَا يَجْرُونَنا عَنْهُمْ ، فَنَنْظُرُ فِي ذَلِكَ فَنَجِدُهُ بَرِيًّا ، تَقِيًّا وَفِيًّا ،

(١) تجنى عليه : ادعى ذنباً لم يفعله . (٢) زرى عليه : عابه كأزرى لكنه قليل .

ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، يحاولون غير ما يُظهرون ، فلما قووا على المكثرة كاثروه ،
واقتمحوا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة^(١)
ولا عذر ، ألا إن مما ينبغي ، لا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان رضی الله عنه ، وإقامة
كتاب الله عز وجل : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى
كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) الآية .

(تاريخ الطبري ٥ : ١٧٥ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٥)

١٦٣ - خطبة لعلی

وخطب علی لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة فقال :
« أيها الناس : إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير ، وكل منهما يرى
الأمر له دون صاحبه ، أما طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فختها ، والله لو ظفروا بما
أرادوا - ولن ينالوا ذلك أبدا - ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد ،
والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة ، إلا في معصية الله وسخطه ،
حتى تُورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، إى والله ليقتلن ثلثهم ، وليهزبن ثلثهم ،
وليتوبن ثلثهم ، وإنها التي تنبجها كلاب الحوآب ، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان ، ورب
عالم قتله جهله ، ومعهم علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، فقد قامت الفتنة فيها الفتنة
الباغية ، أين المحسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلتم كافرين ،
ولأقتلنهم مفتونين ، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلا أننا أدخلناها في حيزنا ، والله لأبقرن
الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، قفل لقريش فلتضح ضجيجها » ثم نزل .

(ابن أبي الحديد م ١ : ص ٧٨)

١٦٤ - خطبة لعلی

ولما رجعت رسل علیّ من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنونہ بالحرب قام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« أيها الناس : إني قد راقت هؤلاء القوم كي يرعوا أو يرجعوا ، ووبختهم بنكثهم ، وعرقهم بغيمهم فلم يستحيوا ، وقد بعثوا إليّ أن ابرز للطعان ، واصبر للجلاد ، وإنما تمنيت نفسك أمانىّ الباطل ، وتعدك الفرور ، ألا هبيلتهم^(١) الهبول ، لقد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب ، ولقد أنصف القارة^(٢) من رامها ، فليرعوا وليبرقوا ، فقد رأوني قديما ، وعرفوا نكايتي ، فكيف رأوني ؟ أنا أبو الحسن الذي قلتُ حدّ المشركين ، وفرقت جماعتهم ، وبذلك القلب ألقى عدويّ اليوم ، وإني لعلی ما وعدني ربي من النصر والتأييد ، وعلى يقين من أمری ، وفي غير شبهة من ديني .

أيها الناس : إن الموت لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، ليس عن الموت مجيد ولا محيص ، من لم يُقتل مات ، إن أفضل الموت القتل ، والذي نفس عليّ بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش .

اللهم إنّ طلحة نكث بيعتي ، وألب على عثمان حتى قتله ، ثم عصياني^(٣) به ورماني ، اللهم فلا تُتمهله .

اللهم إن الزبير قطع رحمي ، ونكث بيعتي ، وظاهر عليّ عدوي ، فاكفنيه اليوم بما شئت » ثم نزل .
(ابن أبي الحديد م ١ : ١٠١)

(١) هبيلة أمه : نكثته .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . (٣) عصيه : بهته وقال فيه مالم يكن .

١٦٥ - خطبة لعلی

حمد الله وصلى على رسوله ثم قال :

« أما بعد فإنه لما قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، قلنا نحن أهله وورثته وعترته وأولياؤه دون الناس ، لا ينازعنا سلطانه أحد ، ولا يطمع في حقنا طامع ، إذ انبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبينا ، فصارت الإمرة لغيرنا ، وصرنا سُوقَه يطمع فينا الضعيف ، ويتعزز علينا الدليل ، فبكت الأعين منا لذلك ، وخشنت الصدور ، وجزعت النفوس .
وأيُّمُّ الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين ، وأن يعود الكفر ويبور الدين ، لكننا على غير ما كنا لهم عليه ، فولى الأمر ولادة لم يألوها الناس خيرا ، ثم استخرجتموني أيها الناس من بيتي ، فبايعتموني على شئني مني لأمركم ، وفراسة تصدقني ماني قلوب كثير منكم ، وبايعني هذان الرجلان في أول من بايع - تعلمون ذلك - وقد نكنا وغدرا ونهضا إلى البصرة بعائشة ، ليفرقا جماعتكم ، ويلقيا بأسكم بينكم ، اللهم فخذها بما عملا أخذة واحدة رابية ، ولا تنعش لها صرعة ، ولا تُثقل لها عثرة ، ولا تمهلها فواقا^(١) ، فإنهما يطلبان حقا تركاه ، ودما سفكاه ، اللهم إنى أقتضيك وعدك ، فإنك قلت وقولك الحق « ثُمَّ بُعِثَ عَلَيْنَا لِنُنْصِرَنَّهُ اللَّهُ » اللهم فأنجز لي موعودك ، ولا تكفني إلى نفسي إنك على كل شيء قدير . »

(ابن أبي الحديد م ١ : ١٠١)

١٦٦ - خطبة عدی بن حاتم

يستنفر قومه لنصرة الإمام عليّ

ولما شخّص الإمام عليّ كرم الله وجهه من المدينة إلى البصرة وقد علم بمسير طلحة والزبير وعائشة إليها ، قام عدی بن حاتم إليهم فقال : يا أمير المؤمنين لو تقدمتُ إلى قومي

(١) الفواق بالضم ويفتح : ما بين الحلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع .

أخبرهم بمسيرك ، وأستنفِرم ، فإن لك من طيبي مثل الذي معك ، فقال عليّ : نعم فافعل ، فتقدم عدى إلى قومه ، فاجتمعت إليه رؤساء طيبي ، فقال لهم :

« يا معشر طيبي : إنكم أمسكتم عن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشرك ، ونصرتم الله ورسوله في الإسلام على الردة ، وعلى قادم عليكم ، وقد ضمنت له مثل عِدَّة مَنْ مَعَهُ مِنْكُمْ ، فَخَفُّوا ^(١) مَعَهُ ، وقد كنتم تقاتلون في الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا في الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنت عنكم الوفاء ، وباهيت بكم الناس ، فأجيبوا قولى ، فإنكم أعز العرب داراً ، لكم فضلُ معاشكم وخيلكم ، فاجعلوا فضل المعاش لِلْمِيَالِ ^(٢) ، وفضول الخيل للجهاد ، وقد أظلمكم على والناس معه من المهاجرين والبدرين ^(٣) وَالْأَنْصَارِ ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيلٌ للحى فيه الغنى والسرور ، وللقنيل فيه الحياء والرزق . »

فصاحت طيبي : نعم نعم ! حتى كاد أن يُعَمَّ من صياحهم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٥)

١٦٧ — خطبة زفر بن زيد

يستنفِر قومه لنصرة عليّ أيضاً

وقام إلى عليّ زفر بن زيد الأسدى - وكان من سادة بنى أسد - فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طيئنا إخواننا وجيراننا قد أجابوا عديّاً ، ولى في قومي طاعة ، فأذن لي فآتيهم ، قال : نعم ، فأتاهم فجمعهم ، وقال :

(١) أى ارتحلوا مسرعين . (٢) جمع عيل (كجيد) وهو من يجب الإنفاق عليه .

(٣) أى الذين حضروا وقعة بدر .

« يا بنى أسد : إن عدى بن حاتم ضمن لعلى قومه ، فأجابوه ، وقضوا عنه ذمامه^(١) ، فلم يعتل العنّى بالنعنى ، ولا الفقير بالفقير ، وواسى بعضهم بعضاً حتى كأنهم المهاجرون فى الهجرة ، والأنصار فى الأثر^(٢) ، وهم جيرانكم فى الديار ، وحلطاؤكم^(٣) فى الأموال ، فأنشدكم الله لا يقول الناس غداً : نصرت طيئاً ، وخذلت بنو أسد ، وإن الجار يُقاس بالجار ، كالنمل بالنمل ، فإن ختم فتوسّعوا فى بلادهم ، وانضموا إلى جبلهم ، وهذه دعوة لها ثوابٌ من الله فى الدنيا والآخرة .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٦)

١٦٨ — خطبة على بالربذة

روى الطبرى قال :

لما أتى علياً الخبر - وهو بالمدينة - بأمر عائشة وطلحة والزبير أنهم قد توجهوا نحو العراق ، خرج يبادر وهو يرجو أن يدركهم ويردهم ، فلما انتهى إلى الربذة^(٤) أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا ، فأقام بالربذة أياماً ، وبقى بها تيبهاً ، وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح ، وقام فى الناس فخطبهم وقال :

« إن الله عز وجل أعزنا بالإسلام ، ورفعنا به ، وجعلنا به إخواناً بعد ذلة وقلة ، وتباغض وتباعد ، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله ، الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب إمامهم ، حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان ، لينزغ بين هذه الأمة ، ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترت الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن .

(١) العهد والحرمة . (٢) أى يؤثر كل منهم أخاه على نفسه ، ويفضله كما فعل الأنصار بالمهاجرين

« وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » (٣) الخلطاء: جمع خليط ، وهو الشريك .

(٤) قرب المدينة .

ثم عاد ثانية فقال : إنه لا بد مما هو كائن أن يكون . ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملى ، فقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينكم واهدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم واتبعوا سنته ، وارضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فاعرفه القرآن فالزموه ، وما أنكره فردوه ، وارضوا بالله عز وجل رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن حكماً وإماماً .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٥)

١٦٩ خطبة سعيد بن عبيد الطائى

ولما كان الإمام على كرم الله وجهه بالرَبْدَة ، أتته جماعة من طيى ، فقيل لعلّى : « هذه جماعة من طيى قد أتتك ، منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك » قال : « جزى الله كلاً خيراً ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » ثم دخلوا عليه ، فقال على : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكل ما تحب ، قال : « جزاكم الله خيراً ، فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين » فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن من الناس من يُعبّر لسانه عما فى قلبه ، وإنى والله ما كُلتُ ما أُجِدُّ فى قلبى يُعبّر عنه لسانى ، وسأجهدُ (وبالله التوفيق) أما أنا فساأنصح لك فى السرِّ والعلانية ، وأقاتل عدوك فى كل موطن ، وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك ، لفضلك وقربتك » .

قال : رحمتك الله ! قد أدّى لسانك عما يُجِنُّ^(١) ضميرك ، فقتل معه صفيين رحمه الله !

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٤)

١٧٠ - خطبة الحسن بن علي

ولما دخل الحسن وعمار الكوفة اجتمع إليهما الناس فقام الحسن فاستنفر الناس .
فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال :

« أيها الناس إننا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفضقه من تفقهه من المسلمين وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة ، إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مآثرة ، إلى من كفى الله ورسوله والناس متخاذلون ، فقرّب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، إلى من لم تردّ له ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ، ويدعوكم إلى الحق ، ويأمركم بالمسير إليه لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعاله ، وانتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا إليه رحمكم الله ، فمروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٢٩٢)

١٧١ - خطبة أخرى للحسن

« الحمد لله العزيز الجبار ، الواحد القهار ، الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، أحمدته على حسن البلاء ، وتظاهر النماء ، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، امتن علينا بنبوته ، واختصه برسالته ، وأنزل عليه وحيه ، واصطفاه على جميع خلقه ، وأرسله إلى الإنس والجن ، حين عبّدت الأوثان ، وأطبع الشيطان ، وجحد الرحمن ، وصلى الله عليه وعلى آله ، وجزاه أفضل ماجزى المسلمين .

أما بعد ، فإنني لا أقول لكم إلا ما تعرفون ، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ،
أرشد الله أمره ، وأعز نصره ، بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب ، وإلى العمل بالكتاب ،
والجهاد في سبيل الله ، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون ، فإن في آجله ما تحبون
إن شاء الله .

ولقد علمتم أن عليا صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحده . وإنه يوم صدق به
لثي عشرة من سنه ، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميع مشاهدته ، وكان من
اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم ، ولم يزل
رسول الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه ، حتى غمضه بيده ، وغسله وحده ، والملائكة
أعوانه ، والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء ، ثم أدخله حفرة ، وأوصاه بقضاء دينه وعِداته
وغير ذلك من أموره ، كل ذلك من من الله عليه .

ثم والله ما دعا إلى نفسه ، ولقد تذاك الناس عليه تذاك الإبل الهيم عند ورودها ،
فبايعوه طائعين ، ثم نكث منهم نا كثون بلا حدث أحدثه ، ولا خلاف أتاه ، حسدا
له وبغيا عليه .

فعلیکم عباد الله بتقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة بالله والخوف إلى ما دعاكم
إليه أمير المؤمنين ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه وأهل طاعته ، وأهملنا وإياكم
نقواء ، وأعاننا وإياكم على جهاد أعدائه ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٢٩٢)

١٧٢ - خطبة عمار بن ياسر

وقام بعده عمار ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

أيها الناس أخو نبيكم وابن عمه يستنفركم لنصر دين الله . وقد بلاكم الله بحق دينكم ،
وحرمة أمكم ، فحق دينكم أوجب ، وحرمة أعظم .

« أيها الناس عليكم بإمام لا يؤدّب ، و فقيه لا يعلم ، وصاحب بأس لا ينكل ،
وذى سابقة فى الإسلام ليست لأحد ، وإنكم لو قد حضرتموه بين لكم أمركم إن
شاء الله . »

١٧٣ - خطبة أبى موسى الأشعري

فلما سمع أبو موسى الأشعري خطبة الحسن وعمار قام فصعد المنبر وقال :

الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد فجمعنا بعد الفرقة ، وجعلنا إخواناً متحابين بعد العداوة
وحرّم علينا دماءنا وأموالنا، قال الله سبحانه : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)
وقال تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) فانقوا الله عباد الله .
وضعوا أسلحتكم ، وكفوا عن قتال إخوانكم .

أما بعد ، يا أهل الكوفة إن تطيعوا الله باديًا ، وتطيعونى ثانياً تكونوا جُرثومة^(١) من
جرائم العرب ، يا أوى إليكم المضطر ، ويا من فيكم الخائف ، إن علياً إنما يستنفركم لجهاد
أمكم عائشة وطلحة والزبير حوارى رسول الله ومن معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفتن .
إنها إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إنى خائف عليكم أن يلتقى غاراً منكم
فيقتتلا ، ثم يُتركا كالأحلاس الملقاة بنجوة من الأرض لا يُدرى من أين تؤتى ، ترك
الحليم حيران ، كأنى أسمع رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس يذكر الفتن فيقول :
أنت فيها نائماً خيراً منك قاعداً ، وأنت فيها جالساً خيراً منك قائماً ، وأنت فيها قائماً خيراً
منك ساعياً ، فلمّا وسىوفكم ، وقصّفوا رماحكم ، وأنصّلوا^(٢) سهامكم ، وقطعوا أوتاركم ،
وخلوا قر يشاً ترتق فتقها ، وتراب صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها ما فعلت ، وإن أبت فعلى
أنفسها ما جنت ، سمنها فى أديمها ، استنصحونى ولا تستغشونى ، وأطيعونى ولا تعصونى ،
يتبين لكم رشدكم ، وتصلى هذه الفتنة من جناها .

(شرح ابن الحديد م ٢٩٣)

(١) جرمونة الشيء : أصله . (٢) أنصل المهم ونصله بالتشديد : جعل فيه نصلاً وأزاله عنه ضد .

صورة أخرى

١٧٤ - خطبة أبي موسى الأشعري

وكتب الإمام عليّ من الرّبذة أبا موسى الأشعري - وكان عامله على الكوفة -
ليستنفر الناس لقتال عائشة ومن معها ، فنبطهم وخطبهم ، فقال :

« أيها الناس : إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه في المواطن ، أعلم بالله
جلّ وعزّ وبرسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه ، وإن لسكم علينا حقا ، فأنا مؤدّيه
إليكم ، كان الرأي ألاّ تستخفّوا بسلطان الله عزّ وجلّ ، ولا تجترثوا على الله عزّ وجلّ ،
وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قديم عليكم من المدينة فتردوهم إليها ، حتى يجتمعوا ، وهم
أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ، ولا تكلفوا الدخول في هذا ، فأما إذ كان ما كان ،
فإنها فتنة صحّاء ، الدائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد . والقاعد خير
من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جرّثومة^(١) من جرائم العرب ،
فأغمدوا^(١) السيوف ، وأنصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد ،
حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجل هذه الفتنة » .

(تاريخ الطبري ٥ : ١٨٧ ، والسكامل لابن الأثير ٣ : ١١٣)

(١) غمد السيوف يغمده كنعصر وضرب وأغمده : جعله في الغمد .

١٧٥ - صورة أخرى

وخطب أيضاً في هذا الصدد ، فقال :

« أيها الناس : أطيعوني تسكونوا جرتومة من جرائم العرب ، ياوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف ، إنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا ، إن الفتنة إذا أقبلت شُبّهت ، وإذا أدبرت بيّنت ، وإن هذه الفتنة باقرة^(١) كداء البطن ، تجرى بها الشّمال والجَنُوب ، والصبا^(٢) والدّبور ، فتسكن أحياناً ، فلا يُدرى من أين تؤتى ، تذرّ الحليم كابنِ أمس ، شيمة^(٣) سيوفكم ، وقصدوا^(٤) رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزمو بيوتكم ، خلّوا قريباً إذا أبوا إلاّ الخروج من دار الهجرة ، وفراق أهل العلم بالإمرة ، ترتق^(٥) فتقها ، وتَشَعَب^(٦) صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها سمّت ، وإن أبت فعلى أنفسها جنت ، سمّتها هَرِيْق في أديمها ، استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحرّ هذه الفتنة من جناها . »

١٧٦ - خطبة زيد بن صوحان

فقام زيد بن صوحان ، فشال^(٧) يده المقطوعة ، فقال :

« يا عبد الله^(٨) بن قيس ، رُدَّ الفُرات عن أدراجه^(٩) ، أُرُدِّده من حيث يجيء ،

(١) فتنة باقرة : صادعة للألثة شاقة للعصا . وفي الكامل لابن الأثير : فاقرة بانفاء ، وهي الداهية تسكر فقار الظهر . (٢) الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . والدبور : ريح تقابلها . (٣) شام سيفه يشيمه : غمده واستله ، ضد . (٤) التقصيد والقصد : الكسر بأى وجه كان أو بالنصف ، ورمح قصد ككتف وقصيد وأقصاد متكسر . (٥) رتق الفتق : سده . (٦) الشعب : الإصلاح والإفساد ، والجمع والتفريق ، ضد . (٧) شال : رفع ؛ قطعت يده يوم جلولاء ، وقيل بالقادسية في قتال الفرس ؛ وقتل يوم الجمل (أسد الغابة ٢ : ٢٣٤) . (٨) هو اسم أبي موسى . (٩) جمع درج بفتحيتين ، وهو الطريق .

حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك ، فستقدر على ما تريد ، فدع عنك ما لست
مُدْرِكَه ، ثم قرأ : (الم ، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ،
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) سيروا
إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وَأَنْفِرُوا^(١) إليه أجمعين ، تصيبوا الحق .

١٧٧ — خطبة القعقاع بن عمرو

فقال القعقاع بن عمرو فقال :

« إني لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشُدُوا^(٢) ، وَلَا قَوْلَ لَكُمْ قَوْلًا
هُوَ الْحَقُّ ، أما ما قال الأمير فهو الأمر ، لو أن إليه سبيلاً ، وأما ما قال زيد فزيد عدو هذا
الأمر ، فلا تدنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها ، وجرى إليها ، والقول
الذي هو الحق أنه لا بد من إمارة تنظّم الناس ، وتزَع^(٣) الظالم ، وتُعزّ المظلوم ، وهذا
على بلى بما ولي ، وقد أنصف في الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا
الأمر بمرأى ومسمع . »

١٧٨ — خطبة سيحان بن صوحان

وقال سيحان :

« أيها الناس : إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال ، يدفع الظالم ويُعزّ
المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه^(٤) ، وهو المأمون
على الأمة ، الفقيه في الدين ، فمن نهَضَ إليه ، فإننا سائرُونَ معه . »

(١) اذهبوا . وكانت السيدة عائشة قد كتبت إليه كتابا تأمره فيه بملازمة بيته أو نصرتها ، فقال :
أمرت أن تقر في بيتها ، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به .
(٢) رشد : كنصر وفرح . (٣) تردع وتكف . (٤) طلحة والزبير .

١٧٩ — خطبة الحسن بن علي

وقام الحسن بن علي رضي الله عنه ، فقال :

« أيها الناس : أجيئوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفّر إليه ، والله لأن يلبّيه أولو النهى أمثل في العاجلة ، وخير في العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا ، وأعيئونا على ما ابتلينا به وابتليتم ، وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً ، وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلاّ نفر ، فإن كنت مظلوما أعانني ، وإن كنت ظالماً أخذ مني ، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني ، وأول من غدر ، فهل استأثرت بجال ، أو بدلت حكماً ؟ فانفروا ، فمروا بالمعروف ، وانهاوا عن المنكر . »

(تاريخ الطبري ٥ : ١٨٨ ، والكمال لابن الأثير ٣ : ١١٤)

١٨٠ — وفادة القعقاع بن عمرو إلى أصحاب الجمل

ولما نزل الإمام عليّ كرم الله وجهه بذي قار ، دعا القعقاع بن عمرو ، فأرسله إلى أهل البصرة ، وقال له : إلق هذين الرجلين — طلحة والزبير — يابن الحنظلية ، « وكان القعقاع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » فادعُهما إلى الألفة والجماعة ، وعظّم عليهما الفرقة ، وقال له : كيف أنت صانع فيما جاءك منهما ، مما ليس عندك فيه وصاة^(١) مني ؟ فقال : نلقاهم بالذي أمرت به ، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي ، اجتهدنا الرأي ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي ، قال : أنت لها .

(١) وصية .

فخرج القعقاع حتى قَدِمَ البصرة فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فسلم عليها ، وقال :
أى أمة : ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بُنى : إصلاح بين الناس ،
قال : فابنى إلى طلحة والزبير ، حتى تسمى كلامى وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال :
إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ،
فما تقولان أنما ؟ أمتابعان أم مخالقان ؟ قالا : متعابعان ، قال : فأخبرانى ، ما وجه هذا
الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنُصلِحَنَّ ، ولئن أنكرناه لا نُصلِح ، قالا : قتلة عثمان
رضى الله عنه ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياءاً للقرآن ،
فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قيلَ قتلهم أقربُ إلى الاستقامة منكم
اليوم ، قتلتم سمانه إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين
أظهركم ، وطلبتم ذلك الذى أفلتت — يعنى حرُ قوص بن زهير — ففنع ستة آلاف
وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم
فأدبوا^(١) عليكم ، فالذى حذرتم وقربتم^(٢) به هذا الأمر أعظم مما أراكم تسكرهون ،
وأنتم أحميم مضرَ وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرَةَ هؤلاء
كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدّ العظيم ، والذنب الكبير .

فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا
سكن اختلجوا^(٣) ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشيرُ رحمة ، ودَرَكَ بِئْرٍ هذا
الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرةَ هذا الأمر واعتسافه ،
كانت علامة شرّ وذهاب هذا النأر ، وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهزاً^(٤) ، فأثروا العافية
تُرزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير ، كما كنتم تسكونون ، ولا تعرّضونا للبلاء ، ولا تعرّضوا

(١) أى غلبوكم وانصروا عليكم . (٢) فربه (كسع) قرب منه (كسكرم) .

(٣) اضطربوا وتفككوا . (٤) الهزهزة والهزاهز : تحريك البلايا والحروب الناس .

له ، فَيَصْرَعَنَا وَإِيَّاكُمْ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ إِنِّي لَأَقُولُ هَذَا وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنِّي لَخَائِفٌ الْآيَتِيمَ
حَتَّى يَأْخُذَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا حَاجَتِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، الَّتِي قَلَّ مَتَاعُهَا ، وَنَزَلَ بِهَا مَا نَزَلَ ، فَإِنِ
هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَدَثَ لَيْسَ يَقْدَرُ ، وَلَيْسَ كَالْأُمُورِ ، وَلَا كَقَتْلِ الرَّجُلِ الرَّجُلَ ، وَلَا
النَّفْرِ الرَّجُلَ ، ، وَلَا الْقَبِيلَةَ الرَّجُلَ . » .

فَقَالُوا : نَعَمْ ، إِذْنِ قَدْ أَحْسَنْتَ وَأَصَبْتَ الْمَقَالَةَ فَارْجِعْ ، فَإِنِ قَدِمَ عَلَيَّ ، وَهُوَ عَلَى مِثْلِ
رَأْيِكَ ، صَلَحَ هَذَا الْأَمْرُ ، فَارْجِعْ إِلَى عَلِيٍّ فَأَخْبِرْهُ ، فَأَعْجِبْهُ ذَلِكَ ، وَأَشْرَفِ الْقَوْمَ عَلَى الصَّلْحِ (١) .
(تاريخ الطبري ٥ : ١٩١)

١٨١ - خطبة علي بن أبي طالب

فَلَمَّا رَجَعَ التَّمَقُّعُ مِنْ عِنْدَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ، جَمَعَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ النَّاسِ ، ثُمَّ قَامَ
عَلَى الْفَرَائِثِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ عِزًّا وَجَلًّا ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَكَرَ
أَجَاهِلِيَةَ وَسَقَاهَا ، وَالْإِسْلَامَ وَالسَّعَادَةَ ، وَإِنْعَامَ اللَّهِ عَلَى الْأُمَّةِ بِالْجَمَاعَةِ بِالْخَلِيفَةِ ، بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ ، الَّذِي جَرَّهَ
عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْوَامٌ طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا ، حَسَدُوا مَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَى الْفَضِيلَةِ ، وَأَرَادُوا
رَدَّ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَاللَّهُ بِالْعِزِّ أَمْرَهُ ، وَمُصِيبٌ مَا أَرَادَ ، أَلَا إِنِّي رَاحِلٌ غَدًا فَارْتَحِلُوا ،
أَلَا وَلَا يَرْتَحِلُنَّ غَدًا أَحَدٌ أَعَانَ عَلَى عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِشَيْءٍ ، فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ ،
وَلْيُغْنِ السَّفَهَاءُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . » .
(تاريخ الطبري ٥ : ١٩٤)

(١) وَلَكِنَّ السَّبْيِينَ أَحْبَبُوا مَسَاعِيَ الصَّلْحِ ، إِذْ خَرَجُوا فِي الْغُلَسِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَدٌ ؛ فَتَقَصَّدَ
مَضْرَهُمُ مَضْرَ البَصْرَةِ ، وَرَبِيعَتَهُمْ رَبِيعَةَ البَصْرَةِ ، وَيَمْنَهُمْ يَمْنَ البَصْرَةِ ، وَوَضَعُوا فِيهِمُ السَّلَاحَ . فَتَارَكَلْ
قَوْمٌ فِي رُجُوهِ أَصْحَابِهِمْ ، وَدَارَتْ رَحَى الْقِتَالِ بَيْنَهُمْ ، وَكَلَا انْفَرِيقَيْنِ لَا يَعْلَمُ بَكْتَهُ تِلْكَ الْمَسْكِيَّةُ ، وَكَانَ
بَيْنَهُمَا مَا كَانَ .

١٨٢ - خطبة لعلی

ولما أراد علیّ المسیر إلى البصرة قام فخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله :

إن الله لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله . استأثرت علينا قریش بالأمر ، ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة ، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين ، وسفك دماهم ، والناسُ حديثو عهد بالإسلام ، والدين يُمخضُ مخض الوطْب (١) يفسده أدنى وهن ، وينكسه (٢) أقل خلق ، فولى الأسمَ قوم لم يألوا في أمرهم اجتهادا ، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء ، والله ولىّ تمحيص سيئاتهم ، والعفو عن هفواتهم ، فما بال طلحة والزبير — وليس من هذا الأمر بسبيل — لم يصبرا علىّ حولا ولا أشهراً حتى وثبا ومرقا ، ونازعانى أمرالم يجعل الله لهما إليه سبيلا ، بعد أن بايعانى طائعين غير مكرهين ، يرتضعان أمّا قد فطمت ، ويحييان بدعة قد أميتت ، أدمَ عثمان زعماء ؟ والله ما التبعة إلا عندهم وفيهم ، وإن أعظم حجتهم لعلیّ أنفسهم ، وأنا راض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم ، فإن فاءً وأنا با فخطهما أحرزا ، وأنفسهما غنيا ، وأعظمُ بهما غنيمَةً ، وإن أيبا أعطيتهما حدَّ السيف ، وكفى به ناصرا لحقّ ، وشافيا لباطل » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٠٢)

(١) الوطْب : سقاء اللبن . (٢) فى الأصل « ويمكسه » وأراه محرفا . نكسه : قلبه

١٨٣ - خطبة لعلی

وخطب فقال :

« الحمد لله على كل أمر وحال ، في الغدور والآصال ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ابتعثه رحمة للعباد ، وحياة للبلاد ، - حين امتلأت الأرض فتننة ، واضطرب حيلها ، وعُبد الشيطان في أكنافها ، واشتمل عدو الله إبليس على عقائد أهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي أطفأ الله به نيرانها ، وأخذ به شرارها ، ونزع به أوتادها ، وأقام به ميلها ، إمام الهدى ، والنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد صدع بما أمر به ، وبلغ رسالات ربه ، فأصلح الله به ذات البين ، وآمن به السبل ، وحقن به الدماء ، وأآف به بين ذوى الضغائن الواغرة في الصدور ، حتى أتاه اليقين ، ثم قبضه الله إليه حميدا .

ثم استخلف الناس أبا بكر فلم يأل جهده ، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يأل جهده ، ثم استخلف الناس عثمان ، فقال منكم ونلتم منه ، حتى إذا كان من أمره ما كان ، أتيتموني لتبايعوني فقلت لا حاجة لي في ذلك ودخلت منزلي فاستخرجتموني ، فقبضت يدي فبسطتموها ، وتدا ككتم على حتى ظننت أنكم قاتلي ، وأن بعضكم قاتل بعض ، فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك ولا جدل ، وقد علم الله سبحانه أني كنت كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وآله ، ولقد سمعته صلى الله عليه وآله يقول : « ما من وائل يلى شيئا من أمر أمتي إلا أتى به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه على رؤوس الخلائق ، ثم يُنشر كتابه ، فإن كان عادلاً نجياً ، وإن كان جائرًا هوى » حتى اجتمع على ملؤكم ، وبايعني طلحة والزبير ، وأنا أعرف الغدر في أوجههما ، والنكث في أعينهما ، ثم استأذناني في العمرة فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان ، فساروا إلى مكة واستخفعا نساء وخذعاها ، وشخص معهما أبناء الطلقاء ، فقدموا البصرة فقتلوا بها المسلمين وفعلوا المنكر ، وباعبوا

لاستقامتهما لأبي بكرٍ وعمر وبغيرهما علىّ وهما يعلمان أنّي لست دون أحدهما ، ولو شئت أن أقول لقلتُ ، ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشّام كتاباً يحدّثهما فيه ، فكتماهُ عنيّ ، وخرجا يوهمان الطّعام أنّهما يطلبان بدم عثمان ، والله ما أنكرا علىّ منكرا ، ولا جملا بيني وبينهم نصفاً ، وإن دم عثمان لمعصوب بهما ومطلوبٌ منهما ، يا خبيّة الدّاعي لإمامٍ دعا؟ وبماذا أجيب؟ والله إنّهما لعلّى ضلالة صمّاء ، وجهالة عمياء ، وإنّ الشيطان قد ذمّر لها حزبه ، واستجلب منهما خيله ورّجله ، ليعيد الجور إلى أوّطانه ، ويردّ الباطل إلى نصابه .

ثم رفع يديه فقال : اللهم إنّ طلحة والزبير قطعاني وظلماني وألبا علىّ ، فاحلّ ما عقدا ، وانكث ما أبرما ، ولا تنفر لهما أبداً ، وأرهما المساءة فيما عملا وأمّلا .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٠٢)

١٨٤ - خطبة الأشتر

فقام إليه الأشتر فقال :

« الحمد لله الذي منّ علينا فأفضل ، وأحسن إلينا فأجمل ، قد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، ولقد أصبت ووقّعت وأنت ابن عم نبيّنا ، وصهره ووصيه ، وأوّل مصدّق به ومصلّ معه ، شهدت مشاهدته كلها ، فكان لك الفضل فيها على جميع الأمّة ، فن اتبعك أصاب حظّه ، واستبشر بفلّجه^(١) ، ومن عصاك ورغب عنك فإلى أمه الهاوية ، لعمرى يا أمير المؤمنين ما أمر طلحة والزبير وعائشة علينا بمخيل^(٢) ، ولقد دخل الرّجلان فيما دخلا فيه ، وفارقا على غير حدّث أحدثت ولا جور صنعت ، فإن زعما أنّهما يطلبان بدم عثمان فليقيدا من أنفسهما ، فإنهما أوّل من ألب عليه وأغرى النّاس بدمه ، وأشهد الله أنّ لم يدخلوا فيما خرّجا منه لتلحقنهما بعثمان ، فإنّ سيوفنا في عواتقنا ، وقلوبنا في صدورنا ، ونحن اليوم كما كنّا أمس » ثم قعد .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٠٢)

(١) الفلج : الفوز . (٢) من أخالت الناقة إذا كان في ضرعها لبن ، والأرض بالنبات ازدانت .

١٨٥ - خطبة السيدة عائشة (توفيت سنة ٥٧ هـ)

وخطبت السيدة عائشة وقد أخذ الناس مصافهم للحرب فقالت :

« أما بعد : فإننا كنا نعمنا على عثمان ضرب السوط ، وإسرة الفتيان ، وموقع السحابة الحمية ، ألا وإنكم استمتموه فأعتبكم ، فلما مُصتموه (١) كما يماص الثوب الرّحيض (٢) عدوتم عليه ، فارتكبتم منه دما حراما ، وإيم الله إن كان لأحصنكم فرجا ، وأتقاكم الله . »

(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨١)

١٨٦ - خطبة لعلی

وخطب على لما تواقف الجمعان فقال :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فإنكم محمد الله على حجة ، وكفكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتوهم فلا تتبعوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تملوا بقتيل ، وإذا وصلتكم إلى حال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئا ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول ، لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة ، فيعير بها وعقبه من بعده . »

(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨١)

(١) الموص : الدلك باليد . (٢) رخص الثوب كتمه : غسله فهو رحيض ومرحوض .

١٨٧ - خطبة السيدة عائشة يوم الجمل

وخطبت السيدة عائشة رضی الله عنها أهل البصرة يوم الجمل فقالت :

« أيها الناس : صه صه ، إن لي عليكم حقّ الأُمومة ، وحرمة المَوْعِظَةِ ، لَا يَتَّبِعُنِي إِلَّا مَنْ عَصَى رَبَّهُ ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرِي^(١) وَنَحْرِي ، فأنا إحدى نساته في الجنة ، له ادَّخَرَنِي رَبِّي ، وخلصني من كل بضاعة ، وبني مَيْزَ منافقكم من مؤمنكم ، وبني أرخص الله لكم في صَيْدِ الأَبْوَاءِ^(٢) ، ثم أبي ثاني اثنين الله ثالثهما وأول من سُمِّي صِدِّيقًا ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضيًا عنه ، وطوّقه أعباء الإمامة ، ثم اضطرب حبل الدين بعده ، فسك أبي بطرفيه ، ورتق لكم فتقّ النفاق ، وأغاض نَبْعَ الرِّدَّةِ . وأطفأ ما حَسَّ^(٣) يهود ، وأنتم يومئذ جُحُظُ العيون ، تنظرون الغدرة ، وتسمعون الصيحة ، فرأب النأي^(٤) وأود^(٥) من الغلظة ، وانتاش من الهوة ،

(١) السحر : الرثة . (٢) الصيد : التراب أو وجه الأرض ، والأبواء : قرية بها قبر أمّة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم ، تشير إلى ما حدث ببركتها من ترخيص المولى (جيل وعلا) للمسلمين في التيمم إذا لم يجدوا ماء يتوضئون به . وفي الحديث : « عن عائشة رضی الله عنها : قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عدلي ، فأقام رسول الله على التماسه ، وأقام للناس معه وليسوا على ماء ، فأقى الناس إلى أبي بكر الصديق فقلنا ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله قد نام ، فقال حبست رسول الله والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فقالت عائشة فعاتبني أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعنني بيده في خصاصرقي ، فقام رسول الله حين أصبح على غير ماء ، فأنزل الله آية التيمم ، فتييموا ، فقال أسيد بن الحضير (بصيغة التصغير) ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصدينا المقد تحته » (راجع الحديث كاملا في باب التيمم من صحيح البخارى ١ : ٧٠ ، وصحيح مسلم ١ : ١٤٦) . (٣) حش النار : أوقدها . (٤) البأي والبأي بسكون الهمزة وفتحها : الإفساد . (٥) أوده فتأود : عطفه فانمطف .

وَأَجْتَحَى^(١) دَفِينِ الدَّاءِ ، حَتَّى أَعْطَنَ^(٢) الْوَارِدُ ، وَأَوْرَدَ الصَّادِرُ ، وَعَلَّ^(٣) النَّاهِلُ ،
فَقَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَاطَّأًا عَلَى هَامَاتِ^(٤) النِّفَاقِ ، مُذْ كِيًّا^(٥) نَارَ الْحَرْبِ لِلْمُشْرِكِينَ ، فَانْتَضَمَتْ
طَاعَتِكُمْ بِجَبَلِهِ ، فَوَلَّى أَمْرَكُمْ رَجُلًا مُرْعِيًّا إِذَا رُكِنَ إِلَيْهِ ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ اللَّابِتَيْنِ^(٦) ،
عُرْكَةَ لِلْأَذَاةِ بِجَنْبِهِ^(٧) ، صَفُوحًا عَنِ أَذَاةِ الْجَاهِلِينَ ، يَقْظَانُ اللَّيْلَ فِي نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ ،
فَسَلَّكَ مَسَلَّكَ السَّابِقَةَ ، فَفَرَّقَ شَمْلَ الْفِتْنَةِ ، وَجَمَعَ أَعْضَادَ مَا جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَأَنَا نُضِبُ الْمَسْأَلَةَ
عَنْ مَسِيرِي هَذَا ، لَمْ أَلْمَسْ إِثْمًا ، وَلَمْ أُؤْنِسْ فِتْنَةً أَوْ طِشْكُوهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا صِدْقًا وَعَدْلًا ،
وإِعْذَارًا وَإِنْذَارًا ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدًا ، وَأَنْ يَخْلِفَهُ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ خِلافةِ الْمُرْسَلِينَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٦ - ٢٢٦)

١٨٨ - خطبة زفر بن قيس

وكتب الإمام على كرم الله وجهه ، مع زفر بن قيس إلى جرير بن عبد الله البجليّ
- وكان على ثغر همدان استعمله عليه عثمان - كتابًا يخبره فيه بما كان بينه وبين أصحاب
الجل ، وما أوتي من الانتصار عليهم ، واستعمال ابن عباس على البصرة ، فلما قدم زفر على
جرير بكتاب على وقرأه جرير ، قام زفر خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن عليًّا كتب إليكم بكتاب ، لا نقول بعده إلا رجيعًا^(٨) من
القول ، إن الناس بايعوا عليًّا بالمدينة غير محاباةٍ ببيعتهم ، لعله بكتاب الله وبري الحق

(١) اجتعا: استأصله . (٢) أعطن الإبل: حبسها عند الماء . (٣) العل والعلل : (بفتحين)

الشرب بعد الشرب تبعًا على يعل بكسر العين وضمها ، والنهل : أول الشرب نهل ينهل كفرح .

(٤) جمع هامة : وهي الرأس . (٥) مشعلا . (٦) اللابة : الحرة بفتح الحاء (أرض ذات حجارة

نخرة سود) ولابتا المدينة : حرتان تكتنفانها . أرادت أنه واسع الصدر واسع العطن فاستعارت له اللابة ، كما

يقال : رحب الفناء واسع الجنب . (٧) أي يعرك الأذى بجنبه : أي يحتمله. وفي هذه الخطبة تحريف شديد

في الأصل وقد أصلحته كما يتبين بالمراجعة . (٨) الرجيع : كل مردد .

فيه ، وإن طلحة والزبير نَقَضَا بَيْعَةَ عَلِيٍّ عَلَى غَيْرِ حَدَثٍ ، ثم لم يرضيا حتى نَصَبَا له الحرب ، وَالْبَاءُ (١) عليه الناس ، وأخرج أم المؤمنين عائشة من حِجَابٍ ضربه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليها ، فلقبهما فَأَعْذَرَ فِي الدِّعَاءِ ، وَخَشِيَ الْبَغْيَ ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ ، فَهَذَا عَيَانٌ (٢) مَا غَابَ عَنْكُمْ ، وَإِنْ سَأَلْتُمْ الزِّيَادَةَ زِدْنَاكُمْ .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٨٩ — خطبة جرير بن عبد الله البجلي

وقام جرير بن عبد الله البجلي خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيتها الناس : هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهو للأمن على الدين والدنيا ، وكان من أمره وأمر عدوه ما قد سمعتم ، والحمد لله على أفضيئته ، وقد بايعه السابقون الأولون ، من المهاجرين والأنصار ، والتابعون بإحسان ، ولو جعل الله هذا الأمر شورى بين المسلمين لكان عليٌّ أحقَّ بها ، ألا وإن البقاء في الجماعة ، والقناء في الفرقة ، وَعَلِيٌّ حَامِلِكُمْ مَا اسْتَقَمْتُمْ لَهُ ، فَإِنْ مِلْتُمْ أَقَامَ مَيْلَكُمْ . »
قال الناس : سمعاً وطاعة ، وَرِضَانًا رِضًا مِنْ بَعْدِنَا .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٩٠ — خطبة زياد بن كعب

وكتب الإمام علي كرم الله وجهه ، إلى الأشعث بن قيس — وكان عاملاً بأذربيجان ، استعمله عليها عثمان — بمثل ما كتب به إلى جرير بن عبد الله ، ووجه بالكتاب مع زياد بن كعب ، فلما قرأ الأشعث كتاب علي ، قام زياد بن كعب خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) حرصاً . (٢) مصدر عابن الشيء : إذا رآه بعينه .

« أيها الناس : إنه من لم يكفه القليل ، لم يكفه الكثير ، وإن أمر عثمان لم ينفع فيه العيان ، ولم يشف منه الخبر ، غير أن من سمعه ليس كمن عاينه ، وإن المهاجرين والأنصار بايعوا علياً راضين به ، وإن طلحة والزبير نقضا بيعة عليّ على غير حدث ، وأخرجوا أم المؤمنين على غير رضا ، فسار إليهم ولم ينلهم ، فتركهم وما في نفسه منهم حاجة فأورثه الله الأرض ، وجعل له عاقبة المتقين » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

١٩١ - خطبة الأشعث بن قيس

فقام الأشعث بن قيس فقال :

« أيها الناس : إن عثمان رحمه الله ولآني أذربيجان ، وهلك وهي في يدي ، وقد بايع الناس علياً ، وطاعتنا له لازمة ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم ، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

١٩٢ - خطبة جرير بن عبد الله البجلي

وبعث عليّ إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجلي بكتاب يدعو إلى بيعته ، فلما قرأ الكتاب قام جرير فخطب فقال :

« الحمد لله الحمود بالعوائد ، المأمول فيه الزوائد ، المرتجى منه الثواب ، المستعان على النوائب ، أحده وأستعينه في الأمور التي تحيّر دونها الألباب ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بعد فترة من الرسل الماضية ، والقرون الخالية ، فبلغ الرسالة ، ونصح للامة ، وأدى الحق الذي استودعه الله وأمره بأدائه إلى أمته ، صلى الله عليه وآله ، من رسول ومبتعث ومنتخب وعلى آله .

أيها الناس إن أمر عثمان قد أعيان من شهده ، فكيف بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا عليا غير واثق ولا متور ، وكان طلحة والزبير ممن بايعاه ، ثم نكثنا بيعته على غير حدث ، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن ، وقد كانت بالبصرة أمس روعة مُلّمة ، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ، وقد بايعت الأمة علياً ، ولو ملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره ، فادخل معاوية فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت استعملني عثمان ثم لم يعزلي فإن هذا قول لو جاز لم يبق لله دين ، وكان لكل امرئ ما في يديه ، ولكن الله جعل للأخِر من الولاة حقّ الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضاً » ثم قعد .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٤٨)

١٩٣ — خطبة معاوية

فقال معاوية : أنظر وتنظر وأستطلع رأي أهل الشام ، فضمت أيام ، وأمر معاوية مناديا ينادى : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر ثم قال :
« الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً ، والشرائع للإيمان برهاناً ، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة ، جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ، فأحلهم أرض الشام ، ورضيهم لها ، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلقاءه والقوام بأمره ، والذابين عن دينه وحرمانه ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً ، وفي سبيل الخيرات أعلاماً ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم أئمة المؤمنين ، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام ، وتباعد بعد القرب .

اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة دماننا ، وإخافة سبلنا ، وقد علم الله أننا لا نريد لهم عقاباً ، ولا نهتك لهم حجاباً ، ولا نوطئهم زلقاً ، غير أن الله الحميد كساننا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ، ما جاوب الصدى ، وسقط الندى ، وعرف الهدى ، حملهم على ذلك البغي والحسد ، فنستعين بالله عليهم .

« أنها الناس قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأمير المؤمنين عثمان ابن عفان عليكم ، وأنى لم أقم رجلا منكم على خزاية قط ، وأنى ولّى عثمان وقد قتل مظلوما ، والله تعالى يقول « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان وبايعوه على ذلك ، وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم حتى يدركوا بثأره أو تلحق أرواحهم بالله .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٤٨)

فتنة معاوية

استطلاع الإمام عليّ كرم الله وجهه آراء أصحابه

وقد أراد المسير إلى الشام

لما أراد الإمام عليّ كرم الله وجهه المسير إلى الشام ، دعا من كان معه من المهاجرين والأَنْصار فجمعهم .

١٩٤ - خطبة الإمام عليّ

ثم حمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فإنكم مَيَّامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَّاجِيحُ الْحِلْمِ ، مُبَارِكُوا الْأَمْرَ ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم ، فأشيروا علينا برأيكم » .

١٩٥ - خطبة هاشم بن عتبة

فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقَّاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد - يا أمير المؤمنين - فأنا بالقوم جِدُّ خَبِيرٍ ، هَمُّ لَكَ وَالْأَشْيَاعُكَ أَعْدَاءُ ، وَهَمُّ لِمَنْ يَطْلُبُ حَرْثَ^(١) الدُّنْيَا أَوْلِيَاءُ ، وَهَمُّ مَقَاتِلِكَ وَمَجَادِلِكَ ، لَا يُبْتَقُونَ جُهْدًا ، مُشَاحَّةً^(٢) عَلَى الدُّنْيَا ، وَضِنًا^(٣) بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْهَا ، لَيْسَ لَهُمْ إِزْبَةٌ^(٤) غَيْرَهَا ،

(١) أى متاعها . (٢) بخلا عليها وحرصا . (٣) ضن ضنا : بالكسر وضنانة بالفتح : بخل .

(٤) الإزبة : الأرب .

إِلَّا مَا يَخْدَعُونَ بِهِ الْجَهَّالَ ، مِنْ طَلَبِ دَمِ ابْنِ عَفَّانَ ، كَذَبُوا ! لَيْسُوا لِدَمِهِ يَنْفِرُونَ^(١) .
ولكن الدنيا يطلبون، انهض بنا إليهم، فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال،
وإن أبوا إلا الشقاق، فذاك ظني بهم، والله ما أراهم يبايعون، وقد بقي فيهم أحد ممن
يُطَاعُ إِذَا نَهَى ، وَلَا يَسْمَعُ إِذَا أَمَرَ .

١٩٦ - خطبة عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تُقِيمَ يَوْمًا وَاحِدًا فَافْعَلْ ، اشْخَصْ بِنَا قَبْلَ
اسْتِعَارِ^(٢) نَارِ الْفَجْرِ ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، وادعهم إلى حظهم ورؤسدهم،
فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلا حربنا، فوالله إن سفك دماءهم، والجِدَّ في جهادهم،
لِقُرْبَةٍ عِنْدَ اللَّهِ ، وَكَرَامَةٍ مِنْهُ . »

١٩٧ - خطبة قيس بن سعد بن عبادة

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : انكش^(٣) بنا إلى عدونا ولا تفرِّجْ ، فوالله لجهادهم أحبُّ إِلَيَّ
من جهاد الترك والروم ، لإدھانهم^(٤) في دين الله ، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد
صلى الله عليه وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إِذَا غَضِبُوا عَلَى رَجُلٍ
حَبَسُوهُ وَضَرَبُوهُ وَحَرَمُوهُ وَسَيَّرُوهُ^(٥) ، وَفَيئُنَّا لهم في أنفسهم حلالٌ ، ونحن لهم فيما
يزعمون قطين^(٦) . »

(١) نفر للأمر : ذهب له . (٢) أى اشتعال . (٣) انكش وتكش : أسرع .
(٤) الإدھان : المداينة والنش . (٥) المراد أبعده . (٦) القطين : الرقيق والخدم .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خزيمة بن ثابت وأبو أيوب وغيرها : لِمَ تَقَدَّمْتَ
أشياخ قومك ، وبدأتهم بالكلام يا قيس ، فقال : أما إني عارف بفضلكم ، مُعْظَم
لشأنكم ، ولا كفى وجدت في نفسي الضغن الذي في صدوركم ، جاش حين ذكرت
الأحزاب ، فقال بعضهم لبعض : ليقم رجل منكم ، فليُجِيبَ أمير المؤمنين عليه السلام
عن جماعتكم .

١٩٨ - خطبة سهل بن حنيف

فقام سهل بن حنيف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : نحن سلم لمن سالمت ، وحرب لمن حاربت ، ورأينا رأيك ،
ونحن يمينك ، وقد رأينا أن تقوم في أهل الكوفة ، فتأمرهم بالشخص ، وتُخبرهم بما صنع
لهم في ذلك من الفضل ، فإنهم أهل البلد ، وهم الناس ، فإن استقاموا لك ، استقام لك
الذي تريد وتطلب ، فأما نحن فليس عليك خلاف منا ، متى دعوتنا أجبناك ، ومتى
أمرتنا أطعناك » .

١٩٩ - خطبة الامام علي

وقام الإمام علي خطيباً على منبره ، يحرص الناس ويأمرهم بالمسير إلى صفين ، لقتال
أهل الشام ، فقال :

« سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والشنن ، سيروا إلى بقية الأحزاب ^(١)
وَقَتْلَةَ المهاجرين والأنصار » .

(١) يشير إلى الأحزاب التي تألبت وتظاهرت على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ،
وغطفان ، وبنى مرة ، وبنى أشجع ، وبنى سليم ، وبنى أسد في غزوة الأحزاب - غزوة الخندق - التي كانت
سنة خمس للهجرة ، وكانت عدة الجميع عشرة آلاف مقاتل وقائدهم العام أبو سفيان .

فقام رجل من بني فزارة فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم كُلاً ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلهم كُلاً ؟ ها الله^(١) إذن لا نفعل ذلك ، فقام الأشر فقال : من هذا المارق ؟ فهربَ الفزاري ، واشتد الناس على أثره ، فلحق في مكان من السوق ، تباع فيه البراذين^(٢) ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونصال سيوفهم ، حتى قُتل ، فأتى على عليه السلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين قُتلَ الرجل ، قال : ومن قتله ؟ قالوا : قتلته همدان ومعهم شوب^(٣) من الناس ، فقال : قتل عمية^(٤) لا يدري من قتله ، ديبته من بيت مال المسلمين ، فقام الأشر فقال :

٢٠٠ - خطبة الأشر النخعي

« يا أمير المؤمنين لا يهدنك ما رأيت ، ولا يؤلنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن ، إن جميع من ترى من الناس شيعتك ، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبون البقاء بعدك ، فإن شئت فسير بنا إلى عدوك ، فوالله ما ينجو من الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه ، وإننا لعلى بدينه من ربنا ، وإن أنفسنا لن تموت حتى يأتي أجلها ، وكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبت عصابهم^(٥) منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خلاقتهم^(٥) بعرض من الدنيا يسير . »

فقال على^٥ : الطريق مُشترَك ، والناس في الحق سواء ، ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه « ثم نزل فدخل منزله . »

(١) هي ها التنبية ، وهي تدخل على اسم الله في القسم عند حذف الحرف ، تقول : ها الله بقطع الهمزة ووصلها ، وكلاهما مع إثبات ألف « ها » وحذفها . (٢) البراذين : الدواب ، جمع برذون . (٣) خليط . (٤) قتل عميا بكسر العين والميم مشددة مع تشديد الياء : لم يدري من قتله . (٥) الخلاق : النسيب الوافر من الخير .

٣٠١ - مقال من ثبطوه عن المسير

ولما أمر الإمام بالمسير إلى الشام ، دخل عليه عبد الله بن المقتمّم المَبْسَى وَحَنَظَلَةَ ابن الرّبيع التميمي ، في رجال كثير من غَطَفَان وبنى تميم ، فقال له حنظلة :

« يا أمير المؤمنين : إنا قد مشينا إليك في نصيحة فأقبلها ، وَرَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فَلَا تَرُدُّنَاهُ عَلَيْنَا ، فَإِنَا نَنْظُرُ نَا لَكَ وَلَمَنْ مَعَكَ ، أَقِيمْ وَكَانِبْ هَذَا الرَّجُلَ ، وَلَا تَتَجَلَّ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ ، فَإِنَا وَاللَّهِ مَا نَدْرِي وَلَا تَدْرِي لِمَنْ تَكُونُ الْغَلْبَةُ إِذَا التَّقِيمُ ، وَلَا عَلَى مَنْ تَكُونُ الدَّبْرَةُ ^(١) . »

وقال ابن المقتمّم مثل قوله ، وتكلم القوم الذين دخلوا معها بمثل كلامهما .

٣٠٢ - رد الإمام عليهم

فحمد على عليه السلام الله وأثنى ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله وارثُ العِيَادِ والبِلَادِ ، وَرَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ والأَرْضِينَ السَّبْعِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، يُوْتِي الْمَلِكَ مِنْ يَشَاءَ ، وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ يَشَاءَ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، أَمَا الدَّبْرَةُ ، فَإِنَّهَا عَلَى الضَّالِّينَ الْعَاصِينَ ، ظَفَرُوا أَوْ ظَفَرِ بِهِمْ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنِّي لِأَسْمَعُ كَلَامَ قَوْمٍ مَا أَرَاهُمْ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا . »

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحيّ فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هؤلاء والله ما آثر بك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش ، فأحذّرهم ، فإنهم أدنى العدو . »

(١) الدبرة بسكون الباء وفتحها: الغزيرة في القتال .

وقال له مالك بن حبيب : « إنه بلغني يا أمير المؤمنين أن حظلة هذا يكاتب معاوية ، فادفعه إلينا نحسبه ، حتى تنقضي غزاتك وتصرف » .
وقام من بني عبس قأدُ بنُ بكير ، وعيَّاش بن ربيعة ، فقالا :
« يا أمير المؤمنين ، إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية ، فاحسبه أو مكنتنا من حسبه ، حتى تنقضي غزاتك ثم تصرف » .
فقالا : « هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم وبين عدوكم ؟ »
فقال لهما عليٌّ عليه السلام : « الله بيني وبينكم وإليه أكلُكم ، وبه أستظهر عليكم ، اذهبوا حيث شئتم ^(١) » .

٢٠٣ - خطبة عدى بن حاتم الطائي

وقام عدِيُّ بن حاتم الطائي ، بين يدي عليٍّ عليه السلام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما قلتُ إلا بعلم ، ولا دعوتُ إلا إلى حق ، ولا أمرتُ إلا برُشد ، ولكن إذا رأيت أن تستأني ^(٢) هؤلاء القوم وتستدبهم ، حتى تأتيهم كتبك ، وتقدم عليهم رُسلك ، فمَلت ، فإن يقبلوا يُصيبوا رُشدهم ، والعافية أوسعُ لنا ولهم ، وإن يتمادوا في الشقاق ، ولا يَبزِعُوا عن العتَى ، نسير إليهم ، وقد قدّمنا إليهم العذر ، ودعوناهم إلى مافي أيدينا من الحق ، فوالله لهم من الحق أبعَدُ ، وعلى الله أهون

(١) هذا ، وقد خرجا إلى معاوية في رجال من قومهما ، ولكنهما لم يقانلا معه واعتزلا الفريقين جميعا .

(٢) تنتظر .

من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة ، لما دعوناهم إلى الحق فتركوه ، ناوخناهم براكاء القتال^(١) ، حتى بلغنا منهم ما نحب ، وبلغ الله منهم رضاه .

٢٠٤ - خطبة زيد بن حصين الطائي

فقام زيد بن حصين الطائي - وكان من أصحاب البرانس المجتهدين - فقال :

« الحمد لله حتى يرضى ، ولا إله إلا الله ربنا ، أما بعد : فوالله إن كنا في شك في قتال من خالفنا ، ولا تصلح لنا النية في قتالهم حتى نستديمهم ونستأنئهم ، فما الأعمال إلا تباب^(٢) ، ولا السعي إلا في ضلال ، والله تعالى يقول : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) إننا والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يتبعونه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل من الإسلام حظهم ، أعوان الظلمة ، وأصحاب الجور والعدوان ؟ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان . »

فقام رجل من طي فقال : « يا زبند بن حصين ، أكلام سيدنا عدى بن حاتم يهجن^(٣) ؟ » فقال زيد : « ما أتم بأعرف بحق عدى منى ، ولا كنى لا أدع القول بالحق وإن سخط الناس . »

٢٠٥ - خطبة أبي زينب بن عوف

ودخل أبو زينب بن عوف على الإمام علي فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلا ، وأعظمتنا في الخير نصيباً ، ولئن كنا على ضلال إنك لأنقلتنا ظهراً^(٤) ، وأعظمتنا وزراً ، قد أمرتنا بالسير

(١) براكاء القتال وبروكاء : موضع اصطدام القوم ، وناوخناهم مفاعلة ، من أناخ الإبل : إذا أبركها ، والمعنى التقينا وإياهم في ساحة القتال . (٢) خمران . (٣) يقبح . (٤) لأنه حينئذ يكون أكثرهم ذنوباً .

إلى هذا العدو ، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرنا لهم العداوة ، نريد بذلك ما يعلم الله تعالى من طاعتك ، أليس الذي نحن عليه هو الحق المبين ، والذي عليه عدونا هو الحُوب^(١) الكبير ؟ .

فقال عليه السلام : « بَلَى ، شهدت أنك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا ، صحيح النية في نصرنا ، قد قطعت منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة ، كما زعمت ، فإنك ولى الله تَسَبَّحَ في رضوانه ، وترَكَّضُ في طاعته ، فأبشِرْ أبا زينب » وقال له عمار بن ياسر : « أُثْبِتْ أبا زينب ، ولا تشكَّ في الأحزاب أعداء الله ورسوله » فقال أبو زينب : « ما أَحِبُّ أن لى شاهدين من هذه الأمة ، شهدا لى عما سألت من هذا الأمر الذى أَهَمَّنِي مكانكما » .

٢٠٦ - خطبة يزيد بن قيس الأرحبي

ودخل يزيد بن قيس الأرحبي^(٢) على على عليه السلام فقال :
« يا أمير المؤمنين : نحن أولو جهاز^(٣) وعدة ، وأكثرُ الناس أهلَ قوة ، ومَن ليس به ضعف ولا علة ، فَرُّهُ مُنَادِيكَ فلينادِ الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة ، فإن أخوا الحرب ليس بالسُّوم ولا التُّوم ، ولا مَن إذا أمكنتهُ الفُرصُ أجَلَمها ، واستشار فيها ، ولا مَن يؤخر عمل الحرب اليومَ لغدٍ ، وبعد غد » .

٢٠٧ - خطبة زياد بن النضر

فقال زياد بن النضر :
« لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين ، وقال : ما يَعْرِفُ ، فتوَكَّلْ »

(١) الحوب بالفتح والضم : الإثم . (٢) نسبة إلى أرحب : وهى قبيلة من همدان .

(٣) جهاز المسافر والعمروس والميت (بالكسر والفتح) ما يحتاجون إليه .

على الله وثق به ، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً ، فإن يرد الله بهم خيراً لا يتركوك ، رغبةً عنك إلى من ليس له مثلُ سابقتك وقدمك ، وإلاً ينبئوا ويقبلوا ، وأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هيئنا ، وزحو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم ثم^(١) بالأمس .

٢٠٨ - خطبة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي

ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إن القوم لو كانوا ، الله يريدون ، والله يعملون ، ما خالفونا ، ولكن القوم إما يقاتلوننا فراراً من الأسوة^(٢) ، وحُباً للأثرة^(٣) ، وضيئاً بسلطانهم ، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحن^(٤) في نفوسهم ، وعداوةٍ يجذونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وأخوانهم » ثم التفت إلى الناس فقال : « كيف يبائع معاوية علياً ، وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجدّه عتبة ، في موقف واحد^(٥) والله ما أظهم يفعلون ، ولن يستقيموا لكم دون أن تُقصف فيهم قنأ المران^(٦) ، وتقطع على هامهم^(٧) السيوف ، وتنثر حواجرهم بعمد الحديد ، وتكون أمور جمّة بين الفريقين .

(١) هناك ، يريد البصرة . (٢) الأسوة بالضم والكسر : القدوة : أي فراراً من أن يكونوا تابعين لك مسودين وأن تكون لهم إماماً وسيداً . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة ، والاسم الأثرة . (٤) جمع إحنة ، وهي الحقد والعداوة . أي ويقاتلوننا على إحن : أي من أجلها . (٥) هو جده لأمه عتبة بن أبي ربيعة ، وقد تلهم على يوم بدر . وفي كتاب بعث به الإمام إلى معاوية يقول : « فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخا يوم بدر وذلك السيف معي » . (٦) القنأ : الرماح جمع قنأة ، والمران : الرماح الصلبة اللدنة الواحدة مرانة ، وشجر ، والإضافة على المعنى الأول على حد قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ) - إن فسر العرم بالمطر الشديد - (وفسر أيضاً بالأجاس والسدود تبنى في الأودية ، وبالجرذ ، وبواد جاء السيل من قبله) وعلى المعنى الثاني : أي القنأ المتخذة من الشجر . (٧) الهام جمع هامة : وهي الرأس .

٢٩ - أدب الامام علي ، وكرم خلقه

وخرج حُجْر بن عَدِيّ ، وعمرو بن الحَمِق ، يُظهِران البراءة من أهل الشام ، فأرسل علي عليه السلام إليهما أن كُفَّأ عما يبلغني عنكما ، فأتياه فقالا : « يا أمير المؤمنين : السنا مُحَمِّين ؟ » قال : بلى ، قالوا : « أو ليسوا مُبْطِلِينَ ؟ » قال : بلى ، قالوا : « فَلِمَ مَنَعْتَنَا من شتمهم ؟ » قال :

« كَرِهْتُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لِعَانِينَ شَقَامِينَ ، كَشْتَمُونَ وَتَبْرَهُونَ ، وَلَكِنْ لَوْ وَصَفْتُمْ مَسَاوِي أَعْمَالِهِمْ فَقَلَّمْتُمْ : مِنْ سَيْرَتِهِمْ كَذَبًا وَكَذَا ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ كَذَا وَكَذَا ، كَانَ أَضَوَّبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ، وَقَلَّمْتُمْ مَكَانَ لَعْنِكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَبَرَاءَتِكُمْ مِنْهُمْ : اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَهُمْ وَدِمَاءَنَا ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَنَا ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْهُمْ مَنْ جَهَلَهُ ، وَيَرَعُوهُ عَنِ الْغِيِّ وَالْعُدْوَانِ مِنْهُمْ مَنْ لَهَجَ بِهِ ، لَسْكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ ، وَخَيْرًا لَكُمْ » .

فقالا : يا أمير المؤمنين ، نقبل عظمتك ، ونتأدب بأدبك .

٢١٠ - مقال عمرو بن الحمق

وقال له عمرو بن الحَمِق يومئذ :

« والله يا أمير المؤمنين ، إني ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ، ولا إرادة مال تُؤْتِينِيهِ ، ولا التماس سلطان ترفع ذِكْرِي بِهِ ، ولكنني أحببتك بخصال خمس ، إنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووصيه ، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأسبق الناس إلى الإسلام ، وأعظم المهاجرين مَهْمًا

في الجهاد ، ولو أني كَلَّفْتُ نَقْلَ الجبال الرَّوَاسِي ، ونزَحَ البحور الطَّوَامِي^(١) حتى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي فِي أَمْرٍ أَقْوَى بِهِ وَرَأْيِكَ وَأَهْمِنُ عَدُوَّكَ ، مَا رَأَيْتُ أَنِي قَدِ ادَّيْتُ فِيهِ كُلَّ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيَّ مِنْ حَقِّكَ .

فقال عليٌّ عليه السلام : « اللهم نُورَ قلبه بالتقى ، واهدِه إلى صراطك المستقيم ، ليت أن في جندي مائةً مثلك » فقال حجر : إذن والله يا أمير المؤمنين صح جنودك ، وقلَّ فيهم من يُعَشِّك .

٢١١ - مقال حجر بن عدى

وقام حجر بن عدى فقال :

« يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب ، وأهلها الذين نُلَجِّحُهَا^(٢) وَنُنْتَجِجُهَا ، قد ضارَسْنَا^(٣) وضارَسناها ، ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذاتُ عددٍ ، ورأى مجرَّبٌ ، وبأس محمود ، وأزيمتنا ، منقادةٌ لك بالسمع والطاعة ، فإن شرفقت شرفنا ، وإن غربت غربنا ، وما أمرتنا به من أمر فعلنا . »

فقال عليٌّ عليه السلام : أكلُّ قومك يرى مثلَ رأيك ؟ قال : ما رأيتُ منهم إلا حسناً ، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسنِ الإجابة ، فقال له عليٌّ عليه السلام خيراً .

٢١٢ - مقال هاشم بن عتبة

وقال زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن بُدَيْل الخزاعي :

« إن يومنا ليوم عَصَبَصَبٍ^(٤) ، ما يبصر عليه إلا كلُّ مُشَبَّعِ القلب ، صادق النية

(١) جمع طام ، من طعى البحر: إذا امتلأ . (٢) أصله من ألحح الفحل الناقه . (٣) ضرسته

الحرب تقصيرها : جربته وأحكته ، وضارَسَ الأمور : جربها وعرفها . (٤) أى شديد .

رابط الجأش ، وإيم الله ما أظن ذلك اليوم يُبقي منهم ولا منا إلا الرذال^(١) » فقال عبد الله بن بديل : أنا والله أظن ذلك ، فبلغ كلامهما علياً عليه السلام ، فقال لهما : « ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما ، لا تُظهراه ، ولا يسمعه منكما سامع ، إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين ، وكل آتية مَنِيَّتُهُ كما كتب الله له ، فطوبى للجاهدين في سبيله ، والمقتولين في طاعته » فلما سمع هاشم بن عتبة ما قالاه أتى علياً عليه السلام فقال :

« سر بنا يا أمير المؤمنين ، إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله ، بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرّموا حلاله ، واستهوى^(٢) بهم الشيطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانى ، حتى أزاغهم عن الهدى ، وقصد بهم قصد الردى ، وحبّب إليهم الدنيا ، فهم يقاتلون على دنياهم رغبةً فيها ، كرهت لنا في الآخرة ، وانتجاز موعده ربنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله رحماً ، وأفضل الناس سابقةً وقدماً ، وهم يا أمير المؤمنين يعملون منك مثل الذى نعلم ، ولكن كُتِبَ عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين . فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منسوحة لك ببذل النصيحة ، وأنفسنا تنصرك على من خالفك ، وتولى الأمر دونك ، جدّلةً ، والله ما أحب أن لى ما على الأرض فما أقلت^(٣) ، ولا ما تحت السماء فما أظلت ، وأنى وليت عدوّك ، وعاديت ولياً لك » .

فقال على عليه السلام : « اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك والموافقة لنبيك » .

(١) الدون : الخسيس ، أو الردى من كل شيء . (٢) استهواه : استماله والفعل متعد ومفعوله هنا

مخدوف : أى استهوى الشيطان أتباعهم بهم — فالباء للسببية . (٣) أى حملت .

٢١٣ - خطبة الامام عليّ

ثم إن علياً عليه السلام صيّد المنبر، فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم قال :

« إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فانصّبوا أنفسكم في أداء حقه ، وتنجّزوا موعوده ، واعلموا أن الله جعل أمرا^(١) الإسلام متينةً ، وعُراه وثيقةً ، ثم جعل الطاعة حظّ الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس^(٢) عند تفريط العجزة ، وقد حملت أمر أسودها وأحمرها ، ولا قوة إلا بالله ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سقّه^(٣) ، نفسه وتناول ما ليس له ، وما لا يدركه ، معارضة وجنده ، الفئة الطاغية الباغية ، بقودهم إبليس ، ويَبْرِق لهم ببارق تسويقه ، ويدلّهم^(٤) بقُروره ، وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ، فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته ، والمعرور من آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس^(٥) عنى ، وقال في غيرى كفاية ، فإن الذود إلى الذودِ إبل^(٦) : * وَمَنْ لَا يَذُدُ عَنِ حَوْضِهِ يَتَهَدَّمِ *

ثم إنى آمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وأن لا تفتأبوا مسلماً ، وانتظروا النصر العاجل من الله ، إن شاء الله .

(١) جمع مرس بفتحيتين ، ومرس جمع مرسة بفتحيتين أيضاً : وهو الخيل . (٢) جمع كياس : وهو ضد الأحمق . (٣) أصله سفهت نفسه ، فلما حول الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه لأنه صار في معنى سفه نفسه بالتشديد ، ومثله : رشد أمره وبطر عيشه . (٤) أى يحطهم عن منزلتهم . قال تمالى : (فَذَلَّاهُمَا بِقُرُورٍ) (٥) تأخر وتقاعد . (٦) الذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين وهو مثل : أى إذا جمعت القليل مع القليل صار كثيراً . فإلى بمعنى مع .

٢١٤ - خطبة الحسن بن عليّ

ثم قام بعده ابنه الحسن رضى الله عنه فقال :

« الحمد لله لا إله غيره ، ولا شريك له ، ثم قال : إن مما عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ، ما لا يحصى ذكره ، ولا يؤدّى شكره ، ولا يبلغه قول ولا صفة ، ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، إنه لم يجتمع قوم قطّ على أمرٍ واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدهم ، فاحتشدوا في قتل عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تتأذلوا ، فإن الخلدان يقطع نياط القلوب^(١) ، وإن الإقدام على الأسنّة نخوة وعصنة ، لم يتمنع قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

٢١٥ - خطبة الحسين بن عليّ

ثم قام الحسين رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة : أنتم الأحبة الكرماء ، والشّعار^(٢) دون الدثار ، جدّوا في إطفاء ما وتر^(٣) بينكم ، وتسهيل ما توغرّ عليكم ، ألا إن الحرب شرها وريع^(٤) ، وطعمها

(١) عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ، جمه أنوطة . « والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه

جمه أوتنة » . (٢) الشعار : ما يلبس على شعر الجسد ، والدثار : ما فوق الشعار من الثياب .

(٣) الوتر والرتة : الثأر ، وتره يبره ، وورره حقه : نقصه إياه ، ووتره : أدركه بمكروه .

(٤) الريع : الكاف . أى إن شرها عظيم يدهو الناس إلى أن يكفوا عن خوض غمارها .

فطيع ، فن أخذ لها أهبتها ، واستعد لها عدتها ، ولم يَألم كَلُومَهَا^(١) قبل حلولها ، فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاك قَمِنَ^(٢) أن لا ينفذ قومه ، وأن يهلك نفسه ، نسأل الله بقوته أن يدعكم بالقيثه^(٣) « ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٧٨)

٢١٦ - خطبة عبد الله بن عباس

وكتب على إلى ابن عباس بالبصرة .

« أما بعد فأشخص إلى بمن قبلك من المسلمين والمؤمنين ، وذكرهم بلائي عندهم ، وعفوى عنهم في الحرب ، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل والسلام .
فلما وصل كتابه إلى ابن عباس قام في الناس فقرأ عليهم الكتاب وحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أيها الناس : استعدوا للشخص إلى إمامكم ، وانفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، فإنكم تقاتلون المجلين القاسطين ، الذين لا يقرءون القرآن ولا يعرفون حكم الكتاب ، ولا يدينون دين الحق ، مع أمير المؤمنين وابن عم رسول الله ، الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصادق بالحق ، والقيم بالهدى ، والحاكم بحكم الكتاب ، الذي لا يرتشى في الحكم ، ولا يدهن الفجّار ولا تأخذه في الله لومة لائم .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٨٣)

(١) كلوم : جمع كلم ، وهو الجرح . (٢) جدبر وحقيق . (٣) القيثه : بفتح الفاء وكسرهما ،

والقوة : الغنيمة ، أي نبال الله أن يعويكم بما تمنون من عدوك .

٢١٧ - خطبة معاوية

ولما نزل على النخيلة متوجها إلى الشام ، وبلغ معاوية خبره ، وهو يومئذ بدمشق قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان مخضبا بالدم وحول المنبر سبعون ألف شيخ يبكون حوله لا تجف دموعهم على عثمان خطبهم وقال :

« يا أهل الشام قد كنتم تكذبونني في علي ، وقد استبان لكم أمره ، والله ما قتل خليفتمكم غيره ، وهو أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم .

يا أهل الشام ، الله الله في دم عثمان فأنا وليه وأحق من طلب بدمه ، وقد جعل الله لولى المقتول ظلما سلطانا ، فانصروا خليفتمكم المظلوم ، فقد صنع القوم ما تعلمون ، قتلوه ظلما وبغيا ، وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله » ، ثم نزل .
فأعطوه الطاعة وانقادوا له وجمع إليه أطرافه واستعد للقاء على .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٨٦)

وفد عليّ على معاوية

بعد أن نزل الإمام عليّ كرم الله وجهه بصفين ، دعا بشير بن عمرو بن مَحْصَن الأنصاري ، وسَعِيد بن قيس الهمدانيّ ، وشَبَث بن رِبْعِيّ التيميّ ، فقال : انتوا هذا الرجل ، فادعوه إلى الله ، وإلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث بن ربعي : يا أمير المؤمنين : ألا تُطِعمه في سلطان توليه إياه ، ومنزلة يكون له بها أثرٌ عندك إن هو بايعك ؟ فقال عليّ : انتوه فالتوه واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه ؟ - وهذا في أوّل ذي الحجة سنة ٣٦ هـ - فاتوه ، ودخلوا عليه .

٢١٨ - خطبة بشير بن عمرو

حمد الله أبو عمرة بشير بن عمرو ، وأثنى عليه وقال :

« يا معاوية : إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عزّ وجلّ محاسبك بملكك ، وجّازيك بما قدّمت يداك ، وإنّي أنشدك الله عزّ وجلّ أن تفرّق جماعة هذه الأمة ، وأن نسفك دماءها بينها . »

فقطع عليه الكلام ، وقال : هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟ فقال أبو عمرة :

« إن صاحبي ليس مثلك ، إن صاحبي أحقّ البرية كلها بهذا الأمر ، في الفضل ، والدين ، والسابقة في الإسلام ، والقراية من الرّسول صلى الله عليه وسلم ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : بأمرك بتقوى الله عزّ وجلّ ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دنياك ، وخير لك في عاقبة أمرك . »

قال معاوية : وَنَظِلَ دَمُ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ! لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدًا ، فَذَهَبَ
سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ يَتَكَلَّمُ ، فَبَادَرَهُ شَبْتُ بْنُ رَبِيعٍ ، فَتَكَلَّمَ :

٢١٩ - خطبة شبث بن ربعي

نحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :

« يا معاوية ، إني قد فهمت ما رددت على ابنِ مُحْصَنٍ ، إنه والله لا يخفى علينا ما تنزرو
وما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به
طاعتهم ، إلا قولك : « قُتِلَ إِمَامُكُمْ مَظْلُومًا ، فَنَحْنُ نَطْلُبُ بَدَمَهُ » فاستجاب لك سفهاء
طَافِمٍ ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل ، لهذه المنزلة التي أصبحت
تطلب . وَرُبَّ مَتَمَنَى أَمْرٍ وَطَالِبِهِ ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَحُولُ دُونَهُ بِقُدْرَتِهِ ، وَرَبِّمَا أُوتِيَ الْمُتَمَنَّى
أَمْنِيَّتَهُ ، وَفَوْقَ أَمْنِيَّتِهِ ، وَوَاللَّهِ مَا لَكَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خَيْرٌ ، لَنْ أَخْطَأْتَ مَا تَرْجُو ، إِنَّكَ
لَشَرُّ الْعَرَبِ حَالًا فِي ذَلِكَ ، وَلَنْ أَصِيبْتَ مَا تَمَنَّى لِاتِّصِيهِ حَتَّى تَسْتَحِقَّ مِنْ رَبِّكَ صِلِي^(١)
النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله . »

٢٢٠ - خطبة معاوية

نحمد الله معاوية وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنْ أَوْلَ مَا عَرَفْتُ فِيهِ سَفَهَكَ ، وَخَفِيَ جِلْمِكَ ، قَطَعْتُكَ عَلَى هَذَا الْحَسِيبِ
الشريف سيّد قومه منطقة ، ثم عُنَيْتَ بَعْدُ فِيمَا لَا عِلْمَ لَكَ بِهِ ، فَقَدْ كَذَبْتَ وَلَوَّمْتَ^(٢) ،

(١) صل النار : كرضي ، وصل بها صلياً بكسر الصاد وضمتها ، قامى حرها .

(٢) لومه لوما : حذله ، وألامه ولومه للمبالغة .

أيها الأعرابي الجلف^(١) الجاني ، في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي ، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف .

وغضب وخرج القوم وشبث يقول : أفعلينا تهوّل بالسيف ؟ أقسم بالله ليمجّلنّ بها إليك ، فأتوا عليّ ، وأخبروه بالذي كان من قوله ، فأخذ على يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة ، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة ، فيقتتلان في خيلهما ورجلها ، ثم ينصرفان ، وكانوا بكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام ، لما يتخوّفون أن يكون في ذلك الاستئصال والهلاك .

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٤٢)

وفد على إلي معاوية أيضا

ولما دخلت سنة ٣٧ هـ توادعا على ترك الحرب في المحرم إلى انقضائه ، طمعا في الصلح واختلفت فيما بينهما الرسل في ذلك دون جدوى ، فبعث على عدي بن حاتم ، ويزيد ابن قيس ، وشبث بن ربعي ، وزيايد بن خصفة إلى معاوية .

٢٢١ - خطبة عدي بن حاتم

فلما دخلوا حمد الله عدي بن حاتم ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلتنا وأمتنا ، ويحقي به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين ، إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقا ، وأحسنها في الإسلام أنرا ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانت يا معاوية ، لا يصيبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل . »

٢٢٢ - جواب معاوية

فقال معاوية : « كأنك إنما جئت متهددا ، لم تأت مصلحا هيهات يا عدي ، كلاً والله ، إنى لأبئ حرب^(١) ما يقع^(٢) لي بالشنان ، أما والله إنك لمن المجلبين على

(١) هو جده . (٢) القمعة : تحريك النوى اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن

بالفتح ، وهو القرية البالية ، وإذا تمقع بالشنان للإبل نفرت ، وهو مثل يضرب لمن لا يروعه ما لاحقيقة له .

ابن عفان رضى الله عنه ، وإني لأرجو أن تكون ممن يَقْتُلُ^(١) الله عز وجل به ، هَيْهَاتَ يَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ، قَدْ حَلَبْتُ بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ^(٢) .

فقال له شَبْتُ بن ربي وزياد بن خَصَفَةَ - وتنازعا جواباً واحداً -

« أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ، دع ما لا ينتفع به من القول والفعل ، وأجبتنا فيما يعمئنا وإياك نفعه » .

٣٢٣ - خطبة يزيد بن قيس

وتكلم يزيد بن قيس فقال :

« إنا لم نأتك إلا لنبلِّغك ما بُمِئْنَا به إليك ، وَلِنُؤدِّيَ عنك ما سمعنا منك ، ونحن - على ذلك - لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننَّا أن لنا عليك به حُجَّةٌ ، وأنتك راجع به إلى الالفة والجماعة ، إنَّ صاحِبِنَا من قد عرَفْت وعَرَفَ المسلمون فضلهُ ، ولا أظنه يخفى عليك ، إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليّ ، ولن يُمَيِّلُوا^(٣) بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ، ولا تحالف عليّاً ، فإننا والله ما رأينا رجلاً قَطُّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهَدَ في الدنيا ، ولا أجمعَ لِحِصَالِ الخَيْرِ كلها منه » .

٣٢٤ - خطبة معاوية

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمَعَنَا هي ،

(١) أى يقتله . (٢) يعنى بذلك قوة استمداده للقتال وتأهبه له . (٣) التميل بين الشيعين ،

كالترجيح بينهما .

وَأَمَّا الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها ، إن صاحبكم قَتَلَ خَليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وآوَى
ثَأْرَنَا^(١) وَقَتَلْتَنَا ، وَصَاحِبُكُمْ يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لانرد ذلك عليه ، أَرَأَيْتُمْ قَتَلَةَ
صاحبنا ، أَلَسْتُمْ تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؟ فَلْيَدْفَعِهِم إِلَيْنَا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم
إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شبت : أيسرك يا معاوية أنك أُمِّكِنْتَ من عَمَّار^(٢) تقتله ؟ فقال معاوية :

(١) الثأر : قاتل حيمك . (٢) هو عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أحد السابقين الأولين ،
وقد عذبه المشركون في بدء الدعوة الإسلامية فاحتمل العذاب ، وكان يعذب هو وأخوه وأبوه وأمه بالنار ،
فر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « صبرا آل ياسر فوعدكم الجنة . اللهم اغفر لآل ياسر »
ومراد شبت بهذا القول إحراج معاوية . نقوله عليه الصلاة والسلام لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » : أى
إنك يا معاوية إن قتلت عمارا - وكان من أصحاب على - كنت من الفئة الباغية . وتفصيل الخبر في ذلك
ما روتهُ أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت : « لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده
بالمدينة أمر باللبن يضرب وما يحتاج إليه ، ثم قام فوضع رداه فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا
أرديتهم وأكسيهم يرتجزون ويقولون ويعملون .

لئن قمنا والنبي يعمل ذلك إذن لعمل مضلل

قالت : وكان عثمان بن عفان رجلا نظيفا متظففا ، فكان يحمل اللبنة ويحافى بها عن ثوبه ، فإذا وضعها
نفض كفيه ، وذاظر إلى ثوبه ، فإذا أصابه شيء من التراب نفضه فنظر إليه على رضى الله عنه فأنشد :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها راكما وساجدا

وقائما طورا وطورا قاعدا ومن يرى عن التراب حائدا

فسممها عمار بن ياسر فجعل يرتجزها وهو لا يدري من يعنى ، فسمعه عثمان فقال : يابن سمية (وسمية أمه)
ما أعرفنى بمن تعرض ، ومعه جريدة ، فقال لتكفن أو لأعترضن بها وجهك ، فسمعه النبي وهو جالس في
ظل حائط فقال : « عمار جلدة ما بين عيني وأذني » فن بلغ ذلك منه فقد بلغ منى ، وأشار بيده فوضمها بين
عينيه فكف الناس عن ذلك ، وقالوا لعمار : إن رسول الله قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن ،
فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فأقبل عليه فقال : يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك ولهم ؟ قال
يريدون قتلى ، يحملون ابنة ويحملون على لبنتين ، فأخذ به وطاف به في المسجد وجعل يمسح وجهه من التراب
ويقول « يابن سمية لا يملك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية » فلما قتل بصفين ، وروى هذا الحديث عبد الله
ابن عمرو بن العاص ، قال معاوية : هم قتلوه ، لأنهم أخرجوه إلى القتل ، فلما بلغ ذلك عليا قال : ونحن
قتلنا أيضا حزة لأننا أخرجناه (العقد النريد ٢ : ٢٣٧) .

وما يمنعني من ذلك ؟ والله لو أمكنت من ابن سُمَيَّة ما قتلتهُ بعثمان رضي الله عنه ولكن كنتُ قَاتِلَهُ بِنَاتِلِ مَوْلَى عُمَانَ ، فقال شُبَيْث :

« وَإِلَهَ الْأَرْضِ وَإِلَهَ السَّمَاءِ ، مَا عَدَدَاتُ مَعْتَدِلَا ^(١) ، لَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَا تَصِلُ إِلَى عَمَّارٍ ، حَتَّى تَنْدُرَ ^(٢) الْهَامُ عَنْ كَوَاهِلِ الْأَقْوَامِ ، وَتَضِيقَ الْأَرْضُ الْفَضَاءَ عَلَيْكَ بِرُحْبِهَا ^(٣) » فقال له معاوية : « إنه لو قد كان ذلك كانت الأرضُ عليك أضيْقَ » وتفرَّقَ القوم عن معاوية ، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خَصْفَةَ التَّمِيمِي فَخَلَا بِهِ .

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أَمَا بَعْدُ يَا أَخَا رَيْبِعَةَ ، فَإِنِ عَلِيًّا قَطَعَ أَرْحَامَنَا ، وَأَوَى قَتَلَةَ صَاحِبِنَا ، وَإِنِي أَسْأَلُكَ النَّصْرَ بِأَسْرَتِكَ وَعَشِيرَتِكَ ، ثُمَّ لَكَ عَهْدُ اللَّهِ جَلًّا وَعِزًّا وَمِيثَاقُهُ أَنْ أَوْلِيكَ إِذَا ظَهَرَتْ ^(٤) أَيْ الْمَصْرِينَ أَحْبَبْتَ ، قَالَ زِيَادُ : فَلَمَّا قَضَى مَعَاوِيَةَ كَلَامَهُ حَدَّثَتِ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا وَأَثْنَيْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتَ : « أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي عَلَى بَيْئَةِ مَنْ رَبِّي ، وَبِمَا أُنْعَمَ عَلَيَّ ، فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ^(٥) لِلْمَجْرُمِينَ » ثُمَّ قَمْتُ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٢)

(١) أى إنك إذا عدت عمارا بناتل مولى عثمان : أى سويت بينهما لم تكن معتدلا فى حكلك .

(٢) ندر الشيء كنعصر ندورا : سقط من جوف شيء أو من بين أشياء فظهر . وإلهام الهموس : جمع هامة .

(٣) الرحب بالضم : الاتساع . (٤) أى غلبت وانتصرت . (٥) معيننا وناصرنا .

وفد معاوية إلى عليّ

وفد معاوية إلى عليّ حبيب بن مسلمة الفهري ، وشرحبيل بن السمط ، ومغن ابن يزيد بن الأخنس ، فدخلوا عليه .

٢٢٥ - خطبة حبيب بن مسلمة

فحمد الله حبيب وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مَهْدِيًّا ، يعمل بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، وَيُنِيب إلى أمر الله تعالى ، فاستنقتم حياتَه ، واستبطأتم وفاته ، فعدّوتم عليه ، فقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قتلة عثمان - إن زعمت أنك لم تقتله - نقتلهم به ، ثم اعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يُؤلّي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . »

فقال له عليّ بن أبي طالب : « وما أنت لا أم لك والعتزل ، وهذا الأمر ؟ اسكت ، فإنك لست هناك ، ولا بأهل له ، فقام وقال له : « والله لتريبني بحيث تكره » ، فقال عليّ : « وما أنت ولو أجنبت بخيالك ورَجلك ؟ لا أبقى الله عليك إن أبقيت عليّ ، أحقره^(١) وسوءاً ، أذهب فصوب وصدّد ما بدا لك . وقال شرحبيل بن السمط :

(١) في كتب اللغة : حقره حقرا بفتح الحاء وحقرية بضمها وتشديد الياء ولم أجد كلمة « حقرة » وأرى أنها مثل هزأة وضحكة ، يقال رجل هزأة بضم الهاء وسكون الزاي أى يهزأ به وضحكة كذلك أى يضحك منه ، فالعنى أنكون حقرة أى حقيرا وتسوئنى سوا .

إني إن كلمتك فلمعري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل، فهل عندك جواب غير الذي أجبته به؟ فقال علي: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبته به.

٢٢٦ - خطبة علي بن أبي طالب

حَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

«أما بعد، فإن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، فأخذ به من الضلالة، وانتاش^(١) به من الهلكة، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه، وقد أدى ما عليه، صلى الله عليه وسلم، ثم استخلف الناس أبا بكر رضى الله عنه، واستخلف أبو بكر عمر رضى الله عنه، فأحسننا السيرة، وعدلنا في الأمة، وقد وجدنا^(٢) عليهما أن توليا علينا، ونحن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففغرنا ذلك لها، وولى عمان رضى الله عنه فعمل بأشياء جابها الناس عليه، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم، فقالوا لي: بايع، فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع، فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايعتهم، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني^(٣)، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق^(٤) بن طليق، حزب^(٥) من هذه الأحزاب، لم يزل لله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وللمسلمين عدواً، هو وأبوه، حتى دخلا في الإسلام كارهين،

(١) انتشل وأخرج . (٢) وجد عليه: غضب . (٣) يعني طلحة والزبير وما كان منهما من

الخلاف عليه، وانضمهما إلى السيدة عائشة . (٤) الطلقاء: هم الذين عفا عنهم النبي عليه الصلاة

والسلام بعد فتح مكة، فقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء . (٥) حزب بدل من طليق الثاني: أي ابن حزب

من هذه الأحزاب التي تألبت وتظاهرت على حربه صلى الله عليه وسلم من قريش، وغطفان، وبني مرة،

وبني أشجع، وبني سليم، وبني أسد (في غزوة الأحزاب)، وهي غزوة الخندق سنة ٥ هـ) وكانت عدة

الجميع عشرة آلاف مقاتل، وقادهم العام أبو سفيان .

فلا غرؤ^(١) إلا خِلافُكم معه ، وانقيادكم له ، وَتَدْعُونَ آلَ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم ، الذين لا ينبغي لكم شِقَاقُهُمْ ولا خِلافَهُمْ ، ولا أَنْ تَعْدِلُوا بِهِمْ من الناسِ أَحَدًا ، أَلَا إِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَإِمَاتَةِ الْبَاطِلِ ، وَإِحْيَاءِ مَعَالِمِ الدِّينِ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ، وَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَمُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ .

فقالا : « اشهد أن عثمان رضي الله عنه قُتِلَ مَظْلُومًا » فقال لهما : « لا أقول إنه قُتِلَ مَظْلُومًا ، ولا إنه قتل ظالما » . قالوا : « فن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما ، فنحن منه برآء » ثم قاما فانصرفا ، فقال عليّ : « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَا تُسْمِعُ الْعُمْمُ الدُّعَاءَ إِذَا وُلُّوا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤)

(١) فلا غرؤ : أى لا عجب ، وقوله إلا خِلافُكم معه : أى خِلافُكم علىّ معه ، أو هو « خِلافُكم معه » بالحاء : أى مخالفتكم له ، ومناصرتكم إياه .

التحريض على القتال من قبل معاوية

٢٢٧ - خطبة عمرو بن العاص (المتوفى سنة ٤٣ هـ)

لما بلغ معاوية أن الإمام علياً (كرم الله وجهه) يجهز الجيوش لقتاله ، دعا عمرو ابن العاص ، فاستشاره ، فقال : « أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك ، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك » . قال : « أما إذا يا أبا عبد الله فجهز الناس » . فجاء عمرو فخصَّص الناس ، وضفَّ علياً وأصحابه ، وقال :

« إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم ، وأوهنوا شوكتهم ، وفلّوا أحدهم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعليّ ، قد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صنابيرهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار في شِرْذِمَةٍ قَلِيلَةٍ ، منهم من قد قَتَلَ خليفَتكم ، فالله الله في حكم أن تُضَيِّمُوهُ ، وفي دمكم أن تُطَلُّوهُ » .
(تاريخ الطبري ٥ : ٢٣٦)

٢٢٨ - خطبة أخرى لعمر بن العاص

وخطب عمرو بن العاص قبل الوقفة العظمى بصفين ، يحرص أهل الشام « وقد كان منحنيًا على قوس » فقال :

« الحمد لله العظيم في شأنه ، القوي في سلطانه ، العليّ في مكانه ، الواضح في برهانه ، أحمده على حُسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، في كل رَزِيَّةٍ من بلاء^(١) ، أو شدة أو رخاء ،

(١) البلاء : يكون محنة ، ويكون منحة .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ثم إنا نحتسب عند الله ربّ العالمين ما أصبح في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، من اشتعال نيرانها ، واضطراب حبلها ، ووقوع بأسها بينها ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين .

أَوْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاتَنَا وَصَلَاتَهُمْ ، وَصِيَامَنَا وَصِيَامَهُمْ ، وَحُجَّتَنَا وَحُجَّتَهُمْ ، وَقِبْلَتَنَا وَقِبْلَتَهُمْ ، وَدِينَنَا وَدِينَهُمْ وَاحِدٌ؟ وَلَكِنِ الْأَهْوَاءُ مُخْتَلِفَةٌ ، اللَّهُمَّ أَصْلِحْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِمَا أَصْلَحْتَ بِهِ أَوْلَهَا ، وَاحْفَظْ فِيهَا بَيْنَنَا ، مَعَ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ وَطِنُوا بِلَادَكَ ، وَبَعَوْا عَلَيْكَ ، فَجِدُّوا فِي قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ، وَحَافِظُوا عَلَى حُرْمَاتِكُمْ^(١) » ثم جلس .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤)

٢٢٩ - خطبة معاوية بن أبي سفيان يحرض أهل الشام

وقام معاوية في أهل الشام خطيباً ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أَعِيرُونَا جَبَاحَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ^(٢) ، لَا تُقْتَلُوا^(٣) ، وَلَا تَتَّخِذُوا^(٤) ، فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ أَخْطَارٌ ، وَيَوْمٌ حَقِيقَةٌ وَحِفَاطٌ^(٥) ، إِنَّكُمْ لَعَلَى حَقٍّ ، وَبِأَيْدِيكُمْ حُجَّةٌ ، إِنَّمَا تَقَاتِلُونَ مِنْ نَكَتِ الْبَيْعَةِ ، وَسَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ السَّمَاءِ عَازِرٌ ، قَدَّمُوا أَحْبَابَ السَّلَاحِ الْمُسْتَلِيمَةِ^(٦) ، وَأَخْرَجُوا الْحَاسِرَ^(٧) ، وَاجْلُوا بِأَجْمَعِكُمْ ، فَقَدْ بَاغَ الْحَقُّ مَقْطَعَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَالِمٌ وَمَظْلُومٌ » .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨١)

-
- (١) جمع حرمة ، وهي ما لا يجمل انتهاكها . (٢) أي جودوا بروسكم ، ولا تبخلوا بنفوسكم على القتل .
(٣) في الأصل « لا تقتلوا » على أن القتل مجزوم بلا الناهية ، وأراه محرفاً ، وإنما هو « لا تقتلوا » مجزوم في جواب الأمر ، أي إن تسخروا يبذل رءوسكم ونفوسكم وتقاتلوا مستبسلين تنجوا من القتل .
(٤) في الأصل « ولا تتجادلوا » وأراه مصحفاً عن « ولا تتخاذلوا » أي لتتعاونوا ، ولا يتخذل بعضهم بعضاً .
(٥) أي يوم محافظة على الأرواح والأعراض والأموال ودفاع عنها . (٦) استلام : لبس الأمانة ، وهي الدرع . (٧) الحاسر : من لا مفقر له ، ولا درع ، أو لا جنه له .

٣٣٠ - خطبة ذى الكلاع الحميرى^(١)

وطلب معاوية إلى ذى الكلاع الحميرى أن يخطب الناس ، ويحرضهم على قتال على رضى الله عنه ومن معه من أهل العراق ، فعقد فرسه « وكان من أعظم أحباب معاوية خطراً^(٢) » وخطب الناس فقال :

« الحمد لله حمداً كثيراً ، نامياً واضحاً مُنيراً ، بُكْرَةً وأصيلاً ، أَحْمَدَهُ واستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالعرفان إماماً ، وبالهدى ودين الحق ، حين ظهرت المعاصى ، وَدَرَسَتْ^(٣) الطاعة ، وامتلأت الأرض جوراً وضلالة ، واضطربت الدنيا نيراناً وقتنة ، وَوَرِكَ^(٤) عدوُّ الله إبليسُ على أن يكون قد عُبدَ فى أكنافها ، واستولى على جميع أهلها ، فكان محمد صلى الله عليه وآله هو الذى أطفأ الله به نيرانها ، وَنَزَعَ به أوتادها ، وأوهن به قوى إبليس ، وَأَيْسَهُ مما كان قد طَمِعَ فِيهِ مِنْ ظَفَرِهِ بهم ، وأظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون .

ثم كان من قضاء الله أن ضَمَّ بيننا وبين أهل ديننا بَصِيفَيْنِ ، وإنا لنعلم أنَّ فيهم قوماً ، قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله سابقةٌ ذاتُ شأنٍ وَخَطَرٍ عَظِيمٍ ، ولكنى ضربت الأمر ظهراً وبطناً ، فلم أَرَ يسعنى أن يُهدَرَ دَمُ عثمان ، صِهْرُ نبينا صلى الله عليه وآله ، الذى جَهَّزَ جيشَ العُسرةِ^(٥) ، وألحق فى مُصَلَّى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بيتاً ،

(١) هو ذو الكلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر يزيد بن النعمان وهما من أدواء اليمن . (٢) أى شأنها وقدرها . (٣) اتحت . (٤) ورك على الأمر وروكا: قدر . (٥) وذلك أنه فى غزوة تبوك — وكانت سنة تسع للهجرة — أنفق فى تجهيز المقاتلة من المسلمين عشرة آلاف دينار ، وأعطى ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها (والأحلاس: جمع حلس بالكسر: وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة . والأقتاب جمع قتب بالتحريك : وهو ما يوضع على سنام البعير) وخمسين فرساً ، فقال =

وَبْنِي سِقَايَةَ^(١) ، وَبَايَعَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ بِيَدِهِ الْيَمْنَى عَلَى الْيَسْرَى^(٢) ، وَاخْتَصَمَهُ بِكَرِيمَتِيهِ أُمَّ كَلْثُومٍ وَرُقِيَّةَ^(٣) ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا ، فَقَدْ أَذْنَبَ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، قَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وَقَتَلَ مُوسَى نَفْسًا^(٤) ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ

= عليه الصلاة والسلام : « اللهم ارض عن عثمان ، فإني راض عنه » وكان ذلك في زمن حصرة الناس وجذب البلاد ، وشدة الحر ، قال تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ » أى وقتها ، وهى حالهم فى تلك الغزوة ، ذكروا أن الرجلين كانا يقتسمان تمرة ، وأن العشرة كانوا يمتقبون البعير الواحد . (١) وذلك أنه اشترى بئر رومة (بضم الراء : بئر بالمدينة) ثم تصدق بها على المسلمين ، فكان رشاؤه فيها كرشاه أحدهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من حفر بئر رومة فله الجنة » وأشرف عثمان رضى الله عنه على الثوار حين حصروه ومنعوا الماء عنه ، فقال : أنشدكم الله ، هل علمتم أنى اشتريت رومة من مالى يستعذب بها ، فجعلت رشائى منها كرشاه رجل من المسلمين ؟ قيل : نعم ، قال : فإى معنى أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر ؟ ثم قال : أنشدكم الله هل علمتم أنى اشتريت كذا وكذا من الأرض ، فزدته فى المسجد ؟ قيل : نعم ، قال : فهل علمتم أحدا من الناس منع أن يصلى فيه قبل ؟ ثم قال : أنشدكم الله ، هل سمعتم نبى الله صلى الله عليه وسلم يذكر كذا وكذا - أشياء فى شأنه ، فجعل الناس يقولون : مهلا عن أمير المؤمنين .

(٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قصد إلى مكة فى غزوة الحديبية (سنة ست للهجرة) بعث عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه إنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة وبلغ الرسالة ، واحتبسته قريش عندها ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا نبرح حتى نتاجز القوم ، ودعا المسلمين إلى البيعة على الموت فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبأبى عليه الصلاة والسلام لعثمان ، فضرب بيده اليمنى على يده اليسرى وقال : هذه يد عثمان .

(٣) تزوج عثمان السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما ماتت جزع عثمان عليها وقال يارسول الله انقطع صهرى منك ، قال : إن صهرك منى لا ينقطع ، وقد أمرنى جبريل أن أزوجهك أختها بأمر الله : السيدة أم كلثوم .

(٤) وذلك أنه فى إبان نشأته بمصر دخل مدينة منف ذات مرة ، فوجد فيها رجلين يقتتلان قبطيا يسخر لإسرائيليا ليحمل حطبا إلى مطبخ فرعون ، فاستغاثه الإسرائيلى ، فقال موسى للقبطى : خل سبيله ، فقال له لقد هممت أن أحمله عليك ، فوكزه موسى (أى ضربه بجمع كفه) وكان شديد القوة والبطش فقتله ، ولم يكن يقصد قتله (وذكروا أنه كان إذ ذاك ابن اثنى عشرة سنة) وقد اعتم لذلك خوفا من عقاب الله . =

فغفر له ، وقد أذنب نوح^(١) ، ثم استغفر الله فغفر له ، وقد أذنب أبوكم آدم^(٢) ، ثم استغفر الله فغفر له ، ولم يعمر أحدكم من الذنوب ، وإنا لنعلم . قد كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإن لم يكن مالا^(٣) على قتل عثمان فقد

= ومن اقتصاص فرعون واستغفر الله فغفر له ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَمَاعَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ » (سورة القصص) وقال تعالى : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ » (سورة طه)

(١) يشير إلى ما كان من نوح عليه السلام بشأن ابنه كنعان حين حدث الطوفان ، قال تعالى : « وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ، يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ، وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » إلى أن قال : « وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي (أى وقد وعدتني ببنجائهم) وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (سورة هود) .

(٢) وذلك أنه إذ أسكنه الله هو وزوجه حواء الجنة وأباح لهما أن يأكلا من حيث شاءا ، نهاه أن يقرب شجرة عينها له ، فوسوس له إبليس أن يأكل منها فطاعه : وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ أَيْمَانِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » . «سورة الأعراف» . (٣) ناصر وشايخ .

خذله ، وإنه لأخوه في دينه ، وابنُ عمه^(١) ، وسلفه^(٢) ، وابنُ عمته^(٣) ، ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامكم وبلادكم وبيضتكم^(٤) ، وإنما عامتهم بين قاتل وخاذل ، فاستعينوا بالله واصبروا ، فلقد ابتليتم أيتها الأمة ، ولقد رأيت في منامي في ليلتي هذه ، لكأنا وأهل العراق أعتورنا^(٥) مُضْحَكًا نضربه بسيوفنا ، ونحن في ذلك جميعا ننادى : وَيَحْكُمُ اللهُ ! ومع أنا والله لانفارق العرصة^(٦) حتى نموت ، فمليكم بتقوى الله ، وليكن الثبات لله ، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إِنَّمَا يُبْعَثُ الْمُقْتَلُونَ عَلَى الثَّبَاتِ » أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعزنا لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم في كل أمر ، وأستغفر الله لي ولكم .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨٤)

٣٣١ - خطبة يزيد بن أسد البجلي

وقام يزيد بن أسد البجلي في أهل الشام يخطب الناس بصفين ، وعليه قبلاً من خزّ وعمامة سوداء ، آخذاً بقائم سيفه ، واضعاً نصل السيف في الأرض متوكئاً عليه ، فقال :

« الحمد لله الواحد الفرد ، ذي الطول^(٧) والجلال ، العزيز الجبار ، الحكيم الغفار ، الكبير المتعال ، ذي العطاء والفعال^(٨) ، والسخاء والنوال ، والبهاء والجمال ، والمنّ

(١) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وعلى بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف . (٢) السلف (بفتح فكسر وبكسر فسكون) من الرجل : زوج أخت امرأته وقد علمت أن عثمان تزوج السيدة رقية أخت السيدة فاطمة زوج الإمام على . (٣) أم عثمان هي أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب بن هاشم عمه النبي صلى الله عليه وسلم . (٤) البيضة : ساحة القوم . (٥) اعتوروا الشيء : تداواوه . (٦) العرصة : كل بقعة بين الدور واحة ليس فيها بناء . (٧) الطول : الفضل والقدرة والغنى . (٨) الفعال : اسم الفعل الحسن ، والكرم .

والإفضال ، مالكِ اليوم الذي لا يَبِيعُ فيه^(١) ولا خِلَالَ^(٢) ، أَحْمَدُه على حسن البلاء ،
وتظَاهرُ النعماء ، وفي كل حال من شدّة أورخاء ، أَحْمَدُه على نِعَمه التّوامِّ ، وآلائه
العظيم ، حمداً يستنير بالليل والنهار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة
النّجاة في الحياة الدنيا وعند الوفاة ، وفيها الخلاص يوم القصاص ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله النبي المصطفى ، وإمام الرّحمة والهدى ، صلى الله عليه وآله .

ثم كان من قضاء الله أن جَمَعَنَا وأهلَ ديننا في هذه الرّقعة من الأرض ، والله يعلم أني
كنت كارهاً لذلك ، ولكنهم لم يبيّسونا ريقنا ، ولم يتركونا نرتادُ لأنفسنا ، وننظر لمعادِنَا ،
حتى نزلوا بين أظهرنا ، وفي حريمنا وَبَيَّضَتْنَا^(٣) ، وقد علمنا أن في القوم أحلاماً
وطغاماً^(٤) ، ولسنا نأمن طغامهم على ذرّارينا ونسائنا ، ولقد كنا نحب أن لا نقاتل أهل ديننا ،
فأخرجونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم عدا حمية^(٥) ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،
والحمد لله رب العالمين .

أما والذي بعث محمداً بالرسالة لوددتُ أني مُت مند سنة ، ولكن الله إذا أراد أمراً
لم يستطع العبادُ رده ، فذستعين بالله العظيم ، وأستغفر الله لي ولكم .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨٥ والأغانى ١٩ : ٥٥)

(١) لا يبيع فيه فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره ، أو يفدى به نفسه . (٢) الحلال والمخالفة مصدر
خال : المصادقة ، أي ولا مخالفة فيه فيشفع لك خليلك . (٣) البيضة : ساحة القوم . (٤) الحلم
بالكسر : الأناة والعقل ، وهو حلم والجمع حلماء وأحلام ، والطغام : أوغاد الناس . (٥) الحمية :
الأنفة (وفي الأصل غدا ، وأرى صوابه عدا أي أعداء) .

التحريض على القتال

من قبل الإمام عليّ أيضاً

٢٣٢ - خطبة الإمام علي

وخطب الإمام عليّ كرم الله وجهه أصنابه ، متوكلنا على قوسه ، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنده فهم يُلُونَهُ - كأنه أحبّ أن يعلم الناس أن الصحابة متوافرون معه - فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فَإِنَّ الْخِيَلَاءَ ^(١) مِنَ التَّجْبِيرِ ، وَإِنَّ النُّخُوعَ ^(٢) مِنَ التَّكْبِيرِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ حَاضِرٌ ، يَعِدُّكُمْ الْبَاطِلَ . أَلَا إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ ، فَلَا تَتَّابَذُوا ، وَلَا تَخَازِلُوا ، أَلَا إِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ، وَسُبُّهُ قَاصِدَةٌ ^(٣) ، مِنْ أَخْذِهَا الْحَقُّ ^(٤) ، وَمَنْ فَارَقَهَا بِحَقِّ ^(٥) ، وَمَنْ تَرَكَهَا مَرَقٌ ^(٦) ، لَيْسَ الْمُسْلِمُ بِالْخَائِنِ إِذَا أَوْثَمَنْ ، وَلَا بِالْخَلِيفِ إِذَا وَعَدَ ، وَلَا بِالْكَذَّابِ إِذَا نَطَقَ ، نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ الرَّحْمَةِ ، وَقَوْلُنَا الصِّدْقُ ، وَفِعْلُنَا الْفَضْلُ ، وَمِنَّا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَفِينَا قَادَةُ الْإِسْلَامِ ، وَفِينَا حَمَلَةُ الْكِتَابِ ، أَلَا إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَإِلَى جِهَادِ عَدُوهِ ، وَالشَّدَةِ فِي أَمْرِهِ ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِتْبَاءِ الزُّكَاةِ ، وَحِجِّ الْبَيْتِ ، وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَتَوْفِيرِ النَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ . أَلَا وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبِ

(١) الخيلاء : الكبر . (٢) النخوة : الافتخار والتعظيم . (٣) القصد : استقامة الطريق .

(٤) أى أدرك رضا الله وثوابه . (٥) محقه : محامه ، ومحق الله الشيء ذهب ببركته . (٦) أى

خرج من الدين ، وأصله من مرق السهم من الرمية مروقا : إذا خرج من الجانب الآخر .

العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي ، وعمرو بن العاص السهمي ، أصبحا يُحرِّضان الناس على طلب الدين بزعمهما ، ولقد علمت أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وآله قط ، ولم أعصه في أمر ، أقيه بنفسي في المواطن التي يَنْكُصُ^(١) فيها الأبطال وترُعد فيها الفرائص^(٢) ، بنجدة أكرمني الله سبحانه بها وله الحمد ، ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن رأسه لفي حجرى ، ولقد ولت غسله بيدي وخذى تقلبه الملائكة المقرَّبون معي ، وإيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيا ، إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨١)

٢٣٣ - خطبة أخرى له

وروى أن الإمام علياً قال في هذه الليلة : حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ؟ فقام في الناس فقال :

« الحمد لله الذى لا يُبرمُ ما نَقَضَ ، ولا يُنقِضُ ما أبرم ، لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ، ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر في شيء من أمره ، ولا جحدَ المفضولُ ذا الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهؤلاء القومَ الأقدارُ ، حتى لَفَّتْ بيننا في هذا الموضع ، ونحن من ربنا بمرأى ومسمع ، ولو شاء لعَجَّلَ النِّقْمَةَ ، ولكان منه النصر ، حتى يكذِّبَ الله الظالم ، ويعلم المحقُّ أين مصيرُهُ ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ألا إنكم لأقو المدوِّ غداً إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيامة ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصبر والنصر ، والقوهم بالحِدِّ والحزم ، وكونوا صادقين .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٨١ وتاريخ الطبرى ٧ : ٦)

(١) نكص عن الأمر : أحجم عنه .

(٢) جمع فريصة ، وهى لمة بين الجنب والكتف لاتزال ترعد .

٢٣٤ - ومن كلام له كرم الله وجهه

كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين

« مَعَاشِرَ الْمَسْلَمِينَ : اسْتَشْمِرُوا ^(١) الْخَشْيَةَ ، وَتَجَلَّبَبُوا السَّكِينَةَ ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِدِ ^(٢) ، فَإِنَّهُ أَنْبَى السِّيُوفِ عَنِ الْهَامِ ^(٣) ، وَأَكْمَلُوا اللَّأْمَةَ ^(٤) ، وَقَلَقُوا السِّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا ، قَبْلَ سَلِّهَا ^(٥) ، وَالْحَطُّوا الْخَزَرَ ^(٦) ، وَاطْمَنُّوا الشَّرَّزَ ^(٧) ، وَنَافَحُوا بِالظُّبَا ^(٨) ، وَصَلُّوا السِّيُوفَ بِالْخَطَا ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعَيْنُ ^(٩) اللَّهِ ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَعَاوَدُوا الْكِرَّ ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَطَيَّبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا ، وَامشَوْا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيًا سُجَّحًا ^(١٠) ، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ ^(١١) الْأَعْظَمِ ، وَالرَّوِاقِ الْمُطَنَّبِ ^(١٢) ، فَاضْرَبُوا مَبَجَّةَ ^(١٣) ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ ^(١٤) ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوَيْبَةِ بَدَا ، وَأَخَّرَ لِلنَّكُوصِ رِجْلًا ، فَصَمَدًا صَمَدًا ^(١٥) ، حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ ، وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتَرَكَ ^(١٦) أَعْمَالَكُمْ .
(نهج البلاغة : ١ : ٥٧)

- (١) استشعر : لبس الشعار وهو ما يلبس البدن من الثياب . وتجلبب : لبس الجلباب ، والمراد : لازموا الخشية والسكينة . (٢) النواجد جمع ناجذ : أقصى الأضراس ، ويعض المرء نواجذه حين يشتد غيظه ، والمراد : استجمعوا كل قوتكم . (٣) فإنه : الضمير فيه يعود على المصدر المفهوم من الفعل السابق : أى فإن العوض على النواجد أنبى للسيف ، أى أدعى إلى نبوها عن رهوسكم ، نبا السيف عن الضريبة : كل ، وإهام : الرهوس جمع هامة . (٤) الألة : الدرع ، ويجوز أن يعبر بالألة عن جميع أدوات الحرب ، يريد أكملوا السلاح . (٥) مخافة أن تستعصى عن الخروج وقت سلهما . (٦) الخزر : النظر في أحد الشقين ، وتلك أمانة الغضب . (٧) الطعن في الجواب يمينا وشمالا . (٨) نافحوا : كافحوا وضاربوا ، والظبا : جمع ظبة ، وهى حد السيف . (٩) أى ملحوظون بها . (١٠) اللين : السهل . (١١) العدد الكثير . يعنى جمهور أهل الشام . (١٢) الرواق : بكسر الراء وضمها الفسطاط ، يريد به مضرب معاوية المطنّب ، أى المشدود بالأطناب (جمع طنّب بضمّتين ، وهو الحبل) وكان معاوية في مضرب عليه قبة عالية وحوله صناديد أهل الشام . (١٣) أى وسطه . (١٤) جانبه . (١٥) الصمد : القصد ، صمده من باب نصر قصده . (١٦) لن ينقصكم منها شيئا .

٢٣٥ - خطبة أخرى للإمام

وخطب الإمام على ذلك اليوم أيضاً ، فقال :

« أيها الناس : إن الله تعالى ذكركم ، قد دلتم على تجارة تُنجيكم من العذاب ، وتُنشئ^(١) بكم على الخير ، إيمان بالله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، وجعل ثوابه مغفرة الذنوب ، ومسكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، وأخبركم بالذي يجب فقال : (إن الله يحب الذين يُقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بُنيان مَرصوص) فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع ، وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس ، فإنه أنبي السيوف عن الهام ، وأربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، وأميتوا الأصوات ، فإنه أطرده للفشل ، وأولى بالوقار ، والتووا في أطراف الرماح ، فإنه أمور^(٢) للأسيمة ، ورايتكم فلا تُميلوها ، ولا تُزبلوها ، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم ، المانعي الذمار^(٣) ، والصبر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ الذين يخفرون^(٤) برايتكم ويكفونها ي ضربون خلفها وأمامها ، ولا يُضيعونها ، أجزأ كل امرئ مسلم قرنه^(٥) ، وواسى أخاه بنفسه ، ولم يكل قرنه إلى أخيه ، فيجمع عليه قرنه وقرن أخيه ، فيكسب بذلك اللأمة ، ويأتي به دناة ، أتى هذا ، وكيف يكون هذا ؟ هذا يقاتل اثنين ، وهذا مُمسك يده ، قد خلى قرنه إلى أخيه هارباً منه ، أو قائماً ينظر إليه ؟ من يفعل هذا مقتته الله ، فلا تمرّضوا لقت الله ، فإنما مردكم إلى الله ، قال الله تعالى لقوم طابهم : (لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذَنْ لَا تُنْفَعُونَ إِلَّا

(١) أشق عليه : أشرف . (٢) اسم تفضيل من مار ، سهم ماز : أى خفيف نافذ داخل في الأجسام .

(٣) مايلزمك حفظه وحمايته . (٤) خفره وبه وعليه يخفر بكسر الفاء وضمها : أجاره ومنعه وآمنه .

(٥) القرن : كفتوك في الشجاعة (أو عام) وأجزأه : أغناه وكفاه .

قليلاً) وإيم الله إن فررتم من سيف الله العاجلة ، لا تسامون من سيف الآخرة ، استمعينوا بالصدق والصبر ، فإنه بعد الصبر يُنزل النصر .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٣ وتاريخ الطبري ٦ : ٩)

٢٣٦ - خطبة للإمام علي

وسرّ الإمام علي كرم الله وجهه على جماعة من أهل الشام ، فيها الوليد بن عُقبة وهم يشتمونه ، فخبر بذلك ، فوقف فيمن يليهم من أصحابه ، فقال :

« انهدوا^(١) إليهم ، عليكم السكينة والوقار ، وقار الإسلام وسمى الصالحين ، فوالله لأقرب قوم من الجهل فائدهم ومؤذنيهم^(٢) معاوية وابن النابغة^(٣) وأبو الأعور السلمى ، وابن أبي معيط ، شارب الخمر ، المجلود خدا في الإسلام ، وهم أولى من يقومون فينقضوني ويخدبونني^(٤) ، وقيل اليوم ماقاتلوني ، وأنا إذ ذاك أدعومهم إلى الإسلام ، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام ، الحمد لله ، قديماً عاداني الفاسقون ، فعبدتهم^(٥) الله ، ألم يُفَنِّخُوا^(٦) ؟ إن هذا هو الخطب الجليل ، إن فُسلنا كانوا غير مرَضيين ، وعلى الإسلام وأهله متخوفين ، خدعوا شطر هذه الأمة ، وأشربوا قلوبهم حب الفتنه ، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبُهتان ، قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل ، اللهم فافضض خدَمَتهم^(٧) ،

(١) نهد الرجل : نهض ، ونهد لعدوه : صمده . (٢) الأذنين والمؤذنين : الزعيم . (٣) هو عمرو بن العاص ، والنابغة : لقب أمه سلمى بنت حرملة . (٤) الجلب بالتسكين : العيب . (٥) ذلهم . المبدل من الطريق وغيره . (٦) الفَنِّخ بالسكون : القهر ، والغلبة والتذليل كالتفنيخ (وفي الأصل : « ألم يفتتحوا » وهو تصحيف) . (٧) يقال فض الله خدمتهم أي فرق جماعتهم ، الخدمة بالتحريك سير غليظ مضمفور مثل الحلقة يشد في رسغ البعير ، ثم يشد إليه سرائح النمل (أي سيورها : جمع سريحة) فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النمل ، فضرَب ذلك مثلاً لذهاب ما كانوا عليه وتفترقه ، وشبه اجتماع أمرهم واتساقه بالحلقة المستديرة .

وشتت كلتهم ، وأبسلهم^(١) بخطاياهم ، فإنه لا يذل من البيت ، ولا يعزُّ من عاديت « ،
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٤)

٢٣٧ - خطبة أخرى له

ومرَّ بأهل راية ، فرآهم لا يزولون عن موقفهم ، فخرَّص عليهم الناس - وذُكرَ
أنهم غسان - فقال :

« إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن دَرَاكٍ ، يُنْجِرُ مِنْهُمْ النَّسَمَ^(٢) ،
وضرب يُفَلِّقُ مِنْهُ الْهَامَ^(٣) . ويطيح^(٤) العظام ، وتسقط منه المعاصم^(٥) والأكف .
وحتى يُضْدَعَ جِبَاهُهُمْ بِعُمْدِ الْحَدِيدِ ، وتنتشر حواجبهم على الصدور والأذقان ، أين أهلُ
الصبر ، وطلَّابُ الأجر ؟ » .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٥)

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن عباس

وخطب عبد الله بن عباس أهل العراق بصفين ، فقال :

« الحمد لله رب العالمين ، الذي دَحَا^(٦) تحتنا سبعا ، وسمك^(٧) فوقنا سبعا ، وخلق فيما
بينهن خلقًا ، وأنزل لنا منهن رزقا ، ثم جعل لكل شيء قدرًا ، يبلى وَيَفْتَى ، غير وجهه
الحى القيوم ، الذى يحيا ويبقى .

(١) أبسله : أسلمه للهلكة ، أى أهلكهم . (٢) جمع نسمة ، وهى نفس الروح (يفتح الفاء)

ثم سميت بها النفس (بالسكون) . (٣) جمع هامة ، وهى الرأس . (٤) يصح أن يكون مضارع

طيح بالتشديد : طيح بثوبه : رمى به فى مضيعة ، وطيح الشيء : ضيعه ، وأن يكون مضارع أطاح : أطاح

شعره أسقطه ، والشيء أفناه وأذهب ، وأن يكون مضارع طاح : طاح يطيح ويطوح هلك ، أو أشرف على

الملاك وذهب وسقط وتاه فى الأرض . (٥) جمع معصم بكسر الميم ، وهو موضع للسوار أو اليد .

(٦) دحا الله الأرض يدحوها ويدحاهما : بسطها . (٧) أى رفع .

إن الله تعالى بعث أنبياء ورُسُلًا ، فجعلهم حُجَجًا على عباده عُدْرًا وَنُدْرًا^(١) ، لا يُطَاعُ إلا بعلمه وإذنه ، يَمُنُّ بالطاعة على من يشاء من عباده ، ثم يُثيب عليها ، وَيُعصِي بعلم منه ، فيعفو ويغفر بحلمه ، لا يُقَدَّرُ قدره ، ولا يُبْلَغُ شيء مكانه ، أحصى كل شيء عدداً ، وأحاط بكل شيء علماً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إمام الهدى والنبي المصطفى .

وقد ساقنا قَدْرُ اللهِ إلى ما تَرَوْنَ ، حتَّى كان مما اضطرب من حبل هذه الأمة ، وانتشر من أمرها ، أن معاوية بن أبي سفيان وجد من طغَام الناس أعواناً على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره ، وأوَّلِ ذَكَرٍ صَلَّى معه ، بَدْرِي^(٢) قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله كلَّ مَشَاهِدِهِ التي فيها الفضل ، ومعاوية مُشْرِكٌ كان يعبد الأصنام ، والذي ملك الملك وحده ، وبان به وكان أهله ، لقد قاتل على بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : صدق الله ورسوله ، ومعاوية يقول : كذب الله ورسوله : فعليكم بتقوى الله ، وَالجِدِّ والحزم والصبر ، والله إنا لنعلم إنكم لَعَلَى حق ، وإن القوم لعلى باطل ، فلا يكوننَّ أولى بالجِدِّ على باطلهم منكم في حكم ، وإنا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم ، اللهم أعِنَّا ولا تتخذنَّا ، وانصرنا على عدونا ، ولا تحلِّ عنا ، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤)

(١) هما مصدران : عُدْره يعُدْره عُدْرًا بضم فسكون وبضحين وأُنذره إنذاراً ونُدْرًا بضم فسكون وبضمتين : أو جمانان : العُدْر بضممتين جمع عُدْر وهو العاذر ، والنذر بضممتين جمع نذير وهو المنذر .

(٢) أى حضر غزوة بدر الكبرى التي نشبت بين رسول الله عليه الصلاة والسلام وبين مشركي قريش

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن بديل الخزاعي

وقام عبد الله بن بديل الخزاعي في أصحابه فخطبهم ، فقال :
« إن معاوية ادعى ما ليس له ، ونازع الأمر أهله ، ومن ليس مثله ، وجادل بالباطل ،
ليُدْحَضَ^(١) به الحق ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وزين لهم الضلالة ، وزرع في
قلوبهم حبَّ الفتنة ، ولبس^(٢) عليهم الأمور ، وزادهم رجساً^(٣) إلى رجسهم ، وأنتم
والله على نور وبرهان ، قاتلوا الطغام الجفاة ، قاتلوه ولا تخشوه ، وكيف تخشونهم ؟
وفي أيديكم كتابٌ من ربكم ظاهرٌ مبين ، قوله سبحانه : (اَتَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهٗ أَحَقُّ أَنْ
تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) لقد قاتلتهم مع النبي صلى الله عليه وآله ، والله مأمٌ في هذه
بأزكى ولا أتقى ولا أبر^(٤) ، انهضوا إلى عدو الله وعدوكم ، بارك الله عليكم .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٣ وتاريخ الطبري ٦ : ٩)

٢٤٠ - خطبة أبي الهيثم بن التيهان

وكان أبو الهيثم بن التيهان يسوي صفوف أهل العراق ، ويقول :
« يامعشر أهل العراق ، إنه ليس بينكم وبين الفتح في العاجل ، والجنة في الآجل .
إلا ساعة من النهار ، فأرسلوا أقدامكم ، وسووا صفوفكم ، أعبروا ربكم جماجمكم ،
واستعينوا بالله إلهكم ، واجاهدوا عدو الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم . واضربوا
فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاque للمتقين . »

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٤)

(١) دحضت الحجة : بطلت ، وأدحضتها : أبطلتها . (٢) التلبيس : التخليط .

(٣) الرجس : القدر والمأثم ، وكل ما استقدر من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

٢٤١ - خطبة للإمام علي

وخطب علي عليه السلام بصفتين أيضاً فقال :

« الحمد لله على نعمه الفاضلة على جميع من خلق من البرِّ والفاجر ، وعلى حُجَّبه البالغة على خلقه من أطاعه منهم ومن عصاه ، إن يَرْحَمَ بفضله ومنه ، وإنْ عَذَّبَ فيما كَسَبَتْ أيديهم ، وإن الله ليس بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ . أَحْمَدُهُ على حسن البلاء ، وتظاهر التَّعْمَاءِ ، وأستعينه على ما نابنا من أمر الدنيا والآخرة ، وَأَتَوَكَّلُ عليه ، وكفى بالله وكيلًا . ثم إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ارتضاه لذلك وكان أهله ، واصطفاه لتبليغ رسالته وجعله رحمة منه على خلقه . فكان علمه فيه رءوفاً رحيماً ، أكرم خلق الله حسَبًا ، وأجملهم منظرًا ، وأسخاهم نفسًا ، وأبرهم لوالد ، وأوصلهم لرحم ، وأفضلهم علماً ، وأثقلهم حِمْلًا ، وأوفاهم لعهد ، وآمنهم على عقد ، لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بِمَظْلَمَةٍ قَطُّ ، بل كان يُظَلَمَ فَيَغْفِرُ وَيَقْدِرُ فَيَصْفَحُ ، حتى مضى صلى الله عليه وآله مطيعاً لله ، صابراً على ما أصابه ، مجاهداً في الله حقَّ جهاده ، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وآله ، فكان ذهابه أعظم المصيبة على أهل الأرض البرِّ والفاجر ، ثم ترك فيكم كتاب الله يأمركم بطاعة الله ، وينهاكم عن معصيته .

وقد عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ، فلست أحيده عنه ، وقد حضرتم عدوكم ، وعلمتم أن رئيسهم منافق يدعوهم إلى النار ، وابن عمِّ نبيكم معكم وبين أظهركم يدعوكم إلى الجنة ، وإلى طاعة ربكم ، والعمل بسنة نبيكم ، ولا سواء^(١) مَنْ صَلَّى قَبْلَ كُلِّ ذَكَرٍ ، لا يستغنى بصلاة مع رسول الله أحد . وأنا من أهل بدر ، ومعاوية طليق ،

(١) أى ولا مثل من صلى .

والله إنا على الحق ، وإهم على الباطل ، فلا يَحْتَمِنَنَّ على باطلهم ، وتنفروا عن حكم ،
حتى يغلب باطلهم حكم ، قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ، فإن لم تفعلوا يعذبهم بأيدي
غيركم . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٥٠٣)

٢٤٢ - خطبة سعيد بن قيس

وقام سعيد بن قيس يحُطِّب أصحابه بِقُنَاصِرِينَ^(١) ، فقال :

« الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتبه ، وأورثنا كتابه ، وامتنَّ علينا بنبيه ، فجعله رحمة
للعالمين ، وسيد المرسلين ، وقائد المؤمنين ، وختامًا للنبيين ، وحبَّةَ الله العظيم ، على الماضين
والغابرين ، ثم كان مما قضى الله وقدره - وله الحمد على ما أحببنا وكرهنا - أن ضَمَّنَا
وعدُّونا بِقُنَاصِرِينَ ، فلا يَجْمَلُ بنا اليومَ الحِيَاصُ^(٢) ، وليس هذا بأوان انصراف ،
ولات حين مناص^(٣) ، وقد خصنا الله بمنه برحمة لا نستطيع أداء شكرها ، ولا تَقْدِيرُ^(٤)
قَدْرَهَا ، إن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله المُصْطَفَيْنَ الأخيار معنا وفي حَبْرِنَا ، فوالله

(١) قال صاحب اللسان والقاموس : قنصرين موضع بالشَّام ، ولم يذكره ياقوت في معجمه .

(٢) حاص منه يحيص حيصا ومحيصا ومحاصا عدل وحاد ، والحياص والحايصة : مفاعلة من الحيص
أى العدول واخرى . قال صاحب اللسان : وفي حديث مطرف (بتشديد الراء المكسورة) أنه خرج من
الطاعون فقيل له في ذلك ، فقال : « هو الموت نحايصه ولا يد منه » « قال أبو عبيد معناه : نروغ عنه »
وليس بين العبد والموت مفاعلة ، وإنما المعنى أن الرجل في فرط حرصه على الفرار من الموت كأنه يباريه
ويغالبه ، فأخرجه على المفاعلة لكونها موضوعة لإفادة المبالاة والمغالبة بالفعل ، كقوله تعالى :
« يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » فيقول معنى نحايصه إلى قولك نحصر على الفرار منه هـ .

(٣) النوص والمناص : التأخر والفرار ، ناص عن قرنه ينوص : فر وراغ . أى وليس الوقت وقت
تأخر وفرار . (٤) قدر الشيء قدره من التقدير وبابه ضرب ونصر « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »
أى ما عظموه حق تعظيمه .

الذى هو بالعباد بصير ، أن لو كان قائدنا رجلاً مخدوعاً ، إلا أن معنا من البدرين سبعين رجلاً ، لكان ينبغى لنا أن تحسّن بصائرنا ، وتطيب أنفسنا ، فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا ، بدرى صدق ، صلى صغيراً ، وجاهد مع نبيكم صلى الله عليه وسلم كثيراً ، ومعاوية طليق من وثاق^(١) الأسارى ، إلا أنه أخو جفاة ، فأوردتم النار ، وأورثهم العار ، والله محبّ لهم الذل والصغار^(٢) ، ألا إنكم ستلقون عدوكم غداً ، فعليكم بتقوى الله من الجِدِّ وَالْحَزْمِ والصدق والصبر ، فإن الله مع الصابرين ، ألا إنكم تفوزون بقتلهم ، ويشقون بقتلكم ، والله لا يقتل رجلٌ منكم رجلاً منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدنٍ وأدخل المقتول ناراً تانّظى ، لا تفتّر عنهم وهم فيها مبلسون^(٣) ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه ، وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم وللمؤمنين .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٣)

٢٤٣ — خطبة يزيد بن قيس الأرحبي

وحرص يزيد بن قيس الأرحبي أهل العراق بصفين ، فقال :

« إن المسلم من سلّم دينه ورأيه ، وإن هؤلاء القوم والله ما إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا ضيعناه ، ولا على إحياء حق رأونا أبتناه ، ولا يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ، ليكونوا فيها جبابرة وملوكاً ، ولو ظهروا عليكم - لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً - إذن

(١) الوثاق بالفتح ويكسر : ما يشد به ، وأوثقه فى الوثاق شده «فشدوا الوثاق»

(٢) الذل والضم . (٣) من أبلس : إذا يمس وتخيّر .

لوليكم مثل سَعِيدٍ^(١) والوليدِ^(٢) وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ عامرٍ^(٣) السفية ، يحدث أحدهم في مجلسه بذيتٍ وَذَيْتٍ^(٤) ، ويأخذ مال الله ، ويقول لا إثمَ عَلَيَّ فيه ، كأنما أُعْطِيَ ثْرَانَهُ من أبيه . كيف ؟ إنما هو مال الله ، أفاءه علينا بأسيافنا ورماحنا ، قاتلوا : عبَادَ اللَّهِ : القومَ الظالمين . الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا تأخذُكم فيهم لومةُ لائم . إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ، يُفْسِدُوا عَلَيْكُمْ دينكم ودينياًكم . وهم من قد عرفتم وَجَرَّبْتُمْ . والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شراً ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠ ؛ شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٥)

٢٤٤ - خطبة هاشم بن عتبة المرقال

وَشَدَّ هَاشِمُ بنُ عُبَيْبَةَ المِرْقَالِ^(٥) فى عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً ،

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ؛ قتل أبوه العاص يوم بدر كافراً ؛ قتله على بن أبي طالب ؛ وقد استعمل عثمان بن عفان سميداً على الكوفة بعد الوليد بن عتبة ابن أبى معيط ، وولاه معاوية فى خلافته المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان بن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزله . (٢) هو الوليد بن عتبة بن أبى معيط أبان بن أبى عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه (أمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس) وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، ثم عزله حين اتهم بشرب الخمر ، واستعمل بعده سعيد بن العاص . (٣) هو عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، استعمله عثمان على البصرة بعد أبى موسى الأشعري ، وولاه أيضاً بلاد فارس بعد عثمان بن أبى العاص ، ولم يزل والياً على البصرة إلى أن قتل عثمان ، وقد وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين . (٤) ذيت وذيت مثله الآخر : أى كيت وكيت . (٥) هو هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو ابن أخى سعد بن أبى وقاص ، واقب بالمرقال لأن علياً رضى الله عنه أعطاه الراية بصفين ، فكان يرقل بها أى يسرع ، وهو الذى افتتح جلولاء من بلاد الفرس ، وكانت جلولاء تسمى فتح الفتح ، وفقت عينه يوم اليرموك بالشام ، وقتل فى وقعة صفين ، قطعت رجله يومئذ ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك .

فليس من وجهٍ يَجْمَلُ عليه ، إلا صَبَرَ له ، وقَاتَلَ فيه قتالاً شديداً . فقال لأصحابه :
« لا يَهْوُلَنَّكُمْ ماترُونَ من صَبْرِهِمْ . فوالله ماترُونَ فيهِم إلا حَمِيَّةَ العَرَبِ ، وصَبْرَهَا
تحت رَايَاتِهَا ، وعندَ مَرَاكِزِهَا ، وإِنَّهُمْ لَعَلَى الضَّلَالِ ، وإِنَّكُمْ لَعَلَى الحَقِّ ، يَقُومُ اصْبِرُوا
وصَابِرُوا واجْتَمِعُوا ، وامشُوا بنا إلى عدونا ، عَلَى تُوَدَّةٍ رُوَيْدًا ، ثم اثْبِتُوا وتَنَاصَرُوا ،
واذْكُرُوا اللهَ ، ولا يَسْأَلُ رَجُلٌ أَخَاهُ ، ولا تُكْثِرُوا الِاتِّفَاتِ ، واصْمُدُوا^(١) صَمَدَهُمْ ،
وجَاهِدُوا مُحْتَسِبِينَ ، حتى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وبَيْنَهُمْ وهو خَيْرُ الحَاكِمِينَ . »

(تاريخ الطبري ٦ : ٢٣)

٢٤٥ — خطبة عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر يوم صفين ، فقال :

« انهبوا معي : عبادَ الله : إلى قوم يزعمون أنهم يطلبون بدمِ ظالمٍ ، إنما قتله
الصلحون المنكرون للعدوان ، الآمرون بالإحسان ، فقال هؤلاء الذين لا يباليون إذا سلمت
لهم دنياهم ، ولودرس^(٢) هذا الدين ، لم تقتلتموه ؟ فقلنا : لأحدائِهِ ، فقالوا : إنه لم
يُحْدِثْ شيئاً ، وذلك لأنه مكَّهم من الدنيا ، فهم يأكلونها ويرعونها ، ولا يباليون
لو أنهدمت الجبال ، والله ما أظنهم يطلبون بدم ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا ، فاستحلَّوها
واستتمَّروا^(٣) ، واعلموا أن صاحب الحق لو وليهم لحال بينهم وبين ما يأكلون
ويرعون منها ، إن القوم لم يكن لهم سابقة في الإسلام ، يستحقون بها الطاعة والولاية ،
فخدعوا أتباعهم بأن قالوا : قُتِلَ إمامنا مظلوماً : ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً ، تلك

(١) أي اقصدوا جهنم . (٢) احمى . (٣) استمرأ الطعام : وجده مريثاً أي هنيئاً

مكيدة قد بلغوا بها ما ترَوْن ، ولولاها ما تابهم من الناس رجلٌ ، اللهم إنْ تَنْصُرْنَا ،
فطالما نَصَرْتَ ، وأن تجعل لهم الأمر فادَّخِرْ لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٢١ والكامل لابن الأثير ٣ : ١٢٣)

٢٤٦ - خطبة الأشعث بن قيس

وخطب الأشعث بن قيس أصحابه من كنفدة ليلة الهرير بصفين فقال :

« الحمد لله أحده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأستنصره وأستغفره ،
وأستجيره ، وأستهديه وأستشيره ، وأستشهد به ، فإنه من هداه الله فلا مضل له ، ومن
يضل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله ثم قال :

قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني فيه من
العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط ،
ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا نحن إن توافقنا غداً إنه لقنيت العرب ، وضيقت الحرّمات ،
أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحرب ، ولكني رجل مسن أخاف على النساء
والذراري غداً إذا فنينا .

اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل ، وما توفيتي إلا بالله ،
عليه توكلت وإليه أنيب ، والرأي يخطئ ويصيب ، وإذا قضى الله أمراً أمضاه على
ما أحب العباد أو كرهوا .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث فأغتنمها وبنى عليها تدييره .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٨٥)

٢٤٧ - خطبة الأشتر النخعي

وقام الأشتر يخطب الناس بِقُنَاصِرِينَ ، وهو يومئذ على فرس آدمٍ مثل حَلَكٍ ^(١)
الغراب ، فقال :

« الحمدُ لله الذي خلقَ السَّمَوَاتِ العُلَى ، الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوَى ، له ما في
السَّمَوَاتِ وما في الأَرْضِ وما بينهما وما تحت الثَّرَى ، أحده على حَسَنِ البَلَاءِ ، وتظاهر
النَّعْمَاءِ ، حمداً كثيراً ، بُكْرَةً وأصيلاً ، من هداهُ اللهُ فقد اهتدى ، ومن يُضِلُّ فقد
غوى ، أرسل محمداً بالصواب والهدى ، فأظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون ،
صلى الله عليه وآله .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر ، أن ساقطنا المقاديرُ إلى أهل هذه البلدة من
الأرض ، فَلَقَّتْ بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه وَمَنَّهُ وَفَضْلِهِ ، قريرةٌ
أعيننا ، طيبةٌ أنفسنا ، نرجو بقتالهم حُسْنَ الثواب ، والأمن من العقاب ، معنا ابن عم
نبينا ، وسيف من سيوف الله ، على بن أبي طالب ، صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لم يسبقه إلى الصلاة ذَكَرَ ، حتى كان شيخاً لم يكن له صَبْوَةٌ ^(٢) ، ولا نَبْوَةٌ ^(٣) ،
ولا هَفْوَةٌ ، ولا سَقَطَةٌ ، فقيهٌ في دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأيٍ أصيل ، وَصَبْرٍ
جميل ، وَعَفَافٍ قديم ، فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجد ، واعلموا أنكم على الحق ، وأن
القوم على الباطل ، إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدرين قريبٌ من مائة بدرى ، سوى
مَنْ حَوْلَكُمْ من أصحاب محمد ، أكثر ما معكم راياتٌ قد كانت مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) الحلك : شدة السواد ، وفي الأصل : « حثل » وهو تحريف • (٢) الصبوة : جهلة الفتوة

(٣) نبا السهم عن الهدف : قصر ولم يصبه ، والمراد أنه لا يعرف عنه تقصير في الدين ولا وهن •

فمن يَشْكُ في قتال هؤلاء؟ إلا مَيَّت القلب ، أنتم على إحدى الحسنيين ، إما الفتح ، وإما الشهادة ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه ، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه ، وأستغفر الله لي ولكم . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٤) .

٢٤٨ - خطبة الأشتر في المهزمين من الميمنة

ولما هزمت ميمنة العراق ، قال له عليّ : يا مالك ، قال : لبيك ، قال : أنت هؤلاء القوم قتل لهم : « أين فراركم من الموت الذي لن تُعجزوه ، إلى الحياة التي لن تبقى لكم » فضى فاستقبل الناس مهزمين ، فقال لهم هذه الكلمات ، وقال : إلى أيها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، أنا مالك بن الحارث ، ثم ظنّ أنه بالأشتر أعرف في الناس ، فقال : أنا الأشتر ، إلى أيها الناس ، فأقبلت إليه طائفة ، وذهبت عنه طائفة ، فنادى : أيها الناس ، عَضَضْتُمْ بِهِنَّ^(١) آبائكم ، ما أتبع ما قاتلتم منذ اليوم ! أيها الناس : أخلصوا إلى مدحج^(٢) ، فأقبلت إليه مدحج فقال :

« عَضَضْتُمْ بِصُتْمٍ^(٣) الجنادل ، ما أرضيتم ربكم ، ولا نصحتم له في عدوكم ، وكيف بذلك وأنتم أبناء الحروب ، وأصحاب الغارات ، وفتيان الصّباح^(٤) ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ، ومدحج الطعمان ، الذين لم يكونوا يُسبّون بشأهم ، ولا تطلّ دماؤهم ، ولا يُعرفون في موطنٍ يخسف^(٥) ، وأنتم حدّ أهل مصركم ، وأعزّ حتى في قومكم ، وما تفعلوا في هذا اليوم ، فإنه مأثور بعد اليوم ، فاتقوا مأثور الأحاديث في غد ، وأصدّقوا عدوكم اللقاء ، فإن الله مع الصادقين ، والذي نفس مالك بيده ما من هؤلاء (وأشأر بيده

(١) الهن : اسم يكنى به عن الفرج . (٢) كان الأشتر من النخع (بالتحريك) ، وهي قبيلة

كبيرة من مدحج باليمن . (٣) الصتم : جمع صتمة (كفرصة) ، وهي الصخرة الصلبة كالصتيمة .

(٤) الغارة . (٥) الخسف : الذل .

إلى أهل الشام) رجلٌ على مثال جناح بمَوْضِعٍ من محمد صلى الله عليه وسلم ، أنتم ما أحسنتم الفِرَاع^(١) ، اجلُّوا سواد وجهي ، يرجع في وجهي دمي ، عليكم بهذا السواد الأعظم ، فإن الله عزَّ وجلَّ لو قد فضَّه ، تبعه من بجانبيه كما يتبع مؤخر السبيل مُقدِّمه .
قالوا خذ بنا حيث أحببت .

(تاريخ الطبري ٦ : ١١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧)

٢٤٩ - خطبة أخرى له فيهم

وروي أنه لما اجتمع إليه عظيم من كان انهزم عن الميمنة حرَّضهم ثم قال :

« عَضُّوا عَلَى النَّوْاجِدِ مِنَ الْأَضْرَاسِ ، وَاسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ ، وَشَدُّوا عَلَيْهِمْ شِدَّةَ قَوْمِ مَوْتورِينَ^(٢) ، ثَارًا بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ ، قَدْ وَطَنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ ، كَيْلًا يُسَبِّقُوا بِوَتْرٍ ، وَلَا يُلْحَقُوا فِي الدُّنْيَا عَارًا ، وَإِيمُ اللَّهِ مَا وَتَرَ قَوْمٌ قَطُّ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُوتَرُوا دِينَهُمْ ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يِقَاتِلُونَكُمْ إِلَّا عَنْ دِينِكُمْ ، لِيُمِيتُوا السُّنَّةَ وَيُحْيُوا الْبِدْعَةَ ، وَيَعِيدُوكُمْ فِي ضَلَالَةٍ قَدْ أَخْرَجَكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا بِحَسَنِ الْبَصِيرَةِ ، فَطَيَّبُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنْفُسًا بِدِمَائِكُمْ دُونَ دِينِكُمْ ، فَإِنْ ثَوَابِكُمْ عَلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ جَنَّاتُ النَّعِيمِ وَإِنْ الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ فِيهِ السَّابُّ لِلْعِزِّ ، وَالغَلْبَةُ عَلَى الْفَيْءِ ، وَذَلِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتُ ، وَعَارُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَخَطُ اللَّهِ وَالْإِيمُ عِقَابُهُ » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧)

(١) المقارعة والمناضلة . (٢) وتره : إذا أصابه وتر ، وهو الثار .

٢٥٠ - خطبة عليّ فيهم وقد عادوا إلى مواقفهم

ولما رأى الإمام كرم الله وجهه ميمنته قد عادت إلى مواقفها ومصافئها ، وكشفت من بيازئها من عدوها ، حتى صار يوم في مواقفهم ومرا كرمهم ، أقبل حتى انتهى إليهم فقال :

« إني قد رأيت جَوَلتكم وانحيازكم عن صفوفكم ، يَحُوْزكم الطُّغَاةُ الجُفَاةُ ، وأعرابُ أهل الشام ، وأنتم لهَامِيمٌ ^(١) العرب ، والسَّنَامُ الأعظم ، ومُحَارُّ الليل بتلاوة القرآن ، وأهل دعوة الحق إذضل الخاطئون ، فلولا إقبالكم بعد إيدباركم ، وكركم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحفِ دُبْرُهُ ، وكنتم من الهالكين ، ولكن هَوْنٌ وَجَدِي ، وشقَى بعضَ أحاحٍ ^(٢) نفسى ، أئى رأيتكم بأخْرَةَ ^(٣) حَزْتُموم كما حازوكم ، وأزلتُموم عن مصافِّكم كما أزالوكم ، تَحْسُونَهُمْ ^(٤) بالسيوف تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطرودة الهيم ^(٥) ، فالآن فاصبروا نزلت عليكم السكينة ، وثبتتكم الله عزَّ وجلَّ باليقين ، وليعلم المهزوم أنه مُسَخِّطُ رَبِّهِ ، ومُؤَبِّقٌ ^(٦) نفسه ، إن في الفرار مَوْجِدَةً ^(٧) الله عزَّ وجلَّ عليه ، وألذَّ اللّازم له ، والعارَ الباقى ، واعتصارَ النىء من يده ، وفساد العيش عليه ، وإن الفارَّ لا يزيد الفرار في عمره ، ولا يُرْضَى ربه ، فموت المرء مُحَقَّقًا قبل إتيان هذه الخصال ، خير من الرضا بالتلذُّسِ بها والإصرار عليه . »

(تاريخ الطبرى ١٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٨)

-
- (١) اللهم ، والهيم (بكسر اللام والميم فيهما) : السابق الجواد من الحيل والناس .
(٢) الأحاح : الغيظ وحرارة الغم . (٣) يقال جاء أخرة وأخرة محركتين وقد يضم أولهما أى أخرا . (٤) من الحس بالفتح : وهو القتل والاستئصال . (٥) العطاش : جمع أهيم وهيماء (والهيام بالضم : أشد العطش) . (٦) مهلك . (٧) أى غضبه .

٢٥١ - خطبة خالد بن معمر

ولما ولّى الإمام خالد بن معمر راية ربيعة ، وحمل عليها أهل الشام حملة شديدة ، وانهزم ناس من قومه ، صاح بن انهزم ، وقال يومئذ :

« يا معشر ربيعة : إن الله عز وجل قد أتى بكل رجل منكم من مَنبِئِهِ ، وَمَسْقَطِ رأسه ، فجمعكم في هذا المكان جمعا لم يجمعكم مثله مُنذُ نَشَرَ كُمْ في الأرض ، فإن تمسِكُوا أيديكم وَتَنَكَّلُوا^(١) عن عدوكم ، وتزولوا عن مَصَاقِّكُمْ ، لا يرض الله فعلكم ولا تَمَدُّمُوا من الناس معيِّرا يقول : فضحت ربيعةُ الذِّمار^(٢) ، وَحَاصَتْ^(٣) عن القتال ، وَأُنِيتَ مِنْ قِبَلِهَا العربُ ، فإياكم أن تتشامم بكم العرب والمسلمون اليوم ، وإياكم أن تمضوا مُقْبِلِينَ مُقَدِّمِينَ ، وَتَصْبِرُوا محتسبين ، فإن الإقدام لكم عادة ، والصبر منكم سَجِيَّةٌ ، واصبروا ونيبكم أن تؤجروا ، فإن ثواب من نوى ما عند الله شرفُ الدنيا وكرامة الآخرة ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٩٦)

٢٥٢ - خطبة عقبة بن حديد النمرى

وقال عُقْبَةُ بن حديد النمرى يوم صفين لأهله وأصحابه :

« ألا إن مرعى الدنيا قد أصبح هَشِيماً^(٤) ، وأصبح شجرها خَضِيْداً^(٥) ، وجديدها سَلْلاً^(٦) ، وحلؤها مرّاً المذاق ، ألا وإني أنبئكم نبأ امرئ صادق : إني قد سئمت الدنيا

(١) أى تنكصوا وتجنبوا . (٢) ماتجب حمايته وحفظه . (٣) هربت وفرت .

(٤) الهشيم من النبات : الياض المنكسر . (٥) مقطوعا ، خضده : كضربه ، فهو خضيد ومخضود .

(٦) السمل : الخلق من الثياب .

وعَزَفَتْ^(١) نفسى عنها ، وقد كنت أتمنى الشهادة ، وأتعرض لها فى كل جيش وغارة ، فأبى الله عز وجل إلا أن يُبْلِغنى هذا اليوم ، إلا وإنى متعرض لها من ساعتى هذه ، قد طَمَعْتُ ألا اِخْرَمَهَا ، فما تنتظرون ، عبادَ الله ، بجهاد من عادى الله ، أخوفا من الموت القادم عليكم ، الذاهب بأنفسكم لا محالة ؟ أو مِنْ ضربة كَفَّ بالسيف ؟ أنستبدلون الدنيا بالنظر فى وجه الله عزَّ وجلَّ ، ومرافقةِ النبيين والصدِّيقين ، والشهداء والصالحين فى دار القرار ؟ ما هذا بالرأى السديد ا .

ثم مضى فقال : « يا إخوتى إنى قد بعث هذه الدار بالتى أمامها ، وهذا وجهى إليها . لا تُبْرِحْ وجوهُكُمْ ، ولا يقطع الله عز وجل رجاءكم » فتبعه إخوته وقالوا : « لا نطلب رزق الدنيا بعدك ، فقَبِّحَ اللهُ العيش بعدك : اللهم إنا نحتسب أنفسنا عندك » فاستقدموا فقاتلوا حتى قتلوا . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٥ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٩٠)

٢٥٣ — خطبة خنثر بن عبيدة بن خالد

وكان من « مُحَارِبِ » رجل يقال له خَنَثَرُ بن عبيدة بن خالد ، وكان من أشجع الناس ، فلما اقتتل الناس يوم صفين ، جعل يرى أصحابه منهزمين ، فأخذ ينادى :

« يا معشر قيس ، أطاعةُ الشيطانِ آثَرٌ^(٢) عندكم من طاعة الرحمن ؟ ألا إن الفرار فيه معصية الله سبحانه وسُخْطُهُ ، وإن الصبر فيه طاعةُ الله عزَّ وجلَّ ورضوانه ، أفتختارون سُخْطَ اللهِ تعالى على رضوانه ، ومعصيتهُ على طاعتهُ ؟ ألا إنما الراحة بعد الموت لمن مات محاسباً نفسه ، ثم قال :

(١) انصرفت . (٢) أفضل .

لَا وَالَّتِ نَفْسُ امْرِئٍ وَتَلَى اللَّهُبُ^(١) أَنَا الَّذِي لَا يَنْثِقِي وَلَا يَغْفِرُ
وَلَا يُرَى مَعَ الْمَعَاذِرِ الْغُدْرُ^(٢)

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٩٥)

٢٥٤ - تحريض معاوية أيضا

وخطب معاوية الناس بصفين فقال :

« الحمد لله الذي دنا في علوه ، وعلا في دنوه ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق كل ذي منظر ، هو الأول والآخِر ، والظاهر والباطن ، يقضى فيفصل ، ويقدر فيغفر ، ويفعل ما يشاء ، إذا أراد أمرا أمضاه ، وإذا عزم على شيء قضاه ، لا يؤامر^(٣) أحدا فيما يملك ، ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون ، والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا وكرهنا . »

وقد كان فيما قضاه الله أن ساقنتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ، ولقت بيننا وبين أهل العراق ، فنحن من الله بمنظر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » انظروا يأهل الشام ، إنكم غداً تلقون أهل العراق ، فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بقوا عليكم ، فأقبأوا من بلادهم حتى نزلوا في بيئتكم^(٤) ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتمك وصهر نبيك ، وإما أن تكونوا قوماً تدبون عن نساءكم وأبنائكم ، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا وإسألواكم النصر ، وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين . »

(شرح ابن أبي الحديد م ١١ ص ٤٩٧)

(١) وأل : طلب النجاة ، وخلص . (٢) المعاذير : جمع معزال بكسر الميم ، وهو الضعيف الأحمق (ومن لا سلاح معه ، ومن يعتزل أهل الميسر لوما) ، والغدر : جمع غدور مبالغة من غادر . (٣) أي لا يشاور . (٤) ساحتكم .

٢٥٥ - ماخاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد

في وقعة صفين

وقف النعمان بن بشير الأنصاري بين الصفين بصفين فقال :

« يَا قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ، أَمَا أَنْصَفَكُمْ مِنْ دَعَاكُمْ إِلَى مَارِضَى لِنَفْسِهِ ؟ إِنْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَخْطَأْتُمْ فِي خِذْلِ عُمَانَ يَوْمَ الدَّارِ ، وَقَتَلْتُمْ أَنْصَارَهُ يَوْمَ الْجَلِ ، وَإِقْحَامَكُمْ ^(١) عَلَى أَهْلِ الشَّامِ بِصَفِينِ ، فَلَوْ كَفَيْتُمْ إِذْ خَذَلْتُمْ عُمَانَ خَذَلْتُمْ عَلِيًّا ، كَانَ هَذَا بَهَذَا ، وَلَكِنْكُمْ خَذَلْتُمْ حَقًّا ، وَنَصَرْتُمْ بَاطِلًا ، ثُمَّ لَمْ تَرْضَوْا أَنْ تَكُونُوا كَالنَّاسِ ، شَعَلْتُمْ ^(٢) الْحَرْبَ ، وَدَعَوْتُمْ إِلَى الْبِرَازِ ، فَقَدْ وَاللَّهِ وَجَدْتُمْ رِجَالَ الْحَرْبِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ سَرِيعًا إِلَى بِرَازِكُمْ ، غَيْرَ أَنْكَاسٍ ^(٣) عَنْ حَرْبِكُمْ ؛ ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ بِعَلَى أَمْرٌ قَطُّ إِلَّا هَوَّيْتُمْ عَلَيْهِ الْمِصْبِيَةَ ، وَوَعَدْتُمُوهُ الظَّفَرَ ، وَقَدْ وَاللَّهِ أَخْلَفْتُمُوهُ ، وَهَانَ عَلَيْنَا بِأَسْكُمْ ، وَمَا كُنْتُمْ لِتُخْلُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ مِنْ شِدَّتِكُمْ فِي الْحَرْبِ ، وَقَدَرْتُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ أَذِلَّاءَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ ، لَا يَرَوْنَ حَرْبَكُمْ شَيْئًا ، وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ عِدْدًا وَمَدَدًا ، وَقَدْ وَاللَّهِ كَانُوا بِالقِيْلَةِ ، فَكَيْفَ لَوْ كَانُوا مِثْلَكُمْ فِي السَّكْرَةِ ، وَاللَّهِ لَا تَزَالُونَ أَذِلَّاءَ فِي الْحَرْبِ بِمَدَاهَا أَبَدًا ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَكُمْ أَهْلُ الشَّامِ ، وَقَدْ أَخَذْتَ الْحَرْبَ مِنَّا وَمِنْكُمْ مَا قَدَرْنَا بِكُمْ ، وَنَحْنُ أَحْسَنُ بَقِيَّةً ، وَأَقْرَبُ إِلَى الظَّفْرِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْبَقِيَّةِ » فَضَحَكَ قَيْسٌ وَقَالَ :

(١) قحم في الأمر : رمى بنفسه فيه من غير روية ، وأقحمت الفرس النهر : أدخلته فيه فانقحمت واقتحمت . (٢) شعل النار ، وأشعلها : ألهبها . (٣) أنكاس : جمع تكس (بالكسر) ، وهو الضعيف المقصر .

٢٥٦ - جواب قيس بن سعد

« والله ما كنت أراك يا نعمان تجترى على هذا المقام ، أما المُنْصَفُ الحقُّ فلا ينصح أحاه منْ غَشِّ نفسه ، وأنت والله الغاش لنفسه ، المبطل فيما نَصَحَ غيره ، أما ذكر عثمان فإن كان الإيجاز يكفيك فخذهُ ، قَتَلَ عَمَانَ من لَسْتُ خيراً منه ، وخذله من هو خير منك . وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النَّكث . وأما معاوية ، فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلهم الأنصار . وأما قولك إنا لسنا كالناس ، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله ، تلقى السيوف بوجوهنا ، والرماح بنحورنا ، حتى جاء الحقُّ ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً ، أو يمانياً مُسْتَدْرِجاً^(١) ، وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وَصُؤَيْحِبِكَ^(٢) ، ولستما والله بدرين ولا عَقَبَيْنِ^(٣) ، ولا لكما سابقة في الإسلام ، ولا آية في القرآن . »

(الإمامة والسياسة ١ : ٨٣)

(١) استدرجه : خدعه وأذناه . (٢) أراه يعنى به عمرو بن العاص ، وقد كان أكبر أعوان

معاوية ونصرائه ، عاقده على نصرته ، على أن يجعل له مصر طعمة . (٣) أى لا يمن حضروا وقعة بدر

مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يمن بايعوه في العقبه .

خطب الشيعة في وقعة صفين

٢٥٧ - خطبة عكرشة بنت الأترش

دخلت عكرشة بنت الأترش على معاوية متوكئة على عكَّاز ، فسألت عليه بالخلافة ثم جلست ، فقال لها معاوية : الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت نعم ، إذ لا على شيء ، قال : ألسنتِ المقلدة حائل السيوف بصفين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

« أيها الناس : عليكم أنفسكم لا يضُرُّكم من ضلَّ إذا هتديتم ، إن الجنة لا يَرَحُلُ من أوطانها ، ولا يَهْرَم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهِرين^(١) بالصبر على طلب حقهم ، إن معاوية دَلَفَ^(٢) إليكم بعجم العرب ، غُلِفَ^(٣) القلوب ، لا يَفْقَهُونَ الإيمان ، ولا يدرون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبَّوه ، فألَّهَ اللهُ عبادَ الله في دين الله ، إياكم والتواكل فإن ذلك يَنْقُضُ عُرَا الإسلام ، ويُطْفِئُ نور الحق ، هذه بَدْر الصغرى ، وَالْعَقَبَةُ^(٤) الأخرى ، يا معشر المهاجرين والأنصار ،

(١) مستبينين . (٢) دلف : مشى مشى المقيد ، وفي التعبير به إيماء إلى ضعف معاوية ووهن قوته .
(٣) جمع أغلف وقلب أغلف كأنما غشى بغلاف فهو لا يعي . (٤) تشير إلى بيعة العقبة (الأولى والثانية) حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة على نصرته : أي إن هذه الموقعة دفاع عن الإسلام ونصرة له كذلك .

امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكانى بكم غدا ، وقد لقيتم أهل الشام
كالحجر الناهقة ، تصقع^(١) صقع البعير .

فكانى أراك على عصاك هذه ، وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون هذه عكرشة
بنت الأطرش بن راحة ، فإن كدت لتقلين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله
قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ » الآية . وإن اللبيب
إذا كره أمراً لا يجب إعادته ، قال صدقت ، فاذ كرى حاجتك ، قالت : إنه كانت
صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا ، فتردّ على فقرائنا ، وإنا قد فقدنا ذلك ، فما يُجبرّنا كسير
ولا يُنمّش لنا فقير ، فإن كان ذلك عن رأيك ، فنلك تنبه من الغفلة ، وراجع التوبة ،
وإن كان عن غير رأيك ، فما مثلك من استعمان بالحوّنة ، ولا استعمل الظلمة ، قال معاوية :
يا هذه إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور تنبثق^(٢) ، وبحور تنفهِق^(٣) ، قالت :
ياسبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً ، فجعل فيه ضرراً على غيرنا ، وهو علام الغيوب .
قال معاوية : يا أهل العراق ، نبهكم على بن أبى طالب ، فلم تُطاقوا ، ثم أمر بردّ صدقاتهم
فيهم ، وإنصافهم .

(المقد. الفريد ٢ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٣)

٢٥٨ - خطبة أم الخير بنت الحريش

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سُرّاقة
البارقي برحلهما ، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيراً ، وبالشر شراً بقولها فيه ، فلما ورد عليه

(١) الصقع : رفع الصوت ، صقع بصوته : رفعه . وفى صبح الأعشى تصقع قصح البعير . من قصح

الجلمل بجرته ردها إلى جوفه . (٢) انبثق : انفجر ، وانبثق السيل عليهم : أقبل ولم يحتسبوه .

(٣) تنسح .

كتابه ، ركب إليها ، فأقرأها كتابه ، فقالت : أما أنا فغير زائنة عن طاعة ، ولا معتلة
بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين ، لأمرور محتاج في صدرى . فلما شيعها ،
وأراد مفارقتها ، قال لها : يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إلى^(١) أنه مجازينى بقولك في^(٢)
بالخير خيراً ، وبالشرّ شرّاً ، فالى عندك ؟ قالت : يا هذا ، لا يُطمعك برك بى ، أن أسرك
بباطل ، ولا يؤيسك معرفتى بك ، أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير ، حتى
قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحرم ، ثم أدخلها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه ، فقالت :
السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ؟
بحقّ ما دعوتنى بهذا الاسم ؟ قالت : مه يا أمير المؤمنين ، فإن بدية^(٣) السلطان
مدحّصة^(٤) لما يجب علمه ، ولكل أحل كتاب ، قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة
وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية ، حتى صرت إليك ،
فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق . قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم . قالت
يا أمير المؤمنين : يعيدك الله من دحّض^(٥) المقال ، وما تُردى عاقبته ، قال : ليس هذا
أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قُتل عمّار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله زورته^(٦)
قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة ، فإن أحببت أن
أحدث لك مقلا غير ذلك فملت ، فالتفت معاوية إلى جلسائه ، فقال : أياكم يحفظ
كلامها ؟ فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين . قال : هات ؟ قال : كأتى
بها بين بردين زبيريين^(٧) كشيقي النسبج ، وهى على جمل أزمك^(٨) ، وببيدها سوط
منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدر^(٩) في شقشقته تقول :

(١) البدية : أول كل شيء وما يفجأ منه . (٢) المدحّصة : المزلّة . (٣) دحضت الحجة
دحضا من باب نفع : بطلت ورجله زلقت ، ومكان دحض زلق . (٤) زور الشيء : حسنه وقومه وهذبه .
(٥) الزبير : ما يعلو الثوب الجديد كالذى تراه في القטיפيّة . وفى رواية أخرى : عليها برد زيدي نسبة
إلى زييد (يفتح الزاى) بلد باليمن . (٦) من الرمكة : بالضم ، وهى لون الرماد . (٧) يصوت .
والشقشة : شيء كالرثة يخرج للبعير من فيه إذا هاج .

« يا أيها الناس : اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبيّن السبيل ، ورفع العلم ، ولم يدعكم في عمياء مُدْهِمَةً ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله جلّ ثناؤه يقول : (وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، ويديك يارب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقي ، والصديق الأكبر ، إنها إْحَنٌ ^(١) بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أُحْدِيَةٌ ^(٢) وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك ناراً بنى عبد شمس ، ثم قالت : (قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ يُيْتَهُونَ) صبراً يامعشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنني بكم غداً ، وقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة فرّت من قَسْوَرَةٍ ^(٣) ، لا تدرى أين يُسَلِّكُ بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين ، حين تحمل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص ، إنه من ضلّ والله عن الحق وقع في الباطل . ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسمّوا لها ؛ فالله الله أيها الناس ، قبل أن تَبْطُلَ الحقوق ، وتعطلّ الحدود ، وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصِهْرِهِ ، وأبي سِبْطِيهِ ، خُلِقَ من طينته ، وتفرع من نَبْتِهِ ^(٤) ،

(١) جمع إحنة : وهي الضغينة والحقد ، ترمى إلى ما كان من قتل على يوم بدر أخا معاوية (حنظلة ابن أبي سفيان) وجده لأمه (عتبة بن ربيعة) وخاله (الوليد بن عتبة) . (٢) تشير إلى ما حدث من هتد زوج أبي سفيان (أم معاوية) في غزوة أحد ، إذ بقرت بطن حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم بعد قتله وأخذت كبده لتأكلها فلا كتبها ثم أرسلتها . (٣) الأسد والرماة من الصيادين ، والمواحد قصور . (٤) النبتة في الأصل واحدة النبع : شجر القسي والسهام .

وجعله باب دينه ، وأبان بينغضه المنافقين . وهاهو ذا مُتَلَقُّ الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى
والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزى بدر ،
وأفنى أهل أُحُدٍ ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازف ؛
فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ، وَرِدَّةً وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ؛
قد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق . والسلام عليكم
ورحمة الله .

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلناك ما حرّجت^(١)
في ذلك . قالت : والله ما يسوءني يا بن هند أن يجرى قتلى على يدي من يُسعدني الله بشقائه .
قال : هيهات يا كثيرة الفضول ! ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله ؟ قالت : وما عسيت
أن أقول في عثمان ؟ استخلفه الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . قال معاوية :
يا أم الخير هذا ثناؤك الذي تُنئين ؟ قالت لكن الله يشهد ، وكفى بالله شهيداً ، ما أردت
بعثمان نقصاً . ولقد كان سبباً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة غداً . قال : فما تقولين في
طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول في طلحة ؟ اغتيل من مأمنه ، وأتى من
حيث لم يحذر . وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال : فما تقولين في ائزير ؟
قالت : وما أقول في ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه^(٢) . وقد شهد له
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة . وأنا أسألك بحق الله يامعاوية (فإن قریشاً تحدثت
أنك أحلها) أن تعفيني من هذه المسائل ، وتسالني عما شئت من غيرها . قال : نعم
وَنِعْمَةٌ^(٣) عَيْنٍ ، قد أعفيتك منها ، ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة .

(المقد الفريد ١ : ١٣٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤١ . وصحيح الأعمش ١ : ٢٤٨)

(١) أئمت . (٢) الخواري : الناصر ، أو ناصر الأنبياء . (٣) أى أفضل ذلك إنعاماً لعينك

٢٥٩ - خطبة الزرقاء بنت عدى الهمدانية

وَذُكِرَتْ الزَّرْقَاءُ بِنْتُ عَدِيِّ بْنِ قَيْسِ الْهَمْدَانِيَّةِ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ يَوْمًا ، فَقَالَ لِحِوَالَتَيْهِ :
أَيُّكُمْ يَحْفَظُ كَلَامَهَا ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ : نَحْنُ نَحْفَظُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : فَأَشِيرُوا عَلَيَّ فِي
أَسْرَاهَا ، فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِقِتْلَانِهَا ، فَقَالَ : بئس الرأي ، أَيُّحِبُّنِي بِمَنْثَلِي أَنْ يَقْتُلَ امْرَأَةً أَتَمَّ كَتَبَ إِلَى
عَامِلِهِ بِالْكُوفَةِ أَنْ يُوَفِّدَهَا إِلَيْهِ مَعَ ثِقَةٍ مِنْ ذَوِي مَحَارِمِهَا ، وَعِدَّةٍ مِنْ فِرْسَانَ قَوْمِهَا ، وَأَنْ يَهْدِيَهَا
لَهَا وَطَاءً ^(١) لَيْتًا ، وَيَسْتُرَهَا بِسِتْرِ خَصِيفٍ ^(٢) ، وَيُوسِعَ لَهَا فِي النِّفْقَةِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا ، فَأَقْرَأَهَا
الْكِتَابَ ، فَقَالَتْ : إِنْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ جَعَلَ الْخِيَارَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا آتِيهِ ، وَإِنْ كَانَ حَتْمًا فَالطَّاعَةَ
أَوْلَى فَعَمَلُهَا وَأَحْسَنُ جِهَازِهَا ، عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ . فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَى مَعَاوِيَةَ . قَالَ : مَرْحَبًا بِكَ وَأَهْلًا !
قَدِمْتَ خَيْرَ مَقْدَمٍ قَدِمَهُ وَافِدٌ ، كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَدَامَ اللَّهُ لَكَ النِّعْمَةَ .
قَالَ : كَيْفَ كُنْتَ فِي مَسِيرِكَ ؟ قَالَتْ : رَبِيبَةً بَيْتٍ ، أَوْ طِفْلًا مُتَّهَدًا . قَالَ : بِذَلِكَ أَمْرُنَاهُمْ ،
أَتَدْرِينَ فِيمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : وَأَنْتَى لِي بَعْلٌ مَالِمٌ أَعْلَمُ ؟ قَالَ : أَلَسْتُ الرَّائِكَةَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرَ ،
وَالوَاقِعَةَ بَيْنَ الصَّفِينِ بِصَفِينٍ ، تَحْضِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَتَوَقِّدِينَ الْحَرْبَ ؟ فَمَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ ؟
قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَاتَ الرَّأْسُ وَبُتِرَ الذَّنْبُ ، وَلَنْ يَعُودَ مَا ذَهَبَ ، وَالذَّهْرُ ذُو غَيْرٍ ^(٣)
وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ ، وَالْأَمْرُ يَحْدُثُ بَعْدَهُ الْأَمْرُ ، قَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : أَتَحْفَظِينَ كَلَامَكَ يَوْمَئِذٍ ؟
قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ لَا أَحْفَظُهُ ، وَلَقَدْ أُنْسِيْتَهُ . قَالَ : لَكِنِّي أَحْفَظُهُ ، اللَّهُ أَبُوكَ حِينَ تَقُولِينَ :
« أَهِيَ النَّاسُ : ارْعَوْا وَارْجِعُوا ، إِنَّكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي فِتْنَةٍ غَشَّتْكُمْ جَلَابِيبَ الظُّلَمِ ،
وَجَارَتْ بِكُمْ عَنِ الْقَصْدِ الْمَحَجَّةِ ^(٤) ، فَيَا هِيَ فِتْنَةُ عَمِيَاءَ سَمَاءَ بِكَيْءٍ لَا تَسْمَعُ لِنَاعِقِهَا ، وَلَا تَنْسَاقُ

(١) الفراش . (٢) أصله من خصف النعل يخصفها كضرب : ظاهر بعضها على بعض وخرزها وهي

نعل خصيف ، وكل ما طورق بعضه على بعض فقد خصف . (٣) أحداث ، جمع غيره بالكسر أو مفرد .

وجمعه أغيار . (٤) جادة الطريق .

لقائدها ، إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه . أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار على العصص ، فكان قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلمة ، فلا يجهن أحد فيقول : كيف وأنى ؟ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده . والصبر خير في الأمور عواقباً :

أيها^(١) في الحرب قدماً ، غير نا كصين ، ولا متشا كسين .

ثم قال لها : والله يازرقاء لقد شررت علياً في كل دم سفكه . قالت : أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك ! فثلك بشر بخير وسراً جليسه . قال : أو يسرك ذلك ؟ قالت نعم . والله لقد سررت بالخبر ! فأنى لي بتصديق الفعل ! فضحك معاوية ، وقال : والله لو فاؤكم له بعد موته أعجب من حكم له في حياته ، اذ كرى حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً ، ومثلك أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طلبة . قال : صدقت ، وأمر لها وللاذين جاوا معها بجوائز وكسا .

(العقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٢)

(١) أيها : كلمة زجر بمعنى حسبك (وإليه بالكسر منونة وغير منونة كلمة استعادة واستنطاق) والقدم :

المضى أمام ، وهو يمشی القدم : إذا مضى في الحرب ، ورجل قدم : أى شجاع . وفي الحديث « طوبى لعبد مغبر قدم في سبيل الله » القدم : الإقدام ، أقدم على قرنه إقداماً وقنماً : تقدم عليه بجرأة صدر .

اختلاف أهل العراق في الموادعة

وذكروا أنه لما اشتد الأمر ، واستمرّ القتال ، قال رأسٌ من أهل العراق لعلي : إن هذه الحرب قدأُكلتنا ، وأذهبت الرجال ، والرأيُ الموادعةُ . وقال بعضهم : لا ، بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم عليه أمس ، وكانت الجماعة قد رضيت الموادعة ، وجنّحت إلى الصلح والمسألة ، فقام عليّ خطيباً ، فقال :

٢٦٠ - خطبة الامام عليّ كرم الله وجهه

« أيها الناس : إنه لم أزل من أسرى على ما أحب ، حتى قدّحتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وهي لعدوكم أنهلك ، وقد كنتُ بالأمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت اليوم منتهياً ، فليس لي أن أحملك على ما سكرهون . »

٢٦١ - خطبة كردوس بن هانيّ

وقام كردوس بن هانيّ ، فقال .

« إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من عليّ منذ توليناه ، وإن قتلنا لشهيد ، وإن حيّنا لفائز ، وإن عليّاً على بينة من ربه ، وما أجاب القوم إلاّ بإنصافاً ، وكلُّ مُحِقٍّ مُنصِفٌ ، فمن سلّم له نجا ، ومن خالفه هوى . »

٢٦٢ - خطبة سفيان بن ثور

وقام سفيان بن ثور، فقال :

« أيها الناس : إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله ، فردوه علينا فقاتلناهم ، وإنهم دعونا إلى كتاب الله ، فإن رددناه عليهم ، حلّ لهم منا ما حلّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله ، وإن علينا ليس بالراجع الناكس ، وهو اليوم على ما كان عليه أمس ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في الموادعة . »

٢٦٣ - خطبة حريث بن جابر

ثم قام حُرَيْثُ بن جابر فقال :

« إن علينا لو كان خِلافاً من هذا الأمر لسكان المرجع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ، وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا الأمر الذي دعاهم إليه أمس ، ولوردّه عليهم كنتم له أعيب ، ولا يلحد في هذا الأمر إلا راجع على عَقْبِيهِ ، أو مُسْتِدْرَجٍ مغرور ، وما بيننا وبين من طعن علينا إلا السيف . »

٢٦٤ - خطبة خالد بن معمر

ثم قام خالد بن معمر فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا والله ما أخرجنا هذا المقام أن يكون أحد أولى به منا ، ولكن قلنا أحب الأمور إلينا ما كُفِينَا مَثْوَنَتَهُ ، فأما إذ استغفينا ، فإننا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك القوم إليه اليوم ، إن رأيت ذلك ، وإن لم تره فرأيك أفضل . »

٢٦٥ - خطبة الحصين بن المنذر

ثم قام الحُصَيْن بن المنذر وكان أحدث القوم سنًا ، فقال :
« إِنَّمَا بُنِيَ هَذَا الدِّينَ عَلَى التَّسْلِيمِ ، فَلَا تَدْفَعُوهُ بِالْقِيَاسِ ، وَلَا تَهْدِمُوهُ بِالشُّبُهَةِ ،
وَإِنَّا وَاللَّهِ لَوْ أَنَا لَا تَقْبَلُ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا مَا نَعْرِفُ ، لِأَصْبَحَ الْحَقُّ فِي الدُّنْيَا قَلِيلًا ،
وَلَوْ تَرَكْنَا وَمَا نَهَوْنِي ، لِأَصْبَحَ الْبَاطِلُ فِي أَيْدِينَا كَثِيرًا ، وَإِن لَنَا رَاعِيًا قَدْ حَمَدْنَا
وَزَدَهُ وَصَدَّرَهُ ، وَهُوَ الْمَأْمُونُ عَلَى مَا قَالُ وَفَعَلَ ، فَإِن قَالُوا لَا . قُلْنَا لَا ، وَإِن قَالُوا نَعَمْ ،
قُلْنَا نَعَمْ » .

٢٦٦ - خطبة عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حنيف ، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عاملًا
لعلى على البصرة وله فضل ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أَتَمِّمُوا رَأْيَكُمْ ، فَقَدْ وَاللَّهِ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِالْحَدِيثِ يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ ^(١) ، وَإِنَّا لَنُرِيدُ الْقِتَالَ إِسْكَارًا لِلصَّلْحِ حَتَّى رَدَّنا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ

(١) هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو . وقصته : أنه لما كانت غزوة الحديبية (سنة ست للهجرة)
بعثت قريش من قبلها سهيل بن عمرو ليكلم الرسول صلى الله عليه وسلم في المصالحة ، وقد جرى بينهما
الصلح وكتبت صحيفته ، وكان من شروطه ، وضع الحرب عن الناس عشر سنين يكف بعضهم عن بعض على
أن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا من مع محمد لم يردوه عليه ، فبينما
رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد قد انفلت
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان المسلمون حين خرجوا لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل عليهم من ذلك أمر عظيم ،
ولما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه « بفتح التاء : ما في موضع الباب
(أى النحر) من الثياب » ثم قال : يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال صدقت ، -

صلى الله عليه وسلم ، وإن أهل الشام دعونا إلى كتاب الله اضطراراً ، فأجبتهم إليه إعداراً ،
 فلسنا والقوم سواء ، إنا والله ما عدلنا الحى بالحى ، ولا القليل بالقتيل ، ولا الشامى بالعراقى ،
 ولا معاوية بعلى ، وإنه لأمر منعه غير نافع ، وإعطاؤه غير ضائر ، وقد كَلَّتِ البصائر التى
 كنا نقاتل بها ، وقد حمل الشكُّ اليقينَ الذى كنا نشول إليه ، وذهب الحياء الذى كنا
 نمارى به ، فاستظلوا فى هذا النقي^(١) ، واسكنوا فى هذه العافية ، فإن قلتم نقاتل على ما كنا
 نقاتل عليه أمس ، فهيات هيات ذهب والله قياس أمس وجاء غد .

= فجعل يئثره بتبليبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أأرد
 إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل
 اصبر واحتمب فإن الله جاعل لك ولئن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم
 صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نقدر بهم ، ووثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى
 إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون . وإنما دم أحدهم دم كلب . ويدنى قائم السيف منه .
 قال عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به آياه فضن الرجل بآياه ونفذت القضية .

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد وكان من حبس بمكة ، فبعث
 قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير إنا قد أعطينا القوم
 ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا القدر ، وإن الله جاعل لك ولئن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا .
 فانطلق إلى قومك . قال : يارسول الله أتردى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ قال : يا أبا بصير انطلق ،
 فانطلق معهم حتى إذا كان فى بعض الطريق عدا على أحدهما فقتله وهرب الآخر ، ورجع أبو بصير إلى
 المدينة ، فقال : يارسول الله وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني ورددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم ،
 وخرج أبو بصير إلى ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون عليها إلى الشام ، وخرج المسلمون
 الذين كانوا حبسوا بمكة إليه ، وانفلت إليه أبو جندل بن سهيل ، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلا منهم
 وضيقوا على قريش ، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعواها ، حتى كتبت قريش
 إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله بأرحامها إلا آواهم ، فلا حاجة لهم بهم ، فأواهم رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ، فقدموا عليه المدينة . (١) النوى : ما كان شمسا فينسخه الظل .

٢٦٧ - خطبة عدى بن حاتم

ثم قام عدى بن حاتم فقال :

« أيها الناس : إنه والله لو غيرُ عليّ دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه ، ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان ، وفي يديه من الله سبب ، وإنه وَقَفَ عن عثمان بشبهة ، وقاتل أهل الجمل على النَّكث ، وأهل الشَّام على البغي ، فانظروا في أموركم وأمره ، فإن كان له عليكم فضل فليس لكم مثله . فاسلموا له وإلا فنازعوا عليه ، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة إنه لأعلم الناس بهما ، ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخو نبيِّ الله والرأسُ في الإسلام ، ولئن كان إلى الزهد والعبادة إنه لأظهر الناس زهداً ، وأنهمهم عبادة ، ولئن كان إلى العقول والنحائر^(١) إنه لأشدَّ الناس عقلاً ، وأكرمهم نحيزة ، ولئن كان إلى الشرف والذجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ، ولئن كان إلى الرضا لقد رضى عنه المهاجرون والأنصار في سُورى عمر رضى الله عنهم ، وبابعوه بعد عثمان ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشَّام ، فما الفضل الذى قرَّكم إلى الهدى ، وما النقص الذى قرَّبه إلى الضلال ؟ والله لو اجتمعتم جميعاً على أمر واحد ، لأتاح الله له من يقاتل لأمر ماض ، كتاب سابق . »

فاعترف أهل صفين لعدى بن حاتم بعد هذا المقام ، ورجع كل من تشب على عليّ رضى الله عنه .

(١) النحيزة : الطيعة .

٢٦٨ - خطبة عبد الله بن حجل

ثم قام عبد الله بن حجل ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إنك أمرتنا يوم الجمل بأمر مختلف ، كانت عندنا أمراً واحداً ، فقبلناها بالتسليم ، وهذه مثل تلك الأمور ، ونحن أولئك أصحابك ، وقد أكثر الناس في هذه القضية ، وإيم الله ما المُكثِرُ المُنْكَرُ بأعلم بها من المُقِلِّ المُعْتَرِفِ ، وقد أخذت الحرب بأنفسنا ، فلم يبق إلا رجاء ضعيف ، فإن تجب القوم إلى مادَعَوْكَ إليه ، فأنت أولنا إيماناً ، وآخرنا بنبي الله عهداً ، وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وقلوبنا بين جوانحنا ، وقد أعطيناك بِقِيَّتِنَا ، وَشُرْحَتِ الطَّاعَةِ صَدُورِنَا ، وَنَفَذتِ فِي جِهَادِ عَدُوِّكَ بِصِيرَتِنَا ، فأنت الوالي المطاع ، ونحن الرعية الأتباع . أنت أعلمنا بربنا ، وأقربنا بنبينا ، وخيرنا في ديننا ، وأعظمنا حقاً فينا ، فَسَدِّدْ رَأْيَكَ تَتَّبِعَكَ ، وَاسْتَخِرِ اللَّهَ تَعَالَى فِي أَمْرِكَ ، واعزم عليه برأيك ، فأنت الوالي المطاع » .

فسرّ على كرم الله وجهه بقوله ، وأثنى خيراً .

٢٦٩ - خطبة صعصعة بن صوحان

ثم قام صعصعة بن صوحان فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا سبقنا الناس إليك ، يومَ قَدُومِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ عَلَيْكَ ، فدعانا حَكِيمًا^(١) إلى نُصْرَةِ عَامِلِكِ عُمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ^(٢) فَأَجَبْنَاهُ ، فقاتل عدوك ، حتى أُصِيبَ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ قَيْسٍ عَبْدُوا اللَّهَ حَتَّى كَانَتْ أَكْفُهُمْ مِثْلَ أَكْفِ الْإِبِلِ ، وجباهم مثل

(١) هو حكيم بن حبله . (٢) كان عامل على البصرة ، وقد نشب القتال بينه وبين أصحاب

عائشة حين قدموا البصرة .

رُكِبَ المَعَزُ ، فَأسْرَ الحَي ، وَسُلِبَ القَتِيل ، فَكُنَّا أولَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُ بِلَادَنَا بِصَفِينٍ ، وَقَدْ كَلَّتِ البِصَاطِرُ ، وَذَهَبَ الصَّبْرُ ، وَبَقِيَ الحَقُّ مَوْفُورًا ، وَأَنْتَ بِالْبَلْغِ بِهَذَا حَاجَتِكَ وَالْأَمْرَ إِلَيْكَ مَا أَرَاكَ اللهُ فَمَرُّنَا بِهِ .

٢٧٠ - خطبة المنذر بن الجارود

ثم قام المنذر بن الجارود فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَرَى أَمْرًا لَا يَدِينُ لَهُ الشَّامُ إِلَّا بِهَلَاكِ العِرَاقِ ، وَلَا يَدِينُ لَهُ العِرَاقُ إِلَّا بِهَلَاكِ الشَّامِ ، وَلَقَدْ كُنَّا نَرَى أَنَّ مَا زَادَنَا نَقْصَهُمْ ، وَمَا نَقَصْنَا أَضْرَمَهُمْ ، فَإِذَا فِي ذَلِكَ أَمْرَانِ ، فَإِن رَأَيْتَ غَيْرَهُ ^(١) ففِينَا وَاللَّهِ مَا يُقَلُّ بِهِ الحَدُّ ^(٢) وَيُرَدُّ بِهِ الكَلْبُ ^(٣) ، وَلَيْسَ لَنَا مَعَكَ إِيرَادٌ وَلَا صَدْرٌ » .

٢٧١ - خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِن النَّاسَ بَيْنَ مَاضٍ وَوَاقِفٍ ، وَقَائِلٍ وَسَاكِتٍ ، وَكُلٌّ فِي مَوْضِعِهِ حَسَنٌ ، وَإِنَّهُ لَوْ نَسَكَلَ الآخِرَ عَنِ الأولِ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، إِلَّا أَنَّ يَقُولُ اليَوْمَ مَا قَدْ قِيلَ أَمْسَ ، وَلَكِنَّهُ حَقٌّ يُقْضَى ، وَلَمْ نَقَاتِلِ القَوْمَ لَنَا ذِلَالَةٌ ، إِنَّمَا قَاتَلْنَا اللهُ ، فَإِن حَالُ أَمْرِ اللهِ دُونَنَا وَدُونَكَ فَاقْبَلْهُ ، فَإِنَّكَ أَوْلَى بِالْحَقِّ ، وَأَحَقُّنَا بِالتَّوْفِيقِ ، وَلَا أَرَى إِلَّا القِتَالَ »

(١) أى فإن رأيت غير رأيت « وهو الذى عبر عنه بقوله : إني أرى أمرا . . . الخ » وفى الأصل « غيرك » وأراه محرفا . (٢) أى ففينا من البأس ما يقل به حد الأعداء وقوتهم . (٣) الكلب : داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعقر الناس ويعتري الناس أيضا من عضها ، وقد استعاره هنا لطمع الأعداء فيهم وغارتهم عليهم .

٢٧٢ - خطبة عمير بن عطار

ثم قام عمير بن عطار، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية ، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشام ، وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم ، فوالله ما منعنا ذلك من قتل المحارب ، وعيب الواقف ، فقاتل القوم ، إنّا معك » .

٢٧٣ - خطبة علي بن أبي طالب

ثم قام علي خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غادر عليهم بنفسى بالفداء ، فأحباكمهم بسيفي هذا إلى الله » .

وأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يدعو علياً إلى تحكيم كتاب الله ، فأصبح أصحاب معاوية ، وقد رفعوا المصاحف على الرماح ، وقلدها أعناق الخيل يقولون : « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » .

٢٧٤ - مقال عدي بن حاتم

فقام عدي بن حاتم ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن أهل الباطل ، لا تُعَوَّق أهل الحق ، وقد جزع القوم حين تاهبت للقتال بنفسك ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب ، ناجز القوم » .

٢٧٥ - مقال الأشتر النخعي

ثم قام الأشتر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لندنيا . إن معاوية لا خَلَفَ له من رجاله ، ولا يكن بحمد الله الخلفُ لك ، ولو كان له مثلُ رجالك ، لم يكن له مثلُ صبرك ، ولا نصرتك ، فافرج^(١) الحديدَ بالحديد ، واستعين بالله . »

٢٧٦ - مقال عمرو بن الحمق

ثم قام عمرو بن الحمق فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لندنياً ، ولا نصرناك على باطل ، ما أجبناك إلا الله تعالى وما نصرناك إلا للحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه ، لكفر فيه اللجاج ، وطالت له النجوى^(٢) ، وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى . »

٢٧٧ - مقال الأشعث بن قيس

ثم قام الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إننا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولست أدرى كيف يكون غداً ، وما القوم الذين كلوك بأحد لأهل العراق مني ، ولا بأوتر^(٣) لأهل الشام مني ، فأجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ، وقد أحب الله اليقيا . »

(١) أى شق سلاحهم ومزقه بسلاحك . (٢) المسارة . (٣) أى ولا أشد وتراً . من

وتره إذا أدركه بمكروه .

٢٧٨ - مقال عبد الرحمن بن الحارث

ثم قام عبد الرحمن بن حارث فقال :

« يا أمير المؤمنين ، امض لأمر الله ولا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لايوقنون ، أَحْكَمْ بَعْدَ حَكْمِ وَأَمْرٍ بَعْدَ أَمْرٍ ؟ مَضَتْ دِمَاؤُنَا وَدِمَاؤُهُمْ ، وَمَضَى حَكْمُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ . »

٢٧٩ - مقال عمار بن ياسر

فلما أظهر على أنه قد قبل التحكيم قام عمار بن ياسر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية ببيضاء ، من أقرَّ بها هلك ، ومن أنكرها ملك ، مالك يا أبا الحسن ، شككتنا في ديننا ، ورددتنا على أعقابنا ، بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم ، أفلا كان هذا قبل السيف ، وقبل طلحة والزبير وعائشة قد دعوك إلى ذلك فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن ما خالفنا منهم ضالٌّ حلال الدم وقد حكم الله تعالى في هذا الحال ما قد سمعت ، فإن كان القوم كفاراً مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يَفِيئُوا^(١) إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، والله ما أسلموا ، ولا أدوا الجزية ، ولا فاءوا إلى أمر الله ولا طَفِئَتْ^(٢) الفتنة » فقال على : والله إني لهذا الأمر كاره .

ثم كثر اللجاج والجدال في الأمر ، وجعل على يبين لهم أنها خُدعة ومكيدة يرام بها

(١) يرجعوا . (٢) أي انطفأت .

توهين قوتهم ، وتشتيت جمعهم ، وهم لا يستمعون لقواه ، ولا يذعنون لنصحه ، وأقبل الأشعث بن قيس في ناس كثير من أهل اليمن ، فقالوا لعلّ : « لا تردّ ما دعاك القوم إليه ، قد أنصفك القوم ، والله لننّ لم تقبل هذا منهم لا وقاء معك ، ولا نرى معك بسهم ولا حجر ، ولا نقف معك موقفاً » .

وغلا أنصار التحكيم في تطرفهم فقالوا « يا عليّ أجب إلى كتاب الله إذ دعيت إليه ، وإلا نذفمك برؤمتك إلى القوم ، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان » فلم يردّ من الإذعان وقبول التحكيم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٨٩)

التحكيم بين عليّ ومعاوية

٢٨٠ - كلام عبد الله بن عباس لأبي موسى الأشعري

ولما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى الأشعري وأحضروه للتحكيم على كُرُوهِ من عليّ عليه السلام ، أتاه عبد الله بن العباس ، وعنده وجوه الناس وأشرفهم ، فقال له : « أبا موسى : إن الناس لم يرضوا بك ، ولم يجتمعوا عليك ، لفضل لا تُشَارِكُ فيه ، وما أ كَثَرَ أشباهَكَ من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبْلَكَ ، ولكن أهل العراق أبَوْا إلا أن يكون الحُكْمُ يَمَانِيًا ، ورأوا أن معظم أهل الشام يمانٍ ، وأيمُ اللهُ إنى لأظن ذلك شرًّا لك ولنا ، فإنه قد ضُمَّ إليك ذاهيةُ العرب ، وليس في معاوية خَلَّةٌ^(١) يستحق بها الخِلافة ، فإن تَقَدَّفَ بِحَقِّكَ على باطله ، تُدْرِكُ حاجتك منه ، وإن يطمعَ بِاطْلِهِ في حَقِّكَ يُدْرِكُ حاجته منك ، واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليقُ الإسلام ، وأن أباه رأسُ الأحزاب ، وأنه يدَّعي الخِلافة من غير مشورة ولا بَيِّمَةٍ ، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطبيب يَحْمِيهِ ما يشتهي ، وَيُوجِرُهُ^(٢) ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأى عمر ، وما أ كَثَرَ من استعملوا ممن لم يدَّعِ الخِلافة ، واعلم أن لعمر ومع كل شيء يسْرُوكَ خَبَأً^(٣) يسوءك ، ومهما نَسِيت فلا تَنْسَ أن عليًّا

(١) خصلة . (٢) وجره الدواء (كوعده) وأوجره إياه : جعله في فيه ، وأوجره الرمح :

طعنه ، ووجره : أسمه ما يكره . (٣) الخبء : ماخبي .

بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بيعةٌ هُدَى ، وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين .

فقال أبو موسى : « رحمك الله والله مالى إمام غير على ، وإنى لواقف عند ما رأى ، وإن حق الله أحبُّ إلى من رضا معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا إلا بالله . »
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥)

٢٨١ - وصية شريح بن هانى لأبي موسى الأشعري

ولما أراد أبو موسى السير ، قام إليه شريح بن هانى الحارثى ، فأخذ بيده وقال :
« يا أبا موسى : إنك قد نصبتَ لأمر عظيم لا يُجبرُ صدَّعهُ ، ولا تستَقالُ فلتتهُ ،
ومهما نُقلَ من شيء لك أو عليك ، يَثبُتُ حقُّهُ ، ويُرَى صِحَّتُهُ ، وإن كان باطلاً ،
وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم على ،
وقد كانت منك تشبيطةٌ ^(١) أيام الكوفة والجل ، فإن تشفعها بشئها يكن الظن بك يقيناً ،
والرجاء منك ياساً ، ثم قال :

أبا موسى : رُميتَ بِشَرِّ خَصْمٍ فلا تُضِعِ العراقَ (فَدَتِكَ نَفْسِي)
وَأَعْطِ الْحَقَّ شَأْمَهُمْ وَخُذْهُ فَإِنِ الْيَوْمَ فِي مَهَلٍ كَأَمْسِ
وَإِنِ غَدًا يَجِيءُ بِمَا عَلَيْهِ كَذَاكَ الدَّهْرُ مِنْ سَعْدٍ وَنَحْسِ
وَلَا يَخْدَعُكَ عَمْرُو ، إِنِ عَمْرَأُ عَدُوُّ اللَّهِ مَطْلَعُ كُلِّ شَمْسِ
لَهُ خَدَعٌ يَحَارُ الْعَقْلَ مِنْهَا مُمَوَّهَةٌ مَزْخَرَةٌ يَلْبَسُ

(١) أى تعويق .

فلا تجمل معاوية بن حرب كشيخ في الحوادث غير نكس^(١)
هداه الله للإسلام فردا سوى عرس^(٢) النبي، وأى عرس؟
فقال أبو موسى: « ما ينبغي لقوم أتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلا ، أو أجر^٣
إليهم حقاً » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، والإمامة والسياسة ١ : ٩٩)

٢٨٢ - وصية الأحنف بن قيس لأبي موسى الأشعري

ولما حُكِّم أبو موسى الأشعري أتاه الأحنف بن قيس ، فقال له :
« يا أبا موسى ، إن هذا مسير له ما بعده ، من عزِّ الدنيا أو ذلها آخر الدهر ،
ادع القوم إلى طاعة عليّ ، فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشام من قريش العراق من
أحبوا ، ويختار أهل العراق من قريش الشام من أحبوا ، وإياك إذا لقيت ابن العاص
أن تصافحه بنية ، وأن يُقعدك على صدر المجلس فإنها خديعة ، وأن يضمك وإياه بيت ،
فيُمكن لك فيه الرجال ، ودعه فليتكلم ، لتكون عليه بالخيار ، فالبادئ مستغلق^(٣) ،
والجيب ناطق » .

فما عمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف ، وأشار به ، فكان من الأمر ما كان ،
فلقيه الأحنف بعد ذلك ، فقال له : « أدخل وألله قدميك في خفّ واحدة » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، الإمامة والسياسة ١ : ٩٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٦)

(١) كشيخ : يريد به الإمام عليا ، والنكس : الضعيف والمقصر عن غاية الكرم . (٢) أى
زوجه ، يريد السيدة خديجة رضى الله عنها ، وأى عرس : أى وأى عرس هى . استفهام المراد به
التعظيم . (٣) أصله من قولهم : استغلقنى في بيمة : لم يجعل لى خيارا فى رده : أى أن البادئ ليس له
الخيار فى رد ما قال .

٢٨٣ - وصية معاوية لعمر و بن العاص

وقال معاوية لعمر و :

« إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضونَ عنك ، وأرجو في دفع هذه الحرب قوةً لأهل الشام ، وفُرقةً لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن ، وقد ضمَّ إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ، وله على ذلك دين وفضل ، فدعه يقول فاذا هو قال فاصمتُ ، واعلم أن حسن الرأي زيادةٌ في العقل ، إن خوفك العراق فخوفه بالشام ، وإن خوفك مصر فخوفه باليمن ، وإن خوفك علياً ، فخوفه بمعاوية ، وإن أتاك بالجميل فأتته بالجميل . »

٢٨٤ - رد عمرو بن العاص عليه

فقال عمرو :

« يا أمير المؤمنين . أقلل الاهتمام بما قبلي ، وأرجُ الله تعالى فيما وجهتني له ، إنك من أمرك على مثل حدِّ السيف ، لم تنل في حربك ما رجوتَ ، ولم تأمن ما خفتَ ، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً ، وقد ذكرتَ لأبي موسى ديناً ، وإن الدين منصور ، أرايتَ إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ما أقول ؟ » .

٢٨٥ - مقال شرح جليل بن السمط لعمر و

ولما ودَّعه شُرَّحيل بن السُّنط قال له :

« يا عمرو إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا لعلمه أنك لا تُؤاخي من عجز ولا مكيدة، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لك ولصاحبك، فكن عند ظننا بك ». .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٦ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٠)

٢٨٦ - خطبة أبي موسى الأشعري

ولما التقى الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص بدومة الجندل ، ودار بينهما من الحوار ما دار ، أقبلوا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتقدم أبو موسى ، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نرَ أصلاً لأمرها ، ولا أماً لِسَمْعِهَا من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيؤتوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً^(١) ». ثم تنحى .

(١) وفي رواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة : « وإني رأيت وعمرا أن نخلع علياً ومعاوية ونجعلها لعبد الله بن عمر ، فإنه لم ييسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً » وفي رواية المسعودي في مروج الذهب : « وقد خلعت علياً كما خلعت عمامتي هذه (وأهوى إلى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم ، فبرز في سابقته ، وهو عبد الله بن عمر وأطراره ورغب الناس فيه » .

٢٨٧ - خطبة عمرو بن العاص

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :
« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأبئت
صاحبي معاوية ، فإنه وليّ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه ، وأحق
الناس بمقامه » .

فقال أبو موسى : « مالك - لا وفقك الله - غدرت وفجرت ! إنما مثلك كمثل
الكلب إن تخمّل عليه يلهث ، أو تنزّكهُ يلهث^(١) » قال عمرو : « إنما مثلك
كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٠٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٨ ،

والإمامة والسياسة ١ : ١٠١ ومروج الذهب ٢ : ٣٢)

٢٨٨ - خطبة الامام على بعد التحكيم

وخطب الإمام على كرم الله وجهه بعد فشل التحكيم فقال :
« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح^(٢) ، والحديث^(٣) الجليل ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه
 وآله . أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تُورث الحسرة ، وتُعقب
 الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأبى ، لو كان

(١) لث الكلب كقطع : أخرج لسانه من العطش أو التعب ، وكذا الرجل إذا أعيأ . (٢) من

فدحه الدين : أى أثقله . (٣) الحادث .

يُطَاعُ لِقَصِيرٍ^(١) أمرٌ ، فأبيتم على إباء الخالفين الجفأة ، والمذايدين العصاة ، حتى ارتاب
الناصح بنصحه ، وضمن الزند بقده ، فكنت وإياكم كما قال أخوه أوازن^(٢) :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصيح إلا ضحى الغد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكَمَيْنِ قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ،
وأحيا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، بغير هدى من الله ، فحكما بغير
حجة بيّنة ، ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد ، فبرى الله منهما
ورسوله وصالح المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام .

(نهج البلاغة ١ : ٤٤ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٤٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٥)

٢٨٩ - خطبة الحسن بن علي

وقال الإمام علي : قم يا حسن فتكلم في أمر هذين الرجلين أبي موسى وعمرو ، فقام
الحسن فتكلم فقال :

« أيها الناس ، قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو ، وإنما بعثنا ليحكما بالقرآن
دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن ، فمن كان هكذا لم يكن حكما ، ولكنه
محكوم عليه ، وقد كان من خطأ أبي موسى أن جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ في ثلاث
خصال : خالف (يعني أبا موسى) أباه عمر إذ لم يرّضه لها ، ولم يره أهلا لها ، وكان أبوه
أعلم به من غيره ، ولا أدخله في الشورى إلا على أنه لاشيء له فيها ، شرطا مشروطا من

(١) قصير : هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان قد أشار على سيده أن لا يأمن الزبراء ملكة الجزيرة ،

وقد دعت إليها ليتزوجها ، فخالفه وقصد إليها ، فقال قصير « لا يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا .

(٢) هو دريد بن الصمة .

عمر على أهل الشورى ، فهذه واحدة . وثانية : لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يَمَقْدُونِ الإمامة ، ويحكمون على الناس . وثالثة : لم يستأمر الرجل في نفسه ، ولا عَلِمَ ما عنده من ردّ أو قبول « ثم جلس .

٢٩٠ — خطبة عيد الله بن عباس (توفي سنة ٦٨ هـ)

ثم قال على لعبد الله بن عباس : قم فتكلم ، فقام عبد الله بن عباس وقال :
« أيها الناس : إن للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا ، والناس بين راض به ، وراغب عنه ؛ وإنما سار أبو موسى بهدى إلى ضلال ، وسار عمرو بضلال إلى هدى ، فلما التقيارجع أبو موسى عن هداه ، ومضى عمرو على ضلاله ، فوالله لو كانا حكماً عليه بالقرآن لقد حكما عليه ، ولئن كانا حكماً بهواهما على القرآن ، ولئن مسكا بما سارا به ، لقد سار أبو موسى وعلى إمامه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه » ثم جلس .

٢٩١ — خطبة عبد الله بن جعفر

فقال على لعبد الله بن جعفر : قم فتكلم ، فقام وقال :
« أيها الناس : هذا أمر كان النظر فيه لعلى ، والرضا فيه إلى غيره ، جئتم بأبي موسى فقلتم قد رضينا هذا فارض به ، وإيم الله ما أصابنا بما فعلا الشأم ، ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حقّ على ، ولا أحييا باطل معاوية ، ولا يذهب الحقّ قلة رأى ، ولا نفخة شيطان ، وإنما لعليّ اليوم كما كنا أمس عليه » ثم جلس . (الإمامة والسياسة ١ : ١٠٢)

٢٩٢ - خطبة على

ولما نزل على النَّخِيلَةِ وَأَيَسَ مِنَ الْخَوَارِجِ ، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد : فإنه من ترك الجهاد في الله ، وادّهن في أمره ، كان على شفاً هلكة ،
إلا أن يتداركه الله بنعمة ، فاتقوا الله ، وقاتلوا من حادّ الله ، وحاول أن يُدعى نور الله ،
قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين الذين ليسوا بقراء للقرآن ، ولا فقهاء في الدين ،
ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام ، والله لو وُلّوا عليكم لعملوا
فيكم بأعمال كسرى وهرقل ، تيسروا وتهيئوا المسير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا
إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله » . (تاريخ الطبري ٦ : ٤٤)

٢٩٣ - خطبة عبد الله بن عباس

وكتب على - إلى عبد الله بن عباس : « أما بعد : فإننا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ،
وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب ، فأشخص بالناس حين يأتيك رسولى ،
وأقم حتى يأتيك أمرى والسلام » .
فلما قدم عليه الكتاب قرأه على الناس ، وأمرهم بالشخص مع الأحنف بن قيس ،
فشخص معه منهم ألف وخمسمائة رجل ، فاستقلهم عبد الله بن عباس ، فقام في الناس
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد يا أهل البصرة فإنه جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم
بالنفيذ إليه مع الأحنف بن قيس ، ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم ستون
ألفاً سوى أبنائكم وعبيداتكم ومواليكم ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدى ،

ولا يجعلن رجل على نفسه سيلاً ، فإنى موقع بكل من وجدته متخلفاً عن مكتبه ، عاصياً لإمامه . وقد أمرت أبا الأسود الدؤلى بمشركم ، فلا يلم رجل جمل السبيل على نفسه إلا نفسه » (تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤) .

٢٩٤ - خطبة على

فخرج جارية فمسكر ، وخرج أبو الأسود فحشر الناس ، فاجتمع إلى جارية ألف وسبعائة ، ثم أقبل حتى وافاه على بالنخيلة ، فلم يزل بالنخيلة حتى وافاه هذان الجيشان من البصرة ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فجمع إليه رءوس أهل الكوفة ورءوس الأسباع ورءوس القبائل ووجوه الناس .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أهل الكوفة ، أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحق ، وصحابتى على جهاد عدوى المحلّين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو تمام طاعة المقبل ، وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتى منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فأعينونى بمناسحة جليّة خليّة من الغش ، إنكم . . . (١) تخرجنا إلى صفين ، بل استجمعوا بأجمعكم ، وإنى أسألكم أن يكتب لى رئيس كل قوم مافى عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا » .

فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال : يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة ووداً ونصيحة ، أنا أول الناس جاء بما سألتَ وبما طلبتَ ، وقام مَعْقِل بن قيس الرّياحى فقال له نحواً من ذلك ، وقام عدى بن حاتم وزيايد بن خصفة وحجر بن عدى وأشرف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك ، ثم إن الرءوس كتبوا من فيهم ثم رفعوهم إليه . (تاريخ الطبرى ٤ : ٤٥)

(١) فراغ فى الأصل .

٣٩٥ - خطبة علي

وكتب عليّ إلى سعد بن مسعود الثقفي ، وهو عامله على المدائن : « أما بعد فأني قد بعثت إليك زياد بن خصيفة فأشخص معه من قبلك من مقاتلة أهل الكوفة ، وعجل ذلك إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله »

وبلغ عليا أن الناس يقولون : لو سار بنا إلى هذه الحروب فبدأنا بهم ، فإذا فرغنا منهم وجهنا من وجهنا ذلك إلى المحلين . فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد فإنه قد بلغني قولكم : لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت عليه ، فبدأنا بهم ، فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحلين .

وأن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم ، فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كما يكونوا جبارين ملوكا ، ويتخذوا عباد الله خولا^(١) . »

فتنادى الناس من كل جانب : سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ، وقام إليه صيفي ابن فسيل الشيباني فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن حزبك وأنصارك ، نعادي من عاديت ، ونشايح من أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله إن تؤتى من قلة عدد ، ولا ضعف نية أتباع .

وقام إليه محرز بن شهاب التيمي من بني سعد فقال : يا أمير المؤمنين : شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على بصرك ، والجد في جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت ، فإننا شيعتك الذين نرجو في طاعتك ، وجهاد من خالفك صالح الثواب ، ونحاف في خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال (تاريخ الطبري ٦ : ٤٥)

٢٩٦ - خطبة معاوية

ولما فشل التحكيم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة ، واختلف الناس بالعراق على عليّ
فما كان لمعاوية همّ إلا مصر ، فدعا أصحابه ليستشيرهم في أمرها ، وكان فيهم عمرو بن العاص
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله بكم في حربكم عدوّكم ، جاءوكم وهم لا ترؤن إلا
أنهم سيقبضون بيضتكم^(١) ، ويخربون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم ، فردم
الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبوا ، وحاكمتهم إلى الله فحكم لنا عليهم ، ثم جمع لنا كلتنا
وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك
بعضهم دم بعض ، والله إنى لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر ، وقد رأيت أن نحاول أهل مصر
فكيف ترون ارتئاءنا لها ؟ » .

وكان عمرو بن العاص قد صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب ، على أن
له مصر طعمة مابقي ، فقال لمعاوية : فإني أشير عليك كيف تصنع : أرى أن تبعث جيشاً
كثيفاً عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتمثق به ، فيأتي مصر حتى يدخلها . . . فسيرة إليها .
(تاريخ الطبري ٦ : ٥٦)

٢٩٧ - وصية معاوية لعمر بن العاص

وجهز معاوية عمرو بن العاص ، وبعثه في ستة آلاف رجل ، وخرج وودّعه ، وقال
له عند وداعه إياه :

(١) البيضة : حوزة كل شيء .

« أوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق ، فإنه يُمنّ ، وبالمهل والتؤدة ، فإن العجلة من الشيطان ، وبأن تقبل ممن أقبل ، وأن تعفو عن أدبر ، فإن قيل فيها ونعمت ، وإن أبي فإن السطوة بعد المعذرة أبلغ في الحجة ، وأحسن في العاقبة ، وادع الناس إلى الصلح والجماعة ، فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثرَ الناس عندك ، وكلّ الناس فأولُ حسنا .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٧)

٢٩٨ — خطبة محمد بن أبي بكر

وقدم محمد بن أبي بكر مصر واليا عليها من قبل على بن أبي طالب (سنة ٣٦ هـ) فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصّرنا وإياكم كثيرا بما عصى عنه الجاهلون ، ألا إن أمير المؤمنين ولأنى أموركم ، وعهد إلى ما قد سمعتم ، وأوصانى بكثير منه مشافهة ، ولن آلوكم خيرا ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعةً لله وتقوى ، فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى . وإن رأيتم عاملا لى عمل غير الحق زائفا ، فارفعوه إلى وعاتبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم بذلك جديرون ، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته .
(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٢)

٢٩٩ — خطبة لمحمد بن أبي بكر

وأقبل عمرو بن العاص حتى قصد مصر ، فقام محمد بن أبى بكر فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« أما بعد معاشر المسلمين والمؤمنين ، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمه ،

وينتمشون الضلالة ، ويشبّون نار الفتنة ، ويتسلطون بالجنّرية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود .

عباد الله فمن أراد الجنة والمغفرة ، فليخرج إلى هؤلاء القوم ، فليجاهدكم في الله .
انتدبوا إلى هؤلاء رحمكم الله مع كنانة بن بشر « ثم انتهى الأمر بقتل محمد بن أبي بكر .
(تاريخ الطبري ٦ : ٥٩)

٣٠٠ - خطبة لعلّي وقد استصرخه محمد بن أبي بكر

ولما سير معاوية عمرو بن العاص إلى مصر (سنة ٣٨ هـ) - وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل عليّ - بعث ابن أبي بكر إلى عليّ يستصرخه ، فقام عليّ في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، فإن هذا صريح محمد بن أبي بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة ، عدو الله ، وولى من عادى الله ، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت ، أشدّ اجتماعاً منكم على حقكم هذا ، فإنهم قد بدءوا بكم وإخوانكم بالفزوة ، فاعجلوا إليهم بالمؤاساة والنصر .

عباد الله : إن مصر أعظم من الشام ، أكثر خيراً ، وخير أهلاً ، فلا تغلبوا على مصر ، فإن بقاء مصر في أيديكم عزّ لكم ، وكنت لعدوكم ، اخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة ، فولفوني بها هناك غداً إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٦ : ٦١ وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٣٤)

٣٠١ - خطبة عليّ حين بلغه مقتل محمد بن أبي بكر

ولما بلغ عليا مقتل محمد بن أبي بكر ، حزن عليه حتى رُئى ذلك في وجهه وتبين فيه وقام في الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال :
« ألا إن مصر قد افتتحها الفجّرة أولو الجور والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغّوا الإسلام عوجا ، ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله ، فعند الله نحتسبه ، أما والله إن كان - ما علمت - لِمَن ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب هدى المؤمن .

إني والله ما ألوم نفسي على التقصير ، وإني لمقاساة الحرب نجد^(١) خبير ، وإني لأقدم على الأمر وأعرف وجه الحزم ، وأقوم فيكم بالرأى المصيب ، فأستصرخكم مُعلنًا ، وأناديكم نداء المستغيث مُعزِّبا ، فلا تسمعون لي قولًا ، ولا تطيعون لي أمرًا ، حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لا يدرك بكم النارُ ، ولا ينقض بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فتجرجرتم جرجرة^(٢) الجمل الأشدق ، وثناقلتم إلى الأرض ثناقل من ليس له نية في جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إلى منكم جنيدٌ متذائب^(٣) كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأفّ لكم « ثم نزل :
(تاريخ الطبري ٦ : ٦٢)

(١) التجرد: الشجاع الماضي فيما يعجز غيره . (٢) الجرجرة: صوت ردهد البعير في حنجرتة ،

وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب . (٣) جنيد : تصغير جند ، متذائب : مضطرب . من

قولهم : تذاهبت الريح أي اضطرب هبوبها ، ومنه سمى الذئب ذئبا لاضطراب مشيته .

فتنة الخوارج

٣٠٢ - مناظرة عبد الله بن عباس لهم

لما رجع الإمام على كرم الله وجهه من صفين إلى الكوفة - بعد كتابة صحيفة التحكيم بينه وبين معاوية - اعتزله جماعة من أصحابه ممن رأوا التحكيم ضللا ، ونزلوا حروراء^(١) في اثني عشر ألفا ، وأمروا على القتال شَبَثَ بن رِبْعِيّ ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكوّاء ، فبعث إليهم على عبد الله بن عباس ، فقال : لا تمجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك ، فخرج إليهم حتى أتاهم ، فأقبلوا يكلمونه ، فلم يصبر حتى راجعهم فقال :

« ما نَقَمْتُمْ من الحكمين ؟ وقد قال الله عزّ وجلّ : « إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا »^(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت الخوارج : قلنا أمّا ما جعل حكّمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا ، قال ابن عباس : فإن الله عزّ وجل يقول : « يَحْكُمُ بِهِ

(١) بظاهر الكوفة .

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ^(١)» فقالوا له : « أَوْ تَجْعَلِ الْحَكْمَ فِي الصَّيْدِ ، وَالْحَدِيثَ يَكُونُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا كَالْحَكْمِ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؟ » وقالت الخوارج قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أَعَدْلٌ عِنْدَكَ ابْنُ الْعَاصِ وَهُوَ بِالْأَمْسِ يِقَاتِلُنَا ، وَيَسْفِكُ دِمَاءَنَا ؟ فَإِنْ كَانَ عَدْلًا فَلَسْنَا بِمَدُولٍ ، وَنَحْنُ أَهْلُ حَرْبِهِ ، وَقَدْ حَكَّمْتُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ الرَّجَالَ ، وَقَدْ أَمْضَى اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا حُكْمَهُ فِي مَعَاوِيَةَ وَحِزْبِهِ أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يَرْجَعُوا^(٢) ، وَقَبِلَ ذَلِكَ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا فَأَبَوْهُ ، ثُمَّ كَتَبْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ كِتَابًا ، وَجَعَلْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ الْمَوَادِعَةَ وَالِاسْتِفَاضَةَ^(٣) وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا الْإِسْتِفَاضَةَ وَالْمَوَادِعَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْحَرْبِ مِنْذُ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ ، إِلَّا مِنْ أَقْرَبِ الْجَزْيَةِ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٣٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ١٢٠)

٣٠٣ — مناظرة الامام عليّ لهم

ثم خرج إليهم عليّ حتى انتهى إليهم وهم يحاصمون ابن عباس ، فقال : انته عن كلامهم
ألم أنهلك رحمتك الله ؟

(١) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِمَنْحِكُمْ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) .

(٢) يشيرون إلى قوله تعالى (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(٣) استفاض المكان استفاضة : اتسع ، وهي هنا مرادفة للموادعة .

ثم تكلم فحمد الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه ثم قال :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج^(١) فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث^(٢) فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال لهم : من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء ، قال عليّ : فما أخرجكم علينا؟ قالوا حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم بالله أتعلون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم إني أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا ، فكانوا شرًّا أطفال وشرًّا رجال ، امضوا على حكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدهانا^(٣) ومكيدة ، فرددتم عليّ رأيي ، وقلتم لا بل نقبل منهم ، فقلت لكم اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إياي ، فلما أبيتم إلا الكتاب ، اشتدَّتْ على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف حكما يُحكّم بما في القرآن ، وإن أبيا فنحن من حكمهما برآء . قالوا له : فضبرنا أترأه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال ، إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : فضبرنا عن الأجل لم جعلتهُ فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعل الله عزَّ وجلَّ يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم » .

(تاريخ الطبري ٦ : ٣٧ ، الكامل للببرد ٢ : ١٢٨)

(١) الفلج والإفلاج : الظفر والفوز . (٢) أوعث : وقع في الوعث (الوعث بالسكون : المكان

السهل الدهس تنبئ فيه الأقدام والطريق المسر) . (٣) الإدهان : النش .

٣٠٤ - صورة أخرى

وروى صاحب العقد المناظرة بين عليّ وبين الخوارج بصورة أخرى وها كها :

« قالوا إن علياً لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس ، ونزلوا قرية يقال لها حروراء - وذلك بعد وقعة الجمل - رجع إليهم عليّ بن أبي طالب ، فقال لهم : يا هؤلاء من زعيمكم ! قالوا : ابن الكواء ، قال : فليبرز إليّ ، فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له عليّ : يا ابن الكواء ، ما أخرجكم علينا بعد رضاكم بالحكمين ، ومُقامِكُم بالكوفة؟ قال : قاتلت بنا عدوا لا نشكُّ في جهاده ، فزعمتُ أن قتلانا في الجنة ، وقتلام في النار ، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقا ، وحكمت كافراً ، وكان من شكك في أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم : كتاب الله بيني وبينكم ، فإن قضى عليّ بابعثكم ، وإن قضى عليكم بابعثوني ، فلو لا شكك لم تفعل هذا ، وألحق في يدك . قال عليّ : يا ابن الكواء ، إنما الجواب بعد الفراغ ، أفرغت فأجيبك؟ قال : نعم ، قال عليّ : أما قتالنا معي عدوا لا نشكُّ في جهاده فصدقت ، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم ، وأما قتالنا وقتلام ، فقد قال الله في ذلك ما يُستغنى به عن قولي ، وأما إرسالي المنافق وتحكمي الكافر ، فانت أرسلت أبا موسى مبرئساً ، ومعاوية حكماً عمراً ، أتيت بأبي موسى مبرئساً ، فقلت : لا ترضى إلا أبا موسى ، فهلا قام إلى رجل منكم فقال : يا على لا تعطِ هذه الدنْيَةَ فإنها ضلالة؟ وأما قولي لمعاوية : إن جرّني إليك كتابُ الله تبعتك ، وإن جرّك إليّ تبعتنى . زعمت أني لم أعط ذلك إلا من شك ، فقد علمت أن أوثق ماني يديك هذا الأمر ، فخذني ويحك عن اليهودي والنصراني ومُشرِكِي العرب ، أأهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام؟ قال : بل معاوية وأهل الشام أقرب ، قال عليّ : أفرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوثق بما في يديه من كتاب الله أو أنا؟ قال : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول : (قُلْ فَأَنوَأُوا

بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَمَا كَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُوْتَىٰ بِكِتَابٍ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا فِي يَدَيْهِ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ، قَالَ : فَلِمَ أُعْطِيَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَوْمَ مَا أُعْطَاهُمْ ؟ قَالَ : إِنْصَافًا وَحِجَّةً ، قَالَ : فَإِنِّي أُعْطِيتُ الْقَوْمَ مَا أُعْطَاهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ ابْنُ الْكُوَّاءِ : فَإِنِّي أَخْطَأْتُ . هَذِهِ وَاحِدَةٌ . زِدْنِي ، قَالَ عَلِيٌّ : فَمَا أُعْظِمُ مَا نَقَمْتُمْ عَلَيَّ ؟ قَالَ : تَحْكِيمَ الْحَكَمِينَ ، نَظَرْنَا فِي أَمْرِنَا ، فَوَجَدْنَا تَحْكِيمَهُمَا شُكًا وَتَبْذِيرًا ، قَالَ عَلِيٌّ : فَتَىٰ مُسَمَّىٰ أَبُو مُوسَىٰ حَكَمًا ، حِينَ أُرْسِلَ ، أَوْ حِينَ حَكَمَ ؟ قَالَ : حِينَ أُرْسِلَ ، قَالَ : أَلَيْسَ قَدْ سَارَ وَهُوَ مُسْلِمٌ ، وَأَنْتَ تَرْجُو أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ عَلِيٌّ : فَلَا أَرَى الضَّلَالَ فِي إِرْسَالِهِ ، فَقَالَ ابْنُ الْكُوَّاءِ ، مُسَمَّىٰ حَكَمًا حِينَ حَكَمَ ، قَالَ : نَعَمْ إِذْنًا فِرْسَالَهُ كَانَ عَدْلًا ، أَرَأَيْتَ يَا ابْنَ الْكُوَّاءِ لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُؤْمِنًا إِلَىٰ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ ، فَارْتَدَّ عَلَىٰ عَقِبِهِ كَافِرًا ، كَانَ يَبْضُرُ نَبِيَّ اللَّهِ شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ عَلِيٌّ : فَمَا كَانَ ذَنْبِي إِنْ كَانَ أَبُو مُوسَىٰ ضَلَّ ، هَلْ رَضِيتُ حُكْمَهُ حِينَ حَكَمَ ، أَوْ قَوْلَهُ إِذْ قَالَ ؟ قَالَ ابْنُ الْكُوَّاءِ : لَا ، وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ مُسْلِمًا وَكَافِرًا يَحْكُمَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، قَالَ عَلِيٌّ : وَيَلِكُ يَا ابْنَ الْكُوَّاءِ ! هَلْ بَعَثَ عَمْرًا غَيْرُ مَعَاوِيَةَ ؟ وَكَيْفَ أَحْكَمُهُ وَحَكَمُهُ عَلَىٰ ضَرْبِ عُنُقِي ، إِنَّمَا رَضِيَ بِهِ صَاحِبُهُ ، كَمَا رَضِيتَ أَنْتَ بِصَاحِبِكَ ، وَقَدْ يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ يَحْكُمَانِ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُؤْمِنًا تَزَوَّجَ يَهُودِيَةً أَوْ نَصْرَانِيَةً ، خَافَا شِقَاقَ بَيْنَهُمَا ، فَفَرَّعَ النَّاسَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ ، وَفِي كِتَابِهِ : (فَابْتَئُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا) فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ ، أَوْ رَجُلٌ مِنَ النَّصَارَى ، وَرَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، الَّذِينَ يَجُوزُ لَهُمَا أَنْ يَحْكُمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَحَكَمَا . قَالَ ابْنُ الْكُوَّاءِ : وَهَذِهِ أَيْضًا ، أَمَهْلِنَا حَتَّىٰ نَنْظُرَ ، فَانصَرَفَ عَنْهُمْ عَلِيٌّ .

فَقَالَ لَهُ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ائْذَنْ لِي فِي كَلَامِ الْقَوْمِ ، قَالَ : نَعَمْ مَا لَمْ تَبْسُطْ يَدًا ، فَنادى صَعْصَعَةُ ابْنَ الْكُوَّاءِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَنْشُدْكَ اللَّهَ يَا مَعْشَرَ

الخارجين أن لا تكونوا عارًا على من يغزولغيره^(١) ، وأن لا تخرجوا بأرض تسمون بها بعد اليوم ، ولا تستعجلوا ضلال العام خشية ضلال عام قابل ، فقال له ابن الكواء : إن صاحبك لقينًا بأسي ، قولك فيه صغيرٌ فأمسك .

قالوا إن عليًا خرج بعد ذلك إليهم ، فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له عليّ : يا ابن الكواء : إنه من أذنب في هذا الدين ذنبًا يكون في الإسلام حدًا ، استتبعناه من ذلك الذنب بعينه ، وإن توبت أن تعرف هدى ما خرجت منه ، وضلال ما دخلت فيه . قال ابن الكواء : إننا لا ننكر أنا قد فتننا ، فقال له عبد الله بن عمرو بن جرموز : أدركنا والله هذه الآية (ألم ، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) - وكان عبد الله من قراء أهل حروراء ، فرجعوا فصلوا خلف عليّ الظهر ، وانصرفوا معه إلى الكوفة ، ثم اختلفوا بعد ذلك في رجعتهم ولام بعضهم بعضًا ، ثم خرجوا على عليّ ، فقتلهم بالنهر وان .
(المقد الفريد ٢ : ٢٤٠)

٣٠٥ - مناظرة ابن عباس لهم

فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليًا رجع عن التحكيم ، وتاب منه ، وراه ضلالا ، فأتى الأشعث بن قيس عليًا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا ، والإقامة عليها كفرًا وتبت ، فخطب عليّ الناس فقال :

« من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضلُّ منها ، فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت ، فقيل لعليّ إنهم خارجون ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ، فوجه إليهم عبد الله بن العباس .

فلما سار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباها قرحت لطول السجود ،

(١) أي لغير منفعة الشخصية بل للمسلمين وجمع كلمتهم يعني عليا وأصحابه .

وأيديا كَشَفْنَات^(١) الإبل ، وعليهم قُصُصٌ مَرَحَضَةٌ^(٢) وهم مشمرون . قالوا : ما جاء بك يا ابن عباس ؟ قال : جئتم من عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، وأعلمنا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار ، فقالوا : إنا أتينا عظيمًا حين حكمتنا الرجال في دين الله ، فإن تاب كما تدنا ، ونهض لمجاهدة عدونا رجعتنا ، فقال ابن عباس : نَشَدْتُمْ الله إلا ما صدقتم أنفسكم . أما علمتم أن الله أمركم بتحكيم الرجال في أرب تساوى ربع درهم تصاد في الحرم ، وفي شقاق امرأة ورجلها ، فقالوا : اللهم نعم ، قال : فأنشدكم الله هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن القتال ، للهدنة بينه وبين الحدَيْبِيَّةِ^(٣) ، قالوا : نعم ولكن علينا محامنا نفسه من خلافة المسلمين ، قال ابن عباس : أذلك يزيلها عنه ؟ وقد محام رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من النبوة ، قال سهيل^(٤) بن عمرو : لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك ، فقال للسانب^(٥) : اكتب محمد بن عبد الله وقد أخذ على الحكيم أن لا يجورا ، فعلى أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدعى مثل دعوى على . قال : فأيهما رأيتموه أولى فولوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباس : ومتى جار الحكمان فلا طاعة لهما ، ولا قبول لقولهما .

فاتبه منهم ألفان وبقى أربعة آلاف ، فلم يزالوا على ذلك حتى اجتمعوا على البيعة

(للمقد الفريد ١ : ٢١٢)

لعبد الله بن وهب الراسبي .

(١) ثفنة البعير : ركبته . (٢) قص جمع قيص ، ورحض الثوب : غسله .

(٣) أي وبين أهل الحديبية . والحديبية بئر قرب مكة ، وكانت غزوة الحديبية سنة ست هجرية .

(٤) النائب عن قريش في عقد الصلح مع المسلمين . (٥) وكان هلي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

٣٠٦ - خطبة يزيد بن عاصم المحاربي

وخرج الإمام على كرم الله وجهه ذات يوم يخطب ، فإنه لني خطبته ، إذ حكمت (١) المحكمة في جوانب المسجد ، فقال على : الله أكبر ، كلمة حق يراد بها باطل : إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم ، فوثب يزيد ابن عاصم المحاربي فقال :

« الحمد لله غير مؤدع (٢) ربنا ولا مستغنى عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية (٣) في ديننا ، فإن إعطاء الدنية في الدين إذهان (٤) في أمر الله عز وجل ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله ، يا على أباقتل تخوفنا ؟ أما والله إنى لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفحات (٥) ، ثم لتعلمن آيتنا أولى بها صلياً (٦) . »

ثم خرج بهم هو وإخوة له ثلاثة هورا بهمهم ، فأصيبوا مع الخوارج بالنهر ، وأصيب أحدهم بعد ذلك بالنخيلة .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٤١)

٣٠٧ - خطبة عبد الله بن وهب الراسبي

ولما بعث الإمام على أبا موسى الأشعري لإنفاذ الحكومة ، لقيت الخوارج بعضها بعضاً ، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) أى قالوا لا حكم إلا لله ، ويسمى الخوارج المحكمة : أى الذين يمتعون التحكيم . (٢) أى غير متروك ولا مقطوع : أى حمداً دائماً . (٣) يريد بها قبول التحكيم . (٤) الإذهان والمداهنة : إظهار غير ما يضر . (٥) أى نضربكم بجدها لا بعرضها ، ضربه بالسيف مصفحاً : أى بعرضه . (٦) صلى النار وبها صلياً : قاسى حرها .

« أما بعد : فوالله ما ينبغي لقومٍ يؤمنون بالرحمن ، ويُنبئون إلى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها والركون إليها ، والإيثار إياها عناءً وتبارك^(١) - آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، وإن من^(٢) وضر^(٣) ، فإنه من يُمنَّ وَيُضَرَّ في هذه الدنيا ، فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عزَّ وجلَّ ، والخلودُ في جناته ، فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بعض كُور^(٤) الجبال ، أو إلى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البِدَعِ المُضِلَّةِ » .

٣٠٨ - خطبة حرقوص بن زهير السعدي

فقام حُرْقُوصُ بن زُهَيْرِ السَّعْدِيِّ فقال :

« إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وَشِيكَ^(١) ، فلا تدعوا نِكْمَ زِينَتِهَا ، وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تَلَفَّتِنَاكُمْ^(٢) عن طلب الحق ، وإنكار الظلم ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

٣٠٩ - خطبة حمزة بن سنان الأسدي

فقام حمزة بن سنان الأسدي فقال :

« يا قوم إن الرأي ما قد رأيتم ، والحق ما قد ذكرتم ، فولوا أمركم رجلا منكم فإنه لا بد لكم من عماد وسناد ، ورأية تحفون بها ، وترجعون إليها » .
فعرضوها على زيد بن حُصَيْنِ الطائِي فآبَى ، وعلى حُرْقُوصِ بن زهير فآبَى ، وعلى

(١) هلاك . (٢) أى قطع وهجر . (٣) جمع كورة بالضم ، وهى المدينة والصقع .

(٤) سريع .

حمزة بن سنان ، وشريح بن أوفى العبسي فأبيا ، وعلى عبد الله بن وهب فقال : « هاتوها ، أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ، ولا أَدعها فرقا^(١) من الموت » فبايعوه (لعشر خلون من شوال سنة ٥٣٧ هـ) .

٣١٠ - خطبة شريح بن أوفى العبسي^(٢)

ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي ، فقام شريح فقال .

« إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد في تقويم السبيل ، وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وقال : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » فاشهدوا على أهل دَعْوَتنا أَنْ قد اتبعوا الهوى ، وَتَبَدُّوا حكم القرآن ، وجاروا في الحكم والعمل ، وأن جهادهم على المؤمنين فرض ، وأقسم بالذي تمنوا^(٣) له الوجوه ، وتخضع دونه الأبصار ، ولم يكن أحد على تغيير المنكر ، وقتال القاسطين^(٤) مساعداً ، لقاتلتهم وحدي فرداً حتى ألقى الله ربي ، فيرى أني قد غيّرت (إرادة رضوانه) بلساني ، يا إخواننا ، اضربوا جباههم ووجوههم بالسيف ، حتى يطاع الرحمن عز وجل ، فإن

(١) جزعا وخوفا . (٢) قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة : « ثم اجتمعوا في منزل زفر بن حصين الطائي ، فقالوا : إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا . . . إلى آخر الخطبة ، ولم يذكر قائلها . وذكر الطبري في تاريخه : أنهم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي ، وذكر الفقرات الأخيرة من هذه الخطبة وعزاها إلى شريح » . (٣) تذلل وتخضع . (٤) الجائرين .

يُطْعَ اللهُ كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له الأمرين بأسره ، وإن قُتِلْتُمْ فأى شيء أعظم من المسير إلى رضوان الله وجنته ؟ واعلموا أن هؤلاء القوم خرجوا لإِقْصَاءِ حُكْمِ الضلالة ، فأخرجوا بنا إلى بلد نَتَمَدُّ فيه الاجتماع من مكاننا هذا ، فإنكم قد أصبحتم بنعمة ربكم وأنتم أهل الحق بين الخلق ، إذ قلتم بالحق ، وصمّدتم لقول الصدق ، فأخرجوا بنا إلى « المدائن^(١) » نسكنها فنأخذ بأبوابها ، ونُخْرِجُ منها سكانها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة ، فيقدمون علينا .

٣١١ - مقال زيد بن حصين الطائي

قال زيد بن حُصَيْنِ الطائي :

« إنكم إن خرجتم مجتمعين أتبعتم ، ولكن اخرجوا وُحْدَانًا مُسْتَخْفِينَ ، فأما المدائن ، فإن بها قومًا يمنعونكم منها ، ويمنعونها منكم ، ولكن اكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأعلموهم بخروجكم ، وسيروا حتى تنزلوا جسر النهروان^(٢) . »

قالوا : هذا هو الرأي ، فاجتمعوا على ذلك ، وكتبوا به إليهم .

(تاريخ الطبري ٥ : ٤٢ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٤)

(١) هل نهر دجلة شرقا . (٢) النهروان : بليدة بالقرب من بغداد ، نحو أربعة فراسخ .

٣١٢ - خطبة عليّ في تخويف أهل النهران

فلما نزلوا بالنهران ، وأتوا بها ما أتوا من الأحداث^(١) ، أتاهم الإمام عليّ -كرم الله وجهه ، فوقف عليهم فقال :

« أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق الموصى ، وطمخ بها النزق^(٢) وأصبحت في اللبس والخطب العظيم ، إني نذير لكم أن تُضيقوا تُفنيكم الأمة غدا صرعى بأثناء^(٣) هذا النهر ، وبأهضام^(٤) هذا الغائط^(٥) ، على غير بينة من ربكم ، ولا سلطان مبین معكم ، وقد طوّحت بكم الدار ، واحتبلكم^(٦) المقدار .

ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن^(٧) ومكيدة لكم ؟ ونبتأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأني أعرفُ بهم منكم ؟

-
- (١) من ذلك أنهم لقوا عبد الله بن خباب بن الارت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه امرأته وهي حبل مّم (أى دنا ولادها) فقالوا : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى عليهما خيرا ، قالوا : ماتقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟ قال : إنه كان محمّافي أولها وفي آخرها ، قالوا : فاقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟ قال : إنه أعلم بالله منكم وأشد توفيا على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا : إنك تتبع الهوى ، وتوالى الرجال على أسمائها لاعلى أفعالها ، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فنبجوه ، وسال دمه في الماء ، وبقروا بطن امرأته ، وقتلوا ثلاث نسوة من طيىء ، وقتلوا أم سنان الصيداوية ، وأصابوا مسلما ونصرانيا ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيرا ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم ، وأرسل إليهم على رسولا ينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه ، فبعث إليهم أن ادمعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى أتى أهل الشام ، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير ما أنتم عليه من أمركم ، فبعثوا إليه ، فقالوا كلنا قتلهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . (٢) الطيش . (٣) جمع فني بالكسر : أى منعطفاته . (٤) جمع هضم (بالفتح ويكسر) وهو المطنن من الأرض . (٥) الغائط : المطنن الواسع من الأرض . (٦) أوقمكم في الحباة . (٧) دهن الرجل : إذا نافق .

(عرقهم أطفالا ورجالا ، فهم أهل المكر والغدر) وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ؟
فمصيتموني وأكرهتموني حتى حكمت ، فلما أن فعلتُ شرطتُ واستوتقتُ ، فأخذت
على الحكيم أن يُحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم
الكتاب والسنة ، وعملاً بالهوى ، فنبذنا أمرها ، ونحن على أمرنا الأول ، فما الذى بكم ،
ومن أين أتيتم ؟ » .

قالوا : إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فإن تبنا
كما تبنا ، فنحن منك ومعك ، وإن أبيتَ فأعتر لنا ، فإننا منا بدوك على سواء^(١) إن الله
لا يحب الخائنين .

فقال على : « أصابكم حاصب^(٢) ، ولا بقى منكم وابر^(٣) » ، أبعده إيماني
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرتي معه ، وجهادى فى سبيل الله ، أشهد على نفسى
بالكفر ؟ لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين ، فأوبوا شر ما ب^(٤) ، وارجموا
على أثر الأعتاب^(٥) أما إنكم ستلقون بهدى ذللاً شاملاً ، وسيفناً قاطعاً ، وأثرة^(٦)
يتخذها الظالمون فيكم سنة .

(١) هو من قوله تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) ومعناه إذا هادنت قوما فلمت منهم النقص العهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى
النقص حتى تعلمهم أنك نقضت العهد ، فتكونوا فى علم النقص مستوين لئلا يتهموك بالغدر ،
ثم أوقع بهم . (٢) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء (الخصى) ، وحصبه : رماه
بالحصباء . (٣) أى أحد . وىروى آبر ، وهو الذى يأبر النخل أى يصلحه . وىروى آثر ، وهو
الذى يأثر الحديث أى يرويه ويحكيه . وىروى آبز ، وهو الواهب . (٤) أى ارجعوا شر مرجع .
(٥) الأعتاب جمع عقب (بكسر القاف) : وهو مؤخر القدم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى :
« وَنُرِدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ » يدعو عليهم بانمكاس حالهم وارتدادهم وعودهم من العز
إلى الذل . (٦) أى استبدادا عليكم بالوقء والغنائم .

٣١٣ - صورة أخرى

وفي رواية أخرى أن علياً قال لأهل النهر :

« يا هؤلاء : إن أنفسكم قد سَوَّلت لكم فراق هذه الحكومة ، التي أنتم ابتدأتموها وسألتموها^(١) وأنا لها كاره ، وأنبأتكم أن القوم سألوكموها مكيدة ودَهْنًا ، فأبيتم على إباء المخالفين المناذيين ، وعدلتم عنى عدول النكداء^(٢) العاصين ، حتى صرفت رأبي إلى رأيكم ، وأنتم والله معاشرُ أخفاء الهام^(٣) ، سُفهاء الأحلام ، فلم آتِ (لا أبالكم) بِجُرْأ^(٤) ، ولا أردت بكم ضراً ، والله ما خبَلتكم^(٥) عن أموركم ، ولا أخفيت شيئاً من هذا الأمر عنكم ؛ ولا أوطأتكم عُشْوَةً^(٦) ، ولا دنيت^(٧) لكم الضراء ، وإن كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهراً ، فأجمع رأبي مَلَيْتكم على أن اختاروا رجلين ، فأخذنا عليهما أن يحكما بما في القرآن ولا يَعدُواه ، فتأها^(٨) وتركا الحق وهما يُبصرانه ، وكان الجور هوأهما (وقد سبق استئيناؤنا عليهما في الحكم بالعدل) والصدُّ للحق بسوء رأيهما وجورِ حكهما ، والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحق ، وأتيا بما لا يُعرَف ، فبيئوا لنا بماذا تستحلون قتالنا ، والخروج من جماعتنا ؟ أن اختار الناس رجلين^(٩) أحلَّ لكم أن تضعوا أسيافكم على عواتقكم ، ثم تستعرضوا الناس تضربون رقابهم ، وتسفكون

(١) المراد : سألتونف أن أجيب إليها . (٢) رجل نكد (بكسر الكاف وفتحها وسكونها)

وأنكد أى عسر ، وقوم أنكاد ومناكيد ، ولم أر فى كتب اللغة جمه على نكداء . (٣) أخفاء : جمع

خفيف ، والهام : الرءوس ، وهو كناية عن قلة العقل . (٤) الجبر ، بالضم والفتح : الشر والأمر

العظيم ، ويروى حراما . (٥) منمتكم وحبستكم . (٦) المشوة مثلثة : ركوب الأمر على غير

بيان ، وبالفتح الظلمة ، ويقال : أوطأته عشوة ، أى غررته وحملته على أن يركب أمرا غير مستبين الرشد ،

فربما كان فيه عطبه . (٧) دناء وأدناه : قربه . (٨) ضلا . (٩) همزة الاستفهام

مقدرة قبل أن : أى هل اختيار الناس رجلين أحل لكم ذلك ؟

دماءهم ؟ إن هذا هو الخسران المبين ، والله لو قتلتم على هذا دجاجة لَعَظَمَ عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام ؟ » .

فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم ، وَهَيَّئُوا للقاء الرب ، الرَّوَاحَ الرَّوَاحَ إلى الجنة ، فزحف عليهم على فأنفاهم ، وقتل ابن وهب في المعركة ، ولم يُفَلِّتْ منهم إلا عشرة (وكان ذلك سنة ٣٧ ، وقيل سنة ٣٨ هـ) .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٧ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٩ ونهج البلاغة ١ : ٤٤ - ٥٤)

٣١٤ - خطبة المستورد بن علفة

واجتمع بعد وقعة النهروان بالثخيلة جماعة من الخوارج ، ممن فارق عبد الله ابن وهب ، ومن لجأ إلى راية أبي أيوب^(١) ، ومن كان أقام بالكوفة فقال : لا أقاتل علياً ولا أقاتل معه ، فتواصوا فيما بينهم وتماضدوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم ، فقام منهم قائم يقال له المستورد بن علفة من بنى سعد بن زيد مائة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدل تحقُّق راياته ، معلِّناً مقاتلته ، مُبَلِّغاً عن ربه ، ناصحاً لأُمَّته ، حتى قبضه الله مُخَيَّرًا مختاراً ، ثم قام الصديق فَصَدَّقَ عن نبيه ، وقاتل من ارتدَّ عن دين ربه ، وذكر أن الله عز وجل قرآن الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل إحداها طعنٌ على الأخرى ، لا بل على جميع منازل الدين ، ثم

(١) وذلك أن الإمام قبل أن يزحف عليهم في وقعة النهروان نصب لهم راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري ، فناداهم أبو أيوب : « من جاء هذه الراية منكم لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن . ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم » .

قبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام الفاروق ففرق بين الحق والباطل ، مُسوِّياً بين الناس في إعطائه ، لا مؤثراً لأقاربه ، ولا مُحَكِّماً في دين ربه ، وهأنتم تملون ما حدث ، والله يقول : « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْفَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » فكلُّ أجباب وبيع^(١) .
(السكامل للمبرد ٢ : ١٥٤)

(١) وقد وجه إليهم الإمام علي ، عبد الله بن عباس داعياً فأبوا ، فسار إليهم فطحنهم جميعاً لم يفلت

منهم إلا خمسة منهم المستورد .

خور أصحاب الإمام

وتقاعسهم عن نصرته

٣١٥ - خطبة عبد الله بن عباس في أهل البصرة

ورأى الإمام على كرم الله وجهه بعد فشل التحكيم أن يمضى لمناجزة معاوية وأهل الشام ، فكتب إلى عبد الله بن عباس - وكان على البصرة - أن يُشخص^(١) إليه مَنْ قبله من الناس . فأمرهم ابن عباس بالشخوص مع الأحنف بن قيس ، فَشَخَصَ معه ألف وخسمائة رجل ، فاستقلهم ابن عباس ، فقام خطيباً ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة : قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم ، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس ، فلم يُشخصْ إليهم إلا ألف وخسمائة ، وأنتم في الديوان^(٢) »

(١) شخص كنع شخصاً : خرج من موضع إلى غيره ، وأشخصته أنا .

(٢) الديوان : الكتاب الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء ، وهو فارسي معرب . قال القلقشندي في صبح الأعشى ١ : ٩٠ « وقد حكى الماوردي في الأحكام السلطانية في سبب تسميته بذلك وجهين : أحدهما أن كسرى ذات يوم اطلع على كتاب ديوانه في مكان لهم ، وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أي مجازين فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ، ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان ، والثاني : أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمر ، ووقوفهم على الجلي منها والخفي » اهـ ، ومنه ترى أن الديوان كان يطلق في الفارسية على موضع الكتاب الحاسبين وهى جماعة الكتاب ، وقد أطلق في العربية على جريدة الحساب ، ثم أطلق على الحساب ، ثم على موضع الحساب ، =

ستون ألفاً ، سوى أبنائكم وعبيدكم^(١) ومواليكم ، ألا فانفروا^(٢) ،
ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلاً ، فإني موقِعٌ بكلِّ من وجدته تخلف عن دعوته ،
عاصياً لإمامه ، حزناً يُعقِبُ ندماً ، وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم ، فلا يلم امرؤ
جعل السبيل على نفسه إلا نفسه » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٦ ، تاريخ الطبري ٦ : ٤٤)

٣١٦ - خطبة الإمام وقد أراد الانصراف من النهروان

ولما أراد الإمام الانصراف من النهروان ، قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد ، فإن الله قد أحسن بلاءكم وأعزَّ نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى
معاوية وأشياعه القاطنين ، الذين نبدوا كتاب الله وراء ظهورهم ، « واشتروا به تمناً
قليلاً » ف « بيئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

٣١٧ - مقال الأشعث بن قيس

فقال الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين : نَفِدَتْ نِبَالُنَا ، وَكَاتَتْ سِيوفُنَا ، وَنَصَلَتْ^(٣) أَسِنَّةُ رِمَاحِنَا وَعَادَ

= ثم على طائفة الكتاب ، وكان ذلك عهد في عصر الدولة العباسية ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول
من دون الدواوين في العرب سنة ٢٣ أى رتب الجرائد للعمال ورجال الجيش فيها أسماءهم ومراتبهم فى النسب
وأرزاقهم (انظر تاريخ الطبري ٥ : ٢٣) . (١) جمع عبد . (٢) نفر إلى الشيء :
أسرع إليه . (٣) سقطت .

أكثرها قصدا^(١) فارجع بنا إلى مصرنا ، فلنستمدد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا .

فأقبل على الناس حتى نزل بالنخيلة^(٢) ، ثم دخل الكوفة .

(الامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٥١ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٧٩) .

٣١٨ - خطبة الإمام بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج

يستنفر الناس لقتال معاوية

وخطب الناس بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج فقال :

« أيها الناس استعدوا لقتال عدوي ، في جهادهم القربة إلى الله عز وجل ، ودرئكم الوسيلة عنده ، قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه ، مؤزعين^(٣) بالجور والظلم لا يعدلون به ، جفاة عن الكتاب ، نكب^(٤) عن الدين ، يعمهون^(٥) في الطغيان ويتسكعون^(٦) في عمرة الضلال ، ف « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط^(٧) الخيل - وتوكلوا على الله ، وكنى بالله وكيلا » .

(١) رمح قصد ، وقصيد ، وأقصاد : أى متكسر . (٢) وعسكر بها حين نزلها ، وأمر

الناس أن يلزموا معه معسكرهم ، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يقللوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام . فجعلوا يتسللون ويدخلون الكوفة ، حتى تركوه وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ، وبقى المعسكر خاليا ، فلا من دخل الكوفة خرج إليه ، ولا من أقام معه صبر ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة . (٣) أوزعه بالشئ : أغراه فأوزع به بالضم . (٤) من نكب عن الطريق : أى عدل ومال . (٥) من العمه (محركة) : وهو التحير والتردد في الضلال .

(٦) تسكع : مشى مشيا متعسفا ، وتحجير . (٧) اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ، فعال بمعنى مفعول أو مصدر سمي به كالمرباطة أو جمع رباط فيل بمعنى مفعول .

فَا نَفَرُوا وَلَا تَيْسَّرُوا ، فتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم
ووجوههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذي ينظرون^(١) ، فمنهم المعتل ، ومنهم المتكره ،
وأقلهم من نشط ، فقام فيهم خطيباً فقال :

(شرح ابن أبي الحديد م : ١ : ص ١٧٩ ، والامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٥١)

٣١٩ - خطبة له أيضاً في استنفارهم لقتال معاوية

« عبادَ الله : مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله اناقلتم^(٢) إلى الأرض ا
أرضيتهم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً ، وبالذل والهوان من العز خلقاً ؟ أو كلما نذبتكم
إلى الجهاد دارت أعينكم ، كأنكم من الموت في سكرة ، وكان قلوبكم مألوسة^(٣) فأنتم
لا تعقلون ، وكان أبصاركم كمة^(٤) فأنتم لا تبصرون ؛ لله أنتم ! ما أنتم إلا أسود
الشرى^(٥) في الدعة^(٦) ، وثعالب روَاعة حين تدعون إلى البأس ! ما أنتم لي بنقذ
سجيس الليالي^(٧) ، ما أنتم بركب يُصَال بكم ، ولا ذي عز يُعْتَصَم إليه ، لعمر الله لبئس
حشاش^(٨) الحرب أنتم ، إنكم تُكادون ولا تكيدون ، وتُنقِص أطرافكم
ولا تتحاشون^(٩) ، ولا يُنَامُ عنكم وأنتم في غفلة ساهون ، إن أخوا الحرب اليقظان
ذو العقل ، وبات لذل من وادع ، وغلب المتخاذلون ، والمتلوب مقهور ومسلوب ،
ثم قال :

(١) يؤخرهم . (٢) تناقلتم . (٣) من الألس : كشمس ، وهو الجنون واختلاط العقل ،
ألس (كحفي) فهو مأوس . (٤) كمة : جمع أكمة من كمة بصره (كفرج) اعترته ظلمة تطمس عليه .
(٥) الشرى : موضع تنسب إليه الأسد ، قيل هو شرى الفرات وناحيته وبه غياض وآجام ومأسدة .
(٦) أى في وقت الدعة والحفض . (٧) يقال : لا آتيك سجيس الليالي : أى أبدا .
(٨) جمع حاش اسم فاعل ، من حش النار : أى أوقدها . (٩) أى ولا تهتدون عن ذلك وتتلافونه
بالدفاع عنها ، من حاشية الشيء وهى ناحيته كما تقول تمنحني عنه : أى تباعد عنه من الناحية .

« أما بعد : فإن لي عليكم حقاً ، وإن لكم عليّ حقاً ، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم ما صحبتمكم ، وتوفير فيشكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ، وأما حقى عليكم ، فالوفاء بالبيعة والنصح لي فى الغيب والشهد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين أمرك ، فإن يرد الله بكم خيراً تنزِعُوا عَمَّا أكره ، وترجمُوا إلى ما أحب ، تناولوا ما تطلبون ، وتدرِكُوا ما تأملون »

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥١ ، الإمامة والسياسة ١ : ١١٠)

وروى الشريف الرضى هذه الخطبة فى نهج البلاغة بصورة أخرى وهى :

٣٢٠ - صورة أخرى

« أف لكم ، لقد سئمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ، وبالذل من العز خلفاً ؟ إذا دعوتكم إلى جهادِ عدوكم دارت أعينكم ، كأنكم من الموت فى غمزة^(١) ، ومن الدهول فى سكرة^(٢) ، يرتج^(٣) عليكم حوارى فتعمهون ! فكان قلوبكم مألوسة فأنتم لاتعلمون ! ما أنتم لى بثقة سجنس اليالى ، وما أنتم بركن يمال بكم^(٤) ، ولا زوافير^(٥) عز يفتقر إليكم ، ما أنتم إلا كابل ضل رعانها ، فكما جمعت من جانب انتشرت من آخر ، لبئس لعمر الله سمر^(٦) نار الحرب أنتم ، تُكادون ولا تسكيدون ، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون^(٧) ، لا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون ، غلب والله المتخاذلون ، وأيم الله إنى لأظن بكم أن لو حَسَّ^(٨) الوغى ،

(١) الغمزة : الشدة . (٢) يغلق ، والحوارى : المحاور . (٣) أى يستند إليكم ويمال على

العدو بقوتكم . (٤) جمع زافرة ، والزافرة من البناء : ركنه ، ومن الرجل : عشيرته .

(٥) من سمر النار والحرب : كنع أوقدها مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أو هو جمع ساعر ، كقوله : قوم

كظم للغيظ جمع كاظم . (٦) أى فلا تمتعضون . (٧) اشتد ، وكذا استحر ، وأصل الوغى :

الصوت والجلبة ، ثم سميت الحرب وغى لما فيها من الأصوات والجلبة .

وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتَ ، قَدْ انْفَرَجَتْ عَنْ ابْنِ أَبِي ظَالِبٍ ، انْفِرَاجَ الرَّأْسِ ^(١) ، وَاللَّهُ إِنْ أَمَرَ
يُمْكِنُ عُدْوَهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْزُقُ ^(٢) لِحْمَهُ ، وَيَهْتِمُ عِظَمَهُ ، وَيَفْرِي ^(٣) جِلْدَهُ ، لِعَظِيمِ
عَجْزِهِ ، ضَعِيفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جِوَانِحُ صَدْرِهِ ، أَنْتَ فَكُنْ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ ^(٤) فَأَمَّا أَنَا :
فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرِفِيَّةِ ^(٥) تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشٌ ^(٦) الْهَامِ ، وَتَطْيِیحُ
السَّوَاعِدُ وَالْأَفْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالْنَّصِيحَةُ لَكُمْ
وَتَوْفِيرُ فَيْئَتِكُمْ عَلَيَّ ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا ، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا ، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ
بِالْبَيْعَةِ ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةُ حِينَ أَمْرُكُمْ .
(نهج البلاغة ١ : ٤٢)

وزاد ابن قتيبة في الإمامة والسياسة :

« وَاللَّهُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، مَا أَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ إِلَّا ظَاهِرِينَ ^(٧) عَلَيْكُمْ ،
فَقَالُوا : أَيْعَلِمُ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » فَقَالَ :

« نَعَمْ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبِيبَ ، وَرَأَى النَّسَمَةَ ، إِنْ أَرَى أُمُورَهُمْ قَدْ عَلَتْ ، وَأَرَى أُمُورَكُمْ
قَدْ خَبَتْ ^(٨) ، وَأَرَاهُمْ جَادِّينَ فِي بَاطِلِهِمْ ، وَأَرَاكُمْ وَائِنِينَ ^(٩) فِي حَقِّكُمْ ، وَأَرَاهُمْ مَجْتَمِعِينَ ،
وَأَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ ، وَأَرَاهُمْ لِصَاحِبِهِمْ مَعَاوِيَةَ مَطِيعِينَ ، وَأَرَاكُمْ لِي عَاصِينَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ
ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ بَعْدِي ، لَتَجِدَنَّاهُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ ، كَأَنَّهُمْ وَاللَّهِ عَنْ قَرِيبٍ قَدْ شَارَكُوكُمْ

(١) أي انفراجا لا التمام بعده . (٢) عرق العظم عرقا . أكل ماعليه من اللحم ، كتمعرقه .

(٣) يمزق . (٤) الخطاب عام لكل من أمكن عدوه من نفسه . (٥) السيوف ، نسبة إلى

مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف . (٦) عظامها الرقيقة .

(٧) متصيرين . (٨) من خبت النار ، أي سكنت وانطفأت . (٩) من وني : إذا فتر

في بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأني أنظر إليكم تكشون^(١) كَشَيْشِ الضَّبَابِ ، لا تأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حرمة ، وكأني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويُحْيِفُونَ علماءكم ، وكأني أنظر إليكم يَحْرِمُونَكم ويحجبونكم ، ويذنون الناس دونكم ، فلو قد رأيتم الحرمان ، ولقيتم الذل والهوان ، ووقع السيفُ ، ونزل الخوفُ ، لنَدِمْتُمْ وتحسرتم على تفريطكم في جهاد عدوكم ، وتذكّرتم ما أنتم فيه من الخفض والعافية ، حين لا ينفعكم التذكار .

٣٢١ - خطبة أبي أيوب الأنصاري

ثم قام أبو أيوب الأنصاري فقال :

« إن أمير المؤمنين - أكرمه الله - قد أسمع من كانت له أذن واعية ، وقلب حفيظ إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها ، حيث نزل بين أظهركم ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده ، يُفَقِّهْكُمْ في الدين ويدعوكم إلى جهاد المُجَلِّين ، فوالله لكانكم صُمٌّ لا تسمعون ، وقلوبكم غُلْفٌ^(٢) مطبوعٌ عليها ، فلا تستجيبون . عبادَ الله أليس إنما عهدُكم بالجور والعدوان أمس ، وقد شيل العباد وشاع في الإسلام ، فذو حق محرومٌ مشتومٌ عِرضُهُ ، ومضروب ظهرُهُ ، وملطوم وجهه ، وموطوء بطنه ، ومُلْتَقَى بالعِراء^(٣) ، فلما جاءكم أمير المؤمنين صدعَ بالحق ، ونشَرَ العدل ، وعَمِلَ بالكتاب ، فاشكروا نعمة الله عليكم ، ولا تتولّوا نُجْرَ مِينٍ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، اشحذوا السيوف ، وجددوا آلة الحرب ، واستعدوا للجهاد ، فإذا دُعِيتُمْ فأجيبوا ، وإذا أمرتم فأطيعوا ، تكونوا بذلك من الصادقين . »

(الإمامة والسياسة ١ : ١١٢)

(١) كش الضب كشيشا : صوت . (٢) جمع أغلف ، وقلب أغلف كأنما غشى غلافا فهو

لا يعي . (٣) العراء : الفضاء لا يستتر فيه شيء .

٣٢٢ - خطبة الامام وقد أغار النعمان بن بشير على عين التمر

وفي سنة ٣٩ هـ فرق معاوية جيوشه في أطراف عليّ ، فبعث النعمان بن بشير الأنصاري في ألفين ، فأتوا عين التمر^(١) فأغاروا عليها ، وبها عامل لعليّ في ثلثمائة ، فكتب إلى عليّ يستمده ، فأمر الناس أن ينهضوا إليه فتشاقلوا ، فصعد المنبر فتشهد ثم قال :

« يا أهل الكوفة : كلما سمعتم بمفسر^(٢) من مناصر أهل الشام أظلكم ، انجحر^(٣) كل امرئ منكم في بيته ، وأغلق بابه ، انجحر الضب في جحره ، والضبع في وجارها^(٤) ، المورور من غررتومه ، ولئن فاز بكم فاز بالسهم الأخبب ، لا أحرار عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء^(٥) ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ماذا منيت به منكم ؟ عني لا تبصرون ، وبكم لا تنطقون ، وضم لا تستمعون ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! » .
(تاريخ الطبري ٦ : ٧٧)

وروى الشريف الرضي في نهج البلاغة هذه الخطبة بصورة أخرى وهي :

٣٢٣ - صورة أخرى

منيت^(٦) بمن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت ! لا أبالك ، ما تنتظرون بنصركم ربكم ؟ أما دين يحممكم ، ولا تحية تحمشمكم^(٧) ؟ أفوم فيكم مستصرخا ، وأناديكم متفوتنا^(٨) ، فلا تسمعون لي قولا ، ولا تطيعون لي أمرا ، حتى تكشف الأمور

(١) بلد على الفرات شمال الكوفة . (٢) المنسر : قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(٣) من انجحر الضب : أي دخل جحره . (٤) الوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

(٥) النجاء : السرعة في السير ، نجوت مجاء أي أسرعت وسبقت ، وقالوا : النجاء النجاء ، والنجاء النجاء

فدوا وقصروا . (٦) بليت . (٧) تفضبكم . (٨) قاتلا واغوثاه .

عن عواقب المساءة؟ فما يُدركُ بكم نأر، ولا يُبلغ بكم مَرَام؟ دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ، فَجَرَّجَرْتُمْ^(١) جَرَّجَرَةَ الْجَلِّ الْأَسْرِّ^(٢) وَتَشَاقَلْتُمْ تَشَاقُلَ النَّضْوِ^(٣) الْأَذْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ^(٤) ضَعِيفٌ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ». (نهج البلاغة ١ : ٤٦)

٣٢٤ - خطبة الامام وقد أغار الضحاک بن قيس على الحيرة^(٥)

ووجه معاوية الضحاک بن قيس فأغار على الحيرة وغنم أموال أهلها ، وبلغ ذلك علياً فاستصرخ الناس ، فتقاعدوا عنه ، فقام فيهم خطيباً فقال :

« أيها الناسُ المجتمعَةُ أبدانهم ، المختلفةُ أهواؤهم ، كلامُكم يُوهي الصِّمَّ^(٦) الصَّلَابَ ، وفعلُكم يُطمِعُ فيكم الأعداءُ ، تقولون في المجالسِ كَيْتَ وَكَيْتَ^(٧) ، فإذا جاء القتالُ قلمَ حَيْدِي حَيَادٍ^(٨) ، ما عَزَّتْ دَعْوَةٌ مِنْ دَعَاكُمْ ، ولا اسْتَرَحَ قَلْبٌ مِنْ قَاسَاكُمْ ، أعاليلُ بأضاليل^(٩) ، دفاعَ ذِي الدِّينِ المَطُولِ^(١٠) ، هيهات لا ينعِ الصِّمَّ الذَّلِيلُ ، ولا يُدْرِكُ

-
- (١) الجرجرة : صوت يردده البعير في حنجرتِه ، وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب .
 (٢) المصاب بدء السرر (بالتحريك) ، وهو وجع في الكركرة (رضى زور البعير) .
 (٣) النضو : البعير المهزول ، والأدبر : المدبور أى المجرّوح . (٤) جنيد : تصغير جند ، ومتذائب : أى مضطرب من قولهم : تذاهبت الريح ، أى اضطرب هبوبها ، ومنه سمي الذئب ذئباً لاضطراب مشيته . (٥) شمال الكوفة . (٦) يوهى : يشق ويخرق ، والصم : جمع أصم ، وهو الحجر الصلب المصمت . (٧) بفتح آخرهما ويكسر : أى كذا وكذا . (٨) حيدى حياذ : كلمة يقولها الهارب الفار ، من حاد حيدانا بمعنى مال وانحرف ، أى ابعدى وتجنح عن أيتها الحرب ، وهى نظيرة قولهم (فيبى فيباح) أى اتسمى . (٩) الأضاليل : جمع أضلولة بالضم ، وهى الضلال ، وفى كتب اللغة : العلالة « بالضم) والتعلة (ككتبية) ، والملة (بالفتح) ما يتمل به « ولم أجد فيها كلمة أعاليل ولا مفردتها ولا بد أن تكون جمع أعلولة بالضم : كأضاليل وأحاجيب والأعيب . . الخ . والمعنى إن أقوالكم هذه تعمل بأباطيل لاجدوى لها . (١٠) مبالغة فى ما ملل .

الحقُّ إلا بِالجِدِّ ، أَى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخبب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصِل^(١) ، أصبحتُ والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعِد العدو بكم ، ما بالكم ؟ ما دراؤكم ؟ ما طيبكم ؟ القومُ رجالُ أمثالكم ! أقولاً بغير علم ، وغفلةً من غير ورع ، وطمعاً فى غير حق ! » .

وزاد ابن قُتَيْبَةَ فى الإمامة والسياسة :

« فرَّقَ اللهُ بينى وبينكم ، وأعقبنى بكم من خيرٍ لى منكم ، وأعقبكم بعدى من شرِّ لكم منى ؛ أما إنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً ، وسيقاً قاتلاً ، وأثرةً يتخذها الظالمون بعدى فيكم سنةً ، تفرِّقُ جماعتكم ، وتبسِّكى عيونكم ، وتُدخلُ الفقر بيوتكم ، تَمْتَوْنَ والله عندها أن لورايتمونى ونصرتمونى ، وستعرفون ما أقول لكم عمَّا قليل .

استنفرتكم فلم تنفروا ! ونصحتُ لكم فلم تقبلوا ! وأسمعتكم فلم تعوا ، فأنتم شهود كأغياب ، وصمُّ ذوو أسماع ، أتلو عليكم الحكمة ، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحسكم على جهاد المُحلِّين^(٢) ، الظالمةِ الباغين ، فما أتى على آخر قولى ، حتى أراكم متفرقين ، وإذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً^(٣) عزين^(٤) ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار ، تربت^(٥) أيديكم ، وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغةً عن ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل . » .

(نهج البلاغة : ١ : ٣٩ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١١١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٦)

(١) سهم أفوق مكسور الفوق (بضم الفاء) والفوق : مدخل الوتر من السهم ، والناصل : العارِى عن النصل . (٢) أى الذين خرجوا على إمامهم واستحلوا قتاله . (٣) الحلق : محرّكة جمع حلقة ربسكون اللام) وحلقة القوم : الذين يجتمعون مستديرين . (٤) جمع عزة (بالكسر) : وهى الطائفة من الناس . (٥) دعاء عليهم : أى خسرتهم ولا أصبتم خيراً ، وأصله من ترب الرجل : أى انقصر كأنه لصق بالتراب .

٣٢٥ - خطبة الإمام

وقد أغار صفيان بن عوف الغامدي على الأنبار

ووجه معاوية سُفيان بن عَوْف الغامدي في جيش ، فأغاروا على الأنبار^(١) وقتلوا عامل علىّ عليها وهو حَسَّان بن حسان البكري ، واحتملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها ، وانتهى الخبر إلى علىّ فخرج مُغضِباً حتى أتى النخيلة ، واتبعه الناس فرقَى رِبَاوَةَ^(٢) من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصّة أوليائه ، وهو لبأسُ التقوى ، ودِرْعُ الله الحصينة ، وجَنَّتَهُ^(٣) الوثيقة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله ثوبَ الذل ، وشمله البلاء ، ودِيَتْ^(٤) بالصغار والقماءة^(٥) ، وَضُرِبَ على قلبه بالإسهاب^(٦) ، وأدبِلَ^(٧) الحقُّ منه بتضييع الجهاد ، وسيم الحسْف^(٨) ، ومُنْعَ النِّصْفِ^(٩) ، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزؤم من قبل أن يغزؤكم ، فوالله ما غزى قوم قَطُّ في عُقْمِ^(١٠) دارهم إلا ذلُّوا ، فنخذاذتم

(١) بلد على الفرات . (٢) الربوة والرباوة مثلثين : ما ارتفع من الأرض . (٣) وقابته . (٤) ذل ، وأصله من داث الشيء من باب باع : لان وسهل ومنه الديوث ، وهو الرجل الذي لاغيرة له على أهله ، والصغار : الذل . (٥) قأ : كجمع وكرم ، قامة : ذل وصغر . (٦) هكذا في رواية ابن أبي الحديد ، من أسهب بالضم : أى ذهب عقله ، وفي نهج البلاغة : (طبع الشام) بالأسداد . (٧) من أداله الله من عدوه : أى نصره عليه ، والباء في قوله « بتضييع الجهاد » للسببية . (٨) أى أولى الذل والضم ، وفي رواية المبرد « وسيمى الحسْف » بالإضافة ، والسيمي : العلامة . قال المبرد : هكذا حدثونا وأظنه سيم الحسْف : من قول الله عز وجل « يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » (٩) النصف بالكسر ويثلاث ، والنصف والنصفة محركين الإنصاف . (١٠) وسطها وأصلها .

وتوا كلمت وتُمل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شذت^(١) عليكم الغارات ، ومُلِكت عليكم الأوطانُ ، هذا أخو غامد^(٢) قد وردت خيله الأنبار ، وقتل حسان ابن حسان البكرى ، ورجالاً منهم كثيراً ونساء ، وأزال خيلكم عن مسالِحهما^(٣) .

والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يُدخَل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة^(٤) ، فَيُنزَعُ حِجْلها^(٥) وقُلبها^(٦) ، وقلائدُها ورُعْتها^(٧) ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع^(٨) والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرین^(٩) ، مانال رجلاً منهم كلم^(١٠) ، ولا أريق لهم دم ؛ فلو أن امرأ مسلماً مات من دون هذا أسفاً ، ما كان عندى فيه ملوماً ، بل كان به عندى جديراً .

يا عَجَباً كلَّ العَجَب ! عَجَبٌ يُمِيت القلب ، وَيَشغَل الفهم ، وَيُكثِر الأحزان ! من تَضَافَرِ^(١١) هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حَقكم ، حتى أصبحتم غَرَضاً^(١٢) تُرْمَوْنَ ولا تُرْمَوْنَ ، وَيُعَارُ عليكم ولا تُفِيرُونَ ، وَيُعْضى اللهُ عزَّ وجلَّ فيكم وترضون ، إذا قلت لكم اغزوم في الشتاء ، قلت هذا أوان قر^(١٣) وصر ، وإن قلت لكم اغزوم

-
- (١) شن الغارة عليهم : صبها من كل وجه ، من شن الماء على رأسه إذا صب .
 (٢) يريد سفيان بن عوف الغامدى قائد الحملة على الأنبار . (٣) جمع مسلحة بالفتح : وهى الثغر .
 (٤) المعاهدة : ذات العهد ، وهى الذمية . (٥) الحجل بالكسر والفتح : الخللخال ؛ وهى القيد
 حجل لأنه يكون مكان الخللخال . (٦) القلب : سوار المرأة . (٧) الرعثة بالفتح : القرط ،
 والجمع رعاث بالكسر ، وجمع الجمع رعث بضمين . (٨) قول : إنا لله وإنا إليه راجعون .
 (٩) أى تامين ، وفى رواية المبرد : « موفورين » أى لم ينل أحداً منهم بأن يرزأ فى بدن ولا مال .
 (١٠) جرح . (١١) تعاون وتناصر . (١٢) وفى رواية نهج البلاغة : « فقبحا لكم وترحا
 حين صرتم غرضاً يرمى » وزادت رواية الجاحظ بعد ذلك : « وفيثا يئب » والترج : محرقة الهم ،
 والغرض : الهدف . (١٣) القر مثلثة القاف : البرد ، والصر : شدة البرد . وفى النهج : « وإذا
 أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء ، قلت هذه صبارة القر ، أمهلنا : ينسلخ عنا البرد » وصبارة الشتاء بتشديد
 الراء : شدة برده .

في الصيف ، قلم هذه حجارة^(١) القَيْظ ، أَنْظِرْنَا^(٢) يَنْصَرِمِ الحرعنا ، فإذا كُنتم من الحرِّ والبرد تفرُّون ، فأنتم والله من السيف أفرُّا يا أشباه الرجال ولا رجال ، وَيَا طَعَامَ^(٣) الأحلام ! وَيَا عقول رَبَّاتِ الحِجَالِ^(٤) ، لَوَدِدْتُ أنى لم أركم ولم أعرفكم ، مَعْرِفَةُ اللهِ جَرَّتْ ندمًا ، وأعقت سَدَمًا^(٥) ! قاتلسكم الله ! لقد ملأتم قلبي قَيْحًا^(٦) ، وشحنتم صدرى غَيْظًا ، وَجَرَّ عَتْمُونِي نَعْبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا^(٧) ، وأفسدتم على رأبي بالعصيان والخذلان ، حتى لقد قالت قریش : إن ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأى له في الحرب الله دَرَمٌ^(٨) ! ومن ذا يكون أعلم بها منى ، أو أشدَّ لها مِرَاسًا ؟ فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نَيْفَتْ^(٩) اليوم على الستين ، ولكن لا رأى لمن لا يُطَاع (يقولها ثلاثًا) .

فقام إليه رجل ومعه أخوه^(١٠) فقال :

« يا أمير المؤمنين أنا وأحى هذا ، كما قال الله تعالى : (رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي

(١) شدة الحر . (٢) أى أهلنا حتى ينسلخ الحر ، وفي رواية النهج « أهلنا يسبخ عنا الحر » بتشديد الباء المفتوحة : أى يخف ويسكن ، وكل من خفف عنه شيء فقد سبخ عنه ، ومنه قولهم : اللهم سبخ عنى الحمى : أى خففها . (٣) أوغاد الناس ومن لا عقل له ولا معرفة عنده . والأحلام العقول : جمع حلم بالكسر ، ويجمع أيضا على حلوم ، وفي رواية النهج : « حلوم الأطفال » . (٤) الحجال : جمع حجلة بالتحريك ، وهى القبة ، وموضع يزين بالستور والثياب للعروس - كناية عن النساء . (٥) السدم : الهم ، أو مع ندم ، أو غيظ مع حزن . (٦) القيج : ما يكون فى القرحة من صديدها ، وشحنتم : ملأتم ، وفي رواية الكامل : « ولقد ملأتم جوفى غيظا » . (٧) النعب : جمع نعبة بالفتح والضم ، وهى الجرعة ، والتهمام : الهم ، وأنفاسا أى جرعة بعد جرعة ، يقال : اكرع فى الإناء نفسين أو ثلاثة . (٨) لله دره : أى عمله ، والدر أيضا : اللبن ، أى لله اللذى الذى رضعه ، وهو تعجب أريد به التهمك ، وفي رواية النهج : « لله أبوهم » ! (٩) نيفت : زدت ورواية النهج : « وهأنذا قد ذرفت على الستين » أى زدت أيضا . (١٠) الرجل وأخوه : يعمران بابنى عفيف من الأنصار .

وَأَخِي (فَمَرْنَا بِأَمْرِكَ ، فَوَاللَّهِ لَنَنْتَهِيَنَّ إِلَيْهِ ، وَلَوْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ جَهْرَ الْغَضَا^(١)) ، وَشَوْكِ الْقَتَادِ^(٢) » فدعا لها بنخبر ، ثم قال لها : « وأين تقمان مما أريد ؟ » ثم نزل .

(نهج البلاغة ١ : ٣٥ ، الكامل للمبرد ١ : ١١ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٥ ، والأغانى ١٥ : ٤٣)

٣٢٦ — خطبة للحسن بن علي في يوم الجمعة

اعتلّ الإمام علي كرم الله وجهه يوماً ، فأمر ابنه الحسن رضي الله عنه أن يصلي بالناس يوم الجمعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله لم يبعث نبياً إلا اختار له نفساً ورهطاً وبيتاً ، فوالذي بعث محمداً بالحق ، لا يَنْتَقِصُ من حقنا أهل البيت أحدٌ ، إلا نقصه الله من عمله مثله ، ولا يكون علينا دولةٌ إلا وتكون لنا العاقبة ، وَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بعد حين . » (مروج للذهب ٢ : ٥٣)

٣٢٧ — خطبة معاوية وقد بلغه هلاك الأشتر

ولما نعى إلى معاوية هلاك الأشتر النخعي^(٣) ، قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

(١) شجر جمره يبق طويلاً . (٢) شجر صلب له شوك كالإبر .

(٣) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي توفي سنة ٣٨ هـ . روى المؤرخون أنه مات مسموماً سمه معاوية ، وذلك أن الإمام علياً كان قد ولي على مصر محمد بن أبي بكر ففسدت عليه ، وخرجت عليه بها خوارج ، فبعث إليها الأشتر وأنت معاوية عيونه فأخبروه بولاية الأشتر ، فعظم ذلك عليه ، وقد كان طمع في مصر ، فلم أنه إن قدمها كان أشد عليه من ابن أبي بكر ، فبعث إلى الجليستار (رجل من أهل الخراج) ، فقال له : إن الأشتر قد ولي مصر ، فإن أنت كفيته لم آخذ منك خراجاً ما بقيت ، (وقيل قال له أترك خراجك عشرين سنة) فاحتل له بما قدرت عليه ، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر ، فلما انتهى =

« أما بعد : فإنه كانت لعلی بن أبی طالب یدان یمینان ، قَطِعتَ إحداهما یوم صفرین
(یعنی عمار بن یاسر) ، وقَطِعتَ الأخرى الیوم (یعنی الأشتر) » .

(تاریخ الطبری ٦ : ٥٤)

= إلى القلزم استقبله الجایستار ، فقال : هذا منزل وهذا طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج ، فنزل به
الأشتر ، وسأل الدهقان : أى الطعام والشراب أحب إلیه ؟ قیل العسل ، فأهدى له عملا قد جعل فیه سما
وقال : إن من شأنه كذا وكذا ، فتناول منه شربة ، فا استقرت فی جوفه حتى ثلث ، وأتى من كان معه
عل الدهقان ومن معه ، فبلغ ذلك علیا ، فقال : « للیدین والفم » وبلغ معاوية ، فقال : « إن لله جنودا
منها العسل » .

فتنة البصرة

تسيير معاوية عبد الله بن عامر الحضرمي إليها ومقتله

لما قُتل محمد بن أبي بكر بمصر وظهر معاوية عليها (سنة ٣٨ هـ) دعا عبد الله ابن عامر الحضرمي ، فقال له : « سِرْ إِلَى البصرة فَإِنَّ جُلَّ أَهْلِهَا يرون رأينا في عثمان ، وَيُعْظِمُونَ قِتْلَهُ ، وَقَدْ قُتِلُوا فِي الطلَب بدمه ، فهُمْ مَوْتُورُونَ حَفَنُونَ لِمَا أَصَابَهُمْ ، وَذُؤُوا لَوْ يَجِدُونَ مِنْ يَدْعُوهُمْ وَيَجْمَعُهُمْ ، وَيَنْهَضُ بِهِمْ فِي الطلَب بدم عثمان ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابًا ، وَأَمْرَهُ إِذَا قَدِمَ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ^(١) ، فَضَى حَتَّى نَزَلَ البصرة فِي بَنِي تَمِيم ، فَسَمِعَ بِقُدُومِهِ أَهْلَ البصرة ، فَجَاءَهُ كُلُّ مَنْ يَرَى رَأْيَ عُثْمَانَ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ رَهْوسُ أَهْلِهَا .

(١) وكان الذي سدد لمعاوية رأيه في تمريح ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عباس بن صهار العبدى ، وفيه : « أما بعد : فقد بلغنا وقتك بأهل مصر الذين بغوا على إمامهم ، وقتلوا خليفتهم طمعا وبغيا ، فقررت بذلك العيون ، وشفيت بذلك النفوس ، وبردت أفئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولسك موالين ، وبك راضين ، فإن رأيت أن تبعث إلينا أميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين إلى الطلَب بدم عثمان فعلت ، فإن لا إخال الناس إلا مجمعين عليك ، وإن ابن عباس غائب عن المصر والسلام » فكتب إليه معاوية « أما بعد : فقد قرأت كتابك ، فمررت نصيحتك ، وقبلت مشورتك . رحلك الله وسددك ، اثبت هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنك بالرجل الذي سألت قد أتاك ، وكأنك بالجيش قد أطل عليك ، فمررت وحييت والسلام » .

٣٢٨ - خطبة عبد الله بن عامر الحضرمي

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفان ، قتله على بن أبي طالب ظلماً ، فطلبتم بدمه ، وقاتلتهم من قتله ، فجزاكم الله من أهل مصر خيراً ، وقد أصيب منكم الملاء الأخيار ، وقد جاءكم الله بإخوان لكم ، لهم بأسٌ يُتَّقَى ، وعددٌ لا يُحصى ، فلقوا عدوكم الذين قتلوكم ، فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين ، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا ، فالنوم^(١) وساعدوهم ، وتذكروا ثأركم ، ليشفوا صدوركم من عدوكم . »

٣٢٩ - خطبة الضحاک بن عبد الله الهلالي

فقام إليه الضحاک بن عبد الله الهلالي فقال :

« قَبَّحَ اللهُ ما جِئْتَنَا بِهِ ، وما دعوتنا إليه ، جئتنا والله بمنزل ما جاء به صاحبك : طلحة والزبير ، أتينا وقد بايعنا علينا واجتمعنا له ، فكلمتنا واحدة ، ونحن على سبيل مستقيم ، فدعوانا إلى الفرقة ، وقاما فينا بزُخُوف القول ، حتى ضربنا بعضنا ببعض عدواناً وظلماً ، فاقتلنا على ذلك ، وإيم الله ما سلّمنا من عظيم وبالٍ ذلك ، ونحن الآن مُجْمِعُونَ على بيعة هذا العبد الصالح ، الذي أقال العثرة ، وَعَقَا عن المسيء ، وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا ، أفنأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أعماها ، ثم يضرب بعضنا بعضاً ، ليكون معاوية أميراً ، وتكون له وزيراً ، ونعدّل بهذا الأمر عن عليّ ؟ والله ليؤمّ من

(١) ساعدوهم .

أيام على مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية ، لو بقوا في الدنيا ، ما الدنيا باقية^(١) .

فقام عبد الله بن حازم السلمى ، فقال للضحاك : « اسكت فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة » ثم أقبل على ابن الحضرمي ، فقال : « نحن يدك وأنصارك . والقول ما قلت ، وقد فهمنا عنك ، فادعنا أنى شئت » فقال الضحاك لابن حازم : « يا ابن السوداء^(٢) ، والله لا يعزُّ من نصرت ، ولا يذلُّ بحذلانك من خذلت » فذشاما .

٣٣٠ - خطبة عبد الرحمن بن عمير القرشي

فقام عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي التيمي فقال :

« عباد الله : إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد أن تتمتلوا وتتنازوا^(٣) ولكننا إنما ندعوكم إلى أن تجمعوا كلمكم ، وتوازروا إخوانكم الذين هم على رأيكم ، وأن تلمؤوا شعشعكم ، وتصلحوا ذات بينكم ، فهلاً مهلاً رحماً الله ، استمعوا لهذا الكتاب ، وأطيعوا الذى يقرأ عليكم . »

فلما قرئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : « سمعنا وأطعنا » وقال الأحنف بن قيس : « أما أنا فلا ناقة لى فى هذا ولا جمل^(٤) » ، واعتزل أمرهم ذلك ، وقال عمرو بن مرحوم من عبد القيس : « أيها الناس ، الزموا طاعتكم ، ولا تنكثوا ببعثكم ، ففتح

(١) ما : ظرفية ، أى مادامت الدنيا باقية . (٢) وكانت أمه سوداء حبشية يقال لها عجل .

(٣) التبز : محركة اللقب ، والتناز : التعارض والتداعى بالألقاب . (٤) أصل المثل للحارث

ابن عباد البكرى حين قتل جساس بن مرة كليبا ، وهاجت الحرب بين بكر وتغلب (حرب البسوس) وكان الحارث قد اعتزلهما ، والقصة مشهورة .

بكم واقعة ، وتصيبكم قارعة^(١) ، ولا يكن بعدها لكم بقية ، ألا إني قد نصحت لكم ولكن لا تحبثون الناصحين .

* * *

ثم إن الناس أقبلوا إلى ابن الحضرمي وكثر تبعه - وكان الأمير بالبصرة يومئذ زياد ابن أبيه استخلفه عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على علي عليه السلام يعزيه عن محمد ابن أبي بكر - فأفزع ذلك زيادا وهاله ، وخلى قصر الإمارة ، واستجار بالأزد فأجاروه ، وكتب إلى ابن عباس بالأمر ، وطلب إليه أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، ليرى فيه رأيه ، وغلب ابن الحضرمي على ما يليه من البصرة وجباها ، وأجمت الأزد على زياد ، وأعدوا له منبراً وسريراً وشُرطاً .

٣٣١ - خطبة زياد بن أبيه

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأزد : إنكم كنتم أعدائي ، فأصبحتم أوليائي وأولى الناس بي ، وإني لو كنت في بني تميم ، وابن الحضرمي فيكم ، لم أطع فيه أبداً ، وأنتم دوني ، فلا يطع ابن الحضرمي فيّ وأنتم دوني ، وليس ابن آكلة الأكباد - في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان - بأدنى إلى القلعة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار ، وقد أصبحت فيكم مضموناً ، وأمانة مؤداة ، وقد رأينا وقيمتكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل ، فإنكم لا تمعدون إلا على النجدة ، ولا تعذرون على الجبن . »

٣٣٢ - خطبة شيان الأزدي

فقام شيان الأزدي - ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائباً - فقال :

« يا معشر الأزد : ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على عليّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أن إسلامكم^(١) له ذلّ ، وَخِذْلَانِكُمْ إياه عار ، وأنتم حتىّ مضاركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ، فإن سار القوم بصاحبهم فسبروا بصاحبكم ، وإن استمدّوا معاوية فاستمدّوا عليّاً عليه السلام ، وإن وادعوك فوادعوم . »

٣٣٣ - خطبة صبرة بن شيان

ثم قام صبرة ابنه ، فقال :

« يا معشر الأزد : إنا قلنا يوم الجمل نمنع مصرنا ، ونطيع أمنا ، ونطلب دم خليفتنا المظلوم ، نجددنا في القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قتل منا من لا خير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من عليّ ما نخاف من معاوية ، فهبوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم ، أو فأبلفوه مأمنه . »
فقال الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجبروه .

٣٣٤ - خطبة الإمام علي

واستنفر عليّ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي ، ويردّ عادية بنى تميم الذين أجاروه بها ، فلم يجبه أحد فخطبهم وقال :

(١) أسلمه : خذله .

« أليس من العجب أن ينصرني الأزدي^(١) ، وَتَحَذُّنِي مُضَرَ ؟ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ تَقَاعُدُ نَمِيمِ الْكُوفَةِ بِي ، وَخِلَافُ تَمِيمِ الْبَصْرَةَ عَلَيَّ ، وَأَنْ أَسْتَجِدَّ بِطَائِفَةٍ مِنْهَا تَشْخَصَ إِلَى إِخْوَانِهَا فَتَدْعُوهُمْ إِلَى الرَّشَادِ ، فَإِنْ أَجَابَتْ وَإِلَّا فَلَمَّا بَدَأَتْ وَالْحَرْبَ ، فَكَأَنِّي أَخَاطَبُ صُمَّاً بُلْكَماً ، لَا يَفْقَهُونَ حِوَاراً ، وَلَا يُجِيبُونَ نِدَاءً ، كُلُّ هَذَا جُبْنًا عَنِ الْبَأْسِ ، وَحُبًّا لِلْحَيَاةِ ، لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا ، وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا^(٢) ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، وَمُضِيًّا عَلَى الْأَمِّ^(٣) ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلْمِ ، وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُونَا يَتَصَاوَلَانِ^(٤) تَصَاوُلَ الْفُجْحَيْنِ يَتَخَالَسَانِ^(٥) أَنْفُسَهُمَا ، أَيُّهُمَا يَسْقَى صَاحِبَهُ كَأْسَ الْيَمُونِ ، فَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُونَا ، وَمَرَّةً لِعَدُونَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُونَا الْكَيْتَ^(٦) ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقَمِيًّا جِرَانَهُ^(٧) ، وَمَتَّبَعُونَا أَوْطَانَهُ ، وَلِعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ ، وَإِيْمَ اللَّهُ لَتَحْتَبِئِبَهَا دَمًا^(٨) ، وَلَتُنْدَبِعَهَا نَدْمًا .

فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْيُنُ بْنُ ضُبَيْعَةَ الْمُجَاشِعِيُّ^(٩) فَقَالَ :

« أَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَكْفِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا الْخَطْبَ ، وَأَنْكَفَلَ لَكَ بِقَتْلِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، أَوْ إِخْرَاجِهِ عَنِ الْبَصْرَةِ » فَأَمَرَهُ بِالتَّهَيُّؤِ لِلشَّخْصِ ، فَشَخَّصَ إِلَى الْبَصْرَةِ .

(١) هم من العرب اليمانيين . (٢) قتلهم الأقارب في ذات الله كثير ، قتل على عليه السلام الجهم الغفير من بني عبد مناف وبني عبد الدار في يوم بدر وأحد وهم عشيرته وبنو عمه ، وقتل عمر بن الخطاب يوم بدر خاله العاص بن هاشم بن المغيرة ، وقتل حمزة بن عبد المطلب شبيهة بن ربيعة يوم بدر وهو ابن عمه ، ومثل ذلك كثير مذكور في كتب السيرة . (٣) لقم الطريق : الجادة الواضحة منها . (٤) التصادول : أن يصول كل من القرنين على صاحبه . (٥) التخالس : التسالب ، أي يبغي كل أن يسلب روح الآخر . (٦) الإذلال . (٧) جران البعير : مقدم عنقه ، وهو كناية عن التمكن كالبعير يلتقي جرانه على الأرض . (٨) يقال لمن أسرف في الأمر : تحتلبن دما ، وأصلها الناقة يفرط في حلبها فيحلب الخالب الدم . (٩) مجاشع بن دارم : أبو قبيلة من تميم ، وأعين بن ضبيعة ، هو الذي عقر الجمل الذي كانت عليه عائشة يوم الجمل .

٣٣٥ - خطبة أعين بن ضبيعة

فلما قدمها دخل على زياد ، وهو بالأزد مقيم فأخبره بأسره ، ثم خرج فأتى رحله ، فجمع إليه رجالا من قومه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا قوم : على ماذا تقتلون أنفسكم ، وتَهْرَيْقون دماءكم ، على الباطل مع السفهاء الأشرار ؟ وإني والله ما جئتكم حتى عُيِّبَت إليكم الجنود ، فإن تَنبَّهوا إلى الحق يُقبل منكم وَيُكَفَّ عنكم ، وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبواركم » .

فقالوا بل نسمع ونطيع ، فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمي ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمي وواقفهم عامة يومه يناشدهم الله ويقول : « يا قوم لا تنكثوا بيمينكم ، ولا تُخالفوا إمامكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ، فقد رأيتم وجرَّبتهم كيف صنع الله بكم عند نكثكمُ بيمينكم وخلافكم » .

فكفوا عنه وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه فانصرف عنهم ، فلما أوى إلى رحله تَبِعَهُ عشرة نَفَرٍ يظن الناس أنهم خوارج فقتلوه ، وكتب زياد إلى الإمام بذلك ، فأشخص إليهم جارية بن قدامة .

٣٣٦ - خطبة جارية بن قدامة

فلما دخل البصرة بدأ بزياد ، ففاجاه ساعة وساءله ، ثم خرج من عنده ، فقام في الأزد فقال :

« جزاكم الله من حَيٍّ خَيْرًا ، ما أعظم غناكم^(١) ، وأحسن بلاءكم ، وأطوعكم

(١) أي كفايتكم ونعمكم .

لأميركم ، لقد عرفتم الحق إذ ضيَّعَهُ من أنكره ، ودعوتهم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه «
ثم قرأ عليهم كتاب عليّ عليه السلام ، فقام صَبْرَةَ بن شيان ، فقال : « سمعنا وأطعنا ،
ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حَرْبٌ ، ولبن سالم سَلِمٌ ، إن كفيت يا جارية قومك بقومك
فذاك ، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك » وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ، فلم
يأذن لأحد منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بني تميم .

٣٣٧ - خطبة زياد

فقام زياد في الأزد فقال :

« يا معشر الأزد : إن هؤلاء كانوا أمسِ سلما ، فأصبحوا اليوم حربا ، وإنكم
كنتم حربا فأصبحتم سلما ، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقت فيكم إلا
على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتموني ، حتى نصبتُم لي منبرا وسريرا ، وجعلتم لي شُرطا
وأعوانا ، ومُناديا وجمعة ، فما فقدتُ بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم لا أجيبه اليوم ، فإن لم
أجبه اليوم أجبه غداً إن شاء الله ، واعلموا أن حربكم اليوم معاوية أيسرُ عليكم في الدنيا
والدين من حربكم أمسِ عليا ، وقد قدِمَ عايكم جاريةُ بن قدامة ، وإنما أرسله عليّ ليصدع
أمر قومه ، والله ما هو بالأمر المطاع ، ولو أدرك أمّله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين ، ولكان
لي تبعا ، وأنتم الهامة العظمى ، والجمرة الحامية ، فقدّموه إلى قومه ، فإن اضطرَّ إلى
نصركم ، فسيروا إليه إن رأيتم ذلك » .

٣٣٨ - خطبة أبي صبرة شيان

قام أبو صبرة شيان فقال :

« يا زياد ، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل رجوت ألا يقاتلوا علياً ، وقد مضى الأمر بما فيه ، وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسّيء ، والتوبة مع الحق ، والعفو مع الندم ، ولو كانت هذه فتنةً لدعونا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولكنها جماعةٌ ، دماؤها حرام ، وجروحها قصاصٌ ونحن معك نحبُّ ما أحببت . »

فمجب زياد من كلامه ، وقال : « ما أظنُّ في الناس مثل هذا » .

٣٣٩ - خطبة صبرة ابنه شيان

ثم قام صبرة ابنه فقال :

« إنا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا ، كما أصبنا أمس يوم الجمل ، وإنا لندرجو اليوم أن يُمحصَّ^(١) ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين . وأما أنت يا زياد ، فوالله ما أدركت أملك فينا ، ولا أدركنا أملنا فيك ، دون ردك إلى دارك ، ونحن رادوك إليها غداً إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلينا فلا يكن أحد أولى بك منا ، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يُشبهك ، وإنا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة ، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا ، فقدّم هواك ، وأخر هوانا ، فنحن معك وطوعك » .

(١) من محص الذهب بالنار كقطع : أخلصه ما يشوبه .

٣٤٠ - خطبة خنفر الحماني

ثم قام خنفر الحماني فقال :

« أيها الأمير : إنك لو رضيت منا بما ترضى به من غيرنا ، لم نرضَ ذلك لأنفسنا ، سربنا إلى القوم إن شئت ، وإيم الله ما لقينا يوماً قط إلا اكتفينا بمفونا^(١) دون جُهدنا ، إلا ما كان أمس . »

أما جارية فإنه كلم قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه ، فأرسل إلى زياد والأزد يستصرخهم ، فسارت الأزد بزياد ، وخرج إليهم ابن الحضرمي وعلى خيله عبد الله بن حازم السلمي ، فاقتتلوا ساعة ، فالبثوا بني تميم أن هزموم ، وحصروا ابن الحضرمي في إحدى دور البصرة ، في عِدَّة من أصحابه ، وحرق جارية الدار عليهم ، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلا ، وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ومعه بيت المال ، وقالوا له : هل بقي علينا من جوارك شيء ؟ قال : لا ، فانصرفوا عنه ، وكتب زياد بذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

(شرح ابن أبي الحديد : ١ ص ٣٤٨ ، ونهج البلاغة : ١ : ٥٣)

٣٤١ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

أرسل على تكريم الله وجهه إلى معاوية بالشام كتابا صُحْبَةَ صَعْصَعَةَ بن صُوحان ، فسار به حتى أتى دمشق ، فأنى باب معاوية ، فقال لِأَذْنِهِ ، اسْتَأْذِنْ لِرَسُولِ أمير المؤمنين على بن أبي طالب - وبالباب جماعة من بني أمية - فأخذته النعال والأيدي ، لقوله « أمير المؤمنين » ، وكثرت عليه الجلبة ، فاتصل ذلك بمعاوية ، فأذن له ، فدخل عليه ،

(١) المفو : الزيادة .

فقال : السلام عليك يا ابن أبي سُفيان ، هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال معاوية : أما إنّه لو كانت الرسل تُقتلُ في جاهلية أو إسلام لقتلتك ، ثم اعترضه معاوية في الكلام ، وأراد أن يستخبره ، ليعرف طيناً أو تكلفاً ، فقال له بمن الرجل ؟ قال من نزار ، قال وما كان نزار ؟ قال كان إذا غزا انكش^(١) ، وإذا لقي افترش^(٢) ، وإذا انصرف احترش^(٣) ، قال فمن أيّ أولاده أنت ؟ قال من ربيعة ، قال وما كان ربيعة ؟ قال : كان يطيل النجّاد^(٤) ، ويعول العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العمّاد . قال فمن أيّ أولاده أنت ؟ قال من جديلة ، قال وما كان جديلة ؟ قال كان في الحرب سيفاً قاطعاً ، وفي المكرّمات غيثاً نافعاً ، وفي اللقاء لهباً ساطعاً ، قال فمن أيّ أولاده أنت ؟ قال من عبد القيس ، قال وما كان عبد القيس ؟ قال كان حسناً أبيض^(٥) وهاباً ، يقدم لضيّفه ما وجد ، ولا يسأل عما فعدّ ، كثير المرقّ ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء ، قال ويحك يا ابن صُوحان ! فما تركت لهذا الحيّ من قريش مجداً ولا فخراً ؟ قال بلى والله يا ابن أبي سُفيان ؟ تركت لهم ما لا يصلح إلّا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر^(٦) ، والسرير والمُنْبِر^(٧) ، والملك إلى المحشر . ففرح معاوية ، وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها ، قال : صدقت يا ابن صُوحان ، إن ذلك لكذلك ، فعرف صمصمة ما أراد ، فقال : ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد^(٨) ، بعدتم عن أنف^(٩) المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء ، قال ولم ذلك ؟ ويلك يا ابن صُوحان ! فقال الويل لأهل النار ،

(١) انكش وتكش : أسرع ، والكيش : الرجل السريع . (٢) افترش فلانا : غلبه وصرعه .

(٣) احترش الشيء : جمعه وكسبه . (٤) حائل السيف ، وهو كناية عن طول القامة .

(٥) أي أبيض اللون كناية عن أنه حر لارقيق ، أو أبيض العرض نقيه . (٦) الأحمر : الذهب ،

والأبيض : الفضة (والسيف أيضاً) والأصفر : الذهب . كناية عن الغنى والثروة (وقد كان لقريش

في الجاهلية مركز تجارى هام) . (٧) كناية عن الملك والمقدرة الخطابية . (٨) أورد إبله الماء

وأصدرها : ردها وأرجعها . (٩) روضة أنف : لم ترع .

ذلك لبني هاشم ، قال قم ، فأخرجوه . فقال صعصعة : الوعد ببني وبينك لا الوعيد ، من أراد المناجزة ، يقبل المناجزة^(١) ، فقال معاوية لشيء ما سوّده قومه ، ودِدْتُ أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بنى أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال !

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٧٧)

٣٤٢ - صورة أخرى

وروى أبو على القالى هذا الخبر فى الأمالى بصورة أخرى ، قال :

« دخل صعصعة بن ضوحان على معاوية أول ما دخل عليه - وقد كان يَبْتُلُغ معاوية عنده فقال معاوية : بمن الرجل ؟ فقال رجل من نزار ، قال وما نزار ؟ قال : كان إذا غزا انحوش^(٢) ، وإذا انصرف انكش ، وإذا لَبِقَ افترش ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من ربيعة ، قال : وما ربيعة ؟ قال كان يغزو بالخليل ، ويُغِيرُ بالليل ، ويجود بالنَّيْل ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من أمهر^(٣) ، قال : وما أمهر ؟ قال : كان إذا طلب أفضى^(٤) ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى^(٥) قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من جديلة قال : وما جديلة ؟ قال : كان يُطِيلُ النَّجَاد ، وَيُمِدُّ الجياد ، ويُجِيدُ الجِلَاد ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من دُعِمَى ، قال : وما دُعِمَى ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشرّاً قاطعاً ، وخيراً نافعاً ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من أفضى

(١) وفى مروج الذهب : « من أراد المشاجرة قبل المحاورة » والوارد فى الأمثال : « المناجزة قبل

المناجزة » أى المسالمة قبل المماثلة فى القتال ، يضرب لمن يطلب الصلح بعد القتال . (٢) لم أجد

هذه الكلمة فى كتب اللغة ، وأرى أنها محرفة عن (احترش) كما ورد فى رواية صبح الأعشى ، وإن اختلف

تأليف الجمل فى الروایتين . (٣) وفى نسخة : « من أسد ، قال وما أسد ؟ » . (٤) أفضى إلى

الشيء : وصل إليه . (٥) أنضى بغيره : هزله ، وأنضى الثوب : أبلاه .

قَالَ : وَمَا أَفْصَى ؟ قَالَ كَانَ يَنْزِلُ الْقَارَاتُ ^(١) ، وَيَكْثُرُ الْغَارَاتُ ، وَيَحْمِي الْجَارَاتُ ، قَالَ :
 فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ قَالَ : وَمَا عَبْدُ الْقَيْسِ ؟ قَالَ : أَبْطَالٌ ذَادَةٌ ^(٢) ،
 جَحَاجِحَةٌ ^(٣) سَادَةٌ ، صِنَايِدُ قَادَةٌ ، قَالَ : فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ أَفْصَى ، قَالَ : وَمَا
 أَفْصَى ؟ قَالَ : كَانَتْ رِمَاحُهُمْ مُشْرَعَةً ^(٤) وَقُدُورُهُمْ مُتْرَعَةً ^(٥) ، وَجِفَانُهُمْ مُفْرَعَةً ، قَالَ :
 فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ لُسْكَيْزٍ ، قَالَ : وَمَا لُسْكَيْزٌ ؟ قَالَ : كَانَ يَبَاشِرُ الْقِتَالَ ،
 وَيَمَانِقُ الْأَبْطَالَ ، وَيُبَدِّدُ الْأَمْوَالَ ، قَالَ : فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ عَجَلٍ ، قَالَ :
 وَمَا عَجَلٌ ؟ قَالَ : اللَّيْثُ الضَّرَّاعِمَةُ ^(٦) ، الْمَلُوكُ الْقَمَاقِمَةُ ^(٧) ، الْقُرُومُ الْقَشَاعِمَةُ ^(٨) ، قَالَ :
 فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ كَعْبٍ ، قَالَ : وَمَا كَعْبٌ ؟ قَالَ : كَانَ يُسَمَّرُ ^(٩) الْحَرْبَ ،
 وَيُجِيدُ الضَّرْبَ ، وَيَكْشِفُ الْكَرْبَ ، قَالَ : فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ مَالِكٍ ،
 قَالَ : وَمَا مَالِكٌ ؟ قَالَ : هُوَ الْهَمَامُ لِلْهَمَامِ ، وَالْقَمَقَامُ لِلْقَمَامِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ . مَا تَرَكْتُ لِهَذَا
 الْحَيِّ مِنْ قَرِيضٍ شَيْئًا ، قَالَ : بَلْ تَرَكْتُ أَكْثَرَهُ وَأَحَبَّهُ ، قَالَ : وَمَاهُو ؟ قَالَ : تَرَكْتُ لَهُمْ
 الْوَبْرَ وَالْمَدْرَ ^(١٠) وَالْأَبْيَضَ وَالْأَصْفَرَ ، وَالصَّفَا وَالْمَشْعَرَ ^(١١) ، وَالْقُبَّةَ وَالْمَفْخَرَ ، وَالسَّرِيرَ
 وَالْمِنْبَرَ ، وَالْمَلِكَ إِلَى الْمَحْشَرِ ، قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ يَسُوءُنِي أَنْ أَرَاكَ أَسِيرًا قَالَ : وَأَنَا
 وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ يَسُوءُنِي أَنْ أَرَاكَ أَمِيرًا ، ثُمَّ خَرَجَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ ، فَرُدُّ ، وَوَصَلَهُ وَأَكْرَمَهُ .
 (الْأَمْالُ ٢ : ٢٣٠)

* * *

- (١) القارات : جمع قارة ، وهي الجبيل الصغير . (٢) جمع ذائد ، وهو المدافع .
 (٣) جمع جحجج : وهو السيد ، كالجججاج . (٤) مسددة . (٥) مملوءة .
 (٦) جمع ضرغام ، وهو الأسد . (٧) جمع ققام بالفتح ويضم ، وهو السيد .
 (٨) القروم ، جمع قرم : كشمم ، وهو السيد ، والقشاعة : جمع قشعم ، كجففر ، وهو الرجل
 المسن (كناية عن كثرة التجربة) والأسد . (٩) سعر الحرب : كنع ، وسعرها : أوقدها .
 (١٠) كناية عن البادية ، والمدر : المدن والحضر . (١١) شمار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ،
 والشعيرة والشعارة بالفتح ، والمشمع موضعها ، والمشمع الحرام : بالمزدلفة .

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :

« قال معاوية يوماً وعنده صعصعة ، وكان قدِمَ عليه بكتاب علىّ ، وعنده وجوه الناس : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما أخذُ من مال الله فهو لى ، وما تركت منه كان جائزاً لى » فقال صعصعة :

مُتَمِّتِكَ نَفْسُكَ مَالاً يَكُونُ جَهْلًا ، مُعَاوِيَ لَا تَأْتِمُّ

فقال معاوية : يا صعصعة تملئت الكلام ، قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يجهل ، قال معاوية : ما أحوجك إلى أن أذيقك وبأل أمرِكَ ، قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذى لا يؤخرُ نفساً إذا جاء أجلها ، قال : ومن يحول بينى وبينك ؟ قال : الذى يحول بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير ، قال : اتسع بطن من لا يشبع^(١) ، ودعا عليه من لا يجمع^(٢) .

(مروج الذهب ٢ : ٧٩)

(١) يعرض بمعاوية إذ كان مبطانا (أى أكلوا) وكان أيضا بطينا (أى عظيم البطن) ، وقد قال فيه سيدنا على فى وقعة صفين :

أضربهم ولا أرى معاوية الجاحظ العين العظيم الخاوية
(والخاوية ماتحوى من الأمعاء أى العظيم البطن) .

(٢) دعا عليه : معطوف على لايشبع : أى اتسع بطن من دعا عليه من لا يجمع ، والمراد بمن لا يجمع النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد دعا على معاوية بالنهم وعدم الشبع ، ومعنى لا يجمع أى لا يجمع الدنيا ولا يجمع إليها ، وهو تمرىض آخر بمعاوية . أما دعاء رسول الله عليه فقد روى ابن الأثير فى أسد الغابة - ٤ : ٣٨٦ - قال : « عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواريت خلف باب ، قال فجاء ، فحطاني حطاة - والحطو : تحريك الشيء مزعرا - وقال اذهب فادع لى معاوية ، قال فجئت فقلت هو يأكل ، ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ، قال : فجئت فقلت هو يأكل ، فقال : لا أشبع الله بطنه » أخرج مسلم هذا الحديث بعينه لمعاوية .

٣٤٣ - تمة في الحكم^(١)

من كلام أبي بكر الصديق رضى الله عنه :

« إن الله قرَنَ وعده بوعيده ليكون العبدُ راعباً راهباً . ليست مع العزَاءِ مُصِيبَةٌ . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاث مَنْ كُنَّ فيه كن عليه : البِنَى ، واللَّتْكَ ، والمكْر . ذَلَّ قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، لا يكونن قولك لَنفوا في عفو ولا عقوبة . إذا فاتك خير فأدركه ، وإن أدركك شرٌّ فاسْبِقْهُ . إن عليك من الله عيوناً تراك . احْرِصْ على الموت تُوَهَّبْ لك الحياة - قاله لخالد بن الوليد حين بعته إلى أهل الرِّدَّة - رحم الله امرأً أعان أخاه بنفسه . أطوع الناس لله أشدَّهم بغضاً لمصيبته . إن الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك ، إن أولى الناس بالله أشدَّهم تولياً له . لا تجعل شرك مع علانيتك ، فَيَمْرَجْ^(٢) أمرك ، خير الخصلتين لك أبغضهما إليك . صنائع المعروف تقي مصارع السوء . »

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« من كتم سره كان الخيار في يده . أشقى الولاة من شَقِيَّتْ به رعيتَه . اتقوا من تَبَغِضَهُ قلوبكم . أعقل الناس أعذرهم للناس . لا تؤجل عمل يومك لغدك . من لم يعرف الشرَّ كان جديراً أن يقع فيه . ما الخمرُ صِرْفاً بأذهبَ للمقول من الطمع . قلنا أدبر شيء فأقبل . مرُّ ذوى القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ، تَمَحَّضْ عن الدنيا عينك وَوَلِّ عُنْهَا قلبك . وإياك أن تُهْلِكَ كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعها ،

(١) فى كتب الحديث الشريف مآثور أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وجوامع كلمه ، وفى نهج

البلاغة ، وشرح ابن أبى الحديد عليه وغيرهما كثير من حكم الإمام على كرم الله وجهه قاتراها هناك .

(٢) يفسد ويختلط .

وعاينت سوء آثارها على أهلها ، وكيف عَرِي من كَسْت ، وجاع من أطمعت ، ومات من أحييت . احتفظ من النعمة احتفاظك من المصيبة ، فوالله لى أخوهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك . الدنيا أمل مخترَم وأجل منتَقص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرأ فكر في أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه واستقال ذنبه . إياكم والبِطْنة فإنها مَكْسَلَةٌ عن الصلاة ، مَفْسَدَةٌ للجوف ، مؤدية إلى السقم . رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى ، أفلح من حَفِظَ من الطمع والغضب والهوى نفسه .

ومن كلام عثمان رضى الله عنه :

« مَا يَزَعُ ^(١) اللهُ بالسلطان أكثر مما يَزَعُ بالقرآن . يكفيك من الحاسد أنه يغم وقت سرورك . أنتم إلى إمام فَمَالٌ أحوج منكم إلى إمام قَوَالٍ - قاله يوم صعد المنبر فأرتج عليه . »

ومن كلام ابن عباس رضى الله عنه :

« صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد مُتَّكَا . الحُرْمَانُ خير من الامتنان . مِلَاكُ أمرِك الدين ، وزينتكم العلم ، وحصون أعراضكم الأدب ، وعزكم الحلم . وجليتكم الوفاء . القِرابَةُ تُتَقَطَعُ . والمعروف يُكْفَرُ . ولم يُرَ كالمودة . لا تُتَمَارَسُ فيها ولا حلما . فإن السفه يُوْذِيك . والحليم يَقْلِيك ^(٢) . واعمل عمل من يعلم أنه مجزى بالحسنات . مأخوذ بالسيئات . »

ومن كلام ابن مسعود رضى الله عنه :

« مَا أَلْدَخَانَ عَلَى النَّارِ بِأَدَلٍّ مِنَ الصَّاحِبِ عَلَى الصَّاحِبِ ، الدُّنْيَا كُلُّهَا غُومٌ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا فِي سُرُورٍ فَهُوَ رِيحٌ . »

ومن كلام المغيرة بن شعبة :

« إن المعرفة لتتفع عند الكلب العقور ، والجل الصئول^(١) ، فكيف بالرجل الكريم ! » .

ومن كلام أبي الدرداء :

« الشؤد اصطناع العشيرة ، واحتمال الجريرة ، والشرف كف الأذى ، وبذل الندى ، والغنى قلة التمني ، والفقر شره النفس » .

ومن كلام أبي ذر :

« إن لك في مالك شريكين : الحذنان^(٢) والوارث ، فإن قدرت ألا تكون أخسَّ

الشركاء حظا فافعل » . (مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٢٧٦ ، ونهاية الأرب ٣ : ٤)

(١) صئول الجمل : واثب الناس أو صار يقتلهم ويمدو عليهم . (٢) حدثان الدهر :

نوبه وأحداثه .

سقطت هذه الخطب سهوا في أثناء الطبع
فأوردناها في آخر الجزء وهما هي ذى :

خطب الوفود

بين يدي عمر بن الخطاب

لما قدمت الوفود على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام هلال بن بشر^(١) فقال :

٤٤٤ — خطبة هلال بن بشر

« يا أمير المؤمنين : إنا غرة من خَلَقْنَا من قومنا ، وسادة من وراءنا من أهل مصرنا
وإنك إن تصرفنا بالزيادة في أعطينا ، والفرائض لعيبالاتنا ، يزدد بذلك الشريف
تأميلا ، وتسكن لهم أبا وصولا ، وإن تكن مع ما نمت به^(٢) من وسائلك ، ونُدلي به
من أسبابك ، كالحل^(٣) ، لا يحل ولا يُرْتَحَلُ ، نرجع بأنوف مصلومة^(٤) ، وجدود

(١) في البيان والتبيين: ابن وكيع . (٢) نتوسل به . (٣) في البيان والتبيين « كالجذ »
وفي نهاية الأرب « كالجذ » ولا معنى لهما هنا ، وأرى أن صوابه « كالحل » بجاه مفتوحة ودال مكسورة ،
وصف من الحدل بفتححتين : وهو الذى أشرف أحد عاتقيه على الآخر ، أو المائل العنق من خلقة أو وجع لا يملك
أن يقيمه . وارتحل البعير ورحله : حط عليه الرحل ، وإذا كان البعير حدلا فهو لا يرتحل لعدم توازن
العدلين عليه ، وكذا لا يحل من سركه ليرتحل فهو إذن لا يستخدم ولا ينتفع به ، فالمنى أنك إن لم تعطنا تكن
كالبعير الحدل العديم الجدوى . (٤) المقطوعة من أصلها .

عائرة، فَمَحْنَا^(١) وأهالينا بِسَجَلٍ مُتْرَعٍ^(٢) من سِجَالِكَ المترعة « .

٣٤٥ - خطبة زيد بن جبلة

وقام زيد بن جبلة فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سَوِّدَ الشَّرِيفَ ، وأكرم الحسيب ، وازرع عندنا من أياديك ما تَسُدُّ به الخِصَاصة ، وتطرد به الفاقة ، فَإِنَّا بَقِيفٌ^(٣) من الأرض يابس الأكناف ، مُشَمَّرِ الدَّرْوَةِ ، لَا مُتَّجِرَ وَلَا زَرْعَ ، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بمراى ومسمع « .

٣٤٦ - خطبة الأحنف بن قيس

فقام الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله ، والحرصُ قَائِدُ الحِرْمَانِ ، فاتق الله فيما لا يُغْنِي عنك يوم القيامة قِيلاً ولا قِلاً ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود ، واستماحة المَمْتَاحِ^(٤) ، فإن كل امرئٌ يجمع في وعائه إلا الأقل من عسى أن تقتحمه الأعين فلا يُوفدُ إليك « .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١)

(١) الميح : الإعطاء . (٢) المترع : الدلو العظيمة مملوءة (مذكر) ومترع : مملوء . (٣) ما ارتفع

من الأرض كالقفة . (٤) استماحة : سأله العطاء . والامتياح : الإعطاء .

٣٤٧ - خطبة الأحنف بن قيس

بين يدي عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب رضى الله عنه في أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده في أنفسهم ، وما ينوب كل واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير، بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبارة ، ومنازل كسرى وقيصرو بنى الأصفر ، فهم من المياه العذبة ، والجنان المخصبة في مثل حَوْلَاء السَّلَى^(١) وحَدَقَةِ البعير الغاسقة^(٢) ، تأتيهم ثمارهم غَضَّة قبل أن تتغير ، وإنا معشر أهل البصرة نزلنا أرضاً سَبِيخَةً هَشَّاشَةً ، زَعِقَةً نَشَّاشَةً^(٣) ، طَرَفٌ في فلاة ، وطَرَفٌ في ملح أجاج^(٤) ، جانبٌ منها منابت القصب ، وجانبٌ سَبِيخَةٌ نَشَّاشَةٌ لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها ، تأتينا منافعها في مثل مَرَى النعام ، يخرج الرجل الضعيف منا يَسْتَعْذِبُ^(٥) الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، تُرَنِّقُ^(٦) ولدها ترنيق العنز تخاف عليه العدو والسبع ، دارنا فِئمة^(٧) ، ووظيفتنا ضيقة ، وعددنا كثير ، وأشرفنا قليل ، وأهل البلاء فينا كثير ، ودرهمنا كبير ، ووقفنا^(٨) صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا

(١) الحولاء : جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد فيها أغراس وخطوط حمراء وخضراء ونزلوا في مثل حولاء الناقة . يريدون الحصب وكثرة الماء والخضرة ، والسلى جلدة فيها الولد (من الناس والمواشي) .
(٢) السوداء . (٣) هشاشة : يسيل ماؤها . سبيخة ناشاة : لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ، والسبيخة بفتح الباء وسكونها أرض ذات نز وملح . (٤) ملح مر . (٥) استعذب : امتق عذبا .
(٦) الترنيق : إدامة النظر . (٧) مملئة (أى بساكنها) . (٨) مكيال .

في أرضنا ، فوسّع علينا يا أمير المؤمنين ، وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها ، فإلا ترفع
خديستنا^(١) وتنعش ركيستنا^(٢) وتجبّر فافتنا وتزد في عيالنا عيالا ، وفي رجالنا رجالا ،
وتصفر^(٣) درهمنا ، وتكبر قفبزنا ، وتأمر لنا بجفر نهر نستعذب به الماء ، هلكننا .

قال عمر : هذا والله السيد ، هذا والله السيد . قال الأحنف : فما زلت أسمعها بعدها .

(العقد الفريد ١ : ١١٦ ، وشرح العيون ٦٨ وتاريخ الطبري ٤ : ٢٠٩)

انتهى الجزء الأول

وبليه

الجزء الثاني وأوله : الباب الثالث في خطب ووصايا

العصر الأموي

(١) رفعت من خسيسته : فعلت به فعلا فيه رفعته . (٢) الركن : قلب أول الشيء على آخره ،

وارتكس : ارتكس ووقع . (٣) صفره : صبغه بصفرة ، أى تبدلنا بالدرهم الأبيض دينا را أصفر

وتجعل فضتنا ذهباً .

فهرس

الجزء الأول

من جمهرة خطب العرب

الباب الأول

الخطب في العصر الجاهلي

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
إصلاح مرثد الخير بين سبيع بن الحارث وبين ميثم بن مثوب		٩
مقال مرثد الخير .	١	١٠
» سبيع بن الحارث .	٢	١١
» ميثم بن مثوب .	٣	١١
» مرثد الخير .	٤	١٢
طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان يتفاخران عند بعض مقاول حمير .	٥	١٣
وفود العرب يعززون سلامة ذافائس بابن له مات		١٧
خطبة الملبب بن عوف .	٦	١٧
» جمادة بن أفلح .	٧	١٨

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
تساؤل عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند أحد ملوك حمير .	٨	١٨
خطبة عامر بن الظرب العدواني وقد خطبت ابنته :	٩	١٩
حديث بعض مقاول حمير مع ابنه وما دار بينه وبينهما من المساءلة حين كبرت سنه .	١٠	٢٠
إحدى ملكات اليمن وخاطبوها .	١١	٢٥
رواد مذحج يصفون ما ارتادوا من المراعى .	١٢	٢٦
مادار من الحديث بين المنذر بن النعمان الأكبر وبين عامر بن جوين الطائي .	١٣	٢٧
قيس بن رفاعه والحارث بن أبي شمر الغساني .	١٤	٣٣
قيس بن خفاف البرجمي وحاتم طي .	١٥	٣٢
مقال قبيصة بن نعيم لامرئ القيس بن حجر .	١٦	٣٤
رد امرئ القيس عليه .	١٧	٣٦
خطبة هاني بن قبيصة الشيباني .	١٨	٣٧
خطبة عمرو بن كلثوم .	١٩	٣٧
أ كثم بن صيفي يعزى عمرو بن هند عن أخيه .	٢٠	٣٧
خطبة قس بن ساعدة الإيادي .	٢١	٣٨
قس بن ساعدة عند قيصر .	٢٢	٣٩
خطبة المأمون الحارثي .	٢٣	٣٩
بين مهلهل بن ربيعة ومرة بن ذهل بن شيبان .	٢٤	٤٠
مناقرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين .	٢٥	٤١
أشراف العرب بين يدي كسرى		٤٦
مقال حذيفة بن بدر الفزاري .	٢٦	٤٦
مقال الأشعث الكندي .	٢٧	٤٧
مقال بسطام الشيباني .	٢٨	٤٧
مقال حاجب بن زرارة .	٢٩	٤٨
مقال قيس بن عاصم السعدي .	٣٠	٤٩

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وفود العرب على كسرى		٥٠
خطبة النعمان بن المنذر .	٣١	٥١
خطبة أ كثم بن صيفي .	٣٢	٥٦
خطبة حاجب بن زرارة .	٣٣	٥٧
خطبة الحارث بن عباد .	٣٤	٥٧
خطبة عمرو بن الشريد .	٣٥	٥٩
خطبة خالد بن جعفر الكلابي .	٣٦	٦٠
خطبة علقمة بن علاثة العامري .	٣٧	٦٠
خطبة قيس بن مسعود الشيباني .	٣٨	٦١
خطبة عامر بن الطفيل العامري .	٣٩	٦٢
خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدي .	٤٠	٦٣
خطبة الحارث بن ظالم المري .	٤١	٦٣
مخالس بن مزاحم وقاصر بن سلمة عند النعمان بن المنذر .	٤٢	٦٤
ضمرة بن ضمرة عند النعمان بن المنذر .	٤٣	٦٦
ليبيد بن ربيعة يصف بقلة .	٤٤	٦٧
كلمات هند بنت الخس الإيادية .	٤٥	٦٨
خطبة كعب بن لؤي .	٤٦	٧٣
خطبة هاشم بن عبد مناف .	٤٧	٧٤
خطبة هاشم بن عبد مناف في قریش وخزاعة .	٤٨	٧٥
خطبة عبد المطلب بن هاشم .	٤٩	٧٦
خطبة أبي طالب في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة	٥٠	٧٧
خطب الكهان		٧٨
الكاهن الخزاعي ينفر هاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد شمس .	٥١	٧٨
عوف بن ربيعة الأسدي يتكهن بمقتل حجر بن الحارث .	٥٢	٧٩
كاهن بني الحارث بن كعب يحذرهم غزو بني تميم .	٥٣	٨٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
أحمد كهان لليمن يفصل في أمر هند بنت عتبة .	٥٤	٨١
خمسة نفر من طي ، يمتحنون سواد بن قارب الدوسي .	٥٥	٨٢
حديث مصاد بن مذعور القيني .	٥٦	٨٦
حديث خنافر بن التوعم الحميري مع رثيه شصار .	٥٧	٨٨
شافع بن كليب الصلبي يتكهن بظهور النبي صلى الله عليه وسلم	٥٨	٩٠
سطيح الذئبي يعبر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي .	٥٩	٩١
شق أنمار يعبر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا .	٦٠	٩٣
وفود عبد المسيح بن بقميلة على سطيح .	٦١	٩٤
شق وسطيح ينبئان بأصل ثقيف .	٦٢	٩٧
تنافر عبد المطلب بن هاشم والثقفين إلى عزي سلمة الكاهن .	٦٣	٩٨
منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية .	٦٤	١٠٠
ما أمر به عبد المطلب بن هاشم ، في منامه من حفر زمزم .	٦٥	١٠٩
خطب الكواهن		١٠٣
الشعناء الكاهنة تصف سبعة إخوة .	٦٦	١٠٣
طريقة الخير تتكهن بسيل العرم وخراب سد مأرب .	٦٧	١٠٥
حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام بن قضاة .	٦٨	١١٠
كاهنة ذى الخليفة تتكهن بما في بطن رقية بنت جشم .	٦٩	١١٢
رأى سلمى الهمدانية في حريم المرادي .	٧٠	١١٣
تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية .	٧١	١١٤
عفراء الكاهنة تعبر رؤيا مرثد بن عبد كلال .	٧٢	١١٥
الوصايا		١١٩
وصية أوس بن حارثة لابنه مالك .	٧٣	١١٩
وصية ذى الإصبع العدواني لابنه أسيد .	٧٤	١٢٠
وصية عمرو بن كلثوم لبنيه .	٧٥	١٢١

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
١٢٢	٧٦	وصية الحرث بن كعب لبنيه .
١٢٣	٧٧	وصية عامر بن الظرب لقومه .
١٢٤	٧٨	وصية دويد بن زيد لبنيه .
١٢٦	٧٩	وصية زهير بن جناب الكلبي .
١٢٦	٨٠	وصية النعمان بن ثواب العبدى لبنيه .
١٢٧	٨١	وصية قيس بن زهير لبني النمر بن قاسط .
١٢٩	٨٢	وصية حصن بن حذيفة لبنيه .
١٣٠	٨٣	وصية لأكثم بن صيفي .
١٣٣	٨٤	وصية أكثم بن صيفي لطيء .
١٣٤	٨٥	وصية أكثم بن صيفي لبنيه ورهطه .
١٣٥	٨٦	نصيحة أكثم بن صيفي لقومه .
١٣٦	٨٧	أمثال أكثم بن صيفي وبرز جمهور الفارسي .
١٤١	٨٨	نصيحة الجمانة بنت قيس بن زهير لجدها الربيع بن زياد .
١٤٢	٨٩	وصف عصام الكندية أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني .
١٤٥	٩٠	وصية أمامة بنت الحرث لابنتها أم إياس .

الباب الثاني

الخطب والوصايا

في عصر صدر الإسلام

١٤٧	خطب النبي صلى الله عليه وسلم وما يتبعها
١	١٤٧ أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه .
٢	١٤٨ أول خطبة خطبها بالمدينة .
٣	١٤٨ خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة .

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة له يوم أحد .	٤	١٤٩
خطبته بالخيف .	٥	١٥١
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٦	١٥١
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٧	١٥٢
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٨	١٥٢
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٩	١٥٣
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	١٠	١٥٣
خطبته يوم فتح مكة .	١١	١٥٤
خطبته في الاستسقاء .	١٢	١٥٤
خطبته في حجة الوداع .	١٣	١٥٥
خطبته في مرض موته .	١٤	١٥٨
خطبة أكرم بن صيفي يدعوه قومه إلى الإسلام .	١٥	١٥٩
وصية أبي طالب لوجهه قريش عند موته .	١٦	١٦١
خطب الوفود بين يديه صلى الله عليه وسلم		١٦٣
خطبة عطار بن حاجب بن زرارة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم .	١٧	١٦٣
خطبة ثابت بن قيس بن الشماس .	١٨	١٦٣
عمرو بن الأهتم والزرقان بن بدر بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم .	١٩	١٦٤
خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم .	٢٠	١٦٥
رده صلى الله عليه وسلم .	٢١	١٦٦
خطبة ظبيان بن حداد بين يديه صلى الله عليه وسلم .	٢٢	١٦٧
خطبة مالك بن نمط بين يديه صلى الله عليه وسلم .	٢٣	١٦٨
سفانة بنت حاتم بين يديه صلى الله عليه وسلم :	٢٤	١٦٩
وصية دريد بن الصمة .	٢٥	١٧٠
وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه .	٢٦	١٧١
وصية قيس بن عاصم المنقري لبنيه .	٢٧	١٧١

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب يوم السقيفة		١٧٣
خطبة سعد بن عبادة .	٢٨	١٧٣
خطبة أبي بكر رضى الله عنه .	٢٩	١٧٤
نص آخر لخطبة أبي بكر يوم السقيفة .	٣٠	١٧٥
خطبة الحباب بن المنذر .	٣١	١٧٦
خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .	٣٢	١٧٦
خطبة أخرى للحباب بن المنذر .	٣٣	١٧٧
خطبة بشير بن سعد .	٣٤	١٧٧
خطب أبي بكر الصديق ووصاياه		١٧٩
خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم .	٣٥	١٧٩
خطبته بعد البيعة .	٣٦	١٨٠
خطبة أخرى له بعد البيعة .	٣٧	١٨١
خطبة أخرى .	٣٨	١٨٢
خطبة له .	٣٩	١٨٣
خطبة له .	٤٠	١٨٤
خطبة له .	٤١	١٨٥
خطبة له فى الأنصار .	٤٢	١٨٦
وصيته لأسامة بن زيد .	٤٣	١٨٧
وصيته لعمر بن العاص والوليد بن عقبة .	٤٤	١٨٧
خطب الفتوح فى عهد أبى بكر		١٨٨
وصيته لخالد بن الوليد .	٤٥	١٨٨
خطبة خالد بن الوليد	٤٦	١٨٨
خطبة لأبى بكر فى ندب الناس لفتح الشام .	٤٧	١٨٩
فتح الشام — خطبة أبى بكر .	٤٨	١٩٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة عمر	٤٩	١٩٠
خطبة عبد الرحمن بن عوف	٥٠	١٩١
خطبة أبي بكر	٥١	١٩٢
خطبة خالد بن سعيد بن العاص	٥٢	١٩٢
خطبة ذى الكلاع .	٥٣	١٩٣
وصية خالد بن سعيد بن العاص لأبي بكر .	٥٤	١٩٤
وصية أبي بكر لخالد بن سعيد بن العاص .	٥٥	١٩٥
وصية أبي بكر لعمر بن العاص .	٥٦	١٩٥
وصية أخرى .	٥٧	١٩٦
وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان .	٥٨	١٩٦
وصية أخرى ليزيد بن أبي سفيان .	٥٩	١٩٧
دعاء أبي بكر .	٦٠	١٩٩
وصيته لشرحبيل بن حسنة .	٦١	١٩٩
وصيته لأبي عبيدة بن الجراح .	٦٢	٢٠٠
وصيته لأبي عبيدة بن الجراح أيضا .	٦٣	٢٠٠
خطبة أبي بكر .	٦٤	٢٠١
وصية أبي بكر لهاشم بن عتبة .	٦٥	٢٠١
خطبة خالد بن الوليد يوم اليرموك .	٦٦	٢٠٢
خطبة أبي عبيدة في وقعة اليرموك .	٦٧	٢٠٣
قصص معاذ بن جبل .	٦٨	٢٠٤
خطبة عمرو بن العاص .	٦٩	٢٠٤
خطبة أبي سفيان بن حرب .	٧٠	٢٠٥
وصية أبي بكر لعمر رضى الله عنهما عند موته .	٧١	٢٠٥
كلامه لعبد الرحمن بن عوف في علته التي مات فيها .	٧٢	٢٠٦
خطبة السيدة عائشة في الانتصار لأبيها .	٧٣	٢٠٧
رثاؤها لأبيها	٧٤	٢١٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب عمر بن الخطاب رضی الله عنه		٢١١
خطبته حين ولى الخلافة .	٧٥	٢١١
خطبة أخرى .	٧٦	٢١١
خطبة له .	٧٧	٢١٢
خطبة له .	٧٨	٢١٢
خطبة أخرى .	٧٩	٢١٣
خطبة له .	٨٠	٢١٤
خطبة له .	٨١	٢١٥
خطبة له .	٨٢	٢١٧
خطبة له .	٨٣	٢١٧
خطبة له .	٨٤	٢١٨
خطبة له .	٨٥	٢١٨
خطبته عام الرمادة .	٨٦	٢٢٠
خطبته وقد بلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر .	٨٧	٢٢١
خطب الفتوح في عهد عمر		٢٢٢
في فتح فارس		
خطبة المنثري بن حارثة الشيباني .	٨٨	٢٢٢
خطبة عمر .	٨٩	٢٢٢
خطبة له وقد شيع جيش سعد بن أبي وقاص .	٩١	٢٢٣
وصيته لسعد بن أبي وقاص .	٩٢	٢٢٤
وصيته لسعد بن أبي وقاص أيضا .	٩٣	٢٢٤
وصية أخرى كتبها إلى سعد بن أبي وقاص .	٩٤	٢٢٥
وصيته للمجاهدين .	٩٥	٢٢٧
وصية عمر ليعلى بن أمية في إجلاء أهل نجران .	٩٦	٢٢٨
خطبة لعمر .	٩٧	٢٢٨
خطبة جرير بن عبد الله البجلي .	٩٨	٢٢٩

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة سعد بن أبي وقاص يوم أرمات .	٩٩	٢٢٩
خطبة عاصم بن عمرو .	١٠٠	٢٣٠
خطبة طليحة بن خويلد الأسدي .	١٠١	٢٣٠
الخنساء تحرض أولادها على القتال .	١٠٢	٢٣١
خطبة عتبة بن غزوان .	١٠٣	٢٣٢
خطبة لسعد بن أبي وقاص .	١٠٤	٢٣٣
خطبة عمر .	١٠٥	٢٣٣
خطبة لعلي .	١٠٦	٢٣٤
خطبة طامحة بن عبيد الله .	١٠٧	٢٣٥
خطبة عثمان بن عفان .	١٠٨	٢٣٥
خطبة علي بن أبي طالب .	١٠٩	٢٣٦
خطبة النعمان بن مقرن .	١١٠	٢٣٧
خطب رجال من الفاتحين		٢٣٩
بين يدي يزيد جرد ملك الفرس وقواده		
خطبة النعمان بن مقرن .	١١١	٢٣٩
خطبة المغيرة بن زرارة .	١١٢	٢٤٠
مقال ربعي بن عامر عند رستم قائد جيش الفرس .	١١٣	٢٤٢
خطبة المغيرة بن شعبه في حضرة رستم .	١١٤	٢٤٢
خطبة المغيرة بن شعبه في حضرة بندار .	١١٥	٢٤٣
خطبة عمر .	١١٦	٢٤٤
خطبة عثمان بن أبي العاص في فتح الشام .	١١٧	٢٤٤
بين الروم ومعاذ بن جبل .	١١٨	٢٤٦
بين أبي عبيدة ورسول الروم .	١١٩	٢٤٩
بين باهان وخالد بن الوليد .	١٢٠	٢٥٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
جواب خالد	١٢١	٢٥٢
خطبة عمرو بن العاص .	١٢٢	٢٥٤
خطبة عمر .	١٢٣	٢٥٥
خطبة عمر .	١٢٤	٢٥٥
خطبة عمر .	١٢٥	٢٥٦
خطبة عمر .	١٢٦	٢٥٦
وصية أبي عبيدة للمسلمين وقد أصابه طاعون عمواس .	١٢٧	٢٥٧
خطبة معاذ بن جبل .	١٢٨	٢٥٨
رثاء معاذ بن جبل لأبي عبيدة .	١٢٩	٢٥٨
ابن العاص ومعاذ والطاعون .	١٣٠	٢٥٩
وصية لمعاذ بن جبل .	١٣١	٢٥٩
وصية لمعاذ بن جبل أيضا .	١٣٢	٢٦٠
خطبة عبادة بن الصامت .	١٣٣	٢٦١
خطبة شداد بن أوس .	١٣٤	٢٦١
خطبة أبي الدرداء .	١٣٥	٢٦٢
خطبة يزيد بن أبي سفيان .	١٣٦	٢٦٢
وصية العباس بن عبد المطلب .	١٣٧	٢٦٣
وصية عمر للخليفة من بعده .	١٣٨	٢٦٣
خطب يوم الشورى		٢٦٦
خطبة عبد الرحمن بن عوف .	١٣٩	٢٦٦
خطبة عثمان بن عفان .	١٤٠	٢٦٧
خطبة الزبير بن العوام .	١٤١	٢٦٧
خطبة سعد بن أبي وقاص .	١٤٢	٢٦٨
خطبة علي بن أبي طالب .	١٤٣	٢٦٩

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٢٧٠		خطب عثمان بن عفان رضى الله عنه
٢٧٠	١٤٤	خطبته حين بايعه أهل الشورى .
٢٧١	١٤٥	خطبته بعد البيعة .
٢٧١	١٤٦	خطبة أخرى .
٢٧١	١٤٧	خطبة لعثمان .
٢٧٢	١٤٨	خطبة لعثمان .
٢٧٣	١٤٩	خطبته حين نقم عليه الناس .
٢٧٤	١٥٠	خطبته التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة .
٢٧٥	١٥١	خطبته في الرد على الثوار .
٢٧٦	١٥٢	خطبته وقد اشتد عليه الحصار .
٢٧٦	١٥٣	آخر خطبة خطبها عثمان .
٢٧٧	١٥٤	خطبة الوليد بن عقبة .
٢٧٨	١٥٥	خطبة سعيد بن العاص حين قدم الكوفة واليا عليها .
٢٧٨	١٥٦	خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح إفريقية .
٢٨٠	١٥٧	خطبة عبد الله بن مسعود .
٢٨١	١٥٨	أبو زبيد الطائي يصف الأسد .
٢٨٥		خلافة الإمام علي كرم الله وجهه
٢٨٥	١٥٩	وصية علي لقيس بن سعد .
٢٨٥	١٦٠	خطبة لقيس بن سعد .
٢٨٦		فتنة أصحاب الجمل
٢٨٦	١٦١	خطبة طلحة .
٢٨٦	١٦٢	خطبة السيدة عائشة بالمربد .
٢٨٧	١٦٣	خطبة لعلي .
٢٨٨	١٦٤	خطبة لعلي .

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أعلى .	١٦٥	٢٨٩
خطبة عدى بن حاتم .	١٦٦	٢٨٩
خطبة زفر بن زيد :	١٦٧	٢٩٠
خطبة على بالربذة :	١٦٨	٢٩١
خطبة سعيد بن عبيد الطائي .	١٦٩	٢٩٢
خطبة الحسن بن علي .	١٧٠	٢٩٣
خطبة الحسن بن علي .	١٧١	٢٩٣
خطبة عمار بن ياسر .	١٧٢	٢٩٤
خطبة أبي موسى الأشعري .	١٧٣	٢٩٥
صورة أخرى .	١٧٤	٢٩٦
صورة أخرى .	١٧٥	٢٩٧
خطبة زيد بن صوحان .	١٧٦	٢٩٧
خطبة القعقاع بن عمرو .	١٧٧	٢٩٨
خطبة سيحان بن صوحان .	١٧٨	٢٩٨
خطبة الحسن بن علي .	١٧٩	٢٩٩
وفادة القعقاع بن عمرو إلى أصحاب الجمل .	١٨٠	٢٩٩
خطبة علي بن أبي طالب .	١٨١	٣٠١
خطبة علي بن أبي طالب .	١٨٢	٣٠٢
خطبة علي .	١٨٣	٣٠٣
خطبة الأشر .	١٨٤	٣٠٤
خطبة السيدة عائشة .	١٨٥	٣٠٥
خطبة علي .	١٨٦	٣٠٥
خطبة السيدة عائشة يوم الجمل .	١٨٧	٣٠٦
خطبة زفر بن قيس .	١٨٨	٣٠٧
خطبة جرير بن عبدالله البجلي .	١٨٩	٣٠٨

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة زياد بن كعب .	١٩٠	٣٠٨
خطبة الأشعث بن قيس .	١٩١	٣٠٩
خطبة جرير بن عبد الله البجلي .	١٩٢	٣٠٩
خطبة معاوية .	١٩٣	٣١٠
فتنة معاوية		٣١٢
استطلاع الإمام عليّ كرم الله وجهه آراء أصحابه		
وقد أراد المسير إلى الشام		
خطبة الإمام علي .	١٩٤	٣١٢
خطبة هاشم بن عتبة .	١٩٥	٣١٢
خطبة عمار بن ياسر .	١٩٦	٣١٣
خطبة قيس بن سعد بن عبادة .	١٩٧	٣١٣
خطبة سهل بن حنيف .	١٩٨	٣١٤
خطبة الإمام علي .	١٩٩	٣١٤
خطبة الأشتر النخعي .	٢٠٠	٣١٥
مقال من ثبطوه عن المسير .	٢٠١	٣١٦
رد الإمام عليهم .	٢٠٢	٣١٦
خطبة عدى بن حاتم الطائي .	٢٠٣	٣١٧
خطبة زيد بن حصين الطائي .	٢٠٤	٣١٨
خطبة أبي زينب بن عوف .	٢٠٥	٣١٨
خطبة زيد بن قيس الأرجبي .	٢٠٦	٣١٩
خطبة زياد بن النضر .	٢٠٧	٣١٩
خطبة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي .	٢٠٨	٣٢٠
أدب الإمام علي وكرم خلقه .	٢٠٩	٣٢١
مقال عمرو بن الحمق .	٢١٠	٣٢١

المخطبة أو الوصية	رقم المخطبة	رقم الصفحة
مقال حجر بن عدى .	٢١١	٣٢٢
مقال هاشم بن عتبة .	٢١٢	٣٢٢
خطبة الإمام على .	٢١٣	٣٢٤
خطبة الحسن بن على .	٢١٤	٣٢٥
خطبة الحسين بن على .	٢١٥	٣٢٥
خطبة عبد الله بن عباس .	٢١٦	٣٢٦
خطبة معاوية .	٢١٧	٣٢٧
وفد علىّ على معاوية		٣٢٨
خطبة بشير بن عمرو .	٢١٨	٣٢٨
خطبة شيبث بن ربعي .	٢١٩	٣٢٩
خطبة معاوية .	٢٢٠	٣٢٩
وفد علىّ على معاوية .		٣٣١
خطبة عدى بن حاتم .	٢٢١	٣٣١
جواب معاوية .	٢٢٢	٣٣١
خطبة يزيد بن قيس .	٢٢٣	٣٣٢
خطبة معاوية .	٢٢٤	٣٣٢
وفد معاوية إلى على		٣٣٥
خطبة حبيب بن مسلمة .	٢٢٥	٣٣٥
خطبة على بن أبي طالب .	٢٢٦	٣٣٦
التحريض على القتال من قبل معاوية		٣٣٨
خطبة عمرو بن العاص .	٢٢٧	٣٣٨
خطبة أخرى .	٢٢٨	٣٣٨
خطبة معاوية يحرّض أهل الشام .	٢٢٩	٣٣٩
خطبة ذى الكلاع الحميرى .	٢٣٠	٣٤٠
خطبة يزيد بن أسد البجلي .	٢٣١	٣٤٣

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
التحريض على القتال من قبل الإمام على		٣٤٥
خطبة الإمام على .	٢٣٢	٣٤٥
خطبة أخرى له .	٢٣٣	٣٤٦
ومن كلام له كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين .	٢٣٤	٣٤٧
خطبة أخرى للإمام على .	٢٣٥	٣٤٨
خطبة للإمام على .	٢٣٦	٣٤٩
خطبة أخرى له .	٢٣٧	٣٥٠
خطبة عبد الله بن عباس .	٢٣٨	٣٥٠
خطبة عبد الله بن بديل الخزاعي .	٢٣٩	٣٥٢
خطبة أبي الهيثم بن التيهان .	٢٤٠	٣٥٢
خطبة للإمام على .	٢٤١	٣٥٣
خطبة سعيد بن قيس .	٢٤٢	٣٥٤
خطبة يزيد بن قيس الأرحبي .	٢٤٣	٣٥٥
خطبة هاشم بن عتبة المرقال .	٢٤٤	٣٥٦
خطبة عمار بن ياسر .	٢٤٥	٣٥٧
خطبة الأشعث بن قيس .	٢٤٦	٣٥٨
خطبة الأشتر النخعي .	٢٤٧	٣٥٩
خطبة الأشتر النخعي في المنهزمين من الميمنة .	٢٤٨	٣٦٠
خطبة أخرى له فيهم .	٢٤٩	٣٦١
خطبة على فيهم وقد عادوا إلى موافقهم .	٢٥٠	٣٦٢
خطبة خالد بن معمر .	٢٥١	٣٦٣
خطبة عقبة بن حديد النمري .	٢٥٢	٣٦٣
خطبة خنثر بن عبيدة بن خالد .	٢٥٣	٣٦٤
تحريض معاوية أيضا :	٢٥٤	٣٦٥
ماخطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد في وقعة صفين .	٢٥٥	٣٦٦

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
جواب قيس بن سعد .	٢٥٦	٣٦٧
خطب الشيعيات في وقعة صفين		٣٦٨
خطبة عكرشة بنت الأطرش .	٢٥٧	٣٦٨
خطبة أم الخير بنت الحريش .	٢٥٨	٢٦٩
خطبة الزرقاء بنت عدى الهمدانية .	٢٥٩	٢٧٣
اختلاف أهل العراق في الموادعة		٣٧٥
خطبة الإمام على .	٢٦٠	٣٧٥
خطبة كردوس بن هاني .	٢٦١	٣٧٥
خطبة سفيان بن ثور .	٢٦٢	١٧٦
خطبة جريث بن جابر .	١٦٣	٣٧٦
خطبة خالد بن معمر .	٢٦٤	٣٧٦
خطبة الحصين بن المنذر .	٢٦٥	٣٧٧
خطبة عثمان بن حنيف .	٢٦٦	٣٧٧
خطبة عدى بن حاتم .	٢٦٧	٢٧٩
خطبة عبدالله بن حجل .	٢٦٨	٣٨٠
خطبة صعصعة بن صوحان .	٢٦٩	٣٨٠
خطبة المنذر بن الجارود .	٢٧٠	٢٨١
خطبة الأحنف بن قيس .	٢٧١	٢٨١
خطبة عمير بن عطار .	٢٧٢	٢٨٢
خطبة على بن أبي طالب .	٢٧٣	٣٨٢
مقال عدى بن حاتم .	٢٧٤	٣٨٢
مقال الأشتر النخعي .	٢٧٥	٣٨٣
مقال عمرو بن الحمق .	٢٧٦	٣٨٣
مقال الأشعث بن قيس .	٢٧٧	٣٨٣
مقال عبد الرحمن بن الحارث .	٢٧٨	٣٨٤
مقال عمار بن ياسر .	٢٧٩	٣٨٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
التحكيم بين عليّ ومعاوية		٣٨٦
كلام عبد الله بن عباس لأبي موسى الأشعري .	٢٨٠	٣٨٦
وصية شريح بن هانيء لأبي موسى الأشعري .	٢٨١	٣٨٧
وصية الأحنف بن قيس لأبي موسى الأشعري .	٢٨٢	٣٨٨
وصية معاوية لعمر بن العاص .	٢٨٣	٣٨٩
رد عمرو بن العاص عليه .	٢٨٤	٣٨٩
مقال شرح حبيب بن السمط لعمر بن العاص .	٢٨٥	٣٩٠
خطبة أبي موسى الأشعري .	٢٨٦	٣٩٠
خطبة عمرو بن العاص .	٢٨٧	٣٩١
خطبة الإمام بعد التحكيم .	٢٨٨	٣٩١
خطبة الحسن بن علي .	٢٨٩	٣٩٢
خطبة عبد الله بن عباس .	٢٩٠	٣٩٣
خطبة عبد الله بن جعفر .	٢٩١	٣٩٣
خطبة علي .	٢٩٢	٣٩٤
خطبة عبد الله بن عباس .	٢٩٣	٣٩٤
خطبة علي .	٢٩٤	٣٩٥
خطبة علي .	٢٩٥	٣٩٦
خطبة معاوية .	٢٩٦	٣٩٧
وصية معاوية لعمر بن العاص .	٢٩٧	٣٩٧
خطبة محمد بن أبي بكر .	٢٩٨	٣٩٨
خطبة محمد بن أبي بكر .	٢٩٩	٣٩٨
خطبة علي وقد استصرخه محمد بن أبي بكر .	٣٠٠	٣٩٩
خطبة علي وقد بلغه مقتل محمد بن أبي بكر .	٣٠١	٤٠٠

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٠١		فتنة الخوارج
٤٠١	٣٠٢	مناظرة عبد الله بن عباس لهم .
٤٠٢	٣٠٣	مناظرة الإمام علي لهم .
٤٠٤	٣٠٤	صورة أخرى .
٤٠٦	٣٠٥	مناظرة ابن عباس لهم .
٤٠٨	٣٠٦	خطبة يزيد بن عاصم المخاربي .
٤٠٨	٣٠٧	خطبة عبد الله بن وهب الراسبي .
٤٠٩	٣٠٨	خطبة حرقوص بن زهير السعدي .
٤٠٩	٣٠٩	خطبة حمزة بن سنان الأسدي .
٤١٠	٣١٠	خطبة شريح بن أوفى .
٤١١	٣١١	مقال زيد بن حصين الطائي .
٤١٢	٣١٢	خطبة علي في تخويف أهل النهروان .
٤١٤	٣١٣	صورة أخرى .
٤١٥	٣١٤	خطبة المستورد بن علفة .
٤١٧		خوار أصحاب الإمام وتقا عسهم عن نصرته
٤١٧	٣١٥	خطبة عبد الله بن عباس في أهل البصرة .
٤١٨	٣١٦	خطبة الإمام وقد أراد الانصراف من النهروان .
٤١٨	٣١٧	مقال الأشعث بن قيس .
٤١٩	٣١٨	خطبة الإمام علي بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج يستنفر الناس لقتال معاوية .
٤٢٠	٣١٩	خطبة له أيضا في استنفرهم لقتال معاوية .
٤٢١	٣٢٠	صورة أخرى .
٤٢٣	٣٢١	خطبة أبي أيوب الأنصاري .
٤٢٤	٣٢٢	خطبة الإمام وقد أغار النعمان بن بشير على عين التمر .
٤٢٤	٣٢٣	صورة أخرى .

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة الإمام وقد أغار الضحاك بن قيس على الحيرة .	٢٢٤	٤٢٥
خطبة الإمام وقد أغار سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار :	٣٢٥	٤٢٧
خطبة للحسن بن علي في يوم الجمعة .	٣٢٦	٤٣٠
خطبة معاوية وقد بلغه هلاك الأشتر .	٣٢٧	٤٣٠
فتنة البصرة		٤٣٢
خطبة عبد الله بن عامر الحضرمي .	٣٢٨	٤٣٣
خطبة الضحاك بن عبد الله الهلالي :	٣٢٩	٤٣٣
خطبة عبد الرحمن بن عمير القرشي .	٣٣٠	٤٣٤
خطبة زياد بن أبيه .	٣٣١	٤٣٥
خطبة شيان الأزدي .	٣٣٢	٤٢٦
خطبة صبرة بن شيمان .	٣٣٣	٤٢٦
خطبة الإمام علي .	٣٣٤	٤٢٦
خطبة أعين بن ضبيعة .	٣٣٥	٤٣٨
خطبة جارية بن قدامة .	٣٣٦	٤٣٨
خطبة زياد :	٣٣٧	٤٣٩
خطبة أبي صبرة شيمان .	٣٣٨	٤٤٠
خطبة صبرة بن شيمان .	٣٣٩	٤٤٠
خطبة خنفر الحماني .	٢٤٠	٤٤١
صعصعة بن صوحان ومعاوية .	٣٤١	٤٤١
صورة أخرى .	٣٤٢	٤٤٣
تتمة في الحكم :	٣٤٣	٤٤٦
خطب الوفرد بين يدي عمر بن الخطاب		٤٤٩
خطبة هلال بن بشر :	٣٤٤	٤٤٩
خطبة زيد بن جبلة .	٣٤٥	٤٤٩
خطبة الأحنف بن قيس .	٣٤٦	٤٥٠
خطبة الأحنف بن قيس .	٣٤٧	٤٥٠

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

الأحنف بن قيس : ٣٨١ - ٣٨٨ -
٤٥٠

الأشتر النخعي : ٣٠٤ - ٣١٥ - ٣٥٩
٣٦٠ - ٢٦١ - ٣٨٣

الأشعث بن قيس الكندي : ٤٧ - ٣٠٩
٣٥٨ - ٣٨٣ - ٤١٨

أعين بن ضبيعة : ٤٣٨

أكثم بن صيفي : ٣٧ - ٥٦ - ١٣٠
١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٢٦

١٥٩

أمامة بنت الحرث : ١٤٥

أم الخير بنت الحرث : ٢٦٩

امرؤ القيس : ٣٦

أوس بن حارثة : ١١٩

(ب)

بسطام الشيباني : ٤٧

بشير بن سعد : ١٧٧

بشير بن عمرو : ٣٢٨

(١)

أبو أيوب الأنصاري : ٤٢٣

أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ١٧٤

١٧٥ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥

١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩

١٩٠ - ١٩٢ - ١٩٥ - ١٩٦

١٩٧ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١

٢٠٥ - ٢٠٦

أبو زبيد الضائي : ٢٨١

أبو الدرداء : ٢٦٢

أبو زينب بن عوف : ٣١٨

أبو سفيان : ٢٠٥

أبو طالب بن عبدالمطلب : ٧٧ - ١٦١

أبو عبيدة بن الجراح : ٢٠٣ - ٢٤٩

٢٥٧

أبو موسى الأشعري : ٢٩٥ - ٢٩٦

٢٩٧ - ٢٩٠

أبو الهيثم بن التيهان : ٣٥٢

(خ)

خالد بن جعفر الكلابي : ٦٠
خالد بن سعيد بن العاص : ١٩٢ - ١٩٤
خالد بن معمر : ٣٦٣ - ٣٧٦
خالد بن الوليد : ١٨٨ - ٢٠٢ - ٢٥٠ -
٢٥٢

خنافر بن التوءم : ٨٨
خنسر بن عبيدة : - ٣٦٤
الخنساء : ٢٣١
خنفر الجماني : ٤٤١

(د)

دريد بن الصمة : ١٧٠
دويد بن زيد : ١٢٤

(ذ)

ذوالأصبع العدواني : ١٢٠
ذوالكلاع الحميري : ١٩٣ - ٣٤٠

(ر)

ربيع بن عامر : ٢٤٢

(ز)

زبراء الكاهنة : ١١٠
الزبير بن العوام : ٢٦٧
الزرقاء بنت عدلى : ٣٧٣
زفر بن زيد : ٢٩٠
زفر بن قيس : ٣٠٧
زهير بن جناب الكلبي : ١٢٦
زياد بن أبيه : ٤٣٥ - ٤٣٩
زياد بن كعب : ٣٠٨
زياد بن النضر : ٣١٩

(ث)

ثابت بن قيس بن الشماس : ١٦٣

(ج)

جارية بن قدامة : ٤٣٨
جرير بن عبد الله البجلي : ٢٢٩ -
٣٠٨ - ٣٠٩

جماعة بن أفلق : ١٨
الجمانة بنت قيس : ١٤١

(ح)

حاجب بن زرارة : ٤٨ - ٥٧

الحارث بن ذبيان : ١٣ - ١٦

الحارث بن ظالم المرى : ٦٣

الحارث بن عباد : ٥٧

الحارث بن كعب : ١٢٢

الحباب بن المنذر : ١٧٦

حبيب بن مسلمة : ٢٣٥

حجر بن عدلى : ٣٢٢

حذيفة بن بدر الفزاري : ٤٦

حرب بن أمية : ١٠٠

حرقوص بن زهير : ٤٠٩

حريث بن جابر : ٣٧٦

الحسن بن علي : ٢٩٣ - ٢٩٩ - ٣٢٥ -

٣٩٢ - ٤٣٠

الحسين بن علي : ٣٢٥

حصن بن حذيفة : ١٢٩

الحصين بن المنذر : ٣٧٧

خزعة بن سنان : ٤٠٩

حممة بن رافع الدومى : ١٨

(ص)

صبرة بن شيمان ٤٣٦ - ٤٤٠
صمصعة بن صوحان : ٣٨٠ - ٤٤١ -
٤٤٣

(ض)

الضحاك بن عبدالله الهاللي : ٤٣٣
ضمرة بن ضمرة : ٦٦

(ط)

طريف بن العاصي : ١٣ - ١٦
طريفة الكاهنة : ١٠٥
طلحة بن عبيد الله : ٢٣٥ - ٢٨٦
طليحة بن خويلد الأسدي : ٢٣٠
طهفة بن أبي زهير النهدي : ١٦٥

(ظ)

ظبيان بن حداد : ١٦٧

(ع)

عائشة رضي الله عنها : ٢٠٧ - ٢١٠ -

٢٨٦ - ٣٠٥ - ٣٠٦

عاصم بن عمرو : ٢٣٠
عامر بن جوين : ٢٧
عامر بن الطفيل : ٤١ - ٦٢
عامر بن الظرب : ١٨ - ١٩ - ١٢٣
عبادة بن الصامت : ٢٦١
العباس بن عبدالمطلب : ٢٦٣
عبدالرحمن بن الحرث : ٣٨٤
عبدالرحمن بن عمير : ٤٣٤
عبدالرحمن بن عوف : ١٩١ - ٢٦٦

زيد بن جبلة : ٤٤٩

زيد بن حصين الطائي : ٣١٨ - ٤١١

زيد بن صوحان : ٢٩٧

(س)

سبيع بن الحرث : ١١
سطيح الذئبي : ٩١ - ٩٤ - ٩٧
سعد بن أبي وقاص : ٢٢٩ - ٢٣٣ -
٢٦٨

سعد بن عبادة : ١٧٣
سعيد بن العاص : ٢٧٨
سعيد بن عبيد الطائي : ٢٩٢
سعيد بن قيس : ٣٥٤
سفانة بنت حاتم : ١٦٩
سفيان بن ثور : ٣٧٦
سلمى الهمدانية : ١١٣
سهل بن حنيف : ٣١٤
سواد بن قارب : ٨٢
سيحان بن صوحان : ٢٩٨

(ش)

شافع بن كليب الصديقي : ٩٠
شيث بن ربيع : ٣٢٩
شداد بن أوس : ٢٦١
شرحبيل بن السمط : ٣٩٠
شريح بن أوفى : ٤١٠
شريح بن هاني : ٣٨٧
الشعثاء الكاهنة : ١٠٣
شق أنمار : ٩٣ - ٩٧
شيمان الأزدي : ٤٣٦ - ٤٤٠

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

٢٢٤ - ٢٣٦ - ٢٦٩ - ٢٨٥

٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩١

٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٥

٣١٢ - ٣١٤ - ٣١٦ - ٣٢٤

٣٣٦ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧

٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥٣

٣٦٢ - ٣٧٥ - ٣٨٢ - ٣٩١

٣٩٤ - ٢٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٩

٤٠٠ - ٤٠٢ - ٤٠٤ - ٤١٢

٤١٤ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠

٤٢١ - ٤١٤ - ٤٥ - ٤٢٧

٤٣٦

عمار بن ياسر : ٢٩٤ - ٣١٣ - ٣٥٧

٣٨٤

عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ١٧٦

١٩٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣

٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٧ - ٢١٨

٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣

٢٢٤ - ٢١٥ - ١٢٧ - ٢٢٨

٢٣٣ - ٢٤٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦

٢٦١

عمرو بن الأهمم : ١٦٤

عمرو بن الحمق : ٣٢١ - ٣٨٣

عمرو بن الشريد : ٥٩

عمرو بن العاص : ٢٠٤ - ٢٥٤

٣٣٩ - ٣٨٩ - ٣٩١

عمرو بن كلثوم : ٣٧ - ١٢١

عمرو بن معد يكرب الزبيدي : ٦٣

عبد الله بن بديل بن ورقاء : ٢٢٠

٣٥٢

عبد الله بن جعفر : ٣٩٣

عبد الله بن حجل : ٣٨٠

عبد الله بن الزبير : ٢٧٨

عبد الله بن عامر الحضرمي : ٤٣٣

عبد الله بن عباس : ٣٢٦ - ٢٥٠

٣٨٧ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٤٠١

٤٠٦ - ٤١٧

عبد الله بن مسعود : ٢٨٠

عبد الله بن وهب : ٤٠٨

عبد المطلب بن هاشم : ٧٦ - ١٠٠

١٠١

عتبة بن غزوان : ٢٣٢

عثمان بن أبي العاص : ٢٤٤

عثمان بن حنيف : ٣٧٧

عثمان بن عفان رضي الله عنه : ٢٣٥

٢٦٧ - ٢٧٠ - ١٧١ - ٢٧٢

٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦

عجفاء بنت علقمة : ١١٤

عدى بن حاتم : ٢٨٩ - ٣١٧ - ٣٣١

٣٧٩ - ٣٨٢

عزى سلمة : ٩٨

عصام الكندي : ١٤٢

عطارد بن حاجب بن زرارة : ١٦٣

عقراء الكاهنة : ١١٥

عقبة بن حديد النمرى : ٣٦٣

عكرشة بنت الأطرش : ٣٦٨

علقمة بن علاثة : ٤١ - ٦٠

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : ١٤٧ -

١٤٨ - ١٤٩ - ١٥١ - ١٥٢ -

١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ -

١٦٦

مخالس بن مزاحم : ٦٤

مرة بن ذهل : ٤٠

مرثد الخير : ١٠ - ١٢

المستورد بن علفة : ٤١٥

مصاد بن مذعور القينى : ٨٦

معاذ بن جبل : ٢٠٤ - ٢٤٦ - ٢٥٨ -

٢٥٩ - ٢٦٠

معاوية بن أبى سفيان : ٣١٠ - ٣٢٧ -

٣٢٩ - ٣٣١ - ٣٣٩ - ٣٦٥ -

٣٨٩ - ٣٩٧ - ٤٣٠

المغيرة بن زرارة : ٢٤٠

المغيرة بن شعبة : ٢٤٢ - ٢٤٣

الملبب بن عوف : ١٧

المنذر بن الجارود : ٣٨١

مهلهل بن ربيعة : ٤٠

ميثم بن مثنوب : ١١

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٦٦

النعمان بن ثواب العبدى : ١٢٦

النعمان بن مقرن : ٢٣٧ - ٢٣٩

النعمان بن المنذر : ٥١

نفيل بن عبد الغزى :

عمير بن حبيب : ١٧١

عمير بن عطار : ٣٨٢

عوف بن ربيعة الأسدى : ٧٩

(ق)

قاصر بن سلمة : ٦٤

قبيصة بن نعيم : ٣٤

قس بن ساعدة : ٣٨ - ٣٩

القعقاع بن عمرو : ٢٩٨ - ٢٩٩

قيس بن خفاف البرجمى : ٣٢

قيس بن رفاعة : ٣٢

قيس بن زهير : ١٢٧

قيس بن سعد بن عبادة : ٢٨٥ - ٣١٣ -

٣٦٧

قيس بن عاصم السعدى : ٤٩

قيس بن عاصم المقرى : ١٧١

قيس بن مسعود الشيبانى : ٦١

(ك)

كاهن بنى الحارث بن كعب : ٨٠

كاهن ذو الخلصة : ١١٢

الكاهن الخزاعى : ٧٨

الكاهن اليمى : ٨١

كردوس بن هانى : ٣٧٥

كعب بن اوى : ٧٣

(ل)

لبيد بن ربيعة : ٦٧

(م)

المأمون الحارثى : ٣٩

مالك بن نط : ١٦٨

المنفى بن حارثة الشيبانى : ٢٢٢

محمد بن أبى بكر : ٣٩٨

(و)

الوليد بن عقبة : ٢٧٧

(ى)

يزيد بن أبي سفيان : ٢٦٢

يزيد بن أسد البجلي : ٣٤٣

يزيد بن عاصم المحاربي : ٤٠٨

يزيد بن قيس : ٣١٩ - ٣٣٢ - ٣٥٥

(هـ)

هاشم بن عبد مناف : ٧٤ - ٧٥

هاشم بن عتبة : ٣١٢ : ٣٢٢ - ٣٥٦

هانيء بن قبيصة الشيباني : ٣٧

هلال بن بشر : ٤٤٩

هند بنت الخلس الإيادية : ٦٨

جوهرة خط العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلك ، ومزيد تطولك ، وأصلى وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فها هو ذا « الجزء الثاني - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاويا ما وصل إلينا من خطب العصر الأموي ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافردواعي الخطابة في هذا العصر ، ونفاق سوقها .

وقد نهجت فيه نهجي في سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يميظ اللثام عن خفايا مراميها ، وغواض مغازيها ، فإني بحمده تعالى وافيًا مرضيًا ، والله نسأل أن يكلائنا برعايته ، وأن يمن علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجي ، فنعم المولى ونعم النصير ؟

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في
رجب سنة ١٣٥٢ هـ
نوفمبر سنة ١٩٣٣ م

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثانى - السابع - الثالث عشر -
- : الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
- : عشر - العشرون - الحادى والعشرون
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « الخامس - السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- المقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- نهج البلاغة : للشريف الرضى : « الأول
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
- جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : « الأول

- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : الجزء الأول - الثاني
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : « السادس - السابع - الثامن - التاسع
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث - الرابع
- مروج الذهب : للمسعودي : « الثاني
- الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : « الأول - الثاني
- معجم البلدان : لياقوت الحموي : « الثالث
- أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : « الثالث
- النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : « الأول
- لابن تفرى بردى :
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثاني
- معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : « الأول
- نفع الطيب ، للمقرئ : « الأول
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري الأوسى : « الثالث
- مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : « الثاني
- محمد البيهقي العلوي

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبي الفرج بن الجوزي

« « « « : لابن عبد الحكم

شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصري

أنباء نبياء الأنبياء : لابن ظفر المسكي

الحسن البصري : لابن الجوزي

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاى

إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلانى

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح



الباب الثالث

الخطب والوصايا

في

العصر الأموي

الخطب

خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه (١)

خطب الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنعاه فقال :

« لقد قتلم الليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتى موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه أحدٌ كان

(١) في الكامل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن علي توفي سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م : ٤ :

ص ٤) أنه توفي سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفي سنة ٥١ .

قبله ، ولا يُدْرِكُه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبيعه في السرية^(١) ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنفته العترة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : (وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) ، فاقترافُ الحسنة مودتنا أهل البيت . »

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحببنا وأحقه بالخلافة ! فبايموه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

(١) السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) الرجم : القدر والمأثم ، وكل ما استقدر

من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

تعبته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يشوبون ويحتمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن عليّ في الحثّ على الجهاد

« أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كَرْهًا ^(١) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فليست أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزهنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بِالْخَيْلَةِ ، حتى ننظر وتنظروا ، ونرى وترؤا » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فأتكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! لا يُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُصَرِّ الدين أَسِنْتُهُمْ كَالْخَارِيقِ فِي الدَّعَةِ ^(٢) ، فإذا جَدَّ الْجِدُّ

(١) يشير إلى قوله تعالى « كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ » .

(٢) جمع مخراق بالكسر : السيف (وهو أيضا المنديل يلف ليضرب به) وفي الدعاء : أي وقت الدعاء :

أي الخفض والسلم .

فَرَوَّاعُونَ كَالثَّعَالِبِ ، أَمَا تَخَافُونَ مَقْتِ اللَّهِ ! وَلَا عَيْبَ لَهَا وَعَارَهَا (١) .

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصاب الله بك المرآشد ، وجنبتك المسكاره ، ووقفك لما تحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقاتلك ، وانتهينا إلى أسرك ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكرى ، فن أحب أن يوافقينى فليوافق » ثم مضى لوجهه ، إلى النخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأقنوا الناس ولاموم وحرزوم ، وكلوا الحسن بمثل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فمسكروا ونشطوا للخروج ، وسار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٤)

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط (٢) ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، وأُتِمَّنه على الوحي ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خلقه خلقة ، وما أصبحت محملاً على مسلم ضعيفاً ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة (٣) ، إلا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، إلا وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم

(١) أى عار فلتكم هذه : ومعى تقاعسهم عن إجابة الحسن إلى مداعهم إليه ، وفى الأصل : «وعارتها»

وأراه محرفاً إذ العارة هى العارية ولا معنى لها هنا . (٢) ساباط كسرى بالمداين .

(٣) الغائلة : الشر والفساد وللداهية .

لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيي ، غفر الله لى ولکم ، وأرشدنى وإياکم
لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترّونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن
يصلح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فأنهبوه ،
حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُطَرَفَه^(١) عن عاتقه ، فبقي جالسا
متقلدا سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ،
ومنعوا منه من أراده ، ولا موه وضغفوه لما تكلم .

فلما مرّ في مُظَلِّم^(٢) ساباط ، قام إليه رجل من بني أسد يقال له جراح بن سنان ،
وبيده مِعْوَل^(٣) ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ،
ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت في فخذه فشقتة ، حتى بلغت أُرْبَيْتَه^(٤) ،
وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده واعتنقه فخرّا
جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ - خطبته يهرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ،
فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن
يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - فى أشياء اشتراطها - ثم قام الحسن
فى أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخى بنفسى عنكم ثلاثٌ : قتلكم أبى ، وطعنكم إياى ،
وانتهابكم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام . (٢) مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن : موضع هناك .

(٣) المعول : القاسم العظيمة التى ينقر بها الصخر . (٤) الأربية : أصل الفخذ .

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإفناذ الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ، وكان عمرو ابن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنني أريد أن يبدؤ عيبي للناس^(١) ، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : قم يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيهِ ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بأخرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت ، وتسلمون من سلمت ، وقد سلمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ أَدْرَى أَمَلَهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قال معاوية اجلس ، فلم يزل ضرمًا^(٢) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

وأنباء نجيلاء الأنبياء ص ٥٦ وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٢٢٤)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال :

(١) روى أبو الفرج الأصبهاني أنه كان في لسان الحسن ثقل كالثأفة (شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١) .

(٢) ضرم عليه كفرح : احتدم غضبا فهو ضرم .

« الحمد لله الذي توحد في ملكه ، وتفرد في ربوبيته ، يؤتي الملك من يشاء ،
وينزعُه عن يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وحقن
دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء ^(١) ، إن شكرتم أو كفرتم .
أيها الناس : إن ربَّ عليّ كان أعلم بعليّ حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا
مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فبهيات هيئات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله
عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها ، جرّعكم رنقاً ^(٢) ، وسقاكم علقاً ^(٣) ،
وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فليستم بملومين على بفضه ، وإيم الله لا ترى أمة محمد
خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمية ، ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تصدروا عنها
حتى تهلكوا ، لطاعتكم طواغيتكم ^(٤) ، وانضوائكم ^(٥) إلى شياطينكم ، فعند الله
أحسنُ ما مضى ، وما ينتظر من سوء دعتكم ، وحيف ^(٦) حكمكم ، ثم قال :

« يأهل الكوفة لقد فارقتكم بالأمس سهم من مرأى الله ، صائب على أعداء الله ،
نكالٌ على فجّار قريش ، لم يزل آخذاً بمناجرها ، جأماً على أنفاسها ، ليس باللومة
في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة ^(٧) في حرب أعداء الله ، أعطى
الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجاب ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ،
فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عجل أو كاد ، وأصاب متثبت أو كاد ، ماذا أردت من

(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ص ١٠)

خطبة الحسن ؟

(١) البلاء يكون منعمة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول .

(٢) ماء رنق : كعدل وكشف وجبل كدر . (٣) العلق : الدم ودويبية في الماء تمس الدم .

(٤) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان وكل رأس ضلال . (٥) انضمامكم .

(٦) الحيف : الظلم : (٧) الفروق والفروقة : شديد الفزع .

٨ - خطبة معاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلاح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك - وهو لى حلال - لصلاح الأمة وألقهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« يا أهل الكوفة ، أترائى ، قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج . وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحججون ، ولكنى قاتلتكم لأنامرّ عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطول ، وكل شرط شَرَطْتَه فتحت قديمى هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقبال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزؤهم غزؤكم » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ - ردّ الحسن بن عليّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما جالسان تحت المنبر ، فذكر عليّاً عليه السلام ، فقال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ابعد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذّاكر عليّاً : أنا الحسن ، وأبى عليّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمى فاطمة ، وأمك هند ، وجدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتَيْبَةُ بن ربيعة ،

(١) إرجاعهم وردهم .

وجدتني خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخلصنا ذكراً ، والأمننا حسباً ، وشرنا قديماً
وحديثاً ، وأقدمنا كفوفاً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ، أتى سليمان
ابن صرد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم - فدخل على الحسن
فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، فجلس
سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فإن تَمَجَّبْنَا لا ينقضى من بيعتك معاويةَ ومعك مائة ألفِ مقاتل من
أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء ، مع مثاهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعةك من
أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد ، ولا حظاً من القضية ،
فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت
كتبت عليك بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، أن هذا
الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا ، فرضيت به من قوله ،
ثم قال ، وزعم كلِّي رعوس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطاً ،
ووعدتهم عِدَاتٍ ، ومنيتهم أمانى ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ،
إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك نحت قديمي هاتين ، والله ما عني بذلك
إلا تقض ما بينك وبينه فأعد الحرب جذعة^(١) ، وأذن لي أشخص إلى الكوفة ،

(١) هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أى فتية .

فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وأنبذ إليه^(١) كَلَى سَوَاء ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْغَائِبِينَ .

ثم سكت ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقاله ، وكلمهم يقول : ابث سليمان
ابن سرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعاه .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالصحبة والاستقامة لنا ، وقد
فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، والدنيا أعمل وأنصب ، ما كان
معاوية بأبأس مني وأشد شكيمه ، ولكان رأي غير ما رأيتم ، لكني أشهد الله
وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حَقَنَ دَمائكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ،
وارضوا بقضاء الله ، واصلحوا الأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برئ
أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سبلي الأمر ، فواؤه لوسرنا إليه
بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر^(٢) ، إن الله لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ،
وأما قولك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فواؤه لأن تَذَلُّوا وتُعافوا أحب إلى من أن تَعَزُّوا وتَقْتُلُوا ،
فإن رَدَّ الله علينا حَقَّنَا في عافية ، قَبَلْنَا وسألنا الله العون كَلَى أمره ، وإن صرَّه عنا رَضِينَا
وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا ، فليكن كل رجل منكم جَلِيسًا^(٣) من أحلاس بيته ،

(١) معناه إذا هادنت قوما ، فعلمت منهم النقص للمهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقص ، حتى تعلمهم

أنك نقصت المهد ، فتكفونوا في علم النقص مستورين ، ثم أوقع بهم . (٢) يطلب .

(٣) الخلس : بساط البيت ، وفلان جلس من أحلاس البيت : الذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة

كن جلسا من أحلاس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية » أي لا تبرح .

مادام معاوية حياً ، فإن يَهْلِكِ ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمه على رشدنا ، والمعونه على أمرنا ، وأن لا يَكِلِنَا إلى أنفسنا ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَةٌ ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون .
وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين ^(٢) اللذين خلقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والموّل عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئُنَا تَأْوِيلُهُ ، بل نتيقن حقايقه ، فأطيعونا ، فإطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ^(٣) : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (وَكَوَزِدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ، وأحذركم الإصغاء لهاتف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياته الذين قال لهم : (لَا غَايِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ وَإِنِّي

(١) العتره : وهط الرجل وعشيرته الأذنون . (٢) الثقل : كل شيء نفيس مصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ) فَيُتَلَقُونَ لِلرَّمَاحِ أَزْرًا^(١) ، وَلِلسُيُوفِ جَزْرًا^(٢) ، وَلِلْعَمْدِ حَظًّا^(٣) ،
وَلِلسَهَامِ غَرَضًا ، ثُمَّ : (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) . (مروج الذهب ٢ : ٥٣)

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضى الله عنه :

« اعلموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف^(٤) ،
والمجالة سفه ، والسفة ضعف ، والقلق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة
أهل الفسوق ريبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

(١) الأزر: جمع إزار، وهو الملحفة وكل ماواراك وسترك: أى فتكونون أجرية للرماح تغيب فأيديكم
وتستمر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الظهر: أى تركيبكم الرماح وتعاونكم ، والمراد تطمنون وتضربون بها
والأول أوجه . (٢) أى قطعاً . (٣) عمد بفتحيتين ، وعمد بضميتين : جمع عمود ، وهى من
الآلات التى كانت تستعمل فى القتال . (٤) الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك ،
أو مجاوزة قدر الطرف والادعاء فوق ذلك تكبراً .

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال :

« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْط ، وعُتْبة بن
أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن عليّ عليه السلام
قوارص^(١) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين : إن الحسن قد أحيا أباه
وَذَكَرَهُ ، وقال فَصَدَّقْ ، وأمر فأطيع ، وخَفَقَتْ^(٢) له النعالُ ، وإن ذلك لَرَأْفَةٌ إلى ما هو
أعظم منه ، ولا يزال يبلِّغنا عنه ما يسوءنا . قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا: ابعث إليهم
فليحضر لِنَسْبِهِ ونسب أباه ونعيِّره ونوبِّخه ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرّره بذلك ،
ولا يستطيع أن يغيّر علينا شيئاً من ذلك . قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا:
عزّمتنا عليك يا أمير المؤمنين لِنَفْعَلَنَّ ، فقال : وبحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيت قط جالساً
عندي إلا خفت مقامه وعيِّبه لي ، قالوا ابعث إليهم على كل حال . قال : إن بعثت إليهم
لأنصفته منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يُرْجى قوله
على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليهم لأمرته أن يتكلم بلسانه كَلَّه . قالوا :
مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتهموني وبعثتم إليهم وأبتم إلا ذلك ، فلا تَمْرَضُوا^(٣) له

(١) القوارص من الكلام: التي تنفصك وتؤلك .

(٢) الخفق : صوت النعل .

(٣) تمرض : ضعف في أمره .

في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يَمِيهِم المائب ، ولا يَلْصِقُ بهم العارُ ، ولكن اذفوه بحجره ؛ تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وَكَرِهَ خلافة الخلفاء من قبله ؛ فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله . فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسأله . فقال الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خَرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابغيني ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، وأدرا^(١) بك في نحورهم ، وأستمين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأتَى شئت ، بحول منك وقوة ، يا أرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد^(٢) القوم ، وخطروا^(٣) خطرَ ان الفحول ، بنياً في أنفسهم وعُلُوًّا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني . فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ؛ والله إن كنت أحببتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحي لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف ، فأيهما تقرُّ وأيهما تُنكر ؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبدالمطلب ، ومالي أن أكون مستوحشاً منك أو منهم ؟ إن ولي الله وهو يتولى الصالحين ؛ فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف^(٤) ومنى ، وإنما دعوناك لنعرضك أن عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكلِّ لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

(١) أدفع . (٢) الارتياح : الذهاب والمجيء . (٣) خطر الرجل في مشيته : رفع يديه ووضعها اهتز وتبختر ، وخطر بسيفه ورجحه : رفعه مرة ووضعه أخرى خطرانا (بالتحريك) وخطر الفحل بذنبه : ضرب به يمينا وشمالا . (٤) الإنصاف والعدل .

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايحه مُكْرَهًا ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له . ثم ذكر الفتنة يعبّره بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ؛ ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا ليه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وترك أحق قريش ، يُسخر منك ، ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ؛ وإنما دعوناك لنسبنا وأباك ؛ فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إنثم من الله ، ولا عيب من الناس ؛ فهل تستطيع أن ترد علينا وتسكذبنا ؟ فإن كنت ترى أننا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال :

« يا بنى هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فعرّف حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصهرُ كان لكم يُكرمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك . »

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حسنُ : كان أبوك شرَّ قریش لقریش ، لِسَفِكِهِ الدَّمائِهَا ، وَقَطْعِهِ لِأَرْحَامِهَا ، طَوِيلَ السِّيفِ وَاللِّسَانِ ، يَقْتُلُ الْحَيَّ وَيَعْيِبُ الْمَيِّتَ ، وَإِنَّكَ مِنْ قَتَلِ عُثْمَانَ وَنَحْنُ قَاتِلُوكَ بِهِ . وَأَمَّا رَجَاؤُكَ الْخِلَافَةَ فَلَسْتَ فِي زَنْدِهَا^(١) قَادِحًا ، وَلَا فِي مِيزَانِهَا رَاجِحًا ، وَإِنَّكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ قَتَلْتُمْ عُثْمَانَ ، وَإِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ نَقْتَلَكَ وَأَخَاكَ بِهِ ، فَأَمَّا أَبُوكَ فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَأَقَادَ^(٢) مِنْهُ ، وَأَمَّا أَنْتَ فَوَاللَّهِ مَا عَلَيْنَا لَوْ قَتَلْنَاكَ بِعُثْمَانَ إِنْمْ وَلَا عُدْوَانَ » .

١٧ - مقال المغيرة بن شعبه

ثم تكلم المغيرة بن شعبه ، فشم عليا وقال : والله ما أعيبه في قضية يخون ، ولا في حكم يميل ، ولسكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

١٨ - رد الحسن بن علي عليهم

فتكلم الحسن بن علي عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أَمَا بَعْدَ يَا مَعَاوِيَةَ ، فَا هُوَ لَاءَ شَتْمُونِي ، وَلَسْكَنَكَ شَتْمَتِي ، فُحْشًا أَلْفَيْتُهُ ، وَسَوْءَ رَأْيٍ عُرِفَتْ بِهِ ، وَخَلْقًا سِيئًا تَبَّتْ عَلَيْهِ ، وَبُنْيَا عَلَيْنَا ، عِدَاوَةٌ مَنَكَ لِحَمْدِ وَأَهْلِهِ ، وَلَسْكَنَ اسْمِعْ يَا مَعَاوِيَةَ واسمعوا ، فَلَا قَوْلَنَ فِيكَ وَفِيهِمْ مَا هُوَ دُونَ مَا فِيكُمْ ، أَنْشُدْكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الرُّهْطُ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي شَتَمْتُمُوهُ مِنْذُ الْيَوْمِ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ^(٣) كَاتِبَتِيهِمَا ، وَأَنْتَ يَا مَعَاوِيَةَ

(١) للزند : العود الذي يقدح به النار . (٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت

المقدس تألفا لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول .

بهما كافر ، تراها ضلالة وتمبد اللات والعزى^(١) غواية ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح^(٢) وبيعة الرضوان^(٣) ، وأنت يامعاوية يا حداهما كافر ، وبالآخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وأنت يامعاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم ، تُسِرُّونَ الكفر وتُظهِرونَ الإسلام ، وتَسْتَمَلونَ بالأموال ، وأنشدكم الله أستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ، ويُفْلِحُ^(٤) حجته ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك ساخط ؛ وأنشدك الله يامعاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جبل أحر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم العن الرَّاكِبَ والقائدَ والسائقَ » أنسى يامعاوية الشعر الذي كتبه إلى أبيك - لما تمَّ أن يُسَلِمَ - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّمَنَّ يَوْمًا فَيَفْضَحَنَا بَعْدَ الَّذِينَ بِيَدْرٍ أَصْبَحُوا مِرْقَاً^(٥)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمِّ نَالَهُمْ وَحَنَظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَاً^(٦)

(١) اللات : صنم ثقيف بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان بيطن نخلة .

(٢) روى الطبري في تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام فجلس لهم - فيما بلغنى - على الصفا ، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبري ٣ : ١٢١ - وكان معاوية ممن أسلم بعد الفتح .

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية في غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين

للبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان . (٤) ينصر .

(٥) المزق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره . (٦) أي لشدة الحزن والأسى .

لَا تَهْ كَنْنَ إِلَى أَمْرٍ تُكَلِّفُنَا وَالرَّافِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرَّافِ (١)
فَلَمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْعُدَاةِ «لَقَدْ حَادَا بَنُ حَرْبٍ عَنِ الْعَزْمِيِّ إِذَا فَرِقَا» (٢)

والله لما أخفيتُ من أمرِك ، أ كبر مما أبديتُ ؛ وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن علياً حرّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) . وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أ كابر أصحابه إلى بني قُرَيْظَةَ ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالراية ؛ فاستنزهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيبرٍ مثملاً ، ثم قال : يامعاوية أظنك لا تعلم أني أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جَدِيمة (٣) فبعث إليك ونهمك (٤) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط .

(١) الخرق محرقة : ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور ، والحقق . (٢) فرق : فزع .

(٣) في الأصل « خزيمة » ، وهو تحريف ، وهم بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلاً ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما - فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال : يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي بيلغة الكلب ، (والميلغة بالكسر : الإناء يلع فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحسن ، ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد ، ثلاث مرات . (٤) الذي في كتب اللغة : « نهمه : زجره ، وحذفه بالخصى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه .

نشدتكم الله ألا تعملون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أباسفيان في سبعة مواطن لا يستطيعون ردّها؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو تقيفاً إلى الدين؛ فوقع به، وسبه وسفه، وشمته وكذّبه وتوعده. وهم أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه. والثانية يوم العير^(١) إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام. فطردها أبوسفيان وساحل^(٢) بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها. والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه، وهو ينادى أعلُّ هبل^(٣) مرارا فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ولعنه المسلمون. والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل. والخامسة يوم جاء أبوسفيان في قريش، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والهدى معكوفاً أن يبلغ محله^(٤) ذلك يوم الحديبية. فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أباسفيان، ولعن القادة والأنبياء، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن. فقيل يارسول الله أفنا يُرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: لا تصيب اللعنة أحداً من الأنبياء. وأما القادة فلا يُفلح منهم أحد^(٥). والسادسة يوم الجمل الأحمر. والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة ليستنقروا ناقته وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبوسفيان. فهذا لك يامعاوية.

وأما أنت يابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من عهد^(٦)

(١) العير: الإبل تحمل الميرة: (٢) أتى بها ساحل البحر. (٣) أى اعل وانصر يا هبل:

وهو صنم كان في الكعبة. (٤) والهدى معكوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهدى ما يهدى

إلى مكة، ومعكوفاً أى محبوساً وهو حال. أن يبلغ محله أى مكانه الذى ينحر فيه عادة وهو الحرم.

(٥) لا يتعارض مع هذا أن أباسفيان أفلح بعد وأسلم، إذا النفي فيه بلا، وليس النفي بلى.

(٦) فجور: ذكروا أن النابغة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من هذيلة (بالتحريك) فسبيت:

فاشترها عبد الله بن جدهان التيمي بمكة، فكانت بغيا، ثم أعتقها، فوقع عليها أبو هب بن عبد المطلب، =

وسَفَاحٍ فتحاكم فيك أربعة من قريش . فقلب عليك جزأرها . الأهمم حسبا ، وأخبرهم
مَنْصِبًا . ثم قام أبوك فقال : أنا شاني محمد الأبتَرُ^(١) . فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت
رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد . وهجوته وآذيته بمكة ، وكذته كيدك
كله . وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة . ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب
السقيفة لتأني بجمعهم وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) . فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبا
وأكذبك واشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي
حسدا لما ارتكب من حليته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك . فأنت عدو بني هاشم

= وأمية بن خلف الجمحي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل
السهمي في طهر واحد ، فولدت عمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه ، فقالت هو من العاص بن وائل ،
وذلك لأن العاص كان ينفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث
ابن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت لنا فيك منه بينات الشائيل

ويقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا وهو على المنبر : من أمه ؟ فسأله فقال : أمي سلمى
بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عذرة أصابها رماح العرب فبيعت بمكاذ ، فاشترها الفاكه بن المغيرة ،
ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذ .
(ورأى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

(١) الشافي المغض ويسهل : وذلك أن العاص بن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم أبتَر عند موت
ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المتقطع من كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر
الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيبقى حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبتَر لأنت .

(٢) يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمان عشرة
امراة ، وكان من الرجال جمعهم بن أبي طالب ، ولما رأيت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ،
وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائبين ، وأبي النجاشي أن يخفر ذمتهم .

(٣) وذلك أن عمرا وعمارة ركبا البحر إلى الحبشة كما قدمنا - وكان عمارة جميلا وسيما تهواه النساء ،
وكان مع عمرو بن العاص امرأته - فلما صاروا في البحر ليالي أصابا من خمر معهما ، فانتهى عمارة فقال
لامراة عمرو قبلي ، فقال لها عمرو قبيل ابن عمك ، فقبلته ، فهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها ، =

في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرَّهَطِ يملون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتا من الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي . اللهم العنه بكل حرفٍ ألفَ لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يُخَصِّي من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سَعَرْتِ^(١) عليه الدنيا نارا ، ثم لَحِقَتْ بِفِلَسْطِينَ ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نَكَأَتْ قَرْحَةَ أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حَيًّا ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك يا بن العاص ! ألسن القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟ وما السيرُ مني بِمُسْتَنْكَرٍ

= فانتمنت منه ، ثم إن عمرا جلس على منجاف السفينة يبول « منجاف السفينة هوسكانها الذي تعدل به » فدفعه عمارة في البحر ، فلما وقع عمرو سبج حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا حتى نزل الحبشة ، فلما اطمانا به لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته ومبيته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فإني أعرفه وأتني بشيء منه حتى أصدقك ، قال : أفعل ، فسألها ذلك فدهنته منه وأعطته شيئا في قارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ! ماسمعا بمثل هذا ، ثم سكت عنه حتى اطمان ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة أخر فجرده من ثيابه ثم أمرهن ينفضن في إحليله ثم خلى سيبله فخرج هاربا .

(١) سمر النار : كنع أوقها . وكان عمرو أول خلائة عثمان واليا على مصر - منذ خلافة عمر ابن الخطاب - ثم إن عثمان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثمان من الرضاع - خراج مصر ، وولى عمرو بن العاص على الجند فلم يتفقا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو بعدئذ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، فكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لألقى الراعي فأعرضه عليه (نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرا فندبت) .

قلت : ذَرَيْتَنِي فَبَانِي امْرُؤُ
لَا كُؤِيْبُهُ عِنْدَهُ كِيَّةٌ
وَسَانِي أَحَدًا مِّنْ بَيْنِهِمْ
وَأَجْرِي إِلَى عُنْتَبَةَ جَاهِدًا
وَلَا أَتْنِي عَنْ بَنِي هَاشِمٍ
فَإِن قَبِلَ الْعَتَبُ مِنِّي لَهُ
أُرِيدُ النَّجَاشِيَّ فِي جَعْفَرٍ
أُقِيمُ بِهَا نَخْوَةَ الْأَصْعَرِ (١)
وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَلَوْ كَانَ كَالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ (٢)
وَمَا اسْتَطَعْتُ فِي الْغَيْبِ وَالْمَحْضَرِ
وَإِلَّا لَوَبْتُ لَهُ مِشْفَرِي (٣)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في الحُرِّ (٤) .
وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صَبْرًا (٥) ، وأنت الذي سماه الله الفاسق

(١) الصعر محرّكة : الميل في الخد ، صعر : كفرح فهو أصعر ، وصعر خده تصعيرا : أماله من الكبر . (٢) كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة عتبة بن غزوان ، وهو من بني نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعني عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أي في صعوبة الوصول إليه .
(٣) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . (٤) وذلك أن عثمان رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولّى عليها الواليد بن عقبة - وهو أخوه لأمه - ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم وأنه تكلم في الصلاة والتفت إلى من يقتدون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا صلواتنا ، وشهد الشهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتا وأراد أن يحده فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضربه ناشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى على ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلده به .

(٥) القتل صبورا : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهزاء به . صنع مرة ولية ودعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبي ابن خلف الجمحي ، وكان صديقا له ، فقال ما شيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رجل شريف ، فبني أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له ، قال أبي : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبرق في وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله -

وسمى علياً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت يا علي ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً . فقال لك علي اسكت يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق . فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : (أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) ثم أنزل فيك علي موافقة قوله أيضا (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١)) ويحك يا وليد ؟ مهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتاب عزيز) في علي وفي الوليد قرآنا ^(٢)
فتبوا الوليد إذ ذاك فسقا وعلى مبوا إيمانا ^(٣)
ليس من كان مؤمناً (عمرك الله) كمن كان فاسقا خوآنا
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلى إلى الحساب عيانا
فعلى يجزى بذاك جنانا ووليد يجزى بذاك هوآنا
رب جد لعقبة بن أبان لابس في بلادنا تباناً ^(٤)

= صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه (وَيَوْمَ يَعْزُّ الضَّالُّمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي في حجر الكعبة فأقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : (اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد قتله عليه الصلاة والسلام وهو راجع .

(١) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لأخذ الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهم يقتلهم ، فأثروه منكرين ما قاله عنهم ، فنزلت الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . (٢) مسهل من « قرآنا » . (٣) فتبوا : مسهل من « فتبوا » .

(٤) أهان : هو والد أبيه عقبة ، فهو الوليد بن عقبة بن أبي ميعط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس ، والتبان : سراويل صغير مقدار شبر يسير العورة المغلظة فقط يكون للداحين .

وما أنت وقريش ، إنما أنت عذج من أهل صفورية^(١) ، واقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة ، فوالله ما أنت بحصيف^(٢) فأجيبك ، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرجى ، ولا شرٌّ يُتقى ، وما عقلك وعقل أمّتك إلا سواء ، وما يضر علياً لو سببته على رهوس الأثهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يا للرجال وحادث الأزمان
ولسبية تخزي أبا سُفيان^(٣)

نُبئتُ عتبةَ خانة في عرسه
جنسٍ لثيم الأصل من لحيان^(٤)

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفضله ، فكيف يخاف أحدٌ سيفك ؟ ولم تقتل فاضحك . وكيف ألومك كلّي بفض عليّ ، وقد قتل خالك الوليدَ مبارزةً يوم بدره ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلةً في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : « استمسكي فإني طائرةٌ عنك » فقالت النخلة : وهل علمتُ بك واقمةً كلّي ، فأعلم بك طائرةٌ عنى ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علمنا بها ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه . ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان . وأما

(١) صفورية : بلد بالأردن (بضم الهمزة والدال وتشديد النون) ، والمليح : الرجل من كفار العجم .
وذلك أن جده ذكوان كان يلقب بالصفورى . ذكر جماعة من النسائين أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بنى أمية لصلبه (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤) .
(٢) حصيف : ككرم استحکم عقله فهو حصيف . (٣) السبة : العار . (٤) عرس الرجل : امرأته : وبنو لحيان : حى من هذيل ، وهو لحيان بن هذيل بن مدركة .

نفركم علينا بالإمارة ، فإن الله تعالى يقول : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا^(١) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) .

ثم قام الحسن فففض ثوبه فانصرف ؛ فتملق عمرو بن العاص بثوبه وقال : يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وقذفه أي بالزنا ، وأنا مطالب له بحد القذف .

فقال معاوية : خل عنه ، لاجزأك الله خيرا ، فتركة ، فقال معاوية : قد أنبأتكم أنه من لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فمصيتموني ، والله ما قام حتى أظلم على البيت ، قوموا عني ؟ فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدولكم عن رأي الناصح الشفوق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن علي رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسين ومحمد بن الحنفية^(٢) وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ، وقد اغرورت عيناه ، وقال :

« رحمك الله أبا محمد فلئن عزت حياتك لقد هدأت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ، وخامس أصحاب الكساء^(٣) ؛ وخلف

(١) أي كثرنا ، أمره : كنصره ، وآمره : كثره ، (وفي قراءة : أمرنا) أو المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا وعصوا ، وقد يكون من الإمارة أي جعلناهم أمراء . (٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب : والحنفية أمه ، وهي امرأة من بني حنيفة بن لبيم وتسمى خولة بنت جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . (٣) الكساء : هو كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يضافون إليه ، فيقال : « آل الكساء » وهم النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ديك الجن :

أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ،

= وقال أبو عثمان الخالى :

أعاذل إن كساء التقي كسانيه حي لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ماروت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحيى الموتى ويبرئ الأكمة والأبرص ويخلق من العطين كهيئة الطير ، وبابنا على أنه ابن الله ونحن نبإبعك على أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فا زالوا يحاجونه ويلاحونه حتى أنزل الله : (قَدْ حَاجَّكَ فِيهِ) أى فى عيسى (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فقال لهم : إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم - والمباهلة الملائمة - فقالوا يا أبا القاسم : بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم . قال ياقوت في معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا . . الخ » يا عبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمدا نبي مرسل ، واقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم » أى عيسى « والله ما باهل قوم نبيا قط ، فاعش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أو خز » وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمنوا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إنى لارى وجوها أو سأورا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تباهلوا فهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة » ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك « فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباہلة فأسلموا ، يكن لكم مالمسلمين وعليكم ماهل المسلمين » فأبوا ، فقال : فإنى أنا جزم القتال ، فقالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصلحك على أن لاتنزوننا ولا تردنا عن ديننا ، على أن تؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة ، ألفا فى صفر وألفا فى رجب ، وثلاثين درما عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدل على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قرده وخنازير ، ولاضطرم عليهم الرادى نارا ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رهوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى =

وعمك جعفر^(١) الطيار في جنة المأوى ، وغذتكَ أكَفَ الحق ، ورُبِّيت في حِجْرِ
الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فَطَبَّتَ حيا وميتًا ، فلئن كانت الأنفس غيرَ طيبة
لفراقك ، إنها غير شاكرة أن قد خيرَ لك^(٢) ، وإنك وأخاك لسيدا شبابِ أهلِ الجنة ،
فعليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والمقد الفريد ٢ : ٧)

= أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج في المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ،
ثم على رضى الله عنهم ، ثم قال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا) فمن ذلك الوقت سُمي الخمسة أصحاب الكساء (انظر كتاب ثمار القلوب في
المصاف والمنسوب للثعالبي ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازي مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩) .

(١) هو جعفر بن أبي طالب ، وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخذ

الراية من زيد بن حارثة الذي استشهد قبله في هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة

البارحة ، فرأيت جعفرًا يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة

النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ . - (٢) خار الله لك في الأمر . : جعل لك فيه الخير .

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأنيبه عن بيعته يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولي الخلافة يزيد بن معاوية (في هلال رجب سنة ٥٦٠) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ الحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بالبيعة أهدأ شديداً ليست فيه رخصة^(١)، فبعث الوليد إلى الحسين رضى الله عنه ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين: «إن مثلي لا يعطى بيعته سراً، ولا أراك تجترئ بها منى سراً، دون أن تُظهرها على رموس الناس علانيةً، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس، فكان أمراً واحداً» فقال له الوليد - وكان يحب العافية - «فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس».

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء، فقال: «أصبحوا ثم ترون ونرى» فكفوا عنه تلك الليلة ولم يُلجأوا عليه، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيامن رجب سنة ٥٦٠) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له:

(١) الرخصة: التسهيل.

٢٠ — نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحبُّ الناسِ إلىَّ ، وأعزُّهم علىَّ ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقَّ بها منك ، تنحَّ بِتَبَعَتِكَ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس فأدعُهُم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك سَهِدَتَ اللهُ على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم يَنْقُصِ اللهُ بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يُذهِبُ بِمِروءَتِكَ ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخلَ مصرًا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، ففهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتكون لأوَّلِ الأَسِنَّةِ ، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأمّاً أضيَعُها دَمًا ، وأذلُّها أهلاً » .

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نَبَتَ^(٢) بك لَحِقَتْ بالرمال ، وَشَعَفِ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر لإلام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أضوب ما يكون رأياً ، وأحزمه عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكلَ منها حين تستدبرها استدباراً » .

قال : « يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مَوْفَقًا » . وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلمهم ، إنا قد حَبَسْنَا أَنْفُسَنَا عَلَيْكَ ، ولسنا نحضُرُ الجمعة مع الوالى فأقدم عايِنًا^(٤) — وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة —

(١) تبعة جمع تابع . (٢) ضاقت . (٣) الشعف : جمع شعفة مجركة ، وهى رأس الجبل .
(٤) اجتمعت الشيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن سرد ، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببيته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه وإن خفتم الوهل (بالتحريك) =

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، فقال له :

« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى » ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ، فخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبل الشيعة تختلف إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

= الضعف والفرع والفضل) فلا تنزوا الرجل من نفسه» قالوا « لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه » قال :
فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من سلجان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة ابن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعة من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى (وثب) على هذه الأمة فابتزها أمرها ، وغصبها فيها ، وتأمر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبق شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها ، فبعدا له كما بمدت ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ، لستنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من شيعة من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فحيلا (أي أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى لهم في غيرك ، فالعجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجناب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جهم بالفتح ، وهو معظم الماء وطى الماء : علا ، وطم : غمر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي إلى الملا من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هائنا وسعيدا (وهما هاني بن هاني وسعيد بن عبد الله) قدما على بكتبكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلكم ، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جللكم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقى من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والهادئ بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم مافي أنفسهم ، وما أغرؤك منهم ،
والله أحَدُّكَ عما أنا موطنٌ نفسي عليه ، والله لأجيبَنَّكُمْ إذا دعوتهم ، ولأقاتلَنَّ معكم
عدوَّكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .
فقام حبيب بن مظاهر الفقمسي فقال :

« رحمتك الله قد قضيت مافي نفسك بواجزير من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي
لا إله إلا هو طي مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولها .

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ - خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عبادَ الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلكُ
الرجال ، وتُسْفِكُ الدماء ، وتُغْصَبُ الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال :
إني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أئيبُ على من لا يئيبُ عليَّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرشُ
بكم ، ولا آخذ بالقرفة^(١) ولا الظنَّة ولا التَّهْمَةَ ، ولكنكم ، إن أديتم صَفْحَتَكُمْ^(٢) لي
وَنَسَكْتَكُمْ بيمعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما نبتت
قائمه في يدي ولولم يكن لي منكم ناصر ، أما إني أرجو أن يكون من يَعْرِفُ الحقَّ
منكم أكثر ممن يُرْدِيهِ الباطلُ » .

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

(١) القرقة : التهمة ، وقرفه بالشيء : اتهمه .

(٢) أي جاهرتموني بالعداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا العَشم^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُستَضْعَمِينَ » فقال : « أن أكون من المُستَضْعَمِينَ في طاعة الله أحبُّ إلىَّ من أن أكون من الأَعزَّين في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قوياً غير النعمان ، فبعث إلى عبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضمَّ إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) ولآتي مصركم وثغركم^(٢) ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، ومُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لحسنكم ومطيعكم كالوالد الأبَرُّ ، وسوْطِي وسيْفِي على من ترك أمرِي ، وخالف عهدي ، فليُتَّقِ امرؤ على نفسه ، الصدق يُبْذِي عَنْكَ لا الوعيد » .

ثم نزل فأخذ العُرْفَاءَ^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج من دار الختار ، حتى انتهى إلى دار هاني بن عروة المرادي لا يُدْأَبُه ، ونمى خبره إلى ابن زياد ، فبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال : لا والله لا أُجِيتُك به أبداً أنا أُجِيتُك بضيفي تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد بالقضيب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وسَيَّلَ الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

(١) العشم : الظلم ، والمراد الشدة . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروع البلدان .

(٣) جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمي لأنه عرف بذلك أو النقيب وهو دون الرئيس .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هاتماً وحبسه ، خَشِيَ أَنْ يَنْبَغِ النَّاسُ بِهِ ، فَخَرَجَ فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ النَّاسِ وَشُرَطُهُ وَحَشَمَهُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَاعْتَصِمُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ أُمَّتِكُمْ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَلَا تَفْرَقُوا ، فَهَلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتُقْتَلُوا ، وَتُجْفَوُوا وَتُحْرَمُوا ، إِنْ أَخَاكَ مِنْ صَدَقَتِكَ ، وَقَدْ أَعْذَرْنَا مِنْ أَنْذَرِ » .

وَبَلَغَ مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ خَبْرَ ضَرْبِ هَانِي وَحَبْسِهِ ، فَأَمَرَ أَنْ يَنَادَى فِي أَصْحَابِهِ وَكَانَ قَدْ بَايَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ، وَأَقْبَلَ نَحْوَ الْقَصْرِ ، فَتَحَرَّزَ فِيهِ ابْنُ زِيَادٍ وَغَلَّقَ الْأَبْوَابَ ، وَبَعَثَ إِلَى الْأَشْرَافِ لِحَمْلِهِمْ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَشْرَفُوا عَلَى النَّاسِ ، فَتَنُّوا أَهْلَ الطَّاعَةِ الزِّيَادَةَ وَالْكَرَامَةَ ، وَخَوْفُوا أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ الْحُرْمَانَ وَالْعَقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوهُمْ فُصُولَ ^(١) الْجُنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فَتَكَلَّمَ كَثِيرٌ بْنُ شِهَابٍ أَوَّلَ النَّاسِ فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : احْتَقُوا بِأَهَالِيكُمْ ، وَلَا تَعَجَّلُوا الشَّرَّ ، وَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ ، فَإِنَّ هَذِهِ جُنُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْأَمِيرُ عَهْدًا لَنْ تَمْتَمَ ^(٢) عَلَى حَرْبِهِ ، وَلَمْ تَنْصَرَفُوا مِنْ عَشِيَّتِكُمْ أَنْ يَحْرِمَ ذُرِّيَّتِكُمُ الْعَطَاءَ ، وَيَفْرُقَ مُقَاتِلَتِكُمْ فِي مَغَازِي أَهْلِ الشَّامِ عَلَى غَيْرِ طَمَعٍ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْبَرِيءَ بِالسَّقِيمِ ، وَالشَّاهِدَ بِالْغَائِبِ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ فِيكُمْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا أَذَاهَا وَبَالَ مَا جَرَّتْ ^(٣) أَيْدِيهَا » .

(١) فصل من البلد فصولا : خرج منه . (٢) يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

(٣) جر جريرة : اجترم جريمة .

وتسكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تؤويه فأوته في دارها .

٣٦ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انفضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ، وأمر ففودى « أَلَا بَرِيَّتِ الذِّمَّةُ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْمَغْتَمَةَ ^(١) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفيف الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق ، فَبَرِثْتُ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيْبَتُهُ ، اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالزَّمُوا طَاعَتَكُمْ وَيَمَعْتَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا .

يَا حُصَيْنَ بْنَ نَمَيْرٍ ^(٢) ، ثَكِلْتِكَ ^(٣) أَمْكُ إِنْ صَاحَ ^(٤) بَابِ سِكَّةٍ مِنْ سَكِّ الكُوفَةِ ، أَوْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ ، وَقَدْ سَلَطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ الكُوفَةِ ، فَابْتَثْ مُرَاصِدَةً عَلَى أَفْوَاهِ السَّكِّ ، وَأَصْبِحْ غَدًا وَأَسْتَبِرِ الدُّورَ ^(٥) ، وَجِسْ خِلَالَهَا ، حَتَّى تَأْتِنِي بِهِذَا الرَّجُلِ » ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد ابن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء . (٢) وكان على شرط ابن زياد . (٣) ثكله : فقده .

(٤) صاحه يصوحه فانصاح : أي شقه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

(٥) سبر الجرح وغيره واستبره : امتحن غوره .

عنقه ، فهوى رأسه إلى الأرض ، وأتبع جسده رأسه ، ثم أمر بهانى بن عروة ، فأخرج
إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هانى ، كتب إلى الحسين : « إني قد بايعني من
أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فمَجَّل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك
ليس لهم في آل معاوية رأى ولا هوى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ،
وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه المسير إلى الكوفة ، أتاه عبد الله ابن عباس ، فقال : « يا بن عمّ إنك قد أرحف الناس أنك سائر إلى العراق ، قَيِّين لي ما أنت صانع ؟ » قال : « إني قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى » ، فقال له ابن عباس : « فإني أعيذك بالله من ذلك ، أخبرني - رحك الله - أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وَضَبَطُوا بلادهم ، ونَفَقُوا عَدُوَّهُمْ ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك قَسِيرًا إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوُكَ إليهم ، وأميرهم عليهم ، قاهرٌ لهم ، وَعَمَّالُهُ تَجَبَّى بِأَدَمِهِمْ ، فإنهم إنما دَعَوُكَ إلى الحرب والقتال ، ولا آمنُ عليك أن يَغْرُوكَ ويكذِبُوكَ وَيُخَالِفُوكَ وَيَخَذُلُوكَ ، وأن يُسْتَنْفَرُوا إليك ، فيكونوا أشدَّ الناس عليك » فقال له حسين : « وإني أستخير الله وأُنظِرُ ما يكون . »

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدثه ساعة ثم قال :

« ما أدرى ما تَرَكْنَا هؤلاء القومَ وكفنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، ووَلاةُ هذا الأمرِ دونهم ، خَبَّرَنِي ما تريد أن تصنع ؟ » فقال الحسين : والله لقد حَدَّثت نفسي بإتيان الكوفة : ولقد كتب إلى شيعتي بها وأشرف أهلها ، وأستخير الله » فقال له ابن الزبير : « أما لو كان لي بها مِثْلُ شيعتك ما عدت بها » ثم إنه خشي أن يتهمه فقال : « أما إنك لو أقتَ بالحجاز ، ثم أردت هذا الأمرَ ها هنا ما خولف عليك إن شاء الله » ثم قام فخرج من عنده . فقال الحسين : « ها ، إن هذا ليس شيء ، يؤناه من الدنيا أحب إليه من أن

أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معى شيء ، وأن الناس لم يبدلوه^(١) بى ، فَوَدَّ أنى خرجت منها لتخلو له .

فلما كان من العشيِّ أو من الغد ، أنى الحسينَ عبدُ الله بن العباس . فقال :

« يا بن عم ، إنى أنصبرُ ولا أصبر ، إنى أنخوف عليك فى هذه الوجه الملاك والاستئصال ، إنى أهل العراق قومٌ عُذْرٌ^(٢) ، فلا تقرّ بنهم ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفقوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيتَ إلا أن تخرج ، فسيرن إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشعاباً^(٣) وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثُ دُعائَكَ ، فإنى أرجو أن يأتىك عند ذلك الذى تحبُّ فى عافية .

فقال له الحسين : « يا بن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مُشفقٍ ولكنى قد أزمعت وأجمعت^(٤) على المسير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائراً ، فلا تسير بنسائك وصبيتك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك^(٥) ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصرتك حتى يجتمع علىَّ وعلىك الناس أطعتنى ، لَفَعَلْتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير . فقال : قرّت عينك يا بن الزبير ، ثم قال :

(١) أى لم يسووه . (٢) جمع غدور كصبور .

(٣) الشعب بالكسر : الطريق فى الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

(٤) يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر وعليه عزمتم عليه وثبت عليه هـى .

(٥) أى مع وجودك .

يَاكَ مِنْ قُبْرَةِ بَعْمَرٍ خَلَاكَ الْجَوْفِيُّ وَاصْفَرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرِي (١)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

٢٨ — نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام (٢) على الحسين رضي الله عنه . فقال :

« يا ابن عمِّ ، إنَّ الرِّحِمَ يُظَاثِرُنِي (٣) عليك . ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال: يا أبا بكر ، ما أنت بمن يُسْتَفْشُ فقال أبو بكر :

« كان أبوك أشدَّ بأساً ، والناس له أرْجَى ، ومنه أَسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه — إلا أهل الشام — وهو أعزُّ منه ، فخذلوه وتناقلوا عنه حرصاً على الدنيا وضناً بها ، فخرَّعوه الفيظ وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ، وقد شهدت ذلك كله ورأيتهُ . ثم

(١) القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : يضم القاف والباء ، والجمع قنابر . قال صاحب القاموس : ولا تقل قنبرة (كقنفذة) أو هي لغية ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « والعامية تقول : للقنبرة وقد جاء ذلك في الرجز » ورويا شاهداً عليه أنشده أبو عبيدة . والمعمر : المنزل الكثير الماء والكلاء ، وهو مثل . وأول من قاله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي ، فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيش له ، فنصبه للقنابر وبقي عامة يوهه فلم يصد شيئاً ، ثم حمل فخه ورجع إلى عمه ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن مائزهن من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في الحاجة يتمكن منها صاحبها .

(٢) هو أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي .

(٣) الرحم : القرابة ، ويظاثرني : يمطفي . يقال : ظأرنى فلان على أمر كذا ، وأظأرنى وظأرنى :

أنت تريد أن تسير إلى الدين عدّوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعنوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحبُّ إليه ممن ينصره ، فاذا ذكر الله في نفسك .

فقال الحسين : « جزاك الله خيرا يا بن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله يكن » فقال : « وعند الله نحتسب أبا عبد الله » .

٢٩ — خطبة عميد الله بن زياد

ولما نبي إلى عميد الله بن زياد خبر الكتاب الذي كتبه الحسين رضى الله عنه إلى أشرف البصرة يستنصرهم سعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد فوالله ما تُقرن بي الصعبة ، ولا يقمع لي بالشنان ^(١) ، وإني لنِكل ^(٢) لمن عاداني ، ومُسٌّ لمن حاربني ، أنصف القارة ^(٣) من رامها .

يأهل البصرة: إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أي سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولأخذن الأذنى بالأقصى حتى تستمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاق .

أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطئ الحصى ، ولم ينتزعي شبه خال ولا ابن عم .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٠٠)

(١) القمعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وإذا قمع بالشنان للبل نفرت . وهو مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له .
(٢) يقال إنه لنِكل شره : أي ينكل به أعداؤه . (٣) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة .

٣٠. خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بهت الحَصَيْنَ بن نُمَيْرِ التميمي، فأمره أن ينزل القادسية، وأن يضع المسالِحَ^(١)، وقدم الحرَّ بن يزيد التميمي بين يديه، في ألف فارس من القادسية، فيستقبل حسينا، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسْمِ ونزل به، فسار إليه الحرُّ حتى وقف هو وخيله مُقَابِلَهُ في حرِّ الظَّهْرِ، وحضرت صلاة الظاهر؛ فخرج الحسين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

« أيها الناس: إنها مَعْذِرَةٌ إلى الله عز وجل وإليكم، إني لم آتِكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت على رُسُلِكُمْ أَنْ أَقْدَمَ عَلَيْنَا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تُعْطُونِي مَا أَطْمَأْنِنُ إِلَيْهِ من عهودكم وموائيقكم أَقْدَمَ مِصْرَكُم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقْدَمِي كارهين، انصرفت عنكم إلى المسكان الذي أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه، ثم أقيمت الصلاة. فقال الحسين للحر: أتريد أن تصلى بأصحابك؟ قال: لا بل تصلى أنت، ونصلى بصلاتك، فصلى بهم الحسين.

٣١ -- خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وصلى ثم سلم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

« أما بعد: أيها الناس فإنكم إن تفقوا وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى الله،

(١) المسالِح: جمع مسلحة بالفتح، وهي القوم ذور السلاح.

ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والمدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجهيتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم، وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم» .

فقال له الحر: إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر؟ فأخرج له الحسين خرّجين مملوئين صُحُفًا، فنشرها بين أيديهم، ثم سار الحسين في أصحابه والحرّ يسايره .

٣٢ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضي الله عنه بذى حُسم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتناكرت، وأدبر معروفها، واستمرت^(١) جدًا، فلم يبق منها إلا ضيابة كضيابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعملُ به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محققًا، فإنني لَأرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برّ ما^(٢)» .

٣٣ - خطبة زهير بن القين البجلي

فقام زهير بن القين البجلي، فقال لأصحابه: تَكَلَّمُونَ أم أنكم ؟ قالوا: لا، بل تكلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

(١) في كتب اللغة: «مر الشيء يمر بضم الميم وفتحها مرارة وأمر» ولم أر فيها بناء «استمر» ولا ناع منه على أن الهمة والسين والتاء للصيرورة: أي صارت مرة، وتظيره استحجر الطين، واستحصن المهر (صار حصانًا) واستمرّب القوم. وفي الأمثال: «إن البغاث بأرضنا يستنسر» «كان عنزا فاستنيس» «قد استنوق الجمل» . (٢) البرم: السامة والضجر، برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يا بن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ،
وكننا فيها مُخَلَّدِينَ ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة
فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٤ - خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً
مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ ، ناكثًا لعهده الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يعمل في عباد الله بالإثم والعُدوان ، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن
يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ » ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا
الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنبي ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا
أحق من غير ، وقد أتنى كتبكم ، وقدِمْتُ على رسلكم ببيعتكم أنكم لا تُسَلِمُونِي^(١)
ولا تُخَذِلُونِي ، فإن تَمَسَّمْتُمْ على بيعتكم تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلنكنم في
أُسْوَةٍ ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلتم بيعتي من أعناقكم ، فلم يرم ما هي لكم
بُنُكْرٌ^(٢) ؛ لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والغرور من اغتربكم ، فحظكم
أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(٢) النكر بضم وبضتين : المنكر .

(١) أسلمه : خذله .

٣٥ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كربة بلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجدية^(١) . فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُهُ عَلَى السَّراءِ والضَّرَّاءِ ، اللهم إني أحمدُكَ على أن أكرمْتنا بالنبوة ، وعلمْتنا القرآن ، وقممتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماء وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد : فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً . ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلِّ ، ليس عليكم من ذمام ، هذا الليلُ قد غَشِيكم فاتخذوه جَمَلاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما يطلبونني ، ولو قد أصابوني لَهَوًا عن طلب غيري . »

(١) التقي عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن نسيره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، وفي هذا لكم رضا وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناه عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقمع له عندي شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف لإيهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم . »

٣٦ - رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته: « لِمَ نَفَعَلُ؟ اِنْتَبَى بِعَمَدِكَ؟ لَأَرَانَا اللهُ ذَلِكَ أَبَدًا » فقال الحسين: « يَا بَنِي عَقِيلِ حَسْبِكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِمَسْلَمٍ ، اذْهَبُوا قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ » قالوا: « فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ يَقُولُونَ إِنْ أُنَا تَرَكَنَا شَيْخِنَا وَسَيِدَنَا وَبَنِي عَمُومَتِنَا خَيْرَ الْأَعْمَامِ ، وَلَمْ نَرْمِمْ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ ، وَلَمْ نَطْعَنْ مَعَهُمْ بِرُمُوحٍ ، وَلَمْ نَضْرِبْ مَعَهُمْ بِسَيْفٍ ، وَلَا نَدْرِي مَا صَنَعُوا ، لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ ، وَلَكِنْ تَفْدِيكَ أَنْفُسُنَا وَأَهْوَالِنَا وَأَهْلُونَا ، وَنَقَاتِلُ مَعَكَ حَتَّى نَرِدَّ مَوْرِدَكَ ، فَتَقْبِحَ اللهُ الْعَمِيشَ بِعَمَدِكَ » .

٣٧ رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيُّ فقال:

« أَمْحَنَ نُحْلَى عُنْكَ وَمَلَأَ نَعْدِي إِلَى اللَّهِ فِي آدَاءِ حَقِّكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْبِيرَ فِي صَدُورِهِمْ رَمْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا تَبَّتْ قَائِمَةٌ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتَلَهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَوْتِ مَعَكَ » .

وقال سعد بن عبد الله الْحَنْفِيُّ: « وَاللَّهِ لَا نُحْلِيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أَنَّ قَدْ حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُحْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذْرَى ، يُفَعَّلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتِكَ حَتَّى أَلْتَقِيَ حِمَامِي دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قِتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامَةُ الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا » .

وقال زهير بن القين: « وَاللَّهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ حَتَّى أَقْتُلَ كَذَا أَلْفَ قِتْلَةٍ ، وَأَنَّ اللهُ يَدْفَعُ بِذَلِكَ الْقَتْلَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَعَنْ أَنْفُسِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ » .

(١) حبيبت بعد موتي .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، نقيمك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كنا وفينا ، وقضينا ما علينا . »

٣٨ - خطبته غداة يوم قتله

وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« يا عباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجددوها بالبر ، ونعيمها مضمحل ، وسرورها مكفهر ، والمنزل تلعنة^(١) ، والدار قلعنة^(٢) ، فتزودوا فإن خير الزاد التقيوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . »

٣٩ - دَعَاؤُهُ وَقَدْ صَبَحَتْهُ الْخَيْلُ

ولما صَبَحَتْهُ الْخَيْلُ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :

« اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لى في كل أمرٍ نزل بى ثقةً وعدةً ، كم من همٍّ يَضَعُفُ فِيهِ الْفُؤَادُ ، وَتَقَلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ ، وَيَخْذُلُ فِيهِ الصِّدِّيقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أَنْزَلْتَهُ بِكَ ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةً مَنِ إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ ، فَأَنْتَ وَلِيٌّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ . »

(١) التلعنة : مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض ، والنزول بالتلعنة مخوف ، لأن من نزلها فهو على خطر إن جاء السيل جرفه . (٢) الدنيا دار قلعنة : أى انقلاخ ، وهو على قلعة أى رحلة ، ومنزلنا منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لا يملكه أو لا يندرى متى يتحول عنه .

٤٠ - خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، ولا تُعجلوني حتى أعظكم ، بما لحقَّ لكم على ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم ، فإن قبيلتم عذري ، وصدقتم قولي ، وأعطيتموني النصف ، كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العذر ، ولم تعطوا النصف من أنفسكم . فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثم أفضوا إلي ولا تنظرون - إن وإي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بناته ، فارتفعت أصواتهن ، فأرسل إليهن أخاه العباس بن علي وعلياً ابنه ، وقال لهما : أشكيتاهن ، فلعمرى لا يكترن بكأوهن

٤١ - خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أما بعد : فانسيبوني فانظروا من أنا ؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها ، فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟ أأست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم وابن وصيّه ، وابن عمّه ! وأول المؤمنين بالله ، والمصدق لرسوله بما جاء به من عند الله ؟ أو ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجفّاحين عمي ؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي :

هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ، وَيَضُرُّهُ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتوه عن ذلك أخبركم . سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك ، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخي ، أفا في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ » .

ثم قال : « فإن كنتم في شك من هذا القول ، أفتشكون أترأ^(١) ما أنى ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ، ولا من غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصة ، أخبروني أطلبوني يقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ؟ أو بقصاص من جراحة ؟ »

فأخذوا لا يكلمونه ، فنأدى ياشبث بن ربعي ، وياحجر بن أبيجر ، وياقيس بن الأشعث ، ويازيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إلى أن قد أيفتت النار ، واخضر الجناب ، وطممت الجمام ، وإنما تقدم على جنديك مجتد ، فأقبل ؟ قالوا لم نفعل ، فقال : سبحان الله بلى ، والله لقد فعلتم ، ثم قال : « أيها الناس : إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض » . فقال له قيس بن الأشعث : أولاً تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يرؤك إلا ماتحِبُّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه . فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء اللدليل ، ولا أقر إقرار العبيد ، عباد الله ، إننى عذت بربى وربكم أن تترجمون ، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » ، فأقبلوا يزحفون نحوه .

(١) أترا منصوب على نزع الخافض ، أى أفتشكون فى أثر ، وما زائدة ، وأنى ابن بنت نبيكم

٤٢ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذنوب^(١) شاك^(٢) في السلاح فقال :

« يا أهل الكوفة ، نذاري لكم من عذاب الله نذار ، إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة^(٣) ، وكننا أمة وأنتم أمة ، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم ، وخِذْلان الطاغية عبِيدِ اللَّهِ بن زياد ، فإنكم لا تُدْرَكُون منهما إلا بسوء ، عُمرَ سُلْطَانِهما كُلَّهُ ، لَيْسَ مُلَانِ أَعْيُنِكُمْ^(٤) ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم وَيُمَثِّلَانِ بِكُمْ ، ويرفعا نكم على جذوع النخل ، ويقتلان أمثالكم وقراءكم ؛ أمثال حُجْرِ بن عَدِيٍّ^(٥) وأصحابه ، وهاني بن عروة وأشباهه . »

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب . (٢) يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أى دخل ، شك فيه (كرد) شكاً أى لبسه تاماً فلم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شائك السلاح ، وشاكى السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشائك : من شاك الرجل يشاك شوكا (كنام نوما) أى ظهرت شوكته وحدته - والشوكة : حدة السلاح - والشاكي مقلوب . من شائك ، ويقال أيضا رجل شاك السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شاك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كقرح) قلت شاك (بضم الكاف) وهو مثل جرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل مال وفال (بالضم) من المال والنوال وإنما هو مائل ونائل . (٣) العِصمة : القلادة ، أى تفرقت وحدتنا ، وانفردت عقد جماعتنا . (٤) سمل عينه : فقأها بحديدة محماة .

(٥) هو حجر بن عدى بن جبيلة الكندي من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له الكوفة والبصرة بلغه أن حجرا مجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية في أمره فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهردا =

فسبّوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعّوا له، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلمياً .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن مُمَيَّة ، فإن لم تنصروهم ، فأعيذكم بالله أن تقتلهم ، فخلّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلمعمرى إن يزيداً ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين » .

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال : « اسكت ، أسكت الله نأمتك ^(١) ، أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البوّال على عقبيه ، ما إياك أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تحكّم من كتاب الله آيتين ، فأبشّر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » قال : « أفبالموت تخوفنى ؟ فوالله للموت معه أحبّ إلى من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يفرّغنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم قومًا هراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذبّ عن حريمهم » .

فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أفبيل ، فلمعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه ، وأبأغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء ، وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

= أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ؛ ولعن الخليفة ، ودما إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلاً ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم فخلّى سبيلهم ، وقال رسول معاوية للباقيين إذا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فأبرهوا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل نتولاه ونتبرأ من تبرأ منه ، فقتلوا وقتل حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . (١) التامة : الصوت .

٤٣ - خطبة الحر بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحر بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال : « إى والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرؤوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .

ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خِصَلَةً من هذه الخصال التى عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حربته وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه ، فكلمه بمثل ما كلمه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حَصَتْ لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت » .

فقال : « يا أهل الكوفة : لِأُمَّمِ الْهَبِلِ وَالْعَبْرِ^(١) إذ دعوتموه ، حتى إذا أنا كم أسلمتموه^(٢) ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتكم بنفسي ، وأخذتم بكظمي^(٣) ، وأحطتم به من كل جانب . فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضرا ، وحلأتموه^(٤) ونساءه^(٥) وأصبيبتته^(٥) وأصحابه عن ماء الفرات الجارى ،

(١) الهبل : الشكل ، هبلته أمه : كفرح ثكلته وفقدته ، والعبير والعبير (كسبب وقفل) سخنة فى العين

تبيكها ، عبرت العين كفرح جرى دمعها ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبير : دعاء عليه .

(٢) خذلتموه . (٣) الكظم : مخرج النفس . (٤) حلاؤه عن الماء تحليئا وتحلئة : طرده ومنعه .

(٥) مصفر صبية على غير قياس .

الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى ، وتمرغ فيه خنازيرُ السواد وكلابُه ، وهام
قد صرّهم العطش ، بئسما خلقتُم محمداً فى ذريته ، لأسقاكم الله يوم الظام إن لم تتوبوا ،
وتنزِعوا عما أنتم عليه ، من يومكم هذا ، فى ساعةكم هذه .

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واسمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فنوا ، وقتل
الحسين رضوان الله عليه . قتله سنان بن أنس (وكان قتله بالطف^(٦) يوم عاشوراء
سنة ٤٠) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطنوا خيامهم الحسين ، فوطنوه بخيامهم ، ثم حمل
النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨ إلى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١) .

(٦) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحى « حسين » لرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطف ثاوريا

فيا ليتنى إذ ذاك كنت شهيدته فصاربت عنه الشائنين الأعاديا

سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى بغربية الطف الغمام الغواديا

طلب التوايين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، واتعدوا الاجتماع بالثُخَيْلَة للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندُّم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصره وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُفَسَّلُ عارهم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما فرط منهم في ذلك « فسموا التوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة : إلى سليمان بن صرد الخزاعي ، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى المسيب بن نجبة الفزاري ، وإلى عبدالله بن سعد ابن نقيّل الأزدي ، وإلى عبد الله بن وال التيمي ، وإلى رفاعه بن شداد البجلي ، ثم إن هؤلاء نفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيب بن نجبة بالكلام فتكلم :

٤٤ - خطبة المسيب بن نجبة الفزاري

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا من يقول له غدا : (أولم نعمرهم كم ما يتدكر فيه من تدكر وجاءكم النذير) فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بانعه ، وقد كنا مُقرِّبين بتزكية أنفسنا ، وتقرُّب شيهتنا ، حتى

بِلاَهِ اللهِ أُخْيَارُنَا ، فَوَجَدْنَا كَاذِبِينَ فِي مَوَاطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ ابْنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ بَلَغْتَنَا قَبْلَ ذَلِكَ كِتْبُهُ ، وَقَدِمَتْ عَلَيْنَا رِسَالُهُ ، وَأَعْذَرْنَا إِلَيْنَا بِسَأَلِنَا نَصْرَهُ عَوْدًا وَبَدَاءً ، وَعِلَانِيَةً وَسِرًّا ، فَبَحَلْنَا عَنْهُ بِأَنْفُسِنَا ، حَتَّى قُتِلَ إِلَى جَانِبِنَا ، لِأَنْحُنْ نَصْرُنَاهُ بِأَيْدِينَا وَلَا جَادَانَا عَنْهُ بِأَسْنَتِنَا ، وَلَا قَوِيْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا ، وَلَا طَلَبْنَا لَهُ النَّصْرَةَ إِلَى عَشَائِرِنَا ؛ فَمَا عُدْرُنَا إِلَى رَبِّنَا ، وَعَمَدَ لِقَاءِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَقَدْ قُتِلَ فِيْنَا وَلَدُهُ وَحَبِيبُهُ وَذَرِيَّتُهُ وَنَسْلُهُ ، لَا وَاللَّهِ لَا عُدْرُونَ أَنْ تَقْتُلُوا قَاتِلَهُ وَالْمَوَالِينَ عَلَيْهِ ، أَوْ تُقْتَلُوا فِي طَلَبِ ذَلِكَ ؛ فَعَسَى رَبِّنَا أَنْ يَرْضَى عَنَا عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَمَا أَنَا بَعْدَ لِقَائِهِ لِعَقُوبَتِهِ بِأَمْنٍ ، أَيُّهَا الْقَوْمُ وَلَوْ أَعْلَمْتُكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَبْدُلُكُمْ مِنْ أَمِيرٍ تَفَزَّعُونَ إِلَيْهِ ، وَرَأْيَةَ تَحْفُفُونَ بِهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ .

فَبَدَّرَ (١) الْقَوْمَ رِفَاعَةَ بْنَ شَدَادٍ بَعْدَ الْمَسِيْبِ الْكَلَامَ .

٤٥ - خطبة رفاعة بن شداد

حَمْدُ اللهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا بَعْدَ : فَإِنَّ اللهَ قَدْ هَدَاكَ لِأَصْوَابِ الْقَوْلِ ، وَدَعَاكَ إِلَى أَرْشَادِ الْأُمُورِ ، بَدَأَتْ بِحَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَاكَ إِلَى جِهَادِ الْفَاسِقِينَ وَإِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، فَسَمِعْتُ مِنْكَ ، مُسْتَجَابٌ لَكَ ، مَقْبُولٌ قَوْلُكَ : قُلْتَ وَلَوْ أَمَرَكُمُ رَجُلًا مِنْكُمْ تَفَزَّعُونَ إِلَيْهِ ، وَتَحْفُفُونَ بِرَأْيَتِهِ ، وَذَلِكَ رَأْيِي ، قَدْ رَأَيْنَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَإِنَّ تَسْكُنَ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلَ تَسْكُنَ عِنْدَنَا مَرَضِيًّا ، وَفِينَا مَقْتَصِحًا ، وَفِي جَمَاعَتِنَا مُحِبًّا ، وَإِنْ رَأَيْتَ (وَرَأَى أَصْحَابُنَا ذَلِكَ) وَلَيْنَا هَذَا الْأَمْرُ شَيْخَ الشِّيمَةِ صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَا السَّابِقَةَ وَالْقَدِيمَ سَلِيمَانَ بْنَ صُرْدٍ ، الْحَمُودَ فِي بَأْسِهِ وَدِينِهِ ، وَالْمَوْثُوقَ بِحُزْمِهِ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . »

(١) سجل واستبق .

ثم تكلم عبد الله بن والٍ ، وعبد الله بن سعد ، فحمدآ ربهما وأثنيا عليه ، وتكلما
بنحوٍ من كلام رفاعة بن شداد ، فذكر المسيب بن نجبة بفضله ، وذكر سليمان
ابن سرد بسابقته ورضاهما بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم ووفقتم ، وأنا أرى
مثل الذى رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٦ - خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إنى لشاهد بهذا اليوم يوم ولّوا سليمان بن سرد^(١) وإنا
يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم فى داره ، قال : فتكلم سليمان
فشدد ، وما زال يردّد ذلك القول فى كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال :

« أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله ، أما بعد : فإنى والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر (الذى نكّدت
فيه الميثة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجورُ أولى الفضل من هذه الشيعة) لِمَا هو
خيرٌ ، إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ومُنْتَمِيهِم النصر ، ونَحْتُمُّهم على القدوم ؛
فلما قَدِموا وَنَدِينَا وَعَجَزْنَا وَأَذَهْنَا وَتَرَبَّصْنَا وانتظرنا ما يكون حتى قُتِلَ فينا وَلَدِينَا
وَلَدُ نَدِينَا وَسُلَالَتِهِ وَعَصَارَتِهِ وَبَضْعَةٌ^(٢) من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخُ ويسأل
النَّصَفَ^(٣) فلا يُعْطَاهُ ، انخذه الفاسقون غَرَضاً لِلنَّبْلِ ، وَدَرِيَّةً^(٤) للرماح ، حتى أَقْصَدوه^(٥)
وَعَدَّوا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سَخِطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل^(٦) والأبناء
حتى يَرْضَى اللهُ ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُتَاجَزُوا من قتله أو تُبَيَّرُوا^(٧) ، ألا لاتهابوا

(١) وقد سُمى أمير التوابين . (٢) البضعة بالفتح وقد تكسر : القطعة من اللحم .

(٣) الإنصاف . (٤) مسهل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرى عليها .

(٥) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلانا : طمته فلم يخطئه .

(٦) جمع حليلة : وهى الزوجة . (٧) بار يبور بوارا : هلك . وأباره أهلته ، أى تهلكتوا أنفسكم .

الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قطُّ إلا ذلَّ ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم » فافعل القوم ؟ جثوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟ أشحدوا السيوف ، وركبوا الأسنة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيل (١) » حتى تدعوا وتستنقروا .

٤٧ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسي يُخرجني من ذنبي ، ويُرضى عني ربي لقتلتها ، ولكن هذا أمرٌ به قومٌ كانوا قبلنا ونهيننا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كلَّ ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين أقوىهم به على قتال القاسطين (٢) » .

وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حسبكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت بالله عبد الله بن وال التيمى تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجهُ من أموالكم ، جهزنا به ذرى الخلة (٣) والمسكنة من أشياعكم » .

(١) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعامل بمعنى مفعول ، أو مصدر سمي به كالمربطة ، أو جمع ربيط

فعل بمعنى مفعول . (٢) الجائر ، قسط كجلس قسوطاً : جار وعدل عن الحق .

(٣) الخلة : الحاجة والفقير ، وفى المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلال والمرقة .

٤٨ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن سرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه هم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يَجِدُوا ويستعدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن سرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمَعِينَ على نصر الحسين ، وقتالِ عدوه ، فلم يَفْجَأْكم أولُ من قتله ، والله مُتَّبِعُكُمْ على حَسَنِ النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضلَ الأجر والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ » .

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٩ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى مادَعُونَا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسَرَّخْنِي إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لاتعجل ، استمدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير ونسيرون » وكتب سعد إلى ابن سرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٥ - خطبة عبید الله بن عبد الله المرى

وحدث رجل من مُزبنة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبغ من عبید الله بن عبد الله المرى في منطق ولا عظة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان ابن صرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكة ، وآمن به سبلكم للخوفة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخريين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، لله أنتم ! ألم تروا ويبلغكم ما أجترم^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وحدثته ، وترميلهم^(٣) إياه بالدم ، ونجس أرواحهم على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنيل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً^(٤) ، فله عيناً من رأى مثله ! والله حسين بن علي ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قلتُ حمانته ، وكثرتُ عداته^(٥) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقائل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجة ، ولا لخاذله معذرة ، إلا أن يُنصح الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العثرة

(١) الشفا : حرف كل شيء . (٢) ارتكب واقرن . (٣) رملة : لطفه بالدم .

(٥) العداة : جمع عاد ، وهو العدو .

(٤) قطعاً .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُجِلين
والمارقين ، فَإِنْ قُتِلْنَا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظَهَرْنَا رددنا هذا الأمر إلى أهل
بيت ندينا .

قال : « وكان يعيد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عامتنا » .

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَجِدُونَ في جمع
آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدمه
حتى كثرت تبعهم ، وكان الناس إلى أتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية (في ١٤ ربيع الأول
سنة ٦٤ هـ) أسرع منهم قبل ذلك .

وقدم المختار بن أنى عبید النقفى الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد
اجتمعت ردوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد ، فليس يَعْدِلُونَهُ به ، فكان
المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان
ابن صرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إني قد
جئتكم من قبيل المهدي محمد بن علي (ابن الحنفية) مؤتمناً مأموناً ، مُنْتَجِباً^(١)
ووزيراً » فزال بهم حتى انشعبت إليه طائفة تُعْظِمُهُ وتجيبه وتبظر أمره ، وعُظُمُ
الشيعة مع سليمان بن صرد .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبيل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على
حر بها وثغرها ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبید الله التيمي أميراً على خراجها
(وذلك بعد مقدم المختار بثمانية أيام) وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يذبوا
بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم
قام في الناس .

(١) المنتجب : المختار .

٥١ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقيل لي زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلِّتُ على أما كنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ؟ فوالله ما أنا قتلنا حسيننا ولا أنا ممن قاتلته ، ولقد أصِبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير^(١) ، هذا ابن زياد قاتلُ الحسين وقاتلُ خياركم وأمائكم ، قد توجه إليكم عهدُ العاهد به^(٢) على مسيرة ليلةٍ من جسر منبج^(٣) ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، وَيَسْفِكَ بمضكم دماء بعض ، فيأقاكم ذلك العدو غداً وقد رَقَّعْتُمْ^(٤) ، وتلك والله أمنيَّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلقِ الله لكم ، مَنْ وَلِيََ عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يُقْلَعَانِ عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي قتلكم ، وَمِنْ قِبَلِهِ أُتِيتُمْ ، والذي

(١) معين . (٢) وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشام ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبيع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييتك عما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ماتصنعه ! وشد من عزمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له فبوع بها ، فلما استوثقت له الشام بالطاعة بعث جيشاً إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً . (٣) بين حلب والفرات . (٤) ضممتم .

قتل من تشأرون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بمحدم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها
بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحا^(١) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أمتنا .

٥٢ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة^(٢)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يفرّ تكم من السيف والفتش^(٣) مقالة هذا المداهن الموادع ؛ والله
لئن خرج علينا خارجٌ لنعقلنه ، ولئن استيقننا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لناخذن
الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن الحميم^(٤) بالحميم ، والعريف^(٥) بما في عرافته ، حتى
يدينوا للحق ، ويذلوا للطاعة » .

٥٣ - رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين^(٦) : أنت تهددنا بسيفك وعشمتك ؟ أنت والله أدل من ذلك ،
إننا لانلومك على بفضنا وقد قتلنا أباك^(٧) وجدك ، والله إني لأرجو أن لا يخرجك الله
من بين ظهراني أهل المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك ، وأما أنت أيها الأمير ، فقد

(١) أي لم أفصر في نصحكم . (٢) مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش .

(٣) الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدّة . (٤) حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره .

(٥) العريف : رئيس القوم ، سمى لأنه عرف بذلك ، أو للثقب ، وهو دون الرئيس ، عرف

ككرم وضرب عرانة صار عريفا . (٦) يشير إلى ما كان من جده طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام

علياً ثم نكث بيعة ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عنقه . (٧) قتل محمد بن طلحة يوم

الجلع مع أبيه ومر به على ، فقال هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته .

قلت قولا سديدا ، إني والله لأظن من يريد هذا الأمر^(١) ، مستنصحا لك ،
وقابلا قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إى والله ليقتلن وقد أذهنن ثم أعلن » .

٥٤ - رد عبد الله بن وال التيمي

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعترضك يا أخا بنى تيم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا؟ فوالله ما أنت علينا بأمير ،
ولالك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلمر الله لنن كنت
مفسدا ، ما أفسد أسرا هذه الأمة إلا والدك وجدك الننا كنان ، فكانت بهما اليديان^(٢)
وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :

« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا نرجو أن تكون به عند العامة محمودا ، وأن تكون
عند الذي عنيت واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهل هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شخّص سليمان بن صرد في وجوه أصحابه ،
وقد كان واعد أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمسكر بالذخيلة ، وأقام بها ثلاثا يبعث
ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّرهم الله وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب
ابن نجبة ، فقال : « رحك الله إنه لا ينفك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته

(١) أى الطلب بدم الحسين رضى الله عنه . (٢) تقول العرب : كانت به اليدان ، أى فعل الله به

مايقوله لى ، ومرقوم من الخوارج بقوم أصحاب على وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليدان أى حاق
بكم ما تدعون به وتبسطون أيديكم .

النية ، فلا تنتظرن أحدا ، واكش^(١) في أمرك « قال : « فإنك والله لنعميما رأيت » فقام سليمان بن صرد في الناس متوكئا على قوس له عريمة فقال :

٥٥ - خطبة سليمان بن صرد

« أيها الناس : من كان إنما أخرجه إرادة وجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه ، فرحة الله عليه حيا وميتا . ومن كان إنما يريد الدنيا وحزنها^(٢) ، فوالله ما أتى قيتما نستيفيته ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البلغة^(٣) إلى لقاء عدونا ، فن كان غير هذا ينوي فلا يصحبتنا » .

٥٦ - خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني فقال :

« آتاك الله رشدا ، ولقأك حجتك ، والله الذي لا إله غيره مالنا خير في حجة من الدنيا همته ونيتة . أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبة من ذنبا والطلب بدم ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما تقدم على حد السيوف وأطراف الرماح »

فتنادى الناس من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا » .

٥٧ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادي الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رموس أصحابه جلوس حوله :

(١) أسرع ، كش ككرم كاشة فهو كش (كشهم) وكيش ، أى سريع .

(٢) أى كسبها ومتاعها . (٣) ما يبلغ به .

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفقّ ، وإن يكن ليس بصواب فينبغي قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نصحاء ، خطأً كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين وقبلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورواس الأرباع^(١) وأشرف القبائل ، فأني نذهب هاهنا وندع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ » .

فقال سليمان بن صرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلتقي من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٨ - رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكى ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مرجانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يظهركم الله عليه ، رجونا أن يكون من بعهده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنتظرون إلى كل من شريك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تفشموا^(٣) ، وإن تستشهدوا فإنما قاتلم الموحدين ، وما عند الله خير للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب أن تجملوا حدكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين ، والله

(١) كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتقسيم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وصحفته العامة فقالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويحسن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب »

(٢) الأقتال : جمع قتل بالكسر ، وهو المدو والمقاتل ، والأوتار : جمع وتر ، الجناية والثأر ، أى وندع

أعادنا وذوى ثاراتنا . (٣) غشمه : كضرب ظلمه .

لو قاتلتم غداً أهل مصركم ، ما عدِمَ رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ،
أو رجلاً لم يكن يريد قتله ، فاستخبروا الله وسيروا « فتهياً للناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد وأصحابه
فراياً أن يأتيهم ، فخرجوا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهيا إلى ابن سرد دخلا عليه .

٥٩ — خطبة عبد الله بن يزيد

حمد الله عبدُ الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يفسدُهُ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ، وأحبُّ أهل
مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تَفْجَمُونَا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصُوا عددنا
بمخروجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتميسر ونهتياً ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف
بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .

وتسكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٦٠ — خطبة سليمان بن سرد

حمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لها :

« إني قد علمت أنكما قد محضتما^(١) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله
وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا
إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نعبئ معكم جيشاً كثيراً فتلقوا عدوكم

(١) محضه الود وأحضره : أخلصه .

بِكْتَفٍ^(١) ، وَجَمْعٌ وَحَدٌّ » فقال له سليمان : « تنصرفون وزي فيما بيدنا ، وسيأتكم إن شاء الله رأي » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخص ، واستقبال ابن زياد .

٦١ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا بُجَارًا ، وللآخرة تجاراً ؛ فأما تاجر الآخرة فساع إلىها متنصب^(٢) بتطلّابها ، لا يشتري بها ثمنًا ، لا يرمى إلا قائمًا وقاعدًا ، وراكعًا وساجدًا ، لا يطلب ذهبًا ولا فضة ، ولا دينًا ولا لذة ؛ وأما تاجر الدنيا ، فكسب عليها ، رايغ فيها ، لا يبتغي بها بدلًا ، فعليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيرًا على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدّرتم عليه ، حتى تلقّوا هذا العدو ، والمُجِلَّ القاسِطَ فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظمُ عنده ثوابًا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سَنَامُ العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء^(٣) وإنا مُدْجُون^(٤) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلّوا »

فأدلى عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال يسير حتى انتهى إلى عين الورد^(٥) فنزل في غر بيّتها .

(١) الكتف : الجماعة . (٢) أي قد نصب نفسه طالبًا لها ، نصب الشيء : رفعه فانصب وتنصب .

(٣) الشدة . (٤) أدلىج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فادلىج بالتشديد .

(٥) هي رأس العين : بلد في وسط الجزيرة .

٦٢ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة . قال عبد الله ابن غزيرة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهدها فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم أحصه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آباء^(١) الليل والنهار ، تريدون فيما تظفرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذرين ، فقد جاءوكم بل جثثهم وأنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يوليهم أمرؤ دبره إلا متحرفاً^(٢) لقتال أو متحيزاً^(٣) إلى فئة ، لا تقتلوا مذبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم^(٤) إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أو يكون من قتل إخواننا بالطف رحمة الله عليهم ، فإن هذه كانت مسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة . »

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبید الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رهوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله بن والير ، فلما رأى من بقي

(١) آباء الليل : ساعاته واحداً إلى (كألى) أو إلى (كحمل) أو إنو كذلك .

(٢) أى منعقفاً يريد الكر بعد الفر وتفرير العدو ، فإنه من مكابد الحرب .

(٣) أى منحازاً إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم .

(٤) ملتكم .

من التوابع أن لا طاقة لهم بمن يذأهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم
رفاعة بن شداد البجلي .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ)^(١) .

٦٣ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأنى عبد الملك بن مروان بيشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رموس أهل العراق مُلقِح^(٢) فتنمة ، ورأسَ
ضلالة ، سليمان بن صرد ، الأ وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريـف^(٣) ،
ألا وقد قتل من رموسهم رأسين عظيمين ضالين مُضايين : عبد الله بن سعد أخا الأزد ،
وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دِفاعٌ ولا امتناع » .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

(١) وقال المسعودى في مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الوردة كانت في سنة ٦٦ هـ » .

(٢) أصله : من ألقح النخلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . (٣) تركت للسيوف رأسه
خذاريـف : أى قطعاً كل قطعة كالخدروف ، والخدروف : كمصفور شيء يدوره الصبى بخيط في يديه فيسمع
له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٤ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أوى عبىء الثقفى^(١) الكوفة فى النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأناه بعض الشيعة ليلا ، فساء لهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعى ، وإنه إن يلبث إلا يسيرا حتى يخرج . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) هو المختار بن أبى عبىء بن مسعود الثقفى ، وقد قدمنا فى الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولى الخلافة أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام ، فلا يندب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول منتدب أبو عبىء ابن مسعود ووالد المختار ، ولم يكن المختار فى تشييمه لآل على بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه فى أمر الحسن بن على رضى الله عنه يوم طعن فى مظلم ساياط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد ابن مسعود عاملا على المدائن - فقال له المختار : هل لك فى الفنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتمتأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ! بنس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله تعالى عنه نزل دار المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، وبعث المختار إلى عبء الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت صفية أخت المختار تحت عبء الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلى سبيله ، فشفعه فيه ، وخلى ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقاىل ٥٥٠ حين حاصر مكة جيش يزيد - وكان تحت إمرة الحصين بن نمير السكوفى - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة فى منتصف رمضان سنة ٦٤ .

« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،
وَمُنْتَجِباً وأميراً ، وأمرني بقتال المُلحدِين ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئتم من قِبَلِ وَلِيِّ الأَمْرِ ،
وَمَعْدِنِ الفضل ، ووصي الوصي ، والإمام المهدي ، بأمر فيه الشفاء ، وكشفُ الغطاء ،
وقتلُ الأعداء ، وتعمامُ النعماء . إن سليمان بن صُردَ يرحمنا الله وإياه ، إنما هو عَشْمَةٌ^(١)
من القَسَمِ ، وَحِفْشٌ^(٢) بَالٍ ، ليس بذی تجربة للأُمور ، ولا له علمٌ بالحروب ، إنما
يريد أن يخرجكم فيقتلَ نفسهُ ويقتلكم ، إني إنما أعملُ على مِثَالِ قَدُمْتَلِّ لِي ، وأمرٍ
قد بُيِّنَ لِي ، فيه عزٌّ وليكم ، وَقَتْلُ عدوكم ، وشفاء صدوركم ، فاسمعوا مني قولي ،
وأطيعوا أمري ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنني لكم بكل ما تأملون خيرٌ زعيم » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وَعَظَمُهم يومئذ مع
سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري
— أمير الكوفة من قِبَلِ ابن الزبير — أن يثب الختار عليه ، فزجَّه في السجن .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٥ — ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردُّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَا وَرَبِّ البِحَارِ ، والنخيل والأشجار ، وَالْمَهَامَةِ^(٣) والقفار ، والملائكة الأبرار ،

(١) العشمة : الشيخ الفاني للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحنى الظهر ، وكان عمر بن صرد حين

قتل ٩٣ سنة . (٢) الحفش : الشيء البالي ، والجوالق العظيم البالي ، وما كان من أسقاط الآتية كالتقوارير
وغيرها ، وأحفاش البيت : وذال متاعه .

(٣) المهامة : جمع مهمه كجعفر ، وهو البلد المقفر ، والمفازة البعيدة .

والمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، لِأَقْتِنَانِ كُلِّ جَبَّارٍ ، بِكُلِّ لَدْنٍ خَطَّارٍ^(١) ، وَمُهَيِّدِ بَجَّارٍ^(٢) ،
فِي جُوعٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، لَيْسُوا بِمَيْلِ أَعْمَارٍ^(٣) ، وَلَا بِمُزْلِ^(٤) أَشْرَارِ ، حَتَّى إِذَا أَقْتُ
عَمُودَ الدِّينِ ، وَرَأَيْتُ شَعْبَ^(٥) صَدْعِ الْمَسْلُومِينَ ، وَشَفَيْتُ غَلِيلَ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَأَدْرَكْتَ بِنَارِ النَّبِيِّينَ ، لَمْ يَكْبُرْ عَلَيَّ زَوَالُ الدُّنْيَا ، وَلَمْ أَحْجِلْ بِالْمَوْتِ إِذَا آتَى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه
الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل
أصحابه يكثرون ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة
وولى عليها عبد الله بن مطيع العدوي .
(تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٦ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة

وَقَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَطِيْعِ الْعَدَوِيِّ الْكُوفَةَ (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد
المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مِصْرِكُمْ وَتُغُورِكُمْ ،
وَأَمَرَنِي بِجِيَايَةِ فَيْئِكُمْ ، وَأَنْ لَا أُحْجِلَ فَضْلَ^(٦) فَيْئِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، وَوَصِيْفَ
عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ الَّتِي أَرْضَى بِهَا عِنْدَ وَفَاتِهِ^(٧) ، وَبَسِيرَةَ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ الَّتِي سَارَ بِهَا
فِي الْمَسْلُومِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَخَذُوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ ، وَإِلَّا تَفْعَلُوا

(١) الرمح اللدن : اللين؛ وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف ، وقد لدن كسكرم لدافة ولدونة ،
والرمح الخطار : أى المهتز ، خطر كضرب خطرانا . (٢) المهيد : السيف المطبوع من حديد الهند ،
والتبار : القطاع . (٣) ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن
لا ترس معه أولا سيف أو لارمح ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور .
(٤) العزل : جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه . (٥) الشعب : الصدع أى الشق ، ومن
معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصلحه . (٦) الفضل : الزيادة .
(٧) انظر وصيته الخليفة من بعده . ج ١ : ص ٢٦٣ .

فَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَلُومُونِي ، فَوَاللَّهِ لَأُوقِعَنَّ بِالسَّقِيمِ الْعَاصِي ، وَلَأُقِيمَنَّ دَرَأًا^(١)
الْأَضْعَرَّ^(٢) الْمُرْتَاب .

٦٧ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رهوس أصحاب المختار -

فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاَّ تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشْهَدُكَ
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيئنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلا فينا ، وأن لا يُسَارَ فينا إلا بسيرة
عليّ بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلك رحمةُ الله عليه ، ولا حاجة
لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت أُنْثَرَةً وَهَوَى ، ولا في سيرة
عمر بن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين علينا ضرًّا ، وقد كان لا يَألو
الناسَ خَيْرًا . »

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وَبَرًّا ، رأينا مثلُ رأيه ،
وَقَوْلًا مثل قولهِ ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وَهَوَيْتُمُوهَا ،
ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها يا سائب ، لا يَعدَمُكَ المسلمون !

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

(١) الدرأ : الميل والعوج في القناة ونحوها . (٢) الصمر محرّكة : ميل في العنق وانقلاب

في الوجه إلى أحد الشقين ، صمر كفرح فهو أصمر ، وربما كان الإنسان أصمر خلقة ، وصمر خده بالتشديد :
أماله عن الناس إعراضًا وتكبرًا .

٦٨ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب بالكوفة في الحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهمضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثر عندنا من سلامة ديننا . »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبت ووقفت ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة أخرى له

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنكم أهل بيت خصكم الله بالفضيلة ، وشرفكم بالنبوة ، وعظّم حقكم على هذه الأمة ، فلا يجهل حقكم إلا مغبون الرأي ، محسوس النصب ، قد أصبتم بحسين رحمة الله عليه ، عظّمت مصيبة ! ما قد خصكم بها ، فقد عمّ بها المسلمون ، وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء فبايعناه على ذلك ، ثم إننا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدَبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحوٍ مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا -
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٧٠ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ،
والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان
في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحمة ^(٢) كتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفع
بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضّح بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ،
وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدماننا ،
فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم . »

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله انتصر لنا
من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لاتفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة المختار

وبلغ المختار نخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخدّل الشيعة عنه ،
فكان يقول :

« إن نفيراً منكم ارتابوا ، وتحيروا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبوا وأنابوا ، وإن هم

(١) يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . (٢) الملحمة : الواقعة العظيمة القتل .

كَبْرًا وَهَابًا ، وَاعْتَرَضُوا وَانْجَابُوا^(١) ، فَقَدْ ثَبَرُوا^(٢) وَحَابُوا^(٣) » وَأَقْبَلَ الْقَوْمَ فَدَخَلُوا
هَلِي الْمَخْتَارَ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَا وَرَاءَكُمْ ؟ قَدْ فُتِنْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ، فَقَالُوا لَهُ : قَدْ أَمَرْنَا بِنَصْرَتِكَ ،
فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! أَنَا أَبُو إِسْحَقَ ! اجْمَعُوا إِلَى الشَّيْعَةِ ، فَجُمِعَ لَهُ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا
فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ : إِنْ نَفَرْنَا مِنْكُمْ أَحْبَابًا أَنْ يَعْلَمُوا مِصْدَاقَ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَزَحَلُوا
إِلَى إِمَامِ الْهَدْيِ ، وَالنَّجِيبِ الْمُرْتَضَى ، ابْنِ خَيْرٍ مِنْ طَشَى^(٤) وَمَشَى ، حَاشَا النَّبِيَّ الْمُجْتَبَى^(٥)
فَسَأَلُوهُ عَمَّا قَدِمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَنَبَّأَهُمْ أَنِّي وَزِيرُهُ وَظَهْرِيهِ ، وَرَسُولُهُ وَخَلِيلُهُ ، وَأَمْرُكُمْ بِانْبِئَانِي
وَطَاعَتِي فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، مِنْ قِتَالِ الْمُجَلِّينَ ، وَالطَّلَبِ بِدِمَاءِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكَ الْمُصْطَفِيِّينَ .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

فَقَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شَرِيحٍ فَحَمْدَ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ فَإِنَا قَدْ كُنَّا أَحْبَبْنَا أَنْ نَسْتَثْبِتَ لَأَنْفُسِنَا خَاصَّةً ، وَجَمِيعَ
إِخْوَانِنَا عَامَةً ، فَقَدِمْنَا هَلِي الْمَهْدِيِّ بْنِ هَلِيٍّ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ حَرْبِنَا هَذِهِ ، وَعَمَّا دَعَانَا إِلَيْهِ
الْمَخْتَارِ مِنْهَا ، فَأَمَرْنَا بِمُظَاهَرَتِهِ وَمَوَازَرَتِهِ ، وَإِجَابَتِهِ إِلَى مَا دَعَانَا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلْنَا طَيِّبَةً أَنْفُسُنَا

(١) انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسلخوا منا وانشقوا علينا .

(٢) ثبر ، كقعد ثبوراً : هلك . (٣) حاب : أثم ، والحبوب بالفتح والضم : الإثم ، وفي الأصل
خابوا ، وأرى أن تكون بالحاء لتقدم كلمة خابوا في أول قوله .

(٤) هكذا في الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » في كتب اللغة ، وفي لسان العرب « تطشى المريض برى »
وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه إتباع لفعل قبله
انتقويته وتوكيده ، وهو كثير في كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفريت ، وعطشان نطشان
وشحیح ببحیح ، وكثير بثير ، وحيالك الله وبيالك - وإن قيل إن الإتياع لا يكاد يكون بالواو - اقرأ باب
الإتياع في الزهر للسيوطي (١ : ٢٤٤) وفي الأمالي (٢ : ٢١١) . (٥) المختار .

منشحة صدرنا، قد أذهب الله منها الشك وَالزَّلِيلَ وَالرَّيْبَ، واستقامت لنا بصيرتنا
في قتالنا عدونا، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم، واستعدوا وتأهبوا ثم جلس .
وقاموا رجلاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه، فاستجمعت له الشيعة وَحَدِيثَ^(١) عليه.
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٣ - خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم بن الأشتر^(٢)
يدعوه أن يناصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائِدَ فجلسوا عليها ،
وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :

« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ، أما بعد :
فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو خيرُ أهل الأرض
اليومَ ، وابنُ خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن
تنصرنا وتوازننا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ،
وسيفي الله المهدي محمداً وأولياده عنك^(٣) » فبايعه إبراهيم .

(١) عطف . (٢) وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إلى زمريتهم فقال : إنني قد أحببتكم
إلى مادعوتوني إليه على أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالقتال وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رد عليهم .

(٣) ثم دفع إليه الكتاب ففرض خاتمه وقرأه ، فإذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى
إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنني قد بعثت
إليكم بوزيري ، وأميني ، ونجيبتي الذي ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرته وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيري كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمانة الخليل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين
الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل ، =

وجعل المختار وأصحابه يديرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشِب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٨)

٧٤ - خطبة يزيد بن أنس الأسدى

ولما حلت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار خطبهم يزيد بن أنس الأسدى محرّضاً، فقال: « يا معشر الشيعة : قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمَل أعينكم ، وترفمون على جذوع النخل ، فى حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون فى بيوتكم وطاعة عدوكم ، فاذنوا لى هؤلاء القوم إن ظهرُوا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عينا تطرف^(١) ، وليقتلنكم صبرا^(٢) ، وآتروُن منهم فى أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموتُ خيرٌ منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والطمع الصائب فى أعينهم ، والضرب الدراك على هامهم ، فتيسرُوا للشدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رابتي مرتين فاحلوا . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٤)

٧٥ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام فى الناس ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

— الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكا لا تستقبله أبدا ، والسلام عليك « فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ، قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فا كان يكتب إلى إلا بإسمة واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : ابسط يدك أبابعدك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

(١) طرف البصر (كضرب) تحرك، وطرف بصره (كضرب أيضا) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) قتل صبوا : هو أن يحبس ويرى حتى يموت .

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عَجَزَكم عن عصابة منكم ، قليلٍ عددها ،
خبِيثٍ دينها ، ضَالَّةٍ مُضِلَّةٍ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حرِّمكم ، وقاتلوهم عن مصركم ،
وامنعوا منهم فيثكم ، وإلا ليشاركنكم في فيثكم من لاحت له فيه ، والله لقد بلغتني
أن فيهم خمسمائة رجل من محرِّريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهابُ عزِّكم وسلطانكم ،
وتعزُّدُ دينكم حين يكثرون » . ثم نزل . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٦)

٧٦ - تحريض ابن الأشر في أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدده ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه
فقال لهم :

« قربوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُضِلِّين^(١) السيوف ،
ولآيهُوننكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بن رِبْعِيٍّ ، وآلُ عُتَيْبَةَ بن النَّهَّاسِ ، وآلُ الْأَشْعَثِ ،
وآلُ يَزِيدِ بن الحارث ، وآلُ فلان - فسَمِّيَ بيوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال :
إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا^(٢) عن ابن مطيع انصفاقَ الْمِزْمَرِيِّ
عن الذئب » ثم قال لأصحابه شدُّوا عليهم ، فِدَاكم عى وخالى .

فما لبثهم أن هزموهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا
السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧)

٧٧ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بن رِبْعِيٍّ أن يخرج
من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عند من يستنصحه ، ويتق به ،
ولا يُعلمُ بمكانه إلى أن يخرج فيلاحق بصاحبه (ابن الزبير) .

(١) أصلت السيوف : جرده من غمده . (٢) انصفق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صَنَعُوا هذا مِنْكُمْ مَنْ هُمْ ، وقد علمت إيمانهم أراذلكم وسفهاؤكم وطفانكم وأخسائوكم ، ما عدا الرجل أو الرجلين ، وأن أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبْلِغ ذلك صاحبي ، ومُعَلِّم طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » .

فقال له شَبَّتَ : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَفْتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاك الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذي وعد وليّه النصرَ ، وعدوّه الخُسْرَ ، وجمله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من افتري ، أيها الناس : إنه رُفِعَتْ لنا رايةٌ ، ومُدَّتْ لنا غايةٌ ، فقيل لنا في الِراية أن ارفعوها ولا تَضَمُّوها ، وفي الغاية أن اَجْرُوا إليها ولا تَعُدُّوها ، فسمنا دعوة الداعي ، ومقالة الواعي ، فكم من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتَلِي

فِي الْوَاعِيَةِ^(١) وَبَعْدَ الْمَنْطِيِّ ، وَأَدْبَرَ وَعَصَى ، وَكَذَّبَ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَيَايَعُوا بَيْعَةَ هُدَى ، فَلَا وَالَّذِي جَمَلَ السَّمَاءَ سَقَمًا مَكْفُورًا^(٢) ، وَالْأَرْضَ فِجَاجًا^(٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ طَلْحِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ عَلِيٍّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطالب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحجّين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سالنا ، والوفاء ببيعتنا ، لا نقياسكم ولا نستقيلكم ، فإذا قال الرجل نعم : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضي الله عنه والمشايخين طلي قتل ، فقتل من قدر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ، وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٩ - خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضي الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له^(٤) نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

(١) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب نعيمهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الثأر من أهدائهم الذين لم يكفهم ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء وبكاهم .

(٢) الكفة بالكسر ويضم : حبال الصائد ، وكل مستدر . (٣) الفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواضح الواسع . (٤) وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة - وكان ابن الزبير يفضيه ويحسده على أيده وقوته - فحبسه مع أربعة عشر رجلا من

« هذا كتاب مهديكم ، وصریح (١) أهل بيت نبیکم ، وقد تُرِكُوا مَحْظُورًا (٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحریق بالنار ، في آناء الليل وتارات (٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرًا مُؤَزَّرًا (٤) ، وإن لم أسرِّب إليهم الخليل في إثر الخليل ، كالتسلي يتلوه السيل ، حتى يَحْمَلُ بَابِن الكاهلية (٥) الويلُ » .

(تاریخ قطری ٧ : ١٣٦)

بنی هاشم فی سجن عارم وقال : لتباين أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهدا إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ماتوعدم به ، وضرب لهم في ذلك أجلا . فكتب ابن الحنفية إلى المختار مستصرخا ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسرون الليل ويكنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقى من الأجل يومان . فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : دخل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إني لا أستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

(١) الصريح : الخالص من كل شيء . (٢) حظر الشيء وعليه (كقتل) منعه وحجر ، ويقال لما حظر به على الغنم وغيرها لينمها ويحفظها حظيرة . (٣) جمع تارة ، وهي هنا الحين .

(٤) نصر مؤزر : أي بالغ شديد من التنازير وهو التقوية .

(٥) ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، فهو عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت عمرو ابن خنثر بن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك الوالبي الأسدي - من بني أسد بن خزيمه - أتى ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتي ، ونقبت راحلتي (نقب الخلف كفرح : رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها ففعل ، فقال : « أرقعها بسبت ، واخصفها بهلب ، وأنجد بها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كحمل كل جلد مدبوغ . والهلب كقفل : الشعر أو ماغلظ منه أو شعر الذئب أو شعر الخنزير الذي يخرز به ، والبردان بفتح الباء وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشي) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مستحملا ، ولم آتتك مستوصفا ، فلن الله ناقة حملتي إليك (مستحملا أي طالبا أن تحملي على ناقة أخرى تعطينها) قال ابن الزبير : « إن وراكها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فأنصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعرا منه قوله :

٨٠ - خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣) فقال للناس:

أقول لغلتي شدوا ركابي
فألى حين أقطع ذات هرق
أجاوز بطن مكة في سواد
إلى ابن الكاهلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهات فميرفي بها وهى خير عماته » - انظر الأغاني « ١ : ٨ » وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » ومجمع الأمثال للميداني (١ : ٧٥) وفيه « فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لى أما الأمام من عمته لسنى بها » وبهذه المناسبة نقول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله ، روي أنه كان يطعم جنده تمرًا ويأمرهم بالحرب فإذا فروا من وقع السيوف لأمهم وقال لهم : أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم : ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يبنى الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رمحا أعطاه رمحا ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا . وجاءه أعرابي سائل فردده ، فقال له : لقد أحرقت الرمضاء قدى ، فقال : بل عليهما يبردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس بمكة ، فأنزله دار الضيفان - وكان ينزلها الغرباء وأبناء السبيل والضيغان - فأقام يومه لم يطعم شيئا ، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهلم نيف وسبعون رجلا ، فغضب معن وخرج من عنده ، فأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه ، ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه ، وأقام عنده ثلاثا حتى رحل ، فقال معن في ذلك :

رمانا أبو بكر (وقد طال يومنا)
وقال : اطعموا منه « ونحن ثلاثة »
وسبعون إنسانا « فوالقوم مخبر !
فقلنا له : لا تقربوا ، فأماننا
جفان ابن عباس العلاء وابن جعفر
وكن آمننا وارفق بتيسك إنه
له أعنز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ » .

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل

الصلاة كثير الصيام ، ولسكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا » « تاريخ الطبري ج ٨ : ص ٥٨ » .

(١) قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشا عليه عبيد الله بن زياد ،

وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردة من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . (٢) وقد خرج يشيعه ماشيا ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدمي في نصرة آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعة فرسخين .

(٣) وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن =

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حصتم حيصة^(١) فإنى أجد فى مُحكم الكتاب ،
وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تاتى فى صور الحمام دُوين^(٢)
السحاب . »
(الكامل لمبرد ٢ : ١٦٩)

٨١ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مصعب بن الزبير إليه من البصرة^(٣) ، قام فى أصحابه فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة ، يأهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة
الرسول ، وآل الرسول ، إن فراركم الذين بَغَوْا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين
فاستغَوْهم عليكم ، لِيَمَّصِح^(٤) الحق ، وَيَنْتَعِشِ الباطلُ ، وَيُقْتَلَ أولياء الله ، والله
لو تهلكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالقرى^(٥) على الله ، واللحن لأهل بيت نبيه ،

= رأيت الأمر علينا فأرسلوها ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة فى أول النهار ، فأرسل أصحاب
المختار الطير ، فصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلطت الظلام ، وأسرع القتل فى
أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأثير : لقد ضربت رجلا على
شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبى فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداما وجراة فصرعته ، فذهبت يده
قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب : فانظروه فانتسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٨٦٧ هـ .

(١) حاص يحيص حيصا : عدل وهرب . (٢) مصغر دون : أى قريبا منه .

(٣) وكان أخوه عبد الله بن الزبير بعثه عليها (سنة ٨٦٧ هـ) بعد هزل القبايع عنها (والقبايع كشجاج
هو الحمرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب
شيث بن ربيى ، وجاءه أشرف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب
صبيدهم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

(٤) مصح كنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولى لون زهره : والظال قصر .

(٥) فرى الكذب كرمى : اختلقه كافتراه .

أَتْتَدَبُوا^(١) مع أحرر بن شَمِيْط : فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد^(٢)
ولمزم .

وتزاحف الجندان ، واهزم أصحاب المختار ، وقتل (في رمضان سنة ٦٧)^(٣) .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٤٨)

(١) اقتدب إليه : أسرع . (٣) أي أهدمتموهم كما باد هؤلاء .

(٢) قال أبو العباس المبرد في الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا في ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمر تكون ثم يحتمل فيوقمها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَقَبْرَانِ مِنَ السَّمَاءِ نَارَ دَهْمَاءَ ، فَلْتَحْرِقَنَّ . دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع أبو إسحق ؟ هو والله محرق داري ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال في بعض سجمه : « أَمَا وَالَّذِي شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْعَصِيَانَ ، لِأَفْتَلَنَّا أَزْدَ عَمَانَ ، وَجَلَّ قَيْسِ عَيْلَانَ ، وَتَمَيَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبِ ظَبْيَانَ » فكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل في عمر المختار أنقلب آتانا .

وقال ابن عدي ربه في العقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جعل يتبع قتلة الحسين بن علي ومن سخله فقتلهم أجمعين ، فلما أقتنهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبيح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي ، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعني مصعبا) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه » .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البده على الله تعالى ، والبده له معان ، البده في العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبده في الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبده في الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبده ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما يوحى يوحى إليه ، وإنما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله =

٨٢ - خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

خطب ابن الزبير فقال من الإمام على كرم الله وجهه ، فباغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وُضع له كرسى قدامه ، فعلاه وقال :

« يا معشر قريش ، شاهدت الوجوه ^(١) ، أَيْنَقَصَ على وأنتم حضور ؟ إن علياً كان ستمها صادقاً ، أحد مرآى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهوؤهم ^(٢) ما كلبهم ، فنقل عليهم ، فرموا بصرة الأباطيل ^(٣) ، وأنا معشر له على نهج ^(٤) من أمره بنو الحنيفة ^(٥) من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة نذر عظامهم ، ونحسر ^(٦)

دايلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعائه ووجاهه ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهمة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولستم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى عمله فيكم محل التابوت في بني إسرائيل وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم أخذوا من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - انظر قصته في تاريخ الطبري (٧ : ١٤٠) .

(١) شاه وجهه : قبح . (٢) هوعه ما أكل : قياها يها . (٣) مؤنث صرف ، والصرف : الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة أو إبطالة بكسرها أو هو جمع باطل على غير قياس . (٤) النهج : الطريق الواضح .

(٥) الحنيفة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو بها . (٦) حسره كحصر وضرب : كشفه .

عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .
 فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتسكلمون ، فما بال
 بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان^(١) ، ومالي لا أتسكلم ؟ أليست فاطمة
 بنت محمد حَلِيلَةَ^(٢) أبي وأمّ إخوتي ؟ أليست فاطمة^(٣) بنت أسد بن هاشم جدّتي ؟
 أليست فاطمة^(٤) بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد^(٥)
 ما تركت في بنى أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتني فيه المصائب صبرت .
 (مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٣ -- عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قریش ، فلما سلم وجلس ،
 قال له معاوية : « إنى أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدا لك » قال :
 « ماتقول في أبى بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن
 المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبال معروف آمراً ،
 وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً^(١) ، وسادهم زهداً وعفافاً ،
 فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه » قال معاوية : « إيهي^(٢) يابن عباس ، فما تقول
 في عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ،

-
- (١) أم رومان بنت عامر هي زوج أبي بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . (٢) زوجته .
 (٣) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام على كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد عشر
 من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .
 (٤) هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم أبي طالب ، وهي أم عبد الله والد سيدنا محمد
 صلى الله عليه وسلم . (٥) هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعمة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .
 (٦) أى رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٧) أمر بالسكوت
 أى حسبك .

ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحلّ الإيمان ، وَكَهْفٌ ^(١) الضعفاء ، وَمَمَقِلُ
الْخِنْفَاءِ ^(٢) ، قام بحق الله عزّ وجلّ صابراً مُحْتَسِباً ^(٣) ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد
وَأَمَّنَ الْعِبَادَ ، فأعقب الله على من يَنْقُصُهُ اللعنة إلى يوم الدين . قال : « فما تقول
في عثمان ؟ » قال : « رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجماعة ^(٤) ، وأفضل البرّة ،
هَجَاداً ^(٥) بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهأصاً عند كل مَكْرُمة ، سَبَاقاً
إلى كلِّ مَنَحَةٍ ، حَمِيماً أَيْباً وَفِيّاً ، صاحب جيش العُسْرَةِ ^(٦) ، وَخَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين » قال :
« فما تقول في عليّ ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كان والله عَلمَ الهدى ، وَكَهْفُ
التُّقَى ، وَنَحْمِلُ الْحِجَابِ ^(٨) ، وَبِحْرِ النَّدى ، وَطَوْدِ النَّهْيِ ^(٩) ، وَكَهْفِ الْعِلا ، لِلوَرَى داعياً
إلى الْمَحَجَّةِ ^(١٠) ، متمسكاً بِالرُّوْزَةِ الوُثْقَى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمّصَ
وارتدى ، وَأَبْرَ من اتعمل وَسَمَى ^(١١) ، وأفصح من تنفّس وقرا ، وأكثر من شهّد
النَّجْوَى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبلتين ، فهل يوازيه أحد ؟
وأبو السَّبْعَيْنِ ^(١٢) فهل يقارنه بشر ، وزوج خير النِّسْوَانِ ^(١٣) ، فهل يفوقه قاطنُ بلد ؟
لِلْأَسْوَدِ قِتَالٌ ، وفي الحروب خِتَالٌ ^(١٤) ، لم تر عيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه

-
- (١) الكهف: الملجأ، وكذا العقل. (٢) جمع حنيف، وهو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .
(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوي به وجه الله . (٤) الكرام ، يقال للكرم :
جمع يفتح فسكون ، فأما إذا قيل فلان جمع اليمين أو جمع الأنازل فهو البخيل ، وربما لم يذكروا معه اليد .
(٥) الهجاء والمجود : يفتح الهاء ، والمتجدد : المصل بالليل . (٦) تقدم شرحه في خطبة ذى
الكلع الحميرى . راجع الجزء الأول ص ٣٤٠ . (٧) أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة
أم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٨) الحمل فى الأصل : شقان على اليعبر يحمل فيهما
العديان ، والحجاب : العقل والفتنة . (٩) الطود : الجبل ، والنهى العقل . (١٠) الطريق الواضح .
(١١) فى الأصل «واسما» وهو تحريف . (١٢) الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وهما سبطا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، (والسبط ولد الولد) . (١٣) السيدة فاطمة رضى الله عنها .
(١٤) خداع ، من الختل : وهو الخلداع ، والمراد أنه ذو بصير بالحروب .

لعنة الله والعباد ، إلى يوم التَّنَاد^(١) » قال : « إيها يابن عباس ، لقد أكرت في ابن عمك » قال : « فما تقول في أبيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباسَ أبا الفضل ، كان صِنُو^(٢) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وَقُرَّةَ عَيْنِ صَفِيِّ اللَّهِ ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباؤه الأجواد ، وأحلام أجداده الأجداد ، تباعدت الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسقاية والمُشَاعِر^(٣) والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دَب^(٤) » فقال معاوية : « يابن عباس ، أنا أعلم أنك كَلِمَانِي^(٥) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقِّههُ في الدين ، وَعَلِّمهُ التَّأْوِيلَ . » ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدَّست أسماؤه ، خَصَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَحَابَةٍ آثَرُوهُ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : (رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَجْدًا يَلْبِتُونَ فَمِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ) ، قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاؤه^(٦) الله ، واستقرَّ دينه ، ووضَّحت أعلامه ، وأذلَّ الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دطامه ، وصارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أحماء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعدُ فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إيها ابن عباس ، حديثاً في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

(١) يوم القيامة . (٢) الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنان صنوان والجمع صنوان برفع النون . (٣) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشمارية بالفتح ، والمشر : موضعها ، والمشر الحرام بالمزدلفة . (٤) في الأصل : « من دب » أي مشى والمعنى عليه صحيح ، ولكني أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . (٥) رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشددة اللام ، وبكسرتين مشددة الميم وتكلام وتكلامه بكسر فسكون وتشد لاهما : جيد الكلام فصيح . (٦) الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) وألى (بفتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٤ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كأننا صَمَقَيْنِ^(٢) دون الناس ، فحَفِظْتُ الميت في الحى ، والحى في الميت ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عبِيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك^(٣) على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هَنَأْتِكُمْ^(٤) ما فى أيديكم ، ولم أ كَشِفْكُمْ عما وَعَت غرائرُكم^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدءَ اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقِيَّانِكُمْ ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذاتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتموني بِصِفِّين ، ولعمري لَبَنُوا تَيْمَ وَعَدِيَّ^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسئوا فيكم هذه السنة ، فحتى متى أُغْضِي الجفون على القَدَى^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعل الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

(١) أى كثير التحقير له . (٢) الصق : الحبيب المصافى . (٣) لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة فتم بن العباس (فتم كعمر) وخرج إليهم . (٤) هنأه كنع وضرب : أطعمه وأعطاه . (٥) جمع غرارة بالكسر وهى الجوالق (الشوالق) . (٦) يعنى ببني تيم أبا بكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى ببني عبدى عمر ابن الخطاب (وهو من عبدى بن كعب بن لؤى) . (٧) القلنى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٥ - مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام^(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلا لهواك لانفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبُسر بن أرطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرُد ، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة مُخَصَّب ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أذني عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسها ، وأما خذنا عثمان فلوزمنا نصره لنصرناه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحق وادعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها « وسكت . (المقد الفريد ٢ : ١١٠) »

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٦ - مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أتيتم إلينا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صبرت عليه منكم ، إني لا أريد أسرا إلا أظلماتم

(١) للتفاوض : الاشتراك في كل شيء. والمساواة .

(٢) يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند

النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

صَدْرِهِ^(١) ، ولا آتى معروفًا إلا صغرتم خَطَرَهُ^(٢) ، وأعطىكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نقصَ الحقّ دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف أعطىها الرجل منكم ، ثم أكون أسرًّا بإعطائها منه بأخذها؟ والله أئن اتخذت لكم فى مالى ، وذَلَّتْ لكم فى عرضى ، أرى اتخذاعى كرما ، وذلى حلماً ، ولو وليتمونا رضىنا منكم بالانصاف ، ولا نسألكم أموالكم لعلنا بحالكم وحالتنا ، ويكون أبنعضها إينأ أحببأ إليكم أن نعطىكم .

٨٧ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو ولينأ أحسنأ المواسأة ، وامتننأ بالأثرة^(٣) ، ثم لم نعطى^(٤) الحى ، ولم نشتى الميت^(٥) ، فلست بأجودَ منأ كُفأ ، ولا أكرم أنفسأ ، ولا أصون لأغراض المروءة ، ونحن والله أعطى للآخرة منكم للدنيا ، وأعطى فى الحق منكم فى الباطل ، وأعطى على التقوى منكم على الهوى ، والقسم بالسوية والعدل فى الرعية يأتين كلأ المنى والأمل ، ما أرضأكم منأ بالكفأف ، فلورضىتم منأ لم نرض بأنفسنا به لكم ، والكفأف رضى من لاحق له ، فلا تُبخلونأ^(٦) حتى تسألونأ ، ولا تلتفظونأ حتى تذوقونأ .

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه : أى رجع صدرأ « بسكون الدال » وصدورا والاسم منه الصدر « بفتح الحين » أى أصدرتم ورددتم واردة ظمان لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . (٢) قدره وشأنه . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتننا أى وتفضلنا وأنمنا بما نستأثر به . (٤) فشمه غشما : ظلمه . (٥) يمرض به فى سبه طليا على المنابر . (٦) لآرمونا بالبخل (بجله بالتشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجده بجيلا) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٨ - مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيرى لكم لمنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علةً ، ولا يؤصِدُ^(١) بابى دونكم مسألةً ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم لترون أنكم أحق بما فى يدي منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلم أعطانا دون حقدنا ، وقصر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . »

٨٩ - مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا فى كتاب الله حقان : حق فى الغنيمة وحق فى الفى . فالغنيمة : ما غلبنا عليه . والفى : ما اجتبيناه ، ولولا حقدنا فى هذا المال لم يأتك منازير ، يحملة خوف ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفانى فإنك لا تغز^(٢) ، ولا تشج^(٣) . » (العقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) أى ولا يثقل وفى الأصل « ولا يوجد » وهو تحريف .

(٢) لا تغز أى لا تنقلب ، غزه يمزه (كنعره) غزا (بالفتح) غلبه وفى الأصل « لا تغز » وهو مصحف .

(٣) شج رأسه : جرحه ، والمراد لا تنقلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديها وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بواندها ودياتها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجباتها ولواتها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تميم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدى ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهانها وبنو جمح ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر بن لؤى بفارسها وقريبتها ^(١١) ، فمن ذا يُجمل مضمارها ، ويجرى إلى غايتها ، ماتقول يا بن عباس ؟ » .

(١) بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . (٢) بنو أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . (٣) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . (٤) بنو عبد الدار بن قصي ، والحجابه : سدانة البيت الشريف ؛ أى تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلونها على ربح وينصبونها علامة للمسكر إذا توجهوا إلى محاربة العدو فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولى البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابنتى دارا بها وهى دار الندوة : وكانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، قال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضميما ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى ، وعبد - « أما والله لأخفئك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم للكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء الحربهم إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا فى دارك ، فأعطاه داره دار الندوة ، وأعطاه الحجابه واللواء والندوة والسقاية والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصي به ، فيصنع طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . (٥) بنو مخزوم بن يقظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٦) بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤى . (٧) بنو عدى بن كعب بن لؤى . (٨) بنو سهم ابن هصيص (كزبير) بن كعب بن لؤى ، ومنهم عمرو بن العاص السهمى . (٩) بنو جمح بن هصيص ابن كعب . (١٠) جمع أنف : وهو السيد . (١١) القريع : المقارع .

٩١ - مقال ابن عباس

قال : « أقول ليس حتى يَفْخَرُونَ بأمرٍ إلا وإلى جنبهم من يشرّكهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفخَرُونَ بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُسَاوَوْنَ بها ، ولا يُدْفَعُونَ عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمدًا من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إن بنا فتوح الأمر وبننا يُحْتَم ، ولك مُلْكٌ مُعَجَّل ، ولنا ملكٌ مُؤَجَّل ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين » .

(المقدم الفرید ٢ : ١١٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نفي الحسن بن علي رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا بن عباس هلك الحسن بن علي ، ولم يظهر حزنا ؛ فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إن الله وإنا إليه راجعون ، ترجيعاً مُكْرَرًا ، وقد بانني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِيبْنَا به لقد أُصِيبْنَا بمن كان خيراً منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخير الله مصيبتيه ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة .

فقال له معاوية : كم كانت سنّته ؟ قال : مولده أشهر من أن تُتعرّف سنّته ! قال : أحسبه ترك أولادا صغاراً ؟ قال : كلنا كان صغيراً فكبير . ولئن اختار الله لأبي محمد

ما عنده وقبضه إلى رحمته ، لقد أبق الله أبا عبد الله (يعني الحسين) ، وفي مثله الخلف
الصالح ، ثم شفق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٩٣ - عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان
أبي موسى يوم الحكمين ؟ » قال : « منعه والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ،
ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ، ناقصاً لما أبرم ،
ومبرماً لما نقض ، أسف^(١) إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف
ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى » .

(إيجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٥ ، وأمال المرتضى ١ : ٢٠٧) .

(١) أسف للطائر : دفا من الأرض في طيرانه .

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزيد بن سُمَيَّة . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومَرْوان بن الحكم . وعمر بن العاص . والمُعيرة بن شُعبة . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرَ^(١) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبَهُ للتحكيم فدَفِعَ عنه^(٢) ، فخرَّ كوه على الكلام لئبلىح حقيقة صفته ، ونَقِفَ على كُفِّهِ معرفته ، ونعرف ما صُرف عنا من شَبَابٍ^(٣) حدّه . ووُورى عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه . وأعطى من النعت والاسم ما لا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتداء ابن أبي سفيان فقال : يا بن عباس مامن عليا أن يُوجَّه بك حكما ؟

٩٤ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرنَ عمرًا بصَفِيَّةٍ من الإبل ، يُوجِع كَتْفِيهِ مِرَاسُهَا^(٤) ولأذهلت عقله ، وأجرَضْتُهُ بريقه^(٥) ، وقَدَحْتُ في سُوَيْدَاء قلبه ، فلم يُبْعِرِ امرأ ،

(١) شجر بينهم الأمر: تنازعا فيه. (٢) لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبههم

بقبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكما من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

(٣) الشبا: جمع شباة، وهي حد كل شيء . (٤) أى علاجها وقيادتها . (٥) جرح بريقه

كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وأجرضه بريقه : أخصه .

ولم ينفذ تراباً إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نكته أرمت^(١) قواه ، وإن أرته فصنت^(٢) عراه ، بفرزب^(٣) مقول لا يقل حده ، وأصالة رأي كمتاح^(٤) الأجل لاوزر منه ، أضدع^(٥) به أديمه ، وأفل به شبا حده ، وأشحد به عزائم المعتيز^(٦) ، وأزيح به شبه الشاكين .

٩٥ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين مجوم^(٧) أول الشر ، وأقول آخر الخير ، وفي حسنه قطع مادته ، فبادرته بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، وادع بالتفكيك به غيره ، وشرّد به من خلفه . »

٩٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يابن التابغة ، ضلّ والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق الشيطان على لسانك ، هلاً توليت ذلك بنفسك يوم صفتين حين دُعيت نزال^(٨) وتكافح الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً ، فأنكفأ محوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(٩) من الموت ، أعددت حيلة السلامة

(١) أرم الحبل: قتله شديداً . (٢) حالت . (٣) الغرب : حد كل شيء، والمقول: اللسان .
(٤) من إضافة الصفة للموصوف أي كالأجل المتاح: أي المقدر. والتوزر: الملجأ. (٥) أشق، والأديم:
الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه . (٦) في الأصل « المعتيز » وقد بحث في كتب اللغة
عن مادة « قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التي يظن أنها محرفة عنها ، ورجع لدى أنها
محرفة عن « المعتيز » من اعتنز : أي تمنى وانفرد ، يريد الذين تمنحوا عن الفتنة والنزاع بين علي ومعاوية
وكانوا محايدين . (٧) ظهور (مصدر نجم) . (٨) نزال : اسم فعل بمعنى انزل . أي حين قال
الأبطال بمضهم ليمض نزال . (٩) جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء والنهر .

جبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، ففتحته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوف بأسه سوءتك ، حذراً أن يصطلمك^(١) بسطوته ، أو ياتهمك بمحلمته ، ثم أشرت على معاوية كالتامح له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكافحته ، رجاء أن تكتفى مئوته ، وتعدم صورته ، فعمل غلّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلمك ، وعرف مقرّ سهمك في غرضك ، فاكفّف غرّب لسانك ، واقمّع عوّراء^(٢) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٣) ، وبحر زاخر ، إن تبرزت للأسد افتسك ، وإن عُمت في البحر قَمَسَك^(٤) .

٩٧ - مقال مروان بن الحكم^(٥)

فقال مروان بن الحكم : « يا بن عباس إنك لتصرف^(٦) بنا بك ، وتورى نارك ، كأنك ترجو الغلبة ، وتؤمّل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٧) ، وامررى لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، واثن عفا عن جرائمكم لقديم ما نُسب إلى ذلك » .

(١) اصطلمه : استأصله . (٢) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة . (٣) الخدر : أجمة الأسد ومنه قيل أسد خادر . (٤) غمسك وأغرقتك . (٥) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٥٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . (٦) صرفت البكرة تصرف كضرب صريفاً : صوتت عند الاستقاء ، وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . (٧) الصدر : الرجوع .

٩٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حمله على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أئباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثاره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لى : إنك لتصرف بنايك ، وتورى نارك ، فسل معاوية

(١) يريد « وياطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « ويا بن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لاتساكني في بلد أبدا » أوقيته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - وكان النبی صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوما فرآه وهو يتخلىج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل متغيا حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر ، فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم عمه - رده ، وقال : « كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدى برده » وقد توفى في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفى النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف إبان نفي أبيه بها . (٢) أى في فتنة عثمان ، وذلك أن الثوار يعد أن هذا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى عامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذى كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . (٣) جمع وديج (محركة) وهو عرق الأخدع الذى يقطع الذابح ، فلا يبقى معه حياة . (٤) جمع ثبج (محركة) وهو ما بين السكاهل إلى الظهر .

وعمرًا يخبرك ليلة المرير^(١) كيف ثبأتنا للمثلات^(٢) ، واستخفأنا بالمعضلات ، وصدق جيلادنا عند المصاولة ، وصبرنا على اللأواء^(٣) والمطاولة ، ومصاحتنا مجباهنا السيوف المرهفة^(٤) ، ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأسته ، هل خننا^(٥) عن كرائم تلك المواقف ؟ أم لم نبذل مهجنا^(٦) للمتالف ؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود ، ولا يوم مشهود ، ولا أثر معدود ، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلتك ، فزبع على ظلمك^(٧) ، ولا تتعرض لما ليس لك ، فإنك كالمغروز في صغد^(٨) ، لا يهبط برجل ، ولا يرقأ^(٩) بيد .

٩٩ - مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس : إني لأعلم ، ما منع حسنًا وحسينًا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سولت لها أنفسهما ، وغرما به من هو عند البأساء بسلهما^(١٠) ، وإيم الله لو وليتهما لأدأبا^(١١) في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقل بمكانهما كبثهما » .

١٠٠ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إذن والله يقصر دونهما بأعك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولو رمت ذلك لوجدت من دونهما فئة صدقا صبرا^(١٢) على البلاء ، لا يخيمون عن اللقاء ،

-
- (١) هي ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش عليّ على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش عليّ أن تكون له الغلبة .
(٢) جمع مثلة (كفرقة) من مثلت بالقتيل : إذا نكلت به . (٣) اللأواء : الشدة .
(٤) المرقمة . (٥) خام عنه يخيم : جبن ونكص . (٦) جمع مهجة ، وهي الدم أو الروح .
(٧) ريع كنع : وقف وانتظر وتحمس ، وظلغ ظلما كنع : غمز في مشيه ، واربع على ظلمك أي أنك ضميم فأنته عملا تطيقه واسكت على مانيك من عيب . (٨) الصغد : التقيد ، وفي الأصل « كالمغروز في صغد » وأراه « كالمقرون في صغد » . (٩) أي يصمد ويعلو : رقا في الدرجة صمد : يقال رقات ورقيت (كرضيت) وترك الهزمة أكثر . (١٠) أسلمه : خذله . (١١) أجهدا وأتعبا .
(١٢) أي ذات صدق وصبر على البلاء أو هو « صدقا صبرا » بضمين جمع صدوق وصبور .

فَلَمَرَ كُرُوكَ بِكَلَالِهِمْ^(١) وَوَطِئُوا بِمَنَاسِمِهِمْ^(٢) وَأَوْجَرُوا^(٣) مَشَقَّ رِمَاحِهِمْ ، وَشَفَّارَ^(٤) سِيوفِهِمْ ، وَوَخَزَ أَسِنَّتَهُمْ ، حَتَّى تَشْهَدَ بِسُوءِ مَا أَتَيْتَ ، وَتَدْبِينِ ضِيَاعِ الْحَزْمِ فِيمَا جَنَيْتَ ، فَحَذَارِ حَذَارٍ مِنْ سُوءِ النِّيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَرُدُّ الْأَمْنِيَّةَ ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِفَسَادِ هَذَيْنِ الْحَيِّينَ بَعْدَ صَلَاحِهِمَا ، وَسَعِيًّا فِي اخْتِلَافِهِمَا بَعْدَ اتِّقِلَافِهِمَا ، حَيْثُ لَا يَضُرُّهَا إِبْسَاسُكَ^(٥) ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمَا إِبْنَسَاكَ .

١٠١ - مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم :
« اللَّهُ دَرُّ ابْنِ مُلْجَمٍ^(١) ، فَقَدْ بَلَغَ الْأَمَلَ ، وَأَمَّنَ الْوَجِيلَ ، وَأَحَدَ الشَّفَرَةَ ، وَالْأَنْ الْمُهْرَةَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَنَفَى الْعَارَ ، وَفَازَ بِالْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَا ، وَرَقِيَ الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى . »

١٠٢ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَّعَ^(٢) كَأْسَ حَتْفِهِ بِيَدِهِ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بَرُوحَهُ وَلَوْ أَبَدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، خَالَطَهُ الْفَحْلُ الْقَطِيمُ^(٣) ، وَالسَّيْفُ الْخَلْدِيمُ ، وَلَا لَعْفَهُ صَابَا^(٤) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا^(٥) ، وَأَلْحَقَهُ بِالْوَلِيدِ وَعُتْبَةَ وَحَنْظَلَةَ^(٦) ، فَكَلِمَهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً^(٧) ،

(١) جمع كلكل وهو الصدر . (٢) جمع منم (كجلس) وهو خف البعير .

(٣) أوجره الرمح : طعنه به فيه ، والمشق : سرعة في الطعن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قضيب

مشوق : أى طويل دقيق . (٤) جمع شفرة : وهى حد السيف . (٥) الإبساس : التلطف بالناقة

وقت حلبها ، بأن يقال لها بس بس (بفتح فسكون) تسكينها لها . (٦) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى

لمنه الله قاتل الإمام على . (٧) كرع في الماء : تناوله بفيه من موضعه . (٨) قطم الفحل كفرح

فهو قطم : اشتهى الضراب . (٩) عصارة شجر مر . (١٠) جمع سم مثلث للسين .

(١١) الوليد بن عتبة : خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة : جده لأمه ، وحنظلة بن أبي سفيان أخوه ،

وقد قتلهم على يوم بدر . (١٢) الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة : أى أنف أبى لا ينقاد .

وأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَفَرَمَى بِالسَّيْفِ هَامِمَهُ ^(١) ، وَرَمَلَهُمْ ^(٢) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذُّؤَابَ
أَشْلَاهُمْ ^(٣) ، وَفَرَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ ، أَوْلَيْكَ حَصَبٌ ^(٤) جَهَنَّمُ لَهَا وَارْدُونَ ، فَهَلْ
تُحْسِثُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ^(٥) ؟ وَلَا غَرْوًا وَلَا خُتْلًا ، وَلَا وَصْمَةً إِنْ قُتِلَ ،
فَإِنَّا لَكُمْ قَالُودٌ دُرِّيذٌ بِنِصَّةٍ :

فَإِنَّا لَلْحَمُّ السَّيْفِ غَيْرَ مُكْرَمٍ وَنُلْحِمُهُ طَوْرًا وَلَيْسَ بِذِي نُكْرٍ ^(٦)
يُفَاكِرُ عَلَيْنَا وَاتْرِينَ فَيْشَتَّ فَنَى بِنَا إِنْ أَصْبْنَا أَوْ نُغَيْرِ عَلَى وَتَرٍ ^(٧)

١٠٣ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَى عَلِيٍّ بِالنَّصِيحَةِ ، فَأَثَّرَ رَأْيَهُ ، وَمَضَى عَلَى غَلَوَائِهِ ^(٨) ،
فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ عَلَيْهِ لَا لَهُ ، وَإِنِّي لِأَحْسِبُ أَنْ خَلْفَهُ يَقْتَدُونَ بِمَنْهَجِهِ » .

١٠٤ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كَانَ وَاللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ بِوَجُوهِ الرَّأْيِ ، وَمَعَاقِدِ الْحَزْمِ ، وَتَصْرِيْفِ
الْأُمُورِ ، مِنْ أَنْ يَقْبَلَ مَشُورَتَكَ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْفَ عَلَيْهِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

(١) هام : جمع هامة ، وهى الرأس . (٢) رمل الثوب : لطنه بالدم ، ويجوز أن يكون وزمهم
أى لفهم بدمائهم (على المجاز) . (٣) أشلاه : جمع شلو ، وهو العضو ، وقرى الضيف قرى
(بالكسر) : أضافه . (٤) الحطب ، وما يرى به فى النار . (٥) الصوت الخفى .
(٦) لحمه : أطمعه اللحم . (٧) الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره . (٨) الغلواء : الغلوة ،
وذلك أن المغيرة جاء طليا بعد مقتل عثمان ، وقال له : إن النصح رخيص وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح ،
وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان عاملك هذا ، فاكتب إليهم بائبائهم على أعمالهم ، فإذا بايموا لك ، واطمان =

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ (١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفت على ذكر مبین وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » . وهل كان يسوع له أن يُحَكِّمَ في دماء المسلمين ، وَفِيءَ الْمُؤْمِنِينَ ، من ليس بآمون عنده ، ولا موقوف به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبَيِّنَ خلافَ ما يُظْهِرُ إلا للتَّفْيِةِ (٢) ، ولات حينَ تقيّةٍ ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضي كالسيف المصلّت (٣) في أمر الله ، مُؤَثِّرًا لاطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٥ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يا بن عباس ، إنك لتتطق بلسان طليق (٤) ، ينبي عن مكنون قلب حرق (٥) ، فاطو على ما أنت عليه كشحاً (٦) ، فقد محاضوه حقنا ظلمة باطلكم » .

= أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطى الرياء في أمري ، قال : فإن أبييت فانزع من شئت وأترك معاوية فإن له جراءة وهو في أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة في إثباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبائع ، وقال لعل : فإن بايع لك فعل أن أقلعه من منزله ، فقال على : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . (١) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه . (٢) التقيّة : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين . (٣) المسلول .

(٤) لسان طلق : (بسكون اللام وكسرهما) ذلق . (٥) الحرق : المحروق وفي الحديث « المحرق شهيد » وفي رواية « الحريق » أي الذي يقع في حرق النار (بفتحتين) فيلتهب ، والحرق محرقة : النار ولهبها ، وفي الحديث « المحرق والفرق والشرق شهادة » وحرق شعره كفرح : تقطع ونسل . (٦) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

١٠٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلا يزيدُ ، فوالله ما صَفَّتْ القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنت بالحبة إليكم ، منذ نأت بالبغضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ما سَخِطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلَّ (١) الأيامُ نستقصي ما شدَّ عنا ، ونسترجع ما ابتزَّ (٢) منا ، كيلاً بكيل ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله ولياً لنا ، ووكيلاً على المعتدين علينا . »

١٠٧ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسي منكم لحزازاتٍ يابني هاشم ، وإني لخليق أن أدرك فيكم الثار ، وأنفي العار ، فإن دماءنا قبيلكم ، وظلامتنا فيكم . »

١٠٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمت ذلك يا معاوية لَتُثِيرَنَّ عليك أسداً مُخْدِرَةً (٣) ، وأفاعي مُطْرِقَةً ، لَا يَفْتَوُّهَا (٤) كثرة السلاح ، وَلَا تَمُضُّهَا نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ،

(١) أداله الله من عدوه : فصره عليه . (٢) ماسلب . (٣) أخدر الأسد : لزم الأجمة ،

وأخدر للعرين الأسد : ستره فهو مخدر (بكسر الدال وفتحها) . (٤) فتأ الغضب كنع : سكنه وكسره ، والقدر سكن غليانها .

يضربون قَدَمًا قَدَمًا من ناوأم^(١) ، يهون عليهم نُباح الكلاب ، وعُواء الذئاب ، لا يُفَاتون بوترٍ ، ولا يُسَبِّقون إلى كريم ذكر ، قد وطَّنوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء همهم ، كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهِدُوا الهِياجَ فلا ضَرْبٌ يَنْهِنُهُمْ وَلَا زَجْرٌ^(٢)
وكأنهم آسادٌ غِيْنةٌ قد غَرِثَتْ وَبَلَّ مُتُونَهَا الْقَطْرُ^(٣)

فلتكوننَّ منهم بحيث أعددت ليلة الهريز للهرب فرسك ، وكان أكبر همك سلامة حُشاشة^(٤) نفسك ، ولولا طعام^(٥) من أهل الشام وقوك بأنفسهم ، وبدلوا دونك مُهَجهم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشفَّار ، وأيقنوا بجلول الدمار ، رفعوا المصاحف مستجبرين بها ، وعائدين بعصمتها ، لكنتن شلوا مطروحًا بالعراء^(٦) ، تسفني عليك رياحها^(٧) ، ويعتورك ذئابها ، وما أقول هذا أريد صرْفك عن عزيمتك ، ولا إزالتك عن مقود نيتك ، لكن الرِّحِم التي تعطف عليك ، والأواصر^(٨) التي توجب صرف النصيحة إليك .
فقال معاوية : « لله درك يا بن عباس ، ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل ، ورأى أصيل ! و بالله لو لم يلد هاشم غيرك ، لما نقص عددهم ، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثَّرم » ا ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

(١) القدم : الشجاع والمضى أمام أمام ، وناوأم : عداوم . (٢) نهبه عن الأمر : كفه وزجره .
(٣) الغينة : بالكسر الأجمة ، والغينة بالفتح : الأشجار الملتفة في الجبال وفي السهل بلا ماء ، فإذا كانت بماء فهي غيضة ، وغرث : كفرح جاع فهو غرثان . (٤) الحشاشة : بقية الروح في المريض والجريح .
(٥) الطعام : أوغاد الناس . (٦) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشيء . (٧) سفت الريح : التراب تسفيه : ذرته ، أو حملته .
(٨) في الأصل « والأوامر » وهو تحريف .

عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مَشَاهِدَهُ بِصِفَيْنِ ، واجتمعت قریش فأقبل عبد الله ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٩ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، وَمَتَّكَ ما بيد غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته ، وكلُّ راضٍ بما أخذ وأعطى^(١) ، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعزل والتنغيص^(٢) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقىتها إليه ، وذكرت يومك مع أبي موسى ،

(١) وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب

لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنزل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطني مصرا فأربح صفقة أخذت بها شيئا يضر وينفع

ثم إنه بعثه سنة ٣٨ في جيش لغزو مصر، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام هل فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميرا . (٢) روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير

(ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر امعرو ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح

به وببديره وعنايه وسميه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشأم مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، =

فلا أراك فخرت إلا بالقدر ، ولا مَنَنْتُ إلا بالفجور والنش ، وذكرت مشاهدك بصيفين ،
فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ، ولا نَكَيْتَنَا^(١) فيها حربك ، ولقد كَشَفْتَ فيها
عورتك ، وإن كنتَ فيها لَطَوَيْلَ اللسان ، قصير السِّنَان ، آخر الخليل إذا أقبلت ، وأولها
إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تَبْسُطُهَا إلى خير ، وأخرى لا تَقْبِضُهَا عن شر ، ولسان غرور
ووجهان : وجه مُوحِش ، ووجه مُوئِس ، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لَحَرِيَّ أَنْ
يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خَطَل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك
قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١١٠ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : والله ما في قريش أثقلُ على مسألة ، ولا أمرٌ جواباً منك ،
ولو استطعتُ ألا أجيبك لفلعت ، غير أنني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بعث الله
نفسى ، ولم أنس نصيبي من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تُعَلِّمُ الْقَمَوَانَ
أَلْخَمْرَةَ^(٢) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيّرني له ، وأما خفة وطأني
عليكم بصيفين ، فلما استنقذت حياتي واستبطلت أمتى وفاتى . وأما الجبن فقد علمت قريش أنى
أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لسانى ، فإنى كما قال هشام بن الوليد لعثمان
ابن عفان رضى الله عنه :

= وكتب بينهما كتابا ، وشرط فيه شروطا لمعاوية ، وعمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر
سبع سنين ، وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوائفا وتماعدا على ذلك ، وأشهدا طليهما به شهودا ،
ثم مضى عمرو بن العاص على مصر واليا عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله ما مكث بها إلا سنتين
أو ثلاثا حتى مات . (١) نكى العدو نكية: قتل وجرح . (٢) في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة »
والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختيار ، واختمرت المرأة ، لبست الحمار بكسر الخاء
(الطرحة) يضرب للرجل المجرب .

لسانى طويل فاحترس من شَدَاتِهِ عليك ، وسيفى من لسانى أطول^(١)
وأما وجهى ولسانى ، فإنى ألتى كلَّ ذى قدر بقدره ، وأرجى كلَّ ناجحٍ بحجره ،
فمن عرف قدره كفانى نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسه ، ولعمري ما لأحدٍ من
قريش مثل قدرك ما خلا معاويةَ ، فما ينفعنى ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بني هاشمٍ ماى أراكم كأنكم بي اليومَ جهالٌ ؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أنى جسور على الوغى سريعٌ إلى الداعى إذا كثر القتل
وأول من يدعو « نزالِ » طبيعةٌ جُبِلتُ عليها ، والطَّباع هو الجبل^(٢)
وأنى فصَلتُ الأمر بعد اشتباهه بدؤمةً إذ أعيأ على الحكمِ الفِصل^(٣)
وأنى لا أعيأ بأمر أريده وأنى إذا عَجَّتْ بِبِكارِكُمْ فَعَل^(٤)

(العقد الفرید ٢ : ١١٢ ، وشرح بن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ١٥٩)

١١١ - عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فَرَّ بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من هيبة
الناس له ، وموقمه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : « مالك إذا رأيتنى وليتنى
القَصْرَةَ^(٥) ، وكان بين عينيك دَبْرَةٌ^(٦) ، وإذا كنت فى ملامن الناس كنت

(١) الشدة : الحدة ، والشدا والشذا بالذال والذال : حد كل شيء . (٢) أى نازلونى أيها الأقران ،
والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل . (٣) هى دومة الجندل التى اجتمع
فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري . (٤) البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهى الناقة
الفتية ، وعجت : أى صاحت ورفعت صوتها . (٥) القصرة : أصل العنق فى مركبه فى الكاهل ، ويقال
لعنق الإنسان كله قصره ، والمعنى وليتنى عنقك لإمرأى عنى . (٦) الدبرة : بسكون الباء وفتحها الهزيمه
فى القتال : وهو اسم من الإدبار والمراد بها هنا الإفشاء وعدم الإقبال .

الهُوَاهَاةُ^(١) أَلْمُزَّةَ ؟ فقال ابن عباس : « لأنك من اللثام الفَجْرَةِ ، وقريش الكرام
الْبُرَّةَ ، لا ينطقون بباطل جهلوه ، ولا يكتمون حقاً علموه ، وهم أعظم الناس أعلاماً ،
وأرفع الناس أعلاماً . دخلت في قریش واست منها ، فأنت الساقط بين فراشين ،
لا في بني هاشم رَحْلُكَ ، ولا في بني عبد شمس راحتك ، فأنت الأثيم الزَّئِيمُ^(٢) الضَّالُّ
المُضِلُّ ، حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو بجمه ، وتسمو بكرمه » فقال عمرو :
أما والله إنى لسرور بك ، فهل ينفعنى عندك ؟ قال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ،
وحيث سلك قَصَدْنَا .
(المقد للفريد ٢ : ١١٢)

١١٢ — عمرو بن العاص وابن عباس

قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس :

« إن هذا الأمر الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر
منا ومنكم ما ترى ، وما أبت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا ، ولسنا نقول : ليت الحرب
عادت ، ولكننا نقول : ليتها لم تكن كانت ، فانظر فيما بقى بغير ما مضى ، فإنك رأس
هذا الأمر بمد على ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاور مأمون ، وأنت هو .
(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨)

١١٣ — مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو بنت منظور بن زَبَّانِ الفَزَّارِيَّةِ ، فلما دخل بها قال
لها تلك الليلة : أتدريين من معك في حَجَلَتِكَ^(٣) ؟ قالت : نعم ، عبد الله بن الزبير بن

(١) قال صاحب اللسان : وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهوَاهَاةُ أَلْمُزَّةُ » الهوَاهَاةُ : الأحمق ،
وقال أيضا : « رجل هوَاهاء وهوَاهَاة وهوَاهَاة بفتح الأول ضميم الفؤاد جبان ، ورجل هوَاهة بضم الأول
جبان أيضا . (٢) الزئيم : المستلحق في قوم ليس منهم والدعى . (٣) الحجلة : كالكعبة ، وموضع يزير
بالثياب والستور للعروس .

العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى . قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض بنى عبد مناف حصرَكَ ، لقال لك خلاف قولك ، فغضب وقال : الطعام والشراب على حرام حتى أحصرَكَ الهاشميين وغيرهم من بنى عبد مناف ، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً ، قالت : إن أطعتنى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك ، فخرج إلى المسجد فرأى حلقة فيها قوم من قريش ، منهم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير : أحبُّ أن تنطلقوا معى إلى منزلى ، فقام القوم بأجمعهم ، حتى وقفوا على باب بيته ، فقال ابن الزبير : يا هذه اطرحى عليك سترَكَ ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فتعدي (١) القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتمكم لحديث رُدته على صاحبة الستر ، وزعمت أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أقرَّ لى بما قلت ، وقد حضرتهم جميعاً ، وأنت يا بن عباس ماتقول ؟ إني أخبرتها أن معها فى خدرها من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس ، فردت على مقالتي .

فقال ابن عباس : أراك قصدت قصدى ، فإن شئت أن أقول قلت ، وإن شئت أن أكف كفت . قال : بل قل وما عسى أن تقول ؟ ألسنت تعلم أن أبى الزبير حوارى (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين (٣) ؟

(١) تدي : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء للمفطر) . (٢) الحوارى : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عمى ، وحوارى من أمى » . (٣) كان يقال لأسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقا على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل فى الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وهما فى الغار . قال الأزهري : وهذا أصح القولين ، وقيل : إنها شقت نطاقها نصفين ، فاستعملت أحدهما وجملت الآخر شدادا لزيدهما . وجاء فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير =

وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين ؟ وأن صفيّة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي^(١) ؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، وغزراً فاخراً ، غير أنك تفاخر من يفخره فخرتَ ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارةَ مَنْ راماهما^(٢) ، نَشَدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلب أشرفُ أم خوَيْلد في قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزْمى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تَنَافَرُنِي يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لِقَوْلِ هَازِلٍ

= بمكة ناداه ويك يا بن ذات النطاقين ، اقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها : سمعت رحك الله ما يقول القوم ، وما يدعونني إليه من الأمان؟ قالت : سمعتم لعنهم الله ! فا أجهلهم ! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لسكان ذلك أعظم فخر ك عندهم ، قال : وما ذلك يا أماء ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر (وروى عن عائشة رضى الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهيات لها سفرة ، فطلبها شيئاً يربطانها به فا وجداه ، فقطعت من مئزرى لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين في الجنة ، وفي القاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاماً لقربته . (١) هي جدته لأبيه .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من واماما إنا إذا مائة تلقاها
ترد أولاهـ ا على أخراها

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فواده .

ولو غيرنا يابن الزبير فخرته وَلَكِنَّا سَامَيْتَ شَمْسَ الْأَصَائِلِ^(١)
قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افترتك فرقتان إلا
كنت في خيرهما » فقد فارقناك من بعد قصى^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فرقة الخير أم لا ؟
إن قلت نعم خصمت ، وإن قلت لا كفرت ، فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير :
أما والله لولا تحرمك^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرت^(٤) جبينك قبل أن تقوم من
مجلسك . قال ابن عباس : ولم أباطل ؟ فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق
لا يخشى من الباطل .

فقلت المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترون ،
فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقعى ببعلك ، فأعظم الخطر ، وما أكرم الخبر ،
فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمى ، فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أرحمتك غير
مرة ، فهض وقال :

ألا يا قومنا ارحلوا وسيروا فلو ترك القطا لعفأ وناما^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أقبل طي ، فإ كنت لتدعنى حتى أقول :
وأيم الله لقد عرف الأقوام أنى سابق غير مسبوق ، وابن حواري وصديق ، متبجح^(٦)
في الشرف الأنيق ، خير من طليق^(٧) وابن طليق ، فقال ابن عباس : رُسِفَتْ

(١) الأصائل: جمع أصيل، وهو العشى « ما بعد صلاة العصر إلى الغروب » . (٢) كان من أولاده
عبد العزيز بن قصى (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصى (ومن سلالة بنو هاشم) . (٣) تحرم منه
بحرمة : تمنع وتحمى بذمة . (٤) أى لذكرت لك من المساوى ما يمرق له جبينك ويندى خجلا .
(٥) غفا وأغنى : نام نومة خفيفة . (٦) من تبجح به : إذا افتخر وتمظم، وأرجح أنه «متبجح»
من تبجح : أى تمكن في المقام والحلول . (٧) يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع
المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ، وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « وروى
أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ منى للفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهونى ، فقال له صلى الله
عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

بِحُرْمَتِكَ^(١) فلم تُبْقِ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنت سابقاً فألى من سبقت ؟ وإن كنت فاحراً فبمن فخرت ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالكَشْكُثُ^(٢) في فمك ويديك ، وأما ما ذكرت من الطَّلِيْق ، فوالله لقد ابْتُلِيَ فَصَبْرَ ، وَأُنْعِمَ عَلَيْهِ فَشَكَرَ ، وَإِنْ كَانَ وَاللَّهِ لَوْفِيًّا كَرِيْمًا ، غَيْرَ نَاقِضٍ بَيْعَةً بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَلَا مُسْلِمٍ كَتَيْبَةً بَعْدَ التَّأْمُرِ عَلَيْهَا^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجنين ؟ والله إنك لتعلم منه خِلَافَ ذَلِكَ ، قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلا أنه فرّ وما كره ، وحارب فما صَبَرَ ، وباع فما تَمَمَّ ، وقطع الرَّحِمَ ، وأنكر الفضلَ ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وَأدرك منها بعض ما كان يرتجى وَقَصَرَ عَنِ جَرَمِي الْكِرَامِ وَبَلَدًا
وَمَا كَانَ إِلَّا كَالْهَجِينِ أَمَامَهُ عِتَاقٌ ، فِجَارَاهِ الْعِتَاقِ فَأُجْهِدًا^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يبقَ يا بني هاشم غيرُ المشائمة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين

(١) الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، تقيب في التراب لطبي يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا هطلت يده في الحباله انمقدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليفلت فد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير : شد رسغ يديه بخيط . والمعنى وقعت في حبالتك ، وعاد ما فخرت به حجة عليك لا لك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزاً للنع العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رسعت بحجرتك » من رصمه بالرمح إذا طعنه طعناً شديداً غيب السنان كله فيه ، أى طعنت بسهمك وارتدت إليك حجبتك ، ومعناه كالأول . (٢) الكشكث (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفتات الحجارة .

(٣) يعرض بالزبير وقد بايع الإمام ثم نكث ببعته ، وخرج لقتانه مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم .

(٤) أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر اهلاً

ولا أولى به منا » . (٥) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً ، وفرس عتيق : أى كريم والجمع عتاق ، وفي

الأصل « عتاق » بالنون ، وهو تصحيف .

ابن الحرث : أقمناه عنك يا بن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالسَّغْب^(١) الظَّمَان ، يفتح فاه يستزيد من الرِّيح ، فلا يَشْبَع من سَغْب^(٢) ، ولا يَرَوَى مِنْ عَطَش ، قفل إن شئت أو فدَّع ، وانصرف القوم .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مَرْوَان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سريره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتُوضَع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سريره آخر قد أُحْدِثَتْ تِجَاه^(٣) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سريره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٤ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلتةً ومُعَالِبَةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، يزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقه من أبي بكر ، فن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقَد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ ، وجدّم في جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ،

(١) الجائع . (٢) جوع . (٣) تجاهه ومثلهين : تلقاء وجهه .

فأخر الله ستمهم ، وأدحض جدّهم ، وولى الأمر عليهم من كان أحقّ به^(١) منهم ، فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غرّة^(٢) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قتيلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٥ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك^(٣) أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدّم لعيب عيناؤه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلمتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تينا لتيم ، وعدياً لعدى^(٤) وأميّة لأمية ، ولو كلني تينى أو عدوى أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر ، لا خبر غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ، فإن يكن في أسد بن عبد العزى شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيت تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوب صفيّة بعدد ، والله المستعان على ما تصفون . »

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٦ - خطبة عبد الله بن عباس

يردّ على عبد الله بن الزبير وقد عاب بنى هاشم

لما كاشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بفضهم وعآبهم ، وهم بما همّ به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ،

(١) يشير إلى اختيار عمر رضى الله عنه أصحاب الشورى الستة ، وفيهم الإمام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضى الله عنه بالخلافة . (٢) غفلة . (٣) الرسل : الرق والتودة . (٤) تيم رهط أبي بكر الصديق ، وعدى رهط عمر الفاروق .

عانبه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءوا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ، فقال : « والله ما تركت ذلك علانيةً إلا وأنا أقوله سرًّا وأكثر منه ، لكنني رأيت بنى هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشراً بؤاً^(١) وانحزرت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرةً ، ثم أضرمها عليهم ناراً ، فإني لا أقتل منهم إلا آتماً كغنائراً سحاراً ، لا أنمام الله ، ولا بارك عليهم ! بيتُ سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيراً ، استفرغ^(٢) نبيُّ الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد بن أبي وقاص فقال : « وفكك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : والله ما قلت صواباً ، ولا هممت برُشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيبُ ، وإياهم تقتل ، والعربُ حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين ، ما سوغ الله لك ، والله لو لم ينصرم الناس منك لنصرم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مُغضباً ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أولَ لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فيأعجبا كلَّ العجب ، لافترائه وتكذيبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

(١) اشرب إلىه : مد عنقه لينظر أو ارتفع . (٢) في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال

استفرغ فلان مجهوده : إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئاً ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا !) . (٣) الناموس : الحاذق ، وهو أيضاً صاحب السر المطلع على

باطن أمرك . (٤) تكذب : تكلف الكذب . (٥) روى أبو علي القالي في أماليه قال :

« كانت قریش تجاراً ، وكانت تجاراتهم لا تعدو مكة ، وإنما تقدم عليهم الأعاجم بالساع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا =

وَحَمَى عِبْرَات^(١) قريش لهاشيم^١ ، وإن أول من سقى بمكة عذبا ، وجعل باب الكعبة

= كذلك، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام، فزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنة ثريد، ويجمع من حوله فياكلون، وكان هاشم من أجل الناس وأتمهم، فذكر ذلك لقيصر، فقيل له: ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفسغ عليه اللحم - وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز - فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجيب به، فكان يبعث إليه في كل يوم، فيدخل عليه ويحادثه، فلما رأى نفسه تمكن عنده، قال له: «أياها الملك إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرون من آدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم» فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا - والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الطريق - وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع، فيكفونهم حتملانها، ويؤدون إليهم رعوس أموالهم ورجبهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يجرهم؛ يترفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، حتى أوردتهم الشام، وأحلهم قراها، ومات في ذلك السفر بعمرة، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفيس، وهلك برمان من اليمن، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون، وخرج نوفل بن عبد مناف، وكان أصغر ولد أبيه، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش، وإيلافاً ممن مر به من العرب، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان، واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام» - ذيل الأمالي ص ٢٠٤ .

(١) العير بالكسر الإبل تحمل الميرة: بلا واحد من لفظها، أو كل ما متير عليه إبلا كانت أو حيرا أو

بغالاً وجمه كمنيات ويسكنه .

ذَهَبًا ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ ^(١) وَاللَّهِ لَقَدْ نَشَأَتْ نَاشِئَتُنَا مَعَ نَاشِئَةِ قُرَيْشٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَقَاءَ لَتَمَّهُمْ ^(٢) إِذَا قَالُوا ، وَخَطَبَاءَهُمْ إِذَا خَطَبَوْا ، وَمَا عُدُّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قُرَيْشٍ مَجْدٌ لَغَيْرِنَا ، لِأَنَّهَا فِي كُفْرٍ مَاحِقٍ ، وَدِينٍ فَاسِقٍ ، وَضِلَالَةٍ وَضَلَالَةٍ ^(٣) فِي عَشَوَاءٍ ^(٤) عَمِيَاءَ ، حَتَّى اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نُورًا ، وَبَعَثَ لَهَا سِرَاجًا ، فَاتَّجَبَهَ ^(٥) طَيْبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسَبُّ بِمَسَبَّةٍ ، وَلَا يُبَيِّنُ عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فَكَانَ أَحَدُنَا وَوَلَدُنَا وَعَمْنَا وَابْنُ عَمْنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مَنْنَا وَابْنُ عَمْنَا ^(٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلَحْمَتُنَا ^(٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ إِنْ نَخِيرَ النَّاسَ بَعْدَهُ أَكْرَمَهُمْ أَدَبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ رَحِمًا .

وَاعْجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لابن الزبير! يعيب بنى هاشم ، وإنما شرف هو وأبوه وجدّه بمصاهرتهم ، أما والله إنه لمصلوب قريش ، ومتى كان العوام بن خويلد يطعم في صفة بنت عبد المطلب ؟ قيل للبعل : من أبوك يا بعل ؟ فقال : خالي الفرس « ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٧ - خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال : « إن هاهنا رجلاً قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، يزعم أن مُتَعَمَّةَ النِّسَاءِ حلالٌ من

(١) قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدفوناً ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرهم دفنتهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية » ومرج القلعة محرقة : موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حليته فيما قيل للكعبة « تاريخ الطبري ٢ : ١٧٩ »

(٢) القائة جمع قائل . (٣) الضلة والضلالة : ضد الهدى . (٤) أى في جهالة وقتنة عشواء ، من العشى (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهى عشواء (والعشواء أيضاً الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تخبط بيدها كل شئ ، لأنها ترفع رأسها فلا تتمهد مواقع أخفافها) . (٥) انتجبه : اختاره . (٦) يعنى الإمام علياً كرم الله وجهه .

(٧) اللحمة : القرابة .

الله ورسوله ، وَيُفْتِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمَلَةِ ، وقد احتمل بيت مال البصرة^(١) بالأمس ، وترك المسلمين بها يرتضخون^(٢) النوى ، وكيف أومئ في ذلك : وقد قاتل أم المؤمنين وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ بِيَدِهِ^(٣) .

(١) ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يستعمله قط ، فقال له يوما : كدت استملكك ، ولكن أخشى أن تستحل النوى على التأويل ، فلما صار الأمر إلى علي استعمله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » ، واستحله لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومر ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت بحلا ، ولو كنت راعيا ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته في المشي ، فكتب أبو الأسود إلى علي كتابا يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ماتحت يديه بغير علمك ، فلم يسعني كتابك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك » فكتب علي إلى ابن عباس « أن ارفع إلى حمايك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلغك باطل » . فكتب إليه علي : « إنه لا يسعني تركك ، حتى تعلمني ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعت » فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « ابعث إلى عمك من أحببت ، فإني ظانن منه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبودلت الكتب بين علي وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « والله إنني لم تدعني من أساطيرك لأحملنه إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه علي ، - انظر المقدم الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ - .

وقال آخرون : إن ابن عباس ما فارق عليا ولا باينه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل على وبعد مقتل علي حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة - انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمال السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ . (٢) رضح النوى (كعب وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يرتضخون أي يكسرون الخبز فإيا كلونه ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يرتضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذي جاء « وهو يرتضخ لسكنة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى المعجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القحط والفاقة . (٣) كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

١١٨ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبير مولى بنى أسد بن خزيمه - وكان ابن عباس قد كف بصره - استقبل بي وجه ابن الزبير وارفع من صدرى ، فاستقبل به قائده وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فحسرت عن ذراعيه ، ثم قال : « يا ابن الزبير :

قد أنصف القارة من رامها إننا إذا ما فئنة نلقاها
نرد أولها على آخرها حتى تصير حرضا دعواها^(١)

يا ابن الزبير : أما العمى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فتياى فى القملة والنملة ، فإن فيها حكمين لاتصلهما أنت ولا أصحابك . وأما حلى المال ، فإنه كان ما لا جبيناه ، فأعطينا كل ذى حق حقه ، وبقيت بقية هى دون حقتنا فى كتاب الله ، فأخذناها بحقتنا ، وأما المتعة فسئل أمك أسماء إذ نزلت عن بردى عوسجة ، وأما قتالنا أم المؤمنين ، فبنا سميت أم المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك^(٢) إلى حجاب مدته الله عليها ، فهتكاه عنها ، ثم اتخذها فتنة يقاتلان دونها ، وصانا حلائلها فى بيوتهما ، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبرزا زوجة نبيه وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم زحفاً ، فإن كنا كفاراً فقد كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا مكان صافية فيكم ، ومكان خديجة فينا ، لما تركت لبني أسد بن عبد العزى عظما إلا كسرتة .

(١) الخرض : الفساد فى المذهب والعقل والبدن . (٢) يعنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر

الصديق ، فهو طلحة بن عبید الله بن عثمان بن عبید الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، وأبوبكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . الخ ، وإنما جعله خاله باختيار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنك عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فإنهم كُفُّوا^(١) الجواب إذا بُدِّهوا^(٢) » فقال : بلى وعصيتك ، فقالت : يا بُنى احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقتة الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضائح قریش ومخازيها بأشرفها ، فإياك وإياه آخر الدهر .

ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لعكرمة : أقم وجهي نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نَوْرَهَا فِي فُؤَادِي وَعَقْلِي مِنْهَا نُورٌ

وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فإن كان طي مؤمناً فقد ضلّتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد يؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخّص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها^(٣) .

(١) كم البعير كنع : شد فاه لئلا يمض أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يجعل على فاه ، والجمع كم ككتب . والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخرسة تلجم أفواه مناظرهم .

(٢) بدّه بأمر كنعته : استقبله به أو بدأ به . (٣) جاء في المصباح المنير : « المتعة اسم المنع ، ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ونكاح المتعة هو المؤقت في العقد ، وقال في الباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخل سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل في قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فاستمتعتم » فأنكحتم على الشريطة التي في قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين النكاح ، واستمتعتم بكذا وتمتعتم : انتفعت ، ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج : إذا أحرم بالعمرة في أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتاً » هـ . =

وأول مجمر^(١) سَطَعَ فِي الْمُتَمَّةِ مَجْمَرِ آلِ الزُّبَيْرِ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد ٤م : ٤٨٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٩ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاصِ إذ قال الأذن : قد جاء عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب . فقال عمرو : والله لأسوأته اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تُظهر لنا من مَنقَبته^(٣) ما هو خفي عنا ، ومالا نحب أن نعلمه منه ، وغَشِبهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من حلَّى عليه السلام جهارا غير سَاتِرٍ له وَثَلَبَهُ ثَلْباً^(٤) قبيحاً ، فامْتَقِع^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أَفْكَك^(٦) ، حتى أُرْعِدَت خصائله^(٧) ثم نزل عن السرير كالْفَنِيْق^(٨) ، فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أم لك ، ثم قال :

أظن الحلمَ دلَّ على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

= وجاء في التفاسير : « وقيل نزلت الآية في المتمة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، إلا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم سمى بها ، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتيمها بما تعلى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه .

(١) المجمر : العود ، واستجمر بالمجمر : تبخر بالعود . (٢) قال المسعودي في مروج الذهب :

« وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكراً في الإسلام ، وزوجه أبو بكر معلنا ، فكيف تكون متعة النساء ؟ » .

(٣) المنقبة : المفخرة . (٤) ثلبه : عابه . (٥) تغير لونه . (٦) الأفكك : الرعدة .

(٧) جمع خصيلة : وهي لحم الفخذين والعضدين والذراعين ، أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

(٨) الفنيق : الفحل المكروم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

« يامعاوية حَتَّامٌ تَجَرَّعَ غَيْظَكَ ، وإلى كم الصبر على مكروه قولك ، وسيءُ أدبك ،
وذميم أخلاقك ، هَبِلْتَكَ الْهَبُولُ (١) ، أما يزجرك ذِمَامُ (٢) المجالسة عن القَدْعِ (٣) لجليسك
إذا لم تكن لك حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ، والله لو عطفتك أو اصبرُ (٤)
الأرحام ، أو حاميت على سهمتك من الإسلام ، ما أُرْعيتَ بنى الإماء المُتَكِّ (٥) ، والعبيدِ
السُّكِّ (٦) أعراضَ قومك ، وما يجهل موضعَ الصَّفْوَةِ (٧) إلا أهلُ الجفوة ، وإنك لتعرف
وشأج (٨) قريش ، وصفوة غرائزها ، فلا يدعُونَكَ تصويبَ ما فرطَ من خطئك في سفك
دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التماذى فيما قد وضح لك الصواب في خلافه ،
فاقصِدْ لمنهج الحق فقد طال عمهك (٩) عن سبيل الرشد ، وخبطك في دَبْجُور (١٠) ظلمة
الغى ، فإن آيت أن لاتتابعنا في قبح اختيارك لنفسك ، فأعفنا عن سوء القالة (١١) فينا ،
إذا ضمنا وإياك الندى (١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله حسيبك ، فوالله لولا
ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن كلفتنى ما لم أطق ، ساءك ما سئرت منى
من خلق . »

(١) هبلته أمه : ثكلته ، والهبول : المرأة لا يعيش لها ولد . (٢) الذمام : الحرمة . (٣) قذمه وأقذعه :
رماه بالفحش وسوء القول . (٤) جمع آصرة ، وهى القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الخباء . (٥) المتك : جمع
متكاه (كحمراه) وهى البظراء والمفضاة واللى لاتمسك البول . (٦) السك جمع أسك من السكك (محركة) ،
وهو صفر الأذن وإزوقها بالرأس ، أو صفر فوف الأذن وضيق الصلخ . (٧) أى صفوة القوم وسادتهم .
(٨) فى الأصل « وشائك » وقد بحثت فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والشيك السريع والتقريب ،
وامرأة وشيك : أى سريعة » فلو جعلنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على التأنيث » لم يستقم معنى العبارة ،
وأراء محرفا عن « وشائج » بالجم . جمع وشيجة ، وهى عرق الشجرة ، فعنى وشائج قريش أصولها وعروقها
« والعرق أصل كل شئ » أى وإنك يامعاوية لتعرف أصول قريش للكريمة الزاكية التى تأبى الضيم ولا تحتمل
الثلب والإهانة « والشيج أيضا شجر الرماح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق « مشتقة من رسول الله
نبيته » - والنوع : شجر تتخذ منه القسي والسهام . (٩) العمه محركة : التردد فى الضلال .
(١٠) الديجور : الضلام . (١١) القول فى الخبر ، والقال والقيل والقالة فى الشر . (١٢) النادى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر تغيّر الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسن^١ ، لعن الله من أخرج
خَبَّ صدرك من وِجَارِهِ^(١) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن
مَحْتِدِكَ^(٢) ومنصيبك لكان خُلُقُكَ وَخَلَقُكَ شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين
وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لا ينازعهما
في ذلك أحد ، فقال : أبا جعفر أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة
ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما في هذا في المجلس فلا ، ثم انصرف ،
فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكان رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخلقه وخلقه ،
وإنه لمن مشكاته^(٣) ، لو ددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه ممنعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا
خفاء به عنك . قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله واسكنه ازدراك واستحقرك
ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو :
فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين
جواب فيما يرى اليوم ؛ ونهض معاوية وتفرق الناس .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١٢٠ - الحسن بن عليّ وعمرو بن العاص

وَوَفَدَ الحسن بن عليّ رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية :
يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه
عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعيد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو

(١) جحره . (٢) أصلك . (٣) المشكاة : الكوة التي ليست بناقلة .

(٤) أفه : ووصف من الفهامة ، وهي العي ، وفعله فهو كفرح ، وقياس الوصف منه أفه على أفعل لأنه

يدل على خلقه « عيب » كعمور وعمى وعرج ، واسكن الذي في كتب اللغة : فه كمدب وفيه وفهفه .

طلبتم ابنا لبيكم ما بين جابرئس إلى جابلق^(١) لم تجدوه غيري وغير أخي : (وَإِنْ أَدْرَى
لَمَلَهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) فساء ذلك عمرا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له :
أبا محمد ، هل تنعمت الرطب^(٢) ؟ فقال : « أَجَلٌ تُلْقِيهِ الشَّمَالُ ، وَتُخْرِجُهُ الْجَنُوبُ ،
وَيُنْضِجُهُ بَرْدُ اللَّيْلِ ، بِحَرِّ النَّهَارِ^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنعمت الخراة^(٤) ؟ قال :
« نعم ، تُبْعِدُ الْمَشْيَ فِي الْأَرْضِ الصَّحَّاحَ^(٥) ، حتى تتوارى من القوم ، ولا تستقبل
القيلة ، ولا تستدبرها ، ولا تستنج بالروثة ، ولا العظم ، ولا تبيل في الماء الزاكد »
وأخذ في كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١٢١ — الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ، فقال
معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإني أسأله
ماليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام وأذن له ،
فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويقال إن ذلك
من الخرق^(٦) ، فقال الحسن : ليس كما بلانك ، ولكننا ممشر بنى هاشم ، أفواها عذبة

(١) جابرس : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه
بسكون اللام ، وفي القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها
صاحب اللسان بفتح اللام . وفي القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه أنسى ، وفي العقد
الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ما بين لابتها » ولا بتا المدينة : حرتان تكتنفانها . (٢) يسأله هذا
وما بعده تعجيزا له . (٣) وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » . (٤) خرى كسمع
خراة بفتح الخاء وكسرهما : سلح . (٥) الصحصح : ما استوى من الأرض . وفي العقد الفريد
« للصحح » وهو تحريف . (٦) الخرق كسبب : الحق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور
والاسم الخرق كقفل .

شِفَاهُهَا ، فَنَسَاؤُنَا يُقْبِلُنَ عَلَيْنَا بِأَنْفَاسِهِنَّ وَقُبُلِهِنَّ ، وَأَنْتُمْ مَعَشَرَ بَنِي أُمَيَّةَ فِيكُمْ بَحْرٌ^(١) شَدِيدٌ ، فَنَسَاؤُكُمْ يَصْرِفُنَ أَفْوَاهَهُنَّ وَأَنْفَاسَهُنَّ عَنْكُمْ إِلَى أَسْدَانِكُمْ ، فَإِنَّمَا يَشِيبُ مِنْكُمْ مَوْضِعَ الْمِذَارِ^(٢) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . قَالَ سِرْوَانٌ : إِنْ فِيكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ خَصَلَةٌ سَوَاءٌ . قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْعُلْمَةُ^(٣) . قَالَ : أَجَلٌ ، نُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ نَسَائِنَا ، وَوُضِعَتْ فِي رِجَالِنَا وَنُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَوُضِعَتْ فِي نَسَائِكُمْ ، فَمَا قَامَ لِأَهْلِهَا وَبَيْتِهَا إِلَّا هَاشِمِيٌّ ؛ فَغَضِبَ مَعَاوِيَةُ وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ حَتَّى سَمِعْتُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْكُمْ بَيْتَكُمْ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكُمْ مَجْلِسَكُمْ » (المقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٢ — عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمَعَاوِيَةُ

وَكَانَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَعَاوِيَةَ مُضَاضِبًا لِأَخِيهِ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ^(٤) ، فَأَكْرَمَهُ مَعَاوِيَةُ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ ، وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ : « وَاللَّهِ إِنْ عَلِيًّا غَيْرُ حَافِظٍ لَكَ ، قَطَعَ قَرَابَتِكَ ، وَمَا وَصَلَكَ ، وَلَا اصْطَنَعَكَ » قَالَ لَهُ عَقِيلٌ : « وَاللَّهِ لَقَدْ أَجْزَلَ الْعَطِيَّةَ وَأَعْظَمَهَا ، وَوَصَلَ الْقَرَابَةَ وَحَفِظَهَا ، وَحَسُنَ ظَنَّهُ بِاللَّهِ إِذْ سَاءَ بِهِ ظَنُّكَ ، وَحَفِظَ أَمَانَتَهُ ، وَأَصْلَحَ رَعِيَّتَهُ ، إِذْ خُنِمَ وَأَفْسَدَتْكُمْ وَجُرْتُمْ ، فَا كَفَفَ لِأَبَائِكَ فَإِنَّهُ عَمَّا تَقُولُ بِمَعَزَلٍ » .

وَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « أَبَا يَزِيدَ ، أَنَا لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ عَلِيٍّ » قَالَ « صَدَقْتَ ، إِنْ

(١) البحر : اللبن في الفم وغيره . (٢) المذار : جانبها اللحية .

(٣) الغلظة : شدة الشهوة كالشبق بالتحريك . (٤) وكان قد قدم عليه بالكوفة ، فسأله أن

يقضى عنه دينه ، قال : ولم دينك ؟ قال : أربعون ألفا ، قال : ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج

عطائي فإنه أربعة آلاف فأدفعه إليك ، قال : بيوت المال بيدك وأنت تسوقني بعطائك ؟ قال : أتأمرني أن أدفع

إليك أموال المسلمين وقد ائتمنوني عليها ؟ قال : فإن آت معاوية ، فأذن له فقدم عليه « انظر أسد الغابة ٣ :

٤٢٣ والفخرى ص ٧٦ » اقرأ أيضا كلمة في هذا الصدد في شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٨٢ وفي ترجمة علي

ابن أبي طالب للمؤلف ص ٨٣ .

آخى آثرَ دِينَهُ على دِينِيهِ ، وأنت آثرت دِينِيكَ على دِينِكَ ، فأنت خير لى من آخى ،
وأخى خير لنفسه منك^(١) .

وقال له مرة : « أنت معنا يا أبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » .
وقال له يوما : إن علياً قد قطعك ووصلتُك ، ولا يُرضيني منك إلا أن تلعنَه على
على المنبر . قال : أفعلُ ، فأصعد فصعد ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس
إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعنَ على بن أبى طالب فالعنوه ، فعليه لعنةُ الله
والملائكةِ والناس أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين - أبا يزيد - من
لعنتَ بينى وبينه . قال : والله لا زدتُ حرفاً ولا نقصتُ آخر ، والكلام إلى
نِيَّةِ المتكلم .

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره ، فأجلسه على سريرهِ ، ثم قال له :
« أنتم معشرَ بنى هاشم تُصابون فى أبصاركم » قال : « وأنتم معشرَ بنى أمية تُصابون
فى بصائركم » .

وقال له يوماً : ما أبينَ الشَّبَقَ فى رجالكم يا بنى هاشم اقال : لسكنه فى نساءكم
أبينُ يا بنى أمية .

وقال معاوية يوماً : « يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى فى كتابه : (تَبَّتْ
يَدَا أَبِي لَهَبٍ^(٢) وَتَبَّ) ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن أبا لهب عمه ، فقال عقيل : فهل سمعتم
قول الله عز وجل : (وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^(٣)) قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم

(١) وفى البيان والتبيين أن معاوية قال : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أنى خير له من أخيه لما أقام
عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخى خير لى فى دينى ، وأنت خير لى فى دُنْيَاى » . (٢) هو أبو لهب
ابن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الإيذاء له ، يرمى القدر على يابه .

(٣) هى أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل
الشوك والسعدان وتلقيه فى طريق النبى عليه الصلاة والسلام إيذاء له وكانت جارته ، أو هو النفيمة إذ كانت
تسمى عليه بالنمام وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداته ، وتحمل
زوجها على إيذائه .

قال « يا معاوية ، إذا دخات النار، فاعدل ذات اليسار، فإنك ستجد عمى أبا لهب ، مفترشا
عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير؟ »

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخصلة ما تمجبنى يا بنى هاشم . قال : وما هي ؟
قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال إيانا تُعير يا معاوية ؟ أجل والله
إن فينا لئينا من غير ضعف ، وعزا من غير جبروت ، وأما أنتم يا بنى أمية ، فإن لينكم
غدر ، وعزكم كفر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول :

إني امرؤ مني التكرُّمُ شِيمةٌ إذا صاح بي يوما على المون أضيرا

ثم قال « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مهديتك مهادها ، وأظلتك
بجذافير^(١) أهلها ، ومدت عليك أطناب سلطانها ، ما ذاك بالذي يزيدك مني رغبة ،
ولا تخشما لرغبة » قال معاوية : « لقد نعمت يا أبا يزيد نعمتا هسن لها قلمي ، وإني لأرجو أن
أن يكون الله تبارك وتعالى مارذاني برداء ملكها ، وحباني بفضيلة عيشها ، إلا لكرامة
ادخرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، وإعسا هو المثل يُحتذى عليه ،
والأمور أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كريما ، وإلينا حبيبا ،
وما أصبحت أضير لك إساة » .

(المقد الفريد ٢ : ١١٠ - ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) الخدافير : جمع خذفور أو خذفار (كمنصور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢٣ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأدخِلَ النَّسْوَةَ من كَرَمِ بِلَاءِ إِلَى الكوفة جعلت نساؤها يلتدِمْنَ^(١) ، وَيَهْتِكْنَ أَلْجِيُوبَ عَلَيْهِ ، فَرَفَعَ عَلِيّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نَحَلَ^(٢) من المرض - يا أهل الكوفة إنكم تكون علينا ، فمن قتلنا غيركم ؟ وأومات أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهَدَّأتِ الأَجْرَاسَ^(٣) ، قالت .

« أبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على أبيه^(٤) ، أما بعد : يا أهل الكوفة يا أهل الخَلْتِ^(٥) والخِذْلِ ، لا ، فلا رِقَاتِ^(٦) العَبْرَةَ ، ولا هَدَّأتِ الرِّفَةَ^(٧) ، إنما مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ التي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَاثِ^(٨) ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا^(٩) بَيْنَكُمْ ، أَلَا واهل فيكم إلا الصِّلَفُ^(١٠) والشَّنْفُ^(١١) ، ومَلَقُ^(١٢) الإمام ، وغَمَزُ الأعداء ، واهل أنتم

-
- (١) لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وضربت صدرها في النياحة ، ويهتكن : يمزقن ، والجيوب جمع جيب : وهو طوق القميص . (٢) كنع وعلم ونصر وكرم .
(٣) الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . (٤) تريد جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . (٥) الغدر والحديعة ، أو أبيض الغدر .
(٦) رقاً الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمعة قبل أن تفيض . (٧) الرفة : الصوت .
(٨) أنكاثا : جمع نكت كحمل ، وهو مانقض لينزل ثانية - حال من غزها ، أو مفعول ثان لنقضت لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم القرشية ، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثم تنقضه .
(٩) الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخِل من فساد في عقل أو جسم ، والغدر والمسكر والحديعة . (١٠) الصلف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا . (١١) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمعرض عليه ، أو كالمتعجب منه ، أو كالكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبفضه وتنبكره . (١٢) ملق الجارية : بجمعها ، أو هو ملق بالتحريك ، والملق : التلق .

إلا كَمَرَّعَى عَلَى دِمْنَةٍ (١) ، وَكَفِيضَةً عَلَى مَلْحُودَةٍ (٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتِ أَنْفُسَكُمُ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْمَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَايَبُكُوا ، وَإِنَّا نَكْمُ وَاللَّهِ أَخْرِيَابَهُ (٣) بِالْبَيْكَاءِ ، فَايَبُكُوا كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَزَيْتُمْ بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا (٤) وَلَنْ تُرْجِحُوا (٥) بِفَسْلِ بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَأَنْتِي تُرْجِحُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبِوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شِبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَعَارِ حُجَّتِكُمْ ، وَمِذْرَةَ (٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرَخِ (٧) نَازِلَاتِكُمْ ، فَتَمَسَّسًا وَنُكْسًا (٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّمِيُّ ، وَخَسِرَتِ الصَّفْقَةُ (٩) ، وَبُؤْتُمْ (١٠) بِغَضَبِ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (١١) ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (١٢) ؛ أَتَدْرُونَ أَيَّ كَبِدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ ، وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرْقَاءَ (١٣) ، شَرُّهَا طِلَاحٌ (١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؛ أَفَعَجِبْتُمْ أَنْ قَطَرَتْ السَّمَاءُ دَمًا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ؛ فَلَا سَمْعَفَنَكُمْ الْمَهْلُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْفَظُهُ الْمُبَادِرَةُ (١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ فَوْتُ النَّارِ ، كَلَّا ، إِنْ رَبُّكَ لَنَا لِهَمٌّ لِبِالْمُرْصَادِ (١٦) » ثُمَّ

- (١) الدمنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البئر والرماد وغيرها ، أخذت هذا القول من قول جدها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهي المرأة الحسناء في منبت السوء .
- (٢) ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . (٣) جذبرون .
- (٤) الشنار : أقيح العيب . (٥) رخصه كنهه وأرخصه : غشله . (٦) دره عن القوم كنع : إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . (٧) أي مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » - على الأمر وبضم الراء من روعك - أي اسكن وأمن ، والروع : القلب . (٨) التمس : الهلاك ، ونكسه نكسا : قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويقال : تمسا له ونكسا ، بضم النون وقد يفتح ازدواجًا . (٩) البيعة . (١٠) رجعت . (١١) أي فظيما منكرا . (١٢) يتشققن ، وتخز : تسقط ، هدا : أي تهد هدا . (١٣) بها أي بفعلتكم هذه ، وخرقاء من الحرق : وهو الأليسن الرجل العمل والتصرف في الأمور . (١٤) طلاح الشيء : ملؤه . (١٥) أي لا تدفعه إلى العقوبة المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى . (١٦) المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته منها شيء .

ولت عنهم ، فظلّ الناس حيارى ، وقد ردّوا أيديهم إلى أفواههم . وقال شيخ كبير من
بنى جُمُعيّ - وقد اخضلت (١) لحيته من دموع عينيه .

كُوهلُهُمْ خَيْرُ الكُوهلِ ونَسَلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَنْجُزِي

(بلاغات النساء ص ٢٧)

١٣٤ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام

بين يدي يزيد

ولما وجّه عبّيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثّلوا بين
يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طست ، فجعل ينسكت ثناياه بقضيب في يده ، وهو
يقول من أبيات (٢) :

ليت أشياخي يبدر شهيدوا جزع الخرزج من وقع الأسل (٣)

لأهلوا وأستهلوا فرحاً ثم قالوا : يا يزيد لا تشل (٤)

فجز ينام بيدر مثلها وأقنا مئيل بدير فاعتدل (٥)

فقالَت زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! (ثمّ كان
عاقبة الذين أساءوا الشؤءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أظننت
يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكفاف السماء فأصبحنا نساق كما يساق

(١) ابتلت . (٢) تمثل يزيد بهذه الأبيات وهو لعبد الله بن الزبيرى ، قالها في غزوة أحد ، وهو
يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة .

(٣) كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخرزج : قبيلة

من الأنصار . (٤) كل من رفع صوته فقد أهل إهلالاً واستهل استهلالاً ، وشلت يده تشل كتعب يتعب ،

وأشلت وشلت مبنيين للمجهول : يبست وهى جملة دعائية ، يقال فى الدماء : « لا تشل يدك ولا تكلل » -

والبيت من قول يزيد - . (٥) لاتنس ماقدمناه لك من أن عليها كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان

بيدر ، فقتل حنظلة بن أبي سفيان أخا معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

الأسارى ، أن بناهوانا على الله ، وبك عليه كرامة ؟ وأن هذا لعظيم خطرِكَ ؟
فَسَمَخْتَ بِأَنْفِكَ ، ونظرت في عطفيك^(١) ، جَذْلَانِ فَرِحَا ، حين رأيت الدنيا مستوسقةً
لك ، والأمور منسقةً^(٢) عليك ، وقد أمهلت ونفست^(٣) ، وهو قول الله تبارك وتعالى :
(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي (٤) لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ
لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) أَمِنَ الْعَدْلُ ، يابن الطَّلَقَاءِ تَحْدِيرُكَ (٥) نِسَاءَكَ وَإِمَاءَكَ
وَسَوْتُكَ بِنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ هَتَكَتَ سَتُورَهُنَّ ، وَأَصْحَلْتَ (٦)
صَوْتَهُنَّ ، مَكْتَنِبَاتٍ تَخْدِي (٧) بِنِ الْأَبَاعِرُ ، وَيَحْدُو (٨) بِنِ الْأَعَادِي ، مِنْ بِلَدٍ إِلَى
بِلَدٍ ، لَا يُرَاقِبِينَ وَلَا يُؤَوِّينَ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ (٩) الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، لِبَسِّ مَعْنَى وَبِ (١٠) مِنْ
رِجَالِهِنَّ . وَكَيْفَ يُسْتَنْبَطُ فِي بَعْضَتِنَا مِنْ نَظَرِ إِلَيْنَا بِالشَّنْفِ (١١) وَالشَّنَانِ ، وَالْإِحْنِ
وَالأَضْغَانِ ؟ أَتَقُولُ « لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدَاؤَهُمْ » غَيْرَ مُتَأَمِّمٍ وَلَا مُسْتَعِظَمٍ ؟ وَأَنْتَ تَتَكَّتُ
ثَنَابًا أَيْ عَبْدَ اللَّهِ بِمِخْصَرَتِكَ (١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونِ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتَ (١٣) الْقَرْحَةَ ،
وَاسْتَأْصَاتِ الشَّافَةَ (١٤) ، يَا هَرَاكُ دِمَاءُ ذَرِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنُجُومِ-

- (١) أى جانبيك ، وهو كناية عن إعجابه بنفسه . (٢) من استوسقت الإبل : أى اجتمعت ،
ومنسقة : منتظمة . (٣) أى فسح لك فى أمرك ، من نفس الله كربتته : فرجها . (٤) نملي .
(٥) صوتهن فى خلودهن . (٦) أبجته ، جعل صوته كفرح : بيج .
(٧) خدى البعير والفرس كجبرى : أسرع وزج بقوائمه ، أو هو ضرب من سيرها .
(٨) يسوق . (٩) يتناول وينظر إليهن ويشرف عليهن . (١٠) قريب أو نصير .
(١١) سبق تفسيره ، وفى الأصل « بالشتق » وهو تحريف (والشنق : أن تكف البعير بزمامه حتى
تلزق ذفره بقادمة الرجل ، والذفرى بكسر الذال : العظم الشاخص خلف الأذن) ، والشنان : الكراهية ،
والإحن : الأحقاد . (١٢) المخرصة : ما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب . (١٣) نكأ القرحة
كنع : قشرها قبل أن تبرا فتدبت ، كناية عن نبشه عما كاد ينسى من العداوة بين بنى هاشم وبنى أمية .
(١٤) الشافة : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ، واستأصل الله شافته : أذهب كما تذهب
تلك القرحة .

الأرض من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكًا (١) مَوْرِدُهُمْ ، وَلَتَوَدََّنَّ أَنَّكَ
 عَمِيَّتَ وَبَكِيَّتَ وَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرِحًا » اللَّهُمَّ خذْ بِحَقِّنَا ، وَانْتَقِمْ لَنَا
 مِنْ ظَلَمَانَا . وَاللَّهُ مَا فَرَبْتِ إِلَّا فِي جِلْدِكَ . وَلَا حَزْرَتِ إِلَّا فِي لِحْمِكَ ، وَسَتَرْدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَعْنَمِكَ (٢) . وَعَعْرَتُهُ وَأُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ (٣) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ
 شَمْلَهُمْ مَلُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ (٤) . وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ (٥) وَكُنْكَ مِنْ
 رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحُكْمَ اللَّهُ ، وَالْخِصْمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَوَارِحُكَ
 شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ فَيَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَبْشِكُمْ شَرًّا مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ، مَعَ أَنِي وَاللَّهُ
 يَاعِدُوكَ اللَّهُ وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصْفِرُ قَدْرَكَ ، وَأَسْتَعِظُمُ تَقْرِيْعَكَ (٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعَيُونَ عَيْرِي
 وَالصُّدُورَ حَرَيَّ (٧) ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُغْنِي عَنَّا ؛ وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَحَزَبُ
 الشَّيْطَانِ (٨) يَقْرَبُنَا إِلَى حَزْبِ السَّفَهَاءِ (٩) ، لِيُعْطُوهُمْ أَمْوَالَ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكَ مُحَارِمِ اللَّهِ ،
 فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطَفِ (١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَحْلَبُ (١١) مِنْ لَحُومِنَا ، وَتِلْكَ الْجِثَثُ
 الزُّوَاكِي يَمْتَاهُمَا عَسَلَانِ الْقَلَوَاتِ (١٢) ، فَلَنْ اتَّخَذْتُمَا مَغْنَمًا لَتَتَّخِذَنَّ مَغْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ
 إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ (١٣) : يَا بَنَ صَرْجَانَةَ ، وَيَسْتَصْرِخُ بِكَ ، وَتَمَعَاوِي وَأَتْبَاعًاكَ

(١) سريعا . (٢) الرغم : اللذ . (٣) العترة : رهنط الرجل وعشيرته الأذنون ،
 والحممة : القرابة ، والقدس : الطهر ، - أي في الجنة - . (٤) التفريق .
 (٥) أي أحلك في كرسى الخلافة وهو معاوية . (٦) التفرغ : التأنيب . (٧) عين عبري : جرت
 عبرتها ، والصدر حري : شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . (٨) تريد عبيد الله بن زياد ورجاله .
 (٩) أي إلى يزيد وشيعته . (١٠) نطف الماء كنصر وضرب : سال ، ونطف كفرح ، وعنى :
 تلتخ يعيب . (١١) تحلب العرق : سال وتحلب بدنه عرقا : سال عرقه . (١٢) الزواكي : جمع
 زاكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهي خيار المال ، وعسل الذئب عسلانا
 كجري جريانا : أعنت وأسرع ، والعاصل : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والمراد هنا معنى الجمع لا المصدر :
 أي ذؤبان القلوات ، ولم أجد في كتب اللغة لعامل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .
 (١٣) تستغيث .

عند الميزان ؛ وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاوية فتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ،
فوالله ما اتقيت^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكذلك كيدك ، واسع سمعك ،
وناصب جهذك^(٢) . فوالله لا يرضخ عنك عارٌ ما أتيت إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم
بالسعادة والمغفرة اسادات شهبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة . أسأل الله أن يرفع لهم
الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٥ - رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن عليّ عند قبر أخيه الحسن عليهما السلام :

« رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ، إن كنت لتناصر الحقّ مظانّه^(٣) ، وتؤثرُ اللهُ عند
تداحض^(٤) الباطل في مواطن التقيّة بحسن الروية ، وتستشف^(٥) جليل معاظم الدنيا
بعين لها حارقة ، وتفيض عليها يدا طاهرة الأطراف ، نقيّة الأسيرة^(٦) ، وتردع بادرة
غرب أعدائك بأيسر المئونة عليك . ولا غرور وأنت ابن سلاله النبوة ، ورضيع لبان
الحكمة . فإلى روحٍ ورِيحانٍ وجنته نعيم . أعظمَ اللهُ لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب
لنا ولكم السّلوّة وحسن الأئمة^(٧) عنه » (عيون الأخبار م ٢ : ص ٣١٤)

(١) أى لا أخاف إلا الله . (٢) ناصبه العداوة : أظهرها له .

(٣) فى الأصل « لتناصر » بالياء وأراه بالنون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .

(٤) هى تفاعل من الدحض ، دحض برجله كمنع : فحص بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والمعنى :

عند تطاحن الباطل ومغالبة بعضه بعضا . (٥) استشفه : نظر ماوراه . (٦) الأسيرة جمع سرار

ككتاب : الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجهة . (٧) الأئمة بضم الهمزة وكسرهما جمع أسوة بالضم

والكسر أيضا : ما يتعزى به .

١٢٦ - عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص

في مجاس معاوية

روى المسعودى في مروج الذهب قال :

« لما قَتَلَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ ، كان في نفس معاوية من يوم صَفَيْنَ عَلَى هَاشِمِ ابْنِ عُتْبَةَ بنِ أُمَيِّ وَقَاصِ المِرْقَالِ وولده عبد الله بن هاشمٍ إِحْنٌ ؛ فلما استعمل معاوية زياداً على العراق ، كتب إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة فشُدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعت به إلى » فحمله زياد من البصرة مُقَيِّدًا مَمْلُولا إلى دِمَشْقِ ، وقد كان زيادُ طَرَفَهُ بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمر بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صفين ^(١) :

إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلَا وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَمَا أَقْلَا ^(٢)

أَعورُ يَبِينِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الحَيَاةَ حَتَّى تَلَا ^(٣)

لَا بَدَّ أَنْ يَقُولَ أَوْ يُفَلِّأَ يَتَلَهُمْ بِذِي الكُمُوبِ تَلَا ^(٤)

لاخير عندي في كريمٍ ولى

(١) وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور فقثت عينه يوم اليرموك بالشأم) فقال : يا هاشم ، أعورا وجبنا ! لاخير في أعور لا يمشي بالأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إني شريت النفس . . . الخ وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم أتى الأحبة محمدا وحزبه .

(٢) شريت النفس : أى بيعتها في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أى ادعى ذنبا لم يفعله) ، وقاطله ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتل أى لما رماني عمار بالجبن . (٣) يبنى أهله محلا : أى يبنى محل أهله أى يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبنى لقاءهم والاجتماع بهم هناك .

(٤) يقل : يهزم ويفلب ، وتله صرعه ، أولقاء على عنقه وخده (وفى الأصل : أسلمهم بذى الكموب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبرى ، وابن الأثير يتلهم بالثناء ، وأهو صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانترعها) ، وذو الكموب : الرمح ، وكموب الرمح : النواثر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو متمثلاً :

وقد يَنْبُتُ الرَّحَى عَلَى دِمَنِ النَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ^(١)
 « دونك يا أمير المؤمنين الضبُّ الضبُّ »^(٢) ، فَاشْخُبْ أوداجَهُ^(٣) عَلَى أسْبَاجِهِ^(٤) ،
 وَلَا تَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَإِنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَى النِّفَاقِ ، وَهَمُّ أَهْلِ غَدَرٍ وَشِقَاقِ ، وَحِزْبِ
 إِبْلِيسَ لِيَوْمِ هِجَابِهِ ، وَإِنْ لَهُ هَوَى سَيُودِيهِ^(٥) ، وَرَأْيَا سَيُطْفِئِهِ^(٦) ، وَبِطَانَةَ سَتُقَوِيهِ ،
 « وَجَزَاهُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(١) الدمن : جمع دمنة ، وهى ما اسود من آثار الدار بالبحر والرماد وغيرها ، وهذا البيت
 لزفر بن الحارث السكلابي من قصيدة قالها ، وقد قتل ابناه يوم وقعة مرج راهط ، التي نشبت بعد
 موت معاوية الثاني بين مروان بن الحكم وبين من خالف على الأموية ودها إلى الزبيرية من الضحاك بن قيس
 الفهري وأتباعه ، ومهم زفر السكلابي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبري ،
 ومروج الذهب ، والعقد الفريد » . (٢) الضب : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بحر
 الشمس كما تتلون الحرباء ، وقد ضرب به المثل فقالوا : « أُخْدِعَ مِنْ ضَبِّ » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ،
 فيأتى الحارث (حرش الضب واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها
 فيأخذه ، ولكن الضب شديد الحذر فإنه يمد بلذنبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئاً آخر إن جاءه ،
 فيجىء المحترش ، فإن كان الضب مجرباً أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء ضربه وإلا بقى في
 جحره ، فهذا هو خدعه - يمتنون به شدة حذره - وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من عقرب ، لما بينها
 من الألفة والاستعانة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يديه لدغته وأنشدوا :

وأخْدِعَ مِنْ ضَبِّ إِذَا جَاءَ حَارِشٌ أَعْدَ لَهُ عِنْدَ الذَّنَابَةِ عَقْرِبَا

ويقولون : « فلان خب ضب » (والخب بالفتح وبكسر المخادع) فيشبهون الحقد الكامن في قلبه
 الذى يسرى ضرره ، بخدع الضب في جحره (ومن أمثاله فيه أيضا) « أعق من ضب » - يريدون الأثى ،
 وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضبية إذا باضت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من ورل وحية
 وغير ذلك ، فإذا نعت أولادها ، وخرجت من البيض . ظنَّها شيئاً يريد بيضها ، فوثبت عليها تقتلها ،
 فلا ينجو منها إلا الشريد - وقالوا : « أعقد من ذنب الضب » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين عقدة
 - « وأجبن من ضب » ، « وأبلد من ضب » ، « وأحيا من ضب » - أى أطول عمرا .

(٣) الأوداج جمع ودج بالتحريك : عرق في المتق ، وشخبت أوداج القتيل دما من بابى قتل ونفع :
 جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : در وسال ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى . (٤) الأسباج جمع
 سبجة « كفرصة » وسبجة القميص : لبنته - بنيقته . (٥) أى وإن له ميلا إلى آل على سبيلك .
 (٦) طفى : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر وأسرف في المعاصى والظلم .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أقتل فرجلاً أسلمته^(١) قومهُ ، وأدركه يومهُ ، أفلا كان هذا منك إذ تحميد عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ بِشَمَالِ النَّطَافِ^(٢) ، وعقائِقِ الرِّصَافِ^(٣) ، كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء^(٤) لا تَدْفَعُ يَدَ لَامِسٍ . »

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعتَ في لَهَادِمِ^(٥) شَدَقَمِ الأقران ذى لَبِيدٍ ، ولا أحسبك مُنْقَلَبَتَا من مخاليب أمير المؤمنين . »

فقال عبد الله : « أما والله يا ابن العاص ، إنك لبَطِرٌ في الرِّخَاءِ ، جبان عند اللِّقَاءِ ، غَشُومٌ^(٦) ، إذا وليتَ ، هَيَّابٌ إذا لَقِيتَ ، تَهْدِرُ^(٧) كما يهدِرُ العودُ المنكوسُ ، المقيدُ بين مجرَمِي الشولِ ، لا يُسْتَعَجَلُ في المدة ، ولا يُرْتَجَى في الشدة ، أفلا كان هذا منك ، إذ غَمَرَكَ أقوامٌ لم يُعَنَّفُوا صغاراً ، ولم يُمَزَّقُوا كباراً . لهم أيدٍ شِدَادٌ ، وألسنةٌ حِدَادٌ ،

(١) مخذله . (٢) النطاف جمع نطفة (كفرصة) وهى الماء الصافى ، قل أو أكثر ، وفى الحديث « قطعنا إليهم هذه النطفة » أى البحر وماده ، وفى حديث على : « وليلها عند النطاف والأعشاب » يعنى الإبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدها لترد وترعى . (٣) الرصفة بالتحريك الحجارة التى يرصف بعضها إلى بعض فى مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائِق : الغدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسمه عقيق ، والجمع أعقة وعقائِق ، وقيل العقائِق هى الرمال الحمر . (٤) مؤنث الأقود : وهو الذاول المنقاد . (٥) جمع لهزم كجمفر : وهو القاطع من الأسننة ، والشدقم : الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أى أسد مبتلع للأقران ، واللبد جمع لبة بالكسر ، ولبدقر الأسد : ماتلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبة » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران . (٦) ظلوم ، غشمه كضربه غشما ظلمه .

(٧) هدر البعير وهدر بالتشديد : صوت ؛ وفى المثل « كالمهدر فى العنة » والعنة بضم العين وتشديد النون : الحظيرة . يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس فى الحظيرة ممنوعاً من الضراب وهو يهدر ، والعود : المسن من الإبل ، والمنكوس : الذى عاوده المرض بعد النقه ، والشول جمع شائلة ، وهى من الإبل مأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفت لديها .

يَدْعُمُونَ الْعُوجَ^(١) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ^(٢) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَسْفُونَ الْغَلِيلَ ،
وَيُعْزُونَ الدَّلِيلَ ؟

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق^(٣) أحشاؤه ، وتبُّق^(٤) أمعاؤه
وتضطرب أصلاؤه^(٥) ، كأنما انطبق عليه ضمُّد^(٦) . »

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلوناك ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كذوياً غادراً ،
خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجنيد لا يسأمونك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام ،
لجَحَظَ^(٧) إليه عقلك ، ولتلجج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود^(٨) الذي
أثقله حمله . »

فقال معاوية : « إيهيأ^(٩) عنكما ، وأسر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني وكان من التوفيق قتلُ ابن هاشم
أليس أبوه (يامعاوية) الذي أعان علياً يوم حزِّ الغلاصم^(١٠)
فلم يئننني حتى جرت من دماننا بصفين أمثالُ البحور الخضارم^(١١)
وهذا ابنه ، والمرء يشبه سنخه ويوشك أن تقرغ به سن نادم^(١٢)

(١) العوج : بالفتح ، في كل ما كان منتصباً مثل الإنسان والعصا والعمود وشبهه ، والعوج :
بالكسر ، ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعمه
(كنمه) مال فأقامه . (٢) حرج صدره كفرح حرجاً : ضاق . (٣) تضطرب .

(٤) تخرج ، بق الثبت بقوفاً : طلع . (٥) جمع صلا بالفتح : وهو وسط الظهر من الإنسان ومن
كل ذي أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . (٦) ضمد جرحه : شده بالضاد والضامة (بالكسر)
أى العصابة ، والجمع ضمد ككتب . (٧) من جحظت العين جحوظاً : إذا برزت مقلتها ، والمراد
اضطرب عقلك وشرد ولم يسلس لك قياد التفكير . (٨) القعود من الإبل : الذي يقتعده الراعي في كل حاجة .
(٩) أمر بالسكوت . (١٠) الغلاصم : جمع غلصمة يفتح الغين والصاد ، وهي رأس الخلقوم
- الموضع الثاني في الخلق - أو أصل اللسان . (١١) الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر
العظيم . وإثبات النياء في يئننني مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصل محذوف للجازم .

(١٢) قرع فلان سنه : حرقه ندما (حرق نابه - كنصر وضرب - سحقه حتى سمع له صريف)

وسكن الفعل للضرورة ، والسنخ : الأصل من كل ثوب ، (وقى الأصل شيعه وهو تصحيف) .

فقال عبد الله بحبيبه :

مُعاوِيَ : إِنْ الْمَرْءَ عَمَرًا أَبَتْ لَهُ ضَمِينَةٌ صَدْرٍ غَشِيهَا غَيْرُ نَائِمٍ
 يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَابْنَ هِنْدٍ) وَإِنَّمَا يَرَى مَا يَرَى عَمْرُو مَلُوكِ الْأَعَاجِمِ
 عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمَسَالِمِ
 وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً عَلَيْكَ جِنَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمٍ (١)
 قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا، وَإِسِ الَّذِي مَضَى وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْغَاثِ حَالِمٍ (٢)
 فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنِ ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ مَحَارِمِي (٣)

فقال معاوية :

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيًّا قَرِيشَ وَسَيْلَةَ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْمَصِيبِ الْقُمَاطِرِ (٤)
 وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعَدَاةِ ابْنَ هَاشِمٍ بِإِدْرَاكِ ثَارِي فِي لُؤَيٍّ وَعَامِرٍ (٥)
 بَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاتِرِ
 فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَمْرَةَ عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرٍ (٦)

(١) نعر القوم كنعج : هاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونعر الرجل خائف ، وفي الأصل « نقرة » وهو

تصحييف . (٢) قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية ، إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن وهيب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب . (٤) يوم عصيب :

شديد ، ويوم قاطر وقطير : شديد أيضا . (٥) العداة جمع عاد : وهو العدو ، ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية

وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن لثني عليه الصلاة والسلام) وعامر : هو عامر بن لؤي .

(٦) النهابر : المهالك جمع نهبرة بضم النون والباء وكذا النهابر جمع نهيرة .

١٢٧ — عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يَخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمَرْوَةِ » ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ،
أما الجود : فابتذالُ المال ، والمطيةُ قبل السؤال : وأما النجدة : فالجراة على الإقدام ،
والصبر عند ازورار الأقدام ^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ،
والحماة عن الجار .
(مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار
على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٨ — مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، يَمَّ تَطْلُبُونَ مَا قَبِيلِي ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ قَلِيلًا مَعِيَ ، كَثِيرًا
مَعِ عَلِيٍّ ، وَلَقَدْ قَلَّتُمْ حَدِّي يَوْمَ صِفِّينَ ، حَتَّى رَأَيْتَ الْمُنَايَا تَنْظَلِي ^(٢) فِي أَسْنَتِكُمْ ،
وَهَجَوْتُمُونِي فِي أَسْلَافِي بِأَشَدِّ مِنْ وَقْعِ الْأَسِنَّةِ ، حَتَّى إِذَا أَقَامَ اللَّهُ مَنَا مَا حَاوَلْتُمْ مَنِيْلَهُ ،
قَلْتُمْ ازْعَ فَيُنَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ^(٣) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هِيَهَاتَ يَا أَبِي الْحَقِيرِ الْعَدْرَةَ » .

(١) أى عند انحرافها وترزلقها . (٢) تنظلي : أى تتهلب . (٣) وقد وصى عليه الصلاة
والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئتهم .

١٢٩ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما تمتُّ به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك . وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كُرهِه كان منا . وأما فلئنا حدك يوم صفين فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يا أبا الحخير العُدرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية . »

فقال معاوية يمؤه : « ارفعوا حواججكم »

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٣٠ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صفصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء الأندلسى كرى ورجالاً من أصحاب عليّ ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال : « نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقا ، أى الخلفاء رأيتموني ؟ فقال ابن الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى قتل الأخيار ، ولسكنا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة^(١) ، قريب الثرى بعيد المرعى^(٢) ، تجمل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات . » فقال معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر

(١) أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

(٢) قريب الثرى : قريب الحلول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى : كناية عن أنه بعيد

الأمل . والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمانى ، مع يقينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

بأهل الشام ، الذابئين عن بيضته ، التاركين لحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنهكين لحارم الله ، والمُحِلِّين ما حرَّم الله ، والمُحَرِّمِينَ ما أحلَّ الله . فقال عبد الله ابن الكواء : « يابن أبي سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جَبْرُوتَكَ ، فإن كنت تُطَلِّقُ ألسنتنا ذَبَبْنَا عن أهل العراق ، بألسنة حِداد ، لا يأخذها في الله لومة لأم وإلا فإننا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجِهِ » . قال : « والله لا يُطَلِّقُ لك لسان » .

ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبي سفيان فأبْلَغْتَ ، ولم تُقَصِّرْ عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أئى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ، ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا ؟ أما والله مالك في يوم بدر مَضْرَبٌ ولا مَرْمِي ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لَأَحْيِي وَلَا سِيرِي » ، ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ^(٣) ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أنت طليق ابن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى تصلح الخلافة لطليق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول :

(١) دانه : ملكه وأذله واستعبده . (٢) أى مالك ضرب ولا رمى . (٣) العير : الإبل تحمل الميرة ، والمراد بها هنا عبر قريش التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين انصرافها من الشام - فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بعيره (أى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان يبعث إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورجعت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل متصرفين إلى مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يابن زهرة لافى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبى وأظفره الله بهم ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه . (٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

قَابَلْتُ جَهْلَهُمْ حِلْمًا وَمَمْفِرَةً وَالْعَمُورُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرَبٌ مِنَ الْكُرْمِ .
لَقَتَلْتُمْكُمْ « (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣١ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له :

« يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبجبالها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والحل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة^(١) العرب ، وَمُنْتَهَى الشرف والسودد ، وهم أهل الخِطَط^(٢) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سرّوات^(٣) العرب كدورّان الرّحى على قُطْبِهَا » ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبَّةُ الْإِسْلَامِ ، وَذِرْوَةُ الْكَلَامِ ، وَمَصَانُ ذِي الْأَعْلَامِ - إِلَّا أَنْ يَهِيَ أَجْلًا فَا^(٤) تَمْنَعُ ذِي الْأَمْرِ الطَّاعَةَ ، وَتَخْرِجُهُمْ عَنِ الْجَمَاعَةِ - وَتَلِكُ أَخْلَاقُ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْقِنَاعَةِ » .
قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَضْمَفُهُمْ غِنَاهَا ، وَأَقْلَهُمْ غِنَاءً^(٥) فِيهَا ، غَيْرَ أَنْ لَهُمْ ثَبَاتًا فِي الدِّينِ ، وَتَمَسُّكَ بِمُرُوءَةِ الْيَقِينِ ، يَتَّبِعُونَ الْأَيْمَةَ الْأَبْرَارِ ، وَيَخْلَعُونَ الْفَسَقَةَ الْفُجَّارَ » فقال معاوية : مَنْ الْبَرَّةُ وَالْفَسَقَةُ ؟ فقال : « يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ ، تَرَكَ الْخِدَاعَ ، مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ ، عَلَى وَأَحْبَابِهِ مِنَ الْأَيْمَةِ الْأَبْرَارِ ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ أَوْلَائِكَ » ثم أحب معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه ، بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القُبَّةِ الْحَمْرَاءِ فِي دِيَارِ مُضَرَ^(٦) ، قال :

(١) هو على التشبيه بواسطة العقد : وهي الجوهرة الفاخرة التي تجعل وسطه . (٢) الخطط جمع خطة

بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك ، ومنه خطاط الكوفة والبصرة . وقد خطها لنفسه واختطها : وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها . (٣) السرو بالفتح : المروءة في شرف ، سرو فهو سري وجمعه أسرياء وسرواء وكفضلاء والمرأة بالفتح اسم جمع وجمعه سرورات .

(٤) جمع جلف بالكسر : وهو الرجل الجاني . (٥) غناه : كفاية . (٦) ذكروا أن نزار

ابن معد لما حضرته الوفاة جمع بنيته : مضر وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء =

« أُسْدٌ مُضَرٌ بُسْلَاءَ بَيْنِ غِيَالَيْنِ ^(١) ، إِذَا أُرْسَلَتْهَا أَفْتَرَسَتْ ، وَإِذَا تَرَكَتْهَا احْتَرَسَتْ » .
 فقال معاوية: « هنالك يابن صوحان ، العز الراسى ، فهل فى قومك مثله هذا ؟ قال :
 هذا لأهله دونك يابن أبى سفيان ، ومن أحب قومًا حُشِرَ معهم » قال : فأخبرنى عن ديار ربيعة ،
 ولا يَسْتَحْفِنُكَ الجُهْلُ ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك ^(٢) ، قال : « والله ما أنا عنهم براص ،
 ولكنى أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب فى الدين والميل ، لن تُغَلَبَ
 رايتهما إذا رُشِّحَتْ ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصروه فَلَجَّ ^(٣) ، ومن خذلوه
 زَرَجَ ^(٤) » . قال : فأخبرنى عن مضر ، قال : « كِنَانَةٌ ^(٥) العرب ، ومَعْدِنُ العز والحسب ،
 يقذف البحر بها آذِيَةً ^(٦) ، والبرِّ رَدِيَّةٌ » ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سَلْ
 يامعاوية ، وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل
 الشام » قال : « فأخبرنى عنهم » ، قال : « أطوع الناس لخلق ، وأعصاهم للخلق ، عُصاة
 الجبَّار ، وخليفة ^(٧) الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله

= - وكانت من آدم - لمضر - وهذا الفرس الأدهم والحياه الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شمطاء
 - لإياد ، وهذه البدره (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس
 لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فأتوا الأفعى الجرهمى ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا
 فى ميراثه ، فاختصموا إلى الأفعى الجرهمى ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى
 به أبوه فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء
 لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والحياه الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيل
 الدهم ، فقيل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم للشمطاء فهو لإياد ، فصار له المشاية لبلق من الحبلق والنقد
 (الحبلق : بفتح الحاء والباء وتشديد اللام : غم صغار لا تكبر ، أو قصار المعز ودماهما ، والنقد كسبب :
 جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل : فسمى أنمار الفضل
 فصدروا من عنده على ذلك . - مجمع الأمثال ١ : ١٠٠ . (١) بسلاء جمع باسل : وهو الأسد والشجاع
 والغيل بالسكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجمة . (٢) وكان صعصعة من بنى عبد القيس
 ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن زرار . (٣) فلج على خصمه : ظفر وفاز . (٤) زلق وزل .
 (٥) الكنانة فى الأصل : جعبة السهام . (٦) الآذى : الموج . (٧) الخليفة فى الأصل :
 ماعلق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .

يابن صوحان ، إنك لحامل مديتك منذ أزمان (١) « إلا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك .
فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٢ - صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مصقلة بن هبيرة الشيبانى قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن
عباس : ما السؤدد^(٢) فيكم ؟ فقال : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النوال ،
وكف المرء نفسه عن السؤال ، والتوؤد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك
شراً^(٣) . قال : فما المروءة ؟ قال : « أخوان اجتمعا ، فإن لقياً قهراً ، (وإن كان)^(٤)
حارسهما قليل ، وصاحبهما جليل ، محتاجان^(٥) إلى صيانة ، مع نزاهة وديانة » . قال : فهل
تحفظ فى ذلك شراً ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مرة بن ذهل بن شيبان حيث يقول :
إن السيادة والمروءة علماً حيث السماء من السماء الأعزل^(٦)
وإذا تقابل مجربان لغاية عتر المهجين وأسلمته الأرجل^(٧)
ويجى الصريح مع العتاق موعوداً قرب الجياد فلم يجبه الأفكل^(٨)

- (١) كناية عن مجاهرته بالعداوة . (٢) السؤدد بفتح الدال غير مهموز ، والسؤدد بضم الدال
مهموزا والسيادة والسؤدد . (٣) شراً بسكون الراء وفتحها أى سواء . (٤) أى أنهما قوتان
عظيمتان لصاحبهما ، تقهران مايلقاه من الشدائد والصعاب . وقوله « وإن كان » أى وإن كان مالقيهما عظيماً
ولعله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . (٥) فى الأصل « لحاجان » وهو تحريف .
(٦) السما كان الأعزل والرامح : نجمان نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شئ بين يديه من السكواكب
كالأعزل الذى لاسلح معه كما كان مع الرامح . (٧) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً كريماً ، وأسلمته : خذلته .
(٨) لم يجبه الأفكل : أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيباً من عيوب القافية وهو الإقواء ،
لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبياني ، وحسان
ابن ثابت ، وبشر بن أبى خازم . . . » .

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباطاً^(١) إبلة ، مُنَرِّقاً وَمُغَرِّباً
لَفَأْنَدَةَ هذه الأبيات ما عَنَّفْتُهُ ، إنا منك يا ابن صُوحان لَمَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ واستنباطٍ ما قد عَفَا^(٢)
من أخبار العرب ، فن الحلِيمُ فيكم ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَسُحِيَ إِلَيْهِ بِحَقِّ
أَوْ بَاطِلٍ فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَا بِن
عباس . » قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا قليلاً ، وإنما وصفت لك أقواماً
لا تجدم إلا خاشعين راهبين ، لِلَّهِ مَرِيدِينَ ، يُبْذِلُونَ وَلَا يَنْالُونَ ، فَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّهُمْ
سَبَقَ جَهْلُهُمْ حِلْمَهُمْ ، وَلَا يَبَالِي أَحَدُهُمْ (إِذَا ظَفَرَ بِبُعَيْتِهِ) حِينَ الْحَفِيظَةِ^(٣) مَنْ كَانَ ،
بعد أن يُدْرِكُ زَعْمَهُ ، وَيَقْضِي بُعَيْتَهُ ، وَلَوْ وَتَرَهُ أَبَوْهُ لَقَتِلَ أَبَاهُ ، أَوْ أَخُوهُ لَقَتِلَ أَخَاهُ ،
أما سمعت إلى قول رِيَّانُ بنِ عَمْرِو بنِ رِيَّانٍ ، وذلك أن عمرأ أباه قتله مالكُ بنِ كُومَةَ ،
فَأَقَامَ رِيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ غَزَا مَالِيسًا ، فَأَتَاهُ فِي مَائِثِي فَارِسٍ صَبَاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ،
فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، - وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ - وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاوَرَمَ ،
فَقَتِلَ لِرِيَّانِ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتِ صَاحِبِنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُمَّي تَقَفْتُ بِحَيْثُ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَاقٌ صَبِيبٌ^(٤)
وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةٌ أُخْتُ عَمْرٍو بِهَذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيبٌ
شَهَرَتْ السَّيْفَ فِي الْأَذْنَيْنِ مِثِّي وَلَمْ تَعْطِفِ أَوْاصِرَنَا قُلُوبٌ^(٥)

فقال ابن عباس : فن الفارسُ فيكم ؟ حَدُّ لِي حَدًّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ
مَوَاضِعَهَا يَا بِن صُوحان ، قال : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعَمَ^(٦) عَلَى أَمَلِهِ
بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أُمِّسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ^(٧) الْحَرْبُ ،

(١) آباط جمع إبط كحمل وإبل : باطن المنكب . (٢) درس واحي . (٣) الحمية والغضب .

(٤) ثقفه كسمعه : صادفه ، والعلق : الدم ، أو الشديد الحمرة ، وصبيب : أى مصبوب .

(٥) أواصر جمع أصرة : وهى القرابة ، وحيل صغير يشد به أسفل الحياء . (٦) ضغمه كنع : عضه .

(٧) وقدت النار (كوقد) توقدت .

واشدت بالأفـس الكروب ، وتداءعوا للترال ، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهج^(١) ،
واقتمحوا بالسيوف اللجج ، قال : أحسنت والله يابن صوحان ، إنك أسليل أقوام
كرام ، خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كلاله^(٢) ، زدني ، قال : « نعم ، الفارس
كثير الحدّر ، مُدير النظر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدير خرزاتِ صلبه^(٣) » . قال : أحسنت
والله يابن صوحان الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، زهير بن
جناب الكأبي^(٤) يرثي ابنه عمراً حيث يقول :

فَارِسٌ تُكَلِّأُ الصَّحَابَةَ مِنْهُ بِحُسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الْحَرِيقِ^(٥)
لَا تَرَاهُ لَدَى الْوَعَى فِي مَجَالٍ يُمْفِلُ الصَّرْبَ لَا ، وَلَا فِي مَضِيقِ
مَنْ يَرَاهُ يَحْتَلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضْلَ الطَّرِيقِ^(٦)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يابن صوحان ؟ صفهما لأعرف
وزنك ، قال : أما زيد فكما قال أخو غني^(٧) :

(١) المهج جمع مهجة : وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاصها واستلابها .

(٢) تقول العرب : لم يرته كلاله أى لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورثم فناة الملك غير كلاله عن ابى مناف عبد شمس وهاشم

والكلاله : ما لم يكن من النسب لحاً ، وبنو العم الأبعاد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالى كثير ويرثه

كلاله متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالد للبيت ولا ولد له فهو كلاله موروثه . (٣) أى فقرات

ظهره . (٤) شاعر جاهلي ، وهو أحد المعمرين . (٥) كلاله : حفظه وحرصه .

(٦) الأخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأفياء تنسى »

ومثل : « كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانياً » . . . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن إثبات حرف العلة مع

الجازم لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصل محذوف للجازم . وعندى أنه ربما

كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت . (٧) هو كعب بن سعد الغنوي

(شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثي بها أخاه أبى المغوار وأوطا :

نقول سليمانى ما لجسلك شاحبا كأنك يحملك الطعام طيب

(انظرها في الأمالي ٢ : ١٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩) .

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بُوْجِهَهُ (إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبٌ^(١)
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرَّجَالُ حَفَظُوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريب^(٢)
 حَلِيفُ النَّدَى ، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ^(٣)
 يَبْبِئْتُ النَّدَى (يَا أُمَّ عَمْرٍو) ضَجِيْعَهُ إِذَا لم يكن في المنقيآت حَلُوبٌ^(٤)
 كَانَ بِيُوتَ الْحَىِّ (مالم يكن بها) بَسَائِسُ مَا يُبْلَغُ بِهِنَّ غَرِيبٌ^(٥)

في أبيات ، كان والله يابن عباس ، عظيم المروءة^(٦) ، شريف الأخوة ، جليل
 الخطر ، بعيد الأثر ، كعيش^(٧) العروءة ، أليف الندوة^(٨) ، ساهم جوانح الصدر ، قليل
 وسواس الدهر ، ذا كبراً لله طرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا^(٩) مِنَ اللَّيْلِ ، الجوعُ وَالشَّبْعُ عنده
 سَيَّانٍ ، لا يَبْنَأْسُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَقْلُ أَصْحَابِهِ مَنْ يَبْنَأْسُ فِيهَا ، يُطِيلُ السَّكُوتَ ، وَيَحْفَظُ السَّكْلَامَ ،
 وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِعَقَامٍ^(١٠) يَهْرُبُ مِنْهُ الدُّعَارُ^(١١) الأشرار ، وَيَأْلَفُهُ الْأَحْرَارُ الْأَخْيَارُ .
 قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيدا ، فأين كان عبد الله
 منه ؟ » ، قال : كان عبد الله سيداً شجاعاً ، يُؤَلَّفًا^(١٢) مُطَاعًا ، خَيْرُهُ وَسَاعٌ^(١٣) ، وشرة

- (١) خللات جمع خلة بالفتح : وهي الخصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وعنى شحوبا: تغير من
 هزال أو جوع أو سفر . (٢) العوراء : الكلمة القبيحة . (٣) الندى : الجود .
 (٤) المنقيآت : ذوات النقي (بالكسر) وهو الشحم ، نانة منقية أى سميحة .
 (٥) بسائس جمع بسيس كجمفر : وهو الفقير الخالي (وفي الأصل بسائس وهو تصحيف) .
 (٦) مسهل عن المروءة . (٧) يقال رجل كعيش الإزار : أى مشمر جاد ، ورجل كعيش : عزوم
 ماض سريع في أموره . (٨) الندوة والنادى والمنتدى والندى : مجلس القوم ومتحدثهم ، وفي الأصل
 « البدرة » وأراه مصحفاً ، أو هو فملة من البدو وهو الظهور ، أى ذو مظاهر حسن يؤلف ولا يبيع .
 (٩) جمع زلفة بالضم : وهي الطائفة من الليل . (١٠) داء عقام : لا يبرأ ، أى نطق بقوارص من
 السكلم جارحة مؤلمة لادواء لها . (١١) جمع داعر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرهما : وهي الخبث
 والفسق . (١٢) ألفتة وآلفتة : أنست به فهو مألوف ومؤلف . (١٣) على التشبيه بالفرس
 الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ، والأشبه العظيم يدفع به ثلثه
 وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه .

حُفَّاع ، قَلْبِي النَّحِيْزَةَ ^(١) ، أَحُوْدِي ^(٢) الغريزة ، لَايُنْهَمِي ^(٣) مِنْهِنَّ عَمَّا أَرَادَهُ ،
 وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا عَمَادَهُ ^(٤) ، سِمَامٌ عِدَا ^(٥) ، وَبَاذِلٌ قَرِي ^(٦) ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ ،
 جَزَلُ الرَّفَادَةِ ^(٧) ، أَخُو إِخْوَانٍ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبَرْجِيُّ عَامِرُ بْنُ سَنَانَ :
 سِمَامٌ عِدَا ، بِالنَّبِيلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسَّيْفِ وَالرَّمْحِ الرَّدِّيُّ يَشْعَبُ ^(٨)
 مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مَعُوْدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ
 فِي أَبِياتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرٌ ^(٩) « علم العرب » .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣٣ — صعصعة بن صوحان ورجل من بني فزارة

وروقف رجل من بني فزارة على صعصعة ، فأسمه ، كلامًا (منه) :

« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ قَهْمِيْبُوكَ ، أَمَا لَيْتُنْ شِئْتُ لِأَكُوْنَنَّ لَكَ
 إِصَاقًا ^(١٠) ، فَلَا تَنْطِقُ إِلَّا جَدَدْتُ ^(١١) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(١٢) مِنْ ظُبَّةِ السَّيْفِ ، بَعْضُ قَوِيٍّ ،
 وَلِسَانٌ عَلِيٌّ ، ثُمَّ لَا يَكُوْنُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فقال صعصعة : « لَوْ أَجِدُ

- (١) القلب : محض كل شيء ، والنحيزة : الطبيعة ، أى خالص الطبيعة صانها . (٢) الأحوذى :
 الخفيف الحاذق ، والمشرر للأموار القاهر لها لايشذ عليه شيء . (٣) نههم : كفه وزجره .
 (٤) العتاد : العدة . (٥) سمام جمع سم مثلث السنين ، والعدا بالسكمر والضم امم جمع عدو أى
 هولاءعداء سم قاتل . (٦) قرى الضيف (كرى) قرى : أضافه ، والقرى أيضا : ماقرى به الضيف .
 (٧) رفته (كضربه) أعطاه ووصله ، والرفادة فى الأصل خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من
 أموالها فيصنع به طعام للحاج ، والمراد بها هنا العطية . (٨) الردى نسبة إلى رديئة امرأة سمير ،
 وكانا يقومان الرماح بخط هجر ، ويشعب : أى يمزق ويصدع . (٩) أصل البقر : أنفتح والشق
 والتوسعة ، وكان يقال لمحمد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم محمد الباقر ؛ لأنه بقى العلم وعرف
 أصله واستنبط فرعه . (١٠) الإصاق : مايلصق به . والمعنى لأكونن لك ملاصقا ملازما .
 (١١) جد الشيء من باب رد : قطعه . (١٢) أذرب : أحد ، من ذرب كفرح صار حديثا ماضيا ،
 والظبة : حد السيف .

غَرَضًا^(١) منك لرميت ، بل أرى شَبَعًا ، ولا إخال مِثَالًا إِلَّا كَسْرَابٍ^(٢) بَقِيْعَةٍ ،
يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، أَمَا لَوْ كُنْتَ كَفْئًا لَرَمَيْتُ
حَصَائِكَ^(٣) بأذرب من ذَلِقٍ^(٤) السنانِ ، ولرَشَقْتُكَ بنبالٍ ، تردُّعُكَ عن النَّضَالِ ،
وَنَخَطَمْتُكَ بِخَطَامٍ^(٥) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّمَامِ^(٦) . فاتصل الكلام بابن عباس ،
فاستضحك^(٧) من الفزاري ، وقال : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ أَخُو فَرَاةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ
جَبَلِ شَمَامٍ^(٨) إِلَى الْمَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، نَخَابَ
أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ وَقُوَاهُ الْمَرِيْرَةَ^(٩) ! ثُمَّ تَمَثَّلُ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمَّمٍ . إِنْ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقِيْنَ مَصْبُوبٌ^(١٠)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٤ - رجل من آل صوحان يجنبه^(١١) عبد الملك بن مروان

وهو يخطب

وخطب عبد الملك بن مروان ، فلما بلغ الغليظة^(١٢) ، قام إليه رجل من آل صوحان ،
فقال : « مهلا مهلا يا بني مروان ، تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتعظون

(١) الغرض : الهدف . (٢) السراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع قاع : وهو أرض
سهلة مطمئة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع .

(٣) الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا والامم الحصيلة ، قال لبيد :

وكل امرئ يومًا سيعلم غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : لرميت ماحصلته من العلم والمعرفة . (٤) ذلق السنان واللسان كفرح : ذرب فهو ذلق
وأذلق ، وذلق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . (٥) الخطام : كل ماوضع في أنف البعير ليقماد

به ، وخطمه بالخطام جعله على أنفه ، أو جرت أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه حتى لا ينبس .

(٦) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة (ككتابة) والزمام : مايزم به . (٧) استضحك

الرجل وتضاحك بمعنى . (٨) جبل بالعالية . (٩) أى القوية ، يقال رجل مرير أى قوى

ذومرة « المرة بالكسر القوة » . (١٠) الأمام : القرب . (١١) جهه كقطعه : لقيه بما يكره .

(١٢) وربما كان صوابها « العظة » أى مقام العظة والنصح بدليل قوله « وتعظون ولا تنهون » .

ولا تمنعظون . أفنتدى بسيرتكم في أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فإن قلم اقتدوا بسيرتنا ، فأتى وكيف ؟ وما الحجّة ؟ وما المصير من الله ؟ أنتدى بسيرة الظلمة الفسقة ، الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا^(١) ، وعبيده خولا^(٢) ؟ وإن قلم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح غيره من يفسد نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها . فعلام ولينا كم أمرنا ، وحكمنا كم في دماننا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالمعظات ؟ فتخلوا عنها^(٣) ، وأطلقوا عقلمها ، وخلوا سبيلها ، ينتدب^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شرّدتموهم في البلاد ، ومزقتموهم في كل واد ، بل تثبت في أيديكم لانهضاء المدة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة ، إن لكل قائم قدرا لا يمدوه ، ويوما لا يخطوه ، وكتاباً بعده يتلوه : (لا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ثم التمس الرجل فلم يوجد (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٥ — وصف عقيل بن أبي طالب

لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب : « مَيِّزْ لِي أَصْحَابَ عَلِيٍّ وَابْدَأْ بِأَكْ صُوحَانَ ، فَإِنَّهُمْ تَخَارِيقُ الْكَلَامِ »^(٥) . قال :

(١) جمع دولة بالضم : أى جملة متداول بينهم . (٢) الخول : ما أعطاك الله تعالى من النعم (محرّكة) والبيد والإماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى ، ويقال للواحد خائل . (٣) أى من الخلافة . (٤) انتدب إليه : أسرع . (٥) تخاريق جمع مخراق بالكسر : وهو السيف ، والسيد والمتصرف فى الأمور الذى لا يقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى مخراقاً لأن الكلاب تطلبه فيقتل منها ، وفلان مخراق حربى أى صاحب حروب يخف فيها) .

« أَمَا صَمَّصَعَةُ فِعْظِيمُ الشَّانِ ، عَضْبُ اللِّسَانِ ^(١) ، قَائِدُ فُورْسَانَ ، قَاتِلُ أَقْرَانَ ،
يَرْتُقُ ^(٢) مَا فَتَقُ ، وَيَفْتُقُ مَا رَتِقُ ، قَلِيلُ النَّظِيرِ . وَأَمَّا زَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فَإِنِهُمَا نَهْرَانِ جَارِيَانِ
يَصْبُ فِيهِمَا الْخَلْجَانِ ^(٣) ، وَيُعَاثُ بِهِمَا الْبُلْدَانَ ، رَجُلًا جِدًّا لَأَمِيبَ مَعَهُ ، وَأَمَّا بِنُفُوصُوحَانَ
فَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا نَزَلَ الْعَسَدُ فَإِنِ عِنْدِي أُسُودًا تَخْلِسُ الْأَسَدَ الْنَفُوسَا ^(٤)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٦ - وصية محمد الباقر ^(٥) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ، على
عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقال : يا أبا جعفر أوصني ، قال :
« أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدًا ، وأوسطهم أخًا ، وكبيرهم أبا ، فارحم
ولدك ، وصِلْ أخاك ، وَبَرِّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا فَرَبِّهِ ^(٦) » .

(الأمال ٢ : ٣١٢)

(١) العضب : القاطع . (٢) للرتق : ضد الفتق . (٣) الخليج : نهر فشق من النهر الأعظم .

(٤) خلس الشيء كضرب خلسا : استلبه . (٥) توفي سنة ١١٣ هـ . (٦) أي أدمه ، يقال

رب بالمسكان وأرب : أقام به ودام .

خطب الزبير بين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوماً على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان وعند معاوية جماعة من قریش ، فيهم ابن الزبير ، فرحّب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره وقال : ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فإنه ليذكره الحسد لبني عبد مناف^(٢) فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير علىّ أبليك أبي سفيان فعلتُ ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

(١) تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٦٥ - ٧٠ - ٧٦ - ٨٢ - ٦٦ - ٨٣ . (٢) عبد مناف جد يجمع بني هاشم وبني أمية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير ، فن بن أسد أبوه الزبير بن العوام بن خلود بن أسد بن عبد العزى ابن قصي .

١٣٧ - مقال ذكوان

« يابن الزبير : إن مولاى ما يمنعهُ من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان ، رابط الجنان ، فإن نطقَ نطقَ بعلم ، وإن صمّت صمّت بحلم ، غير أنه كيف الكلام ، وسبق إلى السّنام ، فأقرت بفضله الكرام ، وأنا الذى أقول :

فيم الكلام لسابقى فى غايةٍ والناس بين مقصّر ومبذل^(١)
إن الذى يجرى ليذكر شأوه يُنمى لغير مسود ومسدد^(٢)
هل كيف يُذكر نور بذر ساطع خير الأنام وفرع آل محمد

فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله فى موالى الكرام مثلك ، فقال ابن الزبير : إن أبا عبد الله^(٣) سكت وتكلم مولاة ، ولو تكلم لأجبناه ، أو الكففنا عن جوابه إجلالا له . ولا جواب لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » ، فأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولأء ، وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني است أجيّب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٨ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يابن الزبير ! ما أعياك^(٤) وأبغاك ! أتفخرُ بين يدي أمير المؤمنين وأبى عبد الله ! إنك أنت المتعدى لطورك ، الذى لاتعرف قدرك ، فقس شريك بفترك^(٥)»

(١) بلد تبليدا : لم يتجه اشيء ، والفرس : لم يسبق ، والسحابة لم تمطر .

(٢) الشأو : الغاية ، وينمى : ينسب . (٣) كنية الحسين . (٤) ما أعجزك .

(٥) الفتر : ما بين الإبهام وطرف العصابة .

ثم تعرّف كيف تقع بين عرّانين^(١) بنى عبد مناف ، أما والله إنّ دقّت في بحور
بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لتقطعنك بأواجها ، ثم لتوهين^(٢) بك في أجاجها ، فابقاؤك
في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهرتك^(٣) ؟ هنالك تعرّف نفسك ، وتقدم على
ما كان من جرأتك ، وتسمى^(٤) ما أصبحت إليه من أمان ، وقد حيل بين العير
والنزوان^(٥) . فأطرق ابن الزبير ملياً ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٩ - مقال ابن الزبير

« أسألکم بالله : أتملمون أن أبي حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه
أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ،

(١) جمع عرنين بكسر العين : وهو السيد الشريف (وفي الأصل : الأنف أو ماصلب من عظمه) .
(٢) أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . (٣) بهره بهرا (بالفتح) : غلبه .
(٤) مساه تمسية : قال له كيف أمسيت أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ماكنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بحذف إحدى التاءين أى وتتمنى ، أو الأصل « ويتمنى » من
تمنى : إذا تقطع أى يمضى ويندثر ما كنت فيه من أمان . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ،
والنزوان : الوثوب . وهو مثل يضرب للقوى تخور قواه ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الخنساء ،
وذلك أنه غزا بنى أسد ، فاكتسح إبلهم ، فجاءهم الصريخ فركبوا ، فالتقوا ، فطن أبو ثور الأسد صخرًا
طعنة في جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بملك ؟
فقال : لاحت فيرجو ، ولا ميت فينقى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى : فرض زمانا حتى ملته
امرأته ، وكان يكرمها فر بها رجل وهى قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : بيناع الكنل ؟ فقالت : نعم عما
قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله إنّ قدرت لأقدمتك قبلى ، ثم قال لها : ناويلنى السيف
أنظر إليه ، هل تقله يدي ؟ فتأولته ، فإذا هو لا يقله ، فقال :

أرى أم صخر لا تملى عيادتي	وملت سليمانى مضجعى ومكافى
فأى امرئ ساوى بأم حليمة	فلا عاش إلا فى شقا وهوان
أهم بأمر الخزم لو أستطيعه	وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال به البلاء ، وقد تنأت قطعة من جنبه فى موضع الطعنة ، قيل له لو قطعها لرجونا أن تبرأ ، فقال
شأنكم ، وأشفق عليه قوم فهو فأنى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فات .

وأمة هند آكلة الأكباد؟ وجدّي الصديق، وجده المشدوخ^(١) بيدر، ورأس الكفر
وعتي خديجة ذات الخطر^(٢) والحسب، وعمته أم جميل حاملة الخطب؟ وجدّتي صفية^(٣)
وجدته حمامة^(٤)؟ وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم، وزوج عمته
شر ولد آدم أبو لهب، سيصلي نارًا ذات لب؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته
أشقى الأشقين؟ وأنا عبد الله، وهو معاوية .

(١) هو جد معاوية لأمه عتبة بن ربيعة قتل على يوم بدر، والمشدوخ: المسكور: أى المقتول.
(٢) القدر، أو المنزلة وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمه أبيه، وزوج الرسول عليه
الصلاة والسلام. (٣) هى صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعمه الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٤) روى ابن أبي الحديد (م ١: ص ١٥٧) قال:

« لما ارتحل عقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية، فكان في مجلسه يوما وجلساء معاوية
حوله، فقال: يا أبا يزيد: أخبرني عن عسكري وعسكر أخيك، فقد وردت عليهما، قال: «أخبرك:
مررت والله بعسكر أخى، فإذا ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه
وآله، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم، مارأيت إلامصليا، ولا سمعت إلا قارئا،
ومررت بعسكرك فاستقبلني قوم من المنافقين من نفر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة» ثم قال:
من هذا عن يمينك يامعاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص، قال: هذا الذى اختصم فيه ستة نفر، فغلب
عليه جزار قريش، فن الآخر؟ قال الضمك بن قيس الفهري: قال: أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ
لعبس التيوس «وكان يبيع عشب الفحول في الجاهلية، والمعب كعذب: الكراء الذى يؤخذ على ضرب
الفحل، أو ضرابه، أو ماؤه، وعشب الرجل كضرب: أعطاه الكراء على الضراب، وفي الحديث: «هى
النبي صلى الله عليه وسلم عن عشب الفحل فإن إعارة الفحل مندوب إليها» فن هذا الآخر؟ قال أبو موسى
الأشعري، قال: هذا ابن السراقة، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه، علم أنه إن استخبره عن نفسه
قال فيه سوء، فأحب أن يسأله ليقول فيه مايلمه من سوء، فيذهب بذلك غضب جلسائه، قال: يا أبا يزيد
فما تقول في؟ قال: دعنى من هذا، قال لتقولن، قال أتعرف حمامة؟ قال: ومن حمامة يا أبا يزيد؟ قال:
قد أخبرتك، ثم قام فضى، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه، فقال: من حمامة؟ قال: ولى الأمان؟
قال نعم، قال حمامة جدتك أم أبي صفيان كانت بغيا في الجاهلية صاحبة راية، فقال معاوية لجلسائه: قد
ساويتكم وزدت عليكم. فلا تفضبوا .

١٤٠ - مقال معاوية

فقال له معاوية :

« وَيْحَكَ يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قَدْ نَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لِفَدْلِكَ إِتْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هُوَ لَأَمْهُرُ الْخُضُورِ كَيْفَ لَمْ يَكُنْ أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ الْفِجَارِ^(١) عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بَنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ وَأَسْرَتَكَ تَحْتَ رَايَتِهِ ، رَاضُونَ بِإِمَارَتِهِ ، غَيْرُ مُفَكِّرِينَ لِفَضْلِهِ ، وَلَا طَامِعِينَ فِي عِزِّهِ ، إِنْ أَمَرَ أَطَاعُوا ، وَإِنْ قَالَ أَنْصَتُوا فَأَنْزَلَ فِينَا الْقِيَادَةَ ، وَعِزَّ الْوَلَايَةِ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) حرب الفجار : هي حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس عيلان) وسبها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة (واللطيمة كصحيفة : العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويشترى له بضمن ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشرف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم للبراض بن قيس - وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد - وعروة الرحال بن عتبة - وهو من بني هوازن والرحال كشداد أيضا - فقال ، من يجيرها ؟ قال البراض : أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجيرها لك على أهل الشيع والقيصوم من أهل نجد وتهامة ، فقال البراض : أعلى بني كنانة يجيرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والدة أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد وأبو الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والفجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب فجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرنا إذ قاتلنا فيها أي فسقتنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام وإنما سبها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، هذا هو الفجار الرابع وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أنجرة أخرى - انظر للسيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٢٦٠ .

فانتخبه من خير خلقه ، من أمرتني لا أمرتك ، وبنى أبى لابنى أيبك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشاً وقادم إلا أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفئتان تلتقيان ، ورئيس الهدى منا ، ورئيس الضلالة منا ، فهديتكم تحت راية مهدينا ، وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلاص الله أبا سفيان بن حرب بفضلته من عظيم شره ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيماً شأنه ، وفي الإسلام معروفاً مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح مالم يُعطَ أحد من آبائك ، وإن مُنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لا دارك ولا دار أيبك ؛ وأما هند فكانت امرأة من قريش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخير ، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سُمي صديقاً ، لا بتصديق عبد العزى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ بيدى ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو كرت إليه أنت وأبوك ما بارزوك ، ولا رأوكم لهم أكفاء ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أكفأهم من بنى أيبهم ، ففضى الله منايهم بأيديهم ، فنحن قتلنا ، ونحن قتلنا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبينا شرفنا ، وسميت أم المؤمنين ، وخالقت عائشة مثل ذلك ، وأما صغية فهى أدنتك من الظل ، ولولا هى لكنت ضاحياً^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أيبك^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، وغرهم وإرهم لى دونك ، ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم .

(١) ضحا كسعى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز والمنعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة

العوام لبني هاشم ، وزواجه بصغية بنت عبد المطلب . (٢) ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن

ابن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أيبه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد .

وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أينما أجود في الإِزْم^(١) ، وأحزم في القدم ، وأمنع للحُرْم ، لا والله ما أراك منهيًا حتى تروم من بني عبد مناف مارام أبوك ، فقد طألمهم الذحول^(٢) ، وقدم إليهم الخيول ، وخدمهم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساءكم السجوف^(٣) ، وأبرزتم زوجته للحتوف ، ومقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربًا ، فلم ينجح ذلك أن طحنه أبو الحسين بكنكله طحن الحصيد^(٤) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأقلت بعد أن حشيتك^(٥) برائيتنه ، ونالتك مخالبيه ، وإيم الله ليقومنك بنو عبد مناف يثقافها^(٦) أو لتصبحن منها صباح أيبك بوادي السباع^(٧) ، وما كان أبوك المدهن حده^(٨) ، ولكنه كما قال الشاعر :

تتارل سرحان فريسة ضيفم فقضضه بالكف منه وخطما^(٩)

(المقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٤١ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لا تدعن مروان يرمى جاهير قريش بمشاقصه^(١٠) ، ويضرب حفاتهم بمؤله ، أما والله لولا مكانك ، لكان أخف على رقابنا من فراشة ، وأقل »

(١) الأزيمة (بالفتح ويحرك) للشدة ، وجمعها إزم (كشمس وعنب) . (٢) جمع ذحل (بالفتح) وهو الثار ، والعداوة ، والحقد : أي كاشفهم بذلك . (٣) جمع سجع (بالفتح ويكسر) الستر . (٤) الحصيد : الزرع المحسود . (٥) خشه : خدشه . (٦) الثقاف : ماتسوى به الرماح . (٧) مقتل أبيه الزبير . (٨) حده : بأسه ، والمدهن : المغشوش ، من أدهن أي غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب بسالته شائبة خور ولكنه . . . الخ « وفي الأصل « المدهن حده » بالخاء وأراء مصحفاً . (٩) السرحان : الذئب ، والضيفم : الأسد ، وقضضه فتقضض : كسره ودقه ، والنقضضة : صوت كسر العظام . وفي الأصل ففضضه بالفاء ، وهو تصحيف . (١٠) المشاقص : جمع مشقص كنبر ، وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرى به الوحش .

في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(١) ، وإيْمُ اللهِ لئن مَلَكَ أَعِنَّةَ خَيْلٍ تَنْقَادُ لَهُ ، لَتَرَكَبَنَّ مِنْهُ طَبَقًا^(٢) تخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طَمِعَ فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بِمُنْتَهَيْنَ حتى يبعث الله عليكم من لا يعطِفُ عليكم بقراءة ، ولا يذْكَرُكم عند مُلَمَّةٍ ، يَسُومُكم خَسْفًا^(٣) ، ويسوقكم عَسْفًا^(٤) . »
فقال ابن الزبير : « إذن والله يُطَلِّقُ عِقَالَ الحرب بكتائبِ تَمُورٍ^(٥) كرجل الجراد ، حافأتها الأَسْلُ ، لها دوى كدوى الریح ، تتبع غِطْرِيَقًا^(٦) من قریش ، لم تكن أمه رَاعِيَةً ثَلَّةً^(٧) . » فقال معاوية : « أنا ابن هند ، أطلقت عِقَالَ الحرب ، فأكلتُ ذِرْوَةَ السَّنام ، وَثَمْرِيَتُ عُنْفُوانِ المَكْرَعِ^(٨) ، وليس للأكل بعدى إلا النِفلَةَ^(٩) ، ولا للشارب إلا الرِّتْقُ^(١٠) . » فسكت ابن الزبير .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ص ٤٩٣ ، والمعقد الفريد ٢ : ١١٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٤)

١٤٢ - عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قَدِمَ عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فَرَحَّبَ به وأدناه ، حتى أجلسه على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خَبِيْبٍ^(١١) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سَلْ غير ما سألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فيهم ، وتحفظ وصية نبي الله فيهم ، تقبل

(١) الخشاشة : واحدة الخشاش بتثنية الخاء ، وهي حشرات الأرض والمصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . (٢) الطبق : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرَكَبَنَّ مِنْهُ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

(٣) أي يوليكم ذلاً . (٤) العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

(٥) تمور : تضطرب . (٦) الفطريف : السيد الشريف . (٧) الثلة : جماعة الغنم

أو الكشيخة منها . (٨) عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمسكرع : المورد ، مفعول من كرع

في الماء أو في الإناء . (٩) الفللة : اللقطة من اللحم . (١٠) ماء رنق كمدل وكتف وجبل : كدره

(١١) هي كنية ابن الزبير كنى بإبنته خبيب ، وكان أسن ولده ، ويكنى أيضاً أبا بكر .

من مُحْسِنِهِمْ ، وتجاوز عن مُسِيئَتِهِمْ « فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن
النمجة الذئبَ وقد أكل أليتها (١) » . فقال ابن الزبير : « مهلا يا معاوية ، فإن الشاة
لَتَدِيرُ (٢) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل الأريب ليصارع ولده الذي خرج من
صُلبه ، وما تدور الرِّحاء إلا بقطبها (٣) ، ولا تصُحُّ القوسُ إلا بمَجَبِها (٤) » فقال : « يا أبا
خُبَيْبٍ ، لقد أجززت الطرُوقَةَ قبل هِبابِ الفحل (٥) ، هيهات ! وهى لا تصطك لحياها
اصطكاك القُروم السَّوامى (٦) » . فقال ابن الزبير : « العطنُ بعد العَلِّ ، والعلُّ بعد
النَّهْلِ (٧) ولا بد للرحاء من الثفال (٨) ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العشاء أخذت قرش
بجالسها ، وخرج معاوية على بنى أمية ، فوجد عمرو بن العاص فيهم ، فقال : ويحك
يا بنى أمية ! أفبيكم من يكفينى ابن الزبير ؟ فقال عمرو : أنا أ كفيك يا أمير المؤمنين قال :
ما أظنك تفعل ، قال : « بلى ، والله لأزبدن (٩) وجهه ، ولأخرسن لسانه ، ولأردنه
ألين من خميلة (١٠) » . فقال : دونك فاعرض له إذا دخل ، فدخل ابن الزبير - وكان قد
بلغه كلام معاوية وعمرو - فجلس نضب عيني عمرو ، فتحدثوا ساعة ، ثم قال عمرو :

وإني لنارٌ ما يطاقُ اضطلاؤها لدى كلامٍ معضِلٍ متفامٍ (١١)

فأطرق ابن الزبير ساعة ينفكت في الأرض ، ثم رفع رأسه وقال :

(١) الألية : ماركب العجز من شحم ولحم . (٢) در اللبن وغيره من بابي ضرب وقتل ، ودرت
الناقة بلبنها أدرته . (٣) قطب الرِّحاء : ماتدور عليه ، والرِّحاء عدود الرِّحاء . (٤) العجب : مؤخر
كل شيء . (٥) ناقة طرُوقَة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ، وأجره رسنه : جعله يجره ، وهب
الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهبيبا : أراد السقاد . (٦) تصطك : تضطرب . والقروم : جمع قرم
بالتفتح وهو الفحل ، والسَّوامى جمع سام : وصف من سما الفحل سماوة : تطاول على شوله « والشول كركع
جمع شائل وهى الناقة تشول بذنبا للقاح » . (٧) العطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والعل والعلل :
الشرب الثاني ، والنهْل : الشرب الأول . (٨) الثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرحي ليقع عليه الطحين .
(٩) أى لأصيرنه أربد ، من الربدة بالضم : وهى لون إلى الغبرة . (١٠) الخميطة : القطيفة ،
وفى الأصل : « ولأوردنه » وهو تحريف . (١١) تفامٍ الأمر : عظم .

وإني لبحرٌ ما يُسَامَى عِيَابُهُ متى يَلْقَى بحرى حرّ نارك تحمُد

فقال عمرو: والله يا بن الزبير إنك ما علمت أميَجَلِيبَ جَلَايبَ الفتنه، مُتَأَزَّرٌ بَوَصَائِلِ (١)

التيه، تتعاطى الذرى الشاهقة، والمعالى الباسقة، وما أنت من قريش في لباب جوهرها ولا مؤنق (٢) حسبها. فقال ابن الزبير: «أما ما ذكرت من تعاطى الذرى. فإنه طال

بى إليها وسما مالا يطول بك مثله، أنف حمى، وقلب ذكى، وصارم مشرقى، فى تليدٍ فارغ (٣)، وطريفٍ مانع، إذ قعد بك انتفاخ سحرك (٤)، ووجيب (٥) قلبك، وأما

ما ذكرت من أنى لست من قريش فى لباب جوهرها، ومؤنق حسبها، فقد حضرتنى وإياك الأ كفاء، العالمون بى وبك، فاجعلهم بينى وبينك. فقال القوم: قد أنصفك يا عمرو. قال: فد فعلت. فقال ابن الزبير: «أما إذ أمكنى الله منك فلا ريدن وجهك.

ولأخرسن لسانك، ولترجعن فى هذه الليلة، وكان الذى بين منكيبك مشدود إلى عروق أخذ عيك (٦)، ثم قال: أقسمت عليكم يا معاشر قريش، أنا أفضل فى دين الإسلام

أم عمرو؟ فقالوا: اللهم أنت، قال: فأبى أفضل أم أبوه؟ قالوا: أبوك حواري رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته، قال: فأبى أفضل أم أمه؟ قالوا: أمك أسماء بنت أبى بكر

الصديق، وذات النطاقين، قال: فعمتى أفضل أم عمته؟ قالوا: عمتك سلمى بنته العوام صاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته، قال: فخالتى أفضل أم خالته؟

قالوا: خالتك عائشة أم المؤمنين، قال: سجدتى أفضل أم جدته؟ قالوا: جدتك صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: سجدتى أفضل أم جده؟ قالوا:

جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال:

قَصَّتِ الْعَطَارِفُ مِنْ قَرِيْشٍ بَيْنَنَا فَاصْبِرْ لِفَضْلِ خِصَامِهَا وَقَضَائِهَا

(١) الوصائل: جمع وصيلة، وهى ثوب مخطط يمان. (٢) آتفتى الشيء إينافا: أعجبتى، فهو

مؤنق وأنيق: أى حسن معجب. (٣) فارغ عال. (٤) السحر ويحرك ويضم: الرثة، وانتفخ سحره:

عدا طوره وجاوز قدره. (٥) خفقان واضطراب. (٦) الأخدعان: عرقان فى موضع الحجامة.

وإذا جَرَيْتَ فلا تُجَارِ مُبْرِزًا بَدًّا الْجِيَادَ على احتفالِ جِرِّ أُمَّهَا^(١)
أما والله يابن العاص . لو أن الذي أمرك بهذا واجهني بمنته لقصرتُ إليه من ساجي
بصره ، ولتركته يتلجج لسانه ، وتضطرم النار في جوفه ، ولقد استعان منك بغير وافي ،
ولجأ إلى غير كافٍ ، ثم قام فخرج .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤٣ - خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الحُسَيْنَ عليه السلام ، قام عبد الله بن الزبير في أهل مكة ، وعظَّم مَقْتَلَهُ ،
وعاب على أهل الكوفة خاصَّةً ، ولأم أهل العراق عامَّةً ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى
عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم :

« إن أهل العراق غُدُرٌ فُجِّرَ إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرَارٌ أهل العراق ،
ولإنهم دَعَوَا حُسَيْنًا لينصروه ويؤلُّوه عليهم ، فلما قَدِمَ عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إما
أن تضع يدك في أيدينا ، فنَبِّئنا بك إلى ابن زياد بن سُمَيَّةَ سَلْمًا ، فَيَمُضِي فيك حكمه ،
وإما أن تحارب ، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير - وإن كان الله عز وجل لم
يُطْلِعَ على الغيب أحدا - أنه مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ،
فرحم الله حسينًا ، وأخزي قاتل حسين . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم
ما كان في مثله واعظ وناه عنهم ، ولكنه ما حَمَمَ^(٢) نازلٌ ، وإذا أراد الله أمرا
لن يُدْفِعَ .

أبعد الحسين نظمُنْ إلى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ، ونقبل لهم عهدا ؟
لا ، ولا نراهم لذلك أهلا ، أما والله لقد قتلوه ، طويلاً بالليل قيامه ، كثيرا في النهار

(١) برز تبرزوا : فاق أصحابه . وبذ : فاق وغلب ، واحتفل القوم : اجتمعوا ، والجراء والمجاراة :

(٢) ما قدر .

مصدر جارى .

صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن النِّفَاء ، ولا بالبكاء من خشية الله الخدَاء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلّاب الصيد (يعرض بيزيد) فسوف يتقون غيًّا^(١) .

فتار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازحك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت .
(تاريخ العبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٤ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم ابن عقبة المرّي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسرّ بمقدّمهم وتبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم آتق بعضهم بعضاً فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أميس يقاتلكم هو وأبوه ، ينادى بالثارات عثمان ، ندخل إليه فننظر ما عنده ، فإن قدّم أبا بكر

(١) أي شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف

أي جزاء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام : الإثم ، أي يلقي جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم) .

وعمر ، وبرى من عثمان وعلى ، وكفر أباه وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ،
ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يُجدي علينا .

فدخلوا كلّي ابن الزبير وهو مُبتذل^(١) ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا جئناك
لتخبرنا رأيك ، فإن كنت كلّي الصواب بايعناك ، وإن كنت كلّي غيره دعوناك إلى
الحق ، ما تقول في الشيخين ؟ قال : خيراً . قالوا : فما تقول في عثمان الذي أحى^(٢) الحمى ،
وآوى الطريد^(٣) ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آل أبي معيط^(٤)
رقاب الناس ، وآثرهم بنى المسلمين ، وفي الذي بعده ، الذي حَكَم في دين الله الرجال ،
وأقام كلّي ذلك غير تائب ولا نادم ، وفي أبيك وصاحبه ، وقد بايعا علياً وهو إمام عادل
مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم نكثنا بعرض من أعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاتل ،
وقد أسرها الله وصواحبها أن يقرن^(٥) في بيوتهن ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة
فإن أنت قلت كما نقول فلك الزُّلْفَى^(٦) عند الله والنصر كلّي أيدبنا ، ونسأل الله لك التوفيق
وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب أبيك وصاحبه ، والتمحيق بعثمان والتولّي
في السنين الست التي أحلت دمه ، ونقضت أحكامه ، وأفسدت إمامته ، خذلك الله

(١) المبتذل : لابس البذلة (بالكسر) أو المبتذلة : وهي الثوب الخلق ومالا يصابن من الثياب .

(٢) أحى المكان : جملة حمى لا يقرب ، وكان من المطاعن التي وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه حمى
عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء في الماء والكأ ، ولما سئل في ذلك قال
إنما فعلت ذلك لإبيل الصدقة ، وقد أطلقتها الآن ، وأنا أستغفر الله . وروى الواقدي أن عثمان كان يحمى
الريذة والشرف والبقيع . فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان ، فكان
يحمى الشرف لإبله وكانت ألف بعير وإبيل الحسك بن أبي العاص ، ويحمى الريذة لإبيل الصدقة . ويحمى البقيع
لخيل المسلمين وخيله وخيل بني أمية . شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٣٥

(٣) هو الحسك بن أبي العاص - انظر ص ١٠٤ . (٤) من ولاهم عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط
ولاه الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . (٥) من قر بالمكان يقر (بالكسر والفتح) قراراً أى استقر .
أصله يقرن حذف الأولى من الرايين ونقلت حركتها إلى القاف . (٦) الزلفة والزلفى : القرية والمنزلة .

وانتصر منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزة والقدرة) في مخاطبة أ كفر الكافرين ، وأهق العتاة ، بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى لأخيه صلى الله عليهما : « أذهباً إلى فرعون إنه طمى ، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » .
 فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاد في الحاربة ، والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذى سميت فيه طلحة وأبي أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ » فإن كانا منهم دخلاً فى عُمار (١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُحفظوني (٢) بسب أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن فى أوبه : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ، وقال جل ثناؤه : « وقولوا للناس حسناً » وهذا الذى دعوتم إليه أمرته ما بعده ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصریح (٣) ، ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل صاحب من عدوه ، فروحوا (٤) إلى من عشيتكم هذه ، أكشفت لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشي راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نبذة (٥) قال : هذا خروج منايد (٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلهن بالسنين التى أنكروا سيرته فيها ، فجعلها كالماضية ، وخبر أنه

(١) بالضم ويفتح جمعهم . (٢) تفضبون . (٣) تبين الأمر .

(٤) الرواح : العشى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم وراحا . (٥) هو نبذة بن عامر الحنفى من

كبار زعمائهم . (٦) نايذه : كاشفه بالمداوة .

أرى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحِجَى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعقبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أو لا مُصِيبًا ، ثم أعتبهم بعد ذلك محسنًا ، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه ، بعد أن ضمن لهم العُتْبَى ^(١) ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفنوا الكتاب إليه ، حلف بالله أنه لم يكتبه ، ولم يأمر به ، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ، ومكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه ^(٢) ، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين ، لو حلف عليها لحلف قلى حق ، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا وليُّ وليه ، وعدوُّ عدوه ، وأبي وصاحبه صاحب رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ يوم أحد ، لما قُطعت إصبع طلحة : « سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ » ، وقال : « أوجب طلحة ^(٣) » ، وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : « ذاك يومٌ كله أو جُلُّه لطلحة » . والزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، فقال جلَّ وعزَّ : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعدُ أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقًا ، فأهل ذلك هُم ، وإن يكن زلة ففي عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأتم بأمر عائشة رضی الله عنها ، فإن أبي آب

(١) العتبي : الرضا . (٢) وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اختار عثمان ابن عفان رسولاً من قبله إلى قريش ، يعلمهم بمقصده ، وأنه أتى مكة معتمراً ، فقالوا : إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ثم إنهم حبسوه . فشاع عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع بذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب . ودعا المسلمين إلى البيعة على القتال فبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان . (٣) الموجبة من الحسنات التي توجب الجنة . وأوجب : أتى بها .

أن تكون له أما نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جلّ ذكره ، وقوله الحق :
« النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ،
ثم انصرفوا عنه .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والمعقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٥ — أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي في هُدَيْلٍ ،
وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهوَاهِ في بني أمية ، فنعمه عطاءه ، فقال : عَلَامٌ
تَمْنَعُنِي حَقَالِي ؟ وأنا امرؤٌ مُسْلِمٌ ما أحدثتُ في الإسلام حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعةٍ يداً .
قال : عليك بني أمية ، فاطلب عندهم عَطَاءَكَ . قال :

« إِنْ أَجَدَمَ سِبَاطًا (١) أ كَفَّهُمْ ، سَمِحَةً أَنفُسَهُمْ ، بُذْلَاءَ لَأَمْوَالِهِمْ ، وَهَابِينَ
لِمُجْتَدِيهِمْ (٢) كَرِيمَةً أَعْرَاقَهُمْ ، شَرِيفَةً أَصُولَهُمْ ، زَاكِيَةً فُرُوعَهُمْ ، قَرِيبًا مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبُهُمْ وَسَبَبُهُمْ ، لَيْسُوا إِذَا نُسِبُوا بِأَذْنَابٍ وَلَا وَشَائِظٍ (٣)
وَلَا أَتْبَاعٍ ، وَلَا مِمَّنْ فِي قُرَيْشٍ كَفَقِعَةَ الْقَاعِ (٤) ، لَمْ السُّودَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالْمَلِكُ فِي الْإِسْلَامِ
لَا كُنَّ لَا يُعَدُّ فِي عِيْرِهَا وَلَا نَفِيرِهَا (٥) ، وَلَا حَكَمَ آبَاؤُهُ فِي نَفِيرِهَا وَلَا قَطْمِيرِهَا (٦) لَيْسَ

(١) رجل سبط اليمين : سخي (وسبط كشمس) . (٢) المجتمى : طالب الجدوى ، وهي العطية .

(٣) وشائظ جمع وشيظة ، يقال : هم وشيظة في قومهم أي حشو فيهم ، وفي الأصل : « وسائط »
وهو تصحيف . (٤) الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من الكمأة وجمعه فقعة كعنبية ، والقراع :

أرض سهلة مطمئنة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب المثل بالفقع في الذل ، لأنه لا يمتنع على
من اجتنائه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . (٥) أخذنا من المثل وهو « لا في العير ولا في النفير » وأول من

قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب للرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم شرحه .

(٦) النفير : النكتة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة .

من أحلافها (١) المطيبين ، ولا من سادتها المطعمين ، ولا من جودائها (٢) الوهابين ، ولا من هاشمها المنتخبين ، ولا عبد شمسها المسوِّدين ، وكيف فقاتل الرءوس بالأذنان ، وأين النصلُ من الجفن (٣) والسنان من الزُّجج (٤) ، والدُّنَابِي (٥) من القُدَامَى (٦) وكيف يُفضّل الشحيح على الجواد ، والشوقة على الملك ؛ والجامع بخلا على المطعم فضلا ؟ » .

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه (٧) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قرّنه إلى قدمه ، وامتقع لونه ، ثم قال له : يا بن البوّالة على عقيها ، ويا جلف (٨) ، يا جاهل . أما والله لولا الحُرّمات الثلاث : حرمة الإسلام ، وحرمة الحرم ، وحرمة الشهر الحرام . لأخذت الذي فيه عيناك ، ثم أسر به إلى سجن « عارم » فحبس به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خُمولة في هذيل ، فأطلقه بعد سنة . وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما وليّ عبد الملك ، أسره له بما فاته من العطاء ، ومثله صِلّة من ماله وكساه وحمله .
(الأغاني : ٢١ : ٩٤)

١٤٦ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدّم وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأتوه في المسجد الحرام في يوم الجمعة ، فسألوا عليه . فسألهم عن مصعب أخيه ، وعن سيرته فيهم . فقالوا : أحسن الناس سيرةً ،

(١) الأحلاف في قریش ست قبائل : عبد الدار ، وكعب ، وجمع ، وسهم ، ومخزوم ، وعلوى ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، فقد كل قوم على أمرهم حلقة مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعت لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند السكبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلقة آخر مؤكدا فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : لغمس أيديهم في الطيب . (٢) جوداء: جمع جواد ، وهو السخي ، ويجمع أيضا على أجواد وأجاود . (٣) غمد السيف . (٤) الحديدية في أسفل الرمح . (٥) الذنب . (٦) أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح . (٧) جمع فريصة ، وهي اللحم بين الجنب والسكرتف . (٨) الجلف : الرجل الجاني .

وأفضاه بحق ، وأعدّله في حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ،
وأثنى عليه . ثم قال :

قد جرّبوني ثم جرّبوني من غلوتين ومن المثين (١)

حتى إذا شابوا وشيبوني خلوا عني ثم سيبوني (٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب بن
الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب . ألا إن مصعباً أطبى (٣) القلوب ،
حتى مات عدل به ، والأهواء حتى مات تحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ؛ والقلوب بنصحتها .
والنفوس بمحبتها . فهو المحبوب في خاصته . المحمود في عامته . بما أطلق الله به لسانه من
الخير . وبسط يده من البذل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ؛ والأماك ١ : ٢٨٦)

١٤٧ - خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبد الملك بن مروان مُصعب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مقتله
إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياما ، حتى تحدث به إمام مكة في الطريق ،
ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم ، والكأبة على وجهه ، وجبينه يرشح عرقا . فقال
رجل من قريش لرجل إلى جانبه : ماله لا يتكلم ، أترأه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه للبيب
الخطباء . قال : لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير
معلوم ، ثم تكلم فقال :

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومُلِك الدنيا والآخرة ، يُؤْتِي المُلْكَ من يشاء ،
وَيَنْزِع المُلْكَ من يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء . أما بعد : فإنه لم يُعِزَّ اللهُ

(١) الفلوة: الغاية ، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هي قدر ثلثائة ذراع إلى أربعمائة .

(٢) تركوني . (٣) أطبى : استمال .

مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنْامُ طُرًّا^(١) ، وَلَمْ يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ مُفْرَدًا ضَعِيفًا ؛ أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ أَتَانَا خَبْرٌ مِنَ الْعِرَاقِ ، بِلَدِّ الْقَدَّرِ وَالشَّقَاقِ ، فَسَاءَ نَا وَسَرَّ نَا ، أَتَانَا أَنْ مَصِيبًا قَبِلَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتُهُ ؛ فَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ لِفِرَاقِ الْجَمِيمِ لَذَعَةً وَلَوْعَةً يَجِدُهَا جَمِيمُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، ثُمَّ يَرْعَوِي مِنْ بَعْدُ ذَوِ الرَّأْيِ وَاللِّدِينِ إِلَى جَمِيلِ الصَّبْرِ ، وَكَرِيمِ الْعَزَاءِ . وَأَمَّا الَّذِي سَرَّ نَا مِنْهُ فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنْ قَتَلَهُ شَهَادَةٌ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَنَا وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَسْلَمَهُ الطَّغَامُ^(٢) ، الصَّمَّ الْأَذَانَ ، أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِسْلَامَ النَّعَمِ الْمُخْطَمَةِ^(٣) ، وَبَاعُوهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ، فَإِنْ يُقْتَلُ قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَأَخُوهُ^(٤) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَمُوتُ حَتَّى آتَانَا^(٥) ، وَلَكِنْ قَعَصْنَا^(٦) بِالرَّمَاخِ ،

(١) جميعا . (٢) الأوغاد . (٣) خطم البعير بالخطام : جعله على أنفه ، والخطام كسكتاب : ما وضع في أنف البعير ليقناده به . (٤) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله في الصلاة ، ويعني بعمة عبدالرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة ٣ : ٢١٣ » .

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة كاقلمنا ، سار إلى مكة لغزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك — وكان أخوه المنذر من شهد الحرة . ثم لحق به — فجرد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل للشأم دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرس صاحبه لها ميتا . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ - تاريخ الطبري ٧ : ١٤ - . (٥) الحتف : الموت ، ويقال مات حتف أنفه : أي على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . (٦) القمص : الموت الوحي (أي السريع كغني) ومات قصا : أصابته ضربة ، أو رمية فمات مكانه ، وفي السكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله ماموت حيجا » وزاد السكامل « كيتة آل أبي العاص » والحيج محرقة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجمفر) ، وربما قتله ذلك ، يعرض بين مروان لسكرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالثخمة .

وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنومروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قطُّ ؛ ألا وإنا الدنيا عاريةٌ من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبديد ملكه ، فإن تقبل الدنيا طيِّباً لم آخذها أخذ الأثير البطر^(١) ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين^(٢) . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .
ثم نزل .

(الألفاني ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٨ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال :
« إن مصعباً قدّم أيراه ، وآخر خيراه ، وتشاغل بنسكاح فلانة وفلانة^(٣) ، وترك حلبة^(٤) أهل الشام ؛ حتى غشيت به في داره ، ولئن هلك مُصعب إن في آل الزبير خلفاً منه » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٩ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو والأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، قام خطيباً فقال :

(١) الأثير : البطر . (٢) من الخرق محرقة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فاتحاً عينيه ينظر ، والمهين : الحقير ، ويروى : « بكاء الخرف المهتر » والخرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من الهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (يضم الميم وفتح التاء) : شاذ وقد قيل أهتر بالبناء للمجهول (٣) كان تحته عقيلتا قریش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين . (٤) الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة .

« إن أبا ذبَّان^(١) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ^(٢) ، كَذَلِكَ نُوَلِّيَ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٥٠ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من
الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمّه : خَذَلَنِي النَّاسَ حَتَّى وُلِدِي^(٣) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ
مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أَرَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟
فَقَالَتْ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَإِلَيْهِ تَدْعُو فَامضْ لَهُ ،
فَقَدْ قُتِلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُكَ ، وَلَا تَمَكِّنْ مِنْ رِقْبَتِكَ يَتَلَعَّبُ بِهَا غِلْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَإِنْ كُنْتَ
إِنَّمَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا ، فَبئسَ العَبْدُ أَنْتَ ، أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ ، وَأَهْلَكَتَ مِنْ قُتِلَ مَعَكَ ،
وَإِنْ قُلْتَ كُنْتُ عَلَى حَقٍّ ، فَلِمَا وَهَنَ أَصْحَابِي ضَعُفْتُ ، فَهَذَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَحْرَارِ وَلَا أَهْلِ
الدِّينِ ، وَكَمْ خُلُودُكَ فِي الدُّنْيَا ؟ الْقَتْلُ أَحْسَنُ ، وَاللَّهُ لَضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ فِي عِزٍّ ، أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ ضَرْبَةٍ بِسَوْطٍ فِي ذَلٍّ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُ إِنْ قَتَلُونِي أَنْ يُمَثِّلُوا بِي ، قَالَتْ : يَا بَنِي إِنْ
الشَّاةُ لَا يَضُرُّهَا سَلْخُهَا بَعْدَ ذَبْحِهَا .

فَدَنَا مِنْهَا وَقَبِلَ رَأْسَهَا ، وَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَأْيِي ، وَالَّذِي قَتَلَ بِهِ دَاعِيًا إِلَى يَوْمِي هَذَا ،

-
- (١) الذبَّان : الذباب ، والعرب تكنو الأبخر « أبا ذباب » وبعضهم يكتنيه « أبا ذبَّان » وقد غلب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في فمه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب .
(٢) هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمي بذلك لميل كان في فمه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان »
قال الوزير الكاتب ابن عبدون في مراثيه المشهورة لدولة بني الأفتس بالأندلس التي مطلعها :
« الدهر يفتح بعد العين بالأثر فا البكاء على الأشباح والصور »
ولم تدع لأبي الذبَّان قاضيه ليس اللطيم لها عمرو بمنصهر
(٣) وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حمزة وخبيب فأخذاهما منه لأنفسهما أمانا .

ما رَكَنْتُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَمَا دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَّا الْغَضَبُ اللَّهُ
أَنْ تُسْتَحَلَّ حُرْمَتُهُ ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ رَأْيِكَ ، فَزِدْتَنِي بِصَبْرَةٍ مَعَ بَصِيرَتِي ،
فَانظُرِي يَا أُمُّهُ ، فَإِنِّي مُقْتَوْلٌ مِنْ يَوْمِي هَذَا ، فَلَا يَشْتَدُّ حَزَنُكَ ، وَسَلِّمِي لِأَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنِ
ابْنُكَ لَمْ يَتَعَمَّدَ إِتْيَانِ مُنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلًا بِفَاحِشَةٍ ، وَلَمْ يَجْزُ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَغْدِرْ فِي أَمَانٍ ،
وَلَمْ يَتَعَمَّدَ ظَلْمَ مُسْلِمٍ وَلَا مَعَاهِدٍ ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي ظَلْمٌ عَنْ عَمَالِي فَرَضِيَتْ بِهِ ، بَلْ أَنْكَرْتَهُ ،
وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ آثَرَ عِنْدِي مِنْ رِضَا رَبِّي ، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَقُولُ هَذَا تَزَكِيَةً مِنِّي لِنَفْسِي
- أَنْتَ أَعْلَمُ بِي - وَلَكِنْ أَقُولُهُ تَعْزِيَةً لِأُمِّي لِتَسْأَلُوْا عَنِّي ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي لِأَرْجُو مِنْ اللَّهِ
أَنْ يَكُونَ عَزَائِي فِيكَ حَسَنًا إِنْ تَقَدَّمْتَنِي ، وَإِنْ تَقَدَّمْتِكَ فِي نَفْسِي حَرَجٌ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَامَ
يَصِيرُ أَمْرُكَ . قَالَ : يَا أُمُّهُ جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ! فَلَا تَدْعِي الدُّعَاءَ لِي قَبْلُ وَبَعْدُ ، فَقَالَتْ :
لَا أَدْعُهُ أَبَدًا ، فَمَنْ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ فَقَدْ قُتِلَ عَلَى حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَتْ : « اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ
ذَلِكَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَذَلِكَ النَّجِيبِ وَالظَّمَا فِي هَوَاجِرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، وَبِرَّهَ بِأَبِيهِ
وَبِي ، اللَّهُمَّ قَدْ سَلَّمْتَهُ لِأَمْرِكَ فِيهِ ، وَرَضِيَتْ بِمَا قَضَيْتَ ، فَأَثْبِتْنِي فِي عَبْدِ اللَّهِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ
الشَّاكِرِينَ » . ثُمَّ وَدَّعَهَا وَخَرَجَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٢ ، والفخرى ١١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٥١ - خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ تَمَشَّقَ كَمَا سَحَابُهُ ، وَأَحْدَقَ بِكُمْ رَبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد
تفرُّقٍ ، وارجحنَّ بعد تَمَشُّقٍ ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رَعْدُهُ ، وهو مُفْرِغٌ عَلَيْكُمْ وَدَقَّةً ^(٤) »

(١) الرباب : السحاب الأبيض . (٢) ارجحن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

(٣) رجست السماء : رعدت شديدا وتمخضت . (٤) الودق : المطر .

وقائد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجملوا السيوف لها غرَصًا ، واستعينوا عليها بالصبر .
وتمثل بأبيات ، ثم افتتحم يقاتل وهو يقول :

قد جدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساق^(١)

(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٢ - خطبة أخرى

وروى الطبري قال :

لما كان يوم الثلاثاء صَديحة سبعِ عشرةَ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ
الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طَبِتم لي نفسًا عن أنفسكم ، كنَّا أهل بيتٍ من العرب
اصْطَلَمْنَا^(٢) في الله ، لم تُصَبنا زَبَاءَ بَيْتَةٍ^(٣) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يَرُغِمُ وقع
السيوف ، فإنني لم أحضر موْطِنًا قَطُّ إلا أَرْتُنْتُ^(٤) فيه من القتل ، وما أجد من دواء
جراحها أشدَّ مما أجد من ألمٍ وَقَمِيها ، صُونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ؛ لا أعلم امرأ
كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزلٌ ، غَضُّوا
أبصاركم عن البارقة^(٥) ، وليشغَلْ كل امرئٍ قِرْنَه ، ولا يُلْهِمِكُم السؤالُ عني ، ولا
تقولنَّ : أين عبد الله بن الزبير ، إلا من كان سائلًا عني فإنني في الرِّعيل^(٦) الأول :

أبي لابن سلمى أنه غيرُ خالدٍ مُلأقي المنايا أيَّ صَرَفِ تَيْمَمًا

(١) هو من مشطور السريع الموقوف . (٢) أي استوصلنا . (٣) الزبَاء من الدواهي :

الشديدة ، ويقال لافعله ألبتة ، وبته ، لكال أمر لارجمة فيه . (٤) ارتث (مبنيًا للمجهول) حمل

من المعركة ريثما أي جريحا وبه رمق . (٥) البارقة : السيوف . (٦) الرعيل : القطعة من الخيل

القليلة ، أو مقدمتها .

فلستُ بمتاعِ الحياةِ بسبِّةٍ ولا مُرتقٍ من خشيةِ الموتِ سلماً
احملوا على بركةِ الله « ثم قاتل حتى أُنحِنَ بالجراحاتِ وقتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥٣ - خطبة مصعب بن الزبير

بعت عبد الله بن الزبير أخاه مُصعباً والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ
نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار بيده نحو الشام « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنُمْكِنَنَّ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده
نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفي سنة ٥٦٠ هـ)

١٥٤ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنني والله ما وُلِّيتُها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولائتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً ، ولقد رُضت^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، ففقرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَاتِ^(٢) عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإنني خير لكم ولايةً ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبراً^(٣) أذني ،

(١) من راض المهر: إذا ذلّه . (٢) سنّية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

(٣) جعل كلامك دبر أذنه : لم يصغ إليه ، ولم يرج عليه .

وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحققكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أنا كم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثري ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفسد المعيشة وتكدر النعمة » ثم نزل .
(المقد للفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٥ - خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنا قدمنا على صديق مستبشر .
أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون . فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت تحمّدة ، فلا بد من مذمة ، فلو ما هونا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أوبقت ، وإن ذُكرت أوثقت » ثم نزل .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٦ - خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق ، يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعة نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُنكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرئى خير من الفتق ، وفي كلِّ بلاغٍ ، ولا مُقام على الرزية » .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ - خطبته حين ولي المغيرة بن شعبه الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبه الكوفة في جمادى سنة ٤٠ هـ دعاه ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنّ لِي الحِلْمَ قبلَ اليوم ما تُقرَعُ العصا^(١) ، وسدّ طال المتلمّس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا وما علم الإنسان إلا ليعلمًا

وقد يُجزى^(٢) الحكيمُ بغير التعلّم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا
تاركها اعتماداً على بصرِكَ بما يُرضيني ، ويُساعدُ سلطاني ، وتصلحُ به رعيّتي ، ولست تاركاً
إيصاءك بمخلة : لا تتحمم^(٣) عن شتمٍ على ودمه ، والترحم على عثمان ، والاستغفار له ،
والعيب على أصحاب عليّ ، والإفصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وإطراء شيعة عثمان
رضوان الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم . »

فقال المغيرة : « قد جربتُ وجربتُ ، وحميتُ قبلك لعيرك ، فلم يُدتمم بي دَفْعٌ
ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فسَدَّ بُلُو^(٤) فتحمد ، أو تدّم » قال : « بل نحمد إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤١)

(١) من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لذي الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ،
وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب العدواني ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ،
وقيل عمرو بن حمزة الدوسي ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عامر بن الظرب كان أحد حكام العرب
المهاجرين : لا تمدل بفهمه فهما ، ولا يحكمه حكما ، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه :
إنه قد كبرت سني ، وعرض لي سهو ، فإذا رأيتموني خرجت من كلامي ، وأخذت في غيره ، فاقرعوا لي
المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريده :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا البيت .

(٢) يجزى مسهل عن يجزى أي يفنى ، يقال : أجزأت عنك مجزاً فلان : أي أغثيت عنك مغناه .

(٣) احتمى وتحمى : امتنع . (٤) أي تختبر .

١٥٨ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عزَّ وجلَّ خلقكم فلم ينسِكُمْ ، ووعظكم فلم يُهْمَلِكُمْ ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم (المقدم الفرید ٢ : ١٤٠)

١٥٩ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إني من زرع قد استحصد^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقى ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحبيب لقاءى » ثم نزل ، فاصعد المنبر حتى مات^(٢) . (الآمال ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٦٠ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قریش يتباشرون بموتك ، قال : ويحك ؟ ولم ؟ قال : لا أدرى . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأوجز ثم قال :

(١) استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . (٢) سيرد عليك بقية خطبه بعد في موضعها .

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا في دهر عَنُود^(١) ، وزمن شديد^(٢) يُمَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوراً ، لاننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة^(٣) حتى تحلّ بنا؛ فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا ينعمه من الفساد في الأرض إلا مهانةً نفسه ، وكلال حدّه ، ونضيب وفره^(٤) ومنهم المصّت^(٥) لسيفه ، المُجِيبُ بِحِيلِهِ وَرَجَلِهِ ، المعلن بشرته ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه ، لُحطام ينتهزه^(٦) ، أو مقنّب^(٧) يقوده ، أو منبر يفرّعه^(٨) ، ولبئس المتجر أن تراهما لنفسك ثمنًا ، وعمالك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطالب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه ، وشمر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة للعصية ، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن أمه . فتحلى باسم القناعة . وتزين بلباس الزهاد . وليس من ذلك في مراح ولا معدى ، وبقى رجال غصّ أبصارهم ذكرُ المرجع ، وأراق دموعهم خوفُ المحشر ، فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع^(٩) ، وساكِت مكعوم^(١٠) ، وداع مخلص ، وموجع تبكّلان ، قد أخلتهم التقيّة^(١١) ، وشملتهم الذلّة ، فهم بحر أجاج^(١٢) ، أفواهم ضامرة^(١٣) ، وقلوبهم قرحة ، قد وعظوا حتى ملّوا ، وقهروا حتى ذأوا ، وقتلوا

(١) جائز . من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . (٢) وفي نهج البلاغة : وزمن كنود وهو الكفور . (٣) الداهية التي تفرع أي تصيب . (٤) أي قلة ماله . (٥) أصلت السيف : سله . (٦) هيأها وأعدّها (من الشرط (محرّكة) وهو العلامة) أي هيأها للفساد في الأرض . وأوبقه : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكسر من اليبس . (٧) المقنّب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثائة . (٨) يعلوه . (٩) مقهور . (١٠) من كمع البعير كنع : شد فاه لثلا يعض أو يأكل ، وفي البيان والتبيين معكوم ، من عك المتاع يمكه : شده بثوب . (١١) التقيّة : المداراة . (١٢) الأجاج : الملح . (١٣) ساكتة من ضمير كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرتة في فيه ولم يجتر .

حتى قَلَّوا ، فلتسكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُمالة القَرْظ^(١) وقرْاضة الجَلَمين ،
واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فافرضوها ذميمةً فإنها قدرفضت
من كان أشغف بها منكم .

(البيان والتبيين ٢: ٢٨ ، والعقد الفريد ٢: ١٤١ : ونهج البلاغة ١: ٤٠ وإعجاز القرآن ٢١٣)

١٦١ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاويةَ مُسلمَ بنَ عُقبةَ المرثيِّ ،
والضَّحَّاكَ بنَ قيسِ النهريِّ ، فقال : أبلغا عني يزيدَ وقولا له :

« يا بني ، إني قد كفيتك الشَّدَّ والتَّرْحَالَ ، ووطأت لك الأمور ، وذلت لك الأعداء
وأخضعت لك رِقَابَ العرب ، وجمعت لك مالم يجمعه أحدٌ ، فانظر أهلَ الحجاز ، فإنهم
أصلك وَعِزَّتِكَ^(٢) ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتمهده ، وانظر أهلَ العراق ،
فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإنَّ عَزَلَ عاملٍ أهونُ عليك من سلِّ
مائة ألف سيف ، ثم لاندري علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهلَ الشَّامِ ، فاجعلهم
الشُّعار^(٣) دون الدُّنَّار ، فإن رآبك من عدوك رَيْبٌ ، فازمهم^(٤) بهم ، فإن

(١) القَرْظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجزبه الصوف . والقراضة :
ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب
الذي من أجله دعاهم معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الأخبار عنهم ، وعما هم عليه
من القهر والإذلال ، ومن التقيّة والخوف - أشبه بكلام علي وبمعاوية ، وبجاله منه بحال معاوية . ومنها أن الم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب لكم
وتخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » .

ونسبها الشريف الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه الذي لا يشك فيه .

(٢) عترة الرجل : عشيرته الأدنون . (٣) الشعار : الثوب يليس على شعر الجسد ، والدنار :

الذي يابس فوق الشعار . (٤) فازمهم للعدو ، وهو الواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يشئ
ويجمع ويؤنث .

أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا
بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازلك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَدَّه^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرهُ بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفِيَكَ الله بمن قَتَلَ أباه وخذل
أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه فإن خرج وظفرت به ، فاصفح عنه ،
فإن له رَحِمًا^(٢) ماسّة ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ؛ وأما
ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ، ليست له همهٌ إلا في النساء
واللهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ^(٣) ، فإن ظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا^(٤) .
« أو قال » وأما الذي يَحْمِيُكَ لك جُثُومُ الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته
فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا ،
واحقن دماء قومك ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ الفخرى ص ١٠٢)

(١) وقده : صرعه وغلبه ، وتركه عليلًا كأوقده . (٢) قرابة . (٣) انظر تفسيرها
في صفحة ١٤١ . (٤) أي عضوا عضوا .

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٢ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبِلاً من حبال الله ، مَدَّهُ ما شاء أن يمدَّهُ . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبْلَهُ ، وخيراً ممن يأتي بعده . ولا أزكّيه عند ربه وقد صار إليه . فإن يعفُ فبرحمته . وإن يعاقبه فيذنبه . وقد وليت بعده الأمر . ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(١) بطلب علم ، وعلى رسلكم ، إذا كره الله شيئاً غيره ، وإذا أحب شيئاً يستره . »

(المقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦٣ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وفضله ، وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعاداراً وإنذاراً ، لتلا يكون

(١) في المقد الفريد : ولا آتى على طلب علم ، ولا آتى عن طلب علم .

للناس على الله حجةً بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، وانقطاع مدتها ، وتصرف دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالفاني ، وتحببت بالمعجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكالة غواية غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . لن تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عزّ وجلّ : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^(٣) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . (العقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٤ - خطبة معاوية بن يزيد^(٤) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودي بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإنني قد نظرت في أمركم فضعت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى

(١) أي همهم العبادة . (٢) ناضرة . (٣) أي عتكم (مشقتكم) .

(٤) استخلف في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ ، ولم يلبث في الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوماً .

مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختروا له من أحببتم ، فما كنت لأنزودها
ميتاً ، وما استمعت بها حياً » .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيب حتى مات ^(١) .

(تاريخ الطبری ٧ : ٣٤ ، والفخرى ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

١٦٥ - وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على
مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكماً ولا توصه ، أي بني انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة
فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند
محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيته منك كذب ، فإنهم إن
ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبين
لك فاكتمب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من
رعيته فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ،
ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطقي الجرة ، فإن أول من جعل السجن
كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والرواة فليكونوا أصحابك وجلساءك ،
ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف
الله عليك » .
(للعقد الفريد ١ : ٤٩)

(١) قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً :

وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٨٦ هـ)

١٦٦ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة المدهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١) (يريد يزيد بن معاوية) فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ثم نزل^(٢) .

(المقدم الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣ والبيان والتبيين ٢ : ٨٥)

١٦٧ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فإزلمت تزادون في الذنب ، ويزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » . (المقدم الفريد ٢ : ٢٦٣)

(١) المأفون : الضعيف الرأي والعقل . (٢) قال أبو إسحق النظام : « أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المدهن لكنت منها أبعد من العيوق (يفتح العين وتشديد الياء نجم أحمر مضى . يتلو الثريا) والله ما أخذتها بورائة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية » .

١٦٨ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(١)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجملوا سلفكم لمن شبر منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا^(٢) من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٣) السطوات ، وتجوس خلالكم بوادرُ الفقمات ، وتطأ رقابكم بشقلها العقوبة ، فتجعلكم همدًا رفاتًا^(٤) ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتًا ، فيأبى من قول قائل ، ورشقة جاهل ، فإنما بيني وبينكم أن أسمع النغوة^(٥) ، فأصمّ تصميم الحسام المطرور^(٦) ، وأصول صيال الخنيق الموتور^(٧) ، وإنما هي المصاحفة والمسكافة ، بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتاب تائب ، وهديل خائب^(٨) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبدول ،

(١) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز الضحاك بن قيس الفهري عن مروان ابن الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضى الأشدق بذلك ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من يلاقى معه مالم يخف عليك ، فاجعل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرو ابن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .

(٢) غبر : بقي ، وأغفال جمع غفل كقفل . (٣) الجوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال . (٤) الهامد : البالي من كل شيء ، والرفات : الحطام . (٥) النغوة والنغمة : أول الخبز قبل أن تستثبته . (٦) المشحوذ ، من الطر : وهو تحديد السسكين وغيرها . (٧) صاحب الوتر : وهو الثار . (٨) هدله يهداه كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أى ضعف الخائب وخار ، ولعله حائب من الحوب بفتح الحاء وضهها وهو الإثم . حاب بكذا أثم جوابا أى ضعف الأثم المذنب . (١٣ - جمهرة خطب العرب - ثان)

لمن عرف رُشدَه ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل
الطاعة يبدأ على أهل الجهل من سفهائكم ، واستدبوا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ،
ونفيس زيتها ، فإنكم من ذلك بين فضيائين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء
والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغهِ (١) ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه ،
انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكذرة عليكم .
(صبح الأعشى ١ : ٢١٨)

١٦٩ — خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير (٢)

لما قتل عبد الملك مُصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرة ، وإن السلم آمنٌ ومسرّة ، وقد زبنتنا
الحرب وزبناها (٣) ففرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على
سُبل الهدى ، ودعوا الأهواء المُرذية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا
أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لاتعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ،
ولن تزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فن شاء منكم أن يعود بعدُ لثأرها
فليعدُ ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري :

من يَصِلَ نارِي بلا ذنب ولا تِرَةٍ يَصِلَ بنارِ كَرِيمٍ غيرِ غَدَارٍ (٤)
أنا النذير لكم مني مجاهرةً كي لا ألام على نهى وإنذار

(١) نزغ بينهم : أفسد وأغرى . (٢) نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها

بصفتين (صبح الأعشى ١ : ٢١٥) وعزاها القائل في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما ترجمه لما يدل
عليه سياق الخطبة . (٣) أي دفعتنا ودفعتها ، والزين : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبينة

أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضا حرب زبون بفتح الزاي .

(٤) الترة والوتر : النار .

فَإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرِفُوا أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرَ الْعَارِ
لَتَرْجِمَنَّ أَحَادِيثًا مُلَمَعَةً لَهْوَ الْمُقِيمِ وَلَهُوِ الْمُدْلِجِ السَّارِي (١)
مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوَاجًا يَطْلُبُهَا عِنْدِي فَإِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِأَسْحَارِ (٢)
أُقِيمُ عَوَجَتَهُ إِنْ كَانَ ذَا عِوَجٍ كَمَا يَقُومُ قِدْحَ النَّبْعَةِ الْبَارِي (٣)
وَصَاحِبِ الْوِثْرِ لَيْسَ الدَّهْرَ مَدْرَكَهَ عِنْدِي ، وَإِنِّي لَدْرَاكُ بِأَوْتَارِ
(الأمالي ١ : ١٢)

١٧٠ - خطبته عام حجة

وحج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بَدْرَةٌ (٤) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفئء ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مَثَلْنَا وَمِثْلَكُمْ أَنْ أَخْوِينِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَرَجًا مَسَافِرِينَ ، فَزَلْنَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ تَحْتَ صَفَاةٍ (٥) ، فَلَمَّا دَنَا الرِّوَّاحُ خَرَجْتَ إِلَيْهِمَا مِنْ تَحْتِ الصَّفَاةِ حَيَّةٌ تَحْمَلُ دِينَارًا ، فَأَلَقْتَهُ إِلَيْهِمَا ، فَقَالَا : إِنْ هَذَا لَيْنَ كَنْزٍ ، فَأَقَامَا عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، كُلُّ يَوْمٍ تَخْرُجُ إِلَيْهِمَا دِينَارًا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِلَى مَتَى نَنْتَظِرُ هَذِهِ الْحَيَّةَ ؟ أَلَا نَقْتُلُهَا وَنَحْفِرُ هَذَا الْكَنْزَ فَنَأْخُذُهُ ، فَهَاءُ أَخُوهُ ، وَقَالَ : مَا تَدْرِي لِمَا لَكَ تَعَطَّبَ وَلَا تَدْرِكُ الْمَالَ ، فَأَبَى عَلَيْهِ

(١) أدلج : سار من أول الليل ، فان سار من آخره فقد ادلج بالتشديد ، والساري : الذي يسير بالليل .
(٢) الحوجاء : الحاجة . وقوله بأصحار : أي لا أستبر عنه ، ولا أمتنع في الأماكن الحصينة ، من أصرح القوم : برزوا إلى الصحراء . (٣) العوج بالفتح في كل ما كان منتصبًا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، قيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والفتح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه قذاح ، والنبعة واحدة التبع وهو شجر التسي والسهم .
(٤) البدره : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضمخ .

وأخذ فأسأ معه ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها . فنارت الحية فقتلتها . ورجعت إلى جحرها . فقام أخوه فدفنه وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء . فقال لها : يا هذه إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضربني ولا أضرك وترجمين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجيرة^(١) ، وأنشدهم شعر النايفة :

فقال أرى قبراً تراه مُقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاغره

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسميتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعَدَّوتم عليه فقتلتموه ، وبمئنا عليكم « مُسَلِّماً »^(٢) يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .

(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٧١ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج يذبه بخروج ابن الأشعث خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) راجع مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦١ في المثل : « كيف أعادك وهذا أثر فاسك » .

(٢) هو مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرّة . وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد ابن معاوية وخلموه وحصروا من كان بها من بني أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فحاصرها من جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد يحكم في دماهم وأمواهم وأهلهم ماشاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : فقتل ، ونهب ، وسبى قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرّة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قَدْرى ، اللهم سلط عليهم سيوف
أهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك » ثم نزل .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٧٢ - وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذى إن وجد ربحاً تجر ،
وإلا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتيالك
على عدوك أشدّ حذرًا من احتيالك على عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

١٧٣ - وصيته للشعبى

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :
ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تافت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف
فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمة غير الشعبى ، فلما حبل إليه ونادمه ،
قال له :

« يا شعبى ، لاتساعدنى على ما قبّح ، ولا ترُدّ على الخطأ فى مجلسى ، ولا تسكّفنى
جواب التشميت^(١) والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح
الأمير ، وكيف أمسى) . وكلنى بقدر ما استطعمك ، واجعل بدل المدح لى صواب
الاستماع منى ، واعلم أنّ صواب الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعنى أتحدث
فلا يفوتنك منه شىء ، وأرنى فهمك من طرفك وسممك ، ولا تجهد نفسك فى نظري^(٢) »

(١) التشميت : الدعاء للمعاصى . (٢) فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراه محرفاً ، والنظر : الانتظار .

صوابي . ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي ، فإن أسوأ الناس حالا من استكدَّ
الملك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبي
أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حق الحرمة . فإن الصمت
في موضعه ربما كان أبلغ من النطق في موضعه وعند إصااته وفرصته .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧٤ - وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :

« ابسط بِشْرَكَ ، وألن كنفَكَ . وآثر الرفق في الأمور ، فإنه أبلغ بك . وانظر
حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَفْقَنَ أحد بيا بك
إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذي تأذن له أو تَرُدّه ، وإذا خرجت إلى مجلسك
فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مُشْكِلٌ ،
فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق^(١) الأمور ، وإذا سخطت على أحد فأخّر
عقوبته ، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدرُ منك على ردّها بعد إمضائها .

(الفخرى : ١١٣)

١٧٥ - وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه ، فقال :

« يا هذا أحنين الحامة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمّر واتزّر ، والبس جلد تمر ، وضع سيفك
على عاتقك ، فن أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه ،

(١) جمع مغلاق بكسر الميم : وهو ما يغلّق به الباب .

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلاكِ لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي أحسن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بحمائل الأمور . وإياكم والبغى والتحاسد ، فهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين يا بَنِيّ : أخوكم مسألة نابكم الذي تفرّون^(١) عنه ، ورجسكم^(٢) الذي تستجئون به ، اصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجّاج فإنه الذي وطأ أسك هذا الأمر ، كونوا أولاداً أبراراً ، وفي الحروب أحراراً ، وللمعروف مَناراً ، وعليكم السلام » .
(مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٦ - خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفي سنة ٩٦ هـ)

لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى في الناس الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس إنه لا مؤخّر لما قدّم الله ، ولا مقدّم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وحملته عرشه من الموت موتُ وليّ هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، الذي كان عليه من الشدة على المُريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه ، وحيجّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ الغارات على أعداء الله فلم يكن فيها عاجزاً . ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فعليكم أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع القدّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

(١) فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها . (٢) المجن : الترس .

١٧٧ - خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفي سنة ٩٩ هـ)

« الحمد لله . ألا إن الدنيا دارُ غُرُورٍ ، ومنزلُ باطلٍ ، تُضحكُ باكيًا ، وتُبسكي ضاحكًا ، وتخيفُ آمنًا ، وتؤمنُ خائفًا ، وتُفقرُ مثرىً ، وتُثريُّ مُقتراً ^(١) مَيَّالَةً غَرَّارَةً ، كَعَابَةِ بَاهِلِهَا . عبادِ الله ، فاتخذوا كتابَ الله إمامًا ، وارتضوا به حَكَمًا ، واجعلوه لكم قائدًا ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم يَنْسَخْه كتابٌ بعده . واعلموا عبادَ الله أن هذا القرآنَ يَجْلُو كَيْدَ الشَّيْطَانِ ، كما يَجْلُو ضَوْءُ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ظِلَامَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ^(٢) . »

(العقدة الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

(١) من أقتَر ، أى افتقر . (٢) تنفس الصبح : أسفر ، وعسس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) .

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٨ - أولى خطبه

قال العُتَيْبِيُّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصالحوا سرائركم ، تصالحوا لئلا يتسكّم ، وأصالحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن اسراً ليس بينه وبين آدم أب حتى لمُترق في الموت » .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٧)

١٧٩ - خطبة له بالمدينة

وفي سنة ٨٧ هـ وتي الواليد عمر بن عبد العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة
من فقهاءها ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتسكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد
أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو يلفسكم
عن عامل لي ظلّامة فأحرّج^(١) الله على من بلغه ذلك إلا بلغني » .
فخرجوا يمجزونّه خيرا .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦١)

(١) التحريج . التصفيق ، أي فأشدد عليه بالله .

١٨٠ - خطبة أخرى

وروى المسمودي في مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة
خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟
وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل^(١) فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب المصائب ، مع
كل جرعة شَرَق^(٢) ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ،
ولا يُعَمَّر مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا يَهْدَم آخر من أجله » .
وأورد القائل في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول ، وهي :

« ما الجزع مما لا بُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرَجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنما
الشيء من أصله ، فقد مَضَّت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس
في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نَهَب المصائب ، مع كل جرعة شَرَق ،
وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمرُّ مُعَمَّرٌ يوماً من عمره
إلا يهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الختوف على أنفسكم ، فأين المهزَّب مما هو كائن ؟
وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر
خيبة الخائب فيه ، والسلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالي ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) جمع غرض : وهو الهدف ، وانتضلت : تناضلت وتبارت في الرمي .

(٢) شَرَق بريقه : غص .

١٨١ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأرض رَجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَاكِبُ الخِلافةِ يا أمير المؤمنين ، قُرِّبَتْ إليك لتركبها ، فقال : مَالِي وَهَلْهَا ؟ نَحْوَهَا عَنِي ، قَرَّبُوا إِلَيَّ بَغْلَتِي ، فقربت إليه فركبها . وجاءه صاحب الشُّرْطَةِ يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنحَّ عَنِي ، مَالِي وَوَلَاكُ ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إني قد ابْتَلَيْتُ بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه ، ولا طلبية له ، ولا مَشُورَةٌ من المسلمين ، وإني قد خلعت مافي أعناقكم من بَيْعَتِي ، فاخْتاروا لأنفسكم » .

فصاح الناس صيحةً واحدةً : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، قَلَّ أمرنا باليُمْنِ والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعاً ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَفَتْ من كل شيء ، وليس من تقوى الله عزَّ وجلَّ خَلَفَتْ ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمِلَ لآخرته كَفَاهُ اللهُ تبارك وتعالى أمرَ دنياه وأصلحوا سرائركم ، يُصلح اللهُ الكريم عِلَانَيتكم ، وأكثرُوا ذَكَرَ الموت وأحسنوا الاستعدادَ قبل أن ينزل بكم ، فإنه هَادِمٌ اللذات ، وإن من لا يذكر من آيائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أبًا حَيًّا مُعْرِقٌ في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربه عزَّ وجلَّ ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أُعْطِي أحداً باطلاً ، ولا أُمْنَعُ أحداً حقاً ، إني است

بخازن ، ولكنى أضع حيث أمرت . أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاية تجتزون^(١) مودتهم ، بأن تدفموا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أملتُ الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم»

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٨٢ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولى الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويؤمننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يفتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه . »

فانقش عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

١٨٣ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله لى لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة

وما حرّم الله كَلَى لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكنى منفذٌ لله ، ولست بمبتدع ، ولكنى متّبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاعَ في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حجلاً . يأبها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٤ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يأبها الناس ، إنه من يقدر له رزق برأس جبل ، أو بحضيب أرض يأتيه ، فأجبلوا فى الطلب » :
(إعجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٨٥ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كتّب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظنن ، فكم عامرٍ مؤثّقٍ عما قليلٍ يخرب ، وكم مُقيمٍ مُغتبطٍ عما قليلٍ يظمن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة ، بأحسن ما يحضركم من النقلة : وتزوّدوا فإن خير زادٍ التّقوى . إنما الدنيا كفى ظلّالٍ قلّص^(١) فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا منافس ، وبها قرير عَيْن ،

(١) النوى : ما كان شمساً فينسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : انقبض .

إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حَتْفِهِ ، فسلبه آثاره ودياره ودنياه ، وصيرَ لقوم آخرين مَصَانِعَهُ وَمَعْنَاهُ^(١) ، إن الدنيا لا تسرُّ بقدر ماتصُرُّ ، إنها تسرُّ قليلا ، وتجرت حزنًا طويلا .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٩٧ وص ٢٢١)

١٨٦ - خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَمُورُ بِهِ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلاَعْمَرِي - وَإِن لِمَعْرِي مَنَى لِحَقًّا^(٢) - لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتِئَالَ بِسَمَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيمًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْعَلُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بَدَأْتُ أَنَا بِنَفْسِي وَأَهْلَ بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

ثم كان آخر كلمة تكلم بها حين نزل : « لَوْلا سُنَّةٌ أَحْيَيْتُهَا ، أَوْ بَدَعَةٌ أَمُتُهَا ، لَمْ أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا فَوْاقًا^(٣) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٧ - خطبة له

وخطب فقال :

« أَمَا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَا يَطُورُنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ ، وَلَا يَبْعُدُنَّ عَنْكُمْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، فَإِن مِّنْ زَافَتٍ^(٤) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَعْتِبُ مِنْ سَيِّئٍ ، وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنِ ،

(١) المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمعنى : المنزل . (٢) العمر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا المفتوح في القمم خاصة تخفيفا ، لكثرة استعماله فيه . (٣) الفواق كغراب ويفتح : ما بين الخلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الصرع . (٤) من زافت الحمامة : إذا نشرت جناحها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافتت » .

ألا لاسلامه لامرئ في خلاف السنة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا وإنكم
تعدّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنني
أعالج أسراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه
الأمجى ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبوه ديناً ، لا يرون الحق غيره . ثم قال :
« إنه لحبيب إلى أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ، ولا قوة إلا بالله . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٨ - خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إنما يراد الطبيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشد من الجهل ،
ولا داء أخبث من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت . » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

١٨٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا^(١) ، والله ما كان لهم أن
يُعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه
دون الله محاسب ، ألا وإنني قد ردّتها ، وبدأت بنفسى وأهل بيتي » اقرأ يا مزاحم
- وكان مولاه -

وقد جرى قبل ذلك بسقط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله

(١) يريد آباءه وما ورثوه إياه .

عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جِلْمٌ^(١) ، فجعل يقصه ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودى بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٩٠ - خطبة له

وكان يخطب فيقول :

« أيها الناس : من ألمّ بذنب فلْيَسْتَغْفِرِ اللهُ عز وجل وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٩١ - خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرّون ، فوجدت المصدّق به أحقُّ^(٢) ، والمكذّب به هالكاً » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

١٩٢ - خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لاتستصغروا الذنوب ، واتمسوا تمحيصَ ما سلفَ منها بالتوبة منها ، إن الحسنات يذهنّ السيئات ، ذلك ذِكرى للذاكرين . وقال عز وجل : « وَالَّذِينَ

(٢) أي أحق بثواب الله ونعيم جنته .

(١) مقص .

إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٩٣ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سقر زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا
كمن عين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرغبوا ورهبوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد ،
فتفسؤ قلوبكم ، وتفقادوا لمدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح
بعد إمائه ، ولا يُنسى بعد إصابحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفَات المفايا ، فكم رأينا
ورأيتم من كان بالدنيا معترًا ، فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تقرَّ عين^(١)
من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ
من كَلَم إلا أصابه جرح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعود بالله أن أمركم
بما أنهى عنه نفسه ، فتخسرَ صفتي ، وتظهر عورتى ، وتبدو مسكنتى ، في يوم يبدو
فيه الغنى والفقير ، والموازن منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عنيت بأمر لو عنيت به
النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لدابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون
أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرُونَ إلى إحداها ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

(١) قرت عينه : بردت وانقطع بكائها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه .

١٩٤ - خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأجملوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سعةً وبلغةً ، وكفافاً ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فـسـكـانٌ لم يكن وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعابنتم تعجيل إخراجهِ ، وقسمة تراثهِ ، ووجهه مفعود ، وذكرة منسي ، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمُر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحقر فيه مثقال ذرة في الموازين . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩٥ - خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، ومن لم يعدّ كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه بما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) وفي رواية : « فلن يعدر » ، أغدره وغادره : تركه . (٢) القنوع : الرضا بالقسم .

(وهو أيضا السؤال والتذلل) . (٣) ساق المريض : شرع في نزع الروح .

(٤) أى المحافظة على وده .

١٩٦ - خطبة له

وحدث شبيب بن شيبه ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدوهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه في يوم عيد ، وعليه قميص كتان ، وعمامة على قنسوة لاطئة^(١) ، فثقلنا بين يديه ، وسلمنا عليه ، فقال : مه أنتم جماعة وأنا واحد ، السلام على ، والرّد عليكم ، وسلم فرددنا ، وقربت له دابته فأعرض عنها ، ومشى ومشينا ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« وِدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَيَّ قُرْأَتِهِمْ ، حَتَّى نَسْتَوِي نَحْنُ بِهِمْ ، وَأَكُونُ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثم قال : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَسْكُمُ فَارِقًا : حَتَّى يَكِي النَّاسَ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثم قطع كلامه ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلت الناس بما أرقّ قلوبهم وأبكامهم ، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه ، فقال : يا رجاء إنى أكره المباهاة .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٧ - آخر خطبة له

وخطب بخصاصة^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ارحمه الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا ، وَلَمْ تُنَزَّ كَمَا سُدِّي ، وَإِنْ لَكُمْ مَعَادًا يَحْكُمُ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَكُمْ ، فَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَحُرِّمَ الْجَنَّةُ الَّتِي عَرَّضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ غَدًا لِمَنْ خَافَ رَبَّهُ ، وَبَاعَ قَلِيلًا بِكَثِيرٍ

(٢) خصاصة : بلد بالشام من عمل حلب .

(١) لاطئة : لازقة .

وقانياً بيباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب^(١) المهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرُدُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تسيِّمون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نَحْبَهُ^(٢) وبلغ أجله ، ثم تفتيَّبونه في صدع^(٣) من الأرض ، ثم تدَّعون غير مؤسِّد ولا مُمَهَّد ، قد خلغ الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، مرتَهناً بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وإيمُ الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سدَّناها ، ولا أحد منكم إلا ودِّدت أن يده مع يدي ، ولحُتِي^(٤) الذين يَلُونِي ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وإيمُ الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غَضارة^(٥) لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، لسكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى ، فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ، فلم يرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولابن عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

١٩٨ - خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس . اَلْحَقُّوا ببلادكم ، فإنى أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا وإني قد استعملت عليكم رجلاً ، لا أقولُ مُمَّ خِيَارُكُمْ ، ولكنهم خير ممن هم شرٌّ منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُهُ بِمَظْلَمَةٍ فَلَا إِذْنَ لَهُ عَلَيَّ^(٦) ، ألا وإني مَنَعْتُ نَفْسِي وَأَهْلَ بَيْتِي هَذَا

(١) جمع سلب بالتحريك : وهو ما يسلب . (٢) للنحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .
(٣) شق . (٤) اللحمية : القرابة . (٥) الغضارة : النعمة ، والسعة ، والخصب .
(٦) أى يدخل على بلا إذن ، لا يحول بيني وبينه حاجب .

المال ، فإن صَدَنْتَ به عليكم إني إذن لضمنين ، والله لولا أن أنعش^(١) سنة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فَوْاقًا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٩ - كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مسئلة بن عبد الملك في المرضة التي مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين « إنك قطعت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركهم عائلة^(٢) ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلوأوصيت بهم إلى أو إلى نظرائك من أهل بيتك ، لكفيتك مئوتهم إن شاء الله » فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :

« الحمد لله ، أبا لله تخوفني يا مسئلة ! أما ما ذكرت من أني قطعت أفواه ولدي عن هذا المال ، وتركهم عائلة ، فإني لم أمنهم حقاً هو لهم ، ولم أعظم حقاً هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوصاة إليك ، أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب ، وهو يتوكل الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يسراً ، ورزقه من حيث لا يحتسب . ورجل غير وفجر ، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني ، فدعوم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بني : إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لاتمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني مئيت^(٣) رأي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان

(١) نمشه كنع وأنمشه : رفعه . (٢) فقراء جمع مائل من عال يعيل عيلة (بفتح العين) أى افتقر .

(٣) المئيل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمائل بينهما

أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بنيَّ
عصمكم الله ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

(المعقد الفريد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

٢٠٠ - مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذبُ الخارجي - واسمه بسطام من بني يشكر -
فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك
منى فهُلمَّ إليَّ أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان
في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك
رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشياً اسمه عاصم ،
ورجلا من بني يشكر ، فقديما على عمر بخناصرة ، فأخبر بمكانهما ، فقال : فتشوها
لا يكن معهما حديد وأدخولهما ، فلما دخلا قالوا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر :
أخبراني ما الذي أخرجكم منخرَجكم هذا ؟ وما نعمتم علينا ؟ فقال عاصم : ما نعمنا سيرتك ،
إنك انتحرتي العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس
ومشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ،
وعهد إليَّ رجلٌ كان قبلي ، فقامت ولم ينكره عليَّ أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون
الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فأتركوني ذلك الرجل ، فإن خالفت
الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالوا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتناه
فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟
قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن
زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فآلعتهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك
أو يفرق ، فتسكلم عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا تخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لئامانا وقال إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال الله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدَهُ » : وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته . قال : أفتيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أحب الخلق وشرهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟ قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقر به وبشرائمه قبل منه ، فإن أحدث حديثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورؤد أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ومن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل علمتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذراري ؟ قال : نعم . قال : فهل علمت أن عمر قام بعد أبي بكر ، فردت تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قال : نعم ، قال : فهل برى عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قال : لا . قال : فأخبراني عن أهل التمهزان أليسوا من صالحى أسلافكم ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قال : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قال : نعم . قال : فهل علمت أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قديك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن حباب

ابن الأرت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريةته ؟ ثم صبّحوا
حيًا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون
الصبيان في قدور الإقط^(١) وهي تفور ؟ قالوا : قد كان ذلك . قال : فهل يرى
أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالوا : لا . قال : فهل
تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالوا : لا . قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالوا
بل واحداً . قال : فهل يسعكم فيه شيء يميز عني ؟ قال : لا . قال : فكيف وسعكم أن
تواثم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى
بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعني
فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ وَيَحْكُمُ إِنْكُمْ قَوْمُ جِهَالٍ ، أردتم أسراً
فأخطأتموه ، فأنتم ترثون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن
عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من آمن عنده . قالوا : مانحن كذلك . قال عمر :
بل سوف تقرّون بذلك الآن : هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث إلى
الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله ، فن فعل ذلك حقن دمه ، وأحز مالاً ، ووجبت حرمة ، وكانت له أسوة
المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : أفلمستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فنستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من
اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرّمون دمه ؟ فقال الإشكري : أرأيت
رجلاً وليّ قوماً وأموالهم فمدل فيها ، ثم صيرها بعهده إلى رجل غير مأمون ، أترأى
الحق الذي يلزمه الله عز وجل ؟ أو ترأى قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفنسلم هذا الأمر
إلى يزيد^(٢) من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيري ،

(١) الأقط بفتح الهمزة وكسرهما : شيء يتخذ من المخيض الغني .

(٢) هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك من صنع من ولاء حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظرنى (١) ثلاثاً فخرجنا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر للبشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجبتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعتاء ، فتوفى بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمر يزيد وخصمت فيه ، فاستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاء سما ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزى ٧٧)

٢٠١ — تأييده ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجليه ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال .

« رحمك الله يا بؤى ، فقد كنت برّاً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنت قط أشدّ سروراً بك ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلّمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٦٤)

٢٠٢ — خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بَطْراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما لي بإطراء نفسي ، وإني لظالم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضباً لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدِيتَ مَعَالِمُ الْهُدَى ، وأُطْفِئُ نُورَ أَهْلِ التَّقْوَى ، وظهر الجَبَّارِ العنيد^(٢) ، المستجِلُّ لِكُلِّ حُرْمَةٍ ، والرَّابِكُ لِكُلِّ بِدْعَةٍ ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابنُ عمِّي في النسب ، وكَفِيئِي^(٣) في الحَسَبِ ، فلما رأيت ذلك استخَرْتُ الله في أمره ، وسألته ألاَّ يَكَلِّفَنِي إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك مَن أجابني من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطَهَّرَ مِنْهُ الْبِلَادَ ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس : إن لكم على ألاَّ أضع حجراً على حجر ، ولا لَبِنَةً على لبنة ، ولا أكرِي^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيهِ زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أنقله من بلد إلى

(١) قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهمكا في اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهك حرمت الله ، فلما أفضت إليه الخلافة ، لم يزد إلا انغماسا في اللذات ، واستهتارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغضاب أكابر أهله ، والإساءة إليهم ، وتنفيرهم ، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعده ، وتوفى هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ . (٢) يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح فالأ في المصحف فخرج « وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فنصبه غرضاً للنشأ وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد
إذا لا قيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

(٣) كفيته وكفوّه بضم الكاف وكفاؤه بكسرهما : مثله . (٤) كرى النهر : استحدث حفره .

بلد ، حتى أسد ففر ذلك البلد وخصاصة^(١) أهله ، فإن فضلَ فضلُ ، ونقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أُجرمكم^(٢) في بيوئكم ، فأفتنكم وأفتنَ أهلكم ، ولا أغلق بابي دونكم ، فإنا كل قوبئكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما اجلبهم به عن بلادهم ، وأقطع به نسلهم ، ولكم على إدرارُ المطاء في كل سنة ، والرزق في كل شهر ، حتى يستوى بكم الحال ، فيكون أفضلكم كأدناكم ، فإن أنا وفيت لكم ، فماليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمسكافة^(٣) ، وإن لم أف لكم ، فماليكم أن تخاموني إلا أن تستثيبيوني ، فإن أنا تبت قبلي مني ، وإن عرقتم أحداً يقوم مقامي ، ممن يُعرف بالصلاح ، يُعطيكُم من نفسه مثل الذي أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من بايعه ، ودخل في طاعته .

أيها الناس : إنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخلاق ، ولا وفاء له بنبقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يُعصى ويقتل ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،
الفخرى ص ١٢٠ وتاريخ الطبري ٩ : ٢٦)

٢٠٣ وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له :
« إن أباك كفى أخاه (يعني معاوية) عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً ، فلا تقبلن علي عذر مني لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وإياك مني قبل أن أقول إياي منك ، فإن الظن إذا أخلف منك أخلف مني فيك ، وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك ، فلا تُريح نفسك ، وكن لنفسك تكن لك ، واذكر في يومك أحاديث غَدِكَ تسعد إن شاء الله تعالى . »
(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

(١) الفقر والحاجة . (٢) جمر الجيش : حبسهم في أرض العدو ولم يقفاهم . (٣) المعاونة .

خطب عتبة بن أبي سفيان^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٤ - خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا^(٢) ، فإن الله فيكم ذبيحا لعنمان ، أرجوان يوليى نسكته ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بحطّة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة^(٣) منه عليكم ، وقد بلغنا عنكم نجم^(٤) قول ، أظهره تقدّم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتننة وإماتة الشئب ، فأطأكم الله وطاة ، لارمق^(٥) معها ، حتى تُنكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشفوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذى يعلم خائنة الأعين^(٦) ، وما تخفى الصدور .
(المقد الفريد ٢ : ١٥٨)

-
- (١) ولاء أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣) وأقام متبعا واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفى في ذى الحجة سنة ٤٤ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : « أنه توفي سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣ » ، ولسكنى قرأت في تاريخ الطبرى أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضا في حوادث سنة ٤٧ « واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان. وقال غيره : بل الذى حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . (٢) أصله الزرع المحصود . (٣) هكذا في الأصل وقد يكون « ومنة » . (٤) من نجم الشيء : إذا ظهر وطاع . (٥) الرمق : بقية الحياة . (٦) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٢٠٥ - خطبة له في تقريرهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

« يا حاملي الأمم أنوفٍ رُكِّبت بين أعين ، إنما قَلَّمْت أظفاري عنكم ، لِيَلِينَا مَسِيَّ إِيَّاكُمْ ، وسألتمكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذا أبيتُم إلا الطعن على الأسماء ، والعتب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطعن بطون السِّياط على ظهوركم ، فإن حَسَمْت مُسْتَشْرِي^(١) دَائِكُمْ ، وإلا فالسيفُ من ورائكم ، فكم من عظة لنا قد صَمَّت عنها آذانكم ، وزجرَةٌ مناقدٌ مَجْنَهَا قلوبكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مُؤَيِّساً لكم من المراجعة إلى الحسنی ، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى . » (صبح الآئشي ١ : ٢١٦ ؛ والمقد للفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمال ١ : ٢٤٥)

٢٠٦ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أَرْجَفَ أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر ، والكتاب في يده فقال :

« يَا أَهْلَ مِصْرَ : قد طالت معانبتنا إِيَّاكُمْ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَظُبَاتِ السِّیُوفِ ، حتى صرنا شَجِيَّ فِي لَهْوَانِكُمْ ، مَا تُسَيِّعُنَا^(٢) حُلُوقَكُمْ ، وَأَقْدَاءَ فِي أَعْيُنِكُمْ ، مَا تَطْرَفُ^(٣) عَلَيْهَا جَفُونِكُمْ ، أَلْحِينَ أَشْتَدَّتْ عُرَى الْحَقِّ عَلَيْكُمْ عَقْدًا ، وَاسْتَرَخَتْ عُقَدَ الْبَاطِلِ مِنْكُمْ حَلَاً ، أَرْجَفْتُمْ بِالْخَلِيفَةِ ، وَأَرَدْتُمْ تَوْهِينَ^(٤) السُّلْطَانِ ، وَخَضَمْتُمْ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَأَقْدَمْتُمْ عَهْدَكُمْ بِهِ

(١) استشرى الداء : عظم وتفاقم . (٢) هو ما اعترض في الخلق من عظم أو نحوه ، والهوات

جمع لهاة : وهي اللحمة المشرفة على الخلق ، وأساغه : ابتلغه . (٣) جمع قذى : وهو ما يقع في العين

والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بعينه : حرك جفניה . (٤) إضعاف .

حديث؟ فازبحوا أنفسهم إذ خسرتهم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ،
والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا مآظهم ،
نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أمررتهم شرّاً ، فإنكم حاصدون ما أنتم
زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تمتدرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد
وليككم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ترادكم^(١) بيده ، وإن استصعبتم
ترادكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمّل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع
والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئنا نؤدّر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها
السنتنا حتى عُقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم نأجزاً بنأجز^(٢) ،
ومن حدّر كمن بشر ، فنأدوه سمعاً وطاعةً ، فنأدام عدلاً عدلاً . (المقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٨ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يظنون على الولاية ويميون
السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خفّ على السنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم

(١) يقال : تراد البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . (٢) النأجز والنأجز : الحاضر ،
ومن أمثالهم : نأجزا بنأجز ، أي حاضرنا بحاضر ، كقولك يدا بيد ، وعاجلا بماجل ، وقالوا أبيعكم
الساعة نأجزا بنأجز : أي معجلا .

تأتونه ، كالحجار يحمل أسفاراً ، أنقله حماتها ، ولم ينفعه علمها ، وإيمُ الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرّة ، ولا أبطى عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوم سهماً بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب

(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٩ - خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريبٌ عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تَمُدُّوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمنٍ حتفه فى أميئته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوآ ، فإن لوآ قد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلاً على كل » .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحْسِنُوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسننا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستتمامه ، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا ، رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالأمومة ، ويقرب إليكم بالخشولة ، وقد كثر عياله^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله

(١) العيال جمع عيل كعجيد : وهو من يلزم الإنفاق عليه .

منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا لك بِغناك ، فليت إسرعنا إليك يقوم بإطاعتنا عنك .

(الأمالي ١ : ٢٤٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

٢١٠ - خطبته في علمته التي مات فيها

ولما اشتكى شكاياه التي مات فيها تحمل إلى المنبر فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهرَب من ذنب ، إنه قد تقدّمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجرَ فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزرَ منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنيائى كلّى معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقّى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا ترونه عادداً إليكم » ، فلم يعد .
(المقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢١١ وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدّب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بَنِي إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسن ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تُكْرِههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روِّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكّموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلَّةٌ للفهم ، وتهدِّدٌم بي ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، وروِّهم سير الحكماء ، واستزدن

مزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تتكلم على عذر مني لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وزد في تأديبهم أزدك في برِّي إن شاء الله تعالى .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢١٢ - وصية سعيد بن العاص^(١) لابنيه

لما وُلد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضلّه على ولده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمرًا معهم ، وقال :

« يَا بَنِيَّ ، قد عرفتم خيرة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرًا ، لذو همة وإعدة^(٣) ، يسمو جدّه ، ويبعد صيته^(٤) ، وتشدّد شكيمة^(٥) ، وإني أمركم إن نزل بي من الموت مالا يحيص عنه ، أن تظاهروه وتوازروه وتغرّروه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ^(٦) عنكم اللثام ، ويلبسكم عزًا لا تنهجه^(٧) الأيام . »

فقالوا جميعًا : « إنك تؤثّره علينا ، وتحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ماستره

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان ابن الحكم عن المدينة ويولي مروان إذا عزل ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

(٢) شب وانتقل عن حد الصفر . (٣) من قولهم شجرة واعدة : إذا ظهر لرائتها أن قدحان إثمارها ، وأرض واعدة : إذا رجع خيرها من الثبت ، وظهر لرائتها أن قد قرب إمكان المرعى بها ، وفرس واعد : يعدك جريا بمدجري ، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، ويوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أوله .

(٤) الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . (٥) الشكيمة : الأنفة ، وفي اللجام : الحديد الممرضة في فم الفرس . وهو مثل يضرب للصرامة في الأمور والمضاه فيها .

(٦) أى يبعد ويطرده . من خسأ الكلب كنع : طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد . (٧) أى لا تبليه . لنهج الثوب ونهجه (كمنه) : أخلقه وأبلاه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء ، وأنهج : بلى .

البنى عنكم» ، وصرّهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان ، وراهق^(١) عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم ترّوا إلى أخيك عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلجِف^(٢) في مسألتى مالى ، فأحسُّ غيِّله^(٣) لصغره ، وأحسِّبه^(٤) بالشىء دون الشىء من مالى ، إلى أن استثببتُ أن أمه بأغيّته^(٥) على ذلك ، فزجرتها فلم تكف ، وهذا تخرّجه الآن من عندى ، جاء يسألنى الصمصامة^(٦) ، كأن لا ولد لى غيره ، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، لتعلم أمه من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا ، فقال : « يا بني ، والله ما آثرته دونكم بشىء من مالى قط ، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلاقاً تساهلت فيه ، لما أمّلته من صلاح أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المخذع^(٧) ، فدخلوا المخدع ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال :

(١) راهق الغلام : قارب الحلم (بضمّتين) . (٢) يلج . (٣) العيل والعيلة : الانتقار والفاقة ، وأحس : أى أقطع وأحعو ، من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفى الأصل فأحسن بالنون أى أجمل فقره حسنا وأزيل قبحه بمطافى إياه والأول أحسن) .
(٤) حسبه (بالتشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى . (٥) بناه الشىء : أعانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه باعته على ذلك ») . (٦) الصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان قد صار إلى سعيد بن العاص . وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة أمراءه ، أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو ابن معد يكرب ، فقداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بخمسين ألف درهم ، ووهبه المهدي لابنه الهادى فدعا به بعد ماولى الخلافة فوضعه بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف شعرا ، فبذم ابن يامين البصرى ، فأعطاه الهادى السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ، وقال : دخلتم معى ، وحرمت من أجل ، وفى السيف هوض ، ثم بحث إليه الهادى ، فاشترى منه السيف بخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه باغزا التركى ، فقتله به ، ومن عند باغزا انقطع خبره . « اقرأ خبر الصمصامة فى سرح العميون ، ص ٣١٢ ، والأغافى : ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ » . (٧) المخدع بضم الميم وكسرها : الخزافة - بيت صغير يحرز فيه الشىء - .

« يا بَنِيَّ : إني عليك حَدِيبٌ ^(١) مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٢) إخوتك على مكانك مني ، وإني لا آمَنُ بَبَقَّةِ الأجل ، ولي كَنزٌ أدخرته لك دون إخوتك ، وهأنا مُطْلَعٌ عليه ، فاكتمْ أمره . »

فقال : « يا أبت ، طال مُعْزُك ، وَعَلَا أَمْرُك ، إني لأرجو أن يُحْسِنَ اللهُ عنك الدَّفَاعَ ، وَيُطِيلَ بك الإمتاع . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعْجِبُنِي أن أقطع دون إخوتي أمرا ، وأزرع في صدورهم غمرا ^(٣) . »

فقال : « انصرف يا بني ، فإدراك أبوك ، فوالله مالي من كنز ، ولكني أردت أن أُبْلُوَ رأيك في إخوتك وبنِي أبيك » فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخذع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتَقَمَهُم على اتباع مشورته . (أنباء نجباء الأبناء ص ١٠٠) .

(١) متعطف شفيق . (٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة :

لم يره أهلا له . (٣) الغمر محركة والغمر بكسر الغين : الخفة والضعف .

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(١)

(قتل سنة ٥٦٩ هـ)

٢١٣ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد عليه وَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ وعليه جُبَّةٌ خَزَقْرِمِزٌ^(٢) ، وَمُطْرَفٌ^(٣) خَزَقْرِمِزٌ ، وعمامة خزقرمز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرّكم أنكم فعاتم ما فعلتم فعمفونا عنكم ، أما إنه لو أُثْبِتُمْ^(٤) بالأولى ما كانت الثانية ، أغرّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأرنا^(٥) منا رقيقاً ، قد فني غضبه وبقى حلمه ، اغتتموا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المتقبل البعيد الأمل ، الطويل

(١) لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداقه (جمع شدق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (يفتحون وهو سمة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سمة الفم والشدقين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :
تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أقدم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى »
وقد ولي معاوية مكة ولابنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله . (٢) القرمز : صبيغ أحمر . (٣) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .
(٤) الثواب : الجزاء . (٥) الثائر : الآخذ بالثار ، ووافقتم : أي وجدتم .

الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(١) ، لئین شديد ، رقيق
كثيف ، رقيق عفيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر ببصره ،
واستقبله بأشهره ، فهو إن عَضَّ نَهَس^(٢) ، وإن سطا فَرَس^(٣) ، لا يُقَلِّقُ له الحمى ،
ولا تُقَرِّعُ له العصا^(٤) ، ولا يمشی السَّمَّهِى^(٥) ، فما قى بعد ذلك إلا ثلاث سنين
وثمانية أشهر حتى قَصَمَهُ اللهُ .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٤ - خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد والياً على
مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشى ولا أموى إلا أن يكون الحارث بن نوفل ، فلما لقيه قال له :
يا حارٍ ، ما الذى منع قومك أن يلقونى كما لقيتنى ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتنى
به ، والله ما كنتيتنى ، ولا أتممت اسمى ، وإنما أنك عن التشدُّر^(٦) على أكفائك ،
فإن ذلك لا يرفعك عليهم ، ولا يرضهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك
على النصيحة ، وإن الذى رأيت منى تَخَلَّقَ^(٧) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، حمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكناها غبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً ، ولذلك
كنا إذ ارفعت لنا الأهوَّة^(٨) بعد الأهوَّة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ، ثم شرح^(٩) أمر

(١) رجل حديد يكون فى السن والفهم والغضب ، وحده عليه : غضب . (٢) نهس اللحم : أخذه
بمقدم أسنانه ونثفه . (٣) فرس فريسته : دق عنقها . (٤) يشير إلى المثل المشهور « إن للعصا
قرعت لئى الحلم » وقد سبق شرحه فى ص ١٨٤ . (٥) السهمى والسهمى : الباطل والكذب ،
يقال : ذهب فى السهمى أى فى الباطل : وجرى فلان السهمى : أى جرى إلى غير أمر يعرفه .
(٦) تشدر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر والمراد هنا التكبر . (٧) الخلق : البالى
والمراد أنه لا يعود إليه . (٨) الأهوَّة بالضم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجزؤها .
(٩) من الشرح بالتحريك : وهو انشقاق القوس . قوس شريح : فيها شق ، والمراد حدث ونجم .

بين أسرين ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، قولي رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، واختياره له ، ثم ولي أبو بكر لسابقته وفضله ، ثم ولي عمر ، ثم أُجِيتَ قِدَاحٌ نَزَعَنَ مِنْ شِعَابٍ^(١) جَوْلَةَ سَعَةٍ ، ففازَ بِمَحْظِيَّتِهَا^(٢) أصلها وأعتقها ، فكنا بعض قداحها ، ثم شرح أسرين أمرين فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، وعاد الحرام حلالاً ، وأُسكِتَ كُلُّ ذِي حِسٍّ عَنْ ضَرْبِ مُهْتَدٍ ، عَزَّ كَأَنَّكَ ، وَعَشَفْنَا عَشْفًا ، وَخَزَأْنَا وَهَسَأًا ، حتى طابوا عن حقنا نفساً ، والله ما أعطوه عن هَوَادَةٍ ، ولا رضوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حَقَّنَا غُلِبْنَا عَلَيْهِ ، فجزيناه هذا بهذا ، وهذا في هذا . يَأْهَلُ مَكَّةَ : أَنْفَسَكُمْ أَنْفَسَكُمْ ، وَسَفَهَاءَكُمْ سَفَهَاءَكُمْ ، فَإِنْ مَعِيَ سَوْطًا نَكَالًا ، وَسَيْفًا وَبَالًا^(٣) ، وكلُّ مَنْصُوبٍ عَلَى أَهْلِهِ ، ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٥ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية

تلاحي^(٤) الوليد بن عقبة ، وعمرو بن سعيد بن العاص في مجلس معاوية ، فتكلم الوليد فقال له عمرو : كَذَبْتَ أَوْ كَذَبْتَ^(٥) ، فقال له الوليد : اسكت يا طليق اللسان ، منزوع الحياء ، وبيا الأمم أهل بيته ، فلمعمرى لقد بلغ بك البخل الغاية الشائنة المذلة لأهلها ، فساءت خلائقك لبخلك ، فَنَمَمْتَ الْحَقُوقَ ، وَلَزِمْتَ الْعُقُوقَ ، فَأَنْتَ غَيْرَ مَشِيدِ الْبِنْيَانِ ، وَلَا رَفِيعِ الْمَكَانِ ، فقال له عمرو : والله إن قریشًا لتعلم أنى غير حُلُو المذآقة ، ولا لفيذ

(١) الشباب جمع شعبة بالضم : وهى ما بين الفصين وطرف الفصن . يشير إلى أصحاب الشورى السعة .

(٢) الحظي : ذو الحظوة أى المكانة . (٣) أى سوطًا ذا نكال . وسيفًا ذا وبال .

(٤) تنازع . (٥) كذب الرجل : أخبر بالكذب .

المَلَائِكَةِ^(١) ، وإني لك الشجاع^(٢) في الخلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل ، داهية
النهار ، لا أتبع الأفياء ، ولا أنتهي إلى غير أبي ، ولا يُجهل حسبي ، حامٍ لحقائق
الدُّمار^(٣) ، غير هيَّوب عند الوعيد ، ولا خائف رِعْدِيد^(٤) ، فلم تُعَيِّر بالبخل وقد جُبلت
عليه ، فلمعري لقد أورتك الضرورة لؤمًا ، والبخل فُحْشًا ، فقطعت رِحْمَكَ ، وجررت
في قضيتك ، وأضعت حق من وليت أمره ، فلست تُرْجِي للعظام ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا
تستعِف عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحْكَمْ منك التدبير ، فأختم الوليدُ؛ فقال معاوية:
— وساء ذلك — كَفًّا لأبأ لكما ، لا يرتفع بكما القول إلى مالا نريد ، ثم أنشأ
عمرو يقول :

وَلِيدٌ إِذَا مَا كَفْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الْوَقَارُ عَلَى بَالٍ
وَلَا يَبْدُرُنَ الدَّهْرَ مِنْ فَيْكَ مَنْطِقٌ بَلَا نَظَرَ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالٌ^(٥)
(الأمال : ٢ : ٤٠)

٢١٦ - خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشْق ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : إنه لم يقم أحد من قریش قبلي على هذا المنبر ، إلا زعم أن له الجنة
ونارا ، يُدْخِل الجنة من أطاعه ، والنار من عصاه ، وإني أخبركم أن الجنة والنار
بيد الله ؛ وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم على حُسنِ المؤاساة والمطية » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٧٦)

(١) اللوك: أهون المفضح أو مفضح صلب . (٢) ما عرض في الخلق من عظم ونحوه .
(٣) ماتجيب حمايته . (٤) جبان . (٥) يبدر : يفرط ويسبق .

٢١٧ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك فقال : لقد هممت اليوم يا أخي أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بدس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرتت به فعبت بها وأصغرتني ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبت بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقة فرفع رأسه وقال :

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) فقال خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) . فقال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل أمس علي فما أقام لسانه لحنًا ، فقال خالد : أفعل الوليد تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال له : اسكت ويحك يا خالد ! فوالله ما تمعدت في العير ولا في النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب العير والنفير غير جددي أبي سفيان صاحب العير ، وجددي عتبة صاحب النفير^(١) ؟ ولكن لو قلت : غنيمات وحبيبات والطائف ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٣٠٢ وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

(١) انظر ص ١٤٧ . (٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص «جد عبد الملك» إلى الطائف - انظر ص ١٠٤ - أقام بها ، فسكان يرعى غنيمات اتخذها يشرب من لبنها ، ويأوى إلى حبيبة «مصغر حيلة كفرصة : وهي السكرمة» وقوله رحم الله عثمان : أي لرده إياه ، وقد أي أبو بكر وعمر أن يرداه .

٢١٨ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(١) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخات عليه الأموال التي جاءت من قبيل الحجاج ، حتى وضعت بين يديه فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا مانع لهذا ، (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ^(٢) فاسق ، فأدوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية^(٣)) فأهدى إلى برذونين حطمين^(٤) ، فإن استعملتكم ضيعتكم ، وإن عزلتكم قلم استخف بنا ، وقطع أرحامنا .

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهل رجلان : سامع مطيع مناصح ، وعدو مبغض مكاشح^(٥) ، فأما السامع المطيع المناصح فإننا جزيناه ، ليزداد ودًا إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضيفه ، وسألنا حقه ، وكثرنا لك المودة في صدور رعيتك ، وإن هذا جبي الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال » .

فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد » .

(العقد الفريد ٢ : ١١٧)

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وعزله عنها سنة ٧٤ وولاه أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه . (٢) لط حقه وألطفه : جرده . (٣) هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها . (٤) فرس حطم ككتف : إذا هزل وأسن فضصف وتهدم . (٥) الكاشح : الذي يضمرك العداوة ، كشح له بالعداوة وكاشحه بمعنى .

٢١٩ - نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفیان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفیان رجلاً يشتم رجلاً ، وآخر يسمع منه ، فقال للمستمع :

« نَزَّ سَمْعُكَ عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَلْقِ ، كَمَا نَزَّ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّمْعَ شَرِيكَ الْقَائِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرَ إِلَى شَرِّ مَا فِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةٌ جَاهِلٍ فِي فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَائِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢٢٠ - تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ - فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدْخَلَ فِجْلَسَ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَالْأَحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَدِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنَ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا تَمَلَّكَ أُمُورُكَ ، تَمَلَّكَ تَأْدِيبُكُمْ ، فَأُرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْتَقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كَمَا كُرْهْنَا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢٢١ - كلام معاوية وقد سقطت ثناياه

وَمَا سَقَطَتْ ثَنِيَّتَا مَعَاوِيَةَ لَفَّ وَجْهُهُ بِعِمَامَةٍ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالَ :

« لَنْ أَبْتَلِيَتْ لَقَدْ ابْتُلِيَ الصَّالِحُونَ قَبْلِي ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَنْ

(١) وجد : غضب .

عُوقِبْتُ لَقَدْ عَوقِبَ الخَاطِئُونَ قَبْلِي ، وَما آمَنَ أن أكونَ منهم . ولئن سَقَطَ عُضْوَانُ مِنِّي ، لَمَّا بَقِيَ أَكثَرُ . ولو أتَى عَلَي نَفْسِي لَمَّا كانَ لِي عَلَيهِ خِيَارٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَرحِمَ اللهُ عِباداً دَعَا بِالعَافِيَةِ ، فَواللهِ لئن كانَ عَتَبَ عَلَي بَعْضُ خَاصَّتِكُمْ ، لَقَدْ كُنْتُ حَدِيثاً^(١) عَلَي عَامَّتِكُمْ .

(البیان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٢٢٢ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال :

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديد الأيقظة ، كثير التعاهد لولائه ، فبلغه أن عاملاً من عماله قبيل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال : « أقبِلت هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيّتك على أفضل حال » قال : « أجِبْ فيما سألتك عنه ، أقبِلتَ هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : نعم ، قال : لئن كنت قبِلتَ ولمْ تَعوِّضْ إنكَ لَلثَمِمْ ، ولئن أنلتَ مُهدِيكَ لا من مالك ، أو استكفيتَه ما لم يكن يُستَكفاه ، إنكَ لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تَعوِّضَ المُهدِيَّ إِلَيكَ من مالك ، وقبِلتَ ما أتهمك به عند من استكفأك ، وبَسَطَ لسان عائبك ، وأطع فيك أهلَ عملاك إنكَ لجاهل ، وما فيمن أتى أمرًا لم يَحُلْ فيه من دناءة ، أو خيانة ، أو جهل ، مُضْطَنَعٌ ، نَحِيَّاهُ عن عمله . »

(البیان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناسَ لبيعته سبع سنين ، وبشاور ، وبمُعلَى الأقراب ، ويُداني الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

فقال لعبد الله بن الزبير : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك^(١) ، إن أخاك من صدّك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعلمت السجاعة^(٢) عند الكبر ، فى دون ما سبجت به على ابن أخيك ما يكفيك » . ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلىّ رشداً من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنياً فى المال ، وسَطَافاً فى الحسب ، وإن الله سائلٌ كلِّ راجعٍ عن رعيته ، فأتق الله ،

(١) ناجيته : ساررتة . (٢) وفى المقدم « الشجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد فى كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » . (٣) هكذا ورد فى المقدم الفريد ، وفى مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان ستة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد فى الإمامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفى حياة الحسن بن على رضى الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد توفى الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

وانظر من تولى أمرَ أمة محمد « فأخذ معاويةَ بهزاً^(١) حتى تنفَّس الصَّعداءُ^(٢) ، وذلك في يوم شاتٍ ، ثم قال : « يا محمد : إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، اخرج عني » .

ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري ، فقال له : إذا جلستُ على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذني للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى . واذكر يزيد . وقل فيه الذي يحق له من حسن الثناء عليه . ثم ادعني إلى توليته من بعدى . فإني قد رأيت وأجمعتُ على توليته . فأسألُ الله في ذلك وفي غيره الخيرة^(٣) وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان التقي ، وعبد الله بن مسعدة الفزاري ، وثور بن معن السلمي ، وعبد الله بن عصام الأشعري ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .

وجلس معاوية في أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته ، وهؤلاء النَّفر في المجلس قد قعدوا للكلام - قام الضحاك بن قيس فاستأذن فأذن له .

٢٣٣ - خطبة الضحاك بن قيس الفهري

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ، إننا قد بلونا^(٤) الجماعة والألفة ، فوجدناها أحسنَ للدماء ، وآمنَ للسُّبُل ، وخيراً في العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُترك سُدى ،

(١) البهر بالفتح : العجب (٢) تنفَّس طويلاً . (٣) أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ؛ خارته

على غيره خيرة بكسر الخاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخار الله له في الأمر : جعل له فيه الخير .

(٤) خبرنا .

والأيام عَوَجٌ^(١) رواجع ، وَالْأَنْفُسُ يُعَدِّي عَلَيْهَا وَيُرَاحُ ، وَاللَّهُ يَقُولُ : (كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندرى ما يختلف به الْعَصْرَانُ^(٢) ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ ، كَمَا مَاتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَخُلَفَائِهِ ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِكَ الْمَتَاعَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ دَعَاةِ يَزِيدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحُسْنِ مَذْهَبِهِ ، وَقَصْدِ^(٣) سِيرَتِهِ ، وَبُيْنِ نَقِيْبَتِهِ^(٤) ، مَعَ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحُبِّ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَالشَّبَّهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي عَقْلِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَشِمَّتِهِ الْمَرْضِيَّةِ ، مَا دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ فِي أُمُورِنَا ، وَالقَبُولِ بِهِ فِي الْوَالِيَةِ عَلَيْنَا ، فَلْيُؤَلِّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - عَهْدَهُ ، وَلِيَجْعَلَهُ لَنَا مَلْجَأً وَمَقْرَعًا بَعْدَهُ ، نَأْوِي إِلَيْهِ إِنْ كَانَ كَوْنٌ^(٥) ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَا مِنْهُ ، فَاعْزِمْ عَلَى ذَلِكَ ، عَزَمَ اللَّهُ لَكَ فِي رَشْدِكَ ، وَوَفَّقَكَ فِي أُمُورِنَا » .

٢٢٤ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ أَهْوَاؤُهُ ، قَدْ أَحْدَوْدَبَتْ عَلَيْنَا سِيَاسَاؤُهُ^(٦) ، وَاقْطَوَطَبَتْ^(٧) عَلَيْنَا أَدْوَاؤُهُ ، وَأَنَاخَتْ عَلَيْنَا أَنْبَاؤُهُ ، وَنَحْنُ نُشِيرُ

(١) بمعنى رواجع جمع عابجة اسم فاعل من عاج إذا رجع : أي أن الأيام تعوج على الإنسان فتسلبه ما أعطى من الحياة ومتع العيش . (٢) العصر : اليوم والليله والعشى إلى احمرار الشمس والغداة .

(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) النقيبة : النفس ، وهي أيضا العقل ، والمشورة ، ونفاذ الرأي ، والطبيعة . (٥) أي إن حدث حدث . (٦) السيساء : منتظم فقار الظهر ، وحمله على سيساء الحق أي على حده ، والعرب تضريه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا
على يابن السيساء محدودب الظهر

يقول : حملناهم على مركب صعب كسيساء الحمار ، أي حملناهم على مالا يثبت على مثله .

(٧) اقطوطب : افعول من قطب ، وقب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها « اقطوطى » أي قارب في مشيه إسرعا .

عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السداد ، وأنت يا أمير المؤمنين أحسننا نظراً ، وأثبتنا^(١) بصراً ، ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورضينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اغتباطاً^(٢) ، مع ما منحه الله من الشبه بأمر المؤمنين ، والحيّة في المسلمين ، فاعزم على ذلك ، ولا تضق به ذرعاً^(٣) ، فالله تعالى يُقيم به الأود^(٤) ، ويردع به الألد^(٥) ، ويؤمن به السبل ، ويجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر . ثم جلس .

٢٢٥ — خطبة ثور بن معن السلمي

فقام ثور بن معن السلمي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان ، صاحبه مشاغب^(٦) ، وظله ذاهب^(٧) ، مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميّت ، نسأل الله بك المتاع ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدمنا شرّفاً ، وأبدأنا عرفاً^(٨) ، وقد دعانا إلى الرضا به ، والقنوع بولايته ، والحرص عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه . فاجمله لنا بعدك خلفاً ، فإنه أوسعنا كنفاً^(٩) ، وأقدمنا سلفاً ، وهو رثق لما فُتق ، وزمام لما شعث^(١٠) ، ونكال لمن فارق وناق ، وسلم لمن واظب . وحافظ للحق . أسأل الله لأمر المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، والتوطن في البلاد ، وصلاح أمر جميع العباد .
 ثم جلس .

(١) لعله « وأثبتنا » . (٢) بسط فلانا فانبسط : سره والافتباط : المرة . (٣) ضاق بالأمر ذرماً : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً . (٤) الاعوجاج . (٥) الألد : الحسم الشحيح الذي لا يربح إل الحق . (٦) صاحبه يعني به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون ، اسم معمول من الشغب : وهو تهيج الشر . (٧) كناية عن دنو أجله . (٨) المعروف . (٩) الكنف : الظل والجانب . (١٠) شعث الأمر ، كفرح شعثاً : انتشر وتفرق .

٢٢٦ - خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ، وأهواء منجذمة^(١) ، نحاف حِدَّهَا ، وننتظر حِدَّهَا ، شديدٍ مُنْحَدَرُهَا ، كثيرٍ وَعَرُهَا ، شائخةٍ مَرَّاقِبُهَا^(٢) ، ثابتةٍ مراتبُهَا ، صعبةٍ مرا كِبُهَا ، فالموتُ يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد لا يَخُذُ في الدنيا أحد ، ولا يَبْقَى لِمَا أَمَدَ^(٣) ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، وماخوذ بولايتك ، وأنت أنظر الجماعة ، وأعلى عيناً بِحُسْنِ الرَّأْيِ لأهل الطاعة ، وقد هُدِيَتْ ليزيدَ في أكلِ الأمور ، وأفضلُهَا رأياً ، وأجْمَعُهَا رِضاً ، فاقطع بيزيدَ قَالَةَ^(٤) الكلام ، وَنَحْوَةَ^(٥) المُبِطَلِ ، وَشَمَّتَ المُنَافِقِ ، وَاسْكَبْتَ^(٦) به الباذخ^(٧) للمعادى ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَلْمٌ لِلشَّمَّتِ ، وَأَسْهَلُ الوَعْثِ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تتراعى بك الظنون . »

٢٢٧ - خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آتَرَكَ بِخِلافَتِهِ ، واختصَّكَ بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذا نكايَةٍ لأعدائه ، فأصبحت بأنعمِهِ جَدِلاً ،

(١) جذمه فانجذم : قطعه . (٢) المراتب : جمع مرقب (كجعفر) المكان المشرف ، يقف عليه الرقيب . (٣) الأمد : الغاية والمنتهى . (٤) قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقائل ، والقيل . (٥) الكبر والمظمة . (٦) كبتة : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغيظه ، وأذله . (٧) بنخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ، وشرف باذخ : عال . (٨) وعث الطريق من بابي تمب وقرب : إذا شق على السالك ، فهو وعث (يسكون العين وكسرها) .

وَلَمَّا حَمَلَكَ مُحْتَمِلًا ، يَكشِفُ اللهُ تَعَالَى بِكَ الْعَمَى ^(١) ، وَيَهْدِي بِكَ الْعِدَا ، وَيَزِيدُ
ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُ لِلنَّاسِ بِرِعَيْتِكَ رَأْفَةً ، وَأَحَقَّهُمْ بِالْخِلَافَةِ بِمَدِّكَ ، قَدْ سَاسَ الْأُمُورَ
وَأَحْكَمْتَهُ الدَّهْرُ ، لَيْسَ بِالصَّغِيرِ الْفَهْمِ ^(٢) ، وَلَا بِالْكَبِيرِ السَّفِيهِ ، قَدْ احْتَجَجْتَ ^(٣) الْمَكَارِمَ
وَارْتَبَجَيْتَ لِحْلِ الْعِظَامِ ، وَأَشَدَّ النَّاسِ فِي الْعَدُوِّ نَكَايَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ صُنْعًا فِي الْوِلَايَةِ ،
وَأَنْتَ أَغْنَى بِأَمْرِكَ ، وَأَحْفَظَ لَوْصِيَّتِكَ ، وَأَحْرَزَ أَنْفُسَكَ ، أَسْأَلُ اللهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَافِيَةَ
فِي غَيْرِ جَهْدٍ ^(٤) ، وَالنِّعْمَةَ فِي غَيْرِ تَغْيِيرٍ .

٢٢٨ - خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فَقَالَ مَعَاوِيَةَ لِعَمْرُو بْنِ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ : قُمْ يَا أَبَا أُمِيَّةَ ، فَقَامَ فَحَمَدَ اللهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدَ : فَإِنَّ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ أَمَلٌ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ ، طَوِيلَ الْبَاعِ ،
رَحْبُ الدَّرَاعِ ، إِنْ اسْتَضَقْتُمْ إِلَيَّ حِلْمَهُ وَسِعْمَكُمْ ، وَإِنْ أَحْتَجَجْتُمْ إِلَيَّ رَأْيَهُ أُرْشِدَكُمْ ، وَإِنْ
افْتَقَرْتُمْ إِلَيَّ ذَاتَ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ ، جَذَعٌ ^(٥) قَارِحٌ ^(٦) ، سُوْبِقٌ فَسَبَقَ ، وَمُوجِدٌ فَجَجَدَ ،
وَقُورِعٌ فَفَازَ سَهْمَهُ ، فَهُوَ خَلْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا خَلْفَ مِنْهُ . فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ :
اجْلِسْ أَبَا أُمِيَّةَ . فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ . »

قَالَ مَعَاوِيَةُ : « أَوْ كَلِّمَكُمْ قَدْ أَجْمَعُ عَلَى هَذَا رَأْيَهُ ؟ » فَقَالُوا : « كَلِّمْنَا قَدْ أَجْمَعُ »

(١) العمى هنا : ذهاب بصر القلب . (٢) الفهم والفه : العيسى ، فهو كفرح فهامة .
(٣) احتجن المال : ضمه واحتواه . (٤) المشقة . (٥) الجذع : الشاب الحدث .
(٦) أي شديد مجرب ، وهو في الأصل وصف للفرس ، قرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه
(وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا - وذلك إذا كان في السنة الثانية -
ثم ثنيا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » - في السنة الثالثة - ثم رابعيا « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » - إذا
سقطت رابعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة - ثم قارحا - إذا سقطت السن التي تلي رابعيته
ونبت مكانها ثابته ، وهو قارحه الذي صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ، ولانبات سن ، وذلك
إذا استتم الخامسة ودخل في السادسة) .

رأيه على ما ذكرنا . قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجاب ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٩ - خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنكرِ زمانٍ قد سَكف ،
ومعروفِ زمانٍ مُؤتَنَف^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ اِخْلَافٍ ، فإن تَوَلَّاهُ عهدك ،
فمن غير كِبَرٍ مُفَنٍ ، أو مَرَضٍ مُضِنٍ ، وقد حَكَبَتِ الدهور^(٢) ، وجَرَّبَتِ الأمورَ ،
فَاعْرِفَ من تَسْنُدٍ إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ، وَاَعْصِرِ رأى من يأمرُك ،
ولا يَقْدِرُك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظَرُ للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ،
مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يباليون ليزيد ما كان
الحسن^(٣) حيا . »

٢٣٠ - خطبة الضحاك بن قيس

فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق ، مُرُوءَتُهُم في أنفسهم
الشقاقُ ، وَأَلْفَتُهُم في دينهم الفِرَاقُ ، يَرَوْنَ الحق على أهوائِهِمْ^(٤) ، كما نَمَا ينظرون

(١) مستأنف . (٢) هكذا في مروج الذهب . وفي الإمامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر اشطره »

وأصله من حلب شطرى الناقة (يفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الخاء) والشطركل
خلفين من أخلائها ، والخلف (بكسر الخاء) لها كالفروع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره يدل
من الدهر منصوب . (٣) هذا وما ورد في كلام الضحاك والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت

في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . (٤) أى على أغراضهم وميولهم .

بأَقْفَانِهِمْ . اختالوا جهلا وبطراً . لا يرقبون من الله راقبةً ، ولا يخافون وبأل عاقبةً ،
اتخذوا إبليسَ لهم ربّاً ، واتخذهم إبليسَ حِزْباً . فن يُقَارِبُوهُ لَأَيْسُرُوهُ ، ومن يَفَارِقُوهُ
لا يَضُرُّهُ . فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم ، وكلامهم في صدورهم ، ما للحسن
وذو الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه ؟ هيهات لانتورث
الخلافة عن كلاله . ولا يحجب غيرُ الذِّكْرِ العَصْبَةِ . فوطنوا أنفسكم بأهل العراق
على المناجحة لإمامكم . وكانبِ نبيكم^(١) وصهره^(٢) ، يسلم لكم العاجلُ ، وترجوا
من الآجل .

٢٣١ - خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : إنا قد فررنا^(٣) عنك قريشاً ، فوجدناك أكرمها زنداً ،
وأشدّها عقداً ، وأوقاها عهداً ، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة^(٤) ، ولم تظهر عليها
قمصاً^(٥) ، ولكنك أعطيت الحسن بن عليّ من عهد الله ما قد علمت ، ليكون له الأمر
من بعدك ، فإن تَفِ فأنت أهلُ الوفاء ، وإن تغدير^(٦) تعلم والله أن وراء الحسن خيولاً
جياداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفاً حداداً ، إن تدنُّ له شِبْرًا من غَدَرٍ ، تجدُّ وراءه باعاً
من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذُ أبغضوك ، ولا أبغضوا علينا وحسناً
منذُ أحبوا ، وما نزل عليهم في ذلك خبر من السماء ، وإن السيوف التي شهِرُوها عليك
مع عليّ يوم صفين لعلّى عواتقهم ، والقلوب التي أبغضوك بها ، لبين جوائحهم ، وإيم الله
إن الحسن لأحبُّ إلى أهل العراق من عليّ . »

(١) وكان معاوية من كتاب الوحي . (٢) وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج
النبي عليه الصلاة والسلام . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .
(٤) فتح البلد عنوة : أي قهراً . (٥) مات قمصاً : أصابته ضربة أو رمية فات مكانه .
(٦) غدره وغدر به كنصر وضرب وسمع .

٢٣٢ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلفين ، وكثير منهم منحرف ،
لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون
لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاها ليحل الرعية ،
فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حِلماً وعلماً ، وأوسعنا
كفئاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت به سبيل المذاهب ، فلا يصرفنك
عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ، ممن هو شاسع^(١) عاص ، ينوص^(٢)
للفتنة كل مناص ، لسانه ملتوي ، وفي صدره دلاء دوي ، إن قال فشره قائل ، وإن
سكت فداء غائب^(٣) ، قد عرفنا من هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبية للتوفيق ،
والتكليف للتفريق ، فاجلُ بيعته عنا العمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تجد عنه
إذ هُديت له ، ولا تنبش عنه إذ وقفت له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا
وعليك . أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنه » .

٢٣٣ - خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

« أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخَلاناً ، بهم يستعدُّ ، وإياهم يستعين
وهل ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أو جفوا^(٤) ، وإن استغنى عنهم أرجفوا^(٥) ،

(١) من شمع المنزل كنع : بعد . (٢) ناص مناص : تحرك . (٣) من غاله : أي أهلكه .

(٤) أسرعوا ، وجف البعير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أمديته ، قال تمال :

« فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ » أي ما أعلمم .

(٥) أرجف القوم : خاضوا في أخبار الفتن ونحوها ، قال تمال : « وَالرَّجْفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(١) الْفِتْنَ بِالْفُجُورِ ، وَيَشْتَقُونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عِيَابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوَّأَ
عُرُوءَ أَمْرِ حَنَفِيًّا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلَثِكَ بِمُنْتَهِيْنَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا
مَتَّعْظِينَ ، حَتَّى تُصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٢) خَزْيٍ وَبَيْلٍ ، وَتَحُلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٣) أَمْرِ جَلِيلٍ ،
تَجْتَسِ^(٤) أَصُولَهُمْ كَأَجْتِثَاثِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأَوْلَى لِأَوْلَىكَ ثُمَّ أَوْلَى ، فَإِنَّا قَدْ قَدَّمْنَا
وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النَّذْرُ^(٥) .

٢٣٤ - خطبة يزيد بن المنقع

ثم قام يزيد بن المنقع ، فقال :

« أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية - ، فإن هلك فهذا - وأشار إلى
يزيد - ، فمن أبي فهذا - وأشار إلى سيفه » ، فقال معاوية : اجاس فإنك
سيد الخطباء .

٢٣٥ - خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : أنت أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلايته ، ومدخله
وخرجه ، فإن كنت تعلمه الله رضا ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم

(١) في الأصل « يلحقون » وهو تحريف ، وصوابه : « يلحقون » من ألحق الناقة والنخلة .

(٢) جمع صاعقة : وهي الموت وكل عذاب مهلك . وأرض وبيلة : وخيمة المرتع .

(٣) جمع قارعة ، وهي الداهية الفاجئة . قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ

بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً » . (٤) تقطع ، والفقع بالفتح ويكسر : البيضاء الرخوة من السمكة .

(٥) النذر : الإنذار . قال تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أي إنذارى . وفي الإمامة

والسياسة عقب هذه الخطبة : « فدعا معاوية الضحاك فولاه للكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة » .

منه غير ذلك ، فلا تزوذه الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم مَنْ هُما ، وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إلى البيعة « اللهم إني أعوذ بك من شر معاوية » فقال له معاوية : « تعوذ من شر نفسك ، فإنه أشد عليك وبايع » فقال : « إني أبايع وأنا كاره للبيعة » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : « فَمَسَىٰ أَنْ تَكْفُرَهُوا شَيْئًا وَيَحْمِلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقر في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٦ - خطبة معاوية

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني قد كبر سني ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيت لسكم رضا ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فرُدُّوا على أمير المؤمنين خيراً ، يرحمكم الله » .

٢٣٧ - خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الحمد لله الذي ألهمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه ، وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وآل محمد . أما بعد : فإنك قد تكلمت فأنصتنا . وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من شرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبينا إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً بعلمه ، وهو العالم الخبير ، وأستغفر الله لي ولكم . »

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومُنْتَهَاهُ ، نحمده على إلهامنا حمده ، ونرغب إليه في تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً^(١) ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن هذه أئخلافه إن أخذ فيها بالقرآن : فدأ أولو الأرحام بعصهم أولى ببعض في كتاب الله » وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولو رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأئ الناس أفضل وأكل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وإيم الله لو ولوه بعد نبهم ، لوضعوا الأمر موضعه ، لحقه وصدقه ، ولأطيع الله ، وعصى الشيطان ، وما اختاف في الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيته ، فإنك مسئول عنها غداً ،

(١) الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج : أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تُحْضِرَها ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقلْ أودعْ ، وأستغفر الله لي ولكم .

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بما أثرها السننية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء ، وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسنة وحسيناه وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك . »

٢٤٠ - خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ، ولا قيصرية ، ولا كسروية ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصة ، لمن كان لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، ممن كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قريش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يُغني عنك من الله شيئاً .

٢٤١ - خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قارلتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الناسُ أبا بكر وعمر ، من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمرَ منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله » ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئا من صلاتهم وأعطيتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله (سنة ٥١) إلا يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب ببيعته إلى الآفاق ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليه بذلك ، وأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبي من ذلك وأبته قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنتك ، فأرني رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد وثى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مُعاضبا في أهل بيته وأحواله من بني كنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

(١) قاول : فاعل من القول ، كجاءت وخاطب وكالم . (٢) أعطيات : جمع عطية ، وهو جمع عطاء .

٢٤٢ - خطبة مروان بن الحكم

« إن الله عظيمٌ حَظْرُهُ ، لا يُقَدِّرُ ^(١) قَدِيرٌ قَدْرَهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا ، جعلهم
لدعائهم دينه أوتاداً . هم رُقَبَاؤُهُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَخَلَفَاؤُهُ عَلَى الْعِبَادِ ، أُسْفِرَ ^(٢) بِهِمُ الظُّلْمَ ،
وَأَلَّفَ بِهِمُ الدِّينَ ، وَشَدَّدَ بِهِمُ الْيَقِينَ ، وَمَنَحَ بِهِمُ الظُّفْرَ ، وَوَضَعَ بِهِمُ مِنْ اسْتِكْبَارِ ،
فَسَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ خَلْفَانِنَا ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي سَالِفِ زَمَانِنَا ، وَكُنَّا نَسْكُونُ لَهُمْ عَلَى
الطَّاعَةِ إِخْوَانًا ، وَعَلَى مَنْ خَالَفَ عَنْهَا أَعْوَانًا ، يُشَدُّ بِنَا الْعَصْدُ ، وَيُقَامُ بِنَا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ
فِي الْقَضِيَّةِ ، وَنُسْتَأْمَرُ ^(٣) فِي أَمْرِ الرَّعِيَّةِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ^(٤) ، ذَاتِ
وَجْهِهِ مُسْتَدِيرَةٍ ، تَفْتَحُ بِأَزْمَةِ الضَّلَالِ ، وَتُجْلِسُ ^(٥) بِأَسْوَأِ الرَّحَالِ ، يُؤْكَلُ جَزُورُهَا ^(٦) ،
وَتَمْتَقُّ أَحْلَابُهَا ^(٧) ، فَالْنَا لَانِسْتَأْمَرَ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْمُ اللهُ لَوْلَا
مَهْدُومُوكَدَّةٌ ، وَمَوَائِقُ مُعْتَدَةٌ ^(٨) ، لَأَقْتُ أَوْدَ وَلِيَّيْهَا ، فَأَقِمِ الْأَمْرَ يَا بَنَ أَبِي سَفِيَانَ ، وَاعْدِلْ
عَنْ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَانَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نُظْرَاءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَآءَ .
فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بحلمه ، وأخذ بيد مروان ،
ثم قال :

- (١) قدره من باب نصر وضرب وقدره تقديرًا: عظمه، قال تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»
أي ما عظموه حق تعظيمه . (٢) سفر الصبح وأسفر: أضاء وأشرق ، أو هو متعد من سفرت الحرب
أي ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالمعنى كشف بهم الظلم . (٣) الاستئثار: المشاورة .
(٤) في الأصل «مستخيرة» أي مستخير صاحبها ، من استخار الله في أمره: طلب أن يجعل له فيه الخير ،
وأرى أنها «مستحيرة» بالخاء: أي مستحير صاحبها أي متحير ، من استحار: إذا نظر إلى الشيء ، ففتش عليه
ولم يمتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد «ذات وجوه مستديرة» أي مستعلقة مهمة ليست مستقيمة .
(٥) جلس البعير كضربه : فشاء بجلس (بكسر الخاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة «وفى
الأصل» وتجلس بأسوأ الرجال «بجيمين وهو تصحيف» . (٦) الجزور: البعير ، أو خاص بالناقة
المجزورة . (٧) امتق الفصيل ماقى الضرع شربه كله، والأحلاب جمع حلب (بفتح الحين) وهو اللبن المحلوب.
(٨) اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والعهد: إذا شده .

٢٤٣ - خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعل في الكرم مني تحمداً ^(١) ، والعزيم مني والداً ، اخترت من قُرُومٍ ^(٢) قادة ، ثم استللت سيّد سادة ، فأنت ابن يبايع الكرم ، فمَرَّ حَيًّا بك وأهلاً من ابن عم ، ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نمت ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلوله ^(٣) صمويتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ ^(٤) جسيمها ، ويركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته في كل شديدة وعضده ، والثاني بعد ولي عهده ، فقد وليتكم قومك ، وأعظمت في الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ، ومحسن ريفك ^(٥) ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك ^(٦) . »

٢٤٤ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروي أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
« إن أمير المؤمنين قد كبر سِنه ، ودقَّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى ، فيدع الناس كالنعم لاراعى لها ، وقد أحب أن يُعلم علماً ، ويقم إماماً » ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ، ليفعل ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب إليه أن سمَّ يزيد ،

(١) المختد: الأصل . (٢) جمع قرم بالفتح : وهو السيد . (٣) هكذا في الأصل ، وفي

كتب اللغة : « الذل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصموية ، ذل فهو ذلول ، يكون في الإنسان والذابة . »

(٤) طأطأ رأسه : خفضه فتطأطأ . (٥) الرشد : العطاء والصلة . (٦) قال المسعودي :

« وجعله ولي عهد يزيد : وردة إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمران بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة . »

فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد ، وخطبهم فخصمهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بني عدي رضي دينه وأمانته ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تتحدثوا علينا سنة الروم ، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل ، فقال مروان : « أيها الناس : إن هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْرُ أَفٍّ لَكَا أْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

(١) أخرج : أبعث ، قال صاحب الأملال : « فسمعت ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت : الابن الصديق يقول هذا ؟ استروني فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسبه » ، وقال المفسرون في هذه الآية : « والمراد (بالذي قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : نعمت عبد سوء : عاق اولديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأنف بهما ، وقال : ابعثوا إلى جدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألهما عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس لبزود ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبناؤكم ؟ فقال مروان : يأبها الناس هو الذي قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْرُ . . . الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اهـ .
(وقولها فضض كجبل ويروى كمتق وخراب أي قطعة منها) .

وجاء في السيرة الحلبية (١ : ٢ : ٣) : « من الواقدي ، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرف صوته ، فقال : « ائذنوا له لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن منكم - وقليل ما هم - ذوو مكر وخديعة ، يعطون الدنيا ، وما لهم في الآخرة من خلاق » ، وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى إليه بمروان لما ولد ، فقال : « هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون بن الملعون » وعن جبير بن مطعم : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الحكم بن أبي العاص ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويل لأمتي بما في صلب هذا » .

« يابن الزرقاء^(١) ، أفينا تناول القرآن ؟ » وتسلم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير ،
وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك .
قال ابن قتيبة : فقدم معاوية المدينة حاجباً ، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله
ابن عباس فحضرا ، وابتدأ معاوية فقال :

٢٤٥ - خطبة معاوية

« أما بعد : فالحمد لله وليّ النعم ، ومُنزل النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، المتعالي عما
يقول الملحّدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوث إلى الجن والإنس كافةً ،
ليُنذِرهم بقرآن : « لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ،
فَأَدَّى عَنْ اللَّهِ ، وَصَدَعَ^(٢) بأمره ، وصبر على الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ،
وأعزّ أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمرُ الله وهم كارهون ، ففضى صلوات الله عليه ،
وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سُخِّر له ، زهادَةً واختياراً لله ، وأنفقةً
واقْتداراً على الصبر ، وبَعِيّاً لما يدوم وَيَبْقَى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم
خَلَقَهُ رجالان محفوظان ، وثالثٌ مشكوك ، وبين ذلك خَوْضٌ طالما عالجناه ، مشاهدةً

وجاء في أسد الغابة في ترجمته : « ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، في هجائه لعبد الرحمن

ابن الحكم ، فقال :

إِنَّ اللَّعِينِ أَبُوكَ فَاوْمَ عِظَامِهِ
إِنْ تَرَمَ تَرَمَ مَخْلُجًا مَجْنُونًا

وقد روى في لعنة ونفيه أحاديث كثيرة لاجابة إلى ذكرها ، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله
عليه وسلم ، مع حلمه وإغضائه على ما يكره ، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم ، وجاء في الفخرى ص ١٠٨
« ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص ، ولعنة من في صلبه ، وضعفها قوم » .

(١) في الفخرى ص ١٠٨ « وكان من أراد ذم مروان وعييه يقول له يابن الزرقاء » قالوا : وكانت

الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية ، فلذلك كانوا يذمون بها .

(٢) قواه تعال : « فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ » أي شق جماعاتهم ، بالتوحيد أو اجهر بالقرآن ، أو أظهر

أو احكم بالحق وافصل بالأمر ، أو اقصد بما تؤمر ، أو افرق به بين الحق والباطل .

وَمَكَافَئَةً، وَمَعَايِنَةً وَسَمَاعًا، وَمَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَعْلَمَانِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ مَا سَبَقْتُمْ
إِلَيْهِ وَإِلَى تَجْوِيزِهِ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ مَا أَحْوَلُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الرَّعِيَةِ، مِنْ سَدِّ الْخَلَلِ، وَلَمْ يَصْدَعْ
بِوَلَايَةِ يَزِيدَ، بِمَا أَيْقَظَ الْعَيْنَ، وَأَخَذَ الْفِعْلَ، هَذَا مَعْنَايَ فِي يَزِيدَ، وَفِيكَامَا فَضْلُ الْقَرَابَةِ،
وَحِظْوَةُ الْعِلْمِ، وَكُلُّ الرُّوَّةِ، وَقَدْ أَصَبْتُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ يَزِيدَ عَلَى الْمُنَظَرَةِ وَالْمُقَابَلَةِ،
مَا أَعْيَانِي مِثْلُهُ عِنْدَكُمَا، وَعِنْدَ غَيْرِكُمَا، مَعَ عَلَيْهِ بِالسَّنَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالْحِلْمِ الَّذِي يَرْجَحُ
بِالصَّمِّ^(١) الصَّلَابَ، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ الرَّسُولَ الْحَفِظَ بِبَعْضَةِ الرِّسَالَةِ، قَدَّمَ عَلَى الصَّدِيقِ
وَالْفَارُوقِ، وَمَنْ دُونَهُمَا مِنْ أَكْبَابِ الصَّحَابَةِ، وَأَوَائِلِ الْمُهَاجِرِينَ، يَوْمَ غَزْوَةِ ذَاتِ
السَّلَاسِلِ^(٢)، مَنْ لَمْ يَقَارِبِ التَّوَمَ، وَلَمْ يَمَانِدْهُمْ^(٣)، بِرَتْبَةٍ فِي قَرَابَةِ مَوْصُولَةٍ، وَلَا سُنَّةِ
مَذْكُورَةٍ، فَقَادَهُمُ الرَّجُلُ بِأَمْرِهِ، وَجَمَعَ بِهِمْ صَلَاتَهُمْ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ فَيْئَهُمْ، وَقَالَ وَلَمْ
يُقَلِّمْ مَعَهُ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَلَّا بَنَى عَبْدَ الْمَطْلَبِ، فَإِنَّا
وَأَنْتُمْ شَعْبًا نَفَعٌ وَجِدٌّ، وَمَا زِلْتُمْ أَرْجُو الْإِنْصَافَ فِي اجْتِمَاعِكُمَا، فَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ إِلَّا
بِفَضْلِ قَوْلِكُمَا، فَرُدًّا عَلَى ذِي رَحِمٍ مُسْتَعْتَبٍ، مَا يَحْمَدُ بِهِ الْبَصِيرَةَ فِي عِنَابِكُمَا، وَأَسْتَفْقِرُ
اللَّهُ لِي وَلِكُمَا .

فَتَيْسَّرُ ابْنُ عَبَّاسٍ لِلْكَلَامِ، وَنَصَبَ يَدَهُ لِلْمُخَاطَبَةِ، فَأَشَارَ إِلَى الْيَوْمِ الْحَسِينِ وَقَالَ : عَلَى
رِسْلِكَ، فَأَنَا الْمُرَادُ، وَنَصِيبِي فِي النَّهْمَةِ أَوْفَرُ، فَأَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَجَاءَ الْحَسِينُ :

(١) الصم جمع أصم : وهو الحجر الصلب المصمت . (٢) غزوة ذات السلاسل ، وهي وراه وادي
القرى من أرض بني عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلسل-وبذلك سميت تلك الغزوة
غزوة ذات السلاسل - خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أبا عبيدة
ابن الجراح في المهاجرين الأولين ، فبهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تختلفا ، فخرج
أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مددا لي ، قال أبو عبيدة : لا ، ولكنني على ما أنا
عليه ، وأنت على ما أنت عليه - وكان أبو عبيدة رجلا ليئا سهلا ، هينا عليه أمر الدنيا - فقال له عمرو : بل
أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا ، وإنك إن
صغيبت أطمعتك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوتك . فصلى عمرو بالناس .
(٣) المعاندة : المنارقة ، أي ولم يمتز عليهم برتبة .

٢٤٦ - خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤدَّى القائلُ - وإن أظنَبَ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءا ، قد فهمتُ ما ألبستَ^(١) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إيجازِ الصفة ، والتكثُّب عن استبلاغِ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ! فضح الصبحُ فحمة الدُّحى ، وَهَرَّتْ^(٢) الشمسُ أنوارَ الشُّرُج ، ولقد فضلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجهقتَ ، ومنعتَ حتى بخلتَ ، وَجَرَّتْ حتى جاوزتَ ، ما بذلتَ لذي حقٍّ مِنْ أُمَّمٍ حقهُ بنصيبٍ ، حتى أخذَ الشيطانُ حظه الأوفر ، ونصيبه الأكل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناسَ في يزيد ، كأنك تصِفُ محجوباً ، أو تفتتُ غائباً ، أو تُخبِرُ عما كان مما احتويتهُ بعلمٍ خاصٍّ ، وقد دَلَّ يزيدُ من نفسه على موقعِ رأيه ، فخذ ليزيدَ فيما أَخَذَ به من استقرائِهِ^(٣) الكلابَ للمهارشة^(٤) عند التجارش ، والحمامَ الشُّبُقَ لأثرأهين^(٥) ، وَالْقَيْنَاتِ ذواتِ المعازِفِ ، وضروبِ الملامى ، تجذهُ ناصراً ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناكَ أن تلتقى الله بِوزرِ هذا الخلقِ بأكثر مما أنت لاقية ، فوالله ما برحتَ تقدِّمُ باطلاً في جورٍ ، وَحَقّاً في ظلمٍ ، حتى ملأتَ الأستقيّة ، وما بينك وبين الموتِ إلا عَضَّةٌ ، فَتَقْدِمُ على عملٍ محفوظٍ . في يومٍ مشهودٍ ، ولاتِ حينٍ مناصٍ ، ورأيتُكَ عَرَضتَ بنا بعد هذا الأمرِ ، وَمَنَعْتَنَا عن آبائنا تَرُائِئاً ، ولقد - لعمرُ الله - أوردنا الرسولَ عليه الصلاة والسلام

(١) ألبسه : غطاه . (٢) يقال بهر القمر كنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسرّ جمع سراج : وهو المصباح . (٣) استقرأه الأشياء : تتبع أفرادها . (٤) المهارشة : تحريش بعضها على بعض . (٥) جمع قينة : وهى الجارية المغنية أو أعم ، والمعازف : الآلات التى يضرب بها كالعود ، جمع معزف كمنبر .

ولادة ، وجئت لنا بما حَجَّجْتُمْ بِهِ الْقَائِمَ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَأَذْعَنَ لِلْحُجَّةِ بِذَلِكَ ، وَرَدَّهُ الْإِيمَانَ إِلَى النِّصْفِ ، فَرَكِبْتُمُ الْأَعْلِيلَ ، وَفَعَلْتُمُ الْأَفَاعِيلَ ، وَقَفْتُمْ كَأَن يَكُونُ ، حَتَّى أَتَاكَ الْأَمْرُ يَا مَعَاوِيَةَ ، مِنْ طَرِيقٍ كَأَن قَصَدَهَا لِنَعِيرِكَ ، فَهَنَّاكَ ^(١) ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ ، وَذَكَرْتَ قِيَادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمِ بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَأْمِيرَهُ لَهُ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَالْعَمْرُوبُ بْنُ الْعَاصِ يَوْمئِذٍ فَضِيلَةً ، بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ وَبِيعْتِهِ لَهُ وَمَا صَارَ لِعَمْرِ وَيَوْمئِذٍ حَتَّى أَنْفَ الْقَوْمِ إِمْرَتَهُ ، وَكَرِهُوا تَقْدِيمَهُ وَعَدَّوْا عَلَيْهِ أَفْعَالَهُ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا جَرَمَ ^(٢) مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، لَا يَعْمَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ غَيْرِي » . فَكَيْفَ يُحْتَجَّجُ بِالْمَنْسُوحِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ ، فِي أَوْكَادِ الْأَحْوَالِ ، وَأَوْلَاهَا بِالْمُجْتَمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوَابِ ؟ أَمْ كَيْفَ صَاحَبَتْ بِصَاحِبٍ تَابِعًا ، وَحَوْلَاكَ مَنْ لَا يَوْمَ مَنْ فِي صَحْبَتِهِ ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِي دِينِهِ وَقَرَابَتِهِ ، وَتَتَخَطَّاهُ إِلَى مُسْرَفٍ مَفْتُونٍ ؟ تَرِيدُ أَنْ تُتَلَبَّسَ النَّاسَ شُبُهَةً ، يَسْتَعِدُّ بِهَا الْبَاقِيَ فِي دُنْيَاهُ ، وَتَشْتَقِي بِهَا فِي آخِرَتِكَ ، إِنْ هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، وَأَسْتَعْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

فَنظَرَ مَعَاوِيَةَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا بَنَ عَبَّاسٍ ، وَلِمَا عِنْدَكَ أَذْهَى وَأَمْرًا ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِعَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّهَا لَدَّرِيَّةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَحَدُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ ^(٣) ، وَمِنَ الْبَيْتِ الْمُطَهَّرِ ، فَالَهُ عَمَّا تَرِيدُ ، فَإِنَّ لَكَ فِي النَّاسِ مَقْنَعًا ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ : أَعُوذُ ^(٤) الْحَلِيمِ التَّحَلُّمِ ، وَخَيْرُهُ التَّحَلُّمُ عَنِ الْأَهْلِ . انصرفا في حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا .

(١) مهسل عن هنا ، يقال هنأه الطعام : إذا ساغ ولذ ، أي فهنيئنا لك ما نلت من الخلافة .

(٢) لا جرم : قال للفراء « هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فحرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا تراهم يقولون : « لا جرم لآتينك » . (٣) انظر ص ٣٢ . (٤) أعوذ : أنفع ، والعائدة : المنفعة .

٢٤٧ - خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

« يا عبد الله بن عمر : قد كنتَ تحدّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس في عنقك بيعةُ جماعةٍ ، وأنَّ لك الدنيا وما فيها . وإنِّي أحذرك أن تشقَّ عَصَا المسلمين ، وتسى في فريقٍ مثلهم ^(١) ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء ، وليس للعباد خيرةٌ من أمرهم ، وقد وَكَّدَ الناسُ بيعتهم في أعناقهم . وأعطوا طي ذلك عهدهم موأثيقهم » . ثم سكت .

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معاوية ، لقد كان قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخيرٍ من أبنائهم ، فلم يرَوا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنك ، فلم يُجابوا في هذا الأمر أحدًا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيثُ علموهم ، وأنت تحدّثني أن أشقَّ عصا المسلمين ، وأفرق ملامهم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناسُ ، فسأدخلُ في صالح ما تدخل فيه أمة محمد » .

فقال معاوية : يرحمك الله ، ليس عندك خلاف ، ثم قال معاوية لعبد الرحمن ابن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر ، فقال له عبد الرحمن : إنك والله لو ددنا أن نكلك إلى الله فيما جسرت عليه من أمر يزيد ، والذي نفسى بيده لتجعلنَّها شورى ، أو لأعيدنَّها جذعةً ، ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف رداءه ، ثم قال : هل رسلك

(١) اللأ : الجماعة .

اللهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليكم منهم ، ثم قال لابن الزبير نحو ما قاله لابن عمر ، ثم قال له : أنت ثعلب رَوَّاع ، كلما خرجت من جُحْر ابجَحْرَتَ^(١) في آخر ، أنت ألبت^(٢) هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير : أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرايت إن باعناه أيكما نُطِيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ، إن كنت ملأت الخلافة فاخرج منها ، وبايع ليزيد ، فنحن نبايعه ، فكفر كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، وأكأني بك قد تحببُت في الحباله . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادي في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٩ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال : « يا أهل المدينة ، لقد هممتُ ببيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مدرة^(٣) إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخّرت المدينة بيعته ، وقلتُ : بيضتُه^(٤) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لباعته له . »

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هو خيرٌ منه أباً وأماً ونفساً ! فقال معاوية « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله ! فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خيرٌ منه أما ، فلمعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لسكان نساء قريش أفضلهن . فكيف وهي ابنة رسول الله صلى

(١) أى دخلت ، جحر الضب كنع : دخل الجحر ، وجحر فلان الضب : أدخله فيه ، فانجحر .

(٢) التأييب : التحريف والإفساد . (٣) المدرة : المدينة . (٤) جماعته وأصله .

الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها؟ فأملك لعمر الله خير من أمه^(١). وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله، ففضى لأبيسه على أبيك». فقال الحسين: «حَسْبُكَ جَهْلُكَ». آتت العاجل على الآجل». فقال معاوية: «وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك». فقال الحسين: «هذا هو الإفك والزور! يزيدُ شاربُ الخمر. ومشتريُ اللهو خيرٌ مني!» فقال معاوية: «مهلاً عن شتم ابن عمك. فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتُمك»، ثم التفت معاوية إلى الناس. وقال:

«أيها الناس: قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، وكأنت بيعته بيعة هُدًى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد، لما وقع الناس فيه من الاختلاف. ونظراً لهم بعين الإنصاف».

* * *

وروى من طريق آخر: أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها، استقبله أهلها، فيهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر، فسبّه وقال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً»؛ فلما دخل الحسين عليه قال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً، بدنة^(٢) يترقرق دمه والله مهر يقه»؛ فلما دخل ابن الزبير قال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً، ضبّ تلعة^(٣)، مدخل رأسه تحت ذنبه»؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً، وسبّه»، فقال:

(١) وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية. (٢) البدنة: من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدي إلى مكة، للذكر والأنثى. (٣) التلعة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها.

« إنى لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ، ولما هو شرّ منها » فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرّهط معتمرين ، فلما كان وقت الحجّ خرج معاوية حاجبًا ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لعله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحبًا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحبًا بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحبًا يا ابن حوّارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحبًا يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرّبوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أطفاه^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحْسِنُ إِذْنَهُمْ وَشَفَاعَتَهُمْ وَحَلَمَهُ عَلَى الدَّوَابِّ ، وَخَرَجَ حَتَّى آتَى مَكَّةَ ، فَقَضَى حُجَّجَهُ ، وَلَمَّا أَرَادَ الشَّخْصُ أَمْرًا بِأَنْتِقَالِهِ فَقُدِّمَتْ ، وَأَمْرًا بِالْمَنْبَرِ فَقُرِّبَ مِنَ السَّكْبَةِ ، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، فَاجْتَمَعُوا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ يَكَلِّمُهُ ؟ فَأَقْبَلُوا عَلَى الْحُسَيْنِ فَأَبَى ، فَقَالُوا لابن الزبير : هات ، فأنت صاحبنا . قال : على أن تعطوني عهد الله أن لا أقول شيئًا إلا تابعتمونى عليه . قالوا : لك ذلك ، فأخذ عهدهم رجالا رجالا ، فدخلوا عليه ، فرحّب بهم ، وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيئونى ، فسكتوا ، فقال : أجيئونى ، فسكتوا ، فقال : لابن الزبير : هات فأنت صاحبهم قال :

٢٥٠ — خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ لَكَ رَغْبَةٌ ، وَفِيهَا خِيَارٌ ؛ إِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبِضَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ أَحَدًا ، فَرَأَى

(١) الألفاظ : جمع لطفة بالتحريك ، وهى الهدية .

المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلا ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقاتل مقالة ، فأياكم أن تترضوا عليّ حتى أتمها ، فإن صدقت فعليّ صدقي ، وإن كذبت فعليّ كذبي ، وأقسم بالله لئن ردّ عليّ رجل منكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة بردّ بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٥١ - خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نُبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ،

(١) العوار : مثلثة : العيب .

وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا
ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلم لا نبايع ، فلما
دُعيتم وأرضيتم بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟
قالوا : خفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ،
والأمال ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمال ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، ١ : ٩٥ ،
والبيان والتبيين ١ : ١٦٣ - ١٦٤) *

تهنئة وتعزية

٢٥٢ - خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفى معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيماً ، وأعطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رزيت فقد فقدت خليفة الله ، ومُنحتَ خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووُهِبتَ جزيلاً ، إذ قضى معاوية نَحْبَهُ ، فغفر الله ذنبه ، ووُلِّيتَ الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله موارد السرور ، ورفقك لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيدُ فقد فارقتَ ذائقةً واشكر حياءَ الذى بالملك أصفاً^(١)
لا رزءَ أصبح فى الأقوام نعلمه كما رزيتَ ، ولا عُنْبِي كعقباء كما
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهمُ والله يرعاه كما
وفى معاويةَ الباقي إذا خلفُ إذا نُعِيتَ ، ولا نسمعُ بمنعاً كما^(٢)

« وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية ، فوجَّهه

الناس ، كما روى من غير وجه » .

(زهر الآداب : ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب : ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل : ١ : ١٦ ، والعقد الفريد

: ٢ : ١٤١ - ٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب : ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين : ٢ : ٦٦) .

(١) أصفاه : آخره . (٢) هو أبو ايلي معاوية بن يزيد .

٢٥٣ - خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفي

وروى للمسعودي أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صَيْفِي ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله ، وَمُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نحبته ، فغفر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب^(١) عند الله أعظم الرزية ، وأحمدَه كَلَى أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،

وصبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٤ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رُزئت خير الآباء وُسُميت خير الأسماء ، وَمُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قریش مفعوجةً يبعُد ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، وَالْعُقْبَى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد المُلحدون عَوْقها
عنك فيأبى الله إلا سَوْقها إليك ، حتى قَدَدوك طَوْقها

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

(١) احتسب به أجرا عند الله : اعتمده ينوى به وجه الله (واحتسب ابنه إذا مات كبيرا ، فإن مات

صغيرا قيل افتطرطه) .

٢٥٥ - خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفى عبد الملك ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفي ، فسلم عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئت خير الآباء ، وسميت خير الأسماء ، وأعطيت أفضل الأشياء ، فمظم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل^(١) الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبد الملك^(٢) بغير القضية ، وأنزله بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)

(١) النافلة في الصلاة وغيرها : الزيادة . (٢) أى قضى على عبد الملك باسقاط الجار .

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٦ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زيادًا فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها ضابطًا صالحًا ، وجبّي خراجها وحماها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من عمالاته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده^(١) ، فغضب زياد غضبًا شديدًا ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجبُ من ابنِ آ كِلَّةِ الأ كِبَادِ^(٢) ، وقائلةِ أسدِ الله ، ومُظهِرِ الخِلافِ ، ومُسرِّ النَّفاقِ ، ورئيسِ الأحزابِ ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إليّ يرُعدُ ويُبْرِقُ^(٣) »

(١) وما ورد في كتابه إليه قوله : « أس عبد ، واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية ، وإذا لثامك كتابي هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأمرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمك حقت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سمي ، وأقسم قسما مبرورا أن لا أوق بك إلا في زمارة ، تمشى حافيا من أرض فارس إلى الشام ، حق أقيمك في السرق ، وأبيحك عبدا ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه . » (٢) هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بمعنى طعيمة فأنت حر . (٣) رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

عن سحابة جَبَلٍ^(١) لا ماء فيها ، وَعَمَّا قَلِيلَ تَصِيرُهَا الرِّيحَ قَرَعًا^(٢) ، وَالَّذِي يَدُلُّنِي عَلَى
ضَعْفِهِ تَهْدُهُ قَبْلَ الْقُدْرَةِ ، أَفَنُ إِشْفَاقٍ عَلَى تَنْذِيرٍ وَتَعْذِيرٍ ؟ كَلَّا ، وَلَكِنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ
مَذْهَبٍ ، وَقَمَعَ^(٣) لِمَنْ رَوَى بَيْنَ صَوَاعِقِ تِهَامَةَ^(٤) ، كَيْفَ أَرَهَبُهُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ ابْنُ
بَنَتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَبْنُ ابْنِ عَمِّهِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؟
وَاللَّهُ لَوْ أُذِنَ لِي فِيهِ أَوْ نَدَبِنِي إِلَيْهِ ، لَأُرِيَنَّهُ الْكُؤُوبَ نَهَارًا ، وَلَا سَعِطَنَهُ^(٥) مَاءَ الْخُرْدِ
دُونَهُ ، الْكَلَامُ الْيَوْمُ ، وَالْجَمْعُ غَدًا ، وَالْمَشُورَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ « ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٧ - خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة^(١) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ،
وأوفد إليه المغيرة بن شعبه بكتاب يتلطّف به فيه ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه

- (١) الجفل : السحاب هراق مائه ومضى . (٢) القرع : قطع من السحاب رقيقة .
(٣) القمعة : صوت الرعد ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ٤ ومنه « مايقمع له بالشانن »
وسياق تفسيره في خطبة الحجاج . (٤) روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، ولعله (روى)
وذكروا أنه لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت
للسواعق ، ففرح الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فيهم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا يهولنكم هذا
فإني أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربي ، فلو ركبتنا عظيمًا لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامة
لم تزل الصواعق تنزل بها » . (٥) سعطه الدواء كتمه ونصره وأسعطه إياه : أدخله في أنفه .
(٦) ونص كتابه إليه : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك كالغريق
يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعا في الحياة ، إنما يكفر التعم ويستدعي النعم
من حاد الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا . فأما سبك لي فلولا حلم يهاني عنك ، وخوف أن أدعى سفها
لاثرت لك مخازي لا يغسلها الماء . وأما تعبيرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة . وأما زعمك أنك
تخططنى بأضعف ريش وتتناولني بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يفزعه صغير القنابر؟ أم هل سمعت بذئب أكله
خروف؟ فامض الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجهد إلا فيما يسوءك ،
وستعلم أينما الخاضع لصاحبه ، الظالم إليه والسلام » .

أبي سفيان^(١) ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله بحبله ، ولا يقطع رَحِمَه ، فترثت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكَّرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يُذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصبَّين ما يُذيف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكَل الأمر ، والتبسَ على القوم ، وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرئٍ بسلامة دينه ، وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أحمدَ العاقبتين العافية ، وسأعلُ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغيبته ، فقد حَمدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه^(٢) ، فأعطاها معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق .
(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ٦٩)

(١) وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وفيه يقول : « وحملك سوء ظنك بي ، وبفضك لي على أن عقت قرابتي ، وقطعت رحمتي ، وبتت نسبي وحرمتي ، كأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ! » وفي آخره يقول : « فإن أحببت جانبي ووثقت بي ، فأمره بإمرة ، وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لاعلى ولا لى والسلام » .

(٢) وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فستزح في قلبي مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قتت يوم قرأت كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدرسة ، فتركت من حضر ، لأهل ورد ، ولا صدد ، كالمحترين بهمه ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

٢٥٨ — خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زيادا معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقَاة^(١) التي تحت مرقاته ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد عَرَفْتُ نَسَبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَادٍ ، فَن كَانَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ فَلْيَقُمْ بِهَا » ، فقام ناس ، فَشَهِدُوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أَقْرَبَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ^(٢) ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مَعَاوِيَةَ وَمَنَاشِدَتُهُ ، قَامَ زِيَادٌ وَأَنصَتَ النَّاسُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) المرقاة بفتح الميم وتكسر : الدرجة . (٢) فقام أبوهريرة السلولي — وكان خازنا في الجاهلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان : قدم علينا بالطائف ، فأتاني ، فاشترت له لحما ونخرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا هريرة ، أصب لي بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفته شرفه وجوده وقد أمرني أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يجيء الآن عبيد بنغمة — وكان راعيا — فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبي سفيان فقلت لم أجد إلا جارية الحرث بن كلدة سمية ، فقال : ائتي بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا هريرة ، إنما بهتت شاهدا ، ولم تبعت شاهدا ، فقال أبو هريرة : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألث أن خرج علي يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا هريرة لولا استرخاء من ثديها ، وذفر في إبطنها — والذفر بالتحريك ويسكن : الثقل ، والذفر بالتحريك : كل ريح ذكية من طيب أو نتن أو يخلص برائحة الإبطن المنتنة — وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندي للحارث بن كلدة — وكان طبيبا يعالجه — فولدت له على فراشة نافعا ، ثم ولدت أبا بكره ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريتك بغيا ، فأتني من أبي بكره ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا في إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثلا ، وهو غلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعلى عليه السلام ، وعمرو ابن العاص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام أو كان قرشيا لساق العرب بهصاء ، فقال أبو سفيان : أما والله =

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوله ، ولا علم لي بآخِره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذي رفع مِنَّا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيَعوا ، فأما عبيدٌ فإنما هو والد مبرور ، أو ربيب^(١) مشكور » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ،
ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل ١٨٩ ص)

٢٥٩ - خطبته حين ولي البصرة (وهي البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » واليا معاوية بن أبي سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والنسق بالبصرة كثير فاش ظاهر ، فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعمًا فأهملنا شكرًا » أما بعدُ : فإن الجهالة الجاهل^(٢) ، والضلالة العمياء ، والنبي الموفى بأهله على النار ، ما فيه سهاؤكم ، ويشتمل عليه حملأؤكم^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرهوا كتاب الله ، ولم تسمعوا

= إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت في رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قال : أخاف هذا العير الجالس أن يحرق على إهابي .

ومن كتاب لعل عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديمته باستلحاقه : « وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلقته من حديث النفس ، ونزعة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الحكمة ، ولم تنزل في نفسه حتى ادعاه معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، قال الطبري : « وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل » . (١) الريب هنا : زوج الأم . (٢) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، ومثله : وتد واتد ، وهمج هامج ، وإيلة ليلاء ، ويوم أيوم (أي شديد ، أو آخر يوم في الشهر) . (٣) عقلاؤكم .

ما أعدَّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن
 السَّرْمَدِيِّ^(١) الذي لا يزول ، أتكونون كمن طَرَفَتْ^(٢) عينيه الدنيا ، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ
 الشهوات ، واختارَ الفأنية على الباقية ، ولاتذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَثَ الذي
 لم تُنسَبُوا إليه ، مِنْ تَرَكْتُمْ الضعيفَ يُقَهَّرُ ويؤخذ ماله ، هذه المواخير^(٣) المنصوبة ،
 والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والمدد غير قليل ، ألم يكن منكم نُهَّاءٌ ، تمنع الغواة^(٤)
 عن دَلَجِ^(٥) الليل ، وغارة النهار ؟ قرَّبتهم القرابة ، وباعدتم الدين ! تعذرون بغير العذر ،
 وتغضون على المحتلس ، كلُّ امرئٍ منكم يَدُبُّ^(٦) عن سفيهه ، صَنِيعَ من لا يخاف
 عاقبةً ولا يرجو مَعَادًا ، ما أنتم بالحلَمَاءِ ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تَرَوْنَ
 من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرْمَ^(٧) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كُنُوسًا
 في مكائسِ الرِّيبِ^(٨) ، حرامٌ على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هدمًا واحراقًا .
 إنى رأيت آخِرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف ،

- (١) الدائم . (٢) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه
 على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده . (٣) جمع ماخور : وهو بيت الريبة معرب
 أو عربي من مخرت السفينة لتردد الناس إليه . (٤) جمع ناه ، وغواة جمع غاو .
 (٥) السير من أول الليل ، وقد أدلجوا ، فإن ساروا من آخره فادلجوا بالتشديد .
 (٦) يدفع . (٧) جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكه . روى الشعبي قال : « لما خطب زياد
 خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد
 مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتیان الفساق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فإن أجابك
 أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع ! » . (٨) كنوس جمع كانس : أي مستقر كتمود وجلوس جمع قاعد
 وجالس ، وأصله من كنس الظبي كضرب : دخل في كذاسه (ككتاب) وهو مستتره من للشجر ، وجمع
 كانس أيضا على كنس (كرمح) ومنه الجوارى الكنس (وهي الخنفس) وهي الكواكب السيارة ، أو النجوم
 الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها تكنس في المغيب كالظباء في الكنس
 (ككتب) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتختفي نهارا (وخنوسها أنها تغيب كما يخنس الشيطان ؛ إذا ذكر
 الله عز وجل) ومكائس الريب : مكائنها المستتره جمع مكنس كجلس .

وشدة في غير عُنْف ، وإني أُقسِم بالله لَأَخَذَنَّ الْوَلِيَّ^(١) بِالْمَوْتَى ، وَالْمُقِيمَ بِالظَّاعِنِ ، وَالْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، وَالْمَطِيْعَ بِالْعَاصِي ، وَالصَّحِيْحَ مِنْكُمْ فِي نَفْسِهِ بِالسَّقِيمِ ، حَتَّى يَبْلُغَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ ، فَيَقُولُ : « أُنْجِ سَمْدٌ قَدْ هَلَكَ سَمِيْدٌ^(٢) » أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتُكُمْ^(٣) ، إِنْ كَذَبَ الْمُنْبِرَ بِلِقَائِهِ^(٤) مَشْهُورَةٌ ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَيَّ بِكَذْبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَمِصَّتِي^(٥) ، فَإِذَا سَمِعْتُمُوهَا مِنْي فَاعْتَمِرُوهَا^(٦) فِيَّ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا ، مَنْ نَقِبَ مِنْكُمْ عَلَيْهِ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ^(٧) فَيَأْتِي وَدَلَجَ اللَّيْلَ ، فَإِنِّي لَا أُوتِي بِمُدْجِلٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ فِي ذَلِكَ بِمَقْدَارِ مَا يَأْتِي الْخَبِرُ الْكُوفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ^(٨) ، وَإِلَايَ وَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ^(٩) ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ ، وَقَدْ أَحَدْتُمْ أَحَدَانًا لَمْ تَكُنْ ، وَقَدْ أَحَدْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةً ، فَمَنْ غَرَّقَ قَوْمًا غَرَّقْنَا ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقْنَا ، وَمَنْ نَقَبَ

(١) الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد . (٢) سمء وسعيد هما ابنا ضبة بن أدّ خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سمء فردها وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سمء أم سعيد ؟ .
(٣) من البلق بالتحريك : وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين (والتحجيل : بياض في قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتمييزها عما سواها ببلقها . (٤) في الطبري « قال الشعبي : فوالله ماتملقنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه » . (٥) عدوها من عيوني ، واعتزته : طعن عليه .
(٦) في الطبري : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرى السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تقلق عليها بابها ، وصام الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه » .
(٧) في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأهمل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وهاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر المشاء حتى يكون آخر من يصل ، ثم يصل ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أهمل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ الخريبة (كجنينة موضع بالبصرة يسمى البصرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ليلة أعرابيا ، فأتى به زيادا ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وغشيتني الليل فاضطررها إلى موضع ، فأنت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . (٨) قولهم : بالفلان ، والغرض مناصرة العصبية .

بِتَنَا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ حَيًّا فِيهِ ، فَكَفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسِّنِّكُمْ ،
 أَكْفَفْ عَنْكُمْ يَدِي وَلِسَانِي ، وَلَا تَظْهَرْ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيَّةٌ بَخْلَافٍ ^(١) مَا عَلَيْهِ عَامَّتْكُمْ
 إِلَّا ضَرَبْتُ عُقُقَهُ ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ ^(٢) ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرًا أَدْنَى ^(٣)
 وَتَحْتِ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ
 عَنِ إِسَاءَتِهِ ، إِي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السِّلَّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ
 أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ ^(٤) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ،
 وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرُبُّ مُبْتَلِئٍ سَيُؤْتِيهِ ، وَمَسْرُورٍ بِقَدُومِنَا سَيَبْتَلِسُ .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي
 أعطانا ، ونذود عنكم بقراب الله الذي خولنا ^(٥) ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ،
 ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وديننا بمناسحتكم لنا ، واعلموا أني مهما
 قصرت عنه ، فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا
 بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانته ^(٦) ، ولا مجمرا ^(٧) لكم بمتا ، فادعوا الله
 بالصلاح لأمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى
 يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بفضهم ، فيشتد ذلك غيظكم ، ويطول له
 حزنكم ، ولا تذكروا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا
 لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر ، فأنفذوه على

(١) أي تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٢) جمع إحنة : وهي الحقد والضغينة .

(٣) أي خلف أدنى ، وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك . (٤) أي يجاهرني بالعداوة .

(٥) ملكنا . والقراب : ما كان شمسا فينسخه الظل ، والخراج ، أي ندفع عنكم بظل الله ونعمته التي

وهيئنا ، أو ندفع عنكم بما صار في أيدينا من أموال الخراج . (٦) وقته وموعده . (٧) جمر الجند :

حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم .

أذلاله^(١) ، وإيمُ الله إن لي فيكم لصرْفِي كثيرة ، فليحدّر كل امرئ منكم أن يكون من صرْعَايَ . »

فقام إليه عبد الله بن الأهم فقال : « أشهدُ أيها الأمير لقد أوتيتَ الحكمةَ وفضلَ الخطابِ » ، فقال له : « كذبتَ ذلكَ نبيُّ الله داود صلوات الله عليه » ، فقام الأحنف ابن قيس ، فقال : « إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُثْنِي حتى نَبْتَلِي » فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مرْداس^(٢) ابن أديّة وهو يهْمِس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وأنت تزعْم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعاصي والمقبل بالمُدبر ، فسمعهما زياد ، فقال : « إنا لا نبلاغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوَصًا » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
٤ م : ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وذيل الأمالي ١٨٨)

٢٦٠ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المشيرة بن شعبة أمير الكوفة سنة ٥٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ له الكوفة والبصرة^(٣) ، فاستخلفَ كلَّ البصرة ، وشخصَ إلى الكوفة فأتاها ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا الأمر أتاني وأنا بالبصرة ، فأردت أن أشخصَ إليكم في ألفين من مُشرطة

(١) أي وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق : محبته ، وأمور الله جارية على أذلالها أي مجاريها .

(٢) وهو من رؤساء الخوارج . (٣) وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

البصرة ، ثم ذكرتُ أنكم أهل حق ، وأن حقكم طالما دَفَعَ الباطل ، فأتيتكم في أهل بيتي ، فالمدله الذي رَفَعَ مني ما وضع الناس ، وحَفِظَ مني ما ضيعوا ، حتى فرغ من الخطبة^(١) .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٢١)

٢٦١ - خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضا قال :

« فَجِئِمَتِ الكوفة والبصرة لزيد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ثم صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جربنا وجرّبنا ، وسُننا وسأنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلحُ آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة ميرثها بعلانيتها ، وغيب أهلها بشاهدم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا ابنٌ في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة إمامٍ على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرّظهم ، وذكّر قتلته ولعنهم . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٢ - خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زيد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرِيث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْر بن عديّ يجتمع إليه شيعة عليّ ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم

(١) قال الطبري : فحصب على المنبر ، (أى رى بالحصباء وهى الحصى) فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقوان لأدرى من جليسي ، ثم أمر بكرسى فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يخلفون بالله مامنا من حصبك ، فن حلف خلاه ، ومن لم يخلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان .

حَصَبُوا عمرو بن الحريث ، فَشَخَّصَ إِلَى الكوفة ، حتى دخلها ، فَأَتَى القصر ، ثم خرج فصعد المنبر ، وعليه قباه سُندُس ، ومُطْرَفَ خَزْرٍ أخضر ، قد فَرَّقَ شعره ، وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنَّ غَيْبَ البنى والنبيِّ وَخَيْمٍ ، إِنَّ هَوْلَاءَ جَمَّوْا^(١) فَأَثِرُوا ، وَأَمِنُونِي فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وإيمُ الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ، وقال : ما أنا بشيء إن لم أمنع بآحة^(٢) الكوفة من حُجْر ، وأدعه نكالا لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَيَلُ أُمَّكَ يا حجر ، سَقَطَ العشاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ^(٣) . » (تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٦٣ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصُوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجمته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلتُ به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه . » (البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ : شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٧٤)

٢٦٤ - خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس : لا يمتكم سواه ما تعلمون منا أن تنفعوا بأحسن ما تسمعون منا ، فإن الشاعر يقول :

(١) من جم الماء جموما : كثير واجتمع . (٢) الباحة : الساحة . (٣) هو مثل : وأصله أن رجلا خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله . يضرب في طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى التلف .

اعمل بقولى وإن قصرتُ فى عملى ينفعك قولى ولا يضرُك تقصيرى

٢٦٥ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُبيد أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان وصية زيادٍ بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبُّر معانيها وهى :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا ، عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين مُحسنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسيءٍ بخذلان الله إياه ، والله النعمةُ على المحسن ، والحجةُ على المسيء ، فما أولى من نمت عليه النعمةُ فى نفسه ورأى العبرة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعا الله ، فيعطى ما عليه منها ، ولا يتكثُر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزةُ ، قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقديرون على توبة ، وليس لكم منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم . »

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادٌ أحق به منه .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٦ - ما كان يقوله لمن ولاه عملا

وكان زياد إذا ولى رجلا عملا قال له :

« خذ عهدك ، وسِرِّ إلى عملك ، واعلم أنك مصروفٌ رأس سَنَتِكَ ، وأنتك تصير إلى أربع خِلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتُك من معرتنا أمانتُك ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرَكَ

وَتَقَلْنَا غُرْمَكَ ، وَإِنْ جَمَعْتَ عَلَيْنَا الْجُرْمِينَ ، جَمَعْنَا عَلَيْكَ الْمَضْرَبَيْنِ ، وَإِنْ وَجَدْنَاكَ أَمِينًا قَوِيًّا ، زِدْنَا فِي عَمَلِكَ ، وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ ، وَكَثَرْنَا مَالَكَ ، وَأَوْطَأْنَا عَقِيكَ » .

(الأمال : ٢ : ٨٢)

٢٦٧ — خطبة الضحّاك بن قيس الفهري بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحّاك بن قيس الفهري على منبر الكوفة - وقد كان بلغه أن قومًا من أهلها يشتمون عثمان ويبرءون منه ، فقال :

« بلغني أنّ رجالًا منكم ضلّالًا يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ، أمّا والذي ليس له نِدٌّ ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعن فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدوني ضعيف السّورة^(٢) ، ولا كليل الشّفرة^(٣) ، أمّا إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم^(٤) : فكنت أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثعلبية

(١) ولاء معاوية الكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بإيمه أهل دمشق على أن يصل بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ، ويمتعه من إظهار ذلك أن بني أمية كانوا بحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحّاك وقتل منتصف ذي الحجة سنة ٦٤ هـ .
(٢) سورة السلطان : سطوته واعتدائه . (٣) الشفرة : حد السيف ، وكليل : فير قاطع .
(٤) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دعاه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلا فأغر عليها ، فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحّاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومر بالثعلبية فأغار على مسالح على وأخذ أمتهم ، ومضى حتى انتهى إلى الققطانة ، فأق عمرو ابن عيسى بن مسعود - وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود - وكان في خيل لعل ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناسا من أصحابه ، فلما بلغ ذلك عليا سرح حجر بن عدى الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل مغذا في أثر الضحّاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقه ، فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحّاك تسعة عشر رجلا ، وقتل من أصحاب حجر رجلا ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحّاك وأصحابه . فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثرا - شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ - .

ومن شاطئ الفرات ، أعاقب من شئت ، وأعفو نعمن شئت ، لقد ذعرت المخدرات
في خدورهن ، وإن كانت المرأة ليبيكي ابنها فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمي ،
فاتقوا الله يا أهل العراق ، أنا الضحاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو
ابن عميس .

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعرفنا
والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بغربي تدمر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً^(١) ! »
ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أول ما قدم ؟ وإيم الله لأذكرته أبغض
مواطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خزي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان
ذلك اليوم بأخرة^(٢) - بكلام ثقيل - ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٨ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحب
شروطه - حتى صعد المنبر ، وأكفان معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمود العرب ، وحدث العرب ، قطع الله عز وجل به الفتنة ،
وملكه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألا إنه قدم مات ، فهذه أكفانه ، فنحن
مُدْرِجوه فيها ومُدْخِلوه قبره ، ومُحَلُّون بينه وبين عمله ، ثم هو في البرزخ^(٣) إلى
يوم القيامة ، فن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى^(٤) . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

(١) هذا المقول تهكم به كما ترى . (٢) يقال : جاء أخرة وبأخرة بالتحريك : أي آخر كل شيء .

(٣) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) وفي العقد « فن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

٢٦٩ — خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

« يا أهل الكوفة : إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضبيع والثعلب ، أتيا الضبَّ في جُحره ، فقالا : أبا الحِسل^(٢) . قال : أجبتكما . قالا : جئناك نختم . قال : في بيته يؤتَى الحكم . قالت الضبيع : فتحت عيني . قال : ففعل النساء فعلت . قالت : فلططتُ تمرًا . قال : حلوا اجتنبت . قالت : فاخطفها ثُمالة^(٣) . قال : لنفسه بغي الخير . قالت : فلطمته لطمًا . قال : حقًا قضيت . قالت : فلطمني أخرى . قال : كان حرًا فانتصر . قالت : فاقض الآن بيننا . قال : حدِّث حديثين امرأة ، فإن لم تفهم فأربعة^(٤) . » (العقد الفريد ١ : ٢٦٩ — ٢ : ١٥٨ ، ومجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٣)

(١) ولي الكوفة وحص معاوية ويزيد ، وكان هواه متهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلى بيعة عبدالله بن الزبير بالشام ، وكان أول من خانف من أمراء الأجناد — وكان واليا على حص — وانضم إلى الضحاك بن قيس الفهري ، أمده بجيش من أهل حص عليه شرحبيل بن ذي الكلاع ونشبت الحرب بين الضحاك وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل كما قدمنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج عن حص هاربا ليلا ومعه امرأته وولده وثقله ، فسار ليلته جماء متحيرا لا يدري أين يأخذ ، فانبه خالد بن عدى الكلاعي فيمن خف معه من أهل حص ، فلحقه وقتله ويعث برأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ . (٢) أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفي مجمع الأمثال أن المتخاصمين : الأرنب والثعلب . (٣) ثُمالة : امم الثعلب الذكر والأنثى . (٤) وقد ذهبت أقوال الضب كلها أمثالا . قال الميداني في شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أي زد وأراد بالحدِيثين حديثا واحدا تكرر مرتين ، فكأنك حدثتها بحديثين . والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة ، وقال أبو سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة فالمربعة (والمربعة ككنسة : العصا) وروى ، فاربع « أمر من ربيع كفتح » أي كف ، تضرب في سوء السمع والإجابة . »

٢٧٠ - خطبة عميد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عُبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدى منه بخلوة ، ليسبر من رأيه ما كره أن يُشرك في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع الطُّلاب ، واشتغال الخاصة ، وافتراق العامة ، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو فيه بنفسه ، ففطن معاوية لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مروان بن الحكم وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فلما أخذوا مجالسهم أذن له ، فسلم ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم . ثم قال :

« صريح العقوق مكاة الأذنين ، لا خير في اختصاص وإن وفر ، أحمد الله إليكم على الآلاء ^(١) ، وأستعينه على اللأواء ^(٢) ، وأستهديه من حمى مجهد ، وأستعينه على عدو مُرصد ^(٣) ، وأشهد أن لا إله إلا الله المنقذ بالأمين الصادق من شفا جرف هار ^(٤) ، ومن بدّ غار ^(٥) ، وصلوات الله على الزكي نبي الرحمة ، ونذير الأمة ، وقائد الهدى ، أما بعد يا أمير المؤمنين : فقد عسف بنا ظنّ قرع ^(٦) ، وقذع ^(٧) صدع ، حتى طيسع السحيق ^(٨) ، ويئس الرفيق ، ودبّ الوشاة بموت زياد ، فكلهم مستحقير ^(٩)

(١) النعم . (٢) الشدة . (٣) أرصدت له : أعددت .

(٤) الشفا : حرف كل شيء ، والجرف كعقن وقفل : ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض ، وهار الجرف : انصدع ولم يسقط فهو هار كقناص ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور .

(٥) اليد : التعب ، والغاري : الملازم الشامل ، من غرا السمن قلبه لثق به وغطاه .

(٦) فرع بين القوم وفرق بمعنى واحد : أى أن هذا الظن فرق بيننا وبينك فجافيتنا .

(٧) هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن قذع وهى التى تناسب المقام . قذعه قذعا (بالسكون)

رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه ، والقذع محرقة : الخنا والفحش والقدح ، وصدع : شقق وفرق : أى أن مارمانا

به الوشاة لديك من سوء القول فرق بيننا وبينك . (٨) البعيد . (٩) فى الأصل هكذا بمعنى محتقر ،

أى محتقر لنا لمعاداته إيانا ، وأنه لايبالى بمعادتنا لما نابنا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « متحفظا للعداوة »

أى متوثب مستوفز أو « مسحفنفر للعداوة » من اسحقنفر : إذا مضى مصرعا .

للعداوة ، وقد قاصَّ الآزرَةَ (١) ، وشمَّرَ عن عِطَافِهِ (٢) ليقول : مَضَى زياد بما استلحق به ، ودَلَّ على الأناةِ (٣) من مُسْتَلْحِقِهِ ، فليت أمير المؤمنين سَلِمَ في دَعَتِهِ (٤) ، وأَسْلَمَ (٥) زياداً في ضَيْعَتِهِ ، فكان تَرْبٌ (٦) عامَّةً ، وأحد رعيَّتِهِ ، فلا تَشْخَصُ (٧) إليه عين ناظر ، ولا إصبع مُشِير ، ولا تَنْدَاقِ (٨) عليه السُّنُّ كَلِمَتَهُ حَيًّا ، وَنَبَشَتَهُ مَيِّتًا ؛ فإن تسكن يا أمير المؤمنين حابيت زيادا بأول رُفَاتٍ ، ودَعِوَةَ أمواتٍ ، فقد حاباك زياد بجِدِّ هَـصُور ، وعَزمِ جَسُور ، حتى لانت شكائُمُ الشَّرِيسِ ، وذات صَعْبَةِ الأشوس (٩) ، وبَدَلْ لك يا أمير المؤمنين يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تأخذ بهما المبيع ، وتَهْهَرُ بهما البديع ، حتى مضى والله يفغر له ، فإن يكن أخذ بحق أنزله منازل الأقربين ، فإن لنا بعده ما كان له ، بِدَالَةِ الرَّحِمِ ، وقرابة الحليم ، فما لنا يا أمير المؤمنين نمشي الضراء (١٠) ، ونُشْتَفُّ النُّضَارَ (١١) ؟ ولك من خيرنا أكله ، وعليك من حُوبنا (١٢) أنقله ، وقد شهد القوم ، وما ساء في قلوبهم لِيُقَرَّوا حَقًّا ، وبردُّوا باطلا ، فإن للحق منارًا واضحًا . وسبيلًا قَصْدًا (١٣) . فقل يا أمير

- (١) الآزرَة والأزر بضمين : جمع إزار ، وهو الملحق . (٢) العطاف : الرداء ، وجمعه عطف بضمين ، وأعطفه ، وكذا المعطف بالكسر ، وهو مثل إزار ، ومئزر ، ولحاف ، وملحف .
- (٣) في الأصل « الأنية » وأراه محرفا عن « الأناة » وهي الحلم . (٤) الدعة : الخفض .
- (٥) أسلمه : خذله ، أي فليت ترك زيادا ضائع النسب مغفورا ولم يستلحقه .
- (٦) الترب : من ولد مملك : أي فكان تربا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تربا لك فلا يقدر له قدر .
- (٧) أي فلا ترتفع . (٨) اندلق السيل : اندفع ، والسيف انسل بلا سل ، أو شق جفنه فخرج منه ، وكلمته : جرحته وآذته . (٩) وصف من الشوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تعظيما .
- (١٠) الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال تواری الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشي الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . (١١) اشتف ما في الإناء : شربه كله ، والنضار : الذهب أو الفضة ، والمراد : نمنع منه ، ولا نمكن من أخذه ، أي يحال بيننا وبين الولاية .
- (١٢) الحوب بضم الحاء وفتحها : الإنم ، أي عليك من آثامنا التي ارتكبتهاها في سبيل تأييد سلطانك أنقلها . وفي بعض النسخ : « من جوابنا » أي من جوابنا حين يسألنا المولى عما أتينا من أخذ الناس بالمسء والإرهاق لتمكين ملكك (١٣) القصد : استقامة الطريق .

المؤمنين بأى أمر يك شئت ، فما نأزر^(١) إلى غير جُحرِنَا ، ولا نستكثر بغير حَقَّنَا ،
وأستغفر الله لى ولكم .

٢٧١ - ردّ معاوية على ابن زياد

فنظر معاوية فى وجوه القوم كالمتعجب ، فتصنفهم بِلَحْظِهِ رجلا رجلا وهو مبتسم ،
ثم اتجه تِلْقَاءَهُ ، وعقد حُبُوتَهُ^(٢) ، وحَمَرَ عن يده ، وجعل يُوحىُ بها ، ثم قال معاوية :
« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكلُّ خير منه . وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكل
شئ خاضعٌ له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، دَلَّ على نفسه بما بَانَ عن عجزِ الخلق أن
يأتوا بمثله ؛ فهو خاتمُ النبيين ، ومُصَدِّقُ المرسلين ، وحجَّةُ رب العالمين ، صلوات الله
عليه وبركاته ؛ أما بعد : فربُّ خيرٍ مستور ، وشرٌّ مذكور ، وما هو إلا السَّهمُ الأخببُ
لمن طار به ، والحظُّ المرغِبُ لمن فاز به ، فيهما التفاضلُ وفيهما التغايبُ ، وقد صَفَقَتْ^(٣)
يداي فى أبيك صَفَقَةً ذى الخَلَّةِ من رِواضِ الفُضْلانِ ، عامِلَ اصطناعى^(٤) له بالكُفْرِ
لِمَا أوليته ، فأرमितُ به إلا اتصل^(٥) ، ولا انتضيتُهُ^(٦) إلا غُلِقَ جَفْنُهُ ، ولزَّتْ^(٧)
لَسَعَتُهُ ، ولا قُلْتُ إلا عانَدَ ، ولا قُتُّ إلا قعد ، حتى اختَرَمَهُ^(٨) الموت ، وقد أوقع
مِخْتَرَهُ^(٩) ، ودَلَّ على حِقْدِهِ ، وقد كنت رأيتُ فى أبيك رأياً حَصَرَهُ الخَطَلُ ، والتبس
به الزَّلَلُ ، فأخذ منى بحِظِّ القُفلةِ ، وما أبرئى نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ،

(١) من أرزت الحية : أى لاذت بجحرها ورجعت إليه . (٢) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع
بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة ، وحمر : كشف . (٣) صفق له بالبيع ،
وصفق يده ، وعلى يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . والفصلان جمع فصيل :
وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والخلة : الحاجة . (٤) اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه إياه .
(٥) انتصل السهم : سقط نصله . (٦) انتضى السيف : استله ، والجفن : غمد السيف .
(٧) لزت : طمنه . (٨) اختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وأوقع به : أهلكه .
(٩) مختره : طمنه . (٨) أهلكه .

فما بَرِحَتْ هَمَاتٌ^(١) أَيْبِكَ تَحْطَبُ فِي حَيْلِ الْقَطِيعَةِ ، حَتَّى انْتَكَشَ^(٢) الْمُبْرَمَ ، وَأَنْحَلَ^(٣) عَقْدَ الْوُدَادِ ، فَيَا لَهَا تَوْبَةً تُوْتَنَفُ^(٤) مِنْ حَوْبَةِ أَوْرَثَتْ نَدْمًا ، أَسْمَعَ بِهَا الْمَاهِتِفُ ، وَشَاعَتْ لِلشَّامِتِ ، فَلْيَهْنَأْ^(٥) الْوَائِثِمَ مَا بِهِ احْتَقَرَ ، وَأَرَاكَ تَمَحَّدَ مِنْ أَيْبِكَ جِدًّا وَجُسُورًا^(٦) هُمًّا وَفِيَاءً بِهِ عَلَى شَرَفِ الْيَقْحَمِ^(٧) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةَ ، فَذَعَمَهُمَا فَقَدْ أَذْكَرْتَنَا مِنْهُ مَا زَهَدْنَا فِيكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِهِمَا مَشِيَتَ الضَّرَاءُ ، وَاشْتَفَفَتِ النَّضَارُ ، فَادْهَبْ ، إِلَيْكَ ، فَأَنْتَ نَجْلُ الدَّغَلِ^(٨) ، وَنَثْرُ النَّقْلِ^(٩) ، وَالْأَجْرُ شَرٌّ^(١٠) .

٢٧٢ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يا أمير المؤمنين إن للشاهد غيرَ حكم الغائب ، وقد حضرَكَ زياد ، وله مواطنٌ معدودةٌ بخير ، لا يُفْسِدُهَا التَّظَنِّيُّ^(١) ، ولا تَغْيِرُهَا التُّهْمُ ، وَأَهْلُوهُ أَهْلُوكَ التَّحْقُوقَ بِكَ ، وَتَوَسَّطُوا شَأْنَكَ ، فَسَافَرْتَ بِهِ الرُّكْبَانُ ، وَسَمِعْتَ بِهِ أَهْلَ الْبُلْدَانِ ، حَتَّى اعْتَقَدَهُ الْجَاهِلُ ، وَشَكَ فِيهِ الْعَالِمُ ، فَلَا تَتَحَجَّرَ^(٢) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدْ اتَّسَعَ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . »

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هذا وَفَدَّ^(١) نفسه ببيعته ، وطعن في إمرته ، يعلم ذلك كما أعلمه ، يا لَرَجَالٍ مِنْ آلِ أَبِي سَفِيَانَ ! لَقَدْ حَكَمُوا وَبَدَّ^(٢)مُ يَزِيدُ وَحَدَّهُ ،

(١) أعماله وسيئاته جمع هنة . (٢) انحل وانتقض . (٣) توتنف : تستأنف ، والحوية : الإثم والذنب . (٤) من هتأء الطعام : أى ساغ ولذ ، والوائثم فاعل من الوشم ، وشم يده : إذا غرزاها بإبرة ثم ذر عليها النياج ، والمراد به هنا المعادى - والوشيمة : العداوة - أى فهيننا لأعدائه الذين حقروه ونالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قبل « ولا تندلق عليه السن كلمته حيا ، ونبشته ميتا » . (٥) الجسور : الجسارة . (٦) تقحمت به دابته : نذت به وربما طوحت به في وهدة أو وقصت به ، والقحمة كفرقة : الورطة والمهلكة ، والمراد التعرض للهلاك . (٧) الدخل والفساد . (٨) نغل الأديم نفلا : فسد في الدباغ ، والجرح فسد . (٩) التظني : أعمال الظن ، وأصله التظن . (١٠) أى فلا تضيق . تحجر عليه : ضيق ، وتحجر ماوسعه الله : حرمه وضيقه ، وفي الحديث : « ائمتد تحجرت واسما » أى ضيقت ماوسعه الله ، وفى الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . (١١) فى الأصل « وفد » ولعله وفد ، يقال وفده ، أى غلبه وسكنه . (١٢) فاقهم .

ثم نظر إلى عبيد الله ، فقال : يا بن أخى ، إني لأعرفُ بك من أبيك ، وكأني بك في غمرة لا يخطؤها^(١) السامح ، فالزم ابن عمك ، فإن ليما قال حقاً ، فخرجوا ولزم عبيد الله يزيدَ يَرِدُ مجلسه ، ويَطَأُ عَقْبَهُ أياماً ، حتى رَمَى به معاوية إلى البصرة والياً عليها^(٢) .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

٢٧٣ - وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته^(٣)

روى الطَّبْرِيُّ قال :

لما كان المهلبُ بن أبي صُفْرَةَ بَزَاغُولَ من رَوِّ الرُّوْدِ (من خُرَّاسان) أصابته الشَّوْصَةُ^(٤) (وقوم يقولون الشُّوكَةُ^(٥)) فدعا حَبِيْبِيًّا ومن حضره من ولده ، ودعا بِسَهْمٍ فَحَزِمَتْ ، وقال : أترونيكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أترونيكم كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وِصْلَةَ الرَّحْمِ ، فإن صلة الرحم تُنْسِي^(٦) في الأجل ، وتُثْرِي المال ، وتُكْثِرُ العُدد ، وأنها كم عن القطيمة ، فإن القطيمة تُعْقِبُ النار ، وتُورِثُ الذَّلَّةَ والْقِلَّةَ ، تَبَادَلُوا وَتَوَاصَلُوا تَحَابُّوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، وتَبَارَكُوا تجتمع أموركم ، إن بني الأم يختلفون ، فكيف بيني العلات^(٧) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فيكم أفضل من قولكم ، فإنني أحب الرجل أن يكون لعمَلِهِ فضلٌ على لسانه ، وأنفقوا الجواب ، وزَلَّةُ اللسان ، فإن الرجل تَزَلُّ قدمه فينتعش من زَلَّتِهِ ، ويزل لسانه فيمَلِكُ ، اغرفوا لمن يَغشَاكم حَقَّهُ ، فكفى بِمُؤَدُّو

(١) في الأصل « لا يخطؤها » وأراه « لا يخطؤها » . (٢) قال الطبري : « ولي معاوية عبيدالله ابن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » . (٣) سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الخوارج وما يتصل بها » وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلدكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاه بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها والياً عليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل والياً عليها حتى أدركته الوفاة هناك .
(٤) الشوصة بالفتح وقد تضم أنشين : وجع في البطن . (٥) الشوكة : حمرة تملو الجسد .
(٦) تؤخر وتطيل . (٧) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

الرجل ورَاحِهِ إِلَيْكُمْ تَذَكِّرَةٌ لَهُ ، وآثَرُوا الْجُودَ عَلَى الْبُخْلِ ، وَأَحْبَبُوا الْعَرَبَ ، وَاصْطَنَعُوا الْعَرَبَ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْعَرَبِ تَعِدُّهُ الْعِدَّةَ فَيَمُوتُ دُونَكَ ، فَكَيْفَ الصَّنِيعَةُ عِنْدَهُ ؟ وَعَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ بِالْأَنَاةِ وَالْمَكِيدَةِ ، فَإِنَّهَا أَنْفَعُ فِي الْحَرْبِ مِنَ الشَّجَاعَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْإِقْتَاءُ نَزَلَ الْقَضَاءُ ، فَإِنَّ أَخْذَ رَجُلٍ بِالْحَزْمِ فَظَهَرَ عَلَى عَدُوِّهِ ، قِيلَ : أَتَى الْأَمْرَ مِنْ وَجْهِهِ ، ثُمَّ ظَفَرَ فَحُمِدَ ، وَإِنْ لَمْ يَظْفَرْ بَعْدَ الْأَنَاةِ ، قِيلَ : مَا فَرَّطَ وَلَا ضَيَّعَ ، وَلَكِنَّ الْقَضَاءُ غَالِبٌ ، وَعَلَيْكُمْ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَتَعَلِيمِ السُّنَنِ وَأَدَبِ الصَّالِحِينَ . وَإِيَّاكُمْ وَالْخِيفَةَ وَكَثْرَةَ الْكَلَامِ فِي مَجَالِسِكُمْ ، وَقَدْ اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ يَزِيدَ ، وَجَعَلْتُ حَبِيبًا عَلَى الْجَنْدِ ، حَتَّى يَقْدَمَ بِهِمْ عَلَى يَزِيدَ ، فَلَا تَخَالَفُوا يَزِيدَ » فَقَالَ لَهُ الْمَفْضَلُ : لَوْ لَمْ تُقَدِّمَهُ لَقَدَّمْنَا .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٨)

* * *

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يَا بُنَيَّ ، اسْتَعْقِلِ الْحَاجِبَ ، وَاسْتَظْهِرِ الْكَاتِبَ ، فَإِنَّ حَاجِبَ الرَّجُلِ وَجْهَهُ ، وَكَاتِبَهُ لِسَانَهُ » ، وَكَانَ يَقُولُ لِبَنِيهِ : « يَا بُنَيَّ أَحْسَنُ ثِيَابِكُمْ مَا كَانَ عَلَى غَيْرِكُمْ » . وَمِنْ كَلِمَاتِهِ الْمَأَثُورَةِ قَوْلُهُ : « الْحَيَاةُ خَيْرٌ مِنَ الْمَوْتِ ، وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَلَوْ أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ لَأَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَ لِي أُذُنٌ أَسْمَعُ بِهَا مَا يُقَالُ فِيَّ غَدًا إِذَا مِتُّ » ، وَقَوْلُهُ : « عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي الْعَبِيدَ بِمَالِهِ وَلَا يَشْتَرِي الْأَخْرَارَ بِإِفْضَالِهِ » .

(وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العيون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٤ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قَتَلَ الحجاجُ عبد الله بن الزبير، ارتجَّت مكة بالبكاء، فصعد المنبر، فقال :
« أَلَا إِنَّ ابنَ الزبير كان من أخبار^(١) هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلق طاعة الله ، واستمكن بحرم الله ، ولو كان شياً مانعاً للأصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بنخيطيته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة » .
(سرح العيون ص ١٢٢ وتاريخ ابن صاكر ٤ : ٥٠)

٢٧٥ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلماً ، فخط الأنام عنه ثم قال :
« مَوْجُ ليلِ التطم ، وانجلي بضوءِ صُبْحهِ ، ي أهل الحجاز ، كيف رأيتموني ؟ ألم أكشف ظلمةَ الجوز ، وطخية^(٢) الباطل بنور الحق ؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطاة مُشْفِق ، وعطفة رَحِم ، ووصل قرابة ، فإياكم أن تزلوا عن سَنَنِ أقتناكم عليه ،

(١) جمع حبر: يفتح الحاء وكسرهما ، وهو العالم أو الصالح . (٢) الطخية : الظلمة ، ويثلاث .

فأقطع عنكم ما وصلته لكم ، بالصارمِ البتار ، وأقيم من أودكم ما يقيم المنقفُ
من أود^(١) القنّاءِ بالنار » ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عصّتْ به الحربُ عضّها وإن شمرتْ عن ساقها الحربُ شمراً
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

٢٧٦ - خطبته حين ولي العراق^(٢) (سنة ٧٥ هـ)

حدثتْ عبد الملك بن عمير اللبثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ،
يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آت ، فقال : هذا الحجاج
قد قدّم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِراً بِعِمَامَةٍ قد غطّى بها أكثر وجهه
مقلداً سيفاً ، متنكباً^(٣) قوساً ، يؤم المذبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فكث
ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا
على العراق ! حتى قال عمير بن ضارِبُ البرُجُمي : أَلَا أَحْضِبُهُ لَكُمْ ؟ فقالوا : أمهل حتى
ننظر^(٤) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ اللثامَ عن فيه ، ونهض ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي^(٥) »

(٢) مقوم الرماح ، والأود : الاعوجاج .

(٣) ويرى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكباً على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجاءه
حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : على بالناس ، فحسبوه وأحسبوه خوارج فهموا به .
(٤) تنكب قوسه : ألقاهاعل منكبه . (٥) قال ابن نباتة « فلما سمعوا هذه الخطبة - وكان بعضهم

قد أخذ حصى أراد أن يمحسه به - تساقط من أيديهم حزناً ورعباً » . (٥) البيت لسحيم بن وثيل
الرياحي ، قاله الحجاج متمثلاً ، وقوله « أنا ابن جلا » أي الواضح الأمر المنكشفه ؛ وقيل ابن جلا الصبيح ،
لأنه يجلو الظلمة . وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم ، أي أنا الظاهر الذي لا يخفى وكل أحد يعرفني ، ولم ينون جلا
لأنه أراد الفعل ، فحكي على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللَّهِ مَا زِيدَ بِنَامَ صَاحِبُهُ وَلَا مَخَاطِطِ اللَّيَّانِ جَانِبُهُ

وتقديره أنا ابن الذي يقال له جلا الأمور وكشفها . وقال بعضهم : ابن جلا - وابن أجل - رجل =

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله إنى لأَجْمَلُ الشرِّ بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإنى لأَرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورءوساً قد أينعت وحن قطافها، وإنى لأصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء بين الصائم واللحى تتفرق، ثم قال:

هذا أوان الشدِّ فاشتدَّى زيمٌ قد لفها الليلُ بسواقِ حطَمٍ
ليس براعى لبيلٍ ولا غنمٍ ولا بجزارٍ على ظهرٍ وضمٍ^(١)
ثم قال: قد لفها الليلُ بمصليِّ أزوعٍ خراجٍ من الدوى
مهاجرٍ ليس بأعرابيٍّ^(٢)

ثم قال: قد شمّرت عن ساقها فشُدُّوا وجَدَّتِ الحربُ بكم فجدُّوا
والقوسُ فيها وترٌ عرُدٌ مثل ذراعِ البكرِ أو أشدُّ
لا بُدَّ مما ليس منه بُدٌّ^(٣)

= بعينه، قال في اللسان: « وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع في الغارات من ثنية الجبل على أهلها » والثنايا جمع ثنية: وهى الطريق في الجبل، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا في ارتفاعها وصعوبتها، والعمامة: المغفر والبيضة قال ثعلب: العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم. (١) الشعر لرويشد بن رميض العنبري والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطم، والحطمة: الراعى الظلوم للماشية يشم بعضها ببعض، فلا يبقى من السير شيئا، وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحق قتيلا: « أحق من راعى ضأن ثمانين » قال الجاحظ في البيان والتبيين ١: ١٣٩ « فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا؟ وقد رعى الغنم عدة من جملة الأنبياء عليهم السلام » والوضم: كل ما قطع عليه اللحم.

(٢) المصلي: الشديد القوى، والأروع: الذكى، أو من يعجبك بشجاعته، والدو والدوية والدواوية ويخفف: الفلاة المتسعة التي تسمع لها دويا بالليل « وإنما ذلك الدوى: من أخفاف الإبل، تنفسح أصواتها فيها، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيف الجن » أى خراج من كل غمام شديدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأعرابي بطبيعته غر ساذج ليس في تجرئته كأهل المدن.

وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة:

« إنى لست أتأويا أعلم، ولا بدويا أفهم ».

(٣) جد به الأمر: اشتد، وعرُد: أى شديد، والبكر: الفقى من الإبل، ولا بد من كذا: أى لا يحيد عنه.

إني والله بأهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، مَا يُقْفَعُ
 لِي بِالشَّنَانِ ^(١) ، وَلَا يُعْمَزُ جَانِبِي كَتَمَازِ التَّيْنِ ، وَلَقَدْ فُرِرْتُ ^(٢) عَنْ ذِكَاةٍ ، وَقَفَّسْتُ
 عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرَيْتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقُضْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - نَثَرَ
 كِفَانَتَهُ ^(٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَمَجَمَّ ^(٤) عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرًا عُودًا ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسِرًا ^(٥)
 فَمَا كَمْ بِي ، لِأَنْكُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ ^(٦) فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ
 سُنَنَ الْغَيِّ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَلْحُوَّكُمْ ^(٧) أَحْوَجَ الْعَصَا ، وَلَا تُقْرَعُكُمْ قَرْعَ الْمَرْوَةِ ^(٨) ،
 وَلَا عُصْبَتِكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ ^(٩) ، وَلَا تُضْرِبُكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لِكَأْهِلِ
 قَرْيَةٍ كَانَتْ أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَّرَتْ
 بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ
 لَا أَعِدُّ إِلَّا وَقَيْتَ ، وَلَا أُمْمَ إِلَّا أَمْضَيْتُ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا قَرَيْتُ ^(١١) ، فَيَا أَيُّهَا هَذِهِ
 الشُّفَعَاءُ ، وَالزَّرَافَاتِ ^(١٢) وَالْجَمَاعَاتُ ، وَقَالَ وَقِيلَا ^(١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟

- (١) القمقمة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع : مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله . (٢) فر الدابة : نتج حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه . (٣) الكنانة : جمعة السهام . وفي رواية : « كب كنانته » أي قلبها . (٤) عجم العود : عضة يعرف صلابته من خوره . (٥) وفي رواية « وأصلها عمودا » . (٦) أوضع أيضا : أسرع في سيره كوضع . (٧) لحا العصا : قنر ، وفي رواية : « لحو العود » . (٨) المرو : حجارة بيض براقه تورى النار . (٩) السلمة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ في البيان والتبيين « لأن الأشجار تمصب أقصانها ، ثم تحيط بالعصى اسقوط الورق وهشيم العيدان » (٣ : ٢١) . (١٠) قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهى تضرب عند الحرب ، وعند الخلط ، وعند الحوض أشد الضرب » وقال الحارث بن صخر :
 بضرب يزيل الهام عن سككاته كما زيد عن ماء الحياض الغرائب
 (١١) أخلق : أقدر ، وفريت : قطعت . (١٢) الشفعاء جمع شفيع ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان فيسقمون في أصحاب الجرائم ، فنهاهم عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاى وضما : الجماعة من الناس . (١٣) القول في الخير ، والقال ، والقيل ، والقالة في الشر .

أما والله لَتَسْتَفِيمُنَّ على طريق الحق ، أو لَأَدْعَنَّ لكل رجل منكم شُغْلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعْطِيَاتِكُمْ^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٢) ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سَفَكَتُ دمه ، وأَهْبَيْتُ^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل للمبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ،
وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار ٢ م : ص ٢٤٤ ،
ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التصحيح ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ،
وسرح العيون ١١٦ ، وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٣) .

٢٧٧ - خطبته وقد سمع تكبيراً في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فسَمِعَ تكبيراً في السوق ، فَرَاعَهُ ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« يا أهلَ العراق ، يا أهلَ الشقاق والنفاق ، ومساوئِ الأخلاق ، وَبَنِي اللّٰكِيْمَةِ^(٤) ،
وعبيدِ القَصَا ، وأولادِ الإماء ، والْفَقْعَ بالقرقر^(٥) ، إني سمعت تكبيراً لا يراد الله به ،
وإنما يراد به الشيطان^(٦) ، ألا إنها عَجَاجَةٌ تحتها قَصْفٌ^(٧) ، وإنما مَثَلِي ومثلكم ما قال
عمر بن بَرِّاق الهمدانيّ :

وكنْتُ إذا قومٌ غزَوْني غزَوْتهمُ فهل أنا في ذَايَا لَهْمَدَانَ ظالمٌ !

(١) أعطيات جمع عطية ، وهي جمع عطاء . (٢) قائد الجيوش الذي حارب الخوارج الأزارقة ،
وفل شوكتهم ، وسيأتى . (٣) جعلته نهياً يغار عليه .

(٤) اللثيمة . (٥) القرقر : أرض مطمئنة ليثة ، والفقع ويكمر : البيضاء الرخوة من
الكناة ، ويقال للذليل : هو أذل من فقح بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتنأه ؛ أو لأنه يوطأ بالأرجل .

(٦) وفي رواية : « إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد الله به في الترغيب ، ولكنه التكبير
الذي يراد به الترهيب » . (٧) العجاج : الغبار ، والقصف : شدة الريح .

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حميّاً تجتنبك المظالم
أما والله لا تفرغ عصاً عصاً إلا جعلتها كأمس الدابر^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ،
وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

٢٧٨ - خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داوؤه ، فمندى دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلى أن أعجله ،
ومن ثقل عليه رأسه ، وضمتُ عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره . قصرتُ عليه باقيه ،
إن للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فن ستمت سريرته ، صحت عقوبته ، ومن وضعه
ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسمه العافية ، لم تضيقُ عنه الهلكة ، ومن سبقته بإدرةٍ فيه ،
سبق بدنه بسفكِ دمه ، إني أنذركُ ثم لا أنظر^(٢) ، وأحذركُ ثم لا أعذر ، وأنوعد
ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق^(٣) ولأنكم ، ومن استرخى لبيبه^(٤) ، ساء أدبه ، إن
الحزم والعزم سلباني سوطي^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فقامه في يدي ، ونجاده^(٦) في عنقي ،
وذبابه^(٧) قِلادة لمن عصاني ، والله لا أمرُّ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ وشرح العيون ١٢٢)

(١) وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يربع رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر
موضع قدمه ، فأقم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقمة تكون نكالا لما قبأها ، وأدبا لما بعدها » -
يربع (كيميح) يقف وينتظر ، والظلع (كشمس) : الغمز في المشي ، ويقال : اربع على ظلمك ، أى إنك
ضعيف ، فانت عما لاتطيقه . (٢) أنظره : أهله . (٣) الترنيق : الضعف في الأمر (وفي البدن والبصريات).
(٤) اللبب : ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل ، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية .
(٥) هكذا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكتنا في وسطى » والأول أصح ، أى أنه رأى من
الحزم والعزم : المبالغة في استعمال الشدة والقوة في التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ما هو أشد
منه وهو السيف . (٦) التجاد : علاقة السيف . (٧) ذباب السيف : حده .

٢٧٩ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والمقصب ،
والمسامع والأطراف ، والأعضاء^(٢) والشغاف^(٣) ، ثم أفضى إلى المخاخ^(٤) والأصماغ ،
ثم ارتفع فمشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشركم خلافاً ، اتخذتموه
دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، وموأمراً^(٥) تستشيرونه ، فكيف تنفعم تجربة ،
أو تمظكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفصمكم بيان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز^(٦) ؟

(١) وقعة دير الجماجم: هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث . وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده فأصيبوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى رتبيل بن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحاربتة ، فسار إليه وامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، فينتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصف رأيه ويأمره بالوغول في أرضهم وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فجثا الحجاج على ركبتيه وانتضى نحو شهر من سيفه ، واستعد للقاء الموت كريمة فقيوت بذلك قلوب جنده واستبسلاوا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم هزيمة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ؛ فسمع رتبيل بمقدمه فأنزله عنده وأكرمه فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يبعث إليه باين الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، فأراد رتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن أتى نفسه من فوق قصر ، فأت فاحتر رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . (٢) في المقد الفريد (والأعضاء) . (٣) الشغاف : غلاف القلب أو حبه . (٤) رواية نهاية الأرب « المخاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ ومخخة (كمنية) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ؛ فتروها (الأصماغ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر «الأصماغ» بهذا للنص، والذي في كتب اللغة : «الصماخ من الأذن : الخرق الباطن الذي يفضى إلى الرأس جمعه أصمخة وصماخ ، ومثل الصماخ الأصموخ كمصفور ، وجمعه أصامبخ ، فصواب الكلمة «الصماخ» أو «الأصامبخ» . (٥) أمره في كذا مؤامرة : شاوره . (٦) يشير إلى وقعة «تستر»

حيث رُفِّمَ المكر، وسعيتم بالقدْر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يَحْدُلُ دينه
وَحِلَافته، وأنا أرميكم بطرفي، وأنتم تَسَلُّونَ لِيُوَادُّوا^(١)، وتمهزمون سِرَاعاً؟ ثم يوم
الزَّأوية، وما يوم الزَّأوية! بها كان فَشَلُكُمْ وتنازُعُكُمْ وتخاذلكم، وَبَرَآةُ الله منكم،
وَنُكُوصُ وَلِيَّتِكُمْ عنكم، إذ وَلَّيْتُمْ كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى
أعطانها^(٢)، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يُلَوِّى^(٣) الشيخ على بنيهِ، حتى عَضَّكُمْ^(٤)
السلاح، وَقَصَمْتُمْ الرماح، ثم يوم دَيْرِ الجاجم، وما يوم دِيرِ الجاجم! بها كانت
المعارك والملاحم^(٥)، بضربِ يُزِيلِ الهام^(٦)، عن مَقِيلِهِ^(٧)، وَيُذْهِلُ الخليل عن خَلِيلِهِ،
بأهل العراق، وَالْكَفَّرَاتِ بعد الفَجَرَاتِ، وَالْفَدَّرَاتِ بعد الْخَلَّتَاتِ^(٨)، وَالزَّوَاتِ^(٩)
بعد النزوات، إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى ثَعُورِكُمْ غَلَّامًا^(١٠) وَخُنْتُمْ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ، وَإِنْ
خَفْتُمْ نَافَقْتُمْ، لا تذكرون حَسَنَةً، ولا تشكرون نِعْمَةً، هل استخفكم ناكث،
أو استغفواكم غار، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم^(١١) خالغ، إلتبعموه وآويتموه،
ونصرتموه وزكيتموه؟ يأهل العراق، هل شَغِبَ شاغب، أو نَعَبَ ناعب، أو زفر
زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يأهل العراق: ألم تنهكم المواظ، ألم تَزَجُرْكُمْ
الوقائع؟» .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال: «يأهل الشام، إنما أنا لكم
كالظلم^(١٢) الرامح عن فراخه، يَنْفِي عنها المَدَرُ^(١٣)، ويباعد عنها الحجر، وَيُكَيِّمُهَا

- (١) أي يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لواءاً وملاوذة . (٢) أعطان جمع عطن كسبب : مبرك الإبل
حول الحوض كالعطن ، ونوازع : أي مشتاقة . (٣) لايلوي على أحد ؛ أي لايقف ولا ينتظر .
(٤) في نهاية الأرب « عظكم » بالظاء : عظه الحرب كفضته بالضاد .
(٥) جمع ملحمة وهي الوقعة العظيمة القتل . (٦) جمع هامة ، وهي الرأس .
(٧) موضعه ، أي الأعناق ، قال الشاعر :

بضرب بالسيوف رهوس قوم أزلنا هامهن عن المقييل

- (٨) جمع خترة ، والختر كشمس : القدر والحديمة أو أقبح القدر . (٩) جمع نزوة ، من نزا
نزوانا : أي وثب . (١٠) غل كغصر غلولا : خان . (١١) استعضده : سأله أن يعضده .
(١٢) ذكر النعام ، والرامح : أي المدافع ، من رمحه : أي طعنه بالرمح . (١٣) قطع الطين اليابس .

من المطر، ويحميها من الضباب^(١)، ويجرُسها من الدَّثَابِ، يأهل الشام؛ أنتم الجَنَّةُ والرِّدَاءُ، وأنتم العُدَّةُ والحِذَاءُ .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وروج الذهب ٢ : ١٣٥ - وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٥٥) .

٢٨٠ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلَقِّحُ بالنجوى^(٢) ، وتُنتِجُ بالشكوى ، وتُحصَدُ بالسيف ؛ أما والله إن أبغضتموني لاتضروني ، وإن أحببتموني لاتنعموني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ، زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفاحت ، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لاتعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجِكُمْ أَطِيبُ مِنَ الْمَسْكِ ، وَلَا بِنَاؤُكُمْ آأَسُّ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلْدِ ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي دُنْيَانَ :

إذا حاولتَ في أسد فجورا فإني لستُ منك ولستَ مني

مُمُ دِرْعِي الَّتِي اسْتَلَّامْتُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ النَّسَارِ وَمِنْ مَجْنِي^(٣)

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِأَعْيَادِنَا

الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

٢٨١ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبَةٌ^(٤) ، وقال :

(١) جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرياء . (٢) النجوى : المسارة . (٣) استلام : ليس

للأمة ، وهي الدرع ، النسار : ماء لبني عامر له يوم ، والمجن : الترس . (٤) ثواب .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ؛ أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(١) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومصر لكان لي حلالا .

« عذيري ^(٢) من أهل هذه الحَمِيرَاء ، يرى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٣) ، والله لأجعلهم كالرَّسَمِ ^(٤) الدَّائِرِ ، وكالأمس الغابر ، عذيري من عبد هُدَيْلٍ يقرأ القرآن كأنه رَجَزَ الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٥) - ، عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله - فيما علمت - عبداً حَسُوداً بخيلاً » .
(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ والعقد الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٨٢ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُونَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مَثُونَةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكُم لا يتعلمون ، وشراكم لا يتوبون ؟ مالي أراكم تحرصون على ما كُفِّيم ، وتضيعون ما به أمرتم ؟ إن العلم يوشك أن يُرْفَع ، وَرَفَعَهُ ذهابُ العلماء ؛ ألا وإني أعلم بشراكم من البَيْطَارِ بالفرس ، الذين لا يقرءون القرآن إلا هَجْرًا ^(٦) ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ^(٧) ؛ ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخر ، يحكم فيها ملك قادر

(١) وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » والشعب بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ؛ والطريق في الجبل . (٢) العذير : العاذر والنعير ؛ والحال التي تحاولها تعذر عليها . (٣) وفي مروج الذهب : يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله » . (٤) الرسم : الأثر ، أو بقيته . والدائر : الدارس المحو . (٥) هو من بني هذيل . (٦) أي هجرا له وتركها ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه . (٧) الدبر من كل شيء : عقبه ومؤخره ، أي ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .

أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنْ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ، وَاعْمَلُوا أَنْكُمْ مُلَاقِيهِ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ ، أَلَا وَإِنْ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِحَدَايِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنْ الشَّرُّ كُلُّهُ بِحَدَايِهِ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِنْ مَنْ يَمْعَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَمْعَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وَاسْتَغْفِرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ^(١) .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٣ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنِّي لَمْ أَجِدْ دَوَاءَ أَدْوَى لِدَائِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبِعُوثِ ، لَوْلَا طَيْبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الْقَفَلِ ^(٢) ، فَإِنَّهَا تُعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَاكُمْ إِلَّا كَارِهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَنَا وَاللَّهُ لَرُؤْيَتِكُمْ أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيذِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ نَفْسِي مَقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ حَسَنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٤ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَرَوُونَ عَن نَّبِيِّكُمْ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُؤْبِقَهُ الْجَوْرُ » . وَإِيْمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أُحْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍو مَغْلُولًا ، مِنْ أَنْ أُحْشَرَ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » .

(المقد الفريد ٣ : ١٧)

(١) وذكر صاحب المقد أيضا هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ » إِلَى آخِرِهِ

وَعَزَاهَا إِلَى شَدَادِ بْنِ أَوْسِ الطَّائِي . انظر المقد الفريد ٢ : ١٥٨ . (٢) الرجوع .

٢٨٥ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان الشهيد المظلوم ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازل^(١) الذي جر بته الأمور ، وأحكمته التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن ، والمروءة الظاهرة ، واللين لأهل الحق ، والوَطء لأهل الزيغ ، فكان راجعاً من الولاة المهديين الراشدين ، فاختر الله له ما عنده ، وألحقه بهم ، ووعده إلى شبهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته ، فاسمعوا له وأطيعوه .

أيها الناس ، إياكم والزيغ ، فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله ، ورأيتم سيرتي فيكم ، وعرفت خلافكم وطيبكم ، على معرفتي بكم ، ولو علمت أن أحداً أقوى عليكم مني ، أو أعرف بكم ما وليتكم ؛ فإياي وإياكم ، من تسلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غمًّا »
ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨٦ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :
« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ ، وَقَدْ اسْتَخَلَفْتُ عَلَيْكُمْ ابْنِي مُحَمَّدًا ، هَذَا وَمَا كُنْتُمْ لَهُ بِأَهْلٍ ، وَأَوْصِيْتُهُ فِيكُمْ بِخِلَافِ مَا أَوْصَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ

(١) الرجل الكامل في تجرته .

صلى الله عليه وسلم في الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبَل من مُحْسِنِهِمْ،
وأن يُجَاوَزَ عن مُسِيئِهِمْ، وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم؛
ألا وإنكم ستقولون بعدى مَقَالَةً ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم
ستقولون بعدى : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإني مُعَجَّلٌ لكم الإجابة : لا أحسن
الله الخِلافةَ عليكم « ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ،
ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٧ - خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشى
أتاه بريد من اليمن ب وفاة محمد أخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج
وهيض ^(١) جناحُه ، فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معى في الحياة
الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُ الله ليؤشِكنَّ الباقي منى ومنكم
أن يفنى ، والجديدُ أن يبلى ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تُدَالَ ^(٢) الأرض منى
كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا
من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا
هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ^(٣) » ثم تمثل بهذين البيتين :

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور . (٢) أداله الله منه : نصره عليه .

(٣) الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعثات الموتى بانبعثات الجيش إذا نفخ في البوق ،
وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالنضم : التمر قبل إرطابه) أى نفخ في صور الموتى الأرواح .
وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع جدث كسبب وهو القبر ، ونسل كضرب
ونصر : أسرع .

عَزَائِي نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقَيْتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سَرُورَ النَّفْسِ فِيهَا هُنَالِكَ
(المقد الفريد ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٨ - خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل للعراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نَزَغَ^(١) الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فه؟ وهل يرجو الحجاج الخيرَ إلا بعد الموت؟ والله ما يسرني إلا أموتَ ، وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رَضِيََ بالتخليد إلا لأهون خَلَقَهُ عليه إبليس ، قال : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ، ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُدْكَ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما عسى أن يكون أيها الرجل؟ وكلكم ذلك الرجل ، كأني والله بكل حيٍّ منكم ميتاً ، وبكل رَطْبٍ يابساً ، وَنُقِلَ في ثياب أ كفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً ، في ذراع عرضاً ، وأكلت الأرض لحمه ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول » ، ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢)

ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

- ٢٨٩ -

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ مَنْقُوصٍ ، وعملٍ محفوظٍ ، رَبُّ دَائِبٍ مُضِيعٍ ، وساعٍ لغيرِهِ ، والموتُ في أعناقكم ، والنارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم ، فكان ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكان الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترَوْنَه فإنه ذاهب ، هذه شمسُ عادٍ وثمودٍ وقرونٍ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على التَّبَابِعة والأكاسيرة ، وخزائنها السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصراطُ منصوب ، وجهنم تزفر^(١) وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، في روضةٍ يُخَبِّرون^(٢) ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآياتِ رَبِّهم لم يخزوا عليها ضمًا وعمياناً . »

فكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يَرَقِي عَتَبَاتِ المذبر ، فيمتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله . »

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

(١) زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . (٢) أحبره : سره . والخبور : السرور .

وقال مالك بن دينار: غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمَذْبَحِ ، فَصَعِدَ الْحِجَابُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمْرٌوَ حَاسَبَ نَفْسَهُ ، أَمْرٌوَ رَاقِبَ رَبَّهُ ، أَمْرٌوَ زَوَّارٌ ^(١) عَمَلُهُ ، أَمْرٌوَ فَسْكَرٌ فِيمَا يَقْرَأُهُ ، غَدَاً فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أَمْرٌوَ كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ أَمِيرًا ، وَعِنْدَ هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمْرٌوَ أَخَذَ بِعِمْقَانَ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِحِطَّامٍ جَلَّهُ ، فَإِنِ قَادَهُ إِلَى حَقِّ تَبِعِهِ ، وَإِنِ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهْ ، إِنِنَّا وَاللَّهِ مَا خَلَقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنَ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المقدم الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

أيها الناس ، أقدِّعُوا ^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ ^(٣) شَيْءًا إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأَعْصَى ^(٤) شَيْءًا إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَسْرَأَ جَمَلٍ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا فَقَادَهَا بِخِطَائِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَطَّقَهَا بِزِمَامِهَا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنِ تَحَارِمِ اللَّهِ ، أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(٥) .

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٥٠ ، وشرح العميون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكمال ١ : ١٩)

(١) زوره : حسنه . (٢) قدمه كتمه وأقدعه : كفه وكبحه . (٣) وفي عيون الأخبار : « أيها الناس ، احفظوا فروجكم ، وخذوا الأنفس بضميرها ، فإنها أسوك شيء وأسوك : أضعف ، من سلك الرجل سواكاً : سار سيرا ضعيفا . (٤) وفي رواية « وأعطى شيء » وهو تحريف . (٥) قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن علي عليه السلام » .

وخطب فقال :

« اللهم أرني الفعْيَ غيًّا فأجتنبه ، وأرني الهدى هُدًى فأتبعه ، ولا تكِلني إلى نفسي ، فأضِلَّ ضلالاً بعيداً ، والله ما أحبُّ أن ماضى من الدنيا لي بعمامتي هذه ، ولما بقي منها أشبهُ بما مضى من الماء بالماء . »

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد

١ م : ص ١٥٠ ، وشرح العمون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إنَّ امرأ أنت عليه ساعةٌ من عمره ، لم يذُكر فيها ربه ، ويستغفر ربه من ذنبه ، ويفكر في معاده ، لجديراً أن يطول حزنه ، ويتضاعف أسفه ، إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ، فلا يُغفرنكم شاهد^(١) الدنيا ، عن غائب الآخرة ، واقهر وا طول الأمل ، بقصر الأجل^(٢) . »

(شرح ابن الحديد ١ م : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتبيين :

٢ : ٩٩ ، شرح العمون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) أي حاضرهما . (٢) قال الشمسي : سمعت الحجاج يقول بكلام ماسبقه إليه أحد ؛ سمعته يقول : « إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الثقفى عن عمه قال سمعت الحسن البصرى يقول : لقد وقفتى كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقذفك؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأعراد يقول : « إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لخرى أن تطول عليها حسرتة . »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٨٩٦ هـ)

٢٩٤ - خطبته بحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طُخَارِسْتَانَ »

قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج^(١) سنة ٨٦ هـ ، فلما تهيأ لغزو أخرون وشومان - وها من بلاد طُخَارِسْتَانَ^(٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد فقال :

« إن الله أحلَّكم هذا المَحَلَّ ليعزَّ دينه ، ويذبَّ بكم عن الحُرْمَاتِ ، وَيَزِيدَ بكم المال استفاضةً ، والعدوَّ وقناً^(٣) ووعد نبيّه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديثٍ صادق ، وكتاب ناطق ، فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسنَ الثواب ، وأعظمَ الذخر عنده ، فقال : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَخْمَصُوهُ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، ثم أخبر عن قُتْلٍ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ حَتَّى مَرْزُوقٍ ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ، وخوارزم ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٨٩٦ هـ . (٢) ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء . (٣) وقه : قهره وأذله . (٤) مجاعة .

قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) ففَتَجَزَّوْا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ ،
ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر ، وأمضى ألم ، وإياكم والهوىنى .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٥٩)

٢٩٥ - خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وصار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب

الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه تمكن ، وهذه السغد
شاغرة^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذى كان بيننا ، ومنعونا ما كنا صالحنا عليه
طرخون ، وصنعوا به ما بلفسكم ، وقال الله تعالى : (قَنَنْكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى
نَفْسِهِ) ، فسيروا على بركة الله ، فإنى أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير^(٣)
وقريظة^(٤) ، وقال الله تعالى : (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨٥)

(١) وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهى بين نهري سيحون
وجيحون ، وكانت قصبها سمرقند ، وهى بالسین ، وربما قيلت بالصاد » وأتاه طرخون ملك السغد ، وسأه
الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قتيبة إلى ما طلب وصالحه ، ثم نقضوا عهودهم . (٢) شجر الكلب
كنع : رفع إحدى رجليه ليبول . (٣) بنو النضير : حى من يهود خيبر ، وكان بينهم وبين رسول
الله صلى الله عليه وسلم عهد يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفوا بها حسدا منهم وبغيا ، فبينما رسول الله
صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه فى ديارهم ، إذا انتزع جماعة منهم على قتله بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ،
فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلاد ، لما تقدم منهم من الغدر ،
فهيئوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة
والسلام لقتالهم ؛ وتحصن بنو النضير فى حصونهم ، وظنوا أنها مانعهم من الله ؛ فحاصرهم ست ليال ؛ ثم أمر بقطع نخيلهم
كى يسلموا ، فقتل الله فى قلوبهم الرعب ؛ فسألوه أن يجلبهم ويكف عن دماهم ؛ وأن لهم ما حملت الإبل من
أموالهم إلا آلة الحرب ففعل ؛ وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ؛ لئلا يسكنها المسلمون .

(٤) كان يهود بنى قريظة يساكنون المسلمين فى المدينة ؛ فانتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصد جموع

الأحزاب - فى غزوة الخندق - ونقضوا عهودهم معهم ؛ وذلك أن حيسى بن أخطب سيد بنى النضير الذين =

٢٩٦ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأنى قتيبة السغد فحصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة^(١) « إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كنتم أضعفَ وأذلَّ ، فهما كان عندكم من قوة فابذُلوها ، فجمعوا جمعهم ، وولّوا عليهم ابناً لخاقان^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيّتوا عسكر قتيبة ، ونمى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوّكم قد رأوا بلاءً^(٣) الله عندكم ، وتأبيده إياكم في مُزاحفتكم ومكاثرتكم^(٤) ، كل ذلك يُفاجِبُكم^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحتالوا غيرتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد

= أجلوا من ديارهم ؛ توجه إلى كعب بن أسد القرظي ؛ فحسن له نقض العهد ؛ ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ؛ فاشتد وجل المسلمين ؛ وزلوا زلزالاً شديداً ؛ وأرسل الله على الأعداء ريحا باردة في ليلة مظلمة وجنودا لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ؛ وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بحصونهم ؛ وحاصره المسلمون نحسباً وعشرين ليلة ؛ فلما ضاقوا بالحصار ذرعا ؛ طلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير ؛ من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكه ففعلوا ؛ فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ؛ وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ماقد علمت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ؛ وكانوا حلفاء الخزرج ؛ فنزلوا على حكه ؛ فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوجههم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحا من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من يأتي به ؛ فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ؛ وتقسم الأموال ؛ وتسبى النساء والذاري ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد ؛ ثم أمر بتنفيذ الحكم ؛ فنفذ فيهم . (١) الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين . (٢) خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ؛ وقد خقنوه على أنفسهم ؛ أى رأسوه (بالتشديد) . (٣) أى نعمته . (٤) كاثروهم فكثروهم ؛ غالبوهم فغلبوهم . (٥) أى ينصرم عليهم ؛ ويظفرم بهم . (٦) جمع دهاقان بكسر الهمزة ؛ زعيم فلاحى للعجم ، ورئيس الإقليم . مغرب .

فَضَلَّكُمْ اللهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلُوا^(١) لِلَّهِ بِلَاءَهُ حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ عَنْ أَحْسَابِكُمْ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٧ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعهم فقال للناس :
« إني قد جمعتكم من عين التَّمَرِ^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَمْتُ الْأَخَ إِلَى أُخِيهِ ،
وَالوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فِيمَتِّكُمْ ، وَأَجْرِيَتْ عَلَيْكُمْ أُعْطِيَاتِكُمْ غَيْرَ مُكَدَّرَةٍ
وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَيْتُمْ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كَأُمِّيَّةِ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ :
إِنَّ خَرَجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦) فَدَوَّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ
سِنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَمِى طَاعَةٌ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ؛ لَمْ يَجِبْ فَيْقًا ، وَلَمْ يَنْكَأْ^(٨) عِدْوًا ،
ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ فُلُوحُ تَبَارَى إِلَيْهِ النَّسَاءَ ، وَإِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ
هَبْتَقَةَ الْقَيْسِيِّ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فَغَضِبَ ، فَقَالَ :

(١) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبليت عنده بلاء حسنًا ، وأبلاه الله بلاء حسنًا ، وأبليت
معروفًا . والمعنى : فاصدقوا القتال ، وقدموا معروفًا تبغون به ثواب الله . (٢) وسبب ذلك أن الوليد
ابن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبد العزيز ولي عهده ، ودس في ذلك إلى القواد والشعراء ، فبايعه على خلع
سليمان الحجاج وقتيبة ، ثم مات الوليد وقام سليمان بن عبد الملك ، فخافه قتيبة وخشى أن يولى سليمان يزيد
ابن المهلب خراسان . (٣) بلد على الفرات قرب الكوفة . (٤) هو أمية بن عبد الله بن خالد
ابن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان عاملًا عليها لعبد الملك بن مروان حتى كانت سنة ٧٨
فنزله وجمع سلطانه للحجاج فبعت المهلب إليها . (٥) في الأصل « لا يقيم » وهو تحريف أو « لا يقيم
مطبخي . (٦) أبو سعيد : كنية المهلب بن أبي صفرة . (٧) من دومت الكلاب : أى امتعت
في المسير : وفي رواية أخرى « فدوخ بكم البلاد » وستأني . (٨) نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح .
(٩) هو يزيد بن ثروان هبتقة ذو الودعات ، ويكنى أبا نافع أحد بني قيس بن ثعلبة . يضرب به المثل
في الحق فيقال : « أحق من هبتقة » وله نوادر في الحق . منها أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وغزف
وهو ذو لحية طويلة ، فسئل في ذلك ، فقال : لأعرف بها نفسي ، ولثلاث أضل ، فبات ذات ليلة ، وأخذ أخوه =

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، وَاللَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى عَنَزٍ مَا كَسَرْتُمْ قَرْنَهَا ، يَا أَهْلَ السَّافِلَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أَوْبَاشَ ^(١) الصَّدَقَةَ ، جَمَعْتُمْ كَمَا تَجْمَعُ إِبِلَ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ ، يَا أَهْلَ النَّفْخِ ^(٣) وَالْكَذْبِ وَالْبِخْلِ ، يَا أَيُّ يَوْمَيْكُمْ تَفَخَرُونَ : يَوْمَ حَرَبِكُمْ ، أَمْ يَوْمَ سَلِكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعَزُّ مِنْكُمْ يَا أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ . يَا بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ نَمِيمٍ . يَا أَهْلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصْفِ ^(٥) وَالْقَدْرِ ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ الْقَدْرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانَ ^(٦) » يَا أَصْحَابَ سَجَاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَلْتُمْ بِأَبْرِ النَّخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ ، يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَلْتُمْ بِقُلُوسِ ^(٩) السَّفِينِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْحَصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْأَعْرَابِ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُنَاسَةَ الْمِصْرِينَ ، جَمَعْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ ^(١١) ،

= قِلَادَتُهُ فَتَقْلَدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ، وَرَأَى الْقِلَادَةَ فِي عُنُقِ أَخِيهِ ، قَالَ يَا أَخِي : أَنْتَ أَنَا فَنَ أَنَا ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ ضَلَّ لَهُ بَعِيرٌ ، فَجَمَلَ يَنَادِي : مَنْ وَجَدَ بَعِيرِي فَهُوَ لَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فَلَمْ تَنْشُدْهُ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ حِلَاوَةُ الْوَجْدَانِ ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ اخْتَصَمَتْ الطَّفَاوَةُ وَيَتَوَّ رَاسِبٌ فِي رِجْلِ إِدْعَاهُ هُزْلًا وَهَؤُلَاءِ ، ثُمَّ قَالُوا : رَضِينَا بِأَوَامٍ مِنْ يَطَّلِعُ عَلَيْنَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ هَبْنَقَةٌ ، فَقَصَّوْا عَلَيْهِمْ قَصَبَتَهُمْ ، فَقَالَ : الْحَسْبُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَى نَهْرِ الْبَصْرَةِ ، فَيَلْقَى فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ رَاسِبِيَا رَسَبَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ طِفَاوِيَا طَفَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَحَدِ هَذَيْنِ الْحَيَيْنِ .

وقول تقيية : « إِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ هَبْنَقَةٌ » ذَلِكَ لِأَنَّ هَبْنَقَةَ كَانَتْ يَحْسُنُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ إِبْلِهِ ، فَيُرْعِيهَا فِي الْعَشْبِ وَيُنْحَى الْمَهَازِيلَ ، فَقِيلَ لَهُ : وَيَحْكُ ! مَا تَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَكْرَمُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ ، وَأَهْمِنُ مَا أَهَانَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ سَلِيمَانَ يَعْطَى الْأَعْنِيَاءَ ، وَلَا يَعْطَى الْفُقَرَاءَ وَيَقُولُ : « أَصْلَحُ مَا أَصْلَحَ اللَّهُ ، وَأَفْسَدُ مَا أَفْسَدَ اللَّهُ » - أَنْظِرْ جَمْعَ الْأَمْثَالِ ١ : ١٤٦ ، وَالْبَيَانَ وَالتَّيْبِينَ ١ : ١٢٦ - . (١) الْأَوْبَاشُ : السَّفَلَةُ ، جَمْعُ وَبَشٍ كَسَبَبِ . (٢) الطَّرِيقُ وَالْجَهَّةُ . (٣) الْفَخْرُ وَالْكَبِيرُ . (٤) الضَّمْفُ . (٥) الْهُو .

(٦) كَيْسَانَ : عَلِمَ لِلْقَدْرِ . (٧) هِيَ سَجَاحُ بِنْتِ الْخَارِثِ أَدْعَتْ النَّبُوَّةَ بَعْدَ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحِزْبِ فِي بَنِي تَغْلِبَ . (٨) أَبْرُ النَّخْلِ أَيْ : أَصْلُهُ . (٩) الْقُلُوسُ جَمْعُ قَلَسٍ كَشَمْسٍ : وَهُوَ حَبْلٌ ضَمَخٌ مِنْ لَيْفٍ أَوْ خَوْصٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ قُلُوسِ سَفِينِ الْبَحْرِ . (١٠) جَمْعُ حَصَانِ .

ومنابت القليل^(١) ، تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان^(٢) ، حتى إذا جمعتكم
كما يجتمع قزع الخريف^(٣) قاتم : كيت وكيت ، أما والله إني لأبن أبيه^(٤) وأخو أخيه ،
أما والله لأعصبنكم عصب السامة ، إن حول الصليان الزمزمة^(٥) ، بأهل خراسان ،
هل تدرن من وليتكم ؟ وليكم يزيد بن ثروان ، كأني بأمر مزجاء^(٦) ، وحكمكم
قد جاءكم ، فغلبكم على فيثكم وأطالكم ، إن هاهنا ناراً ، ارموها أرم معكم ،
ارموا غرضكم الأفي ، قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشام أب
مكفور ، حتى متى ينبطح أهل الشام بأفنيتمك وظلال دياركم ؟ بأهل خراسان انسبوني
تجدوني عراق الأم ، عراق الأب ، عراق الموليد ، عراق الهوى والرأي والدين ، وقد
أصبحتم اليوم فيما ترون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سبيلكم ،
فالظعينة^(٧) تخرج من مرو إلى بلخ بغير جوار ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسلوه الشكر
والمزيد . ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطاب
هذا نصها :

(١) ثبت له حب أسود حسن الثم . (٢) هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين .
(٣) القزع : كل شيء يكون قطعاً متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزع) وخرقت الثمار أخرفها
كنصر : اجتنبتها ، والتمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجتمع قزع الخريف » .
(٤) أي ابن أبي . (٥) الصليان : نبت من أفضل المرعى يختل (يجز) للخليل التي لانفارق الحى ،
والزمزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم ، يعنى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت المنجوس
عند أكلهم - يتراطنون على الأكل ، وهم صموت لا يستعملون لساناً ، ولا شفة ، لكنته صوت تديره في
خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض - وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه .
والعنى في المثل : أن ماتسمع من الأصوات والجلب ، لطلب ما يؤكل ويتمتع به . قال الميداني : وروى
« حول الصليان الزمزمة » الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت عابديها . (٦) هو مزجاء للمطى
أي كثير الإزجاء لها ، زجاها وأزجاها : ساقها ودفنها : والمراد أنه قاس ظلوم . (٧) الظعينة : المرأة
مادامت في الهودج .

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أتدرون من تبايعون ؟ إنما تبايعون يزيد بن ثروان - يعني هبنة القيسي -
كأني بأمر مزجاء ، وحكم قد أتاكم ، يحكم في أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم^(١)
ثم قال : الأعراب وما الأعراب ؟ لعنة الله على الأعراب ، جمعتم كما يجمع قرع الخريف^(٢)
من منابت الشَّيْح والقيصوم ، ومنابت القنقل ، وجزيرة ابن كاوان ، تركبون البقر ،
وتأكلون الهبيد^(٣) ، غملتكم على الخليل ، وألبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد ،
وأفاء بكم النِّيء » قالوا : سرنا بأمرك . قال : غرُّوا غيري .

(المعقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠١)

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل العراق ، ألسنتُ أعلم الناس بكم ؟ أما هذا الخي من أهل العالية ، فنعم
الصدقة ، وأما هذا الخي من بكر بن وائل فعليجة^(٤) بظراءه ، لا تجمع رجلها ، وأما هذا
الخي عبد القيس فما ضرب العَيْرِ بِذَنبِهِ ، وأما هذا الخي من الأزْد ، فملَّوج^(٥) خلق الله
وأناطه^(٦) ، وإيتمُّ اللهُ لو ملكتُ أمر الناس لَنَقَشْتُ أَيْدِيَهُمْ ، وأما هذا الخي من تميم ،
فإنهم كانوا يسمون العدرَ في الجاهلية كَيْسَانَ » .

(المعقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) أشار جمع بشر : وهو جمع بشرة ، وهي ظاهر الجلد . (٢) في المعقد الفريد : « كما يجمع
قرع الخريف » وفي البيان والتبيين والطبري « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا . (٣) الحنظل .
(٤) مؤنث الملحج : وهو حمار الوحش السمين القوي . وأمه بظراء : طويلة البظر كشمس ، وهو ما بين
شفرى للرحم . (٥) جمع طليج (بالكسر) وهو الرجل من كفار المعجم . (٦) جيل من الناس
كانوا ينزلون سواد العراق ثم استعمل في أخطاط الناس وعوامهم .

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل خراسان ، قد جرتُم الولاية قبلي ، أنا كم أمية ، فسكان كاسمِه أمية الرَّأيِ ، وأمية الدين ، فكتب إلى خليفته : إن خراج خراسان وسجستان ، لو كان في مطبخه لم يكفه ، ثم أنا كم بعده أبو سعيد ، فدوخ بكم البلاد ، لا تدرُونَ أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته ، ثم لم يجب فيثما ، ولم ينكأ عدواً ، ثم أنا كم بنوه بعده ، مثل أطباء^(١) السكلية ، منهم ابن الرَّحمة^(٢) ، حصان يضرب في عانة^(٣) ، ولقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد ، وأمن لكم السُّبل ، حتى إن الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند في غير جوار » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) جمع طبي كقفل . والطبي : لذات الخلف والظلف كالثدي للمرأة . (٢) يريد به يزيد

ابن المهلب . (٣) العانة : الأتان ، والقطع من حر الوخس ، والمراد بها النساء .

٣٠١ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَحَرَجَتْ خَارِجَةً بَحْرَاسَانَ ، فَقِيلَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوْ وَجَّهْتَ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي سُودٍ^(١) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعٌ رَجُلًا عَظِيمَ السَّكْبَرِ ، فِي أُنْفِهِ خُنْزُرًا وَانَّةً^(٢) ، وَفِي رَأْسِهِ نَعْرَةٌ^(٣) - وَإِنَّمَا أُنْفُهُ فِي أَسْلُوبٍ^(٤) ، وَمَنْ عَظُمَ كِبْرُهُ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيًّا ، وَلَمْ يُؤَامِرْ^(٥) نَصِيحًا . وَمَنْ تَفَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّجَ^(٦) بِالْأَنْفَرَادِ ، وَفَخَّرَ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ بَعِيدًا ، وَمَنِ الْخِلْدَانُ قَرِيبًا ، وَالخَطَأُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الصَّوَابِ مَعَ الْفُرْقَةِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ لَا تَخْطِئُ ، وَالْفُرْقَةُ لَا تُصِيبُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عَدُوِّهِ حَقَّرَهُ ، وَإِذَا حَقَّرَهُ تَهَانُونَ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ تَهَانُونَ بِخَصْمِهِ ، وَوَثِقَ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ قَلَّ أُحْتِرَاسُهُ ، وَمَنْ قَلَّ أُحْتِرَاسُهُ كَثُرَ عِثَارُهُ ، وَمَا رَأَيْتَ عَظِيمَ السَّكْبَرِ صَاحِبَ حَرْبٍ ، إِلَّا كَانَ مَنْكُوبًا ، فَلَا وَاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ عَدُوُّهُ عِنْدَهُ ، وَخَصْمُهُ فِيمَا تَغْلِبُ

- (١) هو وكيع بن أبي سود التميمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى ، وأبلى في القتال بلاء محموداً - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - ويؤاخذ الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .
 (٢) الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : السكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .
 (٣) النعرة : الخيلاء والسكبر . (٤) الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبراً ، قاله الراجز :

أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاه في الجيوب

(وهو في معنى المثل المشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجيوب كصبور : الأرض ، والأستاه جمع سته كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بشينة :

وما أنس ملاً شياً لأنس قولها (وقد قربت نضوى) أمصرتريداً؟

أي من الأشياء ، وقول قطري بن الفجاءة :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجننا صدور الخليل نحو تميم

أي على الماء . (٥) الكنى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . (٦) تبجج به : افتخر وتباهى .

عليه ، أسمع من فرَس ، وأبصر من عُقاب ، وأهدى من قَطَاة ، وأحذر من عَقَق (١) ،
وأشد إقداماً من الأسد ، وأوثب من الفَهْد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ،
وأغدر من ذئب ، وأسخى من لافِظَة (٢) ، وأشح من صبي ، وأجمع من ذَرَة (٣) ،
وأحرس من كلب ، وأصبر من ضَب ، فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة ،
وتتحفظ على قدر الخوف ، وتطلبُ على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السبب .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

ومن كلماته البليغة قوله حين قدِم خراسان :

« من كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم (٤) فلينذبه ، وإن كان في فيه
فليلفظه ، وإن كان في صدره فلينفثه » فصحب الناس من حسن ما فصل وقسم .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

(١) العقق : نوع من الغربان ، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب ، يشبه صوته العين
والقاف - ولذا سمى عققا - وقيل لأنه يثق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع الغربان يفعل ذلك - وقد
ضربوا به المثل في الحذر ، فقالوا : « أحذر من عقق » - انظر جمهرة الأمثال - كما قالوا : « أحذر من
غراب » وقالوا أيضاً : « الأص من عقق » لأن في طبيعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلي - وقالوا : « أحق
من عقق » لأنه كالنمامة التي تضيع بيضها وأفراخها ، وتشتغل ببيض غيرها ، وإياها عنى هدية بقوله :

كتاركسة يبيضها بالدرء وملبسة يبيض أخرى جناحا

انظر حياة الحيوان الكبرى للمعري ٢ : ٢٠٩ ، وجمع الأمثال .

(٢) رواه الميداني : « أسمع من لافظة » وقال : قد اختلفوا فيها ، فقال بعضهم : هي العنز التي تشل
للحلب - أشلى دابته : أراها المخلاة لتأتيه ، وأشلاها : دعاها للحلب - فتجىء لافظة بجرتها فرحا بالحلب .
وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ماني بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي النديك ، لأنه يأخذ الحبة بمقاربه
فلا يأكلها ، ولكن يلقها إلى الدجاجة ، والهاء فيها للمبالغة هاهنا ، وقال بعضهم : هي الرحى لأنها تلفظ
ما تطحته أي تقلد ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالدرة ، قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤال وكفك أسمع من لافظة

(٣) الذر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زيادا جمع لم (أي لأهل العراق)

كاتجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعا كما تجمع في قريتها للذر .

(٤) وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمالهم

فأخرجوهم ، وغلب كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وغلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه =

٣٠٢ - خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير - وكان والياً عليها من قبيل الوليد بن عبد الملك - طمّح بصره إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلَاهُ طارق بن زياد على جيش جُلّه من البربر سنة ٩٢ هـ فمبّر بهم البحر ، ونمى خبره إلى لُدْرِيْق ملك القوط ، فأقبل لمحاربتَه بجيش جرّار ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لقلّتهم ، فأحرق السفن التي أفلّتهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورجبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفر؟ المحرّ من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق^(١) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مادب^(٢) اللّثم ، وقد استقبلكم عدوكم بحيشه ، وأسلحته وأفواته مؤفورة ، وأنتم لا وزر^(٣) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن أمتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا السكم أمراً ، ذهبت ربحكم ، وتعوّضت القلوب من رغبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة^(٤) هذا الطاغية ، فقد ألت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن ، إن سمّحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بمنجوة^(٥) ،

= عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - يدعو إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يعطيه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يقاتل بجزير بن ورفاء الصريمي بأبر شهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير بمعهده على خراسان ، ووعده ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجاباه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر ، فترك بجيرا وأقبل إلى مرو ، فاتبعه بجزير فلحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المعركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ . (١) أي الصدق في القتال ، والصدق : الشدة ، يقال صدقه القتال . (٢) جمع مأدبة بالفتح والضم : وهي طعام صنع لدعوة أو عرس . (٣) لاملجأ .

(٤) أي مبارزته . (٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

ولا حملتكم على خطاةٍ أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ ، أرباباً^(١) فيها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلاً ، استمتعتم بالأزفةِ الألدِّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فيما حفظكم فيه أوفرُ من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرةُ من الحورِ^(٢) الحسانِ ، من بنات اليونانِ ، الرافلاتِ^(٣) فى الدرِّ والمرجانِ ، والحللِ المنسوجةِ بالعقيقانِ^(٤) ، المقصُوراتِ^(٥) فى قصور الملوك ذوى التيجانِ ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُزباناً^(٦) ، ورَضِيكم ملوك هذه الجزيرة أصهاراً^(٧) وأختاناً^(٨) ، ثقةً منه بارتياحكم للطمانِ ، وإسماحكم^(٩) بمجاللة الأبطال والأفرسانِ ، ليكونَ حظُّه منكم ثوابَ الله على إعلاءِ كلمتهِ ، وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة ، وليكونَ مَفْنَمُها خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند مُلتقى الجمعين ، حاملٌ بنفسى على طاعةِ القومِ لِدْرِيقِ ، فقاتله إن شاء الله ، فاحلوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كُفيت أمره ، وإن يعوزكم بطلٌ عاقلٌ تُسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه ، فاخلفوني فى عزيمتى هذه ، واحلوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المُهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخَذلون .

(نفع الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأيمان ٢ : ١٣٥)

(١) رباً بنفسه : ملا بها وارتفع ، أى أتحنى عن مشاركتكم . (٢) جمع حوراء ، من الحور بالتحريك : وهو شدة سواد العين وبياضها . (٣) رفقت : جرت ذيلها وتبخرت ، أو خطرت يديها . (٤) الذهب . (٥) المخدرات : المخبوءات (٦) جمع عزيب . والعزيب والعزب والأعزب : من لازوجة له . (٧) جمع صهر : كحمل ، وهو زوج بنت الرجل وزوج أخته . (٨) جمع نختن كسبب ، وهو الصهر ، أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ . (٩) سمح وأسمح : جاد وكرم .

٣٠٣ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قتيبة هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُنُوَّ الدَّرِيْقِ ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ،
وَرَغَبَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي آمَالِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أَيْنَ الْمَقَرُّ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَاللَّهِ
إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ ، فَإِنَّهُمَا لَا يُغْلِبَانِ ، وَهُمَا جَنْدَانِ مَنْصُورَانِ ، وَلَا تَضُرُّهُمَا قِلَّةٌ ،
وَلَا تَنْفَعُ مَعَ الْخَوَرِ وَالسَّكْسَلِ وَالْفَشَلِ وَالْإِخْتِلَافِ وَالْعُجْبِ كَثْرَةٌ ، أَيُّهَا النَّاسُ :
مَا فَعَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فَأَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، إِنْ حَمَلْتُ فَأَحْمِلُوا ، وَإِنْ وَقَفْتُ فَاقْفُوا ، ثُمَّ كُونُوا كَهَيْئَةِ
رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي الْقِتَالِ ، أَلَا وَإِنِّي عَامِدٌ إِلَى طَائِفَتِهِمْ ، بِحَيْثُ لَا أَتَهَيَّبُهُ حَتَّى أَخَالِطَهُ ،
وَأُقْتَلَ دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتُ فَلَا تَهِنُوا^(١) وَلَا تَحْزَنُوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفَشَلُوا وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الدُّبْرَ أَعْدُوَكُمْ ، فَيَبِيدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ . وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا
بِالدَّنِيَّةِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِيمَا يُجَلُّ لَكُمْ مِنَ السَّكْرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمَهِينَةِ
وَالدَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَغَلَّوْا^(٢) (وَاللَّهِ مَعَكُمْ وَمُعِيذُكُمْ)
تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءِ الْحَدِيثِ غَدَاً بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا نَدَا حَامِلٌ
حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَأَحْمِلُوا بِحِمْلَتِي . »

(الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٣٠٤ - خطبة عثمان بن حيان المري بالمدينة

وولى الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب
على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إنا وجدناكم أهل غشٍّ لأُمير المؤمنين ، في قديم الدهر وحديثه ،

(١) فلا تضعفوا . (٢) إن تغلبوا وتهزموا .

وقد ضوى^(١) إليكم من يزيدكم خبالاً : أهل العراق ، هم أهل الشقاق والنفاق ، هم والله هُشُّ النفاق ، وبَيْضَتُهُ التي تَفَلَّتْ عنه ، والله ما جَرَّبْتُ عِرَاقِيًّا قَطُّ إلا وجدتُ أفضلهم عبد نفسه ، الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول ، وما هم لهم بِشِيعَةٍ ، وإنما لَأَعْدَاءِ لهم وغيرهم ، واسكن لِمَا يريد الله من سَنَكِ دِمَائِهِمْ ، فإنني والله لا أوتى بأحدٍ آوى أحداً منهم أو أكرَاهَ منزِلاً ، أو أنزله ، إلا هدمت منزله ، وأنزلت به ما هو أهله^(٢) .

ثم إن البُلدانَ لَمَّا مَصَّرَهَا عمر بن الخطاب ، وهو مجتهد على ما يصلح رعيته ، جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيرُه : الشأمُ أحبُّ إليك أم العراق ؟ فيقول : الشأمُ أحبُّ إليّ .

إنى رأيت العراق ذاءً عُضَالًا ، وبها فَرَّخَ الشيطان ، والله لقد أعضلوا بي^(٣) ، وإنى لأرأى سَأَفَرُّهُمْ في البلدان ، ثم أقول : لو فرقتم لَأَفْسَدُوا من دخلوا عليه بِجَدَلٍ وَحِجَاجٍ ، وكيف ؟ ولم ؟ وسرعنٌ وَجِيفٌ^(٤) في الفتنة ، فإذا خَبِرُوا عند السيوف ، لم يُخْبِرَ منهم طائِلٌ^(٥) ، لم يصلحوا على عمان ، فَلَتِيَ منهم الأَمْرَيْنِ^(٦) ، وكانوا أولَ الناس فَتَقَ هذا الفَتَقَ العظيم ، وَنَقَضُوا عُرَا الإسلام عُرُوَّةَ عُرُوَّةٍ ، وَأَنْفَلُوا^(٧) البلدان ، والله إنى لَأَتَقَرَّبُ إلى الله بكل ما أفعل بهم لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم ، ثم وَلِيَهُمْ أمير المؤمنين معاوية ، فدأججهم^(٨) فلم يصلحوا عليه ، وَوَلِيَهُمْ رجل الناس^(٩) جَلْدًا ،

(١) ضوى كرمى : انغمس ولبأ ، والخبال : الفساد . (٢) ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق ، تاجراً ولا غير تاجر ، وأمر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وطاقهم ، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف . (٣) عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضاً . (٤) وجف يجف وجيفا : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل . (٥) الطائل والطنائلة والطول : الفضل والقدرة . (٦) الأمران : الفقر والحرم ، وهو كناية عن اشتداد الأمر . (٧) أفسدوا ، من نقل الأديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأنفله : أفسده . (٨) المداجة مثل المداجة ودأجه عليه : وافقه . (٩) يريد الحجاج بن يوسف .

فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَقَامُوا لَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَّرَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ .

أيها الناس : إنا والله ما رأينا شعاراً قَطُّ مثل الأمن ، ولا رأينا حليماً^(١) قط شرّاً من الخوف ، فالزموا الطاعة ، فإن عندي بأهل المدينة خبيرة من الخلاف ، والله ما أنتم بأصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وَعَصُوا عَلَى النُّوَاجِدِ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ فِي مَجَالِسِكُمْ مَنْ يَسْمَعُ فَيُبَلِّغُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي فُضُولِ كَلَامٍ غَيْرِهِ أَلْزَمُ لَكُمْ ، فَدَعَا عَمِيبَ الْوَلَاةِ ، فَإِنِ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقِضُ شَيْئًا شَيْئًا حَتَّى تَكُونَ الْفِتْنَةُ ، وَإِنِ الْفِتْنَةُ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَالْفِتْنُ تَذْهَبُ بِالدِّينِ وَبِالْمَالِ وَالْوَالِدِ . «
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٥ - وصية يزيد بن المهلب لابنه محمد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

وَمَا وَلِيَّ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ خُرَّاسَانَ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَتَحَ جُرْجَانَ^(٢) وَطَبْرَسْتَانَ^(٣) (سنة ٩٨) ، وَقَدْ أَوْصَى ابْنَهُ مُحَمَّدًا حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى جُرْجَانَ ، فَقَالَ :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَانظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْبَيْنِ ، فَكُنْ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ .

فَرِشٌ وَأَصْطَنِعُ عِنْدَ الدِّينِ بِهِمْ تَرْجِي^(٤)

وَانظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنْ رِبِيعَةٍ ، فَإِنَّهُمْ شِيَعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فَاقْضِ حَقَّوْقَهُمْ ، وَانظُرْ هَذَا

(١) المجلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد: ما رأينا مركبا شرا من الخوف ، وفلان جلس من أحلاس البيت : الذي لا يبرح البيت . (٢) في الجنوب الشرق من بحر قزوين . (٣) جنوبي بحر قزوين . (٤) رايش السهم يريشه : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق: أطعمه وسفاه وكساء وأصلح حاله ونفمه ، واصطنع عنده صنيفة : اتخذها ، والبيت لأبي ذؤاد الإيادي .

الحَيِّ من تميم ، فامطرهم^(١) ، ولا تَزُهْ-^(٢) لهم ، ولا تُذْنِبهم فيطمعوا ، ولا تُقْصِبهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحَيِّ من قيس ، فإنهم أكفأ قومك في الجاهلية ، وَمُنَاصِفُوم المنابر في الإسلام ، ورضام منك البَشْرِ .

يا بني : إن لأبيك صنائعَ فلا تُفسدِها ، فإنه كفى بالمرءَ نقصاً أن يَهْدِم ما بَنَى أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بَقِيَّةَ معها ، وإياك وشمّ الأعراض ، فإن الحرَّ لا يُرْضِيه عن عِرْضه عَوْضٌ ، وإياك وضربَ الأَبْشارِ ، فإنه عارٌ باقٍ ، وَوَثْرٌ مطلوبٌ ، واستعملْ على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزِلْ إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يَمْنَعُكَ من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صَنِيعُكَ عند من يكافئك عنه ، احمل الناس على أحسن أدبِكَ يَكْفُوكَ أنفسهم ، وإذا كتبتَ كتاباً فأكثرِ النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يَفْقَهُ عني وعنك ، فإن كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سيره ، وأستودعك الله ، فلا بدّ للودع أن يسكت ، وللمشيّع أن يرجع ، وما عفّ من المنطق ، وقلّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سلّك هذا المسلك الحمود .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

(١) مطرئهم السماء : أصابهم بالمطر ، ومطرهم بخير : أصابهم وما مطر منه خيراً — وبخبر .. :

أي ما أصابه منه خير .

(٢) اللزهو : السكر والتيه ، زهى كفض ، وكذا قليلة .

٣٠٦ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه

وقال عمر بن هبيرة^(١) يؤدّب بعض بنيه :

« لا تكوّن أول مُشير ، وإياك والهوى والرأى الفطير^(٢) ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تُشر على مستبدّ ، ولا على وَغد ، ولا على متلّون ، ولا على لجّوج ، وخَفِ الله في موافقة هوى المستشير ، فإن التماس موافقة لؤم ، وسوء الاستماع منه خيانة » .

وقال : « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن ساء خلقه قلّ صديقه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

(١) هو عمر بن هبيرة الفزاري ، وكان عاملا على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولى العراق (وأضيفت إليه خراسان) يزيد بن عبد الملك . (٢) كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير — والمعجم الفطير : ضد الحمير : أى الذى لم يختمر — « وكان عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج يقول : نعوذ بالله من الرأى الدبرى — والدبرى بالتحريك وتسكن الباء : الذى يعرض من بعد وقوع الشيء — ولا تقل دبرى بضمين فإنه من لحن المحدثين » .

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ٥١٢٦ هـ)

٣٠٧ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنَ الْبِلَادِ أَنْ يَضُمَّ بِهَا بَيْتَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حِجَّهَ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَمَا لَكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أُوْتِيَ بِأَحَدٍ يَطْعَنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبْتَهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنْ اللَّهُ جَمَلَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلِّمُوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَى إِلَّا إِمْرًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَقْدَمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيَقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِنْ تَمَلُّونَ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنَزَلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنَزَلَهُ ، فَانظُرُوا مَنْ تُنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ » .

وَسَمِعَ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ

(١) ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولي العراقين في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه غصنانية ، قالوا وكان يقيم في دينه ، وهو من خطباء العرب المعدودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ٥١٢٦ هـ .

لم نَقِرْ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حَرَمَ الله وَأَمْنَهُ مخالف للجماعة
زار^(١) عليهم .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

٣٠٨ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غلوه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيهما أعظم ؟ أخليفة الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم
تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربه ، فسقاه ماعاً أجاباً ، واستسقاه
الخليفة فسقاه عذبا فُرَاتاً^(٢) » يعني بئراً حفرها الوليد بن عبد الملك بالشَّيْطَيْنِ : ثَنِيَّةِ
طُوى ، وثنية الحُجُونِ^(٣) ، فكان يُنقل ماؤها ، فيوضع في حوض من آدم إلى جنب
زمزم ، ليعرف فضله على زمزم »

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح للعيون ص ٢٠٥ والأغاني ١٩ : ٦٠)

٣٠٩ - خطبته بمكة في الحجاج

وصعد خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج - فحمد طاعته ،
وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، بأمره
فيه بِشَمِّ الحجاج وتَنَمُّرِ عيوبه ، وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن إبليس كان مَدَكاً من الملائكة ، وكان يُظهِر من طاعة الله ما كانت
الملائكة تَرى له به فضلاً ، وكان الله قد عَلِم من غِشِّه وَخُبَيْثِهِ ما خَفِيَ على ملائكته ،

(١) زرى عليه : عابه . (٢) ماء أجاج : ملح مر ، والفرات : الماء العذب جدا .

(٣) ذو طوى مثلث الطاء وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة . وفي شرح

العيون أنه قال : « قد جئتمكم بماء العاذبة ، لاتشبه ماء أم الحنابس » يعني زمزم .

فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدمَ ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلعنوه ، وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين ، فلعنه ، فآلَعَنُوهُ لعنه اللهُ « ثم نزل .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣١٠ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسط ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس ، نأفِسُوا في المكارم ، وسارِعُوا إلى المآثم ، وأَشْتَرُوا الحمدَ بالجد ، ولا تَكْسِبُوا بالمَطْلِ دَمًا ، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شُكرها ، فالله أحسن لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تَمَلُّوا النعمَ فتحوّلوا نِعَمًا . واعلموا أن أفضل المال ما أكتسبَ أجرا ، وأورثَ ذِكْرًا ، ولو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حَسَنًا جميلًا يَسُرُّ الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلاً رأيتموه مُشَوِّهاً قبيحاً تنفر عنه القلوب ، وَتُغْضِي عنه الأبصار .

أيها الناس ، إن أجودَ الناس مَنْ أعطى مَنْ لا يَرْجُوهُ ، وأعظم الناس عَفْوًا مَنْ عفا عن قُدْرَةٍ ، وأوصل الناس مَنْ وصل مَنْ قَطَعَهُ ، ومن لم يَطْبِ حَرَّتَهُ ، لم يَزْكُ (١)
نبتُه ، والأصول عن مَعَارِسِهَا تنمو ، وبأصولها تَسْمُو . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وإيكم . (صبح الأضی ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح العيون ص ٢٥٥)

٣١١ - خطبة له يوم عيد

حصب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كنت كذلك ما شئت أن تكون ، لا يعلم كيف أنت إلا أنت ، ثم ارتأيت أن تَخْلُقَ الخلق ، فإذا جئت به من عجائب صنْعِكَ ؟ والكبيرُ والصغيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، والظاهرُ والباطنُ مِنْ دَرَكِكَ ، من صنوف أفواجه^(١) ، وأفراده وأزواجه ، كيف أدججت^(٢) قوائم الذرَّة والبُعوضة ، إلى ما هو أعظم من ذلك ، من الأشباح ، التي امتزجت بالأرواح . »

(عيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٦)

٣١٢ - قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدو به لفظه ، وبلاغة منطقته ، فبينما هو يخاطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :

« سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوَّفها جناحها ، ووَوَّشَى^(٣) جلدَها ، وسلَّطها على ما هو أعظم منها . »

(عيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣١٣ - خطبة يوسف بن عمر الثقفي^(٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عباد الله ، فسكم من مؤمِّلٍ أملًا لا يَبْلُغُهُ ، وجامعٍ مالا لا يأكله ، ومانعٍ عما سوف يتركه ، ولعله من باطلٍ جمعه ، ومن حقٍّ منعه ، أصابه حرَّامًا ، وأورثه

(١) جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . (٢) من أدمج الحبل : أحكم فتله في رقة .

(٣) نقش ونمغ وزين . (٤) هو ابن ابن عم الحجاج ، وولاه هشام بن عبد الملك بين سنة ١٠٦ هـ

م وولاه العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

عَدُوًّا ، فَاحْتَمَلَ إِصْرَهُ (١) ، وَبَاءَ بِوِزْرِهِ ، وَوَرَدَ عَلَى رَبِّهِ آسِفًا لَاهِفًا ، قَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

٣١٤ - خطبة يوسف بن عمر

ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة فصعد
المنبر فقال :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ الْحَبِيئَةِ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا تَقَرَّنَ بِي الصَّعْبَةُ ، وَلَا يَقَعَّمَعُ لِي الشَّيْطَانُ ، وَلَا
أَخَوْفُ بِالذَّنْبِ ، هَيْهَاتُ ! حُبَيْتُ بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ .

أَبَشِرُوا يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ بِالصَّغَارِ وَالْهَوَانِ ، لَا عِطَاءَ لَكُمْ مَعْدُنَا وَلَا رِزْقَ ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ
أَنْ أَخْرَبَ بِلَادَكُمْ وَدُورَكُمْ ، وَأَحْرَمَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْبَرِي إِلَّا أَسْمَعْتُكُمْ
مَا تَكْرَهُونَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ بَنِي وَخْلَافٍ ، مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِلَّا
حَكِيمٌ بِنَ شَرِيكَ الْحَارِجِيِّ ، وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِيمَكُمْ ، وَلَوْ أْذَنَ لَقَتَلْتُ
مَقَاتِلَتَكُمْ وَسَبَيْتُ ذُرَارِيَكُمْ » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٢٧٨)

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣١٥ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعِهِ ، وَوَثَبُوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحصروهم وأخافوهم ، وَجَّه إليهم يزيدُ جيشًا من أهل الشام بقيادة مُسْلِمِ بن عُقْبَةَ الرَّبِيِّ ، وَنَمَى إليهم خبرُ مَقْدَمِهِ عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعونني على الموت ، وَإِلَّا فلا حاجةَ في بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غَضَبًا لدينكم ، فَأَبِلُوا إلى الله بلاءً حسنًا ، ليُوجِبَ لكم به الجنةَ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَيَجِلَّ بكم رضوانه ، واستعدُّوا بأحسنِ عُدَّتكم ، وتأهبوا بأكل أهُبَتكم ، فقد أُخْبِرْت بأن القوم نزلوا بِذِي خُشْبِ^(١) ومعه مَرَّوان بن الحَكَم ، والله إن شاء مُهْلِكُهُ بِنَقْضِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) . »

(١) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . (٢) وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحَكَم وكبراء بني أمية من المدينة ، وحلفوهم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن لقوا جيش يزيد ليردوهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ،
تصدّقهم اللّقاء ، والله ما صدّق قوم قطّ إلا نصّروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :
« اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألبأنا ظهورنا » ثم نزل .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٦ - خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة
وسراجمة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت
خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقتل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلم
الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهدأ القتال قتال قوم يريدون أن يذفعوا به عن دينهم ؟ وأن
يعزّوا به نصر إمامهم ؟ قبّح الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجعته لقلبي ، وأغيطه لنفسى !
أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا القطاء ، وأن تجمروا في أقاصي الثغور ، شدّوا مع
هذه الراية ، ترخّ^(٢) الله وجوهكم إن لم تعتّبوا^(٣) . » (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٧ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دنوا منه ، وأخذ مسلم
يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها

(١) الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . (٢) ترخ ترخا كفرح فرحا : حزن ،

وترحه تبرحاً : أحزنه . (٣) أعتبه : أعطاه العتبي (كقربى) وهى الرضسا ، أى إن لم ترضوني
بصدقكم القتال .

عَدَدًا ، ولا أوسعها بَلَدًا ، ولم يَخْصُصْكُمْ اللهُ بِالذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أُمَّتِكُمْ ، إِلا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هُوَ لَاءَ الْقَوْمِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرُوا ، فَغَيَّرَ اللهُ بِهِمْ ، فَمِمَّا (١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمُ اللهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُبَيِّنُ لَكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ (٢) . « (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٨ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم ، فقال : « يا هؤلاء : إن عدوكم قد أصابوا وَجَهَ الْقِتَالِ الذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْكُمْ ، أَمَّا لَكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْمِجْرَةَ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبِّكُمْ أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الذِينَ يَفَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ مِيتَةٌ هُوَ مِيتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مَنَ مِيتَةٌ بِأَفْضَلَ مِنْ مِيتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللهُ إِلَيْكُمْ ، فَاغْتَنِمُوهَا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلِمًا أَرَدْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا . »

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقيل ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم المدينة (٣) وكانت وقعة الحرّة في ذى الحجة سنة ٦٣ هـ . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

(١) تم على الأمر وتمم عليه كضرب : أى استمر عليه . (٢) الفتح : الظفر والنصر .

(٣) انظر ص ١٩٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٩ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه

قام عبيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة ، انسيوني ، فوالله ما مهاجرُ أبي إلا إليكم ، وما مولدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وليتكم وما أحصى ديوانُ مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ، ولقد أحصى اليومَ ديوانُ مقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصى ديوانُ عمالكم إلا تسعين ألفاً ، واقد أحصى اليومَ مائةً وأربعين ألفاً^(١) ، وما تركتُ لكم ذا ظنة^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سجنكم هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد توفى وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليومَ أكثرُ الناسِ عدداً ، وأعرضه فناءً ، وأغناه عن الناس ، وأوسعهم بلاداً ، فاختراروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، يُجاهد عدوكم ، وَيُنصِفُ مظلومكم من ظالمكم ، وَيَكْفُ سُفهاءكم ، وَيَجِي لَكُمْ فَيْتُكُمْ ، وَيَقْسِمُهُ فيما بينكم ، فأنا أول راضٍ من رضىقومه وتابعٍ ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على جديلتكم^(٣) »

(١) وفي البيان والتبيين : « والله لقد وليكم أبي ومقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثره جنوداً وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . (٢) الظنة : الهمة . (٣) الجديلة : الطريقة ، يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أي على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

حتى تُعْطُوا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجةً ، وما يستغنى
الناس عنكم .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مقالتك أيها الأمير ، وإنا والله ما نعلم
أحداً أقوى عليها منك ، فهلمّ فلننبأيك ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا
لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا
بسّط يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يسحون أكتفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون :
ظن ابن مرّجانة أنا نولّيه أمرنا في الفرقة ! وأقام عبيد الله أميراً غير كثير ، حتى جعل
سلطانه يضعف ، ويأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الرأي فيردّ عليه ، ويأمر بحبس
الخطيئ فيحال بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣٢٠ - خطبة أخرى له

وبلغه أن سلمة بن ذؤيب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فنودي : الصلاة
جامعةً ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يقصّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم
إلى من يرتضونه ، فيبايعه معهم ، وقال : « وإنكم أبيتهم غيري ، وإنه بلغني أنكم مسختم
أكتفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإني أمر بالأمر فلا يُنفذ ، ويردّ على
رأبي ، وتحوّل القبائل بين أعوانى وطلبتي ^(١) ، ثم هذا سلمة بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف
عليكم ، إرادة أن يفرّق جماعتكم ، ويضرب بعضكم حياة بعض بالسيف .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً نحن نأتيك بسلمة ، فأتوه فإذا جمعه قد كُف
وإذا الفتق قد اتسع على الراتق ، وامتنع عليهم ، فقعوا عن ابن زياد فلم يأتوه .

(١) طلبتك : ماطلته .

وروى أنه قال في خطبته : « يا أهل البصرة ، والله لقد لبسنا الخنز^(١) وأئمننا^(٢) واللذين من الثياب ، حتى لقد أجمنا^(٣) ذلك ، وأجمته جلودنا ، فما بنا إلى أن نُعقِرَ الحديدَ ؟ يا أهل البصرة ، والله لو اجتمعتم على ذنبٍ غيرِ لئِكَسِرُوه ما كسرتموه » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠)

٣٢١ - خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهلُ البصرة عبيدَ الله بن زياد - وكان خليفته على الكوفة عمرو ابن حُرَيْث - بعث وافردين من قبله إلى الكوفة: عمرو بن مِسمع ، وسعد بن القرحاء^(٣) التميمي ، ليعلم أهل الكوفة ما صنع أهلُ البصرة ، ويسألانهم البيعة لابن زياد ، حتى يصطليح الناس ، فجمع الناسَ عمرو بن حريث ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذين الرجلين قد أتياكم من قبل أميركم ، يدعوانكم إلى أمر يجمع الله به كلتكم ، ويصليح به ذاتَ بينكم ، فاسمعوا منهما ، واقبلوا عنهما ، فإنهما برُشدٍ ما أتياكم » .

٣٢٢ - خطبة عمرو بن مسمع

فقام عمرو بن مِسمع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر أهل البصرة ، واجتماع رأيهم على تأمير عبيد الله بن زياد ، حتى يرى الناس رأيهم ، فيمن يولون عليهم وقال :

« قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم ، فيكونَ أميرنا وأمركم واحداً ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرة من الكوفة » .

(١) التينة : برد يبنى . (٢) أجمه : أراحه ، وأصله من أجم الفرس : ركبته فلم يركبه ففقه من تعبته ، والجمام بالفتح : الراحة . (٣) القرحاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

وقام ابن القرحاء ، فتكلم نحوًا من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني
فحصَّهما أول الناس ، ثم حصَّهما الناس بعدُ ، ثم قال : أيمن نبايع لابن مرَّجانه ؟
لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة
يخلعونه ، وأنتم تُوثِّونُه وتبايعونه ؟ فوثِّب به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي
فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خِفارة رجال من الأزدي وبكر بن وائل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣٣٣ - خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابنُ زياد مسعود بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس :
لا نولى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ،
وبينا هو على المنبر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي
إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرَّحوا ، وطردوه عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم :
تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ،
فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت
مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ،
فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دماننا
ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا
بيئة أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن
لكم بيعة ، فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم
تريدوا ذلك ، فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فاتاهم الأحنف
ابن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزدي : أنتم جِيرتُننا في الدار ، وإخوتُننا عند القتال ، وقد أتيناكم

في رحالكم ، لإطفاء حَشِيدَتِكُمْ^(١) ، وَسَلَّ سَخِيمَتِكُمْ^(٢) ، وَلِكُمْ الْحُكْمُ مُرْسَلًا^(٣) ،
فَقُولُوا ، عَلَى أَحْلَامِنَا وَأَمْوَالِنَا ، فَإِنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُنَا^(٤) ذَهَابَ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِنَا كَانَ فِيهِ
صِلَاحٌ بَيْنِنَا » ، فَقَالُوا : أَتَدُونَ صَاحِبِنَا عَشْرَ دِيَّاتٍ ؟ قَالَ : هِيَ لَكُمْ ، فَانصَرَفَ النَّاسُ
وَاصْطَلَحُوا^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربَّه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وها هي ذى :

قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يا معشر الأزدِ وَرَبِيعَةَ ، أَنْتُمْ إِخْوَانُنَا فِي الدِّينِ
وَشُرَكَائُنَا فِي الصَّوْمِ ، وَأَشِقَائُنَا فِي النَّسَبِ ، وَجِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَبِدُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ،
وَاللَّهِ لَأَزُدُّ الْبَصْرَةَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَلَأَزُدُّ الْكُوفَةَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ
الشَّامِ ، فَإِنْ اسْتَشْرَفَ شَفَانُكُمْ^(٦) ، وَأَبَى حَسَدُ صُدُورِكُمْ ، فِي أَمْوَالِنَا ، وَسَعَةِ
أَحْلَامِنَا ، لَنَا وَلَكُمْ سَعَةٌ . »

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٧)

(١) أى ناركم الموقدة . من حش النار : أوقدها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد فى كتب
اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة الكلال) . (٢) للسخيمة : الحقد .
(٣) أى مطلقا كما تشاءون . (٤) تعاضمه : عظم عليه . (٥) واجتمع أهل البصرة على
أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصل بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهرا
ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو بية - فصلى بهم شهرين ، ثم قدم
عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكثت شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة
المعروف بالقياس ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنيهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم عامر
ابن مسعود القرشي ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبل ابن الزبير كما تقدم .
(٦) استشرف : انتصب ، أى زاد واستحکم ، والشنان : البغض والكراهية .

٣٣٤ - خطبة روح بن زنباع الجذامى بالمدينة^(١)

لما نَمَى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نُمَيْر - وهو على حرب ابن الزبير

(١) هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة المري ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرّة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت بمسلم في الطريق ، وولى أمر الجيش الحصين بن نُمير - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان بن مالك ابن بجدل الكلبي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو والأردن فوثب نائل بن قيس الجذامى على روح ، فأخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبرى ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغانى ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان بن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من أشرف الشام ووجوههم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز لارتضى بذلك ، هل لسكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر ؟ فقال : استخبروا الله ، فأثرو عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا ، فجاؤا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبروا الله ، وأساؤه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعلها ، فقال له روح بن زنباع : إن معى أربعمائة من جذام ، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غدا ، ومر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فينظن الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده

لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بلبل ! فبايعوا مروان بن الحكم اه. ومن أجل ذلك كان روح أثيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن قتيبة في سرح العميون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتمهذ قواعدها ؛ وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس =

بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلام بالحرّة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها ، صعد رُوْح بن زِنْبَاع الجُدَامِيّ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان في ذلك الجيش - فقال :

« يا أهل المدينة : ما هذا الإيعاد^(٢) الذي توعدُوننا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْن »^(٣) ولا إلى رجل من « أَنْخَم » أو « جُدَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيِّ من قريش - يعني بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإيّانا توعدُون ؟ أمّا والله إنا لأبناء الطعْن والطَّاعُون ، وَفَضَّلَاتُ المَوْتِ وَالْمَنُون ، فاشتم^(٤) ، ومضى القوم إلى الشام .
(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

= فأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فاذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررَت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال وزير السفاح . (١) يصيحون .
(٢) يقال : وعده خيرا وبه ، ووعده شرا وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا فى الخير وعد وفى الشر أوعد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف فى الشر خاصة ، فقالوا أوعدته بالسجن ونحوه . (٣) أصله بنو القين كما قالوا : بلحارث فى بنى الحارث ، وبلعنبر فى بنى العنبر . قال المبرد فى الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يميزون معه حذف النون التى فى قولك (بنو) لقرب يخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجم » أى بنى الهجم كزبير . (٤) وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدهو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفى آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتكم وأطعتم من المعونة والفائدة ماشتم . »

٣٣٥ - خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأي على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زِنْبَاع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَّمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحبِ أمةٍ محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لأَبْنُ الزبيرِ : حَوَارِيٌّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَبْنُ أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ذات النِّطَاقَيْنِ ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفَتين : يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ امرأةٍ محمد صلى الله عليه وسلم المنافق ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كان مروان ممن يَشْعَبُ ^(١) ذلك الصَّدْعَ ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ^(٢) ، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشَبِّهوا ^(٣) الصغير - يعني بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية - .

فأجمع رأي الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٨٠ .)

سعيد بن العاص من بعد خالد .

(١) يصلح . (٢) يرم تسور الثوار عليه داره وقتلوه . (٣) يقتضروه حتى يشب .

٣٣٦ - خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، وَوَلِيَّ الحِجَاجِ العِراقِ ، بلغ ذلك أهلَ العِراقِ ، فقام الغَضبانُ بنُ القَبْعَثَرِيِّ الشَّيبَانِي بِالمَسْجِدِ الجَامِعِ بالكوفةِ خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهلَ العِراقِ ، ويا أهلَ الكوفةِ ، إن عبدَ الملكِ قد ولىَ عليكم من لا يَقْبَلُ من مُحْسِنِكُمْ ، ولا يتجاوز عن مُسِيئِكُمْ ، الظَّالِمَ العَشُومَ ^(١) الحِجَاجَ ، ألا وإن لكم من عبد الملكِ منزلةً ، بما كان منكم من خِذْلانِ مُصْعَبٍ ^(٢) وَقَتْلِهِ ، فاعترضوا هذا الخبيثَ في الطريقِ فاقتلوه ، فإن ذلك لا يُعَدُّ منكم خُلَعًا ، فإنه متى يعلُ على مَتْنِ مُنْبِرِكُمْ ، وصدُرِ سَرِيرِكُمْ ، وقاعةِ قِصْرِكُمْ ، ثم قتلتموه عُدَّ خُلَعًا ، فأطيعوني وتعدُّوا به ، قبل أن يتعشَّى بكم . »

فقال له أهل الكوفة : « جَبِنتَ يا غَضبانُ » بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهٍ » قال : ستملحون ، فلما قَدِمَ الحِجَاجُ الكوفةَ بِلدته مقاتلته ، فأمر به ، فأقام في حبسه ثلاثَ سنين .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

(١) الظلوم . (٢) وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ماعنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبده الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقتله ، فاهو إلا أن التفتوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وبقي مصعب في شردمة قليلة ، فجاءه عبيد الله ابن ظبيان - وكان مع مصعب - فقال : أين الناس أيها الأمير؟ فقال : قد غدرتم يا أهل العراق ! فرجع عبيد الله السيف ليضرب مصعبا ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف في البيضة ، فجاءه غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعبا بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجدا ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من فتاك العرب - ما زدمت على شيء قط فدى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيت به رأس مصعب فخر ساجدا ، أن لا أكون ضربت عنقه ، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

٣٢٧ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وقدم مطرف بن المغيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس : إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم ، وأمرني بالحكم
بالحق ، والعدل في السيرة ، فإن عملتُ بما أمرني به ، فأنا أسعد الناس ، وإن لم أفعل
فنفسي أوبقتُ ، وحظُّ نفسي ضيعتُ ، ألا إني جالس لركم المصريين فارتفعوا إلى
حوائبكم ، وأشيروا عليّ بما يصلحكم ويصلح بلادكم ، فإني لن آلوكم خيرا ما استطعت »
ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٥٩)

٣٢٨ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وفي سنة ٧٧ هـ خرج المطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن
مروان - وكان الحجاج قد استعمله على المدائن - وجمع إليه رءوس أصحابه فذكر الله
بما هو أهله وصلى على رسوله ثم قال لهم :
« أما بعد - فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزل
علينا (وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَمَآوَنُوا عَلَى الْإِنْتِمَاءِ وَالتَّقْوَى أَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ) وإني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ،
فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني ، فإن له الأسوة وحسن الصحبة ،
ومن أبي فليذهب حيث شاء ، فإني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد
أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرنا
كان هذا الأمر شوري بين المسلمين ، يرتضون لأنفسهم من أحبوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٦٢)

٣٢٩ - خطبة سعيد بن المجالد

خرج الجزل بن سعيد في طلب الخوارج الشيببية وأقبل حتى انتهى إلى النهروان فأدركوه فلزمه عسكريه وخذق عليه، وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكري أهل الكوفة أميراً فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتكم عليكم أميركم ، أنتم في طلب هذه الأعراب العجف منذ شهرين وهم قد خربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم حاذرون في جوف هذه الخنادق لا تزايدونها ، إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلداً سوى بلدكم ، اخرجوا على اسم الله إليهم » فخرج وأخرج الناس معه .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٩)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُتْبِيل ملك الترك^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمَها وخطبهم فقال :

٣٣٠ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَدِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني نَفَرَكم ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم ، وأباد خياركم ، فأياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيُحِلَّ بنفسه العُقُوبَةَ ، اخرجوا إلى مُسْكَرِكُمْ فمسكروا به مع الناس » . (تاريخ الطبري ٨ : ٤)

* * *

٣٣١ - خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُتْبِيل أرضاً عظيمة ، وملاً يديه من الغنائم والأسلاب ، حبس الناس عن الوُغُول في أرضه ، وقال : نكفتي بما أصدبناه العام من بلادهم ، حتى نجببها ونعرفها ويحترى المسلمون على طرقها ، ثم تقاطى في العام المقبل ما وراها ، ثم لم نزل

(١) انظر ص ٢٩٣ .

ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج بذلك . فورد عليه كتاب الحجاج بضمف رأيه ، ويأمره بالوغول في أرضهم ، ويهدده بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم محب ، ولكم - في كل ما يحيط بكم نفعه - ناظر ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي ، أستشرت فيه ذوى أحلامكم ، وأولي التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأياً . ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا مضيتم ، وآبى إذا أبيتكم . »

فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٢ - خطبة عامر بن واثلة الكنانى

فقام عامر بن واثلة الكنانى - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً -

فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج وأهله ما يرى بكم إلا مارأى القائل الأول ، إذ قال لأخيه :

« احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك . » . إن الحجاج والله ما يبالي

أن يحاطر بكم ، فيقتحمكم بلاداً كثيرة اللهب^(١) والأصوب^(٢) ، فإن ظفرتم فغنمتم

(١) اللهب جمع لهب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب

الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . (٢) جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير

في الجبل أصيق من الذهب وأوسع من الشعب .

أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه ، وإنا ظفِرِ عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ، ولا يُبقي عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإني أشهدكم أني أولُ خالع .
فنادى الناس من كلّ جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدو الله .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٣ - خطبة عبد المؤمن بن شبت بن ربيع

وقام عبد المؤمن بن شبت بن ربيع النيمى ثانياً ، فقال :
« عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجحركم تجمير فرعون الجنود ، فإنه بلغنى أنه أول من جرّ البعوث ، ولن تعابنوا الأحبّة فيما أرى أو يموت أكثركم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه .
(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٤ - خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال :
« أيها الناس : إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة^(٢) تضرب به عميقاً وشمالاً ، فما تلبث إلا أن تموت^(٣) . »

(البيان والتبيين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

(١) موضع بالبصرة . (٢) الوزغة : سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .
(٣) قال الجاحظ : فر به رجل من بني قشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحراس ويمدهم الأضاليل ، ويمتهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو المحسن دون القشيري .

٣٣٥ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجحاج ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل الثغور والمسالح^(١) بدير الجحاج والقراء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب الجحاج ، جهم عليه بغضهم وكرهيتهم له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق تزعم الجحاج عنهم ، وأن يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد من العراق شاء ، يكون عليه والياً مادام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرض ذلك على أهل العراق ، فقالوا : نرجع المشيئة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائداً ، ولا رأس قوم ، ولا فارس إلا أمناه .

حمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتم أسراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصةً ، ولا آمن أن يكون على ذى الرأي غداً حسرةً ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية ، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم ، وأنتم أعزاء أقوياء ، والقوم لسكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فلا والله لا زلت عليهم أجرياء ، ولا زلت عندكم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم . »

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهللكم ، فأصبحوا في الأزل^(٢) والضنك والجماعة والقلة والدلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسمر الرفيع ، والمادة القريبة لا والله لا نقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥)

(١) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر . (٢) الضيق والشدة .

٣٣٦ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(١) من خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأشركي الجاهل ،
 أتى فيهم بالشعبي مؤثماً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج
 في أشركي الجاهل أن يعرضهم على السيف ، فن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا
 فيحلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر
 لقيتني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي ! لما بين دفتيك من العلم ،
 وليس اليوم بيوم شفاعة . قلت له : فما الخرج ؟ قال : بؤ^(٢) للأمر بالشرك والنفاق على
 نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيتني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما
 دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن أتب علينا مع ابن الأشعث ؟ اشهد على
 نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٣) ، وأجذب بنا الجناب ،
 وأستحسنا^(٤) الخوف ، واكتحلنا السمهر ، وضايق المسلك ، وخبطينا فتنة لم نكن
 فيها بررة أتقيا ، ولا فجرة أفويا » قال : صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا
 قويتم ، خلوا سبيل الشيخ .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والمعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢) .

٣٣٧ - أيوب بن القرية والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القرية^(٥) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين خلع
 الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له ، أتعومن خطيبا ، ولتخلعن عبد الملك ،

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان)
 وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، توفي سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبى جلولا .

(٢) ارجع . (٣) نبأ منزله به : لم يوافق . (٤) أي لم يفارقنا .

(٥) هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقرية جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة .

والتسبب الحجاج ، أو لأضر بن عتقك ، قال : أيها الأمير ، إنما أنا رسول ! قال : هو ما أقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك ، وشتم الحجاج ، وأقام هنالك ، فلما انصرف ابن الأشعث مهزوماً ، كتب الحجاج إلى عماله بالرعي وإضهان وما يليهما ، يأمرهم ألا يعمروهم أحد من قبل ابن الأشعث إلا بعثوا به أسيراً إليه ، وأخذ ابن القرية فيمن أخذ .

فلما أدخل على الحجاج ، قال : أخبرني عما أسألك ؟ قال : سئني عما شئت ، قال : أخبرني عن أهل العراق ، قال : أعلم الناس بحق وباطل ، قال : فأهل الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأعجزهم فيها ، قال : فأهل الشام ، قال : أطوع الناس لخلفائهم ، قال : فأهل مصر ، قال : عبيد لمن غلب ، قال : فأهل البحرين ، قال : نبط^(١) استعربوا ، قال : فأهل عمان ، قال : عرب استنبطوا ، قال : فأهل الموصل ، قال : أشجع فرسان ، وأقيل للأقران ، قال : فأهل اليمن ، قال : أهل سمع وطاعة ، ولزوم للجماعة ، قال : فأهل اليمامة ، قال : أهل جفاء ، واختلاف أهواء ، وأصبر عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأس شديد ، وشر عتيد ، وريف^(٢) كبير ، وقرى يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال : ساني ، قال : قرين ، قال : أعظمها أخلافاً ، وأكرمها مقاماً ، قال : فبنو عامر بن صعصعة ، قال : أطولها رماحاً ، وأكرمها أصحاباً ، قال : فبنو سليم ، قال : أعظمها مجالس ، وأكرمها محابس^(٣) ، قال : فنقيف ، قال : أكرمها جدوداً ، وأكثرها وفوداً ، قال : فبنو زبيد ، قال : أزمها للرايات ، وأدرأها للثبات^(٤) ، قال : فقضاة ، قال : أعظمها أخطاراً ، وأكرمها نجاراً^(٥) ، وأبعدها آثاراً ، قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاماً ، وأحسنها إسلاماً ، وأكرمها أتيماً ، قال : فميم ، قال : أظهرها جلدًا ، وأثراها عدداً ،

(١) النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق . (٢) الريف : أرض فيها زرع وخصب .

(٣) المحابس : جمع محبس كقعد ، وهو الشجاعة . (٤) الثرات جمع ترة : وهي النار .

(٥) النجار : الأصل .

قال : فَبَكَر بن وائل ، قال : أثبتّها صفوفا ، وأحدّها سيوفا ، قال : فعبد القَيْس ، قال :
 أسبقها إلى الغايات ، وأصبرها تحت الرّايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عَدَد وَجَلَد ،
 وَعُسْر وَنَكَد ، قال : فَلَخَم ، قال : مُلُوك ، وفيهم نُوك^(١) ، قال : فَجُذام ، قال :
 يُوَقِدُون الحرب وَيَسْعَرُونها^(٢) ، وَيُلْقِحُونها ثم يَمْرُونها^(٣) ، قال : فبنو الحارث قال :
 رُعاةٌ للقديم ، ومُحَمّاة عن الحَرِيم ، قال : فَمَك ، قال : لُيُوثُ جَاهِدَة ، في قلوبِ فاسدة ،
 قال : فَتَغْلِب ، قال : يَصْدُقُون - إذا لَقُوا - ضَرَبًا ، وَيَسْعَرُونَ للأعداء حربًا ، قال :
 ففَسَّان ، قال : أكرمُ العربِ أحسابا ، وأثبتّها أنسابا ، قال : فأى العرب في الجاهلية
 كانت أَمْنَع من أن تُضامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل رَهْوَة^(٤) لا يُسْتَطَاع ارتقاؤها ،
 وَهَضْبَة لا يَرَامُ انتزاعها^(٥) ، في بلدة حَمَى الله ذِمّارها ، ومنع جارها ، قال : فأخبرني عن
 مآثر العرب في الجاهلية ، قال : كانت العرب تقول : حَيَّرَ أرباب الملوك ، وَكِنْدَة لُباب
 الملوك ، وَمَذْحِج أهل الطَّعْمان ، وَهَمْدان أحلاس^(٦) الخليل ، والأزد آساد الناس ، قال :
 فأخبرني عن الأَرْضِين ، قال : ساني ، قال : الهند ، قال : بحرها دُر ، وجبلها ياقوت ،
 وشجرها عُود ، وورقها عِطْر ، وأهلها طَعَام ، كَقَطِيع الحمام^(٧) ، قال : فَخُرَّاسان ، قال :
 ماؤها جامد ، وعدوها جاحد ، قال : فَعَمّان ، قال : حَرّها شديد ، وصيدها عَتِيد ، قال :
 فالبحرين ، قال : كُنْأَسَة بين المِصرين ، قال : فاليمن ، قال : أصل العرب ، وأهل
 البُيُوتات وَالْحَسَب ، قال : فسكّة ، قال : رجالها علماء جُفَاءة ، ونساؤها كِسَاء عُرَاة ،
 قال : فالمدينة ، قال : رَسَخ العلم فيها ، وظهر منها ، قال : فالبصرة ، قال : شتاؤها جَلِيد ،

(١) الزوك بالضم والفتح : الحق . (٢) سر الحرب كنعن ، وأسعرها : أوقدها .

(٣) مري الناقة كرمى : مسح ضرعها لتدر . (٤) الرهوة : المسكان المرتفع (والمنخفض

أيضا ، ضد) . (٥) أي اعتلاؤها نزا نزوا ونزوانا : ثوب ، وانترى : افعل من النزوء ، وفي حديث

وائل بن حجر : « إن هذا انترى على أرضي فأخذها » . (٦) كناية عن إدامتهم ركوبها .

(٧) الطعام : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقطع بالكسر : اسم مقاطع من الشيء ، ويقال : ثوب

قطع وأقطاع أي مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع .

وحرها شديد ، وماؤها مِلْح ، وحرها صُلْح ، قال : فالكوفة ، قال : ارتفعت عن حرّ البحر ، وَسَقَلَتْ عن بَرْد الشَّام ، فطاب ليلها ، وكثُر خيرها ، قال : فواسط ، قال : جَنَّة ، بين حَمَاءٍ وَكَنَّة ، قال : وما حَمَاتِهَا وَكَنَّتِهَا^(١) ؟ قال : البصرة والكوفة يَحْسُدَانِهَا ، وما ضَرَّهَا ، وَدَجَلَةُ وَالزَّاب^(٢) يتجار يان بإفاضة الخير عليها ، قال : فالشَّام ، قال : عَرُوس ، بين نسوة جُلُوس ، قال : تَكَلِّمَتِكَ أُمَّكَ يابن القِرْبِيَّة ، لولا أتباعك لأهل العراق ! وقد كنت أنهاك عنهم أن تتبعهم ، فتأخذ من نفاقهم ، ثم دعا بالسيف ، وأومأ إلى السيف أن أمسك ، فقال ابن القِرْبِيَّة : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن رَكِبٌ وَوُقُوف ، يَكْنُ مَثَلًا بَعْدِي ، قال : هَات ، قال : لِكُلِّ جَوَادِ كَبُوءَةٍ ، وَلِكُلِّ صَارِمِ نَبُوءَةٍ ، وَلِكُلِّ حَلِيمِ هَفُوءَةٍ ، قال الحجاج : ليس هذا وقت المزاح ، يا غلام أَوْجِب جَرَحَهُ ، فَضْرِبْ عُنُقَهُ .

وقيل لأنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقت العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة اللحم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجْب ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المَنّ عند البلاء^(٣) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البنى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الْفَتْرَةُ ، قال : فما آفة الذَّهْنِ ؟ قال : حديث النفس ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : الْعُدْمُ ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفَةَ لِمَنْ كَرَّمَ حَسْبُهُ ، وَطَاب نَسَبُهُ ، وَزَكَ فِرْعُهُ ، قال : امْتَلَأْتَ شِقَاقًا ، وَأَظْهَرْتَ فِتْنًا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلا ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

* * *

(١) السكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهران يصبان في دجلة .

(٣) الإبلاء : الإتمام والإحسان بلوت الرجل ، وأبليت عنده إبلاء حسنا ، وأبلاء الله إبلاء حسنا .

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القرية ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن ركبٌ وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : أخرج مما قلت ، قال : « أفعلُ ، أما الدنيا فإلَّ حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، وأما الآخرة فميزانٌ عادل ، ومشهدٌ ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان هلَّى اعترفتُ وإن كان لي اغترفتُ^(١) » قال : أما لي فاعترفُ بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلني عثرتي وأسفني ربي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة^(٢) ؟ قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسن القائل برستيمآباد : تَدَوُّوا الجدى قبل أن يتعشاكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرسِي فاضرب عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى نسمع من كلامه ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٣٧)

٣٣٨ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر : فالعاقلُ : الدّينُ شريعته والحلمُ طبيعته ، والرأى الحسنُ سجيته ، إن سُئِلَ أجاب ، وإن نطقَ أصاب ، وإن سمع العلمَ وعى ، وإن حدثَ روى ؛ وأما الأحمق : فإن تكلمَ عجل ، وإن حدثَ وهل^(٥) ، وإن استنزلَ عن رأيه نزل ، فإن حبلَ على القبيح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدثته شأنك ، وإن وثقت به لم برّعك ، وإن استكثرتكم لم يكتم ، وإن علمَ لم يعلم ، وإن حدثَ لم يفهم ، وإن فقهَ لم يفقه .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

(١) أي وأعطيت الناس منه . (٢) وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والهبوة : الغيرة . (٣) يضطرب . (٤) وروى أبو الفرج الأصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العتق صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بنى عامر » انظر الأغاني ج ١ ص ١٦٣ . (٥) ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٩ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب^(١)

لما فرّ يزيد بن المهلب من سجن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد ابن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقسم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فدأوك ، لا تُخزِر^(٢) ذمة أبي ، وأنت أحقّ من مَنعها ،

(١) وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فر في منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل السكتب عالم ، فدعا به وسأله : أتعلم مالئ ، من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجابة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زبيرية الهوى ، ويخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رى بنشابة ، فتبّت نصلها في ساقه ، فهو لا يمسه شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى تغمز شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقتها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهرّبوا منى ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفّعه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . (٢) خضر به كضرب ، وأخفّره : نقض عهدده وغدره .

ولا تقطع منا رجاء من رجاء السلامة في جوارنا ، لمكاننا منك ، ولا تُذِلَّ
من رجاء العز في الانقطاع إلينا لعزتنا بك «
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

٣٤٠ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتسكلم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلنسنا ناسيه ،
ومن يكفر فلنسنا كافريه ، وقد كان من بلاننا أهل البيت في طاعتكم ، والطمع
في أعين أعدائكم ، في المواطن العظام ، في المشارق والمغرب ، ما إن المنة علينا
فيها عظيمة . »

فأمنه الوليد وكف عنه .
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٤١ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ،
ودخل على الخليفة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من خمس ماأناء الله على المسلمين ، بعد أن صار إلى كل
ذي حق حقه من النه والغنيمة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال
له كاتبه المغيرة بن أبي قررة : لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره فأمرك بحمله ،
وإما سحت نفسه لك به فسوغك فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأن بك قد استفرقت
ماصميت ، ولم يقع منه موقعا ، ويبي المال الذي سميت مخلدا عندهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بعده =

« إن الله يا أمير المؤمنين صنَّع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تَحِيْسَ هذا الشيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه ، فَصَالِحِنِي على ما إياه تسأل » فقال عمر : لآ ، إلآ أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بَيْدَةٌ فخذ بها ، وإن لم تسكن بَيْدَةً فَصَدِّقْ مقالة يزيد ، وإلا فاستجلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أخذَه بجميع المال .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٢٢)

= أخذك به ، وإن ولى من يتعامل عليك لم يرض منك بأضعافه ؛ فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله القدوم ، فثاقفه بما أحببت مشافهة وتقصر ، فإنك إن تقصر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) - وكان عمر ييغض يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم - دعا يزيد وسأله عن تلك الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الخمول بنشر الذكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله ، وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسعنى تركها ، ولم يزل يزيد فى محبسه ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أختى الحجاج بن يوسف ، عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوليد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله أنن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ، ايقطن منه طابقا (بفتح الباء وكسرهما أى حضوا) فخشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك وخلق ابن المهلب بالبصرة ، فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدى بن أرطاة الفزارى) فحبسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومسلمة ابن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب فى أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

٣٤٢ - خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك

ومسلة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فخرّضهم ورجبهم في القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غيبتهم إلا الطعن في عيونهم ، والضرب بالمشرقية^(١) على هامهم ثم قل : إنه قد ذكر لي أن هذه الجراداة الصفراء - يعني مسلة بن عبد الملك - وعافر ناقة ثمود^(٢) - يعني العباس بن الوليد - (وكان العباس أزرق^(٣) أحمر ، كانت أمه رؤمية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه ، حتى كلفته فيه ، فأفرّه على نسبه ، فبلغني أنه ليس ههما إلا التماسي في الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلا أنا ، ما برحت العرصة^(٤) حتى تكون لي أولهم » ، قالوا : نخاف أن تعنيدينا^(٥)

(١) المشرقية : سيوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنومن الريف ، والهامة : جمع هامة ، وهي الرأس . (٢) هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَيَنْتَجِحُ لِسَكْمِ غِلْمَانٍ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْطِمِ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد :

لا غلط ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في الشؤم ، فيقال :

« أشأم من أحمر عاد » لأن الله أهلك بفعله ثمود ، وذلك أنهم قالوا لنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان :

يا صالح إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، وصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَازْتَبِهِمْ وَأَصْطَبِرْ) . فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ؛

ثم قال لهم : (هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْشُوا بِسُوءِ

فِيأَخَذَ كُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) .

(والشرب : النسيب من الماء) . (٣) أي أزرق العينين . (٤) العرصة : كل بقعة بين

للأور واسعة ليس فيها بناء . (٥) عناء : أتعبه .

كما عَنَّانا عبد الرحمن بن محمد^(١) ، قال : إن عبد الرحمن فَضِّحَ الذَّمَّارَ^(٢) وَفَضَحَ حَسَبَهُ ،
وَهَلْ كَانَ يَعْدُو أَجْلَهُ ؟ ، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٤٣ - خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض ، وها كها :

عن خالد بن صفوان قال : حَطَبْنَا يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ بِوَأَسِطِ ، حَمْدَ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي أَسْمَعُ قَوْلَ الرَّعَاعِ ، قَدْ جَاءَ الْعَبَّاسُ ، قَدْ جَاءَ مَسْلَمَةٌ ، قَدْ جَاءَ
أَهْلَ الشَّامِ ! وَمَا أَهْلُ الشَّامِ إِلَّا تِسْعَةُ أَسْيَافٍ ، مِنْهَا سَبْعَةٌ مَعِيَ ، وَائْتَانِ عَلَيَّ ، وَمَا مَسْلَمَةٌ
إِلَّا جَرَادَةٌ صَفْرَاءُ ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَنَسْطُوسُ^(٣) بْنُ نَسْطُوسٍ ، أَنْتَا كُمْ فِي بَرَابِرَةٍ
وَصَقَالِبَةٍ^(٤) وَجَرَامِقَةٍ وَجَرَّاجَةٍ^(٥) ، وَأَقْبَاطٌ وَأَنْبَاطٌ^(٦) ، وَأَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ ؛ إِنَّمَا أَقْبَلُ
إِلَيْكُمْ الْفَلَاحُونَ وَالْأَوْبَاشُ كَأَشْلَاءٍ^(٧) الْإِحْمِ ، وَاللَّهُ مَا أَتَمُّوا قَطُّ حَدًّا كَحَدِّكُمْ . وَلَا حَدِيدًا
كَحَدِيدِكُمْ ، أَعِيرُونِي سَوَاعِدَ كُمْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ تَصْفِقُونَ بِهَا خِرَاطِيمَهُمْ^(٨) ، فَإِنَّمَا هِيَ خُدُودٌ
أَوْ رَوْحَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . »

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر . (٢) مايلزمك حفظه وحايته .
(٣) هو في العقد ، ومروج الذهب بالياء ، وفي البيان والتبيين بالنون ، وليس من ألفاظ العربية ،
وأقول : هو إما علم رومى ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ كانت أمه رومية ، أو محرف عن
« نسطورى بن نسطورى » أى نصرانى نسطورى من النساطرة إحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس
صاحب المذهب ، وكان أسقفًا بالقسطنطينية . توفي حول سنة ٤٥٠ م . (٤) البرابرة : جبل بالمغرب ؛
والصقالبة : جبل بلادهم تتاخم بلاد الخزر « شمالى بحر الخزر ، وهو بحر قزوين » أى جنوبى روسيا .
(٥) الجرمامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل الإسلام ، والجرمامقة : قوم من العجم بالجزيرة ،
أو نبط الشام . (٦) أنباط : جمع نبط كجبل وقد تقدم . (٧) أشلاء : جمع شلو كحمل ، وهو العضو
وكل مسلوخ أكل منه شيء ، وبقيت منه بقية . (٨) صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم : جمع خرطوم ،
وهو الأنف .

٣٤٤ - خطبة أخرى له

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل السَّبِقِ وَالسَّابِقِ ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشام في أفواههم لِقَمَةٌ دَسِيمَةٌ ، قد رَتَبَتْ^(١) لها الأشداقُ ، وقادوا لها على ساقٍ ، وهم غيرُ تاركِها لكم بِالْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ ، فَاَلْبَسُوا لهم جُلُودَ الثُّمُورِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٣٤٥ - خطبة الحسن البصرى يثبِّط الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ، ويسرّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصرى يُثَبِّطُ الناس عنه ، وكان يقول في تلك الأيام :

« أيها الناس : الزموا رجالكم ، وكفّوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دُنْيَا زَائِلَةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها ببق ، وليس الله عنهم فيما كتبوا براصٍ ، إنه لم يكن فتنةٌ إلاّ كان أكثر أهلها اخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التَّيْبِ وَأَخْلِيَاءَ ، وليس يسلم منها إلاّ الجاهل الخفيّ ، والمعروف التقيّ ، فمن كان منكم خفياً فَلْيَنْزِمِ الْحَقَّ ، وليحسب نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكما والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خَلْقاً ؛ ومن كان منكم معروفاً شريفاً ، فترك ما يتنافس فيه نُظْرَاؤُهُ من الدنيا - إِرَادَةَ اللَّهِ بِذَلِكَ - فواهاً لهذا ، ما أَسْعَدَهُ وَأَرْشَدَهُ ، وَأَعْظَمَ أَجْرَهُ ، وَأَهْدَى سَبِيلَهُ ! فهذا غدا - يعني يوم القيامة - الْقَرِيرُ عَيْناً ، الْكَرِيمُ عِنْدَ اللَّهِ مَأْبَأً » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٣)

(١) رتبت : أى ثبتت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . (٢) أى تنكروا لهم ، واستعدوا لمناضلتهم .

٣٤٦ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد

ثم قال لهم :

« قد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرأى - ولم يُسمَّه - يثبط الناس ، والله لو أن جاره نَزَعَ من خُصِّ داره قَصَبَةً ، أَظَلَّ يَرُغِفُ^(١) أَنْفَهُ ، أَيُنْكِرُ عَلَيْنَا ، وَتَلِي أَهْلَ مِصْرِنَا ، أَنْ نَطْلُبَ خَيْرِنَا ، وَأَنْ نُنْكِرَ مَظْلِمَتِنَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَيَكْفُنَّ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَعَنْ جَمْعِهِ إِلَيْنَا سُقَاطُ الْأَبْلَةِ^(٢) ، وَعُلُوجُ فُرَاتِ الْبِصْرَةِ ، قَوْمًا لَيْسُوا مِنْ أَنْفُسِنَا ، وَلَا يَمُنُّ جَرَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ مِنْ أَحَدٍ مِنَّا ، أَوْ لَا نُحْيِيَنَّ عَلَيْهِ مَبْرَدًا خَشِينًا . »

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : وَاللَّهِ مَا أَكْرَهُ أَنْ يُكْرِمَنِي اللَّهُ بِهِوَائِهِ ، فَقَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : لَوْ أَرَادَكَ ثُمَّ شِئْتَ لِمَعْنَاكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ خَالَفْتُمْ إِذْنًا إِلَى مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ ، أَمْرُكُمْ أَلَّا يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مَعَ غَيْرِي ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا دُونِي ؟ فَبَلَغَ ذَلِكَ مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ وَأَخَافَهُمْ ، وَطَلَبَهُمْ حَتَّى تَفَرَّقُوا ، وَلَمْ يَدْعِ الْحَسَنُ كَلَامَهُ ذَلِكَ ، وَكَفَّ عَنْهُ مَرْوَانَ .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

(١) رَغِفَ : خَرَجَ مِنْ أَنْفِهِ الدَّمُ . (٢) جَمَعَ سَاقَطٌ : وَهُوَ اللَّيْمُ فِي حِسْبِهِ وَنَفْسِهِ ، وَالْأَبْلَةُ :

مَوْضِعٌ بِالْبِصْرَةِ .

خطب الأحنف بن قيس التيمي^(١)

٣٤٧ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام عليّ ، كرم الله وجهه ، وقعة صفين ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكركم يوم صفين إلا كانت حَزَاةٌ^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » .

فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم تَرُدُّ الأمور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوارحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن مددت بشبر من غدْر ، لمددنا باعاً من ختر^(٣) ، ولئن شئت المستصفين كدّر قلوبنا بصفو حملك » ، قال معاوية : فإني أفعل .

ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : يا أمير المؤمنين : من هذا الذي يتهدّد ويتوعد ؟ قال : هذا الذي إذا غضب ، غضب انضبه مائة ألف من بني تميم ، لا يدرون فيم غضب .

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٣٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) هو أبو بجر الضحاك بن قيس سيد بني تميم ، والمضروب به المثل في الحلم ، وهو من سادات التابعين ؛ أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ؛ وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما ؛ وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ؛ ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ؛ وبقى إلى زمن مصعب بن الزبير ؛ فخرج معه إلى الكوفة ؛ فات بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ؛ لأنه كان أحنف الرجل - مائلها - يطاء على وحشها) . (٢) الحزاة : وجع في القلب من غيظ ونحوه .

(٣) الباع : قدر مد اليدين ، والحتر : أقبح العذر .

٣٤٨ - الأحنف ومعاوية أيضا

جلس معاوية يوما ، وعنده وجوه الناس وفيهم الأحنف ، فدخل رجل من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخرَ كلامه أن لعنَ علياً رضي الله عنه ، فأطرق الناس وتكلم الأحنف ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هذا القاتلَ ما قال آناً ، لو علم أن رضاك في لعن المرسلين ل لعنهم ، فاتق الله ، ودع علياً ، فقد آتى الله ، وأُفرد في حُفرتِه ، وخَلَا بعمله ، وكان والله - ما علمنا - المبرزَ بِسِفِّهِ ^(١) ، الطاهرَ في خُلُقِه ، الميمونَ النَّقِيْبَةَ ^(٢) العظيمَ المصيبة . »

قال معاوية : « يا أحنف ، لقد أغضيتَ العينَ على القذَى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وإيتمَّ الله لتصعدن المنبرَ فلتلعننه طائماً أو كارهاً » فقال الأحنف : « إن تُعْفِنِي فهو خير ، وإن تجبرني على ذلك ، فوالله لا تجرى به شفتاي » ، فقال معاوية : قم فاصعد . قال : « أما والله لا نُصَفِّنَكَ في القول والنعل » ، قال معاوية : وما أنت قائلٌ إن أنصفتني ؟ » ، قال : « أصددُ فأحمد الله ، وأثني عليه وأصلي على نبيه ، ثم أقول : « أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعنَ علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا وافتتلا ، وادَّعى كل واحد أنه مَبغِيٌّ عليه وعلى فِئته ، فإذا دعوتُ فأمنوا رحِمَكُم الله ! » ثم أقول : اللهم لعن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغِيَّ منهما على صاحبه ، والفِئَةَ الباغية على المَبغِيِّ عليهما ، اللهم العنهم لعناً كبيراً ، آمنوا ، رحِمَكُم الله » ، يامعاوية لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفاً ، ولو كان فيه ذهابُ نفسي . فقال معاوية : « إذن نُعَفِّيك يا أبا بحر » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والمعقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) الشق : الجانب ، ورواية المعقد « المبرز سيفه » وبرز تبريزا : فاق أصحابه فضلا أو شجاعة .

(٢) النقية : النفس .

٣٤٩ - قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجاباً به ، فقال :
يا أبا بجر ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ،
وتمرّ قلوبنا ، وقرّةُ أعيننا^(١) ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ،
فكن لهم أرضاً ذليلة ، وسماءَ ظليّة ، إن سألك فأعطهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم^(٢) ،
لا تمنعهم رفقك^(٣) ، فيمّلوا قُربك ، ويكرهوا حيانتك ، ويسنبطوا وفانك » .
فقال : لله درك يا أبا بجر ! هم كما وصفت .
(الأمال ٢ : ٤٣)

٣٥٠ - شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعبَ بن الزبير يكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ،
إن كانوا حُيسُوا في باطل ، فالحقُّ يُخرِجهم ، وإن كانوا حُيسُوا في حق ، فالعفو
يسعهم » ، فخلّاهم^(٤) .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٥١ - نصيحته لقومه

وقال بجزاسان : « يا بني تميم تحابوا تجتمع كلمتكم ، وتبأذلوا تعتدل أموركم ،
وابدءوا بجهاد بطونكم وفرّوجكم ، يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا^(٥) يسلم لكم
جihadكم » .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

(١) تمرت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه . (٢) استعتبه :
طلب إليه العتبي (أى الرضا) وأعتبه : أعطاه العتبي . (٣) الرشد : العطاء . (٤) وفق وفيات
الأميان لابن خلسكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول لشعبي كالم به عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق .
(٥) أى لا تخونوا .

٣٥٢ - خطبته في قوم كانوا عنده

وحدّث رجل من بنى تميم قال : حضرت مجلس الأحنف بن قيس ، وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الكرم يمنع الحرم^(١) ، ما أقرب النعمة من أهل البغي ، لا خير في لذة تعقب ندما ، لن يهلك من قصد^(٢) ، ولن يفتقر من زهد ، رب هزل قد عاد جدياً ، من أمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، دعوا المزاح ، فإنه يؤرث^(٣) الضغائن ، وخير القول ما صدقه الفعل ، احتملوا لمن أدل^(٤) عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم . أطع أخاك وإن عصاك ، وصله وإن جفاك ، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك ، وإياكم ومشاورة النساء ، واعلم أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالدمم ، ما أبيض القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف^(٥) ، والعداوة بعد الود ! لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مشواك^(٦) ، فأنفق في حق ، ولا تكونن خازناً لغيرك ، وإذا كان الغدر في الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد عجز ، اعرف الحق لمن عرفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل تمديل صلة العاقل . »

(الأمل : ٢ : ٢٢)

(١) الحرم: جمع حرمة بالضم ، وهي مالا يحل انتهاكه . (٢) القصدوا: الاقتصاد : ضد الإفراط .

(٣) التآريث : إيقاد النار . (٤) تدلل . (٥) اللطف : اسم من اللطف بالضم .

(٦) آخرتك .

٣٥٣ - كلمات حكيمة للأخف

قال : في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعْتَبِر : ما دخلت بين اثنين قَطُّ حتى يُدْخِلَانِي بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم أَدْعَ إليه ، وما حَلَّتْ حَبُوتِي^(١) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى الْمَحْمُودَةِ بِلا مَرْزِيَّةٍ^(٢) ؟ الخلق السَّجِيح^(٣) والكف عن القبيح ، أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَذْوِمِ الدَّاءِ ؟ الخلقُ الدنيءُ ، واللسانُ البَدِيءِي » ، وقال : « ما خان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن » . وقال : « ما ادخرتِ الآباءُ للأبناء ، ولا أبقتِ الموتى للأحياء ، أفضلَ من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لَزِمَ شيئاً عُرِفَ به » . وسمع رجلاً يقول : ما أبالي أمدحتُ أم ذممت . فقال له : « لقد استرحت من حيث تُعَبُّ الكرامُ » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء ، فإنِّي لأُبغِضُ الرجلَ يكونُ وصافاً لفرجه وبطنه ، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيهِ » . وكان يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إنِّي لأجد ما تجدون ولكني صبور » . وكان يقول : « وجدت الحلم أنصر لي من الرجال » . وقال : « الكذب لا حيلة له ، والحسود لا راحة له ، والبخيل لا مروءة له ، والمُلُول لا وفاء له ، ولا يسود سبِّي الأخلاق ، ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم ذلك ويتجمل » . وقال : « أربعٌ من كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلَّقَ بِمَحْصَلَةٍ منهن كان من صالحِي قومه : دينٌ يرشده ، أو عقلٌ يسدِّده ، أو حسَبٌ يصونه ، أو حيالٌ يقنأه^(٤) » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمنٌ يحسده ، ومنافقٌ يُبغضه ، وكافرٌ يجاهده ،

(١) احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة بالفتح ويضم .

(٢) رزاه مرزئة : أصاب منه خيرا ، والشئ ناقصه : أى دون أن تفرموا فى سبيلها مالا .

(٣) اللين السهل . (٤) قى الحياء كرضى ورمى : لزمه كأقنى .

وشيطان يَفْتِنُهُ ؛ وأربع ايس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهم حلال ، وأخ في الله «
 وقال : « لَأَنْ أَدْعَى مِنْ بَعِيدٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْصَى مِنْ قَرِيبٍ » . وكان يقول :
 « إِيَّاكَ وَصَدْرَ الْجُلُوسِ ، وَإِنْ صَدَّرَكَ صَاحِبُهُ ، فَإِنَّهُ مَجْلِسُ قَلْعَةٍ ^(١) » . وقال : « مَنْ لَمْ
 يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِمَاتٍ » . وقال : « رَبُّ غَيْظٍ تَجْرَعُهُ مَخَافَةٌ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ » . وقال :
 « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ طَالَ صَمْتُهُ كَثُرَتْ سَلَامَتُهُ » . وقال : « ثَلَاثٌ
 لَا أُنَاةَ فِيهِنَّ عِنْدِي » . قيل : « وَمَا هُنَّ يَا أَبَا بَجْرٍ ؟ » . قال : « الْمِبَادِرَةُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ،
 وَإِخْرَاجُ مِيتِكَ ، وَأَنْ تَنْكِيحَ الْكُفَّاءَ أَيْتِكَ ^(٢) » . وكان يقول : « لَأَنْفَى تَحَكُّكَ
 فِي نَاحِيَةِ بَيْتِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَيْتِمٍ رَدَدْتُ عَنْهَا كُفْتًا » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، ومجمع الأمثال للميداني ١ : ١٤٨ ؛ والأمال

١ : ٢٣٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

٣٥٤ - صفة بنت هشام المنقرية ثوبن الأحنف

وروي أنه لما سُحِلَتْ حِنَاةُ الْأَحْنَفِ ، وَدُلِّيَ فِي قَبْرِهِ ، أَقْبَلَتْ ابْنَةَ عَمِّهِ صَفِيَّةَ بِنْتَ
 هِشَامِ الْمُنْقَرِيَّةِ عَلَى نَجِيبٍ لَهَا مُخْتَصِرَةٌ ^(٣) ، فَوَقَفَتْ عَلَى قَبْرِهِ ، فَقَالَتْ :
 « لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ مَجْنُنٍ فِي جَنِّنٍ ^(٤) ، وَمُدْرَجٍ ^(٥) فِي كَفَّنٍ ! إِنْ لَمْ يَلَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !

(١) مجلس قلعة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرة بعد مرة . (٢) الأيم : من لا زوج ، لها بكرا
 أو ثيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطاء ؛ وما بعد منهن من الأكفاه ، إلا بذهن
 للسفلة والغفواء » . (٣) النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ؛ واختصر : أمسك المختصرة
 « والمختصرة ككسنة : عصا يمسكها الخليل يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسكه .
 وفي رواية الجاحظ : « وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة
 فقالت . . . » ؛ وفي رواية أبي علي القالي : « جاءت امرأة من قومه من بني منقر عليها قبول من النساء ؛
 فوقفت على قبره فقالت . . . » — والقبول بالفتح ويضم : الحسن — . (٤) من أجنه : إذا ستره ؛
 والجنن : جمع جنة كقبة ، وهي الوقاية ؛ والجنن كسبب : القبر والسكنن . (٥) مطوى .

نسأل الله الذي جَعَمًا بموتك ، وابتلانا بفقدك ، أن يُوسِعَ لك في قبرك ، وأن يَغْفِرَ
لك يوم حشرِك ، وأن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلَكَ ، ودليلَ الرشادِ دليلَكَ ، ثم أقبِلتَ
بوجهها على الناس ، فقالت : « مَعَشَرَ النَّاسِ ، إن أولياءَ الله في بلاده ، تُهَوِّدُ على عباده ،
وإننا قائلون حَقًّا ، وَمُتَّعُونَ صِدْقًا ، وهو أهلُ الحَسَنِ النَّعْمَاءِ ، وطيبُ الدعاءِ ؛ أما والذي
كنتَ من أَجَلِهِ في عِدَّةٍ ، ومن المِنْضَمَارِ^(١) إلى غايَةٍ ، ومن الحَيَاةِ إلى نِهَايَةٍ ، الذي رفعَ
عَمَلَكَ ، عند انقضاءِ أَجَلِكَ ، لقد عِشْتَ حميداً مَوْدوداً ، ولقد مُتَّ فقيداً سعيداً ، وإن
كنتَ لَعَظِيمِ السَّلْمِ ، فَاضِلِ الحِلْمِ ، صحيحِ الأَدِيمِ^(٢) ، مَنِيَعِ الحَرِيمِ ، وَارِي الزَّنَادِ ،
رفيعِ العِمَادِ ، وإن كنتَ في المحافلِ لَشَرِيفاً ، وعلى الأَرَامِلِ لَعَطُوفاً ، وفي العَشِيرَةِ
مُسَوِّدًا ، وإلى الخلفاءِ مَوْفِدًا ، ولقد كانوا لِقَوْلِكَ مستمعين ، ولرأيِكَ مُتَّبِعِينَ » .
ثم انصرفت . (ذيل الأمالِ ص ٢٨ ، وبلاغات النساءِ ص ٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

(١) في الأمالِ : « ومن الضمان » ؛ وفي بلاغات النساءِ : « ومن الضمان » وأرى أن صوابه « ومن

المضمار » لقوله بعد : « إلى غايَةٍ » (٢) الأديم : الجلد ؛ والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٥٥ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عبادة قَطَوَانِيَّة^(١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةُ^(٢) صوف وشملة^(٣) ، فلما مثلاً بين يدي معاوية افتحمتهما^(٤) عينه ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العبادة لانكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأومأ إليه لجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مه ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، أهل البصرة عدد يسير ، وعَظْمُ كَسِيرٍ ، مع تقايُع من المَحُول^(٥) ، واتصال من الذُحُول^(٦) ، فالمُكْتَبِرُ فيها قد أطرق ، والمَقْلَقُ قد أملق ، وبلغ منه المَخْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقير ، ويَجْبُرَ الكَسِيرَ ، ويسهّلَ العَسِيرَ ، ويصفح عن الذُحُولِ ، وَيُدَاوِيَ المَحُولِ ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويُرْزِلَ اللأواء^(٧) ، وإن السيدَ مَنْ يعم ولا يَحْصُ ، ومن يدعو الجفلى^(٨) ولا يدعو النقرى ، إن أحسن إليه شكر ،

(١) نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . (٢) المدرعة : ثوب ولا يسكون إلا من صوف . (٣) الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به . (٤) ازدرتهما . (٥) جمع محل كشمس : وهو القحط والجذب . (٦) جمع ذحل كشمس أيضاً : وهو الثأر . (٧) الشدة . (٨) الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة .

وإن أرسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عهاداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بجر ، ثم تلا : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١)) .
(زهر الآداب ١ : ٥٧)

٣٥٦ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قدم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ، فقال : إن أمير المؤمنين يهزم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف :

« لولا عزيمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافقة ^(٢) دفت ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، ونائبة نبتت ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره » ، فقال : حسبك يا أبا بجر فقد كفيت الغائب والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ، فقال زياد :

٣٥٧ - خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أشخصت إليك أقواماً الرغبة ، وأقعدت عنك آخرين العذر ، فقد جعل الله تعالى في سعة فضلك ما يُجبرُّ به المتخلف ، ويكافأ به الشاخص » .

(١) أى فى معناه وفجواه . (٢) الدافقة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بنى فلان دافة ، والدافقة أيضاً : قوم من الأهراب يريدون المصر ، والدافقة : الجيش يدفون نحو العدو أى يدبون .

٣٥٨ - خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَّ حَبَابًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَنْ فَرَّقَتْ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُمْ الرَّحِمَ ، إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيَخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ بِأَنْ تَخْتَارَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّأَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تَدْنِسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقُرْبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ . »

٣٥٩ - خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعَدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيَا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَمْ تَتَّبِعْ آثَارَكَ فِينَا ، فَتَسْتَمِيعُ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمُدَّاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبِيلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطَى إِلَّا وَشِيحَهُ وَتُفْرَسُ إِلَّا فِي مَفَا بَيْهَا النَّخْلُ ^(٢) »

(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٦٠ - وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دغفل ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغْفَلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي نِزَارٍ : رَيْبَعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُضَرٌّ بِنِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قال معاوية : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قال :

(١) الجزيل : العاقل الأصيل الرأي . (٢) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين

تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لأنه منبتها ، والشويح : شجر الرماح جمع وشيحة . (٣) هو دغفل

ابن حنظلة النسابة من بني شيبان .

بنو النَّضْر بن كِنَانَة ، كانوا أكثر العرب أَمْجَادًا ، وأَرْفَعَهُمْ عَمَادًا وَأَعْظَمَهُمْ رَمَادًا .
 قال : فأىُّ بنى كِنَانَة كان بَعْدَهُمْ أَعَزُّ ؟ قال : بنو مالك بن كِنَانَة ، كانوا يَمْلُؤُونَ من
 سَامَاهُمْ ، وَيَكْفُؤُونَ من نَاوَاهُمْ ، وَيَصْدُقُونَ من عَادَاهُمْ . قال : فَن بَعْدَهُمْ ؟ قال :
 بنو الْحَرِث بن عبد مَنَاء بن كِنَانَة ، كانوا أَعَزَّ بَنِيهِ وَأَمْنَهُمْ ، وَأَجُودَهُمْ وَأَنْفَعَهُمْ . قال :
 ثم من بَعْدَهُمْ ؟ قال : بنو بكر بن عبد مَنَاء ، كان بِأَسْهُمٍ مَرهُوبًا ، وَعَدُوهِمْ مَنْكُوبًا ،
 وَثَارَهُمْ مَطْلُوبًا . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مَنَاء بن كِنَانَة ، وعن مَرْثَة وَعَاصِر
 ابني عبد مَنَاء . قال : كانوا أَشْرَافًا كَرَامًا ، وَلَيْسَ لِلْقَوْمِ أَكْفَاءٌ وَلَا نُظْرَاءٌ . قال :
 فأخبرني عن بنى أَسَد ؟ قال : كانوا يُطْعَمُونَ السَّدِيفَ ^(١) ، وَيُكْرَمُونَ الضِّيُوفَ ،
 وَيَضْرِبُونَ في الزُّحُوفِ ^(٢) ، قال : فأخبرني عن هُدَيْل ، قال : كانوا قَلِيلًا أَكْيَاسَ ^(٣) ،
 أَهْلَ مَنَعَةٍ وَبَاسٍ ، يَنْتَصِفُونَ من النَّاسِ ، قال : فأخبرني عن بنى ضَبَّة ؟ قال : كانوا
 جَمْرَةً من جَمَرَاتِ الْعَرَبِ الْأَرْبَعِ ^(٤) ، لَا يُصْطَلَى بِنَارِهِمْ ، وَلَا يُفَاتُونَ بِنَارِهِمْ ، قال :
 فأخبرني عن مُزَيْنَةَ ، قال : كانوا في الجاهلية أَهْلَ مَنَعَةٍ ، وفي الإسلام أَهْلَ دَعَاةٍ . قال :
 فأخبرني عن تَمِيمٍ ، قال : كانوا أَعَزَّ الْعَرَبِ قَدِيمًا ، وَأَكْثَرَهَا عَظِيمًا ، وَأَمْنَهُمَا حَرِيمًا ،
 قال : فأخبرني عن قَيْسٍ ، قال : كانوا لَا يَفْرَحُونَ إِذَا أُدِيلُوا ^(٥) ، وَلَا يَجْزَعُونَ إِذَا ابْتُلُوا ،
 وَلَا يَبْتَخَلُونَ إِذَا سُئِلُوا ، قال : فأخبرني عن أَشْرَافِهِمْ في الجاهلية ، قال : غَطَفَانُ بن سعد
 وَعَاصِرُ بن صَمْعَةَ وَسَلِيمُ بن منصور ؛ فَأَمَّا غَطَفَانُ كَرَامًا سَادَةً ، وَاللَّخْمِيْسَ ^(٦)

(١) شحم السنام . (٢) مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .

(٣) جمع كيس : وهو الماقل . (٤) قال صاحب المقد : « جمرات العرب ، هم

بنو نمير بن عامر بن صمعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو عيس

ابن يغيث ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تجمعت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير :

التجميع ، ومنه قيل : جمرة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تجمروا المسلمين فتفتنوا ، وتفتنوا

نساءهم ، يعني لتجموعهم في المغازي . الخ - المقد ٢ : ٥٧ . (٥) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٦) الخميس : الجيش . سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ،

قادة ، وعن البيض ذادة^(١) ؛ وأما بنو عاصم فكثير سادتهم ، مخشية سطورهم ،
ظاهرة نجدتهم ؛ وأما بنو سليم فكانوا يدركون النار ، ويمنعون الجار ، ويعظمون^(٢)
النار ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن وائل واصدقني ، قال : كانوا أهل عز قاهر ،
وشرف ظاهر ، ومجد فاخر ، قال : فأخبرني عن إخوانهم تغلب ، قال : كانوا أسودا
ثرهبا ، وسامما^(٣) لا تقرب ، وأبطالا لا تكذب ، قال : فأخبرني كم أدبوا عليكم
في قتلكم كليليا ؟ قال : أربعين سنة ، لاننتصف منهم في موطن نلقاهم فيه ، حتى كان
يوم التحاليق ، يوم الحرث بن عباد بعد قتلة ابنه بجير ، وكان أرسله في الصلح بين القوم
فقتله مهلهل ، وقال : بؤ بشنع^(٤) نعل كليب ، فقال الغلام : إن رضيت بهذا بنو بكر
رضيت ، فبلغ الحرث ، فقال : نعم القتل قتيلا إن أصاح الله به بين بكر وتغلب وباء
بكليب ، فقيل له : إنما قال مهلهل ما قال (الكلمة^(٥)) ، فتشمر الحرث للحرب ،
وأمرنا بخلق ره وسنا أجمعين ، وهو يوم التحاليق ، وله خبر طويل ، وقال :

قربا مر ببط النعماء منى لقيحت حرب وائل عن حبال^(٦)
لم أكن من جناتها - علم الأله - وإني بجرها اليوم صالي
قربا مر ببط النعماء منى إن بيع الكرام بالشنع غالي

فأدبنا عليهم يومئذ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فمن ذهب يذكر
ذلك اليوم ؟ قال : الحرث بن عباد ، أسر مهلهلا في ذلك اليوم ، وقال له : دأني على
مهلهل بن ربيعة ، قال : مالي إن دللتك عليه ؟ قال : أطلقك ، قال : على الوفاء ؟ قال :
نعم ، قال له : أنا مهلهل ، قال : ويحك ! دأني على كفاء كريم ، قال : امرؤ القيس^(٧)

(١) البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها .

(٢) كناية عن الكرم . (٣) جمع سم مثلث السين . (٤) الشنع : سير يشد به النعل .

(٥) هي قوله (بؤ بشنع نعل كليب) . (٦) النعماء : اسم فرسه ، ولقيحت الناقة : قبلت اللقاح

وحالت حبالا : لم تلتق سنة ، أو سنتين ، أو سنوات . (٧) هو امرؤ القيس بن أبان التغلبي .

وأشار بيده إليه عن قُرب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كلاهما صَبَرَتْ وَأَبْنَتْ لِحُسْنِ بَلَاؤِهَا ، إلا ما كان من ابني لُجَيْمِ : حَذِيفَةَ وَعِجْلَ ، وَيَشْكُرُ ابن بكر ، فَإِنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكِ بْنِ ضُبَيْعَةَ جَدَّ طَرْفَةَ بْنَ الْعَبِيدِ ، هَجَامَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فقال :

إِنَّ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارْسًا وَاحِدًا^(١)
وَيَشْكُرُ الْعَامَ عَلَى خَيْرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ لَهُمْ حَامِدًا^(٢)
وقال فيهم أيضًا :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَاخُوا^(٣)
إِنَّا وَإِخْوَتَنَا غَدًا كَثَمُودَ حِجْرٍ يَوْمَ طَاحُوا^(٤)
بِالْمَشْرِقِيَّةِ لَا نَفَ رَ وَلَا نَبَاحُ وَلَنْ تَبَاحُوا^(٥)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ^(٦)
فقال معاوية : أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطبةً بأخبار العرب .

(ذيل الأمل ٢٦)

(١) الإرفاد : الإعانة والإعطاء . (٢) الخمر : الغدر أو أقيحه . (٣) أراهط : جمع الجمع لرهط . (٤) الحجر : واد بين المدينة والشام : مساكن ثمود قوم صالح . (٥) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية . وفي ذيل الأمل « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالثاء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أى ولن تباحوا يا قوم مادمننا لكم حاة ، وقال مصحح الأمل : « ولن نباحوا » كذا في الأصل ، وأمل هنا تحريفًا ، ووجه الكلام « كمن يباح » . (٦) قولهم لا براح كقولهم لا ريب ، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٦١ - دغفل وجماعة من الأنصار

ووقف جماعة من الأنصار على دغفل بعد ما كف ، فسلموا عليه ، فقال :
مَنِ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : سَادَةُ الْبَيْنِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا الْعَمِيمِ ،
كِنْدَةَ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَأَنْتُمْ الطَّوَالِ قَصَبَا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ، بَنُو عَبْدِ الْمَدَّانِ ؟ »
قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّحُوفِ ، وَأَخْرُقُهَا لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ،
رَهْطُ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قِرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا
فِنَاءً ، وَأَشْدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ،
وَالْمَطْعِمُونَ فِي الْمَحَلِّ ^(٢) ، وَالْقَاتِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْآنصَارُ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ .
(الأمل : ٢ : ٢٨٧)

٣٦٢ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فِيهِمْ
أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسَخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، وَأَحْلَمُ النَّاسِ ،
وَأَحْضَرُ مِمْ جَوَابًا .

قَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي قَرِيشٍ ،
قَالَ : لَا ، قَالُوا : فِي حَيْبٍ وَمَلُوكِهَا ، قَالَ : لَا ، قَالُوا : فِي مَضَرَ ، قَالَ : لَا ، قَالَ مَضَقَلَةَ
ابْنِ رُقَيْبَةَ الْعَبْدِيِّ : فَهِيَ إِذْنٌ فِي رَبِيعَةَ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ
هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : نَعَمْ .

أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمُ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) قرى الضيف كرى قرى بالكسر ، والقصر : وقرأ بالفتح والمد : أضافه .

(٢) الجهل : الجذب والشدة .

فَقَطَعَتْ سَاقَهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا فَعَجَلَهُ (١) عَنْ دَابَّتِهِ ،
ثُمَّ جَنَّا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَرَّ بِهَ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيمَ ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟
قَالَ : وَسَادِي (٢) هَذَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعِي إِنَّمَا مَعِيَ ذِرَاعِي أَنحِي بِهَا كُرَاعِي (٣)

وَأَمَّا أَسْحَى النَّاسِ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ سُوَّارٍ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةَ عَلَى السَّنَدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا
فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ
ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، اعْتَلَّ بِمِضِّ أَصْحَابِنَا ،
فَاشْتَهَى حَبِيبًا (٤) ، فَعَمِلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا
وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، فَسُمِّيَ مُطْعِمَ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشْرِ بْنِ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتْ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدِمَاتٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ،
فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرَّذَّةِ دِينَارٌ أَوْ دَرَاهِمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَيَّ مِثْلَاهُ » فَسَاخَلَنَهُ
مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَعْمَةَ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدِ أَهْلِ
الْعِرَاقِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ : مَرَّحِبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةَ ، مِنْهَا الْمَنْشَرُ ،
وَالِإِيهَا الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أَمِيرٍ يَبْرَأُ كِبِيرِكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرِكُمْ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ
وَلَدَ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَى صَعْمَةَ فَقَامَ :
فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهي الأرض . (٢) الوساد : المتكأ ، والمخذة
كالبرسادة ويثلث . (٣) لا تراعى : لا تفرغى ، والكراع : جماعة الخيل . (٤) الخبيص :
نقى الدقيق يخلط بالعمل ، والخبيصة : أخص منه ، وخبيص الحلواء كضرب ، وخبيصها : بالتشديد خلطها وعملها .

« أما قولك يا معاوية : إنا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمري ، ما الأرضُ تقدّسَ
الناسَ ، ولا يقدّسُ الناسَ إلا أعمالهم ، وأما قولك : منها المنشر ، وإليها المخشّر ،
فلعمري ، ما ينفع قربها ، ولا يضرُّ بعُذها مؤمننا ، وأما قولك : لو أن الناسَ كلهم ولدُ
أبي سفيان لكانوا حلماً عقلاء ، فقد ولدتم خيرٌ من أبي سفيان آدمُ صلوات الله عليه ،
فمنهم الحلِيم والسفيه ، والجاهل والعالم . »

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القيس قدِموا على النبي صلى الله عليه وسلم بصداقاتهم
وفيهم الأشج^(١) ، ففرّقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه ،
ثم قال : يا أشجُ ادنُ مني ، فدنا منه ، فقال : « إن فيك خلتين يجبهما الله : الأناة ،
والحلم » وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً ، ويقال : إن الأشج لم يَغضب قط^(٢) .
(المقد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٦٣ - وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عُتْبَةَ بن أبي سفيان ، قال :
عَمِمَت النساءُ أن يلدنَ مثل عمِّي ! شهيدته يوماً ، وقد قدِمَت عليه وفود العرب ،
فقضَى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :
« جزاكم الله يا معشرَ العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم إليهم في الحرب ،
وتقديمكم لهم في السِّلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثّر عليكم غيركم
منهم حازمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لئيم ، شجرةٌ قامت على ساق ،
فتفرّغ أعلاها ، واجتمع أصلها ، عَضَدَ اللهُ مَنْ عَضَدَهَا ، فيالها كَلَّةٌ لو اجتمعت ! وأيد
لو ائتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » .
(المقد الفريد ٢ : ٤١)

(١) هو عبد الله بن عوف الأشج .

(٢) هذا المقال يزيد على العنوان الذي عنوانته به ، وقد أردت من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

٣٦٤ — وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزل أهرُ ذوائب^(٢) الرِّحال إليك ، إذ لم أجد مَمُولًا إلا عليك ، أمطى الليل بعد النهار ، وأميم^(٣) المَجَاهِلَ بالآثار ، يقودني إليك أمل ، وتسوقني بلوى ، والمجتهد يُعذّر ، وإذ بلغتكَ فَقَطَّنِي^(٤) » ، فقال معاوية : أَحْطُطُ عن راحلتك رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزل أستدِلُّ بالمعروف عليك ، وأمطى النهار إليك ، فإذا ألوى^(٥) بي الليل ، فقَبَّضَ البصرَ ، وعَفَى الأثرَ ، أقام بدني ، وسافر أملِي ، والنفس تلوم ، والاجتهاد يَعْذِرُ ، وإذ بلغتكَ فَقَطَّنِي » .

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائفة^(٦) ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزُرارة : أتاني اليوم نَعْيُ سيد شباب العرب ، قال زُرارة : يا أمير المؤمنين هو ابني أو ابنك ؟ قال : بل ابنك ، قال : للموت ما تَلِدُ الوالدة .

(المقدم الفرید ١ : ١١٨ ، وصحيح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والأمال ١ : ٢٠١)

(١) في صحيح الأعشى « عبد العزى » وفي الأمال : « قال رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

(٢) جمع ذؤابة : وهي الجملدة المطلقة على آخرة الرحل ، وفي صحيح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

(٣) وصمه بسمه : علمه بعلامته . (٤) فحسبى . (٥) المراد جن على ، وأحدقت في ظلمته ،

يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به المنقاه : طارت به ، وألوى بما في الإناء : استأثر به .

(٦) الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يفتنون صيفا لمكان البرد والتلج .

٣٦٥ - وفود زيد بن مَنِيَّة على معاوية

قدم زيد بن مَنِيَّة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يَعْلَى بن مَنِيَّة ^(١) صاحب
جمل عائشة ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبي سفيان
قد تزوج ابنة يعلى بن مَنِيَّة) ، فلما دخل على معاوية شكاه إليه ديناً لزمه ، فقال : يا كعبُ
أعطه ثلاثين ألفاً ، فلما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : الخلق
بصهرك ، (يعنى عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر) فقدم عليه مصر ، فقال :
« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتآلفَ ، ألبسَ أزديةَ الليل مرةً ،
وأخوضُ في لُججِ السَّرابِ ^(٢) أخرى ، مُوقراً ^(٣) من حُسنِ الظنِّ بك ، وهارباً من
دهرٍ فطَمَ ^(٤) ، ودينٍ لزم ^(٥) ، بعد غنى جَدَّعنا به أنوفَ الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك
مَهْرَباً ، وعليك مَعْوِلاً » ، فقال عتبة : « سرحباً بك وأهلاً ، إن الدهر أعاركم غنى ،
وخاطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منا مالا ضيقة ^(٦) معه ، وأنا
واضع يدي ويدك بيد الله » ، فأعطاه سبعين ألفاً كما أعطاه معاوية .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

(١) في صبح الأعشى والعقد «منبه» بالياء وهو تصحيف والصواب «منية» وهو اسم أمه ، واسم أبيه أمية ،
واللتصحیح من تاريخ الكامل لابن الأثير. وكان يعمل عاملاً لعثمان رضي الله عنه على اليمن ، فلما ولى على رضى الله عنه
الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعمل إلى مكة ومعه مال كثير ، وانضم إلى السيدة
عائشة رضى الله عنها في قتال على في وقعة الجمل . (٢) المراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .
(٣) محملاً من الوقر بالكسر: وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة إيقاراً .
(٤) يروى بالفاء والقاف ، فطمه وقطمه : قطعه ، وضبط في صبح الأعشى بالقاف ، وبالطاء
المكسورة وصف من قطع كفرح : اشتمى اللحم أو غيره . (٥) وفي صبح الأعشى : « ودين أزم »
وأزم كضرب وفرح : عض بالفم كله شديداً . (٦) الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

٣٦٦ - وفود ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية

دخل ضرار بن حمزة الصدائي^(١) (وكان من خواص عليّ كرم الله وجهه) على معاوية وافداً ، فقال له : يا ضرار ، صف لي عليّاً ، قال : أَعَفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : لَتَصِفَنَّهُ ، قال : « أَمَا إِذْ لَا بُدَّ مِنْ وَصْفِهِ ، فَكَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى ^(٢) ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَضْلاً ، وَيَحْكُمُ عَدْلاً ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطَقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ ، وَكَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ، وَيَخَاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ ، وَمِنْ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ ، كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَا ، وَيُنْبِتُنَا إِذَا اسْتَنْبَأْنَا ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيْبِهِ إِيَّانَا ، وَتُقْرَبِهِ مِنَّا ، لَا نَسْكَادُ نَسْكَامَهُ لَهَيْبَتِهِ ، وَلَا نَبْتَدُّهُ لِعَظَمَتِهِ ، يُعْظَمُ أَهْلُ الدِّينِ ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ ؛ لَا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ ، وَلَا يَبْتَسِ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ . وَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتَهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ ، وَقَدْ أَرَخَى اللَّيْلُ سُدْرَهُ ^(٣) ، وَغَارَتْ نَجْمُوهُ ، وَقَدْ مَثَلَ فِي نَحْرِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ ، يَتَمَلَّلُ تَمَلُّلَ السَّلِيمِ ^(٤) ، وَيَبْكِي بِكَاءِ الْحَزَنِ ، وَيَقُولُ : يَا دُنْيَا غُرِّى غَيْرِى ، أَلِي تَمَرَّضْتِ ، أَمْ إِلَى تَشَوَّقْتِ ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أَقْدَ بَايْتِكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا ، فَمَمْرُكَ قَصِيرٌ ، وَخَطْرُكَ ^(٥) حَقِيرٌ ، آهٍ مِنْ قَلَّةِ الزَّادِ ، وَبُئْسَ السَّفَرُ ، وَوَحْشَةُ الطَّرِيقِ ! » فَبَكَى مَعَاوِيَةَ وَقَالَ : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الْحَسَنِ ، فَلَقَدْ كَانَ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ حَزَنُكَ عَلَيْهِ يَا ضِرَارُ ؟ قَالَ : حَزَنٌ مِنْ ذُبْحِ وَاحِدِهَا فِي حَجْرِهَا .

(الأمالي ٢ : ١٤٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن

أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

(١) صدام كغراب : حتى باليمن . (٢) الغاية . (٣) السدول : جمع سدل بالضم والسكر ، وهو الستر . (٤) السليم : الملدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى اليبداء مفازة : تفاؤلاً بالفوز . (٥) الخطر : القدر .

الوافدات على معاوية

٣٦٧ - وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وَقَدَّتْ سَوْدَةُ بِنْتَ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْتَرِ الْهَمْدَانِيَّةَ ، عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ فَأْذِنَ لَهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَلَّمَتْ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ الْأَشْتَرِ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ الْقَائِلَةُ لِأَخِيكَ يَوْمَ صَفَيْنَ ؟ :

شَمَّرْتُ كَفَيْلَ أَبِيكَ يَا بِنْتَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْنِ وَمُلْتَقَى الْأَقْرَانِ
وَأَنْصُرُ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدُ لِهِنْدٍ وَابْنِهَا سِهَوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخُو النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلِمَ الْهَدَى وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ
فَقَدَّ الْجِيُوشَ وَسِرَّ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدَّمَا بِأَبِيضَ صَارِمٍ وَسِنَانَ^(١)

قَالَتْ : إِي وَاللَّهِ ، مَا مِثْلِي مِنْ رَغِبٍ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ اعْتَذَرٍ بِالْكَذِبِ ، قَالَ لَهَا :
فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : حُبُّ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَرَى
عَلَيْكَ مِنْ أَثَرِ عَلِيٍّ شَيْئًا ، قَالَتْ : أَنْشُدْكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِعَادَةَ مَا مَضَى ، وَتَذْكَارَ
مَا قَدْ نَسِيَ ، قَالَ : هِيَهَاتَ ! مَا مِثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وَمَا لَقِيتُ مِنْ أَحَدٍ مَا لَقِيتُ
مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِيكَ ، قَالَتْ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ أَخِي حَقِيَّ الْمَقَامِ ،
ذَلِيلَ الْمَسْكَنِ ، وَلَسَكِنْ كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارًا^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفي بلاغات النساء : « فقه الختوف وسر أمام لوائه » .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقتِ ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأسُ وَبِتَرَ الذَّنْبِ ، وبالله
 أسأل أمير المؤمنين إغفائي مما استعقبتُ منه ، قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتك ،
 قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّداً ، ولأموهم مُتَقَلِّداً ، واللهُ سألتُك
 عن أمرنا وما افترض عليك من حَقَّنَا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ
 سُلْطَانِكَ ، فيحصدُنا حِصَادَ السَّنْبُلِ ، ويدوسنا دِياسَ^(١) البقر ، وَيَسُوْمُنَا^(٢) الخسيسة ،
 وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرطاة^(٣) قَدِمَ بلادِي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعةُ
 لكان فينا عِزَّةٌ وَمَنَعَةٌ ، فإِذَا عَزَلْتَهُ عَنَّا فاشكرناك ، وإِذَا لَاقَ فَعَرَفْنَاكَ ، فقال معاوية :
 يَا أَيَّ تَهْدِيدِينَ بِقَوْمِكَ ؟ والله لقد هممت أن أُحِلِّكَ على قَتَبِ^(٤) أشرس فأردك إليه ،
 يُنْفِذُ فِيكَ حَكْمَهُ ، فأطرقت تبكي ، ثم أنشأت تقول :

صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى رُوحِهِ تَضَمَّنَهُ قَبَّرَهُ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونَا
 قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ نَمْنَا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونَا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبي طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك
 حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيتته يوماً في رجل ولاء صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه
 ما بين الغث^(٥) والسمين ، فوجدته قائماً يُصَلِّي ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال برأفة

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . (٢) يكلفنا . (٣) هو بسرين أُرطاة ،
 وقيل ابن أبي أُرطاة ، وكان معاوية في أيام على سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار
 إلى المدينة ، ففعل بها أفعالاً شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب
 عبيد الله فزها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقم ابن عبيد الله وهما صغيران بين يدي أمهما عائشة بنت عبد المطلب ؛
 فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحسن بنبيي اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
 يا من أحسن بنبيي اللذين هما سمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم مختطف
 يا من أحسن بنبيي اللذين هما مخ العظام ؛ فحفي اليوم مزدحف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجازة

أو الأشرس : الحشن الغليظ . (٥) الغث : المهزول .

وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنى لم أمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَ تَكْمُ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْتُوا ^(٢) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ .»

فأخذته منه والله ما خزمه بخزّام ، ولا ختمه بختّام ^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألى خاصة ، أم لقوى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللّوم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قوى ، قال : هيهات ! لمظكم ^(٤) ابن أبي طالب الجرّاة على السلطان فبطيئا ما تفتطمون ، وغرّ كم قوله :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامٍ

وقوله :

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُمْلَقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ ^(٥)

كَأَلْهِنْدُؤَانِي لَمْ تُفَلِّ مَضَارِبُهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَابٍ ^(٦)

اكتبوا لها ولقومها . (المقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

(١) القسط : العدل . (٢) عثا يمثو عثوا : أفسد . (٣) الخزام جمع خزامة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزامة النمل : سير وقيق يخزم بين الشراكين . الختام : الطين يتحم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع على الطينة) . (٤) التلمظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فم بعد الأكل ، يتتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقى في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لظ فلانا (بالتشديد) لماظة : أى شيئا يتلمظه ، ولظنه من حقه شيئا : أعطاه (والعامة تبدل الظاء ضادا) . (٥) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٦) سيف هندوانى بكسر الهاء ، ويجوز ضمها إتباعا لئلا لدال منسرب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيبا إذا خفق .

٣٦٨ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاما من بني ليث في جناية جناها ، فأنته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت خَيْشَمَةَ^(١) للمذحجِيَّة ، فكلمته في الغلام فأغلظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانسبت فعرفها ، فقال لها : مَرَحِبًا بك يا بنت خَيْشَمَةَ ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتُك نَشْتَمِينَا^(٢) وَتَحْضِين عَلَيْنَا عدونا ؟ قالت : إن ابني عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهُون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى النَّاسِ باتِّباع ما سنَّ آباؤهُ لأنت ، قال : صدقتِ ، نحن كذلك ، فكيف قولك ؟

عَزَبَ الرَّفَادُ ، فَمَقَلْتِي لَا تَرَفُدُ وَاللَّيْلُ يُصَدِّرُ بِالْمُومِ وَيُورِدُ^(٣)
 يَا آلَ مَذْحِجٍ ، لَا مُقَامَ ، فَشَمِّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لِيَّالٍ أَحَدًا يَقْصِدُ
 هَذَا عَلَى كَلْمٍ لَلْأَلِّ لَتَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ السَّكْوَاكِبِ أَسْعُدُ^(٤)
 خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِيكُم بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
 مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ
 قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خالقاً بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الحسين فلم تزلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيَا مَهْدِيَا
 فاذهب ، عليك صلاة رَبِّكَ مادعتْ فَوْقَ الْعُصُوفِ حَمَامَةٌ قَمْرِيَا^(٥)

(١) في صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : وتحريره : ما ذكرنا . (٢) وفي بلاغات النساء : « تشنين قربي » أي تبغضين . (٣) عزب : بعد . (٤) سعود النجوم هشرة : سعدي بلغ (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ، وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهمام كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مضر . وهذه الستة ليست من المنازل . (٥) ضرب من الحمام والجمع قارى .

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفيّاً
واليوم لا خلف يومئذ بعده هيهات تأمل بعده إنسياً
قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننناه ،
لحظك الأوفر ، والله ما أورتك الشنآن^(١) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض
مقاتلهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ، ومن المؤمنين
حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : ياسبحان الله ، والله ما مثلك من مدح
بيأطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله
على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك قال : بمن ؟ قالت : من مروان
ابن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حلك ،
وكريم عفوك ، قال : وإنهما يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل
ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى^(٢) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبنتك^(٣) بالمدينة تبنتك من لا يريد منها البراح ،
لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أحسن من الحجر ، وألقمته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو
أولى بالعموم ، فأنتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه معدياً^(٤) ،
قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت :
يا أمير المؤمنين ، وأني لى بالرجعة ، وقد نفذ زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها براحلة
موطأة ، وخمسة آلاف درهم .

(المقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

(١) البفض . (٢) تريد أنهما بإعلان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . (٣) تبنتك
به : أقام . (٤) أعداد عليه : نصره ، وأعانه ، وقواه .

٣٦٩ - وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسننت ، وعشيت^(١) بعصرها ، وضعفت قوتها ، ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فردا عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غيرك الدهر ، قالت : كذلك هو ذو غير^(٢) ، من عاش كبير ، ومن مات قبير ، قال عمرو بن العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدا دونك فأحتقر من دارنا سيفا حساما في التراب دفيننا
قد كنت أذخره ليوم كربيه فاليوم أبرزه الزمان مصونا
قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أرى ابن همد للخلافة مالكا هيمات ، ذاك - وإن أراد - بعيدا
ممنك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيدا
قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فأله آخر مدتي فتطاوت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عابا

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ، فقصر نخجني^(٣) ، وكثر عجبني ، وعشيت بصري ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، وما حفي عليك مني أكثر ، فامض لشأنك ، فلا خير في العيش بعد

(١) ضعف . (٢) ذو أحداث . (٣) تناوبتي وتداولتي ، والمجن : للعصا المطوقة الرأس .

أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس بمنعنا ذلك من برِّك ، اذكرى حاجتك ،
قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلدّها .

(المقد الفريد ١ : ١٣٠/ ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

٣٧٠ - وفود أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها
معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنتِ بعدنا ؟ فقالت : « يا بن أخي ،
لقد كفرت يدّ النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت
غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم
بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعسّ الله منكم الجُدود^(١) ، وأضرع^(٢) منكم
الخدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا
صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوليتم علينا من بعده - وتحتجّون بقرابتكم من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنو إسرائيل
في آل فرعون ، وكان عليّ بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلّم بمنزلة
هرون من موسى^(٣) ، ففايدنا الجنة ، وغايتم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، وأقصرى من قولك ، وغضى

(١) جمع جد : وهو الحظ . (٢) أذل ، وفي بلاغات النساء « وأصر » . (٣) ورواية
بلاغات النساء : « فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، وفضيباً وقدرًا ، حق قبض الله نبيه صلى
الله عليه وسلم ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عنه الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم
موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا
بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَا بَنِي أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْا نِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُوْا نِي »
ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وصر .

من طرفك، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يا ابن الآخفاء^(١) النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اربح على ظلمك ، واغن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الأبواب من حسبها ، ولا كريم منصّبها ، ولقد ادعاك خمسة^(٢) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أثنائي ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فلحقت به ، ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبد عاهر^(٣) ، فأتم بهم فإنك بهم أشبه .

فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، سأخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلاًة أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه في زُرقة عينيك ، وُحْمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته^(٤) ، ولقد رأيت الحكم ما ذ^(٥) القامة ، ظاهر الإمة^(٦) ، سببط^(٧) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب^(٨) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك ، وإن أمك للقائلة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزينناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سمر^(٩)
ما كان عن عتبة لي من صبر أبي وعمي وأخي وصهري^(١٠)

(١) رجل ألحن وأمة الخناء : لم يختن ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون يادني الأصل ، أو يانيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت - انظر ص ٢٥ . (٢) وفي بلاغات النساء « ستة » . (٣) فاجر . (٤) الدمامة : القبح . (٥) مندها . (٦) الإمة بالسكرو يضم : الشأن والتممة والميثة . (٧) طويلة . (٨) الأتان : الحمارة ، والمقرب التي قرب ولادها فيكون بطنها كبيراً . (٩) السمر بالفتح مصدر سمر الحرب : أي أوقدها ، وبالضم : الجنون . (١٠) قتلوا أربعمهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قيل اشترك في قتله هل ، وحمزة ، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب - وعمها شيبة بن ربيعة - قتله حمزة - وأخوها الوليد بن عتبة - قتله علي - وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان - وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعلي ، وزيد بن حارثة - .

شَفَيْتَ (وَخَشِيْتُ) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي (١)
فَشُكْرُ وَخَشِيٍّ عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرِمَّ أُعْظَمِي فِي قَبْرِي (٢)

فأجبتها :

يَابْنَتِ جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكُفْرِ خَزَيْتِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْمَاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ (٣)
بِكُلِّ قَطَاعِ حُسَامٍ يَفْرِي حَمَزَةَ لَيْثِي ، وَعَلِيَّ صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمرو : وَيَلَسْكَ ! إِنَّمَا عَضَّتْهَا لَهَا ، وَأَسْمَعْتَانِي مَا أَكْرَهُ ،
ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ أَقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ ، وَدَعِي عَنكَ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ ، قَالَتْ :
تَأْمُرُ لِي بِأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، قَالَ : مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَرْخَارَةً (٤) فِي أَرْضِ خَوَّارَةَ (٥) ، تَكُونُ لَوْلَدِ الْحَارِثِ بْنِ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : نَعِمَ الْمَوْضِعُ وَضَعْتَهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَرْوِّجُ بِهَا
فَتَيَانَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ مِنْ أَكْفَانِهِمْ ، قَالَ : نَعِمَ الْمَوْضِعُ وَضَعْتَهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى عُسْرِ الْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، قَالَ : نَعِمَ الْمَوْضِعُ
وَضَعْتَهَا ، هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ (٦) ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عَلِيٌّ مَا أَمَرَ لَكَ بِهَا ،
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، إِنْ عَلِيًّا أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَأَخَذَ بِهِ ، وَأَنْتِ ضَمِيعَتِ
أَمَانَتِكَ ، وَخُنْتُ اللَّهَ فِي مَالِهِ ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ
الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا وَبَيْنَهَا ، فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا ، وَدَعَا نَا (أَيَّ عَلِيٍّ) إِلَى أَخْذِ حَقِّهَا ، الَّذِي فَرَضَ

(١) وحشي : غلام جبیر بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . (٢) رم العظم كضرب وأرم : بل فهو رميم .

(٣) الزهر : الحسان البيض الوجوه . (٤) الخرخار : الماء الجاري ، أي عين ماء جارية .

(٥) المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوار اللنان ، أي سهل المعطف ، كثير الجرى .

(٦) يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعم بفتحهم ، ونعمى ونعمای ونعام ونعم بضمهم ، ونعمة

ونعام بكسرهما : أي أفضل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

الله لَنَا فَشَدَّ بِحَرْبِكَ عَنْ أُمُورٍ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّاهُ بِهِ ،
 إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّهَا ، وَلَا نَرَى أَحَدًا شَيْءٌ غَيْرَ حَقِّهَا ، أَتَذَكِّرُنَا عَلِيًّا ؟ فَضَّ اللهُ فَالِكَ (١) ،
 وَأَجْهَدُ بِلَاءِكَ ، ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبَ عَلِيًّا ، فَأَمْرُهَا بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ
 لَهَا : يَا عَمَّةُ : أَنْفِقِي هَذِهِ فِيمَا تُحِبِّينَ ، فَإِذَا احْتَجَجْتَ فَأَكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ صَفَدَكَ (٢)
 وَمَعُونَتِكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ . (المقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٧١ - أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة
 دروع (٣) (بُرُودٍ) تَسْحَبُهَا ذُرَاعًا ، قَدْ لَانَتْ (٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوْرًا كَالْمِنْسَفِ ،
 فَسَلَّمَتْ وَجَلَسَتْ ، فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلْدٍ ، وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ،
 قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارَمَا ذَا رَوْنَقٍ عَضِبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْحَوَارِ (٥)
 أَسْرَجَ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسْمَرًا لِلحَرْبِ غَيْرَ مُعَرِّدٍ لِفِرَارِ (٦)
 أَحِبَّ الْإِمَامَ وَذُبَّ نَحْتِ لَوَائِهِ وَالْتَقِ الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بِتَّارِ
 يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : « عَفَا اللهُ عَنْمَا سَلَفَ ،
 وَمَنْ عَادَ قَبِلْتَقِيمُ اللهُ مِنْهُ » قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولكنه

(١) تدعو عليه: أي نثر الله أسنانك . (٢) الصفد: العطاء . (٣) درع المرأة: قيصها
 (مذكر) ودرج الحديد مؤنث وقد يذكر . (٤) اللوث: عصب العمامة ، والكور: لوث العمامة
 وإدارتها ، والمنسف: ما ينقض به الحب ، شيء طويل منصوب الصدر أعلاه مرتفع . (٥) العضب:
 السيف القاطع ، والحوار من خار: إذا ضعف وكل . (٦) عرد تعريدا ، وعرد كسيع: هرب .

اخْتَرِمَ^(١) منك ، قالت : أجل ، والله إني لعلی بئنة من ربي ، وَهَدَى من أسرى ، قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أَنَسَيْتُهُ ، قال بعض جلسائه : هو والله حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة فدحت ، فليس مُصَابِهَا بالخائل^(٢)
الشمس كاسفةً لفقْدِ إمامنا خير الخلائق والإمام العادل
ياخيرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ وَمَنْ مَشَى فوق الترابِ لِخَيْفٍ أو ناعِلِ
حاشا النبي لقد هددت قُوءاءنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فقال معاوية : فانك الله ! فما تركت مقالا لقائل ، اذ كرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ، وقامت فقأرت ، فقالت : تَمَسَّ شَانِي عُلَى^(٤) ، فقال : زَعَمْتَ أَنْ لَا ، قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال : إذا ضيعتُ الحلم فن يحفظه ؟

(صبح الأمل : ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٧٢ - دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَجَّ معاوية سَنَةً من سِيْذِهِ ، فسأل عن امرأة من بنى كِنانة كانت تنزل بالحجون^(٥) ، يقال لها دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فحى بها ، فقال : ما حالك يا بنة حام ؟ فقالت : لست لحام إن عبتني ، إنما أنا امرأة من بنى كِنانة ، ثم من بنى أبيك ، قال : مددت ، أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك : علام أحببت علياً وأبغضتني ، وواليتيه وعاديتني ؟ قالت : أو تُغْفِرني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أنفك ،

(١) هلك . (٢) المتحول : المتغير . (٣) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرورة .

(٤) أى مبنضه . (٥) الحجون : جبل بمحلة مكة .

قالت : « أما إذ أبيت فإني أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتك^(١) ما ليس لك بحق ؛ وواليتُ علياً على ما عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء^(٢) ، وعلى حبة المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك في القضاء ، وحكك بالهوى »

قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثديك ، ورَبَّتْ عَجِيْرَتُكَ ، قالت : يا هذا بهنْدِ^(٣) والله كان يُضْرَبُ اللثْلُ في ذلك لآني ، قال معاوية : يا هذه اربعي^(٤) ، فإننا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدها ، وإذا عظم ثديها تَرَوَى^(٥) رضيعها وإذا عظمت عَجِيْرَتُهَا رَزُنَ مجاسها ، فرجعت وسكنت ، فقال لها : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيتهُ ، قال : فكيف رأيتهُ ؟ قالت : رأيتهُ والله لم يفتنهُ الملكُ الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيتُ الطَّسْتُ من الصدأ ، قال . صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال . نعم ، قالت . تعطينى مائة ناقة حراء فيها فحلها وراعياها ، قل : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحبي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبى طالب ؟ قالت : ما ولا كصداء^(٦) ،

(١) الطلبة : الطلب . (٢) تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

(٣) هى أمه هند بنت عتبة . (٤) ربيع : وقف وانتظر وتحبس . (٥) ارتوى .

(٦) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . وروى عن ابنة هانىء بن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارعة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : ما استحسننت من لقيط ؟ قالت : كل أمورهِ حسن ، ولستنى أحذرك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد ابتنى بى ، فرجع إلى ، وبقيصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمنى ضمة ، وشمئى شمة ، فليتئى متئمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ما ولا كصداء .

وَمَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(١) ، وَفَتَى وَلَا كَاللَّيْلِ^(٢) ، سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ دُونَهُ ، فَأَنْشَأَ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحَلْمِ مِنْكَ عَلَيْهِمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤَمِّلُ لِلْحَلْمِ
خُذِيهَا هَنِيئًا ، وَإِذَا كَرَى فَعَلْ مَا جِدَّ جِزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعِدَاوَةِ بِالسَّلْمِ
نَمَّ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ عَلَيَّ حَيًّا مَا أَعْطَاكَ مِنْهَا شَيْئًا ، قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ
وَلَا وَبَرَّةٍ وَاحِدَةً مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

(العقد الفريد ١ : ١٣٢ وصباح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٧٣ — شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ وَمَعَاوِيَةُ

وَأَمْرَ مَعَاوِيَةَ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِيُّ أَنْ يَتَنَقَّصَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَجَمَلَ رِضَاهُ عِنْدَ أَهْلِ التَّقْوَى آثَرَ مِنْ رِضَا خَلْقِهِ ، عَلَى ذَلِكَ مَضَى أَوْلَهُمْ ، وَعَلَيْهِ يَمُضَى آخِرُهُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ الْآخِرَةُ وَعَدُّ صَادِقٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلَكٌ قَادِرٌ ، وَإِنْ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبُخْرُ وَالْفَاجِرُ ، وَإِنْ السَّمَاعُ الْمَطِيعُ لِلَّهِ لَاحِجَةٌ عَلَيْهِ ، وَإِنْ السَّمَاعُ الْعَاصِيَّ لِلَّهِ لَاحِجَةٌ لَهُ . وَإِنْ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاؤُهُمْ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فِقْهًاؤُهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ سُمْحًاؤُهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفْهًاؤُهُمْ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًاؤُهُمْ ،

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، وأوله من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ؛ ففرجت عنها وهي تنشدهم مرثى في أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟ قالت : أبسى سادة مضوا ؛ قالت : فأنشديني بعض ما قلت ؛ فأنشدها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ثم أنشدها مارثت به أخاها صخرًا . وقيل إن المثل لامرأة من طيبىء كان تزوجها امرؤ القيس بن حجر الكنتنى وكان مفركا (يفتح الراء تبغضه النساء) فقال لها : ابن أنا من زوجك الأول ؟ فقالت : مرعى ولا كالسعدان . (٢) قاله متم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة تصرب للشئ يفضل على أقرانه

وملك المالَ مُبْخَلَاؤُهُمْ ، وإن من صلاح الوِلاَةِ أن يصلُحَ قَرَنَاؤُهَا، وَنَصَحَ لَكَ يَا مَعَاوِيَةَ مَنْ أَسْخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مِنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قال : اجلس رحمتك الله قد أمرنا لك بمال ، قال : « إن كان من مالك الذي تعهدت بجمعته تخافة تبعته ، فأصبتته حلالا ، وأنفقته إفضالا ، فنعمم ، وإن كان مما شاركك فيه المسلمون ، فأحتججته^(١) دونهم ، فأصبتته افترافا ، وأنفقته إسرافا ، فإن الله يقول في كتابه : « إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

* * *

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أفضل ، أم عليّ ؟ وأينا أحبُّ إليك ؟ » ، فقال : « عليٌّ أقدمُ هجرةً ، وأكثرُ مع رسول الله إلى الخير سابقاً ، وأشجعُ منك قلباً ، وأسلمُ منك نفساً ، وأما الحب ، فقد مضى تليّ ، فأنت اليوم عند الناس أرجى منه » .

(ميون الأخبار ٢ م : ص ٢١١)

٣٧٤ - معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كان أجمل قومك ، حين ملكوا عليهم امرأة » ، فقال : « بل قومك أجمل ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، وأراهم البيئات : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ، ألا قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا لَهُ ! » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٣٧٥ - حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد المدان

سأل معاوية بعد الاستقامة^(١) عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد المدان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسى ، قال : ما تقول فى مراد ؟ قال : مذكرُ الأوتار ، وحمأة الدمار ، ومخزروا الخطار^(٢) ، قال : فما تقول فى النخع ؟ قال : مانعُ السرب^(٣) ، ومُسِيرُ الحرب ، وكاشفُ الكرب ، قال : وما تقول فى بنى الحرث ؟ ابن كعب ؟ قال : فَرَّاجُ الأَسْكَك ، وفُرْسَانُ العِرَاك ، وَلِزَازُ الضَّكَاك ، تَرَكَ^(٤) تَرَكَ ، قال : فما تقول فى سعد العشيرة ؟ قال : مانعُ الضَّيْم ، وبَانُو الرِّئِم ، وشافُو النِّيم^(٥) ، قال : ما تقول فى جُعْفَى ؟ قال : فُرْسَانُ الصَّبَاك^(٦) ، وَمُعْلُو الرِّمَاح ، وَمُبَارِزُ الرِّيَاح ، قال : ما تقول فى بنى زبيد قال : كُفَاةُ أنجَاد^(٧) ، سادات أنجاد ، وقُرْعُند الذِّيَاد^(٨) صُبْرٌ عند الطَّراد ، قال : ما تقول فى جَنب ؟ قال : كُفَاةُ يَمْنَعُونَ عن الحريم ، وَيَفْرِجُونَ عن الكَطِيم^(٩) ، قال : فما تقول فى صُدَاء ؟ قال : سِمَامُ الأَهْدَاء ،

(١) أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . (٢) جمع وتر : وهو الثَّار ؛ والذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته ؛ والخطار : جمع خطر بالتحريك ، وهو السبق يتراهن عليه . (٣) السرب : مارعى من المال . (٤) الأَسْكَك : الزحام ؛ ومثلها الضككاك ؛ ولززه كرده : شده وألصقه والمزاز ككتاب : خشبة يلز بها الباب ؛ وفلان لزاز المعظام : أى يلز بها ويقرن ليذالها ومنه قول لبيد :

إننا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جسامها

وترك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتنظيم ، أى دِعْ هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم فى أسمى

مكان . (٥) الريم : الدرجة والفضل والزيادة ، والنيم : العطش . (٦) الغارة .

(٧) ضببط فى الأمال بفتح الزاى ، وهو خطأ ، زبيد كزبير : بطن من مذحج ، رهط عمرو بن معديكرب

وكأمير : بلد باليمن ، وكما جمع كى : وهو الشجاع أو لابس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشمهم وكتف ورجل :

الشجاع الماضى فيما يمجز غيره . (٨) قر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والذيادة والذود : الذفع .

(٩) الكطيم والمكظوم : المكروب .

وَمَسَاعِيرُ الْهَيْجَاءِ^(١) ، قال : فما تقول في رَهَاءٍ ؟ قال : يُنَهْنِهون^(٢) عادية الفوارس ،
وَيَرِدُونَ الْمَوْتَ وَرَدَّ الْخَوَامِسِ^(٣) قال : أنت أعلم بقومك .

(الأمالي ١ : ١٦٠)

٣٧٦ - حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ،
وما صنع بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لداتي^(٤)
وأوهي عمادي ، وشيب سوادى ، وأسرع في تلامي^(٥) ، ولقد عشتُ زمناً أصبى
الكماب^(٦) ، وأسرت الأحاب ، وأجيد الضراب^(٧) ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ،
وأنشأ يقول :

غَبَرْتُ زَمَانًا يَرَهَبُ الْقَرْنَ جَانِبِي كَأَنِّي شَدِيمٌ بَاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ^(٨)
يَخَافُ عَدُوِّي صَوْلَتِي وَبِهَا بِنِي وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ
وَتَضْبِي الْكِمَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي كَأَنِّي غَضْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ نَاضِرُ^(٩)
فَبَانَ شَبَابِي وَاعْتَرَنِي رَثِيَّةٌ كَأَنِّي قِنَاةٌ أَطْرَتْهَا الْمَاطِرُ^(١٠)
أَدِبٌ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي لَدَى الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ^(١١)
وَقَصْرُ الْفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتُ كِلَاهِمَا لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ
وَكَيفَ يَلْدُ الْعَنْشُ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا رَهِينَ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ

(١) الهيجاء : الحرب ، وهو مسمر حرب (كدرهم) أى موقد نارها . (٢) يكفون .

(٣) الخمس بالكسر : أن ترعى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهى إبل خوامس .

(٤) اللدة : من ولد مملك . (٥) التلاد : المال القديم .

(٦) كمب ثلبى الجارية : نهد ، وهى كاصب وكماب . (٧) ضرب الفحل ضراباً : نكح .

(٨) القرن : كفؤك فى الشجاعة أو هام . والشتم : الأسد العابس ، والخدر : أجمة الأسد . ومنه

أسد خادر . (٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (١٠) الرثية : وجع المفاصل واليدين

والرجلين . والأطر والتأطير : عطف الشيء ، وتأطر الرمح : تثنى واعوج . (١١) القرم : الفحل .

فقال معاوية: أحسنت القول! واعلم أن لها مصادر، فنسأل الله أن يجعلنا من المصادرين بخير، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يُصدرنا عنها وهو راضٍ.
(الأمال ٢ : ٩٤)

٣٧٧ - حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري: بأى شيء سُدَّتَ قومك يا عرابة؟
قال: أخبرك يا معاوية بأنى كذبت لهم كما كان حاتم لقومه. قال: وكيف كان؟
فأنشدته:

وأصبحتُ في أمرِ العشيرةِ كلِّها كذبي الحِلْمُ يُرَضَى ما يقولُ ويُعرفُ
وذاك لأننى لأعادي مَرَّاتِهِمْ ولا عن أخى ضَرَّاتِهِمْ أتُنكِّفُ^(١)
وإني لأعطي سائلي، ولرَّيِّمًا أ كَلَّفُ ما لا أستطيعُ فأُكَلِّفُ
وإني لمذمومٌ إذا قيل: حاتم نبا نبوةً، إن الكريمُ يُعَنِّفُ
ووالله إني لأعفو عن سفيهم، وأحلمُ عن جاهلهم، وأسى في حوائجهم، وأعطي
سائلهم، فمن فعل فملى فهو مثلى، ومن فعل أحسن من فملى فهو أفضل منى،
ومن قَصَّرَ عن فملى فأنا خير منه، فقال معاوية: لقد صدق الشماخ حيث
يقول فيك:

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رُفِيت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمن
(الأمال ١ : ٢٧٧)

(١) أى امتنع منه وآنف.

٣٧٨ - سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واضطنمك ، حتى بلأعك باصطناعه إياك اللدى الذى لا يُجَارى ، والغاية التى لاتُسَامى ، فما جازيت أبى بالآئنه ، حتى قدّمتَ هذا طلىّ ، وجعلت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يا بن أخى من تواتر الآئكم علىّ ، وتظاهر نغمائكم لدىّ ، فقد كان ذلك ، ووجب علىّ المسكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شفيت حَزَازَاتُ الصدور ، ونجّمت تلك الأمور ، ولستُ لنفسى باللأئم فى التشمير ، ولا الزّارى^(١) عليها فى التفسير ، وذكرت أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ، أكرم كريماً وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رجّاه ، وذكرت أن أمك خير من أمه ، فلعمرى إن امرأة من قریش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرت أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن القُوطة^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : « مه يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدالّة عليك ، واستعقبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأجمل له فى ردك ، وأجمل على نفسك وواه خُراسان بشفاعتى ، وأعفه بما يظهر به مؤزوثه » ، فولاه معاوية خُراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٩ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجفَ به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم على ذلك ثم تمائل^(١) ، وهم في إرجافهم ، حمل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرأفاً من مرأق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أتى الحوادثُ من خيلك مثلَ جندلة الراجم^(٢)

صُلِباً إذا خار الرجا لُ أبلٍ ممّنع الشكائم^(٣)

قد رامني الأعداءُ قبلك فامتنعتُ من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أتى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وحِلماً راجحاً ، وكلاً ومرعى لأوليائك ، وسماً ناقعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقبل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه كبير وضعف ، والله لقد غمزني غمزة كاد يحطمني ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضواً مني .
(زهر الآداب ١ : ٥٧ والأمل ٢ : ٣١٥)

٣٨٠ - روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلَّى معاوية رَوْحَ بنِ زِنْبَاعٍ ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ فِي جُنَايَةٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِالْقَدُومِ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَمْرٌ بِضَرْبِهِ بِالسِّيَاطِ ، فَلَمَّا أَوْقِمَ لِيُضْرَبَ قَالَ : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بِنَيْتِهِ ، أَوْ أَنْ تَضَعَ مِنِّي خَسِيصَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا أَوْ تُشِمَّتْ بِي عَدَاؤُ أَنْتَ

(١) تمائل الليل : قارب البره . (٢) الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

(٣) الأبل : الممتنع ، والألد : الجدل ، والشكائم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة

وقوم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لاينقاد .

وَقْتِهِ ^(١) ، وَأَسَأْتُكَ بِاللَّهِ إِلَّا آتَى حُلْمُكَ وَعَفْوُكَ دُونَ إِفْسَادِ صِنَائِمِكَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ :
« إِذَا اللَّهُ سَتَى عَقْدُ أَمْرٍ تَيْسَّرًا » خَلُّوا سَبِيلَهُ .

(الأمال : ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٨١ - مَخَاصِمَةُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ بَدِيِّ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ

جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعَاءَهُ ، وَحِجْرِي فِنَاءَهُ ، وَتَدْبِي سِقَاءَهُ ^(٢) ، أَكَلُوهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَيْ فِصَالَهُ ^(٤) ، وَكَمَلْتُ خِصَالَهُ ، وَاسْتَوَكَمْتُ ^(٥) أَوْصَالَهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرَهًا ^(٦) ، فَأَدِنِي ^(٧) أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدَرَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) » .

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ عَلِيَّ ، وَأَهْمِيهِ حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكَمَ فَتْلَهُ » .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفَاءً ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتُهُ شَهْوَةً ، وَوَضَعْتُهُ كَرَهًا » .

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْدُدْ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلَدَهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِهَ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ سَجْمِكَ أَوْ قَالَ : « إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَاقِلَةٌ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، فَادْفَعْ ابْنَهَا إِلَيْهَا ، فَأَخْلِقْ أَنْ تُحْسِنَ أَدَبَهُ » .
(الأمال : ٢ : ١٤ ، وأمال السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

(١) وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كَيْتَهُ » . (٢) السقاء : جلد السمخلة يكون للماء واللبن . (٣) أرماءه . (٤) فطامه . (٥) اشتدت ومنتت . (٦) الإياء والمشقة بالفتح والضم ، أو بالفتح : ما أكرهك غيرك عليه ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه . (٧) آداه على قتلان : آداه وأعانه . (٨) الإكراه . (٩) الخلف : الخفيف .

٣٨٢ - صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :

قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سفيان ، وأقر بهم مجلسا ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فبينما هو ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قريش وأشرف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقيبا على العباد ، يُستسقى بك المطر ، و يُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، ويرُدَع بك الجانف^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة في غير تعبير ، والعافية من غير تعذير^(٢) . قد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمر ضاق علي فيه المنهج ، وتفاقم علي منه المخرج ، لأمر كرهت عاره^(٣) ، كما خشيت إظهاره ، فليُنصِفني أمير المؤمنين من الخصم ، فإني أعوذ بمقوته^(٤) من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتد على الحرائر ، ذوات البعول الأجائر^(٥) ، فقال لها معاوية : ومن بملك هذا الذي تصفين من أمره المنكر ، ومن فعله المشهر^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا الأسود : ما تقول هذه المرأة ؟ فقال أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضا ، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقصا ؛ أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق ، وأنا نخبير أمير المؤمنين عنه بالصدق ، والله يا أمير المؤمنين ما طلقها عن ريبسة

(١) المائل : الجائر . (٢) أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعليلا : إذا قصر ولم يجتهد

(أو من غير تشويه ، من عذر الشيء : لطمه بالمدرعة كفرحة) . (٣) تسكنى بذلك من طلاقها .

(٤) المقوة : ماحول الدار . (٥) البعول والبعوات : جمع بعول وهو الزوج ، والأجائر : جمع

أجور ، أفعل تفضيل من جار . (٦) شهره كمنه ، وشهره بالتشديد : أظهره في شنة .

ظهرت ، ولا لأى هفوة حضرت ، ولكنى كرهت شمائلها ، فقطعتُ عنى حبايلها ، فقال معاوية : وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إنك مهيجها على بجواب عتيد^(١) ، ولسان شديد ، فقال معاوية : لا بد لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها ، فقال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، إنها كثيرة الصخب ، دائمة الذرب^(٢) » ، مهيبة للأهل ، مؤذبة للبعل ، مُسيئة إلى الجار ، مُظهرة للعار ، إن رأيت خيرا كتمته ، وإن رأيت شرا أذاعته » ، فقالت : « والله لولا مكانُ أمير المؤمنين ، وحضورُ من حضره من المسلمين ، لرددتُ عليك بوادِر كلامك ، بنوافذ أقرعُ بها كلَّ سهامك^(٣) » ، وإن كان لا يحملُ بالمرأة الحرّة أن تشتمَ بَعلا ، ولأن تُظهر لأحدٍ جهلا » ، فقال معاوية : عزمتُ عليك لما أُجبتُه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، ما علمتُه إلا سَتُولا جَهُولًا ، مُلِحًا بَخِيلًا^(٤) » ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن سكت فذو دغائل^(٥) ، ليث حين يأمن ، وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يُضاف^(٦) ، إن ذكر الجود انقمع^(٧) ، لما يعرف من قصر رِشائه^(٨) ، ولو لم آباؤه ، ضيقه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحفظ جاراً ولا يحصى ذمّاراً ، ولا يُدرك نارًا ، أكرم الناس عليه من أهانه ، وأهونهم عليه من أكرمه » ، فقال معاوية : سبحان الله لما أتاني به هذه المرأة من السجع ! فقال

(١) حاضر مهياً . (٢) الصخب : شدة الصوت ، والذرب : حدة اللسان وبنائه .

(٣) البوادر : جمع بادرة ، وهى ما يبدو من حدثك فى الغضب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بجمع نافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع . (٤) وكان أبو الأسود معروفًا بالبخل . ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك بخيل » فقال : « وماخير ظرف لا يمسك مافيه ؟ » وسلم عليه أعرابي يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال له : أتأذن فى الدخول ؟ قال : وراك أوسع لك ، قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قال : أطعمنى ، قال : هيالى أحق منك ، قال : مارأيت ألكم منك ! قال : نسيت نفسك . « أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ » .

(٥) دغائل : جمع دغيلة كسفيئة . والدغيلة والدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد .

(٦) ضافه يضيفه : زل عليه ضيفاً . (٧) انقمع : دخل البيت مستخفياً .

(٨) الرشاء فى الأصل : الخبل .

أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومن أكثر كلاماً من مطلقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَاحاً^(١) فتعالى أفضل بيدك وبينه بالقضاء .

فلما كان الرواح جاءت ومعهما ابنتها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تُعْجِلِ المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابني منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دعها تغل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حمله خفاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعت كرهاً ، إن بطني لو عاوه ، وإن ندي سقاؤه ، وإن حجري أفناؤه ، فقال معاوية : سبحان الله لما تأتين به ! فقال أبو الأسود : إنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها ، فقال معاوية : إنها قد غلبتك في الكلام ، فتكلفت لها أبياتاً لملك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مَرَحَبًا بِالتى تجورُ علينا ثم سهلاً بالحامل المحمول
أغلفتُ بابها على^٢ وقالت : إن خير النساء ذات البُمولِ
شملت نفسها على فراغاً هل سمعتم بالفارغ المشفولِ ؟

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصواب وبالحق كمن جار عن منار السبيلِ
كان ندي سقاؤه حين يضحى ثم حجري فئاؤه بالأصيلِ
لست أبعي وواحدى بابن حرب بدلاً ما علمته والخليلِ^(٢)

فأجابها معاوية :

ليس من غداه حيناً صغيراً وسقاه من نديه بخذولِ

(١) أى إذا كان الوقت رواحاً ، والرواح : العشى . (٢) أى أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد

صل الله عليه وسلم .

هِيَ أَوْلَىٰ بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَبِيهِ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ (١)
أُمُّهُ مَا حَفَّتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَىٰ بِحَمَلِ هَذَا الضَّمِيلِ (٢)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٨٣ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قَدِمَ الأحنف في وجوه أهل البصرة ، إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم أبو حاضر الأسيدي - وكان خطيبًا جميلًا - فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت فوالله لو دِدْتُ أَنْ لِي بِكُلِّ عَشْرَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ الدِّينَارَ بِالدَّرْهَمِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ لَدَا وَلَكَ مَثَلًا ، أَفْتِيَاذُنُ فِي ذِكْرِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « مَثَلُنَا وَمَثَلُكَ وَمِثْلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلُ الْأَعَشِيِّ حَيْثُ يَقُولُ :

عَلَّقْتُمَهَا عَرَضًا وَعَلَّقْتَ رَجُلًا غَيْرِي وَعَلَّقَ أُخْرَىٰ غَيْرَهَا الرَّجُلُ (٣)

أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَحْبَبْتَ أَهْلَ الشَّامِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدُ الْمَلِكِ

ابن مروان » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

٣٨٤ — كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خطيبًا من الأحاس (٤) إلى عبد الملك بن مروان ، فتكلموا ، فلما

انتهى الكلام إلى خطيب الأزدي ، قام فقال :

قَدْ عَلِمْتَ الْعَرَبُ أَنَّا حَيٌّ فِعَالٌ ، وَلَسْنَا بِحَيٍّ مَقَالٌ ، وَأَنَا نَجْزِي بِفِعْلِنَا عِنْدَ أَحْسَنِ

(١) الرحم: الرحمة والرفقة والتطف . (٢) في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ،

إذ يخل وزن البيت . (٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول مشددا) : أحبها . (٤) الحس كقفل : الأمكنة الصلبة جمع أحس ، ولقب به قريش ، وكنانة ، وجديلة ، ومن تابعهم في الجاهلية اتحمسهم في دينهم ، أو لانتجائهم بالحساء وهي الكمية ، وأحاس العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون .

قولهم ، إن السيوف لتعرف أ كُفنا ، وإن الموت لَيْسَتْ مَعَذِبُ أرواحنا ، وقد علمتُ الحربُ
الرَّبُون ، أَنَا نَقْرَعُ جِجَاحَهَا ، وَنَحْلِبُ صَرَاها^(١) « ثم جلس^(٢) .
(الأمال ٢ : ٢٥٩)

٣٨٥ - سؤال عبد الملك للعجاج وما أجاب به

ودخل العجاج^(٣) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاجُ : بلغني أنك لا تقدر
على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدَرَ على تشييد الأبنية ، أمكنه إخرابُ
الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزًّا يمنعا من أن نُظَلَمَ ، وإن لنا
حِلْمًا يمنعا من أن نُظَلِمَ ، فَمَلَّامَ الهِجَاءِ ؟ فقال : لَكَلِمَاتِكَ أشعرُ من شعرك ! فأنتى لك
عزٌّ يمنعك من أن تُظَلِمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحِلْمُ الذي
يمنعك من أن تُظَلِمَ ؟ قال : الأدب المُسْتَطَرَفُ ، والطبع التَّالِدُ ، قال : يا عجاج لقد
أصبحتَ حكيما . قال : وما يمنعني وأنا نجبي^(٤) أمير المؤمنين ؟ « .
(الأمال ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٨٦ - وفود العجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

لما ولي العجاج بن يوسف الحرَّمين بعد قتله ابنُ الزبير ، استخَصَّ إبراهيم بن محمد
ابن طلحة ، فقرَّبه وعظم منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج إلى عبد الملك بن
مروان ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يقصِّر له في برِّ وإعظام ، حتى حضر به عبد الملك ، فلما

(١) الصرى : بقية البن . (٢) وفي رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء زارند معاوية ، فذهبت في الخطب
كل مذهب ، قام صبرة بن شيان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حي فعال ، ولستا حي مقال ، ونحن نبلغ
بفعلنا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروي المبرد في الكامل هذا القول من صبرة
أيضا - انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ - ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيان من الأزدي - انظر الجزء
الأول ص ٤٣٦ . (٣) هو العجاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور ، مات سنة ٩٠ هـ . (٤) مسار .

دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام ، إلا أن قال له : « قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ الْحِجَازِ ، لَمْ أَدْعُ لَهُ بِهَا نَظِيرًا فِي الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبَوَةِ ، وَمَا بَلَوْتُ مِنْهُ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ الْمُوَازَرَةِ . وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، وَقَدْ أَحْضَرْتَهُ بِأَبِكَ ، لِيَسْتَهْلَ عَلَيْهِ إِذْنَكَ ، وَتَعْرِفَ لَهُ مَا عَرَفْتَنِي . » . قَالَ : أَذْكَرْتَنَا رَحِمًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غَلَامُ : إِذْنِي لِإِبْرَاهِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَدْنَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ طَلْحَةَ ، إِنْ أَبَا مُحَمَّدٍ (الْحِجَاجِ) ذَكَرْنَا مَا لَمْ نَعْرِفْكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبَوَةِ ، وَمَا بَلَآهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحَسَنِ الْمُوَازَرَةِ ، فَلَا تَدْعَنَّ حَاجَةً فِي خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَعَامَّتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَوَّلَ الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقَّ مَا قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آدَاءً ، وَلَكَ فِيهِ وَجْهَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيحَةٌ ، وَعِنْدِي نَصِيحَةٌ لَا أَجِدُ بُدًّا مِنْ ذِكْرِهَا ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا وَأَنَا خَالٍ ، فَأَخْلِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَرِدُ عَلَيْكَ نَصِيحَتِي ، قَالَ : أَدُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، دُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لِلْحِجَاجِ قَمِ- ، فَلَمَّا خَطَرَفَ ^(١) السُّتْرَ أَقْبَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : يَا بَنَ طَلْحَةَ قُلْ نَصِيحَتِكَ ، قَالَ : بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ عَاهَدْتُ إِلَى الْحِجَاجِ فِي تَقَطُّرُسِهِ وَتَعَجُّرُفِهِ ، وَبُعْدِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَقُرْبِهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَوَاطَيْتُهُ الْحَرَمِينَ ، وَهَمَا مَا هُمَا وَبِهِمَا مَنْ بِيَهُمَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالْمَوَالِي الْأَخْيَارِ ، بِسُوءِهِمُ الْخُسْفَ ^(٢) وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِغَيْرِ السُّنَّةِ ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْ سَفْكَ دِمَائِهِمْ ، وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ حُرْمَتِهِمْ ، وَيَطْوُمُ بِطَنَامِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَرَعَاعِ لَأَرْوِيَةَ لَهُمْ فِي إِقَامَةِ حَقِّ ، وَلَا فِي إِزَاحَةِ بَاطِلِ ، ثُمَّ تَظُنُّ أَنْ ذَلِكَ يَنْجِيكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فَكَيْفَ بِكَ إِذَا جَانَاكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدًّا لِلْخُصُومَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَنْ تَنْجُو هُنَاكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لَكَ

(١) المراد أرسى ، من خطرف جلد المرأة : إذا استرخى . (٢) يولهم الذل .

النجاة ، فارتفع على نفسك أو دَع ، وكان عبد الملك مُتَكَبِّراً ، فاستوى جالساً ، وقال :
كذبتَ وَمِنْتِ (١) فيما جئت به ، لقد ظن بك الحجاج ظناً لم نجده فيك ، وقد يُظَنُّ
الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المأسئ الحاسد ا قال : فقامت والله ما أبصر شيئاً ، فلما خطر
الستر لحقني لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج ، وأذن للحجاج ، فدخل
فلبث مَلِيئاً ، ولا أشكُ أنهما في أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى
الستر ، إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتنقنى ، وقَبِل ما بين عينيَّ ، وقال : أما إذا جرى الله
المتواخين خيراً بفضل توصلهما ، فجزاك الله عنى أفضلَ الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك
لأرفعنَّ ناظرَيك ، ولأُعلِنَنَّ كَمَبِك ، ولأُتبعنَّ الرجالَ غبارَ قدمَيك ، قال : فقلت
فى نفسى إنه ليسخر لى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ،
ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد فى نصيحتك ؟
فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يداً عندى من الحجاج ، ولو كنت محايياً أحداً
بدينى لكان هو ، ولكنى آثرْتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد
الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته
عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتنى له عنهما استقلالاً
لهما ، ووليته المراقين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدْحَضُها إلا منله ، وإنما قلت له ذلك
ليؤدى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج
وأكرمى أضعاف إكرامه . (العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح العيون ص ١١٩)

(١) مان مينا : كلب .

٣٨٧ - قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجماجم ، وقدم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المِصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده ، إذ تذاكروا البلدان ؛ فقال محمد بن ابن عُمَيْر بن عَطَّارِد : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وَغَمَّقَهَا ^(١) ، وسَفُتْ عن الشام وَوَبَّأَتْهَا ، وجاورها الفُرَاتُ ، فَعَدَّبَ ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صَفْوَان الأهمشي : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم برِّيَّةً ، وأسرعُ منهم في السَّرِيَّةِ ^(٢) ، وأكثرُ منهم قَنَدًا ^(٣) ، وعاجًا ، وساجًا ^(٤) ، وناسًا ^(٥) ، ماؤنا صَفْو ، وخيرُنا عَفْو ، لا يخرج من عندنا إلا قَائِدٌ وسائقٌ وناعقٌ ^(٦) » ، فقال الحجاج : « أصلح الله أمير المؤمنين ! إني بالبلدين خبير ، وقد وَطِئْتُهُمَا جميعاً » ، فقال له : قل فأنت عندنا مُصَدِّقٌ ، فقال : « أمَّا البصرة فمَجُوزٌ شَبَطَاءٌ ، دَفْرَاءٌ ، بَحْرَاءٌ ، أوتيتُ من كل حَلِيٍّ وزينة ؛ وأما الكوفة ، فشابة حسناء جميلة ، لاحتلَّى لها ولازينة » .
فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .
(مروج الذهب ٢ : ١٤٨)

وروي الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان ^(٧) - وَسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : « نحن مَنَابِتُنَا قَصَبٌ ، وأهبارنا عَجَبٌ ، وسماؤنا رُطَبٌ ^(٨) ، وأرضنا ذهب » .

(١) الغمق : ركوب الندى الأرض ، أرض غمقة كفرحة : ذات ندى وثقل ، او قرية من المياه ، وفي الأصل : « وعمقتها » وهو تصحيف (٢) السرية : من خمسة أنفص إلى ثلاثائة ، أو أربعمائة ، والمراد في النهوض للقتال . (٣) القند : عسل قصب السكر . (٤) الساج : خشب أسود رزين يجلب من الهند ، ولا تكاد الأرض تلبيه ، وهو يشبه الآبنوس . (٥) في الأصل : « وبأسا » بالباء ، وأراه بالنون . (٦) يريد بالسائق : الأمير ، وبالناعق : الخطيب . (٧) أى يصف البصرة ، وكذا ما بعده . (٨) السماء : كل ما علاك ، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة ، « مشان كسحاب : قرية قريبة منها » ، وأن التمر لكثرتة ووفرتة يظلمهم .

وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سرية ، وأعظم منكم تجرية ^(١) ، وأكثر منكم ذرية ، وأغذى منكم برية » .
وقال أبو بكر الهذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً ، وطاجاً ، وديباجاً ، وخرابجاً ، ونهراً عجاجاً ^(٢) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٨٨ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسير ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بمد الاستحقاق وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلِّك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : فكيف رضام عنه ؟ قال : وسيمهم بالفضل ، وأقنهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجِدِّنا فنقطع فيهم ، وياقوننا بجِدِّهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجد ؟ قال : فما حال قطري ؟ قال : كادنا بيمض ما كيدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُماة السرح ^(٣) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يُعرَف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل روأت ^(٤) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

(١) تجر كنصر تجرا وتجارة : تجر ، وأرى أن « تجرية » مصدر صناعي لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم رأطول باءاً من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة ثغر على الخليج للفارسي ، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق . (٢) المعجاج : الصياح من كل ذي صوت . (٣) السرح في الأصل : المال السهم . (٤) روأ في الأمر : نظر فيه وتمعبه ، ولم يجعل بجواب .

٣٨٩ - وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقرى - ومعه مائة من تليد الأزدى - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة، وقتل أميرهم عبد ربّه الصغير، فلما دخلا عليه بدر كعب فأنشده قصيدته التى مطلعها :

يَا حَفْصُ: إِنِّي عَدَايَ عِنْدَكَ السَّفَرُ . وَقَدْ سَرَيْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ

فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له: أخبرنى عن بنى المهلب، قال: «الْمَغِيرَةُ فَارِسُهُمْ وَسَيْدُهُمْ، نَارُ ذَا كَيْةٍ^(١)، وَصَعْدَةُ^(٢) عَالِيَةٌ، وَكَفَى بِيَزِيدَ فَارِسًا شَجَاعًا، لَيْثُ غَابٍ، وَبِحَرِّ جَمِّ عُبَابٍ، وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيصَةٌ، لَيْثُ الْمَفَارِ^(٣)، وَحَامِي الدَّمَارِ، وَلَا يَسْتَحْيِي الشُّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ، فَكَيْفَ لَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ الْحَاضِرِ، وَالْأَسَدُ الْخَادِرُ؟ وَعَبْدُ الْمَلِكِ سَمٌّ نَاقِعٌ، وَسَيْفٌ قَاطِعٌ، وَحَبِيبُ الْمَوْتِ الزُّعَاقُ، إِنَّمَا هُوَ طَوْدٌ شَامِخٌ، وَفَخْرٌ بَادِخٌ^(٤)، وَأَبُو عَيْبِنَةَ الْبَطَلِ الْهَمَامُ، وَالسَّيْفُ الْحَسَامُ، وَكَفَاكُ بِالْمَفْضَلِ نَجْدَةٌ، لَيْثُ هَدَارٍ، وَبِحَرِّ مَوَّارٍ^(٥)، وَمُحَمَّدُ لَيْثُ غَابٍ، وَحُسَامٌ ضِرَابٌ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانُوا فِيكُمْ؟ قَالَ: كَانُوا حُمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا، فَإِذَا أَلْيَلُوا^(٦) قَفَّرَ سَانَ الْبِيَاتِ، قَالَ: فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ؟ قَالَ: كَانُوا كَالْحَلْقَةِ الْمَقْرَعَةِ: لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفُهَا، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ لَكُمْ الْمَهْلَبُ وَكُنْتُمْ لَهُ؟ قَالَ: كَانَ لَنَا مِنْهُ شَفَقَةُ الْوَالِدِ، وَهُوَ مَنَّا بَرُّ الْوَالِدِ، قَالَ: فَكَيْفَ جَمَاعَةُ النَّاسِ؟ قَالَ: حَلَى أَحْسَنَ حَالٍ، أَدْرَكُوا مَا رَجَوْا، وَأَمِنُوا مِمَّا خَافُوا، وَأَرْضَاهُمُ الْعَدْلُ، وَأَغْنَاهُمُ النَّفْلُ^(٧)، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوُّكُمْ؟ قَالَ: كُنَّا إِذَا أَخَذْنَا عَفْوَنَا، وَإِذَا أَحَدُوا يَبْسُتْنَا مِنْهُمْ،

(١) ذكت النار: اشتد لهاها . (٢) الصعدة: القناة المستوية تبتت كذلك . (٣) أغار على

للعدو إغارة ومغارا . (٤) الطود: الجبل، وبادخ: مال . (٥) مار: ماج واضطرب .

(٦) أليوا وألوا: دخلوا فى الليل . (٧) الغنيمة والهبة .

وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، قال : كيف أفلتكم قطري ؟ قال : كدناه بيمض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحدّ عندنا آثر من القلّ^(١) ، قال : أكنتَ أعددتَ لى هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيثُ وجهك ، وأسر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأرفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل المبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغاني ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٠٥ ، وزهر

الآداب ٣ : ٩٣)

٣٩٠ - سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سُلَيْك بن سُلْكَة^(٢) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزّني سمك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ؛ فإن سمعت خطأ أو زللاً فدوتك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصى عاصٍ من عُرُض العشيّة ، فحلّقني على اسمي ، وهُدِمَت داري ، وَحَرِمْتُ عطائي ، قال : هيات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَرَبِّمَا تُعَدِّي الصِّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ^(٣)
وَأَرْبَبٌ مَأْخُوذٌ بِذَنْبِ عَشِيرِهِ وَنَجْمًا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ

(١) القوم المنهزمون . (٢) هو غير سليك بن سلكة الذي ضرب به المثل في العذر ، فقيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلي ، (وهو سليك بن عمرو التيمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صغاليك العرب ولصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك ابن السلكة ، والشنفرى ، وتابط شرا ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية : عنزة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه منحصرم قد ولى في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في سرح العيون « وهو جاهلي قديم » - انظر ترجمته في سرح العيون ص ٨٠ والأغاني ١٨ : ١٣٣ - . (٣) في الأصل « جانيك من يجني عليك وقد » على أن العروض حذاء كالمضرب وهو صحيح ، ولكنني رأيت العروض في البيت الذي يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمساكلة بين العروضين .

قال أصلح الله الأمير، سمعتُ الله قال غير هذا، قال: وما ذاك؟ قال: قال: «
بأئبها العزيب: إن له أبا شيخاً كبيراً، فخذُ أحدنا مكانه، إنا نراك من المُحْسِنِينَ
قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا أظالمون».

قال الحجاج: عليّ بيزيد بن أبي مسلم^(١)، فأتي به فمَثَلَ بين يديه، فقال:
فكك لهذا عن اسمه، واصكك^(٢) له بعبائه، وابن له منزله، وصر مناديا ينادي
في الناس، صدق الله، وكذب الشاعر.

(العقد الفريد ٣: ٦)

٣٩١ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق. وتنفّم مذهبهم، وتسخط طريقتهم، فقال له
جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسنّاً - : «أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك،
على أنهم ما شئتوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لِدَاتِ نَفْسِكَ، فدع ما يبدهم منك،
إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك، تُعْطَاهَا مِنْ فَوْقِكَ، وليمكن إبقائك
بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك. قال الحجاج: «إني والله ما أرى أن أرد»
بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف»، فقال «أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف
ذهب الخيَارُ»، فقال الحجاج: «الخيَارُ يومئذ لله»، قال: «أجل»، ولكن
لا تدرى لمن يجعله الله»، فغضب الحجاج وقال: «يا هتاه^(٣) إنك من محارب»،
فقال جامع:

وللحرَبِ سُمِّيْنَا، وَكَانَ مُحَارِبًا إِذَا مَا الْقِنَا أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَحْمَرًا

(١) كاتب الحجاج. (٢) صكك له كقتل: كتب له صكاً، وهو الكتاب الذي يكتب في المعاملات: (الشيك).

(٣) هن: كلمة يكتن بها عن اسم الإنسان، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح باسمه قلت: ياهن أقيل،

وفد تزد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة، فيقال ياهناه أقيل، أي يافلان، وهذه أهاء تصير تاء

في الوصل، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتسكر لاجتماع الساكنين.

فقال الحجاج: « والله لَهَمَمْتُ أَنْ أَخْلَعُ لِسَانَكَ ، فَأَضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ » ، فَقَالَ
جامع : « إِنْ صَدَّقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ ، وَإِنْ غَشَشْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ ، فَفَضَّبُ الْأَمِيرُ أَهْوَنَ عَلَيْنَا
مِنْ غَضَبِ اللَّهِ » قَالَ : أَجَلٌ ؛ وَسَكَنَ ، وَشُغِلَ الْحِجَاجُ بِبَعْضِ الْأَمْرِ ، فَاَنْسَلَ جَامِعٌ ،
فَمَرَّ بَيْنَ صَفُوفِ خَيْلِ الشَّامِ ، حَتَّى جَاوَزَ إِلَى خَيْلِ أَهْلِ الْعِرَاقِ - وَكَانَ الْحِجَاجُ لَا يَخْطِطُهُمْ
فَأَبْصَرَ كَبْكَبَةً^(١) فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ بَكْرِ الْعِرَاقِ ، وَتَمِيمِ الْعِرَاقِ ، وَأَزْدِ الْعِرَاقِ ، وَفَيْسِ
الْعِرَاقِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَثَرًا بَوَّأُوا إِلَيْهِ ، وَبَلَّغَهُمْ خُرُوجَهُ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا عِنْدَكَ ؟ دَافِعَ اللَّهُ لَنَا
عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : وَيَسْحِكُ اُعْمُوهُ بِالْخَلْعِ كَمَا يَفْعَمُّكُمْ بِالْعِدَاوَةِ ، وَدَعُّوا التَّمَادِيَّ
مَا عَادَاكُمْ ، فَإِذَا ظَفِرْتُمْ بِهِ تَرَاجَعْتُمْ وَتَمَاقَيْتُمْ ، أَيُّهَا التَّمِيمِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ الْأَزْدِيِّ ،
وَأَيُّهَا الْقَيْسِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ التَّغْلِبِيِّ ، وَهَلْ ظَفِرَ بَيْنَ نَاوَاهِ مِنْكُمْ إِلَّا بَيْنَ بَقِيٍّ مَعَهُ
مِنْكُمْ ؟ » وَهَرَبَ جَامِعٌ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَجَارَ بَنِي قُرَظٍ مِنَ الْحَارِثِ .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،
وعيون الأخبار ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٩٢ - ليلي الأخيلية والحجاج

بَنُ مَوْلَى لَعْنَبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ :

كُنْتُ أَدْخُلُ مَعَ عَنبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي إِذَا دَخَلَ عَلَى الْحِجَاجِ ، فَدَخَلَ يَوْمًا ،
فَدَخَلْتُ إِلَيْهِمَا ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْحِجَاجِ أَحَدٌ إِلَّا عَنبَسَةُ ، فَأَقْعَدَنِي ، فَخِيءَ الْحِجَاجُ بِطَبَقٍ فِيهِ
رُطْبٌ ، فَأَخَذَ الْخَادِمُ مِنْهُ شَيْئًا فَجَاءَنِي بِهِ ، ثُمَّ جِيءَ بِطَبَقٍ آخَرَ ، حَتَّى كَثُرَتْ الْأَطْبَاقُ ،
وَجَعَلَ لَا يَأْتُونِ بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَنِي مِنْهُ بِشَيْءٍ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ مَا بَيْنَ يَدَيَّ أَكْثَرُ مِمَّا عِنْدَهُمَا ،
ثُمَّ جَاءَ الْحَاجِبُ فَقَالَ : امْرَأَةٌ بِالْبَابِ ، فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : ادْخُلِيهَا . فَدَخَلْتُ ، فَلَمَّا رَأَاهَا
الْحِجَاجُ طَاطَأَ رَأْسَهُ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ ذَقْنَتْهُ قَدْ أَصَابَ الْأَرْضَ ، فَجَاءَتْ حَتَّى قَعَدَتْ

(١) الككبكية : الجماعة .

بين يديه ، فنظرتُ فإذا امرأة قد أسدت ، حسنة الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي
 كليلي الأخيالية ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا بلي ، ما أتى بك ؟
 فقالت : « إخلافُ النجوم ^(١) ، وقلةُ الغيوم ، وكَلْبُ البرد ^(٢) ، وشدة الجهد ،
 وكنت لنا بعد الله الرِّفْد ^(٣) » فقال لها : صفي لنا الفِجَاج ^(٤) ، فقالت : « الفِجَاجُ مُعْبِرَةٌ
 والأرضُ مُقَشِّعَةٌ ، والمَبْرُكُ ^(٥) مُعْتَلٌ ، وذو العيال مُخْتَلٌ ^(٦) ، والمالِكُ للقل ^(٧) ،
 والناسُ مُسْتِنْتُونَ ^(٨) ، رحمة الله يزجون ، أصابتنا سنونٌ مجحفةٌ مُبْلِطَةٌ ^(٩) ، لم تدع لنا
 هُبَمًا ولا رُبَمًا ^(١٠) ، ولا عافِطَةً ولا نافِطَةً ^(١١) ، أذهبت الأموال ، ومزقت الرجال ،
 وأهلكت العيال » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير قولاً ، قال : هاتي ، فأنشأت تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُفَلُّ سِلَاحُكَ ، إِنَّمَا السَّمَايَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاهَا ^(١٢)
 أَحْجَاجٌ لَا تُعْطَى الْعَصَا مُنَاقِمٌ وَلَا اللَّهُ يُعْطَى الْعَصَا مُنَاهَا
 إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِمًا فَشَفَاهَا
 شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي يَبْهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
 سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشُرْبِ سِجَالِهِ دِمَاءُ رِجَالٍ حَيْثُ مَالٌ حَسَاهَا ^(١٣)

(١) أي أخلفت النجوم التي يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . (٢) كلب البرد : شدته ، وأصل
 الكلب : السعار (بالضم) الذي يصيب الكلاب والذئاب . (٣) الرِّفْد (بالفتح) : المعونة ، مصدر
 وفده كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والصلة . (٤) الفِجَاج جمع فِج : بالفتح ، وهو
 الطريق الواسع بين جبلين . (٥) أرادت به الإبل الباركة فيه . (٦) مُخْتَلٌ : محتاج من الخلة
 بالفتح وهي الحاجة . (٧) للقل : أي هالك من أجل القلة . (٨) أي مقحطون ، والسنة : القحط .
 (٩) مجحفة : قاشرة ، ومبْلِطَةٌ : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض المساء ، والحجارة التي تفرش
 في الدار ، وأبْلَطُ الرجل فهو مبْلِطٌ : إذا لزق بالأرض . (١٠) الهبج : الفصيل ينتج في الصيف
 (في آخر الشتاء) والربيع : الفصيل ينتج في الربيع (وهو أول الشتاء) . (١١) العافطة : الضائفة
 (النجفة) ، من العطف ، وهو الضرط ، عطف كضرب : ضرطت ، فهي عافطة ، والعطف أيضا : نثير
 للضأن ، نثير بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة المنز ، من النفط ، نفطت المنز كضرب نثرت بأنفها ،
 أو عطست ، فهي نافطة ، أو لأنها تنفط ببولها أي تدفمه دفعا ، أو النافطة إتياع للعافطة ، أو العافطة الأمة
 للرعاية ، والنافطة الشاة . (١٢) السلاح مذكر ويؤنث كما في هذا البيت . (١٣) السجال : جمع
 سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة .

إِذَا سَمِعَ الْحِجَّاجُ رِزًّا كَتَيْبَةً أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النَّزُولِ قِرَاهَا^(١)
 أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلِبُونَ صَرَاهَا^(٢)
 فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعُونَُ مِثْلَهُ بِبَحْرِ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ نَرَاهَا^(٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتي شاعر
 منذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إني لأعدّ للأمر
 عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حَبُّكَ ! قالت : إني قد قلت أكثر
 من هذا . قال : حسبك ونحك ! حسبك ، ثم قال : يا غلام اذهب إلى فلان فقل له :
 اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار
 الحجاج ، فالتفت إليه ، فقالت : نَسِكَتْكَ أَمَّكَ ! أما سمعت ما قال ؟ إنما أمرك أن تقطع
 لسانى بالصِّلَّة ، فبعث إليه يستثنيته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال :
 اِرْزُدْهَا ، فلما دخلت عليه ، قالت : كاد وأمانة الله يقطع مقولى ! ثم أنشأت تقول :

حِجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالسُّفْغَرُ الصَّمَدُ^(٤)

حِجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتَ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نُوْرٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ^(٥)

ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ،
 إلا أننا لم نَرَ قطُّ أفصحَ لساناً ، ولا أحسنَ محاورَةً ، ولا أملحَ وجهاً ، ولا أَرصَنَ شعراً
 منها ، فقال : هذه لبلى الأخيلية ، التي ماتت توبةً الخفاجي من حبها ، ثم التفت إليها
 فقال : أُنشِدِينَا يَا لِبْلَى بَعْضَ مَا قَالَ فِيكَ تَوْبَةً ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذي يقول :

وَهَلْ تَبْكِينَ لِبْلَى إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا وَقَامَ عَلَى قَبْرِ النِّسَاءِ النَّوْاحُ ؟

(١) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (٢) الصرى : بقية اللبن . (٣) العون جمع عوان .

كسحاب ، وهي التي كان لها زوج . (٤) الصمد : الذي يصمد أي يقصد في قضاء الحوائج .

(٥) لقمحت : أصله من لقمحت الناقة أي قبلت اللقاح ، والشهاب : شملة من نار ساطعة ، ويقند يتوقد .

كما لو أصاب الموت ليلى بكيتهاً وجاد لها دمعٌ من العين سافحاً^(١)
 وأغبط من ليلى بما لا أناله بلى ، كلُّ ماقرت به العين طامحُ
 ولو أن ليلى الأخيلىة سلمت على ، ودونى جندلٌ وصفاح^(٢)
 سلمت تسليم البشاشة أو زفا إليها صددي من جانب القبر صاِح^(٣)

فقال : زيدنا من شعره يا ليلى ، قالت : هو الذى يقول :

حامة بطن الواديين ترنمى سقاك من العر الغواذى مطيرها^(٤)
 أيدى لنا ، لا زال ريشك ناعماً ولا زلت فى خضراء غصّ نصيرها
 وكنت إذا ما زرت ليلى تبرعت فقد رآبى منها الفداة سفورها
 وقد رابى منها صدود رأيت وإعراضها عن حاجتى وبسورها^(٥)
 وأشرف بالقور اليفاع لعلنى أرى نار ليلى أو يرانى بصيرها^(٦)
 يقول رجال : لا يصيرك نأبها بلى ، كلُّ ماشف النفوس يصيرها
 بلى ، قد يصير العين أن تكثر البكا ويمنع منها نؤمها وسرورها
 وقد زعمت ليلى بأبى فأجر لنفسي تقاها ، أو عليها فجورها

فقال الحجاج : يا ليلى ، ما الذى رآه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان
 يُلمّ بى كثيراً ، فأرسل إلى يوماً : إني آتيك ، وفطن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتانى
 سقرت عن وجهى ، فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درك !

(١) سافح : منصب . (٢) الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراض .

(٣) زفا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الأعراب أن
 روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فتصيح على قبره : اسقونى اسقونى حتى يثار به ، وهذا
 مثل يراد به تحريض ولى القتيل على طلب دمه ، فجعله جهلة الأعراب حقيقة . (٤) الغواذى : جمع غادية ،

وهى السحابة تنشأ غدوة . (٥) بسر كدخل : عبس وكلع . (٦) القور : جمع قارة ، وهى الجبيل

النصير ، المنقطع عن الجبال ، واليفاع : التل .

هل رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ فقالت: لا والله الذي أسأله أن يصلحك، إنه قال مرة
قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر، فأنشأت أقول:

وذي حاجة قلنا له لا تبخ بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل
فلا والله الذي أسأله أن يصلحك، مارأيت منه شيئاً، حتى فرق الموت بيني وبينه،
قال: ثم مه؟ قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له، فأوصى ابن عم له، إذا أتيت
الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى صوتك:
عفا الله عنها، هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها؟
وأنا أقول:

وعنه عفا ربّي وأحسن حاله فعزت علينا حاجة لا ينالها
قال: ثم مه؟ قالت: ثم لم يلبث أن مات، فأتانا نعيه، فقال: أنشدنا بعض
مرائك فيه، فأنشدت:

لتبك العذاري من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر^(١)
قال لها: فأنشدينا، فأنشدته:

كان فتى الفتيان توبة لم يفتح قلائص يفحصن الحصى بالكرراكر^(٢)
فلما فرغت من القصيدة، قال محسن الفقهسي: - وكان من جلساء الحجاج -

(١) الشئون: جمع شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين. وكتب مصحح الأمالى قال: «قوله المتحدر
كذا في النسخ، وكتب بهامش بعضها لعله المتحادر بالألف قبل الدال، لتستقيم القافية، وفي هامش بعض
النسخ بعد البيت الآتي:

فتى لا تحطاه الرفاق ولا يرى لقدر عيالادون جار مجاور» اهـ

(٢) القلائص جمع قلوص كصبور، وهي الناقة الشابة، أو الباقية على السير، يفحصن: يقلبن،
من فحص المطر التراب تلبه، وفحص القطا التراب: اتخذ فيه أفحوصاً وهو مجثمه، والكرراكر: جمع كركرة
بالسكر، وهي زور البعير.

من الذي تقول هذه هذا فيه؟ فوالله إني لأظنها كاذبة، فنظرت إليه، ثم قالت: أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لاسرَّه أن لا تكون في داره عذراء إلا هي حاملٌ منه، فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غيبًا، ثم قال لها: سئني يا ليلى تُعطيني، قالت: أعط، فذلك أعطى فأحسن، قال: لك عشرون، قالت: زد فذلك زاد فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد، فذلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد، فذلك زاد فتمم، قال: لك مائة، واعلم أنها غم، قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جوداً، وأجود مجدداً، وأوزى زنداً، من أن تجعلها غماً، قال: فها هي؟ ويحك يا ليلى؟ قالت: مائة من الإبل برُعائها، فأمر لها بها، ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: تدفع إلى الناقة الجمدي، قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك، فخرج هاربا عائداً بعبد الملك، فاتبعته إلى الشام، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فمات بقومس^(١)، ويقال بمحلوان.

(الأمال ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٣٩٣ الغضبان بن القبعثري والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية، عشراً من النجائب، وعشراً من قعد النكاح، وعشراً من ذوات الأحلام، فلما نظر إلى الكتاب لم يدر ما وصفه من الجوارى، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه، فقال له بعضهم: أصلح الله الأمير، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويتاً، فله معرفة أهل البدو، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو، ثم شرب الشراب، فله بداه أهل الشراب، قال: وأين هذا؟ قيل: في حبسك، قال: ومن هو؟ قيل للغضبان الشيباني، فأحضر

(١) قومس: صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل.

فلما تَمَلَّ بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتعدون بي قبل أن أتمشى بهم^(١) ؟
 قال : أصلح الله الأمير : ما نَفَعَتْ مَنْ قَالَهَا ، ولا ضُرَّتْ مَنْ قِيلَتْ فِيهِ ، قال : إن
 أمير المؤمنين كتب إليّ كتاباً لم أذُرِ ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقْرَأُ عليّ ،
 فقرأ عليه ، فقال : هذا بيِّن ، قال : وما هو ؟ قال : « أَمَّا النَّجِيْبَةُ مِنَ النِّسَاءِ : فَالَّتِي
 عَظُمَتْ هَامَتُهَا ، وَطَالَ عُنُقُهَا ، وَبَعُدَ مَا بَيْنَ مَنْكَبَيْهَا وَتَدْبِيهَا ، وَاتَّسَعَتْ رَاحَتُهَا ،
 وَتَخَنَّتْ رُكْبَتُهَا ، فَهَذِهِ إِذَا جَاءَتْ بِالْوَلَدِ جَاءَتْ بِهِ كَاللَّيْثِ ؛ وَأَمَّا قَعْدُ النِّكَاحِ ، فَهِيَ
 ذَوَاتُ الْأَعْجَازِ ، مُنْكَسِرَاتُ التُّدِيِّ ، كَثِيرَاتُ اللَّحْمِ يَقْرُبُ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ ،
 فَأُولَئِكَ بِشْرِينَ الْقَرَمِ^(٢) وَبُرُوزِ الظَّمَانِ ؛ وَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَحْلَامِ ، فَبِنَاتُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ
 إِلَى الْأَرْبَعِينَ^(٣) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة
 النُّقْبَةُ^(٤) ، الحديدة الرُّكْبَةُ ، السريعة الوَثْبَةُ ، الواسِطَةُ^(٥) في نساء الحى ، التي إذا
 غَضِبَتْ غَضِبَ لَهَا مائة ، وإذا سَمِعَتْ كَلِمَةً قَالَتْ لَا وَاللَّهِ لَا أَنْتَهَى حَتَّى أُقْرِئَهَا قَرَارَهَا ،
 التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي حجرها جارية ، قال الحجاج : على هذه
 لعنة الله ، ثم قال : وَيَحْكُ ، فأخبرني بحجر النساء ، قال : خيرهن القريبة القامة من السماء
 الكثيرة الأخذ من الأرض ، الودود الودود ، التي في بطنها غلام ، وفي حجرها غلام ،
 ويتبعها غلام ، قال : وَيَحْكُ فأخبرني بشر الرجال ، قال : شرهم السنوط الربوط^(٦) ،
 المحمود في حرَمِ الحى ، الذي إذا سقط لإحداهن دَلْوٌ فِي بئر انحطَّ عليه حتى يُخْرِجَهُ ،

(١) انظر خطبته في ص ٢٣٧ . (٢) القرم محرّكة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق

إلى الحبيب . (٣) هنا سطر أسقطناه ؛ فلينظره في الأصل من شاء . (٤) الوجه .

(٥) وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم . (٦) السنوط : الذى لا شعر فى وجهه

ألبنة « الكوسج » كجمفر ، وفى الأصل « السبوط » بالباء ، ولم أجده فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها من
 هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه « مسبط » ومعناه على هذا : الكسل المتقاعد عن السعى ،
 والربوط ، يريد به الملازم لبيته الذى لا يخرج منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه .

فهن زينه الخير ، ويقلن عاقى الله فلاناً ، قال : على هذا لعنة الله ، فأخبرني بخير الرجال ؟
قال : خيرهم الذى يقول فيه الشماخ التغلبي :

فتى ليس بالراضى بأذنى معيشة ولا فى بيوت الحى بالمتولج^(١)
فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه ويضرب فى رأس الكمي المدجج^(٢)

فقال له : حسبك ، كم حبسنا عطاك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها
وخلّى سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٩٤ - ابن القرية يعدد مساوى المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تذكره المزاح وتنهى عنه ،
فقال : « المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أدله فرح وآحراه
ثراح ، المزاح نقائص السفهاء كالشعر نقائص الشعراء ، والمزاح بؤغر صدر الصديق ،
وينفر الرفيق ، والمزاح يبدي السرائر ، لأنه يظهر المعابر ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدي
الخطأ ، لم يجر المزاح خيراً وكثيراً ما جرّ شراً ، الغالب بالمزاح واتر ، والمغلوب به نأثر ،
والمزاح يجلب الشتم صغيره ، والحرب كغيره ، وليس بعد الحرب إلا عفوة بعد قدرة » ،
فقال الحجاج : « حسبك ، الموت خير من عفوة معه قدرة » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٥)

(١) الداخل .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكفى عن كرمه ، والمدجج : الشاكى فى السلاح .

٣٩٥ - يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلى سليمان بن عبد الملك ، أتى يزيد بن أبي مُسلم : مَوْلى الحجاج ، في جامعَة^(١) ، وكان رجلاً دَمِيماً تَمْتَحِمُهُ^(٢) العين ، فلما رآه سليمان قال : لعن الله امرأً أَجْرَكَ رَسَنَكَ^(٣) ، وَوَلَى مثلك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك رأيتنى والأمر عنى مُدْبِر ، ولو رأيتنى والأمر على مُقْبِل ، لاستعظمت من أمرى ما استصغرت ، ولا استجملت ما استحققت ، فقال له سليمان : « أين ترى الحجاج ، أَيْهْوَى في النار ، أم قد استقر في قعرها ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين : لا تقل هذا ، إن الحجاج قَمَعَ لكم الأعداء ، وَوَطَأَ لكم المَبَايِرَ ، وزرع لكم الهَيْبَةَ في قلوب الناس ، وبعدُ فإنه يأتي يومَ القيامة عن يمين أبيك ، وشمال أخيك الوليد ، فضَعَهُ من النار حيث شئت » ، فصاح سليمان : اخرج إلى لعنة الله ، ثم التفت إلى جلسائه ، فقال : قَبِّحْهُ اللهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيبِهِ لِنَفْسِهِ ولصَاحِبِهِ ، ولقد أحسن المَكافأة ، أطلقوا سبيله .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، وللعقد الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

(١) الجامعة : القيد . (٢) تزدرية . (٣) الرسن : الجبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ما شاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، فحقد عليه ، وكتب إليه كتاباً شديد الهمجة ، وفيه يقول « وأيم الله نئن أمكنى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجملنك شريدا في الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : فروينك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة أتملق بها « فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمري إنك لصبى حديث السن تعذر بقلة عقلك ، وحدائة سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أمورا دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحق من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

٣٩٦ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبداً زبّاباً ^(١) ، قنور بن قنور ^(٢) ، لا نسب له في العرب » قال سليمان : أئى شتم هذا ! إن عدو الله

(١) بائع زبيبي ، قيل إنه كان يبيع الزبيبي بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف - ويسمى كليبا - وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة السكوثر ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إباد
زمان هو العبد المقر بذله يروح صبيان القرى ويغادى

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم رواحا » ، ثم صار دباغاً كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ، وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطه ويضعفه ويصجزه في تأخير مناجزتهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له : إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فإن كنت نصبتى لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن امكنتى الفرصة انهنزتها ، وإن لم تمكنتى فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ، وإن أردت منى أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلك ، وإن كان خطأً فعلى ، فابعث من رأيت مكاني » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنتشه بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك من أيلته ، وكتب إليه يستوجه منه ، تقدم كعب على عبد الملك واستنشدته ؛ فأعجبه ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفوه عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاودة الدباغ غنيمة ! » فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض مشاهدته في تلك الحروب وأزمانها ، وما يوردناه المهلب من خطرها ، أن أنجو منها ، وأكون حجاما ، أو حانكا ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قدم أمير المؤمنين لما نعمك ما أسمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء : - انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وشرح العيون ص ١١٢ ، والمقد الفرید ٣ : ٦ . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شيء ، وكسنور : العبد .

الحجاج كتب إلى : « إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كفت لك كما كفت لها ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت محوتك ، وإن شئت أئبكتك » فالتوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبي بَرْدَة بن أبي موسى الأشعري فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بِبِلْمٍ » قال : هاتِ ، قال : « كان عدو الله يتزينُ تزِينِ الْمُؤَمِّسَةِ ^(١) ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عملَ عملِ الفراعنة ، وأكذبُ في حديثه من الدجال » ، فقال سليمان لرجاء بن حيوة : « هذا وأبيك الشتمُ ، لا ما أتاني به السفلة ^(٢) » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٣٩٧ - كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأهرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال : في المخرَج من هذا الأمر . قال : يسيرٌ إن أنت فعلته . قال : وما ذاك؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حِلِّها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدهك ، قال : عظمى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر على ، قال إنما أنت سوق ، فما نفق ^(٣) عندك حِمْلُ إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا؟ قال : وما أصنع بإنيمانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتنيتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي

(١) امرأة مومس ومومسة : فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور « من الومس كوهد : وهو احتكاك الشيء بالشيء

حتى ينجرد؛ وأومست : أمكنت من الومس » . (٢) سفلة الناس كنفمة وفرحة : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) راج .

ما أخافك عليه : قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فما أعطاني منها قِيبْتُ ، وما منعتني منها رَضِيتُ .

(العقدة الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٩٨ - أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ فقال :
لأنكم عمرتم دنياكم ، وأخرتم آخرتكم ، فأنتم تكثرهون الثقل من العمران إلى
الخراب ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يأتي
أهله مسروراً ؟ وأما المسيء فكالعبد الآبق^(١) يأتي مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال
أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة
حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال :
فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عظمي وأوجز ، قال :
يا أمير المؤمنين ، نزه ربك ، وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ،
فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جاسائه : أسرقتَ ويحك على أمير المؤمنين ،
فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيدنه للناس
ولا يكتموننه ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال ، فردّه وقال للرسول :
قل له : وألله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟

(مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٧)

٣٩٩ - وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قدّم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرب منهم غلام للكلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليبتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجد له الحليّة ، ولو كان التقدم بالسنّ لكان في هذه الأمة من هو أحق بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد الهنئة لا وفد المرزئة^(١) ، قدّمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذى منّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنا قد أمنا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عطفنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرّهم حلمُ الله عنهم ، وطولُ أملهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يفرّك حلمُ الله عنك ، وطولُ أملاك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فنزل قدّمك ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

(١) رزاه ماله كجمل وعلم: أصاب منه شيئا، ورزاه مرزئة: أصاب منه خيرا ، أى لسانا وافدين للمطام.

(٢) وفى زهر الآداب: « فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين ».

٤٠٠ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهناه بالخلافة ، فقال :
« الحمد لله الذى منّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة ، وخلافتكم
عِصمة ، ومصائبكم أسوة ، وجعلكم قدوة »
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٤٠١ — خطبة عبد الله بن الأهم

دخل عبد الله بن الأهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - مع العامة ، فلم
يفجأ عمر إلا وهو مائلٌ بين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله خلَق الخلق ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، والناسُ
يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بشرٌ تلك المنازل ، أهل الوَرِّ وأهل المدَرِّ ،
تحتأزُّ دونهم طيباتُ الدنيا ورَفَاعَةٌ^(١) عيشتها ، مَيِّتُهُمْ فى النار ، وحبُّهم أعمى ، مع
مالا يُحصَى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن يَنْشُرَ فيهم رحمته ، بعث
إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ،
فلم ينعهم ذلك أن جَرَحَوْهُ فى جسمه ، ولقبوه فى اسمه^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يَرَحُلُ
إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أمر بالعزيمة أسفر لأمر الله
لونه ، فأفلج^(٣) الله حجَّته ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نقيّاً نقياً ،
صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّتَهُ وأخذ سبيله ،
وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كَانَ قابلاً منهم ،

(١) الرفاعة والرفاقية : سعة للعيش والخصب . (٢) فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ،

وكاهن ، وشاعر . (٣) نصر .

فانتضى السيوف من أعقادها ، وأوقد النيران من شعاعها ، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يَبْرَحْ يفصل أوصالهم ، ويسقي الأرض دماءهم ، حتى أدخلهم في الذي خرجوا منه ، وقرَّهم بالذي نفرُّوا منه ، وقد كان أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وحبشية تُرَضِّع ولداً له ، فرأى ذلك غصّة عند موته في حلقه ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرِيءُ إليهم منه ، وفارق الدنيا نقيّاً تقيّاً ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه . ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فمصر الأمصار ، وخاط الشدة باللين ، فحسر عن ذراعيه ، وشمر عن ساقيه ، وأعدّ للأموراقرانها^(٢) ، وللحرب آتيا ، فلما أصابه قِن^(٣) المغيرة بن شعبه ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُثبِتون قاتله ؟ فلما قيل له قِن المغيرة ، استهل^(٤) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفيء ، فيستجِلّ دمه بما استحلّ من حقه ، وقد كان أصاب من مال الله بضعمًا وثمانين ألفاً ، فكسر بهارِ بابه^(٥) ، وكره بها كفالة أهله وولده ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا نقيّاً تقيّاً على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْم^(٦) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وأقمتهك ثديها ، فلما وليتها أقيمتها حيث أبقاها الله ، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتها^(٧) ، وكشف بك كرتها ، امض ولا تلتفت ، فإنه لا يَدِلُّ على الحق شيء ، ولا يعزّ على الباطل شيء ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْم » سكت الناس كلهم إلا هشاماً فإنه قال : « كذبت » .

(١) البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والمعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

(١) الفتى من الإبل . (٢) أسبابها التي تقاد بها ، جمع قرن كسبب : وهو الحبل يجمع به البعيران .

(٣) القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك (٤) صاح .

(٥) الرباع جمع ربع كشمس : وهو الدار . (٦) جمع ظالم : وهو للمتهم والمائل ، وأصله من ظلم

البعير كنع : غمز فى مشبه . (٧) الحوية : الهم والحاجة .

٤٠٢ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ، وكم من قوم قد غرّهم مثلُ الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ، فخرجوا من الدنيا مرملين^(١) ، لم يأخذوا ما أحبوا من الآخرة عُدَّةً ، ولا لما كرهوا جنةً ، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت ، فقدّمه بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البَدَل ، حيث يجوز البَدَل ، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جوازها عنك . يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وردّ الظالم . »

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٤٠٣ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد ابن أبي الجهم^(٢) بن حذيفة القدوسي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سناً ، وأفضلهم رأياً وحِلماً ، فقام متوكئاً على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت ، وأثنت عليك فأحسنت ، والله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُشيدهم فضلك ، أفتأذن لي في الكلام؟ قال: تكلم ، قال: أفأوجز أم أطنب؟ قال: بل أوجز ، قال: « تولاك الله أمير المؤمنين

(١) أرمِل : فقد زاده وافتقر . (٢) في الأمل « إسميل بن أبي الجهم » .

بالحسنى ، وَزَيَّنَكَ بالتقوى ، وَجَمَعُ لَكَ خَيْرَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى ، إِنْ لِي حَوَائِجٌ أَنْفِذْ كَرَاهَا ؟
 قَالَ : هَاتَهَا ، قَالَ : كَبَّرْتَ سَيِّئِي ، وَضَعُفْتَ قَوَايَ ، وَاسْتَدْتِ حَاجَتِي ، فَإِنْ رَأَى
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُجْبِرُ كَسْرِي ، وَيَنْفِي قَفْرِي « ، قَالَ : يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، وَمَا الَّذِي يُجْبِرُ
 كَسْرَكَ ، وَيَنْفِي فَقْرَكَ ؟ قَالَ : أَلْفَ دِينَارٍ ، وَأَلْفَ دِينَارٍ ، وَأَلْفَ دِينَارٍ ، فَأَطْرَقَ هِشَامٌ
 طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : هِيَ بَاتِ يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، بَيْتُ الْمَالِ لَا يَحْتَمِلُ مَا سَأَلْتَ ! فَقَالَ : أَمَّا
 إِنْ الْأَمْرَ لَوْ أَحَدٌ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَرَكَ لِمَجْلَسِكَ ، فَإِنْ تَعَطَّنَا لِحَقِّقْنَا أَدْبِتَ ، وَإِنْ تَمَنَعْنَا نَسْأَلُ
 الَّذِي بِيَدِهِ مَا حَوَّيْتَ ، إِنْ اللَّهُ جَمَلَ الْعَطَاءَ مَحَبَّةً ، وَالْمَنْعَ مَبْغِضَةً ، وَلَا أَنْ أُحْبِكَ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْغِضَكَ ، قَالَ : فَأَلْفَ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَقْضِي بِهَا دَيْنًا قَدْ حُمِّمْتُ^(١) قَضَاؤُهُ ،
 وَفَدَحْتِي^(٢) سَخْلَهُ ، وَأَرْهَقْتِي^(٣) أَهْلَهُ ، قَالَ : نَعِمَ الْمَسْلُوكُ أَسْلَكْنَاهَا ، دَيْنًا قَضَيْتَ ، وَأَمَانَةً
 أَدْبَيْتَ ، وَأَلْفَ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَزَوِّجُ بِهَا مَنْ أَدْرِكُ مِنْ وِلْدِي ، فَأَشَدُّ بِهِمْ عَضْدِي
 وَيَكْثُرُ بِهِمْ مَدْدِي قَالَ : وَلَا بَأْسَ أَغْضَضْتَ طَرْفًا ، وَحَصَّصْتَ فَرْجًا ، وَأَمَرْتِ^(٤)
 نِسْلًا ، وَأَلْفَ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَشْتَرِي بِهَا أَرْضًا يَعِيشُ بِهَا وَلَدِي ، وَأَسْتَعِينُ بِفَضْلِهَا
 عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِي ، وَتَسْكُونُ ذَخْرًا لِمَنْ بَعْدِي ، قَالَ : وَلَا بَأْسَ ، أَرَدْتَ ذَخْرًا ،
 وَرَجَوْتَ أَجْرًا ، وَوَصَلْتَ رَحِمًا ، قَدْ أَمْرُنَا لَكَ بِمَا سَأَلْتَ ، قَالَ : فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ ،
 وَجَزَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّحِمَ خَيْرًا ، وَخَرَجَ ، فَقَالَ هِشَامٌ : تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
 أَلْطَفَ فِي سَوْأَلٍ ، وَلَا أَرْفَقَ فِي مَقَالٍ مِنْ هَذَا ، هَكَذَا فَلْيَكُنِ الْقُرَشِيُّ ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُ
 الْحَقَّ إِذَا نَزَلَ ، وَنَكْرَهُ الْإِسْرَافَ وَالْبَيْخَلَ ، وَمَا نُعْطِي تَبْذِيرًا ، وَلَا نَمْنَعُ تَقْتِيرًا ،
 وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَزَانُ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، فَإِنْ أُذِنَ لَنَا ، وَإِذَا مَنَعَ أَبْدَانًا ؛
 وَلَوْ كَانَ كُلُّ قَائِلٍ يَصْدُقُ ، وَكُلُّ سَائِلٍ يَسْتَحِقُّ ، مَا جَبَّهْنَا^(٥) قَائِلًا ، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا ،
 فَسَأَلَ الَّذِي بِيَدِهِ مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجْرِيَهُ عَلَى أَيْدِينَا ، فَإِنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

(١) حم الأمر : قضى وقدر . (٢) أثقلني . (٣) الإرهاق : أن تحمل الإنسان على
 ما لا يطيقه . (٤) كثرت . (٥) جبهه كتمه : اقيه بما يكره .

وَيَقْدِرُ^(١) ، إِنَّهُ كَانَ بِعِيَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لقد تسكمت فأبأقت ، وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال : إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمقتدى .

(صحيح الأعمش ١ : ٢٦٤ ، والأمال ١ : ١٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٤٠٤ - مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الأدهن ، وذلك في عام باكرٍ وشميه ، وتتابع وليه^(٢) ، وأخذت الأرض زخرها ، فهي كالزراي^(٣) المبتوثة ، والقباطي^(٤) المنشورة ، وثراها كالسكفور ، لو وضعت به بضعة^(٥) لم تُترب^(٦) ، وقد ضربت له سرادقات حبر^(٧) ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تتلأأ كالمقيان^(٨) ، فأرسل إلي ، فدخلت عليه ، ولم أنزل واقفاً ، ثم نظر إلي كالمستنطق لي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتم الله عليك نعمه ، ودفع عنك نقمه ، وجعل ما قللك من هذا الأمر رُشداً ، وعاقبة ما يتحول إليه حُخداً ، وأخلصه لك بالثقي ، وكثره لك بالما ، ولا كدر عليك منه ما صفأ ، ولا خالط سُروزه بالردى ، فلقد أصبحت للمؤمنين نقة ومُسْتَرَاحا ، إليك يقصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زبن الله به ذِكْرِي ، وأطاب به نَشْرِي^(٩) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبئه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ،

(١) يقبض ويضيق . (٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمي بذلك لأنه يسم الأرض ، والولي :

المطر بعد الوسمى . (٣) جمع زربي بالسكسر ويضم : النارق والبسط ، أو كل ما يسط واتكى عليه

(والنارق : الوسائد الصغيرة) . (٤) قباطي بضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطي بفتح الأول

مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالضم على غير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر .

(٥) البضعة وقد تكسر : القطعة من اللحم . (٦) أتربه وتربه : جعل عليه التراب .

(٧) حبر جمع حبرة كعنبه : ضرب من برود اليمن . (٨) المقيان : الذهب .

(٩) النسر : الرائحة الطيبة .

ولا شيء، أحضر من حديث سلف الملك من ملوك العجم، إن أذن لي فيه حديثه به، قال: هات، قلت: «كأن رجل من ملوك الأعاجم جمع له فتاه^(١) السن، وصحة الطباع، وسعة الملك، وكثرة المال، وذلك بالخوزنق، فأشرف يوماً، فنظر ما حوله، فقال لمن حضره: هل علمتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة: إن أذنت لي تسكمت. فقال: قل، فقال: أرايت ما يجمع لك، شيء هو لك، لم يزل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه، وصار إليك، وكذلك يزول عنك؟ قال: لا. بل شيء كان لمن قبلي، فزال عنه، وصار إليّ، وكذلك يزول عنى، قال: فسرت بشيء تذهب لذته، وتبقى تبعته، تكون فيه قليلاً، وتترهن به طويلاً؟ فسكى وقال: أين المهرب؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيم في ملكك، فتعمل فيه بطاعة ربك، وإما أن تُلقى عليك أمساحاً^(٢)، ثم تلحق بجبل، تعبد فيه ربك. حتى يأتي عليك أجلك، قال: فإلى إذا أنا فعلت ذلك؟ قال: حياة لاتوت، وشباب لا يهرم، وصحة لا تسقم، وملك جديد لا يبلى، قال: فإذا كان السحر فافترغ على بابي، فإني مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه، كنت وزيراً لا يعصى، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد، كنت رقيقاً لا يخالف، فقرع عليه عند السحر بابه، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، وتهدأ للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما»، وأنشده قول عدي بن زيد:

وتفكرت ربّ الخوزنق إذا أصبح يوماً وللهدى تفكير
سرّه حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير^(٣)
فارعى قلبه، فقال: وما غبطة حتى إلى الممات يصير؟^(٤)

فبكي هشام وقام ودخل، فقال لي حاجبه: لقد كسبت نفسك شراً، دعاك أمير المؤمنين.

(١) الفتاه كناه: الشباب. (٢) الأمساح جمع مسح كحمل: وهو الكساء من شعر كتوب الرهبان.

(٣) معرضاً: من عرض الشيء إذا ظهر وبرز. (٤) النبطة: المسرة.

لتحدثه وتلميته ، وقد عرفت عاقبته ، فإزدت على أن نعتت إليه نفسه ، فأقت أياً أتوقع الشر ، ثم أتاني حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ، وأذن لك في الانصراف .
(عيون الأخبار ٢ : ص ٣٤١ ؛ الأغاني ٢ : ٢٣)

٤٠٥ - خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لشيبه بن عقال - وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير - ألا تخبرني عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائرتهم ، في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال شيبه : « أما جرير فيغفر من بحر ، وأما الفرزدق فينحّت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً تحصّله ، فقال : ما عندي غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأهم ، فقال :

« أما أعظمهم فخراً ، وأبدم ذكرأ ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلام عيلاً ، الطامح إذا زخر ، والحامح إذا زار^(١) ، والسامح إذا خطر ، الذي إن هدّر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم قوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرم بجرأ ، وأرقهم شعراً ، وأهتكم لعدوه سترأ ، الأغرّ الأبلق ، الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يُلاحق ، فجير ، وكلهم ذكيّ الفؤاد ، رفيع العماد ، واري الزناد » .

فقال له مسلمة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين ، ولا رأينا في الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعلا .
فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمته ، وأجزل لديكم قسمته ، وأنس بكم الغربة ،

(١) وفي رواية زهر الآداب : « إذا ضر » .

وفَرَّجَ بِكُمْ السَّكْرَةَ ، وَأَنْتَ وَاللَّهُ مَا عَلِمَتْ أُيْهَا الْأَمِيرُ كَرِيمُ الْغِرَاسِ ، عَالِمٌ بِالنَّاسِ ، جَوَادٌ فِي الْمَجَلِّ (١) ، بَسَامٌ فِي الْبَدَلِ ، حَالِمٌ عِنْدَ الطَّيْشِ ، فِي ذِرْوَةِ قَرِيْشٍ ، وَأَبَابُ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَيَوْمُكَ خَيْرٌ مِنْ أَمْسٍ .

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كتخالصك يابن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعًا ، وسلّمت منهم » .

(الأغاني ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٤٠٦ - خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبي بردة (٢) جلدًا حين أبتلي ، أحضره يوسف بن عمر في قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدوّ الله بلالاً ضربني وحبسني ، ولم أفارق جماعةً ، ولا خلعتُ يدياً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال فقال : « الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدأ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفياً بالشريف ، مظهرًا للمصليّة (٣) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلت عليّ بثلاث ، هن معك عليّ ، الأمير مُقبل عليك ، وهو عني مُعرض ؛ وأنت مُطلق ، وأنا مأسور ؛ وأنت في طينتك وأنا غريب » ، فأخمه .

وكان سبب ضرب بلال خالدًا في ولايته ، أن بلالاً مرّ بخالد في موكب عظيم ، فقال خالد : سحابة صيف عن قليل تقشع (٤) ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تقشع أو يصيبك منها شؤبوب (٥) برد ، وأمر بضربه وحبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

(١) القحط والجذب . (٢) هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري .

(٣) وكان أصله من العرب البياضين . (٤) تنكشفت وتفرقت . (٥) الشؤبوب: الدفعة من المطر .

٤٠٧ - خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب المقدم قال :

كان الكميث بن زيد الأسدي يمدح بنى هاشم ويعرض بيني أمية ، فطلبه هشام ، فهرب منه عشرين سنة^(١) ، لا يستقر به القرار ، من خوف هشام ، وكان مسأمة بن عبد الملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ، ولا يردّه فيها ، فلما خرج مسأمة يوماً إلى بعض صيوده ، أتى الناس يسألون عليه ، وأناه الكميث بن زيد فيمن أتى ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قَفْ بِالْدِيَارِ وَقُوفَ زَائِرٍ وَتَأَنَّ ، إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ^(٢)

حتى انتهى إلى قوله :

يَا مَسْلَمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ لِمَ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٍ^(٣)
عَاقَتُ حِبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ دَمَةِ الْجَارِ الْجَارِ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةَ ، وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَائِرِ
وَالآنَ كُنْتُ بِه الْمَصِيبَ كَمَا هُتِدَ ، بِالْأَمْسِ حَائِرُ

فقال مسأمة : سبحان الله ! من هذا الهندكي^(٤) الجاحب^(٥) ، الذي أقبل من أخريات الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أمأ بعد ، ثم الشعر ؟ قيل له : هذا الكميث بن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ، فسأله مسأمة عن خبره ، وما كان فيه طول غيبته ، فذكر له سُخْطُ أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسأمة أمانه ، وتوجّه به حتى أدخله على هشام - وهشام لا يعرفه - فقال الكميث : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ،

(١) يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠ - إلى سنة ١٢٥ هـ . (٢) صاغر : ذليل .

(٣) نشره وأنشره : أحياه . (٤) رجل هندي : من أهل الهند ، (وهو هنا على التشبيه) .

(٥) الجاحب : الشيخ الكبير ، والفضخم الأجلح ، (والأجلح : الذي انحمر الشعر من جانبي رأسه) .

الحمد لله ، قال هشام : نعم . الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الحكيم : مبدئى الحمد ومبتدعه ،
الذى خص بالحمد نفسه ، وأمر به ملائكته ، جملة فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ،
وكلام أهل جنّته ، أحمدَه حمدَ من عِلْمَ يقينًا ، وأبصر مُستدبينًا ، وأشهد له بما شهد به
لنفسه « قائمًا بِأَنْفِسطِ^(١) » وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده العربى ،
ورسوله الأئبى ، أرسله والناس فى هفوات حيرة ، ومُدْهِمَاتِ ظُلْمَةٍ ، عند استمرار أهبته^(٢)
الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيله ، وعبدَ ربه ، حتى
أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم إنى يا أمير المؤمنين ، تَهْتُ فى حيرة ، وحِرْتُ فى سكرة ، اذْلَامُ^(٣) بى خطرُها ،
وأهاب^(٤) بى داعيها ، وأجابنى غاويها ، فاقطوطيت^(٥) إلى الضلالة ، واتسكمت^(٦)
فى الظلمة والجهالة ، جأراً عن الحق ، قائلاً بغير صدق ، فهذا مقامُ العائذِ^(٧) ، ومنطقُ
التائب ، ومبصِرِ الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أفدتم عثرته ،
ومجترم^(٨) عفوتم عن جرّمه .

فقال له هشام - وأيقن أنه الحكيم - وَيُحْكُ مَنْ سَنَّا لَكَ الْغَوَايَةَ ، وأهاب بك
فى العماية^(٩) ؟ قال : الذى أخرج أبى آدم من الجنة : فذسى ولم يجد له عزماً ،
وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارَتْ سحاباً متفرقاً ، فلفقت^(١٠) بعضه إلى بعض ، حتى التعم
فاستحكم هذر^(١١) رَعْدِهِ ، وتلا لؤلؤ برقه ، فنزل الأرضَ فرويت ، واخضلت^(١٢)

(١) العدل . (٢) الأبهة : العظمة والبهجة والكبر . (٣) اذلام الليل : ادلهم أى اسود
وأظلم ، وفى الأصل « اذلام » وهو تصحيف . (٤) أى دعانى ؟ وفى الأصل « وأهب » وهو تحريف ،
(ويقال أيضاً هببت به أى دعوته لينزرو) . (٥) اقطوطى : تقارب فى مشيه إسراراً .
(٦) تسكمت : مشى مشياً متمسكاً لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . (٧) اللاجى : المستجير .
(٨) جرم فلان وأجرم واجترم : أذنب . (٩) العماية : الغواية . (١٠) من لفق الثوب
كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخطهما . (١١) من هذر البعير كضرب هدرا وهديرا : صوت ؛ وفى
الأصل « هدار » وهو تحريف . (١٢) ابتلت .

واخضرت ، وأسقيت ، فروى ظمآنها ، وامتلأ عطشانها ، فكذلك نعدك أنت
يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الداجية^(١) بعد العموس^(٢) فيها ، وحقن بك
دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم^(٣) ، فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك ،
وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرت الحدق ، وعضت المغافر^(٤) بالهام ،
عز بأسك ، واستربط جأشك^(٥) ، مسعار هتان ، وكاف^(٦) بصير بالأعداء ، مغزى
الجيل بالنكراء^(٧) ، مستغن برايه عن رأى ذرى الألباب ، برأى أريب ، وحلم مصيب
فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، ونم عليه النعماء ، ودفع به الأعداء ، فرضى عنه هشام
وأمر له بجائزة .

وروى صاحب الأغاني خطبة السكيت^(٨) فقال :

(١) المظلمة . (٢) فى الأصل : « الغموس » بالعين ؛ وهو تجريف ، والصواب « العموس »
من عمس كسكرم وفرح عماسة وعموسا : اشتد واسود وأظلم . (٣) أشعر الخوف والهم قلبى :
لزق به ، وكل ما ألزقت بهئى : أشعرت به . (٤) المغفر كذبر ، وبهاء ؛ وكسكتابة : زرد من الدرع
يلبس تحت القلنصوة ؛ أو حلق يتقنع بها بالمتسلح . (٥) أى صار رابطا من ربط جأشه رباطة
(بالسكر) اشتد قلبه . (٦) فلان مسعر حرب ومسعار : أى موقد نار الحرب ، ومطر هتان :
هطال ، وكاف كذلك ، وهما كناية عن الجود .

(٧) النكراء : الأمر للشديد . (٨) وكان سبب غضب هشام على السكيت : أن حكيم بن عباس
السكيتى كان ولما بهجاه مضر والسكيت مضرى - فكانت شعراء مضر تهجوه ويحجهم ، وكان السكيت يقول
هو والله أشعر منكم ، قالوا فأجاب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى - والى العراق وهو يعنى - محسن
إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، قالوا فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ،
وأنشده ذلك فحمى السكيت لعشيرته ؛ فقال قصيدته الملهية ؛ وبلغ ذلك خالدا فقال والله لأقتله ، ثم اشترى
ثلاثين جارية بأعلى ثمن ؛ وتخبرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ؛ فرواهن الهاشميات - وهى
قصائد قفا السكيت فى مدح بنى هاتم ، وكان معروفا بالتشيع لهم مشهورا بذلك ، وتمت هذه القصائد من جيد
شعره وبختاره وهى مطبوعة مشهورة - ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشترهن جميعا ، فلما أنس
بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرهن القرآن فقران واستنشدهن الشعر ، فأنشدته قصائد
السكيت الهاشميات ؛ فقال : ويلسكن ! من قائل هذا الشعر ؟ قلن السكيت بن زيد الأسدى ، قال وفى أى بلد =

حَدِّدِ اللهُ ، وَأَثْبِتْ عَلَيْهِ ، وَصَلِّ عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ : « أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي كُنْتُ أُتَدَهَّدِي فِي عَمْرَةٍ ^(١) ، وَأَعُومُ فِي بَحْرِ غَوَايَةِ ، أَخْتَفِي عَلَى خَطْلُهَا ، وَاسْتَفْزَنِي وَهَلْمَا ^(٢) ، فَتَحِيرْتُ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَسَكَّكْتُ فِي الْجَهَالَةِ ، مُهْرَعًا عَنِ الْحَقِّ ، جَائِرًا عَنِ الْقَصْدِ ، أَقُولُ الْبَاطِلَ ضَلَالًا ، وَأَفُوهُ بِالْبَهْتَانِ وَبِالْبَلَا ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ ، مُبْصِرُ الْهُدَى ، وَرَافِضُ الْعَمَايَةِ ، فَغَسِلْ عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَوْبَةَ ^(٣) بِالْتَوْبَةِ ، وَاصْفَحْ عَنِ الزَّلَّةِ ، وَاعْفُ عَنِ الْجَرِيمَةِ ^(٤) » ، ثُمَّ قَالَ :

كَمْ قَالَ قَائِلِكُمْ لَعَا لَكَ ، عِنْدَ عَثْرَتِهِ لِعَائِرَتِهِ ^(٥)
وَعَفَّرْتُمْ لِدَوَى الذَّنْوِ بِنِ الْكَبْرِ وَالْأَصَاغِرِ

= هو ؟ قلن : في العراق ثم في السكوفة . فكتب إلى خالد عامله بالعراق : ابعث إلى برأس السكमित ، فبعث إليه خالد في الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، وعزم لينفذ أمر الخليفة فيه ، وأعمل السكमित الحيلة في الفرار ، فبعث إلى زوجته حبيبي (بضم ففتح الباء المشددة) فلما دخلت عليه ليس ثيابها ، وتنتقب ثيابها ، وأقامها مكانه ، وخرج متنكرا ، وظل متواريا مدة ، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه ، خرج ليلا في جماعة من بني أسد ، وما زال يسير حتى بلغ الشام ؛ واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فأجاره واحتال له في عفو الخليفة عنه ، فقال له : إن معاوية بن هشام مات قريبا ؛ وقد جزع عليه جزعا شديدا ، فإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق ، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشيائك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره ؛ فأصبح هشام على عادته متظننا من قصره إلى القبر ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ؛ فقال : يجاز من كان لإالسكमित فإنه لا جوار له ، فقبيل : فإنه السكमित ، قال : يحضر أعتف إحضار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بشيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستمهر ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ومات حظه من الدنيا ، فأجمله هبة له ولنا ؛ ولاتفضحنا فيمن استجار به ، فسكى هشام حتى انتحب ؛ ثم أقبل على السكमित ؛ فقال له : يا كيت : أنت القائل كذا وكذا - بما أورده في هاشمياته؟ - فقال : لا والله ؛ ولا أتأت من أذن الحجاز وحشية ؛ ثم خطب بين يديه يستمطفه ، فمقا عنه وأجازه ، وتوفي السكमित سنة ١٢٦ هـ .

(١) دهدى الحجر فتهدى : دحرجه ، كدهدهه ، والنمرة : الانهماك في الباطل ، والشدة .

(٢) الوهل : الضمف والفرع . (٣) الحوبة : الإثم . (٤) الجريمة ككلمة : الجريمة .

(٥) يقال للعائر : لعاء لك ، وهو دعاء له بأن ينتعش .

أَبْنِي أُمِّيَّةَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَاتِي لِكُلِّ مُلَّةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادِينُ الْخَلَا فَيَكْأَبِرُ مِنْ بَعْدِ كَأَبْرٍ
بِالْتَّسُّمَةِ الْمُتَتَابِعِينَ خَلَاءَفًا وَبِخَيْرِ عَاشِرٍ^(١)
وَإِلَى الْقِيَامَةِ لَا تَزَالُ لِشَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرٍ

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاه أمير المؤمنين وسماحته وصباحته^(٢) ،
ومناط المنتجعين بمجبله ، مَنْ لَا تُحَلُّ حُبُّوتُهُ لِإِسَاءَةِ الْمَذِينِ ، فضلاً عن استشاطَةِ غَضْبِهِ
بِجَهْلِ الْجَاهِلِينَ ، فقال له : وَبِلَيْكَ يَا كَمَيْتَ مَنْ زَيْنَ لَكَ الْعَوَايِ ، وَدَلَاكَ فِي الْعَمَايَةِ ؟
قال : الَّذِي أَخْرَجَ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَنْسَاهُ الْعَهْدَ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزَمًا » فرضى عنه ، وأمر
له بِجَائِزَةٍ . (العقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأغانى ١٥ : ١١٣)

٤٠٨ - مَخَاصِمُ عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ لِامْرَأَتِهِ عِنْدَ شَرِيحِ الْقَاضِي

دَخَلَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ عَلَى شَرِيحِ^(٣) الْقَاضِي يَخَاصِمُ امْرَأَةً لَهُ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ،
قَالَ : وَعَلَيْكُمْ ، قَالَ : اسْتَمِعْ مِنِّي ، قَالَ : قُلْ أَسْمَعُ ، قَالَ : إِنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّأْمِ ،
قَالَ : مِنْ مَكَانٍ سَحِيقٍ ، قَالَ : وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَى بِلَدِكُمْ هَذَا ، قَالَ : خَيْرٌ مَقْدَمٌ ، قَالَ :
وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ، قَالَ : بِالرِّفَاءِ^(٤) وَالْبَيْنِ ، قَالَ : وَإِنِّهَا وَلِدَتْ غُلَامًا ، قَالَ :
لِيَهْنِكَ الْفَارَسُ ، قَالَ : وَقَدْ كُنْتُ شَرَطْتُ لَهَا صَدَاقَهَا ، قَالَ : الشَّرْطُ أَمْلِكُ ، قَالَ :

(١) هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء بني أمية . (٢) الصباحة : الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .
(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث السكندی ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاء
عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضياً خمسا وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة
وفكاء ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .
(٤) أى بالالتئام وجمع الشمل ، رفا الثوب كنع : لأم خرقة ، وضم بعضه إلى بعض .

وقد أردت الخروج بها إلى بلدي ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال :
قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمتَ ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال بشهادة
ابن أختِ خالتك . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٩ - كلمة لعمر و بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحُّ بنو هاشم ، وبنو أمية في ميراث بينهم
عن سُفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم وبين
بنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبو ناعرو ، فقال :
« يا بَنِي : إن لقريشَ دَرَجًا نزلُ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تخشعُ لها رقابُ
الأموال ، وغاياتٍ تقصرُ عنها الجيادُ المسومة^(١) ، وألسناً تكِلُّ عنها الشُّفار المشحودة
ولو اختلفت الدنيا ما تزيّنت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضافت بسمة أخلاقهم ، ثم إنه
ليخيّل إلى أن منهم ناسًا تخلّقوا بأخلاق العوامِّ ، فصار لهم رِفَق في اللؤم ، وخرق^(٢)
في الحرص ، ولوا مكنهم لِقاسموا الطير في أرزاقها ، إن خافوا مكرهاً وتمجّلوا له
الفقر ، وإن تجلّت لهم نعمةٌ أخزّوا عليها الشكر ، أولئك انضاء^(٣) الفِكر ، وعجزّة
حالة الشكر » . (الأمال ٢ : ٢٣٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٤٠)

(١) الخيل المسومة : الموسلة وعليها ركبائها ، أو المعلمة ، أي التي جعل عليها سومة (بالضم) أي سمة
وعلامه ، أو المرعية . (٢) كقفل وسبب : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .
(٣) جمع نضو كحمل : وهو المهزول .

٤١٠ - خطبة دينار

وكان سِماك بن عبيد العبسي في حصار نهاوند (سنة ٢١ هـ) أسر رجلا من أهلها
يسمى دينار فأتى - حذيفة بن اليمان فصالحه على الخراج - فنسبت إليه ماه .
وكان يواصل سماكا ويهدى له ويوافى الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة
فقدم الكوفة في إمارة معاوية فقام في الناس بالكوفة فقال :
« يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بفا ، كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك
زمان عمر و عثمان ؛ ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب^(١) وغدر وضييق ،
ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتكم فإذا ذلك في مولدكم ، فعلمت من أين أتيتم ،
فإذا الحب من قبل القبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضييق
من قبل الأهواز » .
(تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٥)

٤١١ - رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

وقال رجل لخالد بن عبد الله القسري : « والله إنك لتبذل ما جَلّ ، وتَجْبُرُ ما انقلّ ،
وتُتَكَبَّرُ ما قَلّ ، ففضلك بديع ، ورأيك جميع ، تحفظ ما شذّ ، وتؤلف ما ندّ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

(١) الحب : الخداع .

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤١٢ - خطبة حيان بن ظبيان السلمى

روى ابن جرير الطبرى فى تاريخه قال :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السَّمَلَى يَرَى رَأَى الْخَوَارِجِ - وَكَانَ مِنْ أَرْتَشَ (١) يَوْمَ النَّهْرَوَانَ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَفَا عَنْهُمْ ، مِنَ الْمُرْتَدِّينَ يَوْمَ النَّهْرِ - فَكَانَ فِي أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ : فَلَبِثَ شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الرَّيِّ ، فِي رَجَالٍ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، فَلَمْ يَزَالُوا مُقِيمِينَ بِالرَّيِّ حَتَّى بَلَغَهُمْ قَتْلُ عَلَى كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، فَدَعَا أَصْحَابَهُ أَوْلِيَاءَهُ ، وَكَانُوا بِضِعْمَةِ عَشْرِ رَجُلًا ، فَأَتَوْهُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا الْإِخْوَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَخَاكُمْ ابْنَ مُلْجَمٍ أَخَا مُرَادٍ قَعَدَ لِقَتْلِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أَغْبَاشٍ (٢) الصَّبِيحِ ، مُقَابِلَ السُّدَّةِ (٣) الَّتِي فِي الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ الْجَمَاعَةِ ، فَلَمْ يَبْرَحْ رَاكِدًا يَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ حِينَ أَقَامَ الْمُقِيمِ الصَّلَاةَ : صَلَاةَ الصَّبِيحِ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَيْلَتَيْنِ حَتَّى مَاتَ . » .
فَقَالَ سَالِمُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَبْسِيُّ : لَا يَقْطَعُ اللَّهُ يَمِينًا عَمَّتْ قَدَّالَهُ (٤) بِالسَّيْفِ ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ بِمَحْدُونِ اللَّهِ عَلَى قَتْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا رَضَى عَنْهُمْ وَلَا رَحِمَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(١) ارتش : حمل من المعركة رثيثا ، أى جريحا وبه رمق . (٢) أغباش جمع غباش بالتحريك :

وهو ظلمة آخر الليل . (٣) السدة : باب الدار ، وهى هنا ما يبقى من الطاق المسدود .

(٤) القذال : جماع مؤخر الرأس .

« إنه والله ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما يلبثُ الليالي والأيامُ ، والسَّنونَ والشهورُ على ابن آدمَ ، حتى تُذيقَهُ الموتَ ، فيفارقَ الإخوانَ الصالحينَ ، ويدعَ الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العَجَزَةُ ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له هَمًّا وشَجَبًا^(١) ، فانصرفوا بنا رَحِمَك اللهُ إلى مِصْرِنَا ، فلنأتِ إخواننا ، فلندعُهم إلى الأمرِ بالمعروفِ ، والنهي عن المنكرِ ، وإلى جهادِ الأحزابِ ، فإنه لا عُذْرَ لنا في القعودِ ، وولائنا ظالمةٌ ، وَسُنَّةُ الهُدَى متروكةٌ ، وَثَارُنَا^(٢) الذين قَتَلُوا إخواننا في المجالسِ آمِنونَ ، فإن يُظْفِرِنا اللهُ بهم نَعْمِدُ بِعُدِّ إلى التي هي أهدى وأرضى وأقومُ ، وَبِشْنِي اللهُ بذلكِ صُدُورَ قَوْمِ مُؤْمِنِينَ ، وإن نُقْتَلُ فإن في مفارقةِ الظالمينَ راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أسوةٌ » .

فقالوا له : كُنَّا قائلٌ ما ذكرتَ ، وحامدٌ رأيتُ الذي رأيتَ ، فرِذُّ بنا المِصْرَ ، فإننا معك راضونٌ بهدائكِ وأمرِكِ ، فخرجَ وخرجوا معه مقبلينَ إلى الكوفةِ ، حتى نزلها ، فلم يزل بها حتى قدم معاويةَ ، وبعثَ المغيرةَ بنَ شُعْبَةَ واليًّا على الكوفةِ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

(٢) الثَّارُ : قاتل حميمك .

(١) الشجن : الهم والحزن .

اتِّمَارُ الْخَوَارِجِ

ثم إن الخوارج في أيام المغيرة فزِعوا إلى ثلاثة نفرٍ منهم : المستورد بن علفة التميمي ، وحيان بن ظبيان السلمي ، ومعاذ بن جوبن بن حصين الطائي ، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان ، فتشاوروا فيما يُولون عليهم ، فقال لهم المستورد :

٤١٣ - مقال المستورد بن علفة

« يا أيُّها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ما تحبُّون ، وعزل عنكم ما تكرهون ، ولَّوا عليكم مَنْ أحببتم ، فوالذي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ^(١) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، مَا أْبَالَى مَنْ كَانَ الْوَالِيَّ عَلَيَّ مِنْكُمْ ، وما شرف الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلا الخلود في دار الخلود » .

٤١٤ - مقال حيان بن ظبيان

فقال حيان بن ظبيان : « أما أنا فلا حاجة لي فيها ، وأنا بك وبكل امرئ من إخواني راض ، فانظروا مَنْ شئتم منكم فسمُّوه ، فأنا أول من يبايعه » .

(١) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤١٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قاتما أنما هذا ، وأنما سيدا المسلمين ، وذوّا أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وقدركما ، فن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يبلى على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقهم في الدين ، وأشدّهم اضطلاعاً^(١) بما تمحل ، وأنما بحمد الله ممن يرزى لهذا الأمر ، فليتوّله أحدكما » :

قالا : فتوّله أنت : فقد رضييناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنما أسنّ مني ، فليتوّله أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضيينا بكم أيها الثلاثة ، فولّوا أيكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقّاش أن بايعوا المستورد ، واتعدوا أن يتجهّزوا ويتيسّروا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤١٦ - خطبة المغيرة بن شعبه أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم
وتمنى إلى المغيرة بن شعبه أن الخوارج خارجة عليه ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدبَ سوءٍ إسفهاثكم ، فأما الخلفاء الأتقياء فلا ، وإيمُ الله لقد خشيتُ أن لا أجدُ بدّاً من أن يُمصّب الحليم التقي ، بدّئب

(١) أي قوة على حمله .

الصفية الجاهل ، فكفوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجلا منكم يريدون أن يظهرُوا في المصر بالشمات والخلاف ، وأيمُ الله لا يخرجون في حَيِّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدئهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجَّة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :

« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكنني كلُّ امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحوَّانَّ عما كنتم تعرفون ، إلى ما تُذكرون وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلمُّ لأيمِّ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر .

فخرجت الرؤساء إلى عشائهم ، فنشدوم الله والإسلام إلا دأوم على من يزون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عيد القيس ، فقال :

٤١٧ - خطبة صعصعة بن صوحان

« يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمدُ كثيراً - لما قسم الفضلَ بين المسلمين خصَّكم منه بأحسن القسم ، فأجبتُم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكته ورُسُلُه ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فنبئت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمتُم دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلتُم المرتدِّين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وطى كل حان ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فنالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١) ، وقالت

(١) أي معاوية ، وكان والياً على الشام ، وهي بالنسبة للعراق في المغرب .

طائفة : نريد عبد الله بن وهب اراسي : راسب الأزد ، وقتلم أتم : لا نريد إلا أهل البيت ، الذين ابتدأنا الله من قبائهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أهلك الله بكم ، وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم ، الداكثين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهروان ، وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ ساطنهم) ، ولا قوم أعدى لله وأسىكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجماعة المسلمين ، من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا ^(١) . واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تؤذوهم في دُوركم ، أو تكتنوا عليهم ، فإنه ليس ينبغي للحى من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد وألله ذكركم أن بعضهم في جانب من الحى ، وأنا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حُككى لى ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإن دماءهم خلال ، ثم قال : يامعشر عبد القيس : إن ولاننا هؤلاء هم أعرف شىء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شىء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به المغيرة بن شعبة في الناس ، وبما جاءهم رؤسائهم وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشايرنا ، فخرج بهم من الكوفة ، ووجه المغيرة لقتالهم معقل بن قيس ارياحي فلما علم المستورد تمسير معقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٦)

٤١٨ - خطبة المستورد

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخريف معقل بن قيس قد وُجّه إليكم ، وهو من السَّبئية^(١) المهترئين الكاذبين ، وهو الله ولسم عدو ، فأشيروا على برايكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل وننتجى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتبس الدنيا ، ولا ذكراها ، ولا فخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ آهًا لي بخذافيرها ، وأضعاف ما يُتفأس فيه منها ، بقبال^(٢) نعلِي ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يهديني الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ؛ وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لأقيم لهم حتى يقدّموا عليّ ، وهم حامون متوافرون ، ولسكن رأيت أن أسير حتى أمعن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فقطعوا وتبدّدوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . »

(١) السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء ، أسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالهم ، وغلا في علي ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة وأتى قوم منهم إلى علي فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأججت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يمدب بالنار إلا الله ، ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شيانة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فنفى ابن سبأ إلى سباط المدائن ، فلما بلغه مقتل علي قال : لو أني تمونا بدماغه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انشعبت أصناف الغلاة . (٢) قبال النعل : زمام بين الأصبع الوسطى والى تليها .

فخرجوا ففضوا على شاطىء دجلة، فعبروه ومضوا في أرض جُوخَى، حتى بلغوا المذار فأقاموا فيها، وأقبل معقل بن قيس، فأقام بالمدائن ثلاثاً، ثم جمع أصحابه، فقال: (تاريخ الطبرى ٦ : ١١٠)

٤١٩ - خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم، إرادة أن تقعجوا في آثارهم، ففتتطموا وتبددوا، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم^(١)، وإنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله» فخرج في آثارهم حتى لحقهم بالمدار مقيمين. ودارت بينهما رحى الحرب بشدة، ودعا المستورد مَعْقِلًا للبارزة فتبارزا، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أمّ الدماغ، فوقع ميتاً، وقتل معقل، وشد أصحابه على الخوارج، فما لبثوهم أن قتلوهم. (تاريخ الطبرى ٦ : ١١١)

٤٢٠ - كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول: إذا أفضيتُ بسيرى إلى صديقى فأفشاه لم أُلْمُه، لأنى كنت أولى بحفظه، ويقول: لا تنفس إلى أحدٍ سرّاً وإن كان محلصاً إلا على جهة المشاورة، ويقول: كن أحرص على حفظ سِرِّ صاحبك، منك على حَقْنِ دمك، ويقول: أوّل ما يدُلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب. ولا يعيب إلا لا يعيب، ويقول: المال غير باقٍ عليك، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك، ويقول: بذلُ المال في حقّه استدعاء للزيد من الجواد^(٢)، وكان يُكثِرُ أن يقول: لو ملكتُ الأرض بجزايرها، ثم دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت.

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٥، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٣)

(٢) أى من المولى السكرم جل وعلا.

(١) تعبتهم.

اثمار الخوارج ثانية

٤٢١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّان بن ظبيان السَّلَمِيّ أصحابه إليه ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال لهم :
« أما بعد ، فإن الله عزّ وجلّ كتب علينا الجهاد ، فَمِنَّا مَنْ قَضَى نَجْبَهُ ^(١) ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم ، ومن يكن مَنًّا مَنْ يَنْتَظِرُ فهو من سَلَفْنَا الْقَاضِينَ نَجْبَهُم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فَلْيَسْلُكْ سَبِيلَ أَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ ، يُؤْتِيهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ »

٤٢٢ - خطبة معاذ بن جوين

قال مُعَاذ بن جُوَيْن الطَّائِي : « يَا أَهْلَ الْإِسْلَام : إنا والله لو علمنا أننا إذا تركنا جِهَادَ الظَّالِمَةِ ، وَإِنْكَارَ الْجَوْرِ ، كان لنا به عند الله عُذْرٌ ، لكان تركه أيسرَ علينا وأخفَّ من ركوبه ، ولسكننا قد علمنا واستيقنا أنه لا عُذْرَ لنا ، وقد جعل لنا القلوب والأسماع ، حتى نُنْكِرَ الظلم ، ونغيّرَ الجور ، ونجاهدَ الظالمين » . ثم قال أبسط يدك نبايعك ، فبايعه ، وبايعه القوم ، فضرروا على يد حَيَّان فبايعوه ، وذلك في إمارة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان التَّمَقِي ^(٢) .

* * *

(١) النجب : الأجل والنذر . (٢) وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُمّاذ بن جوين ، فقال لهم حيان :
عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأسرونني أن أخرج ؟ فقال مُمّاذ : إني أرى أن تسير بنا
إلى حُلوان^(١) حتى ننزلها ، فإنها كورة بين السهل والجبل ، وبين المصر والثغر
— يعني بالثغر ارمى — فن كان يرى رأينا من أهل المصر والثغر والجبال والسّواد^(٢)
لحق بنا .

٤٢٣ — رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُمّاجِلِكَ قَبْلَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيْكَ ، لَعَمْرِي لَا يَتْرَكُونَكَ
حَتَّى يَجْتَمِعُوا إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَيْتَ أَنْ أُخْرَجَ مَعَكُمْ فِي جَانِبِ الْكُوفَةِ وَالسَّبْخَةِ ،
أَوْ زُرَّارَةَ^(٣) وَالْحَبْرَةَ ، ثُمَّ نَقَاتَهُمْ حَتَّى نَلْحَقَ بِرَبِّهَا ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ
— وَأَنْتُمْ دُونَ الْمِائَةِ رَجُلٍ — أَنْ تَهْزِمُوا عَدُوَّكُمْ ، وَلَا أَنْ يَشْتَدَّ نَكَابَتِكُمْ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ
مَتَى عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ قَدْ أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّكُمْ ، كَانَ لَكُمْ بِهِ الْعُدْرُ ،
وَأَخْرَجْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ » قَالُوا : رَأَيْنَا رَأْيَكَ .

٤٣٤ — مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عتريس بن عرقوب : ولكن لا أرى رأى جماعتكم ، فانظروا في رأى
لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتى بالحرب ، وتجربتى للأموار ، فقالوا له : أجل ،
أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل
في كثير ، والله ما تزيدون على أن تحزروم^(٤) أنفسكم ، وتقرؤا أعينهم بقتلكم ،
وليس هكذا تكون المكايدة ، إذا آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم

(١) بلد بفارس . (٢) أى سواد العراق . (٣) عملة بالكوفة . (٤) أى تملكوهم .

ما يضرهم « قالوا : فما رأى ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي أشار بنزولها مُعَاذُ ابن جُوَيْنٍ ، بمعنى حُلوان ، أو تسيرون بنا إلى عين التَّمْر ، فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أَتَوْنا من كل جانب وأوب^(١) . »

٤٢٥ - رد حيان

فقال له حيان : « إياك والله لو سيرت بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ، ما اطمانتم به حتى يلدح بكم خيول أهل مصر ، فأنتي تشفون أنفسكم ؟ فوالله ما عدتكم بالكثيرة ، التي ينبغي أن تطمعوا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مصركم هذا ، فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ، ولا ترَبَّصُوا ولا تنتظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة » قالوا : أما إذا كان لابد لنا ، فإننا لن نخالفك ، فاخرج حيث أحببت .

٤٢٦ - خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن ظبيان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا قوم : إن الله قد جمعكم تَلْخِيرٍ ، وعلى خيرٍ ، والله الذي لا إله غيره ، ما سررت بشيء قط في الدنيا بعد ما أسلمتُ سروري لمخرجي هذا على الظلمة الأئمة ، فوالله ما أحب أن الدنيا يحذاقها لي ، وأن الله حرمني في مخرجي هذا الشهادة ، وإني قد رأيت أن نمخرج حتى ننزل جانب دار جرير فإذا خرج إليكم الأجزاء ناجزتموم . »

فقال عتريس بن عُرقوب : أئما أن نقاتلهم في جوف مصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ،

(١) الأوب : الطريق والجهة .

وتصعد النساء والصدّيان والإماء فيرموننا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا إذن من وراء المصر الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلا أبياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل بانقياً^(١) ، فما أسرع ما يأتبكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجة واحد ، فخرجوا ، فبعث إليهم جيش ، فقتلوا جميعاً .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤٢٧ - خطبة مسلم بن عبيس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عماله في السواد ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكروا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ايلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فجدّوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم فاختر لهم مسلم بن عبيس ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيعه .

(١) بانقياً: ناحية من نواحي الكوفة . (٢) قدمنا لك في «مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج» أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليقيموا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقتلوا معه ، ثم ناظروه : فلم يرقهم ماسموا منه ، ففترقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ماوراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه فقتل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من أشد فرق الخوارج بأساً ، وأصلها عودا ، وأكثرها هددا واحتملها حوادث وأنباء .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامتيار^(١)
ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم ،
فن كان شأنه الجهادَ فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .

فلما صاروا « يدُولَابَ » خرج إليهم نافع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل في المعركة
ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ . (الكامل للمبرد ٢ : ١٨٠)

(١) أي جلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر ، وهي الطعام .

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤٢٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وكان المهلب بن أبي صفرة - وهو على قتال الأزارقة - يأسر أصحابه بالتحريز ويخوفهم النبيات ، وإن بعد منهم العدو ، ويقول : « احذروا أن تُكادوا كما تسكيدون ، ولا تقولوا هزّ منا وغلبنا . فإن القوم خائفون وجلون ، والضرورة تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولهم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد لقيهم قبلكم الصابر الحنسيب مسلم بن عبيس ، والمجمل المفرط عثمان بن عبيد الله^(١) ، والمعصي المخالف

(١) هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر الذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاها بعد عبد الله بن الحرث ابن نوفل) . وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلما عبروا إليهم دجيلاً نهض إليهم الخوارج - وذلك قبيل الظهر - فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتعدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف ، فأبق على نفسك وجنتك ، فقال : أيتيم أهل العراق إلا جبناً ؟ وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهمز الناس ، وولى حرهم بعد حارثة بن بدر فهزموه أيضاً ، فهرب يركض حتى أتى دجيلاً ؛ فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراه ، فصاح به : يا حارث ليس مثل ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فاقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعاً ، فاتوا غرقاً ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفاً شديداً ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القباع (وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

حارثة بن بدر ، فقتلوا جميعاً وقتلوا ، فالقوم مجدٍ وحدّ فإنما هم مهنتكم^(١) وعبيدكم ، وعارٌ عليكم ، ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيثكم ، ويظنوا حرّيتكم .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩ ؛ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٢٨٥)

٤٢٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، واهزم الناس بسؤلآف فقال :

« وألله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف ، والطمع والطبع^(٢) فإن يمسسكم قرح^(٣) فقد مسّ القوم قرحٌ مثله ، فسيروا إلى عدوكم على بركة الله » .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٣٨٦)

٤٣٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدّة منكرة ، فأجفل الناس ، وانصابوا^(٤) منهزمين ، لا تلوي^(٥) أمّ على ولد ، حتى باغ البصرة هزيمة الناس وخافوا السبأ^(٦) ، وأسرع المهلب حتى سبّتهم إلى مكان يقاع^(٧) ، في جانب عن سنان المنهزمين ، ثم إنه نادى الناس : إلىّ إلىّ عباد الله ، فتاب إليه جماعة من قومه ، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضيّ جماعتهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) جمع ماهن ، وهو العبد والخادم . (٢) الشين والعيب . (٣) القرع ويضم : عض السلاح ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم . (٤) انصاع : انفتل راجعاً ممرعاً . (٥) مر لايلوي على أحد : أي لايقف ولاينتظر . (٦) السبى . (٧) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزَمون ، ويُنزَل النصر على الجمع اليسير فيُظهرون ، ولعمري ما بكم الآن من قلة ، إني لجماعتكم لراض ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفُرسان أهل المِضر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خيالاً^(١) ، عزمت على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٨)

٤٣١ — خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصعب بن الزبير أن أقدم على ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رقة ورحمة ، وابن كبيركم : طاعة وبراً وتبجيلاً ، وأخو مثله : مؤاساةً ومناجاةً ، فليتحسن له طاعتكم ، وليين له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سبقتني إليه » ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

(١) فساد . (٢) وفي الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا محال فيها حجارة ،

وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصد الفارس ، وتعرض الراجل ، وقال رجل من الخوارج :

أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأبطال ويحك بالحجر ؟

٤٣٢ — خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي ،
 وقتل ابن الماحوز يوم سلى وسلبرى^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا
 الزبير بن علي السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيئنا ، فقال لهم : اجتمعوا .
 فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال :
 « إن البلاء للمؤمنين تمحيصاً وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ،
 وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلفت ، وقد أصبتم منهم مسلم
 ابن عبيس ، وربيعاً الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحرثة بن بدر ، وأشجيتيم
 المهلب ، وقتلتم أخاه المعارك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين « إن يمسسكم
 قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ ، ونلكَ الأيامُ نداولها بين الناسِ » فيوم سلى
 كان لكم بلاء وتمحيصاً ، ويوم سولاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغابنَّ على
 الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبه للمتقين .
 (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٨)

(١) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جند يسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ،
 وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

بسلى وسلبرى مصارع فتية كرام وجرحى لم توسد خدودها

(٢) كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأمركم الربيع بن عمرو
 الأجدم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفا وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها
 الحجاج بن باب الحميرى ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، التقى هو وعمران بن الحارث الراسبى
 فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين . (٣) وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تبرى ؛ وبها المعارك
 ابن أبي صفرة ، فقتلوه وصابوه ، فمضى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تبرى ، فاستنزله
 ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . (٤) وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :
 وكانن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتل في الجحيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أصفهان^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتابٌ يحارب به في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟ فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرى أن يضمف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلى عليه ، فاتقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لقرسان أهل المصر ، وإنكم لصلحاء من أنتم منه ، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتهم منهم أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشى إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءتته ، فقاتل رجلٌ عن نفسه وصبرٌ وصدق ، فوالله إنى لأرجو إن صدقتموهم أن يظفركم الله بهم ، وأن يظهركم عليهم .

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارثون ، فلم يشعروا بهم حتى غشوم ، فقاتلوهم بجدي لم ير الخوارج منهم مثله ، فمقرّوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وأنهزمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أمرهم بينهم ، فولّوا عليهم قطريّ بن العجّاءة المازنيّ وبايعوه (تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٩١)

(١) أصهان : بفتح الهمة والباء ، وقد تكسر هزتها ، وقد تبدل باؤها فاء .

(٢) إن هنا فافية .

٤٣٤ - نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) قام إليه عرهم أخو بني المدوية ، فقال :

« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَشِطُّ^(٣) بقريش منهم رَجِمُ داسَةٌ مائة ، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها ، وليس صاحبهم إلا المباكر المناكر ، المجرَّب^(٤) المجرَّب ، الذى أَرْضَعْتَهُ الحربُ بلبانها ، وَجَرَّسْتَهُ^(٥) وَضَرَّسْتَهُ ، وذلك أخو الأزد المهلب بن أبى صفرة ، والله إن غنَّكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِينِهِ ، ولكنى أخاف عَدَوَاتِ الدهر وغدره ، وليس المجرَّب كمن لا يُعْلَم ، ولا الناصح المشفق ، كالغاش المُتَمِّم » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأحدوا امرأته^(٦) وَفَرَّ عَمَّا .

(ذيل الأمالى ص ٣٣)

(١) كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٢٣).

(٢) قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهرًا ، ثم عد لفارس ، وخرج خالد إلى الأهواز ، وتذب للناس رجلا فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، إنى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز فى ثلاثمائة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفًا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب فسيعلمون ! » إلى أن قال : فنادىهم عبد العزيز ، فوافقوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تعبئة فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى انتحموا عقبته ، فانتحموا وراءهم ، والناس يهونونه ويأبى وكان لهم فى بطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين ، وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الحوارج يقتلونهم كيف شاءوا » . (٣) أصله من أط الرجل أطيظا : صوت .

(٤) من حرب السنان : حده . (٥) التجريس : التحكيم والتجربة ، وضرسته الحرب تضريسا :

جربته وأحكته أيضا . (٦) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسمى الحوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص من سبى ، قال ابن عبد ربه فى العقد للفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها =

٤٣٥ -- خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطريُّ بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حفت^(٣) بالشهوات ، وراقت^(٤) بالقليل ، وتخببت بالعاجلة^(٥) ، وحليت^(٦) بالآمال ، وتزيّنت بالغرور ، لا تدوم حبرتها^(٧) ، ولا تؤمن فجعها ، غرارة ضرارة ، خيانة غدّارة ، وحائلة^(٨) زائلة ، ونافذة^(٩) بائدة ، أكالة غوّالة^(١٠) ، بدالة نقالة ، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله تعالى : « كمااء أنزلناه من

= في السوق حاسرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكمل الناس كالا وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالي ، حتى بلغوها تسعين ألفا ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطري بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إمام المؤمنين : فقال له : ماتقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت هؤلاء قد تنازعا عليها ؛ حتى ارتفعت الأصوات ؛ واهمرت الخدق ؛ فلم يبق إلا الخطب بالسيف ؛ فرأيت أن تسعين ألفا في جنب ماخشيت من الفتنة بين المسلمين هيئة ، فقال قطري : خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها » هـ .

(١) أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نهج البلاغة ؛ وعزاها إلى الإمام على كرم الله وجهه وكذلك القاضي في دستور معالم الحكم ؛ وقال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) : « وهذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين ؛ ورواها لقطري بن الفجاءة ؛ والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الموفقي لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية لأمر المؤمنين عليه السلام وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد لقي قطري أكثرهم » .

(٢) أي ناضرة ، من خضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ١٥١ : (٣) أي أطافت بها الشهوات . (٤) أعجبت أهلها بمتاع قليل ليس بدائم . (٥) أي وتخببت إليهم باللذّة العاجلة ، (والنفس مولعة بحب العاجل) .

(٦) حليت المرأة فهي حال وحالية كتحتلت . وفي رواية : « وتحتلت » . (٧) الخبرة : المرور . وفي رواية : « لاتقوم نضرتها » ؛ لاتقوم : لاتثبت . والنصرة : النعمة والغنى والحسن .

(٨) أي متحولة متغيرة من حال يحول . وفي رواية « خاتلة » أي محاددة . (٩) أي هالككة فانية من نفذ ينفذ كفرح . (١٠) أي مهلسكة من غاله يفوله .

السَّمَاءَ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، « مع أن اسماً لم يكن منها في حبرة ، إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرأها بطناً ، إلا منحتته من ضراًها ظهراً ^(٢) ، ولم تطله غيثة ^(٣) رخاء ، إلا هطلت ^(٤) عليه مزنة بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة ، أن تمسني له خاذلة متسكرة ، وإن جانب منها اغدوذب واخلولى ^(٥) ، أمر عليه منها جانب وأوبى ^(٦) ، وإن أنت اسراً من غضارتها ^(٧) ورفاهتها نعماً ، أرهقته من نوائها تعباً ، ولم يُمسِ امرؤ منها في جناح أمنٍ ، إلا أصبح منها على قوادم ^(٨) خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية ، فإن ما عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منه استكثر مما يؤبه ^(٩) ، وبطيل حزنه ، وببكي عينيه ، كم واثق بها قد فجعته ، وذى طمانينة إليها قد صرعه ^(١٠) ، وذى اختيال ^(١١) فيها قد خدعته ، وكمن

(١) الهشيم : ما هشم وتحطم ، وتذروه : أى تطيه . (٢) كنى بالبطن والظهر عن إقبالها عليه

وإدبارها عنه لأن الملاقى لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمطيك ظهره مدبر عنك .

(٣) طله السحاب يطله : إذا أمطره مطراً قليلاً ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غبية » والغبية

بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق ،

(٤) هطلت السماء كجلس هطلا : تتابع مطرها ، وفي رواية : « هتنت » هتنت السماء كجلس

أيضا هتنا : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمزنة : السحابة أو ذات الماء .

(٥) أى صار عذبا حلوا . (٦) أمر : صار مرا وأوبى : سهل عن أوبى ،

أى صار وبيثا ، وبثت الأرض كفرح وكرم وعنى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل

مرض عام . (٧) النضارة : النعمة والسعة والخصب ، وأرهقه : حمله على مالا يطيقه ، وفي رواية :

« لا يزال امرؤ من غضارتها رغبا » والرغب بالتحريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت امرأ من غضونها

ورقا » ، وفي رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعما ، أرهقته من نوائها غما » .

(٨) القوادم : أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادة ، وخص الخوف بالقوادم

لأنها مقادير الريش ، والراكب عليها بمرض تسقوط قريب . (٩) بها-كه . (١٠) وفي رواية :

« وذى حكم ننته إليها قد صرعه » . (١١) الاختيال : الكبر والعجب ، والأبهة : العظمة ، والبهجة

والسكر والنخوة .

ذِي أُهْمُو فِيهَا قَدْ صَيَّرَنَهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّرَتْهُ ^(١) لِلدِّينِ وَالْفِطْرِ ، سُلْطَانًا دُولًا ، وَعَيْشَهَا رَنْقٌ وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَحُلُوبُهَا صَبِيرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ^(٢) وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ^(٣) ، وَقِطَاعُهَا سَلْعٌ ^(٤) ، حَيْثُهَا بَمَرٌ مَوْتٌ ، وَصِحْبُهَا بَمَرٌ مَوْتٌ ، وَمَنْعِيهَا بَمَرٌ مَوْتٌ ، وَمَنْعِيهَا بَمَرٌ مَوْتٌ ، وَسَلِيمُهَا مَسْكُوبٌ ، وَجَامِعُهَا مَحْرُوبٌ ^(٥) ، مَعَ أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، وَهَوَلُ الْمُطْلَعِ ، وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ الْحَكْمِ الْعَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحَاهُوا بِمَا عَمَلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

السَّمُّ فِي مَسَاكِنٍ مِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعْدَّ عَدِيدًا ، وَأَكْتَفَى جُنُودًا ، وَأَعْتَدَ عَتَادًا ^(٦) ، وَأَطْوَلَ عِمَادًا ، تُعَبِّدُوا ^(٧) لِلدُّنْيَا أَيْ تَعَبَّدُوا وَأَثَرُهَا أَيْ لِيُثَارَ وَظَهَنُوا عَنْهَا بِالسُّكْرِ وَالصَّغَارِ ! فَهَلْ بَالَكُمْ أَنْ الدُّنْيَا سَمَّحَتْ لَهَا نَفْسًا بَغْدِيَّةً ، أَوْ أَعْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِحَطَبٍ ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ أَرَهَقْتَهُمْ بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعَفْتَهُمْ بِالْفَوَائِبِ ، وَعَقَرْتَهُمْ بِالْمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَفَكَّرَهَا

(١) صرعه وقلبه . (٢) رنق المساء كفرح ونصر : كدر ، فهو رنق كمدل وكتف وجبل ، وأجاج : ملح مر ، وسمام جمع سم مثلث السين . (٣) أسباب جمع سيب : وهو الخيل ، وريام : بالية ، حبل أريام ، وريام : أي بال . (٤) السلع : شجر مر ، أو سم : أو ضرب من الصبر ، أو بقللة خبيثة الطعم . (٥) مسلوب ، من حربه حربا كطابه مليا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفي رواية : « وجارها محروب » . (٦) العتاد : العدة ، وقد عتد كسكرم عتادا فهو عتيد : أي حاضر مهيا معد ، وفي رواية : « وأعدت عنودا » من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : أي مال ، وفي رواية : « وأشد عقودا » . (٧) أي استعبدتهم الدنيا ، تعبدوا : اتخذوا عبدا . (٨) أي بشأن وأمر . (٩) الفوادح : النوائب المشقة ، من فدحه الدين إذا أثقله ، وفي رواية : « القوادح » والقوادح جمع قادح : وهو أكال يقع في الشجر والأستان ، وفي رواية : « وأوهقتهم » أي جعلتهم في الودق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالأطول . (١٠) وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وهو المنابر ، ووطنهم بالمناسم ، « عقرتهم للمنابر » : ألصقت أنوفهم بالمنابر (كسبب ويسكن) وهو للتراب والمنابر جمع منخر بفتح الميم والخاء ، وبكسرهما ، وبضمهما وكجلس : الأنف ، والمنام جمع منهم كجلس وهو خف البعير .

لَمَنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ ، إِلَى آخِرِ الْمُسْتَدِ^(٢) ، هَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّغْبَ^(٣) ، وَأَحْلَتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرْتَ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِيصُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَثُنُونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارَ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فَبُنِيتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّعَمَّرْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعْمَلُوا - وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ - أَنْكُمْ تَارِكُوهَا لِأَبَدٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أُتْبِنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ^(٤) » ، وَاتَعَطَّوْا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، حُلِّمُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَأُنزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضَيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّرْبِ بَرِيحٌ أَكْثَنَانٌ ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرَّفَاتِ جَبْرَانٌ^(٦) ، فَهِيَ حَيْرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْفًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَتَدَبَّةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ يَقْنَطُوا ، جَمْعٌ وَهُمْ آحَادٌ ، وَحَيْرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مَتَعَاهُونَ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ، حُلْمَاهُمْ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْفَانُهُمْ ، وَجَهْلَاهُمْ

(١) أَى خَضَعَ لَهَا وَذَلَّ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « لِمَنْ رَادَهَا » أَى طَلَبَهَا : رَوَدَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَالَ .
 (٢) الْمُسْتَدُ : الدَّهْرُ ، وَفِي رِوَايَةٍ هُ إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ . (٣) الْجَوْعُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « الشَّقَاءُ وَالضَّنْكَ : الضِّيقُ . (٤) نَزَلَتْ فِي عَادٍ قَوْمِ هُودٍ ، الرِّيحُ : الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَى بُنْيَانَةٌ وَقُصُورًا يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَمْتَشُونَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَيَطَاوِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْمُنَافَى مِنَ الْقُصُورِ وَالْحِصُونِ . (٥) وَفِي رِوَايَةٍ « فَلَا يَرْعَوْنَ » أَى فَلَا يَرْعَاهُمْ أَحَدٌ . (٦) الْأَكْثَنَانُ جَمْعٌ كُنَ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ وَقَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسْتَرُهُ . وَالضَّرْبُ : الْقَبْرُ أَوْ الشَّقُّ وَسَطُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ » وَالْأَجْنَانُ جَمْعٌ جَنْبُ كَسْبٍ : وَهُوَ الْقَبْرُ ، وَالصَّفِيحُ : الْحِجَارَةُ الْمَرَاضُ ، وَالرَّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . (٧) الْمَتَدَبَّةُ : النَّدْبُ عَلَى الْمَيِّتِ . (٨) وَفِي رِوَايَةٍ : « إِنْ جِيدُوا » مِنْ جَادَهُمُ الْغَيْثُ إِذَا أَمْطَرُوا . (٩) قَحِطَ النَّاسُ كَمَسَّ ، وَقَحِطُوا وَأَقْحَطُوا مَبْنِيِّينَ لِلْمَجْهُولِ (قَلِيلَتَانِ) ، وَبِكُلِّ رَوَى .

قد ماتت أحقادهم ، لا يُخَشَى فَجَعُهُمْ ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وكما قال الله تعالى :
 « فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ،
 استبدلوا بظهر الأرض بطنًا ، وبالسعة ضيقًا ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة ، ففارقوها
 كما دخلوها ، حفاة عراة فرادي ، غير أن ظمنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة ، وإلى
 خلود الأبد ، يقول الله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »
 فاحذروا ما حذرکم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته
 وورزقنا وإياكم أداء حقه .

(البيان والتبيين ١ : ٦٣ . وصيغ الأعراس ١ : ٢٢٣ . والعقد الفريد

٢ : ١٦٠ . وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٠ . ونهاية الأرب ٧ :

٢٥٠ . ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ . دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبد ربه الصغير

ولما دبت عقارب الخِلاف بين الأزارقة ، وامت بهم يد الشقاق ، خلموا قَطْرِيَّ
 ابن الفجاءة ، وولوا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرِ ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من ^(١) الشَّطْر ،
 ونشبت الحرب بينه وبين المهلب ، فأجَلَّتِ الوقعة عنه قتيلا ، وقد جمع أصحابه في الليلة
 التي قتل في صديحتها ، فقال :

« يامعشر المهاجرين : إن قَطْرِيَّا وَعُيَيْدَةَ ^(٢) هَرَبَا طلبَ البقاء ، ولا سبيلَ إليه ،
 فالتقوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يغلبنكم على الموت ، فتلقوا الرماحَ بنحوركم
 والسيوفَ بوجوهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا ، يهبها لكم في الآخرة . »
 (الكامل للمبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٥)

(١) أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان فوجه الحجاج إليه جيشا عليه سفيان بن الأبرد
 فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه وقتل سنة ٥٧٨ هـ ، وبقتله انتهت حروب الأزارقة . (٢) هو عبيدة
 ابن هلال اليشكري من كبراء الأزارقة .

٤٣٧ - خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مُسَرَّح يري رأى الصُفْرِيَّة^(٢) ، وكان رجلا ناسكا مُخْبِئًا^(٣) ، مصفّر الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بِدَارًا^(٤) وأرض المَوْصِل والجزيرة ، له أصحاب يُقرّئهم القرآن ، ويفقههم وَيَقْصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللهم إنا لا نَعْمُدُ بك ، ولا نَحْفِدُ^(٥) إلا إليك ، ولا نَعْبُدُ إلا إياك ، لك الخلق والأمر ، ومنك النفع والضر ، وإليك المصير ، ونشهد أن محمداً عبدك الذي اصطفيته ، ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك ، ونصيحة عبادك ، ونشهد أنه قد بلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، ودعا إلى الحق ، وقام بالقسط ، ونصر الدين ، وجاهد المشركين ، حتى توفاه الله صلى الله عليه وسلم .

أرصبيكم بتقوى الله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين ، وحبّ المؤمنين ، فإنّ الزّهادة في الدنيا ترغّب العبد فيما عند الله ،

(١) هو صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه : وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشا بقيادة عدى بن عدى بن عميرة فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى مافيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشا آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحجاج جيشا يقوده الحارث بن عميرة فنحارهم وقتل في المعركة صالح . (٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصغر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة أو لخلوهم من الدين وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . (٣) أخبت لله : خشع وتواضع . (٤) دارا : بلد بين نصيبين ومزديين من أرض الجزيرة . (٥) حفد كضرب : خف وأسرع .

وتفرغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تخيف العبد من ربه ، حتى يجاز (١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين للسبب الذي يُنال به كرامة الله ورحمته وجنته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فملهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ، وفقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم ولي الأمر من بعده النبي الصديق ، على الرضا من المسلمين ، فافتدى بهديه ، واستن بسنته ، حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يُخنيق في الحق على جرته (٢) ، ولم يخف في الله لومة لائم ، حتى لحق به رحمة الله عليه ، وولي من بعده عثمان ، فاستأثر بالنبي ، وعطل الحدود ، وجار في الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزّر المحرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرى الله منه ورسوله وصالح المؤمنين ، وولي أمر الناس من بعده علي بن أبي طالب ، فلم ينشب أن يحكم في أمر الله الرجال ، وشك في أهل الضلال ، وركن (٣) وأدهن ، فنحن من علي وأشياعه براء ، فتيسر ورحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المنحزبة ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزعو من القتل في الله ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم - غير ما ترجم الظنون - ففرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائدكم ودنياكم ،

(١) جار إليه كنع : رفع صوته بالدعاء ، وتضرع واستغاث . (٢) أحنق الصلب : لزق بالطن . والحجرة : ما يخرج البعير من جوفه ويمضغه ، كنى بذلك عن عدم إضماره الحقد والدغل . (٣) ركن إليه : مال .

وإن اشتدَّ لذلك كرهُكم وحزَمكم ، ألا فيبعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين ، وتُعَانِقُوا الحُورَ العِين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذَّاكِرِينَ ، الذين يَهْدُونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلُونَ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٨ — خطبة أخرى له

وروى الطبرى أيضاً قال :

« بيئنا أصحابُ صالحٍ يخْتَلِفُونَ إليهِ ، إذ قال لهم ذات يوم : ما أَدْرَى ما تنتظرون ؟ وحتى متى أنتم مُقِيمُونَ ؟ هذا الجُورُ قد فَشَا ، وهذا العَدْلُ قد عَمَا ، ولا تزداد هذه الوُلاةُ على الناسِ إلا غُلُوءًا وَعَتُوءًا ، وتباعدوا عن الحقِّ ، وَجُرْأَةً على الربِّ ، فاستعِدُّوا ، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الباطلِ والدعاءِ إلى الحقِّ ، مثل الذى تريدون ، فيأتوكم فنلتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٩ — خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَعَجَّلُوا إلى قِتَالِ أحدٍ من الناسِ إلا أن يكونوا قومًا يريدونكم وَيَنْصِبُونَ^(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضبًا لله ، حيث أنتم مَحَارِمُهُ ؟ وَعَثَى فى الأَرْضِ ، فسفكت الدماءَ بغيرِ حِلِّها ، وأخذت الأموالَ بغيرِ حقِّها ، فلا تَعْبِيرُوا على قومِ أعمالِهم تَعْمَلُوا بها ، فإن كلَّ ما أنتم عاملون ،

(١) أى يصادونكم .

أنتم عنه مسئولون ، وإن عَظَمكم رَجَالَة ، وهذه دوابُّ لمحمد بن مروان في هذا الرِّسْتاق^(١) ، فابدهوا بها فشدُّوا عليها ، فاحلوا أَرْجُلَكُم ، وتقوَّروا بها على عدوكم .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤١٠)

٤٤٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وَحَلَفَ على رياسة الخوارج الصُّفْرِيَّة بعد مقتل صالح بن مُسَرِّح أحد أصحابه ، وهو شَيْب بن يزيد الشَّيبَانِي ، فَكَتَبَ الحِجَاج لِقِتَالِه الكُتَّاب ، وَكَانَ أميرها في بعض الوَقَات زَائِدَة بن قُدَامَة ، وجاء شَيْب حتى وقف مُقَابِلَ القوم ، فخرج زَائِدَة يسير بين الميمنة والميسرة ، يجرِّضُ الناس ويقول :

« عبادَ الله ، إنكم الطَّيِّبُونَ السَّكِينُونَ ، وقد نزل بكم الخبثون القليلون ، فاصبروا جُعِلَتْ لَكُم الفِدَاءُ إنها حَمَلَتَانِ أو ثَلَاث ، نَمَ هو النصر ليس دونه شيء ، ألا تَرَوْنَهُم والله لا يكونون مائتي رجل ؟ إنما هم أَكَلَة رَأْس ، وم السُّرَاق المُرَّاق ، إنما جَاءوكم لِيَهْرِيَقُوا دِمَاءَكُم ، وَيَأْخِذُوا فَيْثَكُم ، فلا يكونوا على أَخْذِهِ أقوى منكم على منعه ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهل قُوَّة ، وأنتم أهل جَمَاعَة ، غَضُّوا الأبصار ، واستقبلوهم بالأَسِنَّة ، ولا تَحْمِلُوا عليهم حتى أَمَرَ كَم » ، فابرح يقاتلهم مُقْبِلًا غير مُدْبِر ، حتى قتل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤١٥)

٤٤١ — خطبة الحجاج بن يوسف

ولما هزم شَيْب الجيش الذي كان الحجاج وجهه إليه مع عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) الرستاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (معرب) .

« أيها الناس : والله لَتَقَاتِلَنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأَبْعَثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والغیظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم - یعنی جند الشام - . »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعقِب الأير ، فليندُ بنا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٢٢ - خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد من الناس في الإفاضة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا ، إلا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن لنا كل المارب الهوان والجفوة ، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن ، كفعلكم في الموطن التي كانت ، لأولينكم كنفاً خشناً ، ولأغر كنفكم بكل كل ثقيل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٥)

٤٤٣ - خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مئون ومئون ، إلا إنني مصلّي الظهر ، ثم سأر بكم إن شاء الله » .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٢ : ص ٤١٩)

٤٤٤ - خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ، يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قصصاً كثير أمنه قوله : « يأهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا ترون أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حمد الله فعله فما أعظم درجته ، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوك هذا يستعرض المسلمين بسيفه؟ لا يرون إلا أن ذلك لهم قرابة عند الله ، فهم شيرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القصص يقصون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنقرة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ا والله الكأني بكم وقد قرّرتكم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه تسقى في استيبر الريح ، وحل عليه شيب فتفرق عنه كثير من أصحابه وخذلوه ، وثبت في عصاة قليلة صبرت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن الحديد ١ ص ٤٢٠)

٤٤٥ - خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج تجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلهم يقتل أمراءهم ، ويقفل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سفیان بن الأبرد الكلبي ، في أربعة آلاف ، وحبیب بن عبد الرحمن الحكبي من مدحج في أنين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشدوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يأهل الكوفة ، فلا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، األقوا بالحجارة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهيد قتال عتّاب ابن ورقاء^(١) . » (تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١م : ص ٤٢٠)

٤٤٦ - خطبة عبد الله بن يحيى الإباضي^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندي على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب الناس ، فحمد الله جلّ وعزّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعظ وذكر وحذّر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمد نبيّنا ، والكتب قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالا ، لا نبيّنا به بدّيلا ، ولا نشترى به تمنا قليلا ، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ولا حول

(١) ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمدايمته ، فشئت جموعه فانصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشا عليه سفيان بن الأبرد فالتقيا على جسر دجيل ، وحشي بينهما وطيس القتال حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا معاشر المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه وزل حافر فرسه عن حرف السفينة ، فسقط في الماء ، وكان هلاكه سنة ٥٧٧ (٢) هو عبد الله بن يحيى الكندي ، وكان من حضر موت ، وكان مجتهدا عابدا من رؤساء الخوارج الإباضية : (والإباضية فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إباض - بكرم الهمة -) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جورا ظاهرا وعسفا شديدا ، وسيرة في الناس قبيحة فقال لأصحابه إنه لا يحل لنا المقام على ما ترى ولا الصبر عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج فوافقوه ، وشخص إليه أبو حنيفة المختار بن عوف الأزدي ، وبلغ بن عقبة السعدي في رجال من الإباضية فحرضوه على الخروج ، وكثر جمعه وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القاسم بن عمر) فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصره فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها من الخزان والأموال .

ولا قوّة إلا بالله ، وإلى الله المُشْتَكَى ، وعليه المَعْوَل ، من زنى فهو كافر ، ومن سرَق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شكّ في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات مُحْكَمَات ، وآثارٍ مُقْتَدَى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، هَدَلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والمدارة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلّ فِتْرَةٍ بقايا من أهل العلم ، يدْعُونَ من ضلّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقْتَلُونَ على الحق في سالف الدهور شهداء ، فما نَسِيَهُمْ رَبُّهُمْ ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلّكم الله بالقيام به ، فأبْلَوْا الله بلاءً حسناً في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأغاني ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

خطب أبي حمزة الشاري

٤٤٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا أهل المدينة : سأناكم عن ولاتكم هؤلاء ، فأسأتم - لعمري الله - فيهم القول ،
قلتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حلاله ، فوضعوه في غير حقه ، وجاروا
في الحكم ، فحكوا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بفقيرنا ، فجعلوه دولةً بين الأغنياء

(١) بعد أن استولى عبدالله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهراً يحمدن السيرة في الناس ويلين
جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم فكثرت جمعه وأتته الشراة من كل جانب (والشراة كقضاة جمع شاركوا
وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى : أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شرينا أنفسنا في طاعة الله : أى بعناها
ووهبتها ، أخذنا من قوله تعالى :

« وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتِغَاءً مَرَضًا اللَّهُ » أو لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا ،
أى اشتريناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدي ثم السلمى من
أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم التروية « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم غلب مكة فهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومضى
عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص
إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم ،
وجار في الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدنا بكم ، فإننا لا نريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة وقالوا : يا أعداء
الله : أنحن تخليكم وندعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج : يا أعداء الله أنحن نفسد في الأرض ؟ إنما
خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالنوء ، فانظروا لأنفسكم ، واخلموا من لم يجعل الله
له طاعة ، فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال
بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتل قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ،
منهم من قریش أربع مائة وخمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقيت من صقر سنة ١٣٠ ، وهرب
عبد الواحد بن سليمان إلى الشام .

منهم ، وجعلوا مَقَارِسِمَنَا وَحُتُوقَنَا فِي مَهْرِ النِّسَاءِ ، وَفُرُوجِ الإِمَاءِ^(١) ، فَقَلْنَا لَكُمْ : تَمَالَوْا
نَحْنُ وَأَنْتُمْ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُونَا وَظَلَمُواكُمْ ، وَجَارُوا فِي الْحُكْمِ ، فَحَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أُنزِلَ اللَّهُ
فَنَاشَدَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَتَنَحَّوْا عَنَّا وَعَنكُمْ ، لِيُخْتَارَ الْمُسْلِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَقَلَّمْ : لَا يَفْعَلُونَ ، فَقَلْنَا
لَكُمْ : تَمَالَوْا نَحْنُ وَأَنْتُمْ نَقَاتِلَهُمْ ، فَإِنْ نَظَرَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ نَأْتِ بِمَنْ يُقِيمُ فِينَا وَفِيكُمْ
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَلَّمْ : لَا تَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ، فَقَلْنَا لَكُمْ :
فَخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ نَظَرَ نَمْدِلُ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنَحْمِلُكُمْ عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَقْسِمُ فِيمَنْ بَيْنَكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ وَقَاتَلْتُمُونَا دُونَهُمْ ، فَقَاتَلْنَاكُمْ وَقَتَلْنَاكُمْ ،
فَأَبَدَكُمْ اللَّهُ وَأَسْحَقَكُمْ .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح
ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٨ - خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فنخطب ، فقال في خطبته :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَرَرْتُ بِكُمْ فِي زَمَنِ الْأَحْوَالِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ أَصَابَتْكُمْ
عَاطَةٌ بِتِجَارِكُمْ ، وَكُتِبَتْمْ إِلَيْهِ تَسْأَلُونَهُ أَنْ يَضَعَ خَرَاجَكُمْ عَنْكُمْ ، فَكُتِبَ إِلَيْكُمْ بِوَضْعِهِ
عَنْ قَوْمٍ مِنْ ذَوِي الْبِيسَارِ مِنْكُمْ ، فَزَادَ الْغَنَى غِنَى ، وَزَادَ الْفَقِيرُ فَقْرًا ، فَقَلَّمْ : جَزَاكَ اللَّهُ
خَيْرًا ، فَلَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، وَلَا جَزَاكَ خَيْرًا . »

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

(١) وفي رواية : « وسألناكم ، هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام
والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم . »

٤٤٩ - خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون صحابه^(١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيرون أصحابه ، كخدانة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متنكب قوساً عربية ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

« يا أهل المدينة ، قد بلغتني مقاتلکم لأصحابي ، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم ، لأحسنت أدبكم ، ونجّمتكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكذب ، وبيّن له فيه السنن ، وشرّح له فيه الشرائع ، وبيّن له فيه ما يأتي وما يذّر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يُحجّم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذي عليه ، وعلم المسلمين معاملة دينهم ، ولم يدعهم من أبرهم في شبهة ، ودلى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم ، حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، فعمل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الردّة ، وشمّر في أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنده راضون رحمة الله عليه ومغفرته ، ثم ولي بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجنّد الأجناد ، ومصرّ الأمصار ، وجبّى القبيّء ، وفرّض الأخطية ، وشمّر عن ساقه ، وحسّر عن ذراعه ، وجلّد في الحجر ثمانين ، وجمع الناس في شهر رمضان^(٢) ، وغزا العدو في بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه - وكان دونهما - ثم سار في الست الأواخر بما أحبّط به الأوائل ، واضطرب جبل الدين بعدها ، فطلبها^(٣) كل امرئ

(١) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

(٢) أي لصلاة القيام ، وفي رواية : « وقام في شهر رمضان » .

(٣) أي الخلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معاوية فيها .

لنفسه ، وأتمرّ كل رجل منهم سريرةً أبداها الله عنه ، حق مضوا على ذلك ، ثم وليّ على بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله :
ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لأمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه (١) ، وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ عبادة الله خولاً (٢) ، ومال الله دُولاً (٣) ، وبغى دينه عوجاً ودغلاً (٤) ، وأحلّ الفرج الحرام ، وعمل بما يشتهي ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ، يزيد الخمر ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروود (٥) ،

(١) انظر ص ٢٣ و ٢٤ . (٢) عبيدا . (٣) جمع دولة بالضم : أى متداولاً بين عشيرته دون سائر المسلمين . (٤) الدغل : الفساد كالدخل . (٥) روى المسعودى فى مروج الذهب - ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقروود ، وفهود ؛ ومنادمة على الشراب ؛ وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - فأقبل على ساقيه ، فقال :

استقى شربة تروى مشائى
صاحب السر والأمانة عندى
ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
ولتسديد مغنى وجهادى

(والمشاش كغراب : النفس والطبيعة) ، ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يعمله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكتى بأبى قيس ؛ يحضره مجلس منادته ؛ ويطرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله على أتان وحشية ؛ قد ريفت وذلك لذلك بسرجه ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الخلبة ، فجاء فى بعض الأيام سابقاً فتناول القصبية ؛ ودخل الحجره قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباه من الحرير الأحمر والأصفر مشهر (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها إن سقطت ضبان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به
جيايد أمير المؤمنين أتان !

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفاً بالصميد لايزال لاهياً به ، وكان يلبس كلاب الصميد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالسكمر جمع جل بالضم والفتح : ما نذبه الدابة لتصان به » ويهب لكل كلب عبداً يخدمه ، قيل إن عبید الله بن زياد أخذ من بعض =

الفاسقُ في بطنه ، المأبون^(١) في فرجه ، يخالف القرآن ، واتبع السكّهان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طرّيد لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وابن لعينه ، فاسقٌ في بطنه وفرجه ، قاله نوّه والنعنو آباءه . ثم تداوها بنو مروان بعده ، أهل بيت الائمة ، طرّداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقومٌ من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، وعبّوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبداً ، يورث ذلك الأكبرُ منهم الأصغر ، فيما لها أمة ! ما أضيّعها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سبي أعمالهم ، واستخفّفهم بكتاب الله تعالى ، قد تَبَذَّرَهُ وراء ظهورهم لعنهم الله ، فالعنوهم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يَسْكُدْ وَعَجَزَ عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر - .

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلامٌ ضعيف سَفِيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رُشدُه ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ : « فَإِنْ آتَسَّمْهُ

= أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جباية وجعلها في خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق في تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرّفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضراً فيها ، فضرب تخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر حود يزيد من الصيد ، فبينما هو في بعض الأيام جالس في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوي مبلغاً كبيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شدت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدا بنفسه ، فاشمر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زى الملوك ؛ وقد علته غبرة ، فقام إليه ، وسلم عليه ، فقال له أرايت كلبة عابرة هذا الموضع ؟ فقال : نعم يامولانا ، هاهي في الخيمة ، قد شربت ماء واستراحت وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، وفظّر إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بحبلها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

(١) أبته بشيء كنصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كهقده : العيب . (٢) بلغ أشده : أى قوته ، وهو ما بين ثمانين عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد اختلف المؤرخون في مقدار سن يزيد ، فقيل إنه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهراً ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسفهه وعكوفه على اللذات والشهوات .

مِنْهُمْ رُشْدًا فَأَذْفَمُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) ، فأمرُ أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها ، أعظم عند الله من مال اليتيم ، وإن كان عند الله عظيماً ، غلام مأبون في بطنه وفرجه ، يشرب الحرام ، ويأكل الحرام ، ويلبس الحرام ، يلبس بُرْدَتَيْنِ قَدْ حَبَّكَتَاهُ ، وقومًا على أهلها بألف دينار ، وأكثر وأقل ، قد أخذت^(٢) من غير حِلِّها ، وصُرِفَتْ في غير وجهها ، بعد أن صُرِبَتْ فِيهَا الْأَبْشَارُ^(٣) ، وَحُلِقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وهتكت فيها الأستار ، واستُحِلَّ ما لم يُحِلَّ اللهُ لعبد صالح ، ولا نبي مرسل ، ثم يُجْلِسُ حَبَابَةَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَسَلَامَةَ عَنْ شِمَالِهِ ، تغنيانه بزمامير الشيطان ، ويشرب انحر العُصْرَاحِ الْحَرَمَةَ نَصًا بَيْنَهُمَا ، حتى إذا أخذت منه مأخذها ، وخالطت رُوحَهُ ولحج ودمه ، وغلبت سَوْرَتَهَا على عقله ، مَرَّقَ حُلِّيَيْهِ ، ثم التفت إليهما فقال : أَنَاذِرَانِ لِي أَنْ أُطِيرَ^(٤) ؟ نعم ، فطرني إلى لعنة الله ، وحرىق ناره ، وأليم عذابه ، طرني إلى حيث لا يردك الله .

(١) الآية الكريمة في اليتامى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ

أَسْتَمْتُمْ . . . » . (٢) أى الدنانير . (٣) فيها : أى في تحصيلها . والأبشار : جمع بشر ، وهو جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد ضرب الناس في جباية الأموال . (٤) ذكر ذلك ابن طباطبائي الفخرى ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خلیع بنى أمية شغف بجاريتين أمم إحداهما سلامة ، والأخرى حيابة فقطع مهمما زمانه ، قالوا : فغنت يوما حيابة :

بين التراق والهواة حرارة
ماتطمئن ولا تسوخ فتبرد

فأهوى يزيد إيطير ، فقال : يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : فملى من تدع الأمة ؟ قال : عليك وقبل يديها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فأسخنك » وروى أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حيابة مولة من مولدات المدينة ، حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء ؛ وقد قال يزيد بن عبد الملك : ماتقر عيني بما أرتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة وحيابة ، فأرسل فاشتريتا له ، فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فأنقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أقبل على يزبه يلومه في الإلحاح على الغناء والشراب ، وقال له : إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغللت بهذه الأمة عن النظر في الأمور ، والوفود ببابك ، =

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال: « أصابوا إمرة ضائمة ، وقوماً طعماً أجھالاً ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فأسكوا الأسر ، وأسلطوا فيه تسلط رُبُوبِيَّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظنَّة ، ويعطون الحدود بالشفاعات ، ويأمنون الخوثة ، ويُقصون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاتِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْعَارِمِينَ

= وأصحاب الظلمات يصيحون ، وأنت غافل عنهم ، فقال : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ، ولم يدخل على حيابة أياما ، فندت حيابة إلى الأحوص أن يقول آياتنا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لآلمه اليوم أن يتبلدا	فقد غلب المخزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى فن شاء لأمى	ومن شاء أمى فى البكاء وأسعدا
وإنى وإن فندت فى طلب الفنى	لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا
إذا أنت لم تمشق ولم تدر ما الهوى	فكن حجرا من يابس الصخر جلدا
فا العيش إلا ماتلذ وتشهى	وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

ومكث يزيد جمعة لا يرى حيابة ، ولا يدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواربها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمينى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فتلقتة والعود فى يدها ، ففنت البيت الأول ، ففطى وجهه ، وقال : مه لاتفعل ، ثم غنت : فا العيش إلا ماتلذ وتشهى : فعدل إليها ، وقال : صدقت والله ، ففحج الله من لأمى فىك ، يا غلام . مسلمة أن يصلى بالناس ، وأقام معها يشرب وتغنيه ، وعاود ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها ، انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، وما ذكره المسعودى : أن حيابة احتلت فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لا يدفنها حتى جيفت فقيل له : إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن نسل عنك النفس أو تدع الهوى • فبالياس تساو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ^(١) « فَأَقْبِلْ صِنْفٌ تَأْسَعُ لَيْسَ مِنْهَا ، فَأَخَذَ كُلُّهَا : تَلَسَّكَ
الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنني سمعت الله
عزَّ وجلَّ قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ،
لا يرجعون إلى نظرٍ نافذٍ في القرآن ، ولا عقلٍ بالغٍ في الفقه ، ولا تفتيشٍ عن حقيقة
الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصيبة لحزبٍ لزوم ، وأطاعوه
في جميع ما يقوله لهم ، غيياً كان أو رشداً ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدُّول في رَجْمَةِ
الموتى^(٢) ، وَبُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ قَبْلَ السَّاعَةِ ، وَيَدَّعُونَ عِلْمَ الْغَيْبِ لِمَخْلُوقٍ ، لا يعلم أحدهم
ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه توبه ، أو يحويه جسمه ، يَتَقَمِّمُونَ الْمَعَاصِيَ عَلَى أَهْلِهَا
ويعملون إذا ولّوا بها ، يُصِرُّونَ عَلَى الْفِتْنَةِ وَلَا يَعْرِفُونَ الْمَخْرَجَ مِنْهَا ؛ جُفَاءً فِي دِينِهِمْ ،

(١) الصدقات : الزكاة . العاملين عليها : الساعين في تحصيلها وجمعها . والمؤلفة قلوبهم : الذين
أسلدوا وفتيتهم ضميعة في الإسلام ، فتستألف قلوبهم . وفي الرقاب : أى وفي فك رقاب المكاتبين ، فيعانون
بشيء منها . والغارمين : أى المدينين لأنفسهم في غير معصية ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .
(٢) كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن
أعين الناس ؛ فالشيعة الكيسانية يقولون إن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يمت ، وإنه في جبل رضوى
(بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء ووصل ، وإنه يعود بعد النبية فيملا
الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يغيب ولا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والنصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨
والاثنا عشرية « وهى إحدى فرق الشيعة الإمامية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الإمام الثاني عشر وهو محمد
ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدي المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ،
وأنه يخرج في آخر الزمان فيملا الأرض عدلاً وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون في كل ليلة
بهد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيبتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك
النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

قليلة عقولهم^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن مؤالاهم لهم
تغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى
يؤوفكون^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق بأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تفتدون ؟ وقد بلغنى
أنكم تنتقصون أصحابي ! قاتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويحكم بأهل المدينة !
وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون في الخير إلا شبابا
أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم بتقابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم
ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباب والله مُكْتَهَلُونَ^(٣) في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن
الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء^(٤) عبادة ، وأطلاحُ مَهَرٍ^(٥) ، باعوا
أنفساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية
أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما صر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا
مرَّ بآية من ذكر النار شقق شهقةً ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض
رُكَبَهُمْ وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال^(٦) الليل بكلال النهار ، مُضْفَرَةٌ
ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب
الله ، مؤفون بهمد الله ، مُفْجَزُونَ لوعد الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوّقت^(٧) ،
ورماحهم وقد أشرعت^(٨) ، وسيوفهم وقد انتضيت^(٩) ، وبَرَفَتِ السكتية ورعدت
بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد السكتية لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد

(١) وفي البيان والتبيين « جفاة عن القرآن ؛ أتباع كهان » . (٢) أفسكه عنه كضرب : صرفه
وقلب رأيه . (٣) أى قد أحرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم . (٤) جمع نضو كحمل ، وهو
المهزول . (٥) جمع طلع وهو كنضو وزنا ومعنى . (٦) الكلال : التعب والإعياء .
(٧) فوق السهم : جعل له فوقاً (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ؛ أى أعدت للرى .
(٨) سددت . (٩) استلت .

الكتيبة ، ولَقُوا شَبَابًا^(١) الأسننة ، وشائِك السهام ، وظَبَاتِ السيوف بنحورهم ،
 ووجوههم وصدورهم ، ففضى الشاب منهم قُدُماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
 واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّرَ^(٢) جبينه بالترى ، وانحطت عليه طير السماء ،
 وتمرقتة سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكَم من عين في منقار طائر طالما بكى
 بها صاحبها في جَوَف الليل من خَوْف الله ، وكَم من يد قد أُبِينت عن ساعدها ، طالما
 اعتمد عليها صاحبها راکماً وساجداً ، وكَم من وجه رقيق ، وجَبِين عَتِيق^(٣) ، قد فُلق
 بعمد الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
 وأدخل أرواحهم الجنان » . الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
 والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١ .

٤٥٠ - خطبة أخرى

ورق المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أُرْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 وَصَلَّةِ الرَّحْمِ ، وَتَعْظِيمِ مَا صَعَّرَتِ الْجَبَابِرَةُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ ، وَتَضْعِيفِ مَا عَظَّمَتِ مِنَ الْبَاطِلِ ،
 وَإِمَانَةِ مَا أَحْيَوْا مِنَ الْجُورِ ، وَإِحْيَاءِ مَا أَمَاتُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَأَنْ يُطَاعَ اللَّهُ ، وَيُنْصَى
 الْعِبَادُ فِي طَاعَتِهِ ، فَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَلِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالطَّاعَةُ لِلْخَلْقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَلْقِ ، نَدْعُو
 إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَالْقِسْمِ بِالسُّوْبَةِ ، وَالْعَدْلِ فِي أَرْعِيَةِ ، وَوَضْعِ الْأَخْمَاسِ فِي
 مَوَاضِعِهَا الَّتِي أَسْرَأَ اللَّهُ^(٤) بِهَا ، تَعْلَمُونَ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَنَّا لَمْ نَخْرُجْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا أَشْرَأَ

(١) جمع شبابة : وهي حد كل شيء ؛ والظبات : جمع ظبة ؛ وهي حد السيف . (٢) أصابه العفر :

وهو التراب . (٣) كريم .

(٤) قال الله تعالى : « وَعَلَّمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » .

وَلَا بَطْرًا ، وَلَا عِبْتًا ، وَلَا لَهْوًا ، وَلَا لِدَوْلَةِ مُلْكٍ نَزِيدَ أَنْ نَخْوِضَ فِيهِ ، وَلَا لِنَارِ قَدِيمِ نَيْلٍ مَنَا
 وَلَكِنَّا لَمَّا رَأَيْنَا مَصَابِيحَ الْحَقِّ قَدْ أَطْفِئَتْ ، وَمَعَالِمَ الْعَدْلِ قَدْ عَطَلَتْ ، وَكَثُرَ الْأَدْعَاءُ فِي
 الدِّينِ وَعَمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُنِفَ الْقَائِلُ بِالْحَقِّ ، وَقَتِلَ الْقَائِمُ بِالنِّسْطِ ، ضَاقَتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ
 بِمَا رَحُبَتْ ، وَسَمِعْنَا دَاعِيًا ^(١) يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُسْكِمَ الْقُرْآنَ ، فَأَجَبْنَا دَاعِيَ اللَّهِ
 وَمَنْ لَا يُجِيبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٢) فِي الْأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنَا مِنْ قَبَائِلِ شَتَّى ،
 النَّفَرُ ^(٣) مَنَا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، عَلَيْهِ زَادُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، يَتَعَاوَرُونَ لِحَافًا وَاحِدًا ، قَلِيلُونَ
 مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَأَوَانَا اللَّهُ وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَأَصْبَحْنَا وَاللَّهِ جَمِيعًا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ،
 وَهَلَى الدِّينَ أَعْوَانًا ، ثُمَّ لَقِينَا رِجَالَهُمْ بِقَدِيدٍ ، فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحَكَمَ الْقُرْآنَ ،
 وَدَعَوْنَا إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَحَكَمَ مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ ، فَشَتَّانَ لِعَمْرٍُ اللَّهِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ
 وَالرَّشْدِ ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهَرَعُونَ وَزَرْقُونَ ^(٤) ، قَدْ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ بَجْرَانَهُ ^(٥) ، وَغَلَّتْ بِدِمَائِهِمْ
 مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، وَأَقْبَلَ أَنْصَارَ اللَّهِ عَصَائِبَ وَكُتَابَ ، بِكُلِّ مَهْنَدٍ
 ذِي رَوْثٍ ، فَدَارَتْ رِحَانًا وَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ بِضَرْبِ يَرْتَابٍ مِنْهُ الْمُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يُسْحِقَنَّكُمْ ^(٦) اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ
 عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، وَبِشَفِ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ أَوْلَيْتُمْ خَيْرَ أَوْلٍ ،
 وَآخِرَكُمْ شَرًّا آخِرًا ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : النَّاسُ مَنَا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثْنٍ ، أَوْ كَافِرًا
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عَضُدِهِ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ لِلَّهِ عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبٌ ^(٧) .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨) ، الأغانى ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١)

(١) يريد عبد الله بن يحيى الكندي . (٢) أى لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته .

(٣) النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة . (٤) زف الظلم وغيره كضرب زفا وزفيها

وزفوفًا ، وأزف : أسرع . (٥) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره : أى استولى عليهم .

(٦) أسحت : استأمله . (٧) روى أنه قال عقب ذلك : « يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية

أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي ، على حبه للضعيف ، فجاء تاسع ، ليس له منها ولا سهم واحد ، =

٤٥١ - خطبة له في سبّ أهل المدينة وتقرير بهم

وخطب المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل المدينة : مالى رأيت رسم الدين فيكم بقيًا ، وآثاره دارسةً ، لا تقبلون عظّمته ولا تفقهون من أهله حُجّةً ، قد بايت فيكم حدّته ، وانطمست عنكم سُنّته ، تَرَوْنَ معروفه منكراً ، والمنكر من غيره معروفًا ، إذا انكشفت لكم العبر ، وأوضحت لكم النذر^(١) ، عميت عنها أبصاركم ، وصمّت عنها أسماعكم ، ساهين في غمّرة ، لاهين في غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنبصر عن الحق إذا ذكر ، مستوحشةً من العلم ، مستأنسةً بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نُفورًا ، تحملون قلوبًا في صدوركم كاللحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو لم تَلِنْ لكتاب الله الذى لو أُزِل على جبلٍ لرأيتَه خاشعًا مُتصدِّعًا من خشية الله ، يا أهل المدينة ، ما تُتَنِي عنكم صحة أبدانكم إذا سِقُمّت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سببًا غالبًا ينقاد له ، ويطيع أمره . وجعل القلوبَ غالبَةً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب ميلاً ، كانت الأبدان لها تبعًا ، وإن القلوب لا تَلين أهلها إلا بصحتها ، ولا يصحّحها إلا المعرفةُ بالله ، وقوّة النية ، ونفاذ البصيرة ، ولو استنشعرت تقوى الله قلوبكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يا أهل المدينة : داركم دارُ الهجرة ، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نَبَت به داره ، وضاق به قراره ، وآذاه الأعداء وتجهمت^(٢) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قومٍ لعمري لم يكونوا أمثالكم ، مُتوّازرين مع الحق على الباطن ، مختارين الأجل على العاجل ، يصبرون للصبراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاءوا في سبيله ، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النور

= فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ، ما يقولون فيه وفيمن عاونوه على فعله ؟ يا أهل المدينة بلغنى أنكم

تنتقصون أصحابي ... الخ » وقد حدثته هنا لوروده في الخطبة السالفة .

(١) النذر : جمع نذير ، وهو المنذر . (٢) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه كريمة .

الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ، وَأَثَرُوا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١) . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَفْجَاءً وَمِنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِحُونَ » ، وَأَنْتُمْ
أَبْنَاؤُهُمْ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْقِهِمْ ، تَتْرَكُونَ أَنْ تَقْتَدُوا بِهِمْ ، أَوْ تَأْخُذُوا بِسُنَّتِهِمْ ، تُغْمَى الْقُلُوبُ ،
صُمُّ الْأَذَانِ ، اتَّبِعْتُمُ الْهَوَى ، فَأَزْدَاكُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَسْهَأَكُمْ ، فَلَا مَوَاعِظَ الْقُرْآنَ تَنْزِجُكُمْ
فَتَزْجُرُونَ ، وَلَا تَعِظُكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ ، وَلَا تُوقِظُكُمْ فَتَسْتَيْقِظُونَ ، لَيْسَ الْخَلْفَ أَنْتُمْ مِنْ
قَوْمٍ مَضَوْا قَبْلَكُمْ ، مَا سِرْتُمْ بِسِرَّتِهِمْ ، وَلَا حَفِظْتُمْ وَصِيَّتَهُمْ ، وَلَا احْتَذَيْتُمْ مِثْلَهُمْ ، لَوْ شِئْتُمْ
عَنْهُمْ قُبُورَهُمْ ، فَعُرِضْتُمْ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَكُمْ ، لَعَجِبُوا كَيْفَ صُرِفَ الْعَذَابُ عَنْكُمْ !
(الْأَغْنَى ٢٠ : ١٠٥ ، وَشَرَحَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ ١ : ص ٤٥٨)

* * *

وجاء في رواية العمدة القريدي :

« يَا هَلْ الْمَدِينَةُ : أَوْلَاكُمْ خَيْرٌ أَوَّلَ ، وَآخِرَكُمْ شَرٌّ آخِرَ ، إِنَّكُمْ أَطَعْتُمْ قُرَاءَكُمْ
وَقَفَّهَأَكُمْ فَآخْتَنَانُكُمْ^(٢) عَنْ كِتَابِ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ ، بِتَأْدِيلِ الْجَاهِلِينَ ، وَانْتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ ،
فَأَصْبَحْتُمْ عَنِ الْحَقِّ نَآبِينَ^(٣) ، أَمْوَانًا غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : يَا أَبْنَاءَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمُ بِإِحْسَانٍ ، مَا أَصْحَحَ أَصْلَكُمْ ، وَأَسَقَمَ فَرْعَكُمْ ! كَأَنَّ
أَبَاؤَكُمْ أَهْلَ الْيَقِينِ ، وَأَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِالْدِينِ ، وَالْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ ، وَأَنْتُمْ
أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلَةِ ، اسْتَعْبَدْتُمْ الدُّنْيَا فَأَدَلَّتْكُمْ ، وَالْأَمَانِي فَأَضَاتْكُمْ فَتَنَحَّ اللَّهُ لَكُمْ
بَابَ الدِّينِ فَسَدَّدْتُمُوهُ ، وَأَغْلَقَ عَنْكُمْ بَابَ الدُّنْيَا فَتَحْتَمُّوهُ ، مِرَاعٌ إِلَى الْعِتْنَةِ ، بِطَالٍ
عَنِ السُّنَّةِ ، مُعْتَمِدٌ عَنِ الْبِرْهَانِ ، صُمٌّ عَنِ الْعِرْفَانِ ، عَمِيْدُ الطَّمَعِ ، حُلْفَاءُ الْجَزَعِ ، نِعْمَ
مَا وَرَّثَكُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وَبئس ما تَوَرَّثُونَ أَبْنَاءَكُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ ، نَصَرَ اللَّهُ
آبَاءَكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَخَذَلَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، كَانَ عَدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعَدَدُكُمْ كَثِيرًا

(١) الخصاصية : الفقر . (٢) خازنكم . (٣) أى عادلين عنه منصرفين .

خيث ، اتبعتم الهوى ، فأزداكم ، واللهو فأفسهاكم ، ومواعظُ القرآن تزجركم
فلا تزدرجون ، وتعبركم^(١) فلا تعتبرون «
(العقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٢ - خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في ناشئٍ فِتنة^(٢) ، وقائدٍ ضلالة ، قد طال
جُثومها ، واشتدَّ عليك عُثُومُها ، وتلوَّنت^(٣) مصايدُ عدو الله فيها ، وما نصَّب من
الشرك لأهل الغفلة عمَّا في عواقبها^(٤) ، فلن يَهْدَ عمودها ، ولن يَنْزِعَ أوتادها ،
إلا الذى بيده ملك الأشياء ، وهو الله الرحمن الرحيم ، ألا وإن الله بقايا من عباده
لم يتحيروا في ظلِّها ، ولم يُشايعوا أهلها على شُبهها ، مصاصيحُ النور في أفواههم تزهُو ،
وألسنهم بحججِ الكتاب تنطق ، ركبوا منتهج السبيل ، وقاموا على العلم^(٥) الأعظم ،
هم خصماء الشيطان الرجيم ، بهم يُصلح الله البلاد ، وَيَدْفَعُ عن العباد ، فطوبى لهم
وللمستصبحين^(٦) بتورمهم ، وأسأل الله أن يجعلنا منهم^(٧) . »

(العقد الفريد ٢ : ١٦٢)

-
- (١) المراد : تمظكم ، من العبارة ؛ ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذى فيها : « عبر
الدرهم : وزنها . » (٢) من إضافة الصفة للموصوف أى في فتنة ناشئة ، أى حية شابة .
(٣) تمددت وسمارت ذات ألوان : أى نصب العدو لنا المصايد ، ودبر المكائد للإيقاع بنا .
(٤) أى ولسنا منهم . (٥) العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستخفون في دعوتهم .
(٦) أى المستصبيين . (٧) ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب مني إسنادها ؛ وهى لأبي
حمزة كما في العقد الفريد .

٤٥٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان^(١) فقال :
« يا أهل المدينة : إنا خارجون لحرب مروان ، فإن نظهر نعدل في أحكامكم ،
ونحمِلكم على سنة نبيكم ، ونقسم بينكم فيكم ، وإن يكن ما تمنون لنا : فسيعلم
الذين ظلموا أيُّ مُتَقَلِّبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغاني ٢٠ : ١١٠ وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦١)

٤٥٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران^(٢) بن حطان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ،
فقال عمران : لبئس ما أدبك أدلك يا حجاج ! كيف أمِنتَ أن أجيبك بمثل
ما لقيتني به؟ أبعث الموت منزلةً أصانمك عليها؟ فأطرق الحجاج استجابةً وقال : خلوا عنه ،
فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع إلى حربه معنا ،
فقال : هيهات ! غلَّ يَدًا مُطْلِقُهَا ، وأسَرَ رَقَبَةً مُعْتَقُهَا .

(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

(١) وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام؛ واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ،
وأمره أن يمضي فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، ويقاقل عبد الله بن يحيى ، فساد إليهم ،
وخرج أبو حمزة للقائه ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حمزة ؛ وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه
هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بني العباس ، ثم سار ابن عطية إلى
اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

(٢) كان رأس القعد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

الخطب الوعظية والوصايا

٤٥٥ - خطبة سبحان بن زفر الوائلي^(١) (توفي سنة ٥٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أهبها الناس : فخذوها من دار تمرِّكم لدار ممرِّكم ، ولا تهتكوا أمتاركم عند من لا تحفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، فيها حَيِّيم وانفيرا خَلِقم ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة ما قدم لله ؟ قدّموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم » .

(سرح العيون ص ٩٥)

(١) هو سبحان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في المصاححة والبيان ، فقيل : « أخطب من سبحان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموجزة ، على أنها ترمز إلى الإمام على - انظر نهج البلاغة ١ . ٢٦٠ - وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابياً خطبها بالبادية - تهذيب الكامل ١ : ٢٨ - وكذا ذكر أبو علي القائل - في الأمالي ١ : ٢٥٨ - وابن عبد ربه - في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ - وأبو الفضل الميداني - في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ - والحصري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمر المؤمنين على عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » - م ٣ : ص ٢ . وقد روى ابن نباتة في سرح العيون أنه قدم على معاوية وقد من خراسان ، فبهم سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلب سبحان فلم يوجد في منزله ، فانتضب من ناحية انتضابا ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ماتنحج ، ولاسل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فزال تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ؛ فأشار إليه سبحان أن لا تقطع كلامي ، فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعده ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سبحان : « والمعجم والجن والإنس » اه ، ولعل هذه الإطالة هي التي عاقت الرواة عن حفظ مايقول .

٤٥٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم في كَرِّ الجديدين^(١) ، ثم ارجعوها كلية عن بلوغ
الأمَل ، فإن الماضي عِظَةٌ للباقي ، ولا تجعلوا الفرورَ سبيلَ العجز عن الجدِّ ، فَيَنْقَطِعَ
حجبتكم في موقفِ الله سائِلُكم فيه ، ومحاسبُكم فيما أسلفتم ، أيها الناس : أمْسِ شَاهِدٌ
فاحذروه ، واليوم مؤدَّب فاعرفوه ، وغداً رسولٌ فأكرموه .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٥٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أيها الناس : اعملوا لله رغبةً ورهبةً ، فإنكم نبات نِباتِ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدِ نِعْمَتِهِ ،
ولا تفرس لكم الآمالُ ، إلا ما تجتنيه الآجالُ ، وَأَقْلُوا الرغبة فيما يورث العطبَ ،
فكل ما تزرعه العاجلةُ ، تَقْلَمُه الآجلةُ ، واحذروا الجديدين ، فهما يكرهان عليكم ،
إن عُقْبَى من بَقِيَ لِحُوقِ بَيْنِ مَضَى ، وعلى أثرٍ من سَلَفٍ ، يمضى من خَلْفٍ ،
فَتَرَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . »

(مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

(١) الجديدان : الليل والنهار .

٤٥٨ — خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد: حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبِلاغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ ، وَرَأَى رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبُّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدَكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ . »

(تهذيب الكمال ١ : ٢٧)

(١) هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقه مزاحا المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما ترى وروى الميداني في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

كلام الحسن البصرى

(المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٥٩ - خطبة له

قال الحسن البصرى رحمه الله ^(١) :

« يان آدم : بيع دنياك بأخرتك ترَبِحُهُمَا جَمِيعاً ، ولا تَبِعِ آخِرَتِكَ بِدُنْيَاكَ فَتَخْضِرَهَا جَمِيعاً . يان آدم : إذا رأيت الناس في الخير فنافِسْهُمْ فِيهِ ، وإذا رأيتهم في الشرِّ فلا تَقْبِطْهُمْ عَلَيْهِ ، التَّوَّاءُ ^(٢) هَاهُنَا قَلِيلٌ ، والبقاء هناك طويل ، أُمَّتُكُمْ آخِرُ الْأُمَمِ ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ ، فماذا تنتظرون ؟ للمعاينة ؟ فكأن قد ذهبت هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحالِها ^(٣) ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم . فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أئمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يَلْحَقَهُ آخِرُكُمْ ، من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً ورائحاً ، لم يضع لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ ، ولا قَصَبَةً عَلَى قَصَبَةٍ ، رُفِعَ لَهُ عِلْمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ ^(٤) ، فَالْوَحَاءُ الْوَحَاءُ ^(٥) »

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتنسين

وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . (٢) الإقامة .

(٣) أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى فهي حال وحالية : ليست الحلى ، والمعنى ذهبت

بزخرفها الذى تزينت به الناس فأضلتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها »

وهو تحريف . (٤) وفى نسخة : « فما إليه » . (٥) الوحاء ويهد : المجلة والإسراع .

وَالنَّجَاءَ النِّجَاءَ ، عَلَامَ تَعْرِجُونَ ؟ أَرَيْتُمْ وَرَبَّ السَّعْيَةِ أَقْدَأُ بِخِيَارِكُمْ : وَأَنْتُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَرْتَدُّونَ^(١) ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ ، اخْتِيارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَكَانَ صَفْوَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَرَسُولَهُ إِلَى عِبَادِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَوْضِعًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ^(٢) ، وَأَتَاهَا مِنْهَا قُوَّةً وَبُلْغَةً ، ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . فَرِغِبْ أَقْوَامٌ عَنْ عَيْشِهِ ، وَسَخِطُوا مَا رَضِيَ لَهُ رَبُّهُ ، فَأَبَدَهُمُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُمْ^(٣) .

يَا بَنِي آدَمَ : طَلَّ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ ، فَإِنَّهَا عَنْ قَائِلِ قَبْرِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَذِهِ عَمْرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمَّكَ . رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ فَنَفَسَكَ ، وَتَفَسَّكَ فَاعْتَبَرَ ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ ، فَقَدْ أَبْصَرَ أَقْوَامٌ وَلَمْ يَصْبِرُوا ، فَذَهَبَ الْجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُدْرِكُوا مَا طَلَبُوا ، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا فَارَقُوا .

يَا بَنِي آدَمَ : إِذْ كَرَّ قَوْلُهُ : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ^(٤) فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، أَفْرَأُ كِتَابَكَ ، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . عَدَلَ وَاللَّهِ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خَذُوا صِفَا الدُّنْيَا ، وَذَرُّوا كَدَّرَهَا ، فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدَّرَا ، وَلَا السَّكْدَرُ مَا عَادَ صَفُّوا ، دَعُوا مَا يُرِيْبُكُمْ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكُمْ ، ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَقَلَّتِ الْعُلَمَاءُ ، وَعَفَّتِ^(٥) السُّنَّةُ ، وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحَّيْتُ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ حَسْبَتُهُمْ إِلَّا قُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ الصَّدُورِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَاتِهِمْ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ^(٦) مِنْكُمْ - مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا عَلَيْهِمْ - ، وَكَانُوا فِيهَا أَحْلَى اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ، مَا لِي أَسْمَعُ حَسِيسًا ، وَلَا أَرَى

(١) أى تصيرون أردالا جمع رذل : وهو الدون الخسيس . (٢) أى موضعا ساميا .

(٣) أى أبدهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم . (٤) أى عمله يحمله فى عنقه ،

والتصير به لما كانوا يتيمينون ويتشامون بالطائر السانع والبارح ، استعير لما هو سبب الخير والشر .

(٥) بحيث . (٦) أخوف

أُنَيْسًا ، ذهب الناس وبقى النِّسْناس^(١) ، لو تفكاشتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأَطْباق ، ولم تهادوا النَّصَائِحَ ، قال ابن الخطاب : « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أَعِدُّوا الجواب ، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذ من قِبَلِ ربه ، إن هذا الحق قد جَهَّدَ أَهْلَهُ ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عَرَفَ فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذمَّ الآخرة ، وليس بكره لِقَاءِ اللهِ إِلَّا مُقِيمٌ عَلَى سَخَطِهِ .

يا بن آدم : الإِيمان ليس بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ، ولكنه ما وقرَّ في القلوب ، وصدَّقه العمل .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٨ وعيون الأخبار ٢ م ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦٩)

٤٦٠ - خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ^(٢) » قال :
عَمَّ أَلْهَأَكُم ؟ عن دار الخلود ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ^(٣) ، هذا والله فَصَّحَ القومَ ، وهَتَكَ السُّتْرَ ، وأبدى العوارِ^(٤) ، تُنفِقُ مِثْلَ دِينِكَ فِي شَهْوَاتِكَ سَرَقًا ، وتمنع في حق الله دِرْهَمًا اسْتَعْلَمَ يَأْكُوعُ^(٥) ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛ فأما المؤمن : فقد أُلْجِمَهُ الخوفُ وَقَوْمَهُ ذِكْرُ العَرَضِ ؛ وأما الكافر : فقد قَمَعَهُ السيفُ ، وشرَّدهُ الخوفُ ، فأدَعَنَ بِالْجِزْيَةِ ، وَسَمَّحَ بِالضَّرْبِيَّةِ ؛ وأما المنافق : ففي الحُجْرَاتِ والطَّرُقَاتِ ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُعْلَنُونَ ، وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ ، فاعتبروا إنكارهم ربهم ، بأعمالهم الخبيثة ، وبلك ؟ قنلتَ وليه ، ثم تمنَّيَ عليه جَنَّتَهُ ؟ . (البيان والتبيين ٣ - ٦٩)

(١) في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقى النسناس » قيل : فالنسناس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النسناس كلام كثير ، منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوهم في أشياء ، وليسوا منهم .

(٢) التباهى بالكثرة . (٣) لا تنفى . (٤) العوار مثلث اليمين : العيب .

(٥) الكعج : التميم والأحقي .

٤٦١ — خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خلأ بكتاب الله ، فَعَرَّضَ عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتبَ وأتاب ، وراجع من قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظَ أخاه وأهله فقال : « يَا أَهْلِي : صَلَاتِكُمْ صَلَاتِكُمْ ، زَكَاتِكُمْ زَكَاتِكُمْ ، جِيرَانِكُمْ جِيرَانِكُمْ ، إِخْوَانِكُمْ إِخْوَانِكُمْ ، مَسَاكِينِكُمْ مَسَاكِينِكُمْ ، لِمَلِ اللهُ بِرُحْمِكُمْ ، فَإِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْتُمْ عَلَى عِبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ ، فَقُلْ : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . يَا بَنِي آدَمَ : كَيْفَ تَكُونُ مُسْلِمًا وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ جَارُكَ ، وَكَيْفَ تَكُونُ مُؤْمِنًا وَلَمْ يَأْمَنْكَ النَّاسُ ؟ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٦٢ — خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصحح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عمالك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئًا من الخير وإن صغر فإنك إذا رأيت سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئًا من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَسَبَ طَيِّبًا ، وَأَنْفَقَ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ فَضْلًا ، وَجَهَّوْا هَذِهِ الْقُضُولَ ^(١) حَيْثُ وَجَّهَهَا اللهُ ، وَضَعُوهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِنْ مِنْ كَانَ قَلْبُكُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاغَتِهِمْ ، وَيُؤَثِّرُونَ بِالْفَضْلِ ، أَلَا إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَضْرَبَ بِالدُّنْيَا فَفَضَحَهَا ، فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدَ ذُو لُبٍّ فِيهَا فَرَحًا ، فَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ السَّبِيلَ الْمُنْفَرِقَةَ ، الَّتِي جَمَاعُهَا الضَّلَالَةُ ، وَمِيعَادُهَا النَّارُ ، أَدْرَكْتُ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمًا كَانُوا إِذَا جَنَّتْهُمْ اللَّيْلُ فَقِيَامَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ خُدُودَهُمْ ، تَجْرِي دِمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يَبْتَاجُونَ مَوْلَاهُمْ فِي فِكَكَ رِقَابِهِمْ ، إِذَا عَمَلُوا الْحَسَنَةَ سَرَّهَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمْ ، وَإِذَا عَمَلُوا سَيِّئَةً سَاءَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ ، يَابْنَ آدَمَ : إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَلَيْسَ هَاهُنَا شَيْءٌ يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ يَكْفِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَالْقَائِلُ مِنَ الدُّنْيَا يَكْفِيكَ ، يَابْنَ آدَمَ : لَا تَعْمَلْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ رِيَاءً ، وَلَا تَتْرِكْهُ حَيَاءً .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٤ - خطبة أخرى

وكان يقول : « إِنْ الْعُلَمَاءُ كَانُوا قَدْ اسْتَفْتَوْا بَعْلَهُمْ عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانُوا يَقْضُونَ بَعْلَهُمْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا لَا يَقْضِي أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَا فِيهَا ، وَكَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَبْذُلُونَ دُنْيَاهُمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ رَغْبَةً فِي عِلْمِهِمْ ، فَأَصْبَحَ لِلْيَوْمِ أَهْلُ الْعِلْمِ يَبْذُلُونَ عِلْمَهُمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دُنْيَاهُمْ ، فَارْتَبَّ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ ، وَزَهَدُوا فِي عِلْمِهِمْ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ سُوءِ مَوْضِعِهِمْ عِنْدَهُمْ » ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا أَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُوَارِي

(١) جمع فضل : وهو الزيادة من المال وغيره .

غنى غناه ، ويُبْدِي لى فقره ، وَيُعَلِّقُ دونى بابه ، ويعتنى ما عنده ، وأدع
من يفتح لى بابه ، ويُبْدِي لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٥ - خطبة أخرى

وكان يقول : « يا بن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك
من الآخرة أفقر ، مؤمن مُهْتَمٌّ ، وَعِلْجِ اغْتَمِّ ، وأعرابى لا فقه له ، ومنافق مكذَّب ،
ودنياوى^(١) مُتَرَفٍّ ، نَعَقَ سَهْمَ نَاعِقٍ فَاتَّبَعُوهُ ، فَرَّاشُ نَارٍ^(٢) ، وَذِبَّانٌ طَمَعٌ ، والذى نَفَسُ
الحسن بيده ، ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن
راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بَلَاءٌ صاروا إلى
حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أى قوم : إن نعمة الله عليكم
أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحةٌ دون الجنة ،
ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الحماة من همم . »

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٦ - خطبة أخرى

وقال فى يوم فِطْرٍ - وقد رأى الناس وهيتاتهم - : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان
مِضْماراً لخلقهِ ، يَسْتَبِقُونَ فيه بطاعته إلى مَرَضَاتِهِ ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون
خفاً ، فالعَجَبُ من الضاحك اللاعب ، فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه
المبطلون ، أما والله أن لو كُشِفَ الغطاء ، أشغل محسن بإحسانه ، ومُسيء بإساءته ،
عن ترجيل^(٣) شِعْرٍ ، أو تجديد نوب .

(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

(١) نسبة إلى دنيا . (٢) أى هم كالأقراش يتهاقت على النار يحسبها نافعة له فتحرقه .
(٣) وفى رواية الكامل للمبرد : « ترطيل بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن ومكسره وإرخاؤه وإرساله .

٤٦٧ - مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما ولى عُمر بن هُبَيْرَة الفَزَارِي العِراق - وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك - استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِيّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيدَ خليفةُ الله ، استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولّاني ما ترون ، فيكتب إلى بالأمر من أمره ، أعرف في تنفيذه الهلكة ، فأخاف إن أطعته غصَبَ اللهُ ، وإن عصيته لم آمن سَطوته ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقيّة ، وكان ابن هُبيرة لا يستثني دن أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال : « يا ابن هبيرة : خَفِ اللهُ في يزيد ولا تخفَ يزيدَ في الله ، إن الله يمنك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً ، فيزيك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، ثم لا يُنجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة : إن تعص الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركب دين الله وعباده بساطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وفي رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يؤشك أن يزل بك ملك من ملائكة الله فظ غليظ ، لا يعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قرك ، فلا يُغني عنك ابن عبد الملك شيئاً ، وإنى لأرجو أن الله عز وجل سيعصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنك من الله ، فاتق الله أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك ، وأنت على أفتح ما تكون عليه من طاعة يزيد ، نظرةً يفتك بها ، فيمليق عنك باب الرحمة ، واعلم أني أخوفك ما خوفك الله سبحانه حين يقول : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وإذا كنت مع الله عز وجل في طاعته كماك بوائق^(١) يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصية الله وكلك الله إلى يزيد حين لا يُغني عنك شيئاً » .

(١) جمع بانقة وهي اللداهية .

فبكي عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسَفْنَا^(١) له فَسَفَسَفَ لنا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار ٢ م : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٦٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو - وكان والياً على البصرة - الحسن البصري يوماً ، فقال : يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خالق الدنيا وما فيها من رباشها^(٢) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فقال الحسن :

« أبا الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجحت^(٣) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يُعطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيتها ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّرَ له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالاته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مهيئاً ، وحدد له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسالك طريقته ، ونعمل بسنته ، فإلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فلعليتنا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب نخرجنه ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها » :

(١) سفسف عمله : لم يبلغ في إحكامه . (٢) الرياش : الالباس الفاخر والمال والخصب والمماش .

(٣) أى ملت إليها ، من ترجمت به الأرجوحة : مالت .

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لننحِبَ ربنا ، فقال الحسن :
 « لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه :
 « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » فجعل سبحانه أتباعه صلى الله
 عليه وسلم علما للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق الله أيها الرجل في نفسك ،
 وإثم الله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك في مكانك ، يعقلون المنابر ، وتهتز لهم المراكب
 ويجرثون الذيول بطراً ورياء الناس ، يبنون المدر^(١) ، ووثرون الأثر^(٢) ، ويتنافسون
 في النياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ،
 ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التغابن^(٣) ، ويا ويحهم - يوم يفر المرء من أخيه
 وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .
 (الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٠)

٤٦٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيدك الله ، إن أخك من نصحك في دينك ، وبصرك عيوبك ،
 وهداك إلى مرادك ، وإن عدوك من غرك ومناك ، أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحت
 مخالفا للقوم في الهدى والسيره ، والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتمني الأمانى ،
 وترجع في طلب العذر ، والناس أصلحك الله طابان ، فطالب دنيا ، وطالب
 آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتمب الآخر واخترم^(٤) ،

(١) المدر : قطع الطين اليابسة ؛ والمراد يبنون القصور . (٢) استأثر على أصحابه : اختار
 لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة بالضم والكسر ، والجمع أثر
 كفرصة وفرص . (٣) غينه في البيع يغينه ، والتغابن : أن يغيب بعض القوم بعضا ، وسمى يوم القيامة
 يوم التغابن لأن أهل الجنة تغيب أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا . (٤) هلك .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني ، وترك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكيمًا قال :

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سفاها بكأس الموت ساقبها
نعوذ بالله من الحوز بعد الكوز^(١) ، ومن الضلالة بعد الهدى ، لقد حدثت أيها الأمير
عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينًا ، وعلى
أعمالهم معينًا » . (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥١)

٤٧٠ - مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط

وروى أن الحجاج بنى داراً بواسط^(٢) ، وأحضر الحسن ليرأها ، فلما دخلها قال :
« الحمد لله : إن الملوك أيرؤن لأنفسهم عزًا ، وأنا آنزى فيهم كل يوم عزيرًا ، بعمد
أحدهم إلى قصر فبشيده ، وإلى فرش فينجدده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب فيحسبها ،
ثم يحفُّ به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا ما صنعتُ ! فقد
رأينا أيها الغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك ،
وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغررت في دار
الغرور ، لتذلَّ في دار الحيود ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على
العلماء ، كيبيدئذً للناس ولا يكتموناه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل الشام أيشتمني
عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو
يمرك شفتيه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : يا أبا سعيد ، أما كان لإمارتي
عليك حق ، حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوك حتى

(١) الحوز : النقصان ، والكوز : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نعوذ بالله من الحوز بعد
الذكور » أي من النقصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها : وأصله من كوز العمامة وهو
لفها وجمعها . (٢) واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .
(٣) التنجيد : التزيين ، والتنجاد : الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

تبلغ أَمْنِكَ أرفقُ بك وأحبُّ فيك من أَمْنِكَ حتى تبلغ الخوف، وما أردتُ الذي سبق إلى وهلك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فاقبل الأوتى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحباه ، وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « فَأَمَّا بِالْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْدَسِي » عَلِمُ عَلَى وَعُثْمَانُ عِنْدَ اللَّهِ قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية^(١) وعَلَفَ بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحجاج فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، ويا صاحِبِي عند شِدَّتِي ، ويا رَأِيَّ نعمتي ، ويا إلهِي وإلهَ آبَائِي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته ، واصرف عني أذاه » ففعل ربي عز وجل .

ز الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٣ ، والنية والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأما السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٧١ — صفة الإمام العادل^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام المادل قوام كل مائل ، وقصد^(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(٤) كل مظلوم ، ومفزع كل مالهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد

(١) طيب . (٢) أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامها في سلك اللوصايا .

(٣) هداية ورشاد . (٤) اسم من الإنصاف .

لها أطيب الرعى ، ويذودها عن مرائع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر وأقر^(١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسقى لهم صيفاراً ، ويملمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويذخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، نسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارةً ، وتقطعه أخرى ، وتفرح بهافيته ، وتقمّ بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى ، وخازن المساكين ، برّبي صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويربهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تسكن يا أمير المؤمنين فيما مأكلك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفزق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فنزود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحبّائك ، يسئلونك في قعره فريداً وحيداً ، فنزود له ما يضحك يوم يقرّ المرء من أخيه ، وأب وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتابات لا يُعادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد

(١) مثلث القاف : البرد .

الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يَرْتَقِبُونَ في مؤمنٍ إلا^(١) ولا ذِمَّةً ، فنبؤء بأوزارك ، وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يفرتك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في تجمّع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنّت^(٢) الوجوه للحى الميثوم ، إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بمظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي ، فلم آلك^(٣) شفقةً ونصحةً ، فأنزل كتابي إليك كدأوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما ير جوله في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »
(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٦)

٤٧٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلى يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكأن الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو كائن قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقت تمجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الموى ، وإن أذاقت طعم حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

(١) عهدا . (٢) خضعت وذلك . (٣) لم أقصر .

٤٧٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : ا كْتُبْ إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِذَمِّ الدُّنْيَا ، فَ كَتَبَ إِلَيْهِ :

«أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظنن^(١) وانتقال ، وليست بدار إقامةٍ على حال ، وإنما أنزل إليها آدمُ عقوبةً ، فاحذرهما فإن الراغب فيها تارك ، والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدها تذيل من أعزها ، وتفرق من جمعها ، فهي كالسَّمِّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حَتْفُهُ ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداري جراحه ، يحمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، الصبرُ على لآوائها^(٢) ، أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرهما ولم يفتقر بزینتها ، فإنها غدارة ختالة^(٣) خداعة ، قد ترضت بآمالها ، وتزينت لخطابها ، فهي كالعروس ، العيون إليها نظرة ، والقلوب عليها وإلهه^(٤) ، وهي - والذي يمث محمداً بالحق - لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها ، واحذر عثرتها ، فالرِّخاء فيها موصول بالشدّة والبلاء ، والبقاء مؤدّا إلى الهلكة والفناء .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيتها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفتوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موقق ، وللتمسك بها هالك غرق ، والفتن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذره ، وقدّر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ؛ الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يفتقر من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداري جراحه ، يصبر على مرارة الدواء ، لما يرجو من

(٢) شنتها .

(١) ارتحال .

(٤) من الوله بالتحريك : وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

(٣) خداعة .

للعافية ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الدَّارِ ، وَالدُّنْيَا وَيَأْتِيهِ اللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةُ يَفْقَظُهُ ، وَالتَّوَسُّطُ بَيْنَهُمَا الْمَوْتُ ، وَالْعِبَادُ فِي أَصْفَاتِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَاتِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَالَ الْحَكِيمُ :

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخْلَاكَ نَاجِيًا .
وَمَا وَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى عَمْرِ ، بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَقَالَ :
يَرْحَمُ اللهُ الْحَسَنَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَوْقِظُنَا مِنَ الرَّقَدَةِ ، وَيُنَبِّئُنَا مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَاللهِ هُوَ مِنْ
مُشْفِقِي مَا أَنْصَحَهُ ! وَوَاعِظِي مَا أَسَدَقَهُ وَأَفْصَحَهُ !

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٢١)

٤٧٤ - كلمات حكيمة للحسن البصرى

وقال : احذر من نقل إليك حديث غيرك ، فإنه سينقل إلى غيرك حديثك .
أيها الناس : إنكم لا تتألمون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تُدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تسكرهون . الصبر صبران : صبرٌ عند المصيبة ، وصبر عن المعصية ، فن قدّر على ذلك فقد نال أفضل الصبرين . أفضل الجهاد جهاد الهوى . لا تكن ممن يجمع علم العلماء وحكم الحكماء ، ويمجى في الحق مجرمى الشفهاء . من خاف الله أخاف الله سبحانه منه كل شيء ، ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة ما طأ ابن آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لوثاب . احذروا العابد الجاهل ، والعالم القاسق ، فإن فيهما فتنة لكل مفتون . ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة . لا تكن شاة الراعى أعقل منك ، تزجرها الصيحة ، وتطردّها الإشارة . المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان ، بأسر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ، وإنما يتبدل المفاقي ليمتأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسرّه علانيته ، ومشهدّه مخفيّه . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله

والذكر من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشرية ما استعمل التسوية ، واتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح في الأمانى . الحق مُرٌّ لا يصبر عليه إلا من عرف حسن العاقبة ، ومن رجا الثواب خاف العقاب حادوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور^(١) ، واقدعوا^(٢) هذه النفوس ، فإنها طلّمة^(٣) ، وإنسكم إلا تزعوها^(٤) تنزع بكم إلى شر غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمذك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليالك إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الناس صراخاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رزق نعمة فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لو قت الليل حتى ينحني ظهرك ، وصمت النهار حتى يستقم جسمك ، لم يذمك ذلك إلا بورع صادق . وسمع رجلاً يكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أمسك عليك لسانك . فقد قيل : ما شيء أحق بسجن من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب خلق الله إلى الله فأنسه ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذل .

وقال : « يا عجبا لِقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعري ! ما الذى ينتظرون ؟ » وقال : اجعل الدنيا كالتنظرة : تجوز عليها ، ولا تتمررها ، وقال : ليس العجب بمن عَطِبَ كيف عطب ، إنما العجب بمن نجا كيف نجا ، وقال : « من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحرص على العلم ، وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبر في استقامة ، وفقه في يقين ، وكسب في حلال . » (الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ - ٨٣ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠-١١١ . وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ . وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

(١) دثور القلوب : امحاء الذكر منها . (٢) كفوها واكبحوها . (٣) نفس طلّمة :

تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » . (٤) وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية :

٤٧٥ - خطبة واصل بن عطاء^(١) المنزوعة الرأ

الحمد لله القديم بلا غاية ، والبقاى بلا نهاية ، الذى علا فى دُنُوهُ ، ودنا فى عُلُوِّهِ ،
فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يثُوده^(٢) حِفْظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالِ
سبق ، بل أنشأ ابتداعا ، وَعَدَّله اصطناعا ، فأحسن كل شيء خلقه ، وتمم مشيئته ،
وأوضح حكيمته ، فدل على ألوهيَّته ، فسبحانه لَمُعَقَّب^(٣) الحُكْمه ، ولا دافع لقضائه ،
تواضع كل شيء لعظمته ، وذلَّ كل شيء لسلطانه ، ووسيع كل شيء فضله ، لا يعزُّب
عنه مثقالُ حَبَّة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، إلهًا تقدَّست
أسماءه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ،
فلا تبلُغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول ولا الأذهان ، يُعصَى فيحلم ، وَيُدْعَى فيسمع ،
ويقبل التوبة من عباده ، وَيَغْفُو عن السيِّئَات ، وَيَعْلَم ما تفعلون ، وأشهد شهادةَ حق ،
وقولَ صدق ، بإخلاصٍ نيَّة ، وِصْحَة طَوِيَّة ، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه ، وخالصته^(٤)
وصفيَّه ، اجتمعه إلى خلقه بالبينَّة والهدى ودين الحق ، فبأنَّ مَأْلُكته^(٥) ، ونصح لأمته ،
وجاهد فى سبيل الله ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يصدّه عنه زعم زاعم ، ماضيا
على سنته ، مؤفيا على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصلى الله على محمد ، وعلى آل محمد

(١) هو أبو حليفة واصل بن عطاء شيخ المعتزلىن ، وأحد الأئمة المعكلمين ، وكان يبلغ
بالراء ، فيجعلها غينا ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
والى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتجل
هذه الخطبة وعراها من حرف الرأ ، وأبدع فى القول :

ففضل عبد الله خطبة واصل وضوعف فى قسم الصلوات له الشكك

(والشكك بالضم : العطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . (٢) يثقله ، آده أودا (كنصر) بلغ
منه المجهود . (٣) لا راد له . (٤) هذا الشيء خالصته لك : أى خاصة . (٥) المألكة : بضم
اللام وتفتح : الرسالة .

أفضل وأزكى ، وأتم وأمّى ، وأجلّ وأعلى صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائكته ، وأضماف ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والجانبية لمصيبته ، وأحضكم على ما يؤذيكم منه ، ويؤلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معادٍ ، ولا تلهيَنَّكم الحياة الدنيا بزِينتها وخُدعها ، وفوائِن لذاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، ومُدّة إلى حين ، وكلّ شىء منها يزول ، فكم عابتم من أعاجيبها ، ولم نصبّت لكم من حبالها ، وأهلكت من جنح إليها ، واعتمد عليها إذا قهتهم خلواً ، ومزجت لهم سماً ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأرثقوا الأبواب ، وكاثقوا الحجاب ، وأعدّوا الجياد ، ومَلَكُوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بِمَحْمَاهَا ^(١) ، وطحنهم بكلِّ كَلِمَةٍ ^(٢) ، وعضّتهم بأنبيائها ، وعاضّتهم من السّمة ضيقاً ، ومن المِرّة ذلّاً ، ومن الحياة فناءً ، فسكنوا اللّهود ، وأكلهم الدّود ، وأصبحوا لا ترى إلاّ مساً كِئْتَهُمْ ، ولا تجد إلاّ معالِمَهُمْ ، ولا تُحِسّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نبساً ، فتزودوا عاقا كم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، وآتقوا الله يا أولي الألباب لعلمكم تفلحون ، جعلنا الله وإياكم بمن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظّه وسعادته ، ومن يستمع القول فيتبع أحسنه ، أو لئلك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزّكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا نلى عليكم فأنصتوا له ، وأنسموا لعلمكم تفلحون ، أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ثم قال :

(١) الحمل : شقان على البعير يحمل فيهما العنيلان ، والمراد احتوت عليهم .

(٢) الكلكل : الصدر .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وَالوحي المبين ، وَأعاذنا وإياكم من العذاب
الآليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم .
(مفتاح الأفكار ص ٢٧٠)

٤٧٦ - وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابدلوا نداءكم ، وَكفوا إذاكم ،
وَاعفوا إذا قَدَرتم ، ولا تَبْخلوا إذا سُلِّتم ، فإن خير المال ما أفاد حرداً ، أو نَقَى ذمّاً ،
ولا يقوّن أحدكم : ابدأ بمن تعولُ ، فإنما الناس عيالُ الله ، قد تكفل الله
بأرزاقهم ، فن وَسَّعَ أخلفَ الله عليه ، وَمَن ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللهُ عليه .
(الأمال ٢ : ٣٢)

٤٧٧ - وصية عبد الله بن شداد لابنه^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابناً له يقال له محمد ، فقال :
« يا بُنَيَّ ، إني أرى داعيَ الموت لا يُقْلِع ، وأرى من مَضَى لا يرجِع ، ومن بقي
فإليه يَنْزِع^(٢) ، وإني موصيك بوصية فاحفظها ، عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن
أولى الأمور بك شُكْرُ اللهِ ، وَحَسُنُ النيةِ في السِّرِّ والعلانية ، فإن الشُّكْرَ يزداد ،
والتقوى خيرُ زاد ، وَكُن كما قال الحطيئة :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللهِ خَيْرُ الزَّادِ ذَخْرًا وَعِنْدَ اللهِ لِلْآتِقِ مَزِيدٌ
وَمَا لَابِدٌ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدٌ

(١) هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة اللبثي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث على

الحجاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجماجم ، اقتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . (٢) يشناه .

ثم قال : أئى بُنَى ، لاتزهدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، وَالأيام
ذات نواب ، على الشاهد وَالغائب ، فكم من راغبٍ أصبح مطلوباً مالمديه ، واعلم
أن الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبَ الزمان يَرِ المهوان ، وَكن أئى بُنَى كما قال
أبو الأسود الدؤلى :

وَعُدُّ من الرحمن فَضْلاً وَنِعْمَةً عليك ، إذا ماجاء للعرْفِ طالبٌ^(١)
وإن امرأ لا يُرْتَجَى الخيرُ عنده يكن هَيْبَةً ثِقْلاً على مَنْ يصاحبُ
فلا تمننَ ذا حاجةٍ جاء طالباً فإنك لاتدرى متى أنت راغبٌ
رأيتُ التوا هذا الزمانِ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوابُ^(٢)

ثم قال : أئى بنى ، كن جواداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
الخلق ، فإن أحمدَ جود المرء الإنفاقُ فى وجه البرِّ ، وإن أحمدَ بُخلُ الحرِّ الضنُّ^(٣)
بمكتوم السرِّ ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أجودُ بمكنون التلاد ، وإئى بسرِّك عمن سألنى لَصَيْنِ^(٤)
إذا جازز الإئنين سرٌّ فإنه بذثِّ ، وتكثيرِ الحديثِ قَيْنِ^(٥)
وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتنى مكانُ بسوداءِ الفوادِ مَسْكِينِ^(٦)

ثم قال : أئى بنى ، وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن
السكريم يحتمل ، والدنى عيال^(٧) ، وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، أقلَّ

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اوج .

(٣) الضمن بالسكر والضمانة بالفتح : البخل . (٤) سال يسال من باب خاف لغة فى سأل

المهموز ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

(٥) نث الحديث : أفشاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الإئنين للضرورة .

(٦) سوداء الفواد ؛ وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حبه . (٧) العيال جمع عيل كجيد :

وهو ما يلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) .

ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمته طيبته ، وظهرت عند الإنفاق^(١) نعمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدي^(٢) :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ خِلَالاً قَدْ تَمَدُّهُ مِنَ الْمَعَالِي^(٣)
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيَّ نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَجْمَلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
وَإِنْ نِلْتُ النِّعَى لَمْ أَغْلُ فِيهِ وَلَمْ أُخْصُصْ بِجَفَوَاتِي الْمَوَالِي^(٤)

ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك إن أمضيتها حياً لها^(٥) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وَمَا مِنْ شَيْبَتِي شَمُّ ابْنِ عَمِّي وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مِنْ يَرْتَجِمِينِي
وَكَكَلِمَةِ حَاسِدٍ فِي غَيْرِ جُرْمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مُرِّي فَأَقْدِينِي^(٦)
فَمَا بُوَاهَا عَلَيَّ وَلَمْ تَسُوْنِي وَلَمْ يَعْزِقْ لَهَا يَوْمًا جَبِينِي
وَذَوِ الْوَوْنَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيْقًا وَبَلِسَ إِذَا تَغَيَّبَ يَا تَلِينِي^(٧)
سَمِعْتُ بِمَيْبِهِ فَصَفَحْتُ عَنْهُ مُحَافِظَةً عَلَيَّ حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا نواخ امرأ حتى تعاشره ، وتتمقده موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٨) ، فواخه على إقالة المثرة ؛ والمواساة فى المصرة ، وكن كما قال المقنع الكندي :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أُرِدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمْ فَمَا لَهُمْ وَتَفَقَّدِ

(١) الفقر . (٢) هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . (٣) بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد . (٤) الموالى جمع مولى : وهو هنا القريب . (٥) قد حيااله وبجيااله : بإزائه ، أى إن تركتها تجرى فى مجراها . (٦) نفذهم : جازهم . (٧) ائتل : قصر ، أى لا يقصر فى نهش عرضى . (٨) الخبر والخبرة بكسر الحاء فىهما ، ويضمان : العلم بالشئ كالإختبار .

فَإِذَا ظَنَرْتِ بَدَى الْأَبَابَةَ وَالْتَمَقِي قَبِيهِ الْيَدَيْنِ (قَرِيبَ عَيْنٍ) نَاشِدُ^(١)
وَإِذَا رَأَيْتِ (وَلَا مَحَالَةَ) زَلَّةً فَوَلِي أَخِيكَ بِفَضْلِ حِدِّكَ فَارْجُدِي

ثم قال : أى بنى ، إذا أَحْبَبْتَ فَلَا تُفْرِطِ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تُشْطِطِ^(٢) ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ
يُقَالُ : أَحْبَبْتُ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا ، وَأَبْغَضْتُ بَغِيضَكَ
هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَّا ، وَكَانَ قَالَ هُدْبَةَ بْنِ الْخَشْرَمِ الْعُدْرِيُّ :

وَكَانَ مَعْقِلًا لِلْحَلِمِ وَأَصْفَحَ عَنِ الْخَلْفَاءِ فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا حَبِيبَتِ وَسَامِعَ^(٣)

وَأَحْبَبْتُ إِذَا أَحْبَبْتِ حَبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتِ نَازِعٌ^(٤)

وَأَبْغَضْتُ إِذَا أَبْغَضْتِ بَغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتِ رَاجِعٌ

وَعَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ ، وَكَانَ كَمَا
قَالَ الشَّاعِرُ :

أُحْسِبُ الْأَخْيَارَ وَارْتَبْتُ فِيهِمْ رُبَّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرَبِ

وَدَعَيْتُ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَأْمَتْ فَاشْتُمِي ذَا حَسَبِ

إِنَّ مَنْ شَأْمَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ^(٥)

وَأَصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَإِذَا كَذَبْتَ فَتَنْتَهَى

(الأمال ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧ ، ١٢٨)

(١) لب من باب تمب ؛ وفي لغة كقرب مع الفتح في المضارع لبابة : أى صار ذا لب بانضم وهو المعقل . (٢) شط في حكمة . وأشط : جار . (٣) المعقل : اللجأ ، والخنا : الفحش .
(٤) نزع عن الشيء : انتهى عنه . (٥) الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : النحاس .

٤٧٨ - وصية أسماء بن خارجة لابنته^(١)

زَوْجِ اسْمَاءِ بْنِ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هَذَا مِنْ الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةً
أَرَادَ الْبِنَاءَ بِهَا ، قَالَ لَهَا اسْمَاءُ : « يَا بُدَيْيَّةُ ، إِنْ الْأُمَمَاتِ يُؤَدِّبُنَ الْبَنَاتِ ، وَإِنْ أُمَّكَ
هَلَكَتْ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطِيبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ الْحُسْنِ الْكُحْلِ ، وَإِيَّاكَ
وَكثيرة العاتية ، فإنها قطيعة لودد ، وإياك والغيرة ، فإنها يفتح الطلاق ، وكوني لزوجك
أمةً ، يكن لك عبداً ، واعلمى أنى القائل لأُمَّكَ :

خدى العفو مَنِ تَسْتَدِي مَوَدِّي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ^(٢)
وَلَا تَنْقُرِي نَفْرَةَ اللَّذْفِ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغْيِبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَسِ الْحَبُّ يَذْهَبُ
(الأغاني ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٧٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وخرج الزُّهْرِيُّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيتُ كالِيومَ ،
وَلَا سَمِعْتُ كَأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، تَكَلَّمَ بِهِنَ رَجُلٌ عِنْدَ هِشَامٍ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، فِيهِنَّ صَلاَحٌ مُلْكِكَ ، وَاسْتِقَامَةٌ
رِعْيَتِكَ . قَالَ : وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « لَا تَمُدَّ عِدَّةَ لَا تَتَّقُ مِنْ نَفْسِكَ . إِنْجَازَهَا ، وَلَا يَفْرُقَنَّكَ
الْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا إِذَا كَانَ الْمُتَحَدِّرُ وَعَرًّا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ جِزَاءٌ ، فَاتَّقِ
الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَقَعَاتٍ ، فَكُنْ طَلِي حَدَرًا . »

قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث الهدي ، وفي يده لقمة قد رفعها إلى فيه ،

(١) أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوجز ، وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته

(٢) السورة : الحدة .

فأمسكها ، وقال : وَيَحْكُ ! اَعِدْ عَلَيَّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين اسبغ^(١) لقمتهك ، فقال :
حديثك أعجبُ إليَّ .
(زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٨٠ - وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكاتب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٢) رسالة إلى الكاتب بوصيهم فيها ، قال :
« أما بعدُ حفظكم الله بأهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن
الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، ومن بعد
الملك المكرمين أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواءً ، وصرّفهم في صنوف الصناعات ،
وضُرُوب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشرَ الكُتّاب
في أشرف الجهات ، أهلَ الأدب والمروءة والعلم والرّواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ،
وتستقيم أمورُها ، وبنصائحكم يصلحُ الله للعالم سلطانهم ، وتعمُرُ بلادهم ، لا يستغني
الملكُ عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ، فوقعكم من الملك موقع أسماءهم التي
بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي
بها يبيطشون ، فأتممكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه^(٣)
من النعمة عليكم .

وليس أحدٌ أحوجَ إلى اجتماعِ خِلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة
المعدودة منكم أيها الكُتّاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثقُ به في مهمّات أموره ، أن
يكون حليماً في موضع الحلم ، فهِماً في موضع الحُكم ، مقدماً في موضع الإقدام ، مُجِماً
في موضع الإحجام ، مؤثراً للعفاف ، والمدلل والإنصاف ، كقولاً للأسرار ، وقيماً عند

(١) ابتلع . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء

الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ . (٣) أسبغ .

الشَّدَائِدِ ، علماً بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطَّوَارِقِ أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يُحْكِمه ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بغيره عتله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيمدُّ لكل أمر عدته وعتاده^(١) ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ، فتدافسوا ، يا معشر الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف^(٢) ألسنتكم ، ثم أجدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تصبغوا النظر في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها^(٣) ، ودنيها ، وسفاسف^(٤) الأمور ومحقرها ، فإنها مدلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزها هو صناعتكم عن الدفاعات ، وأربثوا^(٥) بأنفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والصلف والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والمدل والنبل من سلفكم

وإن نبأ الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب^(٦) إليه أمره ، وإن أقدم أحدكم الكبر عن مكاتبه ولقاء إخوانه ، فزوره وعظموه وشارروه ، واستظهروا^(٧) بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطغفه واستظهره ليوم حاجته إليه ، أحفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عرّضت في الشغل محمّدة ، فلا يضيفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرّضت مدمّة ، فليحملها

(١) للعتاد : العدة . (٢) الثقاف في الأصل : ماتسوى به الرماح . (٣) ريفيها .

(٤) الردىء من كل شيء . (٥) ربأ : علا وارتفع . (٦) يرجع . (٧) تقووا .

هو من دونه ، وليحذر السَّقطةَ والزَّلَّةَ ، والمَلَل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب ، أسرعُ منه إلى الفِرَاء ، وهو لكم أفسدُ منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحَّبه الرجل ، يَبْذُل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وقائِه ، وشكره ، واحتماله ، وصبره ، ونصيحتِه ، وكيان سره ، وتدبير أمره ، ما هو حَزَّاءُ لحقه ، ويصدِّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه ، والاصطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا إذا كنتم - وفقكم الله من أنفسكم - في حالة الرخاء والشدة والحِرمان والمواساة والإحسان ، والسرَّاء والصرَّاء ، فنفعت الشَّيْمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّي الرجل منكم ، أو صيِّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثِر طاعته ، وليكن على الضميف رقيقاً ، وللمظلوم مُنصِفاً ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبُّهم إليه أرقُّهم بعِياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مُكْرِماً ، وللقبَّاء موقِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية مُتألِّفاً ، وعن إيذائهم منخفياً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سِجِّلات خراجِه واستقضاء حقوقه رقيقاً ، وإذا صحَّب أحدكم رجلاً فليختبر خلانته ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقُه من الحَسَن ، واحتمال لصرْفِه عما يهواه من القبيح ، بأطف حيلة ، وأجل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس الهيمة إذا كان بصيراً ببياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً^(١) لم يهيجها إذا رَكِبها ، وإن كانت شَبُوباً^(٢) اتقأها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً توقأها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرُوناً قَمَعَ برفقِ هواها في طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيراً ، فيتسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والسكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعتِه ، ولطيف حيلتِه ، ومعاملتِه لمن يجاوره

(١) رجه الفرس كنعج : رفسه . (٢) شب الفرس كضرب ونعر : رفع يديه .

من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أرى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم
وَدَه ، من سائس البهيمة التي لا تُحِير^(١) جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ،
إلا بقدر ما يُصَيِّرُها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فأمِنُوا رَحِمَكُمُ اللهُ في النظر ،
وَأَعْمَلُوا فِيهِ ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتهموه الفموة ،
والاستفقال والجفوة ، وَيَصِيرُ^(٢) منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى اللواخاة والشفقة ،
إن شاء الله تعالى .

ولا يجازنَّ الرجل منكم - في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومرزكبه ، ومطعمه ،
ومشربه ، وبنائه^(٣) وخدمته وغير ذلك من فنون أمره - قدرَ حَقِّه ، فإنكم - مع ما فضلكم
الله به من شرف صنعتكم - خدَمَةٌ لِأُتْحَمَلُونَ في خدمتكم على التقصير ، وحَفَظَةٌ
لَا تُحْتَمَلُ منكم أعمال التضييع والتبذير ، واستمِينُوا على هَفَاؤِكُمْ بِالْقَصْدِ في كل ما ذكرته
لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما
يُمَقِّبان الفقر ، وَيُذِلَّان الرقاب ، وَيَفْصَحَانِ أَهْلَهُمَا ، ولا سيما الكناب ، وأرباب
الآداب ، والأُمُور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤنتف^(٤) أعمالكم
بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أروخها بحجة : وأصدقها حجة
وأحدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتَّفِئَةً ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ،
فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقهِ ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ،
ولياخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لعمله ، ومدفمة للتشاغل عن إكثاره ،

(١) لا ترد . (٢) تأمنوا ؛ مجزوم في جواب الأمر ، أو بمباراة أخرى جواب لشرط محذوف مع
فعل الشرط أي إن تعملوا . . . تأمنوا ؛ ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب
والرفع كما هو مشهور . فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود .
(٣) بني على أمهه ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . (٤) مبتدأ .

وَلْيَضْرَعِ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَٰةٍ تَوَفِيْقَهُ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةً وَقَوْعَهُ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدْبِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا ، أَوْ قَالَ قَائِلًا : إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صِنْعَتِهِ ، وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حَيْلَتِهِ ، وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلُ لِمَبْءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مِنْ رَحْمِي بِالْمُعْجَبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنْ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْغَرِيبَيْنِ أَنْ يَمْرِفَ فَضْلَ نِعْمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْؤُهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَكَاثُرٍ عَلَى أُخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَدُّ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّدَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : « مَنْ يَلْزِمِ النَّصِيْحَةَ ^(١) يَلْزِمَهُ الْعَمَلُ » وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَّمْتُهُ بِهِ ، تَوَلَّيْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكِتَبَةِ ، بِمَا يَقْتَضِي بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
(صَبِيْحُ الْأَعْمَى ١ : ٨٥)

(١) فِي نَسْخَةِ : « الصَّحَّة » ، وَذَكَرَ الْجَاهِظُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ (٢ : ٤٦) أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ كَلَامِ الْأَحْمَفِ السَّائِرِ فِي أَيْدِي النَّاسِ .

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٨١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبيل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نيبانة ابن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نيبانة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثاها ، فلدارآم أهل خراسان هابوم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا ينصرون على عدوم لعدلم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانزع سلطانهم وساط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واستزقوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون

(١) هو أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصوراً من عند إبراهيم الإمام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

(٢) من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . (٣) وكان قحطبة قبل ذلك قد تبعاً لقتال تميم بن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هاربا ، وتفرق عنه أصحابه ، فسار إلى نيبانة بن حنظلة بجرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، فمات بها كذا .

المظلوم ، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرِّ والتقوى من عِثْرَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشدَّ عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالثأر ، وقد عهد إليَّ الإمام^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدَّة ، فينصرمكم الله عز وجل عليهم ، فتهمزموهم وتقتلونهم .

وقد قرى على قحطبة كتابُ أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهض عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرك ، فإذا ظهرت عليهم ، فأنخن في القتل » فالتقوا في مستهل ذي الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٨٢ - خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، وللعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالتقوا بجحد واحتساب ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيَّة إلى أبي مسلم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

(١) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يعلمه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو للدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحميمة (كجهيته) حيث يقم إبراهيم فيشده وثاقا ، فحمل إلى مروان فحبسه في حران ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأخل لهم أبو سلمة الخلال دارا بالكوفة ، وكتب أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجند من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على يفي العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبيع بها سنة ١٣٢ هـ .

استدراك على الجزء الأول

سقطت هذه الخطبة سهوا في أثناء الطبع فأوردناها هنا

خطبة السيدة عائشة حين أنبتت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة ريد المدينة ، فلما كانت بسرف أنبتت بقتل عثمان ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحِجْرَ فسترت فيه ، واجتمع إليها الناس فقالت :

« أيها الناس : إن الفوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنته ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحي حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طيباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا نخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من درنه ، إذ ماصوه^(١) كما يماص الثوب بالماء . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

(١) الموص : غسل لين ولذلك باليد .

سقط من هامش ص (٣٠) ما يأتي :

جاء في مقال الحسن بن علي رضي الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٣٠ : « وإن حداق في الزنا ثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه . » وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فاتمه أبو بكر - أخو زياد - هو ونفر معه بأنه زفي بأم جميل بنت الأرقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فمزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعري - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل المغيرة وأبو بكر ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه مأتى إلا امرأته ، وكان اليهود عليه : أبا بكر ، وشبل بن معبد الجبل ، ونافع بن كلفة ؛ وزيادا ، فبدأ عمر بأبي بكر ، فشهد عليه أنه زفي بأم جميل ، وشهد شبل ونافع بمثل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سألته هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فنجاه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ » فقال المغيرة : اشفى من الأصب . فقال : أسكت ، أسكت الله نامتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرحمتك بأحبارك .

انتهى الجزء الثانى

ويليه

الجزء الثالث وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا

العصر العباسى الأول

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	٧	
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	٧	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية		
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٩	٢
مقال عدى بن حاتم	٩	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	١٠	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	١١	٥
خطبته في الصلح بينه وبين معاوية	١٢	٦
خطبة له بعد الصلح	١٢	٧
خطبة لمعاوية في أهل الكوفة	١٤	٨
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	١٤	٩
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٥	١٠
خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح	١٦	١١

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم للصفحة
خطبة له في عهد خلافته	١٢	١٧
» أخرى له	١٣	١٨
مخاصمة ومهاجاة		١٩
بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بمحاضرة معاوية		
مقال عمرو بن العاص	١٤	٢١
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٥	٢١
» عتبة بن أبي سفيان	١٦	٢٢
» المغيرة بن شعبة	١٧	٢٢
رد الحسن بن عليّ عليهم	١٨	٢٢
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضي الله عنهما	١٩	٣١
مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه		
تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة		
نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضي الله عنهما	٢٠	٣٥
بعثة مسلم بن عقيل إلى الكوفة		
خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري	٢١	٣٧
» النعمان بن بشير	٢٢	٣٧
» عبید الله بن زياد	٢٣	٣٨
» أخرى له	٢٤	٣٩
» كثير بن شهاب	٢٥	٣٩
» عبید الله بن زياد	٢٦	٤٠

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة		
نصيحة ابن عباس له	٢٧	٤٢
« أبى بكر بن عبد الرحمن المخزومى اه	٢٨	٤٤
خطبة عبید الله بن زياد	٢٩	٤٥
« للحسين رضى الله عنه	٣٠	٤٦
« أخرى له	٣١	٤٦
« » »	٣٢	٤٧
« زهير بن القين البجلي	٣٣	٤٧
« للحسين أيضاً	٣٤	٤٨
خطبته ليلة قتله	٣٥	٤٩
رد أهل بيته عليه	٣٦	٥٠
« أصحابه	٣٧	٥٠
خطبته غداة يوم قتله	٣٨	٥١
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٩	٥١
خطبته وقد دنا منه القوم	٤٠	٥٢
خطبة أخرى	٤١	٥٢
« زهير بن القين	٤٢	٥٤
« الحر بن يزيد	٤٣	٥٦
طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه		
خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٤	٥٨
خطبة رفاعة بن شداد	٤٥	٥٩
« سليمان بن صرد	٤٦	٦٠
« خالد بن سعد بن نفيل	٤٧	٦١
« سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٨	٦٢

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي	٤٩	٦٢
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٥٠	٦٣
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥١	٦٥
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥٢	٦٦
رد المسيب بن نجبة .	٥٣	٦٦
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٤	٦٧
خطبة سليمان بن سرد	٥٥	٦٨
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٦	٦٨
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٧	٦٨
رأى ابن سرد	٥٨	٦٩
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٩	٧٠
» سليمان بن سرد	٦٠	٧٠
» أخرى له	٦١	٧١
» »	٦٢	٧٢
» عبد الملك بن مروان	٦٣	٧٣
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين رضي الله عنه		٧٤
خطبته حين قدم الكوفة	٦٤	٧٤
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٥	٧٥
خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٦	٧٦
رد السائب بن مالك	٦٧	٧٧
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٨	٧٨
» أخرى له	٦٩	٧٨
» محمد بن الحنفية	٧٠	٧٩
» المختار	٧١	٧٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٨٠	٧٢
« المختار في دار لإبراهيم بن الأشتر	٨١	٧٣
« يزيد بن أنس الأسدي	٨٢	٧٤
« عبد الله بن مطيع	٨٢	٧٥
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٨٣	٧٦
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٨٣	٧٧
« المختار بعد هرب ابن مطيع	٨٤	٧٨
« « وقد استنصره ابن الحنفية	٨٥	٧٩
« « وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٨٧	٨٠
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٨	٨١
—————		
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام -	٩٠	٨٢
عبد الله بن عباس ومعاوية	٩١	٨٣
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية	٩٤	٨٤
« ابن عباس	٩٥	٨٥
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لابن عباس	٩٥	٨٦
« ابن عباس	٩٦	٨٧
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لبني هاشم	٩٧	٨٨
« ابن عباس	٩٧	٨٩

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

مقال معاوية	٩٠	٩٨
د ابن عباس	٩١	٩٩
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً	٩٢	٩٩
عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان	٩٣	١٠٠

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

جواب ابن عباس	٩٤	١٠١
مقال عمرو بن العاص	٩٥	١٠٢
جواب ابن عباس	٩٦	١٠٢
مقال مروان بن الحكم	٩٧	١٠٣
جواب ابن عباس	٩٨	١٠٤
مقال زياد	٩٩	١٠٥
جواب ابن عباس	١٠٠	١٠٥
مقال عبد الرحمن بن أم الحكم	١٠١	١٠٦
جواب ابن عباس	١٠٢	١٠٦
مقال المغيرة بن شعبة	١٠٣	١٠٧
جواب ابن عباس	١٠٤	١٠٧
مقال يزيد بن معاوية	١٠٥	١٠٨
جواب ابن عباس	١٠٦	١٠٩
مقال معاوية	١٠٧	١٠٩
جواب ابن عباس	١٠٨	١٠٩

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

مقال ابن عباس	١٠٩	١١١
---------------	-----	-----

الخطبة أو اللوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
رد ابن العاص	١١٠	١١٢
عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضا	١١١	١١٣
عمرو بن العاص وابن عباس	١١٢	١١٤
مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس	١١٣	١١٤
ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم		
مقال ابن الزبير	١١٤	١١٩
» » عباس	١١٥	١٢٠
—————		
خطبة عبد الله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بني هاشم	١١٦	١٢٠
» ابن الزبير يتنقص ابن عباس	١١٧	١٢٣
رد ابن عباس عليه	١١٨	١٢٥
عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص	١١٩	١٢٧
الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص	١٢٠	١٢٩
الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم	١٢١	١٣٠
عقيل بن أبي طالب ومعاوية	١٢٢	١٣١
خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام	١٢٣	١٣٤
خطبة السيدة زينب بنت علي عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٤	١٣٦
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٥	١٣٩
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٢٦	١٤٠
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٢٧	١٤٥
قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية		
مقال معاوية	١٢٨	١٤٥
رد قيس بن سعد	١٢٩	١٤٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٤٦	١٣٠
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٤٨	١٣١
» » » وعبد الله بن عباس	١٥٠	١٣٢
» » » ورجل من بني فزارة	١٥٤	١٣٣
رجل من آل صوحان يجبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٥٥	١٣٤
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٥٦	١٣٥
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٥٧	١٣٦

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٥٩	١٣٧
» معاوية	١٥٩	١٣٨
» ابن الزبير	١٦٠	١٣٩
» معاوية	١٦٢	١٤٠

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٦٤	١٤١
عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٦٥	١٤٢
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٦٨	١٤٣
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٦٩	١٤٤
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٧٣	١٤٥
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٧٤	١٤٦
» لما بلغه قتل مصعب	١٧٥	١٤٧
خطبة أخرى له	١٧٧	١٤٨
خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق	١٧٧	١٤٩

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٥٠	١٧٨
خطبته يوم قتله	١٥١	١٧٩
خطبة أخرى	١٥٢	١٨٠
» مصعب بن الزبير	١٥٣	١٨١

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٥٤	١٨٢
خطبة أخرى له بالمدينة	١٥٥	١٨٣
» له بالمدينة	١٥٦	١٨٣
خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة	١٥٧	١٨٤
خطبة له في يوم صائف	١٥٨	١٨٥
آخر خطبة له	١٥٩	١٨٥
خطبته وقد حضرته الوفاة	١٦٠	١٨٥
وصيته لابنه يزيد	١٦١	١٨٧

خطب يزيد بن معاوية

خطبته بعد موت معاوية	١٦٢	١٨٩
خطبة أخرى له	١٦٣	١٨٩
» معاوية بن يزيد	١٦٤	١٩٠
وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز	١٦٥	١٩١

خطب عبد الملك بن مروان

خطبته بمكة	١٦٦	١٩٢
------------	-----	-----

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة له موجزة	١٦٧	١٩٢
خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص	١٦٨	١٩٣
» لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير	١٦٩	١٩٤
» عام حججه	١٧٠	١٩٥
» وقد علم بخروج ابن الأشعث	١٧١	١٩٦
وصيته لبعض أمرائه	١٧٢	١٩٧
» للشعبي	١٧٣	١٩٧
» لأخيه عبد العزيز بن مروان	١٧٤	١٩٨
» لولده عند وفاته	١٧٥	١٩٨
<hr/>		
خطبة للوليد بن عبد الملك	١٧٦	١٩٩
» لسليمان بن عبد الملك	١٧٧	٢٠٠
خطب عمر بن عبد العزيز		
أولى خطبه	١٧٨	٢٠١
خطبة له بالمدينة	١٧٩	٢٠١
خطبة أخرى	١٨٠	٢٠٢
خطبة أخرى	١٨١	٢٠٣
» »	١٨٢	٢٠٤
» »	١٨٣	٢٠٤
» »	١٨٤	٢٠٥
» »	١٨٥	٢٠٥
» له يوم عيد	١٨٦	٢٠٦
» أخرى	١٨٧	٢٠٦
» »	١٨٨	٢٠٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	١٨٩	٢٠٧
» »	١٩٠	٢٠٨
» »	١٩١	٢٠٨
» »	١٩٢	٢٠٨
» »	١٩٣	٢٠٩
» »	١٩٤	٢١٠
» »	١٩٥	٢١٠
» »	١٩٦	٢١١
آخر خطبة له	١٩٧	٢١١
نص آخر	١٩٨	٢١٢
كلامه في مرضه الذي مات فيه	١٩٩	٢١٣
مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج	٢٠٠	٢١٤
تأيينه ابنه عبد الملك	٢٠١	٢١٧
—————		
خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد	٢٠٢	٢١٨
وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه	٢٠٣	٢١٩
خطب عتبة بن أبي سفيان		
خطبة له في تهدد أهل مصر	٢٠٤	٢٢٠
» » في تقريرهم وتهدهم	٢٠٥	٢٢١
» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية	٢٠٦	٢٢١
خطبته فيهم وقد منعوا الخراج	٢٠٧	٢٢٢
» فيهم إذ طعنوا على الولاة	٢٠٨	٢٢٢
» بمكة	٢٠٩	٢٢٣
» في علقته التي مات فيها	٢١٠	٢٢٤
وصيته لمؤدب ولده	٢١١	٢٢٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وصية سعيد بن العاص لابنه	٢١٢	٢٢٥
خطب عمرو بن سعيد الأشدق		
خطبة له بالمدينة	٢١٣	٢٢٨
» » بمكة	٢١٤	٢٢٩
ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية	٢١٥	٢٣٠
خطبته حين غلب على دمشق	٢١٦	٢٣١
—————		
خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	٢١٧	٢٣٢
خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان	٢١٨	٢٣٣
نصيحة لعمرو بن عتبة بن أبي سفيان	٢١٩	٢٣٤
تأديب معاوية لجلسائه	٢٢٠	٢٣٤
كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه	٢٢١	٢٣٤
تفريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله	٢٢٢	٢٣٥
طلب معاوية البيعة ليزيد		
خطبة الضحاك بن قيس الفهري	٢٢٣	٢٣٧
» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	٢٢٤	٢٣٨
» ثور بن معن السلمى	٢٢٥	٢٣٩
» عبد الله بن عصام الأشعري	٢٢٦	٢٤٠
» عبد الله بن مسعدة الفزاري	٢٢٧	٢٤٠
» عمرو بن سعيد الأشدق	٢٢٨	٢٤١
» الأحنف بن قيس	٢٢٩	٢٤٢
» الضحاك بن قيس	٢٣٠	٢٤٢
» الأحنف بن قيس	٢٣١	٢٤٣
» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	٢٣٢	٢٤٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة معاوية	٢٤٤	٢٣٣
يزيد بن المقنع	٢٤٥	٢٣٤
الأحنف	٢٤٥	٢٣٥
معاوية	٢٤٦	٢٣٦
عبد الله بن عباس	٢٤٧	٢٣٧
عبد الله بن جعفر	٢٤٧	٢٣٨
عبد الله بن الزبير	٢٤٨	٢٢٩
عبد الله بن عمر	٢٤٨	٢٤٠
معاوية	٢٤٩	٢٤١
مروان بن الحكم	٢٥٠	٢٤٢
معاوية	٢٥١	٢٤٣
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٥١	٢٤٤
خطبة معاوية	٢٥٣	٢٤٥
الحسين	٢٥٥	٢٤٦
معاوية	٢٥٧	٢٤٧
عبد الله بن عمر	٢٥٧	٢٤٨
معاوية	٢٥٨	٢٤٩
عبد الله بن الزبير	٢٦٠	٢٥٠
معاوية	٢٦١	٢٥١
تهنئة وتعزية		
خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٦٣	٢٥٢
عطاء بن أبي سفيان الثقفى	٢٦٤	٢٥٣
عبد الله بن مازن	٢٦٤	٢٥٤
غيلان بن مسلمة الثقفى	٢٦٥	٢٥٥

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده	٢٥٦	٢٦٦
» وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه	٢٥٧	٢٦٧
» وقد استلحقه معاوية	٢٥٨	٢٦٩
» حين ولي البصرة (وهي البتراء)	٢٥٩	٢٧٠
» بالكوفة وقد ضمت إليه	٢٦٠	٢٧٤
خطبة أخرى له بالكوفة	٢٦١	٢٧٥
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٦٢	٢٧٥
خطبة أخرى له	٢٦٣	٢٧٦
» »	٢٦٤	٢٧٦
وصية لزياد	٢٦٥	٢٧٧
ما كان يقوله لمن ولاه عملا	٢٦٦	٢٧٧
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٧	٢٧٨
خطبته عند موت معاوية	٢٦٨	٢٧٩
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٩	٢٨٠
» عبید الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	٢٧٠	٢٨١
رد معاوية على ابن زياد	٢٧١	٢٨٣
مقال يزيد بن معاوية	٢٧٢	٢٨٤
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٧٣	٢٨٥

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبة بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٤	٢٨٧
خطبته بعد قتل ابن الزبير	٢٧٥	٢٨٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبته حين ولي العراق	٢٧٦	٢٨٨
» وقد سمع تكبيراً في السوق	٢٧٧	٢٩١
» وقد قدم البصرة	٢٧٨	٢٩٢
» بعد وقعة دير الجماجم	٢٧٩	٢٩٣
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٨٠	٢٩٥
» له بالبصرة	٢٨١	٢٩٥
» أخرى له بالبصرة	٢٨٢	٢٩٦
خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية	٢٨٣	٢٩٧
خطبة أخرى	٢٨٤	٢٩٧
خطبته لما مات عبد الملك بن مروان	٢٨٥	٢٩٨
» حين أُرلِد الحِج	٢٨٦	٢٩٨
» لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد	٢٨٧	٢٩٩
» وقد أرجف أهل العراق بموته	٢٨٨	٣٠٠
خطبة له في الوعظ	٢٨٩	٣٠١
» أخرى	٢٩٠	٣٠٢
» »	٢٩١	٣٠٢
» »	٢٩٢	٣٠٣
» »	٢٩٣	٣٠٣

خطب قتيبية بن مسلم الباهلي

خطبته يحث على الجهاد وقد تهباً لغزو طخارستان	٢٩٤	٣٠٤
» وقد تهباً لغزو بلاد السغد	٢٩٥	٣٠٥
» وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة	٢٩٦	٣٩٦
» حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك	٢٩٧	٣٠٧
خطبة أخرى	٢٩٨	٣١٠

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة أخرى	٣١٠	٢٩٩
»	٣١١	٣٠٠
كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم	٣١٢	٣٠١
<hr/>		
خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس	٣١٤	٣٠٢
نص آخر لخطبة طارق	٣١٦	٣٠٣
خطبة عثمان بن حيان المرثي	٣١٦	٣٠٤
وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد	٣١٨	٣٠٥
نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه	٣٢٠	٣٠٦
<hr/>		
خطب خالد بن عبد الله القسري		
خطبته بمكة بدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة	٣٢١	٣٠٧
خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد	٣٢٢	٣٠٨
خطبته بمكة في الحججاج	٣٢٢	٣٠٩
» في الحث على مكارم الأخلاق	٣٢٣	٣١٠
» يوم عيد	٣٢٤	٣١١
قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه	٣٢٤	٣١٢
<hr/>		
خطبة يوسف بن عمر الثقفي	٣٢٤	٣١٣
خطبة له	٣٢٥	٣١٤
<hr/>		
خطب الفتن والأحداث		
فتنة المدينة ووقعة الحرة		
خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري	٣٢٦	٣١٥
» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام	٣٢٧	٣١٦
» مسلم يحرضهم	٣٢٧	٣١٧

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة ابن حنظلة يمحرض أصحابه	٣٢٨	٣٢٨

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣١٩	٣٢٩
» أخرى له	٣٢٠	٣٣٠
» عمرو بن حريث	٣٢١	٣٣١
» عمرو بن مسمع	٣٢٢	٣٣١
خطبة الأحنف بن قيس	٣٢٣	٣٣٢
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣٢٤	٣٣٤
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣٢٥	٣٣٦

خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج	٣٢٦	٣٣٧
خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة	٣٢٧	٣٣٨
» » »	٣٢٨	٣٣٨
خطبة سعيد بن المجالد	٣٢٩	٣٣٩

فتنة ابن الأشعث

خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٣٠	٣٤٠
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٣١	٣٤٠
خطبة عامر بن وائلة السكتاني	٣٣٢	٣٤١
» عبد المؤمن بن شيبث بن ربيعي	٣٣٣	٣٤٢
» ابن الأشعث بالمربد	٣٣٤	٣٤٢
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٣٥	٣٤٣
عامر الشعبي والحجاج	٣٣٦	٣٤٤
أيوب بن القرية والحجاج	٣٣٧	٣٤٤
كلمة لابن القرية	٣٣٨	٣٤٨

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٩	٣٤٩
يزيد بين يدي الوليد	»	٣٤٠
مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبدالعزيز	»	٣٤١
يزيد بن المهلب يمرض أصحابه على القتال	»	٣٤٢
أخرى له	»	٣٤٣
»	»	٣٤٤
الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب	»	٣٤٥
مروان بن المهلب	»	٣٤٦

خطب الأحنف بن قيس التميمي

الأحنف ومعاوية	٣٤٧	٣٥٦
»	»	٣٤٨
أيضاً	»	٣٤٩
قوله في مدح الوالد	٣٤٩	٣٥٨
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٥٠	٣٥٨
نصيحته لقومه	٣٥١	٣٥٨
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٥٢	٣٥٩
كلمات حكيمة للأحنف	٣٥٣	٣٦٠
صفية بنت هشام المنقرية تؤذ بن الأحنف	٣٥٤	٣٦١

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية	٣٥٥	٣٦٣
وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف	٣٥٦	٣٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة زياد	٣٥٧	٣٦٤
» معاوية	٣٥٨	٣٦٥
» الأحنف بن قيس	٣٥٩	٣٦٥
وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٦٠	٣٦٥
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٦١	٣٦٩
وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٦٢	٣٦٩
وفود العرب ومعاوية	٣٦٣	٣٧١
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٦٤	٣٧٢
» زيد بن منية على معاوية	٣٦٥	٣٧٣
» ضرار بن حمزة الصدائى على معاوية	٣٦٦	٣٧٤

الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية	٣٦٧	٣٧٥
» أم سنان بنت خيثمة على معاوية	٣٦٨	٣٧٨
» بكاره الهلالية على معاوية	٣٦٩	٣٨٠
» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية	٣٧٠	٣٨١
أم البراء بنت صفوان ومعاوية	٣٧١	٣٨٤
دارمية الحجونية ومعاوية	٣٧٢	٣٨٥
—————		
شداد بن أوس ومعاوية	٣٧٣	٣٨٧
معاوية ورجل من أهل سبأ	٣٧٤	٣٨٨
حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان	٣٧٥	٣٨٩
حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية	٣٧٦	٣٩٠
حديث عرابه بن أوس بن حارثة مع معاوية	٣٧٧	٣٩١
سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية	٣٧٨	٣٩٢

الخطبة أو التوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
مصقلة بن هبيرة ومعاوية	٣٧٩	٣٩٣
روح بن زنباع ومعاوية	٣٨٠	٣٩٣
مخاضمة أبي الأسود الدؤلى وامراته بين يدى زياد بن أبيه	٣٨١	٣٩٤
صورة أخرى	٣٨٢	٣٩٥
وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير	٣٨٣	٣٩٨
كلام خطيب الأزدي بين يدى عبد الملك بن مروان	٣٨٤	٣٩٨
سؤال عبد الملك للحجاج وما أجابه به	٣٨٥	٣٩٩
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان	٣٨٦	٣٩٩
قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك	٣٨٧	٤٠٢
وفود ممالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٣٨٨	٤٠٣
» كعب الأشقرى على الحجاج	٣٨٩	٤٠٤
سليمان بن سلكة والحجاج	٣٩٠	٤٠٥
جامع الحارثي والحجاج	٣٩١	٤٠٦
ليلي الأخيلى والحجاج	٣٩٢	٤٠٧
الغضبان بن القبعثرى والحجاج	٣٩٣	٤١٢
ابن القرية يعدد مساوى المزاح	٣٩٤	٤١٤
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٣٩٥	٤١٥
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٣٩٦	٤١٦
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٣٩٧	٤١٧
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٣٩٨	٤١٨
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٣٩٩	٤١٩
خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنته	٤٠٠	٤٢٠
خطبة عبد الله بن الأهم	٤٠١	٤٢٠
مقام محمد بن كعب القرظى بين يدى عمر بن عبد العزيز	٤٠٢	٤٢٢
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٤٠٣	٤٢٢

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٤٠٤	٤٢٤
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٤٠٥	٤٢٦
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٤٠٦	٤٢٧
خطبة السكيت بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٤٠٧	٤٢٨
مخاضة عدى بن أوطاة لا مرأته عند شريح القاضي	٤٠٨	٤٣٢
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٠٩	٤٣٣
خطبة دينار	٤١٠	٤٣٤
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤١١	٤٣٤
خطب الخوارج وما يتصل بها		٤٣٥
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤١٢	٤٣٥
أثمار الخوارج		٤٣٧
مقال المستورد بن علفة	٤١٣	٤٣٧
» حيان بن ظبيان	٤١٤	٤٣٧
» معاذ بن جوين	٤١٥	٤٣٨
خطبة المغيرة بن شعبة	٤١٦	٤٣٨
» صعصعة بن صوحان	٤١٧	٤٣٩
» المستورد بن علفة	٤١٨	٤٤١
» معقل بن قيس الرياحي	٤١٩	٤٤٢
كلمات حكيمة للمستورد	٤٢٠	٤٤٢
أثمار الخوارج ثانية		٤٤٣
خطبة حيان بن ظبيان	٤٢١	٤٤٣
» معاذ بن جوين	٤٢٢	٤٤٣

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
رد حيان بن ظبيان	٤٢٣	٤٤٤
مقال عتريس بن عرقوب	٤٢٤	٤٤٤
رد حيان	٤٢٥	٤٤٥
خطبة حيان	٤٢٦	٤٤٥
مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة	٤٢٧	٤٤٦
خطب المهلب بن أبي صفرة		٢٤٨
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤٢٨	٤٤٨
خطبة أخرى له في جنده	٤٢٩	٤٤٩
نص آخر	٤٣٠	٤٤٩
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٣١	٤٥٠
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٣٢	٤٥١
عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار	٤٣٣	٤٥٢
نصيحة عرهم العدوي لخالد بن عبد الله	٤٣٤	٤٥٣
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٣٥	٤٥٤
عبد ربه الصغير	٤٣٦	٤٥٨
صالح بن مسرح	٤٣٧	٤٥٩
أخرى له	٤٣٨	٤٦٠
»	٤٣٩	٤٦١
زائدة بن قدامة	٤٤٠	٤٦٢
الحجاج بن يوسف	٤٤١	٤٦٢
أخرى للحجاج	٤٤٢	٤٦٣
شبيب بن يزيد الشيباني	٤٤٣	٤٦٣
عتاب بن ورقاء	٤٤٤	٤٦٤
الحجاج	٤٤٥	٤٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى	٤٤٦	٤٦٥

خطب أبي حمزة الشارى

خطبته حين دخل المدينة	٤٤٧	٤٦٧
خطبة أخرى له	٤٤٨	٤٦٨
خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون أصحابه	٤٤٩	٤٦٩
خطبة أخرى	٤٥٠	٤٧٦
خطبته فى سب أهل المدينة وتقريرهم	٤٥١	٤٧٨
خطبة أخرى	٤٥٢	٤٨٠
خطبته حين خرج من المدينة	٤٥٣	٤٨١
عمران بن خطان والحجاج	٤٥٤	٤٨١

الخطب الوعظية والوصايا

خطبة سحبان بن زفر الوائلى	٤٥٥	٤٨٢
» معاوية	٤٥٦	٤٨٣
» عبد الملك بن مروان	٤٥٧	٤٨٣
» لعمر بن عبد العزيز	٤٥٨	٤٨٤

كلام الحسن البصرى

خطبة له	٤٥٩	٤٨٥
» أخرى	٤٦٠	٤٨٧
» »	٤٦١	٤٨٨
» »	٤٦٢	٤٨٨
» »	٤٦٣	٤٨٩
» »	٤٦٤	٤٨٩
» »	٤٦٥	٤٩٠

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٩٠	٤٦٦	خطبة أخرى
٤٩١	٤٦٧	مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة
٤٩٢	٤٦٨	مقام الحسن البصرى عند النضر بن عمرو
٤٩٣	٤٦٩	مقام آخر له عند النضر
٤٩٤	٤٧٠	مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التى بناها بواسط
٤٩٥	٤٧١	صفة الإمام العادل
٤٩٧	٤٧٢	موعظته لعمر بن عبد العزيز
٤٩٨	٤٧٣	موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
٤٩٩	٤٧٤	كلمات حكيمة للحسن البصرى
٥٠١	٤٧٥	خطبة واصل بن عطاء
٥٠٣	٤٧٦	وصية عبد الملك بن مروان لبنى أمية
٥٠٣	٤٧٧	» عبد الله بن شداد لابنه
٥٠٧	٤٧٨	» أسماء بن خارجة لابنته
٥٠٧	٤٧٩	رجل ينصح لهشام بن عبد الملك
٥٠٨	٤٨٠	وصية عبد الحميد بن يحيى السكاك للكتاب

الصراع بين الأموية والعباسية

٥٠٩	٤٨١	خطبة فحطبة بن شبيب الطائى
٥١٠	٤٨٢	» أخرى له

استدراك على الجزء الأول

٥١١	٤٨٣	خطبة السيدة عائشة حين أنبثت بقتل عثمان
-----	-----	----------------------------------------

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع اتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أم البراء بنت صفوان : ٣٨٤	(١)
أم سنان بنت خيثمة : ٣٧٨	لإبراهيم بن الأشتر : ٨٣
السيدة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ١٣٤	لإبراهيم بن محمد بن طلحة : ٦٦ - ٣٩٩
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٩	أبو الأسود الدؤلي : ٣٩٤
أيوب بن القرية : ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٤٤٤	أبو بكر بن عبد الرحمن : ٤٤
(ب)	أبو بكر الهذلي : ٤٠٢
بكاره الهلالية : ٣٨٠	أبو حازم الأعرج : ٤١٧ - ٤١٨
بلال بن أبي بردة : ٤١٦	أبو حاضر الأسدي : ٣٩٨
(ث)	أبو حمزة الشاري : ٤٦٧ - ٤٦٨ -
ثور بن معن السلمى : ٢٣٩	٤٦٩ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٨٠ -
(ج)	٤٨١
جامع المحاربي : ٤٠٦	أبو صخر الهذلي : ١٧٣
(ح)	الأحنف بن قيس : ٢٤٢ - ٢٤٣ -
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ - ٢٨٨ -	٢٤٥ - ٣٣٢ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -
٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٥ -	٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٣ -
٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ -	٣٦٤
٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ -	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب : ٣٨١
٤٠٢ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤	أسماء بن خارجة : ٥٠٧

الحر بن يزيد : ٥٦

الحسن البصرى : ٤٨٥ — ٤٨٧

٤٨٨ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٤٩١

٤٩٢ — ٤٩٣ — ٤٩٤ — ٤٩٥ — ٤٩٧

٤٩٨ — ٤٩٩

الحسن بن علي رضي الله عنه : ٧ — ٦

١٠ — ١١ — ١٢ — ١٤ — ١٦ — ١٧

١٨ — ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٠

الحسين بن علي رضي الله عنه : ٤٥

٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥١

٥٢ — ١٣٩ — ٢٥٥

حيان بن ظبيان : ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٤٣

٤٤٤ — ٤٤٥

(خ)

خالد بن سعد بن نقييل : ٦١

خالد بن صفوان : ٤٠١ — ٤٠٢ — ٤٢٠

٤٢٤ — ٤٢٦ — ٤٢٧

خالد بن عبد الله بن أسيد : ٢٣٣

خالد بن عبد الله القسرى : ٣٢١

٣٢٢ — ٣٢٣ — ٣٢٤

خالد بن يزيد : ٢٣٢

الخيار بن أوفى النهدي : ٣٩٠

(د)

دارمية الحجونية : ٣٨٥

دغفل بن حنظلة : ٣٦٥ — ٣٦٩

دينار : ٤٣٤

(ذ)

ذكوان : ١٥٩

(ر)

رفاعة بن شداد : ٥٩

روح بن زنباع : ٣٣٤ — ٣٣٦ — ٣٩٣

(ز)

زائدة بن قدامة : ٤٦٢

الزبير بن علي : ٤٥١

زهير بن القين البجلي : ٤٧ — ٥٤

زياد بن أبيه : ١٠٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٩

٢٧٠ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٣٦٤

زيد بن منية : ٣٧٣

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها :

١٣٦

(س)

السائب بن مالك : ٧٧

سحبان بن زفر : ٤٨٢

سعد بن حذيفة بن اليمان : ٦٢

سعید بن العاص : ٢٢٥

سعید بن عثمان بن عفان : ٣٩٢

سعید بن المجالد : ٣٣٩

سليك بن السلسكة : ٤٠٥

سليمان بن صرد : ١٥ — ٦٠ — ٦٨

٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢

سليمان بن عبد الملك : ٢٠٠

سودة بنت عمارة : ٣٧٥

(ش)

شبيب بن يزيد الشيباني : ٤٦٣

- عبد العزيز بن زرارّة : ٣٧٢
عبد العزيز بن مروان : ٤٢٠
عبد الله بن الأهمّ : ٤٢٠
عبد الله بن جعفر : ١٢٧ - ٢٤٧
عبد الله بن الحنظل : ٦٢
عبد الله بن حنظلة الأنصاري : ٣٢٦ -
٣٢٨
عبد الله بن الزبير : ١١٤ - ١١٩ -
١٢٣ - ١٦٠ - ١٦٤ - ١٦٥
١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٣ - ١٧٤
١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩
١٨٠ - ٢٤٨ - ٢٦٠
عبد الله بن سعد : ٦٨
عبد الله بن شداد : ٥٠٣
عبد الله بن عباس : ٤٢ - ٩١ - ٩٥ -
٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢
١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧
١٠٩ - ١١١ - ١١٣ - ١١٤
١٢٠ - ١٢٥ - ٢٤٧
عبد الله بن عبد الحجر : ٣٨٩
عبد الله بن عصام : ٢٤٠
عبد الله بن عمر : ٢٤٨ - ٢٥٧
عبد الله بن الكواء : ١٤٦
عبد الله بن مازن : ٢٦٤
عبد الله بن مسعدة : ٢٤٠
عبد الله بن مطيع : ٧٦ - ٨٢ - ٨٣

- شداد بن أوس الطائي : ٣٨٧
شريح القاضي : ٤٣٣
(ص)
صالح بن مسرح : ٤٥٩ - ٤٦١
صخير بن حديفة بن هلال : ٦٨
صعصعة بن صوحان : ١٤٦ - ١٤٨ -
١٥٠ - ١٥٤ - ٣٦٩ - ٤٣٩
صفية بنت هشام المنقرية : ٣٦١
(ض)
الضحاك بن قيس : ٢٣٧ - ٢٤٢ -
٢٧٨ - ٢٧٩
ضرار بن حمزة الصدائي : ٣٧٤
(ط)
طارق بن زياد : ٣١٤ - ٣١٦
(ع)
السيدة عائشة رضی الله عنها : ٥١١
عابس بن أبي شبيب : ٣٧
عامر الشعبي : ٣٤٤
عامر بن وائلة الكناني : ٣٤١
عبد الحميد بن يحيى : ٥٠٨
عبد ربه الصغير : ٤٥٨
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٥١
عبد الرحمن بن أم الحكم : ١٠٦
عبد الرحمن بن شريح : ٧٨
عبد الرحمن بن عثمان : ٢٣٨ - ٢٤٤
عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٣٤٠ -
٣٤٢ - ٣٤٣

عمر بن عبد العزيز : ٢٠١ - ٢٠٢ -

٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ -

٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ -

٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ -

٢١٧ - ٤٨٤

عمر بن هبيرة : ٣٢٠

عمرو بن حريث : ٣٣١

عمرو بن سعيد الأشدق : ٢٢٨ - ٢٢٩ -

٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤١

عمرو بن العاص : ٢١ - ١٠٢ - ١١٢ -

١١٣ - ١١٤ - ١٤٠ - ١٦٥

عمرو بن عتبة بن أبي سفيان : ٢٣٤ - ٢٣٣ -

عمرو بن مسمع : ٣٣١

عمران بن حطان : ٤٨١

(غ)

الفضيان بن القبعثري : ٣٣٧ - ٤١٢

غيلان بن مسلمة الثقفي : ٢٦٥

(ق)

قتيبة بن مسلم : ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ -

٣٠٧ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ -

قحطبة بن شبيب الطائي : ٥٠٩ - ٥١٠ -

قطري بن الفجاءة : ٤٥٤

قيس بن سعد بن عبادة : ١٤٦

(ك)

كثير بن شهاب : ٣٩

كعب بن معدان الأشقري : ٤٠٤

عبد الله بن هاشم : ١٤٠ - ١٤٥ -

عبد الله بن همام السلولي : ٢٦٣

عبد الله بن وال التيمي : ٦٧

عبد الله بن يحيى الأباضي : ٤٦٥

عبد الله بن يزيد الأنصاري : ٦٥ - ٧٠ -

عبد المؤمن بن شبيب بن ربيعي : ٣٤٢

عبد الملك بن مروان : ٧٣ - ١٩٢ -

١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -

١٩٧ - ١٩٨ - ٢٣٥ - ٤٨٣ -

٥٠٣

عبيد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤٥ - ٢٨١ - ٣٢٩

عبيد الله بن عبد الله المري : ٦٣

عتاب بن ورقاء الرياحي : ٤٥٢ - ٤٦٤ -

عتبة بن أبي سفيان : ٢٢ - ٢٢٠ -

٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٦٤

عريس بن عرقوب : ٤٤٤

عثمان بن حيان المري : ٣١٦

العجاج بن رؤبة : ٣٩٩

عدى بن حاتم : ٩

عدى بن أرطاة : ٤٢٢

عرابة بن أوس بن حارثة : ٣٩١

عهرم العدوي : ٤٥٣

عطاء بن أبي سفيان : ٢٦٤

عقيل بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦ -

عمر بن عبد الرحمن : ٤٥

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٧ -

٢٣٤ - ٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ -

٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٥٨ -

٢٦١ - ٢٨٢ - ٣٦٥ - ٣٧١ -

٣٨٨ - ٤٨٣

معاوية بن يزيد : ١٩٠

معقل بن قيس : ٤٤٢

المغيرة بن شعبة : ٢٢ - ١٠٧ - ٤٣٨

المهلب بن أبي صفرة : ٢٨٥ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٠

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٧ - ٢٨٠

(و)

واصل بن عطاء : ٥٠١

الوليد بن عبد الملك : ١٩٩

الوليد بن عقبة : ٢١ - ٢٣٠

(ى)

يزيد بن أبي مسلم : ٤١٥

يزيد بن أنس الأسدي : ٨٢

يزيد بن معاوية : ١٠٨ - ١٨٩ - ٢١٩ - ٢٨٤ -

يزيد بن المقنع : ٢٤٥

يزيد بن المهلب : ٣١٨ - ٣٥٠ - ٣٥٢ -

٥٣٣ - ٣٥٤

يزيد بن الوليد : ٢١٨

يوسف بن عمر الثقفي : ٣٢٤ - ٣٢٥ -

تم فهرس أعلام الخطباء

الكثير بن زيد الأسدي : ٤٢٨

(ل)

ليلي الأخيلية : ٤٠٧

(م)

مالك بن بشير : ٤٠٣

محمد بن أبي الجهم العدوي : ٤٢٣

محمد الباقر : ١٥٧

محمد بن الحنفية : ٣١ - ٣٥ - ٩٠ -

محمد بن عمير بن عطار : ٤٠١

محمد بن كعب القرظي : ٤٢٣

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٧٤ - ٧٥ -

٨١ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٧ - ٨٨

مخلد بن يزيد بن المهلب : ٣٥٠

مروان بن الحكم : ١٠٣ - ١٩١ - ٢٥٠ -

مروان بن المهلب : ٣٥٥

المستورد بن علفة : ٤٣٧ - ٤٤٤ - ٤٤٢ -

مسلم بن عبيس : ٤٤٦

مسلم بن عقبة : ٣٢٧

المسيب بن نجبة : ٥٨ - ٦٦ -

مصعب بن الزبير : ١٨١

مصقلة بن هيرة : ٢٩٣

مطرف بن المغيرة : ٣٣٨

معاذ بن جوين : ٤٣٨ - ٤٤٣ -

معاوية بن أبي سفيان : ١٤ - ٩٤ - ٩٥ -

٩٧ - ٩٨ - ١٠٩ - ١٤٥ - ١٤٦ -

١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٥ -

الجزء الثالث من خط العرب

في عصور العرب في الزاهرة

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الجهورية

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقاً

المكتبة العلمية

ببغداد - لبنان



تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وقتنتي إلى إمام ما بدأت ، فلك الشكر والمنة في البدء والنهاية ،
وأصلى وأسلم على خاتم رسلك ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فهذا ثالث الأجزاء من « جمهرة خطب الغرب » في خطب العصر العباسي
الأول ، وهو على نسق سابقه ضبطاً وتحريراً ، وشرحا وتعليقا ، ويليه ذيل الجمهرة ،
في خمسة أبواب من الخطب :

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربة .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ، ونوادير طريفة لبعض الخطباء .

وبذا تم ما قصدت إلى جمعه في هذا المؤلف ، وإني أتهدى إلى المولى القدير أن يحقق
مارجوته من استفادة قارئيه به ، وأن يسد خطانا جميعا إلى سبيل الرشاد ،
إنه الكبير المتعال ؟

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في { مارس سنة ١٩٣٤ م
في القعدة سنة ١٣٥٢ هـ

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على - القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « التاسع
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول - التاسع
- سهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السادس
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- المقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرمى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى
- أمالى السيد المرتضى : « الأول - الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « التاسع - العاشر
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « السادس
- سروج الذهب : للمسعودى : « الثانى
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثانى

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني

الصناعتين : لأبي هلال العسكري

مقدمة ابن خلدون

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى



الباب الرابع

الخطبة والبوصايا

في

العصر العباسي الأول

١ - خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة

(توفي سنة ١٣٦ هـ)

صعد أبو العباس^(١) السفاح المنبر حين بويع له بالخلافة ، فقام في أعلاه ، وصعد
عنه داود بن عليّ فقام دونه ، وتسكلم أبو العباس ، قال :

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرِمَةً ، وَشَرَفَهُ وَعَظَّمَهُ ، واختاره لنا
وأيدته بنا ، وجعلنا أهله وَكَهْفَهُ^(٢) وَحَصْنَهُ ، وَالْقَوَامَ بِهِ ، وَالذَّابِّينَ عَنْهُ ، وَالنَّاصِرِينَ لَهُ ،
وَالزَّمَنَا كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَجَعَلْنَا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَخَصَّنَا بِرَحْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين ، بويع

(٢) السكھف : الوزر والملجأ .

عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آباءه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبتته^(١)،
جملة من أنفسنا عزيزاً عليه ماعننا^(٢)، حريصاً علينا، بالمؤمنين رءوفاً رحماً،
ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى
عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من مُحْكَمِ الْقُرْآنِ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ^(٣) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» وقال: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا الْوَدْعَةَ فِي الْقُرْبَى»، وقال «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» وقال: «مَا آفَاءَ^(٤)
اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى»، وقال:
«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى» فأعلمهم
جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من النية^(٥) والغنيمة نصيبنا،
تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا^(٦) أحقُّ بالرياسة والخلافة منا، فشاحت^(٧)
وجوههم! ييم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد
جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدخض بنا الباطل، وأصلح بنا
منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخبيسة، وأتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس
بعد العداوة أهلَ تعاطف وبرٍّ، ومواساة في دينهم وديناهم، وإخواناً على سُرُرٍ متقابلين
في آخرتهم، فتح الله ذلك مينةً ومنحةً لمحمد صلى الله عليه وسلم، فلما قبضه الله إليه قام
بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحوروا مواريث الأمم، فعدلوا فيها،

(١) النبع في الأصل: شجر للنسي والسهام.

(٢) القدر، وكل ما استقدر من العمل.

(٤) ما أعاده عليه أى صيره له.

(٦) يريد العلويين.

(٥) الغنيمة.

(٧) شاه وجهه شوها بالفتح: قبح.

وَوَضَعُوا مَوَاضِعَهَا ، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا ، وَخَرَجُوا خِصَاصًا^(١) مِنْهَا ، ثُمَّ وَثَبَ بَنُو حَرْبٍ وَمَرْوَانَ فَايْتَزُّوْهَا وَتَدَاوَلُوهَا بَيْنَهُمْ ، فَجَارُوا فِيهَا ، وَاسْتَأْثَرُوا بِهَا ، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا ، فَأَمَلَى^(٢) اللَّهُ لَهُمْ حِينًا حَتَّى آسَفُوهُ^(٣) ، فَلَمَّا آسَفُوهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَيْدِينَا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا ، وَتَدَارَكَ بَنَاءَ أُمَّتِنَا ، وَوَلَّى نَصْرَنَا وَالْقِيَامَ بِأَمْرِنَا ، لِيُؤْمِنَ بِنَا عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَخَتَمَ بِنَا كَمَا افْتَتَحَ بِنَا ، وَإِنِّي لِأَرْجُو إِلَّا يَأْتِيَكُمُ الْجُورُ مِنْ حَيْثُ أَتَاكُمْ الْخَيْرُ ، وَلَا الْفَسَادُ مِنْ حَيْثُ جَاءَكُمْ الصَّلَاحُ ، وَمَا تَوْفِيقُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَّا بِاللَّهِ .

يَأْهَلُ الْكُوفَةَ ، أَنْتُمْ مَحَلٌّ مَحَبَّتِنَا ، وَمَنْزِلٌ مَوْدَّتِنَا ، أَنْتُمْ الَّذِينَ لَمْ تَتَغَيَّرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَتَّيَسَّرْ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ تَحَامُلُ أَهْلِ الْجُورِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى أَدْرَكْتُمْ زَمَانَنَا ، وَأَتَاكُمْ اللَّهُ بِدَوْلَتِنَا ، فَأَنْتُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِنَا ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيْنَا ، وَقَدْ زِدْتُمْ فِي أُعْطِيَاتِكُمْ مِائَةَ دَرَاهِمٍ ، فَاسْتَعْمِدُوا ، فَإِنَّا السَّقَّاحُ الْمُبِيحُ ، وَالتَّائِثُ الْمُبِيرُ^(٤) .

وَكَانَ مَوْعُوكَا فَاشْتَدَّ بِهِ الْوَعْكَ^(٥) ، فَجَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَصَعِدَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَقَامَ دُونَهُ عَلَى مَرَاقِي^(٦) الْمَنْبَرِ ، فَقَالَ :

(تاريخ الطبري ٩ : ١٢٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٢ - خطبة داود بن عليّ

« الحمد لله ، شُكْرًا شُكْرًا شُكْرًا ، الَّذِي أَهْلَكَ عَدُونَنَا ، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : الْآنَ أَقْشَعَتْ^(٧) حَنَادِسُ الدُّنْيَا ، وَانْكَشَفَ

(١) جباعا جمع خبيص من خص البطن مثله الميم أي خلا ، والمخيسة : الجماعة ، وهو خصان بالضم ، وخبيص الحشا : ضامر البطن . (٢) أمهاتهم . (٣) أغضبوه . (٤) أباره : أهلكه . (٥) الوعك : أذى الحمى ووجعها ، وأنم من شدة التعب . (٦) جمع مرقاة بفتح الميم وكسرهما . (٧) قشعت الرياح السحاب : كشفته كأقشعته فأقشع وانقشع وقشع ، والحنادس جمع حندس بكسر الحاء والدال وهو الظلمة .

غَطَاوْهَا ، وَأَشْرَقَتْ أَرْضَهَا وَسَمَاوْهَا ، وَطَلَمَتْ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَمِهَا وَبَزَغَ الْقَمَرُ مِنْ مَبْزَغِهِ ، وَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَعَادَ السَّهْمَ إِلَى النَّزْعَةِ^(١) . وَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ^(٢) ، فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ، أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِكُمْ وَالْمُطَفِّ عَلَيْكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا فِي طَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ لِنُسَكِّرَ لُجَيْنًا ، وَلَا عَقِيانًا^(٣) ، وَلَا نَحْفِرَ نَهْرًا ، وَلَا نَبْنِي قَصْرًا ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْنَا الْأَنْفَةَ مِنْ ابْتِزَامِ حَقِّهَا ، وَالغَضَبُ لِبَنِي عَمْنَا ، وَمَا كَرَّثْنَا^(٤) مِنْ أُمُورِكُمْ ، وَبِهَظْنًا مِنْ شَتُونِكُمْ ، وَلَقَدْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ تُرْمِضُنَا^(٥) وَنَحْنُ عَلَى فُرْشِنَا ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْنَا سُوءُ سِيرَةِ بَنِي أُمِيَّةٍ فِيكُمْ ، وَخُرْقَتِهِمْ بِكُمْ ، وَاسْتِدْلَالِهِمْ لَكُمْ ، وَاسْتِنْتِثَارِهِمْ بِفَيْثِكُمْ وَصِدْقَاتِكُمْ وَمَعَانِيكُمْ عَلَيْكُمْ ، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَذِمَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ نَحْكُمَ فِيكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَنَعْمَلُ فِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَنَسِيرَ فِي الْعَامَّةِ مِنْكُمْ وَالْخَاصَّةِ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَبًّا تَبًّا لِبَنِي حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةٍ وَبَنِي مَرْوَانَ ، آثَرُوا فِي مَدِينَتِهِمْ وَعَصَرَمَ الْعَاجِلَةَ عَلَى الْأَجَلَةِ ، وَالِدَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، فَرَكِبُوا الْأَنْثَامَ ، وَظَلَمُوا الْأَنْثَامَ ، وَانْتَهَكُوا الْحَرَامَ ، وَغَشَّوْا الْجُرَائِمَ ، وَجَارَوْا فِي سِيرَتِهِمْ فِي الْعِبَادِ ، وَسُتَّتِهِمْ فِي الْبِلَادِ ، الَّتِي بِهَا اسْتَلْدُوا تَسْرُؤَ بِلِ الْأَوْزَارِ ، وَتَجَلَّبُوبَ الْأَصَارِ^(٦) ، وَمَرَّحَوْا فِي أَعْيُنِ الْعَاصِي ، وَرَكَضُوا فِي مِيَادِينِ الْغَيِّ ، جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ ، وَأُمْنًا لِمَكْرِ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمْ بِأَسْرِ اللَّهِ بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحُوا أَحَادِيثَ ، وَمُنْزَقُوا كُلُّ مُنْزَقٍ ، فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَأَدَانَا^(٧) اللَّهُ مِنْ مَرْوَانَ ، وَقَدْ غَرَّهَ بِاللَّهِ الْغَرُّورُ ، أُرْسِلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ فِي عَيْنَانِهِ ، حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ خِطَامِهِ ، فَظَنَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى حَزْبَهُ ، وَجَمَعَ مَكَايِدَهُ ، وَرَمَى بِكِتَابَتَيْهِ ، فَوَجَدَ أَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَبِأَسِهِ

(١) جمع نازع: وهو الرأى يشد الوتر إليه ايضع فيه السهم ، وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه أهل الأناة ، وعاد السهم إلى النزعة : رجع الحق إلى أهله . (٢) أصله . (٣) ذهباً . (٤) كثره القم كضرب ونصر : اشتد عليه كأكثره . (٥) أرمضه : أوجهه وأحرقه ، وأرمض الحر القوم : اشتد عليهم فأذاهم . (٦) جمع إصر كحمل وهو الذنب . (٧) نصرنا عليه .

ونِقْمَتِه ، ما أمات باطله ، وَتَحَقَّ ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، وردَّ إلينا حقنا وإزتنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كره^(١) أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعهُ عن استتمام الكلام بعد أن أسخَّنفر^(٢) فيه شدة الوغك ، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعاية ، فقد أبدلكم الله بمروانٍ عدوِّ الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاك حريم المسامين ، الشاب^(٣) المتكهل المتهمل ، المقتدى بسفاه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بعالم الهدى ، ومناهج التقوى « - فمَجَّ الناس له بللداء - ثم قال :

« يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أمانح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج^(٤) بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبَيْض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومَنَّ عليكم بإمام متحهُ المدالَّة ، وأعطاه حسن الإيالة^(٥) ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزوا طاعتنا ، ولا تتحدعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا ، حتى نسله إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . »

(تاريخ الطارى ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن الهدي م ٢ : ص ٢١٢)

(١) أى لأنه كره . (٢) اسخَّنفر الخطيب : اتسع في كلامه . (٣) كانت سنة

حين ولى الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . (٤) نصر . (٥) آل الملك وعيته إيالا :

ساسهم ، وآل على القوم إيالا وإيالة : ول .

٣ - خطبة داود بن علي - وقد أرتج على السفاح

وروى أنه لما قام أبو العباس في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فمهص داود بن علي حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيت سيفي، وغطيته بثوبي^(١)، وقلت: إن فعل ناجزته، فلما رقي عتبا استقبال الناس بوجه دون أبي العباس، ثم قال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفاعل أجدي عليكم من تشقيق^(٢) المقال، وحسبكم بكتاب الله ممتثلاً^(٣) فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم، والله - كما برأ لا أريد به إلا الله - ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا، فليظن ظانكم، وليهمس هامسكم» قال أبو جعفر: ثم نزل، وشمت^(٤) سيفي.

(عيون الأخبار ٢ م : ٢ ص ٢٥٢، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

٤ - خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى في أماليه قال :

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه - وكان فيه حياة مفترط - فأرتج عليه، فقال داود بن علي بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين الذي قلده الله سياسة رعيته، عُقل من لسانه،

(١) في عيون الأخبار : « وغطيت ثوبي » وهو تحريف . (٢) شقق الكلام : أخرجه أحسن

خرج . (٣) امتثل طريقته : تبعها فلم يعدها . (٤) شام سيفه يشيمه : غنمه (واستهه أيضاً : ضد) .

عند ما يُعهد من بيانه ، ولكل مرتقٍ مُبهر^(١) ، حتى تنفسه العاداتُ ، فأبشروا
بنعمة الله في صلاح دينكم ، ورغد عيشكم . (لسان السيد المرتضى ٤ : ١٩)

٥ - خطبة أخرى للسفاح بالكوفة

وخطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » والله لا أعدكم شيئاً إلا وفيت بالوعد
والوعيد ، ولأعملن اللين حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولأعمدن السيف إلا في إقامة حد ،
أو بلوغ حق ، ولأعطينكم حتى أرى العظيمة ضياعاً ، إن أهل بيت العنة والشجرة^(٢)
للملعونة في القرآن ، كانوا لكم أعداء ، لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشد منها ،
ولا يبلى عليكم منهم والٍ إلا تمنية من كان قبله ، وإن كان لا خير في جميعهم ، منعوكم
الصلاة في أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها ، وأخذوا المقبل بالمدبر^(٣) ، والجار
بالجار ، وسلطوا شراركم على خياركم ، فقد تحق الله جورهم ، وأزهق باطلهم ، بأهل
بيت نبيكم ، فما تؤخر لكم عطاء ، ولا نضيع لأحد منكم حقاً ، ولا نُجمركم في بعث ،
ولا نحاطر بكم في قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ، والله على ما نقول وكيل بالوفاء
والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٢)

٦ - خطبة السفاح بالشام حين قتل مروان

ولما قُتل مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - خطب السفاح ، فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . (٢) هي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ، جعلها الله فتنة للمشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكيف تنبت .

(٣) انظر قول زياد بن أبيه في خطبته البراء الجزء الثاني ص ٢٧٢ .

يَضَلُّونَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ» نَكَمَ بِكُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ آلُ حَرْبٍ وَآلُ مَرْوَانَ، يَتَسَكَّمُونَ^(١) بِكُمْ الظُّلْمَ، وَيَتَهَوَّرُونَ بِكُمْ مَدَاحِضَ^(٢) الزَّلَقِ، يَطَّوُّونَ بِكُمْ حَرَمَ اللَّهِ^(٣) وَحَرَمَ رَسُولِهِ^(٤)، مَاذَا يَقُولُ زَعَمَاؤُكُمْ غَدًا؟ يَقُولُونَ: «رَبِّنَا هُوَ لَأَنْ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ» إِذْنٌ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» أَمَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ اتَّخَفَ^(٥) بِكُمْ التَّوْبَةَ، وَاعْتَفَرَ لَكُمْ الزَّلَّةَ، وَبَسَطَ لَكُمْ الْإِقَالَةَ^(٦)، وَعَادَ بِفَضْلِهِ عَلَى تَقْصِمِكُمْ، وَجَلَمَهُ عَلَى جِهَالِكُمْ، فَلْيُفْرِخْ رُوعَكُمْ^(٧)، وَلْتَطْمِئِنَّ بِهِ دَارِكُمْ، وَلْيُقْطَعْ مَضَارِعُ أُوْائِلِكُمْ، «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا». (العقد الفريد ٢ : ١٤٥)

٧ - خطبة عيسى بن علي حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علي - عم السفاح - لما قتل مروان ، فقال :

« الحمد لله الذي لا يفوته من طلب ، ولا يعجزه من هرب ، خَدَعَتْ وَاللَّهِ الْأَشْتَرُ نَفْسَهُ ، إِذْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ مُمَهِّلُهُ ، وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، فَحَقَّ مَقِي ، وَإِلَى مَقِي ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرِهْتَهُمُ الْعَمِيدَانِ^(٨) الَّتِي افْتَرَعُوهَا ، وَأَمَسَّتِ السَّمَاءُ دَرَهَا^(٩) ، وَالْأَرْضُ رَيْبَهَا^(١٠) ، وَقَحَلَّ الضَّرْعُ^(١١) ، وَجَفَزَ الْفَنِيْقُ^(١٢) ، وَأَسْمَلُ^(١٣)

(١) تسكع : مشى مشياً متصفاً . (٢) جمع مدحضة : وهي المنزلة . (٣) يعبر إليه ما كان

عن مقاتلة الحجلاج عبد الله بن الزبير بركة ، ورويه السكبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان

(٤) يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية .

(٥) استأنف وابتداً . (٦) أقال مثرته : دفعه من سقوطه . (٧) الروح : بالقلم القلب ،

أو موضع الفزع منه والروح بالفتح : الفزع ، وأفرخت البيضة : خرج الفرج منها ، أي لهخرج الروح عن روحكم ولتهدموا وتطمئنوا .

(٨) أي أعواد المنابر ، وافترعوها : أي علوها . (٩) مطرها . (١٠) الريح : الغمام

والزهاة . (١١) قحل : يبس جلده على عظمه . (١٢) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذي لسكراته

على أهله ولا يركب ، والجفز : كشمس السرعة في المشي ، ولم تذكر كتب اللغة ضبط فعله ، وجاء في اللسان :

« الجفز : سرعة المشي يمانية ، حكاهما ابن دزيد ، قال : ولا أدرى ما صاحبها ، وفي رواية مواسم الأدب :

« وجفل فنيق الشرك » . (١٣) أسمل القوب وعمل ، كدغل وكرم : أخلق .

جلبابُ الدين ، وأبطلت الجلود ، وأهدرت السماء ، وكان ربك بالمرصاد ، فقدمتم^(١)
عليهم ربهم بذنبيهم فسواها ، ولا يخاف عقابها ، وملكتنا الله أمركم عباد الله ،
لينظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ، فإنه من دواعي الزيد ، أعاذنا الله وإياكم
من مضلات الأهواء ، وبغتات الفتن ، فإنما نحن به وله .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٥)

٨ - خطبة داود بن علي بمكة^(٢)

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس ، فقال :
« شكراً شكراً ، إنا والله ما خرجنا لتخفير فيكم نهراً ، ولا لتبني فيكم قصراً ،
أظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن رُوخِي^(٣) له من خطامه ، حتى عثر في فضل زمامه ؟
فالآن حيث أخذ القوس باريها ، وعادت النبل إلى النزعة ، ورجع الملك في نصابه
من أهل بيت النبوة والرحمة - والله لقد كنا نتوجّع لكم ونحن في فرشنا - أمن
الأسود والأحمر^(٤) ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لكم ذمة العباس ، لا ورب هذه البنية - وأوما بيده إلى الكعبة - لا نهيج
منكم أحداً . »

(تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والعتد الفريد ٢ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين

١ : ٦٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

-
- (١) قدم للقوم ، ودمدم عليهم : طعمهم فأهلكهم ، فسواها : أي التدمية ، أي مهمم بها فلم
يفلت منهم أحد . (٢) ولاء أبو العباس السكوفة وسوادها ، ثم ولاء المدينة ومكة واليمن والعمالة .
سنة ١٣٢ وولاء إمارة الحاج في هذه السنة ، ومات بالمدينة في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبري ج ٩ ص
١٤٧) (٣) أي لأن رُوخِي له ، ظن أن لن نقدر عليه .
(٤) الحمراء : العجم لأن الغراب على ألوانهم البيضاء والحمررة .

٩ - خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامَ يَهْتِفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ ^(١) ؟ أَمَا أَنْ لِرَأْفِدِكُمْ أَنْ يَهْبَ مِنْ نَوْمِهِ ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَعْرَكُمُ الْإِهْمَالُ حَتَّى حَسِبْتُمُوهُ الْإِهْمَالُ ؟ هِيَئَاتِ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ ، وَالسُّوْطُ كُنْفِي ، وَالسَيْفُ مُشَهَّرٌ ^(٣) ! حَتَّى يُبَيِّنَ قَبِيلَةَ قَبِيلَةٍ وَيَعْصَّ كُلُّ مُثَقَّفٍ بِالْهَامِ ^(٤) وَيُقَيِّنَ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا يَسْخَنَ عُرْضَ فَوَائِبِ الْإِيْتَامِ ^(٥) .
(العقد القريني ٢ : ١٤٦)

١٠ - خطبة أخرى له ^(٦)

وخطب فقال : « أحرز لسان رأسه ، اتعظ امرؤ بغيره ، اعتد عاقل قبل أن يعتد به ، فأمسك الفضل من قوله ، وقدم الفضل من عمله » ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال : « إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع » .
(ديوان الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

(١) الصريح : المستفح (والمغيث أيضا) (٢) غلب . (٣) شهر سيفه كنع ، وشهره بالتشديد : انتصاه فرقه على الناس . (٤) فلقب الرماح : تسويها . (٥) قوله ويقن : أي الرماح ، والصير يمود هل (كل مثقف) . حواسر : جمع حاسر وهي كل مكتوفة الرأس والذراعين (٦) هذه الخطبة أوردها ابن قتيبة ، ومزاها إلى داود بن حل ، ونسبها صاحب المقد إلى المنصور ، وأنه قال لما قتل الأمويين (راجع العقد ج ٧ : ص ١٤٥) .

ونصها كما أوردها : « أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظته ، نظر امرؤ في يومه لغده ، فشى القصد ، وقال الفضل ، وجانب الهجر » ، ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال :

« أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتد عبد قبل أن يعتد به ، فإنما بعد الوعيد الانقطاع ، و « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ »
والهجر : القبح من الكلام .

١١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاةً بنى العباس

وبلغته أن قوماً أظهروا شكاةً بنى العباس ، فافترع المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَغْدَرًا يَا أَهْلَ الْخَلْتَرِ^(١) وَالتَّبْدِيلِ؟ أَلَمْ يَرُدَّعْكُمْ الْفَتْحُ الْمَبِينُ^(٢) ، عَنْ الْخَوْضِ فِي ذَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ كَلَّا وَاللَّهِ حَتَّى تَحْمِلُوا أَوْزَالَكُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ ، كَيْفَ قَامَتْ شِفَاهَكُمْ بِالشُّكْوَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ بَعْدَ أَنْ حَانَتْ آجَالُكُمْ فَأَرْجَاهَا ، وَابْتَعْتِ دِمَاؤَكُمْ حَقَّقَهَا ، الْآنَ يَا مَنَابِتَ الدَّمَنِ ، مَشَيْتُمُ الضَّرَاءَ^(٣) ، وَدَبَّيْتُمُ الْخَمْرَ^(٤) ، أَمَا وَمُحَمَّدٍ وَالْعَبَّاسِ إِنْ عُدْتُمْ لِمِثْلِ مَا بَدَأْتُمْ ، لِأَخْصُدَنَّكُمْ بِطَبَّاتِ السُّيُوفِ ، ثُمَّ يُغْنِي رَبُّنَا عَنْكُمْ ، وَتُسْتَبَدَّلُ بِغَيْرِكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

مهلاً ياروايا^(٥) الإرجاف ، وأبناء النفاق ، عن الخوض فيما كُفَيْتُمْ ، والتخطي إلى ما حذَّرتُمْ ، قبل أن تتلف نفوس ، ويقلَّ عَدَدُ ، ويذلَّ عِزُّ ، وما أتمَّ وتلك؟ أَلَمْ تَجِدُوا مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْمُسْتَضَفِّينَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؟ بَلَى وَالْحِجْرِ وَالْحِجْرِ^(٦) ، وَلَكِنَّهُ حَمْدٌ مُضْمَرٌ ، وَحَسَكُ^(٧) فِي الصَّدُورِ ، قَرْنَعًا لِلْمَعَاطِسِ^(٨) ، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٩) . »

(١) الختر : الغدر ، أو أتبعه . (٢) في الأصل « أَلَمْ يَرُدَّعْكُمْ الْفَتْحُ الْمَبِينُ مِنْ الْخَوْضِ فِي ذَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » وهو تحريف . (٣) الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال : توارى الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشي الضراء : إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر . (٤) في الأصل « وَدَبَّيْتُمُ الْخَمْرَ » وهو تحريف ، وصوابه ما ذكرنا ، والخمر بالتحريك : كل ما وراك من شجر أو بناء أو غيره ، وخر كفرح : توارى ، ومن أمثالهم : « يدب له الضراء ، ويمشي له الخمر » وهو مثل يضرب للرجل يخفل صاحبه . (٥) الروايا جمع راية : وهي المازدة فيها الماء . (٦) الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال . (٧) الحسك : الحقد والعداوة . (٨) المعاطس جمع معطس كعطس ومقعد وهو الأنف ، والرغم : الذل . (٩) وروى صاحب العقد

١٢ - خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن عليّ، فحمد الله جل وعز، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال:

«أما بعد، فقد يَجِدُ العُسْرَ، وَيُعْسِرُ المُوَسِّرَ، وَيَقْلُ الحَدِيدَ، وَيَقْطَعُ الكَلِيلَ، وَإِنَّمَا الكَلَامُ بَعْدَ الإِخَامِ، كَالإِشْرَاقِ بَعْدَ الإِظْلَامِ، وَقَدْ يَعْزُبُ البِيَانُ، وَيُعْقَمُ الصَوَابُ، وَإِنَّمَا اللِّسَانُ، مُضْغَعَةٌ مِنَ الإِنْسَانِ، يَفْتَرُ بِفُتُورِهِ إِذَا نَكَلَ، وَيُثَوِّبُ بِإِنْبَسَاطِهِ إِذَا رَجَمَلَ؛ أَلَا وَإِنَّا لَنَنطِقُ بَطَرًا، وَلَا نَسْكُتُ حَصْرًا، بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ، وَنَنطِقُ مُرْشِدِينَ، وَنَحْنُ بَعْدُ أَمْرَاءُ القَوْلِ، فِينَا وَشَجَتٌ^(١) أَعْرَاقُهُ، وَعَلِينَا عَطَفَتُ أَغْصَانُهُ وَلِنَا تَهْدَلَتُ ثَمَرَتُهُ، فَتَنْخِيرُ مِنْهُ مَا أَحْلَوْلَى وَعَدْبُ، وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا امْلَوْلَحَ وَحَبْثُ، وَمِنْ بَعْدِ مَقَامِنَا هَذَا مَقَامٌ، وَبَعْدَ أَيَامِنَا أَيَامٌ، يُعْرَفُ فِيهَا فَضْلُ البِيَانِ، وَفَضْلُ الخَطَابِ وَاللَّهُ أَفْضَلُ مُسْتَعَانَ» ثم نزل^(٢).

(كتاب الصناعتين ص ٢١ ، وأمال السيد المرتضى ٤ : ١٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعزاها إلى أبي جعفر المنصور، فقال: «خطب المنصور حين خروجه إلى الشام فقال:

شِنْشِنَةٌ أَعْرِفِيهَا مِنْ أَحْزَمٍ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرِّجَالِ يُكَلِّمُ

مهلا مهلا روايا الإرجاف، وكهوف النفاق... إلى آخر الخطبة، راجع المعقد للمفيد ٢ : ١٤٥ - والشنينة: الطبيعة والعادة، وهو مثل لأبي أحزم الطائي، وكان له ابن يقال له أحزم، وكان عاقا، فات وترك بنين، فوثبوا يوما على جدتهم أبي أحزم فأدموه فقال:

إن بني ضرجوني بالدم شنشينة أعرفها من أحزم

أي إن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق: يضرب في قرب الشبه، ويكلم: يبرح.

(١) وشجت العروق والأغصان كوعه وشجا وشيجا: اشتبكت، والواشجة: الرحم المشتبكة.

(٢) وروى الحصري في زهر الآداب بعض هذا القول وعزاها إلى عبد الملك بن صالح، وروى السيد

المرتضى في أماليه قال:

«صعد أبو العباس السفاح المنبر، فأرتج عليه فقال: «أيها الناس، إن اللسان، بضعة

(٢ - جبهة خطب العرب - ثالث)

١٣ - خطبة صالح بن علي

وخطب صالح بن علي^(١) عم السفاح ، فقال :

يا أعضاء النفاق ، وعُبد الضلالة ، أغرّكم لين أساسي ، وطولُ إيناسي ؟ حتى ظن
جاهلكم أن ذلك لفُلُولِ حَدِّ ، وفُتورِ جِدِّ ، وخَوْرِ^(٢) قنّاةٍ ، كذّبتِ الظنونُ ، إنها
العِترَةُ بَعْضُهَا من بَعْضٍ ، فإِذْ قد استوليتُم العافية ، فعندي فِطامِ وفِكاكِ ، وسيفِ يَقدُّ
الهَامَ ، وإني أقول :

أغرّكم أني بأكرمِ شيمَةٍ رَفِيقٍ ، وأني بالفواحشِ أخرقُ ؟
ومثلي إذا لم يُجْزَ أحسنَ سَعِيهِ تَكَلَّمُ نُغَاهِ فِيهَا فتنطِقُ
لعمري لقد فاحشتني فغلبتني هنيئا مريئا أنت بالفحشِ أرفقُ

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٤ - خطبة سديف بن ميمون

وروى صاحب العقد قال :

لما قَدِمَ العَمْرُ بنُ يزيدِ بنِ عبدِ الملكِ علي أبي العباسِ السَّفّاحِ في ثمانين رجلا من

من الإنسان ، يكلُّ إذا كَلَّ ، وينفِصِحُ بانفِصاحه إذا فُصِحَ ، ونحنُ أمراءُ الكلامِ ، منّا
تفرعت فروعه ، وعلينا تهديت غصونه ، ألا وإنا لا نتكلم هذرا ، ولا نسكت إلا
معتبرين » ثم نزل ، فبلغ ذلك أبا جعفر ، فقال : « الله هو لو خطب بمثل ما اعتذر ،
لكان من أخطب الناس » ، وهذا الكلام يروى لداود بن علي^{هـ} .

والبضعة بفتح الباء وقد تكسر : القطعة من اللحم ، والهذر بالتحريك : سقط الكلام وبسكون الذال
مصدر هذر في منطوقه كضرب ونصر .

(١) هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاء السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ،
ثم ولاء مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ ، فأقره المنصور على
عمل مصر ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حمص بقنسرين . (٢) ضف .

بنى أمية ، ووضعت لهم الكراسي ، ووضعت لهم نمارق^(١) ، وأجلسوا عليها ، وأجلس
الغمر مع نفسه في اللصلي ، ثم أذن لشيئته فدخلوا ودخل فيهم سُديف بن ميمون^(٢) ،
وكان متوشحاً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وكان طويلاً آدم^(٣) ، فقام خطيباً .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضلال بما حَبِطت^(٤) أعمالهم أن غير
آل محمد أولى بالخلافة ؟ فلمَ وبِمَ أيها الناس ؟ لكم الفضل بالصحابة ، دون حق
ذوي القرابة ، الشركاء في النسب ، الأكفأ في الحسب ، الخاصة في الحياة ، الوفاة^(٥)
عند الوفاة ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الأولى جائعكم ، فكم قصم
الله بهم من جبار بائع ، وفاسق ظالم ، لم يُسمع بمثل العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ،
أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وجلدة ما بين عينيه^(٦) ، أمينه ليلة العقبة^(٧)
ورسوله إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حنين^(٨) ، لا يرُدُّ له رأياً ، ولا يخالف له قسماً ،
إنكم والله معاشر قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تيمى^(٩) مرة ،
وعدوى^(١٠) مرة ، وكنتم بين ظهراني قوم قد آثروا العاجل على الآجل ، والفاني
على الباقي ، وجعلوا الصدقات في الشهوات ، والنفى في اللذات والغناء ، والغنائم ،

(١) نمارق جمع نمرقة كقنفذة : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) مولد أبي العباس السفاح .

(٣) وصف من الأدمة ، وهي كالدرة وزنا ومعنى . (٤) فسدت . (٥) الوفاة جمع

واف . (٦) خطب الوليد بن عبد الملك فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : وإن

الحجاج جلدة ما بين عيني ، ألا وإنه جلدة وجهي كله » - البيان والتبيين ١ : ١٦٠ و ٣ : ٢١ - .

(٧) يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان

وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس - وهو على دين قومه - ولكنه رأى أنه يحضر

أمر ابن أخيه ليتموثل له . (٨) كان العباس من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

حنين ، حين انهزم المسلمون أول الموقعة ، وكان أخذاً بلجام بغلته . (٩) يريد أبا بكر الصديق

رضي الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤي . (١٠) يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو

من عدوى بن كعب بن لؤي .

في الحارم ، إذا ذُكروا بالله لم يذُكروا ، وإذا قدّموا بالحق أدبَرُوا ، فذلك زمانهم ،
وبذلك كان يعملُ شيطانهم^(١) .

(العقد القرين: ٢ : ٢٠١)

١٥ — خطبة أبي مسلم الخراساني

وروى ابن أبي الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح^(٢) ، فقال :
« الحمد لله الذي حمّد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم ، وبيته
من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على
حقه ، قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، فصبر من صبر منهم
بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على اللأواء^(٣) والشدة ، وأغضى على الاستبداد
والأثرة ، ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على ملة نبيه
وسُنَّته بعد عصر من الزمان ، من عمل بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظهراني
قوم آثموا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، إن رُتق جور فتقوه ، أو فُتق حق رتقوه ،
أهل سُخُورٍ وَمَاخُورٍ ، وَطَنَائِيرٍ^(٤) وَمَزَامِيرٍ ، إن ذُكروا لم يذُكروا ، أو قُدِّموا إلى
الحق أدبَرُوا وجعلوا الصدقات ، في الشُّبُهَاتِ ، والمغانم في الحارم ، والفيء في الغنى ،
هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم ، وزعمو أن غير آل محمد أولى بالأمر
منهم ، فلمَ وبهم أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصَّحَابَةِ ، دون ذوى القرابة ، الشركاء

(١) فقر هذه الخطبة مروية في خطبة أبي مسلم الخراساني الآتية بعدها ، ولكني آثرت إيراد الروايين
جيمًا كما وردتا . (٢) وذلك في سنة ١٣٦ هـ . (٣) الشدة .

(٤) الطنائير : جمع طنبور كمصفور ، وهو الذي يلمب به .

في النسب ، وَالْوَرَثَةَ فِي السَّلْبِ ^(١) ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الجذب جائعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم بعد نبيه تختارون تميمياً مرة ، وَعَدَوِيًّا مرة ، وَأَمْوِيًّا مرة ، وَأَسَدِيًّا ^(٢) مرة ، وَسُفْيَانِيًّا مرة ، وَمَرْوَانِيًّا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته ^(٣) يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عنوة ، وأتم صاغرون ؛ ألا إن آل محمد أئمة الهدى ، ومنازل سبيل التقى ، القادة الذادة السادة ، بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَمُنَزَّلِ جبريل بالتنزيل ، كم قصم الله

(١) ما يسلب ، والمراد ورثته في الخلافة . (٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ابن أسد . (٣) قال ابن أبي الحديد : « يعني نفسه لأنه لم يكن معلوم للنسب ، وقد اختلف فيه أبو مولد أم عرب » وقال ابن خلكان في (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) في ترجمته : « أبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم وقيل عثمان الخراساني القائم بالدعوة العباسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودرن من ولد بزرجهر بن الهخثكان الفارسي ، وقد اختلف للناس في نسبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل إنه من العجم ، وقيل من الأكراد ، وفي ذلك يقول أبو دلالة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة هل عبده حتى يغيرها العبد

أبو دولة المنصور حارات غدرة ألا إن أهل الدهر آباؤك الكرد

وقال ابن طباطبائي الفخرى ص ١٢٢ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجهر ، وأنه ولد بأصفهان ، ونشأ بالكوفة ، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس فقير اسمه وكناه بلقب مسلم ، وثقفه وفقهه ، حتى كان منه ما كان . وقيل هو عبد تنقل في الرق ، حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته وعتقه ، فابذعه من مولاه وثقفه وفهمه ، وصار يرسله إلى شيمته وأصحاب دعوته بخراسان ، وما زال هل ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هو فإنه لما قويت شوكته أدهى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة ، ثم احتزها مدة فاستنكحها عبدا فوطئها ، فولدت منه غلاما سمته سليطا ، ثم الصغرة بعبد الله بن عباس ، وأنكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته في ميراثه ، وأوجب ذلك بني أمية ليخضعوا من علي بن عبد الله ابن عباس ، فأعانوه وأوصوا قاضي دمشق في الباطن ، فال إليه في الحكم وحكم له بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا .

وذكر ابن خلكان أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدد له مساوي وقعت عنه : « بزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ! » .

بهم من جبار طاع ، وفاسق باغ ، شَيد الله بهم الهدى ، وَجَلَى بهم اللَّعَى ، لم يُسمع بمثل
العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لِواجب حقِّ الحرمة ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وَجِلْدَةٌ بين عينيه ، أَمِينُهُ يومَ العَمَّةِ ، وَنَاصِرُهُ بِمَكَّةَ^(١) ،
ورسوله إلى أهلها ، وَحَامِيهِ يومَ حُنَيْنٍ ، عند ملتقى الفِئتين ، لا يخالف له رسماً ،
ولا يَمِصُّ له حكماً ، الشافع يوم نِيقِ العُقَابِ^(٢) ، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله
في الأحزاب ، ها إن في هذا أيها الناس لَعِبْرَةٌ لِأولى الأبصار .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٢ : ٢١٥)

١٦ - خالد بن صفوان وأحوال السفاح

روى الجاحظ قال :

كان خالد بن صفوان الأهمتي من سُمَّار أبي العباس السَّفَّاح ، وأهل المنزلة عنده ،
ففخر عليه ناس من بَلْحَارِثِ^(٣) ، وأكثروا في القول ، فقال أبو العباس : لم لاتكلم
ياخالد ؟ فقال : « أحوال^(٤) أمير المؤمنين وَعَصَبَتُهُ » قال : « فأتتم أعمام أمير المؤمنين
وَعَصَبَتُهُ » قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم ، كانوا بين ناسج بُرْدٍ ، ودابغ جِلْدٍ ،

(١) يشير إلى ما كان من العباس في غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة
الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب يمث به إليه عمه العباس
الذي لم يخرج معهم في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه) .

(٢) موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شفع فيه يوم فتح مكة في أبي سفيان ، وفي أهل مكة
فمعا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

(٣) انظر الجزء الثاني ٢٢٥ . (٤) كانت أم السفاح من بني الحارث ، وهي ربيعة بنت عبيد الله
أبن عبد الله بن عبد المطلب بن عبد المطلب بن عبد المطلب ، والذ كان يقال له ابن الحارثية .

وسائس قرود ، وراكب عرذ^(١) ، كلّ عليهم هُدْهُدٌ^(٢) ، وغرقتهم فأرة^(٣) ،
وملكهم امرأة^(٤) ؟ » .
(البيان والتبيين ١ : ١٨٤)

* * *

وروى الحضريّ في زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح ، وعنده أخواله من بني الحارث
ابن كعب ، فقال : ما تقول في أخوالي ؟ فقال : « هم هامة^(٥) الشرف ، وعزّنين^(٦)
الكرم ، وعرّس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم ، لأنهم
أطولهم لِمَعًا^(٧) ، وأكرم شِمًا ، وأطيبهم طَعْمًا^(٨) ، وأوفاهم ذِمًا ، وأبعدهم هِمًا ،
الجرّة في الحرب ، والرّفْد^(٩) في الجذب ، والرأس في كل خَطْب ، وغيرهم
بمنزلة العَجَب^(١٠) » .

فقال : وصفت أبا صفوان فأحسنت ، فزاد أخواله في الفخر ، ففضّب أبو العباس

(١) العرد : الحمار .

(٢) يشير إلى حديث الهدد مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ
لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، فَكَيْتَ غَيْرَ بِعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ
بِنَبَأٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ،
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . الآيات » .

(٣) يشير إلى ما يزرعه المؤرخون من أن سيل العرم للذي ضرب اثنين كان سببه قرص الجرذ لسد مأرب
انظر الجزء الأول ص ١٠٥ . (٤) هي بلقيس (بالسكر) ملكة سبأ .
(٥) الخامة : رأس كل شيء . (٦) الرنين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء
أوله . (٧) في الأصل « أما » وأراه محرفا ، وصوابه « لما » والنم جمع لمة بالسكر ، وهي الشعر المجاوز
شعبة الأذن . (٨) الطعم : الطعام . (٩) الرّفْد : العطاء والصلة . (١٠) العجب : أصل
الذنب ، ومؤخر كل شيء .

(٣) يشير إلى ما يزرعه المؤرخون من أن سيل العرم للذي ضرب اثنين كان سببه قرص الجرذ لسد مأرب

انظر الجزء الأول ص ١٠٥ . (٤) هي بلقيس (بالسكر) ملكة سبأ .

(٥) الخامة : رأس كل شيء . (٦) الرنين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء

أوله . (٧) في الأصل « أما » وأراه محرفا ، وصوابه « لما » والنم جمع لمة بالسكر ، وهي الشعر المجاوز

شعبة الأذن . (٨) الطعم : الطعام . (٩) الرّفْد : العطاء والصلة . (١٠) العجب : أصل

الذنب ، ومؤخر كل شيء .

لأعماله ، فقال : افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعماله ، قال :

« كيف أفاخر قوماً بين ناسج بُرد ، وسائس قرد ، ودابغ جلد ، وراكب عرد ، دلّ عليهم هدهد ، وغرقهم جرد ، وملكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس .
(زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ - خالد بن صفوان ورجل من بني عبد الدار

وفاخر خالد بن صفوان رجلاً من بني عبد الدار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له العبدريّ : من أنت ؟ قال : أنا خالد بن صفوان بن الأهمّ ، فقال له العبدريّ : أنت خالد « كمن هو خالد في النار ^(١) » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كمثل صفوان عليه تراب ^(٢) » ، وأنت ابن الأهمّ ، والصحيح خير من الأهمّ ^(٣) ، فقال له خالد ابن صفوان : يا أخا بني عبد الدار ، أتتكلّم ؟ وقد هشمّتك هاشم ، وأمّتك ^(٤) بنو أمية ، وخزمتك بنو مخزوم ، وجمحتك بنو جحج ^(٥) ؟ فأنت عبّد دارهم ^(٦) تفتح إذا دخلوا ، وتغلق إذا خرجوا « فقام العبدريّ محمواً .

(أمال السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

(١) وتام الآية الكريمة : « وسقوا ماءً حمياً فقطع أمعاءهم » .

(٢) صفوان جمع صفوانة : وهي الحجر الصلد الضخم كالصفوان والصفاء ، والآية الكريمة : « يأيّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمّشله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وإيل ، فتركه صلداً ، لا يقدرّون على شيءٍ مما كسبوا والله لا يهدي الكافرين » .

(٣) هم كفّوح : انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهمّ . (٤) قادتك (٥) انظر الجزء الثاني ص ٩٨ . (٦) وكانت الحجابة في بني عبد الدار ، انظر الجزء الثاني ص ٩٨ أيضاً .

١٨ - خالد بن صفوان يرثي صديقاله

وقال الجاحظ : قيل لرجل - أراه خالد بن صفوان^(١) - مات صديق لك ، فقال :
« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالاً ، والأذنَ بياناً ، ولقد كان يُرْجَى
فلا يَخْشَى ، ويُعْشَى فلا يَفْشَى ، ويُعْطَى فلا يُعْطَى ، قليلاً لدى الشرِّ حضورُهُ ، سليماً
للصديق ضميرُهُ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والأمال ٢ : ١٧٤)

١٩ - خالد بن صفوان يمدح رجلاً

وذكر خالد رجلاً ، فقال :
« كان والله بديع المنطق ، دَلِقَ^(٢) الجُرْأَة ، جَزَلَ الألفاظ ، عربى اللسان ، ثابت
المُقَدَّة ، رقيق الحواشى ، خفيف الشَّفَتَيْن ، بليلى الريق ، رَحَبَ الشرف ، قليل
الحركات ، خَفِيَ الإشارات ، خَلَوُ الشَّمائل ، حَسَنَ الطلاوة^(٣) ، حَيَّيَا جَرِيئاً ، قَتُولاً
صَمُوتاً ، يُفْلِحُ الحَزْرَ^(٤) ، وَيُصِيبُ الفاصِلَ ، لم يكن بالمعذَّر^(٥) فى منطِقِهِ ، ولا بالزَّمِنِ^(٦)
فى مَرُوءَتِهِ ، ولا بالخرق^(٧) فى خَلِيقَتِهِ ، متبوعاً غير تابع ، كأنه عَلم فى رأسه نار » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ - كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الوُلاة : « قَدِمْتَ فَأَعْطَيْتَ كَلًّا بِقِسْطِهِ مِنْ وَجْهِكَ

-
- (١) ورواية القائل : عن الأصمعي قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه : رحم الله أباك . . . الخ .
(٢) مأخوذ من « سيف دلق » أى سهل الخروج من غده ، ويقال : اندلق العيل أى اندنع ،
واندلق للسيف : أى شق جفنه فخرج منه . (٣) الطلاوة مثلثة : القبول . (٤) الحز : للقطع .
(٥) عذر فى الأمر تعديراً ، إذا قصر ولم يجتهد . (٦) أى المغيب ، والزمانة كسحابة : العاهة ،
زمن كفرح فهو زمن وزمين . (٧) الخرق : الذى لا يحسن العمل والتصرف فى الأمور .

بوكرامتك^(١)، حتى كأنك من كلِّ أحد، وحتى كأنك لست من أحد.»

(الأمالي ١ : ٢١٦، وزهر الآداب ٣ : ٣٤٧، ١٦٧)

وقال شبيب بن شيبية لخالد بن صفوان: «مَنْ أَحَبَّ إِخْوَانَكَ إِلَيْكَ؟» قال:

«مَنْ سَدَّ خَلِّي، وَغَفَرَ زَلِّي، وَقَبِلَ عَلَيَّ.» (الأمالي ١ : ١٩٨)

وذكر شبيب عنده مرة، فقال: «ليس له صديق في السر، ولا عدو في العلانية.»

قال الجاحظ: «وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة.»

(البيان والتبيين ١ : ١٨٤، وزهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد: «ما الإنسان، لولا اللسان، إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مُمَهَلَة.»

وقال «أتقوا مجانبتي^(٢) الضعفاء» يريد الدعاء. (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان، فقال: «يُنشِقُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ الْخُرْدَلِ،

يُفْرِغُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمَرْجَلِ، وَيَرْمِيهِ بِمِثْلِ الْجُنْدَلِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنْتَ أَمْزَحَ!»

(زهر الآداب ٥٢ : ٨)

٢١ - عمارة بن حمزة والسفاح

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجوائز نفيسة وكنوة وصلة،

ووأدنى مجلسه:

«وَصَلَّى اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَرَكَ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ أَرَدْنَا لَنْ شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ^(٣)

صِلَتِكَ، إِنْ الشُّكْرَ لِيَقْصُرَ عَنْ نِعْمَتِكَ، كَمَا قَصُرْنَا عَنْ مَنَزَلَتِكَ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى

جَعَلَ لَكَ فَضْلًا عَلَيْنَا، بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا، وَلَمْ تَحْمَرْ مِنَّا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِنَقْصِ^(٤) شُكْرَنَا.»

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

(١) وفي رواية زهر الآداب: «من نظرك ومجلسك في صوتك ومدك.»

(٢) جمع منجنيق بفتح الميم وكسرها: آلة ترى بها الحجارة. (٣) كنه الشيء: حقيقته.

(٤) في الأصل: «لبعض» وأراء محرفا.

خطب أبي جعفر المنصور (توفي سنة ٥١٥هـ)

٢٢ - خطبته بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، فإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » أن يوفقنى للرشاد والصواب ، وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . »

(العقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٥١ ، تاريخ الطبرى ٩ : ٢١)

٢٣ - خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه^(١) : « وَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ^(٢) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أَمْرٌ مُبْرَمٌ ، وَقَوْلٌ عَدْلٌ ، وَقَضَاءٌ فَضْلٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَفْلَحَ^(٣) حُجَّتَهُ ، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ،

(١) عز صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن عل (انظر ج ٢ ص ١٤٥) ، وكذا صاحب مواهب

الأدب (انظر ج ٢ : ص ١١٥) . (٢) قبل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر العرج

المحفوظ . (٣) نصر .

الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، وَالْفِيءَ إِرْتَاً ، وَجَمَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ^(١) ، لَقَدْ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فَمَنْ تَرَى مِنْ بَرِّ مُعْطَلَةٍ^(٢) وَقَصْرٍ مُشِيدٍ ، أَمَلَهُمُ اللَّهُ حَتَّى بَدَلُوا السَّنَةَ ، وَاضْطَهَدُوا الْعِتْرَةَ^(٣) وَعَعَدُوا^(٤) وَاعْتَدَوْا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ فَهَلْ مُخِشٌ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟^(٥) .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ - خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » فقال :

« يَا عِبَادَ اللَّهِ ، لَا تَطْلَمُوا ، فَإِنَّهَا مَظْلَمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ لَوْلَا يَدُ خَاطِئَةٍ ، وَظُلْمُ ظَالِمٍ ، لَمَشَيْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ فِي أَسْوَاقِكُمْ ، وَلَوْ عَلِمْتُ مَكَانَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنِّي لِأَتَيْتُهُ حَتَّى أَدْفَعَهُ إِلَيْهِ » .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٠)

٢٥ - خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن^(٦) وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) الذقة : للفرقة والقطعة والجمع عضون ، وجعل المشركون للقرآن عِضِينَ أي فرقا : فرقوا فيه القول ، فجملوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا ، فهم قد (عضوه) بانتشيد أعضاء أي جزءه وأجزاءه ، وهو يرهد هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أتوه من الأعمال من رمى الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . (٢) متروكة لا يستق منها هلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع أو مطلق بالثيد (بالكسر) وهو ما طلى به الحائط من جص ونحوه ، أي معطل خال من ساكنيه أيضا . (٣) العترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون . (٤) عند (مثل النون) من الطارق : مال (٥) الصوت الخفي (٦) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد حنه المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وألقاهم في غياهبات السجون حتى ماتوا بسجن الكوفة ، وكان يخوف أن يغالبه على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس الزكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا لقتاله فقتل سنة ١٤٥ هـ ، وخرج أخوه إبراهيم طي المنصور بالبصرة فقتل أيضا في مدة السنة .

« يا أهل خراسان : أتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ، تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم تعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها علي ابن أبي طالب ، فتلطخ ، وحكم عليه الحكمين ، فافتقرت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه ، وبطانتته وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدرس إليه معاوية : إني أحعلك ولي عهدي من بعدى ، فخذعه فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق ، والإغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوداء وأشار إلى الكوفة فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسلمها ، فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلما أخرجوه^(١) وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن علي^(٢) ، فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم^(٣) على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة^(٤) ثم وثب علينا بنو أمية ، فأما توار شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة^(٥) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف . ومرة بالشام ، ومرة بالشرارة^(٦) ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة

(١) وقد خرج في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يوسف بن عمر الثقفي والى العراق ، وقتل وصلب

سنة ١٢١ هـ . (٢) يريه أباه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٣) تم على الأمر : استمر عليه . (٤) موضع بقرب الكوفة .

(٥) ثار . (٦) موضع بين دمشق والمدية (الكرك الان) .

وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودفع بحقكم أهل الباطل، وأظهر حَقَّنَا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، ففقر الحق مقرَّه، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحُكْمه العادل لنا، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته، وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم:

جَهْلًا عَلَىٰ وَجِبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ كَبِئْسَتِ الْخَلْقَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

فإني والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السَّقَمِ والتَرَمُّمِ^(١)، وقد دَسَسْتُ لهم رجلا، فقلت: قم يا فلان، قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحدِّثْ لهم مثلا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدسُّوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير، إلا بايعهم بيعةً استحلَّتْ بهادِمْ وأموالهم، وحلَّتْ لي عند ذلك بنقضهم بيعتي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروجَ علىَّ، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين « ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ».

(تاريخ الطبري ٩ : ٢١٢ ، وروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٢٦ — خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله، شن^(١) المنصور عليه درعه، وتقلد سيفه، وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:

مَالِي أَكْفِكَ عَنْ سَعْدٍ وَتَشْتُمُنِي؟ وَلَوْ شَتَّمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا

(١) الأصل فيه: تمرمه: تمرقه ونزع ما عليه من اللحم. (٢) شن عليه درعه: صجها.

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عِلْمِهِمْ لَبِئْسَ اَتْلَتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ مَجَّزُوا عَمَّا قَنَاهُ ، فَمَا عَصَدُوا الْكَافِي ، وَمَا شَكَرُوا الْمُنْعَم ، فَإِذَا
حَاطُوا أَشْرَبَ رَنْقًا عَلَى غَضَصٍ ، وَأَبَيْتُ مِنْهُمْ عَلَى مَضَضٍ ، كَلَّا وَاللَّهِ لَا أُصِلُ ذَا رَحِمٍ
حَاطُوا قَطِيعَتَهَا ، وَلَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْفِعْوِ لِيَطَابَنَّ مَا لَمْ يَوْجَدُ عِنْدِي ، فَلْيُتَبَّقِ فَوْ نَفْسٍ
عَلَى نَفْسِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَمُتِي ، فَلَا يُسْكِي عَلَيْهِ . (مواصم الأدب ٢ : ١١٩)

٢٧ - خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني^(١) ، فقال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا تَخْرُجُوا مِنْ أُنْسِ الطَّاعَةِ إِلَى وَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تُسْرِثُوا غَشَّ
الْأُمَّةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسِرَّ أَحَدٌ قَطُّ مَنكَرَةً إِلَّا ظَهَرَتْ فِي آثَارِ يَدِهِ ، وَفَلَّتَاتِ لِسَانِهِ ،
وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَأَبْدَاهَا اللَّهُ لِإِمَامِهِ ، بِإِعْزَازِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ حَقِّهِ ، إِنْ لَنْ تَبْخَسَكُم
حَقُوقِكُمْ ، وَلَنْ نَبْخَسَ الدِّينَ حَقَّهَ عَلَيْكُمْ ، إِنْهُ مِنْ نَارِ عَنَا عُرُوءَ هَذَا الْقَمِيصِ أُجْزَرْنَا
خَبِيَّ هَذَا الْفَعْدِ ، وَإِنْ أَبَا مُسْلِمٍ بَايَعْنَا وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ نَكْتِ بِنَا قَدَّ
أَبَاحَ دَمَهُ ، ثُمَّ نَكْتِ بِنَا ، فَحَكَمْنَا عَلَيْهِ لِأَنْفُسِنَا حُكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ لَنَا ، وَلَمْ تَمْنُنَا
رِعَايَةَ الْحَقِّ لَهُ ، مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ . »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٣ ، ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، ومواصم الأدب ٢ : ١٢٠ وغرر
الحصائص الواضحة ٧٦) .

(١) قتل أبو مسلم سنة ١٣٧ ، وذلك أن المنصور كان قد أرسله لحرب عمه عبد الله بن علي - وكان
قد خرج عليه بالشام كما سيأتي - فلما ظفر أبو مسلم ، وضم جميع ما كان في عسكر عبد الله ، وأنهزم عبد الله
إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدومه للحفاظ على ماني العسكر من الأموال ، فغضب أبو مسلم ، وقال :
أمين على الدماء ، خائن في الأموال ! وشم المنصور ، وعزم على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ،
فجعل المنصور يتلطف به حتى استفدته إليه وقتله .

٢٨ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تنفروا أطراف النعمة بقلة الشكر ، فتحلَّ بِكُمْ النِّعْمَةُ ، ولا تستروا غِشَّ الأئمة ، فإن أحداً لا يستر مُنْكَراً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وَصَفَحَات وجهه ، وَطَوَّالِع نظره ، وإنا لانجمل حقوقكم ما عرَّقتُم حَقَّنَا ، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكَّرتُم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميصَ أوطأنا أم رأسه خَبءٌ ^(١) هذا الغنم . والسلام » .

(مواسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٩ - قوله وقد قوطع في خطبته

وخطب يوم الجمعة . فقال :

« الحمد لله أحمدُه . وأستعينه . وأؤمن به . وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : أيها الناس . اتقوا الله . فقام إليه رجل . فقال : أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين . فقطع الخطبة . ثم قال : « سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله . وذكرك به . وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً . وأن تأخذني العِزَّة بالإثم . لقد ضللتُ إذنَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . وأنت أيها القائل . فوالله ما أردت بها وجه الله . ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال . فعُوقِبَ فصَبَرَ . وأهونُ بها ! ويلك لو هممت ^(٢) ! فاهتَبِلَها ^(٣) إذ غفرتُ . وإياك وإياكم معشرَ الناس أختها فإن الحكمة علينا نزلت . ومن عندنا فصلت . فرُدُّوا الأمر إلى أهله . تُورِدوه مَوَارِدَه . وَتُصْدِرُوه مِصَادِرَه . ثم عاد في خطبته . فكأنه يقرؤها من كفه . فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وميرون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٦ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢ ، وصبح الأمل ١ : ٢٦٢) .

(١) الحب : ما خبى . (٢) أى لو هممت بعقابك . (٣) اغتصبها .

٣٠ - المنصور يصف خلفاء بني أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه . منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما . فتذاكروا خلفاء بني أمية . والسبب الذي به ساءوا عزهم . فقال المنصور :

« كان عبد الملك جبّاراً لا يُبالي ما صنع . وكان الوليد لحنّاً مجنوناً . وكان سليمان همته بطنه وفرجه . وكان عمر أعرّ بين عُثَيان . وكان هشام رجل القوم . ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهّد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه . ويحرسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسنّمهم معالي الأمور ، ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مُترفين من أبنائهم ، فغمطوا^(١) النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية . فابتدأت النّعمة منهم ، باستدراج الله إياهم ، آمنين مكره ، مطّرحين صيانة الخلافة ، مستخفين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزّة ، والبسهم الذلّة ، وأزال عنهم النعمة » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢١٥)

٣١ - المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش ، من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، الذي راض^(٢) الملّك ، وسكّن الزلازل ، وحسّم الأعداء . وأباد الأعداء . قال : ما صنعتُم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية^(٣) ، الذي عبّر

(١) غمط النعمة : هطرها وحقرها .

(٢) ذلل . (٣) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل

مؤسس دولة بني أمية بالأندلس وسبأني .

البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون
الدواوين ، وأقام ملكاً بعد انقطاعه ، بحسن تدييره ، وشدة شِكيمته . إن معاوية
نهض بحرّ كعب حمله عليه مُعمرٌ وعثمان ، وذلاً له صعبه ، وعبد الملك بديعةً تقدّم له
عقدُها ، وأمير المؤمنين بطاب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد
برأيه ، مستصحب لعزمه .

(المقه الفريد ٢ : ٢٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدي

٣٢ - وصية له

قال المنصور لابنه المهدي : « يا بُنَيَّ لا تُبْرِمَ أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآته ، تربيته حسناته وسدائته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعمو أقدروهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه » .

(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والمقد الفريد ١ : ١٤)

٣٣ - وصية أخرى له

ووصاه فقال له : « إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بمخاض الله ما أظنك تفعل واحدة منها — وكان له سقط فيه دفاتر عمله ، وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً ، يصُرُّ مفتاحه في كُمِّ قميصه — فقال للمهدي : انظر هذا السقط فاحتفظ به ، فإن فيه علم آباءك ما كان وما هو كأن إلى يوم القيامة ، فإن أحزنتك أمرٌ فانظر في الدِّفتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ماتريد ، وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجدٌ فيها ماتريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة فإنك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ، ما إن كسرت عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات ، وعطاء الدرية ، ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فإنك لاتزال عزيزاً مادام

يت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك ، أن تُظهِرِ كرامتهم
وتُقدِّمهم ، وتُكثر الإحسان إليهم ، وتعظِّم أمرهم ، وتُوَطِّئَ الناسَ أعقابهم ، وتوليهم
المنابرَ ، فإن عزك عزمهم ، وذكركم لك ، وما أظنك تفعل ، وانظر مواليك فأحسن إليهم
وقربهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادّتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل .
وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بدّلوا أموالهم في دولتك ،
ودمائم دونك ، ومن لا يخرج محببتك من قلوبهم ، أن تُحسِّنَ إليهم ، وتتجاوز عن
مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلّف من مات منهم في أهله وولده ،
وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتمّ بناءها ، وما أظنك تفعل ،
وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء
في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل .

(تاريخ الطبري ١ : ٢١٩)

٣٤ - وصية أخرى له

ووصى المهديّ أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ،
يجعل لك فيما كرتك وحزرك مخرجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث
لا تحسب ، احفظ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته ، يحفظ الله عليك أمورك ،
وإياك والدم الحرام ، فإنه حوب^(١) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم
الحلال ، فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود ، ولا تعتد
فيها فتبور^(٢) ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصاح لدينه ، وأزجر عن معاصيه من الحدود ،
لأمر به في كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب
والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالسلطان يا نبيَّ حبلُ الله اللتين ، وعُروتُه الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه ، وحصنه وذُبَّ عنه ، وأوقع بالمُحْدِثِينَ فِيهِ ، واقم المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، والمثلات^(١) بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحْكَمِ الْقُرْآنِ ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وأنجم في الدواء ، وعِفَّ عَنِ النَّيِّءِ ، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عمك بصلة الرَّحْمِ وَبِرِّ الْقَرَابَةِ ، وإياك وَالْآثَرَةَ ، والتبذير لأموال الرعية ، وَاشْحَنَ^(٢) الثغور ، وَاضْبِطِ الْأَطْرَافَ ، وَأَمِّنِ السُّبُلَ وَخُصَّ الْوَاسِطَةَ^(٣) ووسع المعاش ، وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرف الكاره عنهم ، وأعد الأموال واخزنها . وإياك والتبذير ، فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهي من شيم الزمان ، وأعد الرجال والكرَاعَ^(٤) والجند ما استطعت . وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمور وتضع ، جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً ، واجتهد وثمر فيها ، وأعد رجلاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجلاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ، ولا تكسل ، ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأسئ الظن بمالك وكتائبك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل إذنك للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكّل بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تتم فإن أباك لم يتم منذ ولي الخلافة ، ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ ، هذه وصيتي إليك ، والله خالفتي عليك .

(تاريخ الطبري ٩ : ٢٢٠)

(١) جمع مثلة : وهي العقوبة .

(٢) أي الأمان بالدفاع .

(٣) الترسطة

(٤) الكراع : اسم يجمع الخيل .

٣٥ - خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية^(١) على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي حنيفة من بناء القبة الخضراء ، التي بناها معاندةً لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقَّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار الموالين ، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك وَعَمِلُوا بِغَيْرِ كِتَابِكَ ، وَغَيَّرُوا عَهْدَ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَآمَنُوا مِنْ أَخْفَتَ ، وَأَخَافُوا مِنْ آمَنَتَ ، فَأَخْصِمِهِمْ عَدَدًا ، وَأَقْتَلِهِمْ بَدَدًا^(٢) ، وَلَا تُبْقِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا » .

(زيل لأمال ص ١٢١)

(١) كان بنو هاشم - الطالبيون والعباسيون - قد اجتمعوا أخريبات مصر الأدي ، وتذاكروا حلهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وانفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فافقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلمًا ، وشاء القدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، فوليا السفاح ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يمتدنون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال لا علم لي بهما - وكانا قد تغيبا خوفا منه - فلما أطال عليه ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمي ، لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! أتدرك بولدي لقتلهما ! فقبض عليه ، وعل أمه من بني الحسن وحبسهم في سجن السكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية مقفورا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منه على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده واقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها حاملا وقاضرا ، فوجه المنصور لقتاله جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فسكانت الغلبة لاسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ . (٢) متبددين : متفرقين .

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه محمداً النفس الزكية (أو إبراهيم) ، فقال :

« أَي بُنَيَّ ، إِنِّي مُؤَدِّ حَقِّ اللَّهِ فِي تَأْدِيكَ ، فَأَدِّ إِلَيَّ حَقَّ اللَّهِ فِي الْإِسْتِمَاعِ مِنِّي ، أَي بُنَيَّ كُفِّ الْأَذَى ، وَارْفُضِ الْبِدْأَ ^(١) ، وَاسْتَعِنْ عَلَى الْكَلَامِ بِطَوْلِ الْفِكْرِ ، فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَدْعُوكَ فِيهَا نَفْسُكَ إِلَى الْكَلَامِ ، فَإِنَّ لِلْقَوْلِ سَاعَاتٍ يَضُرُّ فِيهَا الْخَطَأَ ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا الصَّوَابُ . وَاحْذِرْ مَشُورَةَ الْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحاً ، كَمَا تَحْذِرُ مَشُورَةَ الْعَاقِلِ إِذَا كَانَ غَاشِئاً ، لِأَنَّهُ يُرْدِيكَ بِمَشُورَتِهِ . وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ رَأْيَكَ إِذَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ وَجَدْتَهُ نَأْمِماً ، وَوَجَدْتَ هَوَاكَ يَقْطَازَ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَبَدَّ بِرَأْيِكَ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ هَوَاكَ ، وَلَا تَفْعَلْ فِعْلاً إِلَّا وَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ أَنْ عَاقِبَتَهُ لَا تُرْدِيكَ ، وَأَنْ نَتِيجَتَهُ لَا تَجْنِي عَلَيْكَ »

(زهر الأداب ١ : ٩٢ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنه محمداً - وكان عبد الله في السجن - بَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَيْهِ
مَعَ الرَّبِيعِ حَاجِبِهِ ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَدْ كُنْتُ مِنْ « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ
الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ
سُوءَ الْحِسَابِ » ، ثُمَّ تَمَثَّلَ :

(١) البداء : السفة والإنشائ في المنطق .

فَتَى كَانَ يَحْمِيهِ عَنِ الذِّلِّ سَيْفُهُ وَيَكْفِيهِ سَوَاءَ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا
ثم التفت إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن
نعيمك مثلها ، والموعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ أ كثرَ
انكساراً منه حين أبلغته الرسالة . (زهر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ - امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضته امرأة معها صبيّان ، فقالت :
« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أَيْتَمَهُمَا سَيْفُكَ ،
وَأَضْرَعَهُمَا^(١) خَوْزُكَ ، فَنَاشَدْتُكَ اللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَصْعَرَ لَهَا خَدَّكَ ، فَيُنْأَى
عَنِمَا رِفْدُكَ ، أَوْ لَتَعْزِزَنَّكَ عَلَيْهِمَا شَوَابِكُ النَّسَبِ ، وَأَوَاصِرُ^(٢) الرَّحِمِ » .
فالتفت إلى الربيع ، فقال : أَرُدُّدُ عَلَيْهِمَا ضِيَاعَ أَبِيهِمَا ، ثُمَّ قَالَ : كَذَا وَاللَّهِ أَحِبُّ
أَنْ تَكُونَ نِسَاءَ بَنِي هَاشِمٍ . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ - جعفر الصادق والمنصور

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد بن عبد الله ، أجمعوا على حرب المنصور ونصر محمد ،
فلما ظفر المنصور أحضر جعفرًا الصادق^(٣) بن محمد الباقر ، فقال له : قد رأيتَ إطباقَ
أهل المدينة على حربى ، وقد رأيتُ أن أبعثَ إليهم من يعور^(٤) ويحمر^(٥) نخلهم ،
فقال له جعفر : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَإِنْ أَيُّوبُ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ،

(١) أذلما . (٢) أواصر جمع آصرة ، والآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الحياض (وهي
أيضاً الرحم والقربة) . (٣) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين
ابن الحسين عليه السلام وتوفى سنة ١٤٨ . (٤) في الأصل « يعور » وأراه محرفاً ، وقد أصلحته
« يعور » يقال : عور البئر أى طمها وسد عيونها التى ينبع منها الماء . (٥) جمر النخل : قطع جماره .

وإن يوسف قدّر فقراً ، فاقتدِ بأيّهم شئتَ ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعقون
ويصفحون » ، فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يعلّمنا الحلمَ ، ولا يعرفنا العلمَ ، وإنما قلتُ
هممتُ ، ولم ترني فعلتُ ، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم .
(زمر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

لما حج المنصور مرّاً بالمدينة ، فقال للربيع الحبيب : علىّ بجعفر بن محمد ، قتلني الله
إن لم أقتله ، فطُل به ، ثم ألحّ عليه ، فحضر ، فلما كُشِفَ الستر بينه وبينه ، ومَثَل
بين يديه ، همس جعفر بِشَفَتِيهِ ، ثم تقرب وسلّم ، فقال : « لاسلمّ الله عليك يا عدوّ الله ،
تعمل على الفوائلِ في ماكِي ؟ قتاني الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ،
إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر ، وإن أيوبَ ابْتَلَى فَصَبَرَ ، وإن يوسفَ
ظَلِمَ فَفَقَرَ ، وأنت على إرثٍ منهم ، وأحقُّ من تأسّى بهم » ، فنكس أبو جعفر رأسه ملياً
وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه ، وقال : « إلىّ أبا عبد الله فأنت القريب القَرَابَةِ ، وذو الرحم
الواشجة ^(١) ، السليمُ الناحية ، القايلُ الغائلة » ، ثم صاحهُ بيمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسهُ
معهُ على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم قال :
باربيع ، عجّل لأبي عبد الله كِسوته وجأزته وإذنه .
(العقد الفريد ١ : ١٤٥)

٤٠ - صفح المنصور عن سفیان بن معاوية بن يزيد بن المهلب

ولما داهنَ سُفیانُ بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله^(١) ،
وصار إلى المنصور ، أمر الربيعَ بخلع سواده ، والوقوف به على رعوس اليمانية
في المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين قد عرفتم ما كان من إحساني إليه ، وحسن بلائي ،
وقديم نعمتي عليه ، والذي حاول من الفتنة ، ورام من البغي ، وأراد من شق العصا
ومعاونة الأعداء ، وإراقة الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من فعله ، أليم العقاب ، وعظيم
العذاب ، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه ، ورب^(٢) نعمائه السابقة عنده
لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عأدة الله عليه ، وما يؤمله من الخير العاجل والآجل ،
عند العفو عن ظم ، والصفح عن أساء ، وقد وهب أمير المؤمنين مسيئهم لمُحسِنهم ،
وغادرهم لو فيهم » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن علي^(٣) من الشام قديم على المنصور وقد منهم ، فقام عدة
منهم ، فتكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري ، فقال : « يا أمير المؤمنين

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أخو النفس الزكية ،
وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتال
النفس الزكية فقاتله وقتل إبراهيم في المعركة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) رب الشيء : جمعه وزاده ، ورب الصبي : ربه حتى أدرك .

(٣) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشام ، وقال : إن
السفاح قال لي إن ظهرت على مروان الحمدي - وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشام - فأنت ولي العهد
بمدي ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الخراساني لمبارته فهزمه ، وهرب عبد الله إلى
البصرة ، وذل على أخيه سايهان بن علي ، فشفع فيه سايهان إلى المنصور فأمنه ، فلما جاء إليه حبه ومات
في حبه ، وقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل في أساسه ملحما ، ثم أجزى الماء فيه ، فذقت الريح عليه فمات .

إنا لسنا وفدٌ مباحةٍ ، وإنما نحن وفدٌ توبةٍ ، وإنا ابتلينا بفتنةٍ استخفت كرمنا ،
واستفزّت حليمتنا ، ونحن بما قدمنا مُعترفون ، وبما سلف منا مُعترفون ، فإن تُعاقبنا
فبما أجرّمنا . وإن تعفُ عنا فيفضلك علينا . فاصفحْ عنا إذ ملكت . وأمننْ إذ قدرت .
وأحسنْ إذ ظفرتْ ، فطالما أحسنتَ إلى من أساء مِنّا » ، فقال المنصور : قد فعلت .
ثم قال للحرسيّ : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضياعه عليه بالفوطة ^(١) .

(العقد الفردي ١ : ١٤٤ : وتاريخ العبري ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٢ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضا

وقال عثمان بن خزيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشام في إجلائهم ^(٢) مع عبد الله
بن عليّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيت فشكرتَ وابتليتَ فصبرتَ ،
وقدّرتَ فعفوت » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقامُ عدلٌ ، والتجاوزُ فضلٌ ، والمنفصلُ
قد جاوز حدَّ النُصفِ ، فنحن نُعيد أمير المؤمنين بالله أن يرَضَى لنفسه بأوكس ^(٣)
النصيبيّن ، دون أن يبلغ أرفع الدرّجتين » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شفى غيظَ نفسه ، وأخذ أنصَى حقّه ، وإذا انتقمَ
فقد انتقصت ^(٤) ، وإذا عفوت تطوّلت ^(٥) . ومن أخذ حقّه ، وشفى غيظَه ، لم يجب
شكرُه ، ولم يُذكر في العالمين فضله . وكظّم الغيظَ حلِمٌ ، والحلِمُ صَبْرٌ ، والتشقى طرفٌ
من العجز ^(٦) ، ومن رَضِيَ ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا ستر رقيق ،

(١) كورة دمشق .

(٢) في الأصل « إجلائهم » وهو تحريف ، والصواب « إجلائهم » أي في فتنتهم وهياجهم من الجلبة
بالتحريك وهو الصياح . (٣) من الوكس كوعد : وهو النقصان .

(٤) أي انتقص حَقك فمخروجنّا عليك ، فحقك الانتقام منا لأخذ حَقك .

(٥) تطول عليه : أمن وتفضل . (٦) وفي زهر الآداب : « من الجزع » .

وحجابٌ ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم ، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم ، ولم تر أهل النهى . والمنسويين إلى الحِجَابِ والتُّقَى ، مدَحُوا الحُكَّامَ بشدة العقاب . وقد ذكروهم بحسن الصَّنِيعِ ، وبكثرة الاغتفار ، وشدة التغافل . وبعدُ ، فالعاقِبِ مستعدٌ^(١) لعداوة أولياء المذنب ، والعاقِبِ مستدعٍ لشكرهم . آمِنٌ من مكافاتهم^(٢) أيام قُدْرَتِهِمْ ، وَلَآنَ يُبْنَى عَلَيْكَ باتساع الصدر ، خير من يُبْنَى عَلَيْكَ بضيق الصدر^(٣) ، على أن إقالتك عثرة عباد الله ، مُوجِبٌ لإقالتك عثرتك من رب عباد الله . وعفوك عنهم موصول بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصولٌ بعقاب الله لك . قال الله عزَّ وجلَّ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٣ - أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مُسْلِمٍ بن قُتَيْبَةَ : دعا المنصور بالربيع^(٤) ، فقال : سَلْنِي ما تريد ، فقد سكتَ حتى نطقتَ ، وخففتَ حتى ثقَلتَ . وثَلَّتَ حتى أَكثرتَ ، فقال : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَرْهَبَ بِحُلِّكَ وَلَا أَسْتَقْصِرُ عُمرَكَ . وَلَا أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ ، وَلَا أَغْنِمُ مَالَكَ ، وَإِنْ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَيَّ أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي ، وَغَدُكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ مِنْ يَوْمِي . وَلَوْ جَازَ أَنْ يَشْكُرَكَ مِثْلِي بغيرِ الخِدْمَةِ وَالنَّاصِحَةِ لَمَا سَبَقْتَنِي لَدُنْكَ أَحَدٌ » قال : صدقتَ ، على بهذا منك أَحلَّكَ هذا الخُلَّ ، فَسَلْنِي ما شئتَ ، قال : أسألك أن تقرَّبَ عَبْدَكَ « الفضل^(٥) » وَتُوَثِّرَهُ وَتُحِبَّهُ ، قال : ياربيع ، إنَّ الحُبَّ ليس بمالٍ يُوهب

(١) وفي زهر الآداب : « مستودع » . (٢) مجازاتهم .

(٣) وفي زهر الآداب : « خير من أن توصف بضيقه » .

(٤) هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزر المنصور ، وكان موهباً فصيحاً كافياً حازماً فطناً ، ولم يزل وزيراً للمنصور إلى أن مات المنصور . وقام للربيع بأخذ البيعة للمهدى ، ثم سعى به أعدؤه إلى الهادي ،

فقتله سنة ١٧٠ هـ . (٥) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيدي بعد البرامكة ، وابنه الأمين

ولا رتبة تُبَدَّل ، وإنما تَوَكَّدَه الأسبابُ ، قال : فاجعل لى طريقاً إليه ، بالتفضل عليه ، قال : صدقت . وقد وَصَلْتُهُ بألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عُموْمَتى ، لتعلم ماله عندى . فيكون منه ما يستدعى به محبتي ، قال : فكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال : لأنها مفتاح كل خير ، ومِفْلاق كل شرٍّ ، تُسْتَرَّ بها عندك عيوبه ، وتصيرُ حَسَنَاتٍ ذُنُوبُهُ . قال : صدقت .

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

٤٤ - مقام عمرو بن عميد بين يدي المنصور

دخل عمرو^(١) بن عميد على المنصور بعد ما بايع للهدي ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطَّدت له الأمور ، وهى نصير إليه . وأنت عنه مستول ، فاستعبر المنصور ، وقال له : عِظْنى يا عمرو ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك . فأحذر ليلة تمخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو غمَّت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صحبك عشرين سنةً ، لم يرَ لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً . وما عمِلَ وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خائمي فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكفنى ، قال عمرو : أدعنا بعدلك ، تسخُ أنفسنا بعونك ، بيارك ألف مظلمة ، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق . »

(مروج الذهب ٢ : ٢٢٤ ، وحيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان

١ : ٣٨٤ ، والقد القرية ١ : ٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٤٨)

٤٥ - مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور

بما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحُول بين الحق وأهله من الطمع ، نخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن . وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الأرض ؟ وما الذي يحُول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني^(١) ، قال : يا أمير المؤمنين إن أمننتني على نفسي ، أنباتك بالأمر من أصولها . وإلا احتجزت منك . واقتصرت على نفسي ، ففيها لي شاعِلٌ ، فقال : أنت آمنٌ على نفسك فقل ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنت ، قال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء^(٢) في قبضتي ، وألحوا والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك للمسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر . وأبواباً من الحديد . وحجبةً معهم السلاح ، ثم سجنك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت ألا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، نفرٌ سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق ، فلما رأك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يُحجبوا عنك ، تجبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا

(١) أوجنى وآنى . (٢) الصفراء والبيضاء : الدنانير والدراهم .

قد خان الله ، فما بالنا لانحونه وقد سَجَنَ لنا نفسه ؟ فَأَتَمَّرُوا بِالْأَيُّمِ إِلَى يَوْمِ الْيَوْمِ ، فَمَا يَخْرُجُ لَكَ عَامِلٌ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبَهُ (١) عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته ، ويصفر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمهم الناس وهابوم ، فكان أول من صنعهم عمالاً بالهدايا والأموال ، ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو التدرية والثروة من رعيتك ، لينالوا به ظلم من دونهم فامتلات بلادُ الله بالطمع بغيًا وفسادًا ، وصار هؤلاء القوم شرَّ كءك في سلطانك ، وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيلَ بينه وبين دخول مدينتك ، فإن أراد رفعَ قصته إليك عند ظهورك ، وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجالا ينظر في مظالمهم ، فإن جاءك ذلك الرجل ، فباع بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك ، فإن المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفًا منهم ، فلا يزال المظلوم يحتلف إليه ، ويلوذ به ، ويشكو ويستنيث ، وهو يدفعه ويعتلّ عليه ، فإذا أجهد وأخرج وظهرت ، صرَّحَ بين يديك ، فضرب ضربًا مبرِّحًا ليكون نكالًا لغيره ، وأنت تنظر فلا تُنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا ؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة ، وقد أصيب ما كها بسمعه ، فبكي يومًا بكاء شديدًا ، فثَّه جاساؤه على الصبر ، فقال : أما إنني لست أبكي للبلية النازلة بي ، ولكني أبكي لمظلوم بالباب يصرُّخ ، ولا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذا ذهب سمعي ، فإن بصرى لم يذهب ، نادوا في الناس ألا يابس ثوبًا أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر هل يرى مظلومًا ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مُشرك بالله ، غابت رأفته بالمشركين شحَّ نفسه ، وأنت مؤمن بالله ، ثم من أهل بيت نبيه ، لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ؟ فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرًا في الطفل ، يسقط من بطن أمه ،

(١) عابوه وشتموه ، وفي العقد الفريد : « غونوه » .

وما له على الأرض مالٌ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يَلطُفُ بذلك الطفل، حتى تعظم رغبةُ الناس إليه، ولست بالذى تعطى، بل الله يعطى من يشاء ماشاء، وإن قلتَ إنما أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عِبرًا في بنى أمية، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وأعدُّوا من الرجال والسلاح والكراع، حتى أراد الله بهم ما أراد، وإن قلتَ إنما أجمع لطاب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ، لا تُدرِكُ إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ قال المنصور: لا، قال: فكيف تصنع بالملك الذى خوّلكَ مُلكَ الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل؟ ولكن بالخلود فى العذاب الأليم، قد رأى ما قد عُقدَ عليه قلبك، وَعَمَلتَهُ جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحتَه^(١) يدك، ومشت إليه رجلاك، هل يُغنى عنك ماشحت عليه من مُلك الدنيا إذا انزعهُ من يدك، ودعاك إلى الحساب؟ فبكى المنصور وقال: يا ليتنى لم أُخلق، ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلامًا يفزعون إليهم فى دينهم، ويرضون بهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم فى أمرك يسدّدوك، قال: قد بعثت إليهم فهربوا منى، قال: خافوا أن تحمّلهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهّل حجّابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ النىء والصدقات مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُعدوك على صلاح الأمة»، وجاء المؤذنون، فسلموا عليه، فصلى وعاد إلى مجلسه، وَطَلِبَ الرجل فلم يوجد.

(عبود الأخبار ٢ م : ٢٢٢، والمعقد الفريد ١ : ٢٠٤)

٤٦ - مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي^(١) : دخلت على المنصور ، فقال لي : ما الذي بطأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أنظر ماتقول ، فإن « مكحولاً^(٢) » حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة في دينه ، فهي رحمة من الله سبقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد إثماً ، ويزداد عليه غضباً ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله لأن الله هو الحق المبين » فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسل على الربيع السيف ، وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا ؟ فاتهره المنصور وقال : أمسك ، ثم كلمه الأوزاعي ، وكان في كلامه أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سأثلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتيها وتغيرها^(٣) ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالقيسط

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، إمام أهل الشام ، ولم يكن لها أعلم منه . وله بيطريك سنة ٥٨٨ هـ ، وتوفي سنة ١٥٧ ببيروت . والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذرية الكلاب من اليمن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما زل فيهم : فنسب إليهم ، وهو من سبى اليمن .

(٢) هو مكحول بن عبد الله الشامي ، معلم الأوزاعي ، وكان من سبى كابل ، وقع إلى سعيد بن العاص ، فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهري : العلماء أرومة : سعيد بن المهلب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس بن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفي سنة ١١٨ هـ .

(٣) الفتيل : السحاة التي في شق النوة ، والتغير : النقرة التي في ظهر النواة .

فما بينهم قائماً ، لا يتخوفُ مُحْسِنُهُمْ مِنْهُ رَهَقًا^(١) ، ولا مُسِيئُهُمْ عُدْوَانًا ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويردع عنه المناققين ، فأتاهُ جبريل فقال : « يا محمد ، ما هذه الجريدةُ بيدك ! اذفِها لامتلاء قلوبهم رُعبًا » فكيف من سفك دماءهم ، وشققَ أبقارهم ، وأنهب^(٢) أموالهم ؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بِمُحْدِثِ خَدَشِهِ أَعْرَابِيًّا لم يتعمده ، فهبط جبريل ، فقال : « يا محمد ، إن الله لم يبعثك جَبَّارًا تَكْسِرُ قُرُونِ أُمَّتِكَ » واعلم أن كل مافي يدك لا يَعدِلُ شَرِبَةَ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ ، ولا تَمْرَةَ مِنْ ثَمَارِهَا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَقَابُ^(٣) قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، أَوْ قُدَّةٌ^(٤) خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا » إن الدنيا تنقطع ويَزولُ نعيمها ، ولو بقي الملكَ لِمَنْ قَبْلَكَ لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبًا من ثياب أهل النار عُلِقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَذَاهُمْ ، فكيف من يتقمَّصه ؟ ولو أن ذنوبًا^(٥) من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الأرض لَأَجَنَّهُ^(٦) ، فكيف بمن يتجرَّعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضِعَتْ على جبل لذاب ، فكيف من سُلِكَ^(٧) فيها ، وَيُرَكَّدُ فُضَاهُهَا على عاتقه ؟ وقد قال عمر بن الخطاب : « لا يَقُومُ أَمْرَ النَّاسِ إِلَّا حَصِيفٌ^(٨) الْعُقْدَةُ ، بَعِيدُ الْغِرَّةِ^(٩) لا يَطَّلِعُ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلَا يُحْتَقِ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ^(١٠) ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لِأُمَّم » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يَظْلِفُ^(١١) نفسه وُعمَّاله ، فذلك له أجرُ الجهاد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويدُ الله بالرحمة على رأسه تُرْفَرَفُ ، وأمير رَتَعَ وَرَتَعَ عُمَّالَهُ ، فذلك يَحْمِلُ أَثْقَالَهُ وَأَثْقَالَ مَعِ أَثْقَالِهِ ، وأمير يَظْلِفُ نَفْسَهُ ،

(١) ظلما . (٢) جعلها نهبًا يغار عليه . (٣) القاب : ما بين المقبض والسية (وسية للقوس كعدة : ما عطف من طرفها) . (٤) رمش السهم . (٥) الذنوب : الدلو . (٦) جملة آجنا أى متغير الطعم والون . (٧) قيد . (٨) حصف الرجل ككرم : استحجم عقله فهو حصيف ، وأحصف الحيل : أحكم نظره . (٩) الغفلة . (١٠) أحتق : حقد حقدًا لا ينحل ، وأحتق الصلب : لزق بالطن ، والجرة ما يقبض به الهمير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضر الحقد والحقق . (١١) يكف .

ورجع عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلفُ عماله ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عُرض على السموات والأرض والجمال ، فأبين أن يحمله وأشقن منه ، وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل : « لَا يُفَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدي ؟ فأعيزك بالله أن يُخيل إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ضيفاء عممة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوهبا أنفسكما من الله ، إني لا أغني عنكما من الله شيئا ، وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة ، فقال : « أي عم ، نفس تحيها ، خير لك من إمارة لا تحصيها » نظرا لعمته ، وشفقة عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعاً ، ولا عنه دفاً ، هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددها فنفسك تحست ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، نقبلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين .

(المقدم الفريد ١ : ١٠٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

٤٧ - نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين : توسع توسعاً قُرُشياً ، ولا تضيق ضيقاً حجازياً .

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدثنا ، فقال : « يا أمير المؤمنين :

(١) ولي قنشرين الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والسكوفة ، وكان آخر من جمع له المراقبان من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت عسكره لحق بمدينة واسط ، فخصم بها . ولما بويج السفاح بالخلافة وجه أخاه أبا جهفر المنصور لقتاله ، فحصره بواسط شهوراً ، ثم أمته وانتزع البلد صلحا ، ثم قتل .

إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد مَحَضْتُ^(١) لك النصيحة « ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأنارَه^(٢) المنصور بصره ، ثم قال : لا يعزُّ مُلْكٌ يكون فيه مثلُ هذا ! .

(تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ - معن بن زائدة والمنصور

ودخل مَعْن^(٣) بن زائدة الشَّيباني على أبي جعفر المنصور وقد أسنَّ ، فقارب في خَطْوِه ، فقال له المنصور : لقد كبرت سِنُّكَ يا معن ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنَّ فيك كَبِيَّةٌ ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأى الدولتين أحبُّ إليك ، هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

(البيان والتهيين ٣ : ٢٢٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ : وزهر الآداب ٣ : ١٦١)

٤٩ - معن بن زائدة وأحد زواره

ودخل رجل على مَعْن بن زائدة ، فقال : ما هذه القبيَّة ؟ فقال : « أيها الأمير ، ما غابَ عن العين مَنْ يذكُرُه القلبُ وما زال شوقى إلى الأمير شديداً ، وهو دون

(١) أخلصت . (٢) أنارَه البحر : أتيه إياه ، وحدد إليه النظر .

(٣) كان جواداً شجاعاً جريلاً العطاء كثير المعروف ، وكان في أيام بنى أمية متنقلاً في الولايات ، منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير المراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بنى العباس ، وحاصر المنصور يزيد بمدينة واسط كما قدمنا ، أبلى يومئذ معن مع يزيد بلاء حسناً ، فلما قتل يزيد خاف ممن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة ، ولم يزل مستتراً حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ناروا على المنصور ، وجرت مقتلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية - وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة - وكان معن متوارياً بالقرب منهم ، فخرج متنكراً معاً متألماً ، وتقدم إلى القوم ، وقا تل قدام المنصور قتلًا أبان فيه من نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور ، قال له : من أنت ويحك ؟ -

ما يَجِبُ لَهُ ، و ذكرى له كثيراً وهو دون قدره ، ولكن جَفْوَةَ الْحِجَابِ ، وَ قِوَّةَ
بِشْرِ الْعِلْمَانِ ، منعاني من الإكثار ، فأمر بتسهيل حجابي ، وأجزل صلته .
(زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٥٠ - المنصور وأحد الأعراب

ودخل أعرابي على المنصور فتكلم ، فأعجب بكلامه ، فقال له : سل حاجتك ،
فقال : يُبْقِيكَ اللهُ ، وَيَزِيدُ فِي سُلْطَانِكَ ، فقال : سل حاجتك ، فليس في كل وقت
تؤمّر بذلك ، قال : « ولم يا أمير المؤمنين ، فوالله ما أستقصِرُ عمرك ، ولا أخاف
بُخْلَكَ ، ولا أغتَنِمُ مالك ، وإن سَوَّأَكَ لشرف ، وإن عطاءكَ لَزَيْنٌ ، وما بامرئ
بَدَلَ وجهه إليك نقص ولا شَيْنٌ » . فأحسن جائزته وأكرمه .

(الصناعاتين ص ٤١ ، العقد الفريد : ١٣٩)

٥١ - أعرابية تعزى المنصور وتهنئه

وروى القلقشندي قال : تعرّضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة
أبي العباس السّفاح ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، احْتَسِبِ الصَّبْرَ ، وَقَدِّمِ الشُّكْرَ ، فَقَدْ أَجْزَلَ اللهُ لَكَ الثَّوَابَ
فِي الْحَالِيْنَ ، وَأَعْظَمَ عَلَيْكَ الْمِنَّةَ فِي الْحَادِثِيْنَ ، سَلِّبِكَ خَلِيفَةَ اللهِ ، وَأَفَادَكَ خِلَافَةَ اللهِ ،
فَسَلِّمْ فِيمَا سَلَّبِكَ ، وَاشْكُرْ فِيمَا مَنَحَكَ ، وَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَارَلَكَ
فِيمَا مَلَكَكَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ » .

== فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائد ، فأمنه المنصور وأكرمه ، وصار من خواصه ، وروى
سجستان في أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ اندس قوم من الخوارج بين صنّاع كانوا يعملون في داره
بمدينة بخت ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتجهّم ابن أخيه يزيد بن يزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرهم .

وروى الجاحظ قال : عَزَّتْ امرأةُ المنصور عن أبي العباسِ مقدّمه من مكة ، قالت : « أعظم الله أجرك ، فلا مصيبةَ أجلُّ من مصيبتك ، ولا عِوَضَ أعظم من خلافتك » .
(صبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والتهيين ٢ : ٥٥)

٥٢ - خطبة محمد بن سليمان^(١) يوم الجمعة

(وكان لا يزيها)

الحمد لله ، أحمدَهُ وأستعينهُ وأستغفرهُ ، وأومن به ، وأتوكّل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ، فقد اعتصم بالعرْوة الوثقى ، وسعد في الأولى والآخرة ، « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطِيعُهُ وَيُطِيعُ رَسُولَهُ ، ويتبع رضوانه ، ويتجنّب سُخطه ، فإنما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسكم على طاعة الله ، وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل ما تحاثّ الناس عليه ، وتداعوا إليه ، وتواصوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .
(البيان والتهيين ٢ : ٦٥)

٥٣ - وصية مسلم بن قتيبة

وقال مُسلم بن قتيبة^(٢) : « لاتطابنَّ حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لاتطلبها إلى الكذّاب ، فإنه يُقربها وهي بعيدة ، ويبعدها وهي قريبة ؛ ولا تطلبها إلى الأحمق ،

(١) هو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة في خلافة أبي جعفر المنصور رتوف سنة ١٧٣ في خلافة الرشيد .

(٢) استشاره المنصور في قتل أبي مسلم ، فقال : ماترى في أمره ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة

إلا الله لفَسَدَتَا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أدنا واعيّة (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢) .

فإنه يريد أن ينفك وهو يضرک ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأکلة ، فإنه يجعل حاجتك وقاءً لحاجته .

(الأمال : ٢ : ١٩٠)

٥٤ - خطبة المهدي (توفي سنة ١٦٩ هـ)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحده على الآئته^(١) ، وأجده لبلائه^(٢) ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المجتبي^(٣) ، ورسوله إلى خلقه وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطُمُوس^(٤) العلم ، واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة أمية ، أهل عداوة وتضاعن ، وفرقة وتباين ، قد استهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرناؤهم^(٥) ، فاستشعروا الردى ، وساكوا العمى ، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحشكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والاتهاء إلى ما يقرب من رحته وينجى من سخطه ، ويُنَالُ به مالهديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توفقون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار « يَوْمَ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شِقْقٌ وَسَعِيدٌ ؛ يَوْمَ يُفْعَلُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ أَمْرٍ

(١) نعمه ، والمفرد إلى كحمل وشمس ، وألوكشمس ، وأل كصا وإل كرضا .

(٢) البلاء : يكون منحة ، ويكون محنة . (٣) المخفار . (٤) الدروس والانشاء .

(٥) القرين : المصاحب ، والشيطان : المقرون بالإنسان : لا يفارقه .

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغْرُبَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَفْرُتَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ، وتقلب وانتقال ، قد أفنت من كان قبلكم ، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم ، من ركن إليها صرعته ، ومن وثق بها خاتته ، ومن أملها^(١) كذبتة ، ومن رجاها خذلتة ، عزها ذل ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقي فيها من آثرها ، والذغيبون فيها من باع حظَّه من دار آخرته بها ، فالله عباد الله ، والتوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة ، وبادروا بالأعمال الزكية^(٢) ، في هذه الأيام الخالية ، قبل أن يؤخذ بالكظم^(٣) ، وتندموا فلا تنالون الندم ، في يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف ، يوم ليس كالأيام ، وموقف ضنك المقام . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ألهاكم التكاثر حتى زرئتم المقابر - إلى آخر السورة - أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به ، وأنها كم عما نهاكم عنه ، وأرضى لكم طاعة الله ، وأستغفر الله لي ولكم .

(المعقد الفريد ٢ : ١٤٦)

(١) أمله وأمله بالتخفيف والتشديد . (٢) زكا يزكو : تما وصلح .

(٣) الكظم : الحلق أو الفم ، أو مخرج النفس ، أى قبل الموت .

مشاورة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة ، على أن نكثوا بيعتهم ، ونقضوا موثقتهم ، وطرودوا العمال ، والتوا بما عليهم من الخراج ، وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم ، ويكره من عندهم ، على أن أقال عثرتهم ، واغفر زلتهم ، واحتمل دألتهم ، تطوؤا بالفضل ، واتساعاً بالعمو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذمّله الله أعباء الخلافة ، وقلده أمور الرعية ، رفيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدلة في رعيته ، تسكناً إلى كنفه ، وتأنساً بعموه ، وثيقاً بحلمه . فإذا وقعت الأفضية اللازمة ، والحقوق الواجبة . فليس عنده هواده ، ولا إغضاء ، ولا مدهانة ، أثره للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم ؛ فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه ، والثقة بعموه ، أن كسروا الخراج ، وطرهوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خاطوا احتجاجاً باعتذار ، وخضومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي ، خرج إلى مجلس خلأته ، وبعث إلى نفر من لحمة^(١) ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ، ثم أمر الموالى^(٢) بالابتداء ، وقال للعباس^(٣) بن محمد : أي عمّ تعقب قولنا ، وكن حكماً بيننا ، وأرسل إلى ولديه

(١) الحمة : القرابة . (٢) جمع مولى ، وهو هنا القربى كابن العم ونحوه .

(٣) هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أخو المنصور .

موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى رأى ، وأسر محمد بن الليث بحفظ
سراجتهم ، وإثبات مقالاتهم فى كتاب .

٥٥ - مقال سلام صاحب المظالم

قال سلام صاحب المظالم :

« أيها المهدي : إن فى كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغت رأيهم ،
واستفرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعرفوا بها ،
وعرفت بهم ، ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غايةً ، وطلبت معونتنا عليها أقوام من
أبناء الحرب وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز^(١) ، وإخوان التجارب ،
وأبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها^(٢) ، وقيأتهم ظلالها ، وعضت بهم شدائدُها ،
وقرمتهم نواجذها^(٣) ، فلو عجمت ما قبلهم ، وكشفت ما عندهم ، لو جدت نظائرَ
تؤيد أمرك ، وتجارِبَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوى قلبك . فأما نحن معاشرَ عمالك .
وأصحاب دواوينك . فحسن بنا ، وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتتنا من عملك ،
واستودعتنا من أمانتك ، وسفلتتنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حُكْمك ،
وإظهار حقك » .

فأجابه المهدي : « إن فى كل قوم حكمةً . ولكل زمان سياسة . وفى كل حال
تدبير . يُبطل الآخر الأول . ونحن أعلم بزماننا ، وتدبير ساطاننا » .

قال نعم : أيها المهدي : أنت متسع الرأى ، وثيق العقدة ، قوى المنة^(٤) ، بليغ
الفيطنة ، معصوم النية ، تحضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفق العزيمة ، معان بالظفر ،
مهدي إلى الخير . إن هممت فى عزمك مواقع الظن ، وإن اجتمعت صدع فعلك

(١) الهززة والهزاهز : تحريك البلايا والحروب الناس . (٢) جمع سجل كشمس : وهو العلو

العظيمة مملوءة . (٣) فرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أنصب الأضرار . (٤) القوة .

ملتبس الشك . فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبك . وقل يُنطق اللهُ بالحق لسانك .
فإن جنودك جَمَّة . وخزائنك عامرة . ونفسك سخية . وأمرُك نافذ .»

فأجابه المهدي : « المشاورة والمناظرة بالبراحة ومفتاحا بركة . لا يهلك عليهما
رأى ، ولا يتفيل^(١) معهما حزم ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضركم ، فإنى من
ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .»

٥٦ - مقال الربيع بن يونس^(٢)

وقال الربيع :

أيها المهدي : إن تصاريف وجوه الرأى كثيرة . وإن الإشارة ببعض معارض
القول يسيرة . ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة . متراخية الشقة^(٣) . متفارقة السبل
فإذا ارتأيت من مُحكم التدبير . ومُبرم التقدير . وأبواب الصواب ، رأيا قد أحكمه
نظرك ، وقلبه تديرك . فإيس وراءه مذهب طاعن . ولا دونه معلق لخصومة عائب .
ثم خبت البرد^(٤) به ، وانطوت الرُّسل عليه ، كان بالحرم أن لا يصل إليهم مُحكمه .
إلا وقد حدث منهم ما ينفقسه . فما أيسر أن ترجع إليك الرسل . وترد عليك الكتب
بمقتائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ، فتحدث رأياً غيره ، وتبتدع
تديراً سواه ، وقد انفرجت الخلق ، وتحللت العقد ، واسترخى الحجاب^(٥) ، وامتد
الزمان . ثم كعلم موقع الآخرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى أيها المهدي وفقك الله .
أن تصرف إجابة النظر ، وتقلب الفكر فيما جمعنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير
لحريهم ، والحيل في أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع

(١) قال رأيه وتفيل : خطأ وضعف . (٢) وزر لابي جعفر المنصور وقتله الهادي سنة ١٧٠ هـ

(٣) البعد والسفر البعيد . (٤) جمع بريد : وهو الرسول ، وخبث : أسرعت .

(٥) الحجاب : ما تشده المرأة في وسطها .

واسع . ليس موصوفاً بهوياً في سواك ، ولا متبهماً في أثره عليك ، ولا ظنيناً^(١) على دُخلة^(٢) مكروهة . ولا منسوباً إلى بدعة محدورة . فيقدح في ملكك ، ويريض^(٣) الأمور لغيرك ، ثم تستند إليه أمورهم . وتقوِّض إليه حربهم ، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه . بلزوم أمرك ما لزمه الحزم . وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي ، عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التي يُنقضُ أمرُ الغائب عنها ، ويثبت رأيُ الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتي من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة . ونفذ العمل . وأُحِدَ النظر إن شاء الله .

٥٧ - مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدي : إن وليَّ الأمور ، وسائسَ الحروب ، ربما نحى جنوده ، وفرَّق أمواله في غير ماضيقِ أمرٍ حزبه^(٤) ، ولا ضفطة حال اضطرته ، فيقعد عند الحاجة إليها ، وبعد التفريقة لها ، عديماً منها . فاقداً لها . لا يثق بقوة ، ولا يصول بعدة ، ولا يفرغ إلى ثقة . فالرأي لك أيها المهدي وقلقك الله ، أن تُعفى خزائنك من الإفراق للأموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة الأخطار ، وتفجير القتال ، ولا تُسرِعَ للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسد عليك أدبهم ، وتجري من رعبك غيرهم ، ولكن اغزهم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعهم باللين ، وخاتلهم^(٥) بالرفق ، وأبرق^(٦) لهم بالقول ، وأرعد نحوهم بالفعل ، وابتعث البعوث ،

(١) متبهماً . (٢) دخلة الرجل مثلك ، ودخيلته : نيته ومذهبه .

(٣) في كتب اللغة : راضه وروضه : ذله ، وأراض الأرض جعلها رياضاً . (٤) اشتد عليه .

(٥) خادهم . (٦) رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهدد وتوعده .

وجنّد الجنود ، وكتب الكتاب ، واعقد الألية ، وانصب الرايات ، وأظهر أنك
موجهٌ إليهم الجيوش مع أحقّ قوادك عليهم ، وأسوّمهم أثراً فيهم ، ثم ادسّ الرسل ،
وابنث الكتب ، وضع بعضهم على طمعٍ من وعدك ، وبعضاً على خوفٍ من وعيدك ،
وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تُملاً
القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصدور على البغضة ، ويدخل كلا من كل الحذر
والهيبه ، فإن مرّام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة^(١) بالكتب ، والمكايده
بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، القوي الموقع من النفوس ،
المعقود بالحجج ، الموصول بالحيل ، المبنى على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق
العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة^(٢) ، أنفذ من القتال بظلمات
السيوف ، وأسنة الرماح ، كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيته بالحيل . ويفرّق كلمة عدوه
بالمكايده ، أحكم عملاً ، وألطف منظرًا ، وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك
إلا بالقتال ، والإنلاف للأموال . والتفريز والخطار^(٣) . وليعلم المهدي أنه إن وجه
لقتالهم رجالاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على
أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقود غشّة ، إن ائتمهم استنفدوا ماله ، وإن
استنصحهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : « هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ،
ومجسد حقه في القلوب ، ولسكن فوق كل ذى علم عليم » ، ثم نظر إلى ابنه على ،
فقال : ما تقول ؟

٥٨ - مقال علي بن المهدي

قال علي بن المهدي :

« أيها المهدي : إن أهل خراسان لم يَخْلَمُوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبُوا من دونك أحداً ، يَقْدَح في تغيير ملكك ، وَيُريِض الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا كان الخطبُ أيسرَ ، والشأن أصغر ، والحال أدلّ ، لأن الله مع حقه الذي لا يَخْذَلُه ، وعند موعده الذي لا يُخْلِفُه ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبْتَ إلى دعوتهم ، ونفست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، ويحدث من عندهم فتق ، أطعت أمر الرب ، وأطفأت نائرة الحرب ، ووفرت خزائن المال ، وطرحت تفرير القتال ، وحمل الناسُ تحمّل ذلك على طبيعة جودك ، وسجية حلمك ، وإسجاح^(١) خايقتك ، ومعدلة نظرك ، فأمنت أن تُنسب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي ذرّبة ، وإن منعتم ما طلبوا ، ولم تُجِبهم إلى ما سألوا ، اعتدلت بك وبهم الحال ، وساوتهم في ميدان الخطاب ، فما أربُ المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيتك ، مقرّين بمملكته ، مُدعنين بطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يُبرثونها من عبوديته ، فيملكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدّ المقارعة وميضار المخاطرة . أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال ؟ فلمعري لا يتألمها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدعى قباهم ، ولو تألمها فحملت إليه ، ووُضعت بخزائنها^(٢) بين يديه

(١) الإسجاح : حسن العفو .

(٢) جمع خريطة : وهي وعاء من آدم وفضهه يمرج على ما فيه .

ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان إليه مما يُنسب ، وبه يُعرف ، من الجنود
الذي طبعه الله عليه ، وجعل قرّة عينه ، ونهمة^(١) نفسه فيه ، فإن قال المهدي : هذا
رأى مستقيم سديد ، في أهل الخراج الذين شكّوا ظلم عمالنا ، وتحامل وولاتنا ؛ فأما
الجنود الذين تقصّوا موافق اليهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ،
وكسروا قيّد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجمهم نكالا لغيرهم ، عظة لسواهم ، فيعلم
المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مُقرّنين^(٢) في الأصفاد^(٣) ، ثم اتسع
لحقن دماهم عفوه ، ولإقالة عثرتهم صمّجته ، واستبقاهم لما هم فيه من حربه ، أو لمن
بإزائهم من عدوه ، كما كان بدعا من رأيه ، ولا مستنكرا من نظره ، لقد علمت
العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً ، وأشدّها وقماً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاطمه^(٤)
عفواً ، ولا يتكاهده^(٥) صفحاً ، وإن عظم الذنب ، وجل الخطب ، فالرأى للمهدي
وقفه الله تعالى أن يحل عُقدة الغيظ ، بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن
يذكر أولى حالاتهم ، وضيعة عيالاتهم ، برّاهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ،
وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبحجّتهم يقول ، وإنا مثلهم
فيما دخلوا فيه من مساخطة ، وتعرضوا له من معاصيه ، وانظروا فيه عن إجابته ، ومثله
في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو نُقل من حاله لهم ، أو تغير من نعمته بهم ،
كمثل رجاين أخوين متناصرين متوازيين ، أصاب أحدهما خبل عارض ، وهُوَ حادث .
فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالكره ، فلم يزد أخوه إلا رقة له ، ولطفاً به ،
واحتيالاً لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبرّاه به ، ومراحة له .

(١) النهمة : الحاجة وبلوغ الشهوة في الشيء .

(٢) مقيدون . (٣) الأصفاد : القيود ؛ جمع صفة كسب .

(٤) تعاطمه الأمر ؛ عظم عليه . (٥) تكاهده الأمر ؛ شق عليه .

فقال المهدي : أما على فقد نوى سَمَتَ اللَّيَّانِ^(١) ، وَفَضَّ الْقُلُوبِ فِي أَهْلِ خِرَاسَانَ ،
وَلِسْكَلٌ نَبِيًّا مُسْتَقَرًّا ، فقال : ما ترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه (المهدي) .

٥٩ - مقال موسى بن المهدي

فقال موسى :

« أيها المهدي : لَا تَسْكُنْ إِلَى حِلَاوَةِ مَا يَجْرِي مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ
تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلُ مِنْ خَلَّالِ فَعْلِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمَضْمَرَةٍ شَرِّ ، وَخَفِيَّةٍ حَقْدٍ ،
قَدْ جَعَلُوا الْمَعَاذِيرَ عَلَيْهَا سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا الْعِلَلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَجَاءً أَنْ يَدَافِعُوا
الْأَيَّامَ بِالتَّأخِيرِ ، وَالْأُمُورَ بِالتَّطْوِيلِ ، فَيَكْسِرُوا حِيَلَ الْمَهْدِيِّ فِيهِمْ ، وَيُفْنُوا جُنُودَهُ
عَنْهُمْ ، حَتَّى يَتَلَحَّمْ أَمْرُهُمْ ، وَتَتَلَحَّقَ مَادَّتُهُمْ ، وَتَسْتَفْعَلَ حَرْبُهُمْ ، وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ
وَالْمَهْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ غِرَّةٍ ، وَلِبَاسِ أَمْنَةٍ ، قَدْ فَتَرَ لَهَا ، وَأَنْسَ بِهَا ، وَسَكَنَ إِلَيْهَا .
وَلَوْلَا مَا اجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالقِتَالِ ، وَالْإِضَارِ
لِلْقِرَاعِ ، عَنِ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ فِسَادٍ ، لَرَهَبُوا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ ، وَغَبَّ
بِسُكُونِ الْأُمُورِ ، فَيَشْدُدُ الْمَهْدِيُّ وَقْفَهُ اللَّهُ أَرْزَهُ^(١) لَهُمْ ، وَيَكْتُبُ كِتَابَهُ نَحْوَهُمْ ،
وَيُضِعُّ الْأَمْرَ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْضُرُهُ فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ خُطَّةً يَرِيدُ بِهَا صَلَاحَهُمْ ،
إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى فِسَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ، وَسَبَبًا لِفَسَادِ
مَنْ يَحْضُرْتَهُ مِنَ الْجُنُودِ ، وَمَنْ يَبَابُهُ مِنَ الْوَفُودِ الَّذِينَ إِنْ أَقْرَبَهُمْ وَتَلَّكَ الْعَادَةَ ، وَأَجْرَاهُمْ
عَلَى ذَلِكَ الْأَرْبِ ، لَمْ يَبْرَحْ فِي فَتْقِ حَادِثٍ ، وَخِلَافِ حَاضِرٍ ، لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينَ ،
وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ، وَإِنْ طَلَبَ نَعْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ الدُّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ

(١) اللَّيَّانُ : الملائنة . مصدر لآين ، والسمت : الطريق .

(٢) القُوَّةُ وَالظُّهْرُ .

إلى ذلك إلا بالعقوبة المُفْرِطَة . والثُّونَة الشديدة . والرأى للمهدى وفقه الله أن لا يُقبل
عثرتهم . ولا يقبل مَعْدِرَتَهُمْ . حتى تطأهم الجيوشُ . وتأخذهم السيوفُ . ويستَحِرُّ^(١)
بهم القتلُ . ويُحَدِّقُ بهم الموت . ويحيط بهم البلاء . وَيُطَبِّقُ عليهم الذل . فإن فعل
المهدى بهم ذلك . كان مَقْطَعَة لكل عادة سوء فيهم . وهزيمة لكل بادرة شرٍّ منهم .
واحتِمالُ المهدى في مَثُونَة غزوتهم هذه . تضع عنه غزواتٍ كثيرة . ونفقاتٍ عظيمة .
فقال المهدى : « قد قال القوم . فاحكم يا أبا الفضل » .

٦٠ - مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدى : أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جَنَبات الصواب ،
وتعدّوا أموراً قَصَرَ بنظرهم عنها ، أینه لم تأت تجارِبُهُمْ عليها . وأما الفضل فأشار
بالأموال ألا تُنْفَقَ ، والجنودِ ألا تُفَرَّقَ ، وبأن لا يُعْطَى القوم ما طلبوا ، ولا يُبَدَّل
لهم ما سألوا . وجاء بأمرٍ بَيَّنَ ذلك استصفاً لأمرهم ، واستبانةً بحرهم . وإتاما يهيجُ
جَسِيَّاتِ الأمورِ صفارها .

وأما على فأشار باللين وإفراط الرِّفْق . وإذا جرّد الوالى لمن غَمِطَ أمره وسفه
حقه ، اللين بَحْتًا ، والخيرَ مَحْضًا . لم يخلطهما بشدةٍ تعطف القلوب عن لينة . ولا بشرًا
يُخْبِسُهُمْ إلى خيره . فقد ملكهم الخلع لعذرهم . ووسّع لهم الفُرْجَةَ لِثَنِي أعناقهم .
فإن أجاوا دعوته . وقبِلوا لينة من غير خوف اضطهرم ولا شدة . فَنَزَوَة^(٢) في رءوسهم
يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم . ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم . وإن لم يقبلوا
دعوته . ويسرعوا لإجابته باللين المَحْض ، والخير الصراح . فذلك ما عليه الظن بهم ،
والرأى فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم . لأن الله تعالى خالق الجنة . وجعل فيها

(١) يشهد .

(٢) وثبة إلى الشر .

من النعيم القيم . والملك الكبير . مالا يَحْظُرُ على قلب بشر . ولا تُدْرِكُه الفِكر .
ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ، ورغَّبهم فيها . فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمةً
يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدة لا لينَ فيها . وأن يُرَمَوْا بشرًا لا خيرَ معه
وإذا أضر الوالى لمن فارق طاعته . وخالف جماعته . الخوفَ مُفْرَدًا . والشرَ مَجْرَدًا .
وليس معها طمع . ولا لينٌ يُنْذِرهم . اشتدت الأمور بهم . وانقطعت الحال منهم
إلى أحد أمرين . إما أن تدخلهم الحِمِيَّةُ من الشدة . والأنفةُ من الذلة . والامتعاظ
من القهر . فيدعوهم ذلك إلى التَّماذى فى الخلاف . والاستبسال فى القتال . والاستسلام
للموت . وإما أن ينقادوا بالكُرْه . ويُذعنوا بالقَهْر على بَغْضَة لازمة . وعداوة باقية .
تورث النفاق . وتُعقِب الشقاق . فإذا أمكنتهم فرصةٌ أو ثابَّت^(١) لهم قدرة . أو قويت
لهم حال . عاد أمرهم إلى أصعبَ وأغلظَ وأشدَّ مما كان .

وقال فى قول أبى الفضل : أيها المهدي أ كفى دليل . وأوضح برهان . وأبين
خبر بأن قد أجمع رأيه . وحزَم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم . وتوجيه
البعوث نحوهم . مع إعطائهم ما سألوا من الحق . وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل .
قال المهدي : ذلك رأى .

٦١ - مقال هرون بن المهدي

قال هرون :

« خلطت الشدة أيها المهدي باللين . فصارت الشدة أمرًا فِطامٍ لما تَكْرَه .
وعاد اللين أهدى قائد إلى ما حِبِّ . ولكن أرى غير ذلك » .
قال المهدي : « لقد قلت قولاً بديعاً . وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً . والمرء

مُؤْتَمَنٌ بِمَا قَالَ . وَظَنِينَ بِمَا ادَّعَى . حَتَّى يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ . وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ . فَأَخْرَجَ
عَمَّا قُلْتَ « قَالَ هِرُونَ : « أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ . إِنْ الْحَرْبُ خُدَعَةٌ ^(١) . وَالْأَعَاجِمُ قَوْمٌ مَكْرَةٌ .
وَرَبَّمَا اعْتَدَلْتَ الْحَالَ بِهِمْ . وَاتَّفَقْتَ الْأَهْوَاءَ مِنْهُمْ . فَسَكَانَ بَاطِنُ مَا يُسْرُونَ عَلَى ظَاهِرِ
مَا يُعْلِنُونَ . وَرَبَّمَا افْتَرَقْتَ الْحَالَانِ . وَخَالَفَ الْقَلْبَ الْإِسَانُ . فَانْطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوبَةٍ
تُبْطِنُ . وَاسْتَسْرَّ بِمَدْخُولَةٍ لِاتْلَعَانَ . وَالطَّيِّبُ الرَّفِيقُ بَطْبَةٌ . الْبَصِيرُ بِأَمْرِهِ . الْعَالِمُ بِمُقَدَّمِ
يَدِهِ . وَمَوْضِعُ مَيْسَمِهِ ^(٢) لَا يَتَعَجَّلُ بِالْذَّوَاءِ . حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّاءِ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ
- وَقَعَهُ اللَّهُ - أَنْ يَفِرَّ ^(٣) بَاطِنُ أَمْرِهِمْ فَرَّ الْمُسِنَّةُ . وَيَمَخَّضُ ظَاهِرُهَا لِمَخْضِ السَّيِّئِ .
بِمَتَابَعَةِ الْكُتُبِ . وَمُظَاهَرَةِ الرُّسُلِ . وَمَوَالَاةِ الْعِيُونَ . حَتَّى تُهْتَكَ حُجُبُ عِيُونِهِمْ .
وَتَسْكَفُ أَغْطِيَةُ أُمُورِهِمْ . فَإِنْ انْفَرَجَتِ الْحَالَ وَأَفْضَتِ الْأُمُورَ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالِ .
أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ اشْتَمَلَتِ الْأَهْوَاءَ عَلَيْهِ . وَانْقَادَ الرِّجَالَ إِلَيْهِ . وَامْتَدَّتِ الْأَعْنَاقُ نَحْوَهُ
بِدِينٍ يَعْتَقِدُونَهُ . وَإِثْمٌ يَسْتَحْلُونَهُ . عَصَبَهُمْ بِشِدَّةٍ لَا لِينَ فِيهَا . وَرِمَاهُمْ بِعُقُوبَةٍ لَأَعْفُوَ مَعَهَا .
وَإِنْ انْفَرَجَتِ الْعِيُونَ . وَاهْتَصِرَتِ السُّتُورُ . وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ . وَالْحَالَ فِيهِمْ مَرِيعةٌ ^(٤) .
وَالْأُمُورُ بِهِمْ مَعْتَدَلَةٌ . فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا . وَأَعْمَالٍ يُنْكَرُونَهَا . وَظُلَامَاتٍ يَدْعُونَهَا .
وَحَقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا . بِمَاتَّةٍ سَابَقْتَهُمْ . وَدَالَّةٍ مَنَاحَتَهُمْ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَقَعَهُ اللَّهُ -
أَنْ يَتَسَعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا . وَيَتَجَافَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا . وَيَشْعَبُ ^(٥) مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا .
وَيَرْتُقُ مِنْ فَتْقِهِمْ مَا قَطَعُوا . وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْبَبُوا . وَيَدَاوِي بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ
وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّمَا الْمَهْدِيُّ وَأُمَّتُهُ . وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ . بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ .
وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ . وَالرَّاعِيِ الْحَرْبِ الَّذِي يَحْتَالُ لِلرَّابِضِ غَنَمِهِ . وَضَوَّالِ رَعِيَّتِهِ . حَتَّى
يُبْرِئُ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا . وَيُرَدِّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أُنْسِ جَمَاعَتِهَا . ثُمَّ إِنْ خَرَّاسَانَ بِمَخَاصِئِ

(١) خدعة بسكون الدال وتثنية الخاء، وبضم الخاء وفتح الدال، أي تنفسي بخدعة .

(٢) الميسم : المسكوة . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليهرق منها .

(٤) مرج الوادى ككرم مراعاة : أصعب بكثرة الكلال فهو مريع . (٥) تصلح .

الذين لهم دالةٌ محمولة . وماتةٌ مقبولة . ووسيلةٌ معروفة . وحقوقٌ واجبة . لأنهم أيدي دولته . وسيوف دعوته . وأنصارُ حقه . وأعوان عدله . فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم . ولا المؤاخذة لهم . ولا التوغر^(١) بهم . ولا المكافأة بإساءتهم . لأن مبادرة حَسَمِ الأمور ضَعِيفَةٌ قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصولِ ضئيلةٌ قبل أن تغلظ ، أحزَمُ في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : « ما زال هرون يقع وقع الحياء^(٢) حتى خرج خروج القَدَح من الماء وانسلَّ انسلال السيف فيما ادعى فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثني بعده هرون ، ولكن من لأعنة الخليل وسياسة الحرب وقيادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة ؟ » .

٦٣ - مقال صالح بن علي^(٣)

قال صالح :

« لسنا نبليغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيك وبمض لحظّاتِ نظرك، وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالاتِ العجم، ذو دين فاضل ورأى كامل، وتدبير قوى، تقلده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطّلع بالأعباء الثقيلة وأنت بحمد الله ميمون النقيية^(٤)، مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب معصوم العزم ، فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك ، وتُسند إليه تفرك ، إلا أراك الله ماتحب ، وجمع لك منه ما تريد . »

(١) توغر الرجل : تشدد . (٢) المطر .

(٣) هو صالح بن علي بن عبد الله بن هباص . (٤) النفس والطبيعة .

قال المهدي : « إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم » .

٦٣ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدي قومٌ ذوو عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ ، وشياطينُ خَدَاعَةٍ ، زُرُوعِ الحَمِيَّةِ فيهم نابتة ، وملابس الأَنَفَةِ عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبةٌ وَالْمَعَجَلَةُ فيهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عدوهم ، لأنهم بين سِفْلَةٍ لا يعدو مبلغ عقولهم منظرَ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلَجِّمُونَ إلا بشدة ولا يُفْطَمُونَ إلا بالمرِّ ، وإن وليَّ المهدي عليهم وضعياً لم تنقذ له العطاء ، وإن وليَّ أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء وإن آخر المهدي أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يُصِيبَ لنفسه من حَشَمِهِ ومواليه أو بنى عمه أو بنى أبيه ناصحاً ، يتفق عليه أمرهم ، وثِقَةً تجتمع له أملاؤهم^(١) بلا أَنَفَةٍ تَلْزَمُهُمْ . ولا حَمِيَّةٍ تَدْخُلُهُمْ ، ولا مصيبة تنفرهم ، تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم . فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جدَّ ، ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشرٌّ كبير ، وليس المهدي سوقفه الله فاطماً عاداتهم ، ولا قارِعاً صفاتهم^(٢) ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عدل^(٣) في ذلك بهما ، أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويدٌ ممثلة لعينك ، وصخرةٌ لا تُزْعَرُ ، وبُهْمَةٌ^(٤) لا تُنْذِي ، وبازل^(٥) لا يُفْرَعُهُ صوتُ الجَلْجُلِ ، نقيُّ المرعُضِ ، نزيه النفس ، جليل الخطر^(٦) اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة

(١) جمع ملاكسبب : وهو الجماعة . (٢) الصفاة : الحجر الصلد للضخم . (٣) العدل : النظير .

(٤) البهمة : الصخرة ، والشجاع الذي لا يهده من أين يؤد . (٥) البازل : الجهل في السنة

الثامنة ، والرجل الكامل في تجربته . (٦) القدر .

بِهِتَهُ ، وجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لقدمه مؤطياً ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتمدى أملاً ، وهو رأس مَوَالِيكَ ، وأنصح بنى أبيك ، رجل قد غُدِّي بلطيف كرامتك ، وَنَبَتَ في ظل دولتك ، ونشأ على قوائم أدبك ، فإن قلده أمرهم وحملته ثقلهم ، وأسندت إليه نَفَرَهُمْ ، كان قفلاً فتحه أمرُك ، وباباً أغلقه نهيُك . فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً ، وإذا أحكم المنصفه . وملك المعدلة ، فأعطاهم ما لهم ، وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك في الذي بين صدورهم وأسكن لك في الشؤبيدَاء ، داخلَ قلوبهم ، طاعةً راسخة العروق ، باسقة الفروع ، متائلةً في حواشي عوامهم ، متمكنةً من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إلا نفوه ولا يلزمهم حقٌ إلا أدوه ، وهذا أحدهما ، والآخر عودٌ من غَيْضَتِكَ (١) ، وَتَبَعَةٌ من أرومتك ، فتى السن ، كنهل الحليم ، راجح العقل ، محمود الصرامة ، مأمون الخلاف . مجرد فيهم سيفه ، ويسيطر عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون وهو فلان أيها المهدي ، فسُلطه - أعزك الله - عليهم ، ووجهه بالجيوش إليهم ، ولا تمنعك ضراعة (٢) سنه ، وحدائمه مؤلده ، فإن الحليم والثقة مع الحدائمه ، خير من الشك والجهل مع الكهولة ، وإنما أحداكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنفس ، كفراخ عتاق الطير ، المُحَكِّمَة لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب . فالحلم والعلم ، والعزم والحزم ، والجود والثورة ، والرفق ، ثابت في صدوركم ، مزروع في قلوبكم ، مُسْتَحْكِمٌ لكم ، متكاملٌ عندكم بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

(١) البضعة : الأجمة وجمع الشجر في مفيض ماء . (٢) المراد حدائمه

٦٤ - مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

« أفتاه^(١) أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر ، وأهل خراسان في حال عز على ما وصف ، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود . ولا بنبيه الصوت في الحروب ، ولا بطويل التجربة للأموار ، ولا بمعروف السياسة للجيوش ، والهيبية في الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان ، وخطران مهولان ، أحدهما أن الأعداء يفتمزونها منه ، ويحتقرونها فيه ، ويحترون بها عليه ، في النهوض به . والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل ما حين الاختبار لأمره ، والتكشف لحاله ، والعلم بطباعه ؛ والأمر الآخر أن الجنود التي يقود ، والجيوش التي يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصوت^(٢) والهيبية ، انكسرت شجاعتهم ، وماتت تجلثهم . واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ، ووقع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل الاختبار . وبباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك^(٣) صيئت ، له نسب زاك . وصوت عال ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتألف أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بإلقة ، ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولأه المهدي أمرهم ، لسكفاه الله شرهم . »

قال المهدي : « جانبت قصد الرمية ، وأبيت إلا عصبية إذ رأى الحدت

من أهل بيتنا ، كراى عشرة حلماء من غيرنا . ولكن أين تركتم ولي العهد ؟ » .

قالوا : « لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جدّه ، ونسيج وحده^(٤) . ومن الدين

وأهله . بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عز وجل حجج عن

(١) جمع قتي كيتيم وأيتام . (٢) الصوت والصلوات والصيت : الذكر الحسن . (٣) حنيك .

(٤) هو نسيج وحده : لا نظير له منفرد بخصال معدودة لا يشركه فيها غيره ، كما أن الثوب النقيس

لا ينسج على منواله غيره ، أي لا يشرك بينه وبين غيره في اللدى .

خلقه ، وسرّ دون عباده ، عِلْمٌ ما تختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجرى عليه المقاديرُ من حوادث الأمور ، ورَيْبُ المنون^(١) المُخْتَرِمَةُ لِخَوَالِي القرون ، ومواضى الملوك فكرهنا شُوعه^(٢) عن حَمَلَةِ الملك ، ودار السلطان ، ومقرّ الإمامة وَالْوِلايَةِ ، وموضع المدائن والخرائن ، ومستقرّ الجنود ، ومعدن الجود ، وَجَمْعُ الأموال التي جعلها الله قُطْبًا لِمَدَارِ الملك ، ومصيصة لقلوب الناس ، وَمَثَابَةٌ لِإِخْوَانِ الطمع ، وَثَوَارِ الفتن ، وَدَوَاعِي البِدَع . وفُرسان الضلال ، وأبناء الموت ، وقلنا إن وَجّه المهدى ولىَّ عهده ، فحدث في جيوشه وجنوده ، ما قد حدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدى أن يُعَقِّبَهُمْ بغيره ، إلا أن ينهض إليهم بنفسه ، وهذا خَطَرٌ عظيم ، وهول شديد ، إن تنفّست الأيام بمقامه . واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عَوْضٌ لا يَسْتَفْتِي عَنْهُ ، أو يَحْدُثُ أمرٌ لا بُدَّ مِنْهُ . صار ما بعده مما هو أعظم هَوًّا وَأَجَلُ خَطَرًا ، له تبعًا ، وبه متصلا .

٦٥ - مقال المهدى

قال المهدى :

« اَلْخَطْبُ أيسرُ مما تذهبون إليه ، وعلى غير ماتصفون الأمرَ عليه ، نحن أهل البيت نجرى من أسباب القضايا ، ومواقع الأمور ، على سابقٍ من العلم ، ومحتومٍ من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ، وَتَنَبَّأت عليه الرسلُ ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا . وتسكامل بمخدّافيره^(٣) عندنا ، فيه ندير ، وعلى الله نتوكل ، إنه لا بُدَّ لولِيّ عهدي . وولِيّ عهدي عقبى بعدى أن يقود إلى خراسان البعوث ، ويتوجه نحوها بالجنود ؛ أما الأول فإنه يُقدّم إليهم رسله ، ويُعمل فيهم حِيَلَهُ . ثم يخرج نَشِيطًا إليهم حَقِيقًا

(١) المنون النية (مؤنث) والمخترة : المهلكة ، والحوالي جمع خالية : وهي الماضية .

(٢) شمع كنع شعما وشسوعا : بعد فهو شاسع وشسوع .

(٣) جمع حذفور كمصفور أو حذفار كقرطاس : وهو الجانب .

عليهم . يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ، ودواعي البدع ، وفُرسان الضلال .
إلا توطأه بحرَّ القتل ، وألبسه قناع القهر . وقادّه طوق الذل ، ولا أحداً من الذين
علووا في قصِّ جناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونُصرة ولاة الحق ، إلا أجرى عليهم
دِيم فضله ، وجداول نهله ، فإذا خرج مُزْمعاً به ، مُجمِعاً عليه ، لم يسر إلا قايلاً حتى
يأتيه أن قد عملت حيله ، وكَدَحَت كتبه ، ونَفَذَت مكايده ، فَهَدَّأت نافرة القلوب .
ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظراً لهم ، وبراً بهم .
وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله
الحرام ، وساب تجارهم رزق الله الحلال ؛ وأما الآخر فإنه يوجه إليهم ، ثم تعتقله
الحجَّة عليهم بإعطاء ما يطلبون ، وبذلل ما يسألون ، فإذا سمحت الفِرَق بقرباتها له .
وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة .
وقدمت عليه الوفود ، قصد لأول ناحية بَحَثت^(١) بطاعتها ، وألقت بأزمئتها ، فألبسها
جناح نعمته ، وأنزلها ظلَّ كرامته وخصَّها بعظيم حباه^(٢) ، ثم عمَّ الجماعة بالمعدلة .
وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها
بركته ، ووصلت إليها منفعتُه ، فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضيعها . وزاد
رفيعها ، ما خلا ناحيتين ، ناحية يغاب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فنستخف
بدعوته ، وتبطن عن إجابته ، وتتناقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث ، وأبظاً من
يوجه ، فيصطلي عليها موحدة ، ويتنقى لها علة ، لا يلبث يجد^(٣) بحق يلزمهم ، وأمر
يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحرَّ بهم القتل ، ويحيط
بهم الأمر ، ويُفنيهم التتبع ، حتى يُخرب البلاد ويوتِّم الأولاد ، وناحية لا يسط
لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمَّة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة .

(١) بفتح الحاق بخوعاً : أذربه وخضع له . (٢) عطائه . (٣) يفضب .

وتدرِّع جِلبابَ الفتنة ، وربّضَ في شِقِّ العَصَا ، ولكنه يُقتلُ أعلامهم ، ويأسر قوادهم
ويطلب هُرَابهم ، في لُججِ البحار ، وَقُللِ الجبال ، وَحَمِيلِ^(١) الأودية ، ويطون الأرض .
تفتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً ، حتى يدع الدنيا خراباً ، والنساء أَيْامِي ، وهذا أمر لانعرف له
في كتبنا وقتاً ، ولا نصحّح منه غيرَ ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولي عهدي ، فهذا
أَوَانُ تَوَجُّهه إلى خراسان ، وحلولة بَجْرُجان ، وما قضى الله له من الشخوص إليها .
والمقام فيها ، خير للمسلمين مَغَبَّةً ، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغَمَّر في لُججِ
بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ، ويتدأب^(٢)
مَشْرِقِ نُوره ، ويتقلَّل كثير ما هو كَأَثْنِ منه ، فمن يصحبه من الوزراء ، ويختار له
من الناس ؟ » .

٦٦ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدي : إن وليَّ عهدك أصبحَ لأُمَّتِكَ ، وأهل مملكتك ، علماً قد تثنت نحوه
أعناقها ، ومدَّت سَمْتَه أبطارها . وقد كان لقرب داره منك ، ومحلِّ جواره لك ،
عُظْل^(٣) الحال ، غُفْل الأمر ، واسع المدر . فأما إذا انفرد بنفسه . وخلا بنظره .
وصار إلى تدييره . فإن من شأن العامة أن تنفقد مخارج رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره
وتسأل عن حوادث أحواله ، في برِّه ومَرَاحته . وإقساطه^(٤) ومعدّلاته ، وتدييره
وسياسته ، ووزرائه وأصحابه . ثم يكون ماسبق إليهم أغاب الأشياء عليهم ، وأملك
الأمر بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ
المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ،

(١) الحميل : بطن السيل . (٢) يضطرب .

(٣) عطل (كفتح) من المال والأدب : خلا فهو عطل كعطل وعطل . (٤) عدله .

ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله . وأظهر لجماله ، وأفضل مغنبة لأمره ، وأجل موقفاً في قلوب رعيته ، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته . ولا أذفع مع ذلك باستجماع الأهواء له . وأبلغ في استعطاف القلوب عليه ، من مَرَحمةٍ تظهر من فعله . ومعدلة تنتشر عن أثره . ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهديّ - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة . وقضاء أهل كلِّ مصر ، أقواماً تسكنُ العائمةُ إليهم إذا ذُكروا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصفوا . ثم تسهل لهم عمارة سُبُل الإحسان ، وفتح باب المعروف . كما قد كان فتح له ، وسهل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت . ثم بعث في ابنه موسى ، فقال :

٦٧ - مقال المهدي

« أَي بُنَيَّ . إنك قد أصبحتَ لَسَمْتَ وجوه العامة نُصباً ، ولثني أعطافِ الرعية غايةً ، فحَسَنَتُكَ شاملة . وَإِسَاءَتُكَ نائية ، وأمرُكَ ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته . فاحتِمْ لِسُخْطِ النَّاسِ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبْ رِضَاهُم بِمُخْلَافِهِمَا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَافِيكَ مَنْ أَسْخَطَهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ . وَليْسْ بِكَافِيكَ مَنْ يُسَخِّطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ قَتْرَةٌ مِنْ رِسلِهِ . وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ ، وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجِدُّ حَبْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيَشِيدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ، وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَاراً ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَاناً . يَسُدُّونَ الْخَلْلَ ، وَيَقِيمُونَ الْمَيْلَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفَسَادَ ، وَإِنْ أَهْلُ خِرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِيَ دَوْلَتِنَا ، وَسِوْفَ دَعْوَتِنَا ، الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارِهِ بِطَاعَتِهِمْ ، وَنَسْتَصْرِفُ نَزُولَ الْعِظَامِ بِمُنَاصَحَتِهِمْ . وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَّتِهِمْ ، وَنُرَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبِصَافَتِهِمْ ، وَهُمْ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أَرْجَفَ كَنْفُهَا ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحُصُونُ الرِّعِيَةِ إِذَا تَضَايَقَتِ الْحَالُ بِهَا ، قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ، أَخَذَتْ نِيرَانَ

الفتن ، وقسمت دواعي البدع . وأذلت رقاب الجبارين ، ولم ينفكوا كذلك ماجروا مع ربح دولتنا ، وأقاموا في ظل دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا ، التي أعز الله بها ذلتهم ، ورفع بها صفتهم ، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض ، وملوكاً على رقاب العالمين بعد لباس الذل ، وقناع الخوف ، وإطباق البلاء ، ومخالفة الأسي ، وجهد البأس والضر . فظاهر عليهم لباس كرامتك ، وأنزلهم في حدائق نعمتك ، ثم اعرف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دالتهم ، وماتة سابقتهم ، وحرمة مناصحتهم ، بالإحسان إليهم ، والتوسعة عليهم ، والإثابة لحسنهم ، والإقالة لسئهم .

أى بنى ، ثم عليك العامة . فاستدع رضاها بالعدل عليها ، واستجاب مودتها بالإنصاف لها ، وتحسن بذلك لربك ، وتوثق به في عين رعيتك ، واجعل عمال العذر وولاية الحجج مقدمة بين يدي عملك ، ونصفة منك لرعيتك ، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد ، وخيار أهل كل مصر ، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم ، فإن أحسن حدث ، وإن أساء عذرت . هؤلاء عمال العذر ، وولاية الحجج ، فلا يسقطن عليك مافي ذلك إذا انتشر في الآفاق ، وسبق إلى الأسماع من انقصاد السنة المرجفين ، وكبت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفككن في ظل كرامتك نازلاً ، وبِعراً حبلك متعلقاً ، رجلاًن : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقلب الكلام ، وتصريف الرأي ، وأنحاء القرب ، ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخطوب ، يضع آداباً نافعة ، وآثاراً باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك ، وتحلية ذكرك ، فتستشيره في حربك ، وتدخله في أمرك ، فرجل أصبته كذلك ، فهو يأوي إلى محلتى ، ويرعى في خضرة جنانى ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان ، وخيار الأمصار ، أقواماً يكونون حيرانك وسمارك ، وأهل

مشاورتك فيما تُورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدر ، فسِرَّ على بركة الله ، أحصيتك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهْدِي إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .
وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد^(١) .

(العقد الفريد ١ : ٥٧)

٦٨ - ابن عتبة يعزى المهدي ويهتبه

لما توفى المنصور دخل ابن عتبة^(٢) مع الخطباء على المهدي ، فسلم فقال :
« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله لأمر المؤمنين فيما خلقه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عُقْبَى أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فأقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٦٩ - يعقوب بن داود يستعطف المهدي

لما سخط المهدي على وزيره يعقوب بن داود^(٣) أحضره ، فقال : يا يعقوب ، قال : كئيبك يا أمير المؤمنين ، تلبية مكروبٍ لِمَوْجِدَتِكَ ، شَرِقَ بَغْضَتِكَ ، قال :

(١) ملاحظة : أقول : وهذا يناق ما ورد في التاريخ : إذ المعروف أن المهدي توفى في المحرم سنة ١٦٩ وأعطاه الهادي ، الذي توفى في ربيع الأول سنة ١٧٠ ، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي بعد وفاة المهدي والهادي ، مع أنه ذكر في سياق خبرها أن المهدي أمر محمد بن الحيث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم في كتاب ، أي أنها كتبت في المجلس الذي حدثت فيه المشاورة . والله ارادني التاريخ أيضاً أن الهادي خرج إلى جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٧ - ٨) اللهم إلا أن يقال إنها كتبت في مجلس المشاورة ، وبقيت محفوظة لدى كاتبها ، حتى نشرت للناس في ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور ، عل أننا نتشكك فيها من وجهة أخرى ، وذلك لما نراه عليها من مـحة الكتابة الفنية المنسقة .

(٢) وفي العقد الفريد « أبو العيناء المحدث » .

(٣) وكان المهدي قد فرض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سخط عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلاً من العلويين ، وقال له : أحب أن تكفي أمره ، فلما صار العلوي -

« ألم أرفع قدرك وأنت خامل ، وأسيرٌ ذكرك وأنت هامل ، وألبسك من نعم الله تعالى ونعمي ما لم أجد عندك طاقةً لحمله ، ولا قياماً بشكره ؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهر^(١) عليك ، وردّ كيدك إليك ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإني معترف ، وإن كان بسماية الباغين ، ونمائم المعاندين ، فأنت أعلمُ بأكثرها ، وأنا عايدٌ بكرمك ، وعميم شرفك » .

فقال : لولا الحنث^(٢) في دمك لألبستك قميصاً لاتشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى السجن ، فتولى وهو يقول : « الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والمودة رحيم ، وما على العفو ندم ، وأنت بالعفو جدير ، وبالحماسن خَلِيق » ، فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد .

(زمر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ - رجل من أهل خراسان يخطب محضرة المهدي

وقَدِمَ على المهدي رجل من أهل خراسان ، فقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إنا قوم تائبنا عن العرب ، وشغلتنا الحروبُ عن الخطب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا ، وما فيه مصلحتنا ، فيكتفي منا باليسير عن الكثير ، ويقتصر على ما في الضمير ، دون التفسير » ، فقال المهدي : أنت أخطب من سمعته .

(الصناعين ص ٤٠)

— وفيه : قال له : يا مقوب تلقى الله بدي ، وأنا ابن علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة رضى الله عنها ، وليس لي إليك ذنب ؟ فرق له ، ودخل سبيله ، ونهى الخبر إلى المهدي ، فأرسل في طلب العلوي حتى ظفر به ، واستلحقه مقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوي ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال : نعم ، فاستلحقه ، فحلف له : فأخرج إليه للعلوي ، فلم يجر جواباً ، فأمر بجمسه في بئر مظلمة ، ومازاله محبوساً حتى عفا عنه الرشيد وتوفى سنة ١٨٦ هـ . (١) أي أعان عليك .

(٢) في الأصل « الحسب » وأرى أنها محرفة عن « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

٧١ - مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم

قال :

« إنه لما سَهَّل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك ، قَمْنَا مقامَ الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، عند انقطاع عُذْر الكِثْمَانِ ، ولا سِيَّما حين اتَّسَمَت بِمِيسَمِ التواضع ، ووعدت الله وَحَمَلَةَ كتابه إثثارَ الحق على ما سواه ، فَجَمَعْنَا وَإِيَّاكَ مشهدً من مشاهد التمهيص ، لِيَمِّمَ مؤدِّبنا على موعود الأداء عنهم ، وقابلنا على موعود القبول ، أو يزيدنا تمحيصُ الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ، وَيُحَلِّقُنَا حِلْيَةَ الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « من حَجَبَ الله عنه الْعِلْمَ ، عَذَّبَهُ على الجهل ، وَأَشَدَّ منه عَذَاباً مَنْ أَقْبَلَ إليه العلم وأدْبَرَ عنه ، ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به ، فقد رَغِبَ عن هدية الله وقصَّر بها » ، فأقبل ما أهدى الله إليك من أسنتنا ، قبول تحقيق وعمل لا قبول سُمْعَةٍ ورياء ، فإنه لا يَعدَمُك منا إعلامٌ لِمَا تَجْهَلُ ، أو مُوَاطَاة على ما تعلم ، أو تذكير لك من غفلةٍ ، فقد وَطَّنَ الله عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام على نزولها ، تعزيةً عما فات ، وَتَحْصِيناً من التماذى ، ودلالة على المخرج ، فقال : « وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وَأَطْلِعِ الله على قلبك ، بما ينور الله به القلوب ، من إثثار الحق ، ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك يَرُ اثْرُكَ وَأَثْرُ الله عليك فيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٧٢ - عظة شبيب بن شيبه للمهدى

وقال شبيب بن شيبه^(١) للمهدى : « يا أمير المؤمنين ، إن الله إذ قَسَمَ الأقسام في الدنيا ، جعل لك أسنانها وأعلاها ، فلا ترض لنفسك من الآخرة ، إلا مثل ما رضى لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نزلت ، ومنكم أخذت ، وإليكم تُردّ » .
(العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ - خطبته في تعزية المهدي بابنته

لما ماتت البانوقة بنت المهدي ، جَزَع عليها جزعاً لم يُسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يُحجَب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسموا تعزية أوجز ، ولا أبلغ ، من تعزية شبيب بن شيبه ، فإنه قال :

« أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزيت أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنعمة ، ولا نزع منك نعمة ، ثوابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك وأحقُّ ما صبرَ عليه مالا سبيل إلى رده^(١) » .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢١)

٧٤ - خطبة أخرى له في مدح الخليفة

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستمدله ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح ، فأمر رسولا فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم حق الصلاة عليه ، ثم قال :

(١) هو شبيب بن شيبه بن عبد الله بن عمرو بن الأهم المقرئ القمي وهو ابن عم خالد بن صفوان .
توفي في حدود سنة ١٧٠ هـ .
(٢) روى صاحب العقد أن شيبيا عزي بهذا المذال المنصور على أخته أبي العباس (العقد الفريد ٢ : ٣٥) .

« ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة : الأسد الخادر^(١) ، والبحر الزاخر ، والقمر الياهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر : فأشبه منه صولته ومضاهه ؛ وأما البحر الزاخر : فأشبه منه جوده وعطاءه ؛ وأما القمر الباهر : فأشبه منه نوره وضيائه ؛ وأما الربيع الناضر : فأشبه منه حسنه وبهائه ، ثم نزل وأنشأ يقول :

وموقفٍ مثل حدِّ السيف قتُّ به أحمى الذمار وترميني به الخدق^(٢)
فما زلقت ، وما ألقيت كاذبةً إذا الرجال على أمثاله زلقوا

(المعقد الفرديد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

٧٥ - كلمات لشيب بن شيبه

وقال شيب : « اطلب الأدب ، فإنه دليل على المرأة ، وزيادة في العقل ، وصاحب في العربة ، وصلة في المجلس » .

وقال للمهدى يوماً : « أراك الله في بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى الله بنيك فيك ، ما أراك في أبيك » . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فقال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال : « رأيت للداخل راجحاً ، والخارج راضياً » .

(البيان والتبيين ١ : ١٩٠ ، زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ - خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب

يوم ولي الرشيد الخلافة

روى الطبرى قال : لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادى ، أخرج هرون بن أعين هرون الرشيد ليلاً ، فأقعدته للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد بن برمك

(١) الخدر : أجمه الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد : لزم الأجمه . وأخدر العين الأسد : ستره فهو نخدر بكسر الدال وفتحها . (٢) الذمار : ماتجيب حمايته .

- وكان محبوساً - وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد في تلك الليلة^(١) فحضر يحيى ، وتقلد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صُبَيْح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غداة تلك الليلة وحضر القواد ، قام يوسف ابن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ ، مَنْ عَايَكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، بَيْتِ الْخِلَافَةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَإِيَّاكُمْ أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانِ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نِعْمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تَنْقُضِي مَدَى الْأَبَدِ ، وَأَيْدِيهِ التَّامَةَ ، أَنْ جَمَعَ الْفَتْكُمْ ، وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَضُدَكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوَكُمْ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ أَوْلَى بِهَا وَأَهْلَهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ تَوْبِيئًا عَزِيزًا ، فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمَرْضِيِّ ، وَالذَّابِّينَ بِسَيْفِهِ الْمُنْتَضِي ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِيَّاكُمْ اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أُمَّةِ الْجُورِ ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَالْآكِلِينَ النَّفْيَ وَالْمُسْتَأْتِرِينَ بِهِ ، فَاذْكُرُوا مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاحذَرُوا أَنْ تَغَيَّرُوا فَيَغَيَّرَ بِكُمْ ، وَإِنْ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْتَرَ بِخَلِيفَتِهِ مُوسَى الْهَادِي الْإِمَامَ ، فَقبضهُ إليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين بكم رهوفاً رحياً ، مِنْ مَحْسَنِكُمْ قَبُولًا ، وَعَلَى مَسِيئِكُمْ بِالْعَفْوِ عَطُوفًا ، وَهُوَ - أَمْتُهُ اللَّهُ بِالنِّعْمَةِ ، وَحَفِظَ لَهُ مَا اسْتَرَعَاهُ إِيَّاهُ مِنْ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَتَوَلَّاهُ بِمَا تَوَلَّى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ - يَعِدُّكُمْ مِنْ نَفْسِهِ الرَّأْفَةَ بِكُمْ ، وَالرَّحْمَةَ لَكُمْ ، وَوَقَّسَ أُعْطِيَاتِكُمْ فِيكُمْ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِكُمْ ، وَيَبْدُلُ لَكُمْ مِنَ الْجَائِزَةِ ، مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْخُلَفَاءِ ، مِمَّا فِي بِيُوتِ الْمَالِ مَا يَنْبُوبُ عَنْ رِزْقِ كَذَا وَكَذَا شَهْرًا ، غَيْرَ مُقَاضٍ لَكُمْ بِذَلِكَ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أُعْطِيَاتِكُمْ وَحَامِلًا بَاقِيَ ذَلِكَ لِلدَّفْعِ عَنْ حَرِيمِكُمْ ، وَمَا لَعَلَّ أَنْ يَخْدُثَ فِي النَّوَاحِي وَالْأَقْطَارِ مِنْ

(١) وكان الهادي يريد أن يجعل الخلافة في ابنه جعفر ، ويخلف أخاه هارون . وسعى إلى الهادي يحيى ابن خالد ، وقيل له إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يقصد يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى وأمر بهجسه .

العصاة المارقين ، إلى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى جوامها^(١) وكثرتها ،
والحال التي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من
إحسانه إليكم ، بما جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم ، أيده الله
بطاعته ، وارغبوا إلى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون ،
وأعطوا صفة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم
وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين » . (تاريخ الطبري ١٠ : ٤٨)

٧٧ - خطبة هرون الرشيد (توفي سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ،
ونؤمن به حقاً ، وتوكل عليه ، مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس^(٢)
من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين
يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدى عن الله وعده
ووعيده ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف
الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاة من النار ، وأحذرکم يوماً تشخص^(٣) فيه الأبصار ،
وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن^(٤) ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ،
يوم لا يستعقب من سيئة ، ولا يزداد من حسنة ، يوم الآزفة^(٥) ، إذ القلوب لدى
المنابر كاطنين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين^(٦)

(١) كثرتها . (٢) دروس : الحما . (٣) شخص بمره كنع : فتح عينيه ، وجعل لا يطرف .

(٤) يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أهل الجنة تغيب فيه أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة أو امتوا .

(٥) القيامة ، من أرف كفرح : دنا وقرب . (٦) بمسارقتها للنظر إلى الحرم .

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا تَرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

عباد الله : إنكم لم تُخلقوا عبثاً ، ولن تُترَكوا سُدىً ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ،
ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له ، ولا دينَ لمن لا عهدَ له ، ولا صلاةَ لمن لا زكاةَ له » .
إنكم سَفَرٌ^(١) مجتازون ، وأتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا
إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذكره
أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمُتَّبِعِينَ . قال الله عز وجل وقوله
الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأْأُكْتِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ،
وقال : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانى ،
فقد غرَّت وأزْدَت^(٢) ، وأوقعت كثيراً ، حتى أكَذَّبْتُم مَنَائِمَهُمْ ، فتناوشوا^(٣)
التوبة من مكان بعيد ، وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ، فأخبركم ربكم عن المثلث فيهم
وصرف الآيات ، وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم
وقائعهم بالقرون الخوالى جيناً فجيلاً ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ،
باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهركم ، لاندفعون عنهم ، ولا تحولون
دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتْهم إلى أعمالهم عند
المواقف والحساب والعقاب ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل
« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعود بالله من
الشیطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . أمركم بما أمركم الله به ،
وأنها كم عما نهاكم عنه ، وأستغفر الله لي ولكم . (المقد الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ - وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

ووصى الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فقال :

« يَا أَحْمَرَ^(١) ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مَهْجَةً نفسه ، وَثَمَرَةَ قلبه ، فصير
يدك عليه مبسوطةً ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ،
أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام
وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا
عليه ، ورفّع مجالس القواد إذا حضرُوا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مفتنم
فائدة تفيده إياها ، من غير أن تُحزّنه ، فتميت ذهنه ، ولا تُمعن في مساحته ، فيستحلي
الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .
(مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ - خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وهاجت العصبية بالشأم بين أهلها في عهد الرشيد (سنة ١٨٠ هـ) وتفاقم أمرها ،
فاغتم لذلك الرشيد ، وعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنت
أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى ، فشخص في جلة القواد والكراع
والسلاح ، فأتاهم فأصلح بينهم ، وقتل زواقيلهم^(٢) والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رحماً
ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة ، وأطفأ تلك النائرة .

(١) هو حل بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي ، وكان يؤدب الأمين ، وكان مشهوراً بالنحو واتساع

الحفظ ، ومات سنة ٢٠٦ ، أو سنة ٢٠٧ . انظر ترجمته في «نزهة الألبا في طبقات الأدبا» ص ١٢٥ .

(٢) الزواقيل : المصوص .

فما قَدِمَ على الرشيد دخل عليه ، فقبَّل يديه ورَّجله ، ثمَّ مثل بين يديه ، فقال :
 « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنَسَ وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورَّحمَ تضرَّعي ،
 وأنسا^(١) في أجلى ، حتى أرانى وجه سيدى ، وأكرمنى بقربه ، وأمتنَّ علىَّ بتقبيل يده ،
 وردَّنى إلى خدمته ، فوالله إنَّ كنتُ لأذكر غيبتى عنه ، ونخرَجى والمقادير التى
 أزعجتنى ، فأعلمُ أنها كانت بمعاصي لحقتنى ، وخطايا أحاطت بى ، ولو طال مُقامى عنك
 يا أمير المؤمنين - جعلنى الله فذاك - لخفتُ أن يذهب عقى ، إشفاقاً على قُربك ،
 وأسفاً على فراقك ، وأن يعجل بى عن إذتك الاشتياقُ إلى رؤيتك ، والحمد لله الذى
 عصمنى فى حال النِّيبَةِ ، وأمتعنى بالعافية ، وعرفنى الإجابة ، ومَسَّكنى بالطاعة ، وحال
 بينى وبين استعمال العصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذتك وأمرك
 ولم يخترِ منى أجلٌ دونك ، والله يا أمير المؤمنين - فلا أعظم من اليمين بالله - لقد عاينتُ
 ما لو تُعرَض لى الدنيا كلُّها ، لاخترتُ عليها قُربك ، ولما رأيتها عِوضاً من
 المُقام معك . »

ثم قال له بعقب هذا الكلام فى هذا المقام :

« إنَّ الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكَ^(٢) فى خلافتك ، بقدر ما يعلم من نيَّتِكَ ،
 ويُرِيكَ فى رعيَّتِكَ غايةَ أمنيَّتِكَ ، فيُصلِّح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويَلِمُ شعَّتَهم ،
 حفظاً لك فيهم ، ورحمة لهم ، وإِنما هذا للتمسك بطاعتك ، والاعتصام بحبل مرَّضاتك ،
 والله الحمودُ على ذلك وهو مُستَحِقُّه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كُورِ الشَّامِ
 وهم منقادون لأمرِك ، نادمون على ما فرَّط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلِك ،
 نازلون على حُكْمِكَ ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمِك ، مؤثِّلون فضلك ، آمِنون
 بادرَّتِكَ ، حالهم فى اتِّلافهم كحالهم كانت فى اختلافهم ، وحالهم فى ألفتهم كحالهم

كانت في امتناعهم ، وَعَفُو أمير المؤمنين عنهم ، وَتَغْمُذُهُ^(١) لهم ، سابقٌ لِعُدْرَتِهِمْ ، وَصَلَةُ أمير المؤمنين لهم ، وَعَظْفُهُ عَلَيْهِمْ ، مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُ لِسَأَلَتِهِمْ ، وَإِيمَ اللَّهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَئِنْ كُنْتُ قَدْ شَخَّصْتُ عَنْهُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ شِرَارَهُمْ ، وَأَطْفَأَ نَارَهُمْ ، وَنَفَى مُرَاقِمَهُمْ^(٢) ، وَأَصْلَحَ دَهْمَهُمْ^(٣) ، وَأَوْلَانِي الْجَمِيلَ فِيهِمْ ، وَرَزَقَنِي الْإِنْتِصَارَ مِنْهُمْ ، فَمَا ذَلِكَ كُلُّهُ : إِلَّا بِرِكَكَتِكَ وَبِرِجْحِكَ^(٤) ، وَدَوَامِ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةِ الْبَيْعُونَةِ الدَّائِمَةِ ، وَتَخَوُّفِهِمْ مِنْكَ ، وَرَجَائِهِمْ لَكَ . وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِوَصِيَّتِكَ ، وَمَا عَامَلْتَهُمْ إِلَّا بِأَمْرِكَ ، وَلَا سِرْتُ فِيهِمْ إِلَّا عَلَى حَدِّ مَا مَثَلْتَهُ لِي وَرَسَمْتَهُ ، وَوَقَفْتَنِي عَلَيْهِ ، وَوَاللَّهِ مَا انْقَادُوا إِلَّا لِإِدْعَاؤِكَ ، وَتَوَحُّدِ^(٥) اللَّهِ بِالصَّنْعِ لَكَ ، وَتَخَوُّفِهِمْ مِنْ سَطْوَتِكَ . وَمَا كَانَ الَّذِي كَانَ مِنِّي ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ بَذَلْتُ جَهْدِي ، وَبَلَغْتُ مَجْهُودِي ، قَاضِيًا بَعْضَ حَقِّكَ عَلَيَّ ، بَلْ مَا زَادَتْ نِعْمَتُكَ عَلَيَّ عِظْمًا ، إِلَّا أَزْدَدْتُ عَنْ شُكْرِكَ مَعْجُزًا وَضِعْفًا ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ رِعِيَّتِكَ ، أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يُطْمَعَ نَفْسُهُ فِي قِضَاءِ حَقِّكَ مِنِّي ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَكُونَ بَاذِلًا مُنْهَجَّتِي فِي طَاعَتِكَ ، وَكُلُّ مَا يَقْرُبُ إِلَيَّ مُوَافَقَتِكَ ، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ مِنْ أَيْدِيكَ عِنْدِي مَا لَا أَعْرِفُ مِثْلَهَا عِنْدَ غَيْرِي ، فَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَقَدْ أَصْبَحْتُ وَاحِدًا أَهْلَ دَهْرِي ، فَمَا صَنَعْتَهُ فِيَّ ؟ وَبَنِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ! وَإِنَّمَا أَقْوَى عَلَى شُكْرِكَ يَا كِرَامَكَ إِيَّايَ ؟ ، وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَلَوْ جَعَلَ اللَّهُ شُكْرِي فِي إِحْصَاءِ مَا أَوْلَيْتَنِي ، لَمْ يَأْتِ عَلَى ذَلِكَ عَدِّي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ كَهْفِي دُونَ كُلِّ كَهْفٍ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ لَا تَرْضَى لِي مَا أَرْضَاهُ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ تَجِدُّدٌ مِنْ نِعْمَتِكَ عِنْدِي مَا يَسْتَفْرُقُ كُلَّ مَا سَلَفَ عِنْدَكَ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ تُدْسِنِي مَا تَقْدِمُ مِنْ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، بِمَا تُجَدِّدُهُ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ؟ وَأَنْتَ

(١) تغمذه الله برحمته : غمزه بها . (٢) جمع مارق : وهو الخارج الخلد .

(٣) الدهماء : جماعة الناس . (٤) قوتك .

(٥) توحد الله تعالى بمصمته : عصمه ولم يكله إن غيره .

تَقَدَّمَنِي بِطَوْلِكَ عَلَى جَمِيعِ أَكْفَائِي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ وَئِي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ الْمَكْرَمُ لِي؟ وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَزَقَنِي ذَلِكَ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ إِذْ كَانَ الشُّكْرُ مَقْضَرًّا عَنْ بُلُوغِ تَأْدِيَةِ بَعْضِهِ، بَلْ دُونَ شِقْصٍ^(١) مِنْ عَشْرِ عَشِيرِهِ - أَنْ يَتَوَلَّى مَكَافَأَتَكَ عَنِّي، بَمَا هُوَ أَوْسَعُ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَقْضِيَ عَنِّي حَقَّكَ، وَجَلِيلَ مَنَّتِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ.» . (تاريخ الطبري ١٠ : ٦٦)

٨٠ - استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشد

روى صاحب المقدم قال :

« كانت أم جعفر بن يحيى^(٢) - وهي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة - أرضعت الرشد مع جعفر ، لأنه كان رُبِّيَّ في حجْرها ، وَغُدِّيَ بِرِسْلِهَا^(٣) ، لأنَّ أُمَّهُ ماتت عن مَهْدِهِ ، فكان الرشد يشاورها مُظْهِرًا لِإِكْرَامِهَا ، وَالتَّبَرُّكِ بِرَأْيِهَا ، وَكَانَ آتِي وَهُوَ فِي كِفَالَتِهَا أَنْ لَا يَحْجُبُهَا ، وَلَا اسْتَشْفَعَتْهُ لِأَحَدٍ إِلَّا شَفَعَهَا ، وَآلَتْ عَلَيْهِ أُمُّ جَعْفَرٍ أَنْ لَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ إِلَّا مَاذُونًا لَهَا ، وَلَا شَفَعَتْ لِأَحَدٍ مَقْتَرَفٍ ذَنْبًا ، فَكَمَ أُسِيرٌ فَكَّتْ وَمُؤَبَّهٌ عِنْدَهُ فَتَحَّتْ ، وَمَسْتَعْلِقٌ مِنْهُ فَرَجَّتْ ، وَاحْتَجَبَ الرشد بعد قدومه^(٤) ، فَطَلَبَتْ الإِذْنَ عَلَيْهِ مِنْ دَارِ الْبَاقُونَةِ ، وَمَتَّتْ^(٥) بوسائِلِهَا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَأْذِنْ لَهَا ، وَلَا أَمَرَ بِشَيْءٍ فِيهَا ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ بِهَا خَرَجَتْ كَاشِفَةً وَجْهَهَا ، وَاضِعَةً لِثَامِهَا ، مُحْتَفِيَةً^(٦) فِي مَشِيئِهَا ، حَتَّى صَارَتْ بِيَابِ قَصْرِ الرشد ، فَدَخَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْفَضْلِ الْحَاجِبَ ،

(١) الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالمشار والعشر .

(٢) كان البرامكة قد اسعأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلَّبوا الرشد على سلطانه ، ولم يكن له مهمم تصرف في ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها - وحديثهم في ذلك طويل ، ليس هاهنا موضعه - فمزَّم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه مهمم من الحج سنة ١٨٧ ، فقتل جعفرًا لهلاف في طريقه ، وقبض على يحيى وابنه الفضل وبقية البرامكة ، وحبسهم في سجن الزنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستصنى أمرهم ورضيائهم . (٣) الرسل : اللب .

(٤) أي من الحج . (٥) توصلت . (٦) احتنى : مشى حافيا .

فقال : ظُئْرٌ^(١) أمير المؤمنين بالباب ، في حالة تَقَلُّبِ شِمَانَةِ الحاسد ، إلى شَفَقَةِ أم الواحد ؛ فقال الرشيد : وَيَحْك يا عبد الملك ! أَوْ سَاعِيَةٌ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أَدْخِلْهَا يا عبد الملك ، فَرُبَّ كَبِدٍ غَدَّتْهَا ، وَكُرْبَةٍ فَرَجَّتْهَا ، وَعَوْرَةٍ سَتَرَتْهَا ، فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفيةً ، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكبَّ على تقبيل رأسها ، ومواضع تديبها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أَيْعَدُو عَلَيْنَا الزمان ، وَيَخْفُونَا خَوْفًا لِكَ الْأَعْوَانُ ، وَيُحْرِدُكَ^(٢) بنا البُهْتَانُ ، وقد رَبَّيْتِكَ فِي حِجْرِي ، وَأَخَذْتَ بَرِّضَاعِكَ الْأَمَانَ مِنْ عَدُوِّي وَدَهْرِي ؟ فقال لها : وما ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الرَّشِيدِ ، قَالَتْ : ظُنَّكَ يَحْيَى ، وَأَبُوكَ بَعْدَ أَبِيكَ ، وَلَا أَصِفُهُ بِأَكْثَرِ مَا عَرَفَهُ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ نَصِيحَتِهِ ، وَإِشْفَاقِهِ عَلَيَّ ، وَتَعَرُّضِهِ لِلْحَتْفِ فِي شَأْنِ مُوسَى أَخِيهِ^(٣) ، قَالَ لَهَا : يَا أَمِيرَ الرَّشِيدِ ، أَمْرٌ سَبَقَ ، وَقَضَاءٌ حُمٌ^(٤) ، وَغَضَبٌ مِنْ اللَّهِ نَفَذَ ، قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٥) » قَالَ : صَدَقَتْ فَهَذَا مَا لَمْ يَمْحُهُ اللَّهُ ، فَقَالَتْ : الْغَيْبُ مَحْجُوبٌ عَنِ النَّبِيِّينَ ، فَكَيْفَ عَنكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَأَطْرَقَ الرَّشِيدُ مَلِيئًا ، ثُمَّ قَالَ :

- (١) الظائر : للعاطفة على ولد غيرها ، المرصعة له ، في الناس وغيرهم ، فذكر وللأُنثى .
 (٢) يفضيك . (٣) قدمنا أن الهادي كان اعترزم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد ، واستخلاف ابنه جعفر ، وقد سعى إلى الهادي يحيى بن خالد ، وأنه يفسد عليه أخاه الرشيد ، فحبسه وهم يقتله . ويروي أنه قال للهادي في خلع الرشيد لما كلمه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكده لبيئته » فقال : صدقت ونصحت ، ولما في هذا تدبير ، ولما أمر بحبسه رفع إليه يحيى رقعة : إن عندي نصيحة ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلني ، فأخلاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أرايت إن كان الأمر - أسأل الله ألا نبلغه ، وأن يقدمنا قبله - أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزورهم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك ، وجلتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبوك ؟ فقال له : نهيتي يا يحيى ، وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغي أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدي له ؟ ولكن أرى أن تقدر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر ويبلغ الله به ، أتيت به بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من يبایعه ويعطيه صفقة يده ، قيل فقيل للهادي قوله ورأيه وأمر بإطلاقه . (٤) حم : قدر . (٥) أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمية لاتنفع^(١)
قالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول^(٢) :
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
هذا بعد قول الله عز وجل « وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْحُسَيْنِينَ » . فأطرق هرون ملياً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجه آخر الدهر تقبل
قالت : يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعته يمينك فانظر أئى كف تبدل^(٣)
قال هرون : رضيت ، قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله ، لم يُؤجده^(٤) الله لفقده » فأكب هرون مائياً ،
ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قالت : يا أمير المؤمنين
« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .
واذكر يا أمير المؤمنين أليتك^(٥) ما استشفعت إلا شفعتى . قال : واذكرى
يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً ، فلما رآته صرّح بمنعها ، ولاذ^(٦) عن
مطلبها ، أخرجت حُماً من زمرودة^(٧) خضراء ، فوضعت بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟
ففتحت عنه قفلاً من ذهب ؛ فأخرجت منه خفصته^(٨) وذوائبه وثناياه ، قد غمست
جميع ذلك في المسك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، استشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ،

(١) التمام جمع تميمية : وهى العوذة التى تطلق على الصبي دفماً لعين ، أو المرض والبيت لأبى ذؤيب الهذلى .

(٢) هو الأخطل . (٣) هذا البيت والذي قبله من قصيدة لمن بن أرس المزنى مطلعها :

لمرك ما أدرى ، وإنى لأوجل على أينما تمدو المنية أول ؟

(٤) أى يحزنه . (٥) الآية : القسم . (٦) أى لم يجبه . (٧) الزمرد والزمرد بالبدال

والذال . (٨) خفص الجارية كضرب خفصا ، وهو كالحتان للغلام ، وقيل : خفص الصبي خفته ،

فاستعمل فى الرجل ، والأهرف أن الخفص للمرأة والحتان للصبي ، يقال للجارية خفصت ، والغلام حتن .

وبما صار معي من كريم جسدك، وطيب جوارحك، ليحيي عبدك، فأخذ هرون ذلك فليته، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، ومرة البشير إلى يحيى، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له، ورجوع عنه، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق، وقال لها: **لَحَسَنٌ مَا حَفِظْتَ الْوَدِيعَةَ**، قالت: وأهلٌ للكفاة أنت يا أمير المؤمنين، فسكت وأقل الحق، ودفعه إليها، وقال: **«إِنَّ اللَّهَ يَا مَرْكُمُ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا»** قالت: والله يقول: **«وَإِذَا حَاكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ»** ويقول: **«وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ»**، ثم قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: أو ما أقسمت لي به ألا تحببني ولا تتمهني^(١)؟ قال: أحب يا أم الرشيد أن نشتره محكمة فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعات غير مستقبلة لك، ولا راجعة عنك. قال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يسخطك، قال: يا أم الرشيد أمالي عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين، أنت أعزُّ عليّ، وهم أحبُّ إليّ. قال: فتحكمي في تمنية بغيرهم، قالت: بلى قد وهبتك، وجعلتك في حل منه، وقامت عنه، وبقي مبهوتاً ما يحير^(٢) لفظه». (العقد الفرید ٢ : ٢٣)

٨١ - خطبة يزيد بن يزيد الشيباني

لما رضى الرشيد عن يزيد بن يزيد^(٣) أذن له بالدخول عليه، فلما مثل بين يديه قال: **«يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذى سهّل لى سبيل الكرامة بِلِقَائِكَ، وردّ على»**

(١) امتنه : ابدله .

(٢) يحير : يرد . (٣) وذلك أن الوليد بن طريف الشاربي خرج في عهد الرشيد بالجزيرة، واشتدت شوكته وكثر تبعه سنة ١٧٩ ، فوجه إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني ، فجعل يقاتله وبما كره ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فأغروا به الرشيد، وقالوا : إنما يتجاني عنه لرحم (لأنه شيباني مثله) وإلا فشوكة الوليد يسيرة وهو يواعده، وينتظر ما يكون من أمره، فوجه إليه الرشيد كتاب مقضب، يقول فيه: «لو وجهت بأحد الخدم أقم بأكثر مما تقوم به ولسكنك مداهن متعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله أن أخرت مناجزة

النعمة بوجه الرضا منك ، وكشف عن ضباة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سُخْطِكَ جزاء المحسنين المراقبين، وفي حال رضاك جزاء النعمين المتينين المتطولين ، فقد جعلك الله - وله الحمد - تَنْبَتٌ^(١) تَحْرُجًا عند الغضب ، وتمنَّ تَطْوِيلًا بِالنِّعَمِ ، وتستبقي المعروف عند الصنائع^(٢) تفضلا بالنعو .

(العقد الفريد ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبري ١٠ : ١١٧ وزهر للأدب ٢ : ٢٨٧)

٨٢ - خطبة عبد الملك بن صالح^(٣) (توفي سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ » يا أهل الشام ، إن الله وصف إخوانكم في الدين ، وأشباهكم في الأجسام فحذرهم نبيهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خِشْبٌ مَسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْيُّ يُؤَفِّكُونَ » ؟ فقاتلكم الله أني تَصْرَفُونَ ؟ جُثٌّ مَائِلَةٌ ، وَقُلُوبٌ طَائِرَةٌ ، تَشُبُّونَ^(٤) الْفِتْنَ ، وَتَوَلَّوْنَ الدُّبُرَ ، إِلَّا عَنِ حَرَمِ اللَّهِ فَإِنَّهُ دَرِيئَتُكُمْ^(٥) ، وَحَرَمَ رَسُولِهِ ، فَإِنَّهُ مَغْزَاكُمْ ، أَمَا وَحُرْمَةَ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ لَتَنْفِرَنَّ خِيفًا وَثِقَالًا ، أَوْ لَأَوْسِعَنَّكُمْ إِرْغَامًا وَنَكَالًا .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

الوايد ، ليوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين ه ثم حمل يزيد على الوليد فقتله وبعث برأسه إلى الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالظفر ، حجب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق أمير المؤمنين لأصيفن وأشتون على فرسي أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه الرشيد ضحك وسر ، وأقبل يصيح مرحبا بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم وعرف بلاؤه ونقاء صدره (راجع أخباره في الأغانى ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبري ١٠ : ٦٥) .

(١) وفي رواية الطبري « تنيب » . (٢) وفي الطبري : « وقعفو عن المسي » .

(٣) هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولي لرشيد بلاد الجزيرة والشام وغيرها .

(٤) توفدون . (٥) الدريفة : الحلقة يتلم العطن والرمي عليها .

٨٣ - عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد وبيته

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له ، ووُلد له آخر ، فلما دخل عليه قال : « سَرَّكَ اللهُ يا أمير المؤمنين فيما ساءَكَ ، ولا ساءَكَ فيما سَرَّكَ ، وجعل هذه بهذه ، مَثُوبَةٌ على الصبر ، وَجَزَاءٌ على الشكر . »

(المقد الفريد ٢ : ٢٥)

٨٤ - غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنَصَبَ^(١) له ابنه « عبد الرحمن » وكتبه « قِامة » فسميا به إلى الرشيد ، وقال له : إنه يطلب الخلافة ، ويطمع فيها ، فأخذه وحَبَسَه عند الفضل بن الربيع ، وذكروا أنه أدخل على الرشيد حين سَخِطَ عليه ، فقال له الرشيد : أ كُفِرًا بالنعمة ، وَجُحُودًا لَجَلِيلِ المِنَّةِ والتسكِرِمة ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد بُوتُ^(٢) إِذْنًا بالندم ، وتعرَّضْتُ لاستحلال النَّقْمِ ، وما ذاك إلا بغيُّ حاسدٍ ، نافَسَنِي فيكَ مودةَ القرابة ، وتقديمِ الولاية ، إنك يا أمير المؤمنين خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عِترته ، لك عليها فرضُ الطاعة وأداءُ النصيحة ، ولها عليك العدلُ في حُكْمِها ، والثبُتُ في حادِثِها ، والغُفْرانُ لذنوبِها » ، فقال له الرشيد : « أتَضَعُ لِي من لسانك ، وترفع لِي من جنانك ؟ هذا كاتِبُكَ قِامة ، يُخْبِرُ بِفِلكَ وفسادِ نيتك ، فأسمِعْ كلامه » ، فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس في عَقْدِهِ^(٣) ، ولعله لا يقدر أن يَعْضَنِي^(٤) ولا يَنْهَتَنِي بما لم يَعْرِفِهِ مني » ، وأُحْضِرَ قِامة ، فقال له الرشيد : تكلم غيرِ هائبٍ ولا خائفٍ ، قال : « أقولُ إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك » ،

(١) عاداه . (٢) رجعت . (٣) أى ما يمتلكه .

(٤) عضه كعض : كذب ونم ، وعضه فلانا : بهته وقال فيه ما لم يكن .

فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قامة؟ قال قامة: نعم، لقد أردت خنل^(١) أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ من خلني، وهو يبهتني في وجهي؟ فقال له الرشيد: « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعُتُوك، وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك، فبِمَ تدفعمها عنك؟ »، فقال عبد الملك: « هو مأمور، أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً: فمعدنور، وإن كان عاقاً: ففاجر كفور، أخبر الله عزّ وجلّ بعداوته، وحذّر منه بقوله: « إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »، فنهض الرشيد وهو يقول: « أمّا أمرك فقد وضح، ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يُرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك »، فقال عبد الملك: « رضيت بالله حكماً، وبأمر المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه يؤثّر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه ».

* * *

فلما كان بعد ذلك جالس مجلساً آخر، فسلم لما دخل، فلم يردّ عليه، فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه، ولا أجادب منازعاً وخَصْماً. قال: ولم؟ قال: لأن أوّله جرى على غير السنّة، فأنا أخاف آخره، قال: وما ذاك؟ قال: لم تُردّ علىّ السلام، أنصف نصفة العوام، قال: السلام عليكم اقتداءً بالسنة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً للتحية، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال: وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مُراد
ثم قال: « أما والله لكانى أنظر إلى شؤوبها قد همع^(٢)، وعارضها^(٣) قد لَمع،

(١) خنله: خدعه. (٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر، وجمع: سال وانصب.

(٣) العارض: السحاب المتعرض في الأفق، والضمير للفتنة المفهومة من سياق الحديث.

وكأني بالوعيد قد أوزى ناراً تَسْطَعُ ، فأقْلَعُ عن بَرَاجِمِ^(١) بلا مَعَاصِمِ ، ورعوسٍ
بِلا غَلَاصِمِ^(٢) فَمَهْلًا مَهْلًا ، فَبِيِ وَاللَّهِ سَهْلٌ لَكُمْ الْوَعْرُ ، وَصَفَا لَكُمْ الْكَدْرُ ، وَأَلْقَتْ
إِلَيْكُمْ الْأُمُورُ أَثْنَاءَ^(٣) أَرْزَمَتِهَا ، فَذَارِ لَكُمْ نَذَارِ قَبْلَ حُلُولِ دَاهِيَةِ خَبُوطِ بِالِيَدِ ،
لَبُوطِ^(٤) بِالرَّجْلِ . فقال عبد الملك : « اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولَّاك ، وفي رعيتك
التي استرعاك ، ولا تجعل الكفرَ مكانَ الشكر ، ولا العقابَ موضعَ الثواب ، فقد
نَحَلْتُ النصيحةَ ، وَوَحَّضْتُ^(٥) لَكَ الطاعة ، وَشَدَدْتُ أَوْاجِحِي^(٦) مَلَكًا بِأَثْقَلِ مِنْ
رُكْنِي يَلْمُ^(٧) ، وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ مُشْتَغَلًا^(٨) ، فَاللَّهُ اللَّهُ فِي ذِي رَحْمِكَ أَنْ تَقْطَعَهُ
- بعد أن يَلْمُ^(٩) - بِظَنِّ أَفْصَحِ الْكِتَابِ لِي بِعَظْمِهِ^(١٠) ، أَوْ بِبَغْيِ بَاغِ يَنْهَسِ^(١١)
اللحم ، وَيَالِغِ^(١٢) الدَّمُ ، فَقَدْ وَاللَّهِ سَهَّلْتَ لَكَ الْوَعُورَ ، وَذَلَّلْتَ لَكَ الْأُمُورَ ، وَجَمَعْتَ
عَلَى طَاعَتِكَ الْقُلُوبَ فِي الصُّدُورِ ، فَكَمْ مِنْ لَيْلٍ تِمَامِ^(١٣) فِيكَ كَابِدَتُهُ ، وَمَقَامِ ضَيْقِ
لَكَ قُومَتُهُ ، كُنْتُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَّابِ :

ومقامِ ضَيْقِ فَرَجْتُهُ بَيْنَانِي وَلِسَانِي وَجَدَلِ
لو يقوم الفيلُ أو فيآله زَلَّ عن مثل مقامي وزحل^(١٤)
فقال له الرشيد : « أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا الْإِبْقَاءُ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ لَضَرَبْتَ عُنُقَكَ » .

- (١) جمع بركة كقنفذة : وهي مفاصل الأصابع ، أو ظهر القصب من الأصابع ، والمعاصم جمع معصم
ككبر : وهو موضع السوار أو اليد . (٢) جمع غلصة بالفتح وهي رأس الخلقوم وهو الموضع الذاقه
في الخلق . (٣) أثناء الشيء ومثابته طاقاته ، واحدهما نفي كحطل ومثابة بفتح الميم وكسرهما .
(٤) لبط به الأرض ضرب ، ولبط البعير كضرب : خبط بيده وهو يهدو .
(٥) أخلصت . (٦) جمع أخية وتشديد : حررة تربط إلى وتد مدفوق وتشدد فيها الدابة ، وأخيت
الدابة فأخية : صنعت لها أخية وربطتها بها . (٧) يلدلم أو الملم أو يرمزم : ميقات العين : جبل هل
مرحلتين من مكة . (٨) وفي رواية العقده : « وتركت عدوك سبيلًا تتعاوره الأقدام » .
(٩) بلبت فلانا : لزمته . (١٠) الغضه بسكون الضاد وفتحها : الكلب والنميمة . (١١) نهس اللحم
كنع وسمع : أخذه بمقدم أسنانه ونهفه . (١٢) ولغ الكلب في الإفاه ومنه وبه يبلغ كهب ويبالغ :
شرب ما فيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه . (١٣) ليل التمام : أطول ليال الشتاء .
(١٤) زحل عن مقامه : زال كزحل .

ولم يزل عبد الملك محبوساً حتى تُوفى الرشيد ، فأطلقه محمد الأمين وعقد له
على الشام^(١) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٨٩ ، والمعقد الفريد ١ : ١٤٣ ،
والكمال لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

٨٥ - قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذكّر الرشيد وفعله به قال :

« والله إن الملك لشيء مانويته ، ولا تمنيته ، ولا نصبت له ولا أردته ، ولو
أردته لكان إلى أسرع من الماء إلى الحدور^(٢) ، ومن النار إلى ييس العرفج^(٣) ،
وإني لماخوذ بما لم أجن ، ومستول عما لا أعرف ، ولكنه حين رأني للملك قمينا^(٤) ،
وللخلاة خطيرا^(٥) ، ورأى لي يداً تناولها إذا مدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً
تكمل نحصاها ، وتستحقها بفعالها ، وإن كنت لم أختَر تلك الخصال ، ولم أصطنع
تلك الفعال ، ولم أترشح لها في السر ، ولا أشرت إليها في الجهر ، ورآها تحن إلى
حنين الوالدة الواهية ، وتميل إلى ميل أهلك^(٦) ، وخاف أن ترغب إلى خير مرغّب ،
وتنزِع إلى أخصب منزِع ، عاقبني عقاب من سهر في طلبها ، وجهد في التماسها ،
فإن كان إيماناً حسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليقُ بها وتليقُ بي ، فليس
ذلك بذنبٍ جنيته فأتوب منه ، ولا تطاولتُ له فأحطتُ نفسي عنه ، وإن زعم أنه
لاصرف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج له من جدّ العلم والحلم والحزم ،
فكما لا يستطيع المضياع أن يكون مصلحاً ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً ،

(١) وقد جعل للأمين عهد الله وميثاقه : لئن قتل وهو حي لا يعطى المأمون طاعة أبداً ، فات قبل
قتل الأمين ، فدفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له حوله أباك
من داري ، فهشت عظامه وحولت . (٢) المكان المنحدر . (٣) شجر . (٤) جهديرا .
(٥) عظيم القدر . (٦) الفاجرة المتساقطة على الرجال .

وسواء عليه أعاقبني على علمي وحلمي، أم أعاقبني على نسبي وسني، وسواء عليه أعاقبني على جوالي، أم أعاقبني على محبة الناس لي، ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير». (العقد الفريد ١ : ١٤٢)

٨٦ - وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابنه فقال :

« أئى بنى أحلم ، فإن من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، وألقى أهل الخير فإن لقاءهم عمارة للقلوب ، ولا تجتمع بك مطية اللجاج ، وفئيك من أعتبك^(١) ، والصاحب المناسب لك ، والصبر على المكروه يعصم القلب ، المزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يُثمر^(٢) القليل ، والإسراف يُبيد^(٣) الكثير ، ونعم الحظ القناعة ، وشر ما صحب المرء الحسد ، وما كل عورة تُصاب ، وربما أبصر العمى رُشده ، وأخطأ البصير قَصده ، واليأس خير من الطلب إلى الناس ، وَالْعِفَّة مع الحِرْفَة^(٤) خير من الفنى مع الفجور ، أرفق في الطلب وأجمل في الكسب ، فإنه رب طاب ، قد جرَّ إلى حرب^(٥) ، ليس كل طالب يُمنجج^(٦) ، ولا كل ملجج يحتاج ، والمغبون من غبن نصيبه من الله ، عاتب من رجوت عتابه ، وفاكه من أمنت بلواه ، لاتكن مضحكا كأم غير عجب ، ولا مشاء إلى غير أرب ، ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه ، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله ، لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فإنه إما سعى في مضرتة ونفمك ، وعود نفسك السامح ، وتخير لها من كل خلق أحسنه ، فإن الخير عادة ، والشر بلجاجة ، والصدود آية المقت ، والتعلل آية البخل ، ومن ألقه كتمان السر ، ولقاح المعرفة

(١) اعنبه : اعطاء المتبى أو الرضا . (٢) ينمى ويكثر . (٣) يهلك .

(٤) الحرمان . (٥) حربه حربا كطابه : سلب ماله . (٦) انجح : صار ذا منجج .

(٧ - جبهة خطب العرب - ثالث)

دراسة العلم ، وطولُ التجارب زيادة في العقل ، والقناعة راحة الأبدان ، والشرف التقوى ، والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتحه ، بالعقل تُستخرج الحكمة ، وبالعلم يستخرج غور العقل ، ومن شمر في الأمور ، ركب البحور ، شر القول ما نقض بعضه بعضا ، ومن سعى بالنيمة حذره البعيد ، ومقته القريب . من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية ، ومن توانى في نفسه ضاع . من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له ، والأجاجة تورث الضياع للأموال ، غب الأدب أحمد من ابتدائه ، مُبادرة الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يُعقبُ العيب ، لا تُحدث من لا يُقبل بوجهه عليك ، ولا تُنصت لمن لا ينمى^(١) بحديثه إليك . البلادة للرجل هُجنة ، قل مالك إلا استأثر ، وقل عاجز إلا تأخر ، الإحجام عن الأمور يُورث العجز ، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ ، سوء الطعمة^(٢) يُفسد العِرض ، ويُخلق الوجه ، ويمحق الدين ، الهيبة قرين الحرمان ، والجلسارة قرين الظفر ، وفئك من أنصك ، وأخوك من عاتبك ، وشريكك من وفى لك ، وصفيك من آثرك ، أعدى الأعداء المقوق ، اتباع الشهوة يُورث الندامة ، وفوت الفرصة يورث الحسرة ، جميع أركان الأدب التائي للرفق ، أكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لا تجد بما تبدل من دينك ونفسك عوضا ، لاتساعد^(٣) النساء فيملائنك ، واستبق من نفسك بقية ، فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار ، خير من أن يطلعن منك على انكسار ، لاتملك المرأة الشفاعة لغيرها ، فتميل من شفعت لها عليك معها ، أى بنى ، إني قد اخترت لك الوصية ، ومحضتك النصيحة ، وأدبت الحق إلى الله في تأديبك ، فلا تُفعلن الأخذ بأحسنها ، والعمل بها ، والله موفقك .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

(١) نعى الحديث ونمأه بالتشديد: رفته . (٢) الطعمة: وجه المكسب . (٣) لعلها لا تقاعد .

٨٧ - وصية أخرى له

عن يزيد بن عقال قال :

وصّى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سرّية ، ونحن ببلاد الروم فقال له :
« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس ، الذي إن وجد ربحاً تجرّ ،
وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من اجتياك
على عدوك ، أشدّ خوفاً من احتيال عدوك عليك^(١) . » (البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

٨٨ - كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صباح - المعروف بابن السماك^(٢) - :

« خيرُ الإخوان أقلهم مصانعةً في النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ، وخير
الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان مالم يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء
من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها
على الورع ، وإنما يُختبرُ ذلّ الرجال عند الفاقة والحاجة . »

(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

٨٩ - ابن السماك والرشيدي

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيد ، وقال له الفضل بن الربيع :
يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابن السماك كما أمرتني ، قال : أدخِله ، فدخل ، فقال له :

(١) أوردت هذه الوصية في الجزء الثاني ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردتها صاحب
المقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبري - ج ٨ : ٣٧ - إذ يقول : « وفي سنة ٨٤ كانت غزوة عبد الله بن
عبد الملك بن مروان للروم ، ففتح فيها المصيبة - كسيفته - وعزاها الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما ترى
في هذه الرواية . (٢) كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواظ ، وهو كوفي ، قدم بغداد زمن
الرشيد فسكت بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فأت بها سنة ١٨٢ هـ .

عِظَى ، قال : يا أمير المؤمنين : اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقفٌ غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ، لا ثالثة لهما : جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخضتت^(١) لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالج أحداً شكٌ في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ! لقيامه بحق الله ، وعدله في عباده ، وفضله ، فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفقنا عليه ، وأخم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينما هو عنده إذ استسقى ماء ، فأتى بِقُلَّةٍ من ماء ، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على رسلك^(٢) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنعتَ هذه الشربة ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هنأك الله ، فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنعتَ خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكي ، قال ابن السماك : إن مُلكاً قيمته شربة ماء لجديره ألا يُناقس فيه ، فبكى هرون ، فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٩)

الفتنة بين الأمين والمأمون

وفد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد^(١)، كتب إليه كتاباً يستقدمه، ويحیی أن يكون بقره - وكان المأمون على خراسان - ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى، وإلى عيسى بن جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى صالح صاحب المصلی، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون، وألاً يدعوا وجهاً من اللين والرقق إلا بلغوه، وسهّلوا الأمر عليه، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابه، فلما وصلوا إلى المأمون أذن لهم، فدفعوا إليه الكتاب، ثم تكلم العباس بن موسى:

٩٠ - خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الأمير: إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جليلاً، وقد صدقت نيته في الخير، فأعوزمه الوزراء والأعوان والكفأة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه

(١) ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين، كان قد خاف المأمون، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان في مسكره إلى الأمين، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به المأمون، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه، فحسّن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، قال الأمين إلى أقوالهم، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه، فجهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغي ونكث للمهود، وقالوا له: لا تجرى للقواد حل النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع، وشرع فخدع المأمون باستدعائه إلى بغداد، فلم يهنذع وكتب يعتمر.

وشقيقه^(١) وقد فرغَ إليك في أموره ، وأَمَلَكَ للموازرة والمكافئة^(٢) ، ولسنا نستبطنك في برِّه ، اتهاماً لنصرك له ، ولا نحضك على طاعة ، تخوفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، وصلاح لدولته وسُلطانته ، فأجِبَ أيها الأمير دعوة أخيك ، وآثِر طاعته ، وأَعِنه على ما استمانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاء الحق ، وصالَةَ الرحم ، وصلاح الدولة ، وعِزَّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشد في أموره ، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه .

٩١ - خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال :

« إن الإكثار على الأمير - الله ، الله - في القول خرقٌ ، والاقتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قربه من شَهِدَ غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خلفاً ، ولا عَوْضاً ، والأمير أولى مَنْ بَرَّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقربُ من موافقة أمير المؤمنين ومحبته ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظ عظيم ، والإبطاء عنه وَكْفٌ^(٣) في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين . »

٩٢ - خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :

« أيها الأمير إنا لانزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نشجّد نيتك بالأساطير وأخطب فيما يلزمك من النظر والعناية

(١) أمه أم ولد يقال لها مراحل .

(٢) المعاونة . (٣) الكف المليل والجور والغيب . الإثم .

بأمور المسلمين ، وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرتة ، وتناولك فزعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره ، فإن تجب أمير المؤمنين فما دعاك إليه ، فنعمة عظيمة يتلاقى بها رعيتك وأهل بيتك ، وإن تقعد يُغن الله أمير المؤمنين عنك ، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

٩٣ - خطبة صالح صاحب المصلح

وتكلم صالح صاحب المصلح ، فقال :

« أيها الأمير : إن الخلافة ثقيلة ، والأعوان قليل ، ومن يكيد هذه الدولة ، وينطوى على غشها ، والمعاندة لأوليائها ، من أهل الخلاف والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ؟ وصلاح الأمور وفسادها راجع عليك وعليه ، إذ أنت ولي عهد ، والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ، وفي إجابتك إياه إلى القوم عليه صلاح عظيم في الخلافة ، وأنس وسكون لأهل الملة والدمّة ، وفق الله الأمير في أموره ، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له » .

٩٤ - خطبة المأمون

فحمد الله المأمون ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين - أكرمه الله - مالا أنكره ، ودعوتموني من الموازنة والمعونة إلى ما أوتره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم ، والمساعدة إلى ماسرّه وواقفه حريص ، وفي الروية تبيان الرأي ، وفي إعمال الرأي نصح الاعترام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمر لا أتأخر عنه تثبُطاً ومدافعةً ، ولا أتقدم عليه

اعتسافاً وَعَجَلَةً ، وأنا في ثَغْرٍ^(٢) من ثغور المسلمين ، كَلَبَ عدوُّه ، شديد شوكتُهُ ، وإن أهملتُ أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية ، وإن أقت عليه لم آمن قوتَ ما أَحِبَّ من معونة أمير المؤمنين وموازرتِه وإيثار طاعته ، فانصرفوا حتى أنظرُ في أمرى ، ويصحّ الرأى فيما أعتزِمُ عليه من مَسِيرى إن شاء الله .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسأله أن يُفَعِّيه من الشخوص إليه ، وأن يُقرَّه على عمله ، إذ يرى أن ذلك أعظم غناء على المسلمين . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٦)

٩٥ — وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان

وَتَمَى الشرّ بين الأخوين ، واستطار شرره ، وبعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين فلما أراد على الشخوص إلى خراسان ، ركب إلى باب السيدة زبيدة^(٢) والدة الأمين فودَّعها ، فقالت له :

« يا على ، إن أمير المؤمنين ، وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى ، وعليه تكامل حذرى ، فإني على عبد الله مُنْعِظَةٌ مُشْفِقَةٌ لما يَحْدُثُ عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملكٌ نafs أخاه في سلطانه ، وَغَارَاهُ^(٣) على ما في يده ، والكريم يؤث كل لحمه ، وَيُمِيتُه غيره ، فاعْرِفْ لعبد الله حقَّ والده وأخوته ، ولا تَجِبْهُ^(٤) بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تَقْتَسِرُهُ^(٥) اقتسار العبيد ، ولا تُرْهِنه بقيد ولا غُلًّا^(٦) ، ولا تمنع منه جاريةً ولا خادماً ، ولا تعتف عليه في السير ، ولا تساوره في المسير ، ولا تركب قبله ،

(١) الثغر: موضع الحفاة من فروج البلدان . (٢) هى السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور وليس في خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه .

(٣) فى الأصل : « غاره » وأراه محرفاً عن « غاراه » ، غاريتُه مغارة وغراء : لاجبته .

(٤) جبّه كمنه : لقيه بما يكره . (٥) قسره واقتسره : قهره .

(٦) أرهنه : أضغفه ، وفى الفخرى : « ولا تومنه » وأومنه : أضغفه أيضاً ، ولانث : القيد .

ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ برِكابه ، وإن شمتك فأحتمل منه ، وإن سفّه عليك فلا ترأده .

ثم دفعت إليه قيلاً من فضّة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٩ ، والفخرى ص ١٩٥)

٩٦ - وصية الأمين لابن ماهان

وخرج على بن عيسى بن ماهان من بغداد (في ٧ من شعبان سنة ١٩٥ هـ) وخرج معه الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أمتنع جُندك من العَبَث بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقَطْعِ الشجر ، وانتهاك النساء ، وولّ الرىّ يحيى بن على^(١) ، واضمّم إليه جنداً كثيفاً ، ومُرّه ليدفع إلى جنده أرزاقهم مما يحيى من خراجها ، وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك ، ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهره إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أحداً بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تأمن أحداً رماك بسهم ، أو طعن في أصحابك برمح ، ولا تأذن لعبد الله في المقام أكثر من ثلاثة أيام ، من اليوم الذى تظهر فيه عليه ، فإذا أشخصته ، فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فإن غرّه الشيطان فناصبك ، فاحرص على أن تأسره أسراً ، وإن هرب منك إلى بعض كور خراسان ، فتولّ إليه المسير بنفسك ، أفهمت كل ما أوصيك به ؟ » .

قال : نعم ، أصاح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٠)

(١) هو يحيى بن على بن عيسى بن ماهان .

٩٧ - استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلُوان ، لَقِيتهُ القوافل من خُرَاسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، فيقال له : إن طاهراً مقيم بالرِّىِّ ، يَعْرِضُ أصحابه ، وَيَرْمِي^(١) آلته ، فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر ؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ، وما مثل طاهر يتولَّى على الجيوش ، ويلقى الحروب » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقص انقصاصَ الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغهُ غُبُورُنا عَقِبَةَ^(٢) هَمْدَانَ ، فإن السَّخَالَ^(٣) لا تقوى على نِطَاحِ الكِبَاشِ ، والثعالب لا صبرَ لها على لقاء الأسد ، فإن يُقيم طاهر بموضعه يكن أول معرَضٍ لِطَبَّاتِ^(٤) السيوف وأسنة الرماح . وسار حتى صار فى أول بلاد الرىِّ ، وأناه صاحب مقدّمته وقال : « لو كنت - أبى الله الأمير - أذ كَيْتَ العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتدّت موضعاً تُعَسِّكِرُ فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلغ فى الرأى ، وآنسَ للجند » .

قال : « لا ، ليس مثل طاهر يستمعدُّ لهُ بالمكايد والتحفِظ ، إن حال طاهر تُثَوِّلُ إلى أحد أمرين ، إما أن يتحصَّنَ بالرِّىِّ ، فَيَبِيهَتَهُ^(٥) أهلها ، فيكفوننا مَثُونَتَهُ ، أو يُخَلِّيْهَا وَيُدْبِرُ راجعاً لو قَرُبَتْ خيولنا وعساكرنا منه » .

وأناه يحيى بن على ، فقال : « اجعِّعْ متفرِّقَ العسكر ، واحذر على جندك البيات ، ولا تسرِّح الخيل إلا ومعها كَنَفٌ^(٦) من القوم ، فإن العساكر لا تُسَاسُ بالتوانى ،

(١) يصلح . (٢) العقبة : مرق صعب من الجبال . (٣) السخال جمع سخلة بالفتح : وهو ولد الغنم ذكراً أو أنثى . (٤) الطبات جمع طبة : وهى حد الصيف . (٥) كنهه : أخذه بغتة ، قال تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفى مروج الذهب : « ويثب به » . (٦) الكشف : الجماعة .

والحروب لا تدبّر بالاعتزاز ، والثقة أن تحترز ، ولا تقل : المحارب لي طاهر ، فالشرارة الخفية ربما صارت ضراماً^(١) ، والثلمة من السيل ربما اغترّب بها وتّهوّن ، فصارت بجراً عظيماً ، وقد قرّبت عساكرنا من طاهر ، فلو كان رأي الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا .
قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى ، وإنما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعدّ إذا كان المناوي^(٢) لها أكفأها ونظراءها .
(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ - حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكر طاهر على خمسة فراسخ من الرسيّ ، وأتاه محمد بن العلاء ، فقال : « أيها الأمير ، إن جنديك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلات قلوبهم خوفاً ورعباً منه^(٣) ، فلو أقمت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشأمهم^(٤) أصحابك ، ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم » ، فقال :

« لا ، إني لا أوتى من قلة تجربة وحزم ، إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم سوادهم ، كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخرت المناجزة ، لم آمن أن يطلمعوا على قتلنا وعورتنا ، وأن يستميلوا مني برغبة أو رهبة ، فينفر عني أكثر أصحابي ، ويخذلني أهل الحفاظ والصبر ، ولكن ألف الرجال بالرجال ، وألحم^(٥) الخليل بالليل ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صبر محتسب للخير ، حريص على الفوز بفضل الشهادة ، فإن

(١) الضرام : اشتعال النار في الحلفاء وغيرها ، ودقائق الحطب الذي يسرع اشتعال النار فيه .

(٢) المناوي .

(٣) وكانت عدة مسكر ابن ماهان حسين ألفاً ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا مسكراً كان أكثر رجلاً وأفره كراعاً ، وأظهر سلاحاً ، وأتم عدة ، وأكل هيئة من مسكروه ، وروى أن طاهراً كاف في أقل من أربعة آلاف . (٤) شاماً وتشاماً : ثم أحدهما الآخر ، والمعنى اقترباً .

(٥) أي أقرن الخليل بالليل ، من قولهم : ألحمت الحرب فالتحمت ، والملاحم بضم الميم وبفتح الحاء : الملتصق بالقوم ، ولاحم الشيء بالشيء : ألصقه به .

يَرْزُقَ اللهُ الظُّفْرَ وَالْفَلَجَ^(١) ، فَذَلِكَ الَّذِي نَزِيدُ وَرَجُو ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَلَسْتُ
أَوَّلَ مَنْ قَاتَلَ فَقْتُلْ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ أَجْزَلُ وَأَفْضَلُ » . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥١)

٩٩ — طاهر يشد عزيمة جنده

وَكَتَبَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ كِتَابِيَهُ ، وَكَرَدَسَ كَرَادِيْسَهُ^(٢) ، وَسَوَّى صَفْوَفَهُ ،
وَجَمَلَ يَمْرَ بَقَائِدِ قَائِدٍ ، وَجَمَاعَةَ جَمَاعَةٍ ، فَيَقُولُ :

« يَا أَوْلِيَاءَ اللهِ ، وَأَهْلَ الْوَفَاءِ وَالشُّكْرِ ، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ كَهَوْلَاءَ الَّذِينَ تَرَوْنَ مِنْ
أَهْلِ النَّكْتِ وَالْغَدْرِ ، إِنْ هُوَلَاءَ ضَيَّعُوا مَا حَفِظْتُمْ ، وَصَفَّرُوا مَا عَظَّمْتُمْ ، وَنَكَثُوا
الْأَيْمَانَ الَّتِي رَعَيْتُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ الْبَاطِلَ ، وَيَقَاتِلُونَ عَلَى الْغَدْرِ وَالْجَهْلِ ، أَصْحَابُ سَلْبٍ
وَنَهَبٍ ، فَلَوْ قَدْ غَضَّضْتُمْ الْأَبْصَارَ ، وَأَثْبَتْتُمْ الْأَقْدَامَ ، قَدْ أَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَفَتَحَ عَلَيْكُمْ أَبْوَابَ
عِزِّهِ وَنَصْرِهِ ، فَجَالِدُوا طَوَاغِيَتِ الْفِتْنَةِ ، وَيَعَاسِبِ النَّارِ^(٣) عَنْ دِينِكُمْ ، وَدَافِعُوا بِحَقِّكُمْ
بِاطِلَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .

وَنَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى جَيْشِ ابْنِ مَاهَانَ وَقَتِلَ^(٤) .

وَوَجَّهَ الْأَمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَرْبِ طَاهِرٍ جَيْشًا بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبَلَةَ ، فَهَزَمَ
وَقَتَلَ أَيْضًا . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٢)

(١) الفوز الظفر .

(٢) الكرادييس جمع كردوسة بالضم : وهي القطعة العظيمة من الخيل وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة .

(٣) الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليعاسيب جمع يعسوب : وهو الرئيس

الكبير . (٤) روى أن نعي على بن عيسى ورد إلى الأمين وهو على الشط يصيد السمك ، فقال للبي

أخبره : وبلك دهني ، فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئا بعد — وكان كوثر خادما
خصيا له وكان يحبه .

١٠٠ - وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين

وندب أسد بن يزيد بن مزيد لقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رُقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول :

« ينام نوم الظَّربان ^(١) ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته قرجه ، لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحُه ، فهو يجري في لهوه ، والأيام تُسرع ^(٢) في هلاكه ، قد شمرَّ عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب ^(٣) أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحُتف النافذ ، والموت القاصد ^(٤) ، قد عبى له المنايا على مُتون الخليل ، وناط ^(٥) له البلاء في أسنة الرماح ، وشفار السيوف . ثم استرجع وتمثل بأبيات للبعيث ^(٦) ، ثم التفت إلى فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجربى إلى غاية ، إن قصرنا عنها ذُمننا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإما نحن شُعب من أصل ، إن قوى قويننا ، وإن ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألتى بيده إلقاء الأمة الوكفاء ^(٧) ، يشاور النساء ، ويعتمد على الرؤيا . وقد أمكن أهل اللهو والحسارة من سمعه ، فهم يعدونه الظفر ، ويمنونه عقب ^(٨) الأيام ،

(١) الظربان : دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح كثيرة الفسوخ ، يضرب بها المثل فيقال : « أفسى من ظربان » . (٢) في الأصل « تضرع » وأراه محرفاً . (٣) أصيب : أفل من صاب السهم يصيب صيباً : أى أصاب ، وسهم صيوب كصبور . (٤) القاصد أى السكار ، من القاصد بالفتح : هو للسكسر أى وجه كان ، أو بالنصف ، كالتقصيد ، يقال قصد الخمة وقصدها : كسرها وفصلها فتقصدت . (٥) هلق . (٦) هو خدائش بن بشر الحاشمي ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريراً . (٧) وصف من الوكفاء بالتحريك : وهو الإثم والعيب والنقص ، وكف كفرح إذا أثم ، وفي رواية قطري « الوكفاء » بالعين ، وهي الحفقاء . (٨) العقب كقفل وعنق : العاقبة .

والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان^(١) الرمل ، وقد خَشِيتُ وألله أن هَبِكَ
بهلاكه ، ونعطبَ بعطبه .

وأنت فارس العرب وابن فارسها ، وقد فزِعَ إليك في لقاء هذا الرجل (طاهر) ،
وأطمعهُ فيما قبلك أمران ؛ أمّا أحدهما فَصِدْقُ طاعتك ، وفضلُ نصيحتك ؛ والثاني يُمنُّ
تَقِيَّتِكَ^(٢) ، وشدة بأسك ، وقد أمرني بإزاحة عِلَّتِكَ ، وبسَطِ يدك فيما أحببت ، غير
أن الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح اليَمْنِ وَالْبَرَكََةِ ، فَأَنْجِزِ حوائجك ، وَعَجِّلِ المبادرة
إلى عدوك ، فَإِنِّي أَرْجُو أن يُؤَلِّقَ اللهُ شرف الفتح ، وَيَلْمَ بك شعَثَ هذه الخِلافة والدولة .
فأجاب بالسمع والطاعة ، غير أنه طلب مطالب لم تَرُقْ في عين الأمين فغضب عليه ،
وأمر بِسَجْنِهِ . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٨ وزهر الآداب ٢ : ١٥٨)

١٠١ - وصية الأمين لأحمد بن مزيد

ثم ندب عمه أحمد بن مزيد ، فلما أراد الشخصوص دخل على الأمين ، فقال : أوصني
أكرم الله أمير المؤمنين ، فقال :

« أوصيك بِحِصَالِ عِدَّةٍ ، إِيَّاكَ وَالبغى فَإِنَّهُ عِقَالُ^(٣) النصر ، ولا تقدّم رجلاً إلا
باستخارة ، ولا تشهر سيفاً إلا بعد إعدار ، ومهما قدّرت عليه بالين ، فلا تتعدّه إلى
إلى الخرق والشَّرِّه ، وأحسن صحابة من معك من الجنس ، وطالعني بأخبارك في كل
يوم ، ولا تخاطر بنفسك في طلب الزُّلْفَةِ^(٤) عندي ، ولا تستقها فيما تخوف رجوعه على ،
وكن لعبد الله أحماً مضافاً ، وقربناً برّاً ، وأحسن مجامعته ، وصحبته ومعاشرته ، ولا تحذله إن
استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استصرحك ، ولتكن أيديكما^(٥) واحدة ، وكلتكما متفقة .»

(١) القيعان جمع قاع : وهو أرض مطبنة سهلة قد انفرجت عنها الجهال والآكام .

(٢) التقيية : النمس والطبيعة . (٣) العقال في الأصل : الحبل الذي تقيد به الدابة .

(٤) الزلفة والزلنى : القرية . (٥) أى أنت وعبد الله بن حميد بن قحطبة .

وتوجه أحمد بن مزيد في عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خانقين - قريباً من حلوان - ولم يزل طاهر يخال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتفض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخولوا خانقين ورجعوا عنها ، دون أن يلقوا طاهراً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ - مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر للأمين تخليمة سبيله ، ويوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فلما قوى طاهر ، واستعلى أمره ، وهزم من هزم من قواد الأمين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إني أرى الناس قد طمِعُوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن تَمَتَّ على أمرك أفسدتهم وأبترتهم ، وإن كَفَفْتَ أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم ، وليس تملك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوتُ الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جنك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلات قلوبهم هيبةً لعدوهم ، ونكولاً^(١) عن لقاءهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، غلبَ بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصحهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضرسهم^(٢) الحروب ، وأدبهم الشدائد ، وجلبهم منقاداً إلىي ، مسارعٌ إلى طاعتي ، فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عدوه ، ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته . »

فقال الأمين : « إني مؤليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعدة ، فجعّل

(٢) جريتهم واحتمهم .

(١) جبناً وخوفاً .

الشخص إلى ما هنالك ، فاعمل عملا يظهر أثره ، وَيُحْمَدُ بركته ، رأيك ونظرك فيه إن شاء الله ، فولاه الشام والجزيرة .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦١ ، والكمال لابن الأثير ٦ : ١٠٢)

١٠٣ - الشعب في جيش عبد الملك بن صالح

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قَدِمَ الرَّقَّةَ^(١) ، كتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد من يُرْجَى ، ويذكر بأسه وَغَنَاؤُهُ إلا وَعَدَهُ ، وبسط له في أمله وأمنيته ، قدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازته ، وخلق عليه وحمله ، فأتاه أهل الشام ، الزَّوْاقِيل والأعراب من كل فج ، واجتمعوا عنده حتى كثروا ، بَيَدَ أنه شبت نار الفتنة بين جند أهل خراسان وبين الزَّوْاقِيل^(٢) ، وَأَفْضَى الأمر إلى تلاحمهم وَاقْتتالهم ، ثم قام رجل من أهل حِصص ، فقال : « يا أهل حِصص ، الهَرَبُ أهونُ من العَطَبِ ، والموت أهون من الذل ، إنكم بَعُدْتُمْ عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلَّة ؛ ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حَوْمَةِ الموت أَنْحَتم ، إن المنايا في شوارب المسوِّدَةِ^(٣) وَقَلَانِسِهِم ، النفيرَ النفير^(٤) قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمرُ الجليل ، ويفوت المطلب ، ويمسُر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقترَب الأجل » .

وقام رجل من كلب ، فقال :

« يا معشر كلب ، إنها الراية السَّوْدَاء ، والله ما ولت ولا عدلت ، ولا ذلَّ

(١) بلدة على الفرات . (٢) وسببها أن بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت قد أخذت منه في إحدى اللقعات تحت بعض الزواقيل ، فتملق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ، واجتمعت جماعة من الزواقيل والجنه فتلحقوا ، وأمان كل فريق منهم صاحبهم ، ثم اتسع نطاق الفتنة فانشقت وحدة الجيش . (٣) كانت الجنود الخراسانية التي تقاتل الامويين في سبيل نشر الدعوة العباسية يحملون الرايات السود فسموا من أجل ذلك المسودة . (٤) نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

نصرها ، ولا ضُف وليّها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ،
وآثار أسننتهم في صدوركم ، اعتزّلوا الشر قبل أن يعظم ، وتخطّوه قبل أن يضطرم ،
شأمكم ، داركم داركم ، الموت الفلستيني خير من العيش الجزريّ ، ألا وإني راجع
فمن أراد الانصراف فليصرف معي .

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواويل حتى أضرّموا ما كان يُجمع
من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك في سنة ١٩٦ هـ) . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٢)

١٠٤ - خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرّقة ، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ،
فأقل الجند من الجزيرة إلى بغداد ، فتلّقاها أهلها بالتكريم والتعظيم ، وضرّبوا له القباب ،
واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس فقام فيهم فقال :
« يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تُجاوز بالبطر ، ونعمه لا تستصحب بالتجبر
والتكبر ، وإن محمداً يريد أن يُوتغ^(١) أديانكم ، وينكث ببيعتمكم ، ويفرّق جمعكم ،
وينقل عزّكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزّواويل بالأمس ، وباللّهِ إن طالت به مدة ،
وراجعه من أمره قوّة ، ليرجعنّ وبال ذلك عليكم ، وليُعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم
ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزّكم ، فواللّهِ
لا ينصره منكم ناصرٌ إلا خذل ، ولا يمنعه مانعٌ إلا قتل ، وما عند الله لأحد هوادهٌ ،
ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده ، وألحنت بأيامه . »

وخلع الحسين بن علي محمداً الأمين وحبسه^(٢) ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون .
(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٣)

(١) أوتغ دينه بالإثم : نفسه ، وأوتغه الله : أملكه .

(٢) وكان حبس الحسين بن علي في قصر أبي جعفر يرمين .

١٠٥ - خطبة محمد بن أبي خالد

في فض الناس عن اتباع الحسين بن علي بن عيسى

فلما أصبح الناس من الند ، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد ، فقال :

« أيها الناس ، والله ما أدري ، بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ، ويتولّى هذا الأمر دوننا؟ ما هو بأكبرنا سنًا ، ولا أكرمنا حسَبًا ، ولا أعظمنا منزلةً ، وإن فينا من لا يرَضَى بالدنيّة ، ولا يُقاد بالخذاعة ، وإنّي أوّلُكم ، نقض عهدَه ، وأظهر التغييرَ عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيه رأبي ، فليعتزل معي » .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٤)

١٠٦ - إطلاق الأيمن من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحرّبيّ ، فقال : « يا معشر الحرّبية ، هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد فتمّم وطلّ نومكم ، وتأخّرتم فقدم عليكم غيرُكم ، وقد ذهب أقوامٌ بذي كرك خلع محمد وأسرّه فذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه » .

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية على فرس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال :

« أيها الناس ، هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟ قالوا : لا ، قال : فهل قصّر بأحد منكم ، أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا : ما علينا ، قال : فهل عزّل أحداً من قوادكم؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال : فما بالكم خذلتموه ، وأعنتم عدوّه على اضطراده وأسرّه؟ أما والله ما قتل قومٌ خليفتم قطّ ، إلا سلط الله عليهم السيف القاتل ، وألحقت الجاريف ، انهضوا إلى خليفتم وادفعوا عنه ، وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به » .

فنهضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالا شديداً ، وأكثروا في أصحابه الجراح ، وأسروا الحسين ، ودخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده في مجلس الخلافة .

وأثنى الأمين بالحسين بن عليّ ، فلامه على خلافه وقال له : ألم أقدم أباك على الناس ، وأولّه أعنة الخليل ، وأملاً يده من الأموال ، وأشرف أقداركم في أهل خراسان ، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ؟ قال : بلى ، قال : فما الذى استحقت به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلّب الناس عليّ ، وتندبهم إلى قتالى ؟ قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله ، قال : فإن أمير المؤمنين ، قد فعل ذلك بك ، وولّاك الطلب بئارك ، ومن قُتل من أهل بيتك ، ثم دعا له بخيلة ، فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حلوان ، وخرج الحسين ، فهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه فأدركوه وقتلوه . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٤)

١٠٧ - خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى^(١) والى مكة والمدينة - وكان خطيباً فصيحاً جهير الصوت - يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، فقال :

(١) هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه يبعث به والياً على مكة والمدينة ، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ١٩٦ ، فكتب الأمين إلى داود بن عيسى بأمره بخلع عبد الله المأمون ، والبيعة لابنه موسى ، وبعث إلى الكتائب الذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما في السكبة ، فأخذهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حجة السكبة والقرشيين والفقهاء ، ومن كان شهد على ما في الكتائب من اليهود - وكان داود أحدهم - فقال داود : قد علمت ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق ، عند بيت الله الحرام ، حين بايعنا لابنيه لتسكونن مع المظلوم منهما على الظالم ، ومع المبني عليه على الباغى ، ومع المنذور به على الغادر ، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وخلعهما ، وبايع لابنه للطفل رضيع صغير لم يقطع ، واستخرج الشرطيين من السكبة عاصياً ، فحرقهما بالنار ، وقد رأيت خلمه ، وأن أباع لعبد الله المأمون بالخلافة ، إذ كان مظلوماً مبغياً عليه ، فقال له أهل مكة : رأينا تبع لرأيك ، ونحن خالموه معك ، فجمع الناس ، وخطبهم هذه الخطبة .

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤتي الملكَ من يشاء ، وَيَنْزِعُ الملكَ من يشاء ، وَيُعْزِزُهُ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، بيده الخيرُ ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمةً للعالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين .

أما بعد ، ي أهل مكة ، فأنتم الأصلُ والفرع ، والعشيرة والأسرة ، والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يَفِدُ وَفَدَ اللهُ^(١) ، وإلى قبلكم يَأْتُمُّ المسلمون ، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون ، رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق ، لتَنْصُرَنَّ المظلومَ منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغى ، والمغدور به على الغادر ، ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والمبغى ، والغدر ، وخالف الشروط التي أعطاهما من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حلّ لنا ولكم خلعهُ من الخلافة وتصويرها إلى المظلوم المبغى عليه ، المغدور به ، ألا وإني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة ، كما خلعت قَلَنْسُوتِي هذه من رأسي وخلع قَلَنْسوته عن رأسه ، فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من بُرُودِ حَبْرَةَ^(٢) مسلسلة حمراء ، وأتى بقانسوة سوداء هاشمية فلبسها - ثم قال : قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة خلايفتكم ، « فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة وخلع محمداً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٠)

(١) أي لتأدية فريضة الحج . (٢) برود حبرة : ضرب من البرود البيانية ، يقال : برد حبرة مثل حنبة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو وثى كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغة .

١٠٨ - خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر، أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجنود، فأشرف عليهم وقال:

« الحمد لله الذي يرفع ويضع، ويعطي ويمنع، ويقبض ويسقط، وإليه المصير، أحمده على نوائب الزمان، وخذلان الأعوان، وتشنت الرجال، وذهاب الأموال، وحلول النوائب، وتوفد المصائب، حمداً يدخر لي به أجزل الجزاء، ويرفدني^(١) أحسن العزاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد لنفسه، وشهدت له ملائكته، وأن محمداً عبده الأمين، ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم، أمين رب العالمين.

أما بعد: يامعشر الأبناء، وأهل السبقي إلى الهدى، فقد علمتم غفلي كانت أيام الفضل بن الربيع وزيراً عليٍّ ومشيراً، فمادت^(٢) به الأيام بما كزمني به من الندامة في الخاصة والعامة، إلى أن نبهتموني فانتبهت، واستعتموني في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم، فبذلت لكم ما حواه ملكي، ونالته مقدرتي مما جمعه وورثته عن آبائي فقودت^(٣) من لم يجز، واستكفيت من لم يكف، واجتهدت - علم الله - في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه، واجتهدتم - علم الله - في مساءتي في كل يوم ما قدرتم عليه، من ذلك توجيهي إليكم علي بن عيسى شيخكم وكبيركم، وأهل الرأفة بكم، والتحنن عليكم، فكان منكم ما يطول ذكره، فغفرت الذنب، وأحسنتم واحتملت وعزيت نفسي عند معرفتي بشذوذ الظفر، وحرصى على مقامكم مسلحة^(٤) بخولان مع ابن كبير صاحب دعوتكم، ومن علي يدى أبيه^(٥) كان نفركم، وبه تمت طاعتكم

(١) رفته وأرفده: أعطاه. (٢) طاولته وأهلته. (٣) أى اتخذته قائداً.

(٤) المسلحة: للقوم ذور سلاح.

(٥) يعنى جده عبد الله بن حميد بن قسطنطين، وهو قسطنطين بن شبيب الطائي، أحد الدعاة العباسية والقواد

الذين قاتلوا الجيوش الأموية - انظر الجزء الثاني ص ٥١٣

عبد الله بن حميد بن قحطبة، فصرتم من التائب عليه إلى مالا طاقة له به، ولا صبراً عليه، يقودكم رجل منكم وأتم عشرون ألفاً إلى عامين، وعلى سيدكم متوثبين، مع سعيد الفرد، سامعين له مطيعين، ثم وثبتم مع الحسين عليّ، فخلعتموني وشتمتموني، واتهبتموني وحبستموني وقيدتموني، وأشياء منعتموني من ذكرها، حقد قلوبكم، وتلكي^(١) طاعتكم أكبر وأكثراً، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره، ورضى بقدره، والسلام» .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٥ ، وروج الذهب ٢ : ٣٠٥)

١٠٩ - استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع^(٢) لما ظفر به : « يا فضل ، أكان من حقّ عليك وحقّ آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلّيني^(٣) وتسبّني وتحرّض علي دمي ؟ أتحبّ أن أفعل بك ما فعلتني ؟ » .

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عذري يُحقّدك إذا كان واضحاً جميلاً ، فكيف إذا حفته^(٤) العيوب ، وقبّحته الذنوب ، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك فأنت كما قال الشاعر^(٥) فيك :

صَفْوَحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفِ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَغْشَ بِالْكَرْهِ مُسْلِمًا
(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

(١) مسهل عن تلكؤ . (٢) توفي سنة ٢٠٨ . (٣) ثلّيه كضربه : لامة وعابه .

(٤) هكذا في الأصل ، وربما كان « أخفته » لقوله قبل : « إذا كان واضحاً » .

(٥) هو الحسن بن رجا بن أبي الضحّاك .

١١٠ - خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين ، فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة ، وقد حضره من بني هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال :

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُسْذِينَ ، وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، إِنْ ظَهَرَ غَلَبَتْنَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْدِينَا وَلَا كَيْدِنَا ، بَلِ اخْتَارَ اللَّهُ لِلْخَلِيفَةِ ، إِذْ جَمَلَهَا عِمَادًا لِدِينِهِ ، وَقَوَامًا لِعِبَادِهِ ، وَضَبَطَ الْأَطْرَافَ ، وَسَدَّدَ الثُّغُورَ ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ ، وَجَمْعِ الْفَيْءِ ، وَإِنْفَازِ الْحُكْمِ ، وَنَشْرِ الْعَدْلِ ، وَإِحْيَاءِ السُّنَّةِ بَعْدَ إِذْ بَالَ الْبَطَالَاتِ ، وَالتَّلَذُّ بِمُوبِقِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْمُخْلِذِ إِلَى الدُّنْيَا مُسْتَحْسِنٌ لِدَاعِي غُرُورِهَا ، مُحْتَلِبٌ دِرَّةً^(١) نَعْمَهَا ، أَلْفَ زَهْرَةٍ رَوَّضَتْهَا ، كَلَفٌ بَرَوْتِقٍ بَهَجَتْهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ وِفَاءِ مَوْعُودِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا لِمَنْ بَغَى عَلَيْهِ ، وَمَا أَحْلَى بِهِ مِنْ بَأْسِهِ وَنَقْمَتِهِ ، لَمَّا نَكَبَ^(٢) عَنْ عَهْدِهِ ، وَارْتَكَبَ مَعْصِيَتَهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَغَيَّرَهُ نَاهِيَةَ ، وَعَظَمْتَهُ مَوْدِبَةً ، فَتَمَسَّكُوا بِدِقَائِقِ عَصْمِ^(٣) الطَّاعَةِ ، وَاسْتَلْكَوْا مَنَاحِي سَبِيلِ الْجَمَاعَةِ ، وَاحذَرُوا مِصَارِعَ أَهْلِ الْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ، الَّذِينَ قَدَحُوا زِنَادَ الْفِتْنَةِ ، وَصَدَعُوا شَعْبَ الْأُلْفَةِ ، فَأَعَقَبَهُمُ اللَّهُ خَسَارَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٦ ، والمعقد الفرید ٢ : ١٥٥)

(٢) عدل .

(١) الدرّة : اللين .

(٣) جمع عصام ككتاب ، وعصام القرية : رباطها وسيرها الذى تحمل به .

خطب المأمون (توفي سنة ٥٢١٨ هـ)

١١١ - خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمرو حين ورد عليه نعي الرشيد ، فقال :
« إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمره الجزع الوزر ، والتسليم لأمر الله عز وجل ، فائدة
جليلة ، وتجارة مربحة ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب ، وقد أتى على خليفتم
ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، فما كان إلا عبداً
دعياً فأجاب ، وأمر فاطع ، وقد سدد أمير المؤمنين نلمه ، وقام مقامه ، وفي أعناقكم
من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضي ، واغتبطوا بالنعماء والوفاء
في خليفتم الباقي ، يأهل الدنيا : الموت نازل ، والأجل طالب ، وأمس واعظ ،
واليوم مغتتم ، وغد منتظر » .

١١٢ - خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه ، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، صعد المنبر ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« أيها الناس : إني جعلتُ لله على نفسي ، إن أسترعاني أموركم أن أطيعه فيكم ،
ولا أسفك دماً عمداً لا تحلله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ، ولا
أماناً ، ولا نحلة^(١) تحرم علي ، ولا أحكم بهواي ، في غضبي ولا رضاي ، إلا ما كان

(١) حلة : أعطاه والاسم للنحلة .

في الله وله ، جعلتُ كلَّه لله عهداً مؤكِّداً ، وميثاقاً مُشدِّداً ، إني أفي رغبةً في زيادته
إيأى في نعمتي ، ورهبةً من مسألته إيأى عن حقه وخلقه ، فإن غيرتُ أو بدلتُ كنتُ
للغيرِ مستأهلاً ، وللنكالِ مُعرّضاً ، وأعوذ بالله من سَخَطِهِ ، وأرغب إليه في المعونة على
طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

١١٣ - خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمدوه وأستمينه ، وأومن
به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ،
أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجيز لوعده ، والخوف
لوعيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله
عباد الله ، وبادروا أعمالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما ببقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد
جدَّ بكم ، واستعدُّوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا قوماً صريح بهم فانتبهوا ، وعلِّموا أن
الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين
أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها
الساعة الواحدة ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحذوه^(١) الجديدان : الليل والنهار
لحريّ بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحلّ بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتق
عبد ربّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله
خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له العصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى
تهجم عليه منيته ، أغفل ما يكون عنها ، فيالها حسرة على ذي غفلة ، أن يكون عمره
عليه حجةً ، أو تؤدّيه أيامه إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ،

وَلَا تَقْصُرْ بِهِ عَنْ طَاعَتِهِ غَفْلَةً ، وَلَا تَحُلَّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فَرْعَةً . إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ، وَيَسْمَعُهُ الْخَيْرُ ، وَإِنَّهُ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، والمعتمد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٤ - خطبته يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشریفه ، وعظم حرُمته ، ووفَّق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذَّبْحِ نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومتمدِّم الأيام المدودات من النفر^(١) ، يوم حرام ، من أيام عظام ، في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكُّ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ ، وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(٢) » .

فتقرَّبوا إلى الله في هذا اليوم بذباحكم ، وعظَّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ^(٣) » ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية

(١) يوم النفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من منى ، وهو بعد يوم للقر (يوم القر بالفتح : اليوم الذي بعد يوم النحر ، لأن الناس يقرون في منازلهم) .

(٢) رجلا : أى مشاة ، جمع راجل كقائم وقيام ، - وعلى كل ضامر : أى وركبانا على كل ضامر ، أى بعير مهزول ، يأتين : أى الضوامر ، صفة لضامر حلا على المعنى ، من كل فج عميق : أى طريق بعيد ، ليشهدوا مَنَافِعَ لهم : دينية ودنيوية ، في أيام معلومة : هى عشر ذى الحجة ، وقيل : أيام النحر ، من بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم التى تحرر للضحايا ، ثم ليقضوا تفثهم : أى يزيلوا أوساخهم وشعثهم من نحو قص الأظفار ، وحلق العانة ، وغير ذلك . (٣) أى يرفع إليه منكم العمل الصالح .

بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار ، عَظُمَ قَدْرُ الدَّارِينَ ، وارتفع جزاء العَمَلِينَ ^(١) ، وطالت مدة الفريقين ، اللهُ اللهُ ، فوالله إنه أَلْجِدُّ لِأَلْعَبِّ ، وإنه الحقُّ لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والقصاص والصراط ، ثم العقاب والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٤ ، والمعتمد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٥ - خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وَسُنَّة ، وابتهال ورغبة ، يومٌ ختم الله به صيامَ شهر رمضان ، وافتتح به حجَّ بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر ، وأوَّل أيامِ شهر الحج ، وجعله مُعَقَّباً لمفروض صومكم ، ومُتَنَفَّلَ قِيَامِكُمْ ، أَحَلَّ فِيهِ الطَّعَامَ لَكُمْ ، وَحَرَّمَ فِيهِ الصِّيَامَ عَلَيْكُمْ ، فَاطْلُبُوا إِلَى اللَّهِ حَوَائِجَكُمْ ، وَاسْتَغْفِرُوهُ لِتَفْرِيطِكُمْ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : « لا كبيرَ مع استغفار ، ولا صغيرَ مع إصرار » ثم التَّكْبِيرَ والتَّحْمِيدَ ، وَذَكَرَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَالْوَصِيَّةَ بِالتَّقْوَى ، ثُمَّ قَالَ : فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، وَبَادِرُوا الْأَمْرَ الَّذِي أُعْتَدَلَ فِيهِ يَقِينُكُمْ ، وَلَمْ يَحْتَضِرِ ^(٢) الشُّكُّ فِيهِ أَحَدًا مِنْكُمْ ، وَهُوَ الْمَوْتُ الْمَكْتُوبُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا تُسْتَقَالُ بَعْدَهُ عَثْرَةٌ ، وَلَا تُحْطَرُ قَبْلَهُ تَوْبَةٌ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ إِلَّا دُونَهُ ، وَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ إِلَّا فَوْقَهُ ، وَلَا يُعِينُ عَلَى جَزَعِهِ وَعَلَزِهِ ^(٣) وَكَرْبِهِ . وَلَا يُعِينُ عَلَى الْقَبْرِ وَظُلْمَتِهِ ، وَضِيْقِهِ وَوَحْشَتِهِ ، وَهَوْلِ مَطَاعِمِهِ وَمَسْأَلَةِ مَلَائِكَتِهِ ، إِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، فَمَنْ زَلَّتْ عِنْدَ الْمَوْتِ قَدْمُهُ ، فَقَدْ ظَهَرَتْ نَدَامَتُهُ ، وَفَاتَتْهُ اسْتِقَالَتُهُ ، وَدَعَا مِنَ الرَّجْعَةِ إِلَى مَالٍ يُجَابُ إِلَيْهِ ، وَبَذَلَ مِنَ الْفِدْيَةِ مَا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَكُونُوا قَوْمًا سَأَلُوا الرَّجْعَةَ فَأَعْطَوْهَا ، إِذْ مُنِعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ،

(١) أى عمل الخير وعمل الشر .

(٢) يحضر .

(٣) العنز : ما يصيب المريض عند حشجة الموت من رعدة واضطراب .

فإنه ليس يتنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم ، واحذروا ما حذركم الله ،
 واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم ،
 فينظر عبداً ما يضع في ميزانه مما يتقبل به ، وما يميل^(١) في صحيفته الحافظة لما عليه وله ،
 فقد حكي الله لكم ما قال المرطون عندها ، إذ طال إعراضهم عنها ، قال : « وَوَضَعَ
 الْكِتَابُ فَتَرَى الْجُرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ
 لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ
 أَحَدًا » ، وقال : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ^(٢) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ،
 وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » ، ولست أنها كم عن
 الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو
 إلى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من مجائبها ذم كتاب الله لها ، ونهى الله عنها ،
 فإنه يقول : « فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، وقال :
 « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ . . الآية » ، فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وباخبار الله عنها ،
 واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائنها ،
 وآثروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها . .

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٥ ؛ والمقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٦ — خطبة ابن طباطبا العلوي

وخطب محمد^(٣) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطباً بن الحسن بن الحسن بن
 علي بن أبي طالب ، حين انتهب قائد جيوشه أبو السرايا السري ابن منصور قصر
 العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

(١) يميل . (٢) القسط : العدل : مصدر وصف به للمبالغة أو ذوات القسط .
 (٣) خرج بالكوفة لمشر خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل
 بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره في تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السري بن منصور وكان سبب
 خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحها ، وتوجهه إلى ذلك الحسن =

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يَبْلَغُنِي أن القائل منكم يقول : إن بنى العباس قِيْلَ لَنَا ، ونخوضُ في دِمَائِهِمْ ، وَتَرْتَعُ في أموالم ، وَيُقْبَلُ قولنا فيهم ، وَتُصَدِّقُ دعوانا عليهم ، حُكْمٌ بلا عِلْمٍ ، وَعَزْمٌ بلا رَوِيَّةٍ ! عَجَبًا لمن يُطْلِقُ بذلك لسانه ، ويحدِّثُ به نفسه ! أبتكاتب الله تعالى حَكَمَ ، أم لِسِنَّةٍ نبيهِ صلى الله عليه وسلم أَتَبَعَ ؟ أفي مِثْلِي ^(١) معه طَمَعٌ ، أم بَسَطَ يدي له بالجود أَمَلٌ ؟ هيئات ! فازدوا الحق بمِا نَوَى ، وأخطأ ذوا الباطل بما تَمَنَّى ، حَقُّ كل ذى حقٍّ في يده ، وكل مُدَّعٍ على حجة ، وَيَلُ من اغتصب حقًّا ، وادعى باطلا ، أفلح مَنْ رَضِيَ بحكم الله ، وخاف من أرغم الحقُّ أُنْفَه ، العَدْلُ أُوْنَى بالأثرة وإن رَغِمَ الجاهلون ، حُقَّ لمن أمر بالمعروف أن يجتنب المنكر ، ومن سلك سبيل العدل أن يصبر على مرارة الحق ، كل نفس تسمو إلى هَمَّتْهَا ، وَنِعْمَ الصاحبُ الفِئاعَةُ .

أيها الناس ، إن أكرم العبادة الوَرَعَ ، وأفضل الزاد التقوى ، واعملوا في دنياكم ، وتزوّدوا الآخرتكم ، اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وإياكم والعصبيةَ وَحَمِيَّةَ الجاهلية ، فإنهما يَمَحَقَانِ الدين ، ويورثان النفاق ، ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، يَصْلُحْ لَكُمْ دينكم ، وتحسُنْ المقالة فيكم . الحقُّ أبلجٌ ، والسبيل منهجٌ ، وَالباطل لَجَّاجٌ ^(٢) ، والناس مختلفون ، وَلِكُلِّ في الحقِّ سَعَةٌ ، من حَارَبَنَا حارَبناه ،

= ابن سهل ، فلما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفضل بن سهل قد غاب على المأمون ، وأنه قد أنزله قصرًا حجبته فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يهرم الأمور على هواه ، ويستبد بالرائى دونه ، ففضضه لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ، ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المذكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن المذيب في عشرة آلاف فواقهم فهزموه واستباحوا عسكره ، فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة (وذلك يوم الخميس ليلة غلت من رجب سنة ١٩٩) مات ابن طباطبا فجأة فذكر أن أبا المصراية سمع ، وذلك أن ابن طباطبا لما أحرز ما عسكر زهير منه أبا المصراية ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فعمل أبو المصراية أنه لا أمر له معه فسمه .

(١) في الأصل : « أفي مثل » و« تحريف ، والصواب ما ذكرته .

(٢) أبلج : أى واضح بين . والمنهج الطريق الواضح ، والباطل الخلق : أى يترد دفيه صاحبه فلا يصيب مخرجا .

وَمَنْ سَأَلْنَا سَأَلْنَا ، وَالنَّاسَ جَمِيعًا آمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا نَصَبْنَا لِنَا نَفْسَهُ ، وَأَعَانَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ ،
وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ : وَرَجُلٌ قَالَ فِينَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَعْرَاضِنَا : لَقُلْتُ ، وَكُنِي ، حَسْبُ كُلِّ
أَمْرٍ مَا يَصْنَعُهُ ، وَسَيُكْفِي الظَّالِمُونَ » . (موسم الأدب ٢ : ١١٢)

١١٧ - استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون

لما ظهر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي^(١) أمر بإدخاله عليه ، فجيء بإبراهيم
يُجَلِّ^(٢) في قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له
المأمون : لا سلم الله عليك ، ولا حفظك ، ولا رعاك ، ولا كلالك^(٣) يا إبراهيم ، فقال
له إبراهيم : على رسلك^(٤) يا أمير المؤمنين ، ولي^(٥) الثائر مُحْكَمٌ في القصاص ، والعفو
أقرب للتقوى ، ومن مدَّ له الاغترار في الأمل ، هجمت به الأناة على التآف^(٦) وقد
أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل^(٧) عفو ، فإن تعاقب فبحقك ،
وإن تعف فبفضلك » ، ثم قال :

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
نَحْذُ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فأطرق المأمون ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : إني سأورت أبا إسحق^(٨) والعباس

(١) كان المأمون قد عهد بالخلافة لعل الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون ببغداد (وكان المأمون
يمرو حاضرة خراسان) ماطله المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، أنكروا منه ذلك ،
وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة ٢٠١ هـ ، ولما علم المأمون بذلك جد في المسير إلى بغداد ،
وهرب عمه إبراهيم وتوارى .

(٢) حجل المقيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريث في شبهة هل رجله .

(٣) كلاله : حرسه . (٤) المهل والثؤدة . (٥) صاحبه .

(٦) وفي رواية : « ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرخاء ، أمن عادية الدهر » .

(٧) وفي رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذنب ، كما أصبح كل ذنب عفو دونك » وفي أخرى :

« وقد جعلت الله فوق كل ذنب ، كما جعل كل ذنب دونك » .

(٨) أبو إسحق هو المعتصم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون .

في قتلك فأشارا علىَّ به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلتُ لهما : بدأنا له بإحسان ، ونحن نستأمره فيه ، فإن غيرَ فآله يغير ما به ، قال : أمّا أن يكونا قد نصحاك في عِظَم قدر الملك ، وما جرت عليه عادةُ السياسة فقد فعلا ، ولكن أيتَ أن تستجلب النصر إلا من حيثُ عودك الله ، ثم استعبر با كياً ، فقال له المأمون : ما يُبكيك ؟ قال : جدلاً ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صِفته في الإنعام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرّمي يبلغ سَفْكَ دمي ، فلم أمير المؤمنين وتفضله يُبلغنا عفوَه ، ولي بعدها شفاعَةُ الإقرار بالذنب ، وَحُرْمَةُ الأبِ بعد الأبِ ، قال المأمون : « القدرةُ تذهب الحفيظة^(١) ، والندم توبةٌ ، وعفوُ الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم : لقد حَبَبْتُ إلى العفو ، حتى خِفْتُ أن لا أُوجِرَ عليه ، أما لو عَلمَ الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا لتثريب^(٢) عليك ، يغفر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلّتك ، لبغّك ما أمّلتَ حسنُ توصلك ، ولطيف تنصّلك » ، ثم أمر بردَّ ماله وضياعه ، فقال :

رَدَدْتُ مَالِي ، وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبِلَ رَدَّكَ مَالِي قَدْ حَقَّقْتَ دَمِي
فَأَبْتُ مِنْكَ - وَمَا كَأَفْأَتْهَا - بِيَدٍ هَا الْحَيَاتَانِ مِنْ وَفْرٍ مِنْ عَدَمٍ^(٣)
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهَمٍ
فَلَوْ بَدَأْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالُ ، حَتَّى أَسْأَلَ النُّعْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَةٍ رَجَعَتْ إِلَيْكَ ، لَوْ لَمْ تَهَبْهَا كُنْتُ لَمْ تُلَمَّ

(الأغاني ٩ : ٥٧ ، والمقد الفریدی ١ : ١٤٢ ، الأمالی ١ : ٢٠٢ ، وزهر الأديب ٣ : ١٩١)

(١) الحفيظة : الغضب ، وفي رواية الأغاني أن هذه الجملة من قول إبراهيم بن المهدي .

(٢) البد : النعمة .

(٣) لا لوم .

١١٨ - إبراهيم بن المهدي ومختيشوع الطيب

تنازع إبراهيم بن المهدي هو ومختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن دؤاد القاضي ، في مجلس الحكم ، في عقارٍ بناحية السواد^(١) ، فرزى عليه^(٢) ابن المهدي ، وأغلظ له بين يدي أحمد بن دؤاد ، فأحفظه^(٣) ذلك ، فقال : يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم ، فلا أعلن أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أمماً^(٤) ، وطريقك نهجاً^(٥) ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً ، ووفّ مجالس الحكومة حقوقها ، من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك وأشكل لذهبك في محتدك^(٦) ، وعظيم خطر^(٧) ، ولا تعجل ، فربّ محملة تهب ريثماً^(٨) ، والله يعصمك من الزلل ، وخطأ القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما آتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

قال إبراهيم : « أصلحك الله أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست بعائد إلى ما يئلم^(٩) مروءتي عندك ، ويسقطني من عينك ، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنأ معتزلاً إليك من هذه البادرة ، اعتذاراً مقرّباً بذنبه ، باخيع مجرمه^(١٠) ، فإن الغضب لا يزال يستنزني بمواده ، فيردني مثلك بحمله ، وتلك عادة الله عندنا منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد وهبت حق من هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك اليوم يعول^(١١) بأرش^(١٢) الجناية ، ولم يتأنف مال أفاد موعظة ، وبالله التوفيق .

(العقد الفريد ١ : ٢٧ ، وزهر الآداب ١ : ٢٣٢)

(١) سواد العراق ، والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالدار والنخل ، والجمع عقارات .

(٢) عابه . (٣) أغضبه . (٤) الأمم : القصد الوسط . (٥) واضحاً .

(٦) أصلك . (٧) قدرك . (٨) إبطاء . (٩) يعيب وينقص . (١٠) مقر .

(١١) يزهد ويرجع . (١٢) الأرش : الهدية .

١١٩ - استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لا تحسبني أغفلتُ إجلابك مع ابن المهدي ، وتأيمدك لرأيه ، وإيقادك لناره ، قال : « يا أمير المؤمنين ، ولرحمى أمسٍ من أرحامهم وقد قال لهم كما قال يوسف لإخوته : « لا تثرِب^(١) عَلَيْكُمْ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارثٍ لهذه المنة ، وممثل^(٢) لخلال العفو والفضل . »

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام ، وجُرمك جرم في إسلامك ، وفي دار خلافتك . قال : « يا أمير المؤمنين فوالله للمسلم أحق بإقالة العثرة ، وغفران الزلة من الكافر ، هذا كتاب الله بيني وبينك ، يقول الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فهي للناس يا أمير المؤمنين سنة دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف » قال : صدقت ، اجلس ، وریت بك زنادى ، ولا برحت أرى من أهلك أمثالك . (العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ - أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقاه وجوه أهلها ، فقال لهم رجل منهم : « يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك في مقدّمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ، تقدمت من قبلك ، وأتعبت من بعدك^(٣) ، وآيست أن يُعاین مثلك ، أمّا فيما مضى فلا نعرفه ،

(١) لا لوم . (٢) امثل طريقته : تبهما فلم يعدها .

(٣) إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع .

وأما فيما بقي فلا تَرَجُوه ، فنحن جميعاً ندعو لك ، ونُثْنِي عليك ، خَصِبِ لَنَا جَنَابُكَ ،
وعَذْبُ نَوَابِكَ ، وحَسُنْتَ نَظْرَتَكَ ، وكرُمْتَ مَقْدَرَتَكَ ، جَبَرْتَ الْفَقِيرَ ، وفكَّكَ
الْأَسِيرَ ، فَإِنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

مازلتَ في البَدَلِ والنَّوَالِ وإِطْلَاقِ إِيْعَانِ بِجُرْمِهِ غَلِقِ (١)
حتى تَمَّتْ الْبِرَاءَةُ أَنَّهُمْ عِنْدَكَ أُسْرَى فِي الْقَيْدِ وَالْحَلْقِ (٢)

(المعقد للفريد ١ : ١٣٧)

١٢١ - أحد أهل الكوفة يمدح المأمون

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ
منهم : « يا أمير المؤمنين : يَدُكَ أَحَقُّ يَدٍ بِتَقْيِيلِ ، لَعْلَوْهَا فِي الْمَكَارِمِ ، وَبُعْدَهَا مِنْ
الْمَأْتَمِ ، وَأَنْتَ يَوْسُفِيُّ الْعَفْوِ فِي قَلَّةِ التَّثْرِبِ ، مَنْ أَرَادَكَ بِسُوءٍ جَعَلَهُ اللَّهُ حَصِيدَ سَيْفِكَ ،
وَطَرِيدَ خَوْفِكَ ، وَذَلِيلَ دَوْلَتِكَ » ، فقال ياعمرو : نعم الخطيب خطيبهم ، أقض حوائجهم .
(مروج الذهب ٢ : ٣١٩)

١٢٢ - محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم ، فقال :
« يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، رَيْبَ دَوْلَتِكَ ، وَسَلِيلَ نِعْمَتِكَ ،
وَعُضْنَ مِنْ أَعْصَانِ دَوْلَتِكَ (٣) ، أَتَأْذِنُ فِي الْكَلَامِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ : « أَسْتَمْنِحُ اللَّهُ
حَيَاةَ دِينِنَا وَدُنْيَانَا ، وَرِعَايَةَ أَدْنَانَا وَأَقْصَانَا بِيَقَائِكَ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيدَ فِي عَمْرِكَ مِنْ
أَعْمَارِنَا ، وَفِي أَثْرِكَ مِنْ آثَارِنَا ، وَيَقْبِكَ الْأَذَى بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا ، هَذَا نَقَامُ الْعَائِدِ
بِفَضْلِكَ ، الْهَارِبِ إِلَى كِنْفِكَ وَظِلِّكَ ، الْفَقِيرِ إِلَى رَحْمَتِكَ وَعَدْلِكَ » ، ثُمَّ تَكَلَّمَ فِي حَاجَتِهِ ،
فَقَضَاهَا .

(المعقد للفريد ١ : ١٤٦)

(١) العاقب : الأسير ، والغلقي : أصله من غلق للرهن إذا استحققه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت
المشروط . (٢) البراءة ككبرام جمع برى .
(٣) الدرحة : الشجرة العظيمة .

١٢٣ - الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سهل^(١) يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وسني ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجة ، ومكّنك بالسلطان ، وحلّاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر ، وشفعه لك بالعمو ، وأوجب لك السعادة ، وقرنها بالسيادة ، فمن فسح^(٢) له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك ؟ أم من ترادفتُ نعمةُ الله تعالى عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحدٌ وارتبّطها بمثل محاولتك ؟ أم أي حاجة بقيت لرعيّتك لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيمٍ للإسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟ تعالى الله تعالى ، ما أعظم ما خصّ القرن الذي أنت ناصره ، وسبحان الله ! أيُّ نعمة طبقت^(٣) الأرض بك إن أدّى شكرها إلى بارئها والنعيم على العباد بها ؟ إن الله تعالى خلق السماء في فلّكها ضياءً يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل ليست زينته إلا بما اتصل به من نورك ؟ وكذلك كل وليٍّ من أوليائك ، سعد بأفعاله في دولتك ، وحسنت صناعته عند رعيّتك ، فإنما نالها بما أيّدتَه من رأيك وتديريك ، وأسعدته من حسنك وتقويمك . »

(زهر الآداب : ٣ : ٢٠٠)

١٢٤ - يحيى بن أكرم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكرم^(٤) : صف لي حالي عند الناس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمور بأزمّتها ، وملكتك الأمة فضولاً

(١) وزر للمأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، وتزوج المأمون ابنته بوران ؛ وتوفى سنة ٢٣٦ هـ .

(٢) أي وسع . (٣) ملأت وحثت ، والاستفهام للتنظيم .

(٤) من ولد أكرم بن صفيق التميمي ، وكان فقيها عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام ؛ وقد غلب على المأمون ؛

حتى لم يقدمه أحده عنده من الناس جميعاً ؛ وقلده قضاء القضاة ، وتدير أهل مملكته ؛ فكانت الوزراء لا تعمل

في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكرم ؛ وتوفى سنة ٢٤٦ هـ ؛ وعمره ٨٢ سنة .

أَعْنَتَهَا ، بِالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ ، وَالْهَيْبَةَ لَكَ ، وَالرَّفْقَ مِنْكَ ، وَالْعِيَاذَ بِكَ ، بِمِثْلِكَ فِيهِمْ ، وَمِنْكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَقَدْ أُنْسِيَتَهُمْ سَلْفَكَ ، وَأَيَسْتَهُمْ مِنْ خَلْفِكَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنَا بِكَ بِمَدِّ التَّقَاتِ ، وَوَفَعَنَا فِي دَوْلَتِكَ بِمَدِّ التَّوَاضِعِ .

فَقَالَ : يَا بَحِي ، أَتَحْبِرُ أَمْ ارْتَجِلُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَهَلْ يَمْتَنِعُ فِيكَ وَصْفٌ ، أَوْ يَتَعَذَّرُ عَلَى مَا دَحَكَ قَوْلٌ ، أَوْ يُفْجَمُ فِيكَ شَاعِرٌ ، أَوْ يَتَلَجَّلُجُ فِيكَ خَطِيبٌ ؟
(الصناعتين ص ٤٠)

١٢٥ — أَحَدُ بَنِي هَاشِمٍ وَالْمَأْمُونِ

أَذْنَبَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ذَنْبًا ، فَمَنَّهَ الْمَأْمُونُ ، فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ دَالَّتِي ، وَلَبَسَ ثَوْبَ حُرْمَتِي ، وَمَتَّ بِمِثْلِ قِرَابَتِي ، غُفِرَ لَهُ فَوْقَ زَلَّتِي » فَأَعْجَبَ الْمَأْمُونُ كَلَامَهُ وَصَفَحَ عَنْهُ .
(الأمالي ٢ : ١٢٦ ؛ وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٢٦ — رَجُلٌ يَتَظَلَّمُ إِلَى الْمَأْمُونِ

وَتَظَلَّمَ رَجُلٌ إِلَى الْمَأْمُونِ مِنْ عَامِلٍ لَهُ فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا تَرَكَ لِي فِضَةً إِلَّا فَضَّهَا ، وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ، وَلَا غَلَّةً إِلَّا غَلَّهَا^(١) ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، وَلَا عَلِقًا^(٢) إِلَّا عَلَقَهُ ، وَلَا عَرَضًا إِلَّا عَرَضَ لَهُ ، وَلَا مَاشِيَةً إِلَّا أَمْتَشَّهَا^(٣) ، وَلَا جَلِيلًا إِلَّا أَجْلَاهُ ، وَلَا دَقِيقًا إِلَّا دَقَّهُ » ، فَعَجِبَ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَقَضَى حَاجَتَهُ .
(زهر الآداب ٢ : ١٢٧)

(١) المراد احتيازها ؛ والأصل فيه غله ؛ أى وضع في عنقه أو يده الغل (بالضم) وهو القيد .

(٢) العلق : اللفيس من كل شيء ؛ وعلق به كفرح أحبه أو هو «علقه» مشدداً ، بيئياً المجهول ؛ علق امرأة :

أى أحبها . (٣) امتش ما في الضرع : أخذ جميعه .

١٢٧ - عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سلم : كانت عليّ نوبةٌ أنوبها في حرس المأمون ، فكنت في نوبتي ليلةً ، فخرج متفقداً من حضر ، فعرفته ولم يعرفني ، فقال : من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلمك الله ، فقال : أنت تكلوكم منذ الليلة ؟ قلت : الله يكلوكم قبلي ، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، فقال المأمون :

إن أخاك الصدق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا صرف الزمان صدعك بدد شمل نفسه ليجمعك
(زهر الآداب ٢ : ١٢٧)

١٢٨ - الحسن بن رجاء والمأمون

دخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال :

« أنا يا أمير المؤمنين ، الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل لخدمتك ، خادمك وابن خادمك : الحسن بن رجاء » ، فقال : أحسنت يا غلام ، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ، وأمر برفع مرتبته .
(زهر الآداب ٢ : ١٧٢)

١٢٩ - سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة للمأمون :

« لو لم أشكر الله تعالى إلا على حسن ما أبلاني من أمير المؤمنين ، من قصده إلى بحديثه ، وإشارته إلى بطرفه ، لقد كان في ذلك أعظم الرفعة ، وأرفع ما توجبته الحرمة » .

قال : « يفعل أمير المؤمنين ذلك ، لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت ، وحسن الفهم إذا حدثت ، مالم يجده عند أحد من مضي ، ولا يظن أنه يجد عند أحد ممن بقي ، فإنك لتستقصي حديثي ، وتقف عند مقاطع كلامي ، وتخبر بما كنت أغفلته منه » .
(زمر الآداب : ١ : ١٧٣)

١٣٠ - أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : كنت والياً بأزمينية ، فغبر^(١) أبو زهمان العلافى على بابى أياماً ، فلما وصل إلى مثل بين يدي قائماً بين السماطين^(٢) وقال :
« والله إنى لأعرف أقواماً لو علموا أن سفء التراب يُقيم من أود^(٣) أصلابهم ، لجلعوه مُسكّة^(٤) لازماً فيهم ، إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشى ، أما والله إنى لبعيد الوثبة ، بطيء العطفة ، إنه والله ما يثنىنى عليك إلا مثل ما يصر فى عنك ولأن أكون مُقلّلاً مقرّباً ، أحبُّ إلى من أن أكون مُكثراً مُبعداً ، والله ما نسال عملاً لانضبطه ، ولا مالاً إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذى صار إليك فى يدك ، كان فى يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فتجيب إلى عباد الله بحسن البشر ، ولين الجانب ، فإن حبَّ عباد الله موصول بحبَّ الله ، وبفضهم موصول بفيض الله ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورؤبواؤه على من اعوج عن سبيله » .
(البيان والعيين : ٢ : ١٠٥)

١٣١ - وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولّاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما^(٥) سنة ٢٠٦ هـ .
« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ،

(١) مكث . (٢) السماطان من الناس : الجانبان ؛ يقال : مشى بين السماطين .

(٣) اعوجاج . (٤) المسكة : ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب أو ما يبلغ به منهما .

(٥) أتبعتنا هذا الكتاب هنا لأنه فى حداد الوصايا .

وخشيته ومراقبته ومزايلة سُخْطِهِ وحفظِ رِعِيَتِكَ ، والزَمَ ما أَلْبَسَكَ اللهُ مِنَ العَافِيَةِ
بِالذِّكْرِ لِعَادِكَ ، وما أَنْتَ صَائرٌ إِلَيْهِ ، وموقوفٌ عَلَيْهِ ، ومستولٌ عَنْهُ ، والعملُ فِي ذلكِ
كلِّهِ بِما يَعصمُكَ اللهُ ، وينجيكُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ ، وألِيمٌ عِقَابُهُ ، فَإِنَّ اللهُ قَدْ أَحْسَنَ
إِلَيْكَ ، وَأوجبَ عَلَيْكَ الرَّأْفَةَ بِمَنْ اسْتَرَعَاكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ ، وَأزْمَكَ العَدْلَ عَلَيْهِمْ ،
والقِيَامَ بِحَقِّهِ وحدوده فِيهِمْ ، والذَّبَ^(١) عَنْهُمْ ، والدَّفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَبَيَضَتَّهُمْ^(٢) ،
والحَقْنَ لِدَمَائِهِمْ ، والأَمْنَ لِسَبِيلِهِمْ^(٣) ، وإدخالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ فِي مَآئِشِهِمْ ، ومُواخِذِكَ
بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ ذلكِ ، وموقِّفَكَ عَلَيْهِ ، ومَسائِلِكَ عَنْهُ ، ومُثِيبَكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدِمْتَ
وأخَرْتَ ، وفَرِّغَ لَدَيْكَ فِكْرَكَ وَعَقْلَكَ وبِصْرَكَ ورؤيتَكَ ، ولا يَذْهَبُ^(٤) عَنْ ذَاهِلٍ ،
ولا يَشْفَلُكَ^(٥) عَنْهُ شَاغِلٌ ، فَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ ، وَمِلاكُ شَأْنِكَ ، وأولُ ما يوفِّقُكَ اللهُ بِهِ
لِرَشْدِكَ ، وليَكُنْ أولُ ما تُتَلَزِمُ بِهِ نَفْسَكَ ، وتَنسِبُ إِلَيْهِ فَعَالِكَ ، المُواظِبَةُ عَلَى ما افترَضَ
اللهُ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ ، والجماعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قِبَلِكَ فِي مَواقِيتِها عَلَى سُنَنِها ،
فِي إِسْبَاغِ^(٦) الوضوءِ لها ، وافتتاحِ ذِكْرِ اللهِ فِيها ، وتَرَتُّلِ^(٧) فِي قِراءَتِكَ ، وتَمَكُّنِ
فِي رُكُوعِكَ وسُجُودِكَ وتَشْهَدِكَ ، وتُصَدِّقُ فِيها رَبِّكَ نَيْتُكَ ، واحضُضْ عَلَيْها جَماعَةَ
مِنْ مَعِكَ وتَحْتَ بَدَنِكَ ، وأدأبُ عَلَيْها فَإِنَّها كَمَا قالَ اللهُ : تَأْمُرُ بِالمَعروفِ وتَنْهَى عَنِ
الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ، ثُمَّ اتَّبِعْ ذلكَ الأَخْذَ بِسُنَنِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والمُتَابِرَةَ
عَلَى خِلائِقِهِ ، واقتفاءَ آثارِ السلفِ الصالحِ مِنْ بَعْدِهِ ، وإِذا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ
بِاسْتِخْارَةِ^(٨) اللهُ وتَقْوَاهُ ، ولزومِ ما أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتابِهِ مِنْ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ ، وحِلالِهِ وحِرامِهِ
واثِّمَامِ ما جَاءَتْ بِهِ الأَثارُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِما يَحِقُّ لَهِ عَلَيْكَ ،

(١) الدَّفْعُ . (٢) البَيضَةُ : حوزة كلِّ شَيْءٍ .

(٣) وَفي مَقَدِّمَةِ ابنِ خَلِّوْفٍ : لِسِرِّهِمْ ؛ والسَّرْبُ : النَفْسُ

(٤) ذَهَلَتْ مِنَ الشَّيْءِ (كَفَتَحَ) غَفَلَتْ وَقَدْ يَعْمَلُ بِنَفْسِهِ . فيقالُ ذَهَلَتْ ؛ والأَكْثَرُ أَنْ يَعْمَلَ بِالمُهمَزَةِ ؛
فيقالُ : أَذْهَلَنِي فلانٌ عَنِ الشَّيْءِ . (٥) شغله مِنْ بابِ فَتَحَ وَأشغله لَمَّةٌ جَيِّدَةٌ أَرَقْلِيلَةٌ أَوْ رَدِيئَةٌ .

(٦) أَسْبَغَ الوضوءَ : وَفي كُلِّ مَعْضُوقِهِ . (٧) تَمَهَّلَ وَلا تَعْجَلْ .

(٨) اسْتِخْارَةُ اللهِ : طَلَبُ مِنْهُ الخَيْرِ .

ولا تَمَلَّ عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لِقَرِيبٍ من الناس أو بعيد ، وآثِرِ الفقهَ وأهله ، والدينَ وَحَمَلته ، وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تزيّن به المرء الفقه في دين الله ، والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرّب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عزّ وجلّ ، وإجلالا له ، ودَرَ كَأَ للدرجات العُلاّ في العَآد ، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسלטانك ، والأنسة بك ، والثقة بعدلك ، وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها ، فليس شيء أبين نفعاً ، ولا أضرّ أمناءً ، ولا أجمعَ فضلاً من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وقوام الدين والسنن الهادية بالاعتقاد ، فأثره في دنياك كلها ، ولا تقصّر في طاب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالم الرشد ، فلا غايةً للاستكثار من البرّ والسعى له ، إذا كان يُطلب به وجه الله ومرضأته ومرافقة أوليائه في دار كرامته ، واعلم أنّ القصد في شأن الدنيا يُورث العزّ ويحصّن من الذنوب ، وإنك لن تحوِّط^(١) نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به تتمّ أمورك ، وتزدّ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عزّ وجلّ تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها ، تستدّم به النعمة عليك ، ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ، فإن إيقاع التهم بالبرّ آء ، والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم ، وارفضه فيهم ، يُعينك ذلك على اصطناعهم^(٢) ورياضتهم ، ولا يجدنّ عدو الله الشيطان في أمرك مَفْخَراً ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك^(٣) ، فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغصك لَدَاذَة عيشك ، واعلم أنك

(١) تصون . (٢) اصطغنتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر استكفيك إياه .

(٣) الوهن يسكون الماء وفتحها ، لغصفت .

تجدُّ حُسْنَ الظنِّ قوَّةً وراحةً ، وَتُكْفَى به ما أَحَبَّتْ كفايَتَهُ من أمورِكَ ، وتدعو به
الناس إلى محبتِكَ ، والاستقامة في الأمور كلها لك ، ولا يمتنعُ حُسْنَ الظنِّ بأصحابِكَ
والرأفة برعيَّتِكَ ، أن تستعمل المسألةَ والبحث عن أمورِكَ ، والمباشرةُ لأُمورِ الأولياءِ ،
والحياطةُ للرعية ، والنظرَ فيما يُقيمها وَيُصلِحها ، بل لتكن المباشرةُ لأُمورِ الأولياءِ ،
والحياطةُ للرعية ، والنظرَ في حوائجهم وَحَلُّ مَتُوناتهم ، آثَرَ عِنْدِكَ مما سوى ذلك ،
فإنه أقومُ للدين ، وأحيا للسنة ، وأخلصُ نيتَكَ في جميع هذا ، وتفرَّد بتقويم نفسك
تفرَّد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزِي بما أحسن ، وماخوذ بما أساء ، فإن الله
جعل الدين حِرْزاً وعِزاً ، ورفع من اتبعه وعزَّزه ، فاسلُك بمن تسوسه وترعاه نَهْجَ الدين
وطريقة الهدى ، وأقيم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ،
ولا تعطل ذلك ولا تهانُ به ، ولا تؤخِّر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفريطك في ذلك
لما يُفسد عليك حَسْنَ ظنِّكَ ، واعزِم على أمرِكَ في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب
الشبهة والبِدعات ، يَسَلِّم لك دينك ، وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فَفِ به ،
وإذا وعدت الخيرَ فَأَتِّجِزْهُ ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغْمِض عن عيب كل ذي عيب
من رعيَّتِكَ ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغِضْ أهله ، وأقْصِ أهلَ
النميمة ، فإن أول فساد أمرِكَ في عاجل الأمور وآجالها تقرب الكذوب والجُرأة على
الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ، لأن النميمة لا يسلم
صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لطبيعتها أمر ، وأحِبَّ أهل الصدق والصَّلاح
وأعِزَّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعِزةَ
أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف
عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيَّتِكَ ، وأنعم بالعدل في سياستهم ، وقم بالحق
فيهم ، وبالعرفه التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملِك نفسك عند الغضب ، وآثِرْ

لوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيشَ والفروز فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول :
إني مُسَلِّطُ أفعال ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده
لاشريك له ، وأخاص الله النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملكَ الله ، يُعْطِيهِ من يشاء ،
وينزعهُ ممن يشاء ، ولن تجد تغبّر النعمة وحلول النعمة إلى أحد ، أسرع منه إلى حمله
النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ،
واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخرك وكنوزك
التي تدخر وتكزير البرّ والتقوى والمعدلة ، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد
لأمورهم والحفظ لديمائهم^(١) والإغاثة للمهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخرت
في الخزان لا تُشْمِر ، وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم ، وكف الثبونة
عندهم ، نمت وربّت وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد
فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووقر
منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم ،
وتمهّد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرّت النعمة عليك ،
واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك
وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساساً لطاعتهم ، وأطيب
فضلاً لكل ما أردت ، فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ، ولتعظم حسبتك فيه
فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه ،
وإياك أن تُنسينك الدنيا وغرورها حول الآخرة ، ففتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون
يوجب التفريط ، والتفريط يورث البوار ، وليكن عمك الله وفيه تبارك وتعالى وارج
الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر
وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيراً وإحساناً ، فإن الله يُثيب بقدر شكر الشاكرين ،

(١) للدهم : جماعة الناس « وفي المقدمة : والحفظ لديمائهم » .

وسيرة المحسنين ، وَقَضَى الْحَقَّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالسَّكْرَامَةِ ،
 وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تَمَالُئِنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرَحَّمَنَّ فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا ، وَلَا
 تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصَدَّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا ، وَلَا تَتَّبِعَنَّ
 غَاوِيًا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرَدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تَجِيبنَّ (١)
 بِاطْلَا ، وَلَا تَلَاظِنَنَّ مَضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَزْهَوَنَّ نَجْرًا ، وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا ،
 وَلَا تَأْتِيَنَّ بَدْحًا (٢) ، وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا (٣) ، وَلَا تَفْرُطَنَّ فِي طَلَبِ
 الْآخِرَةِ ، وَلَا تَرْفَعَنَّ لِلنَّامِ عَيْنًا ، وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنِ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مَخَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ
 ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالدُّنْيَا ، وَأَكْثِرْ مَشَاوِرَةَ الْفُقَهَاءِ ، وَاسْتَعْمَلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخُذْ عَنِ
 أَهْلِ التَّجَارِبِ ، وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَةِ (٤) ،
 وَابْخُلْ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا ، فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَنَفْعَتِهِمْ ، وَليْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ
 فِسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّحِّ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ
 كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ
 رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ ، بِالْكَفِّ عَنِ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُورِ عَنْهُمْ ، وَيَدْوَمُ صَفَاءُ
 أَوْلِيَائِكَ لَكَ ، بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحَسَنِ الْعَطِيَةِ لَهُمْ ، فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوْلُ
 مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
 « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ
 لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نَيْتِكَ حِظًّا وَنَصِيبًا ، وَأَيِّقَنَّ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَأَعِدِّدْهُ
 لِنَفْسِكَ خُلُقًا ، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ، وَتَقَدَّرْ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ ،
 وَأَدْرِ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، لِيَذْهَبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقْتَهُمْ ، وَيَقُومَ
 لَكَ أَمْرُهُمْ ، وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا ، وَحَسْبُ ذِي سُلْطَانِ

(١) وفي المقدمة : « وَلَا تَحْمَدَنَّ بِاطْلَا » .

(٢) الخ : الكبير . (٣) وفي المقدمة : « وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا » .

(٤) وفي المقدمة : « أَهْلُ الدَّقَةِ » .

من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله، وحيطةً^(١) وإنصافه، وعنايته وشفقته، وبره وتوسعته، فزایل مكرهه أحد البابين باستشعار تسكلة الباب الآخر، ولزوم العمل به، تلقاً إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً، واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه الأحوال في الأرض، وإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية، وتأمين السبل، وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدّي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء، واشتد في أمر الله، وتورع عن النطف^(٢)، وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة، وابتعد من الضجر والقلق، واقنع بالقسم، ولتسكن ريحك، ويقرب جحك وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، وأسدد^(٣) في منطقتك، وأنصف الخضم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيته محاباةً ولا محاماةً^(٤) ولا لوم لأئم، وثبت وتأن ورأقب، وانظر وتدبر، وتفكر واعتبر، وتواضع لربك وارأف^(٥) بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم (فإن الدماء من الله بمكان عظيم) انتهاكاً لها بغير حقها، وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً^(٦) وغیظاً، ولأهل الكفر من معاديبهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمراً فيه شطط، واحمل الناس كلهم على مر الحق، فإن ذلك أجمع لألتهم،

(١) في المقدمة : « وحيطة » .

(٢) النطف : الموب والشر والفساد . (٣) صد يمه كضرب : صار سهيداً .

(٤) في المقدمة : « ولا محاملة » . (٥) من باب كرم وقطع وطرب .

(٦) كبت : صرعه وأخزاه ؛ ورد العدو بغيظه وأذله .

وأزَمَ لرضا العامة ، واعلم أنك جُعِلْتَ بولايك خازناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سُمِّيَ أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم وقيّمهم ، تأخذ منها ما أعطوك من عفوم ومقدرتهم وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والنفاء ، ووسّع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسندَ إليك ، ولا يسفّلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آتته ووقت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحداث في عملك ، واحترزت النصحة من رعيتك ، وأُعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العارة بناحيك ، وظهر الخصب في كورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جنديك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً ، تحمداً مغبّةً أمرك إن شاء الله ، واجعل في كل كورة من عملك أميناً يُخبرك أخبار عملك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، مُعَين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأْمضِهِ ، وإلا فتوقّف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه^(١) ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استشارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لعدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لعد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله

(١) في المقدمة : « وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك » .

اجتمع عليك أمر يومين ، فَشَفَّاكَ ذلك حتى تُعْرَضَ عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحتَ نفسك وبدنك ، وأحكمتَ أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَوِيَّتِهِمْ ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهدَ أَهْلَ البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة ، فاحتلِ مئوتهم ، وأصلح حالهم ، حتى لا يجدوا تَخَلَّتَهُمْ ^(١) مَسًّا ، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ ، والمحقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحق مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصْلِحُ الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداءً بأمر المؤمنين - أعزه الله - فى العطف عليهم والصلة لهم ، لِيُصْلِحَ اللهُ بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركةً وزيادة ، وَأَجْرٍ لِلأَصْرَاءِ من بيت المال ، وَقَدِّمِ حَمَلَةَ القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية ^(٢) على غيرهم ، وانصِبْ لِمَرْضَى المسلمين دُوراً تُؤْوِيهِمْ ، وَقَوَّاماً يَرْفُقُونَ بِهِمْ ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وَأَسْعِفُهُمْ بشهواتهم ، مالم يؤدَّ ذلك إلى سرف فى بيت المال ، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم ، لم يَرْضِهِمْ ذلك ، ولم تُطِبْ أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلائِهِمْ ، طمعاً فى نيل الزيادة وفضل الرفق منهم ، وربما بَرِمَ ^(٣) المتصفح لأموال الناس ، لكثرة ما يرد عليه ، وَيَشْفَلُ فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة ، وليس من يرغب فى العدل ، وَيَعْرِفُ محاسن أموره فى العاجل ، وفضل ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقربه إلى الله ، ويلتمس رحمته به وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأَبْرَزْ لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، واخفِضْ لهم جَنَاحَكَ ، وأظهر لهم بِشْرَكَ ، وَلِنْ لهم فى المسألة والمنطق ، واعطِفْ عليهم بجزوك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس ، واتمس الصنيعة والأجر غير مكدر ولا متأن

فإن العطية على ذلك تجارة مرهنة إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى
من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم
في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه
وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك
من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسراراً ، وأكثر مجالسة
العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم
الأمر ومعالها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، من إذا رأى عيباً فيك
لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك
أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك ، وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابتك ، فوقت
لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبته ومؤامراته وما عنده من
حوائج عمالك ، وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك
وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق
فأمضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه والمسألة عنه ،
ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم
إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك
وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك
واستخره فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيتك ، ما كان
لله رضا ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل
الله أن يصلح عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته
بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ،
وأسنام ذكراً وأمراً ، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبقى عليك ، ويرزقك من

رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه ، حتى يستعلى أمرك بالعرز والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقي أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البنيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٥٨ ، ومقمة ابن خلدون ص ٢٢٩)

١٣٢ — خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج^(١) فقال :

« إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذائبون عن دينه ، الذائبون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام^(٢) المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته ، الذين أشرو^(٣) وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ

(١) الوارد في كتاب « الفرق بين الفرق » أن المأمون بعث طاهر بن الحسين اقتتال حزة بن أكرح - هكذا فيه ، وفي الملل والنحل حزة بن أدرك بالدال - وهو زعيم فرقة الحمزية إحدى فرق الخوارج المجاهدة ، وقد عاث في سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وهزم الجيوش الكفيرة ، وكان ظهوره في أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقى الناس في فئنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتابها استدعاه فيه إلى طاعته ، فإزداد لا اعتراً ، فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفاً ، أكثرهم من أتباع حزة ، وانهمز حزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطعم فيها حزة ، وأقبل بجيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألفاً فهزموه ، وقتلوا الألوف من أصحابه ، وانقلت منهم حزة جريحاً ، ومات في هزيمته - انظر ص ٧٩ -

(٢) النظام : السلك يعظم فيه ، وملاك الأمر . (٣) بطروا .

وُثِّبَتْ أَقْدَامُكُمْ» ، فليكن الصبر مَعْقِلَكُمْ الذي إِلَيْهِ تَلَجُّونَ^(١) ، وَعُدَّتْكُمْ التي بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع ، الذي دلسم الله عليه ، وَالْجَنَّةُ^(٢) الحصينة التي أمركم الله بلباسها . غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَاخْفَتُوا أَصْوَاتَكُمْ في مصافِّكم ، وَامضُوا قُدَمَا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، فارغين إلى ذكر الله ، وَالاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأَبْتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أيدكم الله بعز الصبر ، وَوَلِيكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ .

(المنقذ للفرج ٢ : ١٥٥)

١٣٣ - العباس بن المأمون والمعتمد (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون : لما أفضت الخلافة إلى المعتمد دخلت ، فقال : هذا مجلس كنت أكرهه الناس لجلوسى فيه ، فقلت : « يا أمير المؤمنين ، أنت تغفو عما تيقنته ، فكيف تعاقب على ما توهمت ؟ » ، فقال : « لو أردت عقابك ، لتركت عتابك » .

(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ - استعطاف تميم بن جميل للمعتمد

كان تميم بن جميل السدوسي قد خرج بشاطئ الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبعد ذكره ، فكتب المعتمد إلى مالك بن طوق في النهوض إليه ، فبدد جمعه ، فظفر به ، فحمله مؤثقا إلى المعتمد ، قال أحمد بن أبي ذؤاد : ما رأينا رجلاً عاين الموت ، فما هاله ، ولا أذهله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه أوفى به الرسولُ باب أمير المؤمنين المعتمد ، في يوم الموكب ، حين يجلس للعامة ، ودخل عليه ، فلما مثل بين يديه ، دعا بالنطع^(٣) والسيف فأحضرهما ، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً ، وجعل المعتمد يصعد النظر فيسه ويصوبه ، وكان جسماً

(١) الملجأ والمعتمد ؛ وكذا الوزر . (٢) كل ما يقى .

(٣) النطع كحمل وشمس وسبب وصب : بساط من الأديم .

وسياً^(١) ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره ، فقال : يا تميم إن كان لك عذرت فأنت به ، أو حجة فأدل بها ، فقال : أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فأني أقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسَبَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » جبر بك صدع الدين ، ولم بك شعث المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأخذ بك شهاب الباطل ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُحْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُعْيِي الأفتدة الصحيحة ، ولقد عَظُمَتِ الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وكَبُرَ الذنب ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إليّ ، أولاهما بامتنانك ، وأشبههما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أرَى الموتَ بينَ السيفِ والنَّطعِ كامنًا	يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وأَكْبَرُ ظنِّي أنك اليومَ قاتلي	وأى أمرى مما قضى اللهُ يُفْلِتُ؟
ومن ذا الذي يُدلي بعذرٍ وحجَّةٍ	وسيفُ المنايا بينَ عَيْنَيْهِ مُصَلَّتُ؟ ^(٢)
يعزُّ على الأوسِ بنِ تغلبَ موقِفُ	يُسلُّ علىَّ السيفُ فيه وأسكتُ
وما جَزَعِي من أن أموتَ وإنتي	لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ موقَّتُ
ولكنَّ خلفي صِبيَّةٌ قد تركتهم	وأكبادهم من حَسرةٍ تنفتتُ
كأنِّي أراهم حين أنعى إليهمُ	وقد خمشوا تلكَ الوجوهَ وصوتوا ^(٣)
فإن عشتُ عاشوا خافضينَ بغيطةٍ	أذودُ الردى عنهم وإن ميتٌ مَوْتوا ^(٤)
فكم قاتلٍ لا يُبعدُ اللهُ رُوحَه	وأخرَ جَدلانٍ يُسرُّ وَيُشمتُ

(١) جملا . (٢) مسلول . (٣) خمش وجهه كنصر وضرب : خدشه ولطمه وضربه .

(٤) كثر فيهم الموت .

فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله يا تميم أن يسبق السيفُ العَدَلُ ^(١) ، أذهب فقد غفرت لك الصبوة ^(٢) ، ووهبتك للصبيبة » ، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات .
(العقد الفريد ١ : ١٤٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ - بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله

ولما ولى المهدي بالله ^(٣) بن الواثق بن المعتصم سليمان بن وهب وزارته ، قام إليه رجل من ذوى حرمة ، فقال : « أعزَّ الله الوزير ، أنا خادمك ، المؤمِّل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنطوي القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرتهن بشكر نعمتك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ - أحمد بن أبي دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبي دواد ^(٤) على الواثق فقال : ما زال اليوم قومٌ في ثلبك ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِكُلِّ أَمْرِي مِنْهُمْ مَا أُكْتَسِبَ مِنَ الْإِنْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ^(٥) مِنْهُمْ لَهُ عَدَابٌ عَظِيمٌ ، وَاللَّهِ وَلِيُّ جَزَائِهِ ، وَعِقَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَرَائِهِ ،

(١) العَدَلُ كشمس وسبب : الوم ؛ وهو مثل ؛ وأول من قاله ضبة بن أد بن طابحة ؛ وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد ؛ وللآخر سعيد ؛ فذفرت إبل لضبة تحت البل ؛ فوجه ابنه في طلبها ففترقا ؛ فوجدها سمع فردها ؛ ومضى سعيد في طلبها ؛ فلقى الحرث بن كعب ؛ وكان على الغلام بردان ؛ فسأله الحرث إياها فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ؛ فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : سعد أم سعيد ؟ فكث ضبة بذلك ماشاء الله أن يمكث ؛ ثم إنه حج فوافى مكاظ ؛ فلقى بها الحرث بن كعب ؛ ورأى عليه بردى ابنه سعيد فمرفهما ؛ فقال له : هل أنت نجبري ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال بل : لقيت غلاما ؛ هما عليه فسألته إياها ؛ فأبى على فقتله ؛ وأخذت برديه هذين ؛ فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال نعم ؛ فقال : فأعطينيه أنظر إليه فإني أظنه صارما ؛ فأعطاه الحرث سيفه ؛ فلما أخذه من يده هزه وقال : الحديث ذو شجون ؛ ثم ضربه به حتى قتله ؛ فقيل له يا ضبة : أفي الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العَدَلُ . (٢) جهلة الفتوة . (٣) نولى الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ

(٤) هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصره الاعتزال ، كان مقربة من المأمون أثيرا عنده ، ولما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة ؛ وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ثم فُجِعَ في أول خلافة المتوكل ، ففقد ولده محمداً القضاة مكانه ، وتوقف سنة ٢٤٠ هـ . (٥) أي معظمه ، وفي قراءة وكبره . بضم الكاف .

وما ذلَّ يا أمير المؤمنين من أنت ناصرُه ، وما صاق من كنت جاراً له ، فما قلت لهم
يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إِلَى بَعِيْبِ عَزَّةَ مَعْشَرَهُ جَعَلَ الْإِلَهَ خَلُودَهُنِ نِعَاَهَا

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والمقد الفريد ١ : ١٤١)

١٣٧ — ابن أبي دواد والواثق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دُواد تضحُّراً بكثرة حوائجهم : قد أخلتُ بيوتَ
الأموالِ بطلِّياتِكِ للأذنينِ بك ، والمتوسلينِ إليك ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، نتأخُّجُ شكرها متصلةٌ بك ، وذخائرُها موصولةٌ لك ، ومالِي
من ذلك إلا عِشْقُ اتصالِ الألسنِ بخلودِ المدحِ » ، فقال : « والله لا منعناك ما يزيد
في عشقتك ، ويقوِّى في هممتك فينا ولنا » ، وأمر فأخرج له خمسةً وثلاثين ألف درهم .
(زهر الآداب ٢ : ٣١٠)

١٣٨ — ابن أبي دواد وابن الزيات

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دُواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات^(١) منافسة
وشحناء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضي ، ويختص بقضاء حوائجهم ، من
الترداد إليه ، فبلغ ذلك القاضي ، فجا إلى الوزير فقال له :

« والله ما أحييتك متكثرأً بك من قلة ، ولا متمرِّزأً بك من ذلة ، ولكن
أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبَتْ لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخره نا عنك فلك^(٢) » .
(وفيات الأميان ١ : ٢٥)

(١) وزر للمعتصم ، وللواثق من بعده ، ثم نسكيه المتوكل كما سيأتي .

(٢) وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبي دواد إذا
راه قام واستقبل القبله يصل .

١٣٩ - الجاحظ وابن أبي دؤاد

وكان الجاحظ مختصاً بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد ، فلما نكس ابن الزيات^(١) ، هُجِل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة ، وعليه قيض سَمَل^(٢) ، فلما دخل على القاضي أحمد قال له : « والله ما أملك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدّناً للمساوي ، وما فتنتني باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تُصلِح منك ، لفساد طويبتك ، ورداءة دَخِيائتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » . فقال الجاحظ : « خَفَضَ عليك - أَيْدِكَ اللهُ - فوالله لأن يكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيءَ وَتَحْسِنَ ، أحسنُ فى الأُخْدُوثة عليك ، من أن أحسن وتسىء ، ولأن تَفُوءَ عنى فى حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام منى » . فقال أحمد : والله ما علمتكَ إلا كثير تزويق الكلام ، فخلَّ عنه الغُلَّ والقيد ، وأحسن إليه ، وصدَّره فى المجلس . (زهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والمنية والأمل ص ٣٩)

(١) كان فى نفس المتوكل من ابن الزيات شيء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أخو المتوكل) . أشار ابن الزيات بتولية ولده الواثق ، وأشار ابن أبى دؤاد بتولية المتوكل ، وقام فى ذلك وقعد حتى صممه يديه وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل فى أيام الواثق يدخل على ابن الزيات فيتجهمه ويغلظ له فى الكلام - يتقرب بذلك إلى الواثق - فحقه المتوكل ذلك عليه ، فلما ولى الخلافة ، أمهله أربعين يوماً حتى يطمن إليه ، ثم قبض عليه وسجنه ، واستصنى أمواله ، وكان ابن الزيات إبان وزارته قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره إلى داخل ، وهى قائمة مثل رموس المسال ، يمدب فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم ارحمنى أيها الوزير . قال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله فى التنور : وقيدته بخمسة عشر رطلاً من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، وبق فى اللذاب أربعين يوماً حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

(٢) السمل : الخلق من الشباب .

١٤٠ - أبو العيناء وابن أبي دؤاد

وقال أبو العيناء لابن أبي دؤاد : إن قوماً من أهل البصرة قدِموا إلى « سُرَّ مَنْ رَأَى » يَدَا عَلِيٍّ ، فقال : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، فقلت : إن لهم مكرراً ، فقال : « وَلَا يَحِيقُ الْمَبَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، فقلت : إنهم كثير ، قال : « كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

(زهر الآداب ٢ : ٣١٠ ، والمعقد الفريد ١ : ١٤١)

تم الجزء الثالث

ويليه

ذيل الجمهرة

فهرس

الجزء الثالث

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

الخطب والوصايا في العصر العباسي الأول

الخطبة أو القصيدة	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة	١	١
« داود بن عليّ	٢	٣
« داود بن عليّ وقد أرتج على السفاح	٣	١١
« أخرى له	٤	١١
« للسفاح بالكوفة	٥	١٢
« السفاح بالشام حين قتل مروان	٦	١٢
« عيسى بن عليّ	٧	١٣
« داود بن عليّ بمكة	٨	١٤
خطبته بالمدينة	٩	١٥
خطبة أخرى له	١٠	١٥
خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس	١١	١٦
« وقد أرتج عليه	١٢	١٧
خطبة صالح بن عليّ	١٣	١٨
« سديف بن ميمون	١٤	١٨
« أبي مسلم الخراسانيّ	١٥	٢٠
خالد بن صفوان وأخوال السفاح	١٦	٢٣
« « « ورجل من بني عبد الدار	١٧	٢٤

الخطبة أو الرصينة	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خالد بن صفوان يرثي صديقا له	٢٥	١٨
« « « يمدح رجلا	٢٥	١٩
كلمات بليغة لخالد بن صفوان	٢٥	٢٠
عمارة بن حمزة والسفاح	٢٦	٢١
خطب أبي جعفر المنصور	٢٧	
خطبته بمكة	٢٧	٢٢
« بعد بناء بغداد	٢٧	٢٣
خطبته بمدينة السلام	٢٨	٢٤
« وقد أخذ عبد الله بن الحسن وأهل بيته	٢٨	٢٥
« حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن	٣٠	٢٦
« وقد قتل أبا مسلم الخراساني	٣١	٢٧
خطبة أخرى	٣	٢٨
قوله وقد قوطع في خطبته	٣٢	٢٩
المنصور يصف خلفاء بني أمية	٣٣	٣٠
« عبد الرحمن الداخل	٣٣	٣١
وصايا المنصور لانه المهدي	٣٥	
وصية له	٣٥	٣٢
« أخرى له	٣٦	٣٣
« « «	٣٦	٣٤
خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور	٣٨	٣٥
وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه	٣٩	٣٦
قوله وقد قتل ابنه محمد	٣٩	٣٧
امرأة محمد بن عبد الله والمنصور	٤٠	٣٨
جعفر الصادق والمنصور	٤٠	٣٩
صفح المنصور عن سقيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب	٤٢	٤٠
استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور	٤٢	٤١

الخطبة أو الرصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
استعطاف أهل الشام المنصور أيضاً	٤٢	٤٣
أبو جعفر المنصور والربيع	٤٣	٤٤
مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور	٤٤	٤٥
« رجل من الزهاد » « »	٤٥	٤٦
« الأوزاعي بين يدي المنصور	٤٦	٤٩
نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور	٤٧	٥١
معن بن زائدة والمنصور	٤٨	٥٢
« » « وأحد زواره	٤٩	٥٢
المنصور وأحد الأعراب	٥٠	٥٣
أعرابية تعزى المنصور وتمتهن	٥١	٥٣
خطبة محمد بن سامان	٥٢	٥٤
وصية مسلم بن قتيبة	٥٣	٥٤
خطبة المهدي	٥٤	٥٥
مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب حراسان		٥٧
مقال سلام صاحب المظالم	٥٥	٥٨
« الربيع بن يونس	٥٦	٥٩
« الفضل بن العباس	٥٧	٦٠
مقال علي بن المهدي	٥٨	٦٢
« موسى بن المهدي	٥٩	٦٤
« العباس بن محمد	٦٠	٦٥
« هرون بن المهدي	٦١	٦٦
« صالح بن علي	٦٢	٦٨
« محمد بن الليث	٦٣	٦٩
« معاوية بن عبد الله	٦٤	٧٤
« المهدي	٦٥	٧٢
« محمد بن الليث	٦٦	٧٤
« المهدي	٦٧	٧٥

الخطبة أو الرصيه	رقم الصفحة	رقم الخطبة
ابن عتبة يعزى المهدي ومهنته	٧٧	٦٨
يعقوب بن داود يستعطف المهدي	٧٧	٦٩
رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي	٧٨	٧٠
مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي	٧٩	٧١
عظة شبيب بن شذبة للمهدي	٨٠	٧٢
خطبته في تعزية المهدي بابنته	٨٠	٧٣
خطبة أخرى له في مدح الخليفة	٨٠	٧٤
كلمات لشبيب بن شذبة	٨١	٧٥
خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب يوم ولي الرشيد الخليفة	٨١	٧٦
خطبة هرون الرشيد	٨٣	٧٧
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين	٨٥	٧٨
خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي	٨٥	٧٩
استعطف أم جعفر بن يحيى للرشيد	٨٨	٨٠
خطبة يزيد بن يزيد الشيباني	٩١	٨١
« عبد الملك بن صالح	٩٢	٨٢
عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ومهنته	٩٣	٨٣
غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح	٩٣	٨٤
قوله بعد خروجه من السجن	٩٦	٨٥
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	٩٧	٨٦
« أخرى له	٩٩	٨٧
كلمات حكيمه لابن السماك	٩٩	٨٨
ابن السماك والرشيد	٩٩	٨٩
الفتنة بين الأمين والمأمون	١٠١	
وفد الأمين إلى المأمون		
خطبة العباس بن موسى	١٠١	٩٠
« عيسى بن جعفر	١٠٢	٩١
« محمد بن عيسى بن نهيك	١٠٢	٩٢

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة صالح صاحب المصلى	٩٣	١٠٣
و المأمون	٩٤	١٠٣
—————		
وصية السيدة زبيدة لعلی بن عيسى بن ماهان	٩٥	١٠٤
« الأمين لابن ماهان	٩٦	١٠٥
استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين	٩٧	١٠٦
حزم طاهر وقوة عزمه	٩٨	١٠٧
طاهر يشد عزمة جنده	٩٩	١٠٨
وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين	١٠٠	١٠٩
وصية الأمين لأحمد بن مزيد	١٠١	١١٠
مقال عبد الملك بن صالح للأمين	١٠٢	١١١
الشغب في جيش عبد الملك بن صالح	١٠٣	١١٢
خطبة الحسين بن علی بن عيسى بن ماهان يدعو إلى خلع الأمين	١٠٤	١١٣
« محمد بن أبي خالد	١٠٥	١١٤
إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة	١٠٦	١١٤
خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين	١٠٧	١١٥
« الأمين وقد تولى الأمر عنه	١٠٨	١١٧
استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون	١٠٩	١١٨
خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين	١١٠	١١٩
—————		
خطب المأمون		١٢٠
خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد	١١١	١٢٠
« وقد سلم الناس عليه بالخلافة	١١٢	١٢٠
« يوم الجمعة	١١٣	١٢١
« يوم الأضحى	١١٤	١٢٢
« يوم الفطر	١١٥	١٢٣
—————		
خطبة ابن طباطبا العاوى	١١٦	١٢٤
استعطاف إبراهيم بن المهدي للمأمون	١١٧	١٢٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
إبراهيم المهدي وبعثيشوع الطيب	١٢٨	١١٨
استعطاف إسحاق بن العباس المأمون	١٢٩	١١٩
أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخولها	١٢٩	١٢٠
أحد أهل الكوفة يمدح المأمون	١٣٠	١٢١
محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون	١٣٠	١٢٢
الحسن بن سهل يمدح المأمون	١٣١	١٢٣
يحيى بن أكرم يمدح المأمون	١٣١	١٢٤
أحد بني هاشم والمأمون	١٣٢	١٢٥
رجل يتظلم إلى المأمون	١٣٢	١٢٦
عمرو بن سعيد والمأمون	١٣٣	١٢٧
الحسن بن رجاء والمأمون	١٣٣	١٢٨
سعيد بن مسلم والمأمون	١٣٣	١٢٩
أبو زهيان يعظ سعيد بن مسلم	١٣٤	١٣٠
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما	١٣٤	١٣١
خطبة عبد الله بن طاهر	١٤٤	١٣٢
العباس بن المأمون والمعتصم	١٤٥	١٣٣
استعطاف تميم بن جميل للمعتصم	١٤٥	١٣٤
بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله	١٤٧	١٣٥
أحمد بن أبي دواد والوائق	١٤٧	١٣٦
ابن أبي دواد والوائق أيضاً	١٤٨	١٣٧
ابن أبي دواد وابن الزيات	١٤٨	١٣٨
الجاحظ وابن أبي دواد	١٤٩	١٣٩
أبو العيناء وابن أبي دواد	١٥٠	١٤٠

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

(ح)	(ا)
الحارث بن عبد الرحمن : ٤٢	ابراهيم بن المهدي : ١٢٥ - ١٢٧
الحسن بن رجاء : ١٣٣	ابن السماك : ٩٩
الحسن بن سهل : ١٣١	ابن طباطبا العلوي : ١٢٤
الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان : ١١٣	ابن عتبة : ٧٧
(خ)	أبو جعفر المنصور : ٢٧ - ٢٧ - ٣٠ -
خالد بن صفوان : ٢٢ - ٢٤ - ٢٥	٤٢ - ٣٣ - ٣٣ - ٢٩ - ٣٢ - ٣١
(د)	أبو زهان العلاني : ١٣٤
داود بن علي :	أبو العباس السفاح : ١٣ - ١٤ - ١
٨ - ١١ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٥ - ١٥	أبو مسلم الخراساني : ٢٠
داود بن عيسى : ١١٥	أحمد بن أبي دواد : ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩
(ر)	إسحاق بن العباس : ١٢٨
الربيع بن يونس : ٤٤ - ٥٩	أم جعفر بن يحيى : ٨٨
(ز)	الأمين : ١١٠ - ١١٠ - ١١٥
السيدة زبيدة : ١٠٤	الأوزاعي : ٤٩
(س)	(ت)
سديف بن ميمون : ٨	تميم بن جميل : ١٤٥
سعيد بن مسلم : ١٣٣	(ج)
سلام (صاحب المظالم) : ٥٥	الجاحظ : ١٤٩
(ش)	جعفر الصادق : ٤٠
شبيب بن شيبه : ٨٠ - ٨١	جعفر بن يحيى البرهكي : ٨٥

الفضل بن العباس ٦٠

(م)

المأمون : ١٠٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣

محمد بن أبي خالد : ١١٤

محمد بن سليمان : ٥٤

محمد بن عبد الملك بن صالح : ١٣٠

محمد بن عيسى بن نهيك : ١٠٢

محمد بن الليث : ٦٩ - ٧٤

مسلم بن قتيبة : ٥٤

معاوية بن عبد الله : ٧٤

معن بن زائدة : ٥٢

المهدي : ٥٥ - ٧٢ - ٧٥

(ن)

النفوس الزكية : ٣٨

(هـ)

الهادي : ٦٤

هرون الرشيد : ٦٦ - ٨٣ - ٨٥

(ي)

يحيى بن أكثم : ١٣١

يزيد بن عمر بن هبيرة : ٥١

يزيد بن مزيد الشيباني : ٩١

يعقوب بن داود : ٧٧

يوسف بن القاسم بن صبيح : ٨١

- تم فهرس أعلام خطب العرب -

(ص)

صالح (صاحب المصلي) : ١٠٣

صالح بن عبد الجليل : ٧٩

صالح بن علي : ١٨ - ٦٨

(ط)

طاهر بن الحسين :

١٠٧ - ١٠٨ - ١١٩ - ١٣٤

(ع)

العباس بن المأمون : ١٤٥

العباس بن محمد : ٦٥

العباس بن موسى : ١٠١

عبد الله بن الحسن : ٣٩

عبد الله بن طاهر : ١٤٤

عبد الملك بن صالح :

٩٢ - ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ - ١١١

عثمان بن خزيم : ٤٣

علي بن عيسى بن ماهان : ١٠٦

علي بن المهدي : ٦٢

عمارة بن حمزة : ٢٦

عمرو بن سعيد : ١٣٣

عمرو بن عبيد : ٤٥

عيسى بن جعفر : ١٠٢

عيسى بن علي : ١٣

(ف)

الفضل بن الربيع : ١٠٩ - ١١٨

ذِيكَ

جَمْعُ خُطْبِ الْعَرَبِ

فِي عِصْوَرِ الْعَرَبِ الزَّاهِرَةِ

ويحوى خمسة أبواب

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربية .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء

فهرس المآخذ

- فتح الطيب ، للمقرى : الجزء الأول - الثانى - الرابع
- مطمح الأنس ، للفتح بن خاقان :
- المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب :
- لمحي الدين بن على - المراكشى
- الإحاطة : فى أخبار غرناطة ، :
- لسان الدين بن الخطيب :
- الأمالى : لأبى على - القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثالث عشر - السابع عشر
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرمى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- أمالى السيد المرتضى : « الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السابع - الثامن
- مروج الذهب : للمسعودى : الجزء الثانى

- الصناعتين : لأبي هلال العسكري :
- بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور :
- سرح العيون : لابن نبأة المصرى :
- سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزى :
- مواسم الأدب للسيد جعفر البيهقى العلوى : الجزء الثانى
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث
- مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

الباب الأول

في

خطب الأندلسيين والمغاربة

١ - خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفهري صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل^(١) ، يوم حربه مع يوسف الفهري^(٢) صاحب الأندلس ، ورأى شدة مُقاساة أصحابه قال :

« هذا اليوم هو أس ما يُبْنَى عليه ، إِمَّا ذلّ الدهر ، وإِمَّا عزّ الدهر ، فاصبرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، ترَبِّحُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون » .

ولما أُنْحَى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قُوطبة قال :

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالشرق ما أصابها ، وتبع السفاح من بقي من بني أمية بالقتل والإهلاك ، فر عبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهمه أن يؤسس هناك دولة أورثها عقبه حقيقة من الدهر ، وهي دولة بني أمية في المغرب من سنة ١٣٨ إلى سنة ٥٤٢ هـ ، وكانت عاصمة ملكها قرطبة ، وهي مدينة على نهر الوادي الكبير .

(٢) يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بن الفيزري ، وأمير معاوية على أفريقيا والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهري الأندلس سنة ١٢٩ فذانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية .

« لا ستأصلوا شأفة^(١) أعداء ترجون صدقاتهم ، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم » - يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين - . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٢ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جنود قنسرين

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قرطبة ، فانتالوا^(٢) عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام ، في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلامٍ سرّهم ، وطيب نفوسهم . وفي بعض مجالسهم هذه مثّل بين يديه رجل من جنود قنسرين^(٣) يستجديه ، فقال له :

« يا بن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فرّرت ، وبك عذت ، من زمن ظلوم ، ودهرٍ غشوم ، قلّل المال ، وكثّر العيال ، وشعث^(٤) الحال ، فصير إلى نداءك المال ، وأنت وليُّ الحمد والمجد ، والمرجوُّ للرفد^(٥) » .
فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقاتلتك ، وقصينا حاجتك ، وأسرنا بعمونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تمودن ولا سواك لثله ، من إراقة ماء وجهك بتصرّيح المسألة ، والإحاف في الطلبة^(٦) ، وإذا ألمّ بك خطب ، أو حزّ بك^(٧) أمر ، فارفعه إلينا في رقة لا تعدوك ، كما نستر عليك خلتك ، ونكفّ شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكنا - - عزّ وجهه - بإخلاص الدعاء ، وصدق النية » .

(١) الشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها ، والأصل ، واستأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .
(٢) انتال : انصب ، أي تتابفوا وتوافدوا عليه . (٣) بالشام .
(٤) شعث الأمر : نشره وفرقه . (٥) الرفد : المعطاء والصلوة .
(٦) للطلبة : الطلب . (٧) أي اشتد عليك ، والخلة الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقه ، وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه . (نفع الطيب ٢ : ٦٨)

٣ — عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سرقسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سَرَقُسْطَةَ^(١) ، وَحَصَلَ في يده ثأرُها الحسين الأنصاري ، وانتهى نصرُه فيها إلى غايةِ أمله ، أقبل خواصُه يهنئونه ، فجرى بينهم أحدٌ من لا يُؤبَهُ به من الجند ، فهنَّأه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن :

« وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ أُسْبِغَ عَلَيَّ فِيهِ النِّعْمَةُ مَنْ هُوَ فَوْقِي ، فَأَوْجِبَ عَلَيَّ ذَلِكَ أَنْ أَنْعِمَ فِيهِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ دُونِي ، لِأَصْلِيَّتِكَ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ سُوءِ النَّكَالِ ، مَنْ نَكُونُ ؟ حَتَّى تُقْبِلَ مُهْنَتًا رَافِعًا صَوْتِكَ ، غَيْرَ مُتَلَجِّجٍ وَلَا مَتَهَيِّبٍ لِمَكَانِ الْإِمَارَةِ ، وَلَا عَارِفٍ بِقِيمَتِهَا ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَخَاطَبُ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ ! وَإِنَّ جِهْلَكَ لِيَحْمِلَكَ عَلَى الْعَوْدِ لِمِثْلِهَا ، فَلَا تَجِدْ مِثْلَ هَذَا الشَّافِعِ فِي مِثْلِهَا مِنْ عَقُوبَةٍ . »

فقال : « ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جلي وذنوبي ، فقتشع لي مق أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيه الله تعالى . »

فهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نهونا على أنفسكم إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها ، ورفع مرتبته وزاد في عطائه . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٤ — تاديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٢) سيء الخلق في أول أمره ، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة ، مُفْرِطُ الْقَلْقِ مِمَّا يُقَالُ فِي جَانِبِهِ ، معاقباً على ذلك من يقدر على معاقبته ،

(١) مدينة على نهر إبرة . (٢) هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هـ .

مكثر التشكى ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فقال ذلك على الأمير ، فأمر
ثقةً من ثقاته أن يبنى بجبل منقطع عن العمران بناءً يُسكن فيه ابنه ، وألاً بدع أحداً
من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر في ذلك المكان ، وبقي وحده ، ونظر إلى ما سلبه
من الملك ، ضجر وقال للثقة : عسى أن يصلنى غلمانى وأصحابى آتس بهم ! فقال له :
إن الأمير أمر ألا يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من
الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك محنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشه^(١)
بمكانه ، فلما وقف الأمير على رفقته ، وعلم أن الأدب بلغ به حقه استدعاه ، فقال له :
« وصلت رقتك ، تشكو ما أصابك من توحش الافراد ، في ذلك الموضع ،
وترغب أن تأتس بمخولك^(٢) وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن
تطول سُكنائك في ذلك المكان ، وما فعلت ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثر
الضجر والتشكى من القال والقيل ، فأردنا راحتك بأن نَحْجُب عنك سماع كلام من
يرفع لك وَيَنِمُّ ، حتى تستريح منهم » .

فقال له : « سماع ما كنت أضجرُ منه ، أخفُّ على من التوحد والتوحش ،
والتخلى مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي » .

فقال له : « فَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ وَتَادَبْتَ ، فَارْجِعْ إِلَى مَا اعْتَدْتَهُ ، وَعَوَّلْ عَلَى أَنْ تَسْمَعَ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ ، وَتَرَى كَأَنَّكَ لَمْ تَرَ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ تَكَاشَفْتُمْ
مَا تَدَاخَلْتُمْ » ، واعلم أنك أقربُّ الناس إلى ، وأحبُّهم في ، وبعد هذا فما يخلو صدرك
في وقت من الأوقات عن إنكارِ على ، وسُخِطَ لما أفعله في جانبك ، أو جانب غيرك ،

(١) ونصر للكتاب : « إني قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد ، وهدمت فيه من
كنت آتس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً للذنب كبير ارتكبته ،
وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فأني صابر على تأديبه ، ضارح إليه في عفوه وصفحه .

وإن أسير المؤمنين وفعله السكندر ، لا عار بما فعل الدهر »

(٢) الخول : مثال الخدم والحشم وزنا ومعنى .

مالو أطلعني الله تعالى عليه لسأني ، لكن الحمد لله الذي حَفِظَ ما بين القلوب بِسِرِّ بعضها عن بعض ، فيما يحول فيها ، وإِنَّكَ لَذُو هِمَّةٍ وَمَطْمَحٍ ، ومن يكن هكذا يَصْبِرُ وَيَقْضِ وَيَحْمِلُ ، وَيَبْدُلُ بالعقاب الثوابَ ، وَيَصِيرُ الأعداء من قبيل الأصحاب ، ويصبر من الشخص على ما يسوء ، فقد يَرَى منه بعد ذلك ما يَسُرُّ ، ولقد يَخِفُّ على اليومَ مَنْ قاسيتُ من فعله وقوله مالو قطعتم عضواً عضواً لما ارتكبوه مني ، ماشفيتُ منهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لاسيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع مَنْ حولي مِمَّنْ يُحْسِنُ وَيُسِيءُ ، فوجدت القلوب متقاربةً بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً ، والحسن يعود مسيئاً ، وصرتُ أُنْذِمُ على من سبق له مني عقاب ، ولا أُنْذِمُ على من سبق له مني ثواب ؛ فالزَمَ يا بني معالي الأمور ، وإنَّ جَماعها في التفاضي ، ومن لا يتفاض لا يسلم له صاحب ، ولا يُقَرَّبُ منه جَانِبٌ ، ولا يَنال ما تترقُّ إليه همته ، ولا يظفر بأمله ، ولا يجد مُعِيناً حين يَحْتَاجُ إليه .

فَقَبَّلَ المنذر يده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده ، حتى تَخَلَّقَ بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ورُفِعَ قدره .
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٧)

هـ — عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك كَتِيباً مُفْرِطاً ، فقال له : حُقَّ لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني ، إن العيون تَمُجُّ التَّيَّاهَ ، والقلوب تَنْفِرُ عنه ، فقال : يا أباي ، لي من العزِّ والنسبِ وعلوِّ المكان والسلطان ما يَجِلُّ^(١) عن ذلك ، وإني لم أر العيون إلا مُقْبِلَةً علىّ ، ولا الأسماع إلا مُصْغِيَةً إلىّ ، وإن لهذا السلطان رَوْتِقاً يُرْبِقُه التبذل ، وعلوًّا يَخْفِضُه الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التَّيَّه والانتباض^(٢) ، وإن هؤلاء الأندال ،

(١) في الأصل : « يجمل » ، وأرى صوابه : « يجمل »

(٢) جرى وذلك هل سنن أي مسلم الحراساني ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تكلوا

الناس إلا رمزاً ، ولا تلاحظوهم إلا شزراً ، لتمل صدورهم من هيبكم » - انظر المعقود المفريد ٢ : ٢٩٩ -

لهم ميزان يَسْبُرُونَ^(١) به الرجل منا ، فإن رأوه راجعاً ، عرفوا له قدر رجاخته ،
وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصبروا تواضعه صبراً ، وتحفّضه خسة » ، قال له أبوه :
لله أنت ! فابق وما رأيت . (نفع الطيب ٢ : ٢٧٩)

٦ - يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له ببال جزيل ، فلما
كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدح آخر ، فقال أحد خدام يعقوب : هذا اللئيم له دين
عندنا يقتضيه ! فقال الأمير :

« يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كرهه ربّ الصنائع ، فاجر على
ما جئلت عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعدي غيره ، وإن هذا رجل قصدنا
قبل ، فكان منا ما أشير^(٢) به ، وحله على العودة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا تخيب
ظنه ، والحديث أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهينة بالعمر ، ونحن نسأل الله
تعالى أن يطيل عمرنا ، حتى يكثر ترداده ، ويُديم نعمنا حتى نجد ما نُنعِم به عليه ،
ويحفظ علينا مروءتنا ، حتى يعيننا على التجمل معه ، ولا يُبلينا بجليس مثلك ، يقبض
أيدينا عن إسداء الأيادي » .

وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبل ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان

(نفع الطيب ٢ : ٢٢٠)

مادام العمر .

(٢) أشير : مرج .

(١) السبر . انتحان غور الجرج .

٧ - وفاة الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ،
ثابتاً على مودته ، فلما قضى الله على هاشم بالأسر ، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن
الأموي^(١) ذِكْرَهُ في جماعة من خُدَّامِهِ ، والوليدُ حاضرٌ ، فنسبه إلى الطيش والعجلة
والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال :

« أصاح الله تعالى الأمير ، إنه لم يكن على هاشم التخثير في الأمور ، ولا الخروج
عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ، ولم يكن
مِلاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، وَنَكَلَ عنه من كان معه ، فلم يُرحزح قدمه
عن موطن حفاظه ، حتى ملك مُقبلاً غير مُدبر ، مُبلياً غير فِشِلٍ ، فجوزى خيراً
عن نفسه وسلطانة ، فإنه لا طريق للام عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب الفُشوم .
وأيضاً فإنه ما قصد أن تجود بنفسه إلا رِضاً للأمير ، واجتناباً لسُخْطِهِ ، فإذا كان
ما اعتمد فيه الرضا جالب التصير ، فذلك معدودٌ في سوء الحظ » .

فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تفنيد هاشم ، وسعى

في تخليصه .
(نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

(١) هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس من سنة ٢٢٨ إلى سنة ٢٧٢ هـ ،
وكان غزاه لأهل الفرنك والخلاف ، ورجعاً أوغل في بلاد الغرسة أشهر أو أكثر يهرق ويهذف ،
وله في العدو رقمة وادى سليط ، وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلاًها في الأندلس قبلها .

٨ - خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١) المتوفى سنة ٣٥٥ هـ

في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله^(٢) ، بلغ من عزّة الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملك الروم والإفرنجية تزددف إليه ، تطلب مهادنته ، وتهدى إليه أنفس الذخائر ، ومن جلتهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية ، فقد رغب في موادعته ، وبعث إليه سنة ٣٣٨ هـ وفداً من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالاً رائعاً ، أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكّر جلالة ملكه ، وعظيم سلطانه ، ونصف ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ووليّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم صنيعة الفقيه محمد بن عبد البرّ بالتأهب لذلك ، وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ، وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم ، بهرّه هولُ المقام ، وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظه ، بل غشى عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي عليّ القالي - صاحب الأملى ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق - : قم فارقع هذا الوهي^(٣) ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكناً متفكراً

(١) ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حادقاً فيه ، شديد المعارضة حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجّة ، ولى بقرطبة قضاء الجماعة - المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة - لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر عاماً من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٥٥ ، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

(٢) هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بني أمية بالأندلس بأمير المؤمنين عندما لاث أمر الخلافة بالشرق ، وغلب موالى الترك هل بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتل مولاه مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ . (٣) الرهي : الشق في الشيء .

في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي - وكان ممن حضر في زُمرَة الفقهاء - قام من ذاته بدرجة من مِرقاته ، فوصل افتتاح أبي عليٍّ لأول خطبته بكلام كان يسَّحُه سَحًّا ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة : فقال :

« أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ، وَالتَّعَدَادُ لآلَائِهِ ، والشكر لِتَعْمَائِهِ ، والصلاة والسلام على محمد صَفِيِّهِ وخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، فإن لكل حَادِثَةٍ مَقَامًا ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال ، وإني قد قمتُ في مقام كريم ، بين يَدَيِ مَلِكٍ عَظِيمٍ ، فَأَصْفُؤْا^(١) إلى مَعَشَرَ الْمَلَأِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَتَقِنُوا عَنِّي^(٢) بِأَفْتَدَتِكُمْ ، إن من الحق أن يقال لِلْحَقِّ صِدْقٌ ، وَلِلْبُطْلِ كَذِبٌ ، وإن الجليل تعالَى في سَمَائِهِ ، وَتَقَدَّسَ في صفاته وَأَسْمَائِهِ ، أَمْرَ كَلِيمَةِ موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وإني أذكركم بأيام الله عندهم ، وَتَلَاْفِيهِ لَكُمْ مَخْلَافَةٌ أمير المؤمنين ، التي لَمَّتْ شَعَنَكُمْ ، وَأَمَنْتَ سِرْبَكُمْ^(٣) ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ومستضعفين فقواكم ، وَمُسْتَدْلِينَ فنصركم ، وَوَلَّاهُ اللهُ رِعَايَتَكُمْ ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضَرَبَتِ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا على الآفاق ، وَأَحَاطَتْ بِكُمْ شَعْلُ النِّفَاقِ ، حتى صرتم في مِثْلِ حَدَاقَةِ البعير ، من ضيق الحال ، ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء^(٤) ، وانتقلتم بيمين سياسته إلى تمهيد كَنَفِ العافية بعد استيطان البلاء .

أُنشِدُكُمْ بِاللَّهِ مَعَاشِرَ الْمَلَأِ ، أَلَمْ تَكُنْ الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَحَقَّنَهَا ، وَالسَّبِيلَ مَخُوفَةً فَأَمَّنَهَا

(١) الذي في كتب اللغة : « أصغى إليه سمعه : أماله ، وأصغى إليه : مال بسمعه نحوه . ولعل زيادة

الهاء في « بأسماعكم » من النسخ لأن الخطيب .

(٢) هكذا في نفع الطيب ، وفي مطبخ الأنفس : « ومنوا على بأفئدتكم » .

(٣) السرب : النفس .

(٤) في الأصل « فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا :

والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشق صدوركم، وصرتهم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم.

فأنشدكم الله، ألم تسكن خلافته قُبل الفتنة بعد انطلاقها من عقابها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكِل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة، وهي محبوبة، وترك الرُّكون إلى الراحة، وهي مطلوبة بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابئة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجدّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غاربٌ إلا جبهه^(١)، ولا نجم^(٢) لأهلها قرنٌ إلا جدّه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، ويلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعاوناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأفضين والأذنين مستخدمةً إليه وإليكم، يأتون من كل فجٍّ عميق، وبلد سحيق^(٣)، لأخذ حبل^(٤) بيته وبينكم جُملةً وتفصيلاً، ليَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، ولن يُخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير قائم « وَعَدَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(١) القارب: السكادل، أو ما بين السنام والمنتق، وجهه: قطعه.

(٢) في الأصل: «نجم» وهو تحريف، والصواب «نجم» أي ظهر وطلع، وجهه: قطعه.

(٣) سحيق: بعيد. (٤) أي معاهدة بينه وبينكم.

في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا» ، وليس في تصديق ما وَعَدَ اللهُ اِرتياب ، ولكل نَبَأٍ مُسْتَقَرًّا ، ولكل أَجَلٍ كِتَابٌ . فاحذوا اللهُ أيها الناس على آلائه ، واسألوه للزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين ^(١) خِلافة أمير المؤمنين - أيده اللهُ بالعِصمة والسداد ، وألهمهُ خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسنَ الناس حالًا ، وأنعمهم بالآ ، وأعزَّهم قرارًا ، وأمنهم دارًا ، وأكثفهم جمعًا ، وأجلهم صنمًا ، لاثهاجون ولا تُدَادون ، وأتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناسحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفَتكم وابن عمِّ نبيكم صلى اللهُ عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومَرَّق من الدين ، فقد خَسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وقد علمت أن في التعلق بِعِصْمَتِهَا ، والتمسك بِعُرْوَتِهَا ، حفظَ الأموال ، وَحَقَّنَ الدماء ، وصلاحَ الخاصة والدَّهْمَاءِ ^(٢) ، وأن بدوام ^(٣) الطاعة تُقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وُصِّيت الأرحام ، وَوَضَّحَت الأحكام ، وبها سَدَّ اللهُ انْخِلَالَ ، وأَمَّنَ السبل ، وَوَطَّأَ الأَكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصِمُوا بما أمركم اللهُ بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وقد علمت ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف المُلْحِدِينَ الساعين في شقِّ عصاكم ، وتفريق مَلَائِكِكُمْ ، الآخذين في مخاذلة دينكم ، وَهتِكِ حَرِيمِكُمْ ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات اللهُ وسلامه عليه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً اللهُ الغفور والرحيم ، فهو خير الغافرين .

(١) هكذا في نفع الطيب ، ومطمح الأنفس ، ولعل صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .

(٢) الدهماء : جماعة الناس . (٣) في الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بقوام » .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان
الناصر أشدهم تعجباً منه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى
محمد بن عيسى القاضي ، فولاه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .
(نفع الطيب ١ : ١٧٢ ، وطمح الأنفس ص ٤٢)

٩ - خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً - وأراد التواضع - فكان من فصول خطبته ،
أن قال :

« حتى متى ، وإلى متى ، أعِظْ ولا أتَعْظِ ، وأزجُرْ ولا أنزجر ، أدلّ الطريق
إلى المستدلين ، وأبقي مقيماً مع الخائرين ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ! إن هي
إلا فتنتك نُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَوَلِيِّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ،
وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ . اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلي بما تكفّلت لي به ،
ولا تحزمني وأنا أسألك ، ولا تعذّبي وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين » .
(نفع الطيب ١ : ٢٧٢)

١٠ - أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر

(المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبي عامر المَعَاوِرِيُّ^(١) يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي الشاعر :

(١) هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك
المعافري . دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وله في الفتح أثر ، وكان
الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبي عامر ، وفوض إليه أموره ، وترقت حاله عنده ، ثم توفى الحكم
سنة ٣٦٦ هـ ، وول بعده ابنه هشام ، وكانت سنة تسع سنين ، فحدث ابن أبي عامر نفسه بالتغلب عليه
لمصر سنة وتم له ما أمل ، فتغلب عليه ، وترجع على سرير الملك ، وأمر أن يجبا بعمية الملوك ، وتسمى

كيف ترى حالك معي ؟ فقال : « فوق قدرى ، ودون قدرك^(١) » ، فأطرق المنصور كالغضبان ، فأنسلَّ الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : أخطأت ! لا والله ، ما يُفليح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضررتى لو قلت له : إني بلغت السماء ، وتمنقتُ بالجوزاء ! وأنشد :

متى يأت هذا الموتُ لا يُلفِ حاجةً لِنَفْسِي إلا قد قَضَيْتُ قضاءها

وكان فى المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة فقال :

« وَصَلَ اللهُ لِمَوْلَانَا الظَّفَرَ وَالسَّعْدَ ، إِنْ هَذَا الصَّنْفُ صَنَفُ زُورٍ وَهَدْيَانِ ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلا^(٢) ولا ذمةً ، كلابٌ من غلب ، وأصحابٌ من أخصب ، وأعداء من أجذب ، وحسبك منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقومٍ الصدقُ يستحسن إلا منهم ؟ » .

* * *

فرغ المنصور رأسه - وكان محامي أهل الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال :

« ما بال أقوام يُشِيرُونَ فى شىء لم يُسْتَشَارُوا فيه ، ويسيتون الأدب بالحكم فيما لا يدرون ، أيرضى أم يسخط ؟ وأنت أيها المبتعث للشرِّ دون أن يُبْعَثَ ، قد علمنا غرضك ، فى أهل الأدب والشعر عامَّةً ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قال القائل :

بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمحاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالنعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه فى السكة والطرر ، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه .

(١) يريد « ودون ما ينبغي أن يعطيه مثلك لثلى » .

(٢) الإل : العهد .

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه
وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسنا إن شاء الله نبلغ أحداً غرضه في أحد ،
ولو بلغناكم بلغنا في جانبكم ، وإنك ضربت في حديد بارد^(١) ، وأخطأت وجه الصواب ،
فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، وإني ما أطرقت من كلام الرمادى إنكاراً عليه ، بل
رأيت كلاماً يجل عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديبه له بسرعة ، واستنباطه له على
قلة من الإحسان الفامر ، مالا يستنبطه غيره بالكثير ، والله لو حكمته في بيوت الأموال ،
لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قابيه ، ذرة . وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام
في شخص ، قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليانا ، ولو أبصرت منا
التغير عليهم ، فإننا لا نتغير عليهم بفضأ لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإننا
من نريد إبعاده لم نظهر له التغير ، بل ننبذه مرة واحدة ، فإن التغير إنما يكون لمن
يراد استبقاؤه ، ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه ، لتفرقتم في أيدي
سبا^(٢) ، وجونبت أنا بجانب الأجر ، وإني قد أطلعتكم على مافى ضميري ، فلا تعدلوا
عن مرضاتي ، فنجبوا سخطي بما جنىتموه على أنفسكم .

* * *

ثم أمر أن يرد الرمادى ، وقال له : أعد على كلامك ، فارتاع ، فقال : الأمر
على خلاف ما قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد
ما تكلم به .

فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان بن المنذر حشاً فم النابغة بالدُّر ، لكلام .

(١) من أشك العرب : « تضرب : في حديد بارد » وهو مثل يضرب لمن طمع في غير مطعم .
(٢) من أشكهم أيضاً : « ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا » ، وليلد : الطريق
أى فرقهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبا في مذاهب مختلفة . ضرب المثل بهم ، لأنه لما غرق مكائهم ،
وهبت جناتهم ، تبددوا في البلاد . انظر القصة في الجزء الأول صفحة ١٠٨ . وقد بنوا أيدي سبا ،
وأيادي سبا على السكون لسكون مركبا تركيب خمسة عشر .

استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يَقْصُرُ عن ذلك ، ماهو أنوهُ وأحسن عائِدَةً ،
وكتب له ببال وَخَلَعَ وموضع يعيش منه ، ثم ردد رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادى
- وقد كان يفوص في الأرض لو وجد ، لشدة ما حلَّ به مما رأى وسمع - وقال :
« وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : الْإِبْتِعَادُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْتِرَابِ ، نَعَمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ
لَيْسَ لَهُ مَفَاخِرُهُ ، يَرِيدُ تَخْلِيدَهَا ، وَلَا أَيَادٍ يَرْغَبُ فِي نَشْرِهَا ، فَأَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ :
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَمْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقَائِنِ السَّمَاحَةُ وَالْبَذَلُ^(١) »
وَأَيْنَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَبْدَاهِ وَمُحْتَضِرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتْ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ^(٢)

أَمَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَكْرَمُ مَنْ قِيلَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلَى ، وَلَكِنْ صُحْبَةُ
الشُّعْرَاءِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ ، أَحْيَتْ غَايِرَ ذِكْرِهِمْ ، وَحَصَّصَتْهُمُ بِمَفَاخِرِ عَصْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ
لَمْ تَخْلُدِ الْأَمْدَاحُ^(٣) مَا تَرَاهُمْ ، فَدَثَّرَ ذِكْرَهُمْ ، وَدَرَسَ نَجْوَاهُمْ .
(نفع الطب ٢ : ٢٢٦)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة في مدح آل هرم بن سنان .

(٢) البيتان لعل بن جبلة الأنباري الملقب بالملكوك من قصيدة قالها في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى
العجل - وكان جواداً مدحاً وفيها يقول :

كل من في الأرض من عرب بين يديه إليه حضرة
ومستعير منه مكرمة يكتسبها يوم مفخرة

وهذا البيتان الأشعريان أحفظا عليه المأمون ، فطلبه حتى ظفر به ، فسل لسانه من فقهه ، ويقال : بل هرب
ولم يزل متوارها منه حتى مات ، قال صاحب الأغاني : « وهذا هو الصحيح من القولين ، والآخر شاذ »

(٣) لم أجد هذا الجمع في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها : « اللدحة بالكسر والمديح والأمدوحة بالضم :
ما يمدح به ، والجمع مدح كعنب ومدائح وأمديح » .

١١ - ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لما مات المعتصم بن صمادح^(١) ملك المرية ركب البحر ابنه وولى عهده الواثق عز الدولة ، وفارق الملك كما أوصاه والده المعتصم .

قال أبو بكر بن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جور الدهر ، حتى اجتمعت ببجاية^(٢) مع عز الدولة بن المعتصم ، فإني رأيت منه خيراً من يُجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة ، وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت حمله ، كما ينم فرند^(٣) السيف وكرمه من تحت الصدا ، مع حفظه لفتون الأدب والتواريخ ، وحسن استماعه وإسماعه ورقة طباعه ، ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرت له لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ، ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلى أن أستأذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال :

« يا أبا بكر ، إنك لتعلم أننا اليوم في حمول وضيق ، لا يتسع لنا معهما ، ولا يحمل بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيما مع ذى أدب ونباهة ، يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنة التفضل في زيارتنا ، ونكابد من ألقاظ توجعه ، وألحاظ تفجعه ، ما يجدد لنا همماً قد بلى ، ويحبي كمداً قد فني ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى عن همنا ، فدعنا كأننا في قبر ، تتدرع لسهام الدهر ، بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخر ، فكأننا لم نكشف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا نحمل غيرك بحملك » .

(١) هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المرية « بلد بالأندلس على الساحل الجنوبي » ، وكان منافساً للمعتصم بن مهدي صاحب إشبيلية مناونا له ، وقد سعى به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأفسد ما بينهما ، وكان ابن عباد قد استنصر بابن تاشفين لصد غارة الإسبان ، فعبه بجيشه من مراكش إلى الأندلس ، وأبلى بلاء حسناً في قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة في وقعة الزلاقة ، ثم مال على ملوك الطوائف ، فاكتسح دولهم ، ودانت له الأندلس . (٢) بجاية : بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر . (٣) جوهره .

قال ابن اللبابة : فلأ والله سمى بلاغةً لاتصدُر إلا عن سداد ، ونفسٍ أبية متمكنة من أعنة البيان ، وانصرفت متملاً :

لسانُ الفتى نصفٌ ، ونِصفُ فؤاده فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدمِ
وكانت ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتهُ أو نقصه في التكلم^(١)
(نفع الغيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ - دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى

بحضرة ابن تاشفين

لما تألب بنو حسون على القاضي أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة^(٢) ، انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصد إلى حضرة الإمامة «مراً كُش» ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد غصَّ بأربابه ، فقال :

« إنه لَمَاقم كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوِّ منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابة نجوم الليل البهيم^(٣) ، أما بعد ، فإننا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفى نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دَهِمنا^(٤) فى حِمَاك ، ونَبِّئُ إليك ما لحقنا من الضيم ، ونحن تحت ظلِّ علاك ، ويأبى الله أن يُدْهِم من احتفى بأمر المسلمين ، ويصَابُ بضمٍّ من أدْرَع بِحصنه الحصين ، شكوى قت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عَضَدَه^(٥) مؤيِّده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنفُده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدَّمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت

(١) البيتان لزهير بن أبى سلمى من معلقته . (٢) باد بالأندلس على الساحل الجنوبى .

(٣) الأسود . (٤) دمه كسمع ومنع : غشيه .

(٥) عضده كنصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسون ، والمعنى : إن بنى حسون - وكانوا

أحق بتأييد أمرك وتوطيده - قد أوهتوه وأوهوه بتمرغهم لأحكام القاضى ، والظعن فيها ، أو معنى

عضده : نصره ، فالمراد بمؤيده القاضى الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن القاضى للقائم بأمرك يداب على

نصره ، وتلبيت دعائه ، بانتهاجه طريق الحق فى حكمه ، ولو غضب من جراء ذلك فربح من الرعية .

بعده فممن بها من الخاصة والعمام ، لم يزل يدلّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ،
وَيُرْضِي اللهُ تَعَالَى وَيُرْضِي النَّاسَ بظاهره وسريره ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سُوءٍ ، وَلَا
دَرَيْنَا لَهُ مَوْقِفٌ خِزْيٌ ، ولم يزل جارياً على ما يُرْضِي اللهُ تَعَالَى ويرضيك ويرضينا ، إلى
أن تعرضت بنو حسون للطعن في أحكامه ، والهدّ من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام
المقدّم راجع على المقدّم ، بل جمحوا في لجأهم ، فعموا ووصموا ، وفعلوا وأمضوا ما به
همّوا ، وإلى الشُّحْبِ يَرْفَعُ الكَفَّ مِنْ قَدَجَفَّ عَنْهُ مَسِيلُ عَيْنٍ وَنَهْرٌ .

فلا سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه . (نفع الطيب ٢ : ٢٤٠)

١٣ - موعظة ابن أبي رندة الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

للأفضل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رندة الطرطوشي^(١) مرة على الأفضل^(٢) بن أمير الجيوش

فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان قبلك ،
وهو خارجٌ عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله
عزّ وجلّ سائلك عن النّقيير والتقطير والفتيل^(٣) ، واعلم أن الله عزّ وجلّ آتِي سليمان بن داود

(١) هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي
(بضم الطاءين) ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بابن أبي رندة
وكان زاهداً حابداً متورعاً متقللاً من الدنيا قوالاً للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ،
وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرمه ، فلما ولي بعده المأمون بن البطائحي
أكرم الطرطوشي إكراماً كبيراً ، وله ألف الشيخ «سراج الملوك» وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجمالي حاكم حكا ، فأرسل
إليه الخليفة الفاطمي المنتصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذلك ، فقدم إليها ، وتولى
شئونها ، وأقام موعظاً ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لابنه الأفضل .

(٣) النقيير : المنفرة التي في ظهر النواة ، والتقطير : القشرة الرقيقة التي بين النواة والتمرّة ، والفتيل :

ما يكون في شق النواة .

مُلْك الدنيا بحدّ أفيرها ، فسخرّ له الإنس والجِن والشياطين والطيور والوحوش والبهائم ، وسخرّ له الريح تجرى بأمره رُخاء^(١) حيثُ أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عزّ من قائل : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ^(٢) أَوْ اْمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فاعدّ ذلك نعمة كما عدّ ذمّوها ، ولا حسيبها كرامةً كما حسبتُموها ، بل خاف أن يكون استدرأجاً من الله عزّ وجلّ فقال : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي^(٣) أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ، فافتَح الباب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم . (نفع الطب ١ : ٢٦٢)

١٤ - خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

(التوفي سنة ٥٣٤ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تومرت^(٤) مؤسس دولة الموحدين أصحابه ، قبل موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن عليّ ، فلما حضروا بين يديه قام :

(١) الرخاء : الريح اللينة . (٢) أي فأعط منه من شئت . (٣) بلاه : اعتبره .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن تومرت من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ، ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي ، ثم رجع إلى المغرب ، وقامت دعوته في أول الأمر في صورة أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتبعه بعض القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع في التدريس والدعاء إلى الخير : وما زال يستميل القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ، ادعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدي ، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وادعى أنه من نسل الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، وصرح بدعوى العصبة لنفسه وأنه المهدي للمصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي ، فبايعوه على ذلك ، ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً - وكانت مراکش تحت إمرة المرابطين - فقال : اقتصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسعوا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إمامة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن عليّ ، فخرجوا إلى مراکش فلقبهم المرابطون قريباً منها بجيش ضخم أميرهم الزبير بن عليّ بن يوسف بن قاشفين ، فدعوهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت فردوا عليهم أسوأ رد ، ثم التقت الفتنان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرر في نفوسهم أن قتلهم شهداء ، لأنهم ذابون -

فحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ
أَنْشَأَ يَتْرَضِي عَنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَذَكُرُ مَا كَانَ مِنْهُ عَلَيْهِ مِنْ
التَّيَبَاتِ فِي دِينِهِمْ ، وَالْعَزِيمَةِ فِي أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةٌ لَأْتُمْ ،
وَذَكَرَ مِنْ حَدِّ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابْنَهُ فِي الْحَمْرِ ، وَتَصْمِيمِهِ عَلَى الْحَقِّ ، فِي أَشْبَاهِ هَذِهِ
الْفُصُولِ ، ثُمَّ قَالَ :

فَانْقَرَضَتْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ ، نَضَّرَ اللهُ وَجُوهَهَا ، وَشَكَرَ لَهَا سَعِيمَهَا ، وَجَزَاها خَيْرًا عَنْ
أُمَّةٍ نَدِيهَا ، وَخَبَطَتِ النَّاسَ فِتْنَةٌ تَرَكْتَ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ ، وَالْعَالِمَ مُتَجَاهِلًا مُدَاهِنًا ، فَلَمْ
يَنْتَفِعِ الْعُلَمَاءُ بِعِلْمِهِمْ ، بَلْ قَصَدُوا بِهِ الْمُلُوكَ ، وَاجْتَلَبُوا بِهِ الدُّنْيَا ، وَأَمَالُوا وَجُوهَ النَّاسِ
إِلَيْهِمْ ، فِي أَشْبَاهِ هَذَا الْقَوْلِ ، إِلَى هَلْمٍ جَرًّا .

ثُمَّ إِنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ - وَهُوَ الْحَمْدُ - مِنَّْ عَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الطَّائِفَةُ - بِتَأْيِيدِهِ ، وَخَصَّكُمْ
مِنْ بَيْنِ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ بِحَقِيقَةِ تَوْحِيدِهِ ، وَقِيَّضَ^(١) لَكُمْ مَنْ^(٢) أَلْفَاكُمْ ضَلَالًا لَا تَهْتَدُونَ ،
وَعُمِيًّا لَا تَبْصُرُونَ ، لَا تَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلَا تُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، قَدْ فَشَّتْ فِيكُمْ الْبِدْعُ ،
وَاسْتَهْوَتْكُمْ الْأَبْطِيلُ ، وَزَيَّنَ لَكُمْ الشَّيْطَانُ أَضَالِيلَ وَتُرَاهَاتٍ^(٣) ، أَنْزَلَهُ لِسَانِي عَنْ
النُّطْقِ بِهَا ، وَأَرَبًا^(٤) بَلْفُظِي عَنْ ذِكْرِهَا ، فَهَذَا كَمِ اللهُ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ، وَبَصَّرَكُمْ بَعْدَ
الْعَمَى ، وَجَمَعَكُمْ بَعْدَ الْفُرْقَةِ ، وَأَعَزَّكُمْ بَعْدَ الْفَلَّةِ ، وَرَفَعَ عَنْكُمْ سُلْطَانَ هَؤُلَاءِ الْمَارِقِينَ^(٥) ،
وَسَيُورِثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، ذَلِكَ بِمَا كَسَبْتَهُ أَيْدِيَهُمْ ، وَأَضْمَرْتَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَمَا رَبُّكَ
بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ .

- عَنْ دِينِ اللهِ ، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ بَعِيرَةً فِي أَمْرِهِمْ ، وَحِرْصًا عَلَى لِقَاءِ حُدُودِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَشْتُونَ الْغَارَاتِ عَلَى نَوَاحِي
مَرَاكِسٍ وَيَقْتُلُونَ وَيَسْبُونَ وَلَا يَبْقُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ الدَّاخِلُونَ فِي طَاعَتِهِمْ ، وَلَمْ يَزَلْ
أَصْحَابُهُ ظَاهِرِينَ ، وَأَحْوَالُ الْمُرَابِطِينَ تَحْتَلُّ ، وَانْتِقَاضُ دَوْلَتِهِمْ يَتَزَايِدُ ، إِلَى أَنْ تَوَفَّى ابْنُ مَوْمَرٍ سَنَةَ ٥٣٤ هـ
بَعْدَ أَنْ أُسِسَ الْأُمُورُ ، وَأَحْكَمَ التَّدْبِيرُ ، وَقَامَ بِأَمْرِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ بَعْدِهِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ . وَقَدْ اسْتَوْثَقَ لَهُ
الْأَمْرَ بِمَوْتِ عَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ مَلِكِ الْمُرَابِطِينَ سَنَةَ ٥٣٧ هـ .

(١) أتاح لكم وسبب وهياً . (٢) يعنى نفسه . (٣) جمع ترهة : وهى الباطل .

(٤) أرتقع . (٥) يريد المرابطين .

لقد حو الله سبحانه خالص تياتكم ، وأرؤه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزَكِّي به
سعيكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر أمركم ، واحضروا الفرقة واختلاف الكلمة ، وشتات
الآراء ، وكونوا بدأ واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس ،
وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثر أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا
تتملكم الذل ، وعممكم الصغار^(١) واحتقرتكم العامة ، فتخطفكم الخاصة ، وعليكم
في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح
أمر آخر هذه الأمة ، إلا على الذي صلح عليه أمر أولها .

وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلّوناه^(٢) في جميع
أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سيرته وعلايته ، فرأيناه في ذلك كله
ثباتاً^(٣) في دينه ، متبصراً في أمره ، وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار
إليه هو : « عبد المؤمن » ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدّل
أو نكص على عقبه ، أو ارتاب في أمره ، ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة وخير
كثير ، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت .

(المعجب ، في تاريخ أخبار المغرب ص ١٠٨)

١٥ - مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)

في الحَضِّ عَلَى الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب^(١) في الحَضِّ عَلَى الجهاد^(٢) :

« أيها الناس - رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى - :

إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَمَّ العَدُوُّ - قَصَهُ اللهُ تَعَالَى - ساحتهم ،
ورام الكفر - خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى - استباحتهم ، وَزَحَفَتِ أَحْزَابُ الطَّوَاغِيَتِ إِلَيْهِمْ ،
وَمَدَّ الصَّلِيبُ ذِرَاعَيْهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَيْدِيكُمْ - بَعِزَّةُ اللهُ تَعَالَى - أَقْوَى ، وَأَتَمَّ الْمُؤْمِنُونَ
أَهْلُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَهُوَ دِينُكُمْ فَانصُرُوهُ ، وَجِوَارُكُمْ الْقَرِيبَ فَلَا تُخْفَرُوهُ^(٣) ، وَسَبِيلَ
الرَّشْدِ قَدْ وَضَحَ فَلَتُبْصِرُوهُ ، الْجِهَادَ الْجِهَادَ فَقَدْ تَعَيَّنَ ، الْجَارَ الْجَارَ فَقَدْ قَرَّرَ الشَّرْعُ
حَقَّهُ وَبَيَّنَّ ، اللهُ اللهُ فِي الإِسْلَامِ ، اللهُ اللهُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، اللهُ اللهُ
فِي الْمَسَاجِدِ الْمَعْمُورَةِ بِذِكْرِ اللهِ ، اللهُ اللهُ فِي وَطَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَدْ اسْتَعَاثَ بِكُمْ
الدِّينَ فَأَعِيشُوهُ ، قَدْ تَأَكَّدَ عَهْدَ اللهِ وَحَاشَاكُمْ أَنْ تَنْكُثُوهُ ، أَعِينُوا إِخْوَانَكُمْ بِمَا أَمَكَنَ
مِنَ الإِعَانَةِ ، أَعَانَكُمْ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، جَدِّدُوا عَوَائِدَ الْخَيْرِ ، يَصِلِ اللهُ تَعَالَى

(١) هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أديب الأندلس ، ولد بقرنطة سنة ٧١٣ ، وكان أول أمره في عداد كتّاب السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوض إليه شؤون مملكته ، ولما مات أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد أقره عاد الوزارة ، ثم وثب إسماعيل أخو السلطان على مملكته ، فاضطر أن يفادته إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى مملكته ، وبقى مدة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلاميذ لسان الدين ثم عاد لسان الدين إلى قرنطة ، وحل مكانه من سلطانه ، فألب ذلك ناز الحسد في ابن زمرك وأذصاره ، فسعوا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب - وكان في حوزة بني مرين ، وهم من البربر - حكموا المغرب بعد الموحدين من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ - فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فيصم إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بني مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بني الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتم له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بغاس ، ونظر في كلمات له في كتابه «الحجة» وأقن الفقهاء بقتله ، فدمس عليه من خنفة في سجنه سنة ٧٧٦ .

(٢) وكان سلطانه محمد بن أبي الحجاج أسفره إلى ملوك بني مرين يستجدهم على الإسمان .

(٣) أخفزه : غدر به ونقض عهده .

لكم جميل العوائد ، صلوا رَحِمَ الْكَلِمَةِ^(١) وأسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائفِ
المُسَلِّمَةِ ، كتابُ الله بين أيديكم ، وألْسِنَةُ الآياتِ تُنادِيكم ، وسنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم قائمةٌ فيكم ، والله سبحانه يقول فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ » ، وما صحَّ عنه قوله : « من أُعْبِرَتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ » « لا يجتمع غُبارٌ في سبيلِ اللَّهِ وَدُحَانُ جَهَنَّمَ » ، « من جَهَّزَ غَازِيًا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا » أدركوا رَمَقَ الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ ، بادِرُوا عَليلاً الإِسْلَامِ قَبْلَ
أَنْ يَمُوتَ ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته ، جاهدوا في الله
بالألسن والأقوال حقَّ جِهَادِهِ :

ماذا يكون جوابكمُ لِنَبِيِّكُمُْ وطريقُ هذا العُذْرِ غيرُ مُمَهَّدِ
إن قالَ : لمُ فَرَطْتُمُو فِي أُمَّتِي وتركتموهمُ للعدوِّ المعتدى ؟
تالله لو أن العقوبة لم تُخَفْ لكفى الحياء من وجه ذلك السيد

اللهم اعطف علينا قلوبَ العباد ، اللهم بُثْ لنا الحَيَّةَ في البلاد ، اللهم دافع عن
الحرِّيمِ والضعيفِ والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائنا ، بأحبابنا وأوليائنا ،
ياخير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبراً ، وثبَّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(نفع الطيب : : ٢)

١٦- ما خاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني

وخاطب لسان الدين بن الخطيب تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
لما قصدتها عقب ما شرع في جواره ، فقال :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذي عرف فضله الإسلام ،
وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وخفقت بعز نصره الأعلام ، وتنافست في إنفاذ أمره

(١) أى كلمة التوحيد .

وهيه السيوفُ والأفلامُ، السلام عليك أيها الموالى الذى قَسَمَ زمانه بين حُكْمٍ فَصَلَ
وإمضاء نَصَلٍ ، وإحراز خَصَلٍ^(١) ، وعبادة قامت من اليقين على أصل ، السلام عليك
يا مقرّر الصدقاتِ الجارية ، ومُشيع البطونِ الجائعة ، وكاسي الظهورِ العارية ، وقادِحَ
زنادِ العزائمِ الوازية ، ومكْتَبِ الكُتائبِ الغازية ، فى سبيلِ الله تعالى والسَّرَايَا^(٢)
السارية ، السلام عليك يا حُجَّةَ الصبرِ والتسليم ، ومتلّقَى أمرِ الله تعالى بأخلاقِ المرصِيّ
والقلبِ السليم ، ومفوضِ الأمرِ فى الشدائدِ إلى السميعِ العليم ، ومُعْمِلِ البَنانِ الطاهرِ
فى اكتتابِ الذكرِ الحكيم ، كَرَّمَ اللهُ تعالى تُرْبَتَكَ وَقَدَّسَهَا ، وطَيَّبَ رُوحَكَ الزَكِيَّةَ
وآنَسَهَا ، فلقد كنت للدهرِ جَمَالاً ، وللإسلامِ ثَمَالاً^(٣) ، وللمستجيرِ مُجِيراً ، وللمظلومِ
ولياً ونصيراً ، لقد كنت للمحاربِ صَدْرًا ، وفى المواقبِ بَدْرًا ، وللموهابِ بَحْرًا ،
وعلى العبادِ والبلادِ ظِلًّا ظليلاً وَسِتْرًا ، لقد فَرَعْتَ^(٤) أَعْلَامَ عِرْكَ الثنايا ، وأجزلتُ
هَمَّتِكَ لملوكِ الأرضِ الهدايا ، كأنك لم تُعْرِضِ الجنودِ ، ولم تُنْشُرِ البُنودِ^(٥) ، ولم تبسُطِ
العدلِ المحدودِ ، ولم تُوجِدِ الجودِ ، ولم تُزَيِّنِ الرُكْعَ السُّجُودِ ، فتوسَّدتِ الثرى ، وأطَلَّتِ
الكَرَى ، وشربتِ الكأسِ التى يشربها الوَرَى ، وأصبحتِ ضارِعَ^(٦) الخدِّ ،
كليلِ الخدِّ ، سالكاً سَنَنَ الأبِ والجدِّ ، لم تُجِدْ بعد انصرامِ أجلك ، إلا صالحَ عملك ،
ولا صَحِبْتَ لِقَبْرِكَ ، إلا رابِحَ تَجْرِكَ^(٧) ، وما أسلفتِ من رضاك وَصَبْرِكَ ، فنسألُ الله
تعالى أن يُؤنِسَ اغترابَكَ ، ويجودَ بسحابِ الرحمةِ تُرابِكَ ، وينفعك بصدقِ اليقين ،
ويحملك من الأئمةِ المُتَّقِينَ ، وَيُعَلِّيَ دَرَجَتَكَ فى عَلِيَّينِ^(٨) ، ويحملك مع الذين أنعم اللهُ
عليهم من النبيين والصدِّيقين .

(١) الحصل : الغاية فى النضال . (٢) السرايا : جمع سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثمانمائة أرا ربعانة .

(٣) الثمال : الثبات الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) فرعت : علت ، والثنايا : جمع نثية كهودية ، وهى العقبة ، أو الجبل ، أو الطريقة فيه .

(٥) البنود جمع بند كشمس : وهو العلم الكبير .

(٦) ذليل . (٧) تاجر تجراً وتجارة .

(٨) اسم لأهل الجنة ، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير .

وَأَيُّهَا أَنْ صَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نَيْرِ سَعْدِكَ ، وَبَارِقِ رَعْدِكَ ،
وَمُنْجِزِ وَعْدِكَ ، أَرْضِي وَلَدِي ، وَرَيْحَانَةَ خَلْدِكَ (١) ، وَشِقَّةَ (٢) نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ
مِنْ غَرْسِكَ ، وَنُورِ شَمْسِكَ ، وَمَوْصِلِ عَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَعْوَاتِكَ
فِي خَلْقَاتِكَ ، وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَلِمَتُكَ - وَاللَّهَ اللَّهُ تَعَالَى - بَاقِيَةٌ ، وَحَسَنَتُكَ إِلَى مَحَلِّ
الْقَبُولِ رَاقِيَةٌ ، يَرَعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتِمُّ مَقَاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرَّةِ رِضَاكَ
عَلَى مَا قَلَّدَهُ ، وَعَمَّرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ،
وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عُدَدَهُ .

وَإِنِّي أَيُّهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ ، لَمَّا اشْتَرَانِي ، وَرَاشِي (٣) وَبَرَّانِي ،
وَتَعَبَّدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِخْلَاصِي حَظَّ بِنَانِهِ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مِكَافَأَةً
إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلَيْهِ بَرِّيَاتِكَ ، وَإِعْرَافَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عَلَيَّائِكَ ، وَتَعْفِيرِ الْوَجْنَةِ
فِي حَرَمِكَ ، وَالْإِشَادَةَ بِعَدَمِ الْمَاتِ بِمَجْلَدِكَ وَكِرْمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْفَرْضِ ،
إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمُفْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَاتَّصَلَّتِ الْعُقَلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَمَادَتْ ، فَمَا يَبَسَتْ
الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مُتَحَيِّزًا بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادئًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ
رِحْلَةُ الْغُرْبِ ، مَا نُوَيْتَهُ مِنْ رِحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَأَقَطَعَهُ أَثَرُ مَوَاقِعِ الْاسْتِحْسَانِ
وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّنَوُّبِ وَالإِحْسَانِ ، وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ
مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَعَمَّدُ مِنْ ضَاجِعَتِهِ مَنْ سَأَلَكَ الْكِرَامَ بِالْمَغْفِرَةِ الصَّيِّبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ
الطَّيِّبَةِ ، فَانْعَمَ الْمُلُوكُ الْكِبَارُ ، وَالخُلَفَاءُ الْأَبْرَارُ ، وَالأَئِمَّةُ الْأَخْيَارُ ، الَّذِينَ كَرُمَتْ مِنْهُمْ
السَّيْرُ وَحَسُنَتْ الْأَخْبَارُ ، وَسَعِدَ بَعِزْمَاتُهُمُ الْجِهَادِيَّةُ الْمُؤْمِنُونَ وَشَقِيَ الْكُفَّارُ ، وَصَلَوَاتُ
اللَّهِ تَعَالَى عَوْدًا وَبَدَأً ، عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ فَهُوَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ ، وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ السَّادَةُ الْأَبْرَارُ ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا .

(نفع الطيب : : ١٣٥)

(١) الخلا : النفس والقلب . (٢) الشقة : نصف الشيء إذا شق ، والسرحة : الشجرة العظيمة .

(٣) راش السهم : ألزقه عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

١٧ - وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذى لا يُرَوِّعُهُ الحِمَامُ المَرْقُوبُ ، إِذَا شِمْ (١) نَجْمُهُ المَقْبُوبُ ، وَلَا يَبِغْتَهُ الأَجَلُ المَكْتُوبُ ، وَلَا يَفْجَؤُهُ الفِرَاقُ للعتوب ، مُلْهِمِ الهدى الذى تَطْمِئُنُّ بِهِ القلوب ، وَمَوْضِحِ السبيلِ المَطْلُوبِ ، وَجَاعِلِ النصيحةِ العريضة من قِسمِ الوجوب ، لاسِيَّما لِلوَلِيِّ المَحْبُوبِ ، وَالوَلَدِ المَنْسُوبِ ، القائلِ فى الكتابِ المَعْجِزِ الأَسْلُوبِ : « أَمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ (٢) » ، « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ (٣) » ، وَالصلاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ رَسولِهِ ، أَكْرَمِ مَنْ زُرَّتْ عَلَى نُورِهِ جُيُوبُ الغيوبِ ، وَأَشْرَفِ مَنْ خُلِقَتْ عَلَيْهِ حُلُلُ المَهَابَةِ وَالعِصْمَةِ ، فَلَا تَقْتَحِمُهُ العيونُ ، وَلَا تَصِيهُ العيوبُ (٤) ، وَالرِضَاعِ عَنِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ المُنَابِرِينَ عَلَى لِسَانِ (٥) الاستقامةِ بِالهُوىِ المَطْلُوبِ ، وَالأَمَلِ المَسْلُوبِ ، وَالإقْتِدَاءِ المَوْضِلِّ إِلَى المَرْغُوبِ ، وَالعِزِّ وَالأَمْنِ مِنَ اللُّغُوبِ (٦) ، وَبَعْدَ : فَإِنِّي لِمُسَاعِلَانِي المَشِيبِ بِقِمَّتِهِ (٧) ، وَقَادِنِي الكَبِيرِ بِرِمْتِهِ (٨) ، وَأَدَّ كَرَّتُ الشَّبَابِ

(١) من شام البرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يطر .

(٢) وتام الآية الكريمة :

« إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

(٣) وتام الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ،

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(٤) تزدرية وتحقره ، ووصفه : جاهه . (٥) اللسان : الرسالة .

(٦) اللغوب : أشد الإعياء . (٧) القصة : أعلى كل شيء .

(٨) الرمة بالضم ويكسر : قطعة من جبل .

بعد أمته^(١)، أسفّت لما أضعتُ، وَندِمْتُ بعد النِطَامِ على ما رَضَعْتُ، وتأكّدَ وجوبُ نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلّق بعيني سعيه، وأمّأتُ أن تتعدّى إلى ثمرة استقامته، وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك - وعسى ألا يكون ذلك - على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد^(٢) بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يئنّ علىّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلّف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو وليّ ذلك، والهادي إلى خير المسالك: اعلّموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضلال، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قرّبه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشمال، أني مؤدّعكم وإن سالمني الردى، ومُفارقكم وإن طال المدى، وما عدّا يمّا بدا، فكيف وأدوات السفر تُجمع، ومنادى الرحيل يُسمع، ولأقلّ للحبيب الودّع، من وصية مُحضّر، وعجالة مقتصر، ورّثيمة^(٣) تُقعّد في خنصر، ونصيحة تكون نسيده وإيع مُبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى، وتوضّح لكم من الشفقة والحنوّ قصدي، حسبما تضمّن وعدّ الله من قبل وعدي، فهي أربكم الذي لا يتغيّر وقفه، ولا ينالكم الكروه مارفّ عليكم سقفه، وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب^(٤) من العسل، ونُصول^(٥) الشيب تروّع بأسل، لا بل السام^(٦) من كل حدبٍ قد نسل، والمعاد

(١) الأمة هنا: الحين، اقتبس من قوله تعالى: « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .

(٢) الخلد: القلب والنفس .

(٣) الرثيمة: خيط يعقده في الأصبع لتذكير .

(٤) الصاب: عصارة شجر مر . (٥) النصول جمع نصل: وهو حديدة الرمح والسيف .

والأسل: الرماح . (٦) السام: الموت: والحدب: ما ارتفع من الأرض، ونسل كضرب: أسرع والمعاد: المرجع .

اللحْدُ وَلَا تَسَلْ ، فَبِالْأَمْسِ كُنْتُمْ فِرَاحَ حِجْرٍ ^(١) ، وَالْيَوْمَ أَبْنَاءُ عَسْكَرٍ مَجْرٍ ، وَغِلْمًا شَيْخٍ مَضْمُوعَةٍ وَهَجْرٍ ، وَالْقُبُورُ قَافِرَةٌ ^(٢) ، وَالنَّفُوسُ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ صَافِرَةٌ ، وَالدُّنْيَا بِأَهْلِهَا سَاحِرَةٌ ، وَالْأَوْلَى تَعْقُبُهَا الْآخِرَةُ ، وَالْحَازِمُ مَنْ لَمْ يُتَعَطَّ بِهِ فِي أَمْرٍ ، وَقَالَ : « بِيَدِي لَا يَبِيدُ عَمْرُو ^(٣) » ، فَاقْتَنَوْهَا مِنْ وَصِيَّةٍ ، وَمَرَامٍ ^(٤) فِي النَّصْحِ قَصِيَّةٍ ، خُشُوا بِهَا أَوْلَادَكُمْ إِذَا عَقَلُوا ، لِيَجِدُوا زَادَهَا إِذَا اتَّقَلُوا ، وَحَسْبِي وَحَسْبُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ هَمَلًا ، وَلَكِنْ لِيَبْلُغُوهُمْ أَهْمُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا مَنْزِلًا ، وَلَا لَطَفَ يَمُنْ أَصْبَحَ عَنْ فِتْنَةِ الْخَيْرِ مُنْعَزِلًا ، وَلِتَلْقَنُوا تَلْقِينًا وَتَعَلَّمُوا عِلْمًا يَقِينًا ، أَنْكُمْ لَنْ تَجِدُوا بَعْدَ أَنْ أَنْفَرَدَ بَدْنِي ، وَيَفْتَرِشَ التَّرَابَ جَنِي ، وَيَسُحَّ انْسِكَابِي ، وَتَهْرُولَ عَنِ الْمَصَلِّي رَكَابِي ، أَحْرَصَ مَنْ عَلَى سَعَادَةٍ إِلَيْكُمْ تُجَلَّبُ ، أَوْ غَايَةِ كَمَالٍ بِسَبَبِكُمْ تُرْتَادُ وَتُطَلَّبُ ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَوْرَفٌ ^(٥) مِنْكُمْ ظِلًّا ، وَلَا أَشْرَفٌ مَحَلًّا ، وَلَا أَعْبَطُ نَهَلًّا وَعَلًّا ^(٦) ، وَأَقْلُ مَا يَوْجِبُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُصَيِّخُوا ^(٧) إِلَى قَوْلِي الْآذَانَ ، وَتَسْتَلْجُوا

(١) أي كالفرّاح في حِجْر أمها وحضنها ، والمجر : الكثير من كل شيء ، وجيش مجر : كثير جدا .

(٢) أي فائمة أفواها للموق .

(٣) هو مثل قاطعه الزبّاء ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جديمة قد قتلته - فاحتال مولاه قصير لثأر

الفرات إلى زواجها . فلما استقر عندها قتلته ثأراً بأبيها - وكان جديمة قد قتلته - فاحتال مولاه قصير لثأر عنها ، فجدع أنفه وآثر آثاراً يظهره ، ثم خرج إلى الزبّاء ، وأظهر أن عمرو بن هدي - ابن أخت جديمة - فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جديمة وغره من الزبّاء ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها أن تبيته إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثيابها وطيبها ، وأنها ستصيب في ذلك أرباحاً عظيماً ، فأذنت له وقدم العراق ، وأقى الحيرة متنكراً ، وزوده عمرو بصنوف البز والأمتعة ، ورجع إلى الزبّاء ، فأعجبها ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهازته ثأية ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد الثالثة وجمع ثقات رجال عمرو ، وحلهم في الغرائر على الجمال ، وصار إلى الزبّاء ، ودخلت الإبل المدينة وكانت الزبّاء قد حذرت عمراً ، واتخذت نفقاً إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فجأني أمر دخلت النفق إلى حصن - ودل قصير عمراً على باب النفق ، فلما خرجت الرجال من الغرائر صاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الزبّاء تريد النفق ، فأبصرت عمراً ففرقت بالصورة التي صورت لها - فصت خاتمها وكان فيه السم ، وقالت : « بيدي لا يبيد عمرو » فذهبت مثلاً ، وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعاً إلى العراق .

(٤) مرام جمع مرمى ، وقصية بييدة .

(٥) ورف الظل : اتسع وطال وامتد .

(٦) النهل : الشرب الأول ، والمعل والمعلل : الشرب الثاني أو الشرب بعد الشرب تباها .

(٧) أصاخ له استمع .

صُبْحَ نُصْحِي فَقَدْ بَانَ ، وَسَاعَيْدِ عَلَيكُمْ وَصِيَّةُ لُقْمَانَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ :
 « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ -
 يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ
 إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ^(١) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ
 أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » وَأَعِيدِ وَصِيَّةَ خَلِيلِ اللَّهِ وَإِسْرَائِيلَ حُكْمًا^(٢)
 مَا تَضَمَّنَهُ حُكْمُ تَنْزِيلِهِ « يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَضْطَفَنِي لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمْوُنَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ » والدين الذي ارتضاه واصطفاه ، وأكملَه ووفَّاه ، وقرَّره مُصْطَفَاهُ ، من قبل
 أن يتوفَّاه ، إذا أُعْمِلَ فِيهِ انْتِقَادٌ ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مُقَرَّرٌ ، ومستمدٌّ من
 عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدِّمٌ ، وبنائوه مع رَفْضِ أَخِيهِ مَتَهَدِّمٌ ، فالله واحد أحد ،
 فَرُدَّ صَمَدٌ^(٣) ، ليس له والد ولا ولد ، تنزَّهَ عن الزمان والمكان ، وَسَبَقَ وجودُهُ
 وجودَ الْأَكْوَانِ ، خَالِقُ الْخَلْقِ وما يعملون ، الذي لا يُسْأَلُ عن شيءٍ وهم يُسْأَلُونَ ، الْحَيُّ
 الْعَلِيمُ الْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، أرسل الرسل رحمةً
 لندعو الناس إلى النجاة من الشقاء ، وتوجهه الْحُجَّةُ في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيِّدَةً
 بالمعجزات التي لا تُنْتَصَفُ أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ،
 ثم ختم ديوانهم بنبيِّ مِلَّتِنَا المرعية الهمَلِ ، الشاهدة على الْمِلَلِ ، فتاخَّصت الطاعة ،
 وَتَعَيَّنَتِ الْأَمْرَةُ الْمُطَاعَةَ ، ولم يَبْقَ بعده إلا ارتقَابُ الساعَةِ ، ثم إن الله تعالى قَبَضَهُ
 إِذْ كَانَ بَشْرًا ، وترك دينه يُضْمُّ من الْأُمَّةِ نَشْرًا^(٤) ، فمن تَبِعَهُ لِحَقِّ بِهِ ، ومن تركه
 نُوطٌ^(٥) عنه في مَنْسَبِهِ ، وكانت نجاته على قدر سببه ، رُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(١) صعر خذه : أماله كبراً .

(٢) إسرائيله : يعقوب عليه السلام ، والحكمة : وهو يدل من وصية .

(٣) الصمد : السيد ، لأنه يصمد أي يقصد في قضاء الحوائج . (٤) النشر : المنتشر ، ومنه :

« اللهم اغصم نشرى » . (٥) أي أبعد منه وطرد ، ويقال ناطت النار : أي بعدت .

أنه قال : « تركتُ فيكم ما إن تمسَّكُمُ به لم تَضِلُّوا بعدي ، كتابَ الله وسُنَّتِي ، فَعَضُّوا عليهما بالنواجذ^(١) » .

فاعلموا يا بنيَّ بوصية من ناصح جاهد ، ومُشفِقٍ شفقة والد ، واستشعروا حُبَّهُ الذي توافرت دواعيه ، وعُوا مَرَّاشِدَ هَدْيِهِ ، فَيَا فَوْزَ وَاَعِيهِ ! وَصِلُوا السَّبَبَ بِسَبَبِهِ ، وَآمِنُوا بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ ، مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا عَلَى حَسَبِهِ ، وَأَوْجِبُوا التَّجَلَّةَ لِصَحْبِهِ ، الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصَحْبَتِهِ ، وَاجْعَلُوا مَحَبَّتَكُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ تَوَابِعِ مَحَبَّتِهِ ، وَاشْمَلُوهُمْ بِالتَّوَقُّيرِ ، وَفَضَّلُوا مِنْهُمْ أَوْلَى الْفَضْلِ الشَّهِيرِ ، وَتَبَرَّءُوا مِنَ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَدْعِكُمْ إِلَيْهَا دَاعٍ ، وَلَا تَعِ التَّشَاجِرَ بَيْنَهُمْ أَذُنُ وَاِعٍ ، فَهُوَ عِنْوَانُ السَّدَادِ ، وَعَلَامَةُ سَلَامَةِ الْإِعْتِقَادِ ، ثُمَّ اسْحَبُوا فَضْلَ تَعْظِيمِهِمْ عَلَى فَهْمِ الْمِلَّةِ ، وَأَمَّتْهَا الْجِلَّةُ^(٢) ، فَهَمْ صَقَلَةٌ نُصُوبُهُمْ ، وَفُرُوعٌ نَاشِئَةٌ مِنْ أَصُولِهِمْ ، وَوَرَثَتُهُمْ وَوَرِثَةُ رَسُولِهِمْ ، وَاعْلَمُوا أَنِّي قَطَعْتُ فِي الْبَحْثِ زَمَانِي ، وَجَعَلْتُ النَّظَرَ شَانِي ، مِنْذُ بَرَانِي اللَّهُ تَعَالَى وَأَنْشَانِي ، مَعَ نُبُلٍ^(٣) يَعْتَرِفُ بِهِ الشَّانِي ، وَإِدْرَاكِ يَسْلَمُهُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي ، فَلَمْ أَجِدْ خَاطِبَ وَرَقٍ ، وَلَا مُصَبِّبَ عَرَقٍ ، وَلَا نَازِعَ خِطَامٍ ، وَلَا مَتَكَلِّفَ فِطَامٍ ، وَلَا مَقْتَحِمَ بَحْرِ طَامٍ ، إِلَّا وَغَايَتُهُ الَّتِي يَقْصِدُهَا قَدْ نَضَلَّتْهَا الشَّرِيعَةُ وَسَبَقَتْهَا ، وَفَرَعَتْ^(٤) نَفْسِيهَا وَارْتَقَتْهَا ، فَعَلَيْكُمْ بِالْإِزْمَامِ جَادَّتْهَا^(٥) السَّابِلَةَ ، وَمَصَاحِبَةَ رَفُقَتِهَا الْكَامِلَةَ ، وَالْإِهْتِدَاءَ بِأَقْمَارِهَا غَيْرِ الْآفَلَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ، وَقَدْ عَلَتْ شَرَائِعُهُ ، وَرَاعَ الشُّكُوكَ رَائِعُهُ ، فَلَا تَسْتَنْزِلُكُمْ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ ، وَابْذُلُوا دُونَهُ النُّفُوسَ فَعَلَ الْمُهْتَدِينَ ، فَلَنْ يَنْفَعَ مَتَاعُ بَعْدِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، وَلَا يَضُرُّ مَقْضُومَ الْفَوْزِ بِالسَّعَادَةِ وَاللَّهُ أَصْدَقُ الْوَاوَعِدِينَ ، وَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَحْسَنُ مَا وَرِثَ الْأَوْلَادُ عَنِ الْوَالِدِينَ ، اللَّهُمَّ قَدْ بَلَغْتُ فَاَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ ، فَاحْذَرُوا الْمَعَاطِبَ الَّتِي تَوْجِبُ فِي الشَّقَاءِ الْخُلُودَ ، وَتَسْتَدْعِي شَوْهَ الْوَجُوهِ وَنُضْجَ الْجُلُودِ ، وَاسْتَعِيدُوا بِرِضَا اللَّهِ مِنْ سُخْطِهِ ، وَارْتَبُّوا بِنُفُوسِكُمْ عَنْ غَمِّهِ ، وَارْفَعُوا أَمَالَكُمْ عَنِ التَّنَوُّعِ بِفُرُورٍ قَدْ خَدَّعَ

(١) أقصى الأضراس . (٢) جمع جليل . (٣) النبيل : الذكاء والنجابة ، والشانِي : المبغض .

(٤) فرعه : علاه ، والذنية : العقبة ، أو الجليل أو الطريقة فيه أو إليه .

(٥) الجادة : الطريق الواضح ، والسابلة من الطرق المسلوكة .

أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرّض الزائل ائتلافكم ، واقنعوا منه بما تيسّر ،
ولا تأسّوا^(١) على ما فات وتعدّر ، فإنما هي دُجَنَةٌ^(٢) ينسخها الصّباح ، وصَفْقَةٌ يتعاقبها
الخصار أو الرّياح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنواجذ عليها ، وكفّفكفّوا الشّبه أن
تدنو إليها ، واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرّق لا يرفّوه^(٣) عمل ، وكلّ ماسوى
الراعى همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل ، وتمسّكوا بكتاب الله تعالى حفظًا
وتلاوة ، واجعلوا جملة على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتلوا
أوامره ونواهيه ولا تتأولوه ولا تغفلوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حبّ من أنزل على قلبه ،
وأكثرُوا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر الله صون المحترّم ، واحفظوا القواعد التي
يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم ، الله الله في الصلاة ذريعة التّجلّي ، وخاصة الميلة ،
وحاقنة الدم ، وغنى المستاجر المستخدم ، وأم العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب
والشّهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر ، إن عرّض الشيطان عرّضها ، ووطأ للنفس
الأمارّة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بلّ الجنوح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى
مريض الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجار ، والواسمة
بِسْمَةِ السّلامة ، والشّاهدة للعبد برفع الملامة ، وغسول^(٤) الطبع إذا شانه طبع ، والخير
الذي يكلّ ماسواه له تبع ، فاصبروا النفس على وظائفها ، بين بدء وإعادة ، فالخير عادة ،
ولا تفضّلوا عليها الأشغال البدنية ، وتؤثروا على العلية الدنيّة ، فإن أوقات المعينة
بالانفلات تنبّس^(٥) ، والفلك بها من أجلكم لا يحبّس ، وإذا قورنت بالشواغل
فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يميّزه الغدوّ ولا الأصيل ، والوظائف بعد أدائها
لا تقوت ، وأين حقّ من يموت من حقّ الحى الذي لا يموت ؟ وأحكوا أوضاعها
إذا أقمتموها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتيان تفاضلت الأعمال ، وبالمرعاة

(١) ولا تحزنوا . (٢) الدجنة: الظلمة . (٣) رفا الثوب كنع: لام خرقه، وضم بعضه إلى بعض.

(٤) الغسول كصبور وتثور: الماء يفتسل به، وفي الأصل غاسول وهو تحريف، والطبع الشين والديس .

(٥) أى تذهب وتضيع ، يقال: انبَسَ الرجل إذا ذهب ، وفي الأصل «نبَس» وأراه محرفًا .

استحقت الكمال ، ولا شكرَ مع الإهمال ، ولا ربحَ مع إضاعة رأس المال ، وذلك أحرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب مؤصل ، وشرط لمشروطه محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظّفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر^(١) فأطيلوها ، والنيّات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء أساسه ، والسيف بمراسه ، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال ، واستعاض صدأه بصقال^(٢) ، وإن تراخى فقهر^(٣) الباع ، وسرّقه الطّباع ، وكان لما سواها أضيع . فشمل الضياع ، والزكاة أختها الحبيبة . ولدتها القرية . مفتاح السعادة بالعرض الزائل . وشكران المسئول على الضد من درجة السائل . وحق الله تعالى في مال من أغناه . لمن أجهده في المعاش وعناه^(٤) من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه . ولا علة إلا القدر الذي يُخفيه . وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها . في اختيار عرضها ونتاجها . واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل . وخالفوا الشيطان كلما عدل . واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرّون أين تسلكون . فوهب وأقدر . وأورد بفصله

(١) الحجول : جمع حجول بالكسر والفتح وهو الخللخال ، والمراد بها هنا الأطراف ، وبإطالها استيعاب غسلها ، والغرر جمع غرة بالضم وهي الوجه ، والمراد بتطولها في الوضوء : غسل مقدم الرأس مع الوجه ، وغسل صفحة العنق ، وجملة المعنى : أنه يأمر بإسباغ الوضوء ، وفي الحديث الشريف : « أُمَّتِي الْغُرُّ الْمُحَجَّجُونَ » والغر جمع الأغر من الغرة ، وهي بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم ، يقال : فرس أغر وغراء ، والمحجل : للفرس الذي يرتفع البياض في قوائمه في موضع القيد ، أي بياض مواضع الوضوء من الوجه الأيمن والأقدام ، استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه .

(٢) صواب العبارة « واستعاض بصدنه صدقلا » يقل استبدل الشيء بغيره : إذا أخذته مكانه (ومنه ترى أن الباء داخل على المعرّوك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كن) .

(٣) قهقر وقهقر : رجع القهقرى . (٤) أتعبه .

وأصدر . ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل . فابتغوا إليه الوسيلة بالله
واعتنموا رضاه ببعض نواله . وصيام رمضان عبادة السرِّ المقرَّبة إلى الله زُلْفَى .
المحفوظة^(١) لمن يعلم السرَّ وأخفى . مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام . والقيام
بيرِّ القيام ، والاجتهاد ، وإيثار الشهاد ، على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية ،
ولو احقه الشرعية ، فبذلك تحسُن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب
قسوة الطباع ، ويمتد في ميدان الوسائل الباع ، والحجج مع الاستطاعة الركن الواجب ،
والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما
فرض عن ربه وسنّه ، وقال : « ليس له جزاء عند الله إلا الجنة » ويلحق بذلك الجهاد
في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيده
ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه . هذه عمُد الإسلام وفروضة ، وتقود مهزه
وعرؤوه ، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين^(٢) ، وتلقوا الله
لامبدلين ولا مغيّرين ، ولا تضيعوا حقوق الله فمهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب^(٣)
فعليكم بالعلم النافع دليلا بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصل إلى اللباب ،
والله عز وجل يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ،
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة ،
وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصة الملأ الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تتلى ،
والسبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى النجاة^(٤) عادة ، والدُّخْر الذي قايله
يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر
إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ،

(١) الخالصة . (٢) بهاديك ، وظاهرين : غالين . (٣) أي بعد الاختفاء ،
من انتعقت المرأة : لبست النقاب . (٤) نخله : أعطاه ، والاسم النحلة .

وقليل ، وإن جمَّ ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وَتَخَطَّى حِسَابَكُمْ ،
فالتسوه لبنيكم ، واستدرِكُوا منه ما خرج عن أيديكم ، وأجلِّوهم على جَمِّهِ وَدَرَسِهِ ،
واجعلوا طباعهم تُرْمَى لِغَرَسِهِ ، واستسهلوا ما ينالهم من تَعَبٍ مِنْ جَرَاهِ (١) وَسَهَرِهِ
يهجر له الجفنُ كَرَاهٍ ، تَفْقِدُوا لهم وِلَايَةَ عَزٍّ لَا تُعْزَلُ ، وَتُحْلُوهم مَثَابَةَ رِفْعَةٍ لَا يُحْطَّ
فَارِعُها وَلَا يُسْتَنْزَلُ ، واختاروا العلوم التي يتعقَّبُها الوقت ، فلا ينالها في غَيْرِهِ (٢) المقت ،
وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نَجَمَ بِمَنَابِتِهَا المَرِيعَةُ (٣) ، من علوم لسان لا تستغرق
الأعمارَ فصولها ، ولا يضايق ثمراتِ المعادِ حصولها ، فإنها هي آلاتِ لغيرِ ، وأسباب
إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلاً للازدياد ، وألْقَى فهمه ذا انقياد ، فليخصَّ تجويد
القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيميه ، ثم الشروع في أصول الفقه
فهو العلم العظيم المِنَّةُ ، المَهْدَى كنوز الكتاب والسُّنَّة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء
الجِلَّةِ ، والتدرج في طرق النظر بضحح الأدلَّةِ ، وهذه هي الغاية القصوى في المِلَّةِ ،
ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعدَ عن التي هي أسمى ، فَلْيَزَوِ الحديثَ
بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم
والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يُفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً
ركيكاً ، ولا يُشمر في العاجلة إلا اقتحامَ العيون ، وتطريقِ الظنون ، وتطويقِ الاحتقار
وَسِمَةِ الصَّغارِ ، وُخْمُولِ الأقدارِ ، وأنحسَفَ من بعد الإبدارِ ، وجادَّةَ الشريعة أعرق
في الاعتدالِ ، وأوفق من قطع العمر في الجدالِ ، هذا ابن رُشد (٤) قاضي المصر ومُفتيه

(١) يقال : فعلت ذلك من جراه ومن جرانه بالتشديد ويخففان ، ومن جريرته : أى من أجله ،
والكبرى : الترم . (٢) غير الدهر : أحداثه المفيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . (٣) الخصبة .
(٤) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ٥٢٠ هـ
ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، وانصل بيوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة
أرسطو ، وقد ولاء قضاء إشبيلية ؛ ثم استدعاه إلى المراكش ، وجعله طبيبه الخاص ، ثم جمعه قاضي القضاة
بقرطبة ، ولما ولي بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حسد خصومه ، فكادوا
له عند السلطان واتهموه أنه يجحد القرآن ، وينشط الفلسفة وعلوم الأوائل بدلا من علوم الدين ، وينصر -

وملتبسُ الرشدِ ومُؤليهِ ، عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تخلطوا جامكم^(١) بجامها ، إلا ما كان من حساب ومِساحة ، وما يعود بِمجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحجور ، وَضَرَمَ^(٢) مَسْجُور ، وممقوت مهجور ، وأمرُوا بالمعروف أمراً رقيقاً ، وانهُوا عن المنكر نهياً حريّاً بالاعتدال حقيقاً ، وَاغْبَطُوا مَنْ كَانَ مِنْ سِنَةِ الْعَفْلَةِ مُفِيقاً ، واجتنبُوا ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ حَتَّى لَا تَسْلُكُوا مِنْهُ طَرِيقاً ، وأطيعوا أمر من وَّلاهُ اللهُ تعالى من أموركم أمراً ، ولا تَقْرَبُوا مِنَ الْفِتْنَةِ جَمْعاً ، ولا تُدْخِلُوا فِي الْخِلَافِ زَيْدًا وَلَا عَمْرًا ، وعليكم بالصدق فهو شعارُ المؤمنين ، وَأَمَّ مَا أَضْرَى^(٣) عَلَيْهِ الْآبَاءُ أَلْسِنَةُ الْبَنِينَ ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُؤَارَى ، وَالسَّوْءَةُ الَّتِي لَا يُرْتَابُ فِي عَارِهَا وَلَا يُتَمَارَى . وأقل عقوبات الكذاب ، بين يَدَيِ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ ، أَنْ لَا يُقْبَلَ صِدْقُهُ إِذَا صَدَّقَ ، وَلَا يَعُولَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِالْحَقِّ نَطَقَ ، وعليكم بالأمانة فالخيانة لوم ، وفي وجه الديانة كلُّوم^(٤) ، ومن الشريعة التي لا يُعْذَرُ بِجَهْلِهَا ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الْحِشْمَةِ وَالصِّيَانَةِ ، ولا تَجْزُوا مَنْ أَقْرَضَكُمْ دِينَ الْحَيَاةِ ، ولا توجدوا للغدْر قبولا وَلَا تَقْرُوا عَلَيْهِ طَبْعًا مَجْبُولًا ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ، ولا تستأثروا بِكَنْزٍ وَلَا حَزْنٍ ، ولا تَدْهَبُوا لِغَيْرِ مَنَاصِحَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَهْلٍ وَلَا حَزْنٍ ، ولا تَبَخَّسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، وَاللَّهُ اللهُ أَنْ تُعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ أَوْ الْكَلَامِ ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في فُسْحَةٍ ممتدَّة ،

مطلب القدماء في القول بأوهية بعض الكواكب : فنزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ، واستغفاه إلى مراکش ، ولم يطل مقامه بها ، فات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وعليها عول الأوروبيون في نهضتهم الحديثة .

(١) الجام : إناء من فضة . (٢) جمع ضربة بالتحريك : وهي الجفرة والناز ، وسجر القصور : أحام

(٣) ضرى بالشيء ككتب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهزم والتضميف ، فيقال : أضريته وضريته :

أي أغريته به . (٤) للكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

وَسُبُّ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مُنْسَدَّةٍ ، مَا لَمْ يَنْبِذْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَمَانِهِ ، وَيَمَسَّ الدَّمَ الحَرَامَ بِيَدٍ أَوْ لِسَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : الَّذِي هَدَى بِهِ سَنَنًا قَوِيماً ، وَجَلَّى مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ لَيْلًا بَهِيماً : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا . وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَرِهَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » . واجتناب الزنا وما تعلق به ، مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُهُ ، وامتد في سبيل السعادة باعُهُ ، لو لم تتلق نورَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَهْدِ شِعَاعُهُ ، فَالْحَلَالُ لَمْ تَضِيقْ عَنِ الشَّهَوَاتِ أَنْوَاعَهُ ، وَلَا عُدِمَ إِقْنَاعُهُ ، وَمَنْ غَلَبَتْ غَرَاثُ جَهْلِهِ . فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يَجِبُ أَنْ يُزْتَنِيَ بِأَهْلِهِ ؟ وَاللَّهُ قَدْ أَعَدَّ لِلزَّانِي عَذَاباً وَبِيلاً . وَقَالَ : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً » . وَالْمُحْرَمَاتُ الكَبَائِرُ . وَمِفْتَاحُ الجَرَائِمِ وَالجَرَائِزِ (١) . وَاللَّهُ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ فِي الْحَيَاةِ شَرْطاً . وَالْمُحْرَمُ قَدْ أَعْنَى عَنْهُ بِالْحَلَالِ الَّذِي سَوَّغَ وَأَعْطَى . وَقَدْ تَرَكَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَقْوَامٌ لَمْ يَرْضَوْا لِعُقُوبَتِهِمُ بِالْفَسَادِ . وَلَا لِنُفُوسِهِمُ بِالْمُضَرَّةِ فِي مَرْضَاةِ الْأَجْسَادِ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهَا رِجْساً مُحْرَماً عَلَى الْعِبَادِ : وَقَرَنَهَا بِالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ فِي مُبَايَنَةِ السَّدَادِ (٢) . وَلَا تَقْرَبُوا الرَّبَّ . فَإِنَّهُ مِنْ مَنَاهِي الدِّينِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبِّ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وَقَالَ : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَادْنُوا بِمُحَرَّبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فِي الْكِتَابِ الْمُبِينِ . وَلَا تَأْكُلُوا مَالَ أَحَدٍ بِغَيْرِ حَقٍّ يُبَيِّحُهُ . وَانزِعُوا الطَّعْمَ (٣) عَنْ ذَلِكَ حَتَّى تَذْهَبَ رِيحُهُ . وَالتَّمَسُّوا الْحَلَالَ يَسْعَى فِيهِ أَحَدُكُمْ عَلَى قَدَمِهِ . وَلَا يَكِلُ خِيَارَهُ إِلَّا لِلنَّفَقَةِ مِنْ خَدَمِهِ . وَلَا تَلَجُّنَا إِلَى الْمُتَشَابِهِ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِهِ . فَهُوَ فِي الشُّكِّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَضَلُّ مَشْرُوطٍ . وَالْحَافِظُ عَلَيْهِ مَغْبُوطٌ . وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ . فَالظُّلْمُ مَمْقُوتٌ بِكُلِّ لِسَانٍ

(١) الحرائر جمع جريرة : وهي الجريمة .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(٣) الطعم : الشهوة .

مُجَاهِدِ اللَّهِ تَعَالَى بِصَرْحِ الْعَصِيَّانِ ، « وَالظُّلْمُ ظُلَمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » كما ورد في الصَّحاحِ الْحُسْنَى ، والنميمة فسادٌ وشتاتٌ ، لا يبق عليه مُتَاتٌ^(١) ، وفي الحديث : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ »^(٢) « وَأَطْرَحُوا الْحَسَدَ ، فَاسَادَ حَسُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَالنِّبْيَةَ فَبَابِ الْخَيْرِ مَعَهَا مَسْدُودٌ ، وَالْبَخْلُ ، فَارْتُئِيَ الْبَخِيلُ وَهُوَ مَوْدُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَدَّرُ مِنْهُ ، فَوَأَقَعَ الْخَزْيَ لَا تُسْتَقَالَ عَثْرَاتُهَا ، وَمَطْنَاتُ الْفَضَائِحِ لَا تُؤْمَنُ عَمْرَاتُهَا ، وَتَفْقَدُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ السَّاعَاتِ وَأَنْفُسُوا السَّلَامَ فِي الطَّرْفَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَرِقُّوا عَلَى ذَوِي الزَّمَانَاتِ^(٣) وَالْعَاهَاتِ ، وَتَاجِرُوا مَعَ اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ يُرِيحُكُمْ فِي الْبِضَاعَاتِ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَحَدَهُ فِي الشَّدَائِدِ ، وَاذْكُرُوا الْمَسَاكِينَ إِذَا نَصَبْتُمْ الْمَوَائِدَ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْيَسِيرِ مِنْ مَالِهِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ الْمُحْتَاطُ لِعِيَالِهِ ، وَارْعَوْا حَقُوقَ الْجَارِ ، وَاذْكُرُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ ، وَتَعَاهَدُوا أَوْلَى الْأَرْحَامِ ، وَالْوَشَائِحِ^(٤) الْبَادِيَةَ الْإِلْتِمَامَ ، وَاحْذَرُوا شَهَادَةَ الزُّورِ : فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الظُّهْرَ ، وَتُقْسِدُ السَّرَّ وَالْجَهْرَ ، وَالرُّشَا ، فَإِنَّهَا تَحْطُّ الْأَقْدَارَ ، وَتَسْتَدْعِي الْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ ، وَلَا تَسَاحُجُوا فِي لُغْبَةِ قَمَرٍ^(٥) ، وَلَا تَشَارِكُوا أَهْلَ الْبَطَالَةِ فِي أَمْرِ ، وَصَوْنُوا الْمَوَاعِيدَ مِنَ الْإِخْلَافِ ، وَالْأَيْمَانَ مِنْ حِنْثِ الْأَوْغَادِ وَالْأَجْلَافِ ، وَحَقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَزْدِرَاءِ وَالْإِعْتِسَافِ ، وَلَا تَلَهَجُوا بِالْأَمَالِ الْعِجَافِ^(٦) وَلَا تَكَلَّفُوا بِالْكُهَانَةِ وَالْأَرْجَافِ ، وَاجْعَلُوا الْعَمْرَ بَيْنَ مَعَاشٍ وَمَعَادٍ ، وَخُصُوصِيَّةَ وَابْتِعَادٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بِالْمِرْصَادِ ، وَأَنَّ الْخَلْقَ بَيْنَ زَرْعٍ وَحَصَادٍ ، وَأَقْلُوا بِغَيْرِ الْحَالَةِ الْبَاقِيَةِ الْمَهْمُومَ ، وَاحْذَرُوا الْقَوَاطِعَ عَنِ السَّعَادَةِ كَمَا تُحَذِّرُ السُّمُومَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ أَنْ يَدُومَ ، وَقَابِلُوا بِالصَّبْرِ أَذِيَّةَ الْمُؤَذِّنِ ، وَلَا تَعَارِضُوا مَقَالَاتِ الظَّالِمِينَ ، فَاللَّهُ لِمَنْ بَغَى عَلَيْهِ خَيْرٌ النَّاصِرِينَ ، وَلَا تَسْتَظْمُوا

(١) المتئات : ما يمت به أى يتوصل .

(٢) الزمانات : العاهات .

(٤) اللوشائج جمع وشيجة : وهى اشتباك القرابة .

(٥) قره : غلبه فى لعب القمار .

(٦) العجاف جمع عجفاء : وهى المهزولة .

(٣) القنات : التمام .

حوادث الأيام كما نزلت ، ولا تَضَجُّوا للأمراض إذا أَعْضَلَتْ ، فكلُّ مُنْقَرِضٍ حقير ، وكلُّ مُنْقَاضٍ وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشِقُوا من جَبَابِ اللَّهِ تعالى الأَرَجِ (١) ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، واجنحُوا إلى الخوف من الله تعالى فَطُوبَى لِعَبْدٍ إليه جانح ، وتضرَّعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجنُّوا إليه في البأساء والضراء ، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، وَيَعْدُبُ الوارد ، وَأَسْهِمُوا (٢) منها للساكين وأفضِلوا عليهم ، وعينُوا الحظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثام : « يا عائشة أحسنى جوارِ نعم الله ، فإنها قلَّه أزلت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تظنُّوا في النعم وتقصِّروا عن شكرها ، وتقابِكُمْ (٣) الجهالة بِسُكْرِها ، وتوهوا أن سعيكم جلبها ، وَجِدَّكُمْ حَلَبها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فِعل إلا لله إذا نُظِرَ بعين اليقين ، والله الله لا تنسُوا الفضلَ بينكم ، ولا تُذهَبوا بذهابِ زِينِكُمْ ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به توأخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبرٍّ ، ومراعاةٍ في علانية وسرٍّ ، وللإنسان مزية لا تُجْهَل ، وحق لا يهْمَل ، وأظهروا التعاضد والتناصر ، ووصلوا التَّعَاهِدَ والتزاور ، تُرْغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تَتَنَافَسُوا في الحظوظ السَّخِيفَةَ ، ولا تتهارشوا تهاش السباع على الجيفة . واعلموا أن المعروف يَكْدُرُ بالامتنان ، وطاعة النساء شرٌّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقروه ، والله الله لا تنسُوا مُقَارَضَةَ سَجَلِي (٤) ، وَبَرُّوا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزقي منكم مالاً بهذا الوطن القَلِقِ المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العَقَارِ ، فيصبح عُرضة للملَّة والاحتقار ، وساعياً لنفسه - إن تغلب العدو على بلده -

(١) الأرج : توهج ريح الطيب . (٢) أسهموا : أعطاه سبهاً .

(٣) في الأصل : • وتلقبكم • ، وأراه محرفاً عن • وتغلبكم • .

(٤) السجل : النصيب . والمعنى : إنكم مدينون لي بما قدمت لكم من معروفي ، فلا تنسوا أن تردوه

في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام النَّوْبِ الثَّقَالِ ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهداً كم في مصاحبة أهل الدنيا فغيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومن بلي بها منكم فيستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر مُعاداة الرجال ، وَمَزَلَّاتِ الأَدْلَالِ ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسُكْرُ الاغترار ، فإنه دأب الغرِّ ، وَلَيْسُنِ الدَيَانَةِ ، وَيُوْثِرُ الصَّمْتِ ويلازم الأمانة ، وَيَسِرُّ من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمرانِ قَصَدَ أَقْرَبَهُمَا إلى الحق ، وَلَيْقِفْ في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان ، والزعارعُ تسالم اللدن^(١) اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبةً واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغلاباً ، فذلك ضرر بالروءات والأقدار ، داخ إلى الفضيحة والعار ، ومن أمتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليه إكراهاً وإشاراً ، فليتلق وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فننة ومحنة ، وأسرُّ وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة . وإخلال بعبادة وتوقع عزل . وإدالة^(٢) بإزاء بيع جدد بهزل ، ومزلة قدم ، واستتباع ندم . ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد . جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ومن لا ينقطع بسببه عملُ أبيه . هذه - أسعدكم الله - وصيتي التي أصدرتها . وتجارتى التي لربحكم أدرتها . فتلقوها بالقبول لنصحها . والاهتداء بضوء صباحها . وبقدر ما أمضيت من فروعها . واستغشيت من دروعها . اقتنيت من المناقب الفاخرة . وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة . وبقدر ما أضعت لآلئها النفيسة القيم . استكثرتم من بواعث الندم . ومهما ستمم إطالتيها . واستغزرت مقالتيها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلك^(٣) الحسب ، وضابط هذا الباب . كان الله خليفتي عليكم في كل حال . فالدنيا

(١) اللدن : اللبن .

(٢) الإدالة : الغلبة .

(٣) فذلك حسابه كحرج : أمهات وقرغ منه ، محترمة من قوله إذا أجل حسابه : فذلك كذا وكذا .

مُنَاحِ ارْتِحَالٍ ، وَتَأْمِيلِ الْإِقَامَةِ فَرَضٌ مُحَالٌ . فَالْوَعْدُ لِلانْتِقَاءِ دَارِ الْبَقَاءِ . جَمَلَ اللهُ مِنْ وَرَاءِ خُطَّتِهِ الْبِنَاءَ ، وَنَفَقَ بَضَاعَتَهَا الْمَرْجَاةَ^(١) . بِلَطَائِفِهِ الْمَرْتَجَاةَ . وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَبِيبِكُمُ الْمَوْدَعِ . وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُبَلِّغُهُ^(٢) حَيْثُ شَاءَ مِنْ شَمَلٍ مُتَصَدِّعٍ . وَاللَّحْمَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . (نفع الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ - خطبة وعظية له

وَصَدَرَ عَنْهُ عَلَى لِسَانٍ وَاعِظٍ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ . الْمُبْدِيِّ الْمَعِيدِ . الْبَعِيدِ فِي قُرْبِهِ مِنَ الْعَبِيدِ . الْقَرِيبِ فِي بَعْدِهِ وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٣) . مُخْبِي رُبُوعِ الْعَارِفِينَ بِتَحِيَّاتِ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ . وَمُفْنِي نَفُوسِ الزَّاهِدِينَ بِكُنُوزِ احْتِقَارِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى الْعَرَضِ الزَّهِيدِ . وَمُخَلِّصِ خَوَاطِرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ سَجُونِ دُجُونِ^(٤) التَّقْيِيدِ . إِلَى فُسْحِ التَّجْرِيدِ . نَحْمَدُهُ وَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْتَظِمَةُ دُرَّرَهُ فِي سُلُوكِ الدَّوَامِ . وَسُمُوطِ^(٥) التَّأْيِيدِ . حَمْدٌ مِنْ نَزْوَةِ أَحْكَامِ وَحْدَانِيَّتِهِ . وَأَعْلَامِ فَرْدَانِيَّتِهِ ، عَنْ مَرَابِطِ التَّقْيِيدِ ، وَمَخَابِطِ الطَّبَعِ الْبَلِيدِ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ افْتَتَحَ بِشُكْرِهِ أَبْوَابَ الْمَزِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهَادَةً تَنْخَطِي بِهَا مَعَالِمَ الْخَلْقِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ ، عَلَى كَيْدِ التَّفَرِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ قِلَادَةَ الْجِيدِ الْمَصِيدِ ، وَهَلَالَ الْعِيدِ ، وَفَذَلِكَ الْحَسَابِ وَبَيْتِ الْقَصِيدِ ، الْخُصُوصِ بِمَنْشُورِ الْإِدْلَالِ^(٦) ، وَإِقْطَاعِ الْكَمَالِ ، بَيْنَ مَقَامِ الْمُرَادِ وَمَقَامِ الْمُرِيدِ ، الَّذِي جَعَلَهُ السَّبَبَ الْأَوْصَلَ فِي نَجَاةِ النَّاجِي وَسَعَادَةِ السَّعِيدِ ، وَخَاطِبِ الْخَلَائِقِ عَلَى لِسَانِهِ الصَّادِقِ بِحُجَّتِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الْمَلَكُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَمِيدِ ، لِيَأْخُذَ

(١) بَضَاعَةُ مَرْجَاةٍ : رَدِيئَةٌ أَوْ قَلْبِيَّةٌ يَرُدُّهَا وَيُدْفَعُهَا مِنْ رَأْمَا رَغْبَةٍ عَنْهَا ، وَنَفَقٌ لِلسَّلْمَةِ تَنْفِيْقًا :

رُوحَهَا . (٢) لَامُ الْجَرْحِ وَالصَّدْعِ كَقَطْعٍ ، وَالْأَمَةُ : سَدَةٌ .

(٣) مَرْقٌ فِي الْمَنْقِ . (٤) أَيْ ظِلَامٌ لِلتَّقْيِيدِ ، وَالذُّجُونُ جَمْعُ دَجْنٍ بِالْفَتْحِ : وَهُوَ الْبَاسُ التَّيْمُ الْأَرْضِ

وَأَقْطَارِ السَّمَاءِ . (٥) سُمُوطٌ جَمْعُ سَمَطٍ بِالسُّكُونِ : وَهُوَ خَيْطٌ مُنْتَظِمٌ . (٦) أَدْلٌ عَلَيْهِ : وَثَقٌ بِمَجْهَعِهِ .

بِالْحَجْرِ^(١) وَالْأَطْوَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ. وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الأكيد ، وتُسرى إلى تربيته الزكية من ظهور المواجه الجائية على البريد :

قعدتُ لتذكير ، ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسى فى أحوجُ للذكرى
 إذا لم يكن منى لنفسى واعظُ فياليت شعرى كيف أفل فى الأخرى؟
 آه ، أى وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبائنا يُسمع ، وفى ماذا - وقد تبين الرشدُ
 من العى - يُطمع؟ يا من يُعطى ويمنع ، إذا لم تُقم الصنعة فماذا نضع؟ أجمعنا بقلوبنا
 يا من يُفرق ويجمع ، ولين حديدًا بنار خشيتك ، فقد استعاذ نبيك صلى الله عليه وسلم
 من قلب لا يخشع ، ومن عين لا تندمع : اعلموا رحمكم الله أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها
 من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه الملوآن^(٢) ، فإن الحق نور
 لا يضره أن صدر من الحامل ، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الحامل ، وأتم تدرؤن أنكم
 فى أطوار سقر لا تستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا تتأنى معها إقامة ولا مهلة ، من
 الأصلاب إلى الأرحام إلى الوجود ، إلى القبور إلى الشور إلى إحدى دارى البقاء ،
 أفى الله شك؟ فلو أبصرتم مسافراً فى البرية بينى ويفرش ، ويُمهد ويعرش ، ألم تكونوا
 تضعكون من جهله ، وتعجبون من ركاكة عقله؟ ووالله ما أموالكم ولا أولادكم ،
 وشواغلكم عن الله ، التى فيها اجتهادكم ، إلا بقاء سقر^(٣) فى قفر ، أو إعراس

(١) العجز جمع حجرة كفرصة : وفى معقذ الإزار ، ومن المراديل موضع الحكمة .

(٢) الملوآن : الليل والنهار .

(٣) السفر : جماعة المسافرين .

في ليلة نَفَر^(١) ، كأنكم بها مُطَرَّحَةٌ تَمُوبُ فيها المواشى ، وتنبو العيونُ عن خبرها للتلاشى « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ما بعد المِيقِلِ إلا الرِّحِيلِ ، ولا بعد الرِّحِيلِ إلا المَنْزِلُ الكَرِيمِ ، أو المَنْزِلُ الوَبِيلِ ، وإنكم تَسْتَقْبِلُونَ أهوالا ، سَكَرَاتُ المَوْتِ بَوَاكِرُ حَسَابِهَا ، وَعَتَبُ أَبْوَابِهَا ، فلو كَشَفَ النِّظَاءُ عن ذَرَّةٍ مِنْهَا لَذَهَبَتِ العُقُولُ وطاشت الألبابُ ، وما كلُّ حَقِيقَةٍ يشرحها الكلامُ ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أفلا أعددتُم لهذه الوَرْطَةِ حِيَلَةً ، وأظهرتُم للاهْتِمَامِ بِهَا مَخِيلَةً^(٢) ! أتعوِلا على عفوه مع المقاطعة؟ وهو القائل في مقام التهديد : « إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، أَمَّنَّا من مكره مع المنابذة ؟ « وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أطمعاً في رحمته مع المخالفة؟ وهو يقول : « فَسَاءَ كِتَابُهَا لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ » ، أمشاقَةً وَمَعَانِدَةً ؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أشكاً في الله ؟ فتعالوا نُعيد الحِسابَ ، وَنُقِرِّرِ العَقْدَ ، وَنَتَصِّفَ بدعوة الحقِّ (أَوْ غَيْرَهَا) من اليوم ، يُفْقَدُ عَقْدُ العَقَائِدِ عند التساهل بالوعيد^(٣) ، فالعائى يَدْمِي الأَصْبَعِ الوَجِيعَةَ ، والعارف يَضْمُدُ لها مَبْدَأَ العَصَبِ :

هكذا هكذا يكون التَّعَامَى هكذا هكذا يكون الغرور
 « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »
 وما عدا ما بدا ، ورسولكم الحريص عليكم الرعوف الرحيم يقول لكم : « الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ؛ وَالْأَحْمَقُ مِنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِي » فَعَلَامَ بَعْدَ هَذَا المَعْوَلِ ، وماذا يتأوَّل ؟ اتقوا الله تعالى في نفوسكم وَأَنْصَحُواهَا وَاغْتَنِمُوا فُرْصَ الحَيَاةِ وَارْتَجِّئُواهَا ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ

(١) أعرس القوم وعرسوا : نزلوا في آخر الليل للاستراحة ، ونفر الحاج من منى كضرب نفرأ ونفورا .

(٢) المخيلة : الخلق . (٣) أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حسابا ، واستعمل في اتقاف المعاصي والموهبات ، أفضى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعى عما نهى عنه .

فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّاحِرِينَ ، وتنادى أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستغيث أخرى : « يَا لَيْدِنَا نُرُدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبِّ أَرْجِعُونِي » ، فَرَجِمَ اللَّهُ مِنْ نَظَرِ لِنَفْسِهِ ، قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِهِ وَقَدَّمَ لِفَعْدِهِ مِنْ أُمِّهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالغَفْلَةَ تَقُودُ إِلَى الْفَوْتِ ، وَالصَّحَّةَ مَرَكَبَ الْأَلَمِ ، وَالشَّبِيهَةَ سَفِينَةَ تَقَطَّعَ إِلَى سَاحِلِ الْمَهْرَمِ .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إخواني ، ما هذا التواني ؟ والكلفُ بالوجود الغاني ، عن الدائم الباقي ، والدهر يقطع الأمانى ، وهادِمُ اللذات قد شرع في نقض المباني ، ألا معتبر في عالم هذه المعاني ، ألا مرتحل عن معانٍ هذه المعاني ^(١) ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْنِي إِلَى سَمِيْعَةٍ أَحَدَّثَهَا بِالصَّدْقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهُ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ
هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتُوبُوا سِرَّاعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يَا كَلِيفًا بِمَا لَا يَدُومُ ، يَا مَفْتُونًا بِغُرُورِ الْوُجُودِ الْمَعْدُومِ ، يَا صَرِيحَ جِدَارِ الْأَجْلِ الْمَهْدُومِ ، يَا مُسْتَفْهِلًا بَيْنِيانِ الطَّرْقِ قَدْ ظَهَرَ الْمُنَاخُ وَقَرَّبَ الْقُدُومَ ، يَا غَرِيبًا فِي بَحَارِ الْأَمْلِ بِأَعْسَاكَ تَعُومُ ! يَا مُعَلَّلَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَمَعَ السَّرَابِ ^(٢) ، لَا بَدَّ أَنْ تَهْجُرَ الْمَشْرُوبَ وَتَتْرَكَ الْمَطْعُومَ ، دَخَلَ سَارِقُ الْأَجْلِ بَيْتَ عَمْرِكَ فَسَلَبَ النِّشَاطَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ، وَطَوَى الْبَسَاطَ وَأَنْتَ تُسْكِرَبُ ^(٣) ، وَاقْتَلَعَ جِوَاهِرَ الْجَوَارِحِ ، وَقَدْ وَقَعَ بِكَ النَّهْبُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْوَسَادَةَ عَلَى أَنْفِكَ وَيَقْعُدَ :

لَوْ خُفِّفَ الْوَجْدُ عَنِّي دَعَوْتُ طَالِبَ ثَارِي

« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كَيْفَ التَّرَاخِي وَالْفَوْتُ مَعَ الْأَنْفَاسِ يُنْتَظَرُ ،

(١) المعاني : جمع معنى وهو المنزل .

(٢) السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء . (٣) كربه لدم كمنصر : اشتد عليه .

كيف الأمان وهاجم الموت لا يُبقي ولا يذر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صحَّ الخبر؟ من فكر في كَرْبِ الخُمار^(١) تنفَّصت عنده لذةُ النيذ ، من أحسَّ بِلَفْظِ^(٢) الحريق فوق جِدَّاره ، لم يُصغِر بصوته لِنِعْمَةِ العود ، من تيقنَ بِذُلِّ العُرلة ، هان عليه ترك الولاية .

ما قامَ خيرُكَ يا زمانُ بشره أُولَى لنا ما قلَّ منك وما كفى
أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه : أن ضع يدك على متنِ ثور
فبِعَدَدِ ما حاذتَه من شعره تعيش سنين ، فقال: يارب وبعد ذلك؟ قال : تموت ، قال :
يارب فالآن .

رأى الأمرَ يُفِضِي إلى آخرِ فصيرَ آخره أُولَى
إذا شعرتَ نفسك بالليل إلى شيء فأعرض عليها غُصَّةَ فراقه « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
عَنْ بَيْنَتِهِ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَتِهِ » فالفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب
مرثوا؟ فياليت شعري أين استقروا؟ استكانوا والله واضطربوا ، واستغاثوا من
سَبَقِكَ^(٣) بأوليائهم فقرثوا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرثوا ، فالنازل من بعدهم خالية
خاوية ، والعروش ذابلة زاوية ، والعظام من بعد التفاصيل متشابهة متساوية ، والمساكن
تندب في أطلالها الذئابُ العاوية .

صَحَّتْ بِالرَّبْعِ فلم يستجيبوا ليت شعري أين يمضي الغريبُ؟
وَيَجْنِبُ الدارَ قَبْرَهُ جَدِيدُهُ منه يستسقي المكانُ الجَدِيبُ
غاضَ قلبي فيه عند التماحي قلت : هذا القبر فيه الحبيب^(٤)
لأنَّسَلْ عن رجعتي كيف كانت إنَّ يومَ البينِ يومَ عَصِيبُ

(١) الخمار: سماع النحر وأذاها . (٢) أي برمه . (٣) هكذا في الأصل ، وكان يمكن أن يقول : « واستغاث من سبقك بأوليائهم » إلا أن يخرج هل أن « من » مبتدأ مؤخر كما في قوله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أو « من » بدل من وار الجماعه . (٤) نحوه والله والتمحه : إذا أبصره بنظر خفيف .

باقتراب الموت علَّتْ نفسى بعدِ إني ، كلُّ آتٍ قريبٌ

أين المعمّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل
أين المجادل؟ « هل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرَأً؟ » (١) وجوه علاهِنَّ
الترى ، وصحائفُ تفضّ ، وأعمال على الله تُعرَض ، بَحَثَ الزُّهَّادِ وَالْعُبَّادِ ، والعارفون
والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بِهِم العباد ، عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ،
فلم يجدوا إلا البعدَ عن الله تعالى ، وسببه حُبُّ الدنيا ، « لن تجتمع أمتى
على ضلالة » .

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَبِيبِ

وَمَاذَا أُرْتَجَى مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجَزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبِ

وقالوا: ما أوردَ النفسَ الموارِد ، وَفَتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الْحَتْفِ إِلَّا الْأَمْلَ ، كما
قَوَّمَتَهَا مَثَاقِفُ الْحُدُودِ ، فَتَحَ لَهَا أَرْكَانَ الرَّخِصِ . كما عَقَدَتْ صَوْمَ الْعَزِيمَةِ ،
أهداها طَرْفَ الْفُرُورِ فِي أَطْبَاقٍ « حَتَّى وَإِذَا وَلَكِنْ وَرُبَّمَا » فَأَفْرَطَ الْقَلْبُ فِي تَقْلِيلِهَا
حَتَّى أَفْطَرَ :

مَا أُوْبِقَ الْأَنْفَسَ إِلَّا الْأَمْلُ وَهُوَ غُرُورٌ مَا عَلَيْهِ عَمَلٌ

يَفْرُضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمًّا مَالَهُ حَالٌ ، وَلَا مَاضٍ ، وَلَا مُسْتَقْبَلٌ

مَا فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ نَفْسٌ حَيَّةٌ إِلَّا قَدْ انْقَضَ عَلَيْهَا الْأَجَلُ

لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كَوَّنُوا لَأَمْتَلَأَ السَّهْلُ بِهِمْ وَالْجَبَلُ

مَا نَمَّ إِلَّا لَقَمٌ قَدْ هَيَّئَتْ لِمَوْتِ ، وَهُوَ الْأَكْلُ الْمُسْتَعَجِلُ

وَالْوَعْدُ حَقٌّ ، وَالْوَرَى فِي غَفْلَةٍ قَدْ خُودِعُوا بِعَاجِلٍ وَضَلُّوا

أَيْنَ الَّذِينَ شِيدُوا وَاغْتَرَسُوا وَمَهَّدُوا وَافْتَرَسُوا وَظَلُّوا؟

أين ذوو الراحة زادت حسرة
لم تدفع الأحبابُ عنهم غيرَ أن
الله في نفسك أولى من له
لا تتركنها في عمى وخبيرة
حقر لها الفاني، وحاول زهدها
وفد إلى الله بها مضطرةً
هو الفناء، والبقاء بعده
يا قرّة العين ويا حسرتها
إذ جنبوا إلى الثرى وانقلوا^(١)
بكوا على فراقهم وأعولوا
ذخرت نصحًا وعتابًا يُقبل^(٢)
عن هول ما بين يديها تفعل
وشوقها إلى الذي تستقبل
حتى ترى السيرَ عليها يسهل^(٣)
والله عن حكيمته لا يسأل
يوم يوفى الناس ما قد عملوا

يا طرد^(٤) المخالفة، إنكم مدرّكون، فاستبقوا باب التوبة، فإن ربّ تلك الدار
يُجير ولا يُجار عليه « فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ »، ياطفيئية الهمة،
دُشوا أنفسكم بزمر التائبين، وقد دُعوا إلى الله دعوة الخبيب، فإن لم يكن أكل فلا
أقلّ من طيب الولية، قال بعض العارفين: إذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى،
انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال، « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا. وَوُضِعَ
الْكِتَابُ » معاني هذا المجلس والله تسميم سحر، إذ استنشقه خمور الغفلة أفاق،
سعوط^(٥) هذا الوعظ ينقض^(٦) إن شاء الله زكمة البطالة، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء،
إكسير^(٧) هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر^(٨)، القلوب المنكسرة عين من كان له قلب

(١) جنبه: دفعه. (٢) أي اتق الله في نفسك التي هي أولى... الخ.
(٣) فد: أمر من وفد أي أقدم. (٤) الطريدة: ما طردت من صيد أو غيره.
(٥) في الأصل « سوط » وأراه محرفاً عن « سعوط » كما يدل عليه سياق الكلام، والصعوط: الدواء.
يصب في الأنف. (٦) في الأصل « يبخض » وأراه « ينقض » أي يذهب.
(٧) الإكسير: الكيمياء.

(٨) يريد جابر بن حيان. قال ابن القفطي في تاريخ الحكماء في ترجمته « هو جابر بن حيان الصوفي
السكراني، وكان متقدماً في العلوم الطبيعية، وفي صناعة الكيمياء... الخ » وذكره ابن زيدون في
رسالته الهزلية، فقال: « وأظهرت جابر بن حيان حل سر الكيمياء » قال ابن نباتة في سرح للعيون:
« وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد عليه، وهذا دليل على قول =

« إِمَّا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » إلهي دُلْنَا من حَيْرَةٍ يَضِلُّ فيها - إلا إن هَدَيْتَ - الدليلُ ، وَأَجْرِنَا من غَمْرَةٍ (١) وكيف - إلا يَاغَاثِكَ - السبيلُ ، نفوسٌ صَدِيٌّ من مرَّ الأزمان منها الصَّقِيلُ ، وَنَبَأٌ بِجُنُوبِهَا عن الحقِّ القَلِيلُ - وآذَانٌ أَنهَضَهَا القول الثَقِيلُ ، وَعَثَرَاتٌ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا أَنْتَ يَا مُقِيلَ العَثَرَاتِ يَا مُقِيلَ ، أَنْتَ حَسْبُنَا ونعم (٢) الوكيلُ . (نفع الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ - وصية موسى بن سعيد العنسي (٣) لابنه

قال أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي :
لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولي إلى الإسكندرية
رأى أبي أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربية ، فبقى فيها أياماً إلى أن كتبتها
عنه ، وهي هذه :

أودِعَكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ

= أكثر الناس إنه اسم موضوع وضمه المصنفون في هذا الفن : وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ،
وأنه إذا قل في كتبه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يعني به جعفر الصادق ، وقد قدمنا لك
أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ

(١) الغمرة : الشدة . (٢) أورد المقرئ في نفع الطيب لسان الدين عقب ذلك كلاماً آخر في الوعظ
وهو على نمط ما أوردناه لك فانظره هناك إن شئت .

(٣) هو السكاكيت الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، من سلالة
عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاد الجزيرة الخضراء ، وهو
من رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٤١ هـ عن ٦٧ عاماً . وكان أبوه
محمد وزيراً جليلاً يعبد الصيت ، عالي الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وكان ذا حظوة لدى الموحدين ،
وولى لهم أعمالاً كثيرة بمراكش وإشبيلية وغرناطة ، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من
شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ،
إلى أن استبد بها سنة ٥٣٩ هـ .

وابنه أبو الحسن علي هو متمم كتاب : « المغرب في أخبار المغرب » ، وكان السبب في تأليفه هو
جده عبد الملك بن سعيد ، ثم عمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم عم مابقي منه ابنه موسى بن محمد ،
ثم أربى حل الجميع في إتمامه علي بن موسى ، وقد ذكر في خطبته أنه بلغ في سنه ٥٣٠ هـ ،
ومنتهاه إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبي الحسن بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ، ووفاته بمونس سنة ٦٨٥ هـ

وما اختياري كان طَوَّعَ النَّوَى
فلا تَطِلْ حَبْلَ النَّوَى ، إِنِّي
مَنْ كَانَ مَفْتُونًا بِأَبْنَائِهِ
فَاخْتَصِرِ التَّوَدِيعَ أَخْذًا ، فَمَا
وَاجِعِلْ وَصَاتِي نُصَبَ عَيْنَ ، وَلَا
خُلَاصَةَ الْعَمْرِ الَّتِي حُنَّكَتْ
فَلتَجَارِبِ أُمُورٌ إِذَا
فَلَا تَسْمُ عَنْ وَعَيْهَا سَاعَةً
وَكَلَّ مَا كَابَدَتْهُ فِي النَّوَى
فَلَيْسَ يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ
وَكَلَّ مَا يُفْضِي لِمُدْرٍ فَلَا
وَلَا تَجَالِسْ مَنْ فَشَا جِهْلُهُ
وَلَا تَجَادِلْ أَبَدًا حَاسِدًا
وَأَمْسِ الْمُوَيَّنِي مُظْهِرًا عِفَّةً
أَفْشِ التَّحِيَّاتِ إِلَى أَهْلِهَا
وَأَنْطِقْ بِحَيْثُ الْعِيُّ مُسْتَمْبَحٌ
وَلَا تَزَلْ مُجْتَمَعًا طَالِبًا
وَكَلَّا أَبْصَرْتَهَا أَمْكَنْتْ
وَلِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ

لَكِنِّي أُجْرِي عَلَى بُغْيَتِكَ^(١)
وَاللَّهِ أَشْتَاقُ إِلَى طَلْعَتِكَ
فَإِنِّي أَمَعَنْتُ فِي خَيْرَتِكَ
لِي نَاطِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكَ
تَبْرَحُ مَدَى الْأَيَّامِ مِنْ فِكْرَتِكَ
فِي سَاعَةٍ زَفَّتْ إِلَى فِطْنَتِكَ^(٢)
طَالَعَتَهَا تَشْحَدُ مِنْ غَفْلَتِكَ
فَإِنهَا عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكَ^(٣)
إِيَّاكَ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ هِمَّتِكَ
وَإِنَّمَا تُعْرَفُ مِنْ شِيمَتِكَ
تَجْعَلُهُ فِي الْغُرْبَةِ مِنْ إِرْبَتِكَ^(٤)
وَأَقْصِدْ لِمَنْ يَرْغَبُ فِي صِنْعَتِكَ
فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى هَيْبَتِكَ
وَأَبْغِ رِضَا الْأَعْيُنِ عَنْ هَيْبَتِكَ
وَنَبِّهِ النَّاسَ عَلَى رُبَّتِكَ
وَأَصْمِتْ بِحَيْثُ الْخَيْرُ فِي سَكْتَتِكَ
مِنْ دَهْرِكَ الْفُرْصَةِ فِي وَثْبَتِكَ
ثِبْ وَائْتِمًا بِاللَّهِ فِي مَكْنَتِكَ^(٥)
وَأَقْصِدْ لَهُ مَا عَشْتُ فِي بُكْرَتِكَ

(١) النوى : اللبنة . (٢) حنكت : أحكت . (٣) اللقطة بالحريك وسكنه الشعر .

(٤) الإربة : الحاجة .

(٥) المكنة بفتح فكسر : التمكن والقدرة ، وسكنه الشعر .

وَأَيَّاسٌ مِنَ الْوَدِّ لَدَى حَاسِدٍ .
 وَوَفَّرَ الْجَهْدَ ، فَمَنْ قَصَدُهُ
 وَوَفَّ كَلَّا حَقَّهُ ، وَلَتَكُنْ
 وَلَا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُبِّيَّةٍ
 وَحِينًا خِيَمْتَ فَأَقْصِدْ إِلَى
 وَلِلرَّزَايَا وَثِيَّةٌ ، مَا لَهَا
 وَلَا تَقُلْ : (أَسْلَمَ لِي وَحَدَّثِي)
 وَالنِّزَمِ الْأَحْوَالِ وَزَنًّا وَلَا
 وَلِتَجْعَلَ الْعَقْلَ مَحْكَاً ، وَخَذِ
 وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاظِهِمْ
 بَعْدَ اخْتِبَارِ مَنْكَ يَقْضِي بِمَا
 كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصَحَهُ
 إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ ، إِنَّهُ
 وَأَقْنَعُ إِذَا مَا لَمْ تَجِدْ مَطْمَعًا
 وَأَنْتُمْ نَمُوَ النَّبْتُ قَدْ زَارَهُ
 وَإِنْ نَبَا دَهْرٌ فَوْطُنٌ لَهُ
 فَكُلْ ذِي أَمْرٍ لَهُ دَوْلَةٌ
 وَلَا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمَكِّنًا
 وَالشَّرَّ مَهْمَا أُسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ

ضِدُّ ، وَنَافِسُهُ عَلَى خُطَّتِكَ (١)
 قَصْدُكَ لَا تَعْتَبِهِ فِي بَعْضَتِكَ
 تَكْسِيرٌ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدَّثِكَ
 فَإِنَّهُ أَنْفَعُ فِي غُرْبَتِكَ
 صُحْبَةٌ مِنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكَ
 إِلَّا الَّذِي تَذْخُرُ مِنْ عُدَّتِكَ
 فَقَدْ تَقَاسَى الذَّلَّ فِي وَحَدَّتِكَ
 تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكَ
 كَلَّا بَمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكَ
 وَأَضْحَبْ أَخَا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكَ
 يَحْسُنُ فِي الْآخِذِ مِنْ خِلْمَتِكَ (٢)
 وَفِكْرُهُ وَقَفُّ عَلَى عَشْرَتِكَ
 عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكَ
 وَأَطْمَعُ إِذَا أَنْعَشْتَ مِنْ عُسْرَتِكَ
 غَيْبُ النَّدَى ، وَأَسْمُ إِلَى قَدْرَتِكَ
 جَاشَكَ ، وَانظُرْهُ إِلَى مُدَّتِكَ
 فَوْفٌ مَا وَافَاكَ فِي دَوْلَتِكَ
 تَذْكَارُهُ يَذْ كِي لَطَى حَسْرَتِكَ
 فَإِنَّهُ حَوْزٌ عَلَى مَهْجَتِكَ (٣)

* * *

- (١) في الأصل « وأس من الورد » وقد أصلحته وإيأسه « وبه يستقيم المعنى .
 (٢) الخبطة مثل العشرة وزنا ومعنى ، والخبطة بالضم : اسم من الاختلاط ، مثل الفارقة من الافتراق .
 (٣) حازه حوزا : جمعه وضهه وامتلكه كاحتازه احتيازاً ، والمعنى : أنك إن آتيت الشر استحوذ على

نفسك وتملكك .

يا بُنَيَّ الذي لا ناصح له مثلى ، ولا منصوح لي مثله ، قد قدمت لك في هذا النظم ما إن أخطرتَه بخاطرك في كل أوان ، رجوتُ لك حسن العاقبة إن شاء الله تعالى ، وإن أخفَّ منه للحفاظ ، وأعلقَ بالفكر ، وأحقَّ بالتقدم قول الأول :

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ ثَلَاثٌ ، فَمَنْ : حُسْنُ الْأَدَبِ
وَتَانِيَةٌ : حُسْنُ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةٌ : اجْتِنَابُ الرَّيْبِ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ، ولزمتها في العربة ، رأيتها جامعة نافعة ، لا يكحكك إن شاء الله مع استعمالها ندم ، ولا يفارقك بر ولا كرم ، والله درُّ القائل :

يَعُدُّ رَفِيعَ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ وَمَا عَاقِلٌ فِي بِلَدَةٍ بِغَرِيبِ
وَمَا قَصَّرَ الْقَائِلُ حَيْثُ قَالَ :

وَأَصْبِرْ عَلَى خَلْقٍ مِنْ تُعَاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فَالْيَبِ مِنْ دَارِي
وَاتَّخِذِ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا وَمِثْلَ الْأَرْضِ كُلَّهَا دَارًا
وَأَصْغُرْ يَا بُنَيَّ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ^(١) ، وَسَلِّمِ الْكِرْمَ وَالصَّبْرَ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ^(٢)

إذ حُسنُ الخلقِ أكرم نزيل ، والأدب أرحب منزل ، ولتكن كما قال بعضهم في أديب متغرب : « وكان كلما طرأ^(٣) على ملك ، فكأنه معه ولد ، وإليه قصد ، غير مُستريب بدهره ، ولا مُنسكر شيئاً من أمره » ، وإذا دعاك قلبك إلى صحبة مَنْ أخذ بمجامع هواه^(٤) ، فاجعل التكلف له سأمًا ، وهبَّ في روض أخلاقه هبوبَ النسيم ، وحلَّ بطرفه حلولَ الوسن^(٥) وأنزل بقلبه نزولَ المسرة ، حتى يتمكن لك ودأده ، ويخلص فيك اعتقاده ، وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا ترخص

(١) يقال : درة يتيمة : أي لا نظير لها ، وكل شيء مفرد يميز نظيره فهو يتيم .

(٢) نابه منزله : إذا لم يرافقه . (٣) طرأ عليهم كنع : أتاهم من مكان ، أو خرج عليهم منه فجأة .

(٤) الضير فيه يعود له قلبك . . (٥) الوسن : النعاس .

في جانبه لحسودٍ لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعتك ، أو حسود له يَفَارُ لتجمله بصحبتك
وَمَعَ هذا فلا تَغْتَرَّ بطول صحبته ، ولا تتمهّد بدوام رَقَدته ، فقد ينهيه الزمان ، ويُغَيِّرُ
منه القلبَ واللِّسانَ ، ولذا قيل : « إذا أَحْبَبْتَ فَأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا ، ففي الممكن أن ينقلب
الصديق عدوًّا ، والعدو صديقًا » وإنما العاقل من جعل عقله مِغْيَارًا ، وكان كالمرآة
يَلْتَقِي كلَّ وجه بمثاله ، وجعل نُصب ناظره قول أبي الطيّب :

ولما صار ودّ الناس خِيًّا جزيّتُ على ابتسامِ بابتسام^(١)

وفي أمثال العامة : « من سَبَقك بيوم فقد سَبَقك بِعقل » ، فاحتدّ بأمثلة من جرّب ،
واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ،
وزُبْدَةُ تجاربهم ، ولا تتسكّل على عقلك ، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم ،
وابتاعوه غاليًا بتجاربههم ، يُرْحِكُ ويقع عليك رخيصًا ، وإن رأيت من له مروءة
وعقل وتجربة ، فاستفد منه ، ولا تضيع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك ،
وحنًا لك واهتداء .

وإياك أن تعمل بهذا البيت في كلِّ موضع : وَالْحُرُّ يُخَدَعُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ :
فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ما تسمع من
أقوال الشعراء يحسنُ بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فإن كان موافقًا لعقلك ، مُصْلِحًا
لحالك ، فراع ذلك عندك : وإلا فأنبذْه نَبَذَ النّوَاةَ ، فليس لكل أحد يُتَبَسَّمُ ، ولا كل
شخص يُكَلِّمُ ، ولا الجود مما يُعْمُ به ، ولا حُسنُ الظنِّ وطيبُ النفس مما يعامل به كل
أحد ، والله درّ القائل :

ومالي لا أوفى البرية قسطها على قدر ما يعطى وعقلي ميزان

وإياك أن تُعْطِيَ من نُسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدُّونَ بمعاملة الكفاء ، ولا

السكف بمعاملة الأعلى ، ولانضيق عرك فيمن يمالك بالمطامع ، وَيُنِيْبِك على مصلحة
حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وَبِعْ أَجْلاً مِنْكَ بِالْعَاجِلِ : وَأَقْلِلْ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفَمْهُمْ
بِالْجَلَّةِ ، وَالْكَنْ يَكُونُ ذَلِكَ بِمَيْتٍ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَالٌ وَلَا ضَجْرٌ وَلَا جَفَاءٌ ، وَلَا تَقُلْ
أَيْضاً : أَقْعُدْ فِي كِسْرِ يَدِي ، وَلَا أَرَى أَحَدًا ، وَأَسْتَرِيحُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَسَلٌ دَائِعٌ
إِلَى الذِّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَإِذَا عِلِمَ عَدُوُّكَ أَوْ صَدِيقُكَ مِنْكَ ذَلِكَ ، عَامِلًا بِحَسَبِهِ ، فَازْدِرَاكُ
الصَّدِيقِ ، وَجَسْرَ عَلَيْهِ الْعَدُوِّ ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَفْرُكَكَ صَاحِبُكَ عَنْ أَنْ تَدَّخِرَ غَيْرَهُ لِلزَّمَانِ ،
وَتَطِيْعُهُ فِي عِدَاوَةِ سِوَاهُ ، فَنِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْكَ ، فَتَطْلُبُ إِعَانَةَ غَيْرِهِ ، أَوْ اسْتِغْنَاءَ
عَنْهُ ، فَلَا تَجِدُ ذَخِيرَةَ قَدَمَتَيْهَا ، وَكَانَ هُوَ فِي أَوْسَعِ حَالٍ ، وَأَعْلَى رَأْيٍ ، بِمَا دَبَّرَهُ بِحِيلَتِهِ
فِي انْقِطَاعِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلَوْ اتَّفَقَ لَكَ أَنْ تَصْحَبَ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَرِيَاةٍ ، مَنْ يَكُونُ
لَكَ عِدَّةً ، لَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَصَوَّبَ ، وَسَلَّنِي فَإِنِّي خَيْرٌ ، طَال - وَاللَّهِ - مَا صَحِبْتُ
الشَّخْصَ أَكْثَرَ عَمْرَى ، لَا أَعْتَمِدُ عَلَى سِوَاهُ ، وَلَا أَعْتَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، مِنْخَدَعًا بِسِرَّابِهِ ،
مُوْتَوْقًا فِي جِبَائِلِ خُطَابِهِ ، إِلَى أَنْ لَا يَحْصُلَ لِي مِنْهُ غَيْرُ الْعَضِّ عَلَى الْبَنَانِ ، وَقَوْلٌ : لَوْ كَانَ
وَلَوْ كَانَ ! وَلَا يَحْمِلَنَّكَ أَيْضًا هَذَا الْقَوْلُ أَنْ تَنْظُهُ فِي كُلِّ أَحَدٍ ، وَتَمَجِّلَ الْمَكَافَاةَ ،
وَلَيْسَ حَسَنُ الظَّنِّ بِمَقْدَارٍ مَا ، وَالْفَيْطَانُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَحَابِلُ الْأَحْوَالِ ، وَفِي الْوُجُوهِ
دَلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ ، وَأَصْفَرُ إِلَى الْقَائِلِ :

لَيْسَ ذَا وَجْهِ مَنْ يَضِيفُ وَلَا يَقْدِرُ سَرِيًّا وَلَا يَدْفَعُ الْأَذَى عَنْ حَرِيمٍ ^(١)
فَمَنْ يَكُنْ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ هَذَا الْوَجْهِ قَوْلٌ وَجْهَكَ عَنْهُ قَبِيلَةٌ تَرْضَاهَا ، وَلْتَحْرَسْ جِهْدَكَ
عَلَى أَنْ لَا تَصْحَبَ أَوْ تَحْدُمَ إِلَّا رَبَّ حِشْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَمَنْ نَشَأَ فِي رِفَاهِيَةٍ وَمُرُوءَةٍ ،
فَإِنَّكَ تَنَامُ مَعَهُ فِي مِهَادِ الْعَافِيَةِ ، وَإِنْ الْجِيَادُ عَلَى أَعْرَاقِهَا ^(٢) تَجْرِي ، وَأَهْلُ الْأَحْسَابِ

(١) ضافه يضيفه : نزل به ضيفاً ، وقرى للضيف كرمي : أحسن إليه .

(٢) الأعراف : جمع عرق بالكسر وهو الأصل .

والمروءات يتركون منافهم متى كانت عليهم فيها وَصْبَةٌ ، وقد قيل في مجلس عبد الملك ابن مروان: أَشْرَبَ مُصْعَبُ الْخَمْرِ؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له عَلَى الْمَلِكِ - : لو عَلِمَ مُصْعَبُ أَنَّ الْمَاءَ يُفْسِدُ مُرْوَأَتَهُ مَا شَرِبَهُ ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .

يابنى ، وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وَتَغْيِيرٍ ، وقد قيل : « أَصْحَبٌ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » فمتى فارقت أحداً فَعَلَيْ حُسْنِي فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي : هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ؟ فَذَلِكَ قَالَ الْأَوَّلُ :

« وَلَمَّا مَضَى سَلْمٌ بِكَيْتٍ عَلَى سَلْمٍ » ، وَإِيَّاكَ وَالْبَيْتَ السَّائِرَ :

وَكَانَتْ إِذَا حَلَّتْ بَدَارُ قَوْمٍ رَحَلَتْ بِخَزِيئَةٍ وَتَرَكَتْ عَارَا
وَاحْرَصَ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلَ الْقَائِلِ : « ثَلَاثَةٌ تُبْسِقُ لَكَ الْوَدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسِعَ لَهُ فِي الْجُلُوسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » ، وَاحْذَرِ كُلَّ مَا بَيْنَهُ لَكَ الْقَائِلُ : « كُلُّ مَا تَعْرِسُهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ ، فَإِنَّكَ إِذَا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ » وَقَوْلُ الْآخِرِ : « ابْنَ آدَمَ يَتَمَسَّكُنُ حَتَّى يَتِمَّ كُنَّ » وَقَوْلُ الْآخِرِ : « ابْنَ آدَمَ ذَنْبٌ مَعَ الضَّعْفِ ، أَسَدٌّ مَعَ الْقُوَّةِ » .

وَإِيَّاكَ أَنْ تُثَبَّتَ عَلَى صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ ، فَيَحْكِي أَنَّ ابْنَ الْمُقَمَّقِ خَطَبَ مِنَ الْخَلِيلِ صُحْبَتَهُ ، فَجَاوَبَهُ : « إِنْ الصُّحْبَةُ رِيقٌ ، وَلَا أَضَعُ رِيقِي فِي يَدِكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ ^(١) » ، وَأَسْتَمَلِ ^(٢) مِنْ عَيْنٍ مَنْ تَعَاشَرَهُ ، وَتَفَقَّدَ فِي فَلَتَاتِ الْأَلْسُنِ وَصَفَحَاتِ الْأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمِلُكَ الْحَيَاءُ عَلَى السَّكُوتِ عَمَا يَضْرُكُ أَنْ لَا تَبَيَّنَهُ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ سِلَاحَ السَّلْمِ ، وَبِالْأَيْنِ يُعْرَفُ أَلْمُ الْجُرْحِ ، وَاجْعَلِ الْكُلَّ أَمْرًا أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةَ تَجْعَلُهَا نِهَايَةَ لَكَ .

(١) مَلَكَهُ مَلَكَهُ بِالْتَحْرِيكِ ، وَمَلَكَهُ مَلَكَهُ الْمِيمُ ، وَمَلَكَهُ مَلَكَهُ اللَّامُ : احْتَوَاهُ قَادِرًا عَلَى الْإِسْتِبْدَادِ بِهِ .

(٢) مِنْ اسْتَمَلَيْتَهُ الْكِتَابَ : سَأَلْتَهُ أَنْ يَمْلِيَهُ عَلَيَّ ، وَالْمَعْنَى : اسْتَرْشِدْ وَتَبَيَّنْ مِنْ نِظَرَاتِ عَيْنِهِ أَحَبِيبٍ

وَأَكْذُبُ مَا أَوْصِيكَ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ الْأَفْكَارَ ، وَتَسَلِّمَ لِلْأَقْدَارِ .

وَأَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّرَ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفْعَهُ

إِذَا الْأَفْكَارَ تَجَلَّبَبَ الِهْمُومُ ، وَتَضَاعَفَ الْغُمُومُ ، وَمَلَازِمَةُ الْقُطُوبِ ، عُنْوَانُ الْمَصَائِبِ
وَالْخُطُوبِ ، يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ ، وَيَشْمَتُ الْعَدُوُّ الْمُجَانِبِ ، وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا
نَفْسُكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصَرِبُ بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزْنَ ، وَلَا يَرْعَى بِطُولِ عَتَبِكَ الزَّمْنَ ، وَلَقَدْ
شَاهَدْتُ بَعْرَ نَاطَةِ شَخْصًا قَدْ أَلْفَتَهُ الِهْمُومُ ، وَعَشِقْتَهُ الْغُمُومُ ، مِنْ صَفْرِهِ إِلَى كِبَرِهِ ، لَا تَرَاهُ
أَبْدًا خَلِيًّا مِنْ فِكْرِهِ ، حَتَّى لُقِّبَ بِصَدْرِ الِهْمِ ، وَمَنْ أَعْجَبَ مَا رَأَيْتَهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ
فِي الشَّدَةِ ، وَلَا يَتَعَلَّلُ بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرْجٌ ، وَيَتَنَكَّدُ فِي الرِّخَاءِ خَوْفًا مِنْ أَنْ لَا يَدُومَ .
وَيُنْشِدُ : تَوَقَّعْ زَوَالَاً إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ : وَعِنْدَ التَّنَاهَى يَقْضُرُ الْمُتَطَاوِلُ .

وَلَهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الشَّانِ عَجَائِبُ ، وَمِثْلُ هَذَا عُمرُهُ مَحْضُورٌ يَمُرُّ ضِيَاعًا .

وَمَتَى رَفَعْتَ الزَّمَانَ إِلَى قَوْمٍ يَذُمُّونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تُحْسِنُهُ حَسَدًا لَكَ ، وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ
قَدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَزْهِيدًا لَكَ فِيهِ ، فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَزْهَدَ فِي عِلْمِكَ ، وَتَرَكَنَ إِلَى
الْعِلْمِ الَّذِي مَدَحُوهُ ، فَتَكُونَ مِثْلَ الْغُرَابِ الَّذِي أَعْجَبَهُ مَشْيُ الْحَجَلَةِ (١) فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ
فَصَعَبَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَتَنَسَّيَهُ ، فَبَقِيَ مُخْبَلِّبَ الْمَشْيِ ، كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الْغُرَابَ (وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةً فِيمَا مَضَى مِنْ سَالَفِ الْأَجْيَالِ) (٢)

حَسَدَ الْقَطَا ، وَأَرَادَ يَمْشِي مِشْيَهَا فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَالِ (٣)

(١) الحجل بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقطا أحر المنقار والرجلين ، والواحدة حجلة واسم جمعه
حجل بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربي (ومفرده ظربان يفتح فكسر وهو دويبة منتنة الريح)
(٢) هذا البيت ليس مثبتاً في الأصل ، ونجد أوردته الدميري مع البيهقي بمسده في حياة الحيوان
الكبرى ٢ : ٢٤٤ . (٣) العقال : داء في رجل الدابة إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط .

فَأَضَلَّ مِشِيَّتَهُ ، وَأَخْطَأَ مَشِيئَتَهَا فَلِذَلِكَ سَمَّوهُ أَبَا مِرْزَالٍ^(١)
 وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرَكَ مَنْ جَعَلَ يَدُومَ الزَّمَانِ وَأَهْلَهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا
 كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ ، وَلَا مَكَانٌ يُرْتَاحُ فِيهِ » ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَكْثَرُ
 مَا يَكُونُونَ مِنْ صَحْبِهِ الْحَرَمَانِ ، وَاسْتَحَقَّتْ طَلْعَتُهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا^(٢) عَلَى النَّاسِ
 بِالسُّؤَالِ فَفَتَحْتَهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلْبِ الْأُمُورِ مِنْ وَجْهِهَا ، فَاسْتَرَا حُوا إِلَى الْوُقُوعِ
 فِي النَّاسِ ، وَإِقَامَةِ الْأَعْذَارِ لِأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَتَعْذِيرِ أُمُورِهِمْ ، وَلَا تُزَلُّ هَذِينَ
 الْبَيْتَيْنِ مِنْ فِكْرِكَ :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
 فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَقَوْلِ الْآخِرِ :

تَهْ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ ، وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى^(٣)
 كَالْفِضِّ يَسْفُلُ مَا أَكْتَسَى ثَمَرًا ، وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

وَلَا قَوْلِ الْآخِرِ :

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
 وَاعْتَقِدْ فِي النَّاسِ مَا قَالَهُ الْقَائِلُ :

وَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَفْعُو لَا يَعْدَمُ عَلَى الْعَيْ لَأَمَّا
 وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْمَبْطُوطُ فَإِيَاكَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَةَ
 وَكُنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقَوْمٌ وَرَجَلَاكَ فِي عَافِيَةٍ
 وَتَحْفَظُ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ الْآخِرِ :

(١) مَنْ أَرَقَّتِ الدَّابَّةُ : إِذَا أَسْرَعَتْ . (٢) أَوْرَدَ الْعَمَلُ لِأَزْمَانِهِ وَهَرَمْتَهُ ، جَاءَ فِي كِتَابِ الْفَرَاغِ :
 « أَبْرَمَهُ فَبَرَمَ كَفَرَحَ وَتَبَرَمَ : أَمَلَهُ فُلٌ » . (٣) أَقْتَرُ : انْقَصَرَ .

ومن دعا الناس إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

وللهِ در القائل :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافيًا فإذا قنعت فكلَّ شيءٍ كافي
والأمثال يضرِّبها لدى اللبِّ الحكيم ، وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم ،
والفطن يفتن بالقليل ، ويستدلّ باليسير ، والله سبحانه خليفتي عليك ، لا ربَّ سِوَاهُ .
(فتح الطيب ١ : ٤٩٣)

٢٠ - خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفي سنة ٧٢٨ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن عليّ بن الزيات^(١) خطبة ألفت الألف من حروفها على كثرة ترددها في الكلام ، وهي :

« حَمِدْتُ رَبِّي جَلًّا مِنْ كَرِيمٍ مَحْمُودٍ ، وَشَكَرْتُهُ عَزًّا مِنْ عَظِيمٍ مَعْبُودٍ ، وَتَرَّهْتُه
عَنْ جَهْلٍ كُلِّ مُلْحَدٍ كَفُورٍ ، وَقَدَّسْتُهُ عَنْ قَوْلِ كُلِّ مُفْسِدٍ غَرُورٍ . كَبِيرٌ لَوْ تَقَوَّمَ
فِي فَهْمٍ مُلْحَدٌ^(١) ، قَدِيرٌ لَوْ تَصَوَّرَ فِي رَسْمٍ مُلْحَدٌ^(٢) ، لَوْ عَرَّتَهُ^(٣) فِكْرَةٌ تَصَوَّرَ لَتَصَوَّرَ
وَلَوْ حَدَّثَتْهُ فِكْرَةٌ لَتَقَدَّرَ^(٤) ، وَلَوْ فَهِمَتْ لَهُ كَيْفِيَةٌ لَبَطَلَ قَدَمُهُ ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَهُ كَيْفِيَةٌ
لَحْصَلَّ عَدَمُهُ ، وَلَوْ حَصَرَ فِي ظَرْفٍ لَقُطِعَ بَتَجَسُّمِهِ ، وَلَوْ قَهَرَ وَصَفَ لَصُدِعَ^(٥)
بَتَقْسَمِهِ ، وَلَوْ فَرَضَ لَهُ شَبَحَ لَرَهَقَهُ^(٦) كَيْفٌ . عَظِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيْبٍ قَطْرٌ ، عَلِيمٌ مِنْ

(١) هو أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلش ما لقة وله سنة ٧٤٩ هـ ، وتوفي سنة ٧٢٨ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان يفتح مجالسه أكثر الأحيان بخطب غريبة ، يطبق بها مفاسل الأغراض التي يشرع فيها ، وينظم الشعر دائماً في مراجعته ومحاطبته وإجازته من غير تأن ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل في السفارات بين الملوك لدحض السخائم ، وإصلاح الأمور ، فكانوا يوجبون حقه ، ويلتمسون بركته ودعاه » وله تصانيف ، كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

(١) أي لعرف ، من الحد : وهو التعريف . (٢) من التحديد ، أي لصارت له ذات محددة ، ولو أنه قال : « قديم » بدل « قدبر » لناسب أن يقول بعده : « لجد » بالجيم المفتوحة أي لصار جديداً حادثاً . (٣) عرته : أي اصترته وتناوكت ، وفي الأصل « عدته » بالبدال وأراه محرفاً ، وتصور أي تمثل في صورة ، يقال : صورته فتصور . (٤) لتقدر : أي صار له قدر مجسم ، وفي الأصل « لتذر » وأراه محرفاً . (٥) صدع به : جهر . (٦) رهقه : غشيه ولحقه .

غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يُمسكه، معبود من غير وهم يدركه، كريم من غير عوض يلحقه، حكيم من غير عرض يلحقه^(١)، قوى من غير سبب يجمعه، على من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعرض في قيوميته^(٢)، ولو ثبت له حس لنوزع في ديموميته^(٣).

ومنها: تقدس وعز فعله، وتنزه عز اسمه وفضله، جل قاهر قدرته، وعز باهر عزته، وعظمت صفته، وكثرت منته، فتق ورتق، وصور وخلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حمدته حمد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وزكك^(٤) بصيرة دينه لبه، ربط سلك سلوكه وشده^(٥)، وهدم صرح عتوه وهده، وحرس معقل عقله وحد، وطرده غرور غرته^(٦) ورذله^(٧)، علم علم تحقيق فنحاحوه، فخر له عز وجل بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه وسلم عليه، رسوله وخير خاتمه، ونعلن بنهوضه في تبين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف ير كنون^(٨)، ففازوا بقصده وسديد سعيه، بشر مطيعه فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشق بنقمته.

وبعد: فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون، بصرتم لو كنتم تبصرون، وذكركم لو كنتم تذكرون، ظهرت لكم حقيقة نشركم،

(١) يلحقه الأول: أي يناله ويأخذه، ويلحقه الثاني بمعنى يتصف به.

(٢) القيوم: من أسماءه تعالى، أي الذي لا نلد له. (٣) الديمومة: الدوام.

(٤) زكت: طهرت.

(٥) في الأصل « وشيد » وأراه محرفاً عن « شد » إذ هي التي تلائم قوله قبلها « وربط ».

(٦) الغرة: الغفلة. (٧) رذله وأرذله: عده رذلاً.

(٨) ركن إلى الشيء: ركنا: مال إليه واطمان، أي بين لهم كيف يركنون إلى الحق والصواب،

وقد كانوا من قبله يعمهون في ضلالهم ويخطون.

وبرزت لكم حقيقة حشركم ، فكم تركضون في طلق^(١) غفلتكم ، وتفعلون عن يوم بعثكم ، وللموت عايكم سيف مسلول ، وحكم عزم غير معلول ، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه ، ويخبر بجميع كسبه ، ويفرق بينه وبين صحبه ، ويعدم نصرة حزبه ، ويشغل بهمة وكرهه ، عن صديقه وتربه ، وتلشر له رُقعة ، وتمين له بُقعة ؟ فرج عبد نظر وهو في مهل لنفسه ، وترسل في رضى عمل جنة لجلول رمسه^(٢) وكسر صنم شهوته ، ليقر في مجبوحة^(٣) قدسه .

ومنها : فتلبه - ويحك - من سنتك ونومك ، وتفكر فيمن هلك من محبتك وقومك ، هتف بهم من تعلم ، وشب عايهم منه حرق^(٤) مظلم ، فخربت بصيخته ربوعهم ، وتفرقت لهوله جموعهم ، وذل عزيزهم ، وخسى ربيعهم ، وصم سميعهم ، فخرج كل منهم عن قصره ، ورمي غير مؤسد في قبره ، فهم بين سعيد في روضة مقرب ، وبين شقي في حفرة معدب ، فستوهب منه عز وجل عصمة من كل خطيئة ، وخصوصية تقي من كل نفس جريئة^(٥) .

(الإحاطة ، في أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ - خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

وخطب القاضي أبو الفضل عياض^(٦) خطبة ضمنها سور القرآن ، فقال :
« الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ، وبين في سورة البقرة أحكامه ، ومدد

(١) يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أي شوطاً أو شوطين . (٢) الرسم : القبر .

(٣) مجبوحة المكان : وسطه . (٤) الحرق : النار ولهبها .

(٥) يلاحظ أن في الخطبة خمس كلمات فيها ألف وهي : قاهر . باهر . عاصيه . ففازوا . فنحا

(٦) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبته - بلد براكش على الساحل الشمالي ودخل الأندلس طالباً لعلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، وفي النحو واللغة ، واستفضى ببلده سبته ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفى ببراكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المقرئ بعد أن أورد هذه الخطبة : « وفي نفسى من نصبتها له شيء ، لأن نفس القاضي في البلاغة أهل من هذه الخطبة ، وانه تعالى أعلمه .

في آلِ عِمْرَانَ والنساءِ مائدةَ الأنعامِ لِيُتِمَّ إِنْعامَهُ ، وجعل في الأعرافِ أُنفالَ تَوْبَةٍ
يونسَ والرِّ كِتَابُ أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ ، بمجاورة يوسف الصِّدِّيقِ في دار الكرامة ،
وسَبَّحَ الرعدُ بحمده ، وجعل النارَ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم ، لِيُؤْمِنَ أَهْلُ الحِجْرِ^(١)
أنه إذا أتى أمرُ اللَّهِ سبحانه فلا كَهْفَ ولا ملجأَ إلا إليه ، ولا يُظْلَمُونَ قَلَامَةً ، وجعل
في حروف كَهَيْعَصَ سِرًّا مكنونًا ، قدَّم بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء
ليُظْهِرَ إجلاله وإِعظامه ، وأوضح الأمرَ حتى حَجَّ المؤمنونَ بِنورِ الفُرْقانِ ، والشعراءُ
صاروا كالنملِ ذُلًّا وَصَغَارًا لِعِظَمَتِهِ ، وظهرت قَصَصَ العنكبوتِ فآمنَ به الرومُ ،
وأيقنوا أنه كلامُ الحَيِّ القَيُّومِ ، نزل به الرُّوحُ الأمينُ على زَيْنِ مَنْ وَاتَى يومَ القيامةِ ،
وأوضح لقمانَ الحكمةَ بالأمرِ بالسجودِ لربِّ الأحزابِ ، فَسَبَّأَ فاطرُ السمواتِ أَهْلَ
الطاغوتِ ، وأكسبهم ذلا وخِزْيًا وحَسْرَةً وندامةً ، وأمدَّ يسَ صلى الله عليه وسلم
بتأييدِ الصَّافَّاتِ^(٢) ، فصادَ الرُّمُرَ يومَ بَدْرِهِ ، وأوقعَ بهم ما أوقعَ صناديدهم في القَلِيبِ^(٣)
مكدوس ومكبوب ، حين شالَتْ بهم النِّعامةُ^(٤) ، وغفرَ غافِرُ الذنْبِ وقابلَ التَّوْبِ
للبدريِّينَ رضَى اللهُ عنهم ما تقدم وما تأخر حين فُصِّلَتْ كَلِماتُ اللهِ ، فذلَّ من حَقَّتْ عليه
كَلِمَةُ العذابِ وأيسَ من السلامة ، ذلكَ بِأَنَّ أَمْرَهُم سُورَى بينهم ، وشغلهم زُخْرُفُ
الآخِرَةِ عن دُخَانِ الدنْيا ، فحَثُّوا أَمامَ الأَحْقَافِ^(٥) لقتالِ أعداءِ محمد صلى الله عليه وسلم
يمينه وَشِمَالَهُ وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتحَ وَبَوَّؤُوا حُجْرَاتِ الجِنانِ ، وحين تَلَّوْا :
قَ وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ ، وتَدَبَّرُوا جِوابَ قَسَمِ الدَّارِيَّاتِ^(٦) والطورِ ، لاحَ لهم نَجْمُ الحَقِيقَةِ
وانشَقَّ لهم قمر اليقينِ ، فنافروا السَّامةَ ، ذلكَ بأنهم آمنهم الرحمنُ إذا وقعت الواقعةُ ،

(١) واد بين المهينة والشام ، وهو منازل نمود .

(٢) الملائكة تصف نفوسها لعبادة . (٣) القليب : البئر .

(٤) شالت نعماتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب مزهم .

(٥) واد باليمن به منازل عاد . (٦) الداريات : للرياح تذر والتراب وغيره .

واعترف بالضعف لهم الحديد ، وهزَمَ المجادلون ، وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْخُسْرِ ،
يُخْرِجُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، حين نافرُوا السلامة .

أحمدَه حمدًا من امتحنته صفوفُ الجموع في نَفَقِ التَغَابُنِ ، فطَلَقَ الْحُرْمَاتِ حين
اعتبرَ الْمَلِكُ وعامه ، وَقَدِ سَمِعَ صَرِيْفَ الْقَلَمِ وكأَنَّهُ بِالْحَاقَّةِ^(١) والمعارج يمينه وَشِمَالَهُ وخلفه
وأمامه ، وقد نأح نوح الجن قزَمَل^(٢) وتدنَّرَ فَرَقًا من يوم القيامة ، وَأَنَسَ بُرْسَلَاتِ
النَّبَأِ ، فزِعَ الْعُبُوسَ من تحت كُورِ العامة ، وظهر له بالانفطار التطفيفُ ، فانشَقَّتْ
بُرُوجُ الطارق بتسبيح الملك الأعلى . وَغَشِيَتْهُ الشَّهَامَةُ ، فوربَّ الفجر والبلد والشمس
والليل والضحي ، لقد انشِرت صدور المتقين ، حين تَلَّوْا سورة التين ، وَعَلِقَ الْإِيمَانَ
بقلوبهم ، فكلُّ على قدر مقامه يُبين ، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ، ليله ونهاره
وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزَّلْزَلَةَ رَكِبُوا العاديات^(٣) ليطفئوا نور القارعة ، ولم
يلههم التكاثر حين تلاوا سورة العصر والمهزَّة ، وتمثلوا بأصحاب الفيل فليعبُدُوا رَبَّ
هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ . أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ جَعَلُوا عَلَى
رِعْوَسِهِمْ مِنَ الْكُورِ عِمَامَةً ؟ فَالكوثر^(٤) مكتوب لهم ، والكافرون خذلوا ، وهم
نُصِرُوا ، وَعَدِلَ بِهِمْ عن لَهَبِ الطَّامَّةِ ، وبسورة الإخلاص قَرُّوا وَسَعِدُوا ، ورب
الفلق^(٥) والنَّاسُ ، استعاذوا فأعِينُوا من كل حُزْنٍ وهمَّ وغمَّ وندامة ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، شَهَادَةً تُنَالُ بِهَا
مَنَازِلُ الْكِرَامَةِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا غَرَّدَتْ فِي الْأَيْكِ حَمَامَةٌ .

(نفع الطيب ٤ : ٢٩١)

(١) الحاقَّة : القيامة التي فيها يحق ما أنكر من البعث والجزاء .

(٢) قزَمَل بشيابه : تلفف بها ، وكذا تدنَّر .

(٣) الخليل تمدو في الفجر ، والقارعة التي تفرغ القلوب بأهوالها .

(٤) الكوثر : نهر في الجنة . (٥) الفلق : الصبح .

٢٢ - خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المقرئ^(١) خطبة على هذا النمط نصّها:

« الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة، ليصطفى من آلِ عِمْرَانَ رجالاً ونساءً، وفضلهم تفضيلاً، ومَدَّ مائدةً إنعامه وَرَزَقَهُ، ليعرفَ أعرافَ أنفالِ كرمه حقّه على أهل التوبة، وجعل لِيُونُسَ في بطن الحوت سبيلاً، ونجّى هوداً من كَرْبِهِ وحزنه، كما خلّص يوسف من جُبِّه وسجنه، وسبّح الرعدُ بحمده ويُمْنه، وَاتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً، الذي جعل في حِجْرِ الحِجْر من النحل شراباً نَوَّع باختلاف ألوانه، وأوحى إليه بِخَفَى لطفه سبحانه، واتخذ منه كَهْفًا قد شيدَ بنيانه، وأرسل رُوحَهُ إلى مريم فتَمَثَّلَ لها تمثيلاً، وفضلَ طه على جميع الأنبياء، فأتى بالحج والكتابِ المكنون، حيثُ دعا إلى الإسلام قد أفلحَ الْمُؤْمِنُونَ، إذ جعلَ نورَ الفرقان دليلاً، وَصَدَّقَ محمداً صلى الله عليه وسلم الذي كَجَزَتِ الشعراءُ في صِدْقِ نَعْتِهِ، وشهدت النملُ بصدقِ بَعْتِهِ، وَبَيَّنَ قصصَ الأنبياء في مُدَّةٍ مُكْتَبَةٍ، ونسجَ العنكبوت عليه في الغار سِتْرًا مَسْدُولًا، وَمَلِئَتْ قلوب الروم رُعبًا من هيئته، وتعلَّم لُقمان الحكمة من حِكْمَتِهِ، وَهَدَى أهل السجدة للإيمان بدعوته، وَهَزَمَ الأحزاب وسبَّاهم وأخذهم أخذًا وَبِيلاً، فَاقْبَهُ فَاطِرُ السموات والأرض يس، كما نَفَذَ حكمه في الصَّافَاتِ وَبَيَّنَ صِدْقَهُ بإظهار المعجزات، وفرَّق زُمَرَ المشركين، وَصَبَرَ على أقوالهم وهجرهم هجرًا جميلًا، ففقر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وَفُصِّلَتِ رقابُ المشركين إذ لم يكن أمرهم سُورَى بينهم، وزخرف منار الإسلام، وَخَفِيَ دخانُ الشُّركِ، وَخَرَّتِ المشركون جاثيةً، كما أنذر أهلَ الأحقافِ فلا يهتدون سبيلاً، وأذلَّ الذين كفروا شدة القتال،

(١) هو سعيد بن أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب .

وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجرت الحجارَات الحريز، وبقي القدرة قُتِلَ
الخرّاصون^(١) تقتيلاً، كلمّ موسى على جبل الطّور، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم،
فاقتربت بطاعته مبادئ السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور،
فتمجّب الحديد من قوته، وكثرة المجادلة في أمته، إلى أن أُعيد في الحشر بأحسن مقيلاً
أمتحنه في صفّ الأنبياء وصلّى بهم إماماً، وفي تلك الجمعة مُلئت قلوبُ المنافقين من
التنابُزِ حُسراً وإرغاماً، فطلّق وحرّم، تبارك الذي أعطاه الملك، وعلم بالقلم، ورتّل
القرآن ترتيلاً، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى
من الطوفان، وأتت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن، فأُنزل عليه: «يَأَيُّهَا الْمُزْمَلُ
قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا»، فكم من مدثر يوم القيامة شفقة على الإنسان إذا أرسل
مُرسلات الدمع، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات المشركين
إذا عبس عليهم مالك وتولّاهم بالعذاب، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء،
وكانت الجبال كثيباً مهيباً، فويلٌ للمطفّفين» إذا انشقت السماء بالغمام، وطويت
ذات البروج، وطرق طارق الصّور بالنفخ للقيام، وعزّ اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر،
فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلاً، فطوبى للمصاين الضحى عند انشراح
صدورهم، إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة، فسجدوا باقراً اسم ربك الذي
خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر، وتبتلوا بتبتيلاً، ولم يكن
للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم
كالعاديات إلى سواء^(٢) الحجيم، وزلزلت بهم قارعة العقاب، وقيل لهم: ألهأكم
التكاثُرُ، هذا عصر العقاب الأليم، وحُشِرَ الهُمزة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون
فتيلاً، وقالت قريش ما أمتم من هول الحشر، أرايت الذي يكذب بالدين كيف

طُرِدَ عن الكوثر؟ وَسِيقَ الكافرون إلى النار، وجاء نصر الله والفتح، فَتَبَّتْ بَدَا
أَبِي كَلْبٍ : إذ لَا يَجِدُ إلى سورة الإِخْلَاصِ سَبِيلًا ، فنَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ،
ونَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ ،
وتُوبُ إلىهِ وتَتَوَكَّلُ عَلَيهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . (نفع الطيب ٤ : ٢٩٢)

٢٣ — خطبة الكفعمي التي ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمي^(١) خطبة على هذا النمط أيضا نصها :

« الحمد لله الذي شَرَّفَ النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنام ،
وفضَّلَ آلَ عمرانَ على الرجال والنساء ، بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم
بأعراف الأنفال ، وكتب لهم بَرَاءةً من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، الذي نَجَّى يونسَ وهو دأً ويوسفَ من قومهم ، برَعَدِ الانتقام ، وغَدَى
إبراهيمَ في الحجرِ بأعابِ النحلِ ذاتِ الإسرار ، فضاهى كهفَ مريمَ عليها السلام ،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء ، وحجج المؤمنين ، ونور فرقان
الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلِه تُخْبِرُ ، واقصص العنكبوت الروم تذكُرُ ،
ولقمان في سجدته يَشْكُرُ ، والأحزاب كأيدى سبأ تُقَهَّرُ ، وفاطرس لصفاته يُنصَّرُ ،
وصادمقلة زُمَرُه تنظر الأعلام ، فآل حمّ بقتال فتحه في حجرات قافه قد ظَهَرَتْ ،
وذاريات طوره ونجمه وقره قد عَطِرَتْ ، وبالرحمن واقعةُ حديده يوم المجادلة قد نُصِرَتْ
وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حَسَرَتْ^(٢) ، وَصَفَّ جَمْعته فائزٍ إذ أجساد
المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحرير ومَقامُ الْمَلِكِ والقلم ، فناهيك به من

(١) قال صاحب نفع الطيب في ترجمته: « هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كافر
حما قرية من قرى أعمال سفند كما نقول في النسبة إلى بني عبد اللدار بحدري ، وإلى حصن كيفا : حصن . »
(٢) حشر البصر كضرب : كل فهو حسير .

مقام ، وفي الحاقة ، أَعْلَى اللهُ له المعارج نوح المطهر ، وخصه من بين الإنس والجن بِبَيِّئِهَا الزَّمَلُ ، وَيَأْيِهَا المَدَّثُ ، وشفعه في القيامة إذا دموع الإنسان مُرْسَلَات كالماء المتفجر ، ووجهه عند نيا النزاعات وقد عبس الوجه كاهلال التنور ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حُرِست لمولده السماء بالطارق الأعلى ، وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المرذة اللثام ، فهو البلد الأمين ، وشمس الليل والضحي المحصوص بانسراح الصدر ، والمفضل بالتين والزيتون ، المستخرج من أمشاج^(١) العلق ، الطاهر العليّ القدر ، شجاع البرية يوم الزلزال ، إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهمة وأصحاب الفيل إذ مَكَّرُوا بقريش ولم يتواصوا بالحق ولم يتواصوا بالصبر ، المحصوص بالدين الحنيفي والكوثر السلسال ، والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تبت يداً مُعَادِيه ، ونعم بالتوحيد مؤاليه ، وما أفصح فلق الصبح بين الناس وامتد الظلام .

(فتح الطيب ٤ : ٢٩٥)

(١) مشج بينهما كضرب : خلط ، والنش مشيج ، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام .
(١٥ - جبهة خطب العرب - ثالث)

الباب الثاني

في

خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

١ - خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة

لما وَلى أبو بكر بن عبد الله المدينة^(١) وطال مُكثهُ عليها ، كان يبلغهُ عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَإِسْعَافٌ من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهل البيوتاتِ وَوَجوه الناس في يوم جمعة أن يقربوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إني قائلٌ قولاً ، فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا

(١) لا أعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة، وإنما الذي قرأته في تاريخ الطبري أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري ولي المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز « انظر تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ » وذكر أيضاً القلقشندي في صبح الأمشي « ج ٤ : ص ٢٩٦ » أن أبا بكر بن محمد هذا ولي المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، والظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإني لأستأنس في ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاهما خمس سنين ، وبالفرض الذي قبلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان في العهد الأموي من اتساع دائرة الاختلاف الحزبي ، والفضال السيامي البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه محمد ، تسمى به تواضعاً ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلاً كتاب عمر في صلح أهل إيليا « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان » . (الطبري ٤ : ١٥٩) .

يَعُدُّ مِنْ ذِمَامِهَا^(١) إِنْ قَصَّرْتُمْ عَنْ تَفْصِيلِهِ ، فَلَنْ تَعْجَزُوا عَنْ تَحْصِيلِهِ ، فَأَرْعُوهُ أَبْصَارَكُمْ ، وَأَوْعُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهُ^(٢) قُلُوبَكُمْ ، فَالْمَوْعِظَةُ حَيَاةٌ ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ^(٣) السَّبِيلِ » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » فَأَتُوا الْهَدَى تَهْتَدُوا ، وَاجْتَنِبُوا النَّعْيَ تَرْتُدُّوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَمْرُكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَرَضِيهَا لَكُمْ ، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْفُرْقَةِ ، وَسَخَطَهَا مِنْكُمْ ، فِ « سَأْتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ^(٤) وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ، وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(٥) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنْ تَبِعِ رِضْوَانِهِ ، وَتَجَنَّبِ سَخَطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ .

وَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالدِّينِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا عَلَى الْحَقِّ ، وَوَزَّرَ أَدْوَانَ الْخَلْقِ اخْتَصَمَهُمْ بِهِ ، وَانْتَجَبَهُمْ لَهُ ، فَصَدَّقُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَعَزَّرُوهُ^(٦) وَوَقَّرُوهُ ، فَلَمْ يُقَدِّمُوا إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وَلَمْ يُحْجِمُوا إِلَّا عَنِ رَأْيِهِ ، وَكَانُوا أَعْوَانَهُ بَعْدَهُ ، وَخُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوْصَفَهُمْ فَأَحْسَنَ صِفَتَهُمْ ، وَذَكَرَهُمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ^(٧) ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

- (١) أى فلا يخرج عن حرمتها ، وتأنيث الضمير في « ذمامها » باعتبار الموعظة أو المقالة .
 (٢) أى الزقوه به . (٣) المقصد : استقامة الطريق ، أى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق .
 (٤) التقاة : التقوى ، وجمعها تقى كرطبة ورطب ، وأصلها رقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في وثودة وتخمّة ، والياء ألفاً . (٥) الشفا : حرف كل شيء .
 (٦) التقزير : التبخيم والتنظيم وهو أيضاً أشد الضرب . ضد .
 (٧) أى ذلك مثلهم في الكتاب ، والشط : فراخ الزرع ، فأزره أى فقواه ، فاستوى على سوقه : أى فاستقام على أصواته وسبقاته .

فَازَرَهُ ، فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ، يُعْجِبُ الزَّرْعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ، فمن غاظه كفر وخاب، وفجر وخسر، وقال الله عز وجل: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١) ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فمن خالف شريطة الله عليه لهم ، وأمره بإياه فيهم ، فلا حق له في الشيء ولا سهم له في الإسلام ، في آي كثيرة من القرآن .

فمرقت مارقة من الدين ، وفارقوا المسلمين ، وجعلوهم عِضِينَ^(٢) ، وتشعبوا أحزابا ، أشابات وأوشابا^(٣) ، فخالفوا كتاب الله فيهم ، وثنأه عليهم ، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة « ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ » مالى أرى عيوننا خزررا^(٤) ، ورقابا صعرا^(٥) وبطونا بجزرا^(٦) شججا لا يسيفه الماء^(٧) ، وداء لا يشرب فيه الدواء « أَفَنْضِرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟ » كلا والله ، بل هو الهناء^(٨) والطلاء ، حتى يظهر العذر ، ويبوح السر ، ويضح الغيب ،

(١) يؤثرون : يفضلون ويقدمون والخصاصة : الحاجة والفقر .

(٢) جمع عضة كعدة : وهى الفرقة والقطعة . (٣) أشابات جمع أشابة : وهى الأخلاط ، وأشبه كضربه : خلطه ، والأوشاب جمع وشب كحمل ، والأوباش جمع وبش كسبب : الأخلاط والسفلة .

(٤) جمع خزرراء مؤنث أخزر وصف من الخزر بالتحريك ، وهو النظر فى أحد الشقين

(٥) الصعر بالتحريك : ميل فى الوجه ، أو فى أحد الشقين ، أو داء فى البعير يلوى عنقه منه ، صعر

كفرح فهو اصعر . (٦) بجر بطنه كفرح أيضا فهو بجر : عظم ، والجمع بجر كحمر .

(٧) الشجج : ما اعترض فى الخلق من عظم ونحوه ، لا يسيفه : أى لا يجعله سائغا سهل المدخل فى الخلق .

(٨) الهناء : القطران ، يريد أنه يعالجهم كما تطفى الإبل الجربى بالقطران لمدواتها .

وَيُسَوِّسَ الْجُنُبَ^(١) ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخَلِّقُوا عَبَثًا ، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدَى ، وَيُحْكَمْ ! إِنْ لَسْتُ
 أَتَاوِيًّا^(٢) أَعْلَمُ ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمُ ، قَدْ حَلَبْتُمْكُمْ أَشْطَرًا^(٣) ، وَقَلَّبْتُمْكُمْ أَبْطَنًا وَأَظْهَرًا ،
 فَعَرَفْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّنَنِمْ ، وَأَسْرَرُوا الْكُفْرَ
 فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ
 فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا
 يَأْذُنُونَ لَهُمْ^(٤) ، وَيُصْغُونَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا قَبْلَ وَقُوعِ الْقَوَارِعِ^(٥) ، وَطُولِ الرِّوَايَاتِ ،
 هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا^(٦) ، فَلَسْتُ أَعْتَنُّشَ^(٧) آتِيًّا وَلَا تَائِبًا ، « عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَكَفَ وَمَنْ
 عَادَ قَيْنَتَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ، فَأَسْرَرُوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوا ، وَأَجْهَرُوا
 بِهِ وَأَخْلَصُوا ، فَطَالَا مَشِيَّتُمُ الْقَهْقَرَى نَاكِصِينَ ، وَلَيْعَلَّ مِنْ أَدْبَرٍ وَأَصْرًا أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ
 بَيْنَ يَدَيِ نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوكُمْ إِلَى أَهْوَاءِ تَتَّبَعُ ، وَلَا إِلَى رَأْيٍ يُبْتَدَعُ ، إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى
 الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، الَّتِي فِيهَا خَيْرٌ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَمَنْ أَجَابَ فإِلَى رَشْدِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَنِ
 قَصْدِهِ ، فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ الْجَدَائِعِ^(٨) ، وَلَا تُؤَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَسْتَبْدِلُوا

(١) وإح السر : ظهر ، وباح بسره : أظهره ووضع ويضح ويضع واحد ، ويسوس : أي يروض
 ويدال : مضغف ساسه يسوسه . يقال : سوست له أمرًا إذا روضته وذلكه ، والجنب : الصعب الذي
 لا يتقاد . (٢) الأتاوى : الغريب عن القوم . (٣) اقتبسه من المثل المشهور : « حلب الدهر
 أشطره » وللناقة شطران ، قدامان وآخران ، فكل خلفين شطر بفتح الشين — والحلف للناقة كالضرع
 لبقرة — وأشطره منصوب على البدل ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختر الدهر وعرف
 خيره وشره . (٤) أذن له وإليه كفرح : استمع . (٥) القوارع جمع قازعة : وهى الداهية
 المفاجئة ، والروائع جمع رائعة ، وهى المفزعة . (٦) أى هذا الذى أتهدكم به من القوارع والروائع ،
 لهذا الذى تخوضون فيه ، ومقرون به .

(٧) اعتنشه : ظلمه .

(٨) الذى فى كتب اللغة : « جداع كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدع بالمال وتذهب به » وهذه
 الكلمة هى التى يسوغ أن يجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فلعل الأصل « الجوادع »
 جمع جادة : وهى القاطمة ، يريد الشرائع الصحيحة الحققة لأنها تقطع الباطل وترهقه كأنه يقول : اتبعوا
 الخطة الحاسمة ، أو الجدائع جمع جدوع كعجوز صيغة مبالغة من جادة ، وفى التعلوق على نهاية الأرب
 « ولعله الجوامع : أى التى يجمع الناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده » .

الذى هو أدنى^(١) بالذى هو خير « بئسَ للظالمينَ بدلاً » .

إياكم وبنيات^(٢) الطريق ، فعندها التزنيق والرهب^(٣) ، وعليكم بالجادة ، فهي أسد^(٤) وأورد ، ودعوا الأمانى فقد أردت من كان قبلكم ، وليس للإنسان إلا ما سعى ، والله الآخرة والأولى ، و « لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ »^(٥) بعداب وقد خاب من أفترى . « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٥٦ ؛ وصحح الأضنى ١ : ٢٢٠)

٢ - وصية أعمى من الأزدي لشباب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت ببيشة^(٦) رجلاً من أزدي السراة أعمى ، يقوده شاب جميل ، وهو يقول له : « يا سمي ، لا يعرّئك أن فسح الشاب خطوك ، وخطى سرّبك ، وأرّفة وردك^(٧) ، فكأنك بالكبير قد أرب ظوفك ، وأثقل أوقك ، وأوهن طوفك^(٨) ، وأتعب سوّك ، فهذجت بعد الهملجة ، ودججت بعد الدعلجة^(٩) ، نخذ من أيام الترفيه لآيام الأزعاج ، ومن ساعات المهملة لساعة

(١) أى أخس وأدون قدرا ، وأصل لادنو : القرب في المكافاة استعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، أو هو مسهل من أدنا من اللدناة ، وقد قرئ في الآية الكريمة : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . (٢) بنيات الطريق : الترهات (جمع ترهة كقبرة وهي الطريق

الصغيرة المشعبة من الجادة ، أى اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تعرجوا في سواه . (٣) التزنيق : الضعف في الأمر « وى للبصر والبدن أيضاً » ، والرهب : السفه والحمق والخفة ، وركوب الشر والغلم ، وغشيان المهارم . (٤) أفعل ، من السداد . (٥) أسحت : استأصله . (٦) بيشة : واد بطريق اليمامة . (٧) المرعب : الطريق والوجه ، ورفعت الإبل كنع : وردت للماء من شامت ، وقد أرفعتها ورفعتها بالتشديد . (٨) أرب العقد : شده ، والأربة بالضم : العقدة ، موظف للبعير يظوفه : إذا دافى بين قينيه ، والقينان بفتح القاف موضعاً القيد من الوظيف ، والأرق : الثقل ، والطروق : الوسع والطاقة . (٩) الهدجان كخفتان وغراب : مشية الشيخ ، هذج كضرب ، والهملجة : سرعة في المشى ، وذج كضرب دجيجاً ، مرمرأ ضميمياً ، والدعاجة : ضرب من المشى ، والتردد في الذعاب والحجى ، والدرجاة .

الإعجال^(١) ، يابن أخى : إن اغترارك بالشباب ، كالتذاذك بِسَمَادِير^(٢) الأحلام ، ثم تنقشع فلا تتمسك منها إلا بالحسرة عليها ، ثم تُعَرِّى راحِلَةَ الصَّبَا ، وتشرب سَلْوَةَ^(٣) عن الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قَدَّمَ ذخيرة ، وأشدَّهم اغتباطاً يوم الحسرة من أحسنُ سَرِيرَةً . « (الأمال : ٢١٦)

٣ - وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلا يوصى آخر وأراد سفراً ، فقال : « آثِرِ بَعْمَلِكِ مَعَادِكِ ، وَلَا تَدْعُ لَشَهْوَتِكَ رَشَادِكِ ، وَلِيَكُنْ عَقْلُكَ وَزِيرُكَ الَّذِي يَدْعُوكَ إِلَى الْهُدَى ، وَيَعْصِيكَ مِنَ الرَّدَى ، أَلْجِمِ هَوَاكَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَأَطْلِقْهُ فِي الْمَكَارِمِ ، فَإِنَّكَ تَبْرَهُ بِذَلِكَ سَلَفَكَ ، وَتَشِيدُ شَرَفَكَ . » (الأمال : ١ : ٢٠٠)

٤ - وصية رجل لابنه وقد أراد الزواج

وقال بعضهم لولده وقد أراد الزواج :

« يَا بَنِي : لَا تَتَّخِذْهَا حَنَانَةً ، وَلَا أُنَانَةً ، وَلَا مَتَانَةً^(٤) ، وَلَا عُشْبَةَ الدَّارِ^(٥) ،

(١) رفه عيشه ككرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفهه الله ورفهه ترفهها ، ومن ساعات المهملة أى الدنيا المهملة : أى التى ستهملها وتغادرها ، وربما كانت « المهملة »
(٢) السمادير : ما يترامى للإنسان فى نومه من الأباطيل ، وما يتراماه للسكران فى سكره .
(٣) السلوة : اسم السلوان . قال الأصمعى : يقول الرجل لصاحبه : « سقيني سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) أى طيب نفسى هنك ، وذكروا أيضاً أن السلوة والسلوانة : خرزة شماعة تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويسقاها الإنسان فتسليه .

(٤) الحنانة : التى لها ولد من سواه فهى تحن عليهم . والأنانة : التى مات عنها زوجها ، فهى إذا رأت الزوج الثانى أنت ، وقالت : رحم الله فلانا ، لزوجها الأول . والمنانة : التى لها مال ، فهى تمن على زوجها ، كلما أهوى إلى شئ من ماله . (٥) عشبة الدار : يريد المهجينة ، وعشبة الدار : التى تثبت فى دمنة الدار ، وحوطها عشب فى بياض الأرض ، فهى أفخم منه وأصخم ، لأنها غذتها الدمنة ، وذلك (أى العشب) أطيب للأكل رطباً وبيساً ، لأنه نبت فى أرض طيبة ، وهذه نبتت فى دمنة ، فهى مبتنة رطبة ، وإذا يبست صارت حتاناً (بالضم) وذهب قفها فى الدمنة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه فى أرض طيبة (والقف بالضم : ما ييس من البقل ، وسقط على الأرض فى موضع نباته) .

وَلَا كِبَةَ الْقَفَا^(١) . (الأمالي ٢ : ٢٦)

٥ - وصية بعض العلماء لابنه

وأوصى بعض العلماء ابنه فقال :

« أوصيك بتقوى الله ، وَلَيْسَعَكَ بِنْتُكَ ، وَأَمْلِكُ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَأَبُكَ

على خطيئتك » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٦ - وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :

« لَا يَكُونَنَّ مِنْكُمْ الْمُحَدِّثُ وَلَا يُنْصَتُ لَهُ ، وَالِدَاخِلُ فِي سِرِّ اثْنَيْنِ لَمْ يَدْخُلَاهُ ،
وَلَا آتَى الدَّعْوَةَ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا ، وَلَا الْجَالِسُ الْمَجْلِسَ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَلَا الطَّالِبُ الْفَضْلَ
مِنْ أَيْدِي النَّاسِ ، وَلَا الْمُتَعَرِّضُ لِلْخَيْرِ مِنْ عِنْدِ عَدُوِّهِ ، وَلَا الْمُتَحَمِّقُ فِي الدَّالَّةِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٨)

٧ - وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَكْنِيهَا : أُمُّ النَّدَامَةِ » لأن صاحبها يقول
قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ، وَيُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يَفْكُرَ ، وَيَقْطَعُ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ ،
وَيَحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرَّبَ ، وَيَذُمُّ قَبْلَ أَنْ يُخْبَرَ ، وَلَنْ يَصْحَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ أَحَدٌ إِلَّا صَحِبَ
النَّدَامَةَ ، وَاعْتَزَلَ السَّلَامَةَ » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

(١) كبة القفا : هي التي يأتي زوجها أو ابنتها القوم ، فإذا انصرف من عندهم ، قال رجل من جنات
القوم : قدرافه كان بيني وبين امرأة هذا المولى أر أمه أمر .
(٢) الدالة : ما تدل به على حبيبتك .

٨ - وصية أخرى

وقال ابن دُرَيْدٍ : أوصى بعض الحكماء رجلاً ، فقال :
« أَمْرُكَ بِمُجَاهِدَةِ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ السِّئَاتِ ، وَخَصِيمُ الْحَسَنَاتِ
وَكُلُّ أَهْوَاؤِكَ لَكَ عَدُوٌّ ، وَأَهْوَاؤُهَا ^(١) هَوَى يَكْتُمُكَ فِي نَفْسِهِ ، وَأَعْدَاؤُهَا هَوَى يَمْتَلِكُ لَكَ
الْإِثْمَ فِي صُورَةِ التَّقْوَى ، وَلَنْ تَفْصَلَ بَيْنَ هَذِهِ الْخُصُومِ إِذَا تَنَاظَرْتَ لَدَيْكَ إِلَّا بِحَزْمٍ
لَا يَشُوبُهُ وَهَنٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَطْمَعُ فِيهِ تَكْذِيبٌ ، وَمَضَاءٌ لَا يَقَارِبُهُ التَّبْطُّ ^(٢) ، وَصَبْرٍ
لَا يَغْتَالُهُ جَزَعٌ ، وَنِيَّةٍ لَا يَتَقَسَّمُهَا التَّضْيِيعُ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٩ - عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : بلغني أن بعض الحكماء كان يقول :
« إِنِّي لَأَعْظَمُكُمْ ، وَإِنِّي لَكثير الذنوب مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِي ، غَيْرُ حَامِدٍ لَهَا ،
وَلَا حَامِلِهَا عَلَى الْمَكْرُوهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَدْ بَلَوْتَهَا فَلَمْ أَجِدْ لَهَا شُكْرًا فِي الرَّخَاءِ
وَلَا صَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعْظُ أَخَاهُ حَتَّى يُحْكِمَ أَمْرَ نَفْسِهِ ، لَتُرِكَ الْأَمْرُ
بِالْخَيْرِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَكِنْ مُحَادَثَةُ الْإِخْوَانِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَجِلَاءٌ لِلنَّفُوسِ ،
وَتَذْكَيرٌ مِنَ النِّسْيَانِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا سُرُورُهَا أَحْزَانٌ ، وَإِقْبَالُهَا إِدْبَارٌ ، وَآخِرُ حَيَاتِهَا
الْمَوْتُ ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَقْبَلٍ يَوْمًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ ، وَمُنْتَهَى غَدًا لَا يَبْلُغُهُ ، وَلَوْ تَنْظُرُونَ
إِلَى الْأَجَلِ وَمَسِيرِهِ ، لَأَبْغَضْتُمُ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ » .
(الامال ٢ : ٥٧)

١٠ - نصيحة لبعض الحكماء

وَحَدَّرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ صَدِيقًا لَهُ صَاحِبَهُ رَجُلًا فَقَالَ :

« اخذر فلاناً ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تظهرن له الخافة ، فيرى أنك قد تحررت . واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الخدر ، فبأنه مباتة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف ، فإن البحث يظهر الخفي الباطن ، ويبيد المستكن الكامن » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١١ - كلمات شتى لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : قال بعض الحكماء :

« من كانت فيه سبع خصال لم يعد سبياً : من كان جواداً لم يعد شرفاً ، ومن كان ذا وفاء لم يعد ميقاً ، ومن كان صدوقاً لم يعد قبولاً ، ومن كان شكوراً لم يعد زيادةً ، ومن كان ذا رعاية للحقوق لم يعد سوؤدداً ، ومن كان منصفاً لم يعد عافيةً ، ومن كان متواضعاً لم يعد كرامةً » .

(الآمال ٢ : ٣٩)

وقيل لبعض الحكماء : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقرّب الآجال ، قيل له : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به نصب ، ومن فاته حزن ، قيل : فأى الأصحاب أبر ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأيهم أضر ؟ قال : النفس والهوى ، قيل : فقيم المخرج ، قال : في قطع الراحة وبذل المجهود .

(الآمال ٢ : ٥٩)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يقول :

« الحسد ماحقُ الحُسنات ، والزَّهْوُ جالبٌ لِمَقْتِ اللَّهِ ومقتِ الصالحين ، والعُجْبُ صَارِفٌ عن الازدياد من العلم ، داعٍ إلى التَّخْمُطِ^(١) والجهل ، والبخلُ أذمُّ الأخلاق ، وأجلبُها لسوءُ الأُحدوثِ » .
(الأمال ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :

« أَوْلَى النَّاسِ بِالْفَضْلِ أَعْوَدُهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَأَعْوَنُ الْأَشْيَاءِ عَلَى تَذْكِيَةِ الْعَقْلِ التَّعَلُّمُ ، وَأَدْلُ الْأَشْيَاءِ عَلَى عَقْلِ الْعَاقِلِ حَسَنُ التَّدْبِيرِ » .
(الأمال ١ : ٢١٧)

وقال الأصمعي : العرب تقول :

« لَا ثَنَاءَ مَعَ الْكِبَرِ ، وَلَا صَدِيقَ لَذَى الْحَسَدِ ، وَلَا شَرَفَ لِسَيِّئِ الْأَدَبِ » .
قال : وكان يقال : « شَرَّ خِصَالِ الْمَلُوكِ الْجُبْنُ عَنِ الْأَعْدَاءِ ، وَالْقَسْوَةُ عَلَى الضَّعْفَاءِ ، وَالْبَخْلُ عِنْدَ الْإِعْطَاءِ » .
(الأمال ١ : ٢٠١)

وقال أبو عليّ القالي ، وأملى علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاياها :
« جَالِسُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَإِنْ جَهِلْتَ عَمَّوكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ قَوْمَكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يُفَنِّدُوكَ^(١) ، وَإِنْ صَحَّبتَ زَانُوكَ ، وَإِنْ غَبَّتَ تَفَقَّدُوكَ . وَلَا تَجَالِسْ أَهْلَ الْجَهْلِ ، فَإِنَّكَ إِنْ جَهِلْتَ عَنَّفُوكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ لَمْ يَقَوْمُوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يَثْبُتُوكَ » .
(الأمال ٢ : ٧٢)

١٢ — رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلاً من العرب عن عشيرته قال : أيُّ عشيرتك أفضل ؟ قال :
أتقاهم لله ، بالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، قال : فأيهم أسود ؟ قال : أرزَنُهُمْ
حِلْمًا حِينَ يُسْتَجْهَلُ ، وَأَسْخَاهُمْ حِينَ يُسْأَلُ ، قال : فأيهم أدهى ؟ قال : من كتم سرَّه

(١) تخمط : تكبر وغضب . (٢) فنده : ضمف رأيه وخطاه .

من أحبَّ ، مخافةً أن يُشَارَه يوماً ، قال : فأيهم أكيس ؟ قال : من يُصْلِح ماله
ويقتصد في معيشته ، قال : فأيهم أرفق ؟ قال : من يعطى بِشْرَ وجهه أصدقاؤه ،
ويتلطف في مسأله ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، في إجابة دَعَوَاتِهِمْ ، وعبادة مَرْضَاهُمْ ،
والتسليم عليهم ، والمشى مع جنازتهم ، والنصح لهم بالغيب ، قال : فأيهم أظن ؟ قال :
من عَرَف ما يوافق الرجال من الحديث حين يجالسهم ، قال : فأيهم أصْلَب ؟ قال : من اشتدت
عَارِضَتُهُ^(١) في اليقين ، وَحَزْمُ في التوكل ، ومنع جاره من الظلم . (مجمع الأمثال ٢ : ١٧٨)

١٣ — أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له : كيف تركت الناس ؟
فقال :

« تركت غنيهم موفوراً ، وفقيرهم محبوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً »
فقال : « الحمد لله ، لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلا بعضو من أعضائي ،
لكان يسيراً » . (الأمال ٢ : ٣٩)

١٤ — كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابتة ، فرأى من الأمير بعض الازدراء
فقال له :

« لا يَصْغِي عندك نُحُولُ النَّبَوَةِ ، وزوالُ الثروة ، فإن السيف العتيق إذا مَسَّه
كثيرُ الصَّدِّإِ استغنى بقليل الجلاء ، حتى يعود حدّه ، ويظهر فرِنْدُه ، ولم أصف نفسي
عُجْباً ، لكن شكراً ، قال صلى الله عليه وسلم : أنا أشرف ولد آدم ولا نخر .
فجهر بالشكر ، وترك الاستطالة بالكبر » . (زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٥ - وصف الهلجاجة

من أمثال العرب : « أعجز من هِلْجَاةٍ » وهو التَّثْمُومُ الكسلان العَطْلُ^(١) الجافي ، وقد سار في وصف الهلجاجة فصل لبعض الأعراب المتفصِّحين ، وفصل آخر لبعض الحضريين ، فأما وصف الأعرابي ، فقد سئل ابن أبي كَبْشَةَ بن القَبَعَثَرِي عنه فقال : « الهِلْجَاةُ : الضعيف العاجز ، الأخرق الأحمق ، الجِلْفُ^(٢) الكسلان ، الساقط لامعنى فيه ، ولا غَنَاءَ^(٣) عنده ، ولا كِفَايَةَ معه ، ولا عمل لديه . »

وأما وصف الحضري فإن بعض بُلغَاءِ الأمصار سئل عن الهلجاجة فقال :

« هو الذى لَا يَرْتَعَوِي لِمَدَلِّ العاذل ، ولا يُصْنَعِي إِلَى وعظ الواعظ ، ينظر بعين حَسُودٍ ، وَيُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُودٍ ، إِنْ سَأَلَ أَخْلَفَ^(٤) ، وَإِنْ سُئِلَ سَوَّفَ ، وَإِنْ حَدَّثَ حَلَفَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ زَجَرَ عَنَّفَ ، وَإِنْ قَدِرَ عَسَفَ^(٥) ، وَإِنْ اِحْتَمَلَ أَسَفَ^(٦) ، وَإِنْ اسْتَعْفَى بَطِرَ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنِطَ ، وَإِنْ فَرِحَ أَشِرَ^(٧) ، وَإِنْ حَزِنَ يَثَسَ ، وَإِنْ ضَحِكَ زَارَ ، وَإِنْ بَكَى جَارَ^(٨) ، وَإِنْ حَكَمَ جَارَ ، وَإِنْ قَدَّمْتَهُ تَأَخَّرَ ، وَإِنْ أَخَّرْتَهُ تَقَدَّمَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَ مَنَّ عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ لَمْ يَشْكُرْكَ ، وَإِنْ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ خَانَكَ ، وَإِنْ أَسَرَّ إِلَيْكَ اتَّهَمَكَ ، وَإِنْ صَارَ فَوْقَكَ قَهَرَكَ ، وَإِنْ صَارَ دُونَكَ حَسَدَكَ ، وَإِنْ وَثِقْتَ بِهِ خَانَكَ ، وَإِنْ انْبَسَطْتَ إِلَيْهِ شَانَكَ ، وَإِنْ أَكْرَمْتَهُ أَهَانَكَ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهُ الصَّدِيقَ سَلَّاهُ ، وَإِنْ حَضَرَه قَلَّاهُ^(٩) ، وَإِنْ فَاتَحَهُ لَمْ يُجِبْهُ ، وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ لَمْ يَبْدَأْهُ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالوَدِّ هَجَرَ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالْبُرِّ جَفَا ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فَضَحَّه الْعَيْشُ ، وَإِنْ عَمِلَ قَصَّرَ بِهِ

(١) عطل كفرج : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعتق .

(٢) الجافي . (٣) لاغناء : لا كفاية .

(٤) الخ . (٥) ظلم . (٦) من أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه ، أى لم يستطيع

النهوض بما حمل . (٧) أشر : مرح . (٨) صاح واستغاث .

(٩) أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

الجهل ، وإن أوْثَمِنَ غَدْرَ ، وإن أجاز أخْفَرَ^(١) ، وإن عاهد نَكَثَ ، وإن حَلَفَ حَنَثَ
لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الْآمِلُ إِلَّا بِنَجِيَّةٍ ، وَلَا يَضْطَرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِمِخْنَةٍ .

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الهلباجة ، فقال : « هو الأحمق الضخّم
القدّم^(٢) الأْكُولُ الذي والذي ... ثم جعل يلتقاني بعد ذلك ، ويزيد في التفسير
كل مرة شيئاً ، ثم قال لي بعد حين - وأراد الخروج - هو الذي جمع كل شرّ » .
(مجمع الأمثال ١ : ٢٣٦)

١٦ - بعض البلغاء يصف رجلاً

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال :

« إنه بَسِيطٌ^(٣) الكف ، رَحْبُ الصدر ، مُوْطَأُ الأَكْناف ، سَهْلُ الخلق ،
كَرِيمُ الطَّبَاع ، غَيْثٌ مُغَوِّثٌ^(٤) ، وَبِحُرِّ زَخُور ، ضَحُوكُ السن ، بَشِيرُ الوجه ،
بَادِي القَبُولِ^(٥) غير عبوس ، يَسْتَقْبَلُكَ بِطَلَّاقَةٍ ، وَيُحْيِيكَ بِبِشْرٍ ، وَيَسْتَدْبِرُكَ بِكْرَمِ
غَيْثٍ ، وَجَمِيلِ بَشْرٍ ، تُبْهَجُكَ طَلَّاقَتُهُ ، وَيَرْضِيكَ بِشْرُهُ ، ضَحَّاكٌ عَلَى مَائِدَتِهِ ، عَبْدٌ
لِضَيْفَانِهِ ، غير ملاحظ لَأَكِيلِهِ ، بَطِينٌ^(٦) مِنَ العَقْلِ ، خَمِيصٌ^(٧) مِنَ الجَهْلِ ، رَاجِحُ
الحِلْمِ ، نَاقِبُ الرَّأْيِ ، طَيِّبُ الخَلْقِ ، مُحْصَنُ الضَّرِيْبَةِ^(٨) مِعْطَايَهُ غير سَأَلٍ ، كَاسٍ^(٩)
مِنْ كُلِّ مَسْكَرُومَةٍ ، عَارٍ مِنْ كُلِّ مَلَأَمَةٍ ، إِنْ سئِلَ بِذَلِّ ، وَإِنْ قَالَ فَعَلَ » .
(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

(١) أخفّره وخفّره به : نقض ههده وغدره . (٢) القدّم : العيسى عن الكلام في ثقل ورخاوة ،
ورقلة فهم ، والغايظ : الأحمق الجاني .
(٣) أي ببسوط الكف سخي . (٤) غوث تغويثاً : قال واغوثاه .
(٥) لقبول بالفتح وقد يضم : الحسن . (٦) أي يمتلئ وأصله : عظيم البطن .
(٧) خميص : خال ، وأصله : الجانح . (٨) الضريبة : الطبيعة ، ومحسن : صف .
(٩) أي مكسو .

١٧ - خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ من العرب ، فقلن : هَلْمُنْ نَصِفِ خَيْلَ آبَائِنَا .

فقال الأولى :

« فرسُ أبي وَرْدَةَ ، وما وردة ؟ ذات كَفَلٍ مُزْحَلِقٍ ، وَمَمْنٍ أَخْلَقٍ ، وَجَوْفٍ

أَخْوَقٍ ^(١) ، وَنَفْسٍ مَرُوحٍ ، وَعَيْنٍ طَرُوحٍ ، وَرِجْلٍ ضَرُوحٍ ، وَيَدٍ سَبُوحٍ ^(٢) ،

بُدَاهَتَهَا إِهْدَابٌ ، وَعَقَبُهَا غِلَابٌ ^(٣) . »

وقالت الثانية :

« فرسُ أبي اللَّعَابِ ، وما اللَّعَابُ ؟ غَبِيَّةٌ سَحَابٌ ، واضطرامُّ غَابٍ ، مُتْرَصٌ

الأَوْصَالُ ، أَشْمٌ الْقَدَالُ ، مُلَا حَكُ الْمَحَالِ ^(٤) ، فَارَسُهُ مُجِيدٌ ، وَصَيْدُهُ عَتِيدٌ ، إن أقبِل

فَظَبِّي مَعَّاجٌ ، وإن أدبر فَظَلِيمٌ هَدَّاجٌ ، وإن أَحْضَرَ فَعَلِجٌ هَرَّاجٌ ^(٥) . »

وقالت الثالثة :

« فرسُ أُمِّي حُدَمَةٌ ، وما حُدَمَةٌ ؟ إن أقبِلتُ فَمَقَانَةٌ مُقَوِّمَةٌ ، وإن أدبرتُ فَأَثْفِيَّةٌ

(١) : المزحلق : الملمس الذي كأنه زحلوقة (بالضم) وهي آثار تزيج الصبيان من فوق إلى أسفل ،

والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . (٢) مروح : كثيرة المرح ، طروح بعيدة موقع النظر ،

ضروح : دفعوع ، يريد أنها تفرح الحجارة برجليها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسمع في عدوها

من سرعتها . (٣) بداهتها : فجاءتها ، واليداهة واليديهة واحد ، والإهداب : السرعة ، والعقب :

جرى بعد جرى ، وغلاب مصدر ، غالبته مغالبة وغلابا ، كأنها تغالب الجرى .

(٤) الغيبة : الدفمة من المطر . والغاب جمع غابة : وهي الأجمة ، مترص : محكم ، أترصت الشيء : أحكته

أشم : مرتفع ، القدال : معقد المذار (والمذار من اللجام ككفاب : ما سأل على خد الفرس) . ملاحك

مداخل (بفتح الخاء) كأنه دخل بعضه في بعض ، والمحال جمع محالة : وهي فقار الظهر (كسحاب) جمع

فقارة وذكر الأصمى أنه رأى فقار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العراب

فيما ذكروا . (٥) مجيد : صاحب جواد . عتيد : حاضر ، معج في سيره ومعج : إذا أسرع ،

والهدج كشمس : المشي اللويد ويكون المرعب . والمليج : حمار الوحش السمين القوى ، وهرج الفرس

: كضرب إذا كان كبير الجرى .

مُلمَلمةً ، وإنْ أَعْرَضَتْ فَذَنْبَةٌ مُعْجَرِمَةٌ (١) ، أُرْسَاغُهَا مُتْرَصَةٌ ، وَفُصُوصُهَا مُمَحَّصَةٌ ،
جَرِيئًا أَنْتِرَارًا ، وَتَقَرِّيئًا انْكِدَارًا (٢) .

وقالت الرابعة :

« فرسُ أبي خَيْفَقٍ ، وما خَيْفَقٌ ؟ ذاتُ نَاهِقٍ مُعْرَقٍ ، وَشِدْقٍ أَشْدَقٍ ، وَأَدِيمٍ
مُتَمَلِّقٍ (٣) ، لَهَا خَلْقٌ أَشْدَفٌ ، وَدَسِيعٌ مُنْفَنَفٌ ، وَتَلِيلٌ مُسَيْفٌ (٤) وَثَّابَةٌ زُلُوجٌ ،
خَيْفَانَةٌ رَهْجٌ ، تَقَرِّيئًا إِهْمَاجٌ ، وَحَضْرًا ارْتِعَاجٌ (٥) . »

وقالت الخامسة :

« فرسُ أبي هُذُلُولٍ ، وما هُذُلُولٌ ؟ طَرِيدُهُ مَحْبُولٌ ، وَطَالِيئُهُ مَشْكُولٌ ، رَقِيقٌ
الْمَلَاغِمِ ، أَمِينُ الْمَعَاقِمِ (٦) ، عَبَلُ الْمَحْزَمِ ، مَخْدٌ مِرْجَمٌ (٧) ، مُنِفُ الْحَارِكِ ، أَشْمٌ

(١) حذمة : فملة من الحلم وهو السرعة أو القطع ، فقتاة مقومة تريد أنها دقيقة المقدم ، وهو مدح
في الإناء ، والألفية : الحجر توضع عليه القدر ، ملمامة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثافي
تختار مدورة ، معجزة بكسر الراء اسم فاعل من المعجزة ، وهي إسراع في مقاربة خطو . قال الشاعر :

أَمَّا إِذَا يَعْدُو فَتَعْلَبُ جَرِيَّةٌ أَوْ ذَنْبٌ عَادِيَةٌ يَعْجِرُ عَجْرَمَهُ

ويقال ناقة معجزة بفتح الراء : أي شديدة . (٢) محصنة : قليلة اللحم قليلة الشعر ! محص الجمله
كفرح ، إذا سقط شعره وإلا . انترار : انصباب ، كأنه يثره ثرا ، والتقريب : ضرب من العدو
أو أن يرفع يديه معاً ويضمهما معاً ، وانكدر : أسرع وانقض . وانكدر عليه القوم : انصبوا .

(٣) خيفق : يفعل من الخفق كشمس : وهو السرعة . اللتامقان : العظمان الشاخصان في خدى الفرس
معرق : قليل اللحم . أشدق : واسع الشدق . معلق : ملس . (٤) الأشدق : العظيم للشخص .
والشدق محرقة : الشخص . الدسيق : مغرز العنق في الكاهل . منفن : واسع من التنف من كجعفر :
وهو الهواء بين السماء والأرض . التليل : العنق . مسيف : كأنه سيف .

(٥) زلوج : سريعة . الزليج والزلحان بالتحريك : السرعة . الخيفانة : الجراة التي فيها نطق سود
تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجراة إذا ظهر فيها تلك للنقط كان أسرع
لطيرانها . رهوج : كثيرة الرج . (والرهج بالتحريك : القيار) أميج الفرس إهماجا : إذا اجتهد
في عدوه . والحضر : ارتفاع الفرس في عدوه . الارتعاج : كثرة العرق وتتابه .

(٦) محبول : في حباله . مشكول : موقوف في شكال (الشكال كتاب : الحبل تشد به قوائم الدابة)
الملاغم من الإنسان : ماحول الفم . أرادت هاهنا الجحافل (والجحافل جمع جحفاة بالفتح بمغزلة الشفة الخيل
البغال والحمر) والمعاقم ، المناصل . (٧) عبلة : غليظ . والحزم موضع الحزام . مخد : يخذ الأرض
أي يحمل فيها أخايد (والأخايد : الشقوق جمع أخدود) . مرجم : يرمج الحجر بالحجر . أو يرمج
الأرض بجوافره .

السَّنَابِكُ ، مَجْدُولُ الْخِصَائِلِ ، سَبَطُ الْفَلَاتِلِ^(١) ، غَوْجُ التَّلِيلِ ، صَلْصَالُ الصَّهِيلِ ،
أَدِيمُهُ صَافٍ ، وَسَيِّبِيهِ صَافٍ^(٢) ، وَعَقْفُوهُ كَافٍ . (الأمالي : ١٩٠)

١٨ - رجل من العرب يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جذب فقال :

« نَشَأَ حَمَلًا^(٣) سُدًّا مَتَقَاذِفَ الْأَحْضَانِ ، مَحْمُومِي الْأَرْكَانِ ، لَمَّاعِ الْأَقْرَابِ ،
مُكْفَهَرِ الرَّبَابِ ، تَحْنِ رُعُودُهُ حَنِينَ اضْطِرَابِ ، وَتَرْجُجُ زَجْجَةَ اللَّيْثِ الْفِضَابِ ،
لِبُورِقِهِ التَّهَابِ ، وَرِوَاعِدِهِ اضْطِرَابِ ، فِجَاحَتِ^(٤) صُدُورِهِ الشَّعَافِ ، وَرَكِبَتْ
أَعْجَازُهُ الْفِغَافَ ، ثُمَّ أَلْقَى أَعْبَاءَهُ ، وَحَطَّ أَثْقَالَهُ ، فَتَأَلَّقَ وَأَصْعَقَ^(٥) ، وَانْبَجَسَ وَانْبَعَقَ ،
ثُمَّ أَنْجَمَ فَانطَلَقَ ، فَغَادَرَ النَّهَاءَ^(٦) مُتْرَعَةً ، وَالغَيْطَانَ مُمْرَعَةً ، حَبَاءَ لِلْبِلَادِ ، وَرَزَقًا لِلْعِبَادِ » .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٠)

(١) منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أذن العرف إلى الظهر الذي يأخذ به من يركبه ، والسنايك :
أطراف الحوافر جمع سنيك كقنفذ : مجدول : مفتول ، الخصائل : جمع خصيلة وهي كل قطعة من اللحم
مستطيلة أو مجتمعة ، الفليل : الشعر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشعر : الفليلة ، سبط : مستعرض .
(٢) العوج : اللين المعطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شعر
الناصية : صاف : صانع .

(٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذي قد سد الأفق ، احومي : اسود ، والأقرب جمع
قرب كقنفذ وعنق وهو الخفاصة ، والرباب : السحاب الأبيض . (٤) جاحفه : زاحه ودافاه ،
والشعاف جمع شفة كرقبة : وهي رأس الجبل ، والقفاف جمع قف بالضم وهو ما غلظ من الأرض وارتفع
لم يبلغ أن يكون جبلا . (٥) صمقهم السماء وأصمقهم : ألقت عليهم صاعقة ، وانبجس : انفجر بلاه
وانبجس السحاب : انبجج بالمطر واندفع ، والانهاق : أن يتدفع عليك الشيء فجأة وأنت لا تشمر ، وانجمت
السماء : أسرع مطرها . (٦) النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : القدير ، ومترعة : مملوءة ، والغيطان
جمع غائط : وهو المظلمين الواسع من الأرض ، ممرعة : مخصبة ، حباء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ - مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَلِّمٌ يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلظة ، فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تُحبه إن قبلته » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نُصحه ، ولا نأمن غشه ، وأرجو أن تكون الناصحَ جَيِّباً ، المأمونَ غَيِّباً ، قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنتِ بادرَةَ غضبك ، فإنني سأطلق لساني بما خَرَسَتْ عنه الألسُن من عِظَتِكَ ، تأديةً لحقِّ الله وحقِّ إمامتك . إنه قد اكتنَفَكَ رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخطِ ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للأخرة ، سلِّمٌ للدنيا ، فلا تأتمنهم على ما ائتمنتك الله عليه ، فإنهم لا يألونك ^(١) خَبالاً ، والأمانةَ تضييعاً ، والأمةَ عَسْفاً وَخَسْفاً ^(٢) ، وأنتَ مسئولٌ عما اجترحوا ^(٣) ، وليسوا مسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلحِ دنياهم بفسادِ آخرتك ، فإن أخسر الناسَ صَفْقَةً يوم القيامة ، وأعظمهم غَبناً من باعِ آخرته بدنيا غيره »

(١) ألا يألوا : قصر وأبطأ ، والخبال : الفساد . (٢) العسف : الظلم ، والخسف : الذل .

(٣) اكتسبوا ، وفي رواية : « اجترموا » .

قال سليمان : « أمّا أنت يا أعرابي ، فقد سلّت لسانك ، وهو أقطع سيفيك » ، فقال :
« أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، والمعقد الفريد ١ : ٣٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ -
وزهر الآداب ١ : ٢٧٧)

٢ - أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنِي يَا أَعْرَابِي ، فقال :
« كفى بالقرآن واعظاً ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،
بسم الله الرحمن الرحيم : « وَيَلِّ لِّلطَّافِينَ ^(١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ،
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال « يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يُطَفَّفَ
في السكيل والميزان ، فما ظنك بمن أخذه كله ^(٢) ؟ » . (المعقد الفريد ٢ : ٨٤)

٣ - خطبة أعرابي ^(٣)

وولّى جعفر بن سليمان ^(٤) أعرابياً بعض مياهم ^(٥) فخطبهم يوم الجمعة فقال :
« الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ،
أما بعد : فإن الدنيا دارٌ بلاغ ^(٦) ، والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقرّكم من ممرّكم ،
ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تحقّ عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ،

(١) طلف : نقص الحكيال . (٢) وروى صاحب المعقد أيضاً هذه العظة (ج ١ ص ٣٠٦)
وذكر أنها لابن المبارك وعظ بها الرشيد .

(٣) قدمنا في الجزء الثاني ص ٤٨٢ أن هذه الخطبة متنازع فيها ، فهي ترمز تارة إلى الإمام علي
كرم الله وجهه ، وأخرى إلى سعيان وائل ، وثالثة إلى أعرابي . (٤) هو ابن عم أبي جعفر
المنصور ، وكان ولياً على المدينة سنة ١٤٦ - ١٥٠ هـ . (٥) في مجمع الأمثال : « عن الأصمعي
قال : حدثني شيخ من أهل العلم قال : شهدت الجمعة بالضرية « ضرية كغنية : قرية بين البصرة ومكة »
وأمرها رجل من الأعراب ، فخرج وخطب ، ولف ثيابه على رأسه ، وبه قوس فقال . . . وأورد
هذه الخطبة » ، وفي السكامل للبرد : « قال الأصمعي فيما بلغني خطبتنا أعرابي بالبادية فحمد الله . . .
(٦) وفي رواية الميداني ، و« عيون الأخبار » « بلاء » وفي رواية المعقد « دار مر والآخرة دار مقر »

قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حبيبتكم ، ولنغيرها خلقتكم ، اليوم عملٌ بلا حساب ،
وغداً حسابٌ بلا عمل ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة :
ما قدم؟ فله آباؤكم اقدموا بفضاً ، يكون لكم قرصاً ، ولا تخلفوا كلاً ، يكون
عليكم كلاً^(١) ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، والحمد لله ، والمصلّي
عليه محمد ، والمدعو له الخليفة ، ثم إمامكم جعفر بن سليمان ، قوموا إلى صلاتكم .

(الأمالي : ١ : ٧٤٨ ، والعقد الفريد : ٢ : ١٦٤ ، وتهذيب الكامل : ١ : ٢٨ وبجمع الأمثال
١ : ٣١٨ ، وميون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، وزهر الآداب ٢ : ٤) .

٤ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد ، وصلى الله على النبي محمد .

أما بعد : فإن التعمق في ارتجال الخطب لم يكن ، والكلام لا ينشئ حتى يُنشئ عنه ،
والله تبارك وتعالى لا يدرك واصفٌ كنهه صفة ، ولا يبلغ خطيبٌ منتهى مدحته ، له
الحمد كما مدح نفسه ، فانهضوا إلى صلاتكم » ثم نزل فصلي . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٥ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي قومه فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء ، ما أقبح بمنلى أن ينهى
عن أمرٍ ويرتكبه ، ويأمر بشيءٍ ويحْتَنِبُه ، وقد قال الأول :

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ فَذَمُّ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

ألهمنا الله وإياكم تقواه ، والعمل برضاه . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ — أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

قال أبان بن تغلب . وكان عابداً من عبّاد أهل البصرة توفي سنة ١٤١ هـ .
شهدت أعرابية وهي توصي ولداً لها يريد سفرأ وهي تقول له :

« أَيُّ بُنَىٰ اجْأَسَ أَمْنَحَكَ وَصِيَّتِي ، وَبِاللَّهِ تَوْفِيقُكَ ، فَإِنَّ الْوَصِيَّةَ أَجْدَىٰ (١) عَلَيْكَ مِنْ كَثِيرِ عَقْلِكَ ، أَيُّ بُنَىٰ . إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ الضَّغِينَةَ ، وَتَفْرُقُ بَيْنَ الْمُحِبِّينَ ، وَإِيَّاكَ وَالتَّعْرُضَ لِلْعَيُوبِ فَتَتَخَذَ غَرَضًا (٢) ، وَخَلِيقٌ أَنْ لَا يَثْبُتَ الْغَرَضُ عَلَى كَثْرَةِ السَّهَامِ ، وَقَلِمَا اعْتَوْرَتِ (٣) السَّهَامَ غَرَضًا إِلَّا كَلَمَتُهُ (٤) حَتَّى يَهِيَ (٥) مَا اشْتَدَّ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَإِيَّاكَ وَالْجُودَ بِدِينِكَ ، وَالبُخْلَ بِمَالِكَ ، وَإِذَا هَزَزْتَ فَأَهْزُزْ كَرِيمًا يَابِينَ لَهْزَتِكَ ، وَلَا تَهْزُزْ اللِّثِيمَ فَإِنَّهُ صَخْرَةٌ لَا يَنْفَجِرُ مَاوُهَا ، وَمَثَلٌ لِنَفْسِكَ مِثَالُ مَا اسْتَحْسَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَأَعْمَلْ بِهِ ، وَمَا اسْتَقْبَحْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَاجْتَنِبْهُ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَا يَرَى عَيْبَ نَفْسِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ بِشِرِّهِ ، وَخَالَفَ ذَلِكَ مِنْهُ فَعَلَهُ ، كَانَ صَدِيقُهُ مِنْهُ عَلَى مِثْلِ الرِّيحِ فِي تَصْرِيفِهَا » ثُمَّ أَمْسَكَتْ ، فَدَنَوْتُ مِنْهَا ، فَقُلْتُ : بِاللَّهِ يَا أَعْرَابِيَّةُ إِلَّا زِدْتِي فِي الْوَصِيَّةِ ، فَقَالَتْ : أَوْقَدْ أَعْجَبَكَ كَلَامُ الْعَرَبِ يَا عِرَاقِي ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَتْ : وَالْقَدْرُ أَقْبَحُ مَا تَعَامَلُ بِهِ النَّاسُ بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ جَمَعَ الْحِلْمَ وَالسَّخَاءَ فَقَدْ أَجَادَ الْحُلَّةَ (٦) : رَیْطَهَا وَسِرَّهَا .

(١) الأمال : ٢ : ٨١ ، والمعقد للفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النساء ص ٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٢١) .

٧ - أعرابية توصي ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يَا بُنَىٰ ، إِنْ سَأَلَكَ النَّاسَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَشَدِّ الْاِفْتِقَارِ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ اِفْتَقَرَتْ إِلَيْهِ هُنْتَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَزَالِ تُحْفَظُ وَتُكْرَمُ ، حَتَّى تَسْأَلَ وَتَرْغَبَ ، فَإِذَا أَلَحَّتْ عَلَيْكَ الْحَاجَةُ ، وَلَزِمَكَ سَوْءُ الْحَالِ ، فَاجْعَلْ سَوَآءَكَ إِلَى مَنْ إِلَيْهِ حَاجَةُ السَّائِلِ وَالْمَسْئُولِ ، فَإِنَّهُ يُعْطَى السَّائِلَ » .

(المعقد للفريد ٢ : ٨٥)

(١) أنفع (٢) هدفا . (٣) تداولت . (٤) جرحته . وحطته .

(٥) وهي هي : ضف .

(٦) الحلقة لا تكون إلا من لوبين إزار ورداء ، والربطة ؛ الملاحة كلها فسيج واحد وقطعة واحدة ،

والسربال : القميص .

٨ - أعرابي يوصي ابنه

ووصى أعرابي ابنه فقال :

« ابذل المودَّةَ الصادقةَ تستفدُ إخواناً ، وتتخذُ أعواناً ، فإن العداوة موجودة عتيّدة ، والصدّاقةُ مُستعْرِزةٌ^(١) بعيدة ، جنب كرامتك اللثام ، فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت شديدة لم يصبروا » . (الامال ١ : ٢٠١)

٩ - أعرابي ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« لَا يَفْرَنْكَ مَا تَرَى مِنْ خَفْضِ الْعَيْشِ ، وَلَيْنَ الرَّيَاشِ^(٢) ، وَلَكِنْ فَانظُرْ إِلَى سَوْءِ الظَّنِّ ، وَسَوْءِ المُنْقَلَبِ » . (الامال ٢ : ٥٩)

١٠ - أعرابي ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« كُنْ لِلْعَاقِلِ المُدْبِرِ أَرْجَى مِنْكَ لِلْأَحْمَقِ المُقْبِلِ » ، ثُمَّ أَنْشَدَ :
عَدُوُّكَ ذُو الْحِلْمِ أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَرْعَى مِنَ الْوَأَمِقِ الْأَحْمَقِ^(٣)
(ذيل الأمال - ص ٣٤)

١١ - أعرابي ينصح لأخيه

ونصح أعرابي لأخيه ، فقال :

« اعلم أن الناصح لك ، المشفق عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب برويته ونظره ، ومثل لك الأحوال المخوفة عليك ، وحاط الوعر بالسهل من كلامه ومشورته ليكون خوفك كفاءً^(٤) رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأن الغاش لك ،

(١) مستعززة : منقبضة شديدة .

(٢) الرياش : الحصب والمعاش .

(٣) الوامق : الحب .

(٤) مكافئاً .

والخاطب^(١) عليك، مَنْ مَدَّ لَكَ فِي الْاِغْتِرَارِ ، وَوَطَّأَ لَكَ مِهَادَ^(٢) الظَّمِّ، تَابِعاً لِمَرْضَاتِكَ
مَنْقَاداً لِهَوَاكَ .
(الأمال ١ : ١٩٨)

١٢ - أعرابي يعظ أخاه

ووعظ أعرابي أخاه أفسد ماله في الشراب، فقال :
« لا الدهرُ يعظُك ، ولا الأيلم تُنذِرُك ، ولا الشَّيبُ يزجُرُك ، والساعاتُ تحصى
عليك ، والأنفاسُ تُعدُّ منك ، والمنايا تُقاد إليك ، أحبُّ الأمور إليك ، أعودُها
بالمضرة عليك . »

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ ، والأمال ١ : ١٩٨ ، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

١٣ - أعرابي يعظ صاحبه

وقال أعرابي لصاحبه :
« والله لئن هملجت^(٣) إلى الباطل ، إنك لقطوف^(٤) عن الحق ، ولئن أبطأت
ليسر عن بك ، وقد خسر أقوام وهم يظنون أنهم راجحون ، فلا تغرنك الدنيا ، فإن
الآخرة من ورائك . »
(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ - أعرابي يعظ أخاه

وقال أعرابي لأخيه :
« يا أخي : أنت طالب ومطلوب ، يطلبُك مالا تقوته ، وتطلبُ ما قد كُفيتَه ،
فكان ماغاب عنك ، قد كُشِفَ لك ، وما أنت فيه قد نُقِلت عنه ، فامهد^(٥) لنفسك ،
وأعد ذلك ، وخذ في جهازك . »
(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

(١) هو مخاطب ليل : أي مخاطب في كلامه . (٢) المهاد : الفرائس .

(٣) من هجاج البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

(٤) من قطفت الدابة كنصر وضرب : ضاق مشيها ، فهي قطوف .

(٥) أي مهد وأعد .

١٥ — أعرابي يعظ رجلاً

وقال أعرابي لرجل :

« أَيْ أَخِي : إِنْ يَسَّارَ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ يَسَّارِ الْمَالِ ، فَإِنْ لَمْ تُرْزَقْ غِنَى فَلَاحْتِرْمِ تَقْوَى ، فَرُبَّ شَبَعَانَ مِنَ النَّعَمِ ، عُرْيَانَ مِنَ الْكِرْمِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عَلَى خَيْرٍ : تُرَحَّبُ بِهِ الْأَرْضُ ، وَتَسْتَبْشِرُ بِهِ السَّمَاءُ ، وَلَنْ يُسَاءَ إِلَيْهِ فِي بَطْنِهَا ، وَقَدْ أَحْسَنَ عَلَى ظَهْرِهَا . »
(المعقده الفريديه ٢ : ٨٥)

١٦ — أعرابي يعظ رجلاً

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يعظ رجلاً وهو يقول :

« وَيَحْكُ ! إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَرَبَهُ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَانِيَتِكَ ، فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٧ — أعرابي يعظ رجلاً

وسمع أعرابي رجلاً يقع في السلطان ، فقال :

« إِنَّكَ غُفْلٌ لَمْ تَسْمَعْ التَّجَارِبُ ، وَفِي النَّصِيحِ لَسَعُ الْعُقَابِ ، كَأَنِّي بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ ، وَهُوَ بِالكَ عَلَيْكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٨ — كلام أعرابي لابن عمه

وشاور أعرابي ابن عم له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

« قَدْ قُلْتُ بِمَا يَقُولُ بِهِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الَّذِي يَخَاطُبُ حُلُوْ كَلَامِهِ بِمُرَّةٍ ، وَحَزَنَتُهُ بِسَمْنَاءٍ وَيَنْحَرُّكَ الْإِشْفَاقُ مِنْهُ مَا هُوَ سَاكِنٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ وَعَيْتُ النَّصِيحَ مِنْهُ وَقَبِلْتَهُ ، إِذْ كَانَ مَصْدَرُهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ لَا شَكَّ فِي مُوَدَّتِهِ ، وَصَافِي غَيْبِهِ ، وَمَا زِلْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ مَتَّهِجًا وَاضِحًا ، وَطَرِيقًا مَهِيئًا ^(١) . »
(الامال ٢ : ٨٢)

(١) طريق مهيج : بين راضع .

١٩ - كلمات حكيمة للأعراب

قيل لأعرابي : مَالَكْ لَا تَشْرَبُ النَّبِيذَ ؟ قَالَ : « لثَلَاثِ خِلَالٍ فِيهِ : لِأَنَّهُ مُتَلَفٌ لِلْمَالِ ، مُذْهَبٌ لِلْعَقْلِ ، مُسْقِطٌ لِلْمَرْوَةِ » .

وقال أعرابي : « الدَّرَاهِمُ مَيَاسِمٌ ^(١) ، تَسِيمٌ حَمْدًا وَذَمًّا ، فَمَنْ حَبَسَهَا كَانَ لَهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَمَا كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أُعْطِيَ حَمْدًا ، وَلَا كُلُّ عَدِيمٍ ذَمِيمٌ » .

وقال أعرابي لأخيه له : « يَا أَخِي إِنْ مَالِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُنْتَ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ تُفْنِهِ أَنْفَاكَ ، فَكُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَكَ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْمَوْفِقَ مَنْ تَرَكَ أَرْقَى الْحَالَاتِ بِهِ ، لِأَصَاحِبِهَا لَدِينِهِ ، نَظْرًا لِنَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ تَنْظُرْ نَفْسُهُ لَهَا » .

وقال أعرابي : « إِنْ اللَّهُ مُخْلِيفٌ مَا أَتَلَفَ النَّاسُ ، وَالدهرُ مُتَلِفٌ مَا أَخْلَفُوا ، وَكَمْ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَيْهَا طَلَبَ الْحَيَاةِ ، وَكَمْ مِنْ حَيَاةٍ سَبَبَهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْأَمَالَ قَطَعْتَ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ ، كَالسَّرَابِ غَرَّ مَنْ رَأَاهُ ، وَأَخْلَفَ مِنْ رَجَاهُ » .

وقال أعرابي لصاحبه له : « أَصْحَبَ مِنْ يَتَنَاسَى مَعْرُوفَةَ عَلَيْكَ ، وَيَتَذَكَّرُ حَقُوقَكَ عَلَيْهِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَسْأَلْ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَلَكِنْ سَلْ مَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى » .

وقال أعرابي : « مَا بَقَاءُ عُمُرٍ تَقْطَعُهُ السَّاعَاتُ ، وَسَلَامَةُ بَدَنِ مَعْرَاضٍ لِلآفَاتِ ؟ وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْمُؤْمِنِ ! كَيْفَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ وَهُوَ يَنْقُلُهُ إِلَى الثَّوَابِ الَّذِي أَحْيَاهُ لَهُ لِيَلَّهُ وَأَطْمَأَنَّهُ نَهَارَهُ » .

(١) مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المكراة .

وذُكِرَ أهلُ السلطان عند أعرابي فقال: «أما والله لئن عَزَّوا في الدنيا بالجور ، لقد ذَلَّوا في الآخرة بالعدل ، ولقد رضُوا بقبائلٍ فانٍ ، عِوَضًا عن كثيرٍ باقٍ ، وإنما تزلُّ القدمُ حيث لا ينفَعُ الندمُ » .

وقال أعرابي : « من كانت مطيته الليل والنهار ، سارا به وإن لم يسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ » .

وقال أعرابي : « الزهادة في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة ، والزهادة في الآخرة مفتاح الرغبة في الدنيا » .

وقيل لأعرابي وقد مرض : إنك تموت ! قال : « وإذا مُتُّ فإلى أين يُذهبُ بي ؟ » قالوا : « إلى الله تعالى » ، قال : « فما كراحتي أن يُذهبَ بي إلى من لم أوالخير إلا منه ؟ » .

وقال أعرابي : « من خاف الموتَ بادر الموتَ ، ومن لم يُنحَ النفسَ عن الشهوات ، أسرعَ به إلى الهلكات ، والجنة والنار أمانك » .

وقال أعرابي : « خيرٌ لك من الحياة ما إذا فقدته أبغضتَ له الحياة ، وشرٌّ من الموت ما إذا نزل بك أحببتَ له الموت » .

وقيل لأعرابي : من أحقُّ الناس بالرحمة ؟ قال : « الكريمُ يُسلِّطُ عليه اللئيمُ ، والعاقلُ يُسلِّطُ عليه الجاهلُ » .

وقيل له : أيُّ الداعين أحقُّ بالإجابة ؟ قال : المظلوم ، وقيل له : فأى الناس أغنى عن الناس ؟ قال : « من أفرد الله بحاجته » .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا أشكل عليك أمران ، فانظر أيهما أقرب من هواك فخالفه ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى » .

وقال أعرابي : « الشرُّ عاجله للذيذ ، وآجله وخيم » .

وقال أعرابي : « من ولد الخير أنتج له فراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مرّاً مذاقهُ ، وقضبانهُ العيظُ ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابي : « من كساء الحلياء ثوبه ، حَفِيَ على الناس عيبه » وقال : « بئس الزاد ، التَعَدَّى على العباد » ، وقال : « التاطف بالحيلة ، أنفع من الوسيلة » ، وقال : « من نَقَلَ على صديقه ، خَفَّ على عدوه » ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون » .

وقال أعرابي : « أعجزُ الناس مَنْ قَصَّرَ في طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ضَيَّعَ من ظَفِرٍ به منهم » .

وقال أعرابي لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشرِّ ، فإن الغالب بالشرِّ هو المغلوب » .
وقال أعرابي لأخ له : « قد نهيتك أن تُريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه ، فإن حَظَّكَ من عطيتِهِ السؤالُ » .

وقال أعرابي : « إن حبَّ الخير خير وإن عجزتُ عنه المقدرة ، وبفض الشرِّ خير وإن فعلت أكرهه » .

وقال أعرابي : « والله لولا أن البروءة تَقِيلُ مَحْمَلِهَا^(١) ، شديدة مؤثمتها ، ما ترك النمام للكرام شيئاً » .

واحتضر أعرابي ، فقال له بنوه : عِظْنَا يَا أَبَتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرَةً ، إن غيبتم حنوا إليكم ، وإن تمَّ بكموا عليكم » .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شملة^(٢) شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشملة لا تكلمك ، وإنما يكلمك مَنْ هو فيها » .

وقال أعرابي : « رُبَّ رجلٍ سرُّهُ منشور على لسانه ، وآخر قد التحفَ عليه قلبه التحافَ الجناح على الخواصِ » .

(١) الحمل في الأصل : شقان على البعير يحمل فيهما الديلان . (٢) كساء دون التغطية وشعليه .

وقيل لأعرابي : كيف كتبناك للسرّ ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .
ومرّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أَنْبَتَتْهُ الطّاعَةُ ، وَحَصَدَتْهُ
المعصية ، وقال الآخر : « من طَلَّقَ الدُّنْيَا فالآخِرَةُ صَاحِبَتُهُ ، ومن فارق الحق
فالجِدْعُ راحِلَتُهُ » .

وقال أعرابي : « إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حينه
إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .
وقال أعرابي : « إذا كان الرأى عند من لا يُقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ،
والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » . (المقدم الفريد ٢ : ٨٥ - ٨٧)

وقال أعرابي : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبّر عما يكون بما قد كان » .
(المقدم الفريد ٢ : ٨٥)

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « غَفَلْنَا ولم يقفل الدهر عنا ، فلم ننعظ
بغيرنا ، حتى وُعِظَ غيرُنا بنا ، فقد أدركت السعادة مَنْ تَبَّهَ ، وأدركت الشقاوة من
غَفَلَ ، وكفى بالتجربة واعظاً » . (زهر الآداب ٢ : ٥)

وقال أعرابي لرجل : « اشكُرْ للمنعِمِ عليك ، وَأَنْعِمِ على الشاكر لك ، تستوجبُ
من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَهُ » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

وتذاكر قوم صلّة الرّجيم ، وأعرابيٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ^(١) في العمر ، مرّضَةٌ
للربّ ، محبّة في الأهل » . (الأمال ١ : ٢١٧)

وقال أعرابي : « لا أعرف ضُرّاً أوْصل إلى نياط القلب ، من الحاجة إلى من لم
تثيق بإسعافه ، ولا تأمن رَدّه ، وأكلم المصاب فقَدْ خليل لا عِوضَ منه » .

وقيل لأعرابي : أى شيء أمتع ؟ فقال : « مُمازحةُ المُحبِّ ، ومحادثة الصديق ،
وأمانى تقطع بها أيامك » .

وقال أعرابي : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخَطُهُ ،
وَمَنْ عَاتَبَ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ كَثُرَ عَدُوُّهُ ، وَمَنْ لَمْ يُوَاطِحْ مِنَ الْإِخْوَانِ إِلَّا مَنْ لَا عَيْبَ
فِيهِ قَلَّ صَدِيقُهُ » . (الأمال ١ : ٢١٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي ما تقول في المرء ؟ قال : « ما عسى
أن أقول في شيء يُفْسِدُ الصَّدَاقَةَ الْقَدِيمَةَ ، وَيَحُلُّ الْعُقْدَةَ الْوَثِيقَةَ ، أَقَلُّ مَا فِيهِ أَنْ يَكُونَ
دُرْبَةً لِلْمَغَالِبَةِ ، وَالْمَغَالِبَةُ مِنْ أُمَّتِنِ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ » . (الأمال ١ : ٢٥٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « لا يوجد العَجُولُ محموداً ،
ولا العَفْصُوبُ مَسْروراً ، ولا المَلُولُ ذا إِخْوَانٍ ، ولا الحُرُّ حريصاً ، ولا الشَّرُّ غنياً » .
وقال : سمعت أعرابياً يقول : « صُنْ عَقْلَكَ بِالْحِلْمِ ، وَمُرُوءَتَكَ بِالْعَقَافِ ، وَنَجِدْكَ
بِجَانِبَةِ الْخَيْلَاءِ ، وَخَلَّتْكَ ^(١) بِالْإِجْمَالِ فِي الطَّلَبِ » (الأمال ٢ : ٢٢)

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « أَفْبَحُ أَعْمَالِ الْمُتَنَدِّرِينَ الْإِنْتِقَامَ ، وَمَا اسْتَنْبَطَ
الصَّوَابُ بِمَثَلِ الْمَشَاوِرَةِ ، وَلَا حُصِّلَتِ النِّعَمُ بِمَثَلِ الْمَوَاسَاةِ ، وَلَا اكْتَسَبَتِ الْبُغْضَاءُ
بِمَثَلِ الْكِبَرِ » . (الأمال ٢ : ٢٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

وقال أعرابي : « خَيْرُ الْإِخْوَانِ مَنْ يُنِيلُ عُرْفًا ، أَوْ يَدْفَعُ ضَرْبًا » .
(الأمال ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « الْعَاقِلُ حَقِيقٌ أَنْ يُسَخِّيَ
بِنَفْسِهِ عَنِ الدُّنْيَا ، لَعَلَّهُ أَنْ لَا يِنَالُ أَحَدٌ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا قَلَّ إِمْتَاعُهُ بِهِ ، أَوْ كَثُرَ عَنَاؤُهُ
فِيهِ ، وَاشْتَدَّتْ مَرَزِيَّتُهُ ^(٢) عَلَيْهِ عِنْدَ فِرَاقِهِ ، وَعَظُمَتِ التَّبِعَةُ فِيهِ بَعْدَهُ » .
(الأمال ٢ : ٤١)

وقال أعرابي : « خَصَلْتَانِ مِنَ الْكِرْمِ : إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمَوَاسَاةُ
الْإِخْوَانِ » . (الأمال ٢ : ٧٣)

وقال أعرابي : « ما عُيِّنَتْ قَطُّ حَتَّى يُغَيَّبَنَّ قَوْمِي » ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال :
« لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

وقال أعرابي لرجل مَطَّلَه في حاجة : « إن مثل الظفر بالحاجة تمجيل اليأس منها ،
إذا عَسِرَ قضاؤها ، وإن الطالب وإن قَلَّ ، أعظمُ قدرًا من الحاجة وإن عَظُمَتْ ، والمطلُّ
من غير عُسْرِ آفةُ الجود » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابي : « وَعَدَّ السَّكْرِيْمُ نَقْدًا وَتَمْجِيلًا ، وَوَعَدَ اللَّيْمُ مَطْلًا وَتَعْلِيلًا » ..
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

وقال أعرابي : « اعتذارٌ من مَنَع ، أَجْمَلُ من وَعَدٍ مَمْطُول » .
(الآمال ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابي : « عَوْدُ لِسَانِكَ الْخَيْرَ ، تَسْلَمُ من أَهْلِ الشَّرِّ » .
(ذيل الآمال ص ٢٩)

وقال أعرابي : « خرجت ليلة حين انحدرت أيدي النجوم ، وشالت^(١) أرجلها ،
فازلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر ، فإذا بجارية كأنها علم ، فحملت أغازلها ، فقالت :
يا هذا : أَمَّا لَكَ نَاهٍ من كَرَمٍ ، إن لم يكن لك زاجرٌ من عقل ؟ قال : والله ما يراني إلا
الكوكب ! قالت : فأين مُكْوُ كِبِهَا ؟ » .

(المعقد الفريد ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الأداب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ - مجاوبة أعرابي للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصْحَرَ^(٢) ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتعدى
معي ، فطلبوا ، فإذا أعرابي في شملة : فَأَتَى به ، فقال السلام عليكم ، قال : هَلُمَّ أيها
الأعرابي ، قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه ، قال : ومن هو ؟ قال : دعاني

(١) ارتفعت : من شالت الناقة بذنها وأشالته : رفعته ، فشال هو .

(٢) أصعر : برز في الصحراء .

الله ربِّي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصومٌ في مثل هذا اليوم الحارّ ؟ قال : صمت ليومٍ هو أحرُّ منه ، قال : فأفطر اليومَ وصُمتُ غدًا ، قال : وَيَضْمَنَ لِي الْأَمِيرُ أَنِّي أُعِيشُ إِلَى غَدٍ ؟ قال : ليس ذلك إليه ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بأجلٍ ، ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ، قال : والله ما طيبه حَبَازُكَ وَلَا طَبَّأُكَ ، قال : فَمَنْ طَيَّبَهُ ؟ قال : العافية ، قال الحجاج : تالله إن رأيت كالليوم ! أخرجوه عني .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٧)

٢١ - مسألة الحجاج أعرابياً فصيحاً

وقال الحجاج لأعرابي كلمه فوجده فصيحاً : كيف تركت الناس وراءك ؟ فقال : « تركتهم - أصلح الله الأمير - حين تفرقوا في الغيطان ، وأخذوا النيران ، وتَشَكَّتْ النساء ، وعَرَضَ الشاء ، ومات الكلبُ » ، فقال الحجاج لجلسائه : « أُخِصَبًا نَعَتَ أَمِ جَدِّبًا ؟ قالوا : بل جدبًا ، قال : بل خِصَبًا ، قوله : تفرقوا في الغيطان ^(١) ، معناه : أنها أعشبت ، فإبليهم وغنمهم ترعى ، وأخذوا النيران ، معناه : استغنوا باللبن عن أن يشتروا لحوم إبلهم وغنمهم ويأكلوها ، وتَشَكَّتْ النساء أعضاءهن ، من كثرة ما يَمَخَّضُن ^(٢) الألبان ، وعَرَضَ الشاء : استن ^(٣) من كثرة العُشْبِ والمرعى ، ومات الكلب : لم تَمِتْ أغنامُهم وإبليهم فياً كل جيفها » . (ذيل الامال ص ٨٧)

٢٢ - مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابي صف الخمر ، فقال : شمولٌ إذا شَجَّتْ ، وفي الكأس مُزَّةٌ لها في عظام الشاربين دَبِيبٌ ^(٤)

(١) جمع غائظ : وهو الملمئن الواسع من الأرض . (٢) مخض اللبن من ياب قطع ونصر وضرب أخط زبده . (٣) استن : سمن ، من الإبل كنصر : إذا رعاها فأصنمها . (٤) الشمول : الخمر أو الباردة منها ، لأنها تشمل برميها للناس ، أو لأن لها عصفة كعصفة الشمال ، وشيخ الشراب : مزجه .

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَهُ لَوْجِهَ أُخِيهَا فِي الْإِنَاءِ قُطُوبٌ^(١)
قال : ويحك يا أعرابي ! لقد أتيتك عندي حُسْنُ صَفْتِكَ لَهَا ، قال : « يا أمير
المؤمنين ، وأتيتك عندي معرفتك بحسن صفتي لها » .

(ميون الأخبار ٢ م : ص ٢١٥)

٢٣ - مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري

وخطب خالد بن عبد الله القسري قال :

« يَا هَلِ الْبَادِيَةِ : مَا أَحْسَنَ بِلَدِّكُمْ ، وَأَغْلَطَ مَعَاشِكُمْ ، وَأَجْحَى أَخْلَاقَكُمْ ،
لَا تَشْهَدُونَ جُمُعَةَ ، وَلَا تَجَالِسُونَ عَلَمَاً ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ دَمِيمٌ ، قَالَ :
« أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ خَشُونَةِ بِلَدِّنَا ، وَغِلْظِ طَعَامِنَا ، فَهِيَ كَذَلِكَ ، وَلَسْنَا مَعَشَرَ
أَهْلِ الْحَضَرِ ، فَيَكُمُ ثَلَاثُ خِصَالٍ ، هِيَ شَرٌّ مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْتَ » ، قَالَ لَهُ خَالِدٌ :
وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : « تَنْقُبُونَ الدُّورَ ، وَتَنْبُسُونَ الْقُبُورَ ، وَتَنْكِحُونَ الذَّكَورَ » ، قَالَ :
« قَبَّحَكَ اللَّهُ ، وَقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ » .

(المقد الفريده ٢ : ١٢٧)

٢٤ - أجوبة شتى

وَقَدَّمَ أَعْرَابِي إِلَى السُّلْطَانِ ، فَقَالَ لَهُ : قُلِ الْحَقَّ ، وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا ،
قَالَ لَهُ : « وَأَنْتَ فَاعْمَلْ بِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَوْعَدَكَ اللَّهُ عَلَى تَرْكِهِ ، أَعْظَمَ مِمَّا تُوعِدُنِي بِهِ » .
وَنَظَرَ عُمَانٌ إِلَى أَعْرَابِي فِي سَمَلَةٍ ، غَاثِرِ الْعَيْنَيْنِ ، مُشْرِفِ الْحَاجِبِينَ ، نَاطِي الْجُبْهَةِ ،
فَقَالَ لَهُ : أَيْنَ رَبِّكَ ؟ قَالَ : بِالْمِرْصَادِ !

وقيل لأعرابي : إنك تُحْسِنُ الشَّارَةَ^(٢) ، قال : « ذَلِكَ عُنوان نعمة الله عندي » .

(١) القدى : ما يقع في الشراب ، تطيب كضرب قلباً وقطوباً : زوى ما بين عينيه وكلح ، وأخوها :
هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشارين يفضلونها عليه فتهربونها دونه ، فهو يقطب من أجل ذلك ، وق
أخيها يقول للشاعر :

دع الخمر يشربها الفواة فإنني رأيت أخاها مغنياً بكانها
فإلا يكنها أو تسكت فإنه أخوها غده أمه بلبانها

(٢) الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابي : « كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي ، وأرقمه بالاستغفار » .

وسئل أعرابي عن القدر فقال : « الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس ، يعرف ضوءها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصمت فيه العقول ، وتناول فيه المختلفون ، وحق علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٦ - ٨٧)

وقيل لأعرابي : من أبلغ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة » .
وقيل لأعرابي : مالك لا تطيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قرى ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خبزٌ خخير ، ولبن فطير ، وماء نيم ^(١) » .

وقيل لأعرابي : فيم كنتم ؟ قال : « كنا بين قدر نفور ، وكأس تدور ، وحديث لا يحور ^(٢) » .

وقيل لأعرابي : ما أعددت للبرد ؟ قال : « شدة الرعدة ، وقرفصاء القعدة ، وذرب المعدة ^(٣) » .

وقيل لأعرابي : « ما لك من الولد ؟ قال : قليلٌ خبيثٌ » قيل له : ما معناه ؟ قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أتي » .

وقيل لأعرابي - وقد أدخل ناقته في السوق ليبيعها - صف لنا ناقتك ، قال :

(١) الخيمر : الذي اختمر ، وماء نيم : ناعم ، عذبا كان أو غير عذب .
(٢) أي لا ينقص ، وربما كان لا يحور بالجم . (٣) القرفصاء : أن يجلس على أليته ، ويلصق فخذه ببطنه ، ويحتسب بيديه يضمهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكبا ، ويلصق بطنه بفخذه ، ويتأبط كفيه ، والذرب : الحدة ، والمعدة ككلمة وكسرة .

مَا طَلَبْتُ عَلَيْهَا قَطُّ إِلَّا أَدْرَكْتُ ، وَلَا طُلِبْتُ إِلَّا فُتُّ ، وَقِيلَ لَهُ : فَلِمَ تَبِعِيهَا ؟
قال : لتقول الشاعر :

وقد تُخْرِجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ عَامِرٍ كِرَامًا مِنْ رَبِّ بَهَنَ ضَنِينَ
وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طيب ؟ قال : « حُرُّ الْوَحْشِ لِمُتَحَاجِ
إِلَى بَيْطَارٍ » .

وقيل لِشَرِيحِ الْقَاضِي : هَلْ كَلِمَكَ أَحَدٌ قَطُّ فَلَمْ تُطِقْ لَهُ جَوَابًا ؟ قال : مَا أَعْلَمُهُ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَعْرَابِيًّا ، خَاصِمٌ عِنْدِي وَهُوَ يَشِيرُ بِيَدَيْهِ ، قَلَّتْ لَهُ : أُمْسِكِ ، فَإِنْ
لَسَانِكَ أَطْوَلُ مِنْ يَدِكَ ، قال : « أَسَامِرِيٌّ أَنْتَ لَا تَمْسُ ؟ ^(١) » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابي : أَيُّ الْأَلْوَانِ أَحْسَنُ ؟ قال : « قُصُورٌ بَيْضٌ ، فِي حَدَائِقِ
خُضْرٍ » .

وقيل لآخر : أَيُّ الْأَلْوَانِ أَحْسَنُ ؟ قال : « بَيْضَةٌ ^(٢) ، فِي رَوْضَةٍ ، عَنِ غِيبِ
سَارِيَةٍ ، وَالشَّمْسُ مُكَبَّدَةٌ » .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا بِهِ ، فَاقْتَبَسْتُ قَبْصَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ،
قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ » .

والسامري : هو موسى بن ظفر السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان
من قوم يعبدون البقر ، وقع في مصر ، فدخل في بني إسرائيل ، وآمن بموسى ، وكان منافقاً لا يزال في قابه
عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه فتن بني إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من
حل القبط التي أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال - فاتخذ لهم منها عجلاً جسداً له خوار . . .
إلى آخر ما هو معروف في القصة ، من أثر الرسول : أي من أثر حافر الرسول وهو جبريل ، والأثر :
التراب الذي تحت حافره ، والمساس مصدر ماس ، وهو نفى أريه به النهى ، أي لا تمسني ولا أمسك .

(٢) البيضة : ساحة القوم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تسمى ليلاً ، وكبدت الشمس السماء : صارت
في كبدها أي وسطها ، وفي الأصل « مكيدة » بالياء وهو تصعيف .

وخطب أعرابي إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتنع السجف^(١)
فأرى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندي نقد ، وإني لأكره أن يكون علي دين » .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزاءك عن ابنك ! » ، قالت :
« إن مصيبتته آمننتني من المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهاللي : قلت لأعرابي : « إني لك لو آدُّ » ، قال : « وإن لك
من قلبي لرائدًا » . (البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً أمامه شاء ، فقلت لمن هذه الشاء ؟ قال :
« هي لله عندي » . (العقد الفريد ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٠٩)

قولهم في الاستمناح والاستجداء

٢٥ — أعرابي يجتدي عتبة بن أبي سفيان

اعترض أعرابي لعتبة بن أبي سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ، فقال :
لستُ به ، ولم تُبعِد ، قال : يا أخاه ، قال : أسمعُ فقل ، قال :

« شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة ، ويختص بأخثولة ، ويشكو إليك
كثرة العيال ، ووطأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادف ضرر ، وعندك ما يسعه ويصرف
عنه بؤسه » قال : « أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بغناك ،
فليت إسراعنا إليك ، يقوم بإبطائنا عنك » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١)

٢٦ - أعرابي يجتدى عمر بن عبد العزيز

وأتى أعرابي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« رجل من أهل البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، والله سائلك عن مقامي غداً ، فقال عمر : « والله ما سمعتُ كلمةً أبلغ من قائل ، ولا أوعظُ لمقولٍ له منها » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٣ ، والأمال ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١) .

٢٧ - خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك

وكانت الأعراب تنجِّع هشام بن عبد الملك بألخطَب كل عام ، فتقدَّم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز ، فقام أعرابي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى جعل العطاء حَبَّةً ، والمنع مَبْغَضَةً ،
فَلَا نَحْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُبْغِضَكَ^(١) ، فأعطاه وأجزل له . (العقد الفريد ٢ : ٨٣)

٢٨ - مقام أعرابي بين يدي هشام

وقام أعرابي بين يدي هشام فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتت على الناس ثلاث سِنِينَ ، أمَّا الأولى : فَدَجَّتِ^(٢) اللحم ،
وأما الثانية : فَأَكَلَتِ الشَّحْمَ ، وأما الثالثة : فهاضت^(٣) العَظْمَ ، وعندكم فُضُولُ
أموالٍ ، فإن كانت لله فاقسِموها بين عباده ، وإن كانت لهم ففِيمَ تحظَرُ^(١) عنهم ؟
وإن كانت لكم فتصدَّقوا عليهم بها ، إن الله يجزِي المتصدقين ، قال هشام : هل من
حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ قال : « ما ضربتُ إليك أكبادَ الإبل ، أدَّرِعُ الهَجِيرَ ،
وأخوضُ الدُّجَى نلِصاً دون عام » ، فأمر هشام بمال ، فقسَّم بين الناس ، وأمر

(١) يروى هذا لمحمد بن أبي الجهم المدري ، قاله في حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثاني ص ٤٢٢ .

(٢) من لحاء الشجرة : أخذ لحاءها (بالسكر) وهو قشرها . (٣) هاض العظم : كمره بعد

الجبور فهو مهيب ، وفي رواية : « دعام أتق العظم » أي وصل إلى نقيه (بالسكر) وهو مخ العظم .

(٤) تعجب وتمنع .

للأعرابي بمال ، فقال « أكلُ المسلمين له مثل هذا ؟ » قالوا : « لا ، ولا يقوم بذلك بيتُ مال المسلمين » ، قال : « فلا حاجة لي فيما يَبْعَثُ لأئمةَ الناس على أمير المؤمنين •
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ وللمقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ - أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد

وقال العُتبيّ : وقف أعرابي بباب عُبَيْدِ اللهِ بن زياد فقال :
« بأهل الغُضارة^(١) ، حَقَبِ^(٢) السَّحابُ ، وانقشعَ الرَّبابُ ، واستأسَدَتِ الذَّنابُ
وَرُدِمَ التَّمَدُّ^(٣) ، وَقَلَّ الحَفْدُ^(٤) ، ومات الولدُ ، وكنت كثير الغفأة^(٥) ، صَخِبِ^(٦)
الشُّقاةِ ، عَظِيمِ الدَّلالةِ^(٧) لانتِصالِ الزمان ، وَغَفَلَ^(٨) الحِذْثانُ ، حَى حِلالٍ^(٩) ، وعدد
ومال ، فَتَفَرَّقَتَا أَيدي سِبا^(١٠) ، بين فقد الأبناء والآباء وكنت حَسَنَ الشَّارةِ^(١١) ،
خَصِيبِ الدَّارةِ^(١٢) سليم الجارة^(١٣) ، وكان مَحَلِّي حَمِي ، وقومى أُسَى^(١٤) ، وعزى جَدًّا^(١٥)

(١) الغضارة : النعمة والسمة والخصب ، وفي الأصل : « الغضاضة » وهو تحريف - والغضاضة للذلة والمنقصة - . (٢) حقب المطر وغيره : احتبس ، والرباب : السحاب الأبيض .
(٣) التمدد كشمس وسبب : الماء القليل لامادة له . (٤) الحفد : الأعوان جمع حافد .
(٥) الغفأة جمع غاف : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق .
(٦) وصف من الصخب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والشقاة جمع ساق كقاض ، وفي الأصل « صخب السفاء » وأراه محرفا . (٧) في الأصل : « عظيم للزلات » وأراه محرفا عن « الدلاة » ، والدلاة كقضاة جمع دال كقاض ، وهو النازع في الدلو المستبق به الماء من البئر . يقال : أدليت للدلو ودأيتها : إذا أرسلتها في البئر . ودأوتها أدلوها فأنا دال ، إذا أخرجتها . (٨) الغفل بالتحريك : الغفلة ، والحذثان : ثوب الدر وحوادثه ، وفي الأصل : « ولا أعقل الحذثان » وأراه محرفا ، وربما كان الأصل « ولاغفال الحذثان » يتكرر لام الجر . (٩) الحلة بالكسر : تقوم النالون ، والجمع حلال وحلل ككتاب وعنب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية للمحل باسم الحال ، وهي مائة بيت فا فوقها .
(١٠) يقال : ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا : أي تبددوا ، شهبوا بأهل سبا لما مزقهم الله في الأرض كل مزق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال ، أخذ القوم يد بحر ، فقبل القوم إذا تفرقوا في جهات مختلفة : ذهبوا أيدي سبا : أي فرتهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبا في مذاهب شتى والعرب لا تهمز سبا في هذا الموضع ، لأنه كثر في كلامهم فاستنقلوا فيه الهزمة وإن كان أصله هموزا ، وقد بنوا أيدي سبا ، وأيادي سبا على السكون لسكونه مركباً تركيب خمسة عشر .

(١١) للشارة : الهيئة والملباس والزينة والجمال . (١٢) الدارة : الدار .

(١٣) الجارة ، من معانيها : للزوجة . (١٤) الأسي جمع أسوة : وهي القدوة .

(١٥) الجندا : العطية ، والمطر الذي لا يعرف أنفصاه .

قضى الله - ولا رُجَعَانَ لما قَضَى - بِسَوَافٍ^(١) المال ، وَشَتَاتِ الرجال ، وَتَغْيِيرِ الحال
فَأَعِينُوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ ، وَلِسَانُهُ وَافِدُهُ ، وَفَقْرُهُ سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ .
(زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٣٠ - أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكرة

ودخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة ، فوفقت بين السَّاطِينِ^(٢)
فقال :

« أصلح الله الأمير وأمتع به ، حَدَرْنَا إليك سَنَةً اشتد بلاؤها ، وانكشف
غَطَاؤها ، أَقْوَدُ صَبِيَّةً صَغَارًا ، وَآخِرِينَ كِبَارًا ، في بلدة شاسعة ، تَخْفِضُنَا خَافِضَةً ،
وَتَرْفَعُنَا رَافِعَةً ، لِمِائَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ ، بَرِيْنٍ عَظْمِي ، وَأَذْهَبِينَ لِحِي ، وَتَرْكَبُنِي وَالِهَةً ،
أُدُورَ بِالْحَضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ الْعَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ : مَنْ الْكَامِلَةُ
فَضَائِلُهُ ، الْمُعْطَى سَائِلُهُ ، الْمَكْفِيُّ نَائِلُهُ ؟ فَدَلَّيْتُ عَلَيْكَ - أَصَاحِبُكَ اللَّهُ تَعَالَى - وَأَنَا امْرَأَةٌ
مِنْ هَوَازِنَ ، قَدْ مَاتَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الرَّافِدُ ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ غِيَاثِي ، وَمُنْتَهَى أَمَلِي ، فَافْعَلْ
بِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، أَوْ تُحْسِنَ صَفْدِي^(٣) ، أَوْ تَقِيمَ أَوْدِي
فقال : بل أجمعن لك ، فلم يزل يُجْرِي عَلَيْهَا كَمَا يُجْرِي عَلَى عِيَالِهِ حَتَّى مَاتَتْ .

(زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

قال الأصمعي : وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى
عنه فقالت :

« إني أتيت من أرضٍ شاسعة ، تَخْفِضُنِي خَافِضَةً ، وَتَرْفَعُنِي رَافِعَةً ، فِي بَوَادِي

(١) السواف بالضم وبفتح: مرض الإبل، وساف المال يسوف ويساف: هلك، أو وقع فيه السواف .

(٢) الساطان من الناس: الجانيان . (٣) الصفد: العطاء .

بَرِّينَ لِحْمِي ، وَهَضُنْ (١) عَظْمِي ، وَتَرَكَنِي وَآلِهَةَ ، قَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ ، بَعْدَ الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ ،
 وَكَثْرَةَ مِنَ الْعَدَدِ ، لَا قَرَابَةَ تُؤْوِينِي ، وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِينِي ، فَسَأَلْتُ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ،
 مَنِ الْمُرْتَجَى سَبِيهِ (٢) ، الْمَأْمُونُ عَيْبُهُ ، الْكَثِيرُ نَائِلُهُ ، الْمَكْفِيُّ سَائِلُهُ ، فَدَلَّلْتُ عَلَيْكَ ،
 وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازِنَ ، فَقَدْتُ الْوَالِدَ وَالْوَالِدَ ، فَاصْنَعْ فِي أَمْرِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثَ : إِمَّا أَنْ
 تُحْسِنَ صَفَدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ أَوْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي « : قَالَ : بَلِ أَجْمَعِينَ
 لَكَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهَا . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣١ — أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري

وَدَخَلَ أَعْرَابِي عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ ، فَقَالَ :
 « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : شَيْخٌ كَبِيرٌ ، حَدَّثَنِي إِلَيْكَ بَارِيَةَ الْعِظَامِ (٣) ، وَمُورَثَةَ
 الْأَسْقَامِ ، وَمُطَوَّلَةَ الْأَعْوَامِ ، فَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُ ، وَذُعِدَعَتْ (٤) آبَالُهُ ، وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُ ،
 فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرُ أَنْ يَجْبُرَهُ بِفَضْلِهِ ، وَيَنْعِشُهُ بِسَجْلِهِ (٥) ، وَيُرِدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ ! » قَالَ :
 كُلَّ ذَلِكَ ، وَأَمْرُهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ . (الأمال ٢ : ٤٩)

٣٢ — أعرابي يستجدي معن بن زائدة

وَقَدِمَ أَعْرَابِي مِنْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ وَهُوَ بِالْيَمَنِ فَقَالَ :
 « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ سَبَبًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ ، أَقْوَى مِنْ رِحْلَةٍ مِثْلِي مِنْ أَهْلِ
 السِّنِّ وَالْحَسَبِ إِلَيْكَ مِنْ بِلَادِهِ ، بِلَا سَبَبٍ وَلَا وَسِيلَةٍ ، إِلَّا دَعَاكَ إِلَى الْمَسْكَرِمْ ،
 وَرَغَبَتِكَ فِي الْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَضَعَنِي مِنْ نَفْسِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتَ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ
 فَافْعَلْ » فَوَصَلَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

(١) هاضن العظم : كسره بعد الجوز . (٢) السبب : العطاء .
 (٣) حدته : ساقته ، وبارية العظام : أي النكبات التي تبرى العظام ، مورثة : مهيجية ، من التاروث
 وهو إيقاد النار .
 (٤) ذعدت : فرقت ، وآبال جمع إبل . (٥) السجل في الأصل : الدلو العظيمة مأوأة .

٣٣ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام

عن أبي زيد قال : بيننا أنا في المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابي فقال :

« يا مسلمون ، إن الحمد لله ، والصلاة على نبيه ، إني امرؤ من أهل هذا المَلْطَاطِ
الشَّرِيقِ المُوَاصِي أَسِيفَ تِهَامَةَ ^(١) ، عَكَفْتُ عَلَى سِنُونِ مَحْشٍ ^(٢) ، فَاجْتَبَيْتِ الذَّرَى ،
وَهَشَمْتُ العُرَى ^(٣) ، وَجَمَشْتُ النَّجْمَ ، وَأَعَجَبْتُ البُهْمَ ^(٤) ، وَهَمَّتِ الشَّحْمَ ، وَالتَّعَبَيْتِ
اللَّحْمَ ، وَأَحْجَنْتِ العَظْمَ ^(٥) ، وَغَادَرْتُ التَّرَابَ مَوْرًا ، وَالمَاءَ غَوْرًا ، وَالنَّاسَ أَوْزَاعًا ^(٦) ،
وَالتَّبِيظَ قُعَاعًا ، وَالضَّهْلَ جُزَاعًا ، وَالمَقَامَ جَعَجَاعًا ^(٧) ، يُصَبِّحُنَا المَآوِي ، وَيَطْرُقُنَا
العَاوِي ^(٨) ، نَفْرَجْتُ لَا أَتَلْفَعُ بَوَصِيدَةَ ، وَلَا أَتَفَوِّتُ هَبِيدَةَ ^(٩) ، فَالْبَخَصَاتُ وَقِعَةٌ ،
وَالرُّكْبَاتُ زَلِيعَةٌ ، وَالأَطْرَافُ قَفِيعَةٌ ^(١٠) ، وَالجِسْمُ مُسْلَمُهُمْ ، وَالنَّظَرُ مُذْرَمُهُمْ ^(١١) ، أَعْشُو
فَأَغْطِشُ ، وَأُضْحِي فَأُخْفِشُ ^(١٢) ، أَسْهَلُ ظَالِعًا ، وَأُحْزِنُ رَاكِعًا ^(١٣) فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ

- (١) المَلطاط : كل شفير نهر أو واد ، والمواصي والمواصل واحد ، يقال تواصى التبت : إذا اتصل
بعضه ببعض ، وأسيف جمع سيف بالكسر : وهو ساحل البحر . (٢) عكفت : أقامت ، والنون
الجدوب ، ومحش جمع محوش كصبور ، وهي التي تمحش (بضم الخاء) الكلاب أي تحرقه .
(٣) اجتبت : قطعت واستأصلت ، وهشمت : كسرت ، والعري جمع عروة ، والعروة : القطعة من
الشجر لا يزال باقياً على الجذع ترعاه أموالهم . (٤) جمشت : احتلقت ، والنجم : ما نجم ولم يستقل
على ساق ، وأعجت : أي جعلها عجايباً ، والمعجى : السبيء للغذاء المهزول .
(٥) همت : أذابت ، والعرب تقول : وهك ما أهك ، أي أذابتك ما أحزنتك ، والتعبت اللحم : أي
عرقته من العظم ، وأحجنت العظم : أي عوجته فصيرته كالمحجن . (٦) مار موراً : اضطرب وماج ،
والغور : الغائر ، أوزاع : فرق . (٧) التبيظ : الماء الذي يستخرج من البئر أول ما تحفر ، والقمعاع
الماء المالح المر : والفهل : التقليل من الماء ، والجزاع : أشد المياه مرارة ، والجمعاع : المكان الذي
لا يطمئن من قعد عليه . (٨) المآوى : الجراد ، والعاوى : الذئب .
(٩) التلطف : الاشتغال ، واللوصيدة : كل نصيجة ، والهبيدة : حب الحنظل يعالج حتى يطيب فيختبز .
(١٠) البخصات جمع بخصه ، وهي لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفرح إذا اشكى
لحم باطن قدمه ، وزلعه : متشقة ، وقفة ومقفة واحد : وهي التي قد تقبضت ويبست .
(١١) المسلمم : للضامر المتغير ، والمدرهم : الضعيف للبصر الذي قد ضعف بصره من جوع أو مرض .
(١٢) أعشو : أنظر : فأغطش : أصغر غطشاً (بكسر الطاء) والغطش حركة : ضعف في البصر ، وضحي
للشمس كفرح وسى : برز لها ، وأخفش بالتحريك : ضعف البصر خلقة ، أو فساد في الجفون بلا وجع
أو أن يبصر بالليل دون النهار . (١٣) أسهل ظالماً : أي إذا مشيت في السهول ظلمت ، وظلع كنع :
غز في مشيه ، وأحزن راكعاً : أي إذا حلوت الميزن ركمت أي كبوت لوجسى .

مَعْبُورٍ^(١) ، أو داع بخير ؟ وقاكم الله سَطَوَةَ القَادِرِ ، وَمَلَكَ الكَاهِرِ^(٢) ، وسوء الموارِدِ ، وَفُضُوْحَ المَصَادِرِ « ، قال : فأعطيته ديناراً وكتبت كلامه ، واستفسرته ما لم أعرفه . (الأمالي ١ : ١١٣)

٣٤ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قال :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابياً في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث وخمسين ومائة : وهو يقول :

« أما بعد : فإننا أبناء سبيل ، وأنضاء^(٣) طريق ، وفَلَّ^(٤) سَنَةٍ ، تصدَّقوا علينا ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، أما والله إننا لنقوم هذا المقام ، وفي الصدر حَزَاةٌ^(٥) ، وفي القاب غُصَّةٌ « . (البيان والبيِّن ٢ : ٤٦)

٣٥ - صورة أخرى

وروى أبو عليّ القالي هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما كها :

عن يونس قال : وقف أعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال :

« قَلَّ التَّيْلُ ، وَنَقَصَ الكَيْلُ ، وَعَجِفَتِ^(٦) الخِيْلُ ، والله ما أصبحنا ننفخ في وَضَحٍ^(٧) ، وما لنا في الديوان وَشْمَةٌ^(٨) ، وإنا لِعِيَالٌ جَرَبَةٌ^(٩) ، فهل من مُعِينٍ ، أعانه الله ، يُعِينُ ابنَ سبيلٍ ، وَنِضْوَ طريقٍ ، وفَلَّ سَنَةٍ ؟ فلا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت « . (الأمالي ٢ : ١٩٧)

(١) المير : العلية ، من قولهم : مارهم يعرهم ميراً . (٢) السكاهم والقاهر : واحد ، وقد قرأ بعضهم (فَأَمَّا الَّتِي تَمَّ فَلَا تَكْهَرُ) .

(٣) أنضاء جمع نضو كقرود : وهو المهزول ، أي قد هزلنا وأضننا ساوك الماريق .

(٤) السنة : الجلبد والقحط ، وقوم قل : منهزمون ، والجمع فلول وأفلال ، أي هزمتنا القحط .

(٥) الحزاة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . (٦) هزلت . (٧) للوضوح : اللبن ، سمي

وضوحاً لبياضه . (٨) اللوشمة : مثل الوشم في الذراع ، يريد الخط .

(٩) الجربة : السكير ، أو للعيال يأكلون ولا ينفعون .

٣٦ - صورة أخرى

ورواها صاحب العقد فقال : وقف أعرابي على حلقة يؤنس فقال :

« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أن أذكر به وأنساه ، إنا أناس قَدِمْنَا المدينة ثلاثون رجلاً لا ندفن ميتاً ولا نتحول من منزل وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً تصدق على ابن سبيل ، ونضو طريق ، وفَلَّ سَنَةً ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، يقول الله عزَّ وجلَّ : (مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً) إن الله لا يستقرض من عوزٍ ، ولكن ليبلو خيار عباده . » (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ - أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :

« رحم الله امرأ لم تتمج أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذة^(١) من سوء مقامي ، فإن البلاد مُجْدبة ، والدار مُضَيعة ، والحال سيئة^(٢) ، والحياء زاجر ينهي عن كلامكم ، والعُدْم عاذرٌ يحملي على إخباركم ، والدعاة إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمرَ بِمَيْرٍ^(٣) ، أو دعا بخير » ، فقال له بعض القوم : ممن الرجل ؟ فقال : « ممن لا تنفَعكم معرفته ، ولا تضرَّكم جهالته ، ذلُّ الاكتساب ، يمنع من عزِّ الانتساب . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمال ١ : ١٣٨)

٣٨ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جَدْبَةٌ وشدة وجهد ، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين يديهم أعرابي وهو يقول :

« أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ، عابِرٌ وسبيل ،

(١) المعاذة والمعاذ والعياذ : الالتجاء . (٢) وفي الأمال : « والحال مسغبة » أي مجيبة .

(٣) ما رعاياه ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهي الطعام ، وفي العقد : « فرحم الله امرأ ميراً ،

وداعياً مبير . »

وأفلال بؤس ، وصَرَعى جَدْب ، تتابعت عاينا سنون ثلاثة^(١) ، غَبَرَتِ^(٢) النَّعَم ، وأهلكت النَّعَم ، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا ، ونمّنى بالغيث قلوبنا ، حتى عاد مُخْنَأَ عِظَامًا ، وعاد إشرافنا ظلامًا ، وأقبلنا إليكم يَصْرَعَنَا الوَعْر ، وَيَكِنِّنَا^(٣) السهمل ، وهذه آثار مصائبنا لأمة في سماننا ، فرحم الله متصدقًا من كثير ، وموأسياً من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وكسّف البال ، وبلغ المجهود ، والله يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ .

٣٩ - أعرابي يستجلى

وقال الأصمعي : كنت في حلقة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلاً ، فقال : « أيها الناس ، إن الفقر يهتك الحجاب ، وَيُبْرِزُ الكَعَاب^(٤) ، وقد حملتنا سنو المصائب ، وَنَكَبَات الدهور ، على مركبها الوَعْر ، فواسوا أبا أيتام ، وَنِضْوَ زمان ، وطريد فاقه ، وطريح هلكة ، رحمكم الله . »

٤٠ - أعرابي يستجلى

وقال الأصمعي : وقف أعرابي علينا فقال : « يا قوم : تتابعت عاينا سنون بتغير وانتقاص ، فارتكت لنا هبعا ولا ربعا^(٥) ، ولا عافطة ، ولا نافطة^(٥) ، ولا ناعية ولا راغبة ، فأماتت الزرع ، وقتلت الصرع ، وعندكم من مال الله فضل نعمة ، فأعينوني من عطية ما آتاكم الله ، وارحموا أبا أيتام ، وَنِضْوَ زمان ، فلقد خلقت أقواما يمرضون ولا يكفنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل ، وإن كرهوه ، ولقد مشيت حتى انتعلت الدماء ، وَجَعْتُ حتى أكلت التري . »

(١) غبره لاطخه بالغيث ؛ أو هي « غبرت » بالياء . (٢) أي يسترنا . (٣) جارية كعاب : نهذ ثديها .

(٤) الطبع : الفصيل ينتج في آخر الشتاء ، والربيع : الفصيل ينتج في الربيع ، وهو أول النتاج .

(٥) النافطة : النعجة ، من العفط : وهو الضرب ، عفطت كضرب : ضربت فهي عافطة ، والعفط

أيضاً : نثير الضأن تنثر بأثوقها كما ينثر الحمار ، والنافطة : العنز ، من النفظ ، نفظت العنز كضرب : نثرت

بأنفها أو عطست فهي نافطة ، أو لأنها تنفظ بيولها : أي تدفمه دفماً ، أو النافطة إنباع للعافطة ، أو

العافطة : الأمة الراعية ، والنافطة : الشاة .

٤١ - أعرابية تستجدي

وقال الأصمعي : وقفت أعرابية فقالت :

« يا قوم سنّة جرّدت ، وأيدٍ جمّدت ، وحال جهّدت ^(١) ، فهل من فاعلٍ لخير ،
وأميرٍ بمخير ؟ رَحِمَ اللهُ من رَحِمَ ، فأقرَضَ من لا يظلم . »

(المعقد الفريد ٢ : ٨٠ - ٨٤)

٤٢ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

« أشكو إليكم أيها الملأ زماناً ، كَلَحَ في وجهه ، وأناخ على بَكَالِكَلَه ، بعد
نعمة من المال ، وثروة من المآل ، وَغَيْبَطَةَ من الحال ، اعتورتني جدّانده ^(٢) ، بَنَبِلِ
مصائبه ، عن قسيّ نوائبه ، فما تركألى ثاغية ^(٣) أجتدي ضرعها ، ولا رَاغِيَةً أرتجى
نعمها ، فهل فيكم من مُعِينٍ على صَرْفَه ، أو مُعَدِّ ^(٤) على حَتْفَه ؟ » ، فرد القوم عليه ،
ولم يُنِيلُوهُ شيئاً ، فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأكل من أمثالكم جوداً ، وليس الجود من فِعالكم

لا بارك الله لكم في مالكم ولا أراح السوء عن عيالكم

فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

٤٣ - أعرابي يستجدي

وسَمِعَ عَدِيّ بن حاتم رجلاً من الأعراب وهو يقول :

« يا قوم تصدّقوا على شيخ مُعِيلٍ ، وعابر سبيل ، شهِدَ له ظاهره ، وسَمِعَ شكواه

(١) جهده المرض كنع : هزله .

(٢) سنة جداء : محلة مجدية ، والجداء من كل حلوبة : الذاهبة اللبن من عيب ، والحدودة :

التقلية اللبن من غير عيب ، والجمع جدائد وجداد . (٣) اللثاغية : الشاة من اللثاء بالضم ، وهي صوت
الغنم ، والرأغية : الناقة ، من الرغاء ، وهو صوت الإبل .

(٤) ميين ، أهداه عليه : نصره وأعلمه وقواه .

خالقه ، بَدَنُهُ مطلوب ، وثوبه مسلوب » ، فقال له : من أنت ؟ قال : رجل من بني سعد في دِيَةِ لَزِمَتِي ، قال : فكَمْ هي ؟ قال : مائة بعير ، قال : دُونَكَمَا في بطن الوادي .
(العقد الفريد ٢ : ٨٢٠ - ٨٢٣)

٤٤ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فقال :
« إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللهُ - أبناء سبيل ، وَأَنْضَاءُ طريق وقاسية^(١) ، رحم الله امرأ
أعطى من سعة ، ووَاسَى من كفاف » .
فأعطاه رجل درهما فقال : « آجَرَكَ اللهُ من غير أن يَبْتَلِيكَ » .

٤٥ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :
« يا قوم : تتابعن علينا سِنُونَ جَمَادٍ^(٢) شِدَاد ، لم يكن للسماء فيها رَجْعٌ^(٣) ،
ولا للأرض فيها صَدْعٌ^(٤) ، فَنَضَبَ العِدُّ^(٥) ، وَنَشَفَ الوَشْلُ ، وَأَمْحَلَ الخِصْبُ ،
وَكَلَّحَ الجُدْبُ ، وَشَفَّ^(٦) المال ، وَكَدَفَ البال ، وَشَطَفَ المعاش ، وذهب الرياشُ ،
وطرحتني الأيام إليكم غريبَ الدار ، نَأَى المَحَلِّ ، ليس لي مالٌ أرجع إليه ، ولا
عشيرة أُلْحِقُ بها ، فَرَحِمَ اللهُ امرأَ رَحِمَ اغترابي ، وجعل المعروف جوازي » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٠٠)

(١) أي وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وفل سنة » . (٢) الجهاد : السنة التي لامطر فيها .
(٣) الرجوع : المطر ، لعوده كل حين (٤) أي انشقاق عن النبات ، اقتبسه من الآية الكريمة :
(وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)
(٥) العد : الماء الجاري الذي له مادة لاتنقطع كماه العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل
يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء في الأرض : ذهب ، ونشف الخوض الماء
شربه ، وأمحل : أجاب .
(٦) شف : رق ، والشطف بالتحريك : يبس العيش وشده ، والرياش : المال والخصب والمعاش

٤٦ - أعرابية تستجدي

وخرج المهدي يطوف بعد هداة^(١) من الليل ، فسمع أعرابية من جانب المسجد ، وهي تقول :

« قوم متظاهون ، نبت^(٢) عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وعصتتهم السنون ،
بادت رجالهم ، وزهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله
ووصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من امرئ يجير ؟ كلاله الله في سفره ،
وحلفه في أهله . »

فامر نصيراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

٤٧ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي في شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صُبح أمس ، ومعى بنتان لي ،
والله ما علمتُهما تحللتا بجلال ، فهل رجل كريم يرّحم اليوم مقامنا ، ويرد حُشاشتنا^(٣) ؟
منعه الله أن يقوم مقامه ، فإنه مقام ذل وعار وصغار . »

فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً ، ثم قال :

« أشدّ والله على من سوء حالي وفاقتي ، توهمي فيكم المواساة ، أنتعابوا الطريق ،

(العقد الفريد ٢ : ٨٢)

لا صحبكم الله ! . »

(١) أي حين هدأ الليل ، أو هو أول الليل إلى ثلثه .

(٢) اقتحمهم وازدرتهم ، وفدحتهم : أثقلتهم .

(٣) الحشاشة : بقية الروح في المريض ، والصغار : الذل .

٤٨ - أعرابي يستجدي

وقام أعرابي ليسأل فقال :

« أين الوجوه الصُّباح^(١) ، والعقول الصُّحاح ، والألسُنُ الفِصَّاح ، والأنساب الصُّراح^(٢) ، والسكرام الرِّياح ، والصدور الفِصَّاح ؟ تُعيذني من مَقَامِي هذا » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

٤٩ - أعرابي يستجدي

ودعا أعرابي في طريق مكة فقال :

« هل من عائِدٍ بفضْل ، أو مؤاسٍ من كفاف؟^(٣) » ، فأُمسِك عنه فقال :
« اللهم لا تَكِلْنَا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤)

٥٠ - أعرابي يستجدي

وقف أعرابي فسأل قوماً فقالوا له : عليك بالصَّيارِفة ، قال : هُنَاك واللهِ قرَارَةُ اللُّؤْم !
(البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ناساً فقال : « جعل الله حَظَّكم في الخير ، ولا جعل حَظَّ السائل منكم عِدْرَةً^(٤) صادقة » .
(البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

٥٢ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ، فقال له صبي من جوف الدار : « بُورِك فيك ، فقال : قَبَّحَ اللهُ هذا القَم ، لقد تعلم الشرَّ صغيراً » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

(١) جمع صبيحة: وهي الجميلة من الصياحة كفصاحة أى الجمال . (٢) جمع صريحة: وهي المحضة الخالصة.
(٣) الكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٤) العِدْرَة : اسم من العذر .

٥٣ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فنموه ، فقال :

« اللهم اشغَلْنَا بِذِكْرِكَ ، وَأَعِدْنَا مِنْ سُخْطِكَ ، وَأُولِجْنَا إِلَى عَفْوِكَ ، فَقَدْ ضَنَّ
خَلْقُكَ بِرِزْقِكَ ، فَلَا تَشغَلْنَا بِمَا عِنْدَ مَنْ عَنِ طَلَبِ مَا عِنْدَكَ ، وَأَتِنَا مِنَ الدُّنْيَا
الْقُنَمَانَ ^(١) ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا يُسْخِطُكَ ، فَلَا خَيْرَ فِيمَا يُسْخِطُكَ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

٥٤ - أعرابي يستجدي

وقال أبو الحسن : وقف علينا أعرابي فقال :

« أَخْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَجَارٍ فِي بِلَادِ اللَّهِ ، وَطَالِبٍ خَيْرٍ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ، فَهَلْ فِيكُمْ
مَنْ مُؤَسِّسٍ فِي اللَّهِ » .

وسأل أعرابي رجلا ، فاعتلَّ عليه فقال : « إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا ، فْجَعَلَكَ اللَّهُ صَادِقًا » .

(المعقذ الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ - أعرابي يسأل رجلا حاجة له

أتى أعرابي رجلا (لم تكن بينه وبينه حرمة) في حاجة له ، فقال :

« إِنِّي امْتَطَيْتُ إِلَيْكَ الرَّجَاءَ ، وَسِرَّتْ عَلَيَّ الْأَمَلُ ، وَوَفَدْتُ بِالشُّكْرِ ، وَتَوَسَّلْتُ
بِحَسَنِ الظَّنِّ ، فَحَقَّقَ الْأَمَلُ ، وَأَحْسِنِ الْمَثُوبَةَ ، وَأَكْرِمِ الْقَصْدَ ، وَأَتِمِّمِ الْوَدَّ ،
وَعَجِّلِ الْمُرَادَ » .

(المعقذ الفريد ٢ : ٨٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

قولهم في بكاء الموتي

٥٦ - أعرابية تبكي ابنها

وَحَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا فَأَصَابَتْ بِهِ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ وَجِعَةٌ
فَقَالَتْ :

« وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَدَوْتُكَ رَضِيعًا ، وَقَفَدْتُكَ سَرِيعًا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَالِيْنَ
مَدَّةٌ أَلْتَدُّ بِعَيْشِكَ فِيهَا ، فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالْعَضَارَةِ ^(١) ، وَرَوْنَقِ الْحَيَاةِ ،
وَالْتَنَسُّمِ فِي طَيْبِ رَوَائِحِهَا ، تَحْتَ أَطْبَاقِ التَّرِيِّ جَسَدًا هَامِدًا ، وَرُفَاتًا سَحِيحًا ،
وَصَعِيدًا جُرْزًا ^(٢) .

أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ سَحَبْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ ، وَأَسْكَنْتَكَ دَارَ الْبَلِيِّ ، وَرَمَيْتَنِي
بِعِدِّكَ نَسْكَبَةَ الرَّدِيِّ ، أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا صَبَاحُ دَاجٍ ظَلَامُهُ ^(٣) ،
ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ رَبِّ ، وَمِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجُورُ ، وَهَبْتَهُ لِي قُرَّةَ عَيْنٍ ، فَلَمْ
تَمْتَعْنِي بِهِ كَثِيرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكَ ^(٤) ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ الْأَجْرَ ،
فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَكَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَرَحَّمَ عَلَيَّ مِنْ أَسْتَوْدَعْتَهُ
الرِّدْمَ ^(٥) ، وَوَسَدَّتْهُ التَّرِيُّ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهُ ، وَأَنْسِ وَحْشَتَهُ ، وَأَسْتُرْ عَوْرَتَهُ ،
يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْهَنَاتُ ^(٦) وَالسَّوَاءَاتُ .

(١) النضارة : النعمة والحسن والفضى ، والغضارة أيضاً : النعمة والسعة والخصب :

(٢) أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرقات : الحطام ، وسحيقاً : مسحوقاً ، والصعيد :
التراب ، أو وجه الأرض وأرض جرز : لانبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصيبها مطر .

(٣) أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرف ، داج : قال الأصمعي : دجا الليل ، إنما هو ألبس
كل شيء ، وليس هو من الظلمة ، قال : ومنه قولهم : دجا الإسلام أى قوى ، وألبس كل شيء .

(٤) سريعاً . (٥) الردم ، السد ، وما يسقط من الجدار المنهدم . (٦) السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقتت على قبره فقالت :

أى بنى : إني قد تزودت لسفري ، فليت شعري ، ما زادك لبعد طريقك ،
ويوم معادك ! اللهم إني أسألك له الرضا برضاي عنه ، ثم قالت :

استودعتك من استودعتك في أحشائي جنيئاً ، وائسكل الوالدات !
ما أمض^(١) حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر نهارهن ،
وأقل أنسهن ، وأشد حشتن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان .
فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سمعها ، وحمدت الله عز وجل ،
وأسترجت وصلت ركعات عند قبره وانطلقت . (زمر الآداب : ٢ : ٧)

٥٧ - حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو علي القالي : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَفَعْتُ يَوْمًا فِي تَهْمَسِي بِالْبَادِيَةِ إِلَى وَادٍ خَلَاءٍ لَا أُنِيسَ بِهِ إِلَّا بَيْتٌ مُعْتَمِرٌ^(٢) ،
بِفَنَائِهِ أَعَزُّ ، وَقَدْ ظَمِئْتُ فَيَمَّمْتُهُ ، فَسَلَّمْتُ فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ بَرَزَتْ ، كَأَنَّهَا نِعَامَةٌ
رَاحِمٌ^(٣) ، فَقَالَتْ : هَلْ مِنْ مَاءٍ ؟ فَقَالَتْ : أَوْ لَبَنٍ ، فَقُلْتُ : مَا كَانَتْ بُعِيْتِي إِلَّا الْمَاءُ ،
فَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ اللَّبَنَ فَإِنِّي إِلَيْهِ فَقِيرٌ ، فَقَامَتْ إِلَى قَعْبٍ^(٤) فَأَفْرَغَتْ فِيهِ مَاءً ، وَنَظَّفَتْ
غَسَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى الْأَعْزُ ، فَتَغَبَّرَهُنَّ^(٥) حَتَّى احْتَلَبْتُ قُرَابَ^(٦) مِلءِ الْقَعْبِ ،
ثُمَّ أَفْرَغْتُ عَلَيْهِ مَاءً حَتَّى رَغَا وَطَفَّتْ مُمَالَتْهُ^(١) ، كَأَنَّهَا نَعْمَاءٌ بِيضَاءُ ، ثُمَّ نَاوَلْتَنِي إِيَّاهُ ،
فَشَرِبْتُ حَتَّى تَحَبَّبْتُ^(٢) رِيًّا وَاطْمَأْنَنْتُ ، فَقَالَتْ :

(١) مضه الشيء : بلغ من قلبه الحزن به كأنضه .

(٢) منفرد . (٣) الراحم : التي تحضن بيضها ، أرخت الدجاجة على بيضها ورخته ، ورخت عليه فهي مرخم وراحم . (٤) القعب : قدح إلى الصفر ، ويشبه به الحانف .

(٥) أي احتلبت القبر (كقفل) : وهي بقية اللبن في الفصر ، وجمعه أغبار .

(٦) قراب وقریب واحد ، مثل كبار وكبير وجسام وجسيم .

(١) المثالة : للرضوة وهي مثلكه الراء . (٢) امتلات .

إلى أراك معتزة في هذا الوادي الموحش ، وَالْحَلَّةُ^(١) منك قريب ، فلو انضمت
إلى جنابهم فَأَنْسِتِ بِهِمْ ! فقالت :

« يابن أخي ، إني لَأَنْسُ بِالْوَحْشَةِ ، وأستريح إلى الأوحدة ، ويطمنن قلبي إلى هذا
الوادي الموحش ، فأتذكر من عهدتُ ، فكأنني أخاطب أعيانهم ، وأترأى أشباحهم^(٢)
وَتَتَخَيَّلُ لِي أُنْدِيَةَ رَجَالِهِمْ ، وَمَلَاعِبُ وَلَدَانِهِمْ ، وَمُنْدَى^(٣) أموالهم ، والله يابن أخي
لقد رأيت هذا الوادي بَشِعَ اللَّيْدِينَ^(٤) بأهل أدواح وقباب ، وَنَعَمَ كَالهَضَابِ ،
وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، وَيَحْمُونَ الصَّبَاحَ^(٥) فأحال عليهم
الجللاء قَسَا بَغْرَفَةٍ^(٦) فأصبحت الآثار دَارِسَةً ، وَالْحَالُ طَامِسَةً ، وكذلك سيرة
الدهر فيمن وثق به » .

ثم قالت : ارمِ بعينك في هذا الملام المتباطن^(٧) ، فَفَنظَرْتُ فَإِذَا قُبُورٌ نَحْوَ أَرْبَعِينَ
أَوْ خَمْسِينَ ، فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قات نعم ، قالت : ما انطوت إلا على
أخٍ أو ابن أخٍ ، أو عمٍّ أو ابن عمٍّ ، فأصبحوا قد أَلْمَأَتْ^(٨) عليهم الأرضُ ،
وأنا أترقب ما غلهم ، انصرف راشداً رَحِمَكَ اللهُ . (الامالك ٢ : ٧)

٥٨ - حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال : دخلتُ على امرأة من العرب بأعلى الأرض
في خيائها لها ، وبين يديها بُنْيٌ لها ، قد نزل به الموت ، فقادت إليه فأغضته وَعَصَبَتْهُ
وَسَجَّتَهُ^(٩) ، ثم قالت :

(١) الحلة : جماعة بيوت الناس والجمع حلال ككتاب . (٢) أشخاصهم جمع شبح كشمس وسبب .
(٣) الغندية : أن يورد الرجل إبله ، ثم يرعاه ، ثم يوردها ، ثم يرعاه ، والمندى : المكان الذي
يندى فيه المال . (٤) بشع : ملاك ، اللديدان : الحانبان ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) الصباح جمع صبيحة : وهي الجميلة من الصباحة كحجابه : الجمال .
(٦) قم البيت قا : كنهه والمقمة : المسكنة ، والقمامة : الكناسة ، والفرقة الواحدة من
الغرف : وهي ضرب من الشجر . (٧) الملا : الفضاء ، والمتباطن : المتطامن .
(٨) أَلْمَأَتْ أي احتوت عليهم ، وغلهم : أهلكتهم . (٩) تسجية الميت : قنطية .

« يا بن أخي ، قلت : ما تشائين ؟ قالت : ما أحقَّ من ألبسِ النعمة ، وأطيلت له النظرة^(١) ، أن لا يدعَ التوثق من نفسه ، قبل حلِّ عُقدته^(٢) ، والحلولِ بِمَقْوَمِهِ^(٣) ، وللمحالِّ بينه وبين نفسه » ، قال : وما يَقَطُرُ من عينها قطرةٌ صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كان مالك لبطنك ، ولا أمرك لمرزبك^(٤) ، ثم أنشدت تقول :
 رَحِيبُ الذراعِ بالتي لا تشينهُ وإن كانتِ الفحشاءُ ضاقَ بها ذرعاً^(٥)
 (الأمال ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والبيان ٣ : ٢٣١)

قولهم في الشكوى

٥٩ - أعرابي يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قَدِمَ علينا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير ، فقصدته فوجدته يَحْضِبُ لحيته ، فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : بلغني ما خصَّك الله به ، فحُثِّتْكَ أَقْبَسَ من علمك ، فقال : أتيته وأنا أخضب ، وإن الخضاب لمن علامات الكبر ، وطال والله ما غَدَوْتُ على صيد الوحوش ، ومشيتُ أمامَ الجيوش ، واختلَّتْ بالرِّداءِ ، وهَوَّتْ^(٦) بالنساء ، وقَرَيْتُ الضيفَ ، وأرويتُ السيفَ ، وشربتُ الرِّاحَ ، ونادمتُ الجحجَاحَ^(٧) ، فاليوم قد حنَّاني الكبر ، وضعُفَ مني البصر ، وجاء بعد الصفو الكدر ، ثم قبض على لحيته ، وأنشأ يقول :

شَيْبٌ تُعَيِّبُهُ كَيْمًا تَقَرُّ بِهِ كَبَيْعِكَ الثَّوْبَ مَطْوِيًّا عَلَى حَرَقِ
 قَد كُنْتُ كَالْفُصْنِ تَرْتَاحُ الرِّيحُ لَهُ فَصَرْتُ عُوْدًا بِلَا مَاءٍ وَلَا وَرَقِ

(١) النظرة : الإهمال . (٢) كناية عن الموت .

(٣) المقومة : الحلة ، أى بقمه . (٤) العرس : امرأة الرجل .

(٥) ضاق بالأمر ذرعاً : ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكره فيه مخلصاً .

(٦) هوت به : فرحت به . (٧) الجحجج : السيد .

صبراً على الدهر ، إن الدهر ذو غيرٍ وأهلُه منه بين الصفر والرنق^(١)
(الأمال ٢ : ٩٤)

٦٠ - كلمات شتى في الشكوى

قيل لأعرابية أصيبت بابنها : ما أحسنَ عزائكِ ! قالت : « إن فقدِي إياه أَمَنِي
كلَّ فقدٍ سواه ، وإن مصيبتِي به هَوَّنتَ عَلَيَّ المصائبَ بعده » ، ثم أنشأت تقول :

مَنْ شاءَ بعدَكَ فَلَيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ
لَيْتَ المَنَازِلَ وَالذِّيَابَ رَ حَفَاثِرُ وَمَقَابِرُ

* * *

وقيل لأعرابي : كيف حزنك على ولدك ؟ قال « ماتركَ هَمُّ العَدَاءِ والعِشَاءِ
لِي حُزْنًا » .

* * *

وقيل لأعرابي : ما أمحلَ جِسْمَكَ ؟ قال : « سَوَّ العِدَاءِ ، وَجُدُوبَةُ المُرْعَى ،
واختلاف الموموم في صدري » ، ثم أنشأ يقول :

المَهْمُ مالمَ تَمَضِيهِ لَسبِيلَهُ دالاً تَضَمَّنَهُ الضَّلُوعُ عَظِيمُ
ولربما استيأستُ ثم أقول : لا إن الذي ضمن النجاحَ كريمُ

* * *

وقيل لأعرابي قد أخذ به السنُّ : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحتُ تقيَّدني
الشعرَةُ ، وأَعَثُرُ في البَعْرَةَ ، قد أقام الدهرُ صَعْرِي ، بعد أن أقتُ صَعْرَهُ » .

* * *

وقال أعرابي: « لقد كنتُ أنكرُ البيضاء ، فصيرتُ أنكرُ السوداء ، فيا خير مبدول ، ويا شرَّ بَدَل ! » .

* * *

وذكر أعرابي منزلاً بادَ أهله فقال : « مَنزِلٌ وَاللَّهِ رَحِلَتْ عَنْهُ رَبَاتُ الخُدُورِ ، وأقامت فيه رَوَاحِلُ^(١) الخُدُورِ ، وقد اكتسى بالنبت كَأَمَّا ألبس الخُلَلِ ، وكان أهله يَفُون^(٢) فيه آثارَ الرياح ، وأصبحت الريح تَعْفُو آثارهم ، فالعهد قريب ، والملتقى بعيد » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت أحوالهم فقال : « أَعْيُنُ وَاللَّهِ كُحِلَّتْ بِالْمَعْبَرَةِ بعد الخَبْرَةِ^(٣) ، وَأَنْفُسٌ لَبِسَتْ الحزن بعد السرور » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت حالهم فقال : « كانوا وَاللَّهِ في عيش رقيق الحواشي ، فظلوا الدهر بعد سَعَةِ ، حتى لَبِسُوا أيديهم من القُرِّ^(٤) ، ولم أرَ صاحباً أَعْرَى من الدنيا ، ولا ظالماً أَعْشَمَ^(٥) من الموت ، ومن عَصَفَ عليه الليلُ والنهار أَرْدِيَاهُ^(٦) ، وَمَنْ وَكَّلَ به الموتُ أَفْنَاهُ » .

* * *

ووقف أعرابي على دارٍ قد بادَ أهلها فقال : « دارٌ وَاللَّهِ مُعْتَصِرَةٌ للدموع ، حَطَّتْ بها السحابُ أُنْقَالَهَا ، وجَرَّتْ بها الرِّيحُ أذْيَالَهَا » .

* * *

(١) الرراجل جمع راحلة : وهي في الأصل : الناقة الصالحة لأن ترحل ، والمراد هنا الحوامل التي تحمل الخدور ، أي الأثافي . (٢) عفا المنزل : درس ، وعفته الريح ، ويعنى ويلزم ، وبإيهما عدا ، وعفته للريح أيضاً بالتشديد للمبالغة . (٣) الخبرة : السرور . (٤) القر مثلث القاف : البرد . (٥) أظلم . (٦) أهلكناه .

وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طُوِيَتْ صِحْفَتُهُ ، وَذَهَبَ رِزْقُهُ ، فَالْبَلَاءُ مُسْرِعٌ إِلَيْهِ ، وَالْعَيْشُ عَنْهُ قَابِضٌ كَفَيْهِ » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة فقال : « كَانَ وَاللَّهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ مَمْدُودٍ ، فَقَدِحَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ زَنْدٌ غَيْرُ كَابِيَّةٍ ^(١) » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ - ٨٠)

* * *

وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ وَاللَّهِ تَرَكْتُ سُودَ الرُّعُوسِ بَيْضًا ، وَبَيْضَ الْوُجُوهِ سُودًا ، وَهَوَّنتَ الْمَصَائِبَ بَعْدَهَا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

* * *

وذكر أعرابي قطيعة بعض إخوانه فقال : « صَفِرَتْ عِيَابٌ ^(٢) الْوُدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَعْدَ امْتِلَائِهَا ، وَأَقْفَرَتْ وَجُوهُ كَانَتْ بِمَائِهَا ، فَأَدْبَرَ مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلَ مَا كَانَ مَدْبِرًا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقيل لأعرابي : ما أذهب شبابك ؟ قال : « مِنْ طَالَ أَمْدُهُ ، وَكَثُرَ وُلْدُهُ ، وَوَدَّفَ عَدَدُهُ ، وَوَدَّهَبَ جَلْدُهُ ذَهَبَ شَبَابِهِ » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والعبين ٢ : ٥٧)

* * *

وسئل أعرابي عن سفره كدَى ^(٣) فيه ، فقال : « مَا غَنِمْنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا فِي صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا مَا أَكَلْتَهُ الْهَوَاجِرِ ^(٤) ، وَلَقِيْتَهُ مِنَ الْأَبَاعِرِ ، فَأَمْرٌ اسْتَخَفَّنَاهُ لِمَا أَمَلْنَا » .

(١) الزند : العود الذي يقذف به النار ، وكينا الزند : لم يخرج ناره ، وفي الأصل « زند عين كابية » وهو تحريف . (٢) صفرت : خلت ، وعياب جمع هبة بالفتح : ما يجعل فيه العياب . (٣) أصله من « حفر فأكدى » أى صادف السكدية - والسكدية كفرصة : الأرض المليظة ، و« سفانة المنظمة الشديدة » . (٤) الهواجر جمع هاجرة ، وهى شدة الحر .

وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فرَس ، وما ينام لنا حَرَس » .
(البيان والتهيين ٢ : ٨٢)

* * *

وقال أعرابي « مضى لنا سَلَفٌ أهل تَوَاضِل ، اعتقدوا^(١) مِنَّنَا ، واتخذوا الأيادي
ذخيرة لمن بعدهم ، يَرَوْنَ اصطناع المعروف عليهم فَرَضًا لازمًا ، وإظهار البرِّ واجبًا ، ثم
جاء الزمان بينين ، اتخذوا مِنْتَهُم بضاعة ، وَبَرَّهم مُرَابِحَةً^(٢) ، وأيادِيهم تجارة ، واصطناع
المعروف مُقَارَضَةً ، كَنَقْدٍ ، خُذْ مني وهاتِ » .

* * *

وقيل لأعرابي في مرضه : ما تشككي ؟ قال : « تمام العِدَّة ، وانقضاء المدة » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرِّ فقال : « يا هذا :
أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٥)

* * *

ووصف أعرابي الدنيا فقال : « هي رَنَقَةٌ^(٣) المشارب ، جَمَّةُ المصائب ، لا تُمتَمَك
الدهرَ بصاحب » .

* * *

وقال أعرابي : « حَسْبُكَ من فساد الدنيا أنك ترى أَسِنَّةً^(٤) تُوضَع ، وأخفافًا
تُرْفَع ، والخير يُطَلَب عند غير أهله ، والفقير قد حلَّ غير محله » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٦)

* * *

(١) من اعتقد مالا ؛ اقتناه . (٢) راجع على الملحة : أعطاه رجلاً .
(٣) كدرة . (٤) جمع سنام ، والمراد ما كان عاليًا .

وقيل لأعرابي : كيف ابنك - وكان به عاقاً - قال : « عذابٌ لا يقاومه الصبر »
وقائدة لا يجب فيها الشكر ، فليتنى قد استودعته القبر » . (المعتمد الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي قديم الحضرة^(١) ، ما أقدمك ؟ قال : « الحنين^(٢) ،
الذي يُغَطِّي العَيْن » . (الأملال ١ : ٢٠٢)

* * *

وأصيب أعرابي بابن له ، فقال وقد قيل له أُصْبِرْ : « أَعْلَى اللهُ أَتَجَلَّدُ ، أم في مصيبتى
أَتَبَلَّدُ ؟ والله للجزع من أمره أحبُّ إلى الآن من الصبر ، لأن الجزع استكثارة ، والضبر
قساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالمزيد » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

* * *

وقيل لأعرابي : لِمَ لا تَضْرِبُ في الأرض ؟ فقال : « يَمْنَعُنِي من ذلك ، طِفْلٌ
بَارِكٌ ، وَلِصَّ سَانِكِ ، ثم إنى لست بعد ذلك واثقاً بِنُجْحِ طَلِبَتِي ، ولا معتقداً قضاء
حاجتي ، ولا راجياً عَطْفَ قرابتي ، لأنى أقدم على قوم أطغاهم الشيطانُ ، واستألمهم
الساطانُ ، وساعدهم الزمان ، وأسكروهم حدائثةُ الأسنان » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

وقال بعض الأعراب : « نالنا وَسْمِي^(٣) ، وَخَلَفَهُ وَليُّ ، فالأرض كأنها وَشِي^(٤) »

(١) الحضرة : خلاف البادية كالحضر بالحريك . (٢) الملاك .

(٣) الوسمى : مطر للربيع الأول ، والوهم : المطر الذي يأتي بعد المطر .

(٤) الوشى : نقش الثوب ، والعبقرى : المنتقع النظير ، نسبة إلى عبقر ، موضع زعم العرب أنه من

أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه ، أو جودة صنعه .

عَبْقَرِيٌّ ، ثم أتتنا غيومُ جَرَادٍ ، بمناجِلِ حَوَادٍ^(١) ، نغزبت البلاد ، وأهلكت
العباد ، فسبحان من يُهَيِّئُ القويَّ الأَكُولَ ، بالضعيف المأكول .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦١ - قولهم في العتاب والاعتذار

عاتب أعرابيُّ أباه فقال : « يا أبت ، إن عظيمَ حَقِّكَ عليَّ لا يذهب صغيرَ حَقِّي
عليك ، والذي تَمَّتْ به^(٢) إلى ، أُمَّتٌ مِثْلُهُ إِلَيْكَ ، ولستُ أُرْزِعُ أَنَا سِوَاكَ ، ولكني
أقول : لا يَحِلُّ لَكَ الاعتداء . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، زهر الآداب ٣ : ١٠٠)

* * *

وقال أعرابيُّ لصديق استبطأه فَلَامَهُ : « كانت بي إليك زَلَّةٌ يَمْنَعُنِي مِنْ ذِكْرِهَا
مَا أَمَلْتُ مِنْ تَجَاوُزِكَ عَنْهَا ، وليس أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهَا . »

* * *

وقال آخر لابن عمِّ له : « والله ما أَعْرِفُ تَقْصِيرًا فَأُقْلِعُ ، ولا ذَنْبًا فَأَعْتِبُ ،
ولست أقول إنك كذبت ، ولا إنني أذنبت . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال آخر لابن عمِّ له : « سَأْتِخَطِي ذَنْبَكَ إِلَى عُنْدِكَ ، وإن كنتُ من أحدهما
على يقين ، ومن الآخر على شكٍّ ، ولكن لَيْتِمَ المَعْرُوفُ مِنِّي إِلَيْكَ ، وتقومَ الحُجَّةُ
لي عليك . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والمعتمد للفريد ٢ : ٨٥)

وَعَدَلَتْ أعرابيةُ أباهَا فِي الجُودِ وَإِتْلَافِ مَالِهِ ، فقالت : « حَبَسُ المَالِ ، أنفع
للعيال ، مِنْ بَدَلِ الوجهِ فِي السُّؤالِ ، فقد قَلَّ النِوَالِ ، وكثرَ البُخَالِ ، وقد أَتَلَفَتْ

(١) المناجل جمع منجل كبير : حديدة يقضب بها الزرع . وحواد جمع حادة : أى قاطعة ، وفي الأصل
« حراد » وأراه محرفا . (٢) تتوسل .

الطارف والتلاد ، وبقيت تطابُ ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك
أن يسعى فيما يضرّه . (زهر الآداب ٢ : ٢٤٦)

٦٢ - قولهم في المدح

دخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « رأيتني فيما أتماطى من مدحك ، كالمخبر
عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، الذي لا يخفى على الناظر ، وأيقنت أني حيث
انتهى بي القول ، منسوبٌ إلى العجز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك ،
إلى الدعاء لك ، ووكلتُ الإخبار عنك ، إلى علم الناس بك » . (الأماك ٢ : ٧٣)

* * *

وأثنى أعرابي على رجل فقال : « إن خيرك لسريح^(١) ، وإن منعمك لمريح ، وإن
رفدك لربيع » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني كلاب يذكر رجلاً فقال :
« كان والله أفهمُ منه ذا أدنين ، والجوابُ ذا لسانين ، لم أر أحداً كان أرتقَ لخلل
رأى منه ، ولا أبعدَ مسافةً رويّةً ، ومُراد^(٢) طرف ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه
للكرم ، وما زال والله يتحصى مرارة أخلاق الإخوان ، ويسقيهم عُذوبة أخلاقه » .
(الأماك ٢ : ١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

وقال : سمعت أعرابياً ذكر رجلاً فقال : « كان والله للإخاء وضولاً ، وللسال
بذولاً ، وكان الوفاء بهما عليه كفيلاً ، ومن فاضله كان مفضولاً » .

(الأماك ١ : ١١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

(١) أى مطاء بلا مطال ولا إبطاء ، ومريح : أى من كد الطلب .
(٢) ريادة الإبل : اختلافها في المرعى مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستتراد .

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله من ينفع سِلْمَه ، وَيَتَوَاصَفُ حِلْمَه ،
ولا يُسْتَمَرُّ^(١) ظُلْمَه ، إن قال فعل ، وإن ولي عدل . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أدبهم الحكمة ، وأحكمهم التجارب ، ولم تفرهم
السلامة النطوية على الهلكة ، وجانبوا التسويف الذي به قطع الناس مسافة آجالهم ،
فقدت ألسنتهم بالوعد ، وانبسطت أيديهم بالإيجاز ، فأحسنوا المقال ، وشفعوه بالفعال . »

(الأمل ٢ : ٢٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ،
فقلت : « يا أمه ، من نَشَرَ ثوب الثناء ، فقد أدَّى واجبَ الجزاء ، وفي كِتْمَانِ الشكر
جُودٌ لِمَا وجب من الحق ، ودخولٌ في كُفْرِ النعم » ، فقلت لها أمها : « أئى بُنيَّة :
أطبت الثناء ، وقمت بالجزاء ، ولم تدعى للذم موضعاً ، إني وجدت من عقل ، لم يعجل
بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار » ، فقلت : « يا أمه ، مامدحت حتى اختبرت ،
ولا وصفت حتى عرفت . » (الأمل ١ : ٢٢٥)

ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إذا أوعد آخر ، وإذا وعد عجل ،
وعيده غفوة ، ووعدته إيجاز . » (البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)

* * *

ونعت أعرابي رجلاً فقال : « كأنَّ الألسن والقلوب رِيضَتْ له ، فما تنعقد إلا على
ودّه ، ولا تنطق إلا بحمده . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

(١) لا يستمر ، من استمر الطعام : وجده مريناً أى هنيئاً حميد المنبة .

وذكر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أما والله إنه لا كلُّكم للمأدوم وأعطاكم للمعزوم^(١) ، وأكسبكم للمعدوم ، وأعطفكم على المحروم . »

(الأمال ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٢)

* * *

وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إن كنت جاوزت قدرى عند نفسي ، فقد بلغت أملي فيك . »

(الأمال ٢ : ٥٠)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله يُعنى^(٢) في طاب المكارم ، غير ضالٍّ في معارج طرقها ، ولا متشاغل عنها بغيرها . »

(الأمال ٢ : ٥٠ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال : « أصلح الله الأمير : اجعلني زمماً من أزممتك يُجرِّبها الأعداء ، فأني مسعر حرب^(٣) ، ورَكَّابُ نُجُبٍ ، شديد على الأعداء لئن على الأصدقاء ، منطوى الحصيلة^(٤) ، قليل الثميلة ، غرار النوم ، قد غذتني الحرب بأفاويقها^(٥) ، وحلبت الدهر أشطره ، ولا تمنعك مني الدمامة^(٦) ، فإن من تحتها شهامة . »

(المعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)

* * *

(١) أى للمال المغروم ، فن لزمه غرم حمله عنه . (٢) أى يعجب وينصب .
(٣) أى موقدها ، ولانجب جمع نجيب . (٤) حصل الشيء تحصيلاً : جمعه ، والاسم الحصيلة ، والمعنى مكنتم السر ، والثميلة فى الأصل : ما يبقى فى بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من طعام أو غيره ، وفى حديث عبد الملك قال الحجاج : « أما بعد فقد وليتك المراقين ، فسر إليها منطوى الثميلة » والمعنى فسر إليها مخفاً ، والفرار : التلليل من النون . (٥) الأفاويق جمع أفواق ، وهو جمع فيفة بالكسر ، والفيفة : اسم اللبن يجمع فى الضرع بين الحلبتين . (٦) الدمامة : قبح المنظر .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فسيح الأدب ، مستحْكِم السبب ،
مِنَ أَى أَفْطَارِهِ أُبَيِّنُهُ ، تَنَنَى عَلَيْهِ بِكْرَمِ فِعَالٍ ، وَحُسْنِ مَقَالٍ » .

(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال « كان والله يَغْسِلُ مِنَ الْعَارِ وَجُوهًا مُسْوَدَّةً ، وَيَفْتَحُ
مِنَ الرَّأْيِ عِيونًا مُنْسَدَّةً » .

(المقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

* * *

وذَكَرَ أَعْرَابِي قَوْمًا عَبَادًا فَقَالَ : « تَرَكُوا وَاللَّهِ النِّعَمَ لِيَتَنَعَّمُوا ، لَمْ عَبَّرَاتٍ
مُتَدَاقِقَةٍ ، وَزَفَرَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ ، لِاتْرَاهُمْ إِلَّا فِي وَجْهِهِ عِنْدَ اللَّهِ » .

* * *

وذَكَرَ أَعْرَابِي قَوْمًا فَقَالَ : « مَا رَأَيْتُ أُسْرِعَ إِلَى دَاخِ بَيْتِي ، عَلَى فَرَسٍ حَسِيبٍ ،
وَجَمَلٍ نَجِيبٍ ^(١) ، ثُمَّ لَا يَنْتَظِرُ الْأَوَّلُ السَّابِقُ ، إِلَّا خِرَ اللَّاحِقَ » .

* * *

وذَكَرَ أَعْرَابِي قَوْمًا فَقَالَ : « جَمَلُوا أُمَّهَاتِهِمْ مَنَادِيْلَ أَعْرَاضِهِمْ ، فَالْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ ،
وَالْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ ، يُعْطُونَهَا بِطَبِيبَةٍ أَنْفُسَهُمْ إِذَا طُلِبَتْ إِلَيْهِمْ ، وَيُبَاشِرُونَ الْمَعْرُوفَ
بِأَشْرَاقِ الْوَجْهِ إِذَا بُغِيَ لَدَيْهِمْ » .

* * *

وذَكَرَ أَعْرَابِي قَوْمًا فَقَالَ : « وَاللَّهِ مَا أَنْالُوا شَيْئًا بِأَطْرَافِ أُنَامِهِمْ إِلَّا وَطِئْنَا
بِأَخْصَاصِ ^(٢) أَقْدَامِنَا ، وَإِنْ أَقْصَى هِمَمِهِمْ لِأَذْنِي فِعَالِنَا » .

* * *

(١) النجيب : الحمل السريع الخفيف في السير .

(٢) جمع أخصر كأحمر : وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

وذكر أعرابي أميراً فقال : « إذا ولي لم يطابق بين جُونه ^(١) ، وأرسل العيونَ على عيونِه ، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالحسن راجٍ ، والمسيء خائف » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ببراعة المنطق فقال : « كان والله بارع المنطق ، جزل الألفاظ ، عربى اللسان ، فصيح البيان ، رقيق حواشى الكلام ، بليد الرقيق ، قليل الحركات ، ساكن الإشارات » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « رأيت له حِلماً وأناةً ، يُحدِّثك الحديث على مقاطعه ، ويُنشد الشعر على مدارجِه ^(٢) ، فلا تسمع له لحناً ولا إحالة ^(٣) » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « آلت ^(٤) سيوفهم ألا تقضى ديناً عليهم ، ولا تضيع حقاً لهم ، فما أخذ منهم مردوداً إليهم ، وما أخذوا متروكاً لهم »

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ما رأيت عيناً قطْ أخرق لظلمة الليل من عينه ، ولحظةً أشبه بلبيب النار من لحظته ، له هزة كهزة السيف إذا طرب ، وجراءة كجراءة الليث إذا غضب » .

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كانت ظلمة ليله كضوء نهاره ، أميراً بارتياح ، وناهيًا عن فساد ، لطيب السوء غير منقاد » .

* * *

(١) أى لم ينم عن شئون رعيته ، والعيون : الجواسيس .

(٢) مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . (٣) أحال الكلام إحالة : إذا أفسده ،

والمحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالمحال وتكلم به . (٤) حلفت .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « اشترى والله عرضَه من الأذى ، فلو كانت الدنيا له قانقها ، لرأى بعدها عليه حقوقاً ، وكان منهاجاً للأمور المشكّلة إذا تناجز الناسُ بالألّمة » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « يُفَوِّقُ ^(١) الكلمة على المعنى ، فتمرقُ مَرُوقَ السهم من الرميّة ، فما أصاب قتل ، وما أخطأ أشوى ^(٢) ، وما غطّظ ^(٣) له سهمٌ منذ تحرك لسانه في فيه » .

وذكر أعرابي أخاه فقال : « كان والله ركوباً للأهوال ، غير ألوفٍ للحجّال ^(٤) إذا أُرْعِدَ ^(٥) لقوم من غير قرّ ، يهين نفساً كريمة على قومها ، غير مُبْقِيَةٍ لعدٍ ما في يومها » .

• • •

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله من شجرٍ لا يُخْلِيفُ ثمره ، ومن بحرٍ لا يُخَافُ كدره » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فتى رماه الله بالخير ناشئاً ، فأحسن لبسه ، وزين به نفسه » .

* * *

(١) يسد ويصوب ، والرمية : ما يرمى . (٢) أشواه : أصاب شواه ، والشوى كعصا : اليدان والرجلان والأطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل . (٣) الغطّظة : حكاية صوت القدر في الغليان وما أشبهها ، وقد يكون الأصل « وما غطّظ » أي ما اضطرب من الغطّظة وهو اضطراب موج البحر .
(٤) الحجّال جمع حجلة بالتحريك : اللقبة وموضع يزين بالفهب والستور للمروس ، والمراد النساء .
(٥) أُرْعِدَ : أخذته رعدة .

ومدح أعرابي رجلا فقال : « يُصمُّ أذنيه عن استماع الخنا ، وَيُخْرِسُ لسانه عن التكلم به ، فهو الماء الشَّريب ^(١) ، وَالْمِصْقَعُ الخطيب » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذاك رجل سبق إلىَّ معروفة قبل طلبي إليه ، فالعرض وافر ، والوجه بمائه ، وما أُسْتَقِلَّ ^(٢) بنعمة إلا أقفلني بأخرى » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذاك رَضِيعُ الجود والمفطومُ به ، عَقِيمٌ عن الفحشاء ، مُعْتَصِمٌ بالتقوى ، إِذَا حَذَفَتْ ^(٣) الألسن عن الرأي ، حذف بالصواب ، كما يَحْذِفُ الأرنب ، فإن طالت الغاية ، ولم يكن من دونها نهاية ، تَمَهَّلَ أمام القوم سابقاً » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « إن جلسه لِطِيبِ عِشْرَتِهِ أطربُ من الإبل على الخدَّاء ، وَالرَّمْلُ على الغنَاء » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « كان له عِلْمٌ لا يخالطه جهل ، وصدق لا يشوبه كذب ، كأنه الوَبْلُ عند المَحَلِّ ^(٤) » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ما رأيتُ أُعْشِقَ للمعروف منه ، وما رأيتُ للمنكر أبغضَ لأحدٍ بُغْضَه له » .

(١) الشريب والشرب : ما يشرب . المصقع : البليغ ، أو العالي الصوت ، أو من لا يرتج عليه في كلامه . ولا يتمتع . (٢) أو وما أهل . وأقفلني : أرجفني وردني . (٣) حذفت : رمت . (٤) البدهب .

وقدم أعرابي البادية وقد نال من بنى بَرْمَك ، فقيل له كيف رأيتهم؟ قال :
« رأيتهم وقد أنست بهم النعمة ، كأنها من ثيابهم » .

* * *

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ما زال يبني المجد ، وَيَشْتري الحمد ، حتى بلغ
منه الجهد » .

* * *

ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « إن جهلا أن يقول المادح بخلاف
ما يعرف من المدوح ، وإني والله ما رأيت أعشق للكريم في زمان اللؤم منك ،
وأنشد :

مالي أرى أبوابهم مهجورة ؟ وكانَّ بابك كجمع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى بيدك فاجتمعوا من الآفاق
إني رأيتك للكريم عاشقا والمكرمات قليلة العشاق

(العقد الفريد ٢ : ٨٨ - ٩٠)

* * *

وضل أعرابي الطريق ليلا ، فلما طلع القمر اهتدى ، فرفع رأسه إليه فقال :
ما أدري ما أقول؟ أقول : رفعتك الله ؟ فقد رفعتك ، أم أقول : نورك الله ؟ فقد
نورك ، أم أقول : حسنتك الله ؟ فقد حسنتك ، أم أقول : عمرك الله ؟ فقد عمرك ،
ولكني أقول : جعلني الله فداك .

(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

وذكر أعرابي قومه فقال : « كانوا والله إذا اصطفوا تحت القتام^(١) ، حطرت
بينهم السهام^(٢) بوفود الحمام ، وإذا تصالحوا بالسيوف ففرت^(٣) المنايا أفواهما ، قرب

(١) للقتام : الغبار . والحمام : الموت . ورواية العقد : « كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام »

- سفر بين القوم كضرب ونصر : أصلح . (٢) ففرت : فتمت .

يوم عارم^(١) قد أحسنوا أدبه ، وحرب عبوس قد ضاحكها أسنتهم ، وخطب شز^(٢) قد ذلّوا منا كيبه ، ويوم عماس^(٣) قد كشفوا ظلمته بالصر حتى ينجلي ، إنما كانوا البحر الذي لا ينكش^(٤) غماره ، ولا ينهنه تياره .
(الأمل : ١ : ١٢٩ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

ووصف أعرابي رجلا فقال : « هو أظهر من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ، وأمضى من السيل ، وأهدى من النجم » .
(زهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

ووصف أعرابي قومه فقال : « ليوث حرب ، وليوث جذب ، إن قاتلوا أبلوا ، وإن بذلوا أننوا » .
(زهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا ثبتت الأصول في القلوب ، نطقت الألسنة بالفروع ، والله يعلم أن قلمي لك شاكر ، ولساني ذا كر ، ومُحَالٌّ أن يظهر أودّ المستقيم ، من الفؤاد السقيم » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٥)

* * *

وسئل أعرابي عن قومه فقال : « يقتلون الفقر ، عند شدة القر^(٥) ، وأرواح^(٦) الشتاء ، وهبوب الجربياء^(٧) ، بأسنمة الجزور ، ومترعات^(٨) القُدور ، تحسن وجوههم عند طلب المعروف ، وتعبس عند لمعان السيوف » .

* * *

(١) العرامة بالفتح والدرام بالضم : الشراسة والأذى ، حرم كنصر وضرب وكرم وعلم .
(٢) شز : شديد مقلق . (٣) العماس من الليالي : المظلم الشديد ، وأمر لا يقيم له ولا يبتدى لوجهه .
(٤) لا ينكش : لا ينزح ، والعمار جمع غمر كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهنه : كفه وزجره . وفي رواية المقه : « إنما قوى البحر ما ألقته للقم » . ورواية زهر الآداب : « إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام ، وإذا تصانحوا بالسيوف ففر فر الحمام » .
(٥) القر بتثنية اللقاف : البرد . (٦) جمع ريح كرياح . (٧) ريح الشمال أو بردها .
(٨) جمع مترعة : وهي الملوقة .

ووصف أعرابي قوماً فقال : « هم جُود كرامٍ اتست أحوالها ، وبأسُ ليوثٍ
تتبعها أشبالها ، وهم ملوكٍ انفسحت آمالها ، ونخرُ صميم آباء شرفت أحوالها » .
(زمر الآداب ٢ : ١٦٧)

٦٣ - قولهم في الذم

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أولئك سلخت أقاؤم بالعجاء ، ودُبغت وجوههم
باللؤم ، لبأسهم في الدنيا الملامة ، وزادهم إلى الآخرة الندامة » .

• • •

وذكر أعرابي قوماً فقال : « لهم بيوتٌ تُدخل حَبِوًا ، إلى غير نمارق^(١) ،
ولا وسائد ، فُصْحُ الألسُن برَدِّ السائل ، جماد الأَكْف عن النَّائِل^(٢) » .

• • •

وقال أعرابي : « لقد صَفَّرَ فلانا في عيني عِظْمُ الدنيا في عينه ، وكانما يَرَى السائلَ
إذا أتاه ، مَلَكَ الموتِ إذا رآه » .

• • •

وسئل أعرابي عن رجل فقال : « ما ظنُّكم بِسِكِّيرٍ لا يَفِيقُ ، يَتَّهَمُ الصديقَ ،
وَيَعِصِي الشفيقَ ، لا يكون في موضعٍ إلا حُرِّمَتْ فيه الصلاة ، ولو أفلتت كلُّهُ سوءٌ
لم تَضِرْ إلا إليه ، ولو نزلت لعنةٌ من السماء لم تقع إلا عليه » .

• • •

(١) النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) النَّائِل : العطاء ، وهو جمع النائلين
أو الأنايل (كشمس) : أي يخيل ، وقد جمعوا جمع الشعر على جماد ككتاب كفا في اللسان ، فليكن هذا
مثله ، وقد جاء في الأصل « جمه » بدون ألف ، وأراه محرفاً ، إذ لا يجمع جمع (بالفتح) على جمع بضم
فسكون ، ولا على جمع بضمين .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن فلاناً لِيُعَدِي بِأَيْمِهِ ، مَنْ تَسَمَّى بِاسْمِهِ ، وَلَنْ خَيْبِنِي فَلَرْبٌ بَاقِيَةٌ قَدْ ضَاعَتْ فِي طَلَبِ رَجُلٍ كَرِيمٍ » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تَعْدُوا إِلَيْهِ مَرَّ كَيْبِ الضَّلَالَةِ ، فَتَرْجِعْ مِنْ عِنْدِهِ بِيَذُورِ الْآثَامِ ، مُعَدِّمٍ مِمَّا تَحِبُّ ، مُكْثَرٍ مِمَّا تَكْرَهُ ، وَصَاحِبِ السُّوءِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » .

• • •

وقال أعرابي لرجل : « أَنْتَ وَاللَّهِ مِنْ إِذَا سَأَلَ أَحْلَفَ ، وَإِذَا سُئِلَ سَوَّفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ حَلَفَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، تَنْظُرُ نَظْرَ حَسُودٍ ، وَتُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُودٍ » .

• • •

وسافر أعرابي إلى رجل فخرمه ، فقال لَمَّا سُئِلَ عَنْ سَفَرِهِ : « مَا رَبِحْنَا فِي سَفَرِنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا مِنْ صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا الَّذِي لَقِينَا مِنَ الْهَوَاجِرِ ^(١) ، وَلَقَيْتُ مِنْ الْأَبَاعِرِ ، فَمُعْقُوبَةٌ لَنَا فِيهَا أُنْسِدْنَا مِنْ حَسَنِ ظَنِّنَا » ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا خَرَجْنَا وَمَا خَابَتْ سَرِيَّةٌ سَالِمِينَ

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ إِذَا رَأَى قَرَبًا مِنْ حَاجِبٍ حَاجِبًا ، فَأَقُولُ لَهُ : لَا تَقْبَحْ وَجْهَكَ إِلَى قَبْحِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَتَيْتَكَ لَطَمِعٍ رَاغِبًا ، وَلَا لَخُوفٍ رَاهِبًا » .

• • •

وذم أعرابي رجلاً فقال : « غِبْدُ الْفِعَالِ ، حُرُّ الْمَقَالِ ، عَظِيمُ الرِّوَاقِ ، دَنِيءُ الْأَخْلَاقِ ، الْدَهْرُ يَرْفَعُهُ ، وَنَفْسُهُ تَضَعُهُ » .

• • •

وقال أعرابي : « دَخَاتِ الْبَصْرَةَ ، فَرَأَيْتِ ثِيَابَ أَحْرَارٍ عَلَى أَجْسَادِ عِبِيدٍ ، إِقْبَالُ

(١) الهواجر جمع هاجرة : وهي شدة الحر .

حَظَّهُمْ إِدْبَارُ حَظِّ الْكِرَامِ ، شَجَرُ أَصُولِهِ عِنْدَ فُرُوعِهِ ، شَفَلَهُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ رَغْبَتُهُمْ
فِي الْمَذْكَرِ .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَاكَ سُمُّ الْمَجَالِسِ ، أَعْيَا مَا يَكُونُ عِنْدَ جُلُوسَاتِهِ ،
أَبْلَغُ مَا يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ » .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَلِكَ مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْجَهْلِ ، أَحُوجُ مِنْهُ إِلَى
مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْمَرَضِ ، إِنَّهُ لَا مَرَضَ أَوْجِعُ مِنْ قِلَّةِ عَقْلِ » .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا لَمْ يَدْرِكْ بَثْرَهُ فَقَالَ : « كَيْفَ يُدْرِكُ بَثْرَهُ مَنْ فِي صَدْرِهِ
مِنَ الْبَلْفَمِ حَشْوُ مُرَقَّةٍ ، لَوْ دُقَّتْ بِوَجْهِهِ الْحِجَارَةُ لَرَضَّهَا (١) ، وَلَوْ خَلَا
بِالْكُمْبَةِ لَسَرَقَهَا » .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « تَسَهَّرَ وَأَلَّهِ زَوْجَتَهُ جُوعًا إِذَا سَهَرَ النَّاسَ شَبَعًا ، ثُمَّ
لَا يَخَافُ مَعَ ذَلِكَ عَاجِلَ عَارٍ ، وَلَا آجِلَ نَارٍ ، كَالْبَيْمَةِ أَكَلَتْ مَا جَمَعَتْ ، وَنَسَكَتْ
مَا وَجَدَتْ » .

وَسَمِعَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَزْعَقُ فَقَالَ : « وَيْحَكَ ! إِنَّمَا يَسْتَجَابُ لِمُؤْمِنٍ أَوْ مَظْلُومٍ ،
وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَأَرَاكَ يَخْفَى عَلَيْكَ ثِقَلُ الذُّنُوبِ ، فَيَحْسُنُ عِنْدَكَ مَقَابِحُ الْعِيُوبِ » .

وذکر أعرابی رجلاً بضعف فقال : « سبي الروية ، قليل التقيّة ، كثير السّعاية ، ضعيف النكايّة » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً فقال : « عليه كلّ يوم من فعله شاهدٌ بنفسه ، وشهادات الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً بذلّة فقال : « عاش خاملاً ، ومات مؤثوراً » .

* * *

وقال أعرابی لرجل شريف البيت ، ذى الهمة : « ما أحوجك أن يكون عرضك لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً فقال : « إن حدّثته يسألك إلى ذلك الحديث ، وإن سكت عنه أخذ في الترهات^(١) » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً راكباً هواه فقال : « والله لهو أقصدُ إلى ما يهواه ، من الطُّرقِ إلى المياه ، أفقره ذلك أو أغناه » .

* * *

وقال أعرابی : « ليت فلاناً أقالنى من حسن ظنّى به ، فأختم بصواب إذ بدأت بخطأ ، ولكن من لم تُحكّمه التجارب ، أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم إلى من يستوجب المدح » .

* * *

(١) الترهات جمع ترعة : وهى الباطل .

وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تَغَيَّرْ ؟ ولو كنت من حديد مُحْتَمَى
وَوُضِعَتْ عَلَى عَيْنِي لَمْ تَدُبْ » .

وقال أعرابي لأخيه : « قد كنت نهيبتك أن تدنس عِرْضَكَ بعرض فلان ، وأعلمك
أنه سمينُ المال ، مهزولُ العروف ، من المرزوقين فَجَاءَهُ ، قصيرُ عمرِ الغني ، طويل
عمرِ الفقر » .

وقال أعرابي : « لا ترك الله مُحًّا في سُلَامِي ^(١) ناقةٍ حلتنى إليك ، وللدَّاعِي عليها
أحقُّ بالدعاء عليه ، إذ كلفها المسيرَ إليك » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « لا يُؤنِسُ جاراً ، ولا يُؤهِّلُ داراً ، ولا يَبِيعُ ناراً » .

وذكر أعرابي امرأةً قبيحةً فقال : « تُرْخِي ذَيْلَهَا عَلَى عِرْقِ قُوبِي نِعامَةً ، وتُسَدِّلُ خَارَهَا
على وجه كالجمالة ^(٢) » .

وقال أعرابي لامرأة : « والله إنك لَمُشْرِفةُ الأذنين ، جَاحِظَةُ العينين ، ذاتُ خلقٍ
متضائلٍ : يُعْجِبُكَ الباطل ، إن شِيعت بطرت ، وإن جُعِتِ صَخِبَت ^(٣) ، وإن رأيتِ
حسناً دَفَنْتَهُ ، وإن رأيتِ سيئاً أَدْعَتَهُ ، تكرمين من حَقَرَك ، وتَحْقِرِينَ من
أكرمك » .

(المعتمد للفريه ٢ : ٩٠ - ٩٣)

(١) السلاميات : عظام الأصابع .

(٢) الجمالة : شدة الصوت .

(٣) الجعالة : خرقه يقول بها القدر .

وسأل أعرابي رجلا فخرمه ، فقال له أخوه : « نزلتَ وَاللَّهِ بِوَادٍ غَيْرِ مَمْطُورٍ ،
وَأَتَيْتَ رَجُلًا بِكَ غَيْرِ مَسْرُورٍ ، فَلَمْ تُدْرِكْ مَا سَأَلْتَ ، وَلَا نَلْتَ مَا أَمَلْتَ ، فَارْتَحِلْ
بِنَدَمٍ ، أَوْ أَقِمْ عَلَى عَدَمٍ » . (المقدم الفرید ٢ : ٩٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٥٠)

• • •

ودخات أعرابية على مَحْمُونَةَ بنت المهدى ، فلما خرجت سئلت فقالت : « وَاللَّهِ
لَقَدْ رَأَيْتَهَا فَمَا رَأَيْتَ طَائِلًا ، كَانَ بطنها قِرْبَةً ، كَانَ نَدْيُهَا دُبَّةً ، كَانَ اسْتِهَامًا
رُفْعَةً^(١) ، كَانَ وَجْهًا وَجْهٌ دَيْكٌ قَدْ نَفَسَ عَفْرِيتَهُ^(٢) يِقَاتِلُ دَيْكًا » .
(المقدم الفرید ٢ : ٩٢ ، والأمال ٢ : ١٥٦)

* * *

وذم أعرابي رجلا فقال : « أَفْسَدَ آخِرَتَهُ بِصَلاَحِ دُنْيَاهُ ، فَفَارَقَ مَا أَصْلَحَ غَيْرَ
رَاجِعٍ إِلَيْهِ ، وَقَدِمَ عَلَى مَا أَفْسَدَ غَيْرَ مَنْتَقِلٍ عَنْهُ ، وَلَوْ صَدَّقَ رَجُلٌ نَفْسَهُ مَا كَذَبْتَهُ ، وَلَوْ
أَلْتِي زَمَامَتَهُ أَوْ طَاهَ رَاحِلَتَهُ » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

* * *

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : « وَاللَّهِ لَوْ صَوَّرَ الْجَهْلُ لِأَنْظَلِمِ
مَعَهُ النَّهَارُ ، وَلَوْ صَوَّرَ الْعَقْلُ لِأَضَاءِ مَعَهُ اللَّيْلُ ، وَإِنَّكَ مِنْ أَضْلَاهِمَا لَمُعْدِمٌ نَخَفَ اللَّهُ ،
وَأَعْلَمُ أَنْ مِنْ وَرَائِكَ حَكْمًا لَا يَحْتَاجُ الْمُدَّعَى عِنْدَهُ إِلَى إِحْضَارِ بَيِّنَةٍ » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٢)

* * *

وقال أعرابي يعيب قوماً : « هُمْ أَقْلُ النَّاسِ ذُنُوبًا إِلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ جُرْمًا
إِلَى أَصْدِقَائِهِمْ ، يَصُومُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيُفْطِرُونَ عَلَى الْفَحْشَاءِ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والمقدم الفرید ٢ : ٩٠)

• • •

ووصف أعرابي رجلاً فقال: «صَغِيرُ الْقَدْرِ، قَصِيرُ الشَّيْرِ^(١)، ضَيْقُ الصَّدْرِ، لَيْمُ النَّجْرِ^(٢)، عَظِيمُ الْكَبْرِ، كَثِيرُ الْفَخْرِ».

(البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

وذكر أعرابي أميراً فقال: «يَقْضَى بِالْعَشْوَةِ، وَيَطِيلُ الدَّشْوَةَ، وَيَقْبَلُ الرِّشْوَةَ^(٣)».

(البيان والتبيين ٢ : ٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعرابياً يقول: «اللهم اغْفِرْ لَأُمِّ أَوْفَى»
قال: «وَمَنْ أُمُّ أَوْفَى؟»، قال: «امرأتى، وإنها لَحَمَاءُ مِرْغَامَةٍ^(٤)، أَكُولُ قَامَةً^(٥) لَا تَتَّبِقُ لَهَا حَامَةٌ^(٦)، غير أنها حسناء فلا تُفْرَكُ^(٧)، وأم غلمان فلا تُتْرَكُ».

(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال: سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول:
«والله إن شُرْبِكَ لَأَشْتَفِأَفُ^(٨)، وإن ضِجِّعَتِكَ لَأَنْجِأَفُ^(٩)، وإن شِئْتِكَ لَأَلْتِنِأَفُ،
وإنك لَتَشْبَعُ لَيْلَةَ تَضَافُ، وتنام ليلة تَخَافُ»، فقال لها: «والله إنك لَكَرْوَاءُ
السَّاقِينِ^(١٠)، قَعَوَاءُ الْفَخْذَيْنِ^(١١)، مَقَاءُ الرُّفْعَيْنِ^(١٢)، مُفَاضَةُ الْكَشْحَيْنِ^(١٣) ضَيْفُكَ
جَائِعٌ، وَشَرُّكَ شَائِعٌ».

(الأمالي ١ : ١٠٤)

* * *

(١) الشبر: القد. (٢) النجر: الأصل. (٣) العشوة والنشوة والرشوة بثلاثت الفاء في الثلاثة، العشوة: ركوب الأمر على غير بيان، والنشوة: السكر، والرشوة: الجعل والبرطيل «بمكر الباه». (٤) المرغامة: المغضية لبعلمها. (٥) قامة: اسم فاعل، من قم: أى أكل ما على الخوان كانه، وقه: كنهه. (٦) الحامة: الخاصة. (٧) فرك زوجته وفركته كسبع، وكنصر شاذ: أبغضته، ورجل مفرك بالتشديد تيفض، إتساء بامرأة مفركة: ييفضها الرجال. (٨) اشتف ماى الإناء: شربه كله. (٩) الانجماء: الانصراع. (١٠) الكرواء: الدقيقة الساقين. (١١) القعواء: الدقيقة، أو الدقيقة الفخذين، وقيل: هى المتباعدة ما بين الفخذين (كالفجواء). (١٢) الرفغ: أصل الفخذ، والمقاء: الدقيقة الفخذين، أو الطويلة من المفق بالتحريك وهو الطول. (١٣) المفاضة: المسترخية، والكشحان: الحاصرتان.

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرّ أعرابي برجل يكنى أبا الغمر - وكان ضخماً جسيماً ، وكان بواباً لبعض الملوك - فقال : « أَعينَ الفقير الحسير ، فقال : ما ألحفَ سائلكم ، وأكثر جائقكم ، أراحنا الله منكم » ، فقال له الأعرابي : « لو فرّق قوتُ جسمك في جسوم عشرة منا ، لكفانا طعامك في يومٍ شهراً ، وإنك اعظم السرطنة^(١) ، شديد السرطنة ، لو ذرّيتُ بحبقتك بيدراً ، لكفنته ريحُ الجربياء^(٢) » .
(الأمال ١ : ٢٢٦)

٦٤ - قولهم في الغزل

سئل أعرابي عن امرأة فقال : « هي أرقُّ من الهواء ، وأطيبُ من الماء ، وأحسن من النعْماء ، وأبعد من السماء » .
(الأمال ١ : ٢٠١ ، والمقد الفريد ٢ : ٩٤)

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لها جلدٌ من لؤلؤ ، مع رائحة المسك ، وفي كل عضو منها شمسٌ طالعة » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « كاد الغزالُ أن يكونها ، لولا ما تمَّ منها وما نقصَ منه » .

وذكر أعرابي نسوة خرجن متنزهاتٍ فقال : « وجوةٌ كالدينانير ، وأعناق كالأعناق اليعافير^(٣) ، وأوساطٌ كأوساط الزنابير ، أقبلن إلينا بحجول^(٤) تخفق ، وأوشحةٌ تعلق ، وكل أسيرٍ لهن وكل مُطلقٍ » .

* * *

(١) البلمة ، من سرطه كضمر وفرح : ابتلعه . (٢) الحبقة : السرطنة ، والبيدر : الموضع الذي تداس فيه الحبوب ، والجربياء : ريح الشمال الباردة . (٣) اليعافير جمع يعفور : وهو وله القوة الوحشية . (٤) الحجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الخللخال والأوشحة جمع وشاح بالضم والكسر : أديم يرضع بالجوهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال : « تَبَسُّمٌ عَنْ خَشَمٍ ^(١) اللَّثَاتِ ، كَأَفَاحِي
النَّبَاتِ ، فَالسَّعِيدِ مِنْ ذَاقِهِ ، وَالشَّقِيِّ مِنْ رَاقِهِ » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « هِيَ السُّقْمُ الَّذِي لَا بُرْءَ مِنْهُ ، وَالْبِرِّءُ الَّذِي لَا سَقْمَ مَعَهُ
وَهِيَ أَقْرَبُ مِنَ الْحَشَاءِ ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّمَا » .

* * *

ووصف أعرابي امرأة فقال : « بِيضَاءُ جَمْدَةٍ ^(٢) لَا يَمَسُّ الثَّوْبُ مِنْهَا
إِلَّا مُشَاشَةً ^(٣) كَتَفَيْهَا ، وَحَلْمَةً تُدْبِيهَا ، وَرَضْفِي رَكْبَتَيْهَا ، وَرَانَفَتِي أَلْيَتَيْهَا ،
وَأُنْشِدُ :

أَبَتْ الرِّوَادِفُ وَالثَّدْيُ لِقَمُصِهَا مَسَّ البَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورًا
وَإِذَا الرِّيَاحُ مَعَ العَشِيِّ تَنَآوَحَتْ نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهَجْنَ غَيُورًا

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « تَلُكُ شَمْسٌ بَاهَتْ بِهَا الأَرْضُ شَمْسَ سَمَاءِهَا ،
وَلَيْسَ لِي شَفِيعٌ فِي اقْتِضَائِهَا ^(٤) ، وَإِنْ نَفْسِي لَكَتُومٌ لِدَائِهَا ، وَلَكِنَّهَا تَفِيضُ
عِنْدَ امْتِلَائِهَا » .

* * *

وقال أعرابي في امرأة ودَّعَاها لِلْمَسِيرِ : « وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرَقَّرُقُ مِنْ

(١) خدش ، والأفاحي جمع أمحوان بالضم : وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ، ووسطه
صفر ، وراقه : أعجبه .

(٢) الجمدة من الشعر : خلاف السبط ، أو القصير منه ، ورجل جمدة الشعر والأثني جمدة ، والجمدة أيضا
المدج الخلق مجتمع بمضه إلى بعض ، والجمدة إذا ذهب به مذهب الملح فله معنيان مستحيان : أحدهما أن
يكون معصوب الجوارح شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني أن يكون شعره جمدا غير
سيط لأن سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور المعجم من الروم والفرس ، وجمودة الشعر هي الغالبة على
شعور العرب . (٣) المشاشة : رأس المعظم ، والرضف : عظام في الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ
بعضها بعضها ، والرانفة : أسفل الألية عند القيام .

(٤) اقتضى دينه وتقاضاه بمعنى .

عين بِأَعْيُنٍ^(١) على ديباجة خَدِّ ، أحسن من عِبْرَةٍ أمطرتها عينها ، فأعشت بها قلبي .

* * *

وقال أعرابي : « إن لي قلباً مَرُوعاً^(٢) ، وعيناً دُمُوعاً ، فماذا يصنع كل واحد منهما بصاحبه ، مع أن داءهما دواؤهما ، وسُقمهما شفاؤهما ؟ » .

* * *

وقال أعرابي : « مَا أَشَدَّ جَوَلَةَ الرَّأْيِ عند الهوى ، وَفِطَامَ النَّفْسِ عن الصَّبَا ! ولقد تقطعت كبدى ! لَوْمُ العاذِلِينَ للعاشقين قِرْطَةَ^(٣) في آذانهم ، وَلَوْعَاتِ الحُبِّ نيرانٌ في أبدانهم ، مع دموع على المَنَافِي^(٤) ، كغُرُوبِ السَّوَانِي . » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال « لقد نَعِمْتَ عَيْنٌ نَظَرَتْ إِلَيْهَا ، وَشَقِيَ قَابٌ تَفَجَّعَ عَلَيْهَا ، ولقد كنت أزورها عند أهلها ، فَيُرْحَبُ بِي طَرْفُهَا ، وَيَتَجَمَّنِي لِسَانُهَا » قيل له فما بلغ من حُبِّك لها ؟ قال : « إِنِّي ذَا كِرْتٍ لَهَا وَيُنِي وَيُنِيهَا عَدْوَةَ الطَّائِرِ ، فَأَجْدُ لَذِكْرَهَا رِيحَ الْمَسْكِ . » .

* * *

وقال أعرابي : « الهوى هوان ، ولكن غُلِطَ بِاسْمِهِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ مَنْ يَقُولُ ، من أَبْكَنَتَهُ المَنَازِلُ وَالطَّلُولُ . » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « إن لساني لِذِكْرِهَا لَذَائِلُ ، وَإِنْ حَبَّهَا لِقَلْبِي لِقَتُولُ ، وَإِنْ قَصِيرَ اللَّيْلِ بِهَا لِيَطُولُ . » .

* * *

(١) الإيتمد : السكحل ، والديباجة : الخد .

(٢) مفزه .

(٣) المنافي جمع مفا : وهو المنزل ، والغروب جمع غرب كشمس : وهو الدلو العظيمة ، والسواني

جمع سانية : وهي الفتحة يسق عليها ، والغرب وأداته .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كلامهن أقتل من النبل ،
وأوقع بالقلب من الوبل بالمحل ، فروعهن أحسن من فروع النخل » .
(العقد الفرید ٢ : ٩٣ - ٩٥)

* * *

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعيناً دُمجاً^(١) ، وحوَاجِبَ زُجْجًا ،
يَسْحَبِينَ الثياب ، وَيَسْلُبِينَ الألباب » . (العقد الفرید ٢ : ٩٣ ، زهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظَعَانٌ^(٢) في سَوَالِفِهِنَّ طُولٌ ، غير قبيحات
المَطُولِ^(٣) إذا مَشَيْنَ أسْبُنَ الذبول ، وإن رَكِبْنَ أَثْقَلَ الحُمُولِ^(٤) » .
(زهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُرُوداً كأنها صُبغت بأنوار الرِّبيع ، فهي
تَرُوعُ^(٥) ، واللابس لها أروع » . (العقد الفرید ٢ : ٩٦)

* * *

وقال أعرابي : « شَيِّعْنَا الحَيَّ وفيهم أدوية السَّقَامِ^(٦) ، فَرَّأْنَا بِالْحَدَقِ السَّلَامَ ،
وَخَرَسَتْ الألسن عن الكلام » . (الأماك ٢ : ٥٠)

* * *

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت : « لا مُتَّعَ الهوى بملكه ، ولا مُلِّيَ^(٧) »

(١) دمجاً جمع دججاء، وصف من الدهج بالتحريك : وهو سواد العين مع سعتها . وزجاً جمع زجاء من
الزجج بالتحريك أيضاً : وهو دقة الحاجبين في طول .

(٢) ظمأن جمع ظمينة : والظمينة في الأصل وصف للمرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت
في بيتها لأنها تصير مظعونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظمن بها ، والسوالف جمع سالفه :

وهي ناحية مقدم العنق من لدن . ملق القرط إلى نقرة الترقوة . (٣) عطلت المرأة كفرح عطلا
بالتحريك وعطولا : إذا لم يكن عليها حل . (٤) الحمول : الهواجج : أو الإبل عليها الهواجج جمع حمول
بالسكر ويفتح . (٥) تعجب .

(٦) أي المحبوبات المداوية للسقام .

(٧) ملاء الله حبيبه تمليية : متمه به وأعاشه معه طويلا .

بسلطانه ، وَقَبَضَ اللهُ يده ، وأوهنَ عَضْدَه ، فإنه جائرٌ لا يُنصِفُ في حكم ، أعمى
لا ينطق بعدل ، ولا يُقَصِّرُ في ظلم ، ولا يعرَى لذم ، ولا ينقاد لحق ، ولا يُبْتِقى
على عقل وفهم . لو ملكَ الهوى وَأَطِيع ، لردَّ الأمور على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

* * *

وسئل أعرابي عن الهوى فقال : « هو داءٌ تُدَاوَى به النفوس الصَّحَّاح ، وَتُسَلُّ منه
الأرواح ، وهو سُقْمٌ مُسَكَّتَمٌ ، وَحَمِيمٌ ^(١) مُضْطَرَمٌ ، فالقلوب له مُنْضَجَةٌ ، والعيون ساكِبَةٌ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٨)

* * *

ووصف أعرابي امرأةً يحبها فقال : « هي زينة الحُضُور ، وباب من أبواب
السرور ، وَلَدِ كَرُّها في المغيب ، والبعدِ عن الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد
وَنَسِيب ، وبها عُرِفَ فضل الحُجُور العين ، واشتِيقَ بها إليهن يومَ الدين . »
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

ووصف أعرابي نساءً فقال :

« يَلْتَمِثْنَ على السَّبَائِكِ ^(٢) ، وَيَتَشَحَّنَ على النَّيَّازِكِ ^(٣) ، وَيَأْتِرْنَ على العَوَانِكِ ^(٤)
وَيَرْتَقِقْنَ على الأَرَائِكِ ^(٥) ، وَيَتَهَادِينَ على الدَّرَانِكِ ^(٦) ، ابتسامهن وميضٌ ،
عن ولبيع كالإغريض ^(٧) ، وهنَّ إلى الصَّبَا صُورٌ ، وعن خلفاً نورٌ ^(٨) . »
(الأمال ١ : ٤٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨)

-
- (١) الحميم : الماء الحار . وفي الأصل : « حمى » وأراه محرفاً عن حميم ، ويناسبه قوله بعد :
« والعيون ساكِبَةٌ » .
- (٢) اللتام على الفم ، والقيام على طرف الأنف ، تلمت المرأة وتلفمت ، والسبائك هنا الأسنان شبهها
لبياضها بالسبائك . (٣) النيازك جمع نيزك كجعفر : وهو الرمح للقصير .
- (٤) العوانك جمع عانك : وهو رمل متعقد يشق فيه الجعير لا يقدر على السير .
- (٥) الأرائك جمع أريكة : وهي السرر أو الفرش ، وارتقق : اتكأ على مرفق يده ، أو على الخدة .
- (٦) يتهادين : يمشين مشياً ضميماً ، والدرانك : الطنافس جمع درنوك كجعفور ، ودونك كزبرج .
- (٧) الويض : اللمعان الخفي ، والوليع : الطلع ، كأنه نظم اللؤلؤ في شدة بياضه . قال الشاعر يصف
نفر امرأة : وتبسم عن نير كالوليع ، والإغريض : الطلع حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بقرتك للراء) .
- (٨) صور : موائل ، ومنه قيل للمائل للضيق أصور ، ونور : نوافرات من الريبة جمع نوار كصحاب .

قولهم في الوصف

٦٥- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابي عن مطر فقال :

« استقلَّ سُدٌّ مع انتشار الطَّفَلِ ^(١) ، فَشَصَا وَاحْرَأَل ^(٢) ، ثم اكْفَهَرَتْ أَرْجَاؤُهُ ،
وَاحْمَوَتْ أَرْحَاؤُهُ ، وَابْدَعَرَتْ فَوَارِقُهُ ^(٣) ، وَتَصَاحَكَتْ بَوَارِقُهُ ، وَاسْتَطَارَ وَادِقُهُ ، وَارْتَقَتْ
جُوبُهُ ، وَارْتَعَنَ هَيْدَبُهُ ^(٤) ، وَحَشَكَتْ أَخْلَافُهُ ، وَاسْتَقَلَّتْ أَرَادِفُهُ ، وَانْتَشَرَتْ
أَكْنَافُهُ ^(٥) ؛ فَالرَّعْدُ مُرْتَجِسٌ ، وَالْبَرْقُ مُخْتَلِسٌ ، وَالمَاءُ مُنْبَجِسٌ ^(٦) ، فَاتُّرِعَ
الْقُدْرُ ، وَانْتَبَثَ الْوَجْرُ ^(٧) ، وَخَلَطَ الْأَوْعَالَ بِالْأَجَالَ ، وَقَرَنَ الصَّيْرَانَ بِالرِّثَالِ ^(٨) ،

(١) استقل : ارتفع ، والسد : السحاب الذي يمد الأفق : والطفل : العشى إلى حد المغرب .

(٢) شصا : ارتفع ، واحرأل مثله . (٣) المكفهرة من السحاب : الذي يركب بعضه بعضا ،
وأرجاؤه : نواحيه جمع رجا كحصا ، واحموت : اسودت ، وأرجاؤه : أوساطه : جمع رجا كحصا ، وابدعرت
تفرقت : والفوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذي ينقطع من معظم السحاب ، وأصله في الإبل ، يقال
ناقعة فارق : وهي التي تندعن الإبل عند نتاجها .

(٤) استطار : انتشر ، واللودق الذي يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتقت
الأمات ، وجوبه : فرجه ، وارتعن : استرخى ، والهيدب : الأى يتدل ويدنو من الأرض مثل هذب اللقيفة
(٥) حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خلف كحمل ، وهو لناقة كالفرع للبقرة ، أردافه : ماخيره
والأكناف : النواحي .

(٦) مرتجس : مصوت من الرجس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه ،
منبجس : منفجر .

(٧) أترع : ملأ والقدر جمع قدر ، والوجر جمع وجار ككتاب وسحاب : وهو جحر الضمير والشلب ،
وانتبث : أخرج نبيثها وهو تراب البئر والقبر ، أى أنه لشدة هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب

(٨) الأوعال جمع وعل ، (كشمس وكنف ودل) : التيس الجبلي ، والأجبال جمع أجل كحمل وهو
القطيع من البقر أى أنه لشدة جمع بين الوهول - وهي تسكن الجبال - وبين البقر - وهي تسكن للقيمان
والرمال ، والصيران جمع صوار كشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرثال جمع رأل كشمس
فرخ النعام ، فالرثال تسكن الجله (بالتحريك وهي الأرض الصلبة المستوية المنن) والصيران تسكن الرمال
والقيمان ، فقرن بينهما .

فلأودية هدير، وللشراج خريز، وللتللاع زفير^(١)، وحطّ التنبع والنعيم، من القلل
الشم، إلى القيعان الصحم^(٢)، فلم يبق في القلل إلا مضمم مجرنثم، أو داحض
مجرجم^(٣)، وذلك من فضل رب العالمين، على عباده المذنبين.»
(الأمال: ١: ١٧٣)

٦٦- أعرابي يصف مطراً

عن الأصمعي قال: سمعت أعرابياً من غنيّ يذكر مطراً أصاب^(٤) بلادهم في غيب
جدب قتال:

«تدارك ربك خلقه، وقد كلبت الأبحال، وتقاصرت الآمال، وعسكف
الياس، وكظمت الأنفاس، وأصبح الماشي مضرمًا^(٥)، والترب مُعدّما، وجفيت
الحلائل، وامتهنت العقائل، فأنشأ سحاباً ركامًا^(٦)، كنهوراً سجّامًا، برُوقه
متألّقة، ورعوده متتقعة، فسح ساجياً^(٧) راكداً، ثلاثاً غير ذى فؤاق، ثم أمر
ربك الشمال، فطحرت^(٨) ركامه، وفرقت جهامه، فانثشع محموداً، وقد أحيا

(١) هدير: أي صوت كهدير الابل، الشراج جمع شرح كشمس وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل.
والتللاع: مسايل الماء من الجبال حتى ينصب في الوادي. (٢) التبع: شجر يفخذ منه القسي يثبت في
الجبال، والنعيم: الزيتون الجبل كقفل وعتق، والقلل: أقال الجبال جمع قلة كفرصة، والشم: المرتفعة
جمع شماء والقيمان جمع قاع: وهي أرض سهلة مطبنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام، والصحم: التي نطوها
حرة جمع اصحم. (٣) المضمم: الذي قد تمسك بالجبال وامتنع فيها (ويقال للرجل الذي يمسك بعرف فرسه
خوف السقوط: مضمم) مجرنثم: متقبض، الداحض: الذي يفحص برجليه عند الموت، والمجرجم: المصروع.
(٤) صاب: جاد، وكلبت: اشتدت، والأبحال جمع محل كشمس وهو القمط. وعسكف: أقام.
(٥) الماشي: صاحب الماشية، مشى الرجل وأمشى: كثرت ماشيته، والمصرم: المقارب المال المقل،
والترب لغني للذي له المال مثل التراب كثرة، يقال: أرب الرجل إذا كثر ماله (وقل أيضاً: ضه)
وترب كفرح إذا افتقر كأنه لصق بالتراب، وامتهنت: استخدمت واعملت، والعقائل جمع عقيلة، وأنشأ
أحدث، والنش: للسحاب أول ما يخرج.

(٦) الركام: المترام، والكنهور من السحاب قطع كأنها الجبال، أو المترام منه، واحده كنهورة،
وسجّام: صباب، ومتألّقة: لامة، ومتتقعة: مصوقة.

(٧) سح: صب، ساجياً: ساكناً، راكداً: ثابتاً، والفؤاق: أن يصب صبة ثم يسكن، ثم يصب
أخرى ثم يسكن مأخوذ من فؤاق الناقة وهو ما بين الحلبين، كأنه يحلب حلبه ثم يسكن، ثم يحلب أخرى
ثم يسكن. (٨) طحرت: أذهبت وأهدت، والجهم: السحاب الذي قد هراق ماءه، تكثت: تحصى.

وَأَعْنَى ، وَجَادَ فَأَرْوَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَأَنْتَكْتَنِعُمُ ، وَلَا تَنْفَدُ قِسْمُهُ ، وَلَا يَحْبِيبُ سَائِلُهُ ، وَلَا يَنْزُرُ ^(١) نَائِلُهُ .
(الأمالي : ١ : ١٧٦)

٦٧- أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن مطر صاب بلادهم فقال :

« نَشَأَ عَارِضًا ^(٢) ، فَطَلَعَ نَاهِضًا ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وَامِضًا ، فَأَعَسَّ فِي الْأَفْطَارِ فَأَسْجَاهَا ، وَامْتَدَّ فِي الْأَفَاقِ فَغَطَّاهَا ، ثُمَّ ارْتَجَزَ ^(٣) فَهَمَّهُمْ ، ثُمَّ دَوَى فَأَظْلَمَ ، فَأَرَكَّ وَدَثَّ ، وَبَفَشَ وَطَشَّ ثُمَّ قَطَّقَطَ ^(٤) فَأَفْرَطَ ، ثُمَّ دِيمَ فَأَغْمَطَ ، ثُمَّ رَكَدَ فَأَنْجَمَ ، ثُمَّ وَبَلَ فَسَجَمَ ، وَجَادَ فَأَنْعَمَ ، فَقَمَسَ الرَّبِّيَّ ^(٥) وَأَفْرَطَ الزُّبِّيَّ ، سَبْعًا تَبَاعًا ، مَا يَرِيدُ انْقِشَاعًا ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَتْ الْخُزُونُ ^(٦) وَتَضَحَّضَتْ الْمُتُونُ ، سَاقَهُ رَبُّكَ إِلَى حَيْثُ شَاءَ ، كَمَا جَلِبَهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ . »

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٤٩)

(١) ينزر : يقل ، ومنه قيل : امرأة زور : إذا كانت قليلة الولد .

(٢) العارض : السحاب المعترض في الأفق ، وومض البرق كوهده ، لمع خفيفا ، ولم أجده في كتب اللغة « أعس » وإنما الذي فيها « عمص السحاب : دنا من الأرض » وأسجأها : غطأها ، وفي الأصل وأسجأها بالماء وهو تصحيف . (٣) ارتجز الرعد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئا لكثرة مائه ، وهمهم الرعد : إذا سمعت له دويًا ، والمهممة : كل صوت معه بحج ، وأرك : أتى بالرك (بفتح الراء ويكسر) وهو المطر القليل أو هو فوق الدث ، والدث بالفتح : المطر الضعيف ، واليفشة بالفتح : المطرة الضعيفة وقد بغشت السماء كنع ، والطنش : المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ ، طشت السماء كنصر وضرب .

(٤) القطط بالسكر : المطر المتتابع العظام القطر ، وقد قططت السماء ، والديمة بالسكر : مطر يدوم في سكوه بلاد رعد وبرق ، أو يدوم أياما ، وقد ديمت السماء . أغمط : دام ولازم ، وأنجمت السماء : أصرع مطرها ودام ، واللوبل : المطر الشديد للضخم القطر ، وقد وبات السماء كوهده : أمطرت ، وسجم كدخل : سال وانصب . (٥) قس الربيا : كنصر وضرب : غوصها ، وأفرطها : ملاها حتى فاضت ، والزبي جمع زبية كفرصة ، وهي الرابية لا يملؤها الماء ، وحفرة تحفر لصيد الأسد (وهو المراد هنا) سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع عال .

(٦) الخزون جمع حزن كشمس وهو الغليظ من الأرض ، والمتون جمع متن كشمس : وهو ماصلب من الأرض وارفع ، والضحضح والمنضضح والضضضح : الماء القليل ، وقيل هو مالا غرق فيه ، وقيل هو الماء إلى السكبين أو إلى أنصاف السوق - وفي لغة هذيل الكثير - وقد تضضضح الماء ، والتضضضح أيضا جرى للسراب ، تضضضح إذا ترقرق .

٦٨ - ثلاثة غلثة من الأعراب يصفون مطرا

عن الأصمعي قال : مررت بغلثة من الأعراب يتماقلون^(١) في غدير ، فقلت لهم : أياكم يصفلي الغيث وأعطيه درهما ؟ فخرجوا إلى فقالوا : كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم : صفوا ، فأياكم ارتضيت وصفه أعطيته الدرهم ، فقال أحدهم :

« عَنَّا لَنَا عَارِضٌ قَصْرًا^(٢) ، تَسْوِقُهُ الصَّبَا ، وَتَحْدُوهُ الْجُنُوبُ ، يَجِبُو حَبِوَ الْمُعْتَنِكَ^(٣) ، حَتَّى إِذَا اِزْلَامَتْ^(٤) صَدُورُهُ ، وَانْتَحَتِ خُصُورُهُ ، وَرَجَّعَ هَدِيرُهُ ، وَصَمَقَ زَيْبُهُ ، وَاسْتَقَلَّ نَشَاصُهُ^(٥) ، وَتَلَامَّ خَصَاصُهُ ، وَارْتَعَجَ ارْتِعَاصُهُ ، وَأَوْفَدَتْ سِقَابُهُ^(٦) ، وَامْتَدَّتْ أَطْنَابُهُ ، تَدَارِكُ وَدْقَهُ ، وَتَأَلَّقَ بَرَقَهُ ، وَحَفَزَتْ تَوَالِيَهُ^(٧) ، وَانْسَفَحَتْ عَزَالِيَهُ ، فَغَادَرَ الثَّرَى عَمْدًا^(٨) ، وَالْعَزَازَ ثُدًّا ، وَالْحَثَّ عِقْدًا^(٩) ، وَالضَّحَّاضِحَ مُتَوَاصِيَةً ، وَالشَّعَابَ مُتَدَاعِيَةً »

(١) يتماقلون في الماء . (٢) عن : عرض ، والقصر : العشى ، والصبأ : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . (٣) عنك الرمل كنصر : تمعد وارتفع فلم يكن فيه طريق ، ورملة هانك : فيها في تمعد لا يقدر البعير على المشي فيها إلا أن يجبو ، واعتنك البعير واستعنك : حيا في المانك فلم يقدر على السير . وقال رؤبة : أوديت إن لم تحب حبو المعتنك .

(٤) ازلامت : ارتفعت ، والخصور جمع خصر : وهو وهط الإنسان ، والترجيع : ترديد الصوت في الحلق . (٥) النشاص ككتاب وسحاب : السحاب المرتفع ، أو المرتفع بفضه فوق بعض وخصاصه : فرجه ، وأصله الفرج بين الأثافي والثقب الصغير وكل خلل أو خرق في باب ومتخل وبرقع ونحوه ، وارتعج : ارتعد ، وارتعص : تلوى وانفض ، وارتعص الرمح : اشتد اهتزازه .

(٦) أوفدت : أشرفت ، والمقاب جمع سقب كشمس وهو عمود الخباء ، والأطناب جمع طناب كتمنق وهو حبل طويل يشد به الوتد . (٧) حفزه كضربه : دفعه من خلفه ، والتوالي : الأجزاء والمآخير ، والعزالي بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء : وهي مصب الماء من الراوية ونحوها ، وانسفحت : انصبت ، من سفح الدم أراقه . (٨) عمد الثرى كفرج : بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تمعد لندوته ، والعزاز : الأرض الصلبة مكان ثند : ند من الشاد بالضمريك وهو الثدى . (٩) الحث : اليابس الخشن من الرمل ، والمعد ككتنف وجبل : ماتعد من الرمل وتراكم ، والضحاضح كجعفر والضحاضح : الماء ليسير ، متواصية : متواصلة ، والشباب : شعبة كفرصة : وهي المسيل في الرمل ، وما عظم من سواق الأودية ، وصدع في الجبل يأوى إليه المطر .

وقال الآخر : « تَرَأَتِ الْمَخَابِلَ ^(١) مِنَ الْأَقْطَارِ ، تَحْنُ حَنِينَ الْعِشَارِ ، وَتَتْرَامِي بِشُهْبِ النَّارِ ، قَوَاعِدُهَا مِتْلَاحِكَةٌ ^(٢) ، وَبَوَاسِقُهَا مِتْضَاحِكَةٌ ، وَأَرْجَاؤُهَا مِتْقَازِفَةٌ ، وَأَمْجَازُهَا مُتْرَادِفَةٌ ، وَأَرْحَاؤُهَا مُتْرَاصِفَةٌ ، فَوَصَلْتَ الْغَرْبَ بِالشَّرْقِ ، وَالْوَيْلَ بِالْوَدْقِ ، سَحًّا دَرًّا كَأَنَّ ^(٣) ، مُتْتَابِعًا لَكَ كَأَنَّ ، فَضَحَضَحْتَ الْجَفَاجِفَ ^(٤) ، وَأَنْهَرْتَ الصَّفَافِيفَ ، وَحَوَّضْتَ الْأَصَالِفَ ، ثُمَّ أَقْلَعْتَ مَحْمُودَةَ الْأَثَارِ ، مَوْمُوقَةَ الْخِيَارِ » .

فقال الثالث : وَاللَّهِ مَا خَلَّتْهُ بَلَغُ خُمْسًا ، فَقَالَ : هَلُمَّ الدَّرْهَمَ أَصْفِيهِ لَكَ ، فَقُلْتُ : لَا ، أَوْ تَقُولُ كَمَا قَالَا ، قَالَ : لِأَبْدَنِيهِمَا ^(٥) وَصَفًا ، وَلَا تُوقِفِنِيهِمَا رَصْفًا ، فَقُلْتُ : هَاتِ لِي أَبُوكَ ، فَقَالَ : « بَيْنَمَا الْحَاضِرُ بَيْنَ الْبَاسِ وَالْإِبْلَاسِ ، قَدْ غَمَّرَهُمُ الْإِشْفَاقُ ، رَهْبَةً الْإِمْلَاقِ ، وَقَدْ جَفَّتِ الْأَنْوَاءُ ^(٦) ، وَرَفَرَفَ الْبِلَاءُ ، وَاسْتَوْلَى الْقُنُوطُ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَكَثُرَ الْاسْتِغْفَارُ مِنَ الذَّنُوبِ ، ارْتَاحَ رَبُّكَ لِعِبَادِهِ ، فَأَنْشَأَ سَحَابًا مُسْتَجْهِرًا ^(٧) كَنْهَوْرًا مُعْتَوِنِكَا مُخْلَوْلِكَا ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ وَاحْزَلَّ ، فَصَارَ كَالسَّمَاءِ دُونَ السَّمَاءِ ،

- (١) مخابيل جمع مخيلة « بضم الميم وكسر الخاء » والمخيلة والمخيلة « بتشديد الياء المسكورة » والسحابة التي تحسبها ماطرة ، والعشار جمع عشراء ككنفساء : وهي الناقة التي مضى حملها عشرة أشهر أو ثمانية ، أو هي كالنفساء من النساء ، والشهب جمع شهاب كككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .
- (٢) قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أي أساسه ، متلاحكة : أي قد اشتد التماسها ، والمتلاحكة : الناقة الشديدة الخلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من بسق : أي طال وارتفع ، ومتضاحكة أي يضحك فيها برقها ، متقاذفة : أي يقدف بعضها بعضا بالمطر ، وأرجاؤها : أوساطها ، متراصفة : متراكة قد رصف بعضها فوق بعض . (٣) أي صبا متتابعة ، ولكا كا : متزاها من السكاك ككتاب وهو لاجرام .
- (٤) الجفاجيف جمع جفجف كجفجر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالعليلة ، وضخصتها : جعلت فيها ضخاصح والصفافيف جمع صففصف كجفجر : وهو المستوى من الأرض ، وأنهر الماء : أساله ، والأصلاف والصفلاف : ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضًا .
- (٥) بذة : فاتة وغلبه ، والحاضر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإبلاس : التدمير واليأس : والاشفاق : الخوف ، والإملاق : الفاقة . (٦) الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكانت العرب تصيف الأمطار والرياح والحر والبرد إليها . (٧) مستجهرًا : لم أجده هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : مستنهرًا « من استنهر الشيء إذا اتسع ، والمخلولك : الشديد للسواد ، وقد تقدم معنى اعتنك واستعتك : واعتونك أفعول من هذه المادة ، ولم أجده في كتب اللغة .

وكالأرض المدخوة^(١) في لُوح الهواء ، فأحسب السهول وأتأق الهجول ، وأحيا
الرجاء ، وأمات الضراء ، وذلك من فضل رب العالمين .

قال : فلا والله اليفعُ صدرى ، فأعطيت كل واحدٍ درهما ، وكتبت كلامهم .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ — أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : سألت أعرابيا عن مطر صابهم بعد جذب فقال :
« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامر القلب القنوط ، فأنشأ
بنو الجبهة^(٢) قزعة كالفرض من قبل العين ، فأخزأت عند ترجل النهار ،
لإزيم السرار^(٣) ، حتى إذا نهضت في الأفق طالعة ، أمر مسخرها الجنوب
فتنسمت لها ، فانتشرت أحضانها ، وأحموت أركانها ، وبسق عنانها^(٤) ، واكفهرت
رحاها ، وانبعجت كلالها ، وذمرت أخراها أولها ، ثم استطارت عقائفها ،
وتفققعت صواعفها ، ثم ارتفعت^(٥) جوانبها ، وتداعت سواكبها ، ودرت حوالها
فكانت الأرض طبقا^(٦) سح فهضب ، وعم فأحسب ، قعل القيعان ، وضحضح

(١) الميوسطة ، واللوح : الهواء وأحسبها : أدواها ، من أحسبه إذا أطعمه وسقاه حتى شبع
وروى ، وأتأق : ملأ ، والهجول جمع هجل كشمس : وهو المطمئن من الأرض ، واليفع واليافع :
الشاب .

(٢) الجبهة : منزل للقمرة ، قزعة : قطعة من السحاب ، والفرض : الترس ، والعين : القبلة ، وترجل
النهار : ارتفع .

(٣) الإزيم : لياة من ليالي الخاق — والحاق مثلثة : ثلاث ليال من آخر الشهر ، والسرار :
آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حضان كحمل : وهو جانب الشيء وناحيته ، واحموت : أسودت .

(٤) يسق : ارتفع ، والعنان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعجت : انشقت ، والكلية من
السحاب : أسفله — ومن المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وذمرت : حضت — والتدامر :
التحاض على القتال ، عقائفها بروقها المشبهة للعقائق .

(٥) ارتعن المطر : ثبت وجاد . (٦) غيث طبق : هام واسع يطبق الأرض ، وهضب كضرب :
مطر .

النَيْطَان ، وَجَوَّحَ الْأَصْوَاجَ^(١) ، وَأَتْرَعَ الشَّرَاجَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِفَاءً إِسَاءَتَنَا إِحْسَانًا ، وَجَزَاءَ ظَلَمْنَا غُفْرَانًا .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٢)

٧- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا من بني عامر بن لؤي بن صعصعة يصف مطراً فقال :

« نَشَأُ عِنْدَ الْقَصْرِ ، بِنَوَى الْعَفْرِ^(٢) ، حَبِيبًا عَارِضًا ، ضَاحِكًا وَامِضًا ، فَكَلَّا وَلَا^(٣) مَا كَانَ ، حَتَّى شَجَبْتِ بِهِ أَقْطَارُ الْهَوَاءِ ، وَاحْتَجَبَتْ بِهِ السَّمَاءُ ، ثُمَّ أَطْرَقَ^(٤) فَكَفَهَرَ ، وَتَرَكَمْ فَادْلَهَمَ ، وَبَسَقَ فَازْلَامَ ، ثُمَّ حَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ، فَحَنَّ ، فَالْبَرْقُ مَرُّ تَيْجٍ ، وَالرَّعْدُ مُتَبَوِّجٌ^(٥) ، وَالخُرْجُ مُتَبَعِّجٌ ، فَأَنْجَمَ ثَلَاثًا ، مُتَحِيرًا هَهَانَا^(٦) ، أَخْلَافُهُ حَاشِكَةٌ ، وَدَفَعَهُ مَتَوَاشِكَةٌ ، وَسَوَامُهُ مَتَعَارِكَةٌ ، ثُمَّ وَدَّعَ مُنْجِمًا^(٧) ، وَأَقْلَعَ مَتَهْمًا ، مَجْمُودَ الْبَلَاءِ ، مُتْرِعَ النَّهَاءِ ، مُشْكُورَ النَّعْمَاءِ ، بِطَوَّلِ^(٨) ذِي الْكِبْرِيَاءِ . »

(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٤)

(١) جَوْحُ السَّيْلِ الْوَادِي : إِذَا كَسَرَ جَنْبَيْهِ وَأَقْتَلَعَ أَجْرَافَهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « جَوْحٌ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ . وَالْأَصْوَاجُ جَمْعُ ضَوْجٍ كَشْمَسٌ : وَهُوَ مَنَعُفٌ الْوَادِي ، وَالشَّرَاجُ جَمْعُ شَرَجٍ كَشْمَسٌ أَيْضًا : وَهُوَ مَسِيلُ الْمَاءِ مِنَ الْحَرَّةِ (بِفَتْحِ الْحَاءِ) إِلَى الْمَهْلِ .

(٢) الْقَصْرُ : الْعَشِي ، وَالْعَفْرُ : مَنَزَلٌ لِلْقَمَرِ ، وَالْحَبِيبُ : السَّحَابُ يَشْرَفُ مِنَ الْأَفْقِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَوَّلِي يَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ . (٣) قَالَ فِي اللَّسَانِ : « وَالرَّعْبُ إِذَا أَرَادُوا تَقْلِيلَ مَدَّةِ فِعْلٍ أَوْ ظَهُورِ شَيْءٍ خَفِيَ قَالُوا : كَانَ فَعْلُهُ كَلَاهُ وَرَبَّمَا كَرَّرُوا فَقَالُوا كَلَا وَلَا ، قَالَ الشَّاعِرُ : يَكُونُ زَوْلُ الْقَوْمِ فِيهَا كَلَا وَلَا : ، وَالشَّجَا : مَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ ، وَقَدْ شَجِيَ بِهِ كَرَضِي . »

(٤) هُوَ مِنْ أَطْرَقَتِ الْإِبِلُ : تَبِعَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَادْلَهَمَ : اسْوَدَّ .

(٥) التَّبَوُّجُ : الصِّيَاحُ ، وَالخُرْجُ : السَّحَابُ أَوَّلُ مَا يَنْشَأُ ، مُتَبَعِّجٌ : مُتَشَقِّقٌ .

(٦) الْمَهْمَاتُ : السَّرِيعُ ، حَاشِكَةٌ : كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، مَتَوَاشِكَةٌ : يَسَارِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَالسَّوَامُ : الْإِبِلُ الرَّاعِيَةُ .

(٧) أَنْجَمَ الْمَطَرَ وَغَيْرَهُ : أَقْلَعَ ، وَمَتَهْمًا : أَي سَاطِرًا نَحْوَ تَهَامَةٍ ، وَالنَّهَاءُ جَمْعُ نَهْيٍ بِالسَّكْسَرِ وَالْفَتْحِ وَهُوَ الْقَدِيرُ .

(٨) أَي بِفَضْلِهِ وَقُدْرَتِهِ .

٧١ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : خرج النعمان في بعض أيامه في عَقبِ سماء ، فلقى أعرابياً على ناقة ، فأمر فأتى به ، قال : كيف تركت الأرض ورائك ؟ فقال :

« فِيحٌ رُحَابٌ ^(١) ، منها السهولُ ومنها الصَّعَابُ ، منشوطةٌ بِجَيَالِهَا ، حاملةٌ

لأثقالها » ، قال : إنما سألتك عن السماء ! قال :

« مُطَلَّةٌ ^(٢) مستَقِلَّةٌ ، على غير سِقَابٍ ولا أَطْنَابٍ ، يَخْتَلِفُ عَضْرَاهَا ، ويتعاقب

سِرَاجَاهَا ، قال : ليس عن هذا أسألك ! قال : كَفَسَلُ ما بَدَا لَكَ ، قال : هل صَابَ الأرضَ غَيْثٌ ؟ قال :

« نعم : أغمطت ^(٣) السماء في أرضنا ثلاثاً رَهْوًّا ، فَثَرَّتْ وَأَرْزَعَتْ ، وَرَسَعَتْ ،

ثم خرجتُ من أرض قومي أقرؤها ^(٤) ، فإذا هي مُتَوَاصِيَةٌ ، لا خَطِيئَةَ بينها ، حتى هببتُ

بِعِشَارٍ ، فتداعى السحابُ من الأقطار ، فجاءنا بالسيل الخِرَّارَ ، ففعا ^(٥) الآثَارَ ، وملاً

الجفَارَ ، وَقَوَّرَ عَالِيَ الأشجارِ ، فأَجَجَرَ الحُضَارَ ، ومنع السُّفَارَ ، ثم أَقْلَعَ عن نفع

وإضرار ، فلما اتلَّابَتْ ^(٦) لى الأقيعان ، ووضحت السُّبُلَ في الغيطان ، وفات الأعنانُ ،

من أقطار الأعنان ، فلم أجد وَزْرًا إلا الغيران ، ففات وِجَارَ الضُّبُعِ ، فغادرتُ السهول

(١) فيح جمع فيحاء : واسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الجبل كنصر عقده (وأنشطه : حله) . (٢) مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عمود الحباء ،

والعصران : الليل والنهار ، وسراجاها : الشمس والقمر . (٣) أى دامت ولازمت ، والرهو : السكون والثرة من العيون : الغزيرة كالثرثرة ، وقد ثرت هى ، والرزغة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض

بها ولم تسل ، ورسغ المطر : كثر وثرى الأرض حتى تبلغ يده الحافر عنه إلى أرساغه . (٤) أتبعها ، والخطيطة : الأرض لم تمطر بين مطورتين ، أو التي مطر بعضها ، وعشار : موضع .

(٥) محاهها وطمسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البئر التي لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقاً مستديراً ، وأججر ، من أججر الضب : أى أدخله في جحره ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم في الحضر ،

والسفار جمع سافر وهو المسافر لا فعل له . (٦) استقامت ، والنعمان : السحاب ، والأعنان من السماء : نواحيها ، والوزر الملقأ ، والغيران جمع غار : وهو الكهف في الجبل ، والوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

كالبحار ، تتلاطم بالتيار ، والحزون متلعةً بالفتاء^(١) ، والوحوش مقنوفة على الأرجاء ، فازلت أطماً السماء ، وأخوض الماء ، حتى وطيئت أرضكم .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٧)

٧٢ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : وقف أعرابي على قوم من الحجاج فقال :
« يا قومي بدا شأني ، والذي ألفتني^(٢) إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قوى عناً
نم تكرفاً السحاب ، وشصاً الرباب ، وأدلهم سيقه^(٣) ، فارتجس ريقه ، وقلنا :
هذا عام بكر أوسمي^(٤) ، محمود السمي ، ثم هبت له الشمال ، فأخزأت طخاريره^(٥) ،
وتفرزع كرفنه متباشراً ، ثم تتابع لمعان البرق ، حيث تشيمه الأبصار ، وتجدده النظار ،
ومرت^(٦) الجنوب ماءه ، فقووض الحى مزلثمين نحوه ، فسرحنا المال فيه وكان
ونحماً وخيماً ، فأساف المال ، وأضف الحلال ، فرحم الله امرأ جاد بمير ، أو دل
على خير » .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٨)

٧٣ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :
قال أبو مجيب - وكان أعرابياً من بني ربيعة بن مالك - : « لقد رأيتنا في أرضٍ

(١) الفتاء : البالي من ورق الشجر المخالط لزبد السيل .
(٢) ألفتني ، وقوى المطر : احتبس ، وتكرفاً : تراكم ، وشصاً : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض
(٣) أدلهم : أسود ، والسيق : السحاب لا ماء فيه ، والريق : تردد الماء على وجه الأرض .
(٤) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسمى جمع سماء : وهو المطر
أو المطرة الجيدة . (٥) الطخارير جمع طخروو كمصفور بالخاء والحاء : الطاخ من السحاب ، والكرفه :
السحاب المرتفع المتراكم ، وتفرزع وإنقشع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصه .
(٦) هو من مرى للناقة كرمى : مسح ضرعها لتدر ، مزلثمين : ماضين مرتحلين إليه ، وأساف المال :
أهلكه ، والسواف كجبان وشجاع : الموت في الناس والمال ، ساف سوفاً أى هلك ، وأسافه الله ، ويقال
أيضاً أساف الرجل : وقع في ماله السواف أى الموت : وأضف من الضفف كسبب وهو الضيق والشدة ،
أصاهم من العيش ضفف أى شدة .

عَجْفَاء^(١) ، وزمان أَعْجَفَ ، وشجر أَعْسَمَ ، في قُفٍّ غليظ ، فبينما نحن كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غيثاً مُسْتَكْفِئاً^(٢) نَشْوَهُ ، مُسَبِّلَةً عَزَالِيَهُ ، ضِخَامًا قَطْرُهُ ، جَوْدًا صَوْبُهُ زَاكِيًا ، أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فَعَيْشَ بِهِ أَمْوَالَنَا ، وَوَصَلَ بِهِ طَرْقَنَا ، وَأَصَابَنَا وَإِنَّا لَبِنَوَاطِيَةٌ^(٣) بعيدة الأرجاء ، فاهرَمَعَ مطرُها ، حتى رأيتُنا وما نرى غير السماء والماء وَضَهَوَاتِ الطَّلَحِ^(٤) ، وَضَرَبَ السَّيْلُ النَّجَافَ ، وَمَلَأَ الْأَوْدِيَةَ فَزَعَبَهَا ، فَمَا لَبِثْنَا إِلَّا عَشْرًا ، حَتَّى رَأَيْتَهَا رَوْضَةً تَنْدَى . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٩)

٧٤- أعرابي يصف مطرا

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :

« أصابتك سماءٌ في وجهك يا أعرابي » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سَحَاءٌ طَحْنَاءٌ وَطَفَاءٌ^(٥) ، كَأَنَّ هَوَادِيَهَا الدَّلَاءُ ، مُرْجِحَةٌ النَّوَاحِي ، مَوْصُولَةٌ بِالْأَكَامِ تَكَادُ تَمَسُّ هَامَ الرِّجَالِ ، كَثِيرٌ زَجَلُهَا^(٦) ، قَاصِفٌ رَعْدُهَا ، خَاطِفٌ^(٧) بَرَقِهَا ، حَتِيثٌ وَدَقِهَا ، بَطِيءٌ مَسِيرُهَا ، مُشْعَنْجِرٌ قَطْرُهَا ، مَظْلِمٌ نَوُوءُهَا ، قَدْ لَجِثْتُ الْوَحْشَ إِلَى أَوْطَانِهَا ، تَبْحَثُ عَنْ أَصُولِهَا بِأُظْلَافِهَا ، مَتَجَمِّعَةٌ بَعْدَ شَتَاتِهَا ، فَلَوْلَا اعْتِصَامُنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الهزال ، وأعم : يابس ، وأصله من العسم بالتحريك وهو يبس في مفصل الرنخ تعوج منه اليد والقدم ، والقف ، ما غلظ من الأرض وارتفع ، لم يبلغ أن يكون جبلا ، وأنشأ الله السحاب : رفعه . (٢) مستكفا : مستديرا كالسكفة ، (والسكفة بالسكسر وبضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . (٣) الثنوة : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح : شجر عظام) والموضع المرتفع عن الماء ، أو ليس هواد ولا تلمعة بل بين ذلك ، واهرع : كثر وأمرع . (٤) الضهوة : بركة الماء ، والنجاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكان لا يملوه الماء ، أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها ، وزعها : ملاحها .

(٥) سحابة وطفاء : مسترخية لكثرة ماثها ، أو هي الدائمة للسح الخشبية ، هوادها : أوائلها ومقادمها ، مرجحة : ثقيلة مهتزة (٦) الزجل : الجلبة ورفع الصوت ، مشعجر : سائل منسوب ، ولجا إليه كنع وفرح ، وأظلاف جمع ظلف بالسكسر وهو للبقرة والشاة والظبي وشبهها كالقدم لنا ، والفتن جمع فنة ، وهي قبة الجبل . (٧) زدت هذه الكلمة كي يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقطت من الأصل في الطبع .

بِعِضَاهِ الشَّجَرِ ، وَتَمَلَّقْنَا بِقُنَنِ الْجِبَالِ ، لَكِنَّا جُنَاءٌ^(١) فِي بَعْضِ الْأُودِيَةِ ، وَتَلَمَّ الطَّرِيقَ ، فَاطَّلَ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ بَقَاءَكَ ، وَنَسَأَ لَهَا فِي أَجَلِكَ بِرِكَتِكَ ، وَعَادَ اللَّهُ بِكَ عَلَى رِعِيَتِكَ ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ سَلِيمَانُ : « لَمَمَرُّ أَيْبِكَ لَنَنْ كَانَتْ بَدِيهَةٌ لَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِنْ كَانَتْ مُحَبَّرَةً لَقَدْ أَجَدْتَ » قَالَ : بَلْ مُحَبَّرَةٌ مَهْدُورَةٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « يَا غَلَامُ أَعْطِهِ ، فَوَاللَّهِ لَصِدْقُهُ أَعْجَبُ إِلَيْنَا مِنْ صِفَتِهِ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

٧٥- أعرابية تصف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : « كَانَ شَيْخٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فِي خِيَابِهِ ، وَابْنَةٌ لَهُ بِالْفِئَاءِ^(٢) ، إِذْ سَمِعَ رَعْدًا فَقَالَ : مَا تَرَيْنِ يَا بِنْتِي ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا حَوَاءَ قَرَحَاءٍ^(٣) ، كَأَنَّهَا أَقْرَابُ^(٤) أَتَانِ قَرَاءٍ ، ثُمَّ سَمِعَ رَاعِدَةً أُخْرَى فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا جَمَّةَ التَّرْجَافِ^(٥) مَتَسَاقِطَةَ الْأَكْنَفِ ، تَتَأَلَّقُ بِالْبُرْقِ الْوَلَّافِ ، قَالَ : هَلُمِّي الْمَعْرِفَةَ ، إِنِّي نُوِيًّا^(٥) .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥١)

٧٦- أعرابية تضيف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : كَانَ أَعْرَابِيٌّ ضَرِيرٌ تَقْوَدُهُ ابْنَتُهُ ، وَهِيَ تَرَعِي غُنِيَّاتِهَا ، فَرَأَتْ سَحَابًا فَقَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَ تَكَ السَّمَاءِ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا فَرَسٌ دَهْمَاءٌ^(٦) تَجْرُّ جِلَالَهَا ، قَالَ : ارْعَى غُنِيَّاتِكَ ، فَرَعَتْ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَ تَكَ السَّمَاءِ ، قَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا عَيْنٌ جَمَلٌ طَرِيفٌ^(٧) قَالَ : ارْعَى

(١) الجفَاء : الزبد ، ولقم الطريق : معطيه ووسطه ، وفي الأصل : ه لقم ه وهو تحريف .
(٢) للفئاء : ما اتسع أمام الدار . (٣) حواء : وصف من الحوة بالضم وهي حرة إلى السواد ، والقرحة بالضم : وجه الفرس دون الثرة ، والوصف منه أفرح وقرحاء ، والأقرب جمع قرب كقفل وعق : وهو الحاصرة ، والقمرة بالضم : بواض فيه كدرة ، حمار أقر ، وأتان قرأ .
(٤) كثيرة الاضطراب ، الولاف : المتتابع ، من ولف البرق كوعده ولفاً وولافاً بالكسر : تتابع .
(٥) النوى : الحفير حول الحياء يمنع السيل ، وانتأيه علمته . (٦) سواد ، والجلال جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به . (٧) الجمال ينتقل من مرعى إلى مرعى .

غَنِيَاتِكَ ، فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟
قالت : سَطِحتْ وَايَضَّتْ ، قال : أدخلني غنياتك ، قال : فجاءت السماء بشيء شطاً^(١) له
الزرع وأينع ، وَخَصِرَ وَنَصُرُ ، (بلوغ الأرب ٢٦٠٢)

٧٧ - أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضاً أحدها فقال :

« خَلَعَ شَيْحُهَا ، وَأَبْقَلَ رِمْتُهَا ، وَخَضَبَ عَرَفَجُهَا^(٢) ، وَأَتَسَّقَ نَبْتُهَا ، وَاخْضَرَّتْ
قَرِيَانُهَا ، وَأَخْوَصَتْ بَطْنَانَهَا^(٣) ، وَأَحْلَسَتْ أَكْمُهَا ، وَاعْتَمَّ نَبْتُ جَرَاثِيمِهَا^(٤) ،
وَأَجَرَتْ بَقْلَتَهَا وَذُرْقَتَهَا وَحَبَّازَتَهَا^(٥) ، وَأَحْوَرَّتْ خَوَاصِرُ إِبِلِهَا ، وَشَكِرَتْ
حَلُوبَتُهَا ، وَسَمِنَتْ قَتُوبَتَهَا^(٦) ، وَعَمِدَتْ ثَرَاها . وَعَقَدَتْ تَنَاهِيهَا ، وَأَمَاهَتْ ثَمَارُها .
وَوَثِقَ النَّاسُ بِصَاثِرَتِهَا^(٧) . »

(البيان والخبير ٢: ٧٧)

(١) شطأ الزرع : أخرج شطأه ، أي فراخه .

(٢) خلع الشيح : أورق (واخلع من الغضاه الذي لا يسقط ورقه أبداً ، والغضاه ككتاب : كل شجر
له شوك) والرمث . مرعى للإبل ، وشجر يشبه الغضا ، والعرفج : شجر سهل ، وغضب الشجر كضرب
وسمع وعنى : اخضر . (٣) القرىان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كقنى ، وأخوص
العرفج : تفطر بورق ، أخوصت النخلة : أخرجت الخوص ، والبطنان جمع باطن وهو الغامض من الأرض
أى المطنن منها . (٤) أحلس النبت : غطى الأرض بكثرتة ، وأحلس الأرض فهى محلسة : صار
النبات إليها كالحلس كثرة الحلس كحمل كساء على ظهر البعير - والجراثيم جمع جرثومة بالضم ، وجرثومة
الشيء : أصله ، واعتم : أى كأنه ليس عمامة . (٥) أجزت البقلة : صارت لها جراء - وجراء ككتاب
جمع جرو بالثلاثية وهو صغير كل شيء - والذرة واحدة اللزق وهو نبات مثل الكراث الجبلب الدقاق فى
رأسه حب حلو يؤكل رطباً تحبه الرعاة يأتون به أهلهم : والخيازة والخيازي : النبت المعروف .

(٦) أحورت : أبيضت وذلك من الشد على خواصرها لثلاث تحيط (والحيط بالتحريك : انتفاخ بطنها بن
مرعى ترعاه) والحلوبة : الحلوبة ، وشكرت الناقة : امتلأ ضرعها ، والداية : سميت ، والقنوية : الإبل
التي تقتنها (وأفتب الناقة : شد عليها التفتب (بالتحريك) وهو إكافر صغير على قدر سننم البعير) .

(٧) عمد الثرى : بلاه المطر حتى إذا قبضت عليه تمقه لندوته ، والتناهى جمع تنهى : وهى مستقر السيل
حيث ينتهى الماء من الوادى ، وعقدت تناهيها : أن يمر السيل مقبلاً حتى إذا انتهى منها دار بالأبطح
حتى يلتقى طرفا السيل ، وأمَاهت ثمارها : أى كثر ماؤها ، والصائرة : المطر والسكالا .

٧٨ - رائد يصف أرضاً جذبة

قال أبو الجيب : وصف رائدٌ أرضاً جذبةً فقال :

« أُعْبِرَتْ جَادَتْهَا ^(١) ، وَذَرَعَ مَرْتَمًا ، وَقَضِمَ شَجْرُهَا ، وَرَقَّتْ كَرِشَهَا ، وَخَوَّرَ عَظْمًا . وَالتقى سَرْحَاهَا ^(٢) . وَتَمَيَّزَ ^(٣) أَهْلُهَا . وَدَخَلَ قُلُوبَهُمُ الْوَهْلُ . وَأَمْوَالُهُمُ الْهَزْلُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٩ - رائد يصف أرضاً

عن محمد بن كُنَاسَةَ قَالَ : أَخْبَرَنِي بَعْضُ فَصْحَاءِ أَعْرَابِ طَيْبٍ قَالَ :

« بَعَثَ قَوْمٌ رَائِدًا . فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : عُشْبٌ وَتَعَاشِيبٌ ^(٤) ، وَكَغَاةٌ مَفْتَرِقَةٌ شَيْبٌ ، تَقْلَعُهَا بِأَخْفَافِهَا النَّيْبُ ^(٥) » ، قَالُوا : لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا ، هَذَا كَذِبٌ ! فَأَرْسَلُوا آخَرَ ، فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : « عُشْبٌ نَادٌ مَادُمُولِي ^(٦) وَعَهْدٌ . مَتَدَارِكُ جَعْدٌ ^(٧) ، كَأَنْفَازِ نِسَاءِ بَنِي سَعْدِ ، تَشْبَعُ مِنْهُ النَّيْبُ وَهِيَ تُعَدُّ ^(٨) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

(١) الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المرتع : بعد عن الماء ، وقضم شجرها : تسكمر ، يقال : سيف قضم كفرح : أى طال عليه الدهر فتكمر حده ، وقضم السن : انصدع وثلم ، وإذا لم يكن للجمل مرعى إلا للشجر وحده رقت أكراشه . (٢) يمتزج أى إذا أكل كل ما يحيط به ، التقيها عند الماء . (٣) تفرقوا في طلب الكذا ، والوهل : الفزع ، والهزل : موت مواشى الرجل .

(٤) العشب : السكلا للطرب ، والتعاشيب : القطع المتفرقة منه . (٥) النيب جمع ناب : وهو الناقة المستنة . (٦) جاء في اللسان : « قال الأصمعي : قيل لبيص العرب : أصب لنا موضعاً أى أطلب

فقال رائدهم : وجدت مكاناً ثدياً مثداً (يفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بعثوا رائداً فجاء وقال : عشب نأد مأد (يفتح فسكون) كأنه أسوق بنى سعد ، وثند النبات كفرح : ندى فهو ثند ، ومأد كنع اهتز وتروى وجرى فيه الماء وتنعم ولان والمأد : الناعم من كل شيء ، والمولى : الذى أصابه الولي (واللولى : المطر الذى يأتي بعد المطر) ، والعهد : أول مطر الوسمى (والوسمى : أول مطر الربيع) .

(٧) من قومه : زيد جمع : أى متراكب مجتمع قد صار بعضهم فوق بعض .

(٨) يمتزج أى أن العشب قد طال وتم ، والنيب تشبع منه وهى تعد : لأنها تتناولوه وهى قائمة لا تبرج مكانها ولا تطأ رأسها .

٨٠ - رائد يصف أرضاً

وبعث رجل أولاده يرتادون في خِصْب . فقال أحدهم : « رأيتُ بُقْلاً . وماء غَيْلاً^(١) . يسيل سَيْلاً . وخُوصه تميل مَيْلاً ، يحسبها الرائد ليلاً » وقال الثاني : « رأيت دَيْمة على دَيْمة ، في عهدا غير قديمة . وَكَلَّا تشبع منه النَّاب قبل الفطيمة » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

* * *

وروى هذا الوصف عن ابن الكلبي بصورة أخرى قال :
« خطب هند بنه أنخس الإيادية ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجمالهم ، وأرادت أن تسبر عقولهم ، فقالت لهم : « إني أريد أن ترتادوا لي مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بُقْلاً وَبُقَيْلاً ، وماءً غَدَقاً^(٢) سَيْلاً ، يحسبه الجاهل ليلاً ، قالت : أمرعت^(٣) ، قال الآخر : رأيت دَيْمة بعد دَيْمة ، على عهد غير قديمة ، فالناب تشبع قبل الفطيمة ، قال الثالث : رأيت غَيْثاً تُعَدُّ مَعْدًا^(٤) ، متراكماً جَمْدًا ، كأنخاذ نساء بنى سعد ، تشبع منه النيب وهي تُعَدُّ » .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ - أعرابي يصف أرضه وماله

عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال :
أَسْدِيّ ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهدي ، قلت : من أى البلاد ؟ قال : من عُمان ،

(١) الغيل : الماء الذى يجرى بين الشجر .

(٢) الغدق : الماء الكثير . (٣) أمرعه أصابه مريماً كخصيب وزنا ومعنى .

(٤) الغيث : المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ثم سمي ما ينبت به غيثاً ، والمراد هنا الثاقب ، ويقبل

تعد معد : غرض رطب رخص .

قلت : فَأَتَى لَكَ هَذِهِ الْفَصَاحَةُ ؟ قال : « إِنَّا سَكَنَّا قُطْرًا لَا نَسْمَعُ فِيهِ نَاجِحَةَ التِّيَّارِ ^(١) »
 قلت : صف لي أرضك ، قال : « سَيْفٌ أَفْبِيحٌ ، وَفَضَاءٌ صَحْصَحٌ ، وَجَبَلٌ صَرْدَحٌ ،
 وَرَمْلٌ أَصْبَحٌ ^(٢) » ، قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت من الإبل ؟
 قال : « إِنْ النُّخْلَ حَمَلْنَا غِذَاءً ، وَسَعَفُهَا ^(٣) ضِيَاءً ، وَجِدَعُهَا بِنَاءً ، وَكِرْبُهَا صِلَاءً ،
 وَلِيْفِهَا رِشَاءً ، وَخَوْصُهَا وِعَاءً ، وَقَرَوُوهَا إِيَاءً » . (ذيل الأمال ص ١٧)

٨٢ - أعرابي يصف بلدا

وذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ بِلْدًا فَقَالَ : « بِلْدٌ كَالثَّرْسِ ، مَا تَمْشِي فِيهِ الرِّيحُ إِلَّا عَابِرَاتٍ سَبِيلَ ،
 وَلَا يَمُرُّ فِيهِ السَّفَرُ إِلَّا بِأَدَلِّ دَلِيلٍ » . (المعقد الفريد ٢ : ٨٠)
 وقال أعرابي : « مررت ببِلْدٍ أَلْقَى بِهِ الصَّيْفُ ^(٤) بِقَاعَهُ ، فَمَا ظَهَرَ غَدِيرًا يَقْصُرُ
 الطَّرْفُ عَنْ أَرْجَائِهِ ، وَقَدْ نَفَتِ الرِّيحُ الْقُدَى عَنْ مَائِهِ ، فَكَأَنَّهُ سِلَاسِلُ دِرْعٍ ذَاتِ
 فُضُولٍ ^(٥) » . (المعقد الفريد ٢ : ٩٦)

وسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ عَنْ مَسَافَةِ مَا بَيْنَ بَلَدَيْنِ فَقَالَ : « عُمرُ لَيْلَةٍ ، وَأَدِيمٌ ^(٦) يَوْمٌ » .
 وقال آخر : « سَوَادٌ لَيْلَةٌ ، أَوْ بِيَاضٌ يَوْمٌ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، والمعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقال آخر : « إِنْ الْمَسَافِرَ وَمَتَاعَهُ لَعَلِّي قَلَّتْ ^(٧) إِلَّا مَا وَفَى اللَّهُ » .

(المعقد الفريد ٢ : ٥٢)

الناجحة : الصوت ، والتيار : الموج . (٢) السيف : ساحل البحر ، وساحل الوادي ، أو
 لساحل ساحل سيف ، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان ، وأفبوح : واسع ، والصحيح : ما استوى من
 الأرض ، والصدوح : الصلب ، والأصبح : الذي يماوى بياضه حمرة (٣) السعف : جريد النخل أو
 ورقه ، والكرب : أصول السعف الغلاظ المراد ، والرشاء : الحبل ، والقرور : أسفل النخلة ينتثر
 فينتثر فيه - أي يعضد فيه التبيد - .

(٤) الصيف كسيد ويخفف : المطر يهيج في الصيف أو بعد الربيع كالصيف .

(٥) جمع فضل : وهو الزيادة . (٦) أديم النهار : عامته أو بياضه . (٧) القلت : الهلاك .

٨٣ - أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي فقيل له : ما أشدُّ البرد ؟ قال : ريحٌ جَرِيْبَاءٌ ، في ظلِّ عَمَاءٍ ،
غِبِّ سَمَاءٍ^(١) . . (البيان والعيين ١ : ١٦٢)

٨٤ - أعرابي يصف إبلا

وقال : سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال :
« إِنِّهَا لَمِعْظَامُ الحَنَاجِرِ ، سِبَاطُ المَشَافِرِ ، كَوْمٌ بِهَازِرٍ^(٢) ، نُكْدٌ خَنَاجِرٍ^(٣) ،
أجوافها رِغَابٌ^(٤) ، وأعطائها رِحَابٌ ، تُنَمَّعُ مِنَ البُهْمِ^(٥) وتُبْدَلُ لِلجَمِّمِ » .
(الأمال ١ : ٥٢)

٨٥ - أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقة فقال : « إِذَا اكْتَالَتْ عَيْنِيهَا ، وَأَلَّتْ^(٦) أُذُنِيهَا ، وَسَجِحَ^(٧)
خَدُّهَا ، وَهَدَلِ^(٨) مِشْفَرُهَا ، وَاسْتَدَارَتْ جُمَّمَتُهَا ، فَهِيَ الكَرِيمَةُ » .
(الأمال ١ : ٢١٧)

(١) الجربياء : ريح للشمال الباردة ، أو الريح بين الجنوب والصبيا ، وللعماء : السحاب المرتفع : أو
الكثيف ، أو المطر ، في غيب سماء : أي عقب مطر . (٢) الخنجرة والخنجور كمنصور : الحلقوم ،
وجمه حناجر ، والمشافر جمع مشفر كبير : وهو البعير كالشقة للإنسان ، والكوم : العظام الأسنة جمع أكوام
وكوماه والجازر جمع بهزرة كبندة : وهي العظيمة من النوق .

(٣) النكد : الفزيرات اللبن من الإبل (والتي لا لبن لها أيضا ضد) ، والخناجر : الفزيرات اللبن
جمع خنجر كجفمر وجهاء وخنجورة بالضم . (٤) رغاب : واسعة ، وأعطائها : مباركها عند الماء جمع
عطن كسبب . (٥) البهم جمع بهمة كفرصة : وهو الشجاع الذي لا يدرى من أين يؤق ، من شدة
بأسه ، والجمم جمع جمه كقبة ، وهم القوم يسألون في الدييات .

(٦) آل البعير : نصب أذنيه وحدهما . (٧) سجح : سهل وحسن . (٨) هدل : استرخى .

٨٦ - أعرابي يصف خيلاً

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خرجت علينا خيلٌ مستطيرةٌ النَّعْمُ ^(١) ،
كأن هُوادِيها ^(٢) أعلام ، وآذانها أطرافُ أقلام ، وفُرسانها أسودُ آجامٍ . »

٨٧ - أعرابي يصف خيلاً

وذكر أعرابي خيلاً فقال : « والله ما انحدرتُ في وادٍ إلا ملأتُ بطنه ،
ولا ركبتُ بطن جبلٍ إلا أمهكتُ حزنه ^(٣) . » (العقد الفريد ٢ : ٩٥)

٨٨ - أعرابي يصف خيلاً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلاً فقال : « سباط
الخصائل ^(٤) . ظمَاءُ المفاصل ، شداد الأباجل ^(٥) ، قُبُ الأياطل ، كرام النواجل ^(٦) . »
(الأمال ١ : ٥٢)

٨٩ - أعرابي يصف فرساً

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال : « قد انتهى ضموره ، وذبل فريره ^(٧) ،
وظهر حصيره ^(٨) ، وتفلقت غموره ^(٩) ، واسترخت شاكلته ^(١٠) ، يُقبل بزور
الأسد ، ويذبر بعجز الذئب ^(١١) . » (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٣ ، والأمال ٢ : ٢٥٦)

(١) للقباز . (٢) أوائلها . (٣) الخصائل جمع خصيلة : وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو
مجتمعة ، وقيل : هي ما انماز من لحم الفخذ يعضه من بعض ، وسباط جمع سبط ككف وشمس ، رجل
سبط الجسم إذا كان حسن القد والاستواء : وظماء : ضمير . (٤) الأباجل جمع أبجل : وهو عرق
غليظ في الرجل أو في اليد ، يريد أنها شداد القوائم . (٥) الأياطل جمع أيطل : وهو الخاصرة ،
قب جمع أقب ، وصف من القبب كسبب وهو ذقة الحصر وضمور البطن ، والنواجل جمع ناجلة ، من
نجلته : أي ولدته . (٦) الفرير : موضع الحجة من معرفة الفرس .
(٧) الحصير : عرق يمتد معترضاً على جنب اللدابة إلى ناحية بطنها ، أو لحمه كذلك .
(٨) للفرور : الفضون التي في جلده ، واحدها غر بالفتح . (٩) الشاكلة من الفرس : الجلبدين
عرض الخاصرة والثفنة - والثفنة كفرحة : الركبة - .

٩٠ - أعرابي يصف خاتماً

وقال أعرابي يصف خاتماً : « شَفَّ^(١) تقديرُ حَلَقْتَهُ ، وَدَوَّرَ كَرْسِي فِضْتَهُ ، وَأَحْكَمَ تَرْكِييَهُ ، وَأَتَقَنَ تَدْبِيرَهُ ، فَبِهِ يَتِمُّ الْمَلِكُ ، وَيَنْفَعُ الْأُمْرَ ، وَيَكْرُمُ الْكِتَابُ ، وَيَشْرَفُ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

٩١ - أعرابي يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابي : « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال : « بَكْرَةٌ سِنَمَةٌ^(٢) ، مُعْتَبَلَةٌ غَيْرُ ضَمِينَةٍ ، فِي فُؤُورٍ رَذْمَةٍ^(٣) ، بِشْفَارٍ خَذِمَةٍ^(٤) ، فِي غَدَاةٍ شَبِيمَةٍ^(٥) ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : وَأَبْيَكُ لَقَدْ أَطْيَيْتَ^(٦) . (البيان والتبيين ١ : ١٦٢)

٩٢ - أعرابي يصف السويق

وعاب رجل السويق^(٧) مَحْضَرَةَ أَعْرَابِي فَقَالَ : « لَا تَعْبَهُ ، فَإِنَّهُ عُدَّةُ الْمَسَافِرِ ، وَطَعَامُ الْعَجَلَانِ ، وَغِذَاءُ الْمُبَكَّرِ ، وَبُلْفَةٌ^(٨) الْمَرِيضِ ، وَيَسْرُو^(٩) فَوَادَ الْحَزِينِ ، وَيَرُدُّ مِنْ نَفْسِ الْحُدُودِ^(١٠) ، وَجِيْدٌ فِي التَّسْمِينِ ، وَمَنْعُوْتُ فِي الطَّبِّ ، وَقَفَّارُهُ^(١١) يَحْلُو

(١) رق .

(٢) البكرة : الفتية من الإبل ، والسمنة : العظيمة الصنام ، وفعله كفرح ، عبط الذهبية كضرب واعتبطها : نحرها من غير علة وهي سميئة فنية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة في جسدتها من السمنة كفرصة وهي المرض . (٣) رذمت القصة كفرح فهي رذمة ورذوم كصبور : امتلأت وتصيببت جوانبها . (٤) شفار جمع شفرة « بالفتح » : وهي للسكين العظيم ، وخذمه كضربه : قطعه ، وسيف خذم ككتف وصبور ومعظم : قاطع . (٥) الغداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . (٦) أطاب الشيء وأطيبه : وجده طيباً .

(٧) السويق : ما يعمل من الخنطة والشمير . (٨) ما يتبلغ به . (٩) يسرو : يكشف ماعليه .

(١٠) الحدود : الذي قد حد أي قد ضرب الحد . (١١) القفار : الذي لم يلت بشيء من آدم ،

لا زيت ولا سمن ولا لبن . يقال طعام قفار .

الْبَلْغَمَ ، وملتوته يُصْقَى الدم ، وإن شئت كان شراباً ، وإن شئت كان طعاماً ، وإن شئت فتريداً ، وإن شئت فخبيصاً^(١) . (الأمال : ٢ : ١٩٧)

٩٣ - أعرابي يصف الجمال

وقيل لأعرابي ما الجمال ؟ قال : « طُول القامة ، وَضَخْمُ^(٢) الهامة ، وَرُحْبُ^(٣) الشَّدْقِ ، وَبُعْدُ الصوت » . وسئل آخر : ما الجمال ؟ قال « غُثُورُ العينين ، وإِشْرَافُ الحاجبين ، وَرُحْبُ الشَّدْقَيْنِ » . (البيان والتبيين : ١ : ٦٧)

٩٤ - أبو المخش يصف ابنه

وسأل جعفر بن سليمان أبا المِخْش عن ابنه المِخْش^(٤) - وكان جزع عليه جزعاً شديداً - قال : صف لي المخش ، فقال : « كان أشدق خُرْطُمَانِيًّا^(٥) ، سائلاً لُعَابَهُ ، كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ قَلْتَيْنِ^(٦) ، كَأَن تَرَفُوتَهُ بُوَانٌ ، أَوْ خَالِفَةٌ ، كَأَن مَنَكِيهِ كِرْكِرَةٌ جَمَلٍ ثَقَالٍ^(٧) ، فَقَأَ اللهُ عَيْنَيَّ إِنْ كُنْتُ رَأَيْتُ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ مِثْلَهُ » . (البيان والتبيين : ١ : ٦٧)

٩٥ - أعرابي يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي بِجَمَعِي الرَّبْدَةَ : أَلَك بَنُونَ ؟ قال : نعم ، وَخَالِقِهِمْ لَمْ تَقُمْ عَنْ مِثْلِهِمْ مُنْجَبَةً^(٨) ، فَقُلْتُ : صِفْهُمْ لِي ، فَقَالَ : « جَهْمٌ ! وَمَا جَهْمٌ ؟

(١) الخبيص : نقي اللدقيق يخلط بالصل .

(٢) ضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو ضخم . (٣) رحب ككرم وسم رحباً بالضم ورحابة فهو

رحب بالفتح . (٤) المخش في الأصل : الجري . على العمل في الليل .

(٥) أشدق : واسع الشدقين : خرطمانياً : طويلًا . (٦) القلت : للنفرة في الجبل .

(٧) البوان : عمود للخباء ، والخالفة : عمود من أعمدة البيت في مؤخره ، والكركرة : رحى زور

البعير وبغير ثقال : بطيء .

يُنْضِي الوَهْمَ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمَ^(١) ، وَيَفْرِي الصُّفُوفَ ، وَيَعْلُ السُّيُوفَ^(٢) ، قلت :
 ثم من ؟ قال : « غَشَمَ شِمًا ! وما غَشَمَ شِمًا ؟ مَالَهُ مُقَسَّمٌ ، وَقِرْنُهُ مُجْرَجَمٌ^(٣) ، جِذْلُ
 حِكَاكٍ^(٤) ، وَمِذْرَةُ لِكَالٍ^(٥) » ، قلت : ثم من ؟ قال : « عَشْرَبٌ ! وما عَشْرَبٌ ؟
 لَيْثٌ مُحْرَبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّبٌ^(٦) ، ذِكْرُهُ بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ عَاثِرٌ ، وَفِنَاؤُهُ رُحَابٌ^(٧) ،
 وَدَاعِيهِ مُجَابٌ » قلت : صف لي نفسك ، فقال : « لَيْثٌ أَبُو رِيَابِلٍ^(٨) ، رَكَابٌ مَعَاضِلٌ
 عَسَافٌ^(٩) ، مَجَاهِلٌ ، حَمَالٌ أَعْبَاءٌ ، نَهَاضٌ بِيَزْلَاءٍ^(١٠) . » . (الأمال : ٢ : ٥٣)

٩٦ - أعرابي يصف أخويه

عن العُتْبِيِّ قال أَخْبَرَنِي أعرابي عن إخوة ثلاثة ، قال : قلت لأحدهم : أَخْبِرْنِي
 عن أخيك زيد فقال : « أَزِيدٌ إِنِّيهِ^(١١) ؟ والله ما رأيتُ أحداً أُسْكِنَ فَوْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ
 غَوْرًا ، وَلَا آخَذَ لِذَنْبٍ حُجَّةً قَدْ تَقَدَّمَ رَأْسُهَا مِنْ زَيْدٍ » ، فقلت : أَخْبِرْنِي عن أخيك
 زائد قال : « كَانَ وَاللَّهِ شَدِيدَ الْعُقْدَةِ ، لَيْنَ الْعُظْفَةِ ، مَا يُرْضِيهِ أَقْلٌ مِمَّا يُسْخِطُهُ ، فَقُلْتُ :
 فَأَخْبِرْنِي عن نفسك ، فقال : « وَاللَّهِ إِنْ أَفْضَلَ مَا فِيَّ لَمْ أَعْرِفْ بِفَضْلِهِمَا ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ
 لَغَيْرٌ مُنْتَشِرٌ^(١٢) الرَّأْيِ ، وَلَا مَخْذُولُ الْعَزْمِ » . (الأمال : ٢ : ١٤)

- (١) ينضي : يهزل ، والوهم : الضخم العظيم من الإبل ، والدهم : العدد الكثير .
 (٢) يفري : يشق ، ويمل : أي يوردها للدماء ثانية ، مأخوذ من الملل في الشرب .
 (٣) المجرجم : المصروع . (٤) الجذل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحتك به فتعجه
 له لذة ، والمعنى أنه من يستشق به فالأبور بمنزلة ذلك الجذل الذي تستشق به الإبل .
 (٥) المذره : لسان القوم ، والمتكلم عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : درهته في ودرأته : أي دفعته ،
 واللكاز : الزحام . (٦) المحرب : المفضب الذي قد اشتد غضبه واحتمد ، وحربت المسكين : إذا
 أحدهته ، ومقشَّب : مخلوط . (٧) باهر غالب ، ورحاب : متسع .
 (٨) رهايل جمع ريبال بالكسر يهمز ولا يهمز : وهو الأسود ، والمعاضل : الدواهي .
 (٩) العساف : الذي يركب الطريق على غير هداية ، والأعباء : الأثقال .
 (١٠) البزلاء : الرأي الجليد الذي يهزل (يضم الزاي) عن الصواب : أي يشق منه .
 (١١) قال أبو هريرة : « هذه الزيادة تلحق في الاستفهام في آخر الكلمة إذا أنكرت أن يكون
 رأى المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا المبحث في الأمال : ٢ : ١٥ .
 (١٢) أي مفرقة .

قولهم في الدعاء

٩٧ - دعاء أعرابي

قال أبو حاتم : أملى علينا أعرابيّ يقال له مرثد :

« اللهم اغفر لي ، والجِلْدُ بارد ، والنفسُ رَطْبَةٌ ، واللسانُ منطلق ، والصحفُ منشورة ، والأقلامُ جارية ، والتوبةُ مقبولة ، والأنفسُ مَرِيحَةٌ^(١) ، والتضرعُ مرجو ، قبل أنِ الفراق ، وَحَشَكِ النفس^(٢) ، وَعَلَزِ الصدر^(٣) ، وَتَزِيلِ الأوصال^(٤) ، وَنُصُولِ الشعر ، واحتياف^(٥) التراب ، وقبل أن لا أقدر على استغفارك حينَ يَفْنَى العمل ، ويحضرُ الأجل ، وينقطع الأمل .

أعني على الموت وكرهته ، وعلى القبر وعمته^(٦) ، وعلى الميزان وخيفته ، وعلى الصراطوزلته ، وعلى يوم القيامة ودروعه ، اغفر لي مغفرة عَزَمًا ، لا تغادر ذنبًا ، ولا تدع كربيًا ، اغفر لي جميع ما افترضت عليّ ولم أؤدّه إليك ، اغفر لي جميع ما تبتُّ إليك منه ثم عدت فيه .

يارب تظاهرت^(٧) علىّ منك النعم ، وتداركت عندك مني الذنوب ، فلك الحمد على النعم التي تظاهرت ، وأستغفرك للذنوب التي تداركت ، وأمست عن عذابي غنيًّا ، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيرًا .

(١) مرح كفرح : أشم وبطر ونشط واختال وتبختر فهو مرح ومريح .

(٢) الحشك : شدة النزح . (٣) العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .

(٤) تزيلت وتزايلت : تفرقت ، والأوصال : المفاصل . (٥) الاحتياف : افتعال من الحيف وهو الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجثة ، والذي في كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشيء : إذا تنقصته من حافاته .

(٦) فعله من غم الشيء : أي غطاه فانغم ، أو هي « غمته » بالضم : أي بلائه وكره عذابه .

(٧) من تظاهروا إذا تعاونوا : أي تتابعت .

اللهم إني أسألك نجاح الأمل ، عند انقطاع الأجل ، اللهم اجعل خير عملي ما ولى
أجلى ، اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتهم شكروا ، وإذا ابتليتهم صبروا ، وإذا
أذكرتهم ذكروا ، واجعل لي قلباً تواباً أواباً ، لا فاجراً ولا مرتاباً ، اجعلني من
الذين إذا أحسنوا ازدادوا ، وإذا أساءوا استغفروا .

اللهم لا تحقق عليّ العذاب^(١) ، ولا تقطع بي الأسباب ، واحفظني في كل ما تحيط
به شفقتي ، وتأني من ورائه سبحانه^(٢) ، وتعجز عنه قوتي ، أدعوك دعاء ضعيفٍ عمله ،
متظاهراً ذنوبه ، ضنيناً على نفسه ، دعاء من بدنه ضعيف ، ومُنْتَه^(٣) عاجزة ، قد
انتهت عدته ، وخلقت^(٤) جدته ، وتمّ ظمؤه . اللهم لا تخيبي وأنا أرجوك ، ولا
تعذبني وأنا أدعوك ، والحمد لله على طول النسيئة^(٥) ، وحسن التباعة^(٦) ، وتشنُّج
العروق ، وإساعة الريق ، وتأخر الشدايد ، والحمد لله على حمله بعد علمه ، وعلى عفوه
بعد قدرته ، والحمد لله الذي لا يودى^(٧) قتيله ، ولا يخيب سؤله ، ولا يرُدّ رسوله ،
اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذلّ إلا لك ، وأعوذ بك أن أقول
زوراً ، أو أغشى فجوراً ، أو أكون بك مغروراً ، وأعوذ بك من شماتة الأعداء ،
وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة .

(العقد المفريد ٢ : ٧٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٢٤ - ١٢٧ - ١٣٨)

(١) يشير إليه قوله تعالى : « أَفَنُحِقَّ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » .

(٢) فعلة من السبح : وهو الثقلب والانتشار في الأرض ، والإبعاد في السير ، والتصرف في المعاش .

(٣) المنته : القوة .

(٤) خلق الثوب كصبر وكرم وسمع : بلى ، والظلم : ما بين الشريعتين والوردين .

(٥) الإمهال والتأخير . (٦) التباعة مثل التبعة بفتح فسكون . قال الشاعر :

أكلت حنيفة رجاها زمن للتحمم والمجاهة

لم يحدروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

• لأنهم كانوا قد اتخذوا إلها من حيس فعبده زمنا ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه - والحيس كشمس
تمر يخلط بالسمن والبن الخفيض فيصعب شديداً ، ثم يندر منه نواه .

(٧) ودى للقتيل كوحى : أعطى ديته ، والسول : وهو ما سأله .

٩٨ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي وهو يطوف بالكعبة فقال :

« إِلَهِي مَنْ أَوْلَىٰ بِالْتَّقْصِيرِ وَالزَّلَلِ مِنِّي وَأَنْتَ خَلَقْتَنِي ؟ وَمَنْ أَوْلَىٰ بِالْعَفْوِ مِنْكَ عَنِّي وَعَلِمْتَ بِي مَاضٍ ، وَقَضَاؤُكَ بِي مُحِيطٌ ؟ أَطْعَمْتُكَ بِقَوْتِكَ وَالْمِنَّةَ لَكَ ، وَعَصَيْتُكَ بِعَامِلِكَ ، فَاسْأَلُكَ يَا إِلَهِي - بِوَجُوبِ رَحْمَتِكَ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي ، وَافْتِقَارِي إِلَيْكَ وَغِنَاكَ عَنِّي - أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي .

إِلَهِي لِمَ أَحْسِنَ حَتَّىٰ أُعْطِيْتَنِي ، فَتَجَاوَزَ عَنِ الذَّنُوبِ الَّتِي كَتَبْتَ عَلَيَّ ، اللَّهُمَّ إِنَّا أَطْعَمْنَاكَ فِي أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَلَمْ نَعْصِكَ فِي أَبْغَضِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : الشَّرْكَ بِكَ ، فَاعْفِرْ لِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آتَسُّ الْمُؤْنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ ، وَأَحْضَرُهُمُ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ ، إِلَهِي أَنْتَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَالْمَطَّلِعُ عَلَىٰ ضَمَائِهِمْ ، وَسِرِّي لَكَ مَكْشُوفٌ ، وَأَنَا إِلَيْكَ مَلْهُوفٌ ، إِذَا أَوْحَشْتَنِي الْغُرْبَةَ أَنْسَنِي ذِكْرُكَ ، وَإِذَا أَاكَبْتَ عَلَيَّ الْغُمُومُ لَجَأْتُ إِلَىٰ الِاسْتِجَارَةِ بِكَ ، عَلِمًا بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِكَ ، وَمَصْدَرُهَا عَن قَضَائِكَ ، فَأَقْلِبْ لِي ^(١) إِلَيْكَ مَغْفُورًا لِي ، مَعْصُومًا بِطَاعَتِكَ بِقِيَةِ عَمْرِي ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

٩٩ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : حَبَّجْتَ فَرَأَيْتَ أَعْرَابِيًّا يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ :

يَا خَيْرَ مَوْفُودٍ سَعَىٰ إِلَيْهِ الْوُفْدُ ^(٢) ، قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّتِي ، وَذَهَبَتْ مَنَّتِي ، وَأَنْتَ إِلَيْكَ بِذُنُوبٍ لَا تَغْسِلُهَا الْأَنْهَارُ ، وَلَا تَحْمِلُهَا الْبِحَارُ ، أَسْتَجِيرُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ ، وَبِمَفُوكٍ مِنْ عَقُوبَتِكَ ، ثُمَّ التَفْتُ فَقَالَ : « أَيُّهَا الْمَشْفِقُونَ ، ارْحَمُوا مَنْ شَمَلْتَهُ الْخَطَايَا ،

(١) أقله : حله . (٢) وفه إليه وعليه : قدم ، وهم وفود وفود كشمس وركع وأوفاد .

وَعَمَّرْتَهُ الْبِلَايَا ، اَرْحَمُوا مِنْ قَطْعِ الْبِلَادِ ، وَخَلَّفَ مَا مَلَكَ مِنَ التَّلَادِ . اَرْحَمُوا مِنْ وَبَحْتِهِ
الذَّنُوبِ ، وَظَهَّرْتَ مِنْهُ الْعُيُوبَ ، اَرْحَمُوا أُسِيرَ ضُرٍّ ، وَطَرِيدَ فَقْرٍ ، أَسْأَلُكُمْ بِالَّذِي
أَعْمَلْتُمُ الرِّغْبَةَ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لِي عَظِيمَ جُرْمِي » ، ثُمَّ وَضَعَ فِي حَلْقَةٍ
بِالْبَابِ خَدَّهُ وَقَالَ : ضَرَعَ خَدِي لَكَ ، وَذَلَّ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

عَظِيمُ الذَّنْبِ مَكْرُوبٌ مِنْ الْخَيْرَاتِ مَسْلُوبٌ
وَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا فَقْرٍ وَمَا عِنْدَكَ مَطْلُوبٌ

١٠٠ - دَعَاءُ أَعْرَابِي

وَسَمِعَ أَعْرَابِي بَعْرَفَاتٍ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ إِنْ هَذِهِ عَشِيَّةٌ مِنْ عَشَايَا مَحَبَّتِكَ ، وَأَحَدُ أَيَّامِ زُلْفَتِكَ ^(١) ، يَا مُؤْمِلٌ فِيهَا مِنْ
لَجَأٍ إِلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا ، بِكُلِّ لِسَانٍ فِيهَا يُدْعَى ، وَلِكُلِّ خَيْرٍ فِيهَا
يُرْجَى ، أَنْتَ الْغُصَاةُ مِنَ الْبِلَادِ السَّحِيْقِ ^(٢) ، وَدَعْتِكَ الْعُنَاةُ ^(٣) مِنْ شَعْبِ الْمُضِيْقِ ،
رَجَاءً مَا لَا خُلْفَ لَهُ مِنْ وَعْدِكَ ، وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِكَ ، أَبَدْتَ لَكَ وَجُوهَهَا
الْمَصُونَةَ ، صَابِرَةً عَلَى وَهْجِ السَّمَائِمِ ^(٤) ، وَبَرَدَ اللَّيَالِي ، تَرْجُو بِذَلِكَ رِضْوَانَكَ ،
يَا غَفَّارُ ، يَا مُسْتَزَادًا مِنْ نِعْمِهِ ، وَمُسْتَعَادًا مِنْ نِقَمِهِ ، اَرْحَمِ صَوْتَ حَزِينِ دَعَاكَ
بِرَفِيرٍ وَشَهِيْقٍ » .

ثُمَّ بَسَطَ كِلْتَا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ بَسَطْتُ يَدِيَّ إِلَيْكَ دَاعِيًا

(١) الزلقة : القرية . (٢) البعيد . (٣) العنائة جمع عنان من عنا : أي ذل وخضع ، وفق
رواية الأماي : « أنتك الضوامر من الفج العميق ، وجابت إليك المهارق من شعب المضيق » والضوامر
الإبل المهزولة ، والمهارق جمع مهرق (بضم الميم وفتح الراء) : الصحراء الملاء .

(٤) السائم جمع سوم كصبور : وهي الريح الحارة تكون غالباً بالنهار ، وفق رواية الأماي : « على لفتح
السائم ، وبرد ليل التمام » - وليل التمام (ككعباب) وليل تميمي : أطول ليالي الشتاء - وفق رواية
الأماي : « نعمتك تظاهرها على عند القفلة ، فكيف يأمن منها عند الرجمة » - وأصل القفل
(بالتحريك) : والرجوع من السفر : ويطلق على الابتداء في السفر كما هنا فتأولاً بالرجوع - .

فطالما كَفَيْتَنِي سَاهِيًا ، بنعمتك التي تظاهرتْ عَلَيَّ عِنْدَ الْغَفْلَةِ ، فلا أَيَّاسَ بِهَا عِنْدَ التَّوْبَةِ ، لا تَقْطَعْ رَجَائِي مِنْكَ لِمَا قَدَّمْتُ مِنْ اِقْتِرَافٍ ^(١) آثَامِكَ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا بِكَ ، فَهَبْ لِي يَا رَبُّ الصَّلَاحَ فِي الْوَلَدِ ، وَالْأَمْنَ فِي الْبَلَدِ ، وَالْعَافِيَةَ فِي الْجَسَدِ وَعَافِيَةَ مَنْ شَرَّ الْحَسَدَ ، وَمَنْ شَرَّ الدَّهْرَ النَّكَدَ ^(٢) .

(العقد الفريد ٢ : ٧٧ ، والأمل ٢ : ٢٢٣)

١٠١ - دَعَاءُ أَعْرَابِي

ودعا أعرابي فقال : « يَا عِمَادَ مَنْ لَا عِمَادَ لَهُ ، وَيَارُ كُنَّ مِنْ لَارُ كُنَّ لَهُ ، وَيَا بُحَيْرَ الضَّفَى ^(٣) ، وَيَا مُنْقِدَ الْمَلِكِي ، وَيَا عَظِيمَ الرَّجَاءِ ، أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ سَوَادُ اللَّيْلِ ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ ، وَضَوْءُ الْقَمَرِ ، وَشُعَاعُ الشَّمْسِ ، وَخَفِيفُ الشَّجَرِ ، وَدَوِيُّ الْمَاءِ ^(٤) يَا مُحْسِنِ ، يَا مُجْمِلِ ، يَا مُفْضِلِ ، لَا أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ بِخَيْرِهِمْ عِنْدَكَ ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلِ الْعَافِيَةَ لِي شِعَارًا وَدِنَارًا ^(٥) ، وَجَنَّةَ دُونَ كُلِّ بَلَاءٍ » .

١٠٢ - دَعَاءُ أَعْرَابِي

وقال الأعمى : سمعت أعرابياً في فلاة من الأرض ، وهو يقول في دعائه :

« اللَّهُمَّ إِنْ اسْتَفْغَرْتُ إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لِلْوَيْلِ ، وَإِنْ تَرَكْتُ الْاسْتِغْفَارَ مَعَ مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ لَعَجْزَ ، إِلَهِي كَمْ تَحَبَّبْتَ إِلَيَّ بِنِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنِّي ، وَكَمْ أَتَبَغَّضْتُ إِلَيْكَ بِذُنُوبِي ، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ ، سَبَّحَانَ مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ عَفَا ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى » .

(١) اقتراف الذنب : آثامه وفعله .

(٢) يقال : رجل نكد ككف وسبب وشمس وأنكد : شوم صر .

(٣) الضفَى جمع ضفيف . (٤) المعنى : أن هذه الكائنات تدعو المتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه .

(٥) الشعار : ما يلبس هل شعر الجسد ، والدنار : ما يلبس فوق الشعار ، والجنة : الرقاية .

١٠٣ - دعاء أعرابي

قال : وسمعت أعرابياً يقول في دعائه : « اللهم إن ذنوبي إليك لا تنزرك ؛ وإن رحمتك إياي لا تنقصك ، فاغفر لي مالا يضرك ، وهب لي مالا ينقصك » .

١٠٤ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً وهو يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك عمل الخائفين ، وخوف العاملين حتى أتتعم بترك النعم^(٤) طمعاً فيما وعدت . وخوفاً مما أوعدت اللهم أعذني من سطواتك ، وأجرني من نعماتك ، سبقت لي ذنوبٌ ، وأنت تغفر لمن يحب^(٥) ، إليك بك أنوسلُ ، ومنك إليك أفرُّ » .

١٠٥ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « اللهم إن قوما آمنوا بك بألسنتهم ، ليحققوا دماءهم ، فأدرَكُوا ما أمَلُوا ، وقد آمنَّا بك بقلوبنا ، لتُجيرنا من عذابك ، فأدرِك منا ما أمَلنا » .

١٠٦ - دعاء أعرابي

قال : ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة ، رافعاً يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربِّ أتراك معدِّبنا ، وتوحيدك في قلوبنا ؟ وما إخالك تفعل ! ولئن فعلت لَتَجْمَعُنَا مع قوم طالبا أبغضناهم لك » .

١٠٧ - دعاء أعرابي

وقال: سمعت أعرابياً يقول في صلاته : « الحمد لله حمداً لا يئلى جديده ، ولا يُحصى عدیده^(١) . ولا يُبلّغ حدوده ، اللهم اجعل الموت خيراً غائب ننتظره ، واجعل القبر خيراً بيّت نَعْمُرُه ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه . اللهم إن عينيّ قد أَعْرَوْرقتنا دموعاً من خشيتك ، فاغفر الزلّة ، وَعُدْ بحلمك ، على جهل منّ لم يَرَجُ غيرك » .

١٠٨ - دعاء أعرابي

وقال : رأيت أعرابياً أخذٍ بحلقتي باب الكعبة وهو يقول :
« سائلك عند بابك ، ذهبَت أيامه ، وَبقيت آثامُه ، وانقطعت شهوته ، وَبقيت تباَعته ، فارضَ عنه ، وإن لم ترضَ عنه فاعفُ عنه غير راضٍ » .

١٠٩ - دعاء أعرابي

قال : ودعا أعرابي عند الكعبة فقال : « اللهم إنه لاشرفَ إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، فأعطني ما أستعينُ به على شرف الدنيا والآخرة » .

١١٠ - دعاء أعرابي

عن طاوُس قال : « بينا أنا بمكة إذ دفعت إلى الحجاج بن يوسف ، فثنى لي وساداً فجلست ، فبينما نحن نتحدث إذ سمعتُ صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية ،

فقال الحجاج . على بالملسي . فأُتي به فقال : مَنْ الرَّجُلُ ؟ قال : مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ ^(١) . قال : ليس عن هذا سألتك . قال : نَعَمْ سألتني . قال : من أى البلدان أنت ؟ قال : من أهل اليمن . قال له الحجاج . فكيف خلفت محمد بن يوسف - يعنى أخاه . وكان عامله على اليمن - قال : خلفته عظيماً جسيماً خَرَّاجاً وَلاَ جَابِ . قال . ليس عن هذا سألتك ، قال : نَعَمْ سألتني ، قال : كيف خلفت سيرته في الناس ؟ قال : خَلَفْتُهُ ظُلُوماً غَشُوماً ^(٢) ، عاصياً للخالق ، مُطِيعاً للمخلوق ، فازور ^(٣) من ذلك الحجاج ، وقال . ما أقدمك لهذا ، وقد تعلم مكاتته مني ! فقال له الأعرابي : أفتراه بمكانة منك أعز مني بمكانتي من الله تبارك وتعالى ، وأنا وَاْفِدُ بَيْتِهِ ، وَقَاضِي دَيْنِهِ ، وَمُصَدِّقُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَوَجَمَ ^(٤) لها الحجاج ، ولم يُجِرْ له جواباً ^(٥) ، حتى خرج الرجل بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى الملتزم فتعلق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ، وإليك الأوذ ، فاجعل لي في اللّهُفِ إلى جوارك ، والرِّضَا بِضَمَانِكَ ، مندوحة ^(٦) ، عن منع الباخلين ، وَرَغْنِي عَمَّا فِي أَيْدِي الْمُسْتَأْثِرِينَ ، اللهم عُدْ بِفِرَاجِكَ الْقَرِيبِ ، ومعرفك . القديم ، وعادتكَ الْحَسَنَةَ .

قال طاوس : ثم اختفى في الناس ، فألقفته بعرفات فأثماً على قدميه وهو يقول : « اللهم إن كنت لم تقبل حجِّي وَنَصَبِي ^(٧) وَتَعَبِي ، فلا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَابِ عَلَى مَصِيبَتِهِ ، فلا أعلمُ مَصِيبَةً أَعْظَمَ مِنْ وَرْدِ حَوْضِكَ ، وانصرف محروماً من وجه رغبتك » .

(١) يقال « هو من أفناء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فنوكحيل أو فناكمصا .

(٢) ظلوماً . (٣) ازور : انصرف وماال : أى غضب منه . (٤) وجم : سكت على غيظ .

(٥) أى لم يردده . (٦) أى متسماً .

(٧) في الأصل « ونسبى » وأراه محرفاً عن « نصبى » ، ويؤيده قوله بعد « وتعبى » .

١١١ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي . رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهي عَجَّتْ^(١) إليك الأصواتُ ، بضروبٍ من اللغات ، يسألونك الحاجات
وحاجتي إليك إلهي أن تذكرني على طول البكاء ، إذا نَسِيتني أهلُ الدنيا ، اللهم هب لي
حَقك ، وأرضِ عني خلقك ، اللهم لا تُعَيِّنِي في طلب ما لم تقدره لي ، وما قدرته لي
فيسره لي » .

١١٢ - دعاء أعرابي

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة فقالت : « كان الله صاحبك
في أمرك ، وخليفتك في أهلك ، ووليُّ نُجْحِ طَلِبَتِكَ^(٢) ، امضِ مُصَاحِباً مَكْلُوءاً^(٣) ،
لا أشمت الله بك عدواً ، ولا أرى مُجِبِّيك فيك سوءاً » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٦ - ٧٩)

١١٣ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : خرجت أعرابية إلى مِنيّ فقَطَّعَ بها الطريقُ فقالت :

« يارب . أعطيت وأخذت ، وأنعمت وسلبت ، وكلُّ ذلك منك عدلٌ وفَضْلٌ ،
والذي عَظَّمَّ على الخلائق أمرك ، لا بَسَطْتُ لسانِي بِمَسْأَلَةٍ أَحَدٍ غيرك ، ولا بَدَلْتُ
رغبتِي إلا إليك ، يا قَرَّةَ أعين السائلين : أَغْنِنِي بِجُودٍ مِنْكَ أَتَجِبِحُ^(٤) في فَرَادِيسِ

(١) حج يمح بكسر العين وفتحها : صاح ورفع صوته .

(٢) النجح : النجاح ، والطلبية : ما طلبته . (٣) من كَلَاهُ كَنَمَهُ : حرمه .

(٤) تجبجج : تمكن في المقام والحلول ، وتجبجج الدار : توسطها ، والفرايس جمع فردوس

نعمته ، وأتقلب في رِواقِ نَضْرَتِهِ^(١) أَحْمِلُنِي مِنَ الرَّجْلَةِ^(٢) ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْعَيْلَةِ ،
وَاسْدُدْ عَلَيَّ سِتْرَكَ الَّذِي لَا تَحْرِقُهُ الرِّيحُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيحُ ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدَّعَاءِ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٨ ، والمعقد الفريد ٣ : ١٣٨)

١١٤ - أدعية شتى

ومات ابن لأعرابي فقال : « اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برِّي ، فهَبْ لي
ما قَصَّرَ فيه من طاعتك ، فإنك أجود وأكرم » .
(المعقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٨)

* * *

ووقف أعرابي في بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عَلَيَّ حَقًّا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَلَيَّ ،
وَالنَّاسَ تَبِعَاتٍ قَبْلِي فَتَحْمَلْهَا عَنِّي ، وَقَدْ أَوْجِبْتَ لِكُلِّ ضَيْفٍ قَرِيًّا^(٣) ، وَأَنَا ضَيْفُكَ
اللَّيْلَةَ ، فَاجْعَلْ قَرَايَ فِيهَا الْجَنَّةَ » .
(المعقد الفريد ٢ : ٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٨)

* * *

وقال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ : سمعت أعرابياً يقول عَشِيَّةَ عَرَفَةَ :
« اللهم لَا تَحْرِمْنِي خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدِي ، وَإِنْ لَمْ تَتَقَبَّلْ نَعْمِي وَنَصِي ،
فَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَافِ عَلَيَّ مَصِيبَتِهِ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال الأصبهاني : سمعت أعرابياً يقول لرجل : « أَطْعَمَكَ اللهُ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي لَهُ ،
فَقَدْ أَحْيَيْتَنِي بِقَتْلِ جَوْعِي ، وَدَفَعْتَ عَنِّي سُوءَ ظَنِّي ، فَحَفِظْتَ اللهُ عَلَيَّ كُلَّ جَنْبٍ ، وَفَرَّجَ
عَنكَ كُلَّ كَرْبٍ ، وَغَفَرَ لَكَ كُلَّ ذَنْبٍ » .
(المعقد الفريد ٢ : ٨٤)

* * *

(١) في الأصل « راووق » وهو المصفاة ، وأراه محرّفاً عن « رواق » وهو الفسطاط ، والنضرة :
النعمة والفضي . (٢) رجل كفرج فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه ، والرجلة بالفتح
ويكسر : شدة المشي ، والعيلة : الفقر .
(٣) قرى الضيف كرمي ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلّي وهو يقول : أسألك الغَفِيرَةَ^(١) ،
والناقة الغَزِيرَةَ ، والشرف في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة . (الأمال ٢ : ٢٣)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يدعو لرجل فقال : « جَنِّمِكَ اللهُ
الأمْرَيْنِ^(٢) ، وكفأك شرَّ الأجوفَيْنِ^(٣) ، وأذأك البرْدَيْنِ^(٤) » .
(الأمال ٢ : ٧٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أسألك التَّبَاءَ ، والنَّمَاءَ ، وطيب الإِنَاءِ^(٥) ،
وَحَطَّ الأعداءَ ، ورفع الأولياءَ » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

* * *

وقال أعرابي : « اللهم لَا تُنْزِلْنِي ماءً سَوْءَ ، فَأَكونَ امرأً سَوْءَ » وقال أعرابي -
« اللهم فِني عَثْرَاتِ الكرامِ » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

* * *

ووهب رجل لأعرابي شيئاً فقال : « جعل الله للمعروف إليك سبيلاً ، وللخير
عليك دليلاً ، وجعل عندك رِفْداً^(٦) جَزِيلاً ، وأبقاك بقاءً طويلاً ، وأبلاك^(٧)
بلاءً جميلاً » .

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يدعو وهو يقول : اللهم ارزقني مالا أَكْبِتُ^(٨)
به الأعداءَ ، وَبَنِينَ أَصُولَ بِهِمُ عَلَى الأَقْوِيَاءِ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

(١) الغفيرة : المغفرة . (٢) الأمران : الفقر والحرم ، أو الجوع والعري . (٣) الأجوفان :
الطن والفرج . (٤) البردان : برد العين وبرد العافية . (٥) الإثناء : الرزق ، من أتت الشجرة
أتوا وإتاء : طلع ثمرها ، أو بدأ صلاحها ، أو كثر حملها . (٦) الرغد : العطاء والصلوة .
(٧) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، أبلت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .
(٨) كبته : صرعه وأذله ، ورد العدو بغيظه .

ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدوا حسودا ، ونَجِّعْ بك صديقا ودودا ، وسلِّطْ عليك هما يُضْنِيكَ ، وجاراً يُؤْذِيكَ » .

(المقصد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « أعوذ بك من الفَوَاقِرِ ^(١) والبواقر ، ومن جارِ السوء ، في دار المُقَامَةِ وَالظَّعْنِ ، ومما يَنْكُسُ رأس المرء ، وَيُغْرِى به لثام الناس » .

* * *

وقال أعرابي : « أعوذ بك من سَقَمٍ ، وعداوة ذى رَحِمٍ ودَعْوَاهِ ، ومن فاجِرٍ وَجَدَّوَاهِ ^(٢) ، وعمل لا ترضاه » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

* * *

ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كَبَّتَ اللهُ كلَّ عدوك إلا نَفْسَكَ » .

ودعا أعرابي فقال : « اللهم هب لي حَقَّكَ ، وأرض عني خَلْقَكَ » .

وقال أعرابي : « اللهم إنك أمرتنا أن نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا ، وقد ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا فاعف عنا » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

وقال أعرابي : « منحكم الله مِنْجَةَ لَيْسَتْ بِجَدَاءٍ ، ولا نَكَدَاءٍ ، ولا ذات داء » .

وقال أعرابي : « اللهم إنك حَبَسْتَ عَنَا قَطْرَ السَّمَاءِ ، فَذَابَ الشَّحْمُ ، وَذَهَبَ اللَّحْمُ

وَرَقَّ الْعِظْمُ ، فَارْحَمْ أُنَيْنَ الْآئِنَةِ ، وَحَنِينَ الْحَائِنَةِ ، اللهم ارحم تحيرها في مَرَاتِعِهَا ، وَأُنَيْنَهَا فِي مَرَابِضِهَا » .

* * *

(١) للفواقير جمع فاقرة : وهى الداهية ، والبواقر جمع باقرة : وهى الفتنة الصالحة للألفة الشاقة للمصا .

(٢) الجدوى : العطية .

وحج أعرابي فقال : « اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائياً فقرّبه ، وإن كان قريباً فيسرّه » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٢٨)

* * *

ومات ولد لرجل من الأعراب فصلى عليه ، فقال : « اللهم إن كنت تعلم أنه كريم الجدين ، سهل الجدين ، فاغفر له وإلا فلا » .
(الأمان ١ : ٢٠٢)

* * *

وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بيلة لا أخت لها » أي لا تمش بعدها .
(الأمان ١ : ٢١٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أذلّ في عزك ، أو أضامّ في سلطانك ، أو أضطهدّ الأمر إليك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

* * *

وقال الأصمى : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقني عمّل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أنعم بترك التعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت » .
وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد ، بأعناق الولائد^(١) ، وأرسخه على هامته كرسوخ السجيل^(٢) ، على هام أصحاب الفيل » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

(١) الولائد جمع وليدة : وهي الصبية . (٢) السجيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى :

« وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » وأبابل أي جماعات .

١١٥ - نوادر وملح لبعض الأعراب

«غزا أعرابي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : ما رأيتَ مع رسولِ الله
في غزاتك هذه ؟ قال : وَضَعْنَا نِصْفَ الصَّلَاةِ^(١) ، وَأَرْجُو فِي الْغَزَاةِ الْآخَرَى أَنْ يَضَعَ
النِّصْفَ الْبَاقِي .»

* * *

وَدَخَلَ أَعْرَابِي الْمَسْجِدَ ، وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا ، فَقَامَ يَصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ ،
قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمَحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعْنَا أَحَدًا ، « فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
لَقَدْ تَحَجَّرَتْ^(٢) وَأَسِعَا يَا أَعْرَابِي .»

* * *

وَخَرَجَ الْحِجَابُ مَتَّصِدًا بِالْمَدِينَةِ ، فَوَقَفَ عَلَى أَعْرَابِي يَرَعَى إِبْلَاءَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ :
يَا أَعْرَابِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ سِيرَةَ أَمِيرِكُمُ الْحِجَابُ ؟ قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : غَشُومٌ ظَلُومٌ ،
لَا حَيَاةَ لِلَّهِ ، فَقَالَ : فَلِمَ لَا تَشْكُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : فَأَظْلَمُ
وَأَعْشَمُ ! فَيُنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا حَاطَتْ بِهِ الْخَيْلُ ، فَأَوْمَأَ الْحِجَابُ إِلَى الْأَعْرَابِيِّ ، فَأَخَذَ
وَحَلَّ ، فَلَمَّا صَارَ مَعَهُ ، قَالَ : مِنْ هَذَا ؟ قَالُوا لَهُ : الْحِجَابُ ، فَحَرَّكَ دَابَّتَهُ حَتَّى صَارَ
بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، ثُمَّ نَادَاهُ يَا حِجَابُ ، قَالَ : مَا تَشَاءُ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : السِّرَّ الَّذِي بَيْنِي
وَبَيْنَكَ أَحِبَّ أَنْ يَكُونَ مَكْتُومًا ، فَضَحِكَ الْحِجَابُ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ .

* * *

« وَخَرَجَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ مَتَنَزِّهًا بِالْأَنْبَارِ ، فَأَمْعَنَ فِي نَزْهَتِهِ ، وَانْتَبَذَ مِنْ أَصْحَابِهِ ،
فَوَافِي خِيَابِ الْأَعْرَابِيِّ ، فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مِنْ كِنَانَةَ ، قَالَ : مِنْ أَى
كِنَانَةَ ؟ قَالَ : مِنْ أَبْغَضِ كِنَانَةَ إِلَى كِنَانَةَ ، قَالَ : فَأَنْتَ إِذْنُ مِنْ قَرِيشٍ ؟ قَالَ :

(١) يعني صلاة النحر . (٢) أي ضيقت ما وسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك .

نعم ، قال : فمن أى قريش ؟ قال : من أبغض قريش إلى قريش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بمجازة .

* * *

وولّى يوسف بن عمر الثَّقَفِيَّ صاحب العراق أعرابياً على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فعزله ، فلما قدم عليه ، قال له : يا عدوّ الله ، أكلت مال الله ، قال الأعرابي : فقال مَنْ آكُلُ إِذَا لَمْ آكُلْ مَالَ اللَّهِ ؟ لقد راودتُ إبليس أن يُعطيني فلساً واحداً فما فعل ، فضحك منه وخلّى سبيله .

* * *

وأخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعه بسوط قال : يارب شكراً ، حتى ضربه سبعمائة سوط ، فلقىهُ أشعب ، فقال له : تدري لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، قال : وهذا في القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يارب لا شكراً فلا تزدني أسأت في شكري فاعف عني
باعد ثواب الشاكرين مني

* * *

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة ، وقد دجنت (١) عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت : يا أبا جعفر هذه دجاجة لي كنت أدجنها وأعلمها من قوتي ، وألمسها في آناء الليل ، فكأنما ألمس بنتي زلت عن كبدي ، فندرتُ لله أن

(١) دجن الحمام والغاة وغيرهما كنصر : ألقت البيوت .

أدفعها في أكرم بقعة تكون ، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفنها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها بخمسة درهم .

* * *

وسُبح أعرابي وهو يقول في الطواف : « اللهم اغفر لأمي » ، فقيل له : مالك لاتذكر أباك ؟ قال : أبي رجل يَحْتال لنفسه ، وأما أمي فبأسة ضعيفة .

* * *

« وقال أبو زيد : رأيت أعرابياً كأن أنفه كوز ، من عظمه ، فرآنا نضحك منه ، فقال : ما يُضحِكُكم ؟ فوالله لقد كنت في قوم ، ما كنت فيهم إلا أفتس ! » .

* * *

« وجرى بأعرابي إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته ، وهو يقول : « هاؤم أقرءوا كتابي » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله شر من يوم القيامة ، إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي ، وأنتم جتم بسيئاتي وتركتم حسناتي » .

* * *

« واشترى أعرابي غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه يبول في الفراش ، قال ، هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فليبول فيه » .

* * *

ومر أعرابي بقوم وهو ينشد ابناً له ، فقالوا له ، صفة ، قال : كأنه دُنِينِر ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي ، وعلى عنقه جُعل^(١) ، فقالوا ، هذا الذي قلت فيه دُنِينِر ؟ قال ، القَرْنَبِي^(٢) في عين أمها حسناء .

* * *

(١) الجمل : الحرياء .

(٢) القرنبي : دويبة من خشاش الأرض فوق الحنفاء إذا مصها أحلقتبضت فصارت مثل النكرة .

وقيل لأعرابي ، ما يمنعك أن تغزو؟ قال ، والله إني لأبغض الموت على فراشي ، فكيف أن أمضى إليه رَكْضًا؟ .

* * *

« وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعاً يريد أهله ، لقيه ابن عمّه له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال ، اعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق ، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسن هذا يارب ! تأمرنا بعمارة بيتك أنت ، وتخرّب بيوتنا ! » .

* * *

وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت في بعض الطريق عطيت راحلتها ، فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت ، « يارب أخرجنى من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي ولا بيتك ! » .

* * *

وعرّضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم ينج على واحد منهم قتل ولا صلّب ، وفيهم أعرابي ، أخذ يبول في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ خرينا وبلنا لا تخاف عقابا

* * *

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « والله لن آثرتموه لتمسكن منه بدُنَابِي (١) عيش أغبر » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال « أرى عليك قَطيْفَة من نَسج أضراسك » .

* * *

وقال أعرابي : « اللهم إني أسألك مِيتة كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، أكل بَدَجًا ^(١) ،
وشرب مِشْعَلًا ^(٢) ، ونام في الشمس ، فمات دَفَانًا شِيعَانَ رِيَّانًا » .

* * *

وقيل لأبي المِخْشِ الأعرابي : أَيَسْرُكُ أَنْك خَلِيفَةٌ ، وَأَنْ أُمَّتَكَ حُرَّةٌ ،
قال : لا والله ما يسرني ، قيل له : ولم ؟ قال ، « لأنها كانت تذهب الأمة ،
وتضيع الأمة » .

* * *

وحضر أعرابي سَفْرَةَ سليمان بن عبد الملك ، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه ، فقال له
الحاجب مما يليك فَكُلْ يا أعرابي ، فقال : من أجذب انتجع ، فشقَّ ذلك على سليمان
وقال للحاجب : إذا خرج عنا فلا يَعدُّ إلينا .

* * *

وشهد بعد هذا سَفْرَتَهُ أعرابي آخر ، فرمّ إلى ما بين يديه أيضًا ، فقال له الحاجب ،
مما يليك فكل يا عرابي ، قال : من أخصب تحيّر ، فأعجب ذلك سليمان ، فقربه
وأكرمه وقضى حوائجه .

« وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالفألوذج ، جعل يُسرِع فيه ،
فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ، فقال : بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقًا
هنيئًا ، ومُزْدَرَدًا ^(٣) لَيِّنًا ، وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه ، فضحك
سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي ؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ ، قال :
كذبوك يا أمير المؤمنين ، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل ! » .

* * *

« وحضر سفرة سليمان أعرابي ، فنظر إلى شَعْرَةٍ في لُقْمَةِ الأعرابي ، فقال : أرى

(١) البنج : وله الضمان .

(٢) المشعل : شيء من جلود له أربع قوائم ينبه فيه ، وشرب مشعلا أي شرب مافيه .

(٣) ازدرده : ابعلمه .

شعرة في لعمتك يا أعرابي، قال، وإني لتراعيني مُرَاعاة من يُبَصِّر الشعرة في لعمتي !
وَاللَّهِ لَا وَاکْتَلْتِكَ أَبَدًا»، فقال : استرها يا أعرابي ، فَإِنِهَا زَلَّةٌ ، وَلَا أَعُودُ لِمِثْلِهَا .

* * *

وقال الأصمعي : قلت لأعرابي : أَتَهْمَزُ^(١) إِسْرَائِيلَ ؟ قال : إني إِذْنُ لِرَجُلٍ سَوْءٍ ،
قلت له : أَفَتَجْرُ فِلَسْطِينَ ؟ قال : إني إِذَا لِقَوِيَّ .

* * *

وسمع أعرابي إماماً يقرأ : « وَلَا تُنْكِحُوا^(٢) الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » - قرأها
بفتح التاء - فقال : وَلَا إِنْ آمَنُوا أَيْضًا لَمْ نَنْكِحْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُ يَلْحَنُ وَلَيْسَ هَكَذَا
مُيْقَرًا ، فَقَالَ : « أَخْرَوْهُ قَبْضَهُ اللَّهُ ! لَا تَجْمَعُوهُ إِمَامًا ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » .
(المعقده الفرهد ٢ : ١٠٠ - ١٠٥)

* * *

وخطب أعرابي فلما أمجله بعض الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ،
قال : « أما بعد ، بغير ملالٍ لذكرك الله ، ولا إيثاري غيره عليه ، فإننا نقول كذا ، ونسأل
كذا » فراراً من أن تكون خطبته بترأء وشوْهاء^(٣) .
(البيان والتبيين ٢١٢ : ٢١٥)

* * *

ودفعوا إلى أعرابية عِلْكَا^(٤) لَمْ تُضْفِهْ ، فلم تفعل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت :
« مَا فِيهِ إِلَّا تَعَبُ الْأَضْرَاسِ ، وَخَيْبَةُ الْحَنْجَرَةِ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

* * *

(١) من معاني المنز : الفنز . (٢) أي تزوجوا .
(٣) وكانوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد «البراء» ويسمون
التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «الشوْهاء» .
(٤) للملك : البيان (بالضم) .

وقيل لأعرابي : عند مَنْ تحب أن يكون طعلمك ؟ قال : « عند أم صبي راضع ،
أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذى رحم قاطع » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٩)

• • •

وقال أعرابي :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهرِ الماء ، والنوم ، وأم عمرو ،
لما خَشِيتُ من مَضِيقِ القبرِ » .

(البيهق والتبيين ٢ : ١٠١)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن » ،
قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهداً تُنبذ » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٦٩)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وُدُسْرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا^(١) » ، قلها بفتح الكاف ، فقال الأعرابي : « لا يكون » ،
فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابي : « يكون » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) ذات الألواح والُدسر : هم السفينة ، والُدسر ما تشد به الألواح من المسامير وغيرها جمع دسار
ككتاب ، بأعيننا : بهرأى منا أى محفوظة ، وقد جرى كُفر بالبناء لفظاً ، أى الكافرين : أفرقوا
حقابهم .

الباب الرابع

في

خطب النكاح

١ - خطبة قريش في الجاهلية

روى الجاحظ قال :

كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ^(١) فلانة ، وفلانٌ بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ، لك ما سألتَ ولنا ما أعطيتَ » .

٢ - خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله الحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب فيما عنده ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذي خالق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه . ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نسباً لا حقاً ، وأمرأاً مُفْتَرَضاً ، وَوَشَّجَ^(٢) به الأرحام ، وألزمه الأنام ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره :

(١) ذكر فلان فلانة ذكراً (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها .

(٢) وشجت العروق والأغصان كورعد : اشتبكت والتفت وتداخلت ، ورجم واشجة ووشيجة :

مشتبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجاً ، وفي الأصل : « وشيج به الأرحام » وأراه محرفاً .

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » ، فَأَمَرَ اللَّهُ يَجْرَى إِلَى قَضَائِهِ ، وَلِكُلِّ قَضَاءٍ قَدْرٌ ، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلٌ « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

ثم إن ربِّي أمرني أن أزوجه فاطمة من علي بن أبي طالب ، وقد زوجتها إياه على أربعمئة مثقال فضة ، إن رضيت بذلك عليّ .

٣ - خطبة الإمام عليّ - كرم الله وجهه

وخطب الإمام عليّ كرم الله وجهه حين تزوج بالسيدة فاطمة رضي الله عنها فقال :
« الحمد لله الذي قرَّب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعده بالجنة من يتقيه ، وقطع بالنار عدد من يعصيه . أحمداء بجميع محامده وأياديه ، وأشكره شكر من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومصوره ومُنشيه ، ومميتة ومُحْيِيه ، ومقرِّبه ومنجيه ، ومُثْبِتُه ومجازه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله صلاة تُزلفه وتُدنيه ، وتعزِّه وتُعليه ، وتشرفه وتجتبيه .

أما بعد : فإن اجتماعنا مما قدره الله تعالى ورضيه ، والنكاح ما أمر الله به وأذن فيه ، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم قد زوجني فاطمة ابنته على صدق أربعمئة درهم وثمانين درهماً ، ورضيت به فأسأله ، وكفى بالله شهيداً » .

٤ - خطبة عتبة بن أبي سفيان

خطب عثمان بن عتبة بن أبي سفيان إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته ، فأقعه عليّ فخذه ، وكان حدثاً فقال :

« أقرب قريب ، خطب أحب حبيب ، لا أستطيع له ردّاً ، ولا أجد من إسعافه بدءاً ، قد زوجتكها وأنت أعزُّ عليّ منها ، وهي ألصقُ بقلبي منك ، فأكرِّمها يعذبُ

عَلَى لِسَانِي ذِكْرُكَ، وَلَا تَهْنِئْهَا فَيَصْفُرَ عِنْدِي قَدْرُكَ، وَقَدْ قَرَّبْتُكَ مَع قُرْبِكَ، فَلَا تُبْعِدْ قَلْبِي مِنْ قَلْبِكَ» .

٥ - خطبة شبيب بن شيبه

وقال العتيبي: زَوْجُ شَيْبَةَ ابْنَةِ بِنْتِ سِوَارٍ^(١) الْقَاضِي، فَقَلْنَا: الْيَوْمَ يَعْْبُ عِبَابُهُ^(٢)، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَكَلَّمُ فَقَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ مِنَّا وَمِنْكُمْ، بِنَا وَبِكُمْ^(٣)، تَمَنَعْنَا مِنَ الْإِكْتَارِ، وَإِنْ فَلَانًا ذَكَرَ فَلَانَةٌ» .

٦ - خطبة الحسن البصري

«وكان الحسن البصري يقول في خطبة النكاح، بعد الحمد والثناء عليه:

«أما بعد، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المنقطعة، والأنسابَ المتفرقة، وجعل ذلك في سنة من دينه، ومنهاج واضح من أمره، وقد خَطَبَ إِلَيْكُمْ فَلان، وعليه من الله نِعْمَةٌ، وهو يبذل من الصَّدَاقِ كَذَا، فَاسْتَخِيرُوا اللَّهَ، وَرُدُّوا خَيْرًا، يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ» .

٧ - خطبة ابن الفقير

وقال العتيبي: حضرت ابن الفقير خطب على نفسه امرأةً من باهلة فقال:

«وما حسنٌ أن يمدح المرء نفسه ولكن أخلاقاً تدمُّ وتمدح
وإن فلانة ذُكرت لي» .

(١) هو سوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها - انظر البيان والتبيين ١ : ١٦١ - وقرأ في أمالي السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثاً قريباً للجاحظ عنه في وقاره وضبطه من نفسه ولمسكه من حركته -

(٢) لأن والدي المروسين خطيبان . (٣) أي المعرفة منا بكم ؛ والمعرفة منكم بنا .

٨ - خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :
« قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة » ، قال : « جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً ،
فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة » .

٩ - خطبة أخرى له

وحدث محمد بن عبيد الله القرشي عن أبي المقدم قال :
كانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة ، ومن الخطوب إليه التقصير ^(١) ،
فشهدت محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته أم عمر
بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن عبد الوليد بكلام جاز الحفظ ، فقال عمر :
« الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد : فإن الرغبة
منك دعتك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك
كريمته ، واختارك ولم يختَر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله : إمساكٌ بمعروفٍ
أو تسريحٍ بإحسان » .

١٠ - خطبة بلال

وخطب بلال إلى قوم من خشم لنفسه ولأخيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أنا بلال وهذا أخي ، كنا ضالّين فهدانا الله ، عبدين فأعتقنا الله ، فقيرين
فأغنانا الله ، فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن ترّدونا فالاستعانة بالله » .

(١) وكذلك روى الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة في خطبة النكاح أن يطيل
الخطاب ، ويقصر المحبب » والحصرى في زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصبغى : « كانوا يستحبون من
الخطاب إل الرجل حرمة الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن الخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١١ - خطبة خالد بن صفوان

وزوج خالد بن صفوان مولاة من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت !
قال : أدعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن صفوان ، فقال :
« أما بعد : فإن الله أعظم وأجل من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبين ، وأنا
أشهدكم أي زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ - خطبة أعرابي

وخطب الفضل الرقاشي إلى قوم من بني تميم فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام أعرابي
منهم فقال :
« تَوَسَّلَتْ مَجْرُومَةٌ ، وَأُولِيَتْ بِحَقِّ ، وَاسْتَنْدَتْ إِلَى خَيْرٍ ، وَدَعَوَتْ إِلَى سُنَّةٍ ،
فَقَرَضْتُكَ مَقْبُولٌ ، وَمَا سَأَلْتَ مَبْذُولٌ ، وَحَاجَتُكَ مَقْضِيَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .
قال الفضل : لو كان الأعرابي حمد الله في أوّل كلامه ، وصلى على النبي صلى الله
عليه وسلم لفصحني يومئذ .»

١٣ - خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوجه ابنته من علي بن موسى الرضا ،
فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلسته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أوّلَى بالكلام ، فقال :
« الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ،
وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً
وأنزله وحياً ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى ،

وأمرتها أربعمئة درهم ، اقتداءً بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واتمها إلى ما درج إليه السلف ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

وخطب رجل إلى قوم ، فأبى بمن يخطب له ، فاستفتح بحمد الله ، وأطال ، وصلى على النبي عليه الصلاة والسلام ، وأطال ، ثم ذكر البدءَ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، واقتصَّ ذِكْرَ الْقُرُونِ ، حتى ضَجِرَ مَنْ حَضَرَ ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما أَسْمُكَ أَعَزَّكَ اللَّهُ ؟ فقال : والله قد أُسِّيتُ أُسْمِي من طول خطبتك ، وهي طالقٌ إن تزوجتها بهذه الخطبة ، فضحك القوم ، وعقدوا في مجلس آخر .

(مفتاح الأفكار ص ٦٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ ، ولعمدة القريه ٢ : ١٦٣)

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٥ ،

٢١٧ - ٢ : ٥٠ : ١٣٠ - ٣ : ٢٢١ ، وزهر الآداب ٢ : ٣٠ ، ٣١)

الباب الخامس

في

خطب من أرتج عليهم

ونوادر طريفة لبعض الخطباء

روى الجاحظ قال : صعدَ عثمان بن عفَّانَ رضَى اللهُ تعالى عنه المنبرَ ، فأرْتَجَ

عليه ، فقال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالا ، وأتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم

إلى إمام خطيب » .

* * *

وروى ابن عبد ربه قال : أول خطبة خطبها عثمان بن عفَّانَ أرْتَجَ عليه ، فقال :

« أيها الناس : إن أوَّلَ كلِّ مرَّةٍ كَبَّ صعب ، وإن أعشَ نأتِكم الخطبُ على

وجهها ، وسيجعل اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْرًا إن شاء اللهُ » .

* * *

ولما قدِمَ يزيد بن أبي سُفيان الشام والياً عليها لأبي بكر ، خطب الناس فأرْتَجَ عليه ،

فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرْتَجَ عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرْتَجَ عليه ، فقال :

« يا أهل الشام ، عسى اللهُ أن يجعل من بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، ومن بعدِ عِيٍّ بيانًا ،

وأتم إلى إمامٍ فاعل^(١) ، أَحْوَجُ منكم إلى إمامٍ قائل^(٢) » ، ثم نزل ، فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه .

* * *

وكان يزيد بن المهلب وَلِيَّ نَابِتِ قُطْنَةَ^(٣) بعض قرى خراسان^(٤) ، فلما صعد المنبر يوم الجمعة ، قال : الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فنزل وهو يقول :

فَالَا أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنِّي بَسْفِي إِذَا جَدَّ الْوَعْيَى نَخَطِيبُ
فَقِيلَ لَهُ : « لَوْ قَلَّتْهَا فَوْقَ الْمَنْبَرِ ، لَكُنْتَ أَخْطَبَ النَّاسِ » .

* * *

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما وَلِيَ ، فَحَصَرَ فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي كُنْتُ أَعَدَدْتُ مَقَالًا أَقُومُ بِهِ فِيكُمْ ، فَحَجَبْتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ^(٥) ، وَأَتَمُّ إِلَى إِمَامٍ عَدَلٍ ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ خَطِيبٍ ، وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

* * *

وَصَعِدَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ يَوْمًا الْمُنْبَرِ بِالْبَصْرَةِ لِيَخْطُبَ فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ :

(١) في عيون الأخبار : « إمام عادل » . (٢) وفي أمالي السيد المرتضى أن هذا القول يروي لعثمان بن عفان ، وفي روايتها : « إمام فعال » و « إمام قوال » بصيغة المبالغة ، وفي الأغاني أنه يروي لثابت قطنة ، وفيه : « أمير فعال » و « أمير قوال » .

(٣) هو ثابت بن كعب ، ولقب قطنة لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه ، فذهب بها في بعض حروب الترك ، فكان يحمل عليها قطنة ، وهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية ، وكان في صحابة يزيد بن المهلب ، وكان يوليه أعمالاً من أعمال الثغور ، فيحمد فيها مكانه لكفائته وشجاعته ، وقد مال إلى قول المرجئة ، وله قصيدة في الإرجاء ، انظر ترجمته في الأغاني ج ١٣ ص ٤٧ .

(٤) وفي رواية : أنه خطب على منبر سجستان ، وفي رواية الطبري : « فخطب الناس فحصر فقال : من يطع الله ورسوله فقد ضل » وأرتج عليه فلم ينطق بكلمة ، فلما نزل عن المنبر قال البيت المذكور .

(٥) الآية الكريمة : « وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ يُحْشَرُونَ » .

« أيها الناس : أما بعد ، فإن هذا الكلام يَجِيءُ أحياناً ، وَيَعزُبُ أحياناً ، فَيَسِيحُ عند حَجِيثِهِ سَيِّئُهُ ^(١) ، وَيَعزِزُ عند عَزْوِهِ طَلَبَهُ ، ولربما كَوَّبَ فَأَبَى ^(٢) ، وَعَوَّلَجَ فَنَأَى ، فَالتَّائِي ^(٣) لِحِيَّتِهِ ، خَيْرٌ مِنَ التَّعَاطَى لِأَبِيَّتِهِ ، وَتَرَكَهُ عند تَنَكُّرِهِ ، أَفْضَلُ مِنَ طَلَبِهِ عند تَعَدُّرِهِ ، وَقَدْ يَخْتَلِجُ ^(٤) مِنَ الجُرَىءِ جَنَانُهُ ، وَيَنْقَطِعُ مِنَ الذَّرْبِ ^(٥) لِسَانُهُ ، فَلَا يُبْطِرُهُ ذَلِكَ وَلَا يَكْسِرُهُ ، وَسَاعُودٌ فَأَقُولُ إِنْ شَاءَ اللهُ » ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَهَارَى حَصِرٌ أَبْلَغَ مِنْهُ .

* * *

وَصَعِدَ أَبُو العَنْبَسِ مِنْبَرًا مِنْ مَنَابِرِ الطَّائِفِ ، فَحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
أَمَا بَعْدُ ، فَأُرتِجُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَتَدْرُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ :
فَمَا يَنْعَنِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ، ثُمَّ نَزَلَ ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي الجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ ، وَصَعِدَ الْمُنْبَرِ
وَقَالَ : أَمَا بَعْدُ ، أُرْتِجُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَتَدْرُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ،
قَالَ : فَمَا حَاجَتِكُمْ إِلَيَّ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ مَا عَلِمْتُمْ ؟ ثُمَّ نَزَلَ ؛ فَلَمَّا كَانَتِ الجُمُعَةُ الثَّلَاثَةَ ،
قَالَ : أَمَّا بَعْدُ : فَأُرتِجُ عَلَيْهِ ، قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ؟ قَالُوا :
بَعْضُنَا يَدْرِي ، وَبَعْضُنَا لَا يَدْرِي ، قَالَ : فَلْيُخْبِرِ الَّذِي يَدْرِي مِنْكُمْ الَّذِي لَا يَدْرِي ،
ثُمَّ نَزَلَ .

* * *

وَوَلَّى الْيَمَامَةَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَعْرِفُ بِاللَّدْنَدَانِ ، فَلَمَّا صَعِدَ الْمُنْبَرِ أُرْتِجَ عَلَيْهِ ،
فَقَالَ :

(١) السيب : العطاء ، وفي رواية : « فيتسبب عند حجيثه سيبه » .

(٢) وفي رواية : « فعمسا » أى اشتد وصعب . (٣) تأتي له : ترفق ، وفي رواية :

« فالتائي بالنون . (٤) يضطرب .

(٥) الحاد اللسان : وفي رواية : « ويرتج على البلغ لسانه » ، وفي أخرى : « وقد يرتج على

اللسن لسانه ، ولا ينظره للقول إذا اتسع ، ولا يعيسر إذا امتنع ، ومن لم تمكن له الخطوة ، فخليق أن
تعلن له النبوة ، وفي أخرى : « وقد يتعاصى على للذرب لسانه ، ثم لا يكابر للقول إذا امتنع ، ولا يرد
إذا اتسع ، وأولى الناس من عذر على النبوة ، ولم يؤاخذ على الكبوة ، من عرف ميدانه ، اشتهر إحسانه
وساعود وأقول » .

« حَيَّاَ اللهُ هَذِهِ الْوُجُوهُ ، وَجَعَلَنِي فِدَاءَهَا ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ طَائِفِي بِاللَّيْلِ أَنْ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَنَا نِي بِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا هُوَ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

* * *

وخطب عبد الله بن عامر^(١) بالبصرة في يوم أضْحَى ، فَأُتِيَ عَلَيْهِ ، فَكَثَّ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ :

« وَاللَّهِ لَا أَجْمَعُ عَلَيْكُمْ عِيًّا وَكُؤُومًا ، مِنْ أَخْذِ شَاةٍ مِنَ السُّوقِ فَهِيَ لَهُ ، وَثَمْنُهَا عَلَيَّ » .

* * *

قال الجاحظ : ولما حَصَرَ عبد الله بن عامر على منبر البصرة ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَاد : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ عَامَّةَ مَنْ تَرَى ، أَصَابَهُ أَكْثَرُ مِمَّا أَصَابَكَ » .

* * *

وكان سعيد بن بَحْدَلِ السَّكَلَبِيِّ عَلَى قِنَاسِرِينَ^(٢) ، فَوُتِبَ عَلَيْهِ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا ، وَبَاعَ لِابْنِ الزَّيْبِرِ^(٣) ، فَلَمَّا قَعَدَ زُفَرٌ عَلَى الْمَنْبَرِ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدَ الْغَادِرِ الْفَاجِرِ » ، وَحَصَرَ ، فَضَحِكَ النَّاسُ مِنْ قَوْلِهِ .

* * *

وصعد عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ^(٤) الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَى جَمَاعَةَ النَّاسِ حَصَرَ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ هَؤُلَاءِ وَيُسْقِيهِمْ » .

* * *

وصعد رَوْحُ بْنُ حَاتِمِ الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ شَفَّنُوا^(٥) أَبْصَارَهُمْ ، وَفَتَحُوا أَسْمَاعَهُمْ نَحْوَهُ ،

(١) انظر هامش الجزء الأول ص ٣٥٥ . (٢) كورة بالشام . (٣) انظر هامش الجزء

الثاني ص ١٤١ .

(٤) كان عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

(٥) شفة كضربة وعلمه شفونا: نظر إليه بمؤخر عينيه، أو رفع طرفه ناظرا إليه كالمتعجب أو كالكاره

بَحَصِرَ قَتَالَ : « نَكَسُوا رءُوسَكُمْ ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، فَإِنَّ الْمَنِيرَ مَرَّ كَبَّ صَعْبٌ ، وَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ فَتَنَحَّ قُفْلٌ تَيْسَّرَ » .

* * *

وكان عبد ربه اليشكريّ عاملاً لعيسى بن موسى^(١) على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأرّج عليه ، فسكت ثم قال : « والله إني لأكون في بيتي فتجىء على لساني ألف كلمة ، فإذا قلتُ على أعودكم هذه جاء الشيطان فحأها من صدري ، ولقد كنتُ وما في الأيام يوم أحبُّ إلىَّ من يوم الجمعة ، فصرتُ وما في الأيام يوم أبغضُ إلىَّ من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .

* * *

وأرّج على معن بن زائدة ، فضرب المنبر برجله ، ثم قال : « فتى حرُوب ، لا فتى منابر » .

* * *

وحدث عيسى بن عمر قال :

خطب أميرٌ مرةً فانقطع فجعل ، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك ولفَّهم^(٢) ، وفيهم يرَبُوعِيٌّ جَلْدٌ ، فقال : اخطبوا ، فقام واحد فمرَّ في الخطبة ، حتى إذا بلغ « أما بعدُ » قال : أما بعد ، أما بعد ، ولم يدبرِ ما يقول ، ثم قال : فإن امرأتي طالقٌ ثلاثاً لم أُرِدْ أَنْ أُجَمِّعَ^(٣) اليوم فمنعتني ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقي ونظر فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلمحني ببصرك أيضاً ! وقال أحدهم : رأيتُ القَرَّاقِرَ^(٤) من السفن تجري بيني وبين الناس ، وصعد اليربوعيّ فخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدري ما أقول ، ولا فيم أقتموني ، أقول ماذا ؟ »

(١) هو عيسى بن موسى ابن أخى المنصور وكان أمير الكوفة . (٢) لفَّهم : جمعهم .

(٣) جمع الناس بالتشديد : أى شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيدوا : أى شهدوا العيد .

(٤) القَرَّاقِر : جمع قرقور كصفور : وهى السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

فقال بعضهم : قل في الزيت ، فقال : « الزيت مبارك^(١) ، فكلوا منه وادّهنوا » .
قال : فهو قول الشُّطَّار^(٢) اليوم ، إذا قيل لم فعلت ذا ؟ فقل في شأن الزيت ،
وفي حال الزيت .

* * *

وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد
حصراً وقال : « الحمد لله الذي يرزق هؤلاء » وبقي ساكناً فأنزلوه . وصعد آخر ،
فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة^(٣) رجل فقال :
« اللهم العن هذه الصلعة » .

* * *

وقيل لوزاع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال :
« لولا أن امرأتى لعنبا الله حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، وأنا أشهدكم
أنها منى طالق ثلاثاً » .

* * *

ودعى أيوب بن القريّة لكلام ، فاحتبس القول عليه ، فقال : « قد طال السمر ،
وسقط القمر ، واشتد المطر ، فماذا يُنتظر ؟ » فأجابه فتى من عبد القيس فقال :
« قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق^(٤) ، فلينطق من نطق » .

* * *

() يشير إلى الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة ، زيتونه لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضي
ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » .

(٢) الشطار جمع شاطر : وهو من أعيان أهله خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدعارة وأصحاب النوادر
والتنكيت والفسكاهات . (٣) الصلعة : موضع الصلع .

(٤) لثق يوماً كفرح : ركبت ربحه وكثر نداءه .

وجاء في أمالي السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بني العباس - وأظنه الرشيد - صعد المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجمت ، فخصر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ^(١) مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .

• • •

وروى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان والياً على قوم فقال لهم : « أيها الناس : إني إن لم أكن فارساً طيباً ^(٢) بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه ، وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال :

وما عاجلاتُ الطير يُدنين للفتى رشاداً ، ولا من ربّينهم يخيب ^(٣)
وربّ أمورٍ لا تضيرك ضيرةً وللقلب من مخشّاتهن وجيب ^(٤)
ولا خيرَ فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
وفي الشكّ تفریط وفي الحزم قوة ويخطى الفتى في حدسه ويصيب ^(٥)

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم ينصب للشعر ، بل ليحمد الله تعالى ،

(١) وكانوا يطلون أصنامهم بالطيب والزعفران ويفلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . (٢) ماهراً حاذقاً .

(٣) كانت العرب تومن بالطير الصانع ، وهو ماولاك ميامنه ، بأن يمر من ميسرك إلى ميامنك ، وتتشام بالبارح ، وهو ماولاك مياسره ، بأن يمر من ميامنك إلى ميسرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رميه إلا بأن تتصرف له ، وربما كان أحدهم يبيع الطير ليطير ، فيعتمدها ، وعاجلات الطير هي أن يخرج الإنسان من منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فأمر به أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها فقد رانت أي أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثاني مذموم .

(٤) خشية خشية ومخشاة : خافه ، ووجب القلب وجيباً : خفق واضطرب . (٥) الحدس : الظن والتخمين ، والأبيات لضبان بن الحارث الجرجي (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلِلْقُرْآنِ ، فَقَالَ : أَمَا لَوْ أَنْشَدْتُمْ
شِعْرَ رَجُلٍ مِنْ كَلْبٍ لَسَرَّكُمْ ، فَكُتِبَ إِلَيَّ يَزِيدُ بِذَلِكَ فَعَزَلَهُ ، وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ
أُرَاكَ جَاهِلًا أَحْمَقَ ، وَلَمْ أَحْسَبْ أَنْ الْحَقَّ يَبْلُغُ بِكَ إِلَى هَذَا الْمَبْلَغِ ، فَقَالَ لَهُ : أَحْمَقُ مِنِّي
مَنْ وَلاَنِي !

* * *

وخطب عتّاب بن ورقاء^(١) فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال الله تعالى

في كتابه :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جِرَّ الذُّيُولِ^(٢)

* * *

وخطب يوما فقال : هذا كما قال الله تبارك وتعالى : « إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ،
وكل ما هو آتٍ قريبٌ » قالوا له : « إن هذا ليس من كتاب الله » قال : « ما ظننتُ
إلا أنه من كتاب الله » .

* * *

وخطب وكيع بن أبي سود^(٣) بخُرَّاسان فقال : « إن الله خلق السموات
والأرض في ستة أشهر » فقيل له : « إنها ستة أيام » فقال : « وأبيك لقد قُلتها
وإني لأستقلها ! » .

* * *

وصعد المنبر فقال : « إن ربيعة لم تزل غَضَابًا عَلَى اللَّهِ مَذْبُوحًا نَبِيَّهُ مِنْ مُضَرَ ،

(١) انظر الجزء الثاني ص ٤٣٣ و ٤٤٥ . (٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وذلك أن مصعب بن الزبير
بمد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دعا امرأته - وهي بنت للنعمان بن بشير - إلى البراءة من المختار ،
فأبت فقتلها ، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل جهنم غادة مطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن قد درهما من قتييل
كتب القتل والقَتالُ علينا وعلى الغانيات جر للذيول

والمطبول كمصفور : المرأة القمعية الجميلة الممتلئة الطويلة المتق . (٣) انظر الجزء الثاني ص ٣١٢

ألا وإن ربيعة قومٌ كُشِفَتْ^(١) ، فإذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل في مناخرها ، فإن فرسا لم يُطعن في منخره إلا كان أشدَّ على فارسه من عدوه^(٢) .

* * *

وضربت بنو مازن ألتات بن يزيد الجاشعي ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالب أبو الفرزدق فقال : « يا قوم كونوا كما قال الله : لا يعجز القوم إذا تعاونوا » .

* * *

وخطب عدى بن زياد الإيادي ، فقال : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٣) » ، قالوا له : « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون » ، قال : من قاله فقد أحسن » .

* * *

وروى الطبري أن عبد الله بن الزبير كان ولَّى أخاه عبيدة على المدينة ، ثم نزعها عنها ، وكان سبب عزله إياه أنه خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيتم ما صنَع^(٤) بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسمى مقوم الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا هو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والى اليمامة^(٥) ، فقال : « إن الله لا يُقَارُّ^(٦) عباده على المعاصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » ، فسمى مقوم ناقة الله .

* * *

(١) كشف جمع أكشف : وهو من يهزم في الحرب ، ومن لا ترس معه في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه . (٢) وروى الطبري أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : « إذا لقيتم الخيل فاطعنوها في مناخرها ، فإنه إن يطعن فرس في نخوته إلا أدبر أورى بصاحبه » . (الطبري ٤٦ : ٧) . (٣) الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » .

(٤) يشير إلى محمود قوم صالح عليه السلام — انظر هامش الجزء الثاني ص ٣٥٢ .

(٥) لعلها المدينة . (٦) أى لا يقهرهم .

وخطب فَبَيْصَةَ ، وهو خليفة أبيه^(١) على خراسان ، وأتاه كتابه ، فقال :
« هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهلٌ لأن أطيعه ، وهو أبى وأكبر منى . »

* * *

ودعى مُصَعب بن حَيَّان ليخطب في نكاح خُصير فقال : « لَتَمُنُوا موتاكم
شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية ، عَجَل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟ » .

* * *

وخطب أمير المؤمنين الموالى - وهكذا لَقَبَهُ - خطبة نكاح خُصير ، فقال :
« اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشرك بك » .

* * *

وخطب قُتَيْبَةَ بن مُسَلِّم على منبر خُراسان ، فسقط القضيب من يده ، فتفأل له
عدوه بالشرِّ ، واغتمَّ صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال : « ليس الأمر على ما ظن
العدو ، وخاف الصديق^(٢) ، ولكنه كما قال الشاعر : »

فَأَلَقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ^(٣)

* * *

وتكلم صَعَصَعَةَ عند معاوية فَعَرِقَ ، فقال معاوية : بهرِّك^(٤) القول ! فقال
صعصعة : إن الجياد نَضَّاحَةٌ بالماء .

* * *

وشخص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ إلى هِشَام بن عبد الملك ، فتكلم فقال هشام :
هامات من خلف مثل هذا ! فقال الأبرش الكلبي : ليس هناك ، أما تراه يرشِّح
جبينه لضيق صدره ! قال يزيد : ما لذلك رَشَّحَ ، ولكن لجلوسك في هذا الموضع .

* * *

(١) هو المهلب بن أبي صفرة ، وكان والياً على خراسان - انظر الجزء الثاني ص ٢٨٥ .

(٢) وفي رواية : وكأساء للصديق ، وسر العدو . (٣) النوى : الغربة البعيدة .

(٤) أى غلبك .

وقال عبيد الله بن زياد : « نِعِمَّ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ ، لَوْلَا قَفَقَعَةُ الْبَرِيدِ ، وَالتَّشْرِيفُ
لِلخُطْبِ » .

* * *

وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجَلِ عَلَيْكَ الْمَشِيبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : كَيْفَ
لَا يَعْجَلُ عَلَيَّ ، وَأَنَا أَعْرَضُ عَقْلِي عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟ «
» أَوْ قَالَ : شَيْبِنِي صَعُودَ الْمَنَابِرِ وَالخَوْفَ مِنَ الْحَنِّ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٦٢ - ١٦٣ و ٣ : ٢٥٦ ، وعبود الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و
٢٥٩ ، وأمال السيد المرتضى ٤ : ١٩ - ٢٢ ، والأغانى ١٣ : ٤٧ ، ١٧ : ١١١ ، وتاريخ الطبري
ج ٧ : ص ٩٠ ، ج ٨ : ١٨٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ - ٢ : ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، والأمال ١ : ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٧ ، وشرح العميون
ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، والصناعتين ص ٢١) .

بدء الخطب وختامها

قال ابن قُتَيْبَةَ في عيون الأخبار :

تبعث خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها :
« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،
ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، ووجدت
في بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته » ، ووجدت
كل خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١)

وروى ابن عبد ربه في العقد قال :

« وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته :
اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك » .
وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : « اللهم
لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرّة ، ولا تجعلني من الغافلين » .
وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبي قد عظمت
وجلّت أن تُحصَى ، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني » .

(العقد الفريد ٢ : ١٣٣ ، ١٤٢)

تم بحمد الله

فهرس ذيل الجهرة

الباب الأول

في خطب الأندلسيين والمغاربة

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
١٦٢	خطبة عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهرى
١٦٣	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده قنسرين
١٦٤	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنته بفتح سرقسطة
١٦٤	تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر
١٦٦	عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضاً
١٦٧	يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه
١٦٨	وفاء الوزير بن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز
١٦٩	خطبة منذر بن سعيد البلوطى فى الاحتفال بقدم رسل ملك الروم
١٧٣	خطبة أخرى له
١٧٣	أحد حساد الرمادى الشاعر والمنصور بن أبى عامر
١٧٧	ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح
١٧٨	دفاع ابن الفخار عن القاضى الوحيدى محضرة ابن ناشفين
١٧٩	موعظة ابن أبى رندقة الطرطوشى للأفضل بن أمير الجيوش
١٨٠	خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين
١٨٣	مقال لسان الدين ابن الخطيب فى الحضر على الجهاد
١٨٤	ماخاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبى الحسن المرينى
١٨٧	وصية لسان الدين لأولاده
٢٠١	خطبة وعظية له
٢٠٨	وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه
٢١٧	خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف
٢١٩	القاضى عياض التى ضمنها سور القرآن

رقم الصفحة	المخطبة أو الرصية
٢٢٢	خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن
٢٢٤	« الكنعمي التي ضمنها سور القرآن أيضاً

الباب الثاني

في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

٢٢٦	خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة
٢٣٠	وصية أعمى من الأزد لشاب يقوده
٢٣١	« رجل لآخر وقد أراد سفراً
٢٣١	« « لابنه وقد أراد التزوج
٢٣٢	« بعض العلماء لابنه
٢٣٢	« لبعض الحكماء
٢٣٢	« أخرى
٢٣٣	« «
٢٣٣	عظة لبعض الحكماء
٢٣٤	« نصيحة «
٢٣٤	كلمات شتى لبعض الحكماء
٢٣٥	رجل من العرب والحجاج
٢٣٦	أحمد الوافدين على عمر بن عبد العزيز
٢٣٦	كاتب وأمير
٢٣٧	وصف الهلباجة
٢٣٨	بعض البلغاء يصف رجلاً
٢٣٩	خمسة جوار من العرب يصفن خيل آبائهن
٢٤١	رجل من العرب يصف مطراً

الباب الثالث

في نثر الأعراب

٢٤٤	قولهم في الوعظ والتوصية
٢٤٤	مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
٢٦٠	خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك
٢٦٠	مقام أعرابي بين يدي هشام
٢٦١	أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد
٢٦٢	أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر
٢٦٣	أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري
٢٦٣	» » معمر بن زائدة
٢٦٤	خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام
٢٦٥	» » » » الجامع بالبصرة
٢٦٥	صورة أخرى
٢٦٦	» »
٢٦٦	أعرابي يستجدي
٢٦٦	» »
٢٦٧	» »
٢٦٧	» »
٢٦٨	أعرابية تستجدي
٢٦٨	أعرابي يستجدي
٢٦٨	» »
٢٦٩	» »
٢٦٩	» »
٢٧٠	أعرابية تستجدي
٢٧٠	أعرابي يستجدي
٢٧١	» »
٢٧١	» »
٢٧١	» »
٢٧١	» »
٢٧١	» »
٢٧٢	» »
٢٧٢	» »

- ٢٧٢ أعرابي يسأل رجلا حاجة له
٢٧٣ قولهم في بكاء الموتي
٢٧٣ أعرابية تبكي ابنها
٢٧٤ حديث امرأة سكنت البادية قريبا من قبور أهلها
١٧٥ حديث امرأة مات ابنها بين يديها
٢٧٦ قولهم في الشكوى
٢٧٦ أعرابي يشكو حائه
٢٧٧ كلمات شتى في الشكوى
٢٨٢ قولهم في العتاب والاعتذار
٢٨٣ قولهم في المدح
٢٩٢ قولهم في الذم
٢٩٩ قولهم في الغزل
٣٠٤ قولهم في الوصف
٣٠٤ أعرابي يصف مطرا
» » » ٣٠٥
» » » ٣٠٦
٣٠٧ ثلاثة غلطة من الأعراب يصفون مطرا
٣٠٩ أعرابي يصف مطرا
» » » ٣١٠
» » » ٣١١
» » » ٣١٢
» » » ٣١٢
» » » ٣١٣
٣١٤ أعرابية تصف مطرا
» » » ٣١٤
٣١٥ » » أرضا

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
٣٢٤	قولهم في الدعاء	٣١٦	رائد يصف أرضاً جدبة
٣٢٤	دعاء أعرابي	» » »	» » » ٣١٦
» »	» » ٣٢٦	» » »	» » » ٣١٧
» »	» » ٣٢٦	٣١٧	أعرابي يصف أرضه ووالده
» »	» » ٣٢٧	٣١٨	» » » بلدا
» »	» » ٣٢٨	٣١٩	» » » أشد للبرد
» »	» » ٣٢٨	٣١٩	» » » لبلا
» »	» » ٣٢٩	٣١٩	» » » ناقة
» »	» » ٣٢٩	٣٢٠	» » » خيلا
» »	» » ٣٢٩	٣٢٠	» » » »
» »	» » ٣٢٩	٣٢٠	» » » »
» »	» » ٣٣٠	٣٢٠	» » » فرساً
» »	» » ٣٣٠	٣٢١	» » » خاتماً
» »	» » ٣٣٠	٣٢١	» » » أطيب الطعام
» »	» » ٣٣٠	٣٢١	» » » السويق
» »	» » ٣٣٢	٣٢٢	» » » الجمال
» »	» » ٣٣٢	٣٢٢	أبو الخش يصف ابنته
» »	» » ٣٣٢	٣٢٢	أعرابي يصف بنيه
٣٣٣	أدعية شتى	٣٢٣	أعرابي يصف أخويه
٣٣٧	نوادير وملح لبعض الأعراب		

الباب الرابع

في خطب النكاح

٣٤٤	خطبة قريش في الجاهلية	٣٤٤	» النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة
٣٤٥	» الإمام علي كرم الله وجهه	٣٤٥	» عتبة بن أبي سفيان

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة

خطبة شبيب بن شيبه	٣٤٦
الحسن البصرى	» ٣٤٦
ابن الفقير	» ٣٤٦
عمر بن عبد العزيز	» ٣٤٧
أخرى له	» ٣٤٧
بلال	» ٣٤٧
خالد بن صفوان	» ٣٤٨
أعرابي	» ٣٤٨
المأمون	» ٣٤٨

الباب الخامس

٣٥٠ في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء

٣٦١ بدء الخطب وختامها

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى

وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب

في عصور العربية الزاهرة